بلوغ الأرب

في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه
محمد بهجة الأثري

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بلوغ الأرب

في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي

البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الشأن ، العظيم السلطان ، صرف الدهور بقدرته والأكوان ، وأبهرت حكمته العقول والأذهان ، يخلق ما يشاء كما يشاء ، من غير تعريف ولا بيان . والصلاة والسلام على رسوله محمد الذى استخلصه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعزّ الأرومات[1] مغرساً ، فكان سيد ولد عدنان وقحطان ، وهو النبيّ الأميّ ، العربيّ الهاشميّ ، الذى أنقذنا بنور وجوده من ظلمات جهل الجاهلين إلى ذروة الفضل والعرفان ، وعلى آله وأصحابه هداة كل حيران ، المفصحين عن الحق المبين ، بأفصح لسان ، وأعذب بيان ، والمتفحصين عن أحوال الأمم الغابرين ، ليزدادوا إيماناً على إيمان ، وعلى من تبعهم بإحسان ، ما تعاقب الملوان[2] ، وكرّ الجديدان[3] .

(أما بعد) : فإن العبد الفقير ، إلى لطف مولاه الغزير ، محمود شكرى ابن عبد الله بن محمود الألوسى البغدادى ، كان الله تعالى له خير معين ، وأحسن هادى ، ووفقه سبحانه لشكر مزيد النعم والأيادى . يقول : لا يخفى على من عرف أحوال الأمم ، ووقف على ما كان عليه أجيال بنى آدم ، أنّ أمة العرب على اختلافها ، وتفاوت أصولها وأصنافها ، كانت ممتازة على غيرها من النـاس ، متقدمةً فى الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجنـاس ، فإنّ الله تعالى قد شرفها برسوله ، وفضلها بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ،

---

(١) الارومة بالفتح وتضم : الأصل

(٢) الملوان : الليل والنهار او طرفاهما

(٣) الجديدان والأجدان : الليل والنهار

واللفظ البليغ الموجَز[١] ، والسؤال الشافى ، والجواب الكافى ، فالعرب أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ، وهم ليوث الحرب ، وغيوث الكرب والرِّفْد[٢] فى الجَدْب ، وهم أهل الشِّيمة[٣] والحياء ، والكرم والوفاء ، والمروءة والسخاء ، أحكمتهم التجارب ، وأدبتهم الحكمة فقضوا منها المآرب ، ذلت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإنجاز[٤] ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بحسن الفعال ، ولبسوا من المجد ثوباً سندسى الطراز[٥] ، يغسلون من العار وجوهاً مسودّة ، ويفتحون من الرأى أبواباً منسدّة ، كأنّ الفهم منهم ذو أذنين ، والجوابَ ذو لسانين . يضربون هامات الأبطال ، ويَعْرِفون حقوق الرجال ، إلى أنْ تلاعبت بهم أيدى الأقدار ، وتفرقوا فى أقصى الأنحاء والأقطار ، وإنى لم أزل أتشوق للوقوف على آثارهم ، والاطلاع على شريف سيرهم وأخبارهم ، وأتمنى أن أظفرَ بكتابٍ يشتمل على أحوالهم قبل الإسلام ، ويحتوى على ما كانوا عليه فى جاهليتهم من العوائد والأحكام ، فلم أرَ ذلك فيما بين الأيدى من الكتب والمجامع ، ولا أنه قد طرق بابَ سمع من المسامع ، مع أنّ المتقدمين ، من علماء المسلمين ، لم يهملوا مثل هذا المهم ، ولم يتركوا قولاً لقائل فى كل علم ، وهم الذين امتدّ باعهم فى جميع الفنون ، وحسنت منّا بهم الظنون . غير أنّ مرور الأعصر والأعوام ، أدى بآثارهم إلى الضياع ، وأودى بها فى سائر البقاع ، وكان كثيراً ما يختلج فى القلب ،

---

(١) الموجز : القصير السريع الوصول الى الفهم ، يقال وجز اللفظ بالضم وجازة فهو وجيز ويتعدى بالحركة والهمزة فيقال وجزته من باب وعد وأوجزته وبعضهم يقول وجز فى كلامه واوجز فيه ايضا (٢) الرفد بالكسر العطاء والصلة ، والجدب : المحل (٣) الشيمة : الغريزة والطبيعة والجبلة وهى التى خلق الانسان عليها والمراد بها ههنا الاخلاق الحسنة (٤) يقال نجز الوعد نجزا : تعجل ويعدى بالهمزة والحرف فيقال انجزته ونجزت به اذا عجلته (٥) سندسى الطراز السندس بالضم رقيق الديباج معرب والطراز بالكسر علم الثوب معرب .

ويخطر بالبال ، أنْ أتطفل بجمع كتابٍ يستوعب أحوالَهم على سبيل الإجمال ، غير أنّ قلة البضاعة تصدنى عن الإقدام ، وتثبّطنى[1] عن طَرْق باب هذا المرام ، حتى اتفق بعض الدواعى التى لم أَر للتخلف عنها سبيلا ، ولم أجد للإعراض عن هذا الغرض مقيلا ، فشرعت فى المقصود ، وبذلت فيه غاية المجهود لما يترتب على ذلك من المصالح العمومية ، وما يستنتجه إن شاء الله تعالى من الفوائد الكلية ، وقد التزمتُ طريق الاختصار ، وتجنبت عن التطويل والإكثار ، ومع ذلك فإنى معترف بالقصور والنقصان ، وإنى لست من فرسان هذا الميدان ، ولله تعالى درّ الأقدار ، فإنها تسوق المرء إلى ما ليس له فيه اختيار .

إن المقادير إذا ساعدتْ   ألحقت العاجز بالحازم

(وقد سميت) ما جمعته وكتبته فى هذا الباب وحررته : « بلوغ الأرب ، فى معرفة أحوال العرب » ومن الله تعالى أستمد الإعانة والتوفيق ، والهداية إلى أقوم طريق ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٣١٤

---

(١) ثبطه عن الأمر عوقه وبطأ به عنه كثبطه فيهما

تعريف العرب وبيان أنواعهم وأقسامهم

العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين[1] بين الأمم بالبيان فى الكلام ، والفصاحة فى المنطق ، والذّلاقة[2] فى اللسان ، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة ، لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « الثيب تُعْرِبُ عن نفسها » والبيان سمتهم بين الأمم وستمر بك قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أنْ يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضى لذلك فاختار منهم وَفْداً أوفده عليه ، وكان من خبره واستغراب ما جاؤا به من البيان ما هو معروف ، وهم أمة قديمة فقد كانوا بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام فى عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح ، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم[3] الله تعالى بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل فى آخرين ممن قرب نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرنخشذ بن سام ، ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو شالخ بن عابر أعالِمَ من بين ولده واختص الله تعالى بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ما قصه القرآن ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور وتخلف ابنه إسمعيل مع أمه هاجر بالحجر قُرباناً[4] لله تعالى ومرت بها رفقة من جرهم فى تلك المفازة فخالطوها ونشأ إسمعيلُ بينهم وربى فى أحيائهم وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان

(١) موسومين السمة العلامة (٢) الذلاقة : البلاغة فى المنطق (٣) ابادهم : اهلكهم (٤) قربانا بالضم مايتقرب به الى الله تعالى من ذبح وغيره وهو فعلان من القربة .

أبوه أعجميا ، ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله تعالى إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز فآمن كثير منهم واتبعوه ثم عظم نسله وكثر وصار أباً لجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إياد وعَكّ وشعوب نِزَار وعدنان وسائر ولد إسمعيل وهم العرب التابعة للعرب ، ثم انقرض أولئك الشعوب فى أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة فى الإسلام وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلّب عليهم ففسدت لغة أعقابهم فى آماد[١] متطاولة وبقى خلفهم أحياء بادين[٢] فى القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة وقبائل المشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنُوبة[٣] والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسِّنْد وكِرْمان وخُراسان أمم لا يأخذها الحصر والضبط قد كاثروا أمم الأرض .

وقد حصر ابن خلدون فى كتاب « العبر » أجيالَ العرب من مبدأ الخليقة إلى عهده فى أربع طبقات متعاقبة ، وذكر ما كان فى كل طبقة منها من عصور وأجيال ودول وأحياء وبدأ أولا بذكر :

الطبقة الأولى

وهم العرب العاربة وذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة وسمى أهلَ هذا الجيل العربَ العاربةَ إما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال : ليل أليَل وصوم صائم . أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم ، ثم :

---

(١) آماد جمع امد محركة ؛ قال الراغب فى المفردات : يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى الغاية والمبدا ويعبر به مجازا عن سائر المدة ؛ والأمد المنتهى من الاعمار .

(٢) بدا القوم بداء خرجوا الى البادية .

(٣) النوبة بالضم بلاد واسعة للسودان بجنوب الصعيد منها بلال الحبشى .

الطبقة الثانية

وهم العرب المستعربة من بنى حمير بن سبأ وذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك والدولة باليمن فى التبابعة وأعقابهم وإنما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهى اللغة العربية التى تكلموا بها فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم : استنوق الجمل واستحجر الطين . وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدمَ الأمم فيما يعلم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة ، ثم ذكر :

الطبقة الثالثة

وهم العرب التابعة للعرب من قُضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر وبدأ بقضاعة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوى فى آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بن حجر آكل المُرار(١)، ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوى بالشام فى بنى جَفْنة بالبلقاء والأوس والخزرج بالمدينة النبوية ، ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة فى قريش ، ثم ما شرفهم الله تعالى به وجيل الآدميين أجمع من النبوة وذكر الهجرة والسيرة النبوية وغير ذلك ، ووجه تسمية هذا الجيل بذلك الاسم ظاهر ، ثم ذكر :

الطبقة الرابعة

وهم العرب المستعجمة ومن له ملك بدوى بالمغرب والمشرق ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم وقد أطنب رحمه الله تعالى الكلام فى ذكر هذه الطبقات الأربع حيث كانت موضوع

---

(١) المرار بالضم شجر مر من أفضل العشب واضخمه اذا اكلتها الابل قلصت مشافرها فبدت اسنانها ولذلك قيل لجد امرىء القيس آكل المرار لكشر كان به والناس يقرؤنه بالكسر وهو غلط فننبه .

كتابه ومدار بحثه وهذا الكتاب مما تداوله الأيدى فلا حاجة فى إتعاب البنان بنقل ما ذكره .

***

تعريف من يطلق عليه لفظ العرب

إن لفظ العرب فى الأصل اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف : أحدها أن لسانَهم كان اللغةَ العربية . الثانى أنهم كانوا من أولاد العرب . الثالث أن مساكنهم كانت أرضَ العرب وهى جزيرة العرب التى هى من بحر القُلْزُم إلى بحر البصرة ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن فى دارهم ولا تدخل فيها الشام ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين المبعث وقبله فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب والى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ، ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لاتعرف عامتهم غيره أو يعرفونه وغيره مع ما دخل فى لسان العرب من اللحن وهذه غالب مساكن الشام وعراق ومِصْرَ والأَنْدَلُس ونحو ذلك وأرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً ومنها ما العجمية كثيرة فيهم وغالبة عليهم كبلاد الترك وخراسان وإرْمِينِيَة وأذربيجان ونحو ذلك فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربى ابتداء وإلى ما هو عربى انتقالا وإلى ما هو عجمى ، وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام : قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً ، وقوم من نسل العرب بل من نسل بنى هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدها ، وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم سواء كانوا عرب الدار واللسان أو فى أحدها ، وكذلك انقسموا فى اللسان ثلاثة أقسام : قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمةً وقوم يتكلمون لفظاً لا نغمة وهم المتعربون الذين لم يتعلموا اللغة ابتداء

من العرب وإنما اعتادوا غيرها ثم تعلموها كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلا وهذان القسمان منهم من تغلب عليه العربية ومنهم من تغلب عليه العجمة ومنهم من قد يتكافأ فى حقه الأمران إما قدرة وإما عادة .

***

الفرق بين العرب والأعراب فى المعنى

ذهب بعضُ أهل اللغة الى الترادف بين اللفظين وأنهما بمعنى واحد ، قال الجوهرى فى كتاب الصحاح : العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار والنسبة إلى العرب عربى وإلى الأعراب أعرابى والذى عليه العرف العام إطلاق لفظ العرب على الجميع ومثل ذلك فى القاموس وغيره من كتب اللغة المعتبرة ، وذكر أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهير بابن أبى غدّة فى كتابه نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب : أن العرب هم أهل الأمصار والأعراب سكان البادية وفى العرف يطلق لفظ العرب على الجميع وقال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية فى كتاب (الاقتضاء) : إن لفظ الأعراب هو فى الأصل اسم لبادية العرب فإن كل أمة لها حاضرة وبادية فبادية العرب الأعراب ، وقد يقال : إن باديةَ الروم الأرمنُ ونحوهم ، وباديةَ الفرس الأكرادُ ونحوُهم ، وباديةَ الترك التترُ ونحوُهم ، قال : وهذا والله أعلم هو الأصل وإن كان قد يقع فيه زيادة ونقصان ، وقال أهل التفسير : الأعراب صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ماروى عن سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخص من الواحد فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقا والأعراب سكان البادية منهم ولذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال فريق منهم : العرب سكان المُدن والقُرى والأعراب سكان الباديةَ من هذا الجيل أو مواليهم فعلى هذا القول هما متباينان ويفرق بين الجمع والواحد بالياء فيهما ، فيقال للواحد عربى وأعرابى والجماعة عرب وأعراب وكذا أعاريب وذلك كما يقال للواحد

مجوسى ويهودى ثم تحذف الياء فى الجمع فيقال المجوس واليهود واستعمالُ البلغاء يوافق قولَ المفسرين فى الـكتاب الـكريم عند بيان أحوال منافقى العربِ إثر بيان منافقى أهل المدينة من سورة التوبة (وجاء المُعَذِّرون[1] من الأعراب ليؤذن لهم) وفى آية أخرى (وممن حولـكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق[2] لاتعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) وفى أخرى (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) .

والمؤرخون على القول بأن الأعراب قسم من العرب ، فى كتاب «العبر» عند القول فى أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم : اعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لـكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء[3] والأثاث[4] مع أوبارها وأشعارها

---

(١) المعذرون بتشديد الذال المكسورة : المعتذرون الذين لهم عذر وبه قرا سائر قراء الأمصار ومعنى المعتذرون الذين يعتـذرون كان لهم عذر او لم يكن وهو هنا شبيه بان يكون لهم عذر ، وقال ابو الهيثم فى تفسير هذه الآية : معناه المعتذرون يقال عذر يعذر عذارا فى معنى اعتذر ويجوز عذر الرجل يعذر فهو معذور واللغة الأولى اجودهما قال ومثله هدى يهدى هداء اذا اهتدى ، قال الله عز وجل : امن لايهدى الا ان يهدى ، قال الأزهرى : وقد يكون المعذر بالتشديد غير محق وهم الذين يعتذرون بلا عذر فالمعنى المقصرون بغير عذر فهو على جهة المفعل لأنه الممرض والمقصر يعتذر بغير عذر ، وقراها ابن عباس (رض) بالتخفيف من اعذر وكان يقول : والله اهكذا انزلت . وكان يقول : امن الله المعذرين بالتشديد كان المعذر عنده انما هو غير المحق وبالتخفيف من له عذر (٢) مردوا على النفاق ، قال الفراء : يريد مرنوا عليه كقولك تمردوا . وقال ابن الأعرابى المرد التطاول بالكبر والمعاصى . وفى المفردات الراغب : هو من قولهم شجرة مرداء اى لا ورق عليها ، اى انهم خلوا عن الخير ، وليس بشىء .

(٣) الدفء : ما استدفىء به من الاكسية والاخبية وغير ذلك .

(٤) الاثاث : متاع البيت واحدها اثاثه .

ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حللا متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارة القيظ[١] تارة وصبارة البرد أخرى وانتجاعاً[٢] لمراعى غنمهم ، وارتياداً[٣] لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختصوا لذلك بسكنى الإقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه فى المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحارى برقة وتلولها وقسطنطينية وإفريقية وزاغا والمغرب الأقصى والسوس لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف[٤] والتلول والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم فى فصل الربيع وزخرف الأرض لرعى الكلأ[٥] والعشب فى منابتها والتنقل فى نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات فى سنتهم من حبوبها ، وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرّات من أضرارهم بإفساد السابلة[٦] ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيدا إلا ماحاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلاطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون فى فصل الخريف إلى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم فى رمالها وما أحاط به عملهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفء ماشيتها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء مابين الإقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجاناً على رءوسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق

---

(١) حمارة القيظ شدته وصبارة البرد شدته أيضا .
(٢) انتجاعا : طلبا الكلا فى موضعه .
(٣) ارتيادا اى طلبا .
(٤) الارياف : جمع ريف بالكسر ارض فيها زرع وخصب .
(٥) الكلأ مهموز : العشب رطبا كان أو يابسا والجمع الكلأ مثل سبب واسباب وموضع كالىء ومكلىء فيه الكلاء .
(٦) السابلة من الطرق المسلوكة والقوم المختلفة وأسبلت الطريق كثرت سابلتها .

وقوم يلفون منها الليتَ [١] والأخدَعَ [٢] قبل لبسها ثم يتلثمون بها تحت أذقانهم من فضائها وهم عرب المغرب . . حاكوا بها عمائم زِناتةَ [٣] من أمم البربر قبلهم وكذلك لقنوا منهم فى محل السلاح اعتقال الرماح الخطية [٤] وهجروا تنكب القسى [٥] وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين . انتهى المقصود من نقله وهذا هو المشهور ، وعليه من أهل اللغة الجمهور .

***

معنى الجاهلية وما تطلق عليه

الجاهلية الزمان الذى كثر فيه الجهال وهى ما قبل الإسلام وقيل : أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقاً وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث « وعن ابن خالويه » أن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة « قال العسقلانى » فى شرحه على البخارى : وهذا هو الغالب ومنه (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ثم قال : وأما جزم النووى فى عدة مواضع فى شرح مسلم أن هذا هو المراد حيث أتى ، ففيه نظر فإن هذا اللفظ وهو الجاهلية يطلق على ما مضى والمراد ما قبل إسلامه وضابط آخره فتح مكة انتهى . وتفصيلُ الكلام أن لفظ الجاهلية قد يكون اسماً للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة وقد يكون اسماً لذى الحال فمن الأول قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى ذَرّ « إنك امرؤ فيك جاهلية » وقول عُمَرَ رضى الله تعالى عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أنْ أعتكف ليلة ، وقول عائشةَ رضى الله تعالى عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء . وقولهم : يارسول الله كنا

---

(١) الليت بالكسر : صفحة العنق (٢) الأخدع عرق فى المحجمتين وهو شعبة من الوريد (٣) زناتة بالكسر : قبيلة بالمغرب منها الزناتى المنجم (٤) الرماح الخطية : منسوبة الى خط اسم ارض ، قال الاصمعى : لااعلم الام نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين اليها تنسب الرماح الا ان يقال ان سفن الرماح ترفا الى هذا الموضع فقيل الرماح خطية (٥) تنكب القسى بكسر القاف : جمع قوس وهو يذكر ويؤنث ، وتنكبها القاها على منكبه .

فى جاهلية وشر ، أى فى حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فإن الجاهلية وإن كانت فى الأصل صفة ولكن غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً ومعناه قريب من معنى المصدر . وأما الثانى فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلى وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطاً فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضاً كما قال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفُثْ ولا يجهل ». ومن هذا قول عَمْرو بن كُلْثُوم فى قصيدته :

ألا لا يَجْهَلَنَّ أحدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أى لا يسفه أحد علينا فنسفَه عليهم فوق سفههم أى نجاريهم بسفههم جزاء يرْبو عليه ، استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، كما قال سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عمل سوءاً فهو جاهل وإنْ علم أنه مخالف للحق ، وسبب ذلك أن العلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعفه فى القلب بمقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فتصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال فى مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً ولا خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعُمْيا وبُكما وصُمّا وضالين وجاهلين ويَصِفُهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويَصف المؤمنين بأولى الألباب وأولى النهى وأنهم مهتدون وأن لهم نوراً وأنهم يسمعون ويعقلون . فإذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى حال جاهلية جهلاً منسوبا إلى الجاهل

فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل . وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية أو نصرانية فهى جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مِصر دون مِصر كما هى فى دار غير الإسلام وقد تكون فى شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه فى جاهلية وإن كان فى دار الإسلام فأما فى زمان مطلقاً فلا جاهلية بعد بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة والجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة . وقال لأبى ذرّ لما عيّر رجلا بأمه « انك امْرُؤٌ فيك جاهلية » فهذه كلها جاهلية وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالباً إلا على حال العرب التى كانوا عليها قبل الإسلام ، لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الأعمال والأحكام ، روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوقَ الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام « قد خسر الذين قتلوا أولادَهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين » وقد اختلف المفسرون فى المراد من الجاهلية الأولىٰ فى قوله تعالى « وَقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام فقد كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى فى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عُيَيْنَةَ[1] : كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس . وقال الكلبى : ما بين نوح وإبراهيم قيل إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين

(١) كذا فى الأصل ولعله عتيبة وهو الامام الحكم بن عتيبة الكندى .

وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى . وقال الثعلبى : ما بين عيسى ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال أبو العالية هى زمانَ داود وسليمان عليهما السلام كان المرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين . وكان النساء يُظْهِرْن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجاس مع زوجها وخِلّها فينفرد خِلُّها بما فوق الإزار وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كانت النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التى أدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كنَّ عليه . وليس المعنى أن ثمَّ جاهلية أخرى وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام كما لا يخفى .

***

بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به

اعلم أن كمال كل نوع إنما هو بحصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة منه وبحسب زيادة ذلك ونقصانه يفضل بعض أفراده بعضا ، إلى أن يُعَدَّ أحدهما سماء والآخر أرضاً ، والإنسان مشارك لسائر الأجسام فى الحصول فى الحيز . والفضاء ، وللنباتات فى الاغتذاء والنشو والنماء ، وللحيوانات العجم فى حيويته بأنفاسه ، وحركته بإرادته وإحساسه ، وإنما يتميز بما أعطى من القوة النطقية ، وما يتبعها من العقل والعلوم الضرورية ، والأعمال الصالحة المرضية ، وأهليته للنظر والاستدلال ، وترقيه بذلك فى مدارج الكمال ، وعلمه بما أمكن واستحال ، فإذا كماله إنما هو بتعقل المعقولات ، واكتساب المجهولات ، وبالأخلاق الحسنة التابعة للأعمال الصالحات ، فالإنسان فضل على سائر الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه ، « أما فضله فى نفسه » فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة

والتدبير والرأى فإن البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا رويّة ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف عللَ الأشياء ولا أسبابهاَ وليست فى قوتها تعلّم الصناعات الفكرية وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها فى ذلك الفيلُ والقِرْد ، « وأما فضله فى جسمه » فباليَدِ العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد فى هذا العالم ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وقوله « وصوّركم فأحسن صوركم » ولم يَعْنِ الصورةَ التخطيطيةَ فقط بل عناها والصورةَ المعقولةَ ولتشريفه تعالى إياه بذلك قال « ولقد كرمنا بنى آدمَ وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ومن زعم أن الإنسانَ خُلِقَ خلقةً ناقصة عن الوحشيات من حيث إنه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعْطَ سلاحاً فى ذاته كما أعطىَ كثيرٌ منها فنظره ناقص ، إذ قد أعطى الإنسان بدل ذلك التمييز الذى يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حَسْب ما يريده فيتناوله متى أراد ويَضَعَهُ متى أحب ثم لو أعطى الإنسان بعض الأسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضاً فلو أعطى ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التمييز لأنه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعلُ الله تعالى منزه عن ذلك ، إن قيلَ كيف قال تعالى « خلق الإنسان ضعيفاً » فاستضعفه قيل ضعفه بالإضافة إلى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها ، فإذا كان مناط الفضيلة ما ذكرناه ففضل جنس العرب على غيرهم بسبب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم ؛ وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذى هو الحفظ والفهم وتمام وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان .

(أما كمالهم فى الفهم) فلأنهم كانوا لا يبارون قوة ذكاء وإصابة حدس وحدة ألمعيّة وصدق فراسة يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوه ،

ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبـــل أن يردوه ، ويثبتون أبعد شيء بحدة ألمعيَّتهم كأن ليس ببعيد . وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف منذ زمان مديد ، وقد كان منهم فى الأزمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتب كثيرة ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ويتنبهون من اللحظة الخفية والإشارة اللطيفة كما يحكى أن سليمانَ بنَ عبدِ الملك أتى بأسارى وكان الفرزدقُ حاضراً فأمره سليمان بضرب واحدٍ منهم فاستعفى فما عفى وقد أشير إلى سيف غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق : بل أضرب بسيف أبى رَغْوان[1] سيف مُجاشعٍ يعنى نفسه وكأنه قال : لا يستعمل ذلك السيف إلا ظالم أو ابن ظالم ، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ واتفق أن نبا السيفُ فضحك سليمان من حوله .

فقال الفرزدق :

أيعجب الناس أن أضحكت سيدَهم ... خليفةَ الله يُسْتسْقى به المطر

لم يَنْبُ[2] سيفى من رعْب ولا دَهَش ... عنْ الأسير ولكن أخَّر القدَرُ

ولن يقدِّمَ نفساً قبل ميتتها ... جمع اليدين ولا الصَمْصامة[3] الذكر

ثم أغمد سيفَه وهو يقول :

ما إنْ يعاب سيدٌ إذا صبا[4] ... ولا يعاب . صارِمٌ إذا نبا

ولا يعاب شاعر إذا كبا[5]

ثم جلس يقول : كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال :

بسيف أبى رَغوان سيف مجاشع ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

(١) رغوان لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، لقب به لفصاحته ولجهارة صوته ، ويقال وقالت امراة سمعته : ما هذا الايرغو، فلقب رغوان (٢) لم ينب: اى لم يكل عن الضريبة ، قال الشاعر

انا السيف الا ان للسيف نبوة ... ومثلى لاتنبو عليك مضــــاربه

(٣) الصمصامة: السيف لا ينثنى كالصمصام والذكر ايبس الحديد واجوده واشده كالذكير كامير وهو خلاف الانيث وبذلك يسمى السيف مذكرا (٤) صبا الى المرأة صبوة وصبوة وصبوا حن ، واصبته وتصبته شاقته ودعته الى الصبا فحن اليها (٥) كبا : انكب على وجهه

وقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر فأنشأ يقول :

بسيف أبى رَغْوانَ سيفِ مُجاشع　　ضربتَ ولم نضْرب بسيفِ ابن ظالم

فأعجب سليمان ما شاهد ثم قال : يا أمير المؤمنين كأنى بابن القين قد أجابنى فقال :

ولا نقتُل الأسرى ولكن نفكهم　　إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم

ثم أخبر الفرزدق بالهجو دون ما عداه فقال مجيباً :

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتُها[1]　　وتقطع أحياناً مناط التمائم

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم　　إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم　　أبا عن كليب أوأخاً مثل دارم

وما يحكى أن ذا الرّمّة استرفد[2] جريراً فى قصيدته التي مستهلها :

نبت عيناك عن طَلَل[3] بحُزْوَى[4]　　عفتْه الريحُ وامتنح القَطارا

عدة أبيات فقالها له وهى هذه :

يعد الناسبون إلى تميم　　بيوتَ المجد أربعةً كبارا

يعدون الرِّباب[5] وآل بكر　　وعمراً ثم حنظلةَ[6] الخيارا

---

(١) جمع ظبة وظبة السيف حده (٢) الاسترفاد والمرافدة : اخذ الشعر هبة (٣) طلل محركة الشاخص من آثار الدار والجمع اطلال وربما طاول (٤) حزوى كقصوى اسم موضع قال ذو الرمة :

ادارا بحزوى هجت للعين عبرة　　فماء الهوى يرفض او يترقرق

وعفته الريح : درسته ومحته ، وامتنح اخذ العطاء ، وامتنح مالا رزقه ، والقطار المطر قال الزمخشرى : ومن المجاز منحت الأرض القطار ثم انشد البيت (٥) الرباب بالكسر خمس قبائل تجمعوا فصاروا يدا واحدة وهم ضبة وثور وعكل وتيم وعدى ، وانما سموا بذلك لانهم غمسوا ايديهم فى رب وتحالفوا عليه ، وقيل سموا به لأنهم تربوا اى تجمعوا والنسبة اليهم ربى بالضم لأن الواحد منهم ربة لأنك اذا نسبت الشىء الى الجمع رددته الى الواحد الا أن تكون سميت به رجلا فلا ترده الى الواحد كما يقال فى انمار انمارى وفى كلاب كلابى (٦) حنظلة اكرم قبيلة من تميم يقال لهم حنظلة الأكرمون وابوهم حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم ينسب اليه العنبر والهجيم والحرث الحبط ومالك وغيرهم ، وآل بكر بطن من ربيعة من العدنانية وفيهم العدد والشهرة .

ويذهب فيهما المرّىّ لغواً كما ألغيتَ فى الدية الحُوارا[1]

فضمنها القصيدةَ وهى اثنان وخمسون قافيةً . ثم مر به الفرزدق فاستنشده إياها فأخذ ينشدها والفرزدق يستمع لا يزيد على الاستماع حتى بلغ هذه الأبياتَ الثلاثة استعادها منه الفرزدق مرتين ثم قال : والله لقد عَلَكَهُنَّ من هو أشد منك لحيَيْن . وما يحكى أن عمر بن لجأ[2] أنشد جريراً شعراً فقال : ما هذا شعرك هذا شعر حنظلى . ولا تسأل عن فطانتهم المنتهية على الرمزة اللطيفة ، وحدة نظارهم الداركة للمحة الضعيفة ، كما يترجم عن ذلك الروايات عنهم المشهورة ، يروى أن فَزارياً ونميرياً تسايرَا فقال الفزارى للنميرى : غُضّ لجامَ فرسِك . فقال : إنها مكتوبة . وإنما أراد الفزارى ما قيل فى بنى نُمَير :

---

(١) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه او الى ان يفصل عن أمه والمرى المنسوب الى بنى مرة ، والدية بالكسر حق القتيل والهاءعوض من الواو (٢) عمر بن لجأ قال المجد لجأ جد عمر بن الأشعث لا والده ووهم الجوهرى ، قال الزبيدى : وهذا الذى ذكره الجوهرى هو الذى اطبق عليه أئمة الانساب . واللغة ، قال البلاذرى فى معاجم الأشراف مانصه : وولد ذهل بن تيم بن عبد مناة بن اد بن طابخة سعد بن ذهل فولد سعد ثعلبة ابن سعد وجشم بن سعد وبكر بن سعد فولد ثعلبة امرا القيس بن ثعلبة فولد امرؤ القيس جلهم ، منهم عمر بن لجأ بن حدير بن مصاد بن ذهل بن تيم بن عبد مناة بن اد الشاعر ، وكان يهاجى جرير بن عطية بن الخطفى وكان سبب تهاجيهما أن ابن لجأ انشد جريرا باليمانيية :

تجر بالاهون فى ادنائها جر العجوز جانبى خبائها

فقال له جرير : هلا قلت : جر العروس طرفى ردائها ، فقال بن لجأ فأنت الذى تقول :

لقومى احمى الحقيقة منكم واضرب للجبار والنقع ساطع
وأوثق عند المردفات عشية لحاقا اذا ماجردالسيف مانع

أرأيت اذا اخذن غدوة ولم تلحقهن الا عشية وقد نكحن فما غناؤهم فتحا كما الى عبيد بن غاضرة العنبرى فقضى على جرير فهجاه بشعر مذكور فى الكتاب المذكور وكذا جواب ابن لجأ . ومات عمر بن لجأ بالاهواز وبينهما مفاخرات ومعارضات حسنة ليس هذا محل ذكرها . وقد عرفت من كلام البلاذرى ان لجأ والده لاجده وعلى التسليم فان مثل ذلك لا يعترض به لانه كثيرا ماينسب الرجل الى جده لكونه اشهر او افخر او غير ذلك من الأغراض، الا ترى الى قول النبى صلى الله عليه وسلم « انا النبى لاكذب انا ابن عبد المطلب » وامثلة ذلك لاتحصى والله أعلم — وانظر الأغانى (ج٧ ص٤١و٤٢و٦٤)

فغضّ الطّرْف[1] إنك من نُمَيْر   فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

وإنما عنى النميرى ما قيل فى بنى فزارة :

لا تأمنن[2] فَزاريا خَلَوْتَ به   على قَلوصِك واكْتُبْها بأسيار[3]

وأن واحداً من نمير هو شريك النميرى لقى رجلا من تميم فقال له التميمى يعجبنى من الجوارح البازى : قال شريك : وخاصةً ما يصيد القطا أراد التميمى بقوله البازى :

أنا البازى[4] المطل على نمير   أتيح من السماء له انصبابا

---

(١) قال ابن رشيق : وممن وضعه ماقيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه وسقط عن رتبته وعيب بفضيلته بنو نمير وكانوا جمرة من جمرات العرب اذا سئل احدهم ممن الرجل فخم لفظه ومد صوته وقال من بنى نمير الى ان صنع جرير قصيدته التى هجا بها عبيد بن حصين الراعى فسهر لهـا وطالت ليلته الى ان قال : فغض الطرف الخ فأطفأ سراجه ونام وقال : قد والله اخزيتهم آخر الدهر ، فلم يرفعوا راسا بعدها الا نكس بهذا البيت حتى ان مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتارا فيصيح به بنو نمير ياجوذاب باهلة فقص الخبر على مواليه وقد ضجر من ذلك فقالوا له اذا نبزوك فقل لهم فغض الطرف الخ .. ومر بهم بعد ذلك فنبزوه واراد البيت فنسيه فقال غمض والا جاءك ما تكره فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها .

ومرت امراة ببعض مجالس بنى نمير فارادوا النظر اليها فقالت : قبحكم الله يابنى نمير ماقبلتم قول الله عز وجل (قل المؤمنين يغضوا من ابصارهم) ولا قول الشاعر فغض الطرف الخ ..

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضـحة وقيل سماها جرير الدامغـة تركت بنى نمير ينتسبون بالبصرة الى عامر بن صعصعة ويتجاوزون اباهم نميرا الى ابيه هربا من ذكر من نمير وفرارا مما وسم من الفضيحة والوسمة

(٢) البيت لابن دارة يعير به بنى فزارة بغشيان الابل والقلوص من الابل الشابة او الباقية على السير أو أول مايركب من اناثها الى أن تثنى ثم هى ناقة والناقة الطويلة القوائم خاص بالابحاث والجمع قلائص وقلص (٣) اكتبها باسيار : اى شد حياءها أى اختمه باسيار جمع سير

(٤) البازى بالياء مخففا ضرب من الصقور وهو افصح لغاته ثم البازىّ بالياء مشددة كما حكاه ابن سيده ويكنى بابى الأشعث وأبى البهلول وأبى لاحق وهو من اشـد الحيوانات تبكرا واضـيقها خلقا وفى عجـائب المخلوقات القزوينى انه لا يكون الا انثى وذكرها من نوع آخر من الحداة والشـواهين ولهذا اختلفت اشكاله انتهى ويضرب به المثل فى نهاية الشرف كما فى قوله :

اذا ما اعتـز ذو علم بمال   فعلم الفقـه أولى باعتـزاز

وكم طيب يفوح ولا كمسك   ولا طـير يطير ولا كبازى

وقوله المطل يقال أطل عليـه اذا اشرف واتيح له الشىء قدر أو هىء له والانصباب الانحـدار

وعنى شريك بذكر القطا قولَ الطِرِمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ‏ ‏ ‏ ‏ ولو سلكت سُبُلَ المكارم ضلتِ

وأن معاوية قال للأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وإنما أراد معاوية قول القائل :

إذا ما مات ميت من تميم ‏ ‏ ‏ ‏ فسرك أنْ يعيش فجيء بزادِ

بخـبز أو بتمر أو بسمْن ‏ ‏ ‏ ‏ أو الشيء الملفّف فى البجاد

تراه يطوف فى الآفاق حرْصاً ‏ ‏ ‏ ‏ ليأكل رأس لقمان بن عاد

وكان الأحنف من تميم وإنما أراد الأحنف بالسخينة وهى حساء يؤكل عند غلاء السعر وكان قوم معاوية يقتصرون عليه ، رمَيهُمْ بالبخل . وأن رجلا من بنى مُحارب دخل على عبد الله بن يزيد الهلالى فقال عبد الله ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب ما تركونا ننام وأراد قول الأخطل :

تكِشُّ[1] بلا شيء شيوخُ مُحارب ‏ ‏ ‏ ‏ وما خلْتُها كانت تريشُ ولا تبرى

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبتْ ‏ ‏ ‏ ‏ فدل على صوتها حيّةَ البحر

فقال: أصلحك الله تعالى أضلوا البارحةَ بُرْقعاً فكانوا فى طلبه أراد قول القائل .

لكلّ هلالىٍّ من اللؤم برقع ‏ ‏ ‏ ‏ ولابن يزيدٍ برقُعٌ وجلالْ

---

(١) يقال كش الضب والضفدع يكش كشيشا صوت وخال ظن وفلان لايريش ولا يبرى اى لايضر ولا ينفع والضفدع حيوان نهرى وفى الأمثال قالوا : انق من ضفدع ؛ قال عبد القاهر : والثعبان يستدل بصياح الضفدع عليه فيأتى على صياحه فيأكله وانشد فى ذلك :

يجعل فى الأشـداق ماء ينصفه ‏ ‏ ‏ ‏ حتى ينق والنقيق يتلفـه

ينصفه بضم الياء وليس المراد هنا العدل بل المراد حتى يبلغ نصف فكه الأعلى ؛ وقوله والنقيق يتلفه أراد به الضفادع اذا صاحت يتبعها الثعبان فيجىء فيأكلها كما قال القائل : ضفادع فى ظلماء البيت وحية البحر الافعى التى تكون فى البر وهى تعيش فى البر والبحر ومحارب فيها ضعة وخمول ، وعليه قول اسمعيل بن عمار الأسدى :

بكت دار بشر شجوها اذ تبدلت ‏ ‏ ‏ ‏ هلال بن مرزوق ببشر بن غالب

وهل هى الا مثل عرس تبدلت ‏ ‏ ‏ ‏ على رغمها من هاشم فى محارب

يقول ماهى فى استبدالها الا كعروس زوجت فى بنى هاشم ثم انتقلت فى محارب حتى قال بعض الشعراء وهو يحلف فصيرنى ربى اذاً من محارب

وأن رجلا وقف على الحسن ابن أبى الحسين[1] البصرى رحمة الله عليه فقال أعتمرْ أخرجْ أبادرْ . فقال : كذبوا عليك ماكان ذلك إن السائل أراد عثمان أخرج أباذرّ . وأن الحسن بن وهب نهض ذات ليلة من مجلس ابن الزيات . فقال شْحيرْ أى بت بخير فقال له ابن الزيات : بنَيه ، أى بت به . وما ظنك بكياسة جيل قد بلغت من الذكاء نساؤهم إلى حــدٍ نقدهن للــكلام ما يحكى أنشدت واحدة وكانت الخنساء[2] .

---

(١) كذا فى الأصل وفى المفتاح : بن الحسن

(٢) اقول : ان المصنف نقل هذه القصة عن (مفتاح العلوم) للامام السكاكى والصحيح انها وقعت للنابغة الذبيانى مع حسان بن ثابت (رض) على مانقل كثير من ائمةالأدب ، منهم أبو ابوعبد الله المرزبانى فى(الموشح) وابنابى الاصبع فى باب (الافراط فى الصــنعة) من كتــاب (تحرير التحبيز) وأبو الفـــرج الأصبهانى فى (الأغانى) والرضى فى (الكافية) والشيخ عبد القادر البغدادى فى (خزانة الأدب) والامام سيبويه فى (الكتاب) وغيرهم .. قال المرزبانى فى (الموشح) : كتب الى احمد بن عبد العزيز أخبرنا عمر بن شبة حدثنى أبو بكر العليمى حدثنا عبد الملك بن قريب قال : كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة حمراء من ادم بسوق (عكاظ) فتاتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها ، قال : فاول من انشده حسان بن ثابت الأنصارى :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى واسيافنا يقطرن من نجـــدة دما
ولدنا بنى العنقــاء وابن محـــرق فاكرم بنــا خالا واكرم بنــا ابنما

فقال له النابغة : انت شاعر ولكنك اقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ... وحدثنى على بن يحيى حدثنا أحمد بن سعيد حدثنا الزبير بن بكار حدثنى عمى مصعب بن عبد الله قال انشــد حسان ، نابغة بنى ذبيان ، قصيدته التى يقول فيها لنا الجفنات الغر فقالله : ماصنعت شيئا قللت امركم فقلت جفنات واسياف ... وأخبرنى الصولى قال حدثنى محمد بن سعيد ومحمد بن العباس الرياشى عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العـــلاء قال : كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة بســـوق عكاظ من ادم فتاتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها فأتاه الأعشى فكانأول من انشده ثم انشده حسان بن ثابت قصيدته التى منها : لنا الجفنات الغر وذكر البيتين فقال له النابغة : انت شاعر ولكنك اقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك .. قال الصولى فانظر الى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره لأنه قال واسيافنا ، واسياف جمع لأدنى العدد والكثير سيوف والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان وترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه ، قال : ويروى ان النابغة قال له اقللت اسيافك ولمعت اجفــانك يريد قوله لنا الجفنات الغر والغرة لمـــة بياض فى الجفنة فكأن النابغة عاب هذه الجفان وذهب الى أنه لو قال لنا الجفنات البيض فجعلها بيضا كانأحسن فلعمرىانه حسن فىالجفان الا أن الغر أجل=

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ألا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأى فخر فى أن تكون جفنة وقت الضحوة — وهو وقت تناول الطعام — غرّاء لامعة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ، ثم أنّى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطرن أما كان يجب أن يتركها إلى يَسِلْن أو يفِضْنَ أو ما شاكل ذلك . وقد اجتمع راوية جرير وراوية كُثيِّر وراوية جميل وراوية نُصَيْبٍ وأخذ يتعصب كل واحد لصاحبه ويجمع له فى البلاغة قصبَ الرهان فحكّموا واحدة وكانت سُكَيْنَةُ . فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك القائل :

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أولى بالزيارة من الطروق[1] قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية كُثيِّر : أليس صاحبك الذى يقول :

يَقرُّ بعينى ما يقر بعينها وأحسن شىء ما به العين قرّت

وليس شىء أقرّ لعيونهن من النكاح أفيحبُّ صاحبك أن يُنكَح قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

= لفظا من البيض .. قال أبو عبد الله المرزبانى « وقال قوم ممن انكر هذا البيت فى قوله يلمعن بالضحى ولم يقل بالدجى وفى قوله وأسيافنا يقطرن ولم يقل يجرين لأن الجرى أكثر من القطر وقد رد هذا القول واحتج فيه قوم لحسان بما لاوجه لذكره فى هذا الموضع فأما قوله فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فلا عذر عندى لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر ، وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير وغيره ممن ولده نساؤهم :

وعبد العزيز قد ولدنا ومصعبا وكلب اب للصالحين والود

فانه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضل رجالهم واخبر أنهم يلدون الفاضلين وجمع ذلك فى بيت واحد واجاد » انتهى والتفصيل فى خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للامام عبد القادر البغدادى (٣ — ٤٣٠) .

(١) الزيارة ليلا قال الشاعر :

الا طرقتنا مية ابنة منذر فما أرق النيام الا سلامها

فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتها وإن طِلابيها لما فات من عقلى

فما أرى لصاحبك هوى إنما طاب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نُصَيْبٍ : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدَعْدٍ ما حييتُ فإن أمت فياويح نفسى من يهيم بها بعدى

أما كان لصاحبك همّ إلا هم من يهيم بها قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال :

أهيم بدعد ما حييتْ فإن أمت فلا صلحتْ دعد لذى خلة بعدى

بل قد وصل العرب فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم إلى ما كاد أن يصل إلى حد الإعجاز . وفى الأغانى لأبى فرج الأصبهانى بسنده إلى عبد الملك بن عمير . قال قدم علينا عمرو بن هبيرة الكوفة فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده ، ثم قال : ليحدثنى كل رجل منكم أحدوثة وابدأ أنت يا أبا عمرٍو ، فقلت : أصلح الله الأمير أحديث الحق أم حديث الباطل . قال : بل حديث الحق . قلت : إن امرأ القيس آلى[1] بأليةٍ أن لا يتزوجَ امرأةً حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين فجعل يخطبُ النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير فى جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة كأنها البدرُ ليلة تمامه فأعجبته ، فقال لها ياجارية : ما ثمانية وأربعة واثنتان . فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة[2] وأما أربعة فأخلافُ[3] الناقة ، وأما ثنتان . فثديا المرأة . فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعْبُدٍ وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك . ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة وأهدى

---

(١) آلى : اى اقسم، وفى الأغانى انظر (ج ٨ ص ٧١ و٧٢) من طبعةالساسى
(٢) الأطباء : جمع طبى لذات الخف والظلف كالثدى للمرأة ويطلق قلبلا لذات الحافر والسباع (٣) الاخلاف : جمع خلف من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع

إليها نحياً[١] من سمن ونحياً من عسل وحلة[٢] من عصب[٣] فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلة ولبسها فتعلقت بشعره فانشقت وفتح النحيين فطعم أهل الماء منهما فنقصا ثم قدم على حى المرأة وهم خُلوف[٤] فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها . فقالت له : اعلم أى أخبر مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، وأن أمى ذهبت تشق النفس نفسين وأن أخى يراعى الشمس وأن سماءكم انشقت وإن وعاءيكم نضبا[٥] فقدم الغلام على مولاه فأخبره . فقال أما قولها : إن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه . وأما قولها : ذهبت أمى تشق النفس نفسين فإن أمها ذهبت تقبل امرأة[٦] نفساء . وأما قولها : إن أخى يراعى الشمس فإن أخاها فى سرح[٧] له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس[٨] ليروح[٩] به . وأما قولها : إن سماءكم انشقت فإن البُرْد الذى بعثت به انشق . وأما قولها : إن وعاءيكم نضبا ، فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فأصدقنى ، فقال : يا مولاى إنى نزلت بماء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم إنى ابن عمك ونشرت الحلة فانشقت وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء فقال · أولى لك[١٠] . ثم ساق مائة من الإبل وخرج

---

(١) النحى بالكسر الزق او ما كان للسمن خاصة (٢) الحلة بالضم لاتكون الأثوبين من جنس واحد (٣) العصب مثل فلس برد يصبغ غزله ثم ينسج ، ولا يثنى ولا يجمع وانما يثنى ويجمع مايضاف اليه فيقال بردا عصب وبرود عصب والاضافة للتخصيص ويجوز أن يجعل وصفا فيقال شريت ثوبا عصبا (٤) وهم خلوف بالضم وهم الذين ذهبوا من الحى

(٥) يقلل نضب المال ينضب وينضب نضوبا ذهب فى الأرض والمراد هنا نقصا (٦) قبلت القابلة الولد تلقته عند خروجه قبالة بالكسر والجمع قوابل وامرأة قابلة وقبيل ايضا (٧) السرح المال السائم (٨) وجوب الشمس : اى غروبها (٩) اى ليرجع يقال راح يروح رواحا وتروح مثله يكون بمعنى الغدو وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى : غدوها شهر ورواحها شهر أى ذهابها ورجوعها وقد يتوهم بعض الناس ان الرواح لا يكون الا فى آخر النهار وليس كذلك بل الرواح والغدو عند العرب يستعملان فى المسير اى وقت كان من ليل أو نهار ، قاله الأزهرى وغيره (١٠) أولى لك تهدد ووعيد ، قال الأصمعى : أى قاربه ما يهلكه اى نزل به ، ومنه قوله تعالى أولى لك فأولى ، معناه التوعد والتهدد أى الشر أقرب اليك .

نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقى الإبل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلامُ فى البئر . وخرج حتى أتى المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجُها فقيل لهـا : قد جاء زوجك فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ولـكن انحروا له جزوراً[١] وأطعموه من كرشها وذَنَبها . ففعلوا فقالت : اسقوه لبناً حازراً . وهو الحامض فسقوه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث[٢] والدم . ففرشوا له فنام فلما أصبحت أرسلت إليه إنى أريد أن أسألك ، فقال : سَلِى عما شئت . فقالت : مِمَّ تختلج[٣] شفتاك ؟ قال : لتقبيلى إياك . قالت : فمم يختلج كشحاك[٤] ؟ قال : لالتزامى إياك . قالت : فمم يختلج فخذاك ؟ قال : لتوركى إياك . قالت عليـكم العبد فشدوا أيديكم به . ففعلوا . قال : ومرَّ قوم فاستخرجوه امرأ القيس من البئر فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل وأقبل إلى امرأته . فقيل لهـا : قد جاء زوجك . فقالت : والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ولـكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذَنَبها ففعلوا . فلما أتوه بذلك قال : وأين الـكبد والسنام والملحاء[٥] . فأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حازراً . فأبى أن يشربه وقال فأين الصريف[٦] والرثيئة[٧] . فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم . فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى فوق التلعة[٨] الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت إليه : هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث . فأرسل إليها أن سلى عما سئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشربى المشعشعات[٩] قالت : فممَّ يختلج كشحاك ؟ قال للبسى الحِبرات[١٠]

---

(١) الجزور من الابل خاصة يقع على الذكر والأنثى والجمع جزر ستل رسول ورسل ويجمع ايضا على جزرات ثم على جزائر ولفظ الجزور أنثى يقال رعت الجزور قاله ابن الانبارى وزاد الصاغانى وقيل الجزور الناقة التى تنحر وجزرت الجزور وغيرها من باب قتل نحرتها

(٢) الفرث : السرجين (٣) تختلج : تضرب وتتحرك (٤) الكشح مابين الخاصرة الى الضلع الخلف (٥) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل الى العجز (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب (٧) الرثيئة : اللبن الحامض يحلب عليه فيختثر (٨) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ضد والمراد هنـــا الأول (٩) المشعشع : الشراب المزوج ، قال عمر بن كلثوم

مشعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

(١٠) الحبرات جمع حبرة وزان عنبة نوب يمانى من قطن أو كتان مخطط ، يقال برد حبرة على الوصف وبرد حبرة قال الأزهرى ليس حبرة

قالت . فمم يختلج فَخذاك ؟ قال . لركضى المطهمات[1] . قالت . هــذا زوجى لعمرى فعليــكم به واقتلوا العبد . فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية . فقال ابن هبيرة : حسبُــكم فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك ياأبا عمرو ولن تأتينا بأعجبَ منه . فقمنا وانصرفنا وأمر لى بجائزة . وقال المبرد فى كتابه الموسوم (بالروضة) . كانت العرب تستدل باللحظة واللفظة ، فمن ذلك ما روى أن جميلا قال لِـكُثَيِّرٍ : لوصرتَ إلى بثينة فأخذتَ لى عنها موعداً . فقال : إنَّ غاشية عمها كثير . فقال : إن الحيلة تأتى من وراء ذلك . فأطرق كُثيّر إطراقة . ثم قال : متى كان آخر عهدك بها ؟ قال : يوم كذا . قال : فى أى موضع ؟ قال : فى واد يقال له «وادى الدوم» فأصاب ثوبها شيء فغسلته قال:فأتى الحى فجعل يتحدث إليهم حتى أتى عمَّها فحادثه وقال : أسمعك أبياتاً فى عزة حضرتنى قال : هاتِها فأعلنَ إنشاده لتسمع بثينة وقال :

أقول لهــا ياعزُّ : أرسل صاحبى ... على نأى دارٍ[2] والرسول موكل
بأنْ تجعلى بينى وبينك موعــداً ... وأنْ تأمُرينى بالذى فيـه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم ... بأسفل وادى الدوْم والثوب يغسل

فعلمت أنه إياها يقصدُ بالعلامة فصاحت : اخسأ[3] فصاح بها عمها ما خسأت ؟ قالت : كلباً يعترينا ليلا ثم رأيته الساعة . فرجع كثيّر إلى جميل فقال : ائتها الليلة فإنها ذكرت الليل . وقال ابن الأعرابى : أسرت طىّء رجلاً شابا من العرب فقدم عليه أبوه وعمه ليفدياه فاشتطوا[4] عليهما فى الفداء فأعطيا به عطية فلم يَرْضَوْا بها فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين[5] يُصبحان ويُمسيان على جبل طىّء لا أزيدكم

موضعا أو شيئا معلوما انما هو وشى معلوم اضيف الثوب اليه كما قيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغة فاضيف الثوب الى الوشى والصبغ للتوضيح (١) المطهمات : الخيل التامة الحسن (٢) النأى : البعد (٣) اخسأ : اى ابعد والخاسى من الكلاب المبعد لا يترك ان يدنو من الناس (٤) اشتطوا : أى جاروا عليه فى الطلب (٥) الفرقدان : نجمان فى السماء لايغربان ولكنهما يطوفان بالجدى ، وقيل هما كوكبان قريبان من القطب ، وقيل هما كوكبان فى بنات نعش الصغرى

على ما أعطيتكم . ثم انصرفا ، فقال الأب للعم : لقد ألقيت إلى ابنى كليمة لئن كان فيه خير لينجون بها . فما لبث أن نجا واطرد قطعة من إبلهم فذهب بها كأنه قال : الزم الفرقدين على جبل طئ فإنهما طالعان عليه وهما لا يغيبان عنه . وفى كتاب الملاحن (١) : روى عن ابن دريد فى أسير بكر بن وائل حيث سألهم رسولا إلى قومه فقالوا : لا ترسل إلا بحضرتنا ، اشفاقاً منه أن ينذرهم فقد كانوا هموا بغزو قومه فجئ بعبد أسود فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم إنى لعاقل . قال : ما أراك عاقلا . ثم قال : ما هذا ؟ وأشار بيده إلى الليل فقال : هذا الليل فقال : أراك عاقلا . ثم ملأ كفيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدرى وإنه لكثير . قال : أيما أكثر النجوم أم النيران ؟ قال : كلٌّ كثير . قال : أبلغ قومى التحية وقل لهم : أكرموا فلاناً — يعنى أسيراً كان فى أيديهم — فانهم لى مكرمون وقل لهم : إن العرفج قد أدْبى وقد شكت النساء ومُرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم حيساً وسلوا الحارث عن خبرى . فلما أدى العبد إليهم الرسالة قالوا : قد جن الأعور . والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب . ثم سرحوا العبد ودعوا الحارث وقصوا عليه القصة فقال : قد أنذركم . أما قوله قد أدّبى العرفج أى الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح . وقوله شكت النساء أى اتخذوا الشكاء للسفر والشكوة القربة الصغيرة . وقوله : اعروا ناقتى الحمراء . أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب . وقوله : أكلت معكم حيْساً يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم لأن الحيس يجمع السمن والتمر والأقط . فامتثلوا ذلك وعرفوا ما قال . فأخذ هذا المعنى رجل كان أسيراً فى بنى تميم فكتب إلى قومه ملغزاً فى الشعر ينذرهم .

---

(١) هو لابن دريد والملاحن الالغاز وهى المحاجاة لانها تظهر الحجى والمعاياة والرمز والمعمى ، قال الخفاجى : والمتأخرون من الادباء اصطلحوا على التفريق بينهما وهو ليس بأمر الهوى وقد تطلق على كناياتهم كقولهم للخمر اشقر والماء اشهب الى غير ذلك مما ذكر فى كتاب الكناية لابن المكرم

خلوا عن الناقة الحمراء واقتعدوا الـ   عوْد الذى فى جنابى ظهره وقع

إن الذئاب قد اخضرّتْ براثنها   والناس كلُّهُمُ بكر إذا شَبِعُوا

قال أبو عثمان الاشناندانى فى أبيات المعانى : أراد بالناقة الحمراء الدهناء وهى أرض لبنى تميم تشبيهاً بالناقة لتأتيها وسهولة ركوبها لأنها أرض فلاة سهلة واقتعدوا العود أى اسكنوا الصمان وهو بلد لبنى تميم أرض غليظة صلبة . وإنما شبهه بالعود لتذكير اسمه والعود المسن من الإبل وجعل فى ظهره وقعاً وهو آثار الدبر فى ظهر البعير تشبيهاً للصمان بما قد وطىء وكثرت آثار الناس فله بظهر بعير موقع . يقول امتنعوا بركوب الصمان لأنه وعر صلب يشق على الخيل أن تطأه ، والدهناء ممكنة . وأراد بالذئاب القوم الذين يغيرون عليهم ، شبههم بالذئاب لخفتهم وحرصهم على الغارة . وقوله قد اخضرت براثنها : يريد قد اخضرت الأرض وكثر العشب فيها وأمكن الغزو والأقدام مخضرة من الكلأ . فجعل الأقدام براثن . وقوله والناس كلهم بكر إذا شبعوا : يريد أن بكر بن وائل أشد الناس عداوة لبنى تميم يقول : إذا شبعوا وأخصبوا فعداوتهم كعداوة بكر . ومن الغريب فى هذا الباب ما روى المرزبان أن رجلا كثير المال صحب عبدين فى سفر فلما توسطا الطريق همّا بقتله فلما صح ذلك عنده . قال أقسمُ عليكما إذا كانا لا بد لكما من قتلى أن تمضيا إلى دارى وتنشدا ابنتى هذا البيت . قالا : وما هو قال :

من مبلغ بنتيَّ أن أباهما   لله درّ كما[1] ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر : لا نرى به بأساً فلما قتلاه جاءا إلى داره وقالا لابنته الكبرى : إن أباك لحقه ما يلحق الناس وآلى علينا أن نخبركما بهذا البيت فقالت الكبرى : ما أرى فيه شيئاً تخبرانى به ولكن اصبر حتى أستدعى أختى الصغرى . فاستدعتها فأنشدتها البيت فخرجت حاسرة[2] وقالت : هذان قتلا أبى يا معشر العرب ما أنتم

(١) لله دره : أى عمله ولا دردره لازكا عمله (٢) حاسرة : أى كاشفة . يقال حسرت المرأة ذراعها وخمارها من باب ضرب كشفته

فصحاء قالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت : المصراع الثانى يحتاج إلى أول والأول يحتاج إلى ثان لا يليق أحدهما بالآخر ؟ قالوا : فما ينبغى أن يكون ؟ قالت : ينبغى أن يكون :

من مخبرٌ بنتىَّ أن أباهما أمسى قتيلاً بالفلاة مجندلا[١]

لله دركما ودر أبيكما لن يبرح العبدان حتى يقتلا

قال : فاستخبروهما فوجدوا الأمر على ما ذكرت . ومما يدل على غزارة فهم العرب ودقيق نظرهم ما اختصوا به مَن قرع العصا وهو أشد أنواع الرموز استخراجاً وأصعبها استنباطاً لخلوه من النطق وللاقتصار فيه على مجرد الفعل فإنه شارة بالفعل دون القول . وقد ادعى بنو قيس بن ثعلبة أن أول من قرع العصا سعد بن مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة قرعها لأخيه عمرو بن مالك وذلك حين لقى النعمان سعداً ومعه خيل بعضها يقاد وبعضها أعراء مهملة . فلما انتهى إلى النعمان سأله عنها فقال سعدٌ : إنى لم أقُدْ هذه لأمنعها . ولم أعَرِّ هذه لأضيعها[٢] فسأله النعمان عن أرضه هل أصابها غيث يحمد أثره . وروى شجره . فقال سعد : أما المطر فغزير . وأما الورق فشكير . وأما النافدة فساهرة . وأما الحازرة فشبعى نائمة . وأما البرشاء فقد امتلأت مساربها . وابتلت جنابتها وروى جنابتها . وأما الجوف فغُدُر لا تطلع . وأما الحذف فمزاف لا ينكع . يفتر إذا يرتع[٣] . فقال النعمان وحسده على ما رأى من ذَرَب لسانه : وأبيك إنك لَمِفْوَهٌ فإن شئت أتيتك بما تَعيا عن جوابه . فقال : شئت إن لم يكن منك إفراط ولا إبعاد . فأمر النعمان وصيفاً فلطمه . وإنما أراد أن يتعدى فى القول فيقتله . فقال : ما جواب هذه ؟ فقال سعد : « سفيه مأمور » فأرسلها مثلا . قال النعمان للوصيف : ألطمه أخرى فلطمه . قال ما جواب هذه ؟ قال : لو نُهى عن الأولى لم يعد للأخرى فأرسلها

---

(١) مجندلا : اى مصروعا على الجدالة كسحابة وهى الأرض

(٢) لاهبها

(٣) سيأتى شرح هذه الكلمات فى الأصل

مثلا . فقال النعمان : ألطمه أخرى ففعل فقال : ما جواب هذه . فقال : ربٌّ يؤدّبُ عبدَهُ . فقال : ألطمه أخرى ، ففعل . فقال : ما جواب هذه . فقال : « ملَكتَ فأسْجِحْ[1] » فأرسلها مثلا . فقال النعمان أصبتَ فاقعد فمكث عنده ما مكث ، ثم بدا للنعمان أن يبعث رائداً يرتاد له الكلأ فبعث عمرو بن مالك أخا سعد فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلأ أو ذامًّا ليقتلنَّه ، فلما قدم عمرو دخل على النعمان وعنده الناس وسعد قاعد لديه مع الناس ، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه ، فقال سعد : أتأذن لي فأُكلمه ؟ قال : إن كلته قطعت لسانك . قال : فأُشير إليه ؟ قال : إن أشرت إليه قطعت يدك . قال فأُومىء إليه ؟ قال : إذن انزع حدقتيك . قال فأقرعُ له العصا ؟ قال : اقرَعْ . فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه وأخذ عصاه التي كانت معه وأخوه قائم فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة فنظر إليه أخوه ثم أومأ بالعصا نحوه فعرف أنه يقول مكانك ثم قرع العصا قرعةً واحدةً ثم رفعها إلى السماء ثم مسح عصاه بالأخرى فعرف أنه يقول قل له لم أجد جدباً ثم قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً فعرف أنه يقول ولا نباتاً ثم قرع العصا قرعة وأقبل بها نحو النعمان فعرف أنه يقول كلمه . فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدى النعمان فقال له النعمان هل حَمِدْتَ خصباً . أو ذممت جدبا . فقال عمرو لم أذمم جدبا . ولم أحمد بقلا . الأرض مُشكلة لا خِصْبها يُعرف . ولا جدبها يوصف . رائدها واقف . ومنكرها عارف . وآمنها خائف فقال النعمان : أولى لك[2] بذلك نجوت فنجا وهو أول من قرعت له العصا . فقال سعد بن مالك لقرعة العصا :

قرعت العصا حتى تبين صاحبي ولم تك لولا ذاك للقوم تقرع

فقال: رأيت الأرض ليست بمُمْحِل ولا سارح منها على الرعى يشبع

---

(١) الاسجاح حسن العفو ، اى ملكت الأمر على فأحسن العفو عنى واصله السهولة والرفق يقال مشية سجح اى سهلة . يضرب فى العفو عند المقدرة
(٢) سيأتى شرحها فى الأصل

سواء فلا جدْب فيعرف جدبها   ولا صابها غيث غزير فَتَمْرِعُ[١]

فنجى بها حوْباء[٢] نفس كريمة   وقد كاد لولا ذاك فيهم يقطع

قول سعد : « أما الورق فشكير » يعنى أنّه صغيرٌ لم يكبر . « وأما النافدة فساهرة » يعنى التي قد نفدت من الهزال فلم يبق فيها قوة فهى ساهرة لأنهـا لم تشبع بعد فسهرها لفقد الشبع . والحازرة يجب أن تـكون من قولهم حزرة المال خياره أى هى تقتدر بقوّتها على الرعى فتشبع فتنام . والبرشاء أرض فيها رِمْث[٣] . والمسارب جمع مسرب وهى المواضع التى تسرب فيها المال أى الإبل . وقوله ابتلت جنابتها فهى مثل الجناب . وإذا قيل جنابثها فيجوز أن يكون مثل الجنابذ وهى جمع جنبذة . والجنبذة المـكان المرتفع فأبدلت الثاء من الذال كما قالوا جث وجذ . ومن روى الرهاء فيجوز أن يكون من الأرض التى قد أصابها الرهام .[٤] والجوف البطن من الأرض . والغُدر جمع غدير . يعنى أن الوادى لم يكثر المطر فيسيل فيه فيرتفع سيله إلى جوانبه فيجاوز حد الغدران . والحذف ضرب من الشاء صغار ، وعزاف يعنى أنها تعزف نفوسها عن الماء لـكثرته ولا ينـكع : أى لا يقطع شربها . يقال نكع . وأنـكع . إذا قطع . قال الشاعر :

بنى ثُعل لاتَنْـكعوا[٥] العنز شربها   بنى ثعل من يَنْـكعُ العنز ظالم

وتفتر تـكشف أسنانها إذا رفعت رءوسها من الرعى ، وأولى لك كلمة تقال

---

(١) مرع الوادى وامرع : اكلأ واخصب ، وقيل لم يأت مرع ، وقال ابن الاعرابى امرع المكان لا غير (٢) سيأتى شرحها فى الأصل (٣) رمث بالكسر مرعى الابل من الحمض وشجر يشبه الغضى (٤) الرهام كجبال جمع رهمة بالكسر المطر الضعيف الدائم الصغير القطر (٥) نكعه عن الأمر اعجله عنه أو رده ومنعه ورفعه وقيل نكعه نغصه بالاعجال كنكعه تنكيعا وقال الليث نكعه وكسعه ضرب بظهر قدمه على دبره وكذلك بكعه بالموحدة ، وانشد : بنى ثعل لاتنكع العنز شربها الخ ، قال الزبيدى وانشد سيبويه هكذا وفسره فقال ونكعه الورد ومنه . ومنعه اياه انتهى ، وبنو ثعل كصرد ابن عمرو بن الغوث حى من طيء ، قال امرؤ القيس :

رب رام من بنى ثعل   مثلج كفيه فى قتره

وفى الاساس : وان دعوت على ابناء رجل اسمه عمر او زفر فقل : اتيح لكم يابنى فعل ، رام من بنى ثعل .

للرجل إذا نجا من شر بعد ما كاد يصيبه . وقوله حوْباء نفس كريمة فيه وجوه يقال أن الحوباء النفس فإذا أخذ بها فإنما أضيفت الحوباء إلى النفس فى شعر سعد لاختلاف اللفظين . وربما قالوا الحوباء خالص النفس . وقال بعضهم الحوباء روح القلب . وأهل اليمن يقولون إن أول من قرعت له العصا عمرو بن حُمَمَةَ الدوسى . روى ذلك الشعبى عن ابن عباس وأنه المراد بذى الحلم فى قول الحارث ابن وعلة .

لا تأمننْ قوما ظلمتَهمُ وبدأتَهمْ بالشتم والرغم
أن يأبروا[1] نخلا لغيرهم والشيء تحقره وقد ينمى
وزعمتم أن لاحلومَ لنا إن العصا قرعت لذى الحلم

يريد أن الأمر والشأن لاحلوم لنا فإن كان الأمر كما زعمتم فنبهونا أنتم فإن الدوسى كان يقرع له العصا فينبه لما كان يزيغ فى الحكم لكبر سنه . وهذا تهكم منهم أى عرضتم فى قولكم بأنا سفهاء فاكتفينا بالتعريض عن التصريح كاكتفاء ذى الحلم بقرع العصا . ومضر تدعى أن ذا الحلم عامر بن الظَرِب العدوانى وإياه عنى ذو الأصبع فى قوله .

ومنهم حكم يَقضى فلا يُنْقَضُ ما يَقضى

وتدعيه ربيعة فتقول قيس بن خالد الشيبانى وهو جد بسطام بن قيس بن مسعود ابن خالد . فأما ما يدعى لعمرو بن حُمَمَة فالخبر فيه وفى عامر بن الظَرِب واحد . وهو أن كل واحد منهما كان حكما للعرب يتحاكمون إليه فى كل مُعضلة . وهو لعمرو بن حُمَمَة فى هذا الحديث أشهر . وذلك أن العرب أتوْه يتحاكمون إليه فغلِط فى حكومته وكان قد أسنّ فقالت له ابنته إنك قد صِرْت تَهِم فى حكمك أى تغلط فقال : إذا رأيتِ ذلك منى فاقرعى العصا . فكان إذا قرعت له العصا فطن فثاب إليه حلمه فأصاب فى حكمه .

---

(١) ابرت النخل ابرا من باب ضرب وقتل لقحته وأبرته تأبيرا مبالغة وتكثير والابور وزان رسول مايؤبر به

ومن الرموز بالفعل دون القول التى اختصت العرب بفهم المراد منها ما يروى فى الأمثال عن أبى فيد السدوسى . قال : حدث أبو خالد الـكلابى أن الأحوص بن جعفر أتى فقيل له أتانا رجل لا نعرفه فلما دنا من القوم حيث يرونه نزل عن راحلته وأتى شجرة فعلق عليها وطباً[1] من لبن ووضع فى بعض أغصانها حنظلة ووضع صرة من تراب وصرة من شوك فى بعضها ثم أتى راحلته فاستوى عليها فنظر الأحوص والقوم فى أمره فعى به . فقال الأحوص أرسلوا إلى قيس بن زهير فأتوا قيساً فجاءوا به إليه فقال له الأحوص : ألم تـكن تخبرنى أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفت مأتاه مالم تر نواصى الخيل . قال وما الخبر ؟ فأعلموه فقال : قد بيّن الصبحُ لذى عينين »[2] فصار مثلا يضرب به فى وضوح الشىء . قال أما صرة التراب فإنه زعم أنه أتاكم عدد كثير . وأما الحنظلة فإنه يخبركم أن حنظلة قد أتتكم . وأما الشوك فإنه يخبركم أن لها شوكة . وأما اللبن فهو دليل لـكم على قرب القوم وبعدهم . فإن كان حلوا حليباً فقد أتتكم الخيل . وإن كان لا حلوا ولا حامضاً فعلى قدر ذلك . وإن كان قارصاً[3] فعلى قدره . وإن كان خاثراً فلـكم مهلة من الرأى . وإنما ترك الرجل كلامكم لأنه قد أخذت عليه العهود وقد أنذركم . ونظائر هذه الحـكايات التى رواها الثقاة كثيرة ، وسيأتى عند الـكلام على علوم العرب ما يزيد المقام وضوحا .

ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن إلى غاية الغايات كان معجزهم القرآن فإن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان فى بنى إسرائيل بلادة وغباوة لأنه لم ينقل عنهم ما تدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر . وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة . فخصوا من الإعجاز بما يصِلون إليه ببداية حواسهم . والعرب أصح الناس أفهاما . وأحدّهم أذهانا . قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها .

---

(١) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه والجمع أوطب ووطاب واوطاب (٢) بين هنا بمعنى تبين ، يضرب الأمر يظهر كل الظهور (٣) القارص: اللبن الحامض

ومن المعانى أغربَهَا . ومن الآداب أحسنَهَا . نخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم . وتصل إليه أذهانُهم . فيُدْركونه بالفطنة دون البديهة . وبالروية دون البادِرة .[1] لتكون كل أمة مخصوصة بما يشا كل طبعها . ويوافق فهمها . والله ولى التوفيق .

***

وأما كون العرب أحفظ من غيرهم

فَلِأَنّ الغالب منهم أُمّيون . لا يقرءون ولا يكتبون . بل إن جميعَ عرب البوادى كذلك ومع هذا حَفِظوا على سبيل التفصيل أيامَهم وحروبَهم ووقائعهم وما قيل فيها من شعر وخطب . وما جرى من المفاخرات والمنافرات[2] بين قبائلهم . وضبطوا أنسابهم وأسماء فرسانهم الذين نزلوا فى ميادين حروبهم وأنهم من أى قبيلة وإلى أى أبٍ ينتهون من الآباء الأولين . وأسلافهم السابقين . وكان أحدهم يقول الشعر بلغت أبياته ما بلغت فما هم إلاّ أن سمعوه فانتقش فى صحائف خواطرهم وتمثّل فى خيالهم . وهذا مما تساوى فيه العامة والخاصة منهم والصغير والكبير والذكر والأنثى من أحيائهم . وذلك مما لا يستريب فيه أحد ولا يشك ذو نظر . وكانوا إذا جرت بينهم حادثة غريبة أو اتفقت لهم نكتة غريبة ضربوا بها الأمثال . وسارت بين القبائل تلك الأقوال . فلا تغيب هاتيك الوقائع عن أفكارهم . ولا تزول مدى الليالى والأيام عن خزائن خواطرهم . وقد دوّن المتأخرون ما تلقّوْه من الثقاة . وما سَمِعوه من أفواه الرُواة . من أيامهم وأخبارهم . وأمثالهم وأشعارهم . فبلغ ذلك ما بلغ من المجامع والأسفار . حتى تجاوزت دوائر العدّ والانحصار . هذا مع أن ذلك بالنسبة إلى مالم يصل إليهم كقطرة من

(١) البادرة : مايبدر من حدتك فى الغضب من قول او فعل

(٢) نافر : معناه حاكم فى النسب وسميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : انا أعز نفرا

بحار . وذرة من جبال وقفار · وأما الغالب من شعرهم ولغتهم وأيامهم الأول . فقد ذهب بذهابهم وبقى فى الصدور ولم ينقل . وأخذوا فى أكفانهم[1] كثيراً من العلوم والفنون . حيث لم يجدوا من يحفظ حقوقها ويصون · وكان لكل شاعر منهم راوية يَحْفَظُ عنه ما يقول . وما يُنشد فى المواقع والمجامع حين يصول ويجول . وكل راوية من رُواتهم كان يحفظ من الأراجيز والقَصِيد وسائر فنون الشعر ما يفوت الإحصاء والحصر . هـذا الأصمعى من متأخريهم قال : ما بلغت الْحُلُمَ حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب ، وكان خَلَفٌ الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده . وبالجملة العرب أحفظ الناس . ولا يكاد يمترى فى ذلك إلا من عدم الإحساس ، حتى إن فى كتاب الوشى المرقوم : أن الهمدانى ادعى أنه لم يصل إلى أحد من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب وبين ذلك على أتم وجه وأثبته ثم قال : والعرب أصحاب حفظ ورواية .

وفى مقدمة أقوم المسالك نقلا عن تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرنسا : أن الآداب كانت قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين : الحميرية فى اليمن ، والقرشية فى الحجاز ، وبالآخرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميرية هو المضرية ، وإن وقع الإجماع فى القراءة على خصوص القرشية ، ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة فى اللسان إلا بدخول الأمم فى الإسلام ، وتطاول السنين ، واللغة المذكورة من الاتساع وَسَعة المجال مالا يخفى على مُثافنها[2] لاسيما فى الأشياء

---

(١) قلت : احفظ فى هذا المعنى ابياتا لبعض الأجلة من العراقيين وهى :

اسفى على فضلى ولم اكن ... ابصرت عارف حقه فيبين
ومن العلوم الغامضات ورمزها ... املى قضيت وللفنون ديون
واخذت فى كفنى علوما لم اجد ... من يحفظن حقوقها ويصون
ودقيق اسرار جعلت لها الحشى ... مستودعا هى فى الدفين دفين

(٢) ثافنه : جالسه وقيل لازمه وكلمه فهو مثافن ومثفن كمحدث وثفن الشىء يثفنه ثفنا لزمه وثفن فلانا صاحبه حتى لا يخفى عليه شىء من أمره ورجل مثفن لخصمه اى ملازم له . والمثافنة : المباطنة .

التى بها قوام المعيشة فى البادية أو تتكرر رؤيتهم لها أو تكثر حاجتهم إليها فقد يكون للشيء الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله ، وبكثرة الترداف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية . إذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسما ، وللثعبان مائتين وللأسد خمسمائة ، وللجمل ألفاً ، وكذا السيف ، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ولا جَرَم[1] أن استيعاب مثل هذه الأسماء يستدعى حافظة قوية ، وللعرب من قوة الحافظة ، وحدة الفكر مالا يسع أحداً إنكاره . فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوماً للخليفة الوليد أنه ينشد له فى الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين إلى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد . انتهى نقل ما هو المقصود مما اعترف به هذا الفاضل مع كونه من صميم أهل أوربا مما للعرب من قوة الحافظة التى لم تكن لغيرهم من الأمم . وإنما يعرف ذا الفضل ذووه . والحق يعلو ولا يعلى عليه . فلذلك اكتفينا فى هذا الباب بهذا المقدار .

* * *

وأما كون العرب أقدر على البيان من غيرهم

فلأن لسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعانى جمعاً وفرقاً يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل إذا شاء المتكلم الجمع ، ثم يميز بين كل شيئين بلفظ آخر مميز مختصر ، كما نجده من لغتهم فى جنس الحيوان ، فإنهم مثلا يعبرون عن القدر المشترك بين أنواعه فى أسماء كل أمر من أموره من الأصوات والأولاد والمساكن والأظفار إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربى التى لا تستراب فيها . وقد أفردها أئمة اللغة بكتب معتبرة ، مطولة ومختصرة . مع ما اشتملت عليه هذه اللغة الجليلة من المزايا التى لم توجد فى غيرها من لغات الأمم . انظر إلى المفرد والجمع وأسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع واختصاص كل محل بعلامته

---

(١) قال فى القاموس : لاجرم ولا ذا جرم ولا ان ذا جرم ولا عن ذا جرم ولا جر ولا جرم ككرم ولا جرم بالضم اى لابد او حقا أو لامحالة او هذا أصله ثم كثر حتى تحول الى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام فيقال لآتينك .

ووقوع المفرد موقع الجمع وعكسه . وأين يحسن مراعاة الأصل وأين يحسن العدول عنه . وهذا فصل نافع جداً يُطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الأمم ، وذلك أن الأصل هو المعنى المفرد وأن يكون اللفظ الدال عليه مفرداً لأن اللفظ قالبُ المعنى ولباسه يحتذى حذوه والمناسبة الحقيقية ثابتةٍ بين اللفظ والمعنى طولا وقصراً وخفةً وثقلا وكثرةً وقلةً وحركةً وسكوناً وشدة ولينا ، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه ، وإن كان مركبا ركبوا اللفظ ، وإن كان طويلا طولوه كالعَنَطْنَطْ والعشنَّق للطويل . فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه . وانظر إلى لفظ بُحْتُر وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق . وكذلك لفظ الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجدُ فى ألفاظها ما يناسب مسمياتها ، وكذلك لفظى الحركة والسكون مناسبتهما لمسمييهما معلومة بالحس ، وكذلك لفظ الدوران والثَّوَران والغليان وبابه فى لفظهما من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها . وكذلك الدخَّال والخرَّاج والضرّاب والأفَّاك فى تكرر الحرف المضاعف منها ما يدل على تكرر المعنى . وكذلك الغضبان والظمآن والحيران وبابه مما صيغ على هذا البناء الذى يتسع النطق به ويمتلئ الفم بلفظه لامتلاء حامله من هذه المعانى فكان الغضبان هو الممتلئ غضباً الذى قد اتسع غضبه حتى ملأ قلبَه وجوارحَه . وكذلك بقيّتها ولا يتسع المقام لبسط هذا فإنه يطول ويَدِقّ حتى يكسع عنه أكثر الأفهام وتنبو عنه للطافته . لأنه ينشأ من جوهر الحرف تارة ومن صفته ومن اقترانه بما يناسبه ومن تكرره ومن حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيره ومن إثباته وحذفه ومن قلبه وإعلاله . إلى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل الحروف وتوخى المشاكلة والمخالفة والخفة والثقل والفصل والوصل . وهذا باب يقوم من يتبعه بسفر ضخم . ولنذكر منه مسألة واحدة وهى اللفظ فى إفراده وتغييره عند زيادة معناه بالتثنية والجمع دون سائر تغيراته . فنقول لما كان المفرد هو الأصل والتثنية والجمع تابعان له جعل لهما

فى الاسم علامة تدل عليهما وجعلت آخره قضاء لحق الأصالة فيه والتبعية فيهما والفرعية فالتزموا هذا فى التثنية ولم ينخرم عليهم . وأما الجمع فإنهم ذهبوا به كل مذهب وصرفوه كل مصرف فمرة جعلوه على حد التثنية وهو قياس الباب كالتثنية والنسب والتأنيث وغيرها . وتارة اجتلبوا له علامة فى وسطه كالألف فى جعافر والياء فى عبيد والواو فى فلوس . وتارة جعلوا اختصار بعض حروفه وإسقاطها علامة عليه نحو عنـكبوت وعناكب فإنه لما ثقل عليهم المفرد وطالت حروفه وازداد ثقلا بالجمع خففوه بحذف بعض حروفه لئلا يجمعوا بين ثقلين . ولا يناقض هذا ما أصلوه من طول اللفظ لطول المعنى وقصره لقصره فإن هذا باب آخر من المعادلة والموازنة عارض ذلك الأصل ومنع من طرده . ومنه جمعهم فعيل وفعول وفعال على فعل كرغيف وعمود وقذال على رغف وعمد وقذل لثقل المفرد بالمدة . فإن كان فى واحدة تاء التأنيث فإنها تحذف فى الجمع فـكرهوا أن يحذفوا المدة فيجمعوا عليه بين نقصين فقلبوا المدة . ولم يحذفوها كرسـالة ورسائل وصحيفة وصحائف فجبروا النقص بالفرق لا إنهم تناقضوا وتارة يقتصرون على تغيير بعض حركاته فيجعلونها علامة لجمعه كفلك وفلك وعبد وعبد . وتارة يجتلبون له لفظاً مستقلا من غير لفظ واحده كخيل وأنام وقوم ورهط ونحوه . وتارة يجعلون العلامة فى التقدير والنية لا فى اللفظ كفلك للواحد والجمع فإن ضمة الواحد فى النية كضمة قفل وضمة الجمع كضمة رسل وكذلك هجان ودلاص وأسمال وأعشار مع أن غالب هذا الباب إنما يأتى فى الصفات لحصول التميز والعلامة بموصوفاتها فلا يقع لبس ولا يكاد يجىء فى غير الصفات إلا نادراً جداً . ومع هذا فلابد أن يكون لمفرده لفظ يغاير جمعه ويكون فيه لغتان لأنهم علموا أنه يثقل عليهم ، أما فى الجر والنصب فَلِتَوَالى الـكسرات ، وأما فى الرفع فَلِثقَل الخروج من الـكسرة إلى الضمة فعدلوا إلى جمع تـكسيره . ولا يرد هذا عليهم فى راحمين وراحمون لفصل الألف الساكنة ومنعها من توالى الحركات فهو كمسلمين وقائمين . وكذلك عدلوا عن جمع فعل المضاعف من صفات العقلاء كفظّ وبَرٍّ فلم يجمعوه

جمع سلامة . ولم يقولوا بَرُّون وفظُّون لئلا يشتبهَ بكاوب وسفود لأنه بزنته فكسروه وقالوا أبرار فلما جاءوا إلى غير المضاعف كصعب جمعوه جمعَ تصحيح ولم يخافوا التباساً إذ ليس فى الكلام فعلول ، وصعفوق[1] نادر ، فتأمل هذا التفريق ، وهذا التصور الدالّ على أن أذهان العرب قد فاقت أذهان الأمم كما فاقت لغتهم لغاتهم . والكلام فى هذا المقام واسع جداً فأين لغير لغة العرب من هذه الأسرار ، والفرق واضح بين الليل والنهار .

وأما ما اشتمل عليه كلام العرب وتراكيبهم ، وما حازته من فنون البراعة أساليبهم ، فقد تكفل ببسطه كتب المعانى والبيان . وما ألف فى بيان إعجاز القرآن . وقد سأل أبو إسحق المتفلسف الكندى أبا العباس المبرّد ، فقال : إنى أجدُ فى كلام العرب حشواً يقولون عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، فأجابه أبو العباس : إن المعانى مختلفة فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه . وقولهم إن عبد الله قائم جوابٌ عن سؤال سائل . وقولهم إن عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكرٍ قيامه . فانظر إلى تفاوت هذه المعانى مع تغيير يسير فى اللفظ . وأما ما فصح من لغاتهم ، وما ملح من بلاغاتهم ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها[2] ، ومن قراضبة[3] نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة[4] تهامة فى أسواقها

---

(١) الصعفوق : اللئيم ، قال فى القاموس : ليس فى الكلام فعلول سواه ، واما خر نوب فضعيف واما الفصيح فيضم خاؤه او يشدد راؤه (٢) جمع ناد وهو المجلس ، وقد ادعى بعض المصريين ان هذا الجمع وان كان هو القياس الا انه غير مستعمل وانما يقال فى جمعه الأندية وهو فى الأصل جمع ندى بمعنى النادى استغنوا به عن جمع النادى كما استغنوا بالأحاديث الذى هو جمع الأحدوثة عن جمع الحديث، ولا يخفى بطلان هذا القول على من له اقل مسكة من العلم (٣) القراضبة : اللصوص من الفقراء والواحد قرضوب وقرضاب (٤) سماسرة جمع سمسار بالكسر . المتوسط بين البائع والمشترى ومالك الشيء وقيمة السفير بين المحبين وسمسار الأرض العالم بها وهى بهاء والمصدر السمسرة .

ومحاممها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلُبها[١] وتساجعت به الرعاة على شفاه عُلَبِها[٢] ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات الماتنة[٣] ، وتزاملت[٤] به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام الفاتنة ، فذاك الذى تنفد عند ذكره المحابر ، ولا تستوعب محاسنه صحائف الدفاتر ، وهم الأحرياء بذلك ، والأحقاء بما هنالك ، أليس قرى الأضياف سجيتهم ، ونحر العشار للناس دأبهم وهِجِّيراهم[٥] ، لا مزقت أيدى الأدوار لهم أديما . ولا أباحت لهم حريما . أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد . فإن الكلام المفيد عند الإنسان بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه . وأطيبُ قرى لها غَبوقه وصَبُوحه[٦] .

وقد سمعتُ بعض من لاخلاق له من الناس أنه ادعى إن لغاتِ الإفرنج اليوم أوسع من لغة العرب بناء على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعانٍ لم تكن فى القرون الخالية . والأزمنة الماضية . فضلا عن أن تعرفه العرب فتفوه به . أو تتخيله فتنطق به . ولا يخفى عليك أن هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة وأنه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أَيْنَ حصلت . وأما ما ذكر من أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين فهو غير شين على العربية . إذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة وإنما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صَوْغها من لغتنا . على أن

---

(١) قلبها جمع قليب وهى البئر (٢) علبها جمع علبة بالضم قدح ضخم من جلود الابل أو من خشب يحلب فيها قال جرير .

لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد فى العلب

(٣) المماتنة . المماطلة والمباعدة فى الغاية (٤) تزاملت : تراجزت .

(٥) يقال هذا هجيراه واهجيراه واهجيراؤه وهجيره واهجورته وهجرياه . اى دابه وشأنه ، قال الشاعر :

رمى فاخطأ والاقدار غالبة فانصعن والويل هجيراه والحرب

(٦) الغبوق كصبور ما يشرب بالعشى ، والصبوح ما يشرب بالغداة .

أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة وصوغ اسم المكان والآلة فى العربية مطرد من كل فعل ثلاثى فما الحاجة إلى أن نقول : فبريقة أو كَرْخانة ، ولا نقول مَعْمل أو مصنع أو أن نقول بيمارستان[1] ولا نقول مستشفى . أو نقول ديوان ولا نقول مأمر ، أو نقول أسطرلاب[2] ، ولا نقول منظر ، والعرب اليوم بخسوا اللغةَ حقَّها فإنهم عدلوا عنها إلى اللغات العجمية من غير سبب موجب ، فإن من يستعير ثوباً من آخر وهو مستغنٍ عنه يحكم عليه بالزيغ والبطر[3] . وإذا اعترض أحد بأن دخول الألفاظ العجمية فى العربية غير منكر ، وأن كلَّ لغةٍ من اللغات لابد أن يكون فيها دخيل ، فاللغة هى بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لأمةٍ أن تعيش وحدها من دون أن تختلِطَ بأمةٍ أخرى ، فإن الإنسان مدنى بالطبع أى محتاج فى تمدنه إلى الاختلاط مع أبناء جنسه . والجواب أن هذا الدخيل إنما يُغْضَى عنه إذا لم يوجد فى أصل اللغة مايرادفه ، أو لم يمكن صوغ مثله فأما مع وجود هـذا الإمكان فالإغضاء عنه بخس لحق اللغة لا محالة ، وإلا لزم المستعربين أن ينطقوا بالباء أو الكاف الفارسيتين ، أو أن يقدموا المضاف إليه على المضاف . وهناك وجه آخر فى العربية لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ العجمية التى اضطررنا إليها وهو باب النحت . قال ابن فارس فى فقه اللغة : العرب تَنْحَتُ مِنْ كلمتين كلمةً واحدة وهو جنس من الاختصار ، وذلك كقولهم : « رجل عَبْشَمِىّ » منسوبٌ إلى اسمين ، وهما عبد شمس .

وأنشد الخليل

أقول لها ودمع العين جارٍ ألم تَحْزُنْكِ حيْعَلَةُ المنادى ؟

(١) بيمارستان . قال الخفاجى . لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناه المريض وستان هو الموضع واول من صنعه بقراط وسماه اخشتدوكين .

(٢) اسطرلاب قال الخفاجى الآلات التى يعرف بها الوقت اسطرلاب والطرجهارة وهى آلة مائية ، وبنكام وهى رملية وكلها الفاظ غير عربية ذكرها فى نهاية الارب .

(٣) البطر : مجاوزة الحد .

من قولهم : « حيَّ على كذا » وهذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد « ضَبْطر » من « ضَبَطَ » و « ضَبَر » . وفى قولهم « صَهْصَلِقْ »[1] إنه من « صَهَل » و « صَلَق » وفى « الصِلْدِم » إنه من « الصلْد » و « الصدْم » إلى آخر ما قال مما يدل على أن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة . ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوستة ونحو ذلك مما اخترعه الأفرنج ليضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين : وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذى ألفته العرب وهو الاختصار والإيجاز . « وأما العمل » فإن مبناه على الأخلاق وهى الغرائز المخلوقة فى النفس وغرائز العرب أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء والغيرة وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

* * *

أما كون العرب أقرب للسخاء من غيرهم

فذاك الذى لا يحتاج إلى بيان ، ولا يعوز إلى إقامة دليل ولا برهان . قد شهد لهم به الأوداء والأعداء ، واعترف لهم الأقربون والبعداء ، إذا ألم بهم ضيف حكموه على أنفسهم ، واستهانوا له ما وجدوه من نفيسهم ، وهذا شعرهم ينْطِق بما جُبلوا عليه ويُعرب عما ألفوه وجنحوا إليه ، وهو مما لا يمكن استيعابه فى هذا المقام ، ومن أين لنا الإحاطة بالبحر المحيط وقد ضاقت عنه دوائر الأفهام ؟ غير أن المعسور . لا يسقط بالميسور . فلا بد من تحلية عاطل جيد هذا الكتاب ، ببعض من عقود نظام در ذلك العباب [3] .

(١) صهصلق : العجوز الصخابة كالصهصليق (٢) الصلدم: كزبرج الاسد والصلب والشديد الحافر كالصلادم فيهما والصلدام بالكسر وهى صلدامة
(٣) العباب كغراب معظم السيل وارتفاعه وكثرته او موجه .

قال عتيبة بن بجير المازنى من بنى الحارث بن كعب :

ومستنبحٍ بات الصدَى يستتيهُهُ ... إلى كل صوتٍ فهو فى الرحل جانحُ [(١)]

فقلتُ لأهلى : ما بُغـام مطيةٍ ... وسارٍ أضافته الـكلاب النوابحُ [(٢)]

فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوَّحتْ به ... مُتُون الفيافى والخطوبُ الطوارحُ [(٣)]

فقمتُ ولم أجْثِمَ مكانى ولم تقُم ... مع النفس عِلاّتُ البخيلِ الفواضحُ [(٤)]

وناديتُ شِبْلاً فاســتجاب وربما ... ضمنّا قِرَى عَشْرٍ لمن لا نُصافحُ [(٥)]

فقام أبو ضيفٍ كريمٌ كأنّه ... وقد جدّ من فرط الفـكاهة مازحُ [(٦)]

---

(١) المستنبح : من يطلب نباح الكلب ليستهدى بذلك فى طريقه ، والصدى: الطائر الذى يصيح بالليل واكثر مايقولون فيه انه ذكر البوم وجمعه اصداء وقد يوقعون الصدى على ضرب من الجنادب يصيح بالليـل والنهـار ، ـ ويستتيهه ـ هو يستفعه من تاه يتيه اذا ضل والجانح : المائل (٢) البغام : قطع مد الصوت بالحنين ، واضافته : جاوبته ، والمعنى : فقلت ما هذا البغام الذى اسمع ومن هذا السارى الذى اضافته الكلاب (٣) قال التبريزى : كان يجب ان يقول والخطوب المطوحات فى الجمع بالالف والتاء لأن اسم الفاعل من طوح مطوح ولكنه اخرج الطوائح على حذف الزيادة من الفعل ومثله قوله عز وجل : « وارسـلنا الرياح لواقح لان اصله ان يجىء ملاقح او ملقحـات لكونها ملقحة للاشجار والفعل منه القح فاخرجه على حذف الزوائد فصـار لقح ولواقح وكذلك الطوائح قياسه ان يكون اذا عدل عن الجمع بالتاء مطاوح وارتفع غريب على انه خبر مبتدا محذوف كأنه قال هو غريب طارق ومعنى طوحت به حملته على المهالك والطائح الهالك . اهـ

وكتب بالهامش قوله كان يجب الخ حله يفيد ان القافيــة الطوائح بدل الطوارح ولعلهما روايتان والمتن الصلب من الارض والفيافى جمع فيفاة وهى المكان المستوى او المفازة لا ماء فيها .

(٤) الجثوم اصله الصاق الصدر بالارض ولزومها ويستعمل كثيرا فى الطير والسباع والجثمان الشخص منه اشتق » وقوله لم تكن مـع النفس علات البخيل يريد ان نفسى لما تهيأت للاضافة لم تقم معها العلات التى تفضح اربابها

(٥) يريد بشبل ابنه ، قال ابو العلاء: اشبه ما روى فى هذا البيت قرى عشر لمن لا نصافح بفتح العين اى عشر ليال لمن ليس له بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحة وبعض الناس يضم العين وله وجه اى ربما ضمنا قرى عشر اموالنا لمن لا نعرف وقد يمكن ان يكون عشر جمع عشير وهو الذى يعاشره من الغرباء او يكون من عشيرته مثل ما يقال صديق وصدق وكريم وكرم ، وقوله لمن لا نصافح يجوز ان يكون من المصافحة المعروفة ويجوز ان يكون من صفحت الناس اى نظرت فى احوالهم .

(٦) عنى بابى الضيف نفسه وارتفع مازح على انه خبر كان وموضع وقد جد موضع الحال كانه قال يشـابه المازح من فرط الصـبابة وهو جاد ويقال فاكهته بملح الكلام وهى الفاكهة .

إلى جِذْمِ مال قد نَهَكْنا سَوَامَهُ   وأعراضُنا فيه بواقٍ صَحَائِحُ[١]

جعلناه دون الذمّ حتى كأنه   إذا عُدّ مال المكثِرين المنائحُ[٢]

لنا حَمْدُ أرباب المئين ولا يُرَى   إلى بيتنا مالٌ مع الليل رائحُ[٣]

وقال مُرَّة بن محكان التميمى السعدى[٤] :

يا ربَّةَ البيت قومى غير صاغرةٍ   ضُمّى إليكِ رحال القوم والقُرُبا[٥]

فى ليلةٍ من جمادى ذاتِ أنديةٍ   لا يُبصِر الكلبُ من ظلمائها الطُنُبا[٦]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ   حتى يَلفَّ على خَيشومه الذنبا[٧]

ما ذا تَرَيْنَ أنُدْنِيهم لأرحُلِنا   فى جانب البيت أم نبنى لهم قببا

لمُرْمِلِ الزاد مَعْنِىٌّ بحاجته   من كان يَكره ذماً أو يَقِى حسبا[٨]

وقمت مستبطناً سيفى فأعرضَ لى   مثلَ المجادلِ كومٌ برّكت عُصبا[٩]

---

(١) الجذم : الاصل ، ونهكنا سوامه : اى اثرنا فى السائمة من المال بما عودناها من النحر من قولهم نهكه المرض اذا أضر به ، والسوام : الابل الراعية وجملة الى جذم مرتبط بـ (قام) فى البيت قبله والمعنى فقمت الى الابل التى انفدنا السوام منها فى الضيافة وحمل الديات مع نقاء عرضنا .

(٢) المنائح جمع منيحة وهى الناقة او الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها ما دام بها لبن فاذا انقطع لبنها ردت ، وقوله جعلناه دون الذم يريد صيرناه دون الذم (٣) يعنى انها على قلتها باركة بالفناء الحقوق لا تبلغ أن تصير سارحة ورائحة ولكن لنا حمد ارباب الابل الكثيرة لجودنا وكرمنا .

(٤) محكان علم مرتجل فعلان من م ح ك ، ومرة هذا من بطن يقال لهم بنو ربيع بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو شاعر اسلامى مقل من شعراء الدولة الاموية ، عاصر جريرا والفرزدق فاخملا ذكره وكان شريفا جوادا ولا عقب له ، وهو أحد من حبس فى القرى والاطعام ، قتله مصعب بن الزبير فى ولايته لامر كان بينهما حبسه ثم دس اليه من قتله .

(٥) القرب جمع قراب السيف وهو كالجراب بوضع السيف فيه بغمده وغير السيف وانما امرها بضم الرجال والقرب لانهم لما نزلوا عنده فقد امنوا لا يحتاجون الى حضور السلاح عنده .

(٦) قوله لا يبصر الكلب مبالغة من شدة الظلمة والكلب قوى البصر بالليل فاذا بلغ امره الى ما وصف فهو نهاية الظلم والطنب حبل البيت .

(٧) قوله حتى يلفى انتصب الفعل باضمار ان وحتى بمعنى الى كأنه قال الى ان يلف الذنب على خرطومه الا نبحة واحدة .

(٨) المرمل : الذى قد انقطع زاده .

(٩) يقال استنبطت فلانا دونك اى خاصته وتبطنت كذا دخلت فيه حتى عرفت باطنه وقوله فاعرض لى اى ابدت لى عرضها نوق كانهن قصور ، والكوم جمع أكوام وكوماء وهى العظام الاسنمة ، وعصب جمع عصبة .

فصادف السيفُ منها ساقَ مُتْلِيةٍ   جلْسٍ فصادف منه ساقُها العَطَبا[(١)]

زيّافةٍ بنتِ زيّافٍ مذكَّرةٍ   لمّا نَعَوْها لراعى سَرْحِنا انتحبا[(٢)]

أمطيتُ جازِرَنا أعلى سناسِنِها   فصار جازرُنا من فوقها قتَبا[(٣)]

يُنَشْنِش اللحم عنها وهى باركة   كما تنشنش كفا قاتلٍ سلبا[(٤)]

وقلتُ لما غَدَوْا أوصى قعيدتنا   غَدّى بنيك فلن تلقّيهمُ حَقبا[(٥)]

أدعى أباهم ولم أقْرَفْ بأمّهمِ   وقد عمرْتُ ولم أعرف لهم نسبا

أنا ابن مَحْكان أخوالى بنو مَطر   أنمى إليهم وكانوا معشراً نجُبا[(٦)]

« وقال آخر »

ومستنبحٍ قال الصدى مثل قوله   حضأتُ له ناراً لها حطبٌ جزْلُ[(٧)]

فقمت إليه مُسْرعاً فغنمتُه   مخافة قومى أن يفوزوا به قبل

فأوسعنى حمداً وأوسعته قرىً   وأرخِصْ بحمدٍ كان كاسبَهُ الأكل

« وقال آخر »

تركتُ ضأنى تودُّ الذئبَ راعيَها   وأنها لا ترانى آخرَ الأبدِ[(٨)]

---

(١) اراد انه عرقب ناقة منها ، والمتلية هى التى لها ولد يتلوها وقيل هى الحامل ، والجلس : الصلبة المشرفة وقيل هى الواسعة الاخذ من الارض والجلس المكان المرتفع (٢) الزيافة : التى تزيف فى مشيها وتتبختر، والمذكرة المتشبهة بالجمل، ونعوها : اخبروا بنحرها، والسرح : المال الراعى، والانتحاب رفع الصوت بالبكاء ، وانما بكى عليها لانها من خيار المال واعزه عنده .

(٣) يقال أمطيت البعير اذا ركبت مطاه وهو الظهر وامطيته غيرى وانما يصف اشراف ناقته التى نحرها فيقول ركبها جازرنا لما نحرها اذ كان اعلى سناسنها لم تصل يده اليه فصار منها لما عالاها بمكان القتب ، والسناسن اعلى السنام والخارج من نقار الظهر واحدتها سنسنة .

(٤) ينشنش : اى يكشف ويفرق وقيل النشنشة مباشرة الشىء حتى تاخذه كما تريد . (٥) الحقب : السنون واحدتها حقبة .

(٦) بنو مطر بن شيبان رهط معن بن زائدة .

(٧) حضأت له نارا : فتحت عينها لتلتهب وقد اوقدت بغلاظ الحطب وكبارها وحضأت له نارا جواب رب .

(٨) الضأن : ذوات الصوف من الغنم الواحدة ضائنة والذكر ضائن ، قال ابن الانبارى : الضأن مؤنثة والجمع اضؤن مثل فلس وافلس وجمع الكثرة ضئين مثل كريم .

الذئبُ يَطْرُقها فى الدهر واحدةً   وكلَّ يوم ترانى مُدْيَةٌ بيَدِى[١]

« وقال آخر »

ما أنا بالساعى إلى أم عاصم   لأضربَها إنى إذًا لَجَهُولُ[٢]

لكِ البيتُ إلا فَيْنَةً تُحْسنينها   إذا حان من ضيفٍ علىَّ نزول[٣]

« وقال بعض بنى أسد »

وسوداءَ لا تُكْسَى الرقاعَ نَبيلةٍ   لها عند قَرَّاتِ العشياتِ أزْمَلُ[٤]

إذا ما قَرَيْناها قِراها تضمَّنَتْ   قِرَى من عرانا أو تزيد فتفضلُ

« وقال آخر وهو عروة بن الورد »

سلى الطارقَ المعترَّ يا أم مالك   إذا ما أتانى بين قِدْرى ومَجْزَرى[٥]

أيُسْفِرُ وجهى أنه أول القِرَى   وأبذُلُ معروفى له دون مُنكرى[٦]

« وقال آخر »

وإنا لَمَشَّاؤونَ بين رحَالنا   إلى الضيف منا لاحِفٌ ومُنِيم[٧]

فذو الحلم منا جاهلٌ دون ضيفه   وذو الجهل منا عن أذاهُ حليم

« وقال ابن هرْمَةَ »

أغشَى الطريقَ بقبَّتى ورِوَاقِها   وأَحُلُّ فى نشزَ الرُبى فأقيمُ[٨]

إنَّ امرأً جعل الطريقَ لبيته   طُنُباً وأنْكَرَ حقه للَئِيمُ[٩]

---

(١) المدية : الشفرة والجمع مدى ومديات .

(٢) قوله وما انا بالساعى كانه رأى انسانا يضرب امراته ويحول بينها وبين تدبيرها دارها فنفى عن نفسه مثل ذلك بفعله المتناهى فى الجهل .

(٣) الفينة : الوقت . (٤) القرة الشعر بعينه، والازمل : الصوت الشديد، والسوداء يعنى قدرا والرقاع يعنى الثياب ، ونبيلة : عظيمة الشأن وخص قرات العشيات لأنها وقت الاضياف . (٥) الطارق : الآتى ليلا ، والمعتر المنعرض ولا يسأل ، وقوله : بين قدرى ومجزرى يريد اذا أتانى فى موضع الضيافة أعطينه اما لحما نيــأ وذلك من المجزر واما مطبوخا وذلك من القدر .

(٦) قوله انه أول القرى يريد أن اظهار البشاشة للضيف من أوائل قراه والمنكر ههنا أن يسأله عن اســمه ونسبه وبلده ومقصــده وكل هذا مما يجلب عليه حياء . (٧) أى يلبسه اللحاف ومنيم يحدثه حتى ينام .

(٨) يعنى أنه يضرب قبة على الطريق ، ويروى فى قلل الربى .

(٩) يعنى حق الطريق ولم يرض بالحلول على الطريق حتى وصله بالاقامة، وقوله جعل الطريق لبيته طنبا أراد جعل الطريق موضع طنب بيته فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه .

« وقال آخر »

ومستنبحٍ تَسْتَكْشِطُ الريحُ ثوبَهُ ليسقط عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ[١]
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبحَ كلبٌ أو ليفزعَ نُوَّمُ[٢]
فجاوبه مستسمعُ الصّوت للقرَى له عند إتيان المهبينَ مَطْعَمُ[٣]
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجَمُ[٤]

« وقال سالم بن قُحْفان العنبرى »

لا تعذُليني فى العطاء ويسّرى لكل بعير جاءَ طالبه حَبْلا[٥]
فإنى لا تبكى علىّ إفالها إذا شَبِعت من روض أوطانها بقلا[٦]
فلم أر مثل الإبل مالا لِمُقْتَنٍ ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا[٧]

« ومن خبر هذه الأبيات » أن سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته هاتى حبلا يقرن به ما أعطيناه إلى بعيره . ثم أعطاه بعيراً آخر وقال هاتى حبلا ثم أعطاه ثالثاً فقال هاتى حبلا فقالت ما بقى عندى حبل . فقال علىّ الجمال . وعليك الحبال . فرمَتْ إليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فأنشأ يقول لا تعذليني فى العطاء ، الأبيات . فأجابته امرأته .

حلفتُ يميناً يا ابنَ قحفان بالذى تكفَّل بالأرزاق فى السهل والجبل

(١) كشط واستكشط بمعنى وهو كعجب واستعجب والكشط والقشط يتقاربان واصل الكشط للبعير وان استعمل فى غيره والجلد يقال له الكشاط والمعصم والمستعصم واحد وهو المستمسك بالشىء .
(٢) الاعتساف : الاخذ فى الطريق على غير هداية وانما يقال ليفزع نوم لانهم اذا انتبهوا لصوته اجابوه وتلقوه او رفعوا النار له .
(٣) قوله له عند اتيان المهبين مطعم ، يعنى سعة عيش الكلب فيما ينحر للضيف والمهبون الاضياف يقال هب من نومه واهببه .
(٤) اى يكاد الكلب يكلم الضيف حبا له اذا اقبل على عجمته .
(٥) يسرى اى هيئى واعدى .
(٦) أفالها : صغارها الواحد افيل وفى معناه قولان احدهما ان الابل بهائم لا تهتم لى اذا مت بل ترتع وتشبع فموتى عندها وموت من لا ينحرها سواء ، والآخر ان ابلى لا تبكى بعد موتى بل تفرح بموتى لانى انحرها فاذا مت فلعله يأخذها من لا ينحرها .
(٧) المقتنى الذى يقتنى المال ونفس المال المدخر قنوة .

تَزالُ حبالٌ محصدات أعدُّها لها ما مشي منها على خفهِ جمل°(١)
فأعطِ ولا تبْخلْ لمن جاء طالباً فعندي لها خُطْمٌ وقد زاحت العلل°(٢)

« وقال آخر »

ألا تَرَيْنَ وقد قَطَّعْتني عَذَلاً ماذا مِنَ البعد بين البخْل والجودِ
إلا يكُنْ وَرَق غَضّا أراحُ به للمُعتفين فإني ليِّنُ العـــود(٣)

« وقال قيس بن عاصم المنقرى »

إني امرؤ لا يعترى خُـــلُقى دنَس يفنّده ولا أفْنُ(٤)
من مِنقَر في بيت مَـكْرُمة والغصن ينبُت حوله الغصن
خطباء حين يقـــول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقع لُسن(٥)
لا يفطنونـ لعيبِ جارهم وهُمْ لحفظ جواره فطُنْ(٦)

« وقال ابن عنقاء الفزارى »

رآني على مابي عُمَيْلَة فاشتكى إلى مالِهِ حالى أسَرَّ كما جَهَرْ°(٧)
دعاني فآساني ولو ضَنَّ لم ألُمْ على حين لا بَدْوٌ يُرَجَّى ولا حَضَرْ°(٨)
غـــلامٌ رماه الله بالخير يافعاً له سيمِياء لا تَشُقُّ على البصر(٩)

---

(١) أى ما تزال وجاز حذفها لدلالة اليمين عليها . (٢) زاحت بمعنى زالت وازحتها ازلتها . (٣) الورق المال من الابل والوراق الرجل الكثير الورق ، يقال رحت له اراح أى ارتحت وقيل الاريحى افعلى من هذا وذكر الورق كناية عن المـال كثير في كلامهم » قال زهير :

وليس مانع ذى قربى ولا رحم يوما ولا معدم من خابط ورقا

لما استعار الورق للمال وصله بالخابط تحسينا لكلامه وكذلك هذا لماكنى عن معروفه بالورق وصله بالعود واذا لان العود اهتز وعن الاهتزاز للخير يحصل الندى . (٤) يفنده : يفحشه والفند الفحش ويقال افند الرجل اذا اتى بالفحش والافن اصله استخراج اللبن من الضرع حتى يخلو منه ثم قيل افن الرجل فهو مأفون اذا زال عقله .

(٥) المصاقع جمع مصقع واصل الصقع الضرب وهو هنا رفع الصوت ، اللسن جمع لسن يقال لسن يلسن لسنا اذا تناهى في البلاغة والفصاحة .

(٦) يقول هم يلابسون الجار على ظاهر امره ولا يتحسسون عليه وان اتفق له ما يوجب عليهم حفظه بعقد الجوار فطنوا له ، والفطن جمع فطن .

(٧) اشتكى الى ما له مجاز جعل رجوعه الى ما له في اصلاح امره شكاية منه اليه ، وقوله اسر كما جهر أى لم ينافق يعنى انه اسر الاهتمام بامرى كما اظهره . (٨) قوله فآساني أى جعلني اسوة له بأن اعطاني من ماله ولو ضن أى بخل لم المه لضيق الزمان . (٩) السيمياء الحسن والبهجـة أى قد وسمه الله تعالى بسيمى حســنة مقبولة يلتذ الناظر اليها .

كأن الثريا علقت في جبينه   وفى خده الشعرى وفى وجهه القمرْ
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه   ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر[١]
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه   تردى رداءً واسع الذيل وائتزر
فقلت له خيراً وأثنيت فعله   وأوفاك ما أسديت من ذمٍّ أو شكر[٢]

قال أبو رياش : مر عميلة الفَزارى على ابن عنقاء الفَزارى وهو يحتش[٣] لغنمه . وقيل يحفر عن البقل ويأكله ، فقال : ياابن عنقاء ما أصارك إلى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان ، وتعذر الأخوان ، وضَنُّ[٤] أمثالك بما معهم فقال عميلة لاجرم والله لاتطلع الشمس غداً إلا وأنت كأحدنا ثم انصرف كل واحد منهما إلى أهله . وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه[٥] فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لايأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة فقالت له امرأته ما شأنك ؟ فاخبرها الخبر فقالت : قد خرِفت وذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لايحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى أنه لما أصبح قالت له ابنته لو أتيت عميلة فقد وعدك أن يقاسمك ماله فقال . يابنية إن الفتى كان سكران ولا أدرى لعله لم يعقل ما قاله فبينا هى تراجعه الكلام إذ أقبل عليهم كالليل من إبل وغنم وخيل ، وإذا عميلة قد وقف عليه فقال : يا ابن عنقاء أخرج إلىَّ نخرج إليه . فقال : هذا مالى أجمع هلم نقتسمه فقاسمه إياه بعيراً وبعيراً وفرساً وفرساً وشاةً وشاةً وجاريةً وجاريةً وغلاماً وغلاماً . ثم انصرف فقال ابن عنقاء الأبيات .

« وقال آخر »

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى   أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه   ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

(١) العوراء الكلمة القبيحة ، واغضى طبق اجفانه .
(٢) اسدى من سدى البعير اذا قدم يديه فى السير ومن اسداك خيرا فكأنه بسط به اليك يده مقبلا .
(٣) يقطع الحشيش بعد جفافه .
(٤) ضن : اى بخل .
(٥) بقل وجهه اى خرج شعره .

رأى خلّتى من حيث يخفى مكانها   فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ (١)

« وقال رجل من بهَرْاء واسمه فَدَكىٌّ »

إنْ أجْز علقمةَ بن سيفٍ سعيَهُ   لا أجزِهِ ببلاء يومٍ واحد

لأحبَّنى حُبَّ الصبى وَرَمَّنى   رَمَّ الهَدِىّ إلى الغنىّ الواجد(٢)

وأجابنى يوم الصُّراخ بِهَجْمةٍ   مائةٍ تشقُّ على عِصِىّ الذائِدِ

ولقد نَضَحْتُ مليلتى فتميثت   عن آل عتّاب بماء باردِ (٣)

« ومن خبر فَدَكى » أنه كان مجاورا فى بنى تغلب لبنى عتاب بن سعد ابن زهير ابن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب فأقام فيهم مدةً ثم إن علقمة ابن سيف العتابى غزا فى بعض مغازيه فأغار حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن بكر ابن حبيب فأخذ إبل البهرانى فكان إذا ورد بنو عتاب نعمهم حوّض حوضاً واستقى فيه حتى يملأه ثم يغمز فيه ذكره ويقول : اشرب فمالى مال غيرك وإذا حضر مجالسهم أنشأ يقول :

هل أنا إلا معزب ليالياً   لياليا من رجب ثمانيا

ثم تجىء جيرتى بماليا

فلما قدم علقمة بن سيف أخبروه شأن البهرانى ، فقال إن حنش بن معبد لى صديق وإن وفدت عليه رد على الإبل ، فوفد عليه فى جماعة من بنى تغلب ، فيهم رجل من بنى الأوس بنى تغلب ، وهم أشأم حى فى العرب بسبب رجل منهم وقعت حرب البسوس وبسبب رجل آخر منهم وقعت حرب ابنى بغيض ذبيان وعَبْس . فلما قَدِموا على حنش بن معبد فَرِح بهم وبنى عليهم قبة وأكرمهم

---

(١) الخلة : الفقر هنا ، وقوله فكانت قذى عينيه اى لم يصبر عليها كما لا يصبر الرجل على قذى عينيه حتى يخرجه .

(٢) رمنى : أصلح حالى « رم الهدى : الهدى العروس اذا زفت العروس الى الغنى تكلف أهلها فى حسن تجهزها لئلا يعيرها أهل زوجها خللا وقع فى امرها ولا يعير زوجها تزوجه اياها .

(٣) المليلة : شـدة العطش والحرارة ، وتميثت : بردت وذابت من ماث الدواء اذا أذابه .

ووعدهم أن يرد على علقمة بن سيف الإبل إذا أصبحوا فلما كان الليل استسمع عليهم حنش بن معبد وهم يتحدثون ويذكرون ما صنع بهم حنش ووعده إياهم رد الإبل وسمع الأوسى وهو يقول ألم أحدثكم أنها كالمصبة ازدردتها[1] اللَبْوةُ إن لا تقئها تخراها فأغضب ذلك حنشاً وحلف أن لا يَرُدَّ منها بعيراً فلما رجعوا أخرج علقمة بن سيف من ماله مائة بعير فأعطاها البهرانى وقال هذا بدل ما أخذ منك ، فقال البهرانى : سأشكر عمراً الأبيات .

وقال الحسين بن مطير الأسدى فى بعض العرب

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعُمُ[2]

فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البأس من كفه الدم

ولو أن يوم البأس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

ولو أن يوم الجود خلّى يمينه ... على الناس لم يصبح على الأرض معدم

وقال أبو الطَّمَحان القينى واسمه حنظلة بن الشرقى[3]

إذا قيل أى الناس خيرٌ قبيلةً ... وأصبرُ يوماً لا توارى كواكبه[4]

فأنَّ بنى لام بن عمرو أرومةٌ ... سمت فوق صَعْب لاتنال مراقبه[5]

---

(١) زرد اللقمة وازدردها : بلعها ، واللبوة كعنوة ، ويكسر وكسمرة وكقناة الاسدة ، قال فى المصباح : الهاء فيها لتأكيد التأنيث كما فى ناقة ونعجة لانه ليس لها مذكر من لفظها حتى تكون فارقة ، ويقال : اجرى من اللبوة .

(٢) يقول أيام هذا الممدوح مقسمة بين انعام وانتقام يوم بؤس تشقى به اعداؤه ويوم نعيم تحيا به وتسعد اولياؤه ثم جاء بما عنده من الابيات مشروحا فقال : فيمطر يوم الجود الخ .

(٣) ترجمته فى الخزانة (٣/٤٢٦) .

(٤) قبيلة منصوب على التمييز والمراد باليوم يوم الحرب والقتال ، وتوارى اصله تتوارى فحذف احدى التاءين ، واراد بكواكبه شدة ذلك اليوم ، قال التبريزى : والاصل فى هذا ان يوم حليمة لشدة القتال صعد الغبار فى ذلك اليوم وانعقد فى الجو حتى ستر الشمس فرؤيت الكواكب ظهرا — والمعنى ان سال سائل عن خير قبيلة واصبرها يوم القتال الشديد قيل له بنو لام .

(٥) المراقب : جمع مرقبة وهى المكان المشرف العالى يقف عليه الحارس ، اى سمت فوق صعب يشق الارتقاء اليه ، الارومة : الاصل .

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ ثاقبه[١]

وقال آخر

يا أيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن زيد لقد خلَّى لك السُّبُلا[٢]

اعدُدْ نظائر أخلاق عُدِدْنَ له هل سَبَّ من أحد أو سُبَّ إذ بَخِلا ؟

إن تنفق المال أو تكلف مساعيَهُ يَصْعُبْ عليك وتفعل دون ما فعلا

لو يُبْعَثُ الناس أدناهم وأبعدهم فى ساحة الأرض حتى يحرثوا الإبلا[٣]

كى يطلبوا فوق ظهر الأرض لم يجدوا مثلَ الذى غيبوا فى بطنه رَجلا

وقال شقران مولى سلامان من قضاعة

لو كنتُ مولى قيس عيلانَ لم تجد علىّ لإنسان من الناس درهما

ولكننى مولى قضاعةَ كلّها فلستُ أبالى أن أدينَ وتَغْرَما

أولئك قومى بارك الله فيهم على كل حال ما أعفّ وأكرما[٤]

ثقالُ الجفان والحلوم رَحاهُمُ رحى الماء يكتالون كيلا غَذَمذما[٥]

جفاة المحزّ لا يصيبون مَفْصلا ولا يأكلون اللحم إلا تخذّما[٦]

وقالت ليلى الاخيلية ويقال بل قالها أبوها

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتى يَدِبّ على العصا مذكوراً[٧]

---

(١) الجزع بالفتح ، فيه بياض وسواد ، الواحد جزعة مثل ثمر وثمرة ، والثقوب الاضاءة ، يقال نار ثاقبة وكوكب ثاقب وحسب ثاقب وقد ثقب أى اشتد ضوؤه وتلألؤه . (٢) اراد بابن زيد عروة بن زيد الخيل اى لقد خلى لك الطرق فى اكتساب مناقب الفتوة .

(٣) قوله حتى يحرثوا الابل اى يهزلوها ويضعفوها بالاسفار ، وقوله لم يجدوا جواب لو ، ومعنى البيتين : لو طاف الناس بالارض حتى تتعب ابلهم لكى يصادفوا عليها مثل هذا الممدوح الذى اودعوه بطنها لم يجدوا له نظيرا .

(٤) قوله على كل حال متعلق بقوله بارك الله فيهم اى بارك الله فيهم فى سائر أحوالهم ، ثم قال مستأنفا ما اعف واكرما اى أعفهم واكرمهم — والمعنى انه يدعو بالبركة ويتعجب من عفافهم وكرمهم . (٥) الغذمذم كسفرجل الجزام

(٦) الخذم : سرعة القطع وفى التخذم زيادة تكلف ، يقول اذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولوه الا قطعا بالسكاكين لا نهشا بالاسنان ، وقيل المراد بالاختذام هو طيب النفس يقال رجل خذم اى طيب النفس والخذم السمح

(٧) الاخايل : جمع وهى قبيلة ، ويقال للشاهين الاخيل والجمع الاخايل ومراد الشاعر نحن المعروفون المشهورون ، وقوله لا يزال غلامنا اى الغلام منا رفيع الذكر من صباه الى أن يهرم .

تبكي السيوفُ إذا فقدنَ اكفَّنا　　جزعاً وتعلَمُنا الرفاقُ بُحورا
ولَنَحْنُ أوثقُ فى صدور نسائكم　　منكم إذا بكر الصُّراخ بكورا[١]

وقال عمرُو بنُ الاطنابةَ أحد بنى الخزرج[٢]

إنّى من القوم الذين إذا انتدَوْا　　بدأوا بحق الله ثم النائل[٣]
المانعين من الخنا جاراتهم　　والحاشدين على طعام النازل[٤]
والخالطين فقيرَهم بغنيهم　　والباذلين عطاءهم للسائل
الضاربين الكبش يبرقُ بيضه　　ضربَ المُهَجْهِجِ عن حياض الآبل[٥]
والقاتلين لدى الوغى أقرانَهم　　إن المنيـة من وراء الوائل[٦]
والقائلون فلا يعاب كلامُهم　　يوم المقامةِ بالقضاء الفاصل[٧]
خُزْرٌ عيونُهُمُ إلى أعدائهم　　يمشون مشي الأُسْدِ تحت الوابل[٨]
ليسوا بأنكاسٍ ولا ميلٍ إذا　　ما الحربُ شبتْ أشعلوا بالشاعل[٩]

---

(١) انما خص الصراخ بالبكور لأن الغارة تقع صباحا (٢) الاطنابة . سير الحزام يكون عونا لسيره اذا قلق ، قال سلامة : (يركضن قد قلقت عند الاطانيب) والاطنابة سير يشد فى وتر القوس العربية والاطنابة المظلة ، واسم ام عمرو هذا وهو احد من ملك الحجاز فى الجاهلية وكان شاعرا مجيدا وهو القائل :

اقول لها وقد جشأت وجاشت　　مكانك تحمدى أو تستريحى

تمثل به معاوية (رضى الله عنه) فى احدى وقعاته مع على (رضى الله عنه) وكاد ينهزم فما لبث ان ثبت مكانه ، واما الخزرج فالريح الجنوب (٣) انتدوا تصدروا فى النادى وهو المجلس ، وقوله بداوا بحق الله يعنى الواجبات ، النائل : يعنى العطاء للسائل (٤) قوله الحاشدين اى الذين لايفترون عن القيام بذلك ، والخنا : الفحش ، والنازل اراد به الضيف (٥) المهجهج الذى يطرد الابل عن الحوض اذا رويت فيقول لها جوه او جاه وعندهم أن جوه من زجر الاناث وجاه من زجر الذكور ، والآبل صاحب الابل كالتاجر واللابن ، والكبش سيد القوم والبيضة بيضة الحديد التى تلبس للحرب (٦) يقول ان المنية من وراء الهارب اى تلحقه على كل حال لامنجى منه ، والوغى : الحرب (٧) المقامة : المجلس (٨) الخزر ضيق العين كأنه ينظر بمؤخرها ، والوابل : المطر الشديد — معناه انهم ينظرون الى اعدائهم نظر استزراء ولا يكترثون بهم ولا يفزعون من شيء لشدة ثباتهم (٩) الانكاس جمع نكس وهو الذى لاخير فيه ، والميل جمع أميل وهو الذى لايثبت على الفرس ، والمعنى انهم ليسوا بالضعفاء بل هم فرسان اذا اوقدت نار الحرب اشعلوها بمن يشعلها

وقال حجْر بن خالد يمدح النعمانَ بن المنذر

سمِعْتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبى قابوس حزما ونائلا[١]

فساق إلهى الغيث من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل وادٍ حللتهُ من الأرض مسفوح المذانبِ سائلا[٢]

متى تُنْع يُنْع الجودُ والبأس والتقى وتُصبحْ قلوص الحرب جرباء حائلا[٣]

فلا ملِكٌ يُدْرِكنَّكَ سعيهُ ولا سوقةٌ ما يمدحنّك باطلا[٤]

وقال آخر

ومستنبح بعد الهدوء دعوته بشقراءَ مثلِ الفجر ذاكٍ وقودُها[٥]

فقلتُ له : أهلاً وسهلاً ومرحباً بمُوقِدِ نارٍ مُحْمَدٍ من يرودها

نَصبْنا له جوفاء ذات ضبابةٍ من الدهم مبطانًا طويلاً رُكودُها[٦]

فإن شئت أثْوَيناك فى الحىّ مكرما وإن شئت بلغناك أرضاً تريدها[٧]

وقال آخر

ومستنبح تهوى مساقط رأسه إلى كل شخص فهْوَ للسمع أصْوَرُ[٨]

---

(١) ابو قابوس كنية النعمان والكاف من كمثل زائدة ومثله (لواحق الأقراب فيها كالمقق) أراد فيها المقق كما أن هذا يريد لم ار مثل ابى قابوس (٢) فأصبح منه أى من الغيث وانتصب مسفوح المذانب على انه خبر أصبح والمذانب المسايل (٣) ليس للحرب قلوص انما هو مجاز استعمله لضعف الحرب بعده لأن القلوص اذا جربت لم تركب واذا حالت لم تحلب (٤) السوقة سموا سوقة لأن الملك يسوقهم على حكمه والواحد والجمع فى اللفظ سواء ، وقوله مايمدحنك باطلا اى مدحا باطلا وانتصب باطلا على انه صفة لمصدر محذوف (٥) بعد الهدوء أى بعد قطعة من الليل يهدأ فيها الناس ، وشقراء نار شبهها بالفجر لارتفاعها وانتشارها وقوله ذاك وقودها اى متقد ايقادها وهذا من باب جنونك مجنون وشعرك شاعر ومعنى دعائه الى النار الهابه اياها ليبصر ضوءها فيجىء اليها (٦) جوفاء : اى قدرا واسعة الجوف كثير الأخذ ، والضبابة : مايتعقب المطر من الظلمة الرقيقة والسحاب الركيك وذكر ههنا مثلا والدهم السود ، وركودها لبثها على النار لعظمها وكثرة اللحم فيها (٧) يقول ان اردت الاقامة اقمت مكرما معظما وان اردت التوجه فى مقصدك بلغناك مقرك (٨) المساقط جمع مسقط ويريد به المصدر أى يميل راسه الى كل شخص يقدره انسانا ليلتجىء اليه لأنه ضل الطريق

يُصَفِّقُه أنف من الريح باردٌ ونكباء ليلٍ من جُمادى وصرصرُ(١)

حبيبٌ إلى كلبِ الكريم مُناخه بغيضٌ إلى الكوماء والكلب أبصرُ(٢)

حضأت له نارى فأبصرَ ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يُبصِرُ(٣)

دعته بغير اسم هلمَّ إلى القِرى فأسرى يبوعُ الأرض والنار تزْهَرُ(٤)

فلما أضاءت شخصهُ قلتُ مرحباً هلمَّ وللصّالين بالنار أبشروا(٥)

فجاء ومحمود القرى يستفزه إليها وداعى الليل بالصبح يصْفِرُ(٦)

تأخرت حتى لم تكد تصطفى القِرى على أهله والحق لا يتأخر(٧)

وقمت بنصْلِ السيف والْبرْكُ هاجدٌ بهازرهُ والموت بالسيف ينظر(٨)

فاعضضتهُ الطولى سناماً وخيرها بلاءً وخيرُ الخير ما يتخيَّر(٩)

فأوفضْن عنها وهى ترغو حُشاشةً بذى نفسها والسيف عُريان أحمر(١٠)

والاصور . المائل (١) يصفقه . يضربه ، والأنف من الريح أولها ، والنكباء . كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الأربع ، والصرصر : الريح الباردة (٢) الكوماء الناقة العظيمة السنام ، وابصر بمعنى اعلم من بصر القلب لابصر العين ، معناه ان كلب الرجل الكريم يحب الضيف لياكل من طعامه وأن ناقته تكره الضيف لانه ينحرها له (٣) حضأت له نارى اى رفعتها له ليستدل بها ولولا رفعها له ما كان يبصر الطريق ولا يهتدى (٤) يبوع الأرض . اى يقطعها بخطو واسع وحركة سريعة ويقال بعت ابوع بوعا من هذا وفرس بيع واسع الخطو والنار تزهر الواو واو الحال وتزهر تضىء فى صعود (٥) اى لما دنا منى وتراآى لى شخصه بضوء النار تلقيته بالترحيب وقلت لمن حول النار من المصطلين ومن الأهل والخول استبشروا بالضيف ، وقوله مرحبا تسليم عليه ، وهلم امر بالدنو له فكانه استانف بعد التسليم بهذا الكلام ولم يجمعهما اللفظ به فى حالة واحدة (٦) يستفزه : اى يستحثه ، وداعى الليل . مايصوت بالسحر مثل الديك وغيره ، والصفير : كل صوت يمتد مع رقة (٧) اى قلت للضيف تأخرت حتى كاد غيرك يسبق الى القرى فينال صفوة القرى اى خياره دونك ولكن حق الضيف لايؤخر عنه بتأخر حضوره (٨) البرك : الابل ، والهاجد : النائم ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقة العظيمة (٩) فاعضضته الطولى اى جعلت السيف يعضها والطولى مؤنثة الأطول وخيرها بلاء اى واحسنها نعمة ومن نعمة الناقة ان تكون كريمة الأولاد غزيرة اللبن سريعة السير وغير ذلك من الصفات المحمودة فيها ، ومعناه انه نحر من الابل اطولها سناما واطيبها لحما واكرمها عنده منزلة (١٠) اوفضن اى تفرقن بسرعة واصل الايفاض الاسراع وترغو من الرغاء اى تصوت ، والحشاشة بقية الروح ، وبذى نفسها اى بخالصة نفسها ، وعريان احمر اى مجرد من غمده متلطخ بدم الناقة

فباتت رُحابٌ جَوْنَةٌ من لحامها وفوها بما فى جوفها يتغرغر[١]

وقال آخر

وما يَكُ فىَّ من عيبٍ فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل[٢]

وقال آخر

سأقدحُ من قدرى نصيباً لجارتى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى[٣]
إذا أنت لم تشرك رفيقك فى الذى يكون قليلا لم تشاركه فى الفضل[٤]

وقال عمرو بن الأهتم

ذرينى فإن الشحَّ يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق[٥]
ذرينى وحطى فى هواى فإننى على الحسب الزاكى الرفيع شفيق[٦]
ذرينى فإنى ذو فعال تهمنى نوائب يغشى رزؤها وحقوق[٧]
وكلٌّ كريم يتقى الذم بالقرى وللحق بين الصالحين طريق[٨]
لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق[٩]

---

(١) الرحاب الواسعة واراد بها القدر ، والجونة السوداء ومن لحامها خبر باتت كقولك أنت منى ، وفوها أى فمها ، ويتغرغر اى يصوت من شدةغلبانها ويسيل بما فيها على النار (٢) جبان الكلب اى كلبى جبان وفصيلى مهزول انما قال جبان الكلب لأنه تعود ان يسالم الطراق لئلا تتأذى به الضيوف اذا وردوا وقال مهزول الفصيل لأنه يؤثر بلبن أمه غيره أو تنحر عنه .

(٣) القدح : الغرف ، والكفاف : ما يكف الانسان عن السؤال ويكون على قدر حاجته لايزيد عنها ولا ينقص (٤) الفضل مازاد عن الحاجة ومثل هذا البيت قول الآخر

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

(٥) يقول ذرينى أجر على كرمى فان الشح يزين للانسان العذر الكاذب والعلل الباطلة فكأنه يسرق كل أخلاقه الحميدة (٦) حطى فى هواى اى ساعدينى على الجود ، والزاكى : الزائد ، وشفيق ومشفق والشفقة عطف مع خوف ولهذا لايوصف الله تعالى بالشفقة (٧) يغشى رزؤها أى يغشانى رزؤها فحذف المفعول ومعنى الرزء هنا اصابة الناس من ماله وانتفاعهم به ويقال منه وهو يرزأ اذا كان سخيا ينال الناس أفضاله (٨) القرى طعام الضيافة ، معناه ان كل كريم يبذل ماله دون عرضه ويتبع سبيل الحق ويسلك طريقه ليستوجب المدح والشكر (٩) تضيق : أى تضيق بهم فحذف ذلك لان ماتقدمه يدل عليه ، معناه ان أرض الله واسعة لم تضق على امرىء وانما تضيق اخلاق الرجال وصدورهم

وقال آخر

أجلَّك قوم حين صرت إلى الغنى   وكلٌّ غنيّ فى القلوب جليل[١]

وليس الغنى إلا غنًى زَيَّنَ الفتى   عشيةَ يَقْرِى أو غداة يُنيل

وقال المثلم بن رياح المرى[٢]

بكر العواذل بالسواد يلمنني   جهلا يقلنّ ألا ترى مايصْنَع[٣]

أفنيتَ مالك فى السفاه وإنما   أمر السفاهة ما أَمَرْنك أجمعُ[٤]

وقتود ناجية وضعت بقفرة   والطيرُ غاشية العواف وُقَّعُ[٥]

بمهنَّدٍ ذى حِلْية جردته   يَبْرى الأصمَّ من العظام ويقطع[٦]

لتنوب نائبةٌ فتعلم أننى   ممن يغرُّ على الثناء فيُخدع

إنى مقسم ما ملكت فجاعلٌ   أجراً لآخرةٍ ودنيا تنفع

وقال أرطاة بن سهية المرى

فلو أن ما نعطى من المال نبتغى   به الحمد يعطى مثله زاخر البحر[٧]

اظلت قراقيرٌ صياماً بظاهرٍ   من الضَحْلُ كانت قبل فى لجج خضر[٨]

ولا نكسر العظم الصحيح تعززاً   ونغنى عن المولى ونجبرُ ذا الكسر

---

(١) يقول لما استغنيت عظمت فى عيون الناس فأجلوا قدرك وليس الغنى الا مايضاف به القوم عشية اذا نزلوا ويصلهم بالغداة اذا ارتحلوا (٢) هو شاعر جاهلى وهو الذى التجأ بالحصين بن الحمام المرى لما قتل حباشة الذى كان فى جوار الحرث بن ظالم فأجاره الحصين وغرم عنه دية القتيل ، هذا وقال دعبل ان هذه الأبيات لشبيب بن البرصاء (٣) انما قال بكر العواذل لأن العرب تشرب ليلا وتسكر وتهب فاذا اصبحت لامها من أراد لومها على ذلك بالسواد قبل الاسفار وقوله الا ترى اى اى شىء تصنع (٤) السفاه والسفاهة الخفة والطيش معناه قالت لى العواذل ضيعت مالك فى السفاهة وليس بى سفاهة وانما السفاهة ماقلته من عذلى ولومى (٥) وقتود مجرور برب بمقدرة والقتود جمع قتد وهو خشب الرحل ، والناجية . الناقة القوية السريعة ، والعواف : الطير جمع عافية وهو من قولهم عفاه واعتفاه اذا طلب معروفه (٦) ومهند تعلق بقوله وضعت بقفرة لأنه فى معنى عرقبت والمراد بالحلية دم الناقة الذى تلطخ به السيف جعله كالحلية له . ويبرى يقطع . والأصم : ماليس باجوف فاذا قطع الاصم فهو للمجوف اقطع معناه انه عرقب الناقة بسيف ماض (٧) زاخر البحر اى طافى البحر (٨) اى اظلت سفن راكدة وواحد القراقير قرقور وهى السفن ، والضحل : الماء القليل يترقرق على وجه الأرض ، واللجج جمع لجة ، وهى معظم البحر ، والخضر : السود والبحر الاخضر الأسود

غلبنا بنى حواء مجداً وسؤدداً ولكننا لم نستطع غلب الدهرِ[١]

وقال حُجْرُ بن حيةَ العَبْسى

ولا أدَوِّمُ قِدْرِى بعد ما نضجتْ بُخْلاً لتمنع ما فيها أثافيها[٢]

حتى تقسم شتى بين ما وسعتْ ولا يؤنَّب تحتَ الليل عافيها[٣]

لا أَحرِم الجارةَ الدنيا إذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أُخزيها[٤]

ولا أكلمها إلا علانيـــةً ولا أخبّرها إلا أناديها[٥]

وقال المساور هند بن قيس بن زهير

فِدىً لبنى هندٍ غداةَ دعوتهم بجوِّ وبالَ النفس والأبوان[٦]

إذا جارةٌ شُلّتْ لسعد بن مالك لها إبل شُلّت لها إبلان[٧]

إذا عقدت أفناء سعدِ بن مالكٍ لهاذمةٌ عزتْ بكل مكان

إذا سُئلوا ما ليس بالحق فيهم أبى كل مجنىٍّ عليه وجانى

ودارِ حفاظٍ قد حللتم مهانةٍ بها نِيبُكم والضيف غير مُهان[٨]

وقال آخر

جزى الله خيراً غالباً من عشيرةٍ إذا حدثان الدهر نابت نوائبه[٩]

فكم دفعوا من كربةٍ قد تلاحمت علىَّ وموج قد علتنى غواربه[١٠]

إذا قلت عُودوا عاد كل شمَرْدلٍ أشمَّ من الفتيان جَزلٍ مواهبُه[١١]

---

(١) المراد ببنى حواء جميع الناس (٢) أى لا اطيل ادامة قدرى بعد ادراكها على الاثافى بخلا بما فيها وجعل المنع للأثافى لأنها لم تغرف مادامت عليها منصوبة ، والأثافى جمع أثفية وهى الحجارة التى توضع عليها القدر (٣) ولا يؤنب أى لايلام . والعافى طالب المعروف (٤) الدنيا : اى القربى ولا أقوم بها تقول العرب قام بى فلان وقعد اذا تثنا عنك قبيحا . وأخزيها اى أهينها (٥) العلانيـة ضد السر (٦) وبال . اسـم ماء لبنى عبس أضيف اليه الجو والجو ما اطمأن من الأرض (٧) شلت : طردت (٨) دار الحفاظ : هى التى يقيم بها أهلها فى الجدب والخصب يحافظ على صيانتها مهانة . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة (٩) الحدثان . نوائب الدهر وشدائده مصدر حدث (١٠) الكربة اسم لما يأخذ بالنفس من الهم والحزن . وتلاحمت . اشتدت ولزمت . والغوارب جمع غارب وهـو أعلى الموج وأعلى الظهر (١١) اذا قلت عودوا أى الى الحرب . والشمردل : الطويل ، والأشم . من

إذا أخذت بُزْلُ المخاض سلاحها تجرد فيها متلف المال كاسبه[١]

وقال آخر

وليس فتى الفتيان من جُلُّ همه صبوح وإن أَمسى ففضل غبوق[٢]

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرٍّ عدوٍّ أو لنفع صديق

وقال خراز بن عمرو من بنى عبد مناف

لنا إبلٌ لم تُهن ربَّها كرامتها والفتى ذاهب

هجانٌ يكافأ منها الصديقُ ويدرك فيها المنى الراغب[٣]

ونطعن عنها نحور العدى ويشربُ منّا بها الشارب[٤]

ونؤلفها فى السنينَ الكلولَ إذا لم يجد مكسباً كاسب[٥]

ولم تك يوماً إذا روّحت على الحى يلقى لها جادب[٦]

حبانا بها جدُّنا والإله وضربٌ لنا خِذْمٌ صائب[٧]

وقال مضرس بن رابعى

وإنى لأدعوا الضيف بالضوء بعد ما كسى الأرض نضاح الجليد وجامده[٨]

لأكرمه إن الكرامة حقه ومثلان عندى قُربهُ وتباعده

أبيت أعشّيهِ السديفَ وإننى بما نال حتى يترك الحى حامده[٩]

الشمم كناية عن الكرم واصله ارتفاع الأنف (١) البزل جمع بازل وهوالمتناهى قوة وشبابا . والمخاض . النوق الحوامل والمراد بسلاحها محاسنها وامارات عتقها وكرمها . ومتلف المال كاسبه هو كقولهم مخلف متلف ومخلاف متلاف (٢) من جل همه اى اكبر همه وقصده والصبوح الشرب فى اول النهار ، والغبوق : الشرب فى آخره (٣) الهجان الابل البيض ويقع على الواحدوالجمع ، ويكافأ من المكافاة وهى المجازاة والمراد بالصديق جنسه . والمراد بالراغب طالب الخير والمعروف (٤) معناه ندفع عنها الغارات ونحامى دونها والمراد بالشارب هنا شارب الخمر (٥) اراد بالكلول الضعفاء الواحد كل . وقوله اذا لم يجد مكسبا كاسب بدل من قوله فى السنين اى اذا اشتد الزمان جعلنا ابلنا يالفها كلول الناس فينالون منها (٦) الجادب العائب (٧) حبانا من الحباء وهو العطاء بلا جزاء ولا من . والخذم . القاطع اى بضرب قاطع صائب (٨) دعوة الضيف بالضوء هى ان العرب كانوا يوقدون النار فى اعالى الجبال ليراها المارة ويأتوها فيضيفوهم ويكرموهم . والنضاح الرشاش . والجليد مايسقط على الارض من الندى فيجمد لبرد الهواء (٩) السديف شحم السنام وقوله واننى بما نال الخ يريد ان اقترح على شيئا اعده نعمة يستوجب منى

وقال حماس بنُ ثامل

ومستنجٍ في لُجّ ليلٍ دعوتهُ بمشبوبةٍ في رأس صمدٍ مقابل(١)

وقلت له : أقبل فإنك راشدٌ وإن على النار الندى وابنَ ثامل(٢)

وقال النَمَريُّ ويقال إنها لرجل من باهلة

وداعٍ دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل أهوال السُرى وتُقاتله(٣)

دعا بائساً شبه الجنون وما به جنونٌ ولكنْ كيدُ أمرٍ يحاوله(٤)

فلما سمعت الصوتَ ناديت نحوه بصوت كريم الجدِ حلوٍ شمائله(٥)

فأبرزت ناري ثم أثقبت ضوءها وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله(٦)

فلمّا رآني كبَّر الله وحده وبشّر قلباً كان جمًّا بلابله(٧)

فقلت له : أهلًا وسهلا ومرحباً رشدْتَ ولم أقعد إليه أسائله(٨)

وقمتُ إلى برْكٍ هجانٍ أعدهُ لوجبة حقٍّ نازلٍ أنا فاعله(٩)

بأبيض خطت نعله حيث أدركت من الأرض لم تخطل على حمائله(١٠)

فجال قليلًا واتّقاني بخيرهِ سناماً وأملاه من النيّ كاهله(١١)

حمدا وشكرا عليها وذلك له طول مقامه الى ان يفارقنى . وقال النمرى هو منصور بن الزبرقان احد بنى نمر بن قاسط من شعراء الدولة العباسية وكان مع الرشيد ومقدما عنده كما فى مختصر شرح الحماسة (١) المستنبح من يطلب نباح الكلب ليهتدي بذلك فى طريقه ولج الليل معظم ظلمته واصله لمعظم الماء ، والمشبوبة : النار المضرمة ، والصمد : الجبل أو الأرض المرتفعة (٢) راشد مهتد ، والندى : الجود (٣) الهدوء السكون ، والسرى السير ليلا ، وقوله كأنما يقاتل الخ يريد أن الحال بلغ به حدا راى فيه ان اهوال السرى تغالبه عن نفسه ويصارعها عنها ويدفعها (٤) البائس . هو الذى نزلت به شدة ، والمراد به الكلب ، والكيد الحيلة . ويحاوله يطلب دفعه والخلاص منه (٥) حلو شمائله اى أخلاقه كريمة (٦) اثقبت ضوءها انرته ، والاثقاب الانارة وهو فى البيت مبتدأ وخبر وداخله خبر ثان (٧) جما بلا بله اى همومه كثيرة (٨) أى وجدت اهلا وسهلا وسعة ، ورشدت اهتديت (٩) البرك اسم جمع لما يبرك من الابل ، والهجان كرائم الابل . ووجبة الحق نزوله (١٠) بابيض متعلق بقوله قمت فى البيت قبله . والأبيض السيف ونعل السيف ماتكون فى أسفل غمده من حديد او غيره من المعادن . ولم تخطل اى لم تضطرب ولم تظل . وحمائل السيف علاقاته (١١) فاعل جال عائد على البرك المتقدم ذكره . والنيء : الشحم ، والكاهل مابين الكتفين

بقرم هجان مصعب كان فحلها   طويل القرى لم يعد إن شق بازله(١)

فخرَّ وظيفُ القَرْمِ فى نِصفِ ساقه   وذاكَ عقالٌ لا يُنَشَّطُ عاقله(٢)

بذلك أوصانى أبى وبمثله   كذلك أوصاهُ قديماً أوائله

وقال النابغة الذبيانى

له بفناء البيتِ سوداء فَخْمَةٌ   تلقَّمُ أوصال الجزور العُراعِرِ(٣)

بقيةُ قدرٍ من قدورٍ تُوُرِّثَتْ   لآلِ الجُلاح كابراً بعد كابر

تَظَلُّ الإماء يبتدرْن قَديحها   كما ابتدرت سعدٌ مياهَ قُراقِرِ(٤)

وقال الفرزدق

وداعٍ بلَحْنِ الكلب يدعو ودونهُ   من الليل سجفا ظلمةٍ وغيومُها(٥)

دعا وهو يرجوا أن يُنبَّهَ إذ دعا   فتىً كابن ليْلى حين غارت نجُومُها(٦)

بعثتُ له دهماءَ ليست بلِقْحةٍ   تَدُرُّ إذا ما هبَّ نحساً عقيمُها(٧)

كأن المحَالَ الغُرَّ فى حَجَراتها   عذارى بدتْ لما أصيب حميمُها(٨)

---

(١) القرم : الجمل الشاب وهو بدل من خبره فى البيت قبله ، والمصعب الفحل الكريم الذى لا يبتذل فى العوارض بل يقصر على الضراب والضمير فى فحلها راجع الى البرك فيما تقدم . والقرى الظهر ، وشق بازله طلع سنه وذلك سن يطلع للجمال فى السنة التاسعة من اعمارها (٢) فخر اى فسقط ، والوظيف : مستدق الذراع ، والعقال ما يعقل ويربط به من حبل ونحوه ، ولا ينشط اى لايحل (٣) فناء البيت : هو ماامتد من جوانبه ، ويعنى بالسوداء القدر ، والفخمة العظيمة ، والأوصال المفاصل ، والجزور الناقة ، والعراعر العظيم الخلق وجعل اشتمالها على الأوصال كتلقمها اياها (٤) القديح فعيل بمعنى مفعول وهو المرق المقدوح ، وقراقر واد بالدهناء وشبه تبادر الاماء نحو القدر بتبادر بطون سعد الى تلك المياه (٥) يعنى مستنبحا تكلف نبح الكلب فى صورته وفعل ذلك اذ حال بينه وبين المناظر من الليل ستران من الظلم والتباس الغيوم (٦) غارت نجومها : أى غابت وذهبت (٧) الدهماء : السوداء واراد بها القدر ، والعقيم الريح التى ليس معها مطر لأنها لاتنفع الأشجار ، وقوله ليست بالقحة اى ليست هى بناقة وانما هى قدر تدر بمرقها اذا ذهب عقيم الرياح بالنحس (٨) المحال : فقر الظهر واحده محالة ، والغر : البيض ، والحجرات : الجوانب ، والعذارى : الابكار ، والحميم : القريب الذى يهتم لأمره وشبه المحال وفقر الظهر فى نواحى القدر وجوانبها وهى بيضاء سمينة مع تضمن القدر السوداء لها بالعذارى الأبكار وقد لبسن ثياب السواد لما اصبن بمن يعز عليهن .

غضوباً كحيزوم النعامة أُحمشت ... بأجواز خُشبٍ زال عنها هشيمها[١]

مُحَضَّرَةٌ لا يُجعلُ السترُ دونها ... إذا المُرْضِع العوجاء حال بريمُها[٢]

وقال شُرَيْحُ بنُ الأحوص

ومستنبحٍ يبغى المبيتَ ودونه ... من الليل سِجْفا ظلمةٍ وستورُها

رفعت له نارى فلما اهتدى بها ... زجرت كلابى أن يَهِرَّ عقورُها[٣]

فبات وإنْ أسْرى من الليل عُقْبةً ... بليلةِ صدقٍ غاب عنها شرورُها[٤]

وقال مسكين الدارمى

كأنَّ قدورَ قومى كلَّ يومٍ ... قبابُ الترك ملبسةَ الجلالِ[٥]

كأنَّ الموقدين بها جمالٌ ... طلاها الزفت والقِطرانِ طالى[٦]

بأيديهم مغارفُ من حديدٍ ... أشبّهها مقيّرةَ الدوالى[٧]

وقال العُكْلىّ

أعاذل بكينى لأضيافِ ليلةٍ ... نزور القِرى أمست بليلًا شمالها[٨]

أعامرُ مهلا لا تلمنى ولا تكن ... خفيًّا إذا الخيرات عدت رجالها

أرى إبلى تجزى مجازِىَ هَجْمَةٍ ... كثيرٍ وإن كانت قليلًا إفالها[٩]

مثا كيلُ ما تنفكّ أرحلَ جمةٍ ... تُرَدُّ عليهم نوقها وجمالها[١٠]

---

(١) غضوبا صفة لدهماء وجعل غليانها بمنزلة الغضب ، وحيزوم النعامة : صدرها واحمشت اى اشبعت وقودا تحتها ، والاجواز : الاوساط، والهشيم: اليابس المتكسر من النبات . (٢) محضرة اى لا يمنع منها احد ، والعوجاء : التى اعوجت هزالا وجوعا ، والبريم : خيط او سير ينظم فيه خرز فتشده النساء فى اوساطهن وانما يجول البريم اذا اثر الهزال فيها .

(٣) اراد ان لا يهرهر الكلب اذا صوت وموضع قوله أن يهر نصب على البدل من كلابى . (٤) انتصب عقبة على الظرف واصلها أن يتعاقب اثنان على بعير فاذا ركب احدهما مشى الآخر ثم كثر استعماله فاجرى مجرى النوبة والفرصة . (٥) المعنى انه يشبه قدور قومه فى عظمها واتساعها واسوداد ظواهرها بقباب الترك التى البست اغطية سودا .

(٦) يريد بالموقدين المزاولين لها فى نصبها وانزالها وطبخها واصل الموقد المشرف على الشىء العالى عليه . (٧) المقيرة : المطلية بالقار وهو الزفت ، والدوالى جمع دالية وهى دلو يستقى بها . (٨) اعاذل منادى مرخم عاذلة ونزور القرى اى قليل القرى : البليل الريح الباردة مع المطر .

(٩) الهجمة : القطعة من الابل من الاربعين الى المائة والافال جمع افيل

وقال جابر بن حيان

فإن يقتسم مالى بنىّ وإخوتى فلن يقسموا خُلق الكريم ولا فعلى (١)

أهينُ لهم مالى وأعلمُ أننى سأورثهُ الأحياء سيرةَ من قبلى

وما وَجد الأضيافُ فيما ينوبُهم لهم عند علاّت الزمان أباً مثلى (٢)

وقال عُتْبَةُ بنُ بُجَيْر

لحافى لحافُ الضيف والبيتُ بيتهُ ولم يُلهنى عنه غزالٌ مقنعُ (٣)

أحدثهُ إن الحديث من القِرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

وقال المرّارُ الفقعسى

آليتُ لا أُخفى إذا الليل جَنّنى سنا النارِ عن سارٍ ولا متنور (٤)

فياموُقدى نارى ارفعاها لعلها تُضىء لسارٍ آخرَ الليل مقتر (٥)

وماذا علينا أنْ يواجه نارَنا كَريمُ المُحيّا شاحبُ المُتحسَّر (٦)

إذا قال : من أنْتم ليعرفَ أهلها رفَعْتُ له باسْمى ولم أتنكَّر

فبتنا بخيرٍ من كرامة ضيفنا وبتنا نُهيِّىء طُعْمَهُ غير مَيْسِر (٧)

وقال يزيدُ بنُ الطاثريّةِ

إذا أرسلونى عندَ تقديرِ حاجةٍ أمارِسُ فيها كنتُ نِعْمَ المُمارسُ (٨)

ونفعى نفعُ الموسرين وإنما سَوَامى سوام المقترين المفالس (٩)

اعتادت ان تثكل ولدها اى تفقده بسحر او موت او نحوه ، الجمة الجماعة ترد فى الصلح بين الناس والارحل جمع رحل وهو المثوى والمنزل .

(١) يقول ان اقتسم مالى اولادى فلن يقتسموا ما تفردت به من خلق كريم وفعل جميل اعدهما لزوارى . (٢) علات الزمان : مكارهه وشدائده وجعل نفسه ابا للاضياف لانه يحنو عليهم حنو الاب وهذا على عادتهم فى تسمية المضيف ابا المثوى . (٣) كنى بالغزال المقنع عن ذى الوجه الجميل ويهجع ينام ومعنى البيتين كل ما املكه فهو ملك للضيف وليس يلهينى عنه ما يلهى الناس وانى لا اقتصر على اطعامه بل لا ازال احدثه واسامره واونسه حتى تطيب نفسه فاذا رايته يميل الى النوم خليته . (٤) آليت : حلفت ، وجنة الليل ستره ، والسنا : الضوء ، والسارى: المسافر ليلا . (٥) المقتر: البائس المفتقر

(٦) شاحب المتحسر اى متغير ما يبدو منه كالوجه واليد والرجل وانما شحب لتعب السفر . (٧) الطعم : الطعام والميسر : القمار .

(٨) امارس : اعانى وجملة امارس صفة لحاجة يصف نفسه بحسن التانى فى الامور برسل فيها . (٩) السوام : الانعام الراعيــة ، والمقتر : الفقير ،

وقال عروة بن الورد العبسى

أرى أمَّ حسانَ الغداةَ تلومُنى تُخَوِّفُنى الأعداءَ والنفسُ أخْوفُ(١)

لعل الذى خوّفتْنا من أمامنا يُصادفه فى أهلهِ المُتخَلِّف

إذا قلت قد جاءَ الغنى حال دونه أبو صِبْيَةٍ يشكو المفاقرَ أعْجفُ(٢)

له خَلَّةٌ لا يدْخُلُ الحقُّ دونهَا كريمٌ أصابته حوادثُ تَجْرُفُ(٣)

وقال الاقرع بن معاذ

إنَّ لنا صِرْمةً تُلفى مُخَيَّسَةً فيها معادٌ وفى أربابها كرمُ(٤)

تُسَلِّفُ الجارَ شِرباً وهْىَ حائمة ولا يبيت على أعناقها قسَمُ(٥)

ولا تُسفِّهُ عند الحوض عطشتُها أَحلامنَا وشرِيب السَوْءِ يحتدِمُ(٦)

وقال يزيدُ بنُ الجهم الهلالى ويروى لحُمَيْدِ بن ثَوْر

لقد أَمَرَتْ بالبُخْلِ أُمُّ محمدٍ فقلت لها حُثِّى على البخل أحمَدا

فإنّى امرؤٌ عودتُ نفسىَ عادةً وكلُّ امرِىءِ جارٍ على ماتعَوَّدا

أحينَ بدا فى الرأس شيبٌ وأقبلت إلىّ بنو عَيْلان مَثْنَى ومَوْحَدا(٧)

رَجَوْتِ سِقاطى واعتلالى ونَبْوَتى وراءكِ عنى طالِقاً وارحلى غدا(٨)

صار صاحب فلوس بعد أن كان صاحب أموال وتفليس الحاكم معروف وهو من هذا كأنه ينسبه الى ذلك فهذا كالتعديل والتفسيق يقول عطائى كثير ومالى قليل لأنى غنى النفس .

(١) المعنى ان أم حسان تعذلنى وتخوفنى الخروج الى أعدائى والنفس أخوف من ان تحذر ولكن الموت لا بد منه والذى تخوفنى منه لعله يصادف المتخلف فى أهله . (٢) المفاقر الحاجات جمع فقر على غير قياس ، وأعجف هزيل من الضر . (٣) الخلة : الحاجة ، والحق : القرابة هنا وتجرف اى تذهب بالمال كما تذهب المجرفة بما يجرف بها . (٤) الصرمة : من الابل نحو الاربعين والمخيسة التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر أو القسم وقوله فيها معاد أى يعود فيها العفاة يصيبون منها مرة بعد أخرى .

(٥) تسلف أى تقدم والجار نصب على نزع الخافض أى تقدم الى الجار والشرب الماء واراد به هنا اللبن والحائم العطشان الذى يحوم حول الماء ولا يبيت على اعناقها قسم يريد لانقسم عليها ان لا تنحر أو توهب .

(٦) يقول اذا اوردناها الماء وبها عطش لا نواثب الموردين ولا نجفوهم فيكون عطشها سفه احلامنا اى عقولنا واصل الاحتدام الاحتراق .

(٧) مثنى معدول عن اثنين اثنين وموحد معدول عن واحد واحد .

(٨) السقاط ان لايفعل الانسان فعل الكرام وان لايذهب مذهبهم فيسلك

وقال آخر

إنى لم ينَلْ مالى مَـدى خُلُقى   فيّاضُ ما ملـكتْ كفّاىَ من مالِ

لا أحْبِسُ المالَ إلا ريْثَ أُتْلِفهُ   ولا تُغَيّرنى حالٌ إلى حالِ (١)

وقال سوادةُ اليَرْبوعى

ألا بكَرَتْ مَىٌّ علىَّ تَلومُنى   تقولُ ألا أهلـكتَ من أنت عائِله

ذَرينى فإن البُخْلَ لا يُخلِدُ الفتَى   ولا يُهلِكُ المعروفُ من هو فاعِلهُ

وقالَ المقنَّع الـكِنْدِىّ

نَزَلَ المشيبُ فأيْنَ تذهبُ بعدَهُ   وقد ارْعَوَيْتَ وحانَ منك رحيلُ (٢)

كان الشّبابُ خفيفةً أيّامهُ   والشيبُ مَحْمَلُهُ علىَّ ثَقِيلُ (٣)

ليس العطاءُ من الفضول سماحةً   حتي تجودَ وما لديكَ قليلُ (٤)

إلى غير ذلك من الشعر الذى هو على هذا السلك وكله يدل على ما كان متنافساً فيه بين العرب من الصفات المحمودة . وعلى ما كانوا عليه من الـكرم والسخاء والسماحة . وقد ألف بعض المتقدمين من أئمة أهل اللغة والأدب كتاباً فيما ورد من أخبار ضيوف العرب . وما اتفق فى ذلك من النوادر والقصص الغريبة والشعر المنتخب . والذى كتبته من الشعر كان من رواية أبى تمام فى حماسته . ولذلك أعرضت عن شرحه فإن شروح الـكتاب كثيرة مشهورة فمن أشكل عليه شىء فليراجعها .

ومما يدلك على مزيد سخاء العرب أنه كانت لهم نار تسمى نار القرى وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الأضياف بهـا على المنزل . وكانوا يوقدونها على

طريقهم . والاعتلال التعلل واراد بالنبوة البعد وقوله وراءك عنى أى ابعد عنى وطالقا انتصب على الحال من قوله وراءك عنى ولم يقل طالقة لانه اخرج مخرج النسب .

(١) الريث البطء . (٢) ارعوى عن الشىء انصرف عنه ، وحان : قرب (٣) محمله اى حمله . (٤) الفضول ما فضل عنك بعد حوائجك والمعنى ان العطاء من الفضول لا يقال له جود وسماحة وانما الجود والسـماحة ان يجود الانسان بكل شىء له فلا يبقى قليله ايضا .

الأماكن المرتفعة لتكون أشهرَ . وربما أوقدوها بالمندلى الرطب وهو عطْر ينسب إلى مندل وهى بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ليهتدى إليها العميان . وهذه النار عندهم أجل سائر نيرانهم التى سنفصلها على أتم وجه إن شاء الله تعالى ولم تزل مذكورةً على ألسنة شعرائهم . قال أبو زياد الأعرابى الكلابى يصف بعض أجواد العرب :

له نار تُشَبُّ على يفَاعٍ ... إذا النيران ألبست القِناعا (١)

ولم يكُ أكثرَ الفتيان مالاً ... ولكن كان أرحَبهمْ ذراعا (٢)

وقال آخر

إنى إذا خَفيَتْ نار لمُرْمِلة ... أُلْفَى بأرفع تلّ رافعاً نارى (٣)

ذاك وإنى على جارى لذوحدب ... أحنو عليه كما يُحْنَى على الجار

وأنهم كانوا يقتنون الكلاب لأمورٍ منها أنها تدل الأضياف على منازلهم بنُباحها وكانو يمدحونها على ذلك ، قال قائل منهم فى كلب له .

أوصيكَ خيراً به فإنّ له ... خلائقاً لا أزال أحْمَدُها

يدل ضيفى علىَّ فى غَسَق الليل ... إذا النار نام موقدها (٤)

وكان لَعِبُهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فإن أهل الثروة والأجواد منهم فى شدة البرد وكَلَب الزمان (٥) ييسرون أى يتقامرون بالقِداح وهى عشرة على جزور يجزئونها ثمانيةً وعشرين جزءاً وسيجىء إن شاء الله تعالى كيفية عملهم فى ذلك عند الكلام على أعمالهم التى جبها الإسلام فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناسُ وعاشوا . وكانت العرب تمدح بأخذ القِداح وتَعيب من لا ييسر وتسميه البرم .

---

(١) تشب أى توقد ، واليفاع المكان المرتفع . والبست القناعة كناية عن اخمادها . (٢) الذراع والذرع يراد به النفس . (٣) المرملة : الجماعة التى نفد زادها وافتقرت والتل ما ارتفع من الأرض وايقاد النار فى الاماكن المرتفعة من اخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف اليه فى الليل المظلم ويأتى .
(٤) غسق الليل : ظلمته . (٥) كلب الزمان : شدته .

قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالـكا

ولا بَرِما تُهدى النساء لعرسه إذا القِشْع من برد الشتاء تقعقعا[١]

وقال العَرَنْدَس فى قوم من العرب[٢]

هَيْنُوْن لينون أيسار ذوو كرم سُوّاس مَكرُمةٍ أبناء أيسار[٣]

إن يسألوا الحقَّ يُعْطوه وإن خُبِرُوا فى الجَهْدِ أدركَ منْهم طيب أخبار[٤]

وإن توددتَهم لانوا وإن شُهِمُوا كشفْتَ أذمار شرّ غير أشرار[٥]

فيهم ومنهم يُعدّ الجدُ مُتّلداً ولا يعد نثا خزيٍ ولا عار[٦]

لا يَنطِقون عن الفحشاء إن نطقُوا ولا يُمارون إن ماروا بإكثار[٧]

من تلقَ منهم تقُلْ لا قيتُ سيدَهم مثلَ النجوم التى يسرى بها السارى

وقال لبيد بن مالك فى معلقته

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لِحَتْفِها بمَغالِقٍ متشابهٍ أجسامُها[٨]

أدعو بهنَّ لعاقر أو مُطْفِل بُذِلَت لجيرانِ الجميع لِحامُها[٩]

فالضيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنما هَبَطا تبالةَ مُخصِباً أهضامُها[١٠]

---

(١) هذا البيت من قصيدة له فريدة فى بابها يرثى بها أخاه مالـكا وكان خرج مع خالد بن الوليد مرجعه من اليمامة يظهر الاسلام فظن به خالد غير ذلك فامر ضرار بن الازور الاسدى فقتله وكان مالك من اردان الملوك ومن متقدمي فرسان يربوع ، وقوله ولا برما البرم الذى لا ينزل مع الناس ولا ياخذ فى الميسر ولا ينزع الا نكدا ، قال النابغة :

هلا سألت بنى ذبيان ما حسبى اذا الدخان تغشى الاشمط البرما

والقشع الجلد اليابس ويقال لكناسة الحمام القشع ، قال أبو هريرة وكذبت حتى رميت بالقشع. (٢) العرندس هو احد بنى بكر بن كلاب ويمدح بهذا الشعر بنى عمرو الغنويين وكان أبو عبيدة اذا أنشدها يقول هذا والله محال كلابى يمدح غنويا. (٣) الايسار جمع يسر وهم الذين يجيلون القداح، وقوله سواس مكرمة أى يروضون المكارم ويلون أمرها . (٤) الجهد : الشدة ، والحق هنا ما أوجبوه على أنفسهم من مالهم » وخبروا يريد اختبروا

(٥) توددتهم : اى طلبت مودتهم وشهموا مبنى المجهول من شهمه اذا افزعه ، والاذمار جمع ذمر وهو الشجاع والشر الحرب وقوله غير اشرار جمع شرير على غير قياس . (٦) المتلد : القديم . والنثا ما يخبر به عن الرجل من حسن أو سيء اى نثاسؤ يذل صاحبه اذا ذكر به . (٧) لا يمارون أى لا يجادلون . (٨) المغالق : سهام الميسر سميت بها لان بها يغلق الخطر من قولهم غلق الرهن يغلق غلقا اذا لم يوجد له تخلص وفكاك .

(٩) العاقر : التى لا تلد ، والمطفل التى معها ولدها ، واللحام جمع لحم .

(١٠) الجنيب : القريب وتبالة واد مخصب من أودية اليمن والهضم المطمئن من الارض والجمع الاهضام والهضوم .

تأوى إلى الاطْناب كل رذِيَّةٍ مثل البليّةِ قالصٍ أهْدامُها[1]
ويكلّلونَ إذا الرياح تناوَحَتْ خُلُجا تُمَدُّ شوارعاً أيتامها[2]

والشعر فى ذلك كثير . ثم إن السخاء لا يتوقف على بذل المال فإنه هيئة للإنسان داعية إلى بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل . ويقابله الشح والجود بذل المقتنى .ويقابله البخل . هذا هو الأصل . وإن كان كل واحد منهما قد يستعمل فى موضع الآخر . ويدلك على هذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والشح على بناء الأفعال الغريزية . فقالوا شحيح وسخى وقالوا جواد وباخل . وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم . ولكون السخاء غريزةً لم يوصف البارى تعالى به .

***

من اشتهر بالجود والسخاء وضُرِب بهم المثل فى الكرم من عرب الجاهلية ، منهم :

حاتم الطائى

قالوا فى المثل : أجود من حاتم ، يريدون به حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ابن امرىء القيس بن عدى بن أحزم الطائى الجواد المشهور وأحد شعراء الجاهلية ويكنى أبا عدى وأبا سَفّانة « بفتح السين وتشديد الفاء » . وابنه أدرك الإسلام وأسلم . أخرج أحمد فى مسنده عن ابنه عَدِيٍّ قال قلت يا رسول الله إن أبى كانَ يصل الرحم ويفعل كذا وكذا قال إن أباك أراد أمراً فأدْرَكَه يعنى الذكر . وكانت سفَّانة بنتَه أتى بها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت يا محمد هلك الوالد . وغاب الرافد . فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإن

(١) الاطناب : حبال البيت واحدها طنب والرذية الناقة التى تبرذى فى السفر اى تخلف لفرط هزالها وكلالها والجمع الرذايا استعارها للفقيرة ، والبلية : الناقة التى تشد على قبر صاحبها حتى تموت والجمع البلايا والاهدام الاخلاق من الثياب واحدها هدم . وقلوصها : قصرها .

(٢) تناوحت : تقابلت ومنه قولهم الجبلان متناوحان اى متقابلان ومنه النوائح لتقابلهن والخلج جمع خليج وهو نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من نهر كبير أو من بحر والخلج الجذب وتمد : تزاد وشرع فى الماء خاضه .

أبى سيدُ قومه كان يفك العانى ويحمى الذمار[1] . ويفرج عن المكروب . ويطعم الطعام ويفشى السلام . ولم يطلب إليه طالب قط حاجةً فرده أنا ابنة حاتم طىّء فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

قال ابن الأعرابى : كان حاتم من شعراء الجاهلية ، وكان جواداً يشبه جوده شعره . ويصدق قولَهُ فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا ضرب بالقِداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان أقسم بالله لا يقتل واحدَ أمّه ، وكان إذا أهلَّ رجب نحر فى كل يوم عشرة من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا عليه ، وكان أوّل ما ظهر من جوده أن أباه خلفه فى إبله وهو غلام فمر به جماعة من الشعراء ، فيهم عَبيد بنُ الابرص وبِشر بن أبى حازم ، والنابغة الذبيانى ، يريدون النعمانَ بن المنذر ، فقالوا له : هل من قِرًى ولم يعرِفهم ، فقال : أتسألونى القرى وقد رأيتم الإبل والغنم ، انزلوا فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ففرق فيهم الإبلَ والغنم وجاء أبوه ، فقال : ما فعلت ؟ قال : طوقّتك مجدَ الدهر طوقَ الحمامة وعرفه القضية فقال أبوه : إذاً لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك ، فقال حاتم إذاً لا أبالى .

« ومن حديثه » . أنه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عَنَزَة ناداه أسير لهم يا أبا سفّانة أكلنى الأسار والقمل . فقال : ويحك ما أنا فى بلاد قومى وما معى شىء وقد أسأتَ بى إذْ نوهتَ باسمى وما لك مَتْرَك . ثم ساوم به العنزيين واشتراه منهم فخلاه وأقام مكانه فى قيده حتى أتى بفدائه فأداه إليهم .

« ومن حديثه » أن ماوية امرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة[2]

(١) الذمار بالكسر : مايلزمك حفظه وحمايته (٢) سنة اى اقحطوا

فأذهبت الخف والظلف فبتنا ذاتَ ليلة بأشد الجوع فأخذ حاتم عَدِيّا وأخذت سفّانة فعللناهما حتى ناما ثم أخذ يعللني بالحديث لأنام فرققت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أني نائمة فقال لي أنمت مراراً فلم أجِبْهُ فسكت ونظر من وراء الخِباء فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة تقول يا أبا سفّانةَ قد أتيتك من عند صبية جياع فقال احضريني صبيانك فو الله لأشبعنهم قالت فقمت سريعاً فقلت بماذا يا حاتم فو الله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل فقام إلى فرسه فذبحه. ثم أجّج ناراً ورفع إليها شَفْرة وقال اشتوى وكلي واطعمي ولدك. وقال لي أيقظي صبييّك فأيقظتهما ثم قال: واللهِ إن هـذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصِرْم[1] حالهم كحالكم فجعل يأتي الصِّرْمَ بيتاً بيتاً ويقول عليكم النار فاجتمعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ولم يذق منه شيئاً. وقد روى هذه القصة الفاضل شهاب الدين في العقد على غير هذا الوجه فلتراجع[2] والتي ذكرناها رواية الميداني في مجمع الأمثال. وأخبار كرم حاتم كثيرة وشهيرة ونذكر قضية قِراه بعد موته وهي من العجائب. روى محرز مولى أبي هريرة قال مرنفر من عبد القيس بقبر حاتم فنزلوا قريباً منه فقام إليه رجل يقال له أبو الخيبرى وجعل يركض برجله[3] قبره ويقول: أقرنا فقال له بعضهم: ويلك ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات قال أن طيأ تزعم أنه ما نزل به أحد إلا قراه ثم أجنّهم الليل فناموا فقام أبو الخيبرى فزعاً وهو يقول: واراحلتاه فقالوا له مالك قال أتاني حاتم في النوم وعقر ناقتي بالسيف وأنا أنظر إليها ثم أنشدني شعراً حَفِظته يقول فيه:

أبا الخيبرى وأنت امرؤٌ ظلومُ العشيرة شتّامها
أتيت بصحبك تَبغى القِرَى لدى حُفرة قد صدتْ هامها

(١) الصرم بالكسر ابيات من الناس مجتمعة والجمع اصرام واصارم
(٢) ج ١ ص ١٤٥ من طبعة الجمالية (٣) ركض الرجل ركضا من باب قتل ضرب برجله.

أتبغى لى الذمَّ عند المبيت　　وحولك طى وأنعامها

فإنا لنشبع أضيافَنا　　وتأتى المطى فنعتامُها[١]

فقاموا وإذا ناقة الرجل تكوس[٢] عقيراً فانتحروها وباتوا يأكلون وقالوا قرانا حاتم حياً وميتاً وأردفوا صاحبهم وانطلقوا سائرين وإذا برجل راكب بعيرا ويقود آخر قد لحقه وهو يقول أيكم أبو الخيبرى قال الرجل أنا ، قال فخذ هذا البعير أنا عدىٌّ بنُ حاتم جاءنى حاتم فى النوم ، وزعم أنه قراكم بناقتك ، وأمرنى أن أحملك فشأنك والبعير ودفعه إليهم وانصرف . وإلى هذه القضية أشار ابن دارةَ الغطَفانى فى قوله يمدح عدىّ بن حاتم :

أبوك أبو سَفّانةَ الخير لم يزل　　لدُنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبا

به تضرب الأمثال فى الشعر ميتاً　　وكان له إذ ذاك حياً مصاحبا

قرى قبرُهُ الأضيافَ إذ نزلوا به　　ولم يقرِ قبرٌ قبله الدهر راكبا

ولحاتم الطائى شعر كثير وهو من البلاغة بمكان والمذكور فى ديوانه بعض منه ، ومن شعره يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله :

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ　　ويا ابنة ذى البُردَيْنِ والفرس الوَرْدِ[٣]

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له　　أكيلا فإنى لستُ آكلهُ وحدى[٤]

أخاً طارقا أو جار بيتٍ فإننى　　أخاف مذماتِ الأحاديث من بعدى[٥]

وإنى لعَبْدُ الضيفِ ما دام ثاوياً　　وما فىّ إلا تلك من شيمةِ العبد[٦]

---

(١) عتمت الابل واعتمت واستعتمت اذا حلبت عشاء وهو من الابطاء والتأخر قال ابو محمد الحذلمى :

فيها ضوى قد رد من اعتامها

(٢) كاس البعير : مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب .

(٣) ابنة مالك هى ماوية بنت عبد الله زوجة حاتم الطائى والمراد بذى البردين عامر بن احيمر بن بهدلة اعطاه المنذر بن ماء السماء بردين حين سأله عن حقيقته فوجده من اشرف العرب واشجعهم كما فصل فى الاصل والورد من الخيل بين الكميت والاشقر .　(٤) الاكيل من يواكلك .

(٥) الطارق : الذى يأتى ليلا .　(٦) ثاويا : مقيما .

عنى بذى البردين عامر بن أُحيمر بن بَهْدَلة . وكان من حديث البردين حين لقب به أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء . وهو المنذر ابن امرىء القيس وماء السماء ، قيل : أمه نسبَ إليها لشرفها ، وقيل لقبت بماء السماء لصفاء نسبها ويقال لنقاء لونها ، ويراد أنها كماء السماء لم يحتمل كدورةً ، وأخرج المنذر بُردين يوماً يبلو الوفود . وقال ليقم أعزُّ العرب قبيلةً فليأخذها فقام عامر بن أحيمر فأخذها واتزر بأحدها وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر أأنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العز والعدد فى معد ، ثم فى نزارٍ ، ثم فى مُضَر ، ثم فى خِنْدِف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى عوف ، ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرنى فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى ، ثم وضع قدمه على الأرض فقال من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل فلم يقم إليه أحد من الحاضرين نفاز بالبردين . ومن شعر حاتم أيضاً قوله :

وعاذلةٍ قامت علىَّ تلومُنى ... كأنى إذا أعطيتُ مالى أضيمُها

أعاذلُ إن الجودَ ليس بِمُهلكى ... ولا مُخلدِ النفس الشحيحة لؤمها[١]

وتُذْكَرُ أخلاق الفتى وعظامُه ... مُغيبةٌ فى اللحد بالٍ رميمها[٢]

ومن يبتدعْ ماليس من خِيم نفسه ... يَدعْهُ ويغلبْهُ على النفس خِيمُها[٣]

ومن ذلك قوله أيضاً :

أكفُّ يدى عن أن ينالَ التماسُها ... أكفَّ صِحابى حينَ حاجتُنا معا[٤]

أبيتُ هضيمَ الكشْح مُضطمَرَ الحشا ... من الجوع أخشى الذمَّ أن أتضلّعا[٥]

(١) اعاذل مرخم عاذلة. (٢) الرميم : العظم البالى. (٣) الخيم : الطبيعة والخلق . (٤) اكف يدى اى اقبضها ، وقوله حاجتنا معا اى كلنا جائع فحاجته الى الطعام كحاجة صاحبه . (٥) الهضيم : الضامر ، والكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع، والمضطمر المهزول، وتضلع الرجل اذا امتلأمن الزاد

وإنى لأستحيي رفيقىَ أنْ يَرَى مكان يدى من جانب الزاد أقرَعا[١]
وإنك مهما تُعْطِ بطنَك سؤلَهُ وفرجكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا[٢]

وقال أيضاً

أما والذى لا يعلمُ السرَّ غيرُهُ ويُحيي العظامَ البيضَ وهْىَ رَميم
قد كنت أختار القِرَى طاوىَ الحشا محافظةً من أن يقالَ : لئيمُ
وإنى لأستحيي يمينى وبينهـا وبين فمى داجى الظلام بهيم[٣]

وقال أيضاً

ولما رأيتُ الناسَ هَرَّتْ كلابُهم ضربتُ بسيفى ساقَ أفعى نخرَّتِ
وقلتُ لأصباء صغار ونسـوةٍ بشهباء من ليل الثمانين قرَّتِ :
عليكم من الشطَّيْن كل وَرِيّة إذا النار مست جانبيها ارمعلّتِ[٤]
ولا ينزل المرء الكريمُ عيـالَه وأضيافَه ما ساق مالاً بضرت

وقال أيضاً

لا تسترى قدرى إذا ما طَبَخْتِها علىَّ إذا ما تطبُخين حـرام
ولكن بهذاك اليفاعِ فأوقدِى بجَزْلى إذا أوقدتِ لا بِضِرام[٥]

وقال أيضاً

وقائلةٍ أهلكتَ بالجود مالَنـا ونفسكَ حتى ضرَّ نفسَك جودُها
فقلت : دعينى إنمـا تلك عادتى لكل كريمٍ عادةٌ يستعيدها

وهو القائل لغلامه يسار ، وكان إذا اشتد البرد وكلَب الشتا[٦] أمر غلامه

---

(١) اراد بالاقرع الخالى من الطعام والمعنى انى لاستحيى ممن يجالسنى على الطعام ان يرى مايلينى من المائدة خاليا . (٢) السؤل المسئول واراد به ما يشتهيه والمعنى ان الشخص اذا اعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ما تزينه له نفسه من شهواتها اصابه من الناس منتهى الذم والشتم ولقد صدق . (٣) بهيم اى شديد الظلمة لا وضح فيه . (٤) الشط جانب السنام او نصفه ، والورية القطعة من الشحم السمين وارمعل الشواء سال دسمه . (٥) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، والجزل الحطب اليابس أو الغليظ العظيم منه والضرام ككتاب دقاق الحطب او ما ضعف ولان او ما لا جمر له او ما اشتعل من الحطب . (٦) كلب الشتاء : اى اشتد .

فأوقد ناراً فى يفاعٍ من الأرض لينظر إليها من أضلَّ الطريقَ ليلا فيصمدَ نحوه[١] :

أوقد فإن الليل ليلٌ قرٌّ   والريح يا واقدُ ريح صِرٌّ[٢]
عَلَّ يرَى نارَك من يَمُرُّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حُرٌّ[٣]

وقال أيضاً

أماویَّ قد طال التجنبُ والهجر   وقد عذرتنا فى طِلابكم العذرُ[٤]
أماویَّ إن المـالَ غادٍ ورائحٌ   ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماویَّ إما مانع فمبـين   وإما عطاء لا يُنَهْنِهُهُ الزجر[٥]
أماویَّ إنى لا أقولُ لسـائلٍ   إذا جاء يوماً حل فى مالى النزْرُ[٦]
أماوى لا يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[٧]
أماویَّ إن يُصبح صداىَ بقَفْرَةٍ   من الأرض لا ماءٌ لدىَّ ولا خمرُ[٨]
ترَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضرَّنى   وإن يدى مما بخلت به صِفْرُ[٩]
إذا أنا دلاَّنى الذين يلوننى   بمظلمـة لجٍّ جوانبهـا غبر
وراحوا سراعا يَنفضُون أكفَّهم   يقولون قد أدمى أظافِرَنا الحفرُ
أماویّ إن المـال مالٌ بذلته   فأوَّله شـكرٌ وآخره ذكرُ
وقد يعلم الأقوامُ لو أن حاتمـا   أراد ثراءَ المـالِ كانَ له وفْرُ
فإنى وجدى ربّ واحد أمة   أخذت فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

---

(١) الصمد : القصد . (٢) ليل قر : بارد ، وريح صر وصرصر : شديدة الصوت أو البرد . (٣) عل بلام مشددة مفتوحة أو مكسورة لغة فى لعل وهى أصلها عند من زعم زيادة اللام ، قال الشاعر :

لا تهـين الفقـير علـك ان   تركع يوما والدهر قد رفعه

وهما بمنزلة عسى فى المعنى وبمنزلة ان المشددة فى العمل .

(٤) الهمزة للنداء وماوى منادى مرخم ماوية وهى زوجته ، وقوله وقد عذرتنا الخ عذرته فيما صنع رفعت عنه اللوم فهو معذور اى غير ملوم .

(٥) نهنهه : كفه ومنعه . (٦) حل فى مالنا النزر : اى القلة .

(٧) الحشرجة أوله حاء مهملة وآخره جيم الغرغرة عند الموت وتردد النفس

(٨) الصدى ما يبقى من الميت فى قبره ، والقفرة الأرض الخالية من السكان والنبات .. (٩) صفر وزان حمل اى خال من المتاع وهو صفر الوالدين ليس

ولا أظلم ابنَ العمّ إن كان إخوتى شهوداً وقد أوْدى بإخوته الدهرُ
غنينا زماناً بالتقصد والغنى وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر[١]
فما زادنا مأوى على ذى قرابةٍ عنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقرُ

وله قصيدة طويلة تتعلق بالكرم ومكارم الأخلاق وهى مسطورة فى (الحماسة البصرية) وهى هذه :

وعاذلتين هبتا بعد هجعةٍ تلومان متلافا مفيداً ملوّماً[٢]
تلومان لما غوّر النجمُ ضلةً فتى لا يرى الإنفاق فى الحمد مَغرماً[٣]
فقلت وقد طال العتابُ عليهما وأوعدتمانى أن تبينا وتصرِما
ألا لا تلومانى على ما تقدما كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فإنكما لا ما مضى تُدْركانه ولستُ على ما فاتنى متندّما
فنفسَكَ أكرِمْها فإنك إن تهُنْ عليك فلن تلقى مدى الدهرِ مكرما
أهن للذى تهوى التلاد فإنه إذا متّ كان المال نَهْباً مُقسّما
ولا تشقين فيه فيسعدَ وارث به حين تغشى أغبر الجوف مظلماً[٤]
يقسمه غنماً ويَشْرى كرامةً وقد صرت فى خطٍ من الأرض أعظما
قليلا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنتَ تجمع مَغْنَما
تَحلّم عن الأدنين واستبق ودَّهم ولن تستطيعَ الحلمَ حتى تحلّما[٥]
وعوراء قد أعرضتُ عنها فلم تضر وذى أَوَد قوّمته فتقوّما[٦]
وأغفرُ عوراء الكريم ادخاره وأعرضُ عن شتم اللئيم تكرّما
ولا أخذُلُ المولى وإن كان خاذلا ولا أشتم ابن العم إن كان مفحما

---

(١) غنى كفرح عاش وغنى بالمكان : اقام به . (٢) هبتا أى استيقظتا ؛ وهذا البيت من شواهد مغنى اللبيب . (٣) غور النجم اى غابت الثريا ؛ وقوله ضلة هو قيد فى اللوم لامه ضلة اذا لم يوفق للرشاد فى لومه ، والمغرم بالفتح الغرامة . (٤) اغبر الجوف : القبر ومثله خط من الارض .
(٥) تحلما أى تتحلم أى تتكلف . (٦) قوله فلم تضر من ضار يضير ضد
[illegible]

ولا زادنى عنه مناىَ تباعدا   وإن كان ذا نقص من المـال مصرما

وليل بهيم قد تسربلتُ هَوْلَهُ   إذا الليل بالنِكْس الدنىء تجهَّما[١]

ولن يكسب الصُعلوكُ حمداً ولا غنى   إذا هو لم يركبْ من الأمر معظما[٢]

لحا الله صُعلوكا مُناه وهمُّه   من العيش أن يلقى لَبُوسا ومَطْعَما[٣]

ينام الضحى حتى إذا نومُه استوى   تنبَّهَ مثلوجَ الفؤادِ مورّما[٤]

مقيماً مع المُثرين ليس ببارحٍ   إذا نال جَدْوى من طعام ومجثما[٥]

ولله صُعلوك يساور همه   ويمضى على الأحداث والدهر مقدما[٦]

فتى طلباتٍ لا يرى الخَمصَ ترحةً   ولا شَبْعة إن نالهـا عَدَّ مغنما[٧]

يرى الخَمصَ تعذيباً ولم يلق شَبعة   يَبِتْ قلبه من قلة الهم مبهما

إذا ما رأى يوما مكارمَ أعرضت   تيمَّمَ كبراهن ثمَّتَ صمَّما[٨]

ويمشى إذا ما كان يومُ كريهةٍ   صدورَ العوالى فهو مختضِبٌ دما

يرى رمحه ونبله وَمِجَنَّه   وذا شُطَبٍ عَضب الضريبة مَخْذَما

وأحناء سرجٍ قاتر ولجامه   عتادَفتى هيجا وَطرْفاً مُسوَّما

---

(١) النكس بكسر النون الردىء وأصله السهم الذى كسر فوقه ، وتجهم : كلح وجهه . (٢) الصعلوك بالضم الفقير . (٣) لحا الله : قبح الله .

(٤) مثلوج الفؤاد من المجاز ، ثلج قلبه : بلد وذهب والمثلوج الفؤاد البليد ، قال أبو خراش الهذلى :

ولم يك مثـــلوج الفـؤاد مهيجـا   أضاع الشباب فى الربيلة والخفض

(٥) المجثم بفتح الميم وكسر المثلثة مكان الجثوم وهو بروك الطائر .

(٦) قوله ولله صعلوك تعجب ومدح يقال عند استغراب الشىء واستعظامه أى هو صنع الله ومختاره اذ له القدرة على خلق مثله ، ويساور : يواثب ، وهمه أى عزمه مفعول ، وقوله : ويمضى على الاحداث أى لا يشغله الدهـر وحوادثه فى حالة اقدامه على ما يريد . (٧) قوله فتى طلبات اشارة الى علو همته ، والخمص بالفتح الجوع . والترحة ضد الفرحة ، والشبعة المرة من السبع . (٨) تمت حرف يعطف الجمل ورمحه وما عطف عليه مفعـول أول ليرى . (٩) وعناد هو المفعول الثانى وذا شطب هو السيف جمع شطبة وهى الطريقة فى متن السيف والمجن بالكسر الترس والدرقة والعضب القاطع والضريبة موضـع الضرب والمخذم بكسر اوله وبالمعجمتين السيف القاطع وباعجام الثانى فقط من الحذم وهو القطع السريع .

فذلك إن يهلِكْ فَحُسْنَى ثناؤه وإن عاش لم يقعُدْ ضعيفاً مُذَمَّمًا[1]

وقد أعرضت عن شرح ما أوردته من شعره فإن الغالب منه مشروح فى شواهد كتب العلم ، ومنهم :

كعب بن مامة الإيادى

وكان ممن يضرب بهم المثل أيضاً فى الجود ، ومن حديثه أنه خرج فى ركبٍ فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجر[2] فضلوا فتصافنوا ماءهم وهو أن يطرح فى القعب[3] حصاة ، ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة وتلك الحصاة هى المقلة[4] فيشرب كل إنسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فلما دار القعب فانتهى إلى كعب أبصر النمرى يحدد النظر إليه فآثره بمائه ، وقال للساق : اسْق أخاك النَمرِى فشرب النمرى نصيبَ كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر إليه النمرى كنظرة أمسه . فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم . وقالوا يا كعب ارتحل فلم تكن به قوة للنهوض . وكانوا قد قربوا من الماء فقيل له رِدْ كعب إنك ورّاد ، فعجز عن الجواب فلما يَئِسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ففاض . فقال أبوه مامة يرثيه :

= الاحناء جمع حنو بالكسر يطلق على ما فيه اعوجاج من القتب والسرج وغيرهما، والقاتر بالقاف وبالمثناة الفوقية الواقى والحافظ لا يعقر ظهر الفرس، وعتاد بالفتح العدة ، وطرفا معطوف على رمحه الذى هو أول مفعول يرى وهو الكريم من الخيل ، والمسوم المعلم نشهر لعفته ولكرمه من السومة وهى العلامة او المسيب فى الرعى ولا يركب الا فى الحروب .

(١) الحسنى مصدر كالبشرى وقيل اسم للاحسان والمعنى سرت بليل فقير يواثب همته ويمضى مقدما على الدهر والحال انه فتى طلبات بتجدد طلبه كل ساعة والدهر يسعف بمطلوبه بجده ورشده ولا يرى الجوع شدة ولا الشبع غنيمة لعلو همته فان يهلك فله ثناء حسن وان يعش يعش ممدحا معززا . (٢) هو رجب او صفر وكل شهر من شهور الصيف، كذا فى القاموس

(٣) اناء ضخم كالقصعة والجمع قعاب واقعب . (٤) المقلة بفتح الميم ويقال مقلها اذا القاها فى الاناء وصب عليها الماء .

ما كان من سوقة اسقى على ظمأ   خمراً بماء إذا ناجودها بردا[1]
من ابن مامةَ كعب ثم عىَّ به   زوّ المنيـة إلا حرة وقدا
أوفى على المـاء كعبٌ ثم قيل له   رِدْ كعب إنك ورّاد فما وردا

زو المنية قدرها . وعى به أى عيت الأحداث إلا أن تقتله عطشاً . وقال الأصمعى : زو المنية ما يحدث من هلاك المنية . ويقال الزو القدر . ويقال قضى علينا وقدر وحم وزى . وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره . وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيلُ بها   والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وله ولحاتم الطائى يقول القائل :

كعب وحاتم اللذان تقسَّما   خِطَطَ العُلى من طارفٍ وتليدِ[2]
هذا الذى خلفَ السحابَ ومات ذا   فى الجهد ميتةَ خِضْرِمٍ صِنْدِيد[3]
إن لا يكن فيها الشهيد فقومه   لا يسمَحون بهِ بألف شهيدِ

ومنهم :

أوس بن حارثة بن لام الطائى

كان أوس هذا ممن يضرب به المثل فى الكرم والجود يقال له ابن سعدى .

قال جرير :

وما كعبُ بن مامةَ وابن سعدى   بأجودَ منك ياعمر الجواد[4]

---

(١) الناجود أول ما يخرج من الخمر اذا بزل عنها الـدن ، قاله الأصمعى واحتج بقول الاخطل :

كانما المسك نهبى بين أرجلنا   مما تضوع من ناجودها الجارى

وقيل الخمر الجيد وهو مذكر والناجود ايضا اناؤها وعن الليث الناجود هو الراووق نفسه . وفى حديث الشعبى : وبين ايديهم ناجود خمر اى راووق واحتج على الاصمعى بقول علقمة :

ظلت ترقرق فى الناجود يصفقها   وليد أعجم بالكتـان ملثـوم

يصفقها يحولها من اناء الى أناء لتصفو . (٢) الطارف : المال المستحدث وهو خلاف التليد . (٣) الخضرم : الكثير من كل شىء والواسع والجواد المعطاء والسيد الحمول ، والصنديد : السيد الشجاع أو الحليم او الجواد او الشريف. (٤) هذا البيت من قصيدة له مدح فيها عمر ابن عبدالعزيز واولها:

ابت عيناك بالحسن الرقادا   وأنكرت الأصادق والبلادا

الحسن نقا فى بلاد بنى ضبة سمى بالحسن لحسن شجره .

وكان بشر بن أبى خازم الأسدى أولا يهجو أوساً وكان أوس نذر لئن ظَفِر به ليحْرِقنَّهُ فلما تمكن أطلقه وأحسن إليه فمدحه بعدة قصائد ، وسبب هجاء بشر لأوس ، هو ما حكاه أبو العباس المبرد فى الكامل قال : أوس بن حارثة ابن لام الطائى ، كان سيداً مقدماً وفد هو وحاتم بن عبد الله الطائى على عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن مآء السماء فدعا أوساً فقال : له أأنت أفضل أم حاتم فقال أبيتَ اللعنَ[1] لو ملكنى حاتم وولدى ولحتى لوهبنا فى غداة واحدة ثم دعا حاتماً أأنت أفضل أم أوس فقال : أبيت اللعن إنما ذكرت بأوس وَلأَحد ولده أفضل منى . وكان النعمان بن المنذر دعا بحُلَّةٍ وعنده وفودُ العرب من كل حَىٍّ فقال : احضُروا فى غدٍ فإنى مُلْبِسٌ هذه الحُلَّةَ أكرمَكم فحضر القوم جميعاً إلا أوْساً فقيل له : لم تتخلف ؟ فقال : إن كان المراد غيرى فأجمل الأشياء أن لا أكونَ حاضراً وإن كنتُ المرادَ فسأُطلب ويعرف مكانى ، فلما جلس النعمان لم يَرَ أوساً فقال : اذهبوا إلى أوس فقولوا له : احضر آمناً مما خفت فحضر فأَلبسه الحُلَّةَ فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئة : اهجُهُ ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطيئة كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثا ولا مالا إلا من عنده ، ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتينى

فقال لهم ابن أبى خازم أحد بنى أسد بن خزيمة أنا أهجوه لكم فأخذ الإبل وفعل فأغار أوس عليها فاكتسحها فجعل لا يستجير حياً إلا قال قد أجرتك إلا من أوس . وكان فى هجائه قد ذكر أمه فأتى به فدخل أوس على أمه فقال : قد أتينا ببشر الهاجى لك ولى . قالت : أو تطيعنى ؟ قال نعم . قالت : أرى أن ترد عليه

لعمرك ان نفع سعاد عنى لمصروف ونفعى عن سعادا

وهى طويلة لا يسعنا ايرادها فى هذا المقام .

وهذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على جواز نصب المنادى الموصوف بغير ابن عند الكوفيين واوله المانعون بالقطع اى انه مفعول لفعل محذوف . [1] كان العرب فى الجاهلية يخصون ملوكهم عند التحية بقولهم ابيت اللعن اى ابيت ان تأتى من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام .

ماله وتعفو عنه وتحبوه وافعل مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه فخرج فقال : إن أمى سعدى التى كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله ألا مدحتُ حتى أموتَ أحداً غيرَك ففيه يقول :

إلى أوس بن حارثة بن لام　　ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطىء الثَّرَى مثلُ ابن سعدى　　ولا لبس النعال ولا احتذاها

هذا ما أورده المبرد ولم يذكر كيف تمكن منه أوس . وقد حكاه معمر بن المثنى فى شرحه قال : إن بشر بن أبى خازم غزا طيئاً ثم بنى نبهان فجرح فأثقل جراحه وهو يومئذ بحمى أحد أصحابه وإنما كان فى بنى والبةَ فأسرته بنو نبهان فخبؤوه كراهيةَ أن يبلغ أوساً فَسَمِع أوس أنه عندهم فقال : واللهِ لا يكون بينى وبينهم خيراً أبداً أو يدفعوه ثم أعطاهم مائتى بعير وأخذه منهم ، فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه ، وقال بعض بنى أسد لم تكن نار ولكنه أدخله فى جلد بعير حين سلخه ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه فصار فيه كأنه العصفور . فبلغ ذلك سعدى بنت حصين الطائية وهى سيدة فخرجت إليه فقالت : ماتريد أن تصنع ؟ فقال أحرق هذا الذى شتمنا فقالت : قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك . واللهِ لكأنما أخذت به أما تعلم منزلته فى قومه ؟ خل سبيله وأكرمه فإنه لا يغسل عنك ما صنع غيرُه فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه مايريد أن يصنع به . وقال ابعث إلى قومك يفدونك فإنى قد اشتريتك بمائتى بعير فأرسل بشر إلى قومه فهيئوا له الفداء وبادرهم أوس فأَحسنَ كسوته وحمله على نجيبه الذى كان يركبه وسار معه حتى إذا بلغ أدنى أرض غَطَفَان جعل بشر يمدح أوساً وأهلَ بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، فهجاهم بخمس ، ومدحهم بخمس ، ومنهم .

هرم بن سنان

وكان من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم فى الإحسان والمعروف وهو ممن يضرب به المثل فى ذلك . وهو صاحب زُهَيْر الذى يقول فيه :

متى تلاق على عِلاَّته هَرِماً تلق السماحة فى خلق وفى خلق

وكان سنان أبو هَرِم سيدَ غَطَفان وماتت أمه وهى حامل به ، وقالت : إذا أنا مُتُّ فشقوا بطنى ، فإن سيد غَطَفان فيه فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سنانا ، وفى بنى سنان يقول زهير :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

لو كانَ يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

جنّ إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزؤن بهاليلٌ إذا قصدوا[1]

محسدون على ما كان من نعم لاينزع الله منهم ماله حسدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان

وأبيض فَيّاضٍ يداه غمامةٌ على مُعْتَفِيه ما تُغِبّ فواضله[2]

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله[3]

أخو ثقة لا تتلف الخمرُ مالَهُ ولكنه قد يتلف المالَ نائلُه[4]

وقال زهير أيضاً فى هرم بن سنان وأهل بيته :

إليك أعملتها فتلا مرافقها شهرين يجهض من أرحامها العَلَقُ[5]

حتى دفعن إلى حلو شمائله كالغيث تنبت فى آثاره الورق

من أهل بيت يرى ذو العرش فضلَهُمُ يُبْنى لهم فى جنان الخلد مرتَفَقُ[6]

---

(١) بهاليل جمع بهلول كسر سور الضحاك والسيد الجامع اكل خير .

(٢) قوله وابيض يريد رجلا نقيا ، والفياض : الكثير العطاء وأصله من الفيض ، وقوله يداه غمامة اى تمطر يداه بالاعطاء كما تمطر الغمامة ، والمعتفون : الطالبون ما عنده ، وقوله ما تغب فواضله أى هى دائمة لا تنقطع ولا تأتى فى الغب ويقال غبه وأغبه اذا أتاه غبا ، وفواضله : عطاياه لانها تفضل كل عطاء . (٣) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر يقول هو مسرور بمن سأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى ولم يرد انه حريص على الاخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للاخذ وكراهيتها للاعطاء . (٤) قوله أخو ثقة اى يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده وكرمه ، والنائل : العطاء ، يقول لا يتلف ماله بشرب الخمر ولكن يتلفه بالعطاء . (٥) اعملتها اى الناقة يقال اعملت الناقة اذا حثثتها وسقتها ؛ والفتل بالتحريك اندماج فى مرفق الناقة ، والنعت مرفق أفتل بين الفتل وهى فتلاء وقوم فتل الايدى ، واجهضت الناقة ولدها أسقطته ناقص الخلق ، والعلق جمع علقة الدم الجامد . (٦) المرتفق : المتكأ .

الطعمين إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... والطيبين ثياباً كلما عرقوا[١]

كأن آخرَهُمْ فى الجود أولهم ... إن الشمائل والأخلاق تتفق

إن قامروا أقمروا أو فاخروا فخروا ... أو ناضلوا نَضَلوا أو سابقوا سبقوا[٢]

تَنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا ... كما تنفس عند الباعة الورق

قال الميدانى فى مجمع أمثاله عند قولهم « أجود من هَرِم » : هو هرِم بن سنان ابن أبى حارثة المرّى وقد سار بذكر جوده المثل ، قال زهير بن أبى سلمى فيه :

إن البخيل مَلُومٌ حيث كان ولكنّ الجواد على عِلاّته هَرِمُ[٣]

هو الجوادُ الذى يعطيك نائله ... عفواً ويَظْلم أحياناً فيظَّلم[٤]

ووفدت ابنة هرم على عُمَرَ ، فقال لها : ما الذى أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ؟ فقالت : أعطاه خيلا تنضى[٥] ، وإبلا تتوى[٦] وثيابا تبلى ، ومالا يفنى . فقال عمر : لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر ، ولا يفنيه العصر ؟ ويروى أنها قالت : ما أعطى هَرِمٌ زهيراً قد نسى . قال لكن ما أعطاكم زهيراً لا ينسى . ومنهم :

عبد الله بن حبيب العنبرى

وكان يُضرب به المثل فى الجود . فيقولون أقرى من آكل الخبز وهو أحد

---

(١) ازم الزمان : اشتد بالقحط ، والأزمة اسم منه (٢) ناضلت عنه : حاميت ، وناضلته راميته فنضلته نضلا غلبته فى الرمى (٣) قوله على علاته أى على ماينوبه من قلة ذات يد وعوز (٤) الجواد : الكريم المكثر فى العطاء ، والنائل العطية ، وعفوا أى من غير طلب يتقدمه أو سهلا بلا مطل ولا تعب وهذا البيت من شواهد الصرف يستشهد به على أن أصل يظلم يظتلم قلبت التاء طاء لمجاورتها الطاء فاذا أدغم فمنهم من يقلب الطاء ظاء ثم يدغم ومنهم من يدغم الظاء فى الطاء على القياس فيصير يطلم وقد روى البيت بالوجهين وروى بالاظهار أيضا قال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : قد سبق زهير الى هذا المعنى ، لاينازعه فيه أحد غير كثير فانه قال يمدح عبد العزيز بن مروان :

رأيت ابن مالى يعترى صلب ماله ... مسائل شتى من غنى ومصرم

مسائل ان توجد لديه تجد بها ... يداه وان يظلم بها يتظلم

والمصرم القليل المال (٥) أى تبلى (٦) تهلك

بنى سمرة سمى آكل الخبز . لأنه كان لا يأكل التمر ولا يَرْغَبُ فى اللبن . وكان سيدَ بنى العنبر فى زمانه وهم إذا افتخروا قالوا منا آكل الخبز ، ومنا مُجير الطير . فأما مجير الطير ، فهو ثور بن شحمة العنبرى . وأما السبب فى تلقيبهم عبد الله ابن حبيب بآكل الخبز فلأن الخبز نفسه عندهم ممدوح ، وذكر أبو عبيدة أن هَوْذَةَ بنَ على الحنفى دخل على كِسْرَى ابْرَوِّيزَ ، فقال له : أىّ أولادك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يبرأ . قال : ما غذاؤك ببلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى : هذا عقل الخبز لاعقل اللبن والتمر . فصار الخبز عندهم ممدوحا كما صار ما يناسبه بعض المناسبة ممدوحا وهو الفالوذج لأنه أشرف طعام وقع إليهم ولم يطعم الناس هذا الطعام أحد من العرب إلا عبد الله ابن جُدْعان فمدحه أمية بن الصلت بذلك فقال :

إلى رُدُحٍ من الشيزى مِلاّء لُبابَ البُرِّ يلبك بالشِهاد[1]

ولهم الثريد وهو فى أشرافهم عام ، وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه فمدح به فى قول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتون عِجافُ[2]

قال حمزة : فهذا المثل مع ما يتلوه حكاه عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه الموسوم بكتاب (أطعمة العرب) . ومنهم :

عبد الله بن جدعان التيمى

وقد كان من مشاهير الأجواد . وممن سارت بجوده الأمثال فى الأقطار والبلاد ، وكان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب ، وقالوا فى المثل : « أقرى من حاسى الذهب» وكان من قريش . وفيه قال أبو الصلت الثقفى :

له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارتِهِ يُنادى

---

(١) يأتى شرحه فى الأصل (٢) عمرو والعلا اسم هاشم بن عبد مناف ، والمسنتون الذين اصابتهم السنة المجدبة الشديدة ، والعجاف جمع أعجف وهو الذى ذهب سمنه والبيت لابن الزبعرى

إلى رُدُحٍ من الشيزى مِلاءٍ لُبَابَ البُرِّ يُلبك بالشهاد

الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أو قطعة تزاد فيه والرداح الخفيفة العظيمة .
وروى الجوهرى البيت هكذا إلى رُدُحٍ من الشيزى عليها ففيه عليها بدل ملاء والشيز والشيزى خشب أسود يتخذ منه القِصاع ، وقوله لُباب البر : أى من لباب البر . وأخبارُ عبد الله بن جدعان فى السخاء والكرم كثيرة ، وقد ذكر طرفاً منها الزبيرُ بنُ بكار فى كتابه الذى ألفه فى فضائل قريش . ومن خبره أنه كان فى ابتداء أمره صعلوكا[1] تَرِبَ اليَدَيْن وكان مع ذلك شريراً فاتكا لايزال يجنى الجنايات فيعقل[2] عنه أبوه وقومه حتى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يُؤْوِيه أبداً فخرج فى شِعابِ مكةَ حائراً ثائراً يتمنى الموت أن ينزل به فرأى شقاً فى جبل فظن أن به حية فتعرض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم يَرَ شيئاً فدخل فإذا به ثعبان عظيم له عينان تَقِدانِ كالسراجين فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب[3] عنه مستديراً بدارة عند بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان فأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف ينظر إليه يفكر فى أمره فوقع فى نفسه أنه مصنوع فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فإذا جثث طوال على سُرُر لم يَرَ مثلهم طولا وعظماً وعند رءوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً الحرث بن مُضاض صاحب الغذبة الطويلة وإذا عليهم ثياب من وشى لايَمَسُّ منها شىء إلا انتثر كالهباء[4] من طول الزمان مكتوب فى اللوح عظات . قال ابن هشام كان اللوح من رخام[5] وكان فيه أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبى الله هود عليه السلام عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غَوْرَ الأرض ظاهرها

(١) الصعلوك بالضم الفقير ، والترب الذى لا مال له (٢) عقل عنه أدى جنايته (٣) فانساب أى مشى مسرعا (٤) الهباء بالمد دقاق التراب والشىء المنبث الذى يرى فى ضوء الشمس وليس له مس ولا يرى فى الظل (٥) حجر معروف الواحدة رخامة

وباطنها فى طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجينى من الموت . وتحته مكتوب :

قد قطعتُ البلادَ فى طلب الثر ... وة والمجد قالصَ الأثواب[١]

وسريت البلاد قفراً لقفرٍ ... بقناة وقوة واكتساب

فأصاب الرَدَى بناتَ فؤادى ... بسهامٍ من المنايا صيابِ

فانقضت مدتى واقصر جهلى ... واستراحت عواذلى من عتابى

ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيب فى محل الشباب

صاح هل ريت أو سمِعتَ براعٍ ... ردّفى الضَرْعِماقرىفىالحلاب[٢]

وإذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ماأخذ ثم علم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل إلى أبيه بالمال الذى خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز : ويطعم الناس ويفعل المعروف . وفى القاموس وربما كان يحضر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طعامُه . وكانت له جَفْنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها صبى فغرق ومات . وفى غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كنت أستظل بظل جَفْنة عبد الله بن جُدْعان صكة عُمَىّ يعنى فى الهاجرة وسميت الهاجرة صكة عمى لخبر ذكره أبو حنيفة فى الأنواء وهو أن عميا رجل من عَدْوان ، وقيل : من إياد ، وكان فقيه العرب فى الجاهلية فقدم فى قومه معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم فى وسط الظهيرة من أتى مكة غداً فى مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا

---

(١) قوله قالص الأثواب اى قصير الثياب يقال قلص الثوب بعد الغسل اى انزوى (٢) قوله ريت اصله رأيت فخففت بحذف الهمزة ، والحلاب بالكسر اناء يحاب فيه ، ويروى فى العلاب جمع علبة والعلبة محاب من جلد ، والضرع لذات الظلف كالثدى للمرأة والجمع ضروع كفلس وفلوس ، وقرى : اجتمع

الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغداة وعمى تصغير أعمى على الترخيم فسميت الظهيرة صكة عمى .

وعبد الله بن جدعان تيمى يكنى أبا زهير ، وهو ابن عم عائشة رضى الله تعالى عنها ، ولذلك قالت : يارسول الله . إن ابن جُدْعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : لا . إنه لم يقل يوماً رب اغفرلى خطيئتي يوم الدين كذا قاله السهيلى فى الروض الأنف[1] . وفى كتاب رى العاطش وأنس الواحش لأحمد بن عمار : إن ابن جُدْعان ممن حرم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان بها مغرى . وذلك أنه سَكِرَ ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه فأخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربهَا أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنوتيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه فى العطاء فكان يدعو الرجلَ فإذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له قم فأنشد لطمتك واطلب دِيتَّها فإذا فعل ذلك أعطته بنوتيم من مال ابن جُدعان . ومنهم :

***

قيس بن سعد

وهو من أسخياء العرب وأجوادِهم المذكورين . قيل له يوماً هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة لحضرها زوجها فقالت أنه نزلت بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها ، وقال شأنكم فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال شأنكم فقلت ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا اليسير ، فقال : إنى لا أطعم

(١) هذا الكتاب شرح على السيرة الهاشمية وقد طبع بمصر سنة ١٣٣٢ ، وروضة انف كعنق لم ترع ، قال الشاعر :

او روضة انف تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وكذلك كأس أنف لم تشرب

أضياف الغابّ(١) فأقنا عنده أياماً والسماء تمطر وهو يفعل كذلك . فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائة دينار ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا منه ومضينا فلما مَتَع النهار(٢) ، إذا رجل يصبح خلقنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن القِرَى(٣) . ثم إنه لحقنا وقال لتأخُذُنّها وإلا طعنتكم برمحى فأخذناها وانصرف .
ومنهم :

عبدة الكلبية

وهى امرأة من العرب كانت مذكورة بالسخاء . فقد روى أبو بكر بن دريد بسنده إلى أبى عبيدة · قال مرّ رجل من أهل الشام بامرأة من كلب . فقال هل من لبن يباع فقالت : إنك للئيم أو قريب عهد بقوم لئام ، هل يبيع الرِسل(٤) كريم ، أو يمنعه إلا لئيم . إنا لَنَدَع الكومَ(٥) لأضيافنا تكوس(٦) . إذا عكف الدهر الضروس . ونغلى اللحم غريضاً(٧) · ونهينه نضيجاً(٨) . ومنهم :

قتادة بن مسلمة الحنفي

كان هذا أيضاً من أسخياء العرب ومشاهيرهم فى الكرم وبه يضرب المثل فى الجود ، وكان يسمى غيث الضريك . وقالوا : هو « أقرى من غيث الضَريك » وهو الفقير . ومنهم :

مطاعيم الريح

زعم ابن الأعرابى أنهم أربعة أحدهم عم أبى مِحْجَن الثقفِى ولم يسم الباقين .

(١) يقال غب الطعام والتمر يغب غبا وغبا وغبوبا وغبوبة فهو غاب : بات ليلة فسد او لم يفسد وخص بعضهم اللحم ، وقيل غب الطعام تغيرت رائحته ، قال جرير يهجو الأخطل :

والتغلبية حين غب غبيبها تهوى مشافرها بشر مشافر

اراد بقوله غب غبيبها ما انتن من لحوم ميتتها وخنازيرها (٢) اى ارتفع (٣) الضيافة (٤) اللبن (٥) القطعة من الابل (٦) يقال كاس البعير اذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب (٧) اى طريا (٨) يقال : نضج اللحم كسمع نضجا ونضجا ادرى ، فهو نضيج وناضج

قال أبو النَدى هم كِنانَة بنُ عبد ياليل الثقفى عم أبى مِحْجن . ولَبيد بن ربيعة وبوأه كانوا إذا هبت الصَّبا أطعموا الناس وخصُّوا الصَّبا لأنهـا لا تهبُّ إلا فى جَدْبٍ . قالت بنت لَبيد بن ربيعة العامرى :

إذا هَبَّتْ رِياحُ أبى عقيل ذكرنا عند هبَّتِهـا الوَليـدا
أشمَّ الأنف أبيضَ عبشمياً أعانَ على مروءته لبيـدا[1]

وكانت العرب تضرب بهم الأمثال . لما جُبِلوا عليه من سخاء الطبع وكريم الخصالِ . وخلدوا لهم الذكر الجميل . والثناء الجزيل . وهو أحسن ما يدَّخر . وأجلّ ما يُقْتنى ويؤثر . ومنهم :

ازواد الركب

قال ابن بكار فى أنساب قريش : كان أَزْوادُ الركب من قريش ثلاثةً ، مسافر ابن أبى عمرو بن أُمَيَّة بن عبد شمس . الثانى زَمَعَة بن الأسود بن المطلب بن أسَد بن عبد العُزَّى . الثالث أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وإنما قيل لهم أزواد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولم يسمَّ بذلك غير هؤلاء الثلاثة . وكان عند أبى أمية بن المغيرة أربع عواتك عاتكة بنت عبد المطلب وهى أم زهير ، وعبد الله وهو الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . وعاتكة بنت جِذْل الطعان[2] ، وهى أم أم سلمة والمهاجر . وعاتكة بنت عتبة بن ربيعة . وعاتكة بنت قيس من بنى نهشل بن دارم التميمية انتهى . وبهم كانت قريش تضرب المثل . قال الميدانى عند قولهم أقرى من زاد الركب : زعم ابن الأعرابى أن هذا المثل من أمثال قريش ضربوه لثلاثة من أجوادهم و عدد أسماءهم على الوجه

---

(١) الشمم ارتفاع فى قصبة الانف مع استواء اعلاه ، وقوله عبشميا اى منسوبا الى عبد شمس (٢) هو علقمة بن فراس من مشاهير العرب لقب بذلك لجوده يقال للرجل العالم بالأمر القائم به المثابر عليه هو جذاله

السابق . وأخبار هؤلاء كثيرةٌ . وما ورد فيهم من شعر المديح أكثر والمقام لا يسع ذلك ، وكان أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم زوج اخته عاتكة بنت عبد المطلب فخرج تاجراً إلى الشام فمات بموضع يقال له سَرْوُ سحيم ، فقال أبو طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات يرثيه بها وهي :

ألا إنَّ زادَ الركبِ غير مدافَعٍ ... بِسَرْوِ سُحَيْم غيبتْه المقابرُ
بِسَرْوِ سُحَيمٍ عارف ومناكِرٌ ... وفارسُ غارات خطيبٌ وياسِر (١)
تنادوا بأن لاسيد الحى فيهم ... وقد فجع الحيان كعب وعامر
فكانَ إذا يأتى من الشام قافلا ... بمقدمه تَسعى إلينا البشائر (٢)
فيُصْبح أهلُ اللهِ بيضاً كأنما ... كستهم حَبيراً رَيْدة ومعَافرُ (٣)
ترى داره لا يبرح الدهر عندها ... مُجَعْجَعَة كُومٌ سمانٌ وباقرُ (٤)
إذا أكلتْ يوماً أتى الدهر مثلها ... زواهق زهم أو مخاضٌ بهازرُ (٥)
ضَرُوبٌ بنَصْل السيف سُوقَ سِمانِها ... إذا عَدِموا زاداً فإنك عاقِرُ (٦)
وإلاَّ يكن لحم غريض فإنه ... تكب على أفواههن الغرائر (٧)

---

(١) سحيم بضم السين موضع فى طريق الشام من مكة ، وسروه اعلاه وحذف حرف العطف من خطيب ضرورة ؛ مناكر اسم فاعل من ناكره اى قاتله ؛ وياسر اللاعب بقداح الميسر ، والميسر قمار العرب بالأزلام وهو مما يفتخر به عندهم كانوا يقامرون بها فى ايام الغلاء والقحط ويفرق الغالب لحم الجزور على الفقراء (٢) القافل : الراجع من السفر ، والبشائر جمع بشارة (٣) اراد باهل الله قريشا سموا بذلك لأنهم ارباب مكة ، والحبير بفتح الحاء المهملة ثياب ناعمة كانت تصنع باليمن ، وريدة بفتح الراء وسكون المثناة التحتية بلدة من بلاد اليمن ، ومعافر بفتح الميم وكسر الفاء هى من همدان الى اليمن (٤) قوله مجعجعة اسم فاعل من جعجعت الابل اذا صوتت ، والباقر اسم لجماعة البقر كالجامل لجماعة الابل (٥) زواهق جمع زاهقة وهى السمينة ؛ والزهم : الكثيرات الشحم جمع زهمة بفتح فكسر وكلاهما بالزاى المعجمة ، والمخاض : الحوامل من الابل واحدها خلفة من غير لفظها ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقة الجسيمة (٦) قوله ضروب اى هو ضروب ، ونصل السيف شفرته فلذلك اضافه الى السيف وقد يسمى السيف كله نصلا ؛ مدحه بانه كان يعرقب الابل للضيفان عند عدم الازواد وكانوا اذا ارادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها ، وقوله فاذا عدموا الخ الجملة الشرطية التفات الى الخطاب من الغيبة ، والسوق جمع ساق (٧) الغريض : الطرى من اللحم ؛ والغرائر جمع غرارة وهى العدل يكون فيها الدقيق والحنطة وغيرهما.

فيالك من ناعٍ حبيت بألّةٍ ٍشراعيّةٍ تصفرُّ منها الأظافر[١]

ومن كان يضرب به المثل من أجواد عرب الجاهلية لا يمكننا أن نستوعبهم ، ومن وقف على أخبارهم تبين لديه أن كلَّ واحد منهم كان يستحق أن يُضْرَبَ به المثل .

وأما بعد ظهور الإسلام فقد تأكد ذلك لديهم واستوجبته عليهم نصوص الشريعة فانضم هـذا الداعى إلى الداعى الطبيعى فـكان فيهم من أهل القرون الثلاثة من أنسى ذكر كعب بن مامَةَ وابنِ سُعدى . قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد : أجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص . فمن جود عبيد الله بن العباس أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطُرُق ، وأول من حيَّ على طعامه ، وأول من أنهبه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وفى السنة الشهباء أطعمتَ حامضاً وحلواً ولحماً تامكا ومُمزّعا[٢]
وأنت ربيعٌ لليتامى وعصـمة إذا المحـل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعا

« ومن جوده » أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال : يا ابنَ عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت إليها فَصعَّد بصره وصوَّبه فلم يعرفْه ، ثم قال : ما يدك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك[٣] من مائهـا والشمس قد صَهَرَتْك[٤] فظللتك بطرف كسائى حتى شربتَ . قال : إنى لأذكرُ ذلك وأنه يتردد بين خاطرى وفـكرى . ثم قال لِقَيّمه : ماعندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا قال له الرجل :

---

(١) حبيت : خصصت من الحباء وهى العطية ، والالة بفتح الهمزة واللام المشددة الحربة ، وشراعية بالكسر الطويلة ، وقوله تصفر منها الخ اى تموت منها لأن الميت يصفر ظفره دعاءعلى من أخبر بموت ابى امية بالقتل (٢) السنة الشهباء التى لاخضرة فيها او لامطر ، وتامكا اى سمينا ، ومزع اللحم تمزيعا فتمزع أى فرقه فتفرق (٣) المتح الاستقاء (٤) اى آلمت دماغك

والله لو لم يكن لإسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ثم شفعه بك وبأبيك .

« ومن جوده أيضاً » أن معاوية حبس عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صلاته حتى ضاقت عليه حاله فقيل لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله فإنه قدم بنحو من ألف ألف درهم فقال الحسين : وأين تقع ألف ألف من عبيد الله ؟ فهو والله لهو أجود من الريح إذا عصفت[1] وأسخى من البحر إذا زخر[2]، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان من أرق الناس قلباً ، وألينهم عطفاً ، انهملت[3] عيناه . ثم قال : ويلكَ يا معاويةُ مما اجترحَتْ[4] يداك من الإثم حين أصبحت لين المهاد ، رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال ، ثم قال لقهرمانه[5] : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابة ، وأخبره أنى شاطرتُهُ مالى ، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجعْ واحمل إليه الشطر الآخر . فقال له القَيِّم : فهذه المؤن التى عليك من أين تقوم بها ؟ قال : إذا بلغنا ذلك دللتك على أمر تقيم به حالك . فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال : إنا لله حملت والله على ابن عمى ، وما حسبته يتسع لنا بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك فى الإسلام .

« ومن جوده » أن معاوية أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حُلَلا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه فلما وضعها بين يَدَيْهِ نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل فى نفسك منها شىء ؟ فقال : نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف

---

(١) يقال عصفت الريح تعصف عصفا وعصوفا اشتدت فهى عاصفة وعاصف وعصوف واعصفت فهى معصف ومعصفة (٢) اى طمى وتملا (٣) اى فاضت (٤) اى اكتسبت (٥) هو المسيطر الحفيظ على ماتحت يديه قال ابن برى : القهرمان من أمناء الملك وخاصته فارسى معرب وقال أبو زيد يقال قهرمان وقرهمان مقلوب بلغة الفرس القائم بأمور الرجل قاله ابن الأثير

عليهما السلام فضحك عبيد الله قال فشأنك بها فهى لك . قال جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد على . قال : فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم ، ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه يعنى معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه ، قال دع عنك هذا الكلام فإنا قوم نفى بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا

« ومن جوده » أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له : تصدق فإنى نبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه ؟ فقال له وأين أنا من عبيد الله ، فقال أين أنت منه فى الحسب أم كثرة المال ؟ قال فيهما . قال أما الحسب فى الرجل فمروءته وفعله ، وإذا شئت فعلت وإذا فعلت كنت حسيبا فأعطاه ألفى درهم واعتذر إليه من ضيق الحال فقال له السائل إن لم تكن عبيد الله بن عباس فأنت خير منه وإن كنتَ هو فأنتَ اليوم خيرٌ منك أمس فأعطاه ألفاً أخرى فقال السائل هذه هزة كريم حسيب واللهِ لقد نقرت حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك فما أخطأت إلا باعتراض الشك من جوانحى .

« ومن جوده أيضاً » أنه جاءه رجل من الأنصار فقال يا ابن عم رسولِ الله إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميته باسمك تبركا منى به وأن أمه ماتت ، فقال عبيد الله بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع إليه مائتى دينار للنفقة على تربيته ثم قال للأنصارىّ عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة ، قال الأنصارى لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرتْهُ العرب أبداً ، ولكنه سبقك فصرت له تالياً ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطَلَّ كرمك أكثر من وابله انتهى ما فى العقد من حديث عبيد الله . وروى أبو فرج الأصبهانى فى الأغانى بسنده ، قال : مرَّ عبيدُ اللهِ بن عباس بن عبد المطلب بمَعْن بن أوس المزَنىّ وقد كف بصره فقال له يامعن : كيف حالك ؟ فقال :

ضَعُف بصرى وكَثُر عيالى وغلبنى الدَّيْن . قال : وكم دينك ؟ قال : عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه ، ثم مر به من الغد فقال كيف أصبحتَ يا معن ؟ قال :

أخذت بعين المــال حتى نهكته ... وبالدَّيْن حتى ما أكاد أدان[1]
وحتى سألتُ القرض عند ذوى الغنى ... وردَّ فــــلان حاجتى وفلان

فقال له عبيد الله . اللهُ المستعانُ إنا بعثنا إليك لقمةً فما لُكْتَها حتى انتزعت من يديك فأىّ شىء للأهل والقرابة والجيران ، وبعث إليه بعشرة آلاف درهم أخرى فقال معن يمدحه :

إنك فرعٌ من قريشٍ وإنمــا ... يمجّ الندى منها البحور الفوارعُ[2]
ثووا قادة للنـــاس ببطحاء مكة ... لهم فى سقاياتِ الحجيج الدوافعُ[3]
فلمــا دُعوا للموت لم تبك منهم ... على حادث الدهر العيونُ الدوامعُ

ثم إن ابنَ عبد ربه ذكر نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر ، وجود سعيد بن العاص ، وجود عبيد الله بن أبى بكرة . وجود عبيد الله بن معمر القُرَشى التيمى ، وذكر جود جماعة كثيرة من أهل الطبقة الثانية من الأجواد وأتى من ذلك بما يستغرب ويوجب العجب ولا بدع فإن لهم أسوةً بسيدهم بل سيد ولد عَدْنان وقحطان ونورِ حَدَقة عالم الإمكان ، صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه قد منح من السخاء والجود ، ما فاق به حتى جاد بكل موجود ، وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصُع[4] من شعير لطعام أهله ، وقد ملك جزيرة العرب ، وكان فيهــا ملوك وأقيال[5] لهم خزائن وأموال ، يقتنونها ذخراً ، ويتباهون بها فخراً ، ويستمتعون بها أشراً وبطراً ، وقد حاز ملك

---

(١) نهكته اى صرفته حتى فنى (٢) هو مخروم ويروى وانك بالواو فلا خرم والفرع مستعار من فروع الشجرة وهى اغصانها والفوارع جمع فارع وهو العالى (٣) السقاية بالكسر الموضع يتخذ لسقى الناس ، والحجيج جمع حاج (٤) آصع جمع صاع وهو يذكر ويؤنث مكيال (٥) اقيال جمع قيل وهو الملك او من ملوك حمير يقول ماشاء فينفذ أو هو دون الملك الأعلى

جميعهم ، فما اقتنى ديناراً ولا درهما ، لا يأكل إلا الجشبْ(١) ، ولا يلبس إلا الخشن ، ويعطى الجزل الخطير ، ويَصِلُ الجم الغفير ، ويتجرع مرارةَ الإقلال ويصبر على سَغَب(٢) الاختلال ، وقد حاز غنائم هوازن ، وهى من السَّبْيِ ستة آلاف رأس ، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون ألف شاة ، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خِلْوًا .

روى أبو وائل عن مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت . ما ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيء . وروى عمرو بن مرة عن سويد بن الحارث عن أبى ذَرٍّ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما يسرنى أن لى أُحُدا ذهبا أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وعندى منه دينار إلا أن أعده لغريم . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا سئل وهو مُعْدم وَعَدَ ولم يَردَّ وانتظر ما يفتح الله . روى حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله فقال : اجلس سيرزقك الله . ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم : اجلسوا فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال يا رسول الله هذه صدقة فدعا الأول فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقيةً ، وبقيت معه أوقيةٌ واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى فقالت له عائشة يارسول الله حل بك شيء ؟ قال لا قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال لا قالت إنك صنعت منذ الليلة شيئًا لم تكن تفعله فأخرجها وقال : هذه التى فعلت بى ما ترَيْنَ إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها ، وروى الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دَيْناً فعلىَّ ومن ترك مالا فلورثته . فهل مثل هذا الكرم والجود كرماً وجوداً ، أم لمثل هذا الإعراض والزهادة

---

(١) اى الغليظ من الطعام (٢) جوع

إعراضاً وزهداً ، هيهاتَ هيهاتَ هل يُدْرَك شأوُ[1] مَنْ هذه شذورٌ من فضائِلِه ، ويسيرٌ من محاسِنه ، وهى التى لا يحصى لها عدد ، ولا يُدْرك لها أمد ، وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها ، واستكمل لغايات الأمور آلتهـا ، أن يكون لزعامة العالم مؤهلا ، وللقيام بمصالح الخلق موكلا .

وأما كون العرب أقرب للحلم من غيرهم

فَلِأَنَّ الحلمَ إمساكُ النفس عن هَيَجان الغَضَب كما أن التحَلُّمَ إمساكُها عن قضاء الوَطَر[2] والحلم من آثار العقل وغير مُنْفَكٍّ عنه ، ولهذا يعبر به عن كل عقل ظهر فعلاً كقوله تعالى فى ذم من لم يذعن للحق على سبيل التعجب منهم : أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ . ومتى استعمل الحلم فى البارى تعالى فإنما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له . ثم إن العقل كلما كان أوفرَ كان تأثيرُهُ أتمَّ وأثَرُه أقوى وأحكم ، وقد سبق ما كان عليه العرب من غزارة العقل وكماله ، فلا شك أن مؤثِراتِهِ كذلك . وقد اشتهر العرب لا زالت مآثرهم تتلى على مدى الدهور . ومر الأزمنة والعصور ، بكل ما يتم الحلم به فإن حلم الإنسان لا يتم إلا بإمساك الجوارح كلها ، اليدِ عن البطش ، واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر . ومن دقق النظر فى شعرهم وخطبهم ، ووقف على لغتهم ، تبينَ لديه كل ما ذكرناه ، فقد كانوا يحرمون الظلم ويتحالفون على الكف عنه كما سيمر بك حلف الفضول ونحوه ، ويتناهون عن الفحشاء والمنكر ، ولغتهم تكنى عن كل ما يستقبح التصريحُ به تحرزاً من التلفظ بكلمة تأباها مروءتهم . وقد أفردَ الثعالبىُّ كتاباً كبيراً فى كناياتهم عما تتنزه ألسنتهم عن التعبير به . وما زالوا يتمدحون بالحلم فى شعرهم . ولو لم يكونوا بالغينَ فيه مبلغاً ما لهجوا به . قال خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يذكر قوما من العرب ويمدحهم بالحلم ومكارم الأخلاق وكرم السجية :

---

(١) السبق (٢) اى الحاجة ، يقال قضيت وطرى اذا نلت بغيتك وحاجتك

عدلتُ إلى فخرِ العشيرة والهوَى ... إليهمْ وفى تَعداد مجدِهِمُ شُغْلُ

إلى هَضْبةٍ من آل شيبانَ أشرفت ... لها الذِرْوةالعلياء والكاهِل العَبْلُ (١)

إلى النفرِ البيض الأُلاَء كأنهم ... صفائحُ يومَالرَوْع أَخْلَصَهاالصَّقْلُ (٢)

إلى مَعْدِنِ العزّ المؤيَّدِ والندى ... هناك هناك الفضلُ والُخلق الجزْلُ

أحب بقاء القــوم للناس أنهم ... متى يظمنوا من مَصْرَع ساعة يخلو

عِذَابٌ على الأفواه ما لم يذقْـهُمُ ... عدوٌ وبالإفواه أسماؤهم تحلو (٣)

عليهم وقارُ الحــلم حتى كأنّمــا ... وليدُهُمُ من أجْل هيبته كَهْلُ (٤)

إن استجهلوا لم يعزب الحلمُ عنهُمُ ... وإن آثروا أنْ يجهلوا عَظم الجهل (٥)

هم الجبل الأعلى إذا ما تنا كرت ... ملوكُ الرجالِ أو تخاطرتِ البُزْلُ (٦)

ألم تَرَ أن القتلَ غالٍ إذا رضوا ... وإنْ غَضِبوا فى موطِنٍ رخصَ القتلُ

لنا فيهمُ حِصْنٌ حَصِينٌ ومعقِلٌ ... إذا حرّكَ الناسَالمخاوفُ والأَزْلُ (٧)

لعمرى لَنِعْمَ الحيُّ يدعو صريخهم ... إذا الجار والمأكول أَرْهَقَه الأكل (٨)

سعــاة على إفناء بكر بن وائلٍ ... وتَبْلُ أقاصى قومِهِمُ لهمُ تَبْلُ (٩)

إذا طلبوا ذَحْلا فلا الذَحْل فائت ... وإنظلموا أكفاءهم بَطَلَالذَحْل (١٠)

مواعيدُهم فِعْلٌ إذا ما تـكلموا ... بتلكالتى إنْ سُمِّيَتْ وجَبَالفعل (١١)

---

(١) الهضبة : الجبل من صخرة واحدة ، والذروة : اعلى شيء ، والكاهل : مابين الكتفين ، والعبل : الضخم الممتلىء يعنى بذلك بنى شيبان وكنى عنهم بالهضبة لأنهم ملجأوحصن (٢) النفر : البيضالانقياء الأعراض ، والآلاء بمعنى الذين وما بعده صلة ، والصفائح : السيوف ، والروع : الفزع (٣) عذابعلى الأفواه يريد أن طعمهم حلو فى الأفواه ، وقوله مالم يذقهم عدو معناه الأعاى أفواه الأعداء فان مذاقهم مر فيها وهذا كله كناية عن اللين والشدة وخشونة الجانب (٤) الكهل : من الرجال من جاوز الثلاثين (٥) لم يعزب : اى لم يبعد ، وآثروا اختاروا وفضلوا (٦) قوله تخاطرت البزل قال فى التاج : يجوز ان يكون من الخطر الذى هو الوعيد ويجوز أن يكون من خطر البعير بذنبه اذا ضرب به انتهى ، والبزل جمع بازل وهو البعير الذى بلغ السنة التاسعة من عمره (٧) المعقل : الملجأ ، والأزل : الضيق والشدة (٨) ارهقه : ضيق عليه وغشيه (٩) التبل : الذحل والثأر ، والأقاصى الأباعد (١٠) الذحل : الثار (١١) بتلك أى بلفظ نعم يصفهم بالوفاء فيقول اذا قالوا نعم وجب الفعل فلم يتأخر

بحورٌ تلاقيها بحورٌ غزيرة إذا زَخَرت قيس وإخوتها ذُهْلُ

وكانت عندهم كلمة تقال فى مواطن الغضب والتشاجر فإذا سمعها أحدهم كف عما كان بصدده من التشفى وأخذ الانتقام . وهى « إذا ملكتَ فأَسْجِحْ » يُقْصَدُ بها طلب العفو والحلم عند ثوران القوة الغضبية ولو لم يكونوا أملكَ لنفوسهم ، وأقدرَ على مجاراة عقولهم ، لما تمكنوا على الارتداع ، إذا قارنت تلك الكلمة منهم السماع ، فهم أحلم فى النفار من كل حليم ، وأسلم فى الخصام من كل سليم ، وإذا منوا بجفوة أحد لم يوجد منهم نادرة ، ولم يخفر عليهم بادرة[1] . ولا حليم غيرهم إلا ذو عَثْرة ، ولا وقور سواهم إلا ذو هَفْوة . يصبرون على الأذى والإقلال ، ويتحملون نغص العيش وضيق الحال ، وما كانت بينهم من الحروب والمشاجرات ، والتخاصم والمنازعات ، فهى محاماة لشرفهم ، وصيانة لعزهم ومنزلتهم ، ومحافظة على مجدهم أن يستذل ، وملاحظة على علوِّ حسبهم أنْ يُسْترذل ، والحلم فى غير موطنه ذلة ، والصبر على ما لا يُحْمَدُ زلة . هؤلاء رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم أكملُ الخلق فى كل صفة محمودة ، وأعذب المناهل الموردة ، قد انتصبوا لجهاد الأعداء ، وقاتلوا من زاغَ عن المَحَجَّة[2] البيضاء ، حتى زاد بهم من قل ، وعز بهم من ذل ، وصادوا بإثخانهم فى الأعداء منصورين ، وبالرعب منهم محذورين ، وهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ضرب رِقاب بنى قُرَيْظَةَ صبرا فى يوم أحد ، وهم نحو سبعمائة[3] وانتقم منهم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة ، ولا داخلته لهم رِقَّة ، وإنما فعل ذلك فى حقوق الله تعالى . وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعدِ بن معاذ عليهم فحكم أن من جرت عليه المُوسَى قتل ومن لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة . فلم يجز أن يعفو عن حق وجَب لله

---

(١) هى ما يبدر من حدتك من قول أو فعل . (٢) جادة الطريق .
لا فى غزوة أحد كما توهم المؤلف .
(٣) هذه المذبحة حدثت بعد انصراف النبى عن الخندق فى غزوة الاحزاب.

تعالى عليهم ، وإنما يختص عفوه بحق نفسه . روى أن قيس بن عاصم المنقرى وهو أحد من يضرب به المثل فى الحلم من العرب كان يحدث أصحابه يوما وهو محتب إذ جاؤا بابنٍ له قتيل ، وابن عمٍ له كتيف . فقالوا : إن هذا قتَل ابنَكَ هذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى إذا فرغ من الحديث التفتَ إليهم فقال أين ابنى فلان ، فجاءه فقال يا بنى قم إلى ابن عمك فأطْلِقْه وإلى أخيك فادفنه وإلى أمّ القتيل فأعْطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه . ثم اتكأ على شقه الأيسر فأنشأ يقول :

إنى امرُؤٌ لا يعترى خُلقى دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أفَنُ
من مِنقَرَ فى بيت مَكْرُمَةٍ والغصن ينبُتُ حولَهُ الغصنُ
خطباءُ حين يقول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقِعٌ لُسُنُ
لا يفطنون لعيبِ جارِهم وهم لحفظ جِواره فُطُنُ

وكان الأحنف حليما موصوفاً بذلك ، فمن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدراً له يطبخها ، فقال الرجل قدر ككفّ القرد لا مستعيرها يُعار ، ولا من يأتيها يتدسم ، فقيل ذلك للأحنف فقال : لو شاء لقال أحسن من هذا . وقال ما أحب أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم ، فقيلَ له أنت أعزُّ العرب . فقال : إن الناس يرونَ الحلم ذلاً وكان يقول رُبَّ غيظٍ قد جرعته مخافةَ ما هو أشدُّ منه . وكان يقول كثرةُ المُزَاح[١] تذهب بالهيبة . ومن أكثرَ من شىء عُرِف به . والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل . وقال له رجل : يا أبا بحر دلّنى على مَحْمَدَةٍ بغير مَزْرِيَةٍ[٢] . قال الخلق السجيح[٣] . والكف عن القبيح . واعلم أن أدواء الداء اللسانُ البذىء ، والخلق الردىء . وأبلغ رجل مصعباً عن رجل شيئاً فأتاه الرجل يعتذر ، فقال مصعب : الذى بلغنيه ثقة . فقال الأحنف : حلا أيها الأمير فإن الثقة لا يبلغ . وكان الأحنف من أفصح خطباء العرب . ومن خطبه ما رواه

(١) المداعبة . (٢) المحمدة بفتح الميم نقيض المذمة ونص ابن السراج وجماعة على الكسر ، ومزرية مصدر زرى عليه أى عابه . (٣) ابن سهل .

ابن دريد بسنده إلى رجل من بنى تميم قال حضرت مجلس الأحنف بن قيس وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم فَحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : إن الكرم ، منع الجرم ، ما أقرب النقمة . من أهل البغى ، لا خير فى لذة تعقب ندما ، لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد ، ربَّ هزل عاد جدًّا . من أمِنَ الزمانَ خانه ، ومن يعظم عليه أهانه . دعوا المزاح فإنه يرث الضغائن[1] . وخير القول ما صدّقه الفعل . احتملوا لمن أدل عليكم . واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطِعْ أخاك وإن عصاك . وَصِلْهُ وإن جفاك . أنصف من نفسك . قبل أن ينتصف منك . وإياكم ومشاورة النساء . واعلموا أن كفرَ النعمة لؤم . وصحبةَ الجاهل شؤم . ومن الكرم الوفاء بالذمم . ما أقبحَ القطيعة بعد الصلة . والجفاءَ بعد اللطف . والعداوةَ بعد الود . ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ولا إلى البخل أسرعَ منك إلى البذل . واعلم أن لك من دنياك . ما أصلحت به مثواك . فأنفق فى حق ولا تكونن خازناً لغيرك . وإذا كان الغدر فى الناس موجوداً . فالثقة بكل أحد عجز . اعرفِ الحق لمن عرّفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل ، تعدل منة العاقل . قال : فما رأيت كلاماً أبلغ منه . فقمت وقد حَفِظْتُهُ . وأخبار حلماء العرب والنوادر المروية عنهم بطرق صحيحة كثيرةٌ وهى فى كتب التواريخ والأدب .

***

وأما كون العرب أشجع من غيرهم

فَلِأَنَّ الشجاعة من الصفات الغريزية ، والسجايا الطبيعية ، وقوة للنفس معنوية ، لا تُدرك إلا بآثارها وغاياتها ، ولا تعلم إلا بمقتضياتها وعلاماتها ، وهى الإقدام فى مواضع الإحجام . وعدم المبالاة . بالحياة ولا بالممات ، وكلما كانت هذه الآثار أعظم . كان مبدؤها أقوى وأتمّ . والعرب لم تزل رماحهم متشابكة ، وأعمارهم فى الحروب متهالكة ، وسيوفهم متقارعة ، وأبطالهم فى ميادين الغوغاء

---

(١) الأحقاد .

متنازعة . قد رغبوا عن الحياة . وطيب اللذات ، وزهدوا لتأييد عزهم عن المقيل فى أفياء الشهوات ، وهم كما قال القائل فيهم :

قوم إذا نزل الغريبُ بدارهم   تركوه ربَّ صواهلٍ وبيان[1]
وإذا دعوتَهمُ ليومِ كريهةٍ   سَدُّوا شعاعَ الشمس بالفرسان
لا ينكتون الأرض عند سؤالهم   لتطلُّب العِلاّت بالعيدان[2]
بل يسفرون وجوههم فترى لها   عند السؤال كأحسن الألوان

كانوا يتمادحون بالموت قطعاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه . وعن بعضهم وقد بلغه موت أخيه : إنْ يُقْتَلْ فقد قُتِلَ أبوه وأخوه وعمه ، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قطعاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف .

وقال السموءل

وما ماتَ منا سيد حتفَ أنفه   ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيل[3]
تَسيل على حد الظُّباة نفوسنا   وليست على غير الظُّباةِ تسيلُ[4]

وقال آخر

وإنا لتستحلى المنايا نفوسنا   ونترك أُخرى مُرّها فنذوقها

وقال الشَّنْفَرَى

فلا تدفنونى إن دفنى محرم   عليكم ولكن خامرى أمَّ عامر[5]

---

(١) القيان جمع قينة وهى الامة المغنية أو اعم

(٢) النكت ان تضرب فى الأرض بقضيب فيوثر بطرفه فيها ، وفى الحديث جعل ينكت بقضيب . وفى المحكم النكت قرعك الارض بعود او باصبع .

(٣) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، وقوله ولا طل منا الخ . أى لم يطل دم قتيل منا يقال طل دمه اذا بطل ولم يطلب به وهو مطلول وقد طله فلان ابطله يقول انا لا نموت ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يبطل . (٤) الظبأ جمع ظبة وهى حد السيف .

(٥) قوله خامرى أى استترى وتوارى ، وأم عامر كنية الضبع ، قال فى فرائد اللآل : أم عامر وأم عمرو وأم عويمر الضبع يشبه بها الاحمق لانهم اذا ارادوا صيدها رموا فى جحرها بحجر فتحسبه شيئا تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك ويقول الصائد لها خامرى أم عامر أى الجئى الى اقصى مغارك واستترى فتنقبض فيقول لها أم عامر ليست فى وجارها ثم يقول أبشرى بجراد غطال وكمر رجال فتمد يديها ورجليها فيوثقها ويشد عراقيبها

إذا حمات رأسى وفى الرأى أكثرى وغودرَ عند الملتقى ثمَّ سائرى[1]

هنالك لا أبغى حيـاة تسرنى سجيسَ الليالى مُبْسَلا بالجرائر[2]

وقال حسان بن ثابت

ولسنا على الأعقاب تدمي كلُومنا ولـكن على أعقابنا تقطُرُ الدما[3]

وقال العلوى .

محرمة أكفال خيلى على القَنا ودامِيـة لَبّاتهـا ونُحورها[4]

حرام على أرماحنا طعنُ مدبرٍ وتندقّ منها فى الصدور صدورها

وقال آخر

وسـائلةٍ بالغيب عنى ولو درَتْ مقارعتى الأبطالَ طال نحيبُها

إذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ يجود بنفس أثقلتها ذُنوبُهـا

وقال الحصين بن الحمام المرى

تأخرت استبقى الحياةَ فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدَّما

وقال عمرو بن الاطنابة الانصارى

أبتْ لى شيمتى وأبى بلائى وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح

فلا تتحرك ثم يجرها ويخرجها من قعر الوجار ، يضرب هذا المثل للذى يرتاع من كل شىء جبنا وقيل غير ذلك

(١) تم ظرف (٢) سجيس الليالى امنداده وسلاسنه فى الاتصال وهو اسم فاعل سجس والمبسل المسلم والجرائر : الجرائم (٣) الأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم الجراح ، يقول لانولى فنجرح فى ظهورنا فنقطر دماؤنا على أعقابنا ولكن نستقبل السيوف فان أصابنا جراح قطرت على أقدامنا ؛ والبيت من ابيات ثلاث ذكرت فى الحماسة للحصين بن الحمام بن ربيعة المرى احد شعراء الجاهلية وفرسانها المذكورين واوفيائها المعدودين وليس لحسان ابن ثابت وهى :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد لتفسى حيـاة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب الخ

تعلق هامـا من رجال أعـزة علينا وهى كانوا أعق وأظلمـا

وكان من خبر هذه الأبيات أن بنى سهم رهط الحصين بن الحمـام وعقيل بن علفة كان لهم جار يهودى فقتلته بنو حوشن من غطفان وكانوا متقاربى المنازل وكان عقيل بن علفة غائبا بالشام فلما بلغه الخبر كتب بأبيات الى بنى سهم يحرضهم على القتال فلما وردت الأبيات عليهم تكفل بالحرب الحصين بن الحمام وقال الى كتب وبى نوه ، خاطب أماثل سهم وأنا من أماثلهم فأبلى فى تلك الحرب بلاء شديدا فقال هذه الأبيات من قصيدة طويله وسيأتى طرف منها فى الصفحات التالية

(٤) الأكفال جمع كفل محركة العجز أو ردفه واللبات والنحور بمعنى

وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامةَ البَطَلِ المُشِيحِ (١)
وقولى كلما جَشَأَتْ وجاشت مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحِى (٢)
لِأَدفع عن مآثر صالحات وأحيا بعدُ عن عرضٍ صحيح

ونظير هذا قول قَطَرِىّ بن الفُجاءة

وقولى كلما جشأتْ لنفسى من الأبطال وَيْحكِ لا تُراعى (٣)
فإنكِ لو سألت حياةَ يومٍ سوى الأجلِ الذى لكِ لم تطاعى (٤)

وقال عنترة وهو مما يشجع الجبان

بكرتْ تخوفنى الحُتُوفَ كأننى أصبحتُ عن غرض الحتوف بمعزل (٥)

---

(١) قوله البطل المشيح اى المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره (٢) هذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على أن العرب جزمت بعد الظرف، يعنى الواقع اسم فعل وهذا معنى قول ابن مالك فى الفيته

والأمر ان كان بغير افعل فلا تنصب جوابه وجزمه اقبلا

قال فى التصريح فجزم تحمدى فى جواب اسم الفعل وهو مكانك فانه فى معنى اثبتى وقولى مصدر مبتدأ خبره مكانك تحمدى على حد قولى لا اله الآ الله . وجشأت بالجيم والشين المعجمة والهمزة ارتفعت . وجاشت بالجيم والشين المعجمة غثت من الغثيان ، وقوله مبتدأ الا ظهر انه عطف على وضربى الخ ، ويقال ان معاوية (رض) يوم صفين هم بالفرار فما منعه الا هذه الأبيات (٣) يروى بدل الشطر الأول من هذا البيت : (اقول لها وقد طارت شعاعا) أى أقول للنفس وقد طارت شعاعا اى متفرقة من الأبطال ويحك لا تراعى من الروع وهو الفزع ولكن تشجعى واصبرى (٤) بقاء يوم اى زيادة يوم والمعنى ان النفس اذا طلبت أن يفسح لها فى أجلها زيّادة عن الأجل المسمى لها لا يجاب طلبها ، وبعد هذين البيتين :

فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن اخى الخنع اليراع

اخو الخنع الذليل ، واليراع هنا الرجل الجبان الذى لاقلب له كأنه لاجوف له فوضع اليراع مكان الجبان لأنه بمعناه

سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لايغتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون الى انقطاع

الاغتباط أن يموت من غير علة

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

(٥) كانت العرب من عادتها تشرب ليلا فتسكر فتعطى وتهب حالة سكرها فاذا أصبحوا لامهم البخلاء فهذا معنى بكرت الخ كما قال التبريزى ، والحتوف مصدر بمعنى الحتف وهو الموت ، وهو ايضا جمع حتف

فأجبتها إن المنية منهلٌ لا بد أنْ أسقى بكأس المَنْهَلِ [١]
فاقنَىْ حياءكِ لا أبا لكِ واعلمى أنى امرؤ سأموت إنْ لم أُقْتَلِ [٢]

وقد خص العرب من الشجاعة فى حروبهم ، والنجدة فى مصابرة عدوهم ، ما شهدت به تواريخ الأمم ، واعترفت به ألسن العرب والعجم . ومن راجع الكتب المؤلفة فى أيامهم ، وسيرهم فى سالف أعوامهم ، تبين لديه أنهم لم يشهدوا حرباً فى فزاع ، إلا صابروا حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ، وهم فى موقفهم لم يزولوا عنه هرباً ، ولا حازوا فيه رغباً ، بل ثبتوا بقلب آمن ، وجأش ساكن ، وقيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟[٣] قال : كنا مائة كالذهب لم نكثر فننكل[٤] ولم نقل فنذل . وحيث كان العرب لا تقدم شيئاً على العز وصيانة العرض ومحاماة الحريم ، هانت عليهم نفوسهم دون ذلك . وقد اختار الغالب منهم سكنى البوادى على الحضر لما كان فقد العز فيه . والجبن إنما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحسب وأين ذلك منهم ؟ وبهذا تعلم ما كانوا عليه من الشجاعة والإقدام على المهالك ، ولقد كابد منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى تأليفهم واتحاد كلمتهم ما جاوز منه الحزام الطُبْيَين[٥] وسال منه عَرَقُ القِرْبة .[٦] وهذا شعرهم ينطِقُ بما كانوا عليه من رسوخ القدم فى هذا الميدان وعلو الهمة فى هذا الباب ، ولا بأس بإيراد شىء منه ، فمن ذلك قول حيان بن ربيعة الطائى وهو أحد الشجعان المشهورين يفخر بقومه :

(١) المنهل بفتح الميم والهاء : المورد وهو عين ماء ترده الابل (٢) قنى الحياء : لزمه وحفظه كاقنى واقتنى وقنى بالتشديد (٣) هو يوم من ايام العرب الشهيرة (٤) الجبن والتاخر (٥) اى اشتد الأمر وتفاقم قال المبرد : فان السباع والخيل يقال لمواضع الاخلاف منها اطباء يافتى واحدها طبى كما يقال فى الظلف والخف خلف هذا مكان هذا فاذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه (٦) كناية عن الشدة والمجهود والمشقة لأن القربة اذا عرقت خبث ريحها او لان القربة مالها عرق فكانه تجشم محالا او عرق القربة منقعها كانه مجسم حتى احتاج الى عرق القربة وهو ماؤها يعنى السفر اليها او عرق القربة سفينة يجعلها حامل القربة على صدره او معناه تكلف مشقة كمشقة حامل قربة يعرق تحتها من ثقلها ، كما فى القاموس

لقد عَلِم القبائل أن قومى   ذوُوجدٍ إذا لُبِس الحديد[١]

وإنا نِعْمَ أحلاسُ القوافى   إذا استعر التنافرُ والنشيد[٢]

وإنا نضربُ الملحاءَ حتى   تولى والسيوف لنا شهود[٣]

وقال يحيى بن منصور الحنفى

وجدنا أبانا كانَ حلَّ ببَلْدَةٍ   سِوًى بينَ قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ[٤]

فلما نأتْ عنّا العشيرة كلُّها   أنَخْنا فحالَفْنا السيوفَ على الدهر

فما أسلمتنا عندَ يومِ كريهةٍ   ولا نحن أغضَيْنا الجفونَ على وِتْرِ[٥]

وقال رجل من حمير فى وقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير

مَنْ رأى يومَنا ويومَ بنى التَيمْ إذِ الْتَفَّ صيقهُ بِدَمِهْ[٦]

لمّا رَأَوْا أن يومهم أشِبٌ شَدُّوا حيَازِيمَهُمْ أَلَمِهْ[٧]

كأنما الأسد فى عَرِينِهِم ونحن كالليل جاشَ فى قَتَمِهْ[٨]

لا يُسْلِمُونَ الغداةَ جارَهُمُ حتى يَزِلَّ الشِراكُ عن قَدَمِهْ[٩]

ولا يخِيمُ اللقاءَ فارسُهُمْ حتى يَشُقَّ الصُّفُوفَ من كَرَمِهْ[١٠]

مابرح التيمُ يَعْتَزُّونَ وَزُرْ قُ الخطِّ تَشْفِى السقِيمَ من سَقَمِهْ[١١]

---

(١) المراد بالحديد الدروع (٢) يقال فلان حلس كذا اى ملازم له اى ويشهدون أيضا انا نعم أصحاب القوافى عند التفاخر والتناشد (٣) الملحاء : الكتيبة العظيمة (٤) سوى بمعنى متوسطة فى موضع جر صفة لبلدة والفزر لقب سعد بن زيد مناة (٥) الكريهة : الحرب ، اى فما خذلتنا فى يوم حرب ولا نحن اغضينا جفوننا على وتر وحقد يعنى انهم ادركوا كل ثار (٦) من راى على معنى يامن رأى وهو تمام الوزن لأن البيت من المنسرح واليوم المراد به الوقعة والاستفهام الغرض منه التعجب ، والصيق : الغبار والتفافه كان برشاش الدم القاطر من الجراح (٧) اشب اى كثير الجلبة والأصوات ، والحيازيم : الصدور والمراد القلوب وهذا مثل لصبرهم على ما لحقهم (٨) كأنما الأسد اى كأنما هم الأسد فالأسد خبر مبتدأ محذوف، والعرين : مأوى الأسد، والقتم : يطلق على الظلمة والغبار والمراد الظلمة (٩) حتى يزل الشراك فيه قلب والأصل زلت القدم عن الشراك وهذا مثل لموته لأنه لا يلبسها بعده (١٠) ولا يخيم اللقاء اى لايجبن عن اللقاء فحذف الجار تخفيفا ووصل الفعل فعمل (١١) يعتزون اى ينتسبون ويدعون يالفلان ، وزرق الخط اى الرماح تشفى المتكبر من كبره وانما جعل الفعل للرماح على المجاز والسعة

حتى تولَّت جموعُ حِمْيَرَ والـــفَلُّ سريعاً تَهْوِى إلى أَمَمِهْ(١)
وكم تركنا هناكَ من بَطَلٍ تَسْفِى عليه الرياح فى لِمَمِهْ(٢)

وقال حسان بن نَشْبَةَ العدوى فى ذلك(٣)

نحن أَجَرْنا الحىَّ وقد أَتَتْ لها حِمْيَرٌ تُزْجِى الوشيجَ المقوّما(٤)
تركنا لهم شقَّ الشِّمال فأصبحوا جميعاً يُزَجُّون المَطِىَّ المُخَزَّما(٥)
فلما دَنَوْا صُلْنا ففرَّقَ جمْعَهُمْ سَحابتنا تَنْدَى أَسِرَّتُها دما(٦)
فغادَرْنَ قَيْلاً من مقاول حِمْيَرٍ كأنَّ بِخَدَّيْهِ من الدم عَنْدَما(٧)
أَمَرَّ على أَفْواهِ مَنْ ذاق طعمها مطاعمُنا يَمْجُجْنَ صاباً وعَلْقَماَ(٨)

وقال فى ذلك أيضاً

إنِّى وإنْ لم أفدِ حَيًّا سواهُمُ فِداءٌ لِتَيْمٍ يوم كابٍ وحِمْيَرَا(٩)
أَبَوْا أنْ يُبِيحوا جارَهُمْ لعدوّهم وقدثار نَقْعُ الموت حتى تَكَوْثَرَا(١٠)
سمَوْا نحو قَيْلِ القوم يَبْتَدِرونَه بأسيافِهِمْ حتى هَوَى فتقطَّرا(١١)
وكانوا كأنف الليث لاشَمّ مَرْغَماً ولا نالَ قطُّ الصيدَ حتى تعفَّرا(١٢)

---

(١) الفلّ مصدر وضع موضع المفعول ، والامم : القرب . (٢) موضع كم نصب على المفعولية من تركنا ويقال سفت الريح التراب حملته وذرته، واللمم جمع لمة والمراد بها ما تشعث من شعر الراس . (٣) هو اخو بنى عدى ابن عبد مناة ، قال ابو محمد الاعرابى هذا الاسم تصحيف والصواب جساس بن نشبة التيمى والله اعلم . (٤) اجرنا الحى اى ادخلنا فى جوارنا هذه القبيلة وكلبا من الحى قبله ، وتزجى الوشيج المقوما اى تسوق الرماح المثقفة
(٥) شق الشمال اى جانب الشمال والعرب تجعل الشمال كناية عن الشؤم ، والخزم الشد والقطع يقال شراك مخزوم اى مقطوع .
(٦) يقال صال فلان على قرنه اذا أوقع به واستطال عليه حتى يذل له ؛ وسحابتنا اى جيشنا الذى كانه سحابة ، وتندى اى ترشح ، والاسرة : الاوساط والطرائق وتستعمل فى بطون الاودية ايضا . (٧) قيلا من مقاولى حمير اى ملكا من ملوكهم ، والعندم : دم الاخوين وقيل البقم اى ابتدروه بالسيوف حتى تركوه ساقطا مضرجا بدمه . (٨) الصاب : عصارة شجر مر ، والعلقم شجر مر ايضا وقيل الحنظل. (٩) يقال فداه يفديه فداء وفدى اعطى شيئا فانقذه . (١٠) الاباحة : التخلية بينك وبين الشىء ، والنقع : الغبار ، وتكوثرا : اى تراكم . (١١) القيل : الملك ومر تفسيره قريبا ويقال بادره وابتدره عاجله ، والتقطر : السقوط على احد القطرين اى علوا نحو الملك يعاجلونه حتى هوى اى سقط على احد جانبيه وفى الكلام اختصار كأنه قال ابتدروه بالاسياف وضربوه حتى سقط . (١٢) كانف الليث ضرب ذلك مثلا للعزة والاباء لان الاسد احمى الحيوان انفا والشم مجاز عن النوال ؛ والمرغم : الذل ، وتعفر من العفر محركا وهو التراب .

وقال فى ذلك هلال بن رزين أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أدّ

وبالبيداء لمّا أنْ تلاقتْ بها كلبٌ وحَلَّ بها النذورُ(١)

فحَانَتْ حميرٌ لما التقينا وكان لهم بها يومٌ عسيرُ(٢)

وأيقنت القبائلُ من جَنابٍ وعامرُ أنْ سيَمْنَعُها نصيرُ(٣)

أجادتْ وبْلَ مدجنَةٍ فدرَّتْ عليهم صوبَ سَارِيةٍ درُورُ(٤)

فولّوْا تحت قِطْقِطِهَا سِراعاً تكُبُّهُم المهَنّدَةُ الذكورُ(٥)

وقال حصين بن حُمام المرّى

فقلت لهم ياآلَ ذبيان مالكم تفاقدتمُ لاتقْدِمون مقدَّما(٦)

مواليكمُ مولى الولادة منهمُ ومولى اليمين حابسٌ قد تقسما(٧)

وقلتُ تَبيَّنْ هل ترى بَيْنَ ضارجٍ ونهْى الاكفّ صارخاً غير أعجما(٨)

من الصبح حتى تَغْرُبَ الشمس لاترى من الخيل إلا خَارِجيًّا مُسوَّما(٩)

---

(١) البيداء هنا موضع بعينه معروف وان زائدة يقول لما تلاقت قبيلة كلب وحمير بهذا المكان وحل به النذور اى سقطت الاقسام عن الحالفين لادراكهم الأوتار ونقض ما كان بين القبيلتين من العهود وجواب لما فى البيت بعده . (٢) فحانت حمير اى هلكت لان الدائرة اى الهزيمة كانت عليهم .

(٣) جناب وعامر بطون من بنى كلاب وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والمراد بالنصير آخر البيت بنو التيم وانما نكره ليكون ابلغ فى تعظيم النصرة كانه اراد نصيرا من النصار اى كامل فى معناه .

(٤) أجادت : ارسلت ، والوبل : المطر الشديد العظيم القطر ، والمدجنة : المظلمة ، والصوب: نزول المطر ، والسارية: السحابة التى تأتى ليلا ، والدرور: الكثيرة الدر وهو فاعل درت . (٥) القطقط : صغار البرد شبه النبل النافذ اليهم بالقطقط من السحاب . وتكبهم : تصرعهم ، والمهندة : السيوف ، والذكور جمع ذكر وهو الصلب المتين. (٦) جملة تفاقدتم معترضة بين مالكم وبين لا تقدمون وهى دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضا والمقدم مصدر قدم بمعنى تقدم وضع موضع الاقدام أى التقدم والفعلان اذا اتفقا فى المعنى جاز وضع مصدر أحدهما موضع مصدر الآخر . (٧) المولى يطلق على معان كثيرة والشاعر فى هذا البيت قسم الموالى الى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة والى حليف وهو من انضم اليك معز يعزك وهو الذى سماه مولى اليمين لانه يقسم له عند الانضمام . (٨) ضارج : ماء لبنى عبس ، ونهى الاكف : موضع والصارخ : المستغيث ، والاعجم : الذى لا يفصح .

(٩) معنى البيت انه لا ترى من الصبح الى وقت المساء الا خيلا مسومة والمسوم الذى عليه سمة اى علامة يعرف بها يريد بذلك كثرة الخيل والرجال حتى يضيق بهم الفضاء .

عليهنّ فِتيانٌ كَساهُمْ مُحَرِّقٌ ... وكان إذا يكسو أجادَ وأكرما(١)

صفائحَ بُصْرى أخلصتْها قيونُها ... ومُطَّرِداً من نسج داود مُبهما(٢)

ولما رأينا الصبر قد حيلَ دُونهُ ... وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظْلِما(٣)

صَبَرْنا وكان الصَّبْرُ منا سَجِيَّةً ... بأسيافنا يَقْطَعْنَ كفّاً ومِعْصما(٤)

نُفَلِّق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما(٥)

ولما رأيتُ الوُدَّ ليس بنافعي ... عَمَدْتُ إلى الأمر الذى كان أحْزَما(٦)

فلست بمبتاع الحيـاة بذِلَّةٍ ... ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سلَّما(٧)

وقال بشامة بن حزن(٨)

ولقد غضِبْتُ لِخِنْدِفٍ ولِقَيْسِها ... لما ونَى عن نصرها خُذّالها(٩)

دافعتُ عن أعراضها فمنعتها ... ولدىَّ فى أمثالها أمثالُها(١٠)

إنى امرؤ أَسِمُ القصائد للعِدى ... إن القصائد شرُّها إغفالها(١١)

(١) محرق : هو احد ملوك لخم حرق قوما فسمى محرقا ولذلك خبر طويل لا يسعنا ايراده لضيق المقام ولكل مقام مقال . (٢) الصفائح : السيوف وهو مفعول كساهم فى البيت قبله، وبصرى: موضع بالشام تباع فيه السيوف، والقيون جمع قين وهو الحداد ، والمطرد : المتتابع النسج ولم تجر العادة بقولهم كساه سيفا وانما جاز ذلك وحسن لان السيوف وقعت فى صحبة الدروع والدروع تلبس كما تلبس الكسوة من الثياب ، تدبر . (٣) وان كان يوما اسم كان يعود الى اليوم اى وان كان ذلك اليوم يوما ذا كواكب مأخوذ من قولهم اراه الكواكب نهارا وهو شىء نطقوا به فى الدهر الأول يريدون بذلك شدة الأمر وعظم الخطب . (٤) السجية : الطبيعة ، والمعصم : السوار من الساعد . (٥) نفلق اى نشق ، والهام جمع هامة وهى الراس والكتاب كثيرا ما يغلطون فى هذا من ذلك قول بعضهم : « كلل هامه الشيب » اى راسه ولا يخفى ما فيه من الخطا والعدول عن الصواب ، فتنبه ، والعقوق ضد البر واغلب ما يستعمل فى الولد مع والده . (٦) كان آخر ما جعل الحزم للامر كما جعل له العزم فى قوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » . (٧) بمبتاع الحياة اى بمشتريها . (٨) هو احد بنى نهشل بن دارم والظاهر انه اسلامى ، قال البغدادى ولم ار له ترجمة فى كتب الانساب . (٩) خندف اقب ليلى امراة الياس بن مضر بن نزار وقيس هو قيس عيلان بن مضر ، وونى : فتر .

(١٠) يقول دافعت عن عزهم ومجدهم ومنعت اعراضهم ان تبتذل ولدى فى امثال هذه القبائل امثال هذه النصرة . (١١) الاغفال جمع غفل بضم الغين المعجمة وهو الخالى من العلامة يريد ان شر الشعر ما لا يعرف ويشتهر .

قومى بنو الحرب العوان بجمعهم والمشرفيّة والقنَا إشعالها(١)
مازال معروفاً لمرّة فى الوَغَى عَلّ القنَا وعليهم إنهالها(٢)
من عهد عادٍ كان معروفاً لنا أَسْرُ العداة وقتلها وقتالها(٣)

وقال شريح بن قرواش العبسى وكان من أشهر الفرسان

لما رأيت النفسَ جاشت عكْرتها على مِسْحلٍ وأىُّ ساعة مَعكر(٤)
عشية نازلتُ الفوارس عندهُ وزلّ سنانى عن شُريْح بن مُسهر
وأقسمُ لولا درعُهُ لتركته عليه عوافٍ من ضباع وأنسُر(٥)
وما غمرَات الموت إلا نزالُكَ الكمىّ على لحم الكمىّ المقطّر(٦)

وقال عباس بن مرداس السلمى وهى من المنصفات

فلم أرَ مثل الحىّ حياً مُصبَّحا ولا مثلنا يوم التقَيْنا فوارسا(٧)
أكرُّ وأحمى للحقيقة منهمُ وأضربُ منا بالسيوف القوانسا(٨)
إذا ماشددنا شَدّةً نصبوا لنا صدور المذاكى والرماح الداعسا(٩)
إذا الخيل جالت عن صريعٍ نَكُرُّها عليهم فما يرجعنَ إلا عوابسا(١٠)

---

(١) الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد مرة ، والمشرفية : السيوف ، والقنا : الرماح ، والاشعال : الاضرام وهو على حذف مضاف اى والمشرفية والقنا ذوات أشعالها . (٢) العل من عل اذا سقاه ثانيا والانهال من انهله اذا سقاه اولا وانما قال وعليهم انهالها كأنه يجعل ذلك واجبا عليهم والمراد بهذا الاثخان فى العدو والفتك به . (٣) من هنا بمعنى مذ وانما وضعت موضع مذ لقوتها وكثرة تصرفها وتمكنها فى باب الجر ، يقول ان ما اختص بنا من اسر الملوك وقتلهم ومحاربتهم أمر معروف قديم من عهد عاد . (٤) يقال عكر على الشيء كر وانصرف ، ومسحل اسم رجل ، واى ساعة معكر برفع اى على انه مبتدأ والخبر محذوف والتقدير واى ساعة معكر تلك الساعة والمراد بهذا التهويل ، وعشية ظرف لعكرتها وانما زل سنان رمحه عن شريح وسلم منه لان شريحا كان لابسا درعا تحت ثيابه . (٥) العوافى جمع عاف وهو طالب المعروف وهو هنا مجاز عن تعرقبها اى الطيور له ووقوعها عليه .
(٦) الغمرات الشدائد والكمى . الشجاع ، والمقطر : الساقط على احد قطربه الى جانبيه وقد مر تفسيره قريبا . (٧) قوله مثل الحى يريد به قوما معهودين وحيا مصبحا تمييز له والمصبح الذى يغار عليه وقت الصباح
(٨) النصف الأول من هذا البيت يرجع الى اعدائه وهم بنو أسد ، الثانى يرجع الى عشيرته ، والقونس اعلى بيضة الحديد . (٩) المذاكى جمع مذك وهى الخيل التامة السن الكاملة القوة والمداعس من الدعس وهو فى الاصل الدفع ويستعمل فى الطعن . (١٠) جالت عن صريع أى دارت عنه .

وقال أبو الأبيض العبسى من أبيات

وذى أملٍ يرجو تُراثى وإنَّ ما ... يصيرُ له منى غداً لقليلُ (١)

ومالِىَ مالٌ غيرُ دِرعٍ ومِغْفَرٍ ... وأبيضُ من ماءِ الحديدِ صقيلُ (٢)

وأسمرُ خَطِّىٌّ القناة مُثَقَّفٌ ... وأجرد عُرْيانُ السَّراةِ طويلُ (٣)

أقيهِ بنفسى فى الحروب وأتَّقى ... بهاديه إنى للخليل وَصُولُ (٤)

وقال عمرو بن كلثوم التغلبى

معاذَ الإلهِ أن تَنوحَ نساؤنا ... على هالكٍ أو أن نَضِجَّ من القتلِ (٥)

قِراعُ السيوفِ بالسيوف أَحلَّنا ... بأرضٍ براحٍ ذى أراكٍ وذى أثلِ (٦)

فما أبقتِ الأيامُ مِلْمالِ عندنا ... سِوى جذمِ إذ وادٍ مُحذَّفَةِ النسلِ (٧)

ثلاثة أثلاثٍ فأثمانُ خيلِنا ... وأقواتنا وما نَسوق إلى القتلِ (٨)

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة

دعوتُ بنى قيس إلىّ فشمَّرت ... خناذيذُ من سَعْدٍ طوالُ السواعدِ (٩)

إذا ما قلوبُ القوم طارت مخافةً ... من الموت أرسوْا بالنفوس المواجِدِ (١٠)

---

(١) وذى امل اى ورب ذى امل ، والتراث : الميراث ، وما موصول بمعنى الذى فلذلك كتب مفصولا من ان ، تنبه . (٢) المغفر زرد ينسج على قدر الراس ، والابيض : السيف . (٣) الاسمر : الرمح ، والآجرد من الخيل القصير الشعر ، والسراة : الظهر . (٤) هادى الفرس صدره وعنقه .

(٥) قوله معاذ الآله اى اعوذ بالله معاذا يصف شدة صبرهم فى المصائب .

(٦) قراع السيوف على حذف مضاف اى قراع أصحاب السيوف والمقارعة مضاربة القوم فى الحرب والأصل فى البراح الأرض التى لا بناء فيها ولا عمران ، والاراك والاثل : نوعان من الشجر ينبتان فى السهل أكثر ، ومعناه انهم نزاوا بارض لا هضاب فيها ولا جبال يتمنعون بها . (٧) ملمال اى من المال ، والجذم : الاصل والاذواد جمع ذود يقع على ما دون العشرة من الابل ، والمحذفة : المقطوعة . (٨) ثلاثة اثلاث خبر لمبتدأ محذوف وما بعده تفسير له وتفصيل كانه قال اموالنا ثلاثة اثلاث ثلث نشترى به الخيل وثلث نشترى به اقواتنا وثلث نعطيه فى الديات . (٩) الخناذيذ : فحول الخيل ويستعمل فى الشجعان كما هنا . (١٠) ارسوا : اثبتوا ومفعوله محذوف كانه قال اثبتوا قلوبهم بالنفوس الكريمة ، والمواجد جمع ماجدة .

وقال حجر بن خالد

وجدنا أبانا حلَّ فى المجد بيتهُ وأعيا رجالاً آخرين مَطالعهْ(١)

فمن يَسْعَ منا لَمْ يَنَلْ مثل سَعْيِهِ ولـكن متى مايرتحلْ فهو تابعهْ

يسوُد ثُنانا من سوانا وبدؤنا يسوُد مَعدًّا كلها لاتُدافعهْ(٢)

ونحن الذينَ لايُرَوَّعُ جارُنا وبعضُهُمُ للغَدْرِ صُمٌّ مسامِعهْ

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحم للباع والنَدَى وبعضُهُمُ تَغْلِى بذمٍّ مناقعهْ(٣)

و يَحْلِبُ ضِرسُ الضيفِ فينا إذاشتا سديفَ السنام تَسْتَريهأصابعهْ(٤)

منعنا حِمانا واستباحتْ رماحُنا حِمِىَ كلِ قومٍ مُستْجير مراتِعهْ(٥)

وقال الرقاق بن المنذر بن ضرار الضبى

إذا المُهْرَةُ الشقْراءُ أدرك ظهرُها فشبَّ الإلهُ الحربَ بين القبائل(٦)

وأوقدً ناراً بينهم بِضِرامِها لهـا وَهجٌ للمُصْطَلِى غيرُ طائل(٧)

إذا حملتنى والسلاحَ مُشيحَةً إلى الرَوْعِ لمأُصْبِحعلىسِلْمِ وائل(٨)

فدىً لِفتىً ألقى إلىّ برأسها تِلادِى وأهلىمن صديقٍ وجامل(٩)

وقال أبو الغول الطهَوِىّ فى قوم من العرب

فَدَت نفسى وما مَلَكتْ يمينى فوارِسَ صدقتْ فيهم ظُنونى

---

(١) البيت لا يحل فى المجد وانما المجد يحل فيه ولكنه رمى بالـكلام على السعة والمجاز ، واعيا اعجز ، والمطالع : المذاهب والمسالك . (٢) الثنى من يكون دون الرئيس لكنه يليه فى الرتبة مثل ولى العهد فىالاسلام والبدء السيد المتقدم فى السيادة الغير المدفوع عنها . (٣) الدهدقة : صوت القدر عند غليانها ، والبضع جمع بضعة وهى القطعة من اللحم ، والباع مثـل للشرف والعز ، والمناقع : قدور صغار من حجر . (٤) قوله اذا شتا اى اذا دخل فى الشتاء وهو الجدب ، والسديف : شحم السنام ، تستريه اى تختاره .
(٥) الحمى ما يحميه الانسان ويدافع عنه ، والاستباحة هنا جعل الشيء مباحا غير ممنوع والهاء فىمراتعه ترجع الىالحمى . (٦) المهرة : ولد الفرس، والشقراء : الحمراء ، وادرك ظهرها من ادرك الثمر اذا امكن الانتفـاع به ، فشب الاله الحرب اى اوقدها وهذا دعاء (٧) الضرام: دقاق الحطب، والوهج: الاشتعال ، والطائل : النافع . (٨) المشيحة : الفرس القوى الحذر ، والروع: الحرب . (٩) القى الى برأسها اى وهبها لى ، والتلاد: المال القديم والصديق تفسير للاهل ، والجامل اى الجمال وهى الابل تفسير المال القديم .

فوارسَ لا يَمَلُّونَ المَنَايا إذا دارَتْ رَحَى الحربِ الزَّبُونِ[١]

ولا يَجْزُون من حَسَنٍ بِسَيْءٍ ولا يَجْزُون من غِلظٍ بِلِينِ

ولا تبلَى بَسالتُهُم وإن هُمْ صَلُوا بالحَرْبِ حيناً بَعْدَ حينِ[٢]

هُمُ مَنَعوا حِمِى الوَقَبى بِضَرْبٍ يُؤَلِّفُ بين أشتاتِ المنونِ[٣]

فنَكَّبَ عنهُمُ دَرْءَ الأعادى وداوَوْا بالجنون من الجنونِ[٤]

ولا يَرْعَوْنَ أكنافَ الهُوَيْنَى إذا حَلُّوا ولا أرضَ الهُدُونِ[٥]

وقال ربيعة بن مَقْروم الضبى

ولقد شَهِدتُ الخيلَ يومَ طِرَادِها بسليمِ أَوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ[٦]

فدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أولَ نازلٍ وعَلامَ أركَبُهُ إذا لم أنزِلِ[٧]

وألَدَّ ذى حَنَقٍ علىَّ كأنَّما تَغْلى عداوةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ[٨]

أرْجَيْتُهُ عنى فأبصَرَ قصدَهُ وكَوَيْتُهُ فوق النواظِرِ من عَلِ[٩]

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة[١٠]

---

(١) رحى الحرب : حومتها ومعظمها وهذا على المجاز لأن الحرب تحطم الرجال وتكسرهم كما تفعل الرحى . والزبون بفتح الزاى فى الأصل الناقة التى تزبن حالبها وتدفعه شبهت الحرب بها لأنها تدفع الرجال لشدة هولها (٢) البسالة الشجاعة (٣) الوقبى كجمزى اسم ماء لبنى مازن ، والأشتات جمع شت وهو المتفرق ، والمنون : الموت (٤) قوله فنكب معناه نحى وحول ، والدرء أصله الدفع ثم استعمل فى الخلاف لأن المختلفين يدافعان يعنى أن الضرب نحى وحول عن هؤلاء القوم اعوجاج الأعادى وخلافهم ، وقوله وداووا بالجنون من الجنون أى داووا الشر بالشر كما قالوا ان الحديد بالحديد يفلح فالجنون كناية عن الشر (٥) الأكناف : النواحى ، والهوينى : الدعة والخفض تصغير الهونى مؤنث الأهون ، والهدف السكون والصلح (٦) الأوظفة جمع وظيف ، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل وغيرها ، والقوائم : الأرجل والهيكل العظيم وصف به الفرس (٧) نزال اسم فعل بمعنى انزل والمعنى انهم تنادوا عند الحرب وقالوا نزال فكنت أول النازلين ولأى شىء اركب فرسى اذا لم انزل عند دعائى النزال (٨) الألد الشديد الخصومة والجمع لد بضم اللام ، والحنق : الغيظ ، والمرجل : القدر بكسر القاف تكون من نحاس (٩) ارجيته : اخرته وصرفته ، قال ابو الفتح اكثر من نرى يروى هذا البيت ارجيته بالراء فاذا تعالى شيئا رواه أرجأته بالهمز وكلاهما تصحيف وانما هو أوجبته بالواو اى اذللته وقهرته ، فوق النواظر اى بين الجبين والنواظر (١٠) هو بشامة بن حزن النهشلى وليس له ترجمة فى كتب الأنساب التى بأيدينا والظاهر انه اسلامى .

إنّا مُحَيّوكِ ياسَلْمَى فَحَيّينــا ... وإن سقَيْتِ كرامَ الناس فاسْقينا[١]

وإن دَعَوْتِ إلى جُلّى ومَكْرُمَةٍ ... يوماً سَراةَ كرام الناس فادعينا[٢]

إنّا بنى نَهْشَلٍ لا ندّعى لأبٍ ... عنه ولا هو بالأبنــاء يَشْرينا[٣]

أن تُبْتَدَرْ غايةٌ يوماً لِمَكْرُمَـةٍ ... تَلْقَ السوابِقَ منا والمصَلّينا[٤]

وليس يَهْلِكُ منــا سـيد أبداً ... إلا افتَلَيْنا غلاماً سيداً فينا[٥]

إنا لَنُرْخِصُ يومَ الرَوْعِ أنفُسَنا ... ولو نُسَامُ بهــا فى الأمن أغلينـا[٦]

بيضٌ مفارقُنـا تَغْلى مراجلنـا ... نأسُوا بأموالنـا آثارَ أيدينا[٧]

إنّى لمِن معشر أفنى أوائِلَهم ... قيلُ الكماة ألا أينَ المحامونا[٨]

لو كان فى الألف منا واحدٌ فدَعوا ... مَنْ فارس ؟ خالَهُمْ إياه يعنونا[٩]

إذا الكماة تنَحَّوْا أن يصيبَهُم ... حَدُّ الظُباة وصلناها بأيدينا[١٠]

ولا تَراهم وإن جَلّت مصيبتُهم ... مع البُكاةِ على من مات يَبكونا[١١]

ونَرْكَبُ الكُرْهَ أحياناً فَيَفْرِجُهُ ... عنّا الحِفاظ وأسيافٌ تُواتينـا[١٢]

وقال وَدّاكُ بن ثُميل المازنى

رُوَيْدَ بنى شَيبان بعضَ وعيدكم ... تُلاقوا غداً خَيلى على سَفَوان[١٣]

---

(١) فحيينا من التحية بمعنى السلام (٢) الجلى تانيث الأجل ، والسراة : كرام الناس (٣) بنى نهشل منصوب على الاختصاص ولو رفعه لقال انا بنو نهشل ، ومعنى لا ندعى لأب لانتسب لأب غير ابينا ، وقوله ولا هو الخ معناه انه راض بنا كما نحن راضون به ، وقوله بنى نهشل يعنى نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (٤) يقال ابتدرنا الغاية والى الغاية اى استبقنا اليها ، وقوله المكرمة اى لاكتساب مكرمة ، والمصلى من اسماء خيل الحلبة التى تخرج للسباق وهى عشرة على قول وقد ذكر ذلك المصنف فى الجزء الثانى مفصلا (٥) الافتلاء : الانتظام والأخذ عن الأم (٦) الروع: الحرب ، والألف فى اغلينا للاشباع (٧) بياض المفارق كناية عن نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب ، وتغلى مراجلنا اى حروبنا ، وقوله نأسو اى نداوى (٨) الكماة جمع كام كما يقال غاز وغزاز وذلك من قولهم كمن نفسه فى السلاح اذا توارى فيه (٩) خالهم اى ظنهم معناه انهم لشدة بأسهم وقوة حماستهم لايعترفون بشجاعة غيرهم (١٠) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف ، وقوله وصلناها بأيدينا هذا الكلام كناية عن علو همتهم فى الحرب وطول باعهم فيها (١١) البكاة جمع باك (١٢) الكرة : المكروه وركوبه كناية عن وقوعهم فيه وقصدهم اليه ، والحفاظ : المحافظة والذب عن المحارم : وقوله واسياف تواتينا اى توافقنا (١٣) رويد تصغير الرود بالضم أى التمهل والرفق ويكون لوجوه

تلاقوا جِياداً لا تَحيد عن الوَغَى   اذا غَدَت فى المأزِق المتدانى(١)
عليها الكُماةُ الغر من آل مازِنٍ   ليوثُ طِعانٍ عند كل طِعان(٢)
تلاقوهُمُ فتَعرِفوا كيفَ صبرُهم   على ما جنَتْ فيهم يدُ الحدَثان(٣)
مقاديمُ وصَّالون فى الرَّوْع خَطْوَهم   بكل دقيق الشّفرَتَيْنِ يَمان(٤)
اذا استنجدوا لم يَسْألوا من دَعاهُمُ   لأَيَّة حَرْبٍ أم بأيّ مَكان(٥)

وقال بعض بنى تَيْمِ اللهِ بن ثَعْلَبَة

ولقد شهِدتُ الخيلَ يومَ طِرادِها   فطعنتُ تحتَ كِنانةِ المتمَطِر(٦)
ونطاعِنُ الأبطالَ عن أبنائنا   وعلى بصائِرِنا وإن لم تَبْصِر
ولقد رأيتُ الخيلَ شُلْنَ عليكمُ   شَوْلَ المخاضِ أبَتْ على المتغبّر(٧)

وقال عامر بن الطفيل

طُلِّقْتِ إنْ لم تسألى أىَّ فارسٍ   حليلكِ إذ لاقى صُداءَ وخَثْعَما(٨)
أكُرُّ عليهم دَعْلَجاً ولَبانُهُ   إذا ما اشتكى وقْع الرماح تَحَمْحَما(٩)

اوجوه اربعة اسم فعل نحو رويد زيدا اى امهله ، وصفة نحو ساروا سيرا رويدا : وحالا نحو سار القوم رويدا ، ومصدرا كما هنا نحو رويد بنى شيبان: وقوله بعض وعيدكم انتصب بفعل مضمر دل عليه رويد واستعمال الرفق فيه كف عن بعض الوعيد ، وسفوان : اسم ماء على اميال من البصرة .

(١) تلاقوا بدل من تلاقوا فى البيت قبله ، والجياد : الخيل ، والوغى : الحرب ، والمأزق : المضيق . (٢) الغر : بيض الوجوه ؛ والليوث : الاسود. (٣) الحدثان : الحوادث . (٤) المقاديم جمع مقدام وهو الكثير الاقدام فى الحرب ، والروع هنا الحرب ومعنى رقيق الشفرتين ماضى الحدين، واليمانى: السيف المطبوع من حديد اليمن . (٥) الاستنجاد : الاستنصار

(٦) اراد بالخيل من عليها من الرجال ، والكنانة التى يجعل فيها السهام ولعله يريد ما تحتها حين حملها يشير بذلك الى مقتله . (٧) شلن عليكم من شال الفرس بذنبه يشول شولا اى رفعه عند الجرى ، والمخاض : النوق الحوامل ، والغبر بالتشديد البقية من اللبن فى الضرع . (٨) طلقت يحتمل ان يكون دعاء أو اخبارا ، وحليل امرأة زوجها ، وصداء خثعم قبيلتان تانا مع من اراد قتال بنى عامر فى ذلك اليوم . (٩) دعلج اسم فرسه ، واللبان اسم لما جرى عليه اللبب من المصدر ، والتحمحم : التصويت دون الصهيل وهذا البيت معيب من جهة نصب اللبان ورفعه أما عيبه من جهة النصب فهو ذكر اللبان بعد قوله اكر عليهم دعلجا لانه اذا كره فقد كر جميع جسده واما عيب الرفع فهو جعل التحمحم للبان وانما هو للفرس والصواب بدل هذا البيت :

اقدم فيهم دعلجا واكره   اذا اكرهوا فيه الرماح تحمحما

وقال حريث بن عناب النبهانى

تَعالوْا أُفاخِرْكم أأعْيا وفَقْعَسٌ إلى المجدِ أدْنَى أم عشيرةُ حاتمِ[١]

إلى حَكَمٍ من قيسِ عَيْلاَنَ فَيْصَلٍ وآخرَ من حَيَّيْ ربيعةَ عالمِ[٢]

ضربناكمُ حتى إذا قام مَيْلكم ضربنا العِدا عنكم ببيضٍ صوارمِ[٣]

فَحُلُّوا بأكنافى وأكنافِ مَعْشرى أكنْ حِرْزَكم فى المآقِطِ المتلاحِمِ[٤]

فقد كان أوصانى أبى أنْ أضيفَكم إلىّ وأنْهَى عنكمُ كلَّ ظالمِ[٥]

وأمثال هذا الشعر مما يدل على شجاعتهم وبسالتهم قد امتلأت منه بطون الكتب الأدبية وغرضنا نقل شيء منه يؤيد ما ادعيناه فيهم وهو كاف فى المقصود وافٍ بالمرام .

بعض من ضرب بشجاعته المثل من عرب الجاهلية

إن العرب كانوا فى الشجاعة على ما ذكرناه من المنزلة التى لا تطاوَل وقد قامت الدلائل الواضحة والبراهين الجلية على ذلك فاستحق كل منهم أن يُضْرَبَ به المثلُ ، ويُنوَّه بشأنه فى القول والعمل ، غير أن كتب الأمثال والوقائع اقتصر فيها على ذكر من شاع أمره على ألسنة الشعراء واشتهر بين القبائل . ونحن نذكر بعض ذلك ، حرصاً على تنشيط المطالعين . وتطرية لمسامع السامعين . منهم :

خالد بن جعفر بن كلاب العامرى

ومن حديثه أن هوازنَ كانت لا ترى زهير بن جَذِيمةَ الاربا وهوازن يومئذ لا خير فيها ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد فهم « أذلُّ من يدٍ فى رَحِمٍ »[٦]

---

(١) بنو اعياء بن طريف بن عمرو أحد بنى أسد ، وفقعس حى من بنى أسد واسد وطىء حليفتان يقول هلم اماجدكم الاعياء وفقعس اقرب الى المجد أم عشيرة حاتم . (٢) اراد بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة وبالحكم من حى ربيعة دغفلا النسابة وحيا ربيعة ذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة.

(٣) قام ميلكم بمعنى تقوم فتركنم الخلاف ، والبيض الصوارم : السيوف القواطع . (٤) المآقط : المضيق فى الحرب . (٥) اضيفكم : اضمكم .

(٦) يراد الضعف والهوان وقيل يد الجنين وقيل المعنى ان صاحبها يتوقى ان يصيب شيئا .

إنما هم رعاء الشاء فى الجبال وكان زهير يَعْشِرُهم[١] فكان إذا كان سوق عكاظ أتاها زهير فتأتى هوازن بالإتاوة[٢] التى فى أغنامهم فيأتونه بالسَّمْن والأَقِط[٣] والغنم فجاءت عجوز من هوازن بِسَمْن فى نِحْىٍ[٤] واعتذرت إليه وشكت السنين التى تتابعت على الناس فذاقه فلم يرض طعمه فدفعها بقوس كانت فى يده فسقطت فبدت عورتها فغَضِبَتْ من ذلك هوازن وحقدته إلى ما كان فى صدرها من الغيظ وكانت قد كثرت عامر . فآلى خالد بن جعفر فقال والله لأجعلنّ ذراعى وراء عنقه حتى أَقتل أو أُقتَلَ ، وفى ذلك قال :

أَرِيغونى إراغتكم فإنى وحَذْفَةَ كالشجا تحتَ الوريد[٥]
مُقَرَّبَةً أواسيها بنفسى وألحقها رِدَائى فى الجليدِ
لعلّ الله يقدرنى عليها جهاراً من زُهَيْرٍ أو أسيد

واتفق نزول زهير بالقرب من أرض بنى عامر . وكانت تماضر بنت عمرو ابن الشريد امرأة زهير بن جذيمة وأم ولده فمر به أخواها الحرث بن عمرو فقال زهير لبنيه : إن هذا الحمار طليعةً عليكم فأوثقوه فقالت أخته لبنيها : أيزوركم خالكم فتوثقونه ، ثم حابوا له وطبا[٦] من لبن وأخذوا منه يمينا أن لا يخبر عنهم فخرج حتى أتى بنى عامر فأخبرهم فركب خالد بن جعفر ، وَحُنْدُج بن البكاء ، ومعاوية بن عباد ، وثلاثة من فوارس بنى عامر ، واقتصوا فرأوا إبل بنى جذيمة

(١) يعشرهم من باب ضرب اخذ عشر اموالهم . (٢) بالكسر الخراج .
(٣) يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل وهو بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن القاف للتخفيف مع فتح الهمزة وكسرها مثل تخفيف كبد . (٤) نحى بكسر النون وسكون الحاء سقاء السمن .
(٥) اريغونى اراغنكم اى اطلبونى طلبتكم وفى رواية اللسان فمن يك سائلا عنى فانى . وحذفة كالشجا الخ وحذفة فرس خالد بن جعفر بن كلاب من نسل مذهب اصابها من جده رياح ابن الاشل الغنوى وكانت أمة خبيئة بنت رياح ، قال ابو عبيدة وهى الشقراء التى يقال فى المثل شيئا ما بريد السوط الى الشقراء ، والوريد أو حبل الوريد عرق تزعم العرب انه من الوتين وهما وريدان مكتنفان صفحتى العنق مما يلى مقدمه غليظان ، والجليد الضريب والسقيط وهو ندى يسقط من السماء فيجمد على الأرض تقول منه جلدت الارض فهى مجلودة ، والشجا ما ينشب فى الحلق .
(٦) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه .

فنزلوا عن الخيل . فقالت النساء إنا لنرى غابةَ رماح بمكان ما كنا نرى به شيئاً ثم جاءت الرِعاء فخبرت بهم وأتى أسيد أخاه زهيراً فأخبره بالخبر وقال قد رأت راعيتى خيل بنى عامر ورماحها فقال زهير « كل أزبَّ نَفور »[١] فذهبت مثلا . وكان أسيد كثير الشعر قال فتحمل عامة بنى رواحة وحلف زهير لا يبرح مكانه حتى يُصبح وتحمل من كان معه غير ابنيه ورقاء والحرث فلم يشعر إلا والخيل أحاطت به قال زهير وظنهم أهل اليمن يا أسيد ما هؤلاء ؟ قال : هم القوم الذين تغضب فى شأنهم منذ الليلة ، قال : وركب أسيد فرسه ونجا ووثب زهير على فرسه القمساء ، وكانت متمردة فلحقه خالد راكباً فرسه حَذْفَةَ . وهو يقول لانجوت إن نجا زهير ، فاعتنق خالد زهيراً ، وخرَّا عن فرسيهما ووقع خالد فوق زهير واستغاث بابنيه ، فأقبل إليه ورقاء بن زهير فضرب خالداً ثلاثَ ضربات فلم يغن شيئاً ، وكان على حندج درعان . ثم ضرب جُنْدُج رأس زهير فقتله . وفى ذلك يقول ورقاء بن زهير :

رأيت زُهَيْراً تحت كَلْكَلِ خالد ... فأقبلتُ أسعى كالعَجُول أبادِرُ[٢]

إلى بَطَلَيْن يَنْهَضان كلاهما ... يريدان نَصْل السيف والسيفُ داثر[٣]

فَشُلَّتْ يمينى يوم أضرب خالداً ... ويستره منى الحديد المظاهر

فياليت أنى قبل ضربةِ خالدٍ ... ويوم زهير لم تلِدْنى تماضرُ

ومنهم مجمع بن هلال بن خالد بن مالك[٤]

---

(١) وذلك ان البعير الازب وهو الذى يكثر شعر حاجبه يكون نفورا لان الريح تضربه فينفره ، يضرب فى عيب الجبان ؛ قال الميدانى قاله زهير بن جذيمة لاخيه أسيد وكان أزب جبانا وكان خالد يطلبه بذحل اى ثار وكان زهير يوما فى ابله يهنؤها ومعه اخوه أسيد فرأى أسيد خالد بن جعفر قد أقبل فى اصحابه فأخبر زهيرا بمكانهم فقال له المثل ، وكان أسيد أشعر . قال النابغة :

اثرت الغى ثم نزعت عنه ... كما حاد الازب عن الطعان

(٢) الكلكل والكلكال : الصدر او ما بين الترقوتين او باطن الزور .

(٣) يقال دثر السيف صدىء فهو داثر . (٤) هو احد بنى تيم الله بن ثعلبة وهو شاعر جاهلى ذكره ابو حاتم فى المعمرين وقال عاش تسع عشرة ومائة سنة ١١٩

وكان هذا الرجل ممن يضرب بشجاعته المثل بين العرب ومن حديثه أنه غزا مرة يزيد بن سعد بن زيد بن مناة فلم يصب شيئاً فرجع من غزاته فمر بماء لبنى تيم وعليه ناس من بنى مجاشع فقتل فيهم وأسر فقال فى ذلك :

إن أمس ما شيخاً كبيراً فطالما   عمرت ولكن لاأرى العُمْرَ ينفعُ[1]

مضت مائةٌ من مولدى فَنَضَيْتُها   وخمسٌ تِباع بعد ذاك وأربعُ[2]

وخيلٍ كأسراب القطا قد وزعتها   لها سَبَلٌ فيه المنية تلمع[3]

شهدتُ وغنم قد حويتُ ولذة   أتيت وماذا العيش إلا التمتعُ

وعاثرةٍ يوم الهُيَيْمى رأيتُها   وقد ضمها من داخل الحلب مجزع[4]

لها غَللٌ فالصدر ليس ببارح   شجى نشب والعين بالماء تدمع[5]

تقول وقد أفردتُها من حليلها   تعستَ كما أتعستنى يا مُجَمِّع

فقلت لها بل تعسَ أخت مجاشع   وقومك حتى خدّك اليوم أضرع[6]

عَبَأْتُ له رمحاً طويلاً وألّةً   كأنْ قَبَسٌ يعلى بها حين تشرع[7]

وكأن تركت من كريمة مَعْشَرٍ   عليها الخموش ذات حزن تَفَجَّع[8]

ومنهم عتيبة بن حارث ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم وعنترة العَبْسى الشاعر الشهير وملاعب الأسنة وزيد الخيل وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدى كرب وزيد

---

(١) ما زائدة ، وقوله لا ارى العمر اى اتصال العمر وطوله فحذف المضاف اليه . (٢) فنضوتها من قولهم نضا ثيابه اذا نزعها واستعاره لبقائه هذه المدة ومضيها عليه اى تجردت منها تجردى عن ثوبى ، وخمس تباع بكسر التاء اى تابعة للمائة فهو مصدر وصف به . (٣) الاسراب : الجماعات مفرده سرب ، والقطا : نوع من الطير لا يحب الانفراد، قد وزعتها أى كففتها لنجتمع، والسبل : المطر والمراد به هنا تتابع الخيل فى الغارة كتتابع المطر وجواب رب اول البيت بعده وهو شهدت . (٤) الهييمى ، موضع كانت فيه هذه الواقعة ، والمجزع : الرعب . (٥) غلل اصل الغلل الماء الجارى بين الاشجار وجعله كناية عن الشجى وهو ما ينشب فى الحلق من عظم وغيره ، والبارح : الزائل وشجى بدل من غلل ، ونشب من نشب بالشىء اذا علق به .

(٦) انتصب تعس على المصدر، وخدك اضرع من الضراعة وهى الذل والانقياد

(٧) عبات له اى هيأت له ، والاله : الحربة العريضة النصل، والقبس : النا

(٨) وكائن تركت اى وكاى تركت ، والخمش فى البدن والوجه مثل الخدش ، وتفجع اى تتفجع .

الفوارس وأمية بن حرثان وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لا يحيط بهم الحصر . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر شىء منْ أخبار هؤلاء فى أواخر هذا الجزء .

وأما كون العرب أوفى من غيرهم من الأمم

فاعلم أن الوفاءَ أخو الصدق والعدل ، والغَدْرَ أخو الكَذِب والجور ، وذلك أن الوفاء صدق باللسان والفعل معاً ، والغدر كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد ، وقد جعل الله العهد من الإيمان وصيره قِواماً لأمور الناس ، فالناس مضطرون إلى التعاون ، ولاسيما العرب ، ولا يتم تعاونهم وتظاهرهم إلاّ بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعائش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإيایَ فارهبون) . وقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وقال (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وقال (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وعظم حال السَمَوْءَل الشاعر الشهير فيما التزمه به من الوفاء بدروع امرئ القيس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى قريباً . ومن المعلوم حال العرب فى الصدق واعتناؤهم بشأنه ونفرتهم من الكذب وتقبيحه حتى قال الرضى عند الكلام على قولهم هو رجل صدق . المراد بالصدق فى مثل هذا المقام مطلق الجودة لا الصدق فى الحديث وذلك لأن الصدق فى الحديث مستحسن جيد عندهم حتى صاروا يستعملونه فى مطلق الجودة فيقال ثوب صدق وخل صادق الحموضة كما أن الكذب مستهجن عندهم بحيث إذا قصدوا الإغراء بشىء قالوا كذب عليك . قال عمر بن معدى كرب لمن شكى إليه المغص : كذب عليك العسل أى العسلان بمعنى عليك به والزمه ويجوز أن يريد به العسل المعروف . وقال الشاعر :

وذُبيانيةٍ أَوْصَتْ بنيها بأَنْ كَذَبَ القراطِفُ والقُروفُ[1]

---

(١) البيت من قصيدة المعقر البارقى مدح بها بنى نمير وذكر ما فعلوا ببنى ذبيان بشعب جبلة وهو يوم كانت وقعت بين بنى ذبيان وبنى عامر فظهرت بنو عامر على بنى ذبيان . فى ذلك اليوم ، ونمير ابو قبيلة من قيس وهو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وكان معقر حليفا لهم وذكر ما فعلوا ببنى ذبيان ، والقراطف جمع قرطف كجعفر وهو القطيفة اى

أى عليكم بهما ، والأمر كما ذكر الرضى فهم أحفظ للعهد ، وأوفى بالوعد ، لأنهم ما نقضوا لمحافظ عهداً ، ولا أخلفوا لمراقب وعدا ، يرون الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوئ الشيم وأقبح العيوب . انظر إلى قصة حاجب ابن زرارة إذ رهن قوسه عندَ كسْرى ، فإنها تدلك على ما كانوا عليه من الصدق والوفاء ومراعاة العهود ، وذلك كما قال الإمام المرزوقى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مُضَر وقال : اللهم اشدد وطْأَتَكَ على مُضَر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوُسُفَ فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فَزارة ، وقال : إنى أزمعت[1] على أنى آتى المَلِكَ يعنى كسرى فأطلب أن يأذنَ لقومنا ، فيكونوا تحت هذا البحر حتى يُحيوا . فقالوا : رشدت فافعل غيرَ أَنا نخاف عليك بكر بن وائل فقال . ما منهم : وجه إلاّ ولى عنده يد إلاّ ابن الطويلة التيمى وسأُداويه ، ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الاتحاف والبر من الناس حتى انتهى إلى المـاء الذى عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر ، دعا بنطع[2] ثم أمر فصب عليه التمر ثم نادى حى على الغداء ، فنظر ابن الطويلة فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه وأهدى إليه جُزُراً ، ثم ارتحل . فلما بلغ كسرى شكا إليه الجهدَ فى أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذَنَ لهم فيكونوا فى حد بلاده . فقال : أنتم معشرَ العرب غُدُر فإذا أذِنْتُ لهم عاثوا فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال :

كساء مخمل » والقروف جمع قرف بفتح فسكون وهو وعاء من جلد يدبغ بالقرفة بالكسر وهى قشور الرمان ويجعل فيه الخلع ويطبخ بتوابل فيفرغ فيه والخلع بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام لحم يطبخ بالتوابل ثم يجعل فى القرف ويتزود به فى الاسفار والواو واو رب يقول رب امراة ذبيانية أمرت بنيها ان يستكثروا من نهب هذين التيسيئين ان ظفروا بعدوهم وغنموا وذلك لحاجتهم وقلة حالهم .

(١) يقال ازمعت الأمر وعليه اجمعت او نبت عليه كزمعت .

(٢) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب بساط من اديم والجمع انطاع ونطوع .

أرهنك قوسى ، فلما جاء بها ضحك من حوله ، فقال الملك : ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مُضَرُ إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب ، فدعا لهم فخرج أصحابه إلى بلادهم وارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه ، فقال : ما أنت بالذى وضعتها . قال : أَجَلْ أنه هلك ، وأنا ابنُهُ وفىّ للملك . قال : ردوا عليه وكساه حُلَّةً . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها إليه فلم يقبلها فباعها من يهودى بأربعة آلاف درهم . فصار ذلك فخراً ومَنْقبة لحاجب وعشيرته . وفى ذلك يقول أبو تمام من جملة أبيات :

إذا افتخرتْ يوما تميمٌ بقوسها   فخاراً على ما وطدت من مناقب[1]

فأنتم بذى قارٍ أمالتْ سيوفكم   عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب[2]

وقد لمح بعضهم[3] إلى قوس حاجب بقوله فى مليح قلندرىّ قد حلق حاجبه فقال :

حبيبى بحقّ اللهِ قل لى ما الذى   دعاك إلى هذا فقالَ مجاوبى :

وعدت بوصلِ العاشقين تعطُّفاً   فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبى

والحكايات فى صدقهم ووفائهم واعتنائهم بأمر العهد وزجرهم عن الغدر قد شحن منها كتب التواريخ والأدب وما أحسن قولَ من يقول منهم :

وإذا الأمانة قسمت فى معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامُها

فهم السُّعاة إذا العشيرة أفظعتْ   وهُمُ فوارسها وهُمْ حكاّمُها

وهُمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهم   والمرْملاتِ إذا تطاوَل عامُها[4]

---

(١) وطدت اى نبتت . (٢) يوم ذى قار يوم لبنى شيبان اول يوم انتصرت فيه العرب من العجم ، يقول اذا افتخرت تميم بذلك فانتم قتلتم الذين كسبوهم هذا المجد مما ارنهنوه وهدمتم عزهم ، قال ابو نؤاس يهجو تميما: وانها لا مجد لها ولا عز الا قوس حاجب الذى لا يساوى شسع نعل :

أول مجد لها وآخره   ان ذكر الفخر قوس حاجبها

(٣) العلامة الصفدى وقبل البيتين :

بدا لى فى حلق الحواجب فتنة   فقلت بعقل ذاهل فيه ذاهب

(٤) المرمل الذى انقطع زاده .

من اشتهر من العرب بالوفاء وضرب به المثل فى ذلك ، منهم :

عوف بن محلم

كان من وفائه أن مروانَ القَرَظِ (١) بن زِنْباع غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه فأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أُمَّه فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بِمَرْوان القَرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه . قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذلك لكِ على أن تؤدّينى إلى خُماعة بنت عَوْف بن مُحَلّم . والسبب فى ذلك أن لَيْثَ بن مالك المُسَمَّى بالمنزوف ضَرِطاً (٢) لما مات أخذت بنو عبس سَلَبَه وفرسه ، ثم مالوا إلى خِبَائه فأخذوا أهله وسلبوا امرأته خُمَاعَةَ بنت عوفِ بن محلّم ، وكان الذى أصابها عمرو بن قارب وذُؤاب بن أسماء فسألها مروان القَرَظ من أنتِ ؟ قالت : أنا خُماعة بنت عوف بن محلم . فانتزعها من عمرو وذُؤاب لأنه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطّى وجهَكِ والله لا ينظر إليه عربى

(١) يضرب به المثل فى العز فيقال أعز من مروان القرظ ، قال الميدانى: كان يحمى القرظ وقيل بل سمى بذلك لأنه كان يغزو اليمن وبها منابت القرظ ، وصف مروان هذا المنذر بن ماء السماء فاستوفده عليه فقال له انت مع ما حييت به من العز فى قومك كيف علمك بهم ؟ فقال ابيت اللعن انى ان لم اعلمهم لم اعلم غيرهم ، قال : ما تقول فى عبس ؟ قال : رمح حديد ان لم تطعن به يطعنك ، قال : ما تقول فى فزارة ؟ قال : واد يحمى ويمنع ، قال : فما تقول فى مرة ؟ قال : لا حر بوادى عوف ، قال : فما تقول فى أشجع ؟ قال : ليسوا بداعيك ولا بمجيبيك ، قال : فما تقول فى عبد الله بن غطفان ؟ قال : صقور لا تصيد ، قال : فما تقول فى ثعلبة بن سعد ؟ قال : اصوات ولا انيس .

(٢) قال المجد فى مادة ضرط وفى المثل اجبن من المنزوف ضرطا وذلك ان نسوة لم يكن لهن رجل فزوجن احداهن رجلا كان ينام الصبحة فاذا انينه بصبوح قلن قم فاصطبح فيقول لو نبهتننى لعادية فلما راين ذلك قال بعضهن ان صاحبنا لشجاع فتعالين حتى نمر به فأتينه كما كن يأتينه فقال او لعادية نبهتننى فقلن هذه نواصى الخيل فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط حتى مات ، او رجلان منهم خرجا فى فلاة فلاحت لهما شجرة فقال احدهما أرى ان قوما قد رصدونا فقال رفيقه انما هى عشرة بضم العين فظنه يقول عشرة فجعل يقول وما غناء اثنين عن عشرة وضرط حتى نزف روحه فسمى المنزوف ضرطا ، او هو دابة بين الكلب والسنور اذا صيح بها وقع عليها الضراط من الجبن ، وفى المثل أودى العير الا ضرطا ، يضرب للذليل وللشيخ ولفساد الشىء حتى لا يبقى منه الا مالا ينتفع به اى لم يبق من قوته الا الضراط

حتى أَرُدَّكِ إلى أبيك . ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها . ويقال أن مروان قال لعمرو وذُؤاب حكمانى فى خُماعة . قالا قد حكّمناك يا أبا صهبان . قال : فإنى اشتريتها منكما بمائة من الإبل وضمّها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسنَ كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عُكاظ . فلما انتهى بها إلى منازل بنى شيبان ، قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك ؟ فقالت هذه منازل قومى وهذه قبةُ أبى . قال فانطلقى إلى أبيكِ فانطلقت فخبرت بصنيع مروان ، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه فى أمر خُماعةَ وردها إلى أبيها :

رَدَدْتُ على عَوْفٍ خماعةَ بعدَما ... خلاها ذُؤابٌ غير خلوة خاطبِ

ولو غيرها كانت سبيئةَ رُمحِهِ ... لجاء بها مَقْرونةً بالذوائبِ

ولكنّه ألقى عليها حجابَهُ ... رجاء الثواب أو حذار العواقب

فدافعتُ عنها ناشباً وقبيلةً ... وفارس يَعْبوبٍ وعمرو بنَ قاربِ

ففاديتها لما تبين نصفُها ... بكُوم المتالى والعشار الضوارب

صهابيةٍ حمر العوانين والذُرى ... مهارش أمثال الصخور مصاعب

فى أبيات مع هذه . قوله تبين نصفها : أى أنصافها والكوم القطعة من الإبل . والمتالى : الذى يراسل المغنى بصوت رفيع . والأصهب من الإبل الذى يخالط بياضه حمرة . وهو أن يحمر أعلى الوبر ويبيض أجوافه . وجمل صهابى أى أصهب اللون . والعوان النَصَف فى سنها من كل شىء وذُرى الشىء بالضم أعاليه الواحدة ذروة . فكانت هذه يداً لمروانَ عند خُمَاعَةَ فلهذا قال ذاك لكِ على أن تؤدّينى إلى خُمَاعَةَ بنت عوف بن مُحلِّم . قالت المرأة : ومن لى بمائة من الإبل فأخذ عوداً من الأرض فقال هذا لكِ بها . فمضت به إلى عوف بن محلم فبعث إليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد على مروانَ فى أمر فآلى أن لا يعفوَ عنه حتى يَضَع يده فى يده . فقال عوف حين جاءه الرسول قد أجارته ابنتى وليس إليه سبيل . فقال عمرو بن هند قد آليت أن لا أعفوَ عنه أو يضع يده فى يدى قال عوف يضع

يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك . فجاء عوف مروان فأدخله عليه فوضع يده فى يده ووضع يده بين أيديهما فعفا عنه . فقال عمرو « لا حُرَّ بوادى عَوْفٍ » فأرسلها مثلا أى لا سيِّدَ به يناويه . وإنما سُمى مَرْوانَ القَرَظ لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القَرَظ . ومنهم :

حنظلة بن عفراء

قال القالى فى ذيل أماليه : حدثنا أبو بكر بن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال قال لى عمى سمعت يونس بن حبيب يقول كان المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر ينادمه رجلان من العرب خالد بن المَضلَّل . وعمرو بن مسعود الأسديان وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله :

ألا بكر الناعى بخيرىْ بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فشرب ليلة معهما فراجعاه الكلام فأغضباه فأمر بهما فقتلا وجُعلا فى تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة . فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما وأمر ببناء الغريَّين[١] وجعل لنفسه فى كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فى كل عام فكانَ يضَع سريره بينهما فإذا كان فى يوم نعيمه فأول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من إبل الملوك ، وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يعطيه رأس ظَرِبانٍ[٢] ويأمر به فيذبح

(١) : بناآن مشهوران بالكوفة عند الثوية حيث قبر على (رض) زعموا انهما بناهما بعض ملوك الحيرة قاله ونصر ، وفيهما يقول الشاعر :

او كان شىء له ان يبيد على طول الزمان لما باد الغريان

وقال الجوهرى : هما بناآن طويلان يقال هما قبرا مالك وعقيل نديمى جذيمة الابرش وسيما غريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله اذا خرج فى يوم بؤسه ، قال الزبيدى : بعد نقل ما تقدم : فسياق الجوهرى يقتضى انهما سميا بالتغرية وهو الا اصاق وسياق المصنف انه من الحسن (٢) دويبة فوق جرو الكلب كريهة النتن وانتن خلق الله فسوا يضرب بفسوه المثل فى النتن وقد عرف ذلك من نفسه فجعله سلاحه كما عرفت الحبارى ما فى برازها من السلاح على الصقر كذلك الظربان يدخل على الضب جحره وفيه بيضه وحسوله فيأتى أضيق موضع فى الجحر فيسده بيده ويحول دبره اليه فما يفسو ثلاث فسوات حتى يصرع الضب فيخر مغشيا عليه فيأكله ثم يقيم فى جحره حتى يأتى على آخر حسوله ، =

ويُغَرَّى[1] بدمه الغَرِيّان فلم يزل كذلك ما شاء الله فبينا هو ذات يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه عَبِيد بن الأبرص فقال له الملك ألا كان الذِبْحُ غيرك يا عبيد ؟ فقال عبيد « أتتك بحائن رجلاه » فقال له الملك : « أو أَجل قد بلغ إناه » ثم قال يا عبيد أنشدنى فقد كان يُعجبنى شعرك ، فقال « حال الجَرِيضُ دون القريض[2] » وبلغَ الحِزام الطُبْيَين » فقال أنشدنى :

أقفر من أهله ملْحوبُ فالقُطَّبيــاتُ فالذنوبُ[3]

فقال :

أقفرَ من أهله عبيدُ فاليوم لا يُبْدِى ولا يُعيدُ
عنَّتْ له معنَّةٌ نـكودُ وحان له منها وُرود

فقال : أنشد هبِلتك أمُّك[4] . فقال : « المنايا ، على الحوايا » فقال بعض القوم أنشد الملك هبِلتك أمُّك فقال « لا يرْحَلُ رَحْلك ، من ليس معك » فقال له آخر ما أشدَّ جزعك من الموت فقال :

وتقول الاعراب ربما أنه دخل فى خــلال الهجمة فيفســو فلا يتم له ثلاث فسوات حتى تنفرق الابل وتنفر كما تنفر عن مبرك فيه قردان فلا يردهما الراعى الا بالجهد التسديد فمن اجل هذا سمت العرب الظربان مفرق النعم ويقال للرجلين يتشانمان ويتفاحشان انهما ليتجاذبان جلد الظربان وانهمـا ليتماسان ظربا وقالوا للقوم اذا وقع بينهم الشر فتفارقوا فسا بينهم الظربان فلا يلتقى منهم انسان ، وقال الربيع بن ابى العقيق يهجو قوما :

وانتم ظـرابين اذا تجــلو ن وما أن لنا فيكم من نريد
وانتم نفوس وقـــد تعرفو ن بريح التيوس ونتن الجلود

ونظر أبو عبد الله العواص الى فوم جيدى الاكل خبيثى الريح فقال :

أناس أكلهـــم يربو على اكل الثعـــابين
ونسن رياحهـــم يربو على نتن الظـــرابين

هدا ما ذكره الثعالبى فى المضاف والمنسوب (١) أى يطلى (٢) يضرب لامر يعوق دونه عائق قالهحونس الكلابى حين منعه ابوه من الشعر فمرض حزنا فرق له وقد اشرف فقال انطلق بما أحببت والجرض محركة الريق جرض بريقه كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وقوله بلغ الحزام الطبيين مضى تفسيره.

(٣) هذا البيت مطلع قصيدته المشهورة التى عدها بعضهم من المعلقات ، ومعنى اقفر : خلا ، وملحوب بالفتح ثم السكون وحاء مهملة وواو ســاكنة ماء لبنى اسد بن خزيمة وقيل قرية باليمامة لبنى عبدالله بن الدئل بن حنفية؛ والقطبيات بالضم ثم التشديد وبعد الطاء باء موحـدة وياء مشددة اســم جبل ؛ والذنوب : اسم موضع بعينه . (٤) هبلته أمه كفرح ثكلته ، والثكل بالضم الموت والهلاك وفقد الحبيب أو الولد ويحرك.

لا غَرْوَ من عيشةٍ نافدَه　　وهل غيرُ ما ميتةٍ واحده[١]
فأبلغْ بَنىَّ وأعمامهم　　بأنَّ المنايا هى الراصدة
لها مدَّةٌ فنفوس العباد　　إليها وإنْ كرهتْ قاصده
فلا تجزعوا لحمامٍ دنا　　فللموت ما تلد الوالده[٢]

فقال له المنذر لا بد من الموت ولو عَرَض لى أبى فى هذا اليوم لم أجد بداً من ذبحه فأما إذا كنتَ لها وكانت لك فاختر من ثلاث خصال إن شئت من الأكل[٣] وإن شئت من الأبْجَل[٤] وإن شئت من الوَرِيد[٥] فقال « ثلاثُ خصال مقادُها شرُّ مقادٍ ، وحاديها شرٌّ حادٍ ولا خير فيها لمرتاد فإن كنتَ لا بد قاتلى فاسْقِنِى الخمر حتى إذا ذهلتْ ذواهلى وماتت لها مفاصلى فشأنك وما تريد » فأمر المنذر له بحاجته من الخمر فلما أخذت منه وقرّب ليذْبح أنشأ يقول :

وخيَّرنى ذو البؤس فى يوم بؤسه　　خِلالاً أرى فى كلها الموتَ قد بَرَقْ
كما خيِّرتْ عادٌ من الدهر مرَّةً　　سحائب ما فيها لذى خِيَرةٍ أَنَقْ
سحائب ريحٍ لم تُوَكَّلْ ببلدة　　فتتْرُكها إلا كما ليْلةِ الطَلَق

وأمر به فَفُصِدَ فلما ماتَ طُلِىَ بدمه الغَرِيَّان ، وكذا روى هذه الحكاية إسماعيل بن هبة الله الموصلى فى كتاب الأوائل عن الشرق بن القطامى وقد رجع المنذر عن هذه السنة السيئة ، روى الموصلى فى أوائله : إن المنذر استمر على ذلك زماناً حتى مر به رجل من طىءٍ يقال له حنظلة بن عَفْرآء فقال له أبيت اللعنَ أتيتك زائراً . ولأهلى من خيرك مائراً فلا تكن ميرتهم قتْلى ، فقال : لا بد من ذلك . وسَلْنى حاجة قبله أقضها لك . قال : تؤجّلنى سنةً أرجع فيها إلى أهلى وأحكم أمرهم ، ثم أَرجع إليك فى حكمك . قال : ومن يتكفل بك

---

(١) لا غرو اى لا عجب ويقال لا غروى وما زائدة . (٢) الحمام : قضاء الموت وقدره . (٣) عرق فى اليد او هو عرق الحياة ولا تقل عرق الاكحل .
(٤) هو عرق غليظ فى الرجل او فى اليد بازاء الاكحل . (٥) عرق تزعم العرب انه من الوتين وهما وريدان مكتنفا صفحتى العنق ممايلى مقدمه غليظان

حتى تموت؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريكَ بنَ عمرو وأباالحوفزان .
فأنشأ يقول :

يا شريكاً يا ابن عمرٍو هل من الموت محاله
يا أخا كلِّ مصاب يا أخا من لا أخاله
يا أخا شيبانَ فُكَّ اليوم رهناً قد أناله
إن شيبان قبيلٌ أكرمَ اللهُ رجاله
وأبوك الخير عمرو وشراحيل الحماله
وفتاك اليوم فى المجد وفى حُسْن المقاله

فوثب شريك وقال : أبَيْت اللعن يده يدى ودمه دمى إنْ لم يَعُدْ إلى أجله فأطلقه المنذر . فلما كان القابل جلس فى مجلسه ، وإذا ركب قد طلع عليهم فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفناً متحنطاً[1] معه نادبتهُ وقد قامت نادبة شريك تندبه . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنَّة . وقد ذكر فى إبطال المنذر هذه السنة غير هذا . وقد أورده الموصلى ، والميدانى فى مثل . وهو : « إن غداً لناظره قريبُ » وهو قطعة من بيت :

فَإِنْ يكُ صدر هذا اليوم وَلَّى فإنَّ غداً لناظره قريب

قال : إن أولَ من قال ذلك قراد بن أجْدَع ، وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيَّد على فرسه اليَحْمُوم فأجراه على أثر عيرٍ فذهب به الفرس فى الأرض ولم يقدر عليه وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء فطلب ملجأ يلجأ إليه فدفع إلى بناء فإذا فيه رجلٌ من طيّئ يقال له حنظلة ومعه امرأة له ، فقال لهما هل من مأوى ؟ قال حنظلة : نعم فخرج إليه فأنزله ، ولم يكن للطائى غير شاةٍ وهو لا يعرف النعمان ، فقال لامرأته : أرى رجلا ذا هيئة وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة ؟

---

(١) أى متطيبا والحنوط كصبور وكتاب كل طيب يخلط للميت وقد حنطه يحنطه واحنطه فتحنط .

قالت : عندى شىء من طحينٍ كنت ادَّخَرْتُهُ فاذبح الشاة لِأَتَّخِذَ من الطحين مَلَّةً[1] قال فأخرجت المرأة الدقيقَ فخبزتْ منـه مَلَّةً وقام الطائى إلى شاتِهِ فاحتلبها ثم ذَبَحها فاتخذ من لحمها مرقة مضيرة[2] وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شراباً فسقاه وجعل يحدثه بقيَّةَ ليلته . فلما أصبح النعمان لَبِس ثيابه وركب فرسه ، ثم قال يا أخا طيء اطلب ثوابَكَ أنا النعمان . قال أفعل إن شاء الله ثم لحقته الخيلُ فمضى نحو الحيرة . ومكث الطائى بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبةٌ وجهْدٌ وساءت حاله ، فقالت له امرأته : لو أتيتَ الملكَ لأحسن إليك فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة ، فوافق يوم بؤسِ النعمان فإذا هو واقف فى خيله فى السلاح ، فلمـا نظر إليه النعمان عرَفه وساءه مكانه . فقال الطائى المنزول به ؟ قال : نعم . قال أفلا جئت فى غير هذا اليوم ؟ قال : أبيت اللعن وما كان علمى بهذا اليوم قال : واللهِ لو سنَحَ لى فى هـذا اليوم قابوسٌ ابنى لم أجد بُدًّا من قتله . فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدالك فإنك مقتول . قال : أبيت اللعن وما أصنعُ بالدنيا بعد نفسى . قال النعمان : إنه لا سبيل إليها . قال فإن كان لا بُدَّ فأجِّلْنى حتى أُلِمَّ بأهلى فأوصى إليهم وأهيىء حالهم ثم أنْصَرِف إليك . قال النعمان : فأقِمْ لى كفيلا بموافاتك . فالتفت الطائى إلى شريك بن عمرو بن قيس من بنى شيبان ، وكان يكنى أبا الحوافزان ، وكان صاحب الردافة[3] وهو واقفٌ بجنب النعمان . فقال له :

يا شريكاً يا ابن عمرو　　هل من الموت محاله

يا أخا كلِّ مُصابٍ　　يا أخا من لا أخاله

يا أخا النعمان فُكَّ الـــيوم ضيقاً قد أتى له

---

(١) الملة بالفتح قيل الحفرة التى تحفر للخبز وقيل التراب الحار والرماد وملت الخبز واللحم فى النار من باب قتل فهو مليل ومملول واطعمته خبز ملة بالاضافة وخبزة مليلة على الوصف مع الهاء (٢) مريقة تطبخ باللبن المضير اى الحامض وربما خلط بالحليب

(٣) الردافة بهاء فعل ردف الملك

طالما عالج كرب السموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به فوثب اليه رجل من كلب يقال له قُراد بن أجدع . فقال للنعمان : أبيت اللعن هو علىّ . قال النعمان : أفعلت قال نعم فضمنه إياه . ثم أمر للطائى بخمسمائة ناقة فمشى الطائى إلى أهله وجعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل . فلما حال عليه الحول وبقى من الأجل يوم : قال النعمان لقُراد ما أراك إلا هالكا غداً . فقال قراد :

فإنْ يكُ صدر هذا اليوم ولىّ فإنّ غداً لناظره قريب

فلما أصبح النعمان ركب فى خيله ورجله متسلّحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّيْن فوقف بينهما وأخرج معه قُراداً وأمر بقتله . فقال له وزراؤه : ليس لك قتله حتى يستوفى يومه فتركه . وكان النعمان يشتهى أن يقتل قُراداً ليفلت الطائى من القتل . فلما كادت الشمس تَجِبُ(١) وقُراد مجرد قائم فى إزار على النِّطْعِ والسيّافُ إلى جنبه أقبلت امرأته وهى تقول :

أياعينُ بكّى لى قُراد بن أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مُوَدَّعا
أتته المنايا بغتة دون قومه فأمْسى أسيراً حاضر البيت أضْرَعا

فبينما هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمان بقتل قراد . فقيل له ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخصُ فتعلم من هو ، فكف حتى انتهى إليهم الرجلُ فإذا هو الطائى ، فلما نظر إليه النعمان شقّ عليه مجيئه . فقال له : ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال : الوفاء . قال : وما دعاك إلى الوفاء ؟ قال : دينى . قال النعمان : وما دينُك ؟ قال : النصرانية . قال النعمان : فاعرضها علىّ فعرضها عليه فتنصّر النعمانُ ، وأهلُ الحيرة أجمعون . وكان قبل ذلك على دين العرب ، فترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السُنَّة ، وأمر بهدم الغَرِيَّيْن وعفا عن قُراد والطائى ، وقال : والله ما أدرى أيهما أوفى وأكرم .

---

(١) أى تغيب

أهذا الذى نجا من القتل فعاد . أم هذا الذى ضمنه ؟ والله لا أكون أَلْأَمَ الثلاثة ، فأنشأ الطائى يقول :

ما كنتُ أخلِفُ ظنَّه بعد الذى   أسدَى إلىَّ من الفَعال الحالى
ولقد دَعَتْنى للخلاف ضلالتى   فأبَيْتُ غيرَ تمجُّدِى وفعالى
إنى امرؤٌ مِنِّى الوفاء سجيةٌ   وجزاء كل مكارم بذالى

وقال أيضاً يمدحُ قراداً :

ألا إنما يسمو إلى المجد والعُلى   مخاريقُ أمثالِ القُراد بنِ أجْدَعا
مخاريقُ أمثال القراد وأهله   فإنهمُ الأخيارُ من رَهْطِ تُبَّعا[1]

انتهى والله أعلم بحقيقة الحال . ومنهم :

الحارث بن ظالم المرى

كان من وفائه أنَّ عياضَ بنَ دَيْهَث مرَّ برعاء الحارث وهم يسقون فسق فقصر رِشاؤه فاستعار من أرشية الحارث فوصل رِشاءه[2] فأروى إبلَهُ . فأغار عليه بعضُ حَشَمِ النعمان فاطردوا إبله فصاح ياحارِ ياجاراه ! فقال له الحارث : ومتى كنتُ جارَك ؟ قال : وصلت رشائى برشائك فسقيت إبلى ، فأغير عليها وذلك الماءفى بطونها ، قال : جوارٌ وربِّ الكعبة . فأتى النعمانَ . فقال : أبيتَ اللعنَ أغار حَشَمُك على جارى عياض بن دَيْهَث فأخذوا إبلَه وما لَهُ فاردد عليه . فقال له النعمان : أفلا تشد ما وهى من أديمك . يريد أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب فى جوار أسود بن المنذر . فقال الحارث « هل تعدون الحلية إلى نفسى »

---

(١) المخراق السيد والسخى، والرهط قوم الرجل وقبيلته (٢) قال شارح رسالة ابن زيدون كان ريح العرب فى رعاية الجوار ماهو أعجب العجب ذلك ان الانسان اذا لمس طنب بيته طنب بيت آخر لزمه حرمة الجوار والذمة واذا علق له داو بدلو آخر فى بئر لزمه حرمة الجوار والذمة والى هاتين الفضيلتين اشار ابو تمام يخاطب ابن الزيات :

لى حرمة بك لولا مارعيت وما   أوجبت من حقها ماخلتها تجب
بلا اقد سلفت فى جاهليتهم   الحق ليس كحقى نصره عجب
أن تعلق الداو بالدلو الغريبة او   يلامس الطنب المستحصد الطنب

فأرسلها مثلا . أى أنك لا تهلك إلا نفسى إن قتلتها . فتدبر النعمان كلمته فرد على عياض أهله وماله . وقال الفرزدق يضرب المثل لسليمان بن عبد الملك حين وفى ليزيد بن المهلب :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه على كل حالٍ جارَ آلِ المُهَلّب
كما كان أوفى إذ يُنادى ابن ديهث وصِرْمتـه كالمغنم المتنهَّبِ(١)
فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم وكان متى ما يَسْلُل السيفَ يضْرِب

هذا ما ذكره الميدانى فى أمثاله . وروى الأصبهانى بسنده فى الأغانى : أن الحارث بن ظالم المُرِّىّ لما كان نزيلاً عند النعمان بن المنذر أخذ مصدق للنعمان إبلا لامرأة من بنى مرة يقال لهـا ديهث فأتت الحارث فعلقت دلوها بدلوه ومعها بنى لها . فقالت : يا أبا ليلى إنى أتيتك مُضامةً . فقال : إذا أورد القوم النعم فناد بأعلى صوتك :

دعوت بالله ولم تراعى ذلك داعيك فنعم الداعى
وتلكَ ذَوْد الحارث الكساعى يمشى لهـا بصارم قطّاع
يشفى به مجامع الصداع

وخرج الحارث بن ظالم فى أثرها وهو يقول :

أنا أبو ليلى وسـيفى المعلوب كم قد أجرنا من حريب محروب(٢)
وكم رددنا من سليب مسلوب وطعنـة طعنتها بالمضبوب
ذاك جهيز الموت عند المكروب

ثم قال : لا يُرَدَّنَّ عليك ناقة ولا بعير تعرفينه إلا أخذته ففعلت ورأت لَقُوحًا لها يحلبها حبَشِىٌّ . فقالت : يا أبا ليلى هذه لى ، قال الحبشى كذبتِ ، فقال الحارث

---

(١) الصرمة بالكسر القطعة من الابل مابين العشرين الى الثلاثين أو الى الخمسين والأربعين أو مابين العشرة الى الأربعين أو مابين عشرة الى بضع عشره (٢) قال فى القاموس : المعلوب سيف الحرث بن ظالم

« است الحالب أعلم »[1] فصارت مثلا . قال أبو عبيدة : ففى ذلك يقول الفرزدق :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه ... على كلّ جارٍ جار آلِ المهلّبِ
كما كان أوفى إذْ يُنادى ابن دَيهث ... وصِرْمتُــــهُ كالمغنم المتَنهَّبِ
فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم ... وكان إذا مايسلُلِ السيفَ يَضْرِبِ
وما كان جارٌ غير دلْوٍ تعلقت ... بِحَبْلَيْنِ فى مُسْتَحْصد القدّ مكرب

انتهى . والظاهر من الشعر أن روايةَ الأصبهانى أحقُّ بالاعتبار . ومنهم :

أبو حنبل الطائى

ومن حديثه : أن امْرَأ القيس نَزلَ به ومعه أهل وسلاحه وماله . ولأبى حنبل امرأتان جَدَليَّة تَغلَبيَّة[2] فقالت الجدَلية رزق آتاك الله به لاذمةَ له عليك ولا عقدَ ولا جوارَ ، فأرى لك أن تأكله وتطعمه قومَك . وقالت الثَّعْلبيَّة : رجل تحرَّمَ بك واستجارك واختارك فأرى لك أن تحفظَه وتَفىَ له . فقام أبو حنبل إلى جذعة من الغنم فاحتلبها وشرب لبنها ثم مسح بطنه وحجل ثم قال :

لقد آليتُ أغدرُ فى جذاع ... وإنْ مُنّيت أُمّاتِ الرباع
لأن الغــدر فى الأقوام عارٌ ... وإنَّ الحر يجزى بالكراع

فقالت الجدلية ورأت ساقَيْه حَمِشتين تالله مارأيت كاليوم ساق واق فقال

---

(١) ورواية مجمع الأمثال : است البائن اعلم قال : إلبائن الذى يكون عند حلب الناقة من جانبها الأيسر ويقال للذى يكون من الجانب الآخر المعلى والمستعلى وهو الذى يعلى العلبة الى الضرع والبائن الذى يحلب وقيل بخلاف هذا وهما الحالبان فى قولهم « خير حالبيك تنطحين » يروى هذا المثل عن الحارث بن ظالم وذلك أن الجميح وهو منقذ بن الطماح خرج فى طلب ابل له حتى وقع عليها فى قبيلة مرة فاستجار بالحارث بن ظالم المرى فنادى الحارث من كان عنده شىء من هذه الابل فليردها فردت جميعا غير ناقة يقال لها اللفاع فانطلق يطوف حتى وجدها عند رجلين يحلبانها فقال لهما خليا عنها فليست لكما وأهوى اليهما بالسيف فضرط البائن فقال المعلى والله ماهى لك ، فقال الحارث : « است البائن اعلم » فأرسلها مثلا ، يضرب لمن ولى امرا وصلى به فهو أعلم به ممن لم يمارسه ولم يصل به ، وقيل يضرب لكل ماينكر وشاهده حاضر

(٢) فى فرائد اللآل الشيخ ابراهيم الأحدب : وتغلبية بالتاء

أبو حنبل . « هما سافا غادرٍ شر » فذهبت مثلا . قوله منيت أى ضعفت . والرباع جمع ربع كصرد وهو الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ومنهم :

الحارث بن عباد

يقال : إنه كان أسَرَ عَدِيّ بن ربيعة فى يوم قِضَّةَ ولم يعرفه فقال له دُلَّني على عدى ابن ربيعة . فقال له : إن أنا دللتك على عدى أتؤمنني قال نعم . قال : فليضمن ذلك عليك عَوْفُ بن محلِّمٍ . فأمره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث إذا دله على عدى . فقال عدى : أنا عدى فخلاّه . وقال الحارث فى ذلك :

لهفَ نفسى على عدىّ وقد أشعب للموت واحتوته اليدان[1]

ومنهم :

السموءل بن حيان بن عادياء اليهودى الغسانى

وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموءلَ دروعاً وأُحيحة بن الُجلاح أيضاً دروعا ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموءل فأخذ الملك ابناً له وكان خارجاً من الحصن . فصاح الملك بالسموءل فأشرف عليه فقال هذا ابنك فى يدى . وقد علمت أن امرأ القيس ابنُ عمى ومن عشيرتى وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلىَّ الدروع وإلا ذبحت ابنك . قال أجّلنى فأجّله فجمع أهل بيته ونساءه فشاورهم فكلٌّ أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه . فلما أصبح أشرف فقال ليس إلى دفع الدروع سبيلٌ فاصنع ما أنت صانعٌ . فذبح الملك ابنه ، وهو مشرف ينظر إليه . ثم انصرف الملك بالخيبة فوافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرىء القيس . وقال فى ذلك :

وفيْتُ بأَدْرُع الكِنْدىّ إنى إذا ماخانَ أقوامٌ وفيتُ

---

(١) اشعب للموت أى مات أو فارق فراقا لايرجع

وقالوا : إنه كنزٌ رَغيبٌ ولا والله أغدر مامشيت
بنى لى عاديا حصْناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت

ويروى أنه ماسامنى ضيما أبيت . وقال الأعشى فى ذلك :

شريحُ لاتتركنى بعد ماعلقت حبالك اليوم بعد القدّ أظفارى
كن كالسموءل إذ طاف الهُمامُ بهِ فى جَحْفَلٍ كسواد الليل جرّارِ (١)
خيرّه خِطَّتَىْ خَسْفٍ فقال له مهما يقله فإنى سامعٌ جارى
فشك غير طويل ثم قال له اذبح أسيركَ إنى مانعٌ جارى
إن له خلفاً إن كنتَ قاتلهُ وإن قتلت كريماً غير عوارِ

والسموءل هذا هو الذى يقول فى قصيدته الشهيرة :

إذا المرء يدنَسْ من اللؤم عرضُهُ فكلُّ رداء يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحْملْ على النفس ضَيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل (٢)
تعيرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : إنَّ الكرامَ قليلُ
وما قلّ مَنْ كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تَسامى فى العُلى وكُهُولُ (٣)
وما ضرَّنا أنا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ (٤)
لنا جبَلٌ يحتلُّه من نُجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ (٥)
رسا أصلُه تحتَ الثرى وسما به إلى النجم فرْعٌ لايُنال طويلُ (٥)

---

(١) جحفل كجعفر الجيش الكثير. (٢) أى ان لم يصبر النفس على مكارهها فلا سبيل الى اكتساب حسن الثناء وليس معنى الضيم الغير لهم لانهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللا. (٣) قوله تسامى اراد تتسامى فحذف احدى التاءين ومثل هذا كثير فى كلامهم ، قال فى الخلاصة :

وما بتاءين ابتدى قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

والكهول جمع كهل وهو الذى جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيل من بلغ الاربعين . (٤) يجوز فى ما ان تكون نافية والمعنى لم يضرنا ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير والمعنى أى شىء ضرنا .

(٥) قيل انه اراد بذكر الجبل العز والسمو وقيل ان هذا الجبل هو حصن السموال الذى يقال له الأبلق الفرد يعنى من دخل فى جوارنا امتنع على طلابه . (٦) يريد انه اثبت جبل فى الارض وأعلى طود عليها .

وانا لَقَوْمٌ ما نرى القتل سُبَّةً اذا مارأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ (١)
يقرّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ
وما ماتَ منّا سَيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قَتيلُ (٢)
تَسِيلُ على حَدّ الظُّباةِ نفوسُنا وليست على غيرِ الظُّباة تَسِيلُ (٣)
صفَوْنَا فلم نَكْدَرْ وأخلصَ سِرَّنَا إناثٌ أطابتْ حمْلَنا وفحُولُ (٤)
علَوْنا إلى خيرِ الظهور وحطَّنا لوقتٍ إلى خيرِ البُطُون نُزُولُ (٥)
فنحن كماءِ المُزْنِ مافى نِصابنا كَهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيلُ (٦)
ونُنْكرُ إن شئنا على الناس قولَهُم ولا يُنْكرون القولَ حينَ نقولُ
إذا سيّدٌ منّا خلا قامَ سيّدٌ قئُولٌ لما قال الكرامُ فعُولُ
وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ ولا ذمَّنا فى النازلين نَزيلُ (٧)
وأيامُنَا مشهورةٌ فى عدوّنا لها غررٌ معلومةٌ وحجول
وأسيافنا فى كل غَرْبٍ ومشْرقٍ بها من قِراع الدارعين فلُول (٨)
معوّدةٌ أن لاتُسَلَّ نصالها فتُغْمَدَ حتى يستباح قبيلُ (٩)
سِلِى إن جَهِلتِ الناس عنّا وعنهمُ فليْس سواءٌ عالمٌ وجهُولُ
فإنّ بنى الدّيان قُطْبٌ لقومِهم تَدُورُ رَحاهم حَوْلَهُمْ وتَجُولُ (١٠)

---

(١) السبة : العار ، وعامر وسلول قبيلتان ، يقول اذا حسب هؤلاء القتل عارا عده عشيرتى فخرا . (٢) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، ومعنى البيت انا لا نموت على الفراش ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يذهب هدرا . (٣) الظبات جمع ظبة وهى حد السيف وقيل اراد بالظبات السيوف كلها فاضاف الحد اليها . (٤) المراد بالسر هنا الاصل الجيد ومعنى ذلك صفت انسابنا فلم يشبها كدر . (٥) يشير به الى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم . (٦) قوله كماء المزن يريد بذلك تشبيه صفاء انسابهم بصفاء ماء المطر ، والنصاب الاصل ومنه نصاب السكين ، والكهام الكليل الحد وهو مجاز عن الضعيف هنا . (٧) يشير بذلك الى انهم لكثرة كرمهم يديمون ايقاد نار الضيافة ولايطفئونها دون طارق ليل وانهم يثنى عليهم كل نزيل (٨) القراع: المقارعة والمضاربة، والدارعين: اصحاب الدروع، والفلول جمع فل وهو الثلم فى حد السيف (٩) القبيل : الجماعة من آباء شتى وجمعه قبل والقبيلة الجماعة من أب واحد وجمعها قبائل .

(١٠) القطب الحديد الذى فى الطبق الاسفل من الرحى يدور عليه الطبق الاعلى منها ، والمعنى ان أمر قبيلتهم لا يستقيم ولا يتم الا بهم مثل الرحى لا يتم أمرها

ومنهم فُكَيْهَةُ بنت قتادة بن مَشْنُوء

كانت فكيهة هذه خالة طَرَفَةَ لِأَنَّ أم طَرَفَةَ وردة بنت قتادة وكان من وفائها أنَّ السُلَيْكَ بن سُلَكَة غزا بكر بن وائل فأبطأ ولم يجد غفلة يلتمسها . فرأى القوم أثر قدم على الماء لم يعرفوها فكمنوا له وأمهلوه حتى ورد وشرب فامتلأ فهاجوا به فعدا فأثقله بطنه فولج قبَّةَ فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درْعِها فجاؤا فى أثره فوجدوه تحت ثوبها فانتزعوا خمارها ، فنادت إخوتها وولدها فجاءوا عشرة فمنعتهم عنه . وكان سُلَيْك يقول بعد ذلك كأنى أجد خشونةَ استها على ظهرى حين أدخلتنى تحت درعها . وفيه قال سُلَيْك :

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباء تُنْمَى … لَنِعْمَ الجارُ أختُ بنى عوارا

عَنَيْتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامَتْ … لِنَصْلِ السيف وانتزعوا الخمارا

من الخفِرات لم تَفْضَحْ أخاها … ولم تَرْفَعْ لوالدِها شَنَارا[1]

ومنهم :

أم جميل

وهى من رَهْط أبى هُرَيْرة من دُوسٍ وهم من أهل السراة وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى قتل أبا زهير الزهْرانى من أزد شَنُوءَةَ وكان صهر أبى سفيان بن حرب . فلما بلغ ذلك قومه بالسراة وثبوا على ضِرار ابن الخطاب ليقتلوه فسعى حتى دخل بيت أم جميل وعاذَ بها فضربه رجل منهم فوقع ذُباب السيف على الباب . وقامت فى وجوههم فذبَّتْهم ونادت قومها فمنعوه لها فلما قام عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه ظنت أنه أخوه فأتتْه بالمدينة وقد عرف القصة ، فقال : إنى لست بأخيه الاَّ فى الإسلام وهو غازٍ وقد عَرَفنا مِنَّتك عليه فأعطاها على أنها ابنةُ سبيل .

---

(١) يقال خفرت الرجل حميته واجرته من طالبه ، والشنار اقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة الا بالقطب ، والديان هو يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث الأصغر

وأما كونُ العربِ أغْيَرَ من غيرهم

فلأنَّهم كانوا أشدَّ الناس حاجةً إلى حفظِ الأنساب ، ولذلك اعتَنَوْا بضبطها غايةَ الاعتناء ، لما امتنعوا عن سلطانٍ يَقْهَرُهم . ويكفُّ الأذى عنهم ليكونوا به متظافرينَ على من ناوأهم متناصرين على من شاقهم وعاداهم حتى بلغوا بألفة الأنساب تناصرهم على القوىّ . وتحكموا به حكم المتسلط المتشطط . فإن الرَحِمَ إذا تماسَّتْ تعاطَفَتْ والغيرة أساسُ ذلك ومنها ينشأ ضبطُ الأنساب وحفظها كما لا يخفى فإنها ثَوَران الغضب حمايةً على إكرام الحرم . وجعل الله سبحانه هذه القوة فى الإنسان سبباً لصيانة الماء وحفظاً للأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها . وقد وصل العرب فى الغيرة إلى أن جاوزوا الحد ، حتى كانوا يَئِدُونَ البناتِ مخافةَ لحوق العار بهم من أجلهنّ أى يدفنونهن وهن أحياء . وسيجىء تفصيل مذهبهم فيها فى الأعمال التى أبطلها الإسلام .

وأول قبيلة وَأَدت من العرب ربيعة . وذلك أنَّهم أُغير عليهم . فنهبت بنت لأمير لهم فاستردّها بعد الصلح فخيّرت رضى منها بين أبيها ومَنْ هى عنده فاختارت مَنْ هى عنده وآثرتْهُ على أبيها فغَضِب وسَنَّ لقومه الوأْدَ ففعلوه غيرةً منهم ، ومخافةَ أنْ يَقَعَ لهم بعد ذلك مثلُ ما وقع وشاع فى العرب غيرهم . ومن نخوة العرب وغيرتهم أنهم يَكْنونَ عن حرائر النساء بالبيض ، وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال سبحانه (كأنّهنَّ بيض مكنون) وقال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تمتّعْتُ عن لَهْوٍ بها غير معجل[1]

ويكنون عنهن أيضاً بالنخلة ، وعلى ذلك قول بعض العرب :

ألا يا نخلةً من ذاتِ عِرقٍ عليكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ[2]

---

(١) أى رب امرأة كبيضة الخدر فى حسنها وصيانتها لايرام سترها ؛ ومعجل اسم مفعول اعجله فهو معجل بعنى انه لعزه لايتعرضه من يغارعليها
(٢) هذا البيت من سواهد النحو يستشهد به على أن النكرة الموصوفة تنصب فنخلة نكرة موصوفه بالجار والمجرور وفيه شاهد آخر وهو تقديم المعطوف بالواو على المعطوف عليه والأصل عليك السلام ورحمة الله

سألتُ الناسَ عنكِ فخبّرونى   هنا من ذاك تكرهُهُ الكرامُ
وليس بما أحلّ اللهُ بأسٌ   إذا هو لم يُخالِطْهُ الحرامُ

فإن هذا الشاعر كنى عن المرأةِ بالنخلة وبالهناة عن الرفث . فأما الهناة فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك . وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن طريف الكناية وغريبها ، وأنشد ابن الأعرابى لرجل من بنى مُرَّة بن عوف يكنى عن امرأتين :

أيا نخلتى أول إذا كان فيكما   جنى فانظرا من تطعمان جناكما
ويا نخلتى أول إذا هبت الصبا   وأمسيت مقروراً ذكرت ذراكما

وقال وضاح اليمنى

أيا نخلتَىْ وادى بُوانةَ حبّذاَ   إذا نام حُرّاسُ النخيلِ جَناكما

وبوانة بضم الباء الموحدة من أسفل : موضع . ويكنون عنهن بالسرحة[1] قال حميد بن ثور :

أبى الله إلا أن سَرحَةَ مالك   على كل أفنان العضاه تروقُ[2]
فياطيبَ رياها ويا بردَ ظلّها   إذا حان من شمس النهار شُروقُ
فهل أنا إنْ عَلّلْتُ نفسى بسرحة   من السّرْح مسدود علىّ طريقُ
حمى ظلّها شكْسُ الخليقة طائفٌ   عليها عُرام الطائفينَ شفيقُ[3]
فلا الظل من برد الضحى تستطيعه   ولا الفَىْء من برد العشى تذوق

وقال أيضاً فى مثله

بجرم أهلوها لئن كنت مشعراً   جنونا بها يا طول هذا التجرم
ومالىَ من ذنب إليهم علمته   سوى أنى قدقلت يا سرحة اسلمى[4]

---

(١) هى الشجرة العظيمة من العضاة (٢) العضاه وزان كتاب من شجر الشوك كالطلح والعوسج واستثنى بعضهم القتاد والسدر فلم يجعله من العضاه، والهاء اصلية ، والافنان جمع فنن : الاغصان ، والسرحة : الشجرة العظيمة من العضاه (٣) قوله عرام بالضم اى سيء الخلق (٤) السرحة مر تفسيرها . والمعنى لا ذنب لى اعترف به غير اننى قلت ياسرحة اسلمى وكأن هذا الشاعر لما قال ياسرحة اسلمى علم اهل المراة انه يريد صاحبتهم فغضبوا لذلك

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمة اسلمى   ثلاث تحيات وإن لم تكلمى[1]

ويكنون عنهن بشجرة أو شاة ونعجة وجؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية وريم وما شاكل ذلك . قال المسيب بن علس :

دعا شجر الأرض داعيهم   لينصره السدر وإلا ثأب[2]

فكنى بالشجر عن النساء . وهم يقولون جاء فلان بالشوك والشجر إذا جاء بجيش عظيم . وقال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلت له   حرمت على وليتها لم تحرم

وإنما ذكر عبلة جارية أبيه فلذلك حرمها على نفسه . وكذلك قوله والشاة ممكنة لمن هو مرتم . والعرب تجعل المهاة شاة لأنها عندهم صائنة الظباء ولذلك يسمونها نعجة . وعلى هذا التعارف فى الكناية جاء قول الله تعالى فى إخباره عن خصم داود عليه السلام « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة » كنى بالنعجة عن المرأة . وروى ابن قتيبة أن رجلا[3] كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه :

قلائصنا هداك الله أنا   شغلنا عنكم زمن الحصار[4]

فما قلص وجدن معقلات   قفا سلع بمختلف النجار[5]

---

(١) نعم فاسلمى نعم يجاب به فى الاستفهام المحض ويتوصل به الى بسط الكلام وصلته كما هنا وثلاث تحيات انتصب على المصدر من فعل محذوف تقديره احيى ، والمعنى حييتها ثلاثا بقولى اسلمى ولم ترد الجواب .

(٢) الاثاب ، شجر الواحدة اثابة قال الكميت :

وغادرن المقاول فى مكز   كخشب الاثاب المتغطر سينا

(٣) هو على ما فى التاج وغيره أبو المنهال بقيلة الأكبر وكان وجهه سيدنا عمر (رض) الى احدى الغزوات بنواحى فارس وكان ترك عياله بالمدينة فبلغه أن رجلا من بنى سلم اسمه جعدة يختلف الى النساء الغائبات أزواجهن فكتب الى سيدنا عمر (رض) يشكو منه (٤) قلائصنا منصوب بالاضمار أى احفظ قلائصنا وهى فى الأصل جمع قلوص الناقة الشابة واراد بها النساء (٥) قوله معقلات يعنى نساء معقلات لأزواجهن كما تعقل — اى تشد — النوق للضراب، وسلع جبل فى المدينة وجبل لهذيل وحصن بوادى موسى من عمل الشوبك بقرب بيت المقدس ، ونجار ككتاب موضع عن العمرانى ، وكغراب موضع ببلاد تميم وقيل من مياههم وماء بالقرب من صفينة حذاء جبل الستار فى ديار سليم عن نصر

يعقلهن جعد شيظمى وبئس معقل الذود الظوار[1]

قال فإنما كنى بالقلص وهى النوق الشواب عن النساء ففهم عمر ما أراده وجلد جعدة ونفاه . ومن نخوة العرب وغيرتهم أنه كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال . ثم العضاريط[2] والرعاء ثمّ النساء إذا صدرت كل فرقة عنه فكنّ يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل . وإلى ذلك أشارت كبشة[3] أخت عمرو بن معدى كرب • بقولها من أبيات :

ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وقد تستعمل الغيرة فى صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانته فى السياسات الثلاث التى هى سياسة الرجل نفسه . وسياسة أهله ومنزله . وسياسة مدينته

---

(١) الجعد الكريم من الرجال ، والشظمى : الفتى الجسيم ، والظؤار جمع ظئر بالكسر الناقة العاطفة على ولد غيرها المرضعة له ، والذود : ثلاثة ابعرة الى التسعة وقيل الى العشرة او العشرين وفويق ذلك وقيل غير ذلك ويروى بدل جعد

شيظمى او جعدة من سليم معيدا يبتغى سقط العذارى

اراد انه يتعرض لهن فكنى بالعقل عن الجماع اى ان ازواجهن يعقلونهن وهو يعقلهن ايضا كان البدء للازواج والاعادة له (٢) جمع عضروط وهو الخادم على طعام بطنه والأجير (٣) كانت كبشة من النساء الشاعرات المتوسطات فى الشعر وكانت متزوجة فى بنى الحرث بن كعب وكان عبد الله اخاها لأبيها وامها دون عمرو وهذا البيت من أبيات لها وهى :

ارسل عبد الله اذ حان يومه الى قومه لاتعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم افالا وابكرا واترك فى بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمرا انعمرا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان انتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم

ولا تردوا الخ

والسبب فى هذا الشعر ان عبد الله بن معد يكرب مر براع المحزم بن سلمة من بنى مالك بن مازن ابن زبيد فاستقاه لبنا فأبى واعتل عليه فشتمه فقتله عبد الله فثارت بنو مازن بعبد الله فقتلوه وجاءوا الى عمرو فقالوا ان اخاك قتله رجل منا سفيه ونحن يدك وعضدك فنسألك الرحم الا اخذت الدية ما احببت وهم عمرو بذلك فغضبت كبشة وقالت هذه الأبيات وذكر علماء الأدب ايضا غير ذلك فى سبب هذا الشعر وقولها اذا ارتملت يقال ترمل وارتمل اذا تلطخ بالدم وجعلت النساء متلطخات بدم الحيض تفظيعا للامر وكان من عادتهم اذا وردوا المياه أن تتأخر النساء حتى تصدر كل فرقة عنه الى آخر ما بين فى الأصل ومعنى هذا الكلام انه لا شرف لكم بعد اخذكم الدية

وضيعته . ولذلك قيـل ليست الغيرة ذبه عن كل ضعيف وتسمى كراهة النعمة عند من لا يستحقها غيرة . والغيرة وإن كانت قوة إنسانية يجب وجودها فى كل جيل قد كثرت فى العرب حتى إن من دخل دار أحدهم والتجأ إلى فنائه عدوا فعله حرمة وجواراً وذماراً بل إن تعلق ذلك بالوحشيات والهوام . حتى إنهم كانوا يسمون بذلك مجير الجراد ومجير الغزال ومجير الذئب ونحو ذلك . وفى الأمثال « أحمى من مجير الجراد » قالوا هو مدلج بن سويد الطائى . ومن حديثه فيم ذكر ابن الأعرابى عن ابن الـكلبى أنه حلا ذات يوم فى خيمته فإذا هو بقوم من طىّء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضنّ له أحد منكم إلا قتلته ، إنـكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار فقال شأنكم الآن . وقد تحول عن جوارى ، ويقال : إن المجير كان حارثة ابن مر أبا حنبل . وفيه يقول شاعر طىّء :

ومنا ابن مر أبو حنبـــل   أجار من الناس رجل الجراد
وزيدٌ لنـــا ولنـــا حاتم   غياث الورى فى السنين الشداد

وفى الأمثال أيضاً أحمى من مُجير الظُّعْن وهو ربيعة بن مكدَّم الـكنانىّ ومن حديثه فيما ذكر أبو عبيدة أن نُبَيْشَةَ بن حبيب السلمىّ خرج غازيا فلقى ظعناً من كنانة بالـكديد فأراد أن يَحْتَوِيَها فمـانعه ربيعة بن مكدَّم فى فوارس . وكان غلاماً له ذوابة فشد عليه نبيشه فطعنه فى عضُده فأتى ربيعة أمه فقال :

شدّى على العصْب أمَّ سيارْ   فقد رزئْتِ فارساً كالدينار

فقالت له أمه

إنا بنى ربيـــعة بن مالك   مرزءوا خيـــارنا كذلك
من بين مقتولٍ وبين هالك

ثم عصبته فاستسقاها ماءً فقالت : اذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك فرجع

وكرّ على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن وقال إنى هالك لما بى وسأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً بأن أقف بفرسى على العقبة وأتكئ على رمحى فإن فاضت نفسى كان الرمح عمادى فالنجاء النجاء فإنى أردّ بذلك وجوه القوم ساعةً من النهار فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه ونزفه الدم ففاض أى مات، والقوم بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه . فلما طال وقوفه فى مكانه ورأوه لا يزول عنه رموا فرسه فقمص وخرّ ربيعة لوجهه فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن ، ثم إن حفصَ بنَ الأخيف الكنانى[1] مرّ بجيفة ربيعة فعرفها فأمال عليها أحجاراً من الحرة ، وقال يبكيه :

لا يبعدنّ ربيعةُ بنُ مُكدَّمٍ ... وسقَى الغَوَادِى قبرَهُ بذَنوبِ[2]

نفرَتْ قَلوصى من حجارةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَيْنِ وَهُوبِ[3]

لا تنفرِى يا ناقُ منه فإنَّه ... شِرِّيبُ خمْرٍ مِسْعَرٌ لحُروبِ[4]

لولا السفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لتركْتُها تحبو على العرْقوبِ[5]

قال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء : مانعلم قتيلا حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدم . وقصة مجير أم عامر شهيرة إلى غير ذلك مما يطول ذكره . ويسمى الغضب المقتضى للغيرة الحفيظة فقالوا احفظنى فلان أى أغضبنى الغضب الذى أثار منى قوة الحفظ .

---

(١) قال محمد بن سلام : الصحيح ان هذه الأبيات لعمرو بن شقيق احد بنى فهر بن مالك ومن الناس من يرويها لكرز بن حفص بن الأخيف العامرى وعمرو بن شقيق أولى بها وهذا الشعر قيل فى قتل ربيعة بن مكدم الكنانى احد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمى فى يوم الكديد (٢) الغوادى جمع غادية وهى سحابة الصباح ، والذنوب : الدلو العظيمة استعير هنا للغيث يتفجع على ربيعة ويدعو له بالرحمة والرضوان (٣) نفرت : فزعت ، والقلوص من النوق الشابة ، وقوله من حجارة حرة المراد بها قبر ربيعة والحرة ارض ذات حجارة سود (٤) مسعر على وزن مفعل آلة فى ايقاد الحرب (٥) السفار : السفر ، والخرق: الأرض الواسعة ، والمهمه : المفازة البعيدة الأطراف ، والحبو : المشى على اليدين والبطن ، وعرقوب الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها ، والمعنى لولا انى محتاج اليها فى السفر لطوله لنحرتها عند قبره لتأكلها الناس كما كانت عادتهم اذا اجتازوا بقبر كريم

والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم ألسنة وأوفرهم أفهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة فإن العقل المشرق فى الإنسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة والذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخبر وإصابة الظن والفراسة[١] والزكانة[٢] والكهانة[٣] والعرافة[٤] والإلهام ودقة النظر والرأى والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة وسائر الأخلاق المحمودة والأعمال الممدوحة ، ولكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبى ، ولاهم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة ، كالطب والحساب ونحوهما إنما علمهم ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، أو ماحفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو مااحتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء[٥] والنجوم ، أو من الحروب ونحو ذلك مما سيجىء تفصيله عند الكلام على علومهم إن شاء الله تعالى . فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى الذى جعله علماً فى الأرض ولا يجعل أجلّ منه وأعظم قدراً وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ومعالجتهم عن نقلهم عن تلك العادات الجاهلية . والظلمات الكفرية التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الرين واستنارت بهدايته فأخذوا هذا الهدى العظيم . لتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزله الله إليهم ، فهم بمنزلة أرض جيّدة فى نفسها لكنها معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجرة العضاه

---

(١) الاستدلال بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه وفضائله ورذائله (٢) هى أن تزكن شيئا بالظن فتصيب (٣) الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها قيل هى ادعاء علم الغيب كالاخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد الى سبب (٤) قسيمة للكهانة عند كثير من العلماء وقال بعضهم الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة والعرافة بالأمور الماضية (٥) جمع نؤ وهو النجم اذا مال للغروب او سقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق

والعوسج ، وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طهرت عن المؤذى من الشجر والدواب وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضلَ خلق الله تعالى بعد الأنبياء وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان من العرب والعجم بمقتضى الشريعة الغراء ، وورد فيها أيضاً أن قريشاً أفضلُ العرب ، وأن بنى هاشم أفضل من قريش وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل بنى هاشم ، فهو أفضل الخلق نفساً وأعلاهم نسباً وليس فضل العرب ثم قريش بنى هاشم ، لمجرد كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وإن كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضل . وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور[1] .

* * *

مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس فى شأن العرب

ذكر كثير من المؤرخين ، ومنهم ابن عبد ربه فى تاريخه ما رواه ابن القطامى عن الكلبى ، قال قَدِمَ النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم ما ذكروا . فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم . ولم يستثن فارسَ ولا غيرها . فقال كسرى وأخذته عزة الملك : يانعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت فى حال من يقدم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها ديناً يبيّن حلالَها وحرامَها ويرد سفيهها ويقيم جاهِلَها .

---

(١) توقف الشيء على نفسه

ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابهـا وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملـكا يجمعها . والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة . ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وإن قَرَى أحدهم ضيفاً عدها مَكْرُمَةً . وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تَنْطِق بذلك أشمارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخيةَ التى أسس جدى اجتماعها وشد مملـكتها ومنعها من عدوها . فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا . وأن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تُشْبِه بعض أمور الناس يعنى اليمن ، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان

أصلح الله الملك حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها إلا أن عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تـكذيب له فإن أمننى من غضبه نطقت به ، قال كسرى : قل فأنت آمن . قال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبُحْبُوحَةِ عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى : بماذا ؟ قال

النعمان : بعزها وَمَنَعِتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها « فأما عزها ومَنَعَتُها » فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور « وأما حسن وجوهها وألوانها » فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . « وأما أنسابها وأحسابها » فليست أمة من الأمم إلا وقد جَهِلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وزاء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحَفِظوا به أنسابهم . فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه « وأما سخاؤها » فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله وشبعه وريّه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفِلْذة[1] ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر . «وأما حكمة ألسنتهم» فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجَزْعُ[2] ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر . « وأما دينها وشريعتها » فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرُماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . « وأما وفاؤها » فإن أحدهم

(١) القطعة من الشىء والجمع فلذ مثل سدرة وسدر (٢) خرز فيه بياض وسواد الواحدة جزعة مثل تمر وتمرة .

يلحظ اللحظة ويومىء الإيماء ، فهى وَلْث[1] وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يُغْلَق[2] رهنه ولا تُخفر ذمته[3] وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره ، وأنه لَيَلْجَأُ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله . وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج . وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحومُ الأبل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلةً ، وأحلاها مضغةً ، وإنه لا شىء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه « وأما تحاربهم » وأكلُ بعضهم بعضاً وتركُهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون فى المملكة العظمية أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف[4] بالعسف وأما اليمن التى وصفها الملك فلما أتى جدُّ الملك إليها الذى أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا قد تقاصر عن إيوائه ، وصغر فى عينه ما شيد من بنائه ولولا

---

(١) العهد بين القوم وقيل العهد المحكم ، وقيل الشىء اليسير من العهد وفى حديث ابن سيرين : أنه كان يكره شراء سبى (زابل) — بلد بالسند — وقال ان عثمان ولث لهم ولثا اى أعطاهم شيئا من العهد ، وقال الجوهرى الولث العهد بين القوم يقع من غير قصد ويكون غير مؤكد يقال ولث له عقدا (٢) غلق الرهن غلقا من باب تعب استحقه المرتهن فترك فكاكه وفى حديث « لايغلق الرهن بما فيه » أى لايستحقه المرتهن بالدين الذى هو مرهون به (٣) يقال خفرت بالرجل أخفر من باب ضرب غدرت به (٤) اى استحصال المال منهم بالجبر والظلم يقال سحابة وطفاء اى مسترخية الجوانب بكثرة مائها

ماوتر[1] به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولو جد من يجيد الطعان ، ويغضب للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار . قال فعجب كسرى لما أجابه النعمان به . وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم . بعث إلى أكثم ابن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميين . وإلى الحارث بن ظالم . وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحارث ابن ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غوراً ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا[2] كبعض طماطمته[3] فى تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه . فقالوا : أيها الملك وفقك الله ماأحسن مارددت وأبلغ ما حججته به فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت . قال : إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحب إلىّ مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وَتَنْطَلِقُوا إلى كِسْرى فإذا دخلتم نَطَقَ كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ماظن أو حدثته نفسه . ولا يَنْطِقْ رجل منكم بما يُغْضِبُه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنىّ حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم على

---

(١) اخذ ثاره والترة كذلك (٢) اى عبيدا (٣) جمع طمطم بالكسر الذى فى لسانه عجمة لايفصح

بجميل كل رجل منكم على التقدّم قبل صاحبه فلا يكونن ذلك منكم فيجد فى آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط . ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلل الملوك كل رجل منهم حُلّة وعممه عمامة وختمه بياقوتة وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة وكتب معهم كتابا : « أما بعد فإن الملك ألقى إلىّ من أمر العرب ماقد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علمٍ ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها وحمت مايليها بفضل قوتها تبلغها فى شىء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم فليسمع الملك وليغامض عن جفاء إن ظهر من منطقهم وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم » ، فخرج القوم فى أهبتهم حتي وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته[1] ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام. فقام أكثم بن صيفى فقال :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطىء ،

---

(١) جمع مرزبان بضم الزاى وهو رئيس الفرس تكلموا به قديما ، كذا فى شفاء الغليل وفى لسان العرب : وأما المرازبة من الفرس فمعرب ، وقال ابن برى حكى عن الأصمعى أنه يقال للرئيس من العجم مرزبان ومرزبران بالراء والزاى وأنشد فى المعجم لبعض الشعراء :

الدار داران ايوان وغمدان ... والملك ملكان ساسان وقحطان
والأرض فارس والاقليم بابل وال ... اسلام مكة والدنيا خراسان

الى أن قال :

قد رتب الناس جم فى مراتبهم ... فمرزبان وبطريق وطاخان

آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة ، أفضل الأولاد البررة . خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر حَسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حَسْبكَ من شر سماعه[1] ، الصمت حكم ، وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز ، من شدد نفّر ، ومن تراخى تألف . فتعجب كسرى من أكثم . ثم قال : ويحك يا أكثمُ ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه . قال أكثم : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم : رُبَّ قول ، أنفذ من صَوْل[2] .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال : وَرى زندك ، وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إنَّ العرَبَ أمة قد غلظت أكبادُها ، واستحصدت مِرَّتها ،[3] ومنعت درّتها ، وهى لك وامقة[4] ما تألفتها ، مسترسلة ما لا ينتها ، سامعة ما سامحتها ، وهى العلقم مرارةً ، وهو الصاب[5] غضاضةً ، والعسل حلاوةً ، والماء الزلال سلاسةً . نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك ، ذمّتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إنْ نؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا ، وإن نذم لم نخص بالذم دونها . قال كسرى : يا حاجب ما أشبهَ حجرَ التلال بألوان صخرها . قال حاجب : بل زئير الأسد بصولتها . قال كسرى : وذلك .

(١) أى اكتف من الشر بسماعه ولا تعاينه ويجوز ان يريد يكفيك سماع الشر وان لم تقدم عليه ولم تنسب اليه مثل قالته فاطمة بنت الخرشب الانمارية أم الربيع بن زياد العبسى لما اراد قيس بن زهير اخذها براحلتها ليرتهنها بالدرع التى كان ابنها أخذها منه ، يضرب عند العار والمقالة السيئة ويخاف منها كما فى فرائد اللآل (٢) ويروى رب قول أشد من صول ، الصول : الحملة والوثبة عند الخصومة والحرب — يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به وقد يضرب فى ما يتبقى منه ، وأشد نعت قول كما فى الفرائد للاحدب .
(٣) المرة بالكسرة القوة والشدة ، واستحصدت : استحكمت
(٤) أى محبة (٥) شجر مر

ثم قام الحارث بن عباد البكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشاؤه[١] كثر مَتْحُهُ ، ومن ذهب ماله قل منْحه[٢] تناقل الأقاويل يعرف اللب . وهذا مقام سيوجف[٣] بما تنطق به الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمَّة ، وجيوشنا فخمة . إنْ استنجدتنا فغير رُبض[٤] وإنْ استطرقتنا فغير جُهْض[٥] ، وإن طلبتنا فغير غُمْض لا ننثنى لذُعْر ، ولا نتنكر لِدَهْر ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار ، قال كسرى : أنفُس عزيزة والله ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك وأنَّى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة . قال كسرى : لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قدما وأحبسها ، وهى تصرف بها حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض ضحضاحها[٦] . حتى أنغمس فى غَمَرات لججها ، وأكونَ فلكا لفرسانى إلى بحْبوحة كبشها[٧] . فاستمطرها دما وأترك حماتها جزر السباع وكل نَسْرٍ قشْعم[٨] . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله انطلق من لسانه . قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفداً أحشد ، ولا شهوداً أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إنّ عاقبة الكلام متدبرة . وإشكالَ الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلْغة[٩] . وفى الملوك سوْرَةُ العز ، وهذا منطِقٌ له ما بعده ، شرف فيه

---

(١) الرشاء : الحبل والجمع ارشية مثل كساء واكسيه ، والمتح : الاستقاء
(٢) المنح العطاء (٣) وجف يجف وجيفا : اضطرب (٤) رجل ربض عن الحاجات والاسفار بوزن جنب لاينهض فيها (٥) اى فغير مانعين
(٦) الضحضاح من الماء الذى يظهر منه القمر (٧) بحبوحة المكان : وسطه
(٨) قشعم كجعفر المسن من الرجال والنسور (٩) مايتبلغ به من العيش

من شرف ، وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرِفْدِك[١] إن فى أموالنا منتقداً ، وعلى عزنا معتمداً ، إنْ أَوْرَيْنا ناراً أثقبنا ، وإنْ أَرْوَدَ[٢] دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر . قال كسرى : ما يقوم قصد منطقك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك ، قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر إفراطى مخبراً ، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلسْ .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال : أحضرَ الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ، إن لكل منطقٍ فرصةً ، ولكل حاجةٍ غصةً : وعىّ المنطق أشدُّ من عىّ السكوت . وعثار القول أنكأ من عثار الوعث[٣] وما فرصة المنطق عندنا إلاّ بما نهوى ، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعنى أننى له مطيق أحبُّ إلىَّ من تكلفى ما أتخوف ويتخوف منى . وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونِعْمَ حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة[٤] . ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة . . قال له كسرى : نطقت بعقل ، وسمرت بفضل . وعلوت بنُبْل .

ثم قام علْقمة بن علاثة العامرى فقال : نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ، إنَّ للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه ، إنّا وإن كانت المحبة أحضرتنا . والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك . بل لو قست كل رجل منهم وعلمت

---

(١) الرفد : العطاء (٢) اى رفق والا رواد الامهال وفى المثل : الدهر ارود مستبد اى لين المعاملة غالب على أمره (٣) المكان السهل الدهس تغيب فيه الاقدام والطريق العسر ووعث الطريق كسمع وكرم تعسر سلوكه واوعث وقع فى الوعث واسرف فى المال . (٤) يقال بخع نفسه بخعا من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ وبخع لى بالحق بخوعا انقاد وبذله .

منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنيا أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحْمى حماه ، ويروى ندماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره ، أيها الملك من يبل العرب يعرف فضلهم فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواخر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عدداً ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزّوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك ، قال كسْرَى وَخشِيَ أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه : حَسْبُكَ ، أبلغت وأحْسنْت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال : أطاب الله بك المراشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه الشصائب[1] ما أحقنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يحنق صدرك ، ولا يزرع لنا حقْداً فى قلبك ، لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غيرُ محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، إنْ جورينا فغير مسبوقين ، وإنْ سومينا فغير مغلوبين : قال كسرى : غيرَ أنكم إذا عاهدتم فغير وافين ، وهو يعرض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد ، قال قيس : أيها الملك ما كنت فى ذلك إلا كوافٍ غدر به أو كخافر أخفر بذمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة . قال قيس : أيها الملك ما أنا فيما أحفر من ذمتى أحق بإلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك ، قال كسرى : ذلك من ائتمن الخانة ، واستنجد الأثمة . ناله من الخطأ ما نالنى ، وليس كل الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زُرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفى ويعد فينجز . قال : وما أحقّه بذلك وما رأيته إلا لى . قال كسرى : القوم بزل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال . كثر فنون المنطق وليس القول أعمى من حِنْدِس الظلماء ، وإنما الفخر فى الفعال ، والعجز فى النجدة ، والسؤدد مطاوعة

---

(١) أى الشدائد .

القدرة ، وما أعلَمَكَ بقدرنا ، وأبصَرَكَ بفضلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابتِ الأحلام ، أن تحدث لنا أموراً لها أعلام . قال كسرى : وما تلك الأحلام ؟ قال مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر ، قال كسرى : وما الأمر الذى يذكر ؟ قال : مالى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر . قال كسرى : متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن . قال كسرى : فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ماهيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى وما أذهب عينى فى عبث ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال : إنما المرء بأَصْغَرَيْه قلبِهِ ولسانِهِ ، (١) فبلاغ المنطق الصواب ، ومِلاك النجدة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة ، خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ(٢) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك(٣) وألِنْ لنا كَنَفَكَ (٤) يسلس لنا قِيادنا (٥) ، فإنا أناس لم يوقس صَفاتنا قراع مناقير مَنْ أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا مَن كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال : إنّ من آفة المنطق الكذب ، ومن

---

(١) هما القلب واللسان اصغر حجمهما وقيل سميا بذلك لانهما اكبر مافى الانسان معنى وفضلا من باب التصغير للتعظيم كانه قيل المرء يقوم معانيه بهما او يكمل بهما ، قاله شقة بن ضمرة حين قال له النعمان بن المنذر : لان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه ، فقال ابيت اللعن ان الرجال ليسوا بجزر تراد منها الاجسام وانما المرء باصغريه قلبه ولسانه ان قال قال بلسان وان قاتل قاتل بجنان ، فلما راى المنذر عقله وبيانه سماه باسم ابيه ضمرة فقيل ضمرة بن ضمرة . (٢) الجبذ والاجتباذ : الجذب . (٣) يقال كظم غيظه يكظمه كظما : اجترعه كما فى الصحاح وقيل رده وحبسه واحتمل سببه وصبر عليه وهو مجاز ماخوذ من كظم البعير الجرة ومنه قوله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » والبادرة : ما يبدر من حدتك فى الغضب بلغت الغاية فى الاسراع من قول او فعل وبادرة الشر ما يبدرك منه يقال اخشى عليك بادرته وبدرت منه بوادر غضب اى خطأ وسقطات عندما احتد وقال النابغة :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

(٤) الكنف بفتحتين : الجانب . (٥) يقال فلان سلس القياد وصعبه وهو على المثل اى يتابعك على هواك كما فى الاساس ، وفى حديث على (رض) : فمن اللهج باللذة السلس القياد .

لؤم الأخلاق المَلَق ، ومن حطل الرأى خفة الملك السلط ، فإنْ أعلمناك أنّ مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادَنا لك عن تصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وأحكام وَلَث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل . ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل . قال كسرى : من أنت ؟ قال الحارث بن ظالم . قال : إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر . قال الحارث : إن فى الحق مغضبة ، والسرو التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك ، قال كسرى : هذا فتى القوم . ثم قال كسرى : قد فهمتُ ما نَطَقَت به خطباؤكم : وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا إنى أعلم أن الأدب لم يثقف أَوَدَكم[1] ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطِقُون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به ، وإنى لأكره أن أُجْبِهَ وفودى أو أحنقَ صدورَهم ، والذى أحب من إصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم ، وقد قبِلت فيما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم ، وأقيموا أَوَدَهُم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاحَ العامّة .

كلام لابن المقفع فى فضل العرب

روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخدمى عن شبيب بن شبة قال : كنا وقوفا بالمِرْبد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا[2] به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ، ثم قال : لو مِلْتُم إلى نيروز

---

(١) يقال ثقفته بالتشديد أى اقمت المعوج منه ، والاود الاعوجاج .

(٢) قال يعقوب يقال لقيته فتهشبش بى واصلها تبشش بى فابدلوا من الشين الوسطى باء كما قالوا تجفف .

وظلها الظليل ، وسُورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيدَ الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلْنا وملنا فلما استقربنا المكان ، قال لنا أىّ الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا : فارس فقال ليسوا
فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا : فارس . فقال ليسوا
بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدءوا باقى حكم فى نفوسهم . قلنا : فالروم . قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين . قال : أصحاب طرفة . قلنا : فالهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان . قال : شر خلق الله . قلنا الترك . قال : كلاب مختلسة . قلنا : الخزر . قال : بقر سائمة قلنا : فقل . قال : العرب . قال فضحكنا قال : أما إنى ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة . إنّ العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدَّبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه « إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان ، أكبت للجنان .

مذهب الشعوبية في العرب وابطاله

الشعوبية فرقة من الناس ذهبوا إلى تصغير شأن العرب . وإنهم لايرون لهم

فضلا على غيرهم من سُمُّوا بذلك لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل . فقد قال جمع من المفسرين فى قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل) : إن القبائل للعرب ، والشعوب للعجم ، ومن الناس من قد يفضل بعضَ أنواع العجم على العرب ، ومنهم أبو عبيدة وكان يرى رأى الخوارج وقد ألف كتابا فى مثالب العرب وابن غَرَسية وله رسالة فصيحة فى تفضيل العجم على العرب وقد رد عليه علماء الأندلس بعدة رسائل . قال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى : كتاب مثالب العرب أصله لزياد بن أبيه فإنه لما ادعى أبا سفيان أباً علم أن العرب لاتقر له بذلك مع علمهم بنسبه فعمل كتاب المثالب . وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبهت . ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى وكان دعياً فأراد أن يعر أهل الشرف تشفياً منهم ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه لأن أصله كان يهوديا ، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر فانتمى إلى ولاء تيم ، ثم نشأ غليلان الشعوبى الوراق وكان زنديقاً ثنوياً لايشك فيه فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب إليهم كل كذب وزور ووضع عليهم كل إفك وبهتان ووصله عليه طاهر بثلاثين ألفا . وأما كتاب المثالب والمناقب الذى بأيدى الناس اليوم فإنما هو للنضر ابن شميل الحميرى ، وخالد بن سلمة المخزومى ، وكانا أنسب أهل زمانهما أمرهما هشام بن عبد الملك أن يبينا مثالب العرب ومناقبها ، وقال لهما ولمن انضم إليهما : دعوا قريشاً بما لها وما عليها فليس لقرشى فى ذلك الكتاب ذكر انتهى وكثير من الأعاجم يرى هذا الرأى ، روى عن بديع الزمان الهمذانى أنه قال : كنت عند الصاحب كافى الكفاة أبى القاسم إسمعيل بن عباد يوما وقد دخل عليه شاعر من شعراء العجم ، فأنشده قصيدةً يفضل فيها قومه على العرب ويذمهم وهى :

غنينا بالطبولِ عن الطُلول وعن عنس عذافرة ذمولِ (١)
وأذهلنى عقـارٌ عن عقارٍ فنى است أم القضاة مع العدولِ
فلست بتـاركٍ إيوانَ كِسْرى لتوضح أو لِحَوْملَ فالدَّخُولِ (٢)
وضبٍّ بالفلا ساعٍ وذئبٍ بها يَعْوى وليثٍ وسطَ غيل (٣)
يسلّون السيوفَ لرأس ضبٍّ حِراشاً بالغَداةِ وبالأَصيل (٤)
إذا ذَبَحُوا فذلك يومُ عيـدٍ وإن نَحَروا فنى عرسٍ جليل
أما لو لم يكن للفرس إلا نجارُ الصاحبِ القَرْمِ النبيلِ (٥)
لـكان لهم بذلك خـــير فخر وجيلُهُم بذلك خـير جيل

فلما وصل إلى هذا الموضع من إنشاده قال له الصاحب : فذاكَ . ثم اشرأبَّ (٦) ينظر إلى الزوايا وأهل المجلس وكنت جالساً فى زاوية من البَهْو (٧) فلم يرَنى فقال : ابن أبى الفضل . فقمت وقَبَّلت الأرض وقلت : أمركَ . وقال : أجب عن ثلاثتك قلت : وما هى ؟ قال : أدبك ونسبك ومذهبك . فقلت : لا فسحة للقول ولا راحةَ للطبع إلا السرد كما تسمع . ثم أنشدت أقول :

أراكَ على شفا خطَر مهول بما أودعت لفظك من فضولِ
تريد على مكارمنا دليلاً متى احتاج النهار إلى دليل ؟
ألسنا الضاربينَ جِزى عليكم وإن الجزى أولى بالذّليلِ
متى قرع المنابرَ فارسىٌّ متى عَرَف الأَغَرَّ من الحجولِ

(١) العذافر كعلابط الاسد والعظيم الشديد من الابل ، والذمول الناقة التى تذمل فى سيرها والذميل السير اللين ماكان او فوق العنق .
(٢) يشير بهذا الى ما قاله امرؤ القيس فى معلقته وهو :
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
وكل هذه أسماء مواضع . (٣) الفلا جمع فلاة وهى القفر ، والغيل : موضع الاسد . (٤) حرش الضب : صاده ، والاصيل : العشى .
(٥) النجار بالكسر الاصل ، والقرم : السيد . (٦) يقال اشراب اليه مد عنقه لينظر أو ارتفع الاسم الشرأبيبة كالطمانينة . (٧) البهو البيت المقدم أمام البيوت .

متى عَرَفتْ ـ وأنت بها زعيم ـ أَكفُّ الفُرس أعراف الخيول
فخرتَ بملْء ما ضِغْنَتَيْكَ هُجْراً على قَحْطَانَ والبيت الأصيلِ[١]
وتفخر أَنَّ مأكولاً ولبساً وذلك فخرُ ربّاتِ الحجولِ
ففاخرهن فى خدٍّ أسيل وفرع فى مفارقها رَسيلِ
وأمجدُ من أبيك إذا تزيّا عُراةٌ كالليوثِ على الخيولِ

قال : فلما أتممت إنشادى التفت إليه الصاحب وقال له : كيف رأيت ، قال لو سمعت به ما صدقت . قال : فإذاً جائزتك جوازك إن رأيتك بعد هذا ضربت عنقك . ثم قال : لا أدرى أحداً يفضل العجم إلا وفيه عرق من المجوسية ينْزِع إليه .[٢] والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاقٍ إما فى الاعتقاد وإما فى العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك ، ولهذا جاء فى الحديث « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق » ، مع أن الكلام فى هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى النفس من الطرفين ، وهذا فى الشريعة محرم فى جميع المسائل ، فإن الله تعالى قد أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأمرهم بإصلاح ذات البين : وفى الحديث : مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى . وفى حديثٍ آخر : لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد اللهِ إخواناً كما أمركم الله تعالى . وإنى لا أعجب من غير المسلمين إذا نازع فى هذه المسألة ، وإنما العجب ممن يلتزم أَمر الشريعة ويخالف فيما سمعت من فضل العرب مع ما ورد من النصوص الصريحة فى ذلك . فقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن العباس رضى الله تعالى عنه ، قال : بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعض ما يقول الناس ، قال فصعد المنبر فقال :

---

(١) الماضغان اصول اللحيين عند منبت الأضراس ، والهجر بالضم القبيح من الكلام . (٢) أى يميل اليه .

من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنّ الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً . . فأخبر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما انقسم الخلق فريقين إلا كان هو فى خير الفريقين . وقوله فى الحديث خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة يحتمل شيئين . أحدهما : أن الخلق هم الثقلان أى الجن والإنس أو هم جميع ما خلق فى الأرض وبنو آدم خيرهم . وإن قيل بعموم الخلق حتى تدخل فيه الملائكة ففيه تفضيل جنس بنى آدم على جنس الملائكة وله وجه صحيح ، ثم جعل بنى آدم فرقتين وهما العرب والعجم ، ثم جعل العرب قبائل ، فكانت قريشٌ أفضل قبائل العرب ، ثم جعل قريشاً بيوتاً ، فكانت بنو هاشم أفضل البيوت . ويحتمل أنه أراد بالخلق بنى آدم ، فكان فى خيرهم — أى فى ولد إبراهيم أو فى العرب — ثم جعل بنى إبراهيم فرقتين ، بنى إسماعيل ، وبنى إسحاق ، وجعل العرب عدنان وقحطان ، فجعلنى فى بنى إسماعيل فى بنى عدنان ، ثم جعل بنى إسماعيل وبنى عدنان قبائل ، فجعلنى فى خيرهم قبيلة وهم قريش . وعلى كل تقدير فالحديث صريح بتفضيل العرب على غيرهم ، ولهذا وردت أخبار صحيحة فى محبتهم والاعتناء بشأنهم منها : أن حب العرب إيمان وبغضهم كفر . من أحب العرب فقد أحبنى ، ومن أبغض العرب فقد أبغضنى . ومنها : من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى . وذلك لأن الغش للنوع لا يكون مع محبتهم بل لا يكون إلا مع استخفاف أو بغض . ومنها : أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة عربى . وروى الترمذى عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه أنه قال : فضلتمونا يامعشر العرب باثنتين لا نؤمكم ولا ننكح نساءكم . وهذا مما احتج به أكثر الفقهاء الذين جعلوا العربية من الكفاءة بالنسبة إلى العجمى ، واحتج

به أحمد فى إحدى الروايتين على أن الكفاءة ليست حقاً لواحد معين بل هى من الحقوق المطلقة فى النكاح حتى إنه يفرق بينهما عند عدمها . واحتج أصحاب الشافعى بهذا على أن الشرف مما يوجب التقديم فى الصلاة . وذكر أبو محمد حرب ابن إسماعيل الكرمانىّ صاحبُ الإمام أحمد فى وصفه للسنة التى قال فيها هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق . وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم . وكان من قولهم : إن الإيمان قولٌ وعملٌ ونية وساق كلاماً طويلا إلى أن قال : ونعرف للعرب حقَّها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حبُّ العرب إيمان وبغضهم نفاق ، ولا نقول بقول الشعوبية وأرذال الموالى الذين لا يحبون العرب ولا يقرون بفضلهم ، فإن قولهم بدعة وضلال ، عند ذوى الفضل والكمال . انتهى . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وللحافظ العراقى رسالةٌ فى ذلك سماها (القُرب فى محبة العرب) . وكذا لغيره من العلماء المتقدمين :

* * *

شبه الشعوبية وإبطالها

قالت الشعوبية : إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية وإن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجلٍ واحد ، واحتججنا بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من سواهم . وقوله فى حجة الوداع وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم نبوته : أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،

ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . وهـذا القول من النبى عليه الصلاة والسلام موافق لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم إلاّ فخراً وقلتم لا تساوينا العجم وإن تقدمتنا إلى الإسلام ثم صلت حتى تصير كالحنىّ وصامت حتى تصير كالأوتار . ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم إذ أبيتم إلاّ خلافه وإنما نجيبكم إلى ذلك لإتباع حديثه وما أمر به صلى الله تعالى عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ونقول : أخبرونا إن قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة ؟ فإن زعمتم أنه ملك ، قالت لكم : وإن لنا ملوكَ الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان عليه الصلاة والسلام الذى سخرت له الإنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا ؟ أم هل كان لأحد مثل ملك الإسكندر الذى ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى رَدْماً[1] من حديد ساوى به بين الصَّدَفْين[2] وسجن وراءه خلقاً من الناس تربو على خلق الأرض كلها كثرة ؟ يقول الله عز وجل : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون)[3] ، فليس شيء على كثرة عددهم من هذا وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ولو لم يكن إلا منارة إسكندرية التى أسسها فى قمر البحر وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجتها . وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحـدهم إلى عمر بن عبد العزيز من ملك الأمـلاك الذى هو ابن ألف ملك ، والذى تحته بنت ألف ملك ، والذى فى مربطه ألف فيل ، والذى له نهران ينبتان العود والفُوَّة والجوز والكافور الذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميـلا ، إلى

---

(١) هوالسد بين يأجوج ومأجوج . (٢) الصدفان ناحيتان وقوله عز وجل ساوى بين الصدفين اى ما بين الناحيتين من الجبل .

(٣) الحدب بفتحتين ما ارتفع من الارض ، وينسلون اى يسرعون من النسلان وهو مقاربة الخطو مع الاسراع كمشى الذئب اذا اسرع يقال مر الذئب ينسل ويعسل .

ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً . أما بعد فإنى أردتُ أن تبعث إلىَّ رجلا يعلمنى الإسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . . . وإنْ زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منّا الأنبياء والمرسلين قاطبةً من لدُنْ آدم ما خلا أربعةً هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً عليهم الصلاة والسلام . ومنا المُصْطَفَوْن من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع ، وإنما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا . ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لهـا ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تَدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والإصطرلاب الذى يعدل به النجوم ويدرك به علم الأبعاد وَدَوَرَانُ الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنة ، ولم يكن للعرب مَلِكٌ يجمع سوادَها ويضم قَوَاصِيَها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهَهَا ، ولا كان لهـا قط نتيجة فى صناعة ولا أثر فى فلسفة إلا ما كان من الشعر . وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذى تفتخر به العرب على العجم فإنما هى كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون فى حَلَق الأَسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشىّ ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المَهْيَع .[1] فخر بذلك شاعر فقال : وأوثق عند المردفات عشية[2] فقيل له ويحك وأىُّ فخر أن تلحق بالعشى وقد نكحن وامتهنَّ . وقال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

وبرحرحان غداةَ كُبِّلَ معبد ... نُكِحَتْ نساؤكُمُ بغير مُهور

(١) الواسع الواضح . (٢) تمامه : لحاقا اذا ما جرى السيف مانع .

وقال عنترة لامرأته

إن الرجال لهم إليك وَسيلةٌ أنْ يأخذوك تـكحَّلى وتخضَّبى
وأنا امرؤٌ إنْ يأخذونى عنْوةً أُقرنْ إلى شدِّ الرِكاب وأجنب
ويكون مركبك القعود ورحله وابنُ النعامة عندَ ذلك مركبى

أراد بابن النعامة ، باطِنَ القدم . وسبى ابن هبولة الغسانىّ امرأة الحارث بن عمرو الـكندىّ فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة ، وقد كان نال منها فقال لها : هل كان أصابك ؟ قالت : نعم والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفزهما حتى قطعاها ، وقال فى ذلك :

كل أنثى وإنْ بدا لك منها آيةُ الود حبها خَيْتَعُورُ(١)
إنَّ من غرَّه النساء بودٍّ بعدَ هندٍ لَجاهلٌ مغْرُورُ

وسبت بنو سليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب ، فقال فيها عمرو :

أمنْ (ريحانة) الداعى السميع يُؤَرِّقنى وأصحابى هجوع

وفيها يقول :

إذا لم تسْتطع أمراً فدعْه وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعُ(٢)

وأغار الحوفزان على بنى منقذ بن زيد مناة فاحتمل الزرقاءَ من بنى ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها فوقع بها ، ثم لحقه قيس بن عاصم فاستنقذها وردَّها إلى أهلها بعد أن وقع بها . . فهذا كان شأن العرب والعجم فى جاهليتها ، فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الإسلام . وذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود من بنى آدم ، وكان أول من تبعه حر وعبد ، واختلف الناس

---

(١) الخيتعور : السيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حالة .

(٢) قال الدمامينى : يحكى أن شـخصا سأل الخليل أن يقرأ عليـه علم العروض فاقام مدة يختلف اليه للقراءة ولم يحصل شيئا فأعيا الخليل أمره ولم ير أن يواجهه بالمنع حياء منه فقال له يوما وقد حضر للقراءة قطع قول الشاعر اذا لم تستطع البيت ففطن الرجل الى ما اراده الخليل فانصرف ولم يعد ، وانا اعجب ممن تفطن لمثل هذا كيف يصعب عليـه فن العروض مع سهولته والله مقدر الامور .

فيهما فقال قوم : أبو بكر ، وبلال . وقال قوم : علىٌّ وصُهَيْب . ولما احتضر عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه قدم صهيباً على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس وقال له : استخلف . فقال : ما إخالنى ممن أستخلف ، فذكر له الستة من أهل حِراء فكلهم طعن عليه ، ثم قال لو أدركت سالماً مولى أبى حذيفة حياً لما شككت فيه ، فقال فى ذلك شاعر العرب :

هذا صُهَيْبٌ أمَّ كلَّ مُهَاجِرٍ وعلا جميعَ قبائلِ الأنصارِ
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا وهُمُ الهداة وقادةُ الأخيارِ
هذا ولو كان الثرم سالمٌ حيًّا لنال خلافَةَ الأَمصارِ
مازال هذى العجم تحيا دوننا إن العريب لفى عَمىً وخسارِ

وقال بجير يعيّر العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء :

زعمتم بأن الهند أولادُ خِندفٍ وبينَكُمُ قربى وبين البرابرِ
وديلمُ من نَسْلِ ابن ضبَّةَ باسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامرِ
فقد صار كلُّ الناس أولادَ واحدٍ وصاروا سواءً فى أصولِ العناصرِ
بنو الأصفرِ الأملاك أكرمُ منكم وأولى بقربانا ملوكُ الأكاسرِ
أتطمع فى صهرى دَعِيًّا مجاهراً ولم تر ستراً من دعىٍّ مُجاهرِ
وتشتم لؤماً رهطَه وقبيلَه وتمدح جهلا طاهراً وابنَ طاهر

وقال الحسن بن هانىء على مذهب الشعوبية :

وجاورت قَوْماً ليس بينى وبينهم أواصِرُ إلاّ دعوةٌ وبطونُ
إذا ما دعى باسمى العَريفُ أجبتُه إلى دعوةٍ مما علىَّ يهونُ
لازد عمان بن المهلّب نزوة إذا افتخر الأقوام ثم تلينُ
وبكر يرى أن النبوة أنزلت على مسمع فى البطن وهو جنينُ
وقالت تميم : لا نَرىَ أن واحداً كأحنفنا حتى المماة يكونُ

فلا لمت قيسا بعدها فى قتيبةٍ   إذا افتخروا إن الحديث شجون[1]

ردّ ابن قُتَيْبَةَ على الشعوبية

قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه ، فذهبوا إلى قوله عز وجل : (يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفوا إن أكرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكم) . وقوله : (إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأصْلحوا بين أخوَيكم) . وإلى قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : (أيها الناس إن الله قد أذْهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربىٍّ على عجمى فخرٌ إلا بالتقوى ، كلُّكم لآدام وآدم من تراب) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم) . وإنما المعنى فى هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الأحكام والمنزلة عند الله تعالى والدار والآخرة ، لوكان الناس كلُّهم سواءً فى أمور الدنيا ليس لأحَدٍ فضلٌ إلا بأمر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروفٌ ، ولا فاضل ولا مفضول ، فما معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكْرِمُوه) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (أقيلوا ذوى الهيآت عثراتِهِمْ) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قيس ابن عاصم : (هذا سيد الوَبَرَ) . وكانت العرب تقول : (لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساوَوْا هلكوا) . تقول . لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار فإذا جلوا كلهم جملة واحدة هلكوا . وإذا ذمَّت العَربُ قوماً قالوا : « سواسية كأسنان الحمار » .[2] وكيف يستوى الناس فى فضائلهم والرجل الواحد لا يستوى فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ، ولكن لبعضها الفضل على بعض ،

---

(١) هذا مثل ولفظه : الحديث ذو شجون أى ذو طرق الواحد شجن بسكون الجيم ، يضرب هذا المثل فى الحديث يتذكر به غيره ، واول من قاله ضبة بن اد بن طابخة بن الياس ابن مضر ، وقصته مذكورة فى كتب الامثال فلتراجع . (٢) قال فى الصحاح هما فى هذا الأمر سواء « وان شئت سواآن وهم سواء للجمع وهم اسوآء وهم سواسية مثل يمانية على غير قياس ، وفى

وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس وقالوا : القلب أمير الجسد ، ومن الأعضاء خادمة ومنهـا مخدومة ، ثم قال : ومن أعظم ما ادَّعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام ، ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ولا تفضلونى عليه فإنما أنا حسنة من حسناته » . ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم غير أربعة هود وصالح وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، واحتجوا بقول الله عزوجل: (إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمْرانَ على العالمين ذريةً بعضها من بعض والله سميع عليم) . ثم فخروا بإسحق بن إبراهيم وأنه لسارة : وأن إسمعيل لِأَمة تسمى هاجر . وقال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عُكْلٌ بها طُنُباً ولا خِباءٌ ولا عَكٌّ وهَمْدانُ[١]

ولا لجَرْمٍ ولا نهدٍ بها وطن ولـكنها لبنى الأحرار أوطانُ[٢]

أرض تبنى بها كسرى مساكنه فما بها من بنى اللخناء إنسانُ

فبنو الأحرار عنـدهم العجم ، وبنو اللخناء عندهم العرب ، لأنهم من ولد هاجر وهى أمة . وقد غلطوا فى هذا التأويل ، وليس كل أمة يقال لها اللخناء ،

التهذيب : قال الفراء هم سواسية يستوون فى الشر ولا اقول فى الخير ولا واحد له وحكى عن ابى القمقام سواسية اراد سوآء ثم قال سية ، وروى عن ابى عمرو انه قال ما أشد ماهجا القائل :

سواسية كاسـنان الحمار

وذلك ان اسنانه مستوية انتهى ، وفى الفرائد : سواسية كاسنان الحمار، ويقال سواسية كأسنان المشط ، قيل لايعرف للسواسية مفرد وانما هى كلمة موضوعة موضع سواء فى الشر والمكروه وقيل جمع سوآء على غير قياس ، والمراد فى المثل فى السرواول من تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم .

(١)، عكل على مافى نهاية الارب النويرى بطن من طابخة من العدنانية وهم بنو عوف بن عبد مناة بن اد بن طابخة ، والطنب بضمتين حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد والجمع اطناب وطنبة ، وعك : بطن من الازد من القحطانية ، وهمدان : بطن من كهلان من القحطانية قال فى العبر : وديار همدان لم تزل باليمن من شرقيه ولما جاء الاسلام تفرق من تفرق وبقى من بقى باليمن ، وكانت همدان شيعة أمير المؤمنين على بن ابى طالب (رض) عند وقوع الفتن بين الصحابة (رض) . (٢) قال المجد : جرم بطن فى طبىء وابن زبان بطن فى قضاعة انتهى والتفصيل فى نهاية الارب للنويرى ، ونهد : بطن من قضاعة من القحطانية .

وإنما اللخناء من الإماء الممْتهنة فى رعى الإبل وسقيها وجمع الحطب ، وإنما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء إذا تغير ريحه . فأما مثل هاجر التى طهرها الله تعالى من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين إسمعيل ومحمد عليهما السلام أماً ، وجعلهما سلالةً فهل يجوز للمحد فضلاً عن مسلم أن يسميها لخناء ؟ .

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبة فى تباين النـاس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود : إنا لا ننـكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ، ولـكنا نزعم أن تفاضل النـاس فيما بينْهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولـكنهم بأفعالهم ، وأخلاقهم ، وشرف أنفسهم ، وبعد هممهم ، ألا ترى أنه من كان دنىَّ الهمة ، ساقط المروة ، لم يشرف وإن كان من بنى هاشم فى ذؤابتها[1] ومن أميَّة فى أرومتها[2] ومن قيس فى أشرف بطن منها . إن الـكريم من كرمت حاله ، والشريف من شرفت همته . وهو معنى حديث النبى عليه الصلاة والسلام : (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) . وقوله فى قيس بن عاصم : (هذا سيد أهل الوبر) إنما قال فيه لسؤدده فى قومه بالذب عن حريمهم وبذل رِفْدِه لهم ، ألا ترى أن عامرَ بنَ الطُّفَيْل كان فى أشرف بطن فى قيس يقول :

وإنى وإن كنتُ ابنَ سيد عامر ... وفارسَها المشهورَ فى كل موكبِ[3]
فما سوَّدتنى عامر عن وراثةٍ ... أبى اللهُ أن أسمُوَ بأمٍ ولا أبِ
ولـكنّنى أحمى حماها وأتقى ... أذاها وأرمى من رَماها بمنكب

(١) الذؤابة من العز والشرف وكل شيء اعلاه .
(٢) الارومة بالفتح وتضم الاصل .
(٣) يستشهد النحويون بهذا البيت على تسكين واو اسمو مع الناصب لاجل الضرورة . . والمعنى انه وان كان كريم الاصل شريف المحتد الا انه لم يرث السيادة عن آبائه وانما سيادته من نفسه لحملها على معالى الآمور ثم قال ابى الله ان اسمو بام ولا اب اى لا يكون ذلك ابدا ـــ والموكب : الجماعة ركبانا أو مشاة أو ركاب الابل للزينة .

وقال الآخر

إنَّا وإنْ كرمت أوائلُنا لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قسُّ بن ساعدة « لأقضينّ بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلى ولا يردُّها أحد بعدى ، أيُّما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له » . ومثله قول عائشة أم المؤمنين « كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به » . تعنى بقولها أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها ، فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته . وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته . وقال الشاعر :

نفس عصام سوَّدتْ عِصاما وعلّمته الكرَّ والإقداما[1]
وجعلته ملكاً هماما[2]

وقال آخر

مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى
إن انتمى مُنْتَمٍ إلى أحد فإننى منتمٍ إلى أدَبى[3]

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلَّ مذهب فأعجب عبد الملك ما سمع منه ، فقال : ابن من أنت يا غلام ؟ قال ابن نفسى يا أمير المؤمنين التى نلت بها هذا المقعد منك . قال : صدقت قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : حسب الرجل ماله وكرمه دينه . وقال عمر بن الخطاب

---

(١) قيل عصام هو ابن شهير حاجب النعمان بن المنذر الذى قال له النابغة حين حجبه عن عيادة النعمان من قصيدة له :

فانى لا الومك فى دخولى ولكن ما وراءك يا عصام

يضرب فى نباهة الرجل من غير قديم . ويسمى الخارجى اى خرج بنفسه من غير اولية كانت له ، وفى المثل : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، الكر العطف والرجوع ، واقدم على الامر اقداما شجع . (٢) الهمام بالضم الملك العظيم الهمة والسيد الشجاع السخى خاص بالرجال . (٣) الانتماء الانتساب .

رضى الله تعالى عنه : إن كان لك مال فلك حسب ، وإن كان لك دين فلك كرم .
وقد تعجب شهاب الدين الأندلسى فى كتابه العقد حيث قال بعد ذكر ما سبق من الكلام : وما رأيت أعجب من ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب إنَّه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية . فنقض فى آخره كل ما بنى فى أوله ، فقال فى آخر كلامه : وأعدل القول عندى أن الناس كلهم لأبٍ وأمّ خلقوا من تراب وأعيدوا إلى التراب ، وجروا فى مجرى البول ، وطوأ عليهم الأقذار ، فهذا نسبهم الأعلى الذى يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء ، والفخر بالآباء ، ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب وتبطل الأحساب ، إلا من كان حسبه التقوى ، أو كانت ما تته طاعة الله .

قول الشعوبية فى مناكح العرب

إنما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمْث أى الحيض فكيف يدرى أحدهم من أبوه ، وقد فخر الفرزدق ببنى ضبّة حين يبتزون العيال فى حروبهم فى سبية سبوها من بنى عامر بن صعصعة :

فظلّتْ وظلوا يرْكَبُون هَبيرَهَا   وليسَ لهم إلا عواليهَا ستْرُ

والهبير : المطمئن من الأرض . وإنما أراد ههنا فرجها ، وهو القائل فى بعض ما يفخر به :

ومنـا التميمىُّ الذى قامَ أَيْرُهُ   ثلاثينَ يوماً ثم زادَهُمُ عشراً

الرد عليهم فى ذلك

إن جميع ما ذكره الشعوبية فى شأن مناكح العرب ، وما أوردوه فى باب الطعن على أنسابهم بما كانوا يتعاطونه فى الغارات من سَبْى النساء واسترقاقهم ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك لا أصل له ، وكتب التواريخ

صادحةٌ بتبرئتهم مما رماهم به خصومهم وأعداؤهم ، وقد نطق الشعر الجاهلي بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بأنسابهم وحفظ حريمهم والذب عن أحسابهم وعشائرهم ، ولم يكن من مذاهب العرب وعوائدها قديماً وحديثاً التعرض بسوء للنساء والأهل فى الغارات والمنازعات . بل كان ذلك من أكبر الكبائر لديهم . وما روته الشعوبية من الأبيات الشعرية إن صحت عن قائلها وأنه كان من صميم العرب فلا مطعن فيه فإن ما يصدر عن شخص من قوم لا يسوغ عند ذوى العقول والآراء الصائبة أن يؤاخذ به جميع أفراد نوعه (ولا تزرُ وَازرةٌ وزْر أخْرى) . ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أفراد العرب معصوم من كل خطيئة وعيب ، وأن كل فرد منهم أفضلُ من كل فرد من غيرهم فى جميع صفات الفضائل ، هيهات ذلك فإن هذا بديهىّ البطلان . ألا ترى أن جميع أهل العقول السليمة قائلون بفضل جنس الرجال على جنس النساء مع أن بعض أفرادهن لا يعادلهن فى الكمالات النفسية والفضائل الإنسانية ألوف مؤلفة من الرجال العارين عن ذلك . وما أحسن قول الشاعر :

ولو أنَّ النساءَ كمن فقدْنا ... لفضَّلْنا النساءَ على الرجالِ[1]

فما كان من شخصٍ أو شخصين من أمة العرب من المنكر لا يزرى بعلو شأنهم ورفيع مجدهم لاسيما إذا كان ذلك المنكر ليس بمقطوع الصحة أو أنه مما له وجه ، فإن السبي عند غزو بعضهم بعضاً كان فى حكم الرقيق بمقتضى ديانتهم

---

(١) البيت للمتنبى من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة وقد توفيت بمبا فارقين وجاءه الخبر بموتها الى حلب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة واولها:

نعد المشرفية والعوالى ... وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات ... وما ينجين من جنب الليالى
ومن لم يعشق الدنيا قديما ... ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب ... نصيبك فى منامك من خيال

وهى طويلة وكلها فرائد ودرر ، ومعنى البيت يقول لو ان نساء العالم كهذه المفقودة فى الكمال والعفاف لفضلن على الرجال ، قال ابن وكيع ينظر الى قول على ابن الجهم .

اذا ما عد مثلكم رجالا ... فما فضل الرجال على النساء

وعوائدهم ، ووطء ملك اليمين من غير عقد ليس بزنى عند كافة أهل الأديان . هذا مع أن الأمر كما ذكرناه سابقاً ، ثم نقول أىّ أمة من الأمم غير العرب كانت معصومة من السبى والغارات ، وهكذا ديدن الخليقة من أولها إلى آخرها ، ولو ذكرنا حال مناكح سائر الأمم غير العرب فى الأيام الخالية لاسودّ وجه القرطاس . وما قالته الشعوبية من أن العرب كانوا يقربون النساء من غير استبراء من طمث فهو بهتانٌ عظيم ، وشعر العرب وتواريخهم ناطقة بخلافه ، وأنهم كانوا يحترزون عن الجماع فى الحيض ، وسيأتى بيان ذلك فى الكلام على عوائدهم وعباداتهم إن شاء الله تعالى .

مجمل القول فى جميع ما قالته الشعوبية فى العرب

اعلم أن جميع ما قالته الشعوبية فى مقام الاستدلال فى مدّعاهم واقع فى غير موقعه وقائم فى غير محله ، فإن المدعى إنما هو فضيلة الجنس فيما هو مناط الفضيلة بين أنواع بنى آدم ، وهو أن سبب فضل جنس العرب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم وغير ذلك مما أسلفناه وأوضحناه بأتم وجه وأبسطه . وليس المدعى أن الفضيلة بنبوّة حتى يقال إن أنبياء غير العرب أكثر من أنبيائهم ، فإن جميع الأنبياء كما ذكر وهب بن منبه مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألف نبى ، الرسل منهم ثلاثمائة نبى وخمسة عشر نبياً ، ومنهم خمسة عبرانيون : آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم . وخمسة من العرب : هود وصالح وإسمعيل وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين . وروى أبو صالح عن ابن عباس [1] قال : بعث الله إلى أهل الرسّ — والرس : البئر — نبياً منهم يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه ، فأوحى الله تعالى إلى نبى كان مع بختنصّر يقال له أرميا بن برخيا : مُرْ بُختنصر يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم

---

(١) اقول ان ابا صالح لم ير ابن عباس الأرض على ماذكر رجال الجرح والتعديل منهم الامام الذهبى فى الميزان .

فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم ، وخالد بن سنان كان أيضاً من أنبياء العرب كما ورد الحديث فى شأنه ، وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذاك نبى أضاعه قومه ، وباقى الأنبياء من سائر الأمم المختلفة . فليس فضل العرب ثم قريش ثم بنى هاشم لمجرد كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وإن كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضلُ وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور ، مع أنه لو ادعى خصوم الشعوبية أن منشأ الفضيلة ذلك لأمكنهم أن يقولوا إن أنبياء العرب على قلتهم يساوون غيرهم من الأنبياء والرسل فى الفضل أو يرجحونهم ، وليس ذلك ببِدْعٍ فإن التفاوت ما بين إنسان وإنسان ، ظاهر لدى العيان ، فإنك قد ترى واحداً كعشرة وعشرة كمائة بل واحداً كمائة وعشرة أخرى هَدَرَة [1] دون واحد . وقيل لامرأة : أعشرة هدرة أحب إليك أم واحد كعشرة ؟ فقالت بل واحد كعشرة . قال الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً لدى المجد حتى عُدَّ ألف بواحدِ

بل نرى واحداً كعشرة آلاف ، ونرى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصدق قيلا : الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة . والإبل فى تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل هى عشرة آلاف بعير ، بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالماً كواحد لجاز ، كما قال عليه الصلاة السلام : وزنت بأمتى فرجحتهم ، وعلى هذا قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكَرٍ أنْ يَجْمعَ العالَم فى واحدِ

وليس المدعى أيضاً أن الفضيلة بملك وثروة وكثرة عَدَدٍ وعُدَد ، فإنها ليست أيضاً مما تستوجب الفضيلة ، وتقتضى الصفات الجميلة .

---

(١) هدرة محركة وكعنبة وهمزة ساقطون ليسوا بشىء والفتح اقيس لانه جمع هادر مثل كافر وكفرة وكذا الواحد والانثى يقال رجل هدرة مثل همزة ساقط قال الحصين بن بكير الربعى :

انى اذا حار الجبان الهدره ركبت من قصد السبيل شجره

كم عاقلٍ عاقل أعيت مذاهبه   وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا[1]

وفى معنى ذلك يقول السموءل من أبيات مر ذكرها :

وما ضرّنا أنا قليلٌ وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل

مع أنه قد بلغت مدنية العرب فى الأيام الخالية إلى ما لم يبلغها أحد إذ ذاك ، وإن انقطع عنا أخبارهم ، هذه آثار مبانيهم العظيمة ، وبقايا مدنهم الجسيمة تشهدلنا بذلك ، ومدينة تدمر كانت إحدى مدن العرب ومبانيها كما فى القاموس وغيره ، وما يشاهد من بقاياها من أعاجيب الأكوان التى تعجز أهل العصور المتأخرة عن مطاولتها فى رصانتها . وتبابعة اليمن وإذواؤها بلغ تسلطهم على البلاد واستيلاؤهم على الأقطار إلى ما يكل القلم عن وصفه . ومنهم الذى ساوى بين الصدفين ، وطاف بلاد الأرض ما بين المشرقين والمغربين ، وهو الذى كان يلقب بذى القرنين على خلاف ما يزعمه الشعوبية وغيرهم ، وهم بعض أهل العلم من أنه إسكندر الرومى ، فإن الشعر القديم شاهدٌ لما قلناه بل هو أقوى دليل على ذلك ، قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً   بِالْحِنْوِ فى جدث هناك مقيم

والحنو بكسر المهملة وسكون النون فى ناحية المشرق . وقال الربيع بن ضبيع :

والصعب ذو القرنين عمّر ملكه   ألفين أمسى بعد ذاك رميما

---

(١) البيت لابن الراوندى الملحد الزنديق المشهور ، وقبله :

سبحان من وضع الاشياء موضعها   وفرق العز والاذلال تفريقا

وبعده :

هذا الذى ترك الاوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا

وعاقل الثانى صفة لعاقل الاول بمعنى كامل العقل متناه فيه كما يقال مررت برجل رجل اى كامل فى الرجولية ومعنى اعيت مذاهبه اعجزته وصعبت عليه طرق معايشه ، والنحرير بكسر النون الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شىء لانه ينحر العلم نحرا والزنديق بكسر الزاى من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان او من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية .

وقال قسّ بن ساعدة الأيادى :

والصعب ذو القرنين أصبحَ ثاوياً   باللّحْد بين مــلاعب الأرياح

وقال تُبّع الحميرى :

قدكان ذو القرنين قبلى مُسْلِماً   مَلِـكا تدين له الملوك وتحشدُ
من بعــده بِلقيسُ كانت عمتى   ملـكتهم حتى أتاها الهُدْهُدُ

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخـاطب قوماً من مصر .

سَمّوا لنا واحداً منــكم فنعرفه   فى الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتُّبَّعَـيْنِ وذو القرنين يقبله   أهل الحجى وأحق القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصارى الصحابى ابن الصحابى :

ومن ذا يعادينا من الناس معشر   كرام وذو القرنين منا وحاتمُ

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح فى اسمه الصعب . ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرئ القيس وأَوْس بن حجر وطَرفَة بن العبد وغيرهم ، وفى كتاب نشر المحاسن اليمانية شيء كثير من مآثرهم بحيث يطول نقله ، وفى وصف القحطانيين يقول الـكلاعى :

ورتبنا مراتِبَ كُلِّ ملك   فـكان لنا الخلائقُ مُقْتَفِينا
سَنَنّا للبريّة كلّ فعــل   جميلٍ من فعــال الأكرمينا
فهم يتشبّهون بما فعلنا   وفى آثارنــــا يتتبعونا
وليسوا مُدْركين لنا لأنّا   جعلنــا السابقينَ الأولينا

وقال فى شرح هذه الأبيات أيضاً : إن أول من لبس التاج ورتب وظائف الملك وعهد عهداً إلى عامل بلد وأمره بالعدل والإنصاف ودون الدواوين وبعث الأمراء إلى الثغور حمير بن سبأ الأكبر ، وأول من علّق السلسلة على باب قصره ليتعلق بها المتظلمون عبد شمس بن وائل ، وأول من نظر فى أمر الشاكى وعزل

عامل البلد بسبب أمر الشكاية سعد الكامل ، وأول من شفع وأفدى فى الأسارى تبع الأصغر ، ولذلك سمى ماء السماء . وأول من اتخذ الخط العربى على أبجد مُرَّة ابن مرامر[١] . وأول من قام بالضيافة عامر بن حارثة الأزدى من طيّء . وأول من حكم فى الخنثى باتباع المبال عمرو بن حُمَمَة الدوسى[٢] . وأول من طيب الميت بالحنوط مقسم بن بهر القضاعى . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر بن جشم الجهمى . وأول من صلى على الميت عطيرة بن صعب السكسكى . وأول من أعان مستوفداً فى حمل دية جماد بن عبد التيمى من همدان . فهذه أمور سبقت إليها بنو قحطان فى الجاهلية ، وجاء الإسلام بمثل ذلك ، وهذه غاية من ذكاء فطنهم . . ومن ذكائهم أيضاً أنهم أول من ربط الخيل وراضها ووصفها بما يليق بها وعمل لها السروج واللجم وفى ذلك يقول مالك بن ملالة بن أرحب الهمدانى :

أمرت بإيتاء اللجام فأبدعت وأنعلت خيلى فى المسير حديدا
وأرحبُ جدى أحدث السرج قبلنا ولو نَطَقَتْ كانت بذاك شهودا

وهم أول من أبدع جميع أنواع السلاح من سيف ورمح وقوس وسهم ودرع وغير ذلك . ولأصناف الخيل وأنواع السلاح عندهم أسماء معروفة يطول ذكرها ،

---

(١) اقول هذا وهم صراح مخالف لما ورد فى كتب الأنساب وغيرها والصحيح مرامر بن مرة او مروة وهو اول من وضع الخط العربى على ما يقال . . قال شرقى بن القطامى : ان اول من وضع خطنا هذا رجال من طيء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجـــاد وآل مرامـــر وسودت أثوابى ولست بكاتب

قال وانما قال وآل مرامر لانه قد سمى كل واحد من أولاده بكلمـــة من (ابجد) وهى ثمانية قال ابن برى الذى ذكره ابن النحاس وغيره عن المدائنى انه مرامر بن مروة . قال المدائنى اول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من اهل الانبار ويقال من اهل الحيرة قال وقال سمرة ابن جندب نظرت فى كتاب العربية فاذا هو قد مر بالانبار قبل ان يمر بالحيرة ويقال انه سئل المهاجرون: من اين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الحيرة وسئل اهل الحيرة : من اين تعلمتم الخط فقالوا : من الانبار . قال الزبيدى وذكر ابن خلكان فى ترجمة (على بن هلال) ما يقرب من ذلك وذكر المجد فى (ج د ر) ان أول من كتب بالعربية عامر بن جدرة ولعل الجمع بينهما اما بالترجيح أو بالعموم والخصوص أو غير ذلك مما يظهر بالتأمل كما حققه شيخنا .

(٢) تأتى ترجمته فى باب الحكام .

ولم يكن لأحد بصر بالخيل ولا بالقسي والنبل والإصابة بالرمى مثل ما للقحطانية . ومنهم رماة تبع أسعد المعروفون بالقارَة كانوا يرمون فيصيبون ما يقصدون ، وبهم يضرب المثل فيقال « قد أنصف القارة من راماها »[١] . فهذا كله ونحوه مما يدلك على ما كانوا عليه من التمدن والثروة ، وحب التآلف والترقى فى الكمالات ، وليس المدعى أيضاً أن الفضيلة بمعرفة الصنائع والحرف حتى يرجح غير العرب عليهم فى ذلك ، فإن العرب كانوا يأنفون من تعاطيها ويعدون أصحابها من الأسافل ، حيث كان التفاخر والتفاضل بينهم يومئذ بالشجاعة والفروسية والفصاحة وغير ذلك مما هو منشأ الفضيلة فى نفس الأمر ، مع أن العرب أكثر استعداداً من غيرهم لتعلم الصناعات وسائر الفنون العقلية . ألا ترى أنهم بعد ظهور الإسلام قد بلغوا منها مبلغاً تقدموا به على غيرهم وسبقوا به من سواهم . ففى تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرنسا ما معناه : بينما أهل أوربا تائهون فى دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سمِّ الخياط إذ سطع نور قوىٌّ من جانب الأمة الإسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يدٍ وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت فى الأمم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون

---

(١) فى كتب الامثال : القارة قبيلة وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة وانما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما اراد الشداخ ان يفرقهم فى بنى كنانة فقال شاعرهم :

دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل اجفال الظليم

وهم رماة الحبق فى الجاهلية وهم اليوم فى اليمن قيل ان رجلين التقيا احدهما قارى فقال القارى ان شئت صارعتك وان شئت سابقتك وان شئت راميتك ، فقال الآخر قد اخترت المراماة قد انصفتنى وانشد :

قد انصف القارة من راماها انا اذا ما فئة نلقاها

نرد اولاها على اخراها

وقيل ان المثل قيل فى حرب كانت بين قريش وبين بكر بن عبد مناف ابن كنانة وكانت القارة مع قريش وهم قوم رماة فلما التقى الفريقان رماهم الآخرون فقيل قد انصفهم هؤلاء اذ ساووهم فى العمل الذى هو شانهم وصناعتهم يضرب مثلا لمساواة الرجل صاحبه فيما بدعوه اليه .

المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية يأتى بيانها . وفيه يقول : كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية فى اليمن والقرشية فى الحجاز وبالأخيرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميرية هو المضرية وإن وقع الإجماع فى القراءة على خصوص القرشية ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة ، إلى أن قال : ولم يكن للعرب فى أول الأمر إلا تلك الآداب ، ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم فى الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فأخذوا من اليونان تآليف أرسطوا وشرحوها بإمعان نظر لكنهم لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية وإنما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام فهم ترجموا المترجمة ! فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربى حفيد بن رشد إلى أوربا فى القرون المتوسطة وجد بها من التحريف أكثر مما وقع فيها أولاً .

وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل فى ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية ، وفى أوائل القرن التاسع المسيحى أمر الخليفة المشار إليه عالمَيْن من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوين الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالى عن طرفى الخط المقيس . وقد شرح العرب كتاب إقليدس ، وهذبوا زيج بطليموس ، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال ، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ، فوجدوا بينهما عدة دقائق ، واخترعوا للتحريرات آلات جديدة إلى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية . ومنهم حازت مدينة سمر قند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب . قال : وأما ما ينسب من اختراع الجبر والمقابلة والأرقام الحسابية المسماة عندنا بالأرقام العربية فلم يثبت ، بل إنما تعلموا ذلك مع فلسفة أرسطوا بالتلقى من غيرهم وهى من العلوم التى وجدوها بالإسكندرية ، ويمكن أنهم

نقلوا إلينا على دلك الوجه (البوصلة) أى بيت الإبرة والبارود الذى تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد من القماش ، وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده .

وقد اشتهرت العرب أيضاً بمعرفة الطب الذى كان تلقوه من كتب اليونان ، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر . ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاوروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبى على ابن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة وابن رشد المذكور ، وقد بلغا من الشهرة إلى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرغبون فى معالجتهم إياهم ، كما يحكى أن بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته على يد أطباء العرب ، وحصل من لطف الخليفة على الإذن فى أن يذهب ويداويه المسلمون . ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وأدوية كثيرة .

ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا ، وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم فى الأسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التى لم يصل إليها أهل أوربا أو نسوها بعد ما كانت معروفة لهم . ومن مشاهيرهم فى هذا الفن أبو الفداء والمسعودى والإدريسى ، وهذا الأخير هو الذى استدعاه روجير ملك صقلية ، وألف عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق . ثم قال بعد ذكر ما كان لهم من علم التاريخ . وأما صناعة هندسة البناء فى اصطناع الهيئات فلم يشتغل العرب منها إلا بما يرجع إلى إتقان الأبنية حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير ، على أن البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالأصل عندهم فى الأقواس المرفوعة على الأسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة ، وهذا الشكل أخذوه من أبنية البيزنطيين وهم أمة من اليونان ، واعتاض العرب عن الصور الذهنية والمجسدة التزيين بالنقش

المسمى عندهم بنقش حديدة ، وكان فى الأصل رسوما لهـا مدلولات . ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التى يمكن أن يصور منها أشكال جيدة ظريفة ، وكثيراً ما نتعجب من إتقان تلك الحروف حين نراها على الزرابى والأقمشة الشرقية .

ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر الذى يجلبونه من المشرق ومن مقاطع أسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذى بناه عبد الرحمن الأول بقرطبة ، وكان به ألف وثلاث وتسعون أسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل · ثم قصر الزهراء الذى لايتأخر عن الجامع المذكور فى العظم ، وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطىء الوادى الـكبير ، وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزيبق ثم ينعكس فى قصعة من المرمر . ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آنٍ واحد قصروحصن وبهاعدة أمور تصلح أن تـكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصاً وسطها المسمى ببطحاء الأسود . وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها فى سائر الأوقات ، ثم لـما امتدت سلطنتهم من البرينى وهى جبال بين فرانسا وأسبانيا إلى جبال هملاى التى بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض يومئذ .

وأما الفلاحة فقد كان للعرب حسن رغبة فيهـا إذ ليس لغيرهم مالهم من الاقتدار على جلب الميـاه وتوزيعها بلطف فى مزارعهم الواسـعة تحت شمسهم المحرقة . انتهى مانقل من مقدمة أقوم المسالك . وبجميع ماذكرناه يتبين أن كلام الشعوبية ساقط عن أصله ، ولا يلتفت ذو إنصاف لمثله ، ومع ذلك فإن الشريعة حاكمة بأن فضل الجنس لايستلزم فضل الشخص فربّ حبشى أفضل عند الله من ألف قرشى ، فإن المرء كثير بفضله لابأهله ، ومنظور إليه بكرم أخلاقه لا بكرم أصله ، فإذا اجتمعا له كان مقابلا من طرفيه وكملت له أبهّة شرفيه ، ولا ينكر أن للأصول تأثيراً عظيما فى الفروع فلا تـكاد ترى ذا أصل زكى إلا وتتوهم فيـه

خلقاً وسيما ، وشأناً كريماً ، فإذا اجتمع الأصل وحسن الأفعال ، كان ذلك غاية الكمال ، فلا ينبغى لعاقل أن يفخر بنسبه ، ويتكبر على الناس بحسبه ، ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد ، فنهى سبحانه على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عن نوعى الاستطالة على الخلق وهى الفخر والبغى لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر ، وإن كان بغير حق فقد بغى فلا يحل لا هذا ولا هذا ، فإن الرجل من الطائفة الفاضلة مثل أن يذكر فضل بنى هاشم أو قريش أو العرب أو الفرس أو بعضهم ، فلا يكون حظه استشعار فضل نفسه ، والنظر إلى ذلك فإنه مخطىء فى هذا كما لا يخفى . ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل فضلا عن أن يستعلى بهذا أو يستطيل ، وإن كان من الطائفة الأخرى فليعلم أن اتصافه بالصفات المحمودة يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضلة العارين عنها ، فليفتخر المرء بجده واجتهاده ، وبعدته وعتاده وكسبه وإعداده ، لآبائه وأجداده ، وقد أتينا فى مقام المشاجرة مع الشعوبية بقدر ما يطاق .

* * *

الكلام على مساكن العرب فى الجاهلية

اعلم أن غالب مساكن العرب القديمة التى درجوا منها إلى سائر الأقطار كانت بجزيرة العرب الواقعة فى أوساط المعمور ، وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه حيث الكعبة المعظمة ، والمدينة المنورة ، وما حول ذلك من الأماكن . وهذه الجزيرة متسعة الأرجاء ، ممتدة الأطراف يحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام حيث البلقاء إلى أيلة ثم بحر القُلْزُم الآخذ من أيلة حيث العقبة الموجودة بطريق حجاج مصر إلى الحجاز إلى أطراف اليمن حيث طيء وزبيد وما داناها . ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القلزم المتقدم ذكره من جهة الجنوب إلى عدن إلى أطراف اليمن حيث بلاد مهرة من ظفار وما حولها . ومن جهة الشرق بحر فارس

الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين ثم إلى البصرة ثم إلى الكوفة من بلاد العراق . ومن جهة الشمال الفرات آخذا من الكوفة على حدود العراق إلى عانة إلى بالس من بلاد الجزيرة الفراتية إلى البلقاء من برية الشام حيث وقع الابتداء . والحاصل أن السائر على حدود جزيرة العرب يسير من أطراف برية الشام من البلقاء جنوباً إلى أيلة ثم يسير على شاطىء بحر القلزم وهو مستقبل الجنوب ، والبحر على يمينه إلى مدين إلى الينبع إلى البروة إلى جدة أول اليمن إلى زبيد إلى أطراف اليمن من جهة الجنوب . ثم يعطف مشرقاً ويسير على ساحل اليمن وبحر الهند على يمينه حتى يمر على عدن ويجاوزها حتى يصل إلى سواحل ظفَار من مشارف اليمن إلى سواحل مهرة ، ثم يعطف شمالا ويسير على سواحل اليمن وبحر فارس على يمينه ويتجاوز سواحل مهرة إلى عُمَان من بلاد البحرين إلى جزيرة أوال إلى القطيف إلى كاظمة إلى البصرة إلى الكوفة . ثم يعطف إلى الغرب ويفارق بحر فارس ويسير والفرات على يمينه إلى سلمية إلى البلقاء حيث بدأ كذا فى نهاية الأرب . وقال أبو عبيدة : جزيرة العرب فى الطول ما بين حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن ، وفى العرض ما بين يبرين إلى السماوة . وقال الأصمعى : هى ما بين نجران والعُذَيْب حكاه ابن قتيبة عن الرياشى عنه . قال : وحكى عنه أبو عبيدة أنها فى الطول من أقصى عدن إلى ريف العراق ، والعرض من جُدَّة وما والاها من طراز البحر إلى طراز الشام . وأنت تعلم أن هذه الأقوال كلها متقاربة .

* * *

مساحة دور جزيرة العرب

دور هذه الجزيرة على ما ذكره السلطان عماد الدين صاحب حمَاة فى تقويم البلدان سبعة أشهر وَأَحدَ عشَرَ يوماً تقريباً بسير الأثقال . فمن البلقاء إلى الشراة نحو ثلاثة أيام ، ومن الشراة إلى أيلة نحو ثلاثة أيام ، ومن أيلة إلى الجار وهى فرضة

المدينــة النبوية نحو عشرين يوماً ، ومن الجار إلى ساحل الجُحفة نحو ثلاثة أيام ، ومن ساحل الجحفة إلى جُدَّة وهى فرضة مكة المشرفة ثلاثة أيام ، ومن جدة إلى عدن نحو من شهر ، ومن عدن إلى سواحل مهرة نحو من شهر ، ومن مهرة إلى عُمان من البحرين نحو من شهر ، ومن عمــان إلى هجر من البحرين نحو من شهر ، ومن هجر إلى عبادان من العراق نحو خمسة عشر يوماً ، ومن عبادان إلى البصرة نحو يومين ، ومن البصرة إلى الـكوفة نحو اثنتى عشرة مرحلة ، ومن الـكوفة إلى بالس نحو عشرين يوماً ، ومنْ بالس إلى سلمية نحو سبعة أيام ، ومنْ سلمية إلى مشاريف غُوطة دمشق[1] نحو أربعة أيام ، ومنْ مشاريف غوطة دمشق إلى مشاريف حوران نحو ثلاثة أيام ، ومنْ مشاريف حوران إلى البلقاء نحو ستة أيام ، فهذا هو الدور المحيط بجزيرة العرب .

---

(١) غوطة دمشق احدى نزه الدنيا وهى الاربع : غوطة دمشــق ، ونهر الابلة ، وشعب بوان ، وصغد سمرقند ــ يضرب بكل منها المثل فى الطيب ، قال الثعالبى : وكان الخوارزمى يقول قد رايتها كلها فكانت غوطة دمشــق أطيبها واحسنها ولم أميز بين رياضها المزخرفة بالانوار والازاهر وبين غدرانها المعمورة بطيور الماء التى هى احسن من الدوارج والطواويس ولم اشــبهها وصورتها منقوشة على وجه الارض .

واما نهر الابلة فهو بالبصرة وحواليه من ميادين النخل والاترج والنارنج وسائر الاشجار وفيها من اصــناف الزرع وانواع الخضروات ما لا ينظــر أحسن منه وعليه من القصور المناظرة والابنية الرائقة ما تحار فيه العيون وتهش له النفوس وفيه يقول ابن عيينة :

ويا حبذا نهر الابلة منظــرا … اذا مد فى اثنائه المــاء او جزر

واما شعب بوان من فارس فهو الذى يقول فيه القائل :

اذا اشرف المكروب من رأس تلعة … على شعب بوان افاق من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مســـه … ومطرد يجرى من البارق العذب
فبالله ياريح الجنــوب تحملى … الى شعب بوان سلام فتى صب

وفيه يقول المتنبى :

مغان طيبــات فى المغـــانى … كايام الربيـــع من الزمـــان

ولما نزله عضد الدولة متوجها الى العراق ومعه ابو الحسن السلامى قال له: قل فى الشعب فقد سمعت ما قاله المتنبى فيه فعاد الى خيمته وكتب :

اشرف على الشعب وانزل روضه الانفا … قد زاد فى حســنه فازدد به شــغفا
اذ البس الهيف من أغصــانه حللا … ولقن العجـــم من اطيــاره نتفـــا
وانظـــر اليه تر الاغصان منمـــرة … من قـــارع قرطا او لابس شـــنفا

وجه تسمية هذه الجزيرة بجزيرة العرب

اعلم أنَّ الجزيرةَ فى أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء أخذاً من الجزر الذى هو ضد المد ثم توسع فيه فأطلق على كل ما دار عليه الماء . ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القُلْزُم من جهة الغرب ، وبحر الهند من جهة الجنوب وبحر فارس من جهة الشرق ، والفرات من جهة الشمال . أطلق عليه جزيرة وإن كان له اتصال بالبر ، وذلك على سبيل التشبيه والمجاز المشحون منه كلام الفصحاء لا أن العرب لم يفرقوا بين الجزيرة وشبهها كما زعمه بعض المؤلفين الذين لم يقفوا على أسرار كلامهم ، وأضيفت إلى العرب لنزولهم بها ابتداء وسكناهم فيها .

ما اشتمل عليه جزيرة العرب من الأقسام والنواحى

قال المدائنى جزيرة العرب هذه تشتمل على خمسة أقسام : تِهامة ونجد والحجاز وعروض ويمن . فتهامة هى الناحية الجنوبية عن الحجاز . ونجد هى الناحية التى بين الحجاز والعراق . والحجاز هو ما بين نجد وتهامة وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمى حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة . والعروض هى اليمامة إلى البحرين وقال أبو عبيدة : الحجاز هو ما بين الجحفة وجبل طيء وإنما سمى حجازاً لأنه حجز ما بين نجد والغور ، وحكى ابن قتيبة عن الرياشى عن الأصمعى أنه قال : إذا خلفت عجلزاً صعداً فقد أنجدت ، فلا تزال منجداً حتى تنحدر من ثنايا ذات عرق ، فإذا فعلت فقد أتهمت إلى البحر ، وإذا عرضت لك

والماء يثنى على اعطافهـا ازرا والريح تعقد فى أطرافه شرفا

وهى قصيدة طويلة

واما صغد سمرقند فان قتيبة بن مسلم لما اشرف من الجبل قال لأصحابه شبهوه فلم يأتوا بشيء فقال قتيبة كأنه السماء فى الخضرة وكأن قصوره النجوم وكأن انهاره المجرة فاستحسنوا هذا التشبيه وتعجبوا من اصابته .

الجرارُ[١] وأنت مُنجدٌ فتلك الحجاز ، وإذا تصوبت من ثنايا (العرج) واستقبلك المرخ والأراك[٢] فقد أتهمت وسمى حجاز لما مر . وقال محمد بن عبد الملك الأسدى : حد الحجاز ، الأول بطن نخلة وظهر حرة ليلى . والحد الثانى مما يلى الشام شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعُكاظ ، والحد الرابع شابة وودّان ثم ينحدر إلى الحد الأول ، وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشومى وهى الشمال لأن الذى يستقبل الشمس تكون اليمن عن يمينه والشمال الشام .

ما كان فى هذه الأقطار من البلاد والمبانى المشهورة وغير ذلك

اعلم أن فى كل قطر من هذه الأقطار مدناً وبلاداً مشهورةَ ومياهاً ومعادنَ مختلفةً ونباتاتٍ متنوعةً قد استقصاها المؤرخون فى كتبهم المؤلّفة فى هذه الجزيرة وأقسامها كتاريخ جزيرة العرب لعدة أناس من أفاضل المتقدمين ، وتاريخ مكة للإمام الأزرق ، وتاريخ المدينة للإمام السمهودى ، وتواريخ اليمن ونجد وغير ذلك مما لا يسعها الحصر وفيها الغنى عن التعرض لما حوته من المطالب فإنه من تحصيل الحاصل ، ومع ذلك نشير إشارة مجملة إلى ما كانت عليه هذه الأقطار ، تنشيطاً للقارئين الأخيار (فأما الحجاز) ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام . وقيل هى من نجد وهى بلدة طيبة مباركة كثيرة الخيرات عذبة المياه وافرة النخيل والثمار أهلها وسكنتها يودون الغرباء ويحبون من هاجر إليهم ، ولها أسماء كثيرة نظمها بعض الأفاضل بقوله :

خُذْ جملةً ياصاحِ من أسماءِ ... مدينةِ الهادى من الأسواءِ
(محمَّدٍ) نبينا المشرّفِ ... الهاشمىّ المصطفى البرّ الوَفِىّ
فَطَيْبَةُ طَيِّبَةٌ وَوَطَابَه ... وطائب تعرفُ بالإطابه

---

(١) هى أرض ذات حجارة نخرة سود (٢) المرخ : شجر سريع الورى ، والاراك : شجر من الحمض يستاك به

حبيبة بيت الرسول والحرم وحرم الرسول فاحفظ ما انتظم
ودار الإيمان ودار السنة ودار فتح مع دار الهجرة
دار السلامة ودار الأبرار ودار الأخيار لنفى الأشرار
حسنة مختارة مرزوقة مؤمنة مسكينة محفوظة
مدخل صدق قُبَّة الإسلام شافية من جملة الآلام
أكّالة القرى مع المقدسة وهى المباركة خذ ما قبسه
من نور أسماء مكان المصطفى نظم به أرجو موارد الصفا

وهى من البلاد القديمة الوضع والتأسيس ، فى كتاب نشر المحاسن اليمانية كانت مدينة يثرب للعرب فخرج إليها قوم من بنى إسرائيل فى زمن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ففتحوها من العرب العاربة وقتلوا ملكا لهم يسمى الأرقم وأقاموا فيها ما شاء الله تعالى حتى افترقت الأزد من مأرب فى حادثة سيل العَرِم ، فنزل الأوس والخزرج يَثْرِبَ على الإسرائيليين ، ولهم ملك يقال له القطيعون فقتلوه ، وكان قاتله سيد الحيين أعنى الأوس والخزرج ، واسمه مالك بن العجلان وهو ابن عم سالم بن عوف الخزرجى . فلما قتل الملك وقعت الصيحة باليهود فقتلوهم أبرح القتل وأبقوا منهم بعض القوم لعمارة الأراضى ، وملك الأوس والخزرج يثرب حتى بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهداهم الله تعالى لطاعته ولم يسلم قبلهم بطن من العرب ، فصارت تلك فضيلة لهم من أحسن الفضائل والمآثر . ثم خرج من يثرب سبعون رجلا وامرأة واحدة مهاجرين إلى مكة فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمرة العقبة جهراً ثم قالوا يا رسول الله قد اتبعناك تصديقاً لقولك وإيماناً بخالقك فاشترط لربك ولنفسك . فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى ما تمنعون منه نفوسكم وأبناءكم ونساءكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : رضينا . فبايعوه بذلك على رءوس الأشهاد ، وجميع الحيين من ربيعة ومضر حاضرون إذ ذاك بمنى ،

ثم قالوا أتأمرنا يا رسول الله أن نميل بأسيافنا على من فى هذه الشعاب ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أمرت بذلك . فلما رأت قريش ما كان من فعل الأوس والخزرج جاء إليهم بنو عمه الأقربين ، منهم أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وشيبة وأبىّ وأمية وسهيل وبنوه ومنبه والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص ، فقالوا لهم : يا أهل يثرب إنا أولى منكم به لأنا صلته ولحمته . فقال لهم الأوس والخزرج : بل نحن أولى به منكم لانّا وإياه نعبد ربًّا واحداً . فلما رأت قريش منهم صدق الهمة وقوة العزم خافوا حدوث الشر فدافعوهم بالتى هى أحسن ، وقالوا : خلوا بيننا وبينه على أن له الأمان والذمام فلا يعرض له إلا الخير ولا لمن تبعه ، ومن أحب منهم أن يلحق بكم لم نمنعه يريدون بذلك المهاجرين ، فكرهت الأوس والخزرج . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أجيبوهم يا معشر الأوس والخزرج فإن الله تعالى بالغ أمره ومنجز وعده فقالوا تطيب عن نفسك يا رسول الله أن نفعل ذلك ؟ قال نعم . قالوا : فالسمع والطاعة وضربوا بينهم أجلا أربعة أشهر ثم رجعوا إلى يثرب ، فلما افترقوا همت قريش بالغدر فكفى الله تعالى نبيه شرّهم ، وخرج من مكة بالوحى الذى أنزل عليه خائفاً يترقب حتى ورد المدينة عن أمر الله تعالى له بذلك ، فلما وصل إليهم صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه المهاجرون معه سمحوا له ولجميع من وصل بمشاطرة الأموال ، ومن كان له زوجتان من الأوس والخزرج طلق إحداها وزوجها بعض المهاجرين ، فأثنى الله تعالى عليهم بذلك فقال : (وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1] .

(١) قوله يؤثرون على انفسهم اى يقدمون المهاجرين على انفسهم فى كل شىء من الطيبات حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن احداهما ويزوجها واحدا منهم ويجوز أن لايعتبره مفعول يؤثرون خصوص المهاجرين : والخصاصة : الحاجة ، والشح اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع واضيف الى النفس لأنه غريزة فيها واما البخل فهو المنع نفسه ، والمفلحون الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه

ثم نصروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جميع المواطن ولم يكن لهم عسكر حتى صار بينهم . فسماهم الأنصار فصار ذلك ألزم لهم من النسب والاسم ، فهذه فضائل خصهم الله تعالى بها ، ثم إنه كان منهم ما كان من غزو المشركين وجهاد الكافرين ما هو مشهور ومذكور فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب المبعث مما لا يحتمل بسطه هذا المختصر . وأقام بينهم حتى توفى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وهى دار الأوس والخزرج وهم أكثر الناس بها عدداً ، وأعلاهم فيها يداً . (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد : (الطائف) وهو بطن من جبل غزوان بشرق مكة وهو شديد البرد كثير الفواكه لما فيه من كثرة البساتين التى تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال وأهلها من ثقيف وهم من قيس عيلان وقيل من إياد ، وقيل هم من بقايا ثمود . ومن بلاد الطائف (وَج) وهو واديها الذى يقول فيه الثقفى :

سقياً لوجٍّ و جنوب وَجٍّ . واحتله غيثٌ دِرَاكُ الثَّجِّ [1]

وواد يقال له (النَّخِب) وهو من الطائف على ساعة . وواد يقال له (العرج) وهذا غير العرج الذى بين مكة والمدينة . وواد يقال له (لية) أعلاه لثقيف وأسفله لنصر ، وبين لية وبسل بلد يقال له (جلدان) تسكنه بنو نصر ، وبجلدان هضبة سوداء يقال لها (تبعة) ، وبها نقب كل نقب قدر ساعة كانت تلتقط فيه السيوف العادية والخرز ويزعمون أن فيه قبوراً لعاد ، وكانو يعظمون ذلك الجبل . ومن بلاد الطائف (الشديق) وهو واد . و (الهدّة) بينها وبين السرَّاة وقرية لبنى نصر يقال لها (الفتق) و (عكاظ) نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة زادها الله تعالى شرفاً ثلاث ليال ، وبه كانت تقوم سوق العرب بالابتداء ، وبه كانت أيام الفجار . وكانوا يطوفون بصخرة هناك ويحجون إليها ، وذو المجاز ماء من أصل كبْكب وهو لهذيل . وقال أبو عبد الله الواقدى عكاظ

(١) الدراك ككتاب اتباع الشىء بعضه على بعض ، والثج : الصب الكثير .

بين نخلة والطائف . وذو المجاز خلف عرفة ومجنة بمر الظهران . وهـذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها شيء أعظم من عكاظ . وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر أسواقهم (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد (خيبر) بمعجمة وتحتانية وموحدة بوزن جعفر ، وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام . وذكر أبو عبيد البكرى : إنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها وقد خرجت بعد استيلاء المسلمين عليها بقرون وكان فيها قبائل من اليهود المتعربة ، وكانوا يوصفون بالمكر والخبث ، وكان السموءل بن عاديا اليهودى ساكناً فيها . وقيل كانت للعمالقة ثم صارت لبنى عنزة بن أسد بن ربيعة . وكانت رديئة ، الهواء كثيرة الوخامة دائمة الوباء ، تولد الحميات وحماها شديدة ، قال بعض الشعراء فى ذلك :

ومن يك أمسى فى بلاد مقامه يسائل أطلالا بهـا لا تجاوب
وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموماً (بخيبر) صالب

وخيبر هذه كانت كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى الجهات القصوى وفى ذلك يقول خارجة بن ضرار المرى :

أخالد هـلا إذ سَفِهْتَ عشيرة كففْتَ لسان السوء أنْ يتدعَّرا[1]
فإنك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا[2]

وفيها اليوم بقايا من النخيل والبساتين يسكنها على خرابها بعض الفـلاحين والعبيد السود . و (فدك) قرية من قراها كان بها نخيل وصوافى للسلطان وزروع . قال الشاعر :

من عجـوة الشق تطوف بالودك ليست من الوادى ولـكن من (فدك)

وأما (الجار) فهى إلى الجنوب الشرقى من المدينة المنورة على نحو يوم وليلة

---

(١) نصب عشيرة على التمييز اى سفهت عشيرتك ، والدعارة : الخبث وتأتى بمعنى الشراسة فى الخلق ايضا . (٢) استبضع الشيء جعله بضاعة وهذا مثل وخص خيبر بالذكر لكثرة نخلها .

وهى فرضة المدينة وإليها ينسب جماعة ، منهم عبد الملك بن الحسن الجارى الأحول ، وإلى الجنوب الشرقى منها على نحو مرحلة ماء يقال له (بدر) وبقربه قرية (بدر) . وفى كتاب فتح البارى : هى قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها ، ويقال (بدر) اسم البئر التى بها سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها فكأن البدر يرى فيها . وحكى الواقدى إنكارَ ذلك كله عن غيرِ واحد من شيوخ بنى غفار ، وإنما هى مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد انتهى . وفيها كان يوم بدر وهو اليوم الذى انتصر فيه المسلمون على المشركين من قريش ، وكان ممن قتل فى ذلك اليوم بدر بن الأسود بن زَمْعة بن المطلب بن نوفل القرشى وكان من المشركين ، فرثاه أبوه بقوله :

أتبكى أن يضلَّ لها بعير ويمنعها من النوم السهودُ
فلا تبكِ على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدودُ

وعلى نحو منتصف الطريق بين الجحفة التى هى الآن خراب وبين مكة عُسفان ويقال لها مدرج عثمان وهى المعنية بقول عنترة العبسى :

كأنها يومَ صَدَّتْ ما تُكَلِّمُنَا ظَبْىٌ بِعُسْفان ساجى الطرف مطروف

وإلى شرق المدينة جبلا طيىءٍ وهما (أجا وسلمى) ذكروا أنهما اسما شخصين من العرب كأن أحدهما أجا يعشق سلمى ، وكانت العوجاء تجمع بينهما فصلبوهما على هذه الجبال فسميت بأسمائهم ، وهى المرادة بقول جابر بن رالان السنبسى :

ونحن غلبنا بالجبال وعزها ونحن ورثنا غيثاً وبدينا

أراد بالجبال أجا وسلمى وهضابهما . وبقول حسان بن حنظلة الطائى :

غضبتْ علىَّ أنِ اتصلتُ بطيىءٍ وأنا امرؤٌ من طيىءِ الأجبال

أى أجا وسلمى وعوارض ، وفى الحجاز جبال كثيرة وأودية وبلاد وقرى وعيون وآبار لا يمكننا استقصاؤها فى هذا المقام .

وأما تهامة

ففيها من البلاد مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، والقول بأنها من الحجاز مردود . وسيأتى تفصيل الكلام عليها إن شاء الله تعالى قريباً ، وكانت تسمى (أمَّ القُرَى) لكثرة القرى التى حولها ، وكان من بلاد هذيل فى طريق مكة على ليلتين نخلتان نخلة اليمانية يصب فيها (يَدَعان)[1] وهو وادٍ به مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبه عسكرت هوازن يوم حنين ، و (نخلة الشامية) ومجتمعها بطن مرّ . و (سَبُوحة) وهو وادٍ يصب فى نخلة اليمانية و (أبام) و (أبيّم) ، وكانا لهذيل وهما شعبان بينهما جبل مسيرة ساعة من النهار ، وقد قال فيهما السعدى من سعد بن بكر :

وإن بهذا الشعب بين أبيّم ... وبين أبام شعبة من فؤاديا

ثم فوق ذلك شعب يقال له (نحا) وكان لهذيل أيضاً . ثم (المراخ) وهى لهذيل وهى ثلاثة شعاب تصب من (داءة) . وداءة هى الجبل الذى يحجز بين نخلتين ، ثم (عشر) وهو شعب لهذيل يصب من داءة أيضاً . وقبالة عشر من شق نخلة الأخرى شعبان يقال لهما (الصهياتان) يجيئان من السراة وبينهما وبين (بسوم) جبل يقال له (المرقبة) كان مرقبة لهذيل تكون رقباؤهم فيه . وشعب يقال له (هلال) يجئ من السراة أيضاً من بسوم . ثم شعب مثل هذا أيضاً يقال له (خيص) وبسوم جبل لهذيل وشعبان يقال لهما (الكفوان) الكفو الأبيض والكفو الأسود وهما طريقان مختصران يصعدان إلى الطائف . وهما مغان لا تطلع عليهما الشمس إلا ساعة من نهار وهما شعبا سار وهما بلاد مهائف تهاف الغنم من المرعى الذى فى التآر ولا يرعيان إلا فى الصيف وهذه كلها أعلى نخلة اليمانية . ثم تصير إلى (البوبات) وهى صحراء ، وهى بلاد سعد بن بكر ،

(١) بالياء المثناة .

وقرن وهو بين المناقب والبوبات هو أقصى البوبات ، وهى وادٍ يجىء من السراة لسعد بن بكر ولبعض قريش وبقرن منبر . قال الشاعر :

لا تقمرنَّ على قرن وليلتـه لا إن رضيت ولا إن كنت مغتضبا

ثم تجلس إلى نجد تطلع (المناقب) والمناقب جبل معترض يقال له المناقب لأن فيه ثنايا طُرُقٍ إلى اليمن وإلى (اليمامة) وإلى أعالى (نجد) وإلى (الطائف) ففيه ثلاث معاقب ، عقبة يقال لها (الزلاّلة) ، وعقبة يقال لها (قرن) . وأخرى يقال لها (البيضاء) . وبالزلاّلة صخرة وهى التى أقحم منها (العقيلى) ناقته فاقتحمت من شق وذاك أنهم خاطروه ، ومن جبال مكة وشمايها جبل يقال له (الخندمة) وفيه بنيان مكة منهـا شعب بن عامر . ومنها (أجيادان) أجياد الصغير وأجياد الـكبير . ومنها (أبو قبيس) . ومن جبال مكة (ثور) وهو بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن ، و (ثبيران) وهما جبلان مفترقان يصب بينهما (أفاعية) وهوا واد يصب فى (منى) . قال الأصمعى (قُزح) هو القرن الذى يقف عنده الإمام (بالمزدلفة) قال : و (ثبير غيناء) و (ثبير الأعرج) وهما حراء . و (ثبير) و (أبو قبيس) و (الخندمة) جبال مكة وما حولها وأبناء طمر واحد وعير والجماء وذباب بالمدينة وقربها . والقموص بخيبر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره . ومن تهامة « ينبع » وهى مدينة قريبة من البحر كانت منزلا لبنى الحسن بن علىّ بن أبى طالب ولها فُرْضَة[1] على البحر نحو مرحلة منهـا وبقربها جبل (رضوى) الذى يحمل منه حجر المسن إلى الآفاق وأما « جُدَّة » فهى على البحر الأحمر وهى فرضة مكة « والحديبية » قيل بعضها فى الحل وبعضها فى الحرام « وتَبُوك » على نصف المسافة بين المدينة ودمشق ، وفيهـا كانت الواقعة العظيمة بين المسلمين والروم ، وفى تهامة كثير من البلاد منها ما قد خرب ، ومنها ما بقى على وضعه الأول ، ومنها ما حدث فى الأزمنة الأخيرة . وبيانها على وجه التفصيل فى كتب معدَّةٍ لذلك .

---

(١) محط السفن .

وأما العروض

فقد اشتمل على ناحيتين ، الأولى « اليمامة » وهى مدينة دون مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى المقدار ، كان بينها وبين البصرة ست عشرة مرحلة وبينها وبين الكوفة مثل ذلك ، وهى أكثر نخلاً من بلاد الحجاز وفيها مياه كثيرة ، ومنها كان (مُسَيْلَمَة الكذّاب)[1] الذى ادعى النبوة فى زمن النبى

---

(١) هو ابو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفى من اهل اليمامة كان صاحب اسجاع ومخاريق وتمويهات وادعى النبوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فمازال يخفى ويظهر ويقوى ويضعف واهل اليمامة فرقتان احداهما تعظمه وتؤمن به والاخرى تستخفه وتضحك منه ، وكان يقول : انا شريك محمد فى النبوة وجبريل عليه السلام ينزل على كما ينزل عليه وكان يقول يابنى حنيفة ما جعل الله قريشا احق بالنبوة منكم وبلادكم اوسع من بلادهم وسوادكم اكثر من سوادهم وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وجدالناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بنى حنيفة فيه فقام يوما خطيبا فقال بعد حمد الله والثناء عليه : اما بعد فاما هذا الرجل الذى تكثرون فى شأنه فكذاب بثلاثين كذابا قبل الدجال فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب واظهروا شتمه وعيبه وتصغيره وهو باليمامة يركب الصعب والذلول فى تقوية امره ويعتضد برجال ابن عنفوه وهو ينصره ويذب عنه ويصدق اكاذيبه ويقرأ اقاويله التى منها :

والشمس وضحاها ، فى ضوئها ومجلاها ، والليل اذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فادركها حتى اتاها ، واطفأ نورها فمحاها ، ومنها : سبح اسم ربك الاعلى ، الذى يسر على الحبلى ، فاخرج منها نسمة تسعى ، من بين احشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس فى الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى الى اجل ومنتهى ، والله يعلم السر واخفى ولا تخفى عليه الآخرة والاولى .

وكتب مسيلمة الكذاب الى النبى صلى الله عليه وسلم كتابا قال فيه : الى النبى محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله اما بعد فانى قد اشركت فى الأمر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم يعتدون ولا يعدلون ، وختم الكتاب وانفذه مع رسولين فلما قرىء الكتاب على النبى صلى الله عليه وسلم قال لهما ما تقولون ؟ قالا نقول كما قال ابو ثمامة ، فقال اما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما ، واملى فى الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدىَ اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتابا يذكر فيه انه جعل له الامر من بعده فصدقه بنو حنيفة وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه ان يدعو لمريضهم ويبرك لمولودهم وجاءه قوم بمولودهم فمسح رأسه فقرع وجاءه رجل يسأله ان يدعو لمولود له بطول العمر فمات من يومه ولما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه وارتدت العرب بعث ابو بكر رضى الله عنه خالد ابن الوليد الى حرب اهل الردة فاوقع بهم وانتصف منهم ثم أمره أبو بكر (رض)

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه . ومنها أيضاً (زَرْقاء اليمامة)[1] وكانت مشهورة بحدّة البصر ومزيد الفطنة والذكاء ، ويقال : إنها كانت تبصر من مسيرة أيام ولها قصص شهيرة . وفى اليمامة أيضاً بلاد أُخر هى اليوم خراب . الناحية الثانية بلاد البحرين ، ، وهو قطر متسع مجاور لبحر فارس كثير النخل والثمار والمشهور فيه من البلاد « هَجَر » بفتح الهاء والجيم ، وكانت هذه البلدة قاعدة البحرين وخربها القرامطة عند استيلائهم على البحرين ، وبنوا مدينة (الاحساء) ونزلوها وصارت إذ ذاك قاعدة البحرين ، وهى مدينة كثيرة المياه والنخيل والفواكه . وبينها وبين (اليمامة) نحو أربعة أيام ، وفيها غير ذلك من البلاد المتسعة والقُرى والمياه .

وأما نجد

فهى أطيبُ أرضٍ فى جزيرة العرب ، ولذلك ترى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها ويترنمون بِرُباها وريّا عُطْرِها قال قائلهم :

بقصد اليمامة ومقارعة مسيلمة ففعل وزحف اليها فى وجوه المهاجرين والأنصار وتلقاه مسيلمة فى خيله ورجله ولما كان يوم اليمامة حمى الوطيس واشتدت الواقعة والتجا بنو حنيفة وفيهم مسيلمة الى حديقة سميت من بعده حديقة الموت فاقتحمها خالد رضى الله عنه والمسلمون ووضعوا فيهم السيوف وقتل الله مسيلمة فاشترك فى قتله وحشى بحربته وعبد الله بن الزبير بسيفه وفتح الله تعالى اليمامة على المسلمين وأفاء عليهم الغنيمة

(١) العرب تضرب المثل بها فى جودة البصر وحدة النظر ويقال أن اليمامة اسمها وبها سميت بلدها اليمامة ثم اضيفت الى البلدة فقيل زرقاء اليمامة واسم البلدة جو وربما قيل زرقاء الجو كما قال ابو الطيب المتنبى :

وابصر من زرقاء جو لأنني ... اذا نظرت عيناى شآءهما علمى

وهى امراة من جديس كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام على مايذكر اهل الأخبار والقصص ، والنفس تنفر من تصديق مايذكرون ، قالوا : ولما قتلت جديس طسما خرج رجل من طسم الى حسان بن تبع فاستجاشه وارغبه ، فخرج فى جيش جرار فلما كانوا من جو على مسافة ثلاثة أيام صعدت الزرقاء السطح فنظرت الى الجيش وقد أمروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها فقالت ياقوم قد أتتكم الشجرة أو أتتكم حمير وقد أخذت أشياء تجرر اى تسحب فلم يصدقوها فقالت : أحلف بالله لقد ارى رجلا ينهش كتفا أو يخصف نعلا فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها فاذا فيها عروق سود من الأثمد والله أعلم

أقولُ لِصاحبي والعيسُ تَهْوى ... بنا بينَ المُنيفَةِ فالضمارِ :(١)

تَمَتَّعْ من شَميمِ عَرارِ نَجْدٍ ... فما بعدَ العشيّة من عرارِ (٢)

ألا يا حبّذا نفحاتُ نجدٍ ... وريّا روضهِ بعد القِطارِ (٣)

وأَهْلُكَ إذ يحلُّ الحيُّ نجداً ... وأنت على زمانك غير زارِي (٤)

شُهورٌ ينقضين وما شَعَرنا ... بأنصافٍ لهنّ ولا سِرارِ (٥)

وقال عبد الله بن الدمينة الخثعمى(٦)

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجْدِ ... لقد زادنى مسراكِ وجداً على وَجْدِ (٧)

أإنْ هتفتْ ورقاء فى رَوْنَقِ الضُّحى ... على فَنَنٍ غَضِّ النباتِ من الرَّنْدِ (٨)

بكيتَ كما يَبْكِى الوليدُ ولم تكن ... جَليداً وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدِى (٩)

وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يَمَلُّ وأنَّ النأىَ يَشْفى من الوَجْد

بكلٍّ تداوَيْنا فلم يَشْفِ ما بنا ... على ذاك قربُ الدارِ خيرٌ من البعْد

على أنَّ قُرْبَ الدار ليسَ بنافعٍ ... إذا كان مَنْ تهواه ليس بذى وُدِّ

وقال الصِّمة بن عبد الله

حَنَنْتَ إلى رَيّا ونفسُكَ باعدت ... مزاركَ من ريّا وشعبا كما معا(١٠)

---

(١) المنيفة : ماء لبنى تميم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار كان حق العطف ان يكون بالواو لأن بين لاتدخل الا بين شيئين متباينين او الأشياء الا اذا أريد بين أجزاء المنيفة فيصير المنيفة كاسم الجمع نحو القوم والعشيرة (٢) التشميم مصدر ويقال تمنع بكذا ومن كذا والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، وقوله من عرار من لاستغراق الجنس (٣) النفح تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة هنا ، والقطار جمع قطر وهو المطر (٤) زرى عليه : عابه وازرى به قصر به (٥) سرار الشهر آخره والمعنى أن الزمان المذكور شهور مضت وما علمناها باتصافها ولا بأواخرها لما كان فيه من اللذه وطيب العيش (٦) الدمينة أمه وهو احد بنى عامر بن تيم الله ويكنى ابا السرى وهو شاعر اسلامى مجيد محسن وعده جرجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » من شعراء الجاهلية وهو خطأ بين لايخفى على ذى بصيرة فليحذر من سقطاته وزلاته ، بل ودسائسه (٧) الصبا ريح القبول ، وهاجت : ثارت والمعنى الا ياصبا نجد متى كان هبوبك من نجد التى هى أرض المحبوب فلقد زادنى مسراك حزنا على حزن أى ماكان منك هبوب الا كان منى وجد (٨) الورقاء : الحمامة التى مال سوادها الى البياض ، والرونق: الضياء ، والرند : نوع من الطيب ، والفنن : الغصن الناعم والغض : الطرى (٩) الجليد : القوى ، والنأى : البعد (١٠) الحنين : تألم من الشوق ، وريا اسم امرأة ، وباعدت أبعدت والواو فى الموضعين من البيت واو الحال ، والمزار الزيارة ، والشعب : الحى

فما حَسَنٌ أنْ تأتِىَ الأمْرَ طائعاً · وتَجْزَعَ إنْ داعى الصبابةِ أسمعا
قِفَا وَدِّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى · وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يُوَدَّعا(١)
بنفسىَ تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبا · وما أحسنَ المصْطافَ والمتَرَبَّعا(٢)
وليست عشياتُ الحمى برواجعٍ · عليك ولـكن خلِّ عَيْنَيْكَ تدمعا
ولما رأيت البِشْر أعرضَ دوننا · وحالت بناتُ الشوق يحْنِن نُزَّعا(٣)
بَكتْ عَيْنِى اليسرى فلما زجرتُها · عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا(٤)
تَلَفَّتُّ نحوَ الحىِّ حتى وجدتُنى · وجِعْتُ من الإصغاء ليتاً وأخْدَعا(٥)
وأذكرُ أيامَ الحمى ثم أنثنى · على كَبِدى من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

وفى نجد بلاد كثيرة ، وفيها أرض العالية التى كان يَحْميها كُلَيب بن وائل وأفْضى بذلك إلى قتله وانتشابِ حرب البَسُوس التى استقامت مدة مديدة وأعواماً عديدة ، وقد ألف أبو لغدة الأصفهانى كتاباً فيما كان فى نجد من البلاد والقُرى والجبال

---

(١) الحمى : موضع فيه ماء وكلاء يمنع الناس منه ، والنجد كل ما ارتفع من تهامة الى ارض العراق (٢) الألف واللام فى الربا عوض عن المضاف اليه والربا جمع ربوة وهى ما ارتفع من الأرض ، والمصطاف : مكان الصيف ، والمتربع : مكان الربيع والمعنى أفدى بنفسى تلك الأرض لطيب رباها العجيب وحسن فصلها صيفا وربيعا (٣) البشر جبل بالجزيرة ، وأعرض : أبدى عرضه وجانبه ، وحالت : تحركت ، وبنات الشوق : نوازع الحنين كأطفال الحب وهذه استعارة لطيفة جميلة وأراد بها مسببات الشوق وآثاره ، والنزع جمع نازع أى مشتاق (٤) بكت عينى جواب لما فى البيت قبله : والعجب كل العجب من بعض ائمة اللغة المتقدمين فانه لما تكلم على هذا البيت قال « واختلف فى معناه الصحيح انه كان أعور والعين العوراء لاتدمع » فهلا نظر الى قوله واسبلتا معا ، والذى اراه أنه لما رأى البشر أعرض دونه وتحركت مسببات الشوق بالحنين مشتاقة الى نجد دمعت عينه اليسرى والانسان كثيرا ما اذا اشتاق الى الشىء هو مغرم به وحظى برؤيته تدمع احدى عينيه فتطاوعها الأخرى ، وقوله فلما زجرتها الخ يريد أنه لما منعها من البكاء الذى يشعر بالجهل بعد الحلم وتيقن أن البكاء لايفيد مع اليأس من القرب طاوعتها اليمنى فدمعتا معا ، والظاهر أن المراد بالجهل بعد الحلم الجزع بعد الصبر (٥) تلفت التفت ، والليت صفحة العنق ، والأخدع عرق فيها ، والاصغاء الميل ولبتا واخدعا منصوبا على التمييز ، والمعنى لما حان الفراق صرت أكثر من الالتفاتات جهة الحى حتى وجدت نفسى وجع الليت والاخدع لدوام التفاتى تحسرا فى اثر الفائت من أحبابى ودبارهم

والمعادن والمياه ومن ملكها من قبائل العرب فى سالف الأيام ، ومن جملة ما ذكر فى كتابه ؛ قال ابن الأعرابى : نجد اسمان السافلة والعالية ، فالسافلة ما ولى العراق . والعالية ماولى الحجاز وتهامة . وقال الأصمعى : إذا جُزْتَ ذات عِرْق إلى البحر فأنت فى تهامة ، وإذا جُزْتَ وَجْرة وَغَمْرَة فأنت فى نجد إلى أن تبلغ العُذيْب ، وغمْرة فى طريق الكوفة . ووجرة فى طريق البصرة إلى هنا ذكر نجد . قال : يقول بعض الناس : إذا بلغتَ العُذيْب من ناحية الكوفة وهى من الكوفة على مرحلة فأنت فى نجد إلى أن تبلغ حدَّ تهامة . وقال الأصمعى : إذا جاوزت عجلز من ناحية البصرة فقد أنجدتَ ، وإذا بلغتَ من ناحية الكوفة سميراء أو دونها فقد أنجدتَ إلى أن تبلغ ذات عرق ، فإذا تصوبت فى ثنايا ذات عرق فقد أتهمت ، ويقال : إذا خرجت من المدينة على مُشَرِّفها أفضل الصلاة وأكمل السلام فأنت منجدان تتصوَّبَ فى مدارج العرج فإذا تصوبت فيها فقد أتهمت إلى مكة المكرمة . قال : ويقول أهل المدينة أخذت التهامية أم النجدية ؛ فالتهامية التى على عُسْفان والجحفة ، والنجدية التى طريق الرَبَذَةِ . قال : وللبصرة إلى مكة طريقان : أما أحدهما : فالصحراء عن يسارك وأنت مُصْعِدٌ إلى مكة ليالى ، فإذا ارتفعت فخرجت من فلج فأنت فى الرمل فإذا جاوزت النباج والقريتين فقد أنجدتَ ، وإذا أخذتَ طريق الْمُنْكَدِرِ إلى كاظمة فثلاث إلى كاظمة ، وثلاث فى الدوِّ . وثلاث فى الصمان ، وثلاث فى الدهناء . وعن غيره قال بعضهم : إذا جاوزت الحفر حفر أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه ، وهو حفر بنى العنبر كان أبو موسى احتفر فيه ركيَّةً فأنت فى نجد . وقال بعضهم : حدُّ نجد من النِّباج وهو لبنى عبد الله بن عامر ابن كريز . ويقول بعضهم : إذا جُزْتَ القصيم فأنت فى نجد إلى أن تبلغ ذات عرق ثم تتهم ، والقصيم موضع كان ذا غضى فيه مياه كثيرة ، وقرى منها القريتان قريتا ابن عامر أحدهما يقال لها : العسكران . قال : وكان أهل القصيم يسكنون فى خيام الخوص ، وهى منازل بنى عبس وغيرهم وفيه نخل كثير وهو من عمل

المدينة ويقال حد القصيم قاع بولان وهى مفازة . قال : والقصيم رمل وبالقصيم ماء لبنى أسد فى الرمل عليه خيام من الخوص كثيرة يقال له الحويرثية . قال الشاعر :

على الرَّبْع الذى بِحُوَيْرِثاتٍ   من الله التحيةُ والســــلامُ

وبالقصيم عجلز[1] وهى ماءه لبنى مازن وهى المنصف بين البصرة ومكة قال الراجز :

الله نجّـاك من العجالِزِ   ومن جبـال طَخْفة النواشز[2]

والعجالز رحب ، وعجلز وما حولها من المياه ورحب ماء لبنى مازن بالقصيم أيضا . وقد ذكر هـذا المؤلف رحمه الله جميع القرى والجبال والمياه والمعادن وما ورد من الشعر فى ذلك . قال بعض شعراء العرب يذكر بعض منازل نجد ويتشوّقها ، وهو قائد بن حكيم الربى :

خليليَّ إنْ حانت بمصر مَنِيَّتى   وأزمعتما أن تحفرا لى بها قبرا[3]

فلا تنسيا أن تقرآ لى على الغضى   ونجدٍ سلاماً لا قليلاً ولا نزرا[4]

وإن سرت ياسبحان ربى بالغضى   أوالمَرْتِ من نجد مخيسة صعرا[5]

---

(١) ورد فى القاموس وشرحه التاج : عجلزة بالكسر رملة بالبادية بازاء حفر ابى موسى وتجمع على عجالز ذكرها ذو الرمة فقال :

مررن على العجالز نصف يوم   وادين الأواصر والخـــــلالا

قال الصاغانى ولم أجد البيت فى شعر ذى الرمة فى قصيدته التى اولها :

اناخ فريق جيرتك الجمالا   كأنهـم يريدون احتمـــالا

فى نسختى من ديوانه التى قابلتها وصححتها باليمن والعراق ولكنه يقطر منه قطرات عذوبة أنفاسه وسلاسة الفاظه وانما هو لابن احمر والرواية وقضين وقد وقع ذكر العجالز فى رجز اهاب بن عمير العبسى :

قاظ القريات الى العجالز   يرد شعب الجمح الحوامز

وهى جمع عجلزة التى ذكرها الجوهرى بعينها ، قال الزبيدى ومما يستدرك عليه برملة عجازة ضخمة صلبة وكثيب عجاز ضخم صلب والعجالز مياه بضة بنجد هكذا ذكره فى مختصر البلدان ويمكن أن يكون المراد فى الرجز فتأمل (٢) طخفة جبل احمر حذاؤه ابار ومنهل ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء ، والنواشز : المرتفعة (٣) يقال أزمعت الأمر وعليه أجمعت او ثبت عليه كزمعت (٤) الغضى : شجر وخشبه من اصلب الخشب ولهذا يكون فى فحمه صلابة (٥) المرت : المفازة بلا نبات أو الأرض لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها

وقال أيضاً

متى العيسُ من مصر بنا رافعاتنا ... إلى نجد أو باد لعينى قلالها

ومنزج إليها الطرف حتى يرده ... قموس القرى فى البعد يخفق آلها

على متن عاديّ كأن أماره ... رجال تنادى أفلتتها جمالها

وقوله ومنزج أى يسوق نحوها الطرف ينظر إليها ويعنى بقموس القرى هضبة . وقال عباس بن خليل النصرى ينوح على بنى جَذِيمةَ بن مالك بن نصر ، ويقال إن القائل مرار الفقعسى :

ولقد أرى الثَّلَبوتَ يألف نبته ... حىّ كأنهم أولو سلطان(١)

ولهم بلاد طالما عرفت بهم ... صحر الملا ومدافع السبعان

ومن الحوادث لا أبا لأبيكم ... إن الأجيفرَ قسمة شطران

طردت مخاضَ بنى أُنَيْفٍ عنوة ... سبحانك اللهمَّ ذا السبحان

طردوه إن لاقوا غلاماً واحداً ... ونَسُوا مواثق معقد الإيمان

فلو الهديم لقوا أو ابنى دهمج ... عرفوا التملُّك أسرع العرفان

سكنوا شُبَيْثاً والأحصَّ وأصبحت ... نزلت منازلهم بنو ذبيان(٢)

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحوا ... حتى تُقيمَ الخيل سوق طِعَانِ

وإذا فلان مات عن أُكرومة ... رقعوا معاوِزَ فقده بفلان

وقد أحلنا استيفاء بلاد نجد وقراها وجبالها ومعادنها وغير ذلك على كتاب الأصبهانى السابق ذكره .

وأما اليمن

فهذا إقليم عظيم متسع الأرجاء ، متباعد الأطراف والأنحاء ، لم تزل محمودة

(١) الثلبوت كجبروت واد أو أرض بين طىء وذبيان (٢) شبيث والأحص موضعان بتهامة وموضعان بحلب وفى المثل : تخطى الى شبيثا والأحص ، قال فى الفرائد : شبيث ماء لبنى الأضبط ببطن الجريب فى موضع يقال له دارة شبيث ، والأخص : موضع هناك ، قاله جساس لكليب حين طعنه فقال أغثنى بشربة ماء فقال تجاوزت شبيثا والأحص ، يعنى ليس حين طلب الماء يضرب لمن يطلب شيئا فى غير وقته

على ألسنة الأصفياء ، لما أودع الله فيها من البركة فى جميع الأشياء ، وكانت تسمى الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وأثمارها ومراعيها وريعها . قال الكلاعى فى قصيدته :

هى الخضراء فاسألْ عن رُباها ‏ يُخبرك اليقينَ المخبرونا
ويُمْطِرها المهيمنُ فى زمان ‏ به كل البرية يَظْمَئُونا
وفى أجبالها عِزٌّ عزيز ‏ يظل له الورى متقاصرينا
وأشجارٌ منوِّرَة وزرع ‏ وفاكهة تروقُ الآكلينا

وأرض اليمن مقسومة ثلاثة أقسام : قسم برارى سهلة ، وقسم جبال وعرة ، وقسم بحر . فعدَّ أبو الحسن الكلاعى من البرارى السهلة مواضع شرقية ، ومواضع غربية ، فمن الشرقية مأرب ونجران وحضرموت وجوف همدان والشحر وبيحان . وعدَّ من الغربية زبيداً وعلافقة وعسيراً وسردد ومورا وأرض حكم وهى من المبيضة إلى جلى ، قال : وفى هذه البرارى والسهول من المنافع والفضائل والخير الطائل ما لا يحصى له عدد ، ولا يبلغ له أمد ، وعدّ من قسم الجبال . جبال اليمن المشهورة بالشُموخ والسَعَة ، والخصْب والمَنَعَة ، والجناب والرفعة ، وهى صبر ومخلاف جعفر ودخر وبعدان ووصاب وعتمة وأريمة وبرع وحفاش وملحان وحضور وتيس ومسور والشرف وجبل هنوم ، وذكر أن فيها من الخيرات والفضائل ما لا يخفى إلاّ على جاهلٍ أو متجاهل ، وكم فيها من البساتين والعيون الجارية والفواكه والروعات ، والأشجار والثمرات ، والمعاقل المنيعة ، والحصون القاهرة . مما لا يوجد فى كثير من الديار مثله ، ولا يوصف شكله . وعدّ أيضاً جزء البحر وما يخرج منه إلى اليمن فقال : يخرج منه اللؤلؤ والمَرْجان والعنبر الذكىّ . قال : وأما الذى كان يصل إلى اليمن من البلدان البعيدة بواسطة البحر فالدرّ واليافوت وأصناف من المسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفُلْفُل والحديد ، هذا كله من بلاد الهند . وأما الذى كان يَصِلُ من الصين فالحرير

والقصب . وأما الذى كان يَصِل من عمان وأرض فارس فكثير من التُحف التى يطول ذكرها .

بعض ما كان فى اليمن من المعادن

ذكر فى كتاب نشر المحاسن اليمانية إن فى اليمن كثيراً من المعادن ، منها مَعْدِنُ عَشَم وَمعْدِنُ ضنكان وهما معدنا ذهب جليلان . ومعدن القفاعة من أرض حكم وهو دونهما . ومعدن فى أرض بنى محيد وهو دونه . وأما معادن الفضة فإن فيها مَعْدن الرصاص وهو موضع بين فهم بطن من همدان وبين خولان العالية وبين مراد ، وهو معدن جليل كان اعتماد أهل اليمن عليه فلما ضعفت السلطنة تقالت العرب عليه وخربت قرية الرصاص وكان أهلها من العُرَنيين[1] فانتقلوا إلى صنعاء . وأما معادن الجزع واليقران والعقيق فهما جميعاً بأرض مقرى من مخاليفِ اليمن الشرقية . وأما حجارة الحديد فإن فى اليمن جبالا كثيرة يصلح منها الحديد بعضها بعدن أبْيَن وبعضها بأرض وادعة بين صعدة والحجاز ، وفى نجران أيضاً جبل من حديد . ومنها بيجان ضرب من حديده سيوف كثيرة كانت مع ولد سبأ بمأرب لم يكن لها فى السيوف قياس ولا مثيل .

ما كان فى اليمن من القصور والمبانى الشهيرة

كان فى اليمن حصون كثيرة ، ومساكن عامرة ، وقصور عجيبة فاخرة ، منها : قصر غُمْدَانَ الذى كان بصنعاء وهو قصر عجيب فاخر أسَّسه — كما فى كتاب نشر المحاسن اليمانية — أزالُ بنُ قَحطان بأمر أخيه يعرب بناه عشرين طبقةً بعشرين سقفاً بين كل سقفين عشرين ذراعاً وجعل فيه مائةَ مسكنٍ ، وكان أعلى غُرَفه ممرَّداً بالقوارير . وذكر بعض المؤرخين : أن قصر غمدان هو بظاهر صنعاء اليمن وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب

---

(١) عرنة بالضم اسم قبيلة ورهط من العرنيين ارتدوا فقتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فى الصحاح .

الارتفاع لأنه سبع طبقات وفيه مالا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة . بناه الملك شُرَحْبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد بن يعفر بن السكسك ابن وائل بن حمير ، وأقام فيه مدة ملكه ثم صار بعد ذلك دار الملك للتبابعة . وذكر بعضهم : أن غُمْدان قصر باليمن بناه يَشْرُخُ بأربعة وجوهٍ أحمر وأصفر وأبيَض وأخضرَ ، وبنى داخِلَهُ قصراً بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذِراعاً . وعلى كل قول من هذه الأقوال أن قصر غُمْدان كان من أعاجيب المبانى فى وقته فلذلك أكثر شعراء الجاهلية من ذكره فى شعرهم ونوهوا بشأنه . ومنها : ظفار وهو قصر الملك أبرهة ، وقد كان أيضاً من الأبنية العظيمة . ومنها : سَلْحيْنُ وهو قصر بناه الحارث الرائش بين صنعاء ومأرب . ومنها : ناعظ قصر ملوك همدان . ومنها : بينون قصر بناه تُبَّعُ الدائد بأرض عنتر . ومنها : صرواخ لسعد بن خولان . ومنها : قصر العشب . ومنها : قصر العنقاء . ومنها : موكل قصر فى المشرق بناه أبرهة ذو المنار بن الحارث الرائش . ومنها : براقين ومعين قصران مقتبلان بالجوف . ومنها : تلعم قصر همدان بريدة . ومنها : هكر والأهجر قصران فى أرض عبس . ومنها : دورم لصهر أبرهة بن الصباح . ومنها : أعماد لسنام بذى شان ، وهو من ولد سبأ الأصغر .

ومن المدن الشهيرة باليمن « صنعاء » وكانت من أحسن البلاد مساكنَ وأطيبها وأصحها هواء ، يقال إن شتاءها فى غاية البرودة . ومع ذلك لا يحصل منه ضرر لأحد . وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها وكانت تحاكى دِمَشْق الشام لكثرة مياهها وأشجارها وهى معتدلة الهواء حسنةُ الأسواق واسعة التجارة . وكانت كرسىّ ملوك اليمن فى الزمان القديم ، وهى شرقىّ عدن فى الجبال ، وكانت فى الزمن القديم تسمى أزَالَ . ولما كانت هى وما حولها فى الأزمنة الأخيرة تحت حَوْزة إمام الزيدية استحدث عليها حصن تعز ، فصارت إذ ذاك منزلا لبنى رسول ملوك اليمن وهو حصن فى الجبال مُطِلٌّ على التهائم وأرض زبيد وفوقه منتزه

كان يقال له (صهلة) قد ساق إليه صاحب اليمن المياه التى فوقه وبنى فيه أبنية عظيمة فى وسط بستان هناك . ومنها « زبيد » وهى قصبة التهائم وموضعها فى مستوى من الأرض والبحر عنها أقل من يوم ، وفيها نخل كثير وكان عليها سور دائر فيه ثمانية أبواب ، وهى إلى الغرب من صنعاء ولها فُرْضَةٌ على البحر تسمى (علاقفة) وبينها وبين البحر خمسة عشر ميلا ، وإلى الجنوب منها على شط البحر أيضاً « مدينة المخا » التى يجلب منها البن وعلى أربع مراحل من المخا بيت الفقيه وهى من الأراضى التى ينبت فيها البن أيضاً . ومنها « عدن » ويقال لها عدن أَبْيَن سميت باسم بانيها وهى مدينة على ساحل البحر أعنى بحر الهند جنوبى باب المندب بميلة إلى الشرق ، وكانت مورد حط وإقلاع لمراكب الهند ومصر وغيرها ، وهى فى ذيل جبل وتمامه سور إلى البحر ، وكان لها باب إلى البر وآخر إلى البحر ، وأرضها مجْدبة تنقل إليها المياه فى الغالب على ظهور الدواب ، وهى اليوم بيد الأفرنج وهى فُرْضة اليمن . ومنها : (نجْران) بفتح النون . وسكون الجيم ، وهى قطعة عظيمة من أرض اليمن ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء ، وهى بين عدن وحضرموت ، ويقال : هى جبال من شمال اليمن إلى شمال صعدة تبعد عن صنعاء نحو عشرة مراحل ، وكانت من بلاد همدان بين قرى ومدائن وعمائر ومياه . وبها كان أفعى الجرهمىّ الذى تحاكم إليه مضر وربيعة وإياد وأنمار أولاد نزار بوصية من أبيهم ، على ما سيجىء إن شاء الله تعالى بيانه فى الكلام على الفراسة . ومن مشاهير بلاده « ظفار » بالظاء المشالة والفاء وهى مدينة على ساحل (جون) يخرج من بحر الهند ويطمن فى الشمال نحو مائة ميل ، وهى على طرفه بينها وبين صنعاء أربعة وعشرين فرسخاً وعلى شمالها رمال الأحقاف التى كان بها عاد ، وهى قاعدة بلاد (الشحر) ويوجد فى أرضها كثير من النبات الهندى كالنارجيل والتنبل[1] ، وفيها بساتين على سواق ، وفى سواحلها يوجد العنبر .

(١) قال فى القاموس والناموول التانبول وهو ضرب من اليقطين طعم ورقه

ومن البلاد التى كانت فى اليمن — مأرب

وتسمى سبأ باسم بانيها ، وهو سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان أول ملوك اليمن فى قول واسمه عبد شمس ، وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبى السبى من ولد قحطان . وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وثمانين سنة ثم سمى به الحىّ ثم سمى به مسكنهم ، وكانت هذه البلدة من أحسن بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وهى إلى الجنوب الشرقىّ من صنعاء لم يكن يومئذ فى بلاد العرب أَعْمَر منها . قال عبد الملك فى شرح قصيدة بن عبدون : إنّ أرضَ سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المُجِدِّ وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر فمزقوا كل ممزق . وذكر غيره من المؤرخين الثقاة : أن (مأرب) كانت لطيفةَ الهواء ، حسنةَ التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى إن الغريبَ إذا دخلها وفى ثيابه قمل أو براغيث ماتت ولذلك نطق القرآن فى شأنها أنها بلدة طيبة . وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وأنه ليس فيها حَرٌّ يؤذى فى الصيف ولا برد يؤذى فى الشتاء وكان عن يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال : إن لكل منزل من منازل البلد جنة عن اليمين وأُخرى عن الشمال ، وذلك بسبب ما كان من كثرة المياه فى أرضها . فقد روى أن بلقيسَ لما ملكت اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها وراودوها على أن ترجع فأبت ، فقالوا : لترجِعِنّ أو لنقتلنك . فقالت لهم : أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعونى . فقالوا : نطيعك. فرجعت إلى واديهم ، وكانوا إذا مطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام ، فأمرت فسدّ ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السدِّ ، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض ، وبنتْ من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجاً على عدة

كالقرنفل يمضغونه بقليل من كلس وهو مشه مطرب باهى مقو اللثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند بمازج العقل قليلا وهو ينبت كاللوبياء ويرتقى فى الشجر

أنهارهم ، وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان . وقيل : إن الذى بناه هو حمير أبو القبائل اليمنية . وقيل : بناه لقمان الأكبر ابن عاد ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، وكان فرسخاً فى فرسخ ولم يزالوا فى أرغد عيش ، وأخصب أرض ، حتى إن المرأة تخرج وعلى رأسها المِكْتَلُ[(١)] فتعمل بيديها وتسير فيمتلىء المكتل مما يتساقط من أشجار بساتينهم إلى أن أعرضوا عن الشكر وكذبوا الأنبياء عليهم السلام ، فسلَّط الله تعالى على سدِّهم الخُلْدَ[(٢)] فتوالد فيه فخرقه ، فأرسل سبحانه سيلا عظيما فحمل السَّد وذهب بالجنان وكثير من الناس ، وكان ذلك السيل على ما قيل فى ملك ذى الأذعار ابن حسان فى الفترة ، وكان أول من أحس بحادثة (سيل العرِم) قبل وقوعها بزمن طويل فخرج من اليمن عمرو بن عامر مُزَيْقيَا لما أنذرته بذلك طريفة الكاهنة ، وسيأتى ذكر ما قالته من الأسجاع عند الكلام على الكهانة إن شاء الله تعالى مع بيان منْ تفرَّق من القبائل والمواضع التى سكنوها . وفى أرض (مأرب) اليوم بقايا من آثارهم وكتابات كثيرة منقوشة بالخطّ الحميرى قد اهتدى إلى معرفتها بعض السياحين من الأفرنج الذين طافوا أنحاء هذه البلاد بواسطة مقابلتهم ما نقش منه على الآثار التى اكتشفوها بالخط الحبشى والكوفى والفينيقى والعبرانى ، وعرف بذلك ما كان للقوم من المدنيه والمعارف الكلية .

وفى اليمن بلاد أخرى كثيرة لا يمكننا استيعابها فى أقسام اليمن الخمسة ، وهى : حضرموت ومهرة وعُمان وشحر ونجران ، ولذلك كتب معدة . وكان اليمن منازل العرب العاربة منْ عادٍ وطَسْم وَجَدِيس وأميم وجرهم وحضرموت ومنْ فى معناهم . ثم انتقلت ثمود إلى الحجرِ من أرض الشام ، فكانوا بها حتى هلكوا وهلك أيضاً من هلك من بقايا العرب العاربة باليمن من عاد وغيرهم ، وخلفهم فيه بنو قحطان بن

---

(١) بكسر الميم الزنبيل وهو ما يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره والجمع مكاتل مثل مقود ومقاود (٢) الخلد بالضم ويفتح الفأرة العمياء .

عامر على قول فعرفوا بعرب اليمن وبقوا فيــه إلى أن خرج منه عمرو فى حادثة السيل ، ثم خرج منه بقاياهم وتفرقوا فى الحجاز والشام وغيرها . وكانت الحجاز أرض بنى عدنان إلى أن غزاهم بختنصر ، ونقل من نقل منهم إلى الأنبار من بلاد العراق ، ولم تزل العرب بعد ذلك تنتشر فى الأقطار إلى أن كان الفتح الإسلامى فتوغلوا فى البلاد حتى وصلوا إلى بلاد الترك وما داناها وصاروا إلى أقصى المغرب وجزيرة الأندلس وبلاد المشرق وملأوا الآفاق ، وصار بعض عرب اليمن إلى الحجاز ، فأقاموا به وربما صار بعض عرب الحجاز إلى اليمن فأقاموا به وبقى من بقى منهم فى الحجاز واليمن إلى يومنا هذا .

***

ومن بلاد العرب وصابئها فى بوادى الشام — تدمر

وهى بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حمْص وهى على شرقيها وأرضها سباخ ، وكان فيها شجر ونخيل وزيتون ، وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور ، وكان لها سور وقلعة وبينها وبين حمْص نحو ثلاث مراحل : وكذلك بين سلمية وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلا ، وبينها وبين الزحمة مائة ميل وميلان ، وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام . واختلف فى بانيها فقال بعض المؤرخين : إنه سليمان عليه السلام فإن هذه البلدة كانت مستقره وأن الجن قد بنتها له بالصُّفَّاح والعَمَد والرخام الأبيض والأشقر ، وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى فى مــدح النعمان ابن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يشبهه ... وما أُحاشى من الأقوام من أَحد [1]

إلا سليمان إذ قال الآلهُ له ... قمْ فى البرية فاصددْها عن الفَنَد [2]

---

(١) ولا ارى فاعلا الخ أى لا أرى احدا يفعل الخير يشبهه ، ولا احاشى اى لا استثنى ، ومن فى قوله من احد زائدة (٢) يريد بسليمان ابن داود عليهما السلام وهو فى موضع نصب على البدل من موضع أحد وان شئت على الاستثناء ويروى اذ قال المليك له ، والفند الخطأ .

وخيّس الجن أنى قد أذنت لهم　　يبنون تدْمُرُ بالصفّاح والعَمَدِ[1]
فمن أطاع فاعقبْـه معاقبـةً　　كما أطاعك وادلله على الرشـد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة　　تَنْهى الظلوم ولا تقعـد على ضمد[2]
ألا لمثلك أو من أنت سابقُهُ　　سبقَ الجواد إذا استولى على الأمد[3]

ذكر ذلك الثعالبى فى تفسيره ، وهذا من مذاهب العرب على سبيل المبالغة لا الحقيقة كما كانوا يزعمون أن عبْقَراً اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شىء عجيب ، فزعموا أن (تدمر) من بناء الجن لما يرون من قوتها الباهرة وصنعها العجيب . وقال بعضهم . انها من أبنية العرب الأقدمين ، فى القاموس تدْمر كتَنْصُر بنت حسّان بن أُذَيْنَة بها سميت مدينتها وهذا هو المعوّل عليه ، ولعل مراد من قال : إن بانيها سليمان عليه السلام أنه حسنها وزاد فى أبنيتها والله أعلم « ومنها تيماء » وهى حاضرة طىء وبها الحصن المعروف (بالأبلق الفرد) المنسوب إلى السموءل ابن عاديا ، وكانت بلدة عظيمة بين الحجر أرض ثمود وبين الشام ، وفيها عين ماء ونخيل . ويقال : إن أصحاب الأَيْكة الذين بعث الله تعالى شعيباً إليهم أيضاً سكنوها ، وفى ذلك الحصن يقول السموءل فى قصيدته الشهيرة :

لنـا جبَلٌ يحتلُّه من نُجيرُهُ　　منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليلُ
هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره　　يعزُّ على من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به　　إلى النجم فرع لا ينال طويل

ومنها « مدين » وهى قريبة من البحر إلى غربى (الحجْر) مائلا إلى الجنوب وهى التى قال فيها كثيّر عزّة :

رهبان (مدْين) والذين عهدْتهم　　يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها　　خرّوا لعزّة ركّعـاً وسجودا

---

(١) الصفاح : الحجارة كالصفائح عراض ومعنى ذال ويروى وخبر الجن انى قد أمرتهم الخ (٢) الضمد : الحقد (٣) أى لاتقم على الحقد الا لمن يماثلك فى حالك أو من فضلك عليه كفضل السابق على المصلى يعنى أو من يباريك ، والأمد : الغاية

وقد خرجت هذه البلدة من أمد بعيد ، وزمان مديد ، وقد عفت طلولها ورسومها ومنها « دُومه الجندل » كان رجل اسمه الأُكَيْدر فى بلدة قرب عين التمر فى العراق تسمى (دومة) وكان يزور أخوالاً له من بنى كلب فى أطراف الشام فبينما هو يسير فى بعض الطريق ، إذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بأرض تسمى الجندل فأعاد (الأكيْدر) بناءها وغرس فيها الشجر وسماها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة العراق) وكان بنو كلب ينزلونها ، ومنهم زهير بن جناب الكلبى ، وهو القائل فى غزوهم لبنى بكر وتغلب على ماء الحنىّ :

أين الفرارُ من حَذر المو ت وإذ تتقون بالأسلاب

إذ أسرْنا مُهَلْهِلا وأخاه وابنَ عمرو فى القيد وابن شهاب

وسبينا من تغلب كل بيضا ء رقُود الضحى بَرُود الرضاب

ومنهم زهير بن شريك الكلبى ، وهو القائل لأسماء زوجته :

ألا أصبحتْ أسماء فى الخمر تعذل وتزعم أنى بالسِّفاه موكّلُ

فقلت لها : كفى عتابك نصْطَبِحْ وإلا فبينى فالتغرُّبُ أَمْثَلُ

« والحِجْر » بكسر الحاء المهملة هى إلى الجنوب من (دومة الجندل) وبها كانت ديار ثمود . وأما الحجر بالفتح فهى فى اليمامة بقرب مدينة اليمامة وهما منازل بنى حنيفة وبعض مضر ، وبنو حنيفة هؤلاء من بكر بن وائل . ومنهم مسيلمة الكذاب وهم من العرب المستعربة من قبيلة ربيعة الفرس ، وكان فى دومة الجندل من المبانى العظيمة (مارد) وهو حصن للسموءَل بن عاديا الغسانى ، كما أن (الأبلق) له أيضاً غير أن (مارداً) فى دومة وكان مبنياً من حجارة سود ، والأبلق كان فى أرض تيماء كما سبق وقد بنى من حجارة سود وبيض ، وقد قصدتهما (هند) ملكة الجزيرة المعروفة بالزباء وعجزت عنهما فقالت : تمرَّد مارد وعز الأبلق ، فذهب هذا القول مثلاً . ومن مبانى العرب فى بادية الشام (صرح الغدير) وهو

من أبنية ملوك غسان فى أطراف (حوران) ممايلى (البلقاء) بناه ثعلبة بن عمرو ابن جفنة الغسانى ، ومنها (القناطر) و (أذرح) و (القسطل) وهى من أبنية جبلة ابن الحارث بن ثعلبة المذكور . ومنها (الحفير) و (مصنعة) و (قصر أبير) و (معان) وهى من أبنية الحارث بن جبلة المذكور وكان يسكن فى البلقاء . ومنها قصر (الفضا) و (صفات العجلات) و (قصر منار) وهى من أبنية عمرو بن الحارث المذكور فإنه أنشأ فى دمشق وضواحيها عدةً من القصور الشامخة منها هذه الأبنية . ومنها (قصر السويداء) و (قصر حارب) بناهما النعمان بن عمرو الذى مرّ ذكره . ومنها (قصر برقع) بنى فى البرية لجبلة بن الحارث أخى عمرو المذكور سابقاً ، وكان صاحب تدمر . و (قصر بركة) و (ذات أنمار) بناه له عامله القين . ومنها (جبَلَةَ الأيهمية) وهى بلدة بناها جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان ، وهو الذى أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصر وأقام عنده والقصة مشهورة[1] ، وكان يضرب به المثل فى عزة الملك فيقال أعز ملكا من جَبَلَةَ بن الأَيْهم .

ما جاور العراق من بلاد جزيرة العرب

اعلم أن كثيراً من العرب فى حدود العراق من أرض جزيرة العرب والبعض منهم كان فى العراق أيضاً ، واختلف المؤرخون فى سبب ذلك فذهب ابن خلدون فى تاريخه عند الكلام على الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب أن بختنصر ملك بابل هو الذى أسكن بعضهم فى الحيرة بسبب ما كان له مع التبابعة وغيرهم من الوقائع والحروب ، وبعد موته انتقلوا منها إلى الأنبار فانتشروا بعد

(١) حدثنا استاذنا المؤلف انه رأى ابن الشجرى فى كتابه « المختلف والمؤتلف » المخطوط ينكر على من يدعى تنصر جبلة انكارا شديدا ويبالغ فى الرد على من يقول بذلك فأحببت ان اقف على هذه المسألة الغامضة فأخبرنى أنه ارسل نسخة الكتاب — وهى قديمة وحيدة فى العالم — الى بعض الوراقين فى مصر للطبع والنشر فتجرأ ذلك الخؤون الأثيم على بيعها الى بعض المستشرقين فهى اليوم فى خزائن كتب الافرنج والأمر لله

ذلك بأرض العراق . وقال الهمدانى فى كتاب جزيرة العرب : سار تُبَّع أبو كوب فى غزوته الثانية فلما أتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن غُنم بن دُوس على أثقاله وتخلف معه من ثقل من أصحابه فى نحو اثنى عشر ألفـــاً ، وقال : تحيروا هذا الموضع فسمى الموضع الحيرة ، وهو من قولهم تحير الماء إذا اجتمع وزاد ، وتحير المكان بالماء إذا امتلأ ، فمالك أول ملوك الحيرة وأبوهم . وكانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البرارى الغمير والقطقطانة وحفية . وكان مكان الحيرة أطيب البلاد ، وأرقه هواء ، وأخفه ماء ، وأعذبه تربة ، وأصفاه جواً ، قد تعالى عن عمق الأرياف واتضع عن حزونة الغائط واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام ، لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرها ، والحيرة أرض فى العراق فيها بلدة كانت قريبة من الكوفة . وغير الهمدانى يقول إن الحيرة بلدة على حافية البادية وحافة سواد العراق وإن تُبَّعاً لمـا سار من اليمن إلى خراسان وانتهى إلى موضعها ليلاً تحير فنزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة وصارت مقام الملوك اللخميين من آل النعمان بن المنذر ، وبها تنصر المنذر بن امرىء القيس وبنى بها الكنائس العظيمة ، وأقام قصراً سماه (الزوراء) وهو المعنىّ بقول النابغة الذبيانى :

وتسقى إذا ما شئت غير مصرد   بزوراء فى أكنافها المسك كارع

« والأنبار » مدينة كانت فى العراق أيضاً على شرقىّ نهر الفرات بينها وبين بغداد نحو عشرة فراسخ ، سميت بهذا الاسم لأن الأكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام ، وبعد الفتح الإسلامى ظهر فيها جماعة من أهل العلم ، وبعد أنْ مصَّر سعد ابن أبى وقاص الكوفةَ نقل إليها أهل الحيرة فخربت . وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة ، منها قصر (الخَوَرْنق) وكان فى الحيرة بظهر الكوفة بناه رجل من الروم يقال له سنمار للملك النعمان الأكبر ابن امرئ القيس اللخمى الملقب بالمحرّق فى مدة عشرين سنة ، فلما فرغ من بنائه ألقاه الملك المذكور من

أعلاه فقتله لئلاّ يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب بذلك المثل ، فقالوا : جزاه جزاء سنمَّار .

جزانى جـزاه الله شر جزائه جزاءَ سنمَّارٍ وما كان ذا ذنْبِ
سوى رصِّه البنيان عشرين حجةً يعلى عليه بالقراميد والسكْب[1]
فلما رأى البنيانَ تمَّ سحوقُه وآض كمثل الطَّوْد والباذخ الصعب[2]
وظن سنمَّار به كل خـيرة وفاز لديه بالمودَّة والقرب
رمى بسنمَّار على أمِّ رأسه وذاك لعَمْرُ الله من أعظم الخطب[3]

وقال سليط بن سعد

جزى بنوه أبا الغيلان عن كِبَرٍ وحسن فعل كما يُجْزى سنمَّارُ

ويروى أن السبب فى قتل سنمَّار غير ذلك ، وقصة قصر (الخورنق) مفصلة فى ترجمة (عدى بن زيد) من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وهناك أيضاً ترجمة سليط بن سعد ، ويقال : إن هذا الملك بعد أن مكث فى الملك ثلاثين سنةً كان جالساً يوماً فى هذا القصر ، فتأمل فى الملك الذى له والأموال والذخائر التى عنده وكانت على جانب عظيم ، فقال : لا خيْر فى هذا الذى ملكته اليوم ويملكه غيرى غداً ، ومن ثمَّ زهد فى الملك وأمر حجابه أن يعتزلوا عن بابه ، ولما جنَّ الليل التحف بكساء وخرج سائحاً فى الأرض فلم يره أحد بعد ذلك . ومنها (السدير) وهو قصر آخر من آخر من مبانى النعمان الأكبر أيضاً . ومنها (الصنبر) وهو حصن من مبانى امرئ القيس بن النعمان الأعور . ويقال : إن ما وقع لسنمار كان مع هذا الملك بعد أن بنى له هذا الحصن . وقد لهجت الشعراء بذكر هذه القصور وغيرها من مبانى العرب القديمة . قال الأسود بن يعفر :

أهل الخوَرنق والسَّدير وبارقٍ والقصر ذى الشرفات من سنداد

---

(١) القراميد جمع قرميد وهو آجر او شيء يشبهه وقيل شيء كالجص يطلى به وقيل حجارة محرقة أو خزف مطبوخ ، والسكب : النحاس او الرصاص (٢) آض اى صار ، والطود : الجبل ، والباذخ : العالى : وقوله سحوقه أى ارتفاعه (٣) ام رأسه أى دماغه

وقال المنخّل اليشكرى من أبيات كانت سبب عزل عمر رضى الله تعالى عنه له عن العمل :

ولقد شربت من المُدا مة بالصغير وبالكبير
وإذا سكرت فإننى رب الخورْنق والسَّدير
وإذا صحــوت فإننى رب الشُويْهة والبعير

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة ، والمنخل هذا كان من شعراء الجاهلية ، وكان ينادم النعمان بن المنذر وهو الذى سعى بالنابغة الذبيانى إلى النعمان فى أمر المتجردة امرأة النعمان فلحق بآل جفنة الغسانيين ، وقال أبو العتاهية :

لَهْفى على الزمن القصير بين الخورْنَق والسدير

والشعر فى ذلك كثير ، وقد تركنا ذكر كثير من مبانى العرب القديمة فى العراق ، وقد ذكرت فى كتاب معجم البلدان وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الباب ، واعلم أن العراق ليس من جزيرة العرب ، والسواد سواد كسرى الذى فتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنـه ، وهو من أرض العراق سمى سواداً لسواده بالزرع والأشجار لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى قل الزرع فيها والشجر كانوا إذا خرجوا من أرضهم إليه ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار ، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد فى الأسامى كما قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ، وكان أسود اللون :

وأنا الأخضرُ منْ يعرفنى أخضر الجلدة من نَسْلِ العربْ

فسموا خضرة العراق سواداً ، وسمى عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض ، والعراق فى كلام العرب هو الاستواء ، قال الشاعر :

سقتم إلى الحقّ لهم وساقوا سياق من ليس له عراق

أى ليس له استواء وبعضهم يقول : إنما سمى بهذا الاسم تشبيهاً له بعراق المزادة وهو موضع الخرز المستطيل فى أسفلها . وبعضهم يقول : هو جمع عرق

لاشتباك عروق النخل والشجر فى تلك الأرض . وحد السواد طولا من (حديثة الموصل) إلى (عبادان) وعرضاً من عُذَيْب القادسية إلى حلوان ، فطوله مائة وستون فرسخاً ، وعرضه ثمانون فرسخاً : فأما العراق فهو العرض مستوعباً لأرض السواد عرفا ، ويقصر عن طوله فى العرف لأن أوله من شرقىّ دجلة العلث . وفى غربيها حربى ، ثم يمتد إلى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان فيكون طوله مائة وخمسة وعشرون فرسخاً يقصر عن طول السواد بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وعرضه مع تبعه فى العرف ثمانون فرسخاً كالسواد . قال قدامة بن جعفر : يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ وطول الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة ، ويكون بذراع المساحة وهى الذراع الهاشمية تسعة آلاف ذراع ، فيكون ذلك إذا ضرب فى مثله وهو تكسير فرسخ فى فرسخ اثنين وعشرين ألف جريب وخمسمائة جريب ، فإذا ضرب ذلك فى عدد الفراسخ وهى عشرة آلاف فرسخ — بلغ مائتى ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب وخمسمائة جريب ، يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسباخ والآجام ومداس الطرق والمحاج ومجارى الأنهار وعراص المُدُن والقرى ومواضع الأرحاء والبريدات والقناطر والشاذروانات والبنادر ومطارح القصب وأتانين[1] الآجرّ وغير ذلك الثلث وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب يراح منها النصف ويكون النصف مزروعاً مع ما فى الجميع من النخل والكرم والأشجار . فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة فى مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً . كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك مساحة جميع ما يصلح للزرع والغرس من أرض السواد ، وفى التعذر أن يستوعب زرع جميعه وقد يتعطل منه بالعوارض والحوادث ما لا ينحصر . وقد قيل : إنه بلغت مساحة السواد فى أيام كسرى بن قباذ مائة ألف وخمسين ألف ألف جريب ، فكان مبلغ ارتفاعه

---

(١) جمع أتون بالتشديد موقد النار مولد وتردد فيه الجوهرى .

مائتي ألف ألف وسبعة وثمانين ألف ألف درهم بوزن سبعة ، لأنه كان يأخذ على كل جريب درهماً وقفيزاً ثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال . وإن مساحة ما كان يزرع منه على عهد عمر رضى الله تعالى عنه من اثنين وثلاثين ألف ألف جريب إلى ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، والكثير من أراضى العراق اليوم مَوات وغالب البلاد خراب .

ديار بكر بن وائل وربيعة ومضر

ذكر بعض المؤرخين : أن ثلاث قبائل من عرب اليمن وهم بكر وربيعة ومضر هاجروا من اليمن عند حادثة سيل العرم ، وسكنوا شمال ما بين نهرىْ دجلة والفرات وهو المسمى بالجزيرة . فسميت حينئذ تلك النواحى ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر ، وفيها يجرى نهر (الخابور) وقد قتل فى هذا المحل الوليد بن طريف التغلبى ، فرثته أخته ليلى بأبيات منها قولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنك لم تحزَنْ على ابن طَريف

وصحارى هذه الديار مملوءة كلأً وأزهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديار داراً ، وطيرها كثير جداً لا تكاد تستطيع له عدًّا . فما من زهر تنشقه عرانين السمع إلا وهو مزهر فى رياضها ، وما من طير يقع فى شباك الوهم إلا وهو حائم على غياضها . ولم يكن فيها اليوم ممن كان فى الأعصر الخالية من أولئك القوم بل سكنها أناس مختلفوا الملل والأجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ، ولا فصاحة من مضى وانصراف ، وسبحان من أخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الأدب وربيعه ، وجلها بلاقع لا تجد فيها من يتخذ لفهم كلام العرب ذريعه ، وكم كان فيها من أديب حلا نظمه ونثره ، وأديب رمى عن قسىّ الإصابة لا شُلّ عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنانتها نثر السهام ، ونظمهم على الرغم منهم فى ديوان القبور تحت أطباق الرَّغام[1] ، سقى الله تعالى ثراهم ، ما يوجب فى دار

(١) التراب .

الإقامة ثراهم ، وهناك بلد أحدث بعد الزمن الجاهلي اسمه اليوم (آمد) هواؤه لا يهواه جسد أحد ، أسرق للصحة من شر شظاظ[1] ، وأسرى فى الأعصاب من سريان المعانى فى الألفاظ ، ولذا ترى حُمّاه فى حماه عاكفة ، والأمراض فى كل بيت من بيوته طائفة ، فلما تمرّ السنة على رضيع پدرّها ، ولم تهزه أم ملدم[2] فى مهد حجرها ، فأغلب أهلها حتى الأحداث ، صفر الوجوه كأنما خرجوا من الأجداث ، ولا ترى منهم من يرد من ماء شبيبته ظمأى العين ، اللهم إلا أن يكون ذلك واحداً أو اثنين ، وربما يتفق من غلط الزمان ، واحدة من النساء عليها مسحة الجمال كنساء سائر البلدان ، وقبل أن تضحك تبكيها الأسقام ، وتطمثها[3] على فراش الأمراض الآلام ، هكذا وصفه (الجدّ) عند مروره على هذه الديار . ثم قال بعد كلام : وسبب تغير الهواء بزعم ساكنيها ، مزيد تعفن فى أرجائها مما فيها ، فترى فى أحيائها مياهاً أنتنَ من صديد الأموات ، وأوحالاً تغيرت أحوالها مما جرى على رأسها من القاذورات ، وفى طرقاتها أيضاً مايجرى على نحو هذا الطريق . ويسرى برفيق من الجيف أمامه ألف فريق ، وكذلك يزعمون أن ارتفاع السور ، أحد أسباب تلك الأمور ، وهو فى بادى النظر كلام منحط عن القبول ، وآسن[4] لاتشربه أفواه العقول ، ولا يبعد أن الارتفاع ، يكون سبباً لاحتباس الهواء فى تلك البقاع ، فيزداد تعفنا ، ويعظم المَنَا . ثم قال : ويقابل (آمد) من

---

(١) شظاظ ككتاب لص من بنى ضبة كان يصيب الطريق مع مالك بن الريب المازنى ، قيل انه مر بامرأة من بنى نمير وهى تعقل بعيرا لها وتتعوذ من شر شظاظ وكان بعيرها مسنا وكان هو على حاشية من الابل وهى الصغير فنزل وقال لها أتخافين على بعيرك هذا شظاظا فقالت ما آمنه عليه فجعل يشغلها وجعلت تراعى جمله بعينها فأغفلت بعيرها فاستوى شظاظ عليه وذهب به وهو يقول :

رب عجوز من نمير شهبرة علمتها الأنقاض بعد القرقرة

الأنقاض : صوت صغار الابل ، والقرقرة : صوت مسانها ، فهو يقول علمتها استماع صوت بعيرى الصغير بعد استماعها قرقرة بعيرها الكبير (٢) هى الحمى قال أصحاب الاشتقاق هى مأخوذة من اللدم وهو ضرب الوجه حتى يحمر ، وقال بعضهم ملذم بالذال من قولهم لذم به اذا لزمه (٣) اى تمسها والطمث النكاح بالتدمية ومنه قيل الحائض طامث (٤) اى متغير الريح والطعم

الشمال قرية نصارى تسمى (بقطريل)[1] ونهر دجلة بينهما يشبه ورب الفلك الدوار دائرة المعدل ، وهـذه غير قطربل بغداد ، التى جاءت فى حديث ضعيف الإسناد ، وكان حانا لكل خمرة تنسب إليه ، وتنقل إلى ما حواليه ، فتقادم الزمان ، وتغير ما كان ، واستولى الحين على الحان ، ويبس الكرم وتكسرت الدنان ، فلم يبق محتسب الليالى والأيام ، إلا حديثاً تدور به فى حانات الكتب سقاة الأقلام فى كاسات الأرقام :

زمان بما فيه انقضى فهو ماترى أحاديث تجلوه على السمع أفواه

انتهى ما هو المقصود . ويوجد فى بعض النواحى من هـذه الديار بعض بنى مضر وهم العرب الطائيون ، ومن المدن التى كانت فيها (سروج) و (الرقة) و (رحبة مالك بن طوق) أحد قواد هارون الرشيد ، و (قرقيسيا) وكانت مدينة هند بنت الريان التى قتلت جَذِيمَةَ الأبرش ، وكانت هذه البلدة من ديار مضر . ومن مدن هذه الجزيرة (دارا) التى أدار الإسكندر عليها فى فنائها من كؤس الفناء ما أدار ، قال فيها بعض الشعراء :

ولقـد قلت لِرَحْلى بين حرّان ودارا
اصبرى يا رحلُ حتى يرزقَ اللهُ حمارا

ومنها مدينة (نصيبين) وهى من ديار ربيعة ، وكانت مختصة بالورد الأبيض وليس فيها وردة حمراء ، ومنها كان يجلب إلى الآفاق ويجرى إلى القرية نهران أسود وأبيض ثم أنهما يتحدان وبعـد ذلك يتشعبان ، ويكونَ منهما منافع غزيرة للحرّاث وغيرهم . وعليهما معاً قنطرة نحو مائة ذراع وغاية ارتفاعها عن وجه الماء نحو ستة أذرع أو أكثر والمـاء يجرى من تحتها بشدة ثم ينصب ما يبقى منه بعد سقى المزارع فى (الخابور) ويختلط آخر الأمر بمـاء الفرات ولرداءة مائها ، وفساد هوائها كثرت فيها الحمى حتى يقال إنه شوهد أن عصافيرها تتساقط

---

(١) قال فى شفاء الغليل أعجمية لم تسمع فى شعر قديم وهو اسم بلدة

ميتة من أعالى الأشجار ، ولولا ذلك لغدت من أوسع البلاد ولعدّت منتزها أبهى من غُوطة دمشق الشام ، لما أن ترابها ينبت مالا يكاد ينبت بمكان ، واشتهر أنها كانت قبل بلدة واسعة فضيقتها كأمثالها جيوش البلاء وحوادث الأيام والليالى وهى اليوم تشتمل من البيوت على نحو ثلاثمائة وخمسين بيتاً . وعلى غربى دجلة قرية صغيرة تسمى « جزيرة ابن عمر » ومنها ابن الأثير الجزرى وغيره من الأفاضل الأعلام ، الذين تزينت بمؤلفاتهم نحور الأيام ، وليس هذا مقام ذكرهم . وهى بلدة هلالية الشكل ، ولكن لا نور فيها ولا فضل ، وذلك لوخامة هوائها ، وذَمامة أرجائها ، ولولا أن تكون دجلة عليها شفيقة ، لجملتها بمجازها جزيرة على الحقيقة ، وابن عمر الذى تنسب إليه ، وتعول فى الشهرة عليه ، قيل : هو يوسف ابن عمر الثقفى ، وفى معجم البلدان . جزيرة ابن عمر أحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وكان له إمرة بها سنة ما يتين وخمسين انتهى وفى تاريخ ابن المستوفى : ابنا عمرها أوس وكامل ابنا عمر بن أوس التغلبى ، وإليها تنسب الجزيرة المشهورة انتهى . وفى تاريخ ابن خلكان ما يتعلق بذلك . والمعول عليه ما فى معجم البلدان ، ويبعد ما فى تاريخ ابن المستوفى فى الجملة أفراد ابن دون تثنيته والله أعلم .

ومن مساكن العرب فى الجزيرة التى بين دجلة والفرات « الموصل » كان يسكن فيها وفى نواحيها كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر . قال فى اللباب : هى بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وفى آخرها لام ، مدينة من الرابع من الجزيرة ، وهى على دجلة فى جانبها الغربى انتهى . وفاتحها فى زمن الفاروق رضى الله تعالى عنه قيل : عياض بن غنم الأشعرى ، وقيل : خالد بن الوليد فتحها عنْوةً . وسميت بالموصل على ما هو المشهور لأن نوحاً عليه السلام سبر الماء هناك وهو فى السفينة فوصل المسبار الأرض . وفى المراصد : سميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة والفرات ، وقيل : وصلت بين دجلة والفرات .

وقيل : لأنها وصلت بين (بلد) و (الحديثة) . وقيل : إن الملك الذى أحدثها كان يسمى الموصل انتهى ، ولا جزم بشىء مما ذكر والله أعلم وقريب من الموصل المعمورة اليوم محل يسمى الموصل القديمة وهذا ظاهر فى أن المعمورة حديثة وفى معجم البلدان ما يدل على أن تلك القديمة هى حديثة الموصل فوصفها بالقديمة لعله لخرابها اليوم . وقد وصفها الجد فى كتابه غرائب الاغتراب إذ مر على هذه البلدة بأوصاف جميلة فقال : هى عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء ، طعامها هنىّ ، وشرابها مرىّ ، واسطة البلاد وسُرَّتُها ووجهها الصبيح وغرتها ، تلدُ الربيع فى السنة مرتين ، فهى بين البلاد أم الربيعين ، فأراضيها فى فصلين قد علا جنسها ، وتجرد عن عوارض الكدر إنسها ، وهى كالعرائس فى حليها وزخارفها ، والقيان (١) فى وشيها (٢) ومطارفها (٣) زرابيّها (٤) وإنماطها (٥) ناشرة حبرها (٦) ورياطها (٧) :

كأنَّ نسيم الريح فى جَنَباتها نسيمُ حبيبٍ أو لقاءُ مؤمّلِ

لا عيب فيها سوى أنها أيام الربيع ، تسرق العمائم الخضر من السادة فتنشرها على سطوح دورها وتبيع ، وتقول : لا بأس على أم الربيعين ، لو سرقت عمائم أبناء الريحانتين ، ولعمرى إنَّ من اختبر وامتحن ، حكم بأن كلَّ روضة بالنسبة إلى رياضها خضراء الدِّمَن ، وأنها تنبت العلماء المحققين ، كما تنبت الأقحوان (٨) والنسْرين (٩) ، وتخرج الأخيار ، كما تخرج الأزهار ، وهذا أظهر من الشمس ، وأقوى تحققاً من الأمس ، فلا حاجة إلى التطويل ، بإقامة الدليل :

---

(١) جمع قينة وهى المغنية (٢) الوشى نوع من الثياب الموشية تسمية بالمصدر (٣) جمع مطرف ثوب من خزلة اعلام ويقال ثوب مربع من خز واطرفته اطرافا جعلت فى طرفيه علمين فهو مطرف وربما جعل اسما برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيها بالآلة (٤) الزرابى الطنافس المخملة واحدتها زربية (٥) جمع نمط بفتحتين ثوب من صوف ذو لون من الألوان ولا يكاد يقال للأبيض نمط (٦) الحبر على وزن عنب جمع حبرة على وزن عنبة ثوب يمانى من قطن او كتان مخطط (٧) جمع ريط وهو ثوب رقيق (٨) بالضم : البابونج كالقحوان بالضم والجمع أقاحى واقاح (٩) مشموم معروف فارسى معرب وهو فعليل بكسر الفاء فالنون اصلية او فعلين فالنون زائدة مثل غسلين ، قال الأزهرى ولا ادرى اعربى هو ام لا ؟

وليس يصــحّ فى الأعيان شيء متى احتاج النهار إلى دليل

و (نفحة الشمامة) تهدى من ليس له زكام ، إلى حمى بعض أولئك العلماء الأعلام ، وفى (الروض النضر) أريج فضلاء منهم ارتدوا رداء أحسن عصر ، ولا يـكاد يحيط نطاق ، بجميع من فاق منهم علماء الآفاق ، والأمر من البديهيات الأولية عند منصفى علماء العراق فهيهات أن يكون فيه بين اثنين فيهم نزاع وشقاق . . ومن مدن الجزيرة « عانات » وهى بلدة على شاطىء الفرات كثيرة النخيل والأشجار عذبة الماء والهواء ، وكانت فى الأزمنة المتقدمة موصوفة بجودة الخمر ، كما يدل ذلك قول الشاعر :

أمن بابلٍ أم من لواحظك السحرُ ومن (عانة) أم من مراشفك الخمر ؟

وهل ما أراه الموت أم حادث النوى وهل هو شوق بين جنبىّ أم جمر ؟

واليوم قـد كسرت أهلها حوادثُ الدهر ، وتركتهم لا يميزون بين الجمر والخمر ، وجرى عليها من المصائب ما جرى ، حتى غدت عاناتهم عورةً بين القرى ، هذا وفى هــــذه الجزيرة كثير من البلاد والقرى القديمة كانت تسكنها العرب أيام الجاهلية ، قد استوعبها أبو عبيد البـكرى فى معجم ما استعجم ، والحموى فى كتاب معجم البلدان ، وغيرهما فى كتب كثيرة ألفت فى هـذا الباب ، والله الموفق .

بعض ما كان دائراً على ألسنة الشعراء من المواضع

إن كثيراً من شعراء الجاهلية وغيرهم يذكرون فى بعض أشعارهم مواضع كانت تطيب بها نفوسهم ، وتهتز من بهجتها قدودهم ورؤسهم ، كالبُرَق والدارات ، والرياض والمنتزهات ، وقد ألف فيها بعض أهل الأدب كتباً مخصوصة بهذا المطلب . ولنذكر شيئاً منها فى هذا المقام ، ليـكون كالمثال لذوى الأفهام ، أما الدارات فهى جمع دارة وهى الدار غير أنها أخص فـكل دارة دار وليس كل دار يقال لها دارة ، ودارات العرب مخصوصة فى جزيرتهم كلها سهول بيض تنبت النِّصىّ والصليل ، وما

طاب ريحه من النبات ، وأنهاها صاحب القاموس إلى ما يزيد على المائة ، وادعى أنها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم عنها[1] . ثم ذكر ما أضيف إليه الدارات مرتبة على الحروف فراجعها . وقد ألف الشيخ أبو الحسين أحمد بن فارس كتاباً فى المواضع المعروفة بهذا الاسم . وقد أحببت أن أذكر منها بعض ما وجدته فى شعرهم ، وهى (دارة جُلْجُل) قال امرؤ القيس :

ألا ربَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالحٍ ولا سيما يوم بدارةِ جُلْجل

ودارة (صُلْصلٍ) قال جرير :

ولما حلَّ أهلكِ يا سُلَيْمى بدارةِ صُلْصُلٍ شَحطوا المزَارا

ودارة (مأسَل) قال عمرو بن لجأ :

لا تَهْجُ ضبطةَ يا جريرُ فإنْ هُمُ قتلوا من الرؤساء ما لم يقتلِ

قتلوا شتيراً وابن غولٍ وابنَه وابنى هتيم يوم دارة مأسَلِ

ودارة (السَّلَم) قال البكاء بن كعب :

ما كنت أوَّلَ من تفرَّقَ شملُهُ ورأى الغداةَ من الفراق يقينا

---

(١) أقول : وقد ذكر الاصمعى وعدة من العلماءعشرين دارة واوصلها العلم السخاوى فى شرح سفر السعادة الى نيف واربعين دارة واستدل على أكثرها بالشواهد لاهلها فيها ، وذكر المبرد فى اماليه دارات كثيرة وكذا ياقوت فى المعجم والمشترك واورد الصغانى فى تملكته احدى وسبعين دارة كمافى التاج، قال السيد العلامة عبد القادر بن احمد الحسينى فى فلك القاموس المحيط : راجعت وجزءا من أصله — اعنى العباب — من نسخة محفوظة فى خزائن آبائنا (رض) وقدجرى عليها قلم مؤلفها ثم قلم المجد (رح) فرأيت تلك الدارات جميعها ممدودة فى العباب وقدسها المجد عن سبع فاهملها من قاموسه عند النسخ ولكنه زاد المجد فى هامش العباب سبع دارات فزادها فى القاموس فلا ادرى هل زادها من (المجمل) او من غيره فلو عد مافى العباب وذلك مائة دارة ونيف ثم قال وقد وقفت على سبع دارات غير ذلك ولله الحمد — اكان أولى ، والدارات التى سها عن نقلها هى دارة احماد والذيب والذيبان وغور محلف والمزد وموقوع ، وظاهر مافى خطبة القاموس انه الم بجميع معانى اصلية بعبارة وجيزة وزادعليها فانظر مااهمله فى هذاالموضوع وقس عليه غيره ، وقال فى العباب واما دارة بغير اضافة فى قول خلف الاحمر : دويرات برد بين باب ودارة النخ ودارة ابن العمر ودارة بنجران ودارة الكلبى ودارة العبد ودارة المقطع فهذه ليست من دارات العرب وانما هى دورهم التى تختص بهم وهذه أسامى أصحاب الدور ، ودارات العرب مضافات الى جبال ومياه وامكنة

وبدارة (السَّلَم) التى شوقتها دمن يظلُّ حمامه يبكينا

وبهذا الشعر سمى هذا الشاعر البكّاء . فإن كثيراً من الشعراء كان يسمى ببعض ألفاظ شعره • ودارة (وَشْحَى) وقد تضم الواو . قال الشاعر :

لعَمْرُكَ إنى يوم أسفل عاقلٍ ودارة (وَشْحى) للهوى لتبُوعُ

ودارة (خنزَر) بفتح الخاء والزاى وسكون النون ، ويقال : خنزر بكسر الخاء والزاى . قال الجعدى :

ألمَّ خيال من أميْمَة مَوْهِناً طُروقاً وأصحابى بدارة (خَنْزَرِ)

ودارة (الجأْب) قال جرير :

أصاح أليس اليوم منتظرى صبحى نحيِّى ديار الحىِّ من دارة الجاب

ودارة (مَكْمَن) قال الراعى :

عرفت بها منازل كل حىٍّ فلم تملك من الطَّرب العيونا

بدارة مَكْمن ساقت إليها رياحُ الصيف آراماً وعِينا

ودارة (يمْون) ويقال أيضاً يموز بالزاى . قال الشاعر :

بدارة يمونٍ إلى جَنْب حشرم

ودارة (رَهْبَى) قال جرير :

بها كلُّ ذيَّال الأصيل كأنَّهُ بدارة رهْبى ذو سواد بن رائح

ودارة (الآرام) قال الشاعر :

فأبرق وأرعد إن العيس خلفت بنا دارة الآرام ذات الشقائق

ودارة (الرُّهَى) قال الشاعر :

بَرِئْت من المنازل غير شوق إلى الدّار التى بلوى أبان

ومن وادى القنان وأين منّى بدارات (الرُّهى) وادى القنان

ودارة (الصَّفائح) قال الأفوه :

وتبكيها الأرامل بالمآلي بدارات الصَّفائح والنصيل

ودارة (هضْب القليب) قال جميل :

أشــاقك عاقل فإلى الكثيب إلى الدارات من هَضْب القليب

ودارة (رُمْح) قال الشاعر :

كأنَّ النمْيرِىَّ الذى يتبعنــه بدارة رُمْحٍ ضالعُ الرجل أحْنَف

ودارة (مِحْصَن) ويقال : محضر . قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

ودارة مِحْصَن من ذى طـلوح فسرداح الشــامن فالضَّواحِى

ودارة (واسط) قال الشاعر :

ما قد أرى الدارات دارات واسطٍ فما قابلت ذات الصليل فجُلْجُل

ودارة (الجَلَد) قال الشاعر :

ألا يا ديار الحىّ من دارة الجلد سلمتِ على ما كان من قدَم العهْدِ

ودارة (الرِّمْرِم) قال الشاعر :

أعد نظراً هــل ترى ظعنهم وقــد جاوزت دارة رِمْرِم

ودارة (قَرْح) قال الشاعر :

حبسنَ فى قُرْحٍ وفى داراتها سبْعَ ليالٍ غــير معلوفاتها

ودارة (اليَعْضِيد) قال آخر :

أو ما ترى أضــعانها مخروة بين الدَّخول فدارةِ اليعضيد

ودارة (الخَرْج) قال الشاعر :

مخيسة فى دارة الخرْج لم تذق بلالاً ولم يســمح لها ببخيل

ودارة (الرَّدْم) قال قائلهم :

لعن سخط من خالق أو لقسوة تبدلت فرقياء من دارة الرَّدْم

وأما البرَق فهى جمع برقة بالضم غلظ كالأبرق ، وفى القاموس : وبُرَقُ ديار العرب تُنيفُ على مائة . منها : بُرْقة الأثماد والأَجاول والأَجْداد والأَجْوَل

وأحْجار وأحْدَبَ وأحْواذٍ وأخْرَمَ وأرْمام وأروَى وأظلمَ وأعْيارٍ وأفْعى والأمالحِ والأمْهار وأنقدَ والأوْجَرِ وذى الأوْداثِ وإبِر بالكسر وبارِق وثادِق وَثمثَمٍ وَالثَّوْر وَثَهْمَد وَالجبا وَحارِبٍ والحُرْضِ وَحَسْلةَ وحِسْمَى أو حُسْنَى والحصَّاء وَحِلّيتٍ والِحمَى وَحَوْزَةَ وَخاخٍ وَالخالِ والُخبَيْبَةَ وَالخرْجاء وَخِنْزِيرٍ وَخوٌّ وَخَيْنفٍ وَالدَّاثِ وَدَمْخٍ ورامَتَيْنِ وَرَحْرَحانٍ وَرَعْمٍ والرَّكاء ورُوَاوَةَ وَالرَّوْحان وَسُعْدٍ وَسِمْرٍ وَسُلْمانَيْنِ وَسُمْنانَ وَشمَّاءَ وَالشواجِن وَصادِرٍ وَالصَّرَاةِ والصَّفَا وضاحِكٍ وَضارِجٍ وطِحالٍ وعاذِبٍ وَعاقِلٍ وَعالِجٍ وَعَسْعَسٍ وذى عَلَقَى والعُنَابِ كغُرَاب وَعَوْهَقٍ والعِيرات وَعِيْهَل وَعِيهَم وذى غانٍ وَالغَنَى وَغَضْوَرٍ وَقادِمٍ وذى قار وَالقُلاخِ والكبَوان وَلَعْلَع وَلَفْلَفٍ واللَّكيكِ واللّوَى وَمأسَلٍ ومِجْوَلٍ وَمَرَوْراةَ وَمُكَتَّلٍ وَمُنْشِدٍ وَمَلْحُوبٍ والنَّجْدِ وَنُعْمِيٌّ والنِّيرِ ووَاحِفٍ ووَاسِطٍ وَواكف وَالْوَدَّاءِ وَهارِبٍ وَهَجِين وهولَى وَيَتْرَب واليمامة . هذه بُرَق العرب ، وتعيين مواضعها فى شروح القاموس وكذا ما ورد من الشعر فى ذلك كقول النعمان ابن المنذر :

وما اعتذارُكَ منه بعد ما جزعت أيدى المطىّ به برقاء شمليلا

وقال طَرَفَةُ بن العبد البكرى فى معلقته

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقة ثهْمَدِ تلوحُ كباقى الوَشْمِ فى ظاهر اليَدِ

وقال الكميت

وقد فاضَ غَرْبٌ عند برقاء جُنْدُبٍ لعينيك من عرفانِ ما أنتَ تعرِفُ

وقال ابن مُقْبل

طربت إلى الحىِّ الذين تحمَّلوا ببرقة أحواذٍ وأنت طَرُوبُ

وقال آخر

لمن الديارُ ببُرْقَةِ الأجدادِ عفَّتْ سوارٍ رسمَها وَغوادى

وقد ذُكِرَ فى معجم البلدان كثير من أسماء المواضع المشتركة ، وكذا

فى كتاب المشترك مما يطول الكتاب باستقصائه ، وما ذكرناه نبذة يسيرة بالنسبة إلى ما هنالك . والله الموفق لما هو الأولى فى الآخرة والأولى .

* * *

بيان حال مكة شرفها الله وما كانت عليه فى الجاهلية

اعلم أن الله تعالى قد ذكر مكة فى كتابه الكريم باسمين مكة وبكة فذكر مكة فى قوله عزّ وجلّ . (وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) . ولفظ مكة مأخوذ من قولهم تمككتُ المخ من العظم تمككا إذا استخرجته منه لأنها تمك الفاجر عنها وتخرجه منها على ما حكاه الأصمعى ، وأنشد قول الراجز فى تلبيته

يامكةُ الفاجرَ مُكّى مَكّا ولا تَمُكّى مذْحِجاً وعكّا[1]

وذكر بكة فى قوله عز وجل : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكّة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) . قال الأصمعى وسميت بكة لأن الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيها أى يدفع ، وأنشد قول الراجز :

إذا الشريب أخذتْه أكّه فخلّه حتى يبكّ بكّهْ[2]

واختلف الناس فى هذين الاسمين فقال قوم : هما لغتان والمسمى بهما واحد ، لأنّ العرب تبدل الميم بالباء فتقول ضربة لازم وضربة لازب لقرب المخرجين ،

---

(١) عك بن عدنان اخو معد وهو فى اليمن وقال بعض النسابين انما هو معد بن عدنان فاما عك فهو ابن غدنان من ولد قحطان وعدنان بالنون من ولد اسمعيل ، ومذحج كمسجد ابو قبيلة من اليمن وهو مذحج بن يحامر بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبا ، قال سيبويه : الميم من نفس الكلمة ، وفى القاموس: مذحج كمجلس أكمة ولدت مالكا وطيئا امهما عندها فسموا مذحجا ، وذكر الجوهرى اياه فى الميم غلط وان احاله على سيبويه ، انتهى . فتدبر .

(٢) الشريب الذى يسقى ابله مع ابلك : يقول فخله يورد ابله الحوض فتباك عليه اى تزدحم فيسقى ابله سقيه ، والاكه : الضيق والزحمة وآكه يؤكه اكا زاحمه وائتك الورد ازدحم معنى الورد جماعة الابل الواردة : والمعنى : اذا ضجر الذى يورد ابله مع ابلك لشدة الحر انتظارا فخله حتى يزاحمك .

وهذا قول مجاهد . وقال آخرون : بل هما اسمان والمسمى بهذا شيئان لأن اختلاف الأسماء موضوع لاختلاف المسمى . ومن قال بهذا اختلف فى المسمى بهما على قولين ، أحدهما : إن مكّة اسم البلد كله وبكّة البيت ، وهذا قول إبراهيم النخعى ويحيى بن أبى أيوب ، والثانى : أن مكّة الحرم كله وبكة المسجد ؛ وهذا قول الزهرى وزيد بن أسلم . وحكى مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : كانت مكة فى الجاهلية تسمى (صلاحا) لأمْنها ، وأنشد قول أبى سفيان بن حرب بن أمية :

أبا مطر هلمّ إلى (صلاح) فيكفيك الندامى من قريش[1]
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمَنَ أنْ يزورك رب جيش

وحكى مجاهد : أن من أسماء مكة (أم رحم) و (الباسّة) فأما أم رحم فلأنَّ الناس يتراحمون فيها ، ويروى أم زحم بالزاى من المزاحمة . وأما الباسة فلأنها تبسّ من ألحد فيها أى تحطمه وتهلكه ، ومنه قول الله تعالى « وبسَّت الجبال بساً » ويروى (الناسة) بالنون . ومعناه أنها تنس من ألحد فيها أى تطرده وتنفيه ، ولها أسماء أخر يطول شرحها . وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه من حرمة بيته حتى جعلها لأجل البيت الذى أمر برفع قواعده وجعله قبلة عباده أم القرى ، كما قال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) . وحكى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على رضى تعالى الله عنهم أن سبب وضع البيت والطواف به أن الله تعالى قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء[2] ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون) . فغضب عليهم فعادوا للعرش فطافوا حوله سبعة أشواطٍ[3] يسترضون

---

(١) هلم أى تعال مركبة من ها التنبيه ومن لم أى ضم نفسك الينا واستعملت استعمال البسيطة يستوى فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث عند الحجازيين وتميم تجريها مجرى رد وأهل نجد يصرفونها ، والندامى : جمع نديم ونادمه منادمة ونداما جالسة على الشراب .

(٢) سفك الدم يسفكه فهو مسفوك وسفيك صبه فانسفك .

(٣) جمع شوط وهو الجرى مرة الى الغاية وفى القاموس كره جماعة من الفقهاء ان يقال لطوفان الطواف اشواط .

ربهم فرضى عنهم ، وقال لهم : ابنوا لى فى الأرض بيتاً يعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ويطوف حوله كما فعلتم بعرشى فأرضى عنهم . فبنوا له هذا البيت فكان أول بيت وضع للناس . قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) الآية ، فلم يختلف أهل العلم أنه أول بيت وضع للناس للعبادة ، وإنما اختلفو هل كان أول بيت وضع لغيرها ؟ فقال الحسن وطائفة : قد كان قبله بيوت كثيرة . وقال مجاهد وقتادة : لم يكن قبله بيت . والقول الأول مرجح عند الجمهور ، وعليه أكثر المؤرخين وجمع من المفسرين . وفى قوله تبارك وتعالى (مباركا) تأويلان ، أحدها . ان بركته ما يستحق من ثواب القصد إليه . والثانى أنه أمن لمن دخله حتى الوحش فيجتمع فيه الظبى والذئب . (وهدى للعالمين) يحتمل تأويلين ، أحدها : هدى لهم إلى توحيده . والثانى : إلى عبادته فى الحج والصلاة . (فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) . وكانت الآية فى مقام إبراهيم تأثير قدميه فيه وهو حجر صلْد[1] ، والآية فى غير المقام أمْنُ الخائف وهيبة البيت عند مشاهدته وامتناع الطير من العلو عليه وتعجيل العقوبة لمن عتا[2] فيه ، وما كان فى الجاهلية من أصحاب الفيل ، وما عطف عليه قلوب العرب فى الجاهلية من تعظيمه ، وأن من دخله من الجبابرة وهم غير أهل كتاب ولا متبعى شرع يلتزم أحكامه ، حتى إنَّ الرجل منهم كان يرى قاتل أخيه وأبيه ولا يطلبه بثأره فيه ، وكل ذلك آيات الله تعالى ألقاها على قلوب عباده . وأما أمْنُهُ فى الإسلام ففى قوله سبحانه وتعالى (ومن دخله كان آمناً) تأويلان أحدها . أمْنٌ من النار ، وهذا قول يحيى بن جعدة . والثانى : أمْنٌ من القتل لأن الله تعالى أوجب الإحرام على داخله وحظر عليه أن يدخله محلا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح حلالا : (أحلت لى ساعة من نهار ولم تحلَّ لأحدٍ من قبلى ولا تحلُّ لأحد من بعدى) . ثم قال تعالى : (ولله

(١) صلد : الصلب الاملس كالصلد وزن كسفرجل. (٢) استكبر وجاوز الحد

على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) لجمل حجه فرضاً بعد أن صار فى الصلاة قبلة لأن استقبال الكعبة فى الصلاة فرض فى السنة الثانية من الهجرة ، والحج فرض فى السنة السادسة .

صفة الكعبة شرفها الله تعالى

اعم أن أول من تولى بناءها بعد الطوفان إبراهيم عليه السلام فإنه سبحانه قال : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فدل ما سألاه من القبول على أنهما كانا ببنائها مأمورين . وسميت كعبة لعلوها من قولهم كعبت المرأة إذا علا ثديها ومنه سمى كعب كعباً لعلوه وكانت الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام مع جُرهم والعمالقة إلى أن انقرضوا حتى قال فيهم عامر بن الحارث بن مضاض[1] ، ويروى أن اسمه عمرو :

وقائلةٍ والدمع سكْبٌ مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر[2]
فقلت لها والقلب منى كأنما ... يُلَجْلِجُهُ بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العوائر[3]
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... بعزٍّ فما يحظى لدينا المكاثر[4]

---

(١) كان الحرث بن مضاض بن عمرو بن سعد بن ارقيب بن هى بن نبت ابن جرهم الجرهمى قد نزل بقنونا من أرض الحجاز فضلت له ابل فبغاها حتى اتى الحرم فاراد دخوله ليأخذ ابله فنادى عمرو بن لحى من وجد جرهميا فلم يقتله قطعت يده فسمع بذلك الحرث واشرف على جبل من جبال مكة فرأى ابله تنحر ويوزع لحمها فانصرف بائسا خائفا ذليلا وابعد فى الأرض وهى غربة الحرث بن مضاض التى يضرب بها المثل حتى قال الطائى:

غربة نقتدى بغربة قيس بن زيد والحرث بن مضاض

وحينئذ قال الحرث هذا الشعر وهو قوله: وقائلة والدمع سكب مبادر الخ.

(٢) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلث من مكه وهو والصفا جبلان بها ، والسامر اسم الجماعة يتحدثون بالليل وفى التنزيل سامرا تهجرون . (٣) يقال عثر جده يعثر ويعثر تعس وفى المثل اعثره الله اتعسه . (٤) نابت من ابناء اسماعيل (ع) .

ملكنا فعززنا فأعظمْ بملكنا فليس لحيٍّ غيرنا ثمَّ فاخر(١)
ألم تنكحوا من غير شخص علمته فأبناؤه منّا ونحن الأصاهر(٢)
فإنْ تنثنِ الدنيا علينا بحالها فإنّ لها حالا وفيها التشاجُر
فأخْرجنا منها المليكُ بقدرة كذلك يالناس تجرى المقادر(٣)
أقول إذا نام الخلى ولم أنم : أذا العرش لا يبعد سهيلٌ وعامر(٤)
وبدلت منها أوجهاً لا أحبها قبائل منها حمير ويحابر(٥)
وصرنا أحاديثاً وكنا بغِبْطة بذلك عضّتْنا السنون الغوابر(٦)
فسحّت دموع العين تبكى لبلدة بها حرم أَمْنٌ وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه يظلُّ به أمنا وفيه العصافر(٧)
وفيه وحوشٌ لا تُرابُ أنيسةٌ إذا خرجت منه فليست تغادر(٨)

وقال أيضاً يذكر ساكنى مكة الذين خلفوا فيها بعدهم من بكر وَغَبْشان :

يا أيها الناس سيروا إن قصركم أنْ تُصبحوا ذات يوم لا تسيرونا(٩)
حثوا المطىَّ وأرخُوا من أزمَّتها قبل الممات وقضّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا دهرٌ فأنتم كما كنّا تكونونا

وخلفهم فيها قريش بعد استيلائهم على الحرم لكثرتهم بعد القلة ، وعزّتهم

---

(١) اى كانت لنا العظمة على غيرنا فلا احد يفخر علينا .
(٢) يريد بذلك مصاهرة اسماعيل لهم وهو خير شخص فأبناؤه منا ونحن الاصاهر ومعناه معلوم . (٣) يحتمل ان يريد بالمليك الله عز اسمه فهو الذى سلط عليهم من اخرجهم لما عصوه ويحتمل ان يريد عمرو بن لحى ملك خزاعة ورئيسهم . (٤) اذا العرش الهمزة للنداء وذا العرش هو الله ، وعامر جبل من جبال مكة . (٥) اى وبدلت عن مكة او اهلها ، ويحابر قبيلة لحمير.
(٦) اى حكايات بين الناس بما جرى علينا كما قال تعالى فى أهل سبا : وجعلناهم احاديث الآية ، والسنون الغوابر المقحطة لان الارض تغبر اذا اجدبت وسنون الجدب تسمى غبرا لا غبرار آفاقها من قلة الامطار .
(٧) ويظل به امنا اى ذات امن ويجوز أن يكون أمنا جمع آمن مثل ركب جمع راكب واراد بالعصافر العصافير وحذف الياء ضرورة ورفع العصافير على المعنى أى وتأمن فيه العصافير . (٨) لاتراب اى لا تخوف من الريب ، وقوله انيسة اى لا تنفر من احد : وقوله اذا خرجت الخ اى اذا تجاوزت حدود الحرم لا تغادر ولا تترك بل تصاد . (٩) ان قصركم أى غايتكم .

بعد الذلة ، تأسيساً لما يظهره الله تعالى فيهم من النبوة ، فكان أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام قصيّ بن كلاب وسقفها بخشب الدوْم(١) وجريد النخل . قال الأعشى :

حلفتُ بثوبَى راهب الشام والذى بناه قصيّ جده وابن جُرْهُم
لئن شبّ نيران العداوة بيننا ليرتحلن منى على ظهر شيْهَم(٢)

ثم بناها قريش بعده ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابن خمس وعشرين سنة وَشهد بناءها ، وكان بابها فى الأرض فقال أبو حذيفة بن المغيرة : ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا بسلم فإنه لايدخلها حينئذ إلا من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه ففعلت قريش ذلك . وسبب بنائها أن الكعبة استهدمت ، وكانت فوق القامة فأراد تعليتها ، وكان البحر قد ألقى سفينة لرجل من تجار الروم إلى جُدَّة فأخذوا خشبها ، وكان فى الكعبة حية يخافها الناس فخرجت فوق جدار الكعبة فنزل طائر فاختطفها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله سبحانه قد رضى ما أردنا فهدموها وبنوها بخشب السفينة . وكانت على بنائها إلى أن حوصر ابن الزبير بالمسجد من الحصين بن نمير وعسكر الشام حين حاربوه سنة أربع وستين فى زمن يزيد بن معاوية . فأخذ رجل من أصحابه ناراً فى ليفة على رأس رمح وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة فتعلقت بأستار الكعبة فأحرقتها فتصدعت حيطانها واسودت وتناثرت أحجارها ، فلما مات يزيد وانصرف الحصين بن نمير شاور عبد الله بن الزبير أصحابه فى هدمها وبنائها فأشار به جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير وأباه عبد الله بن عباس ، وقال : لاتهدم بيت الله تعالى . فقال ابن الزبير : أما ترى الحمام يقع على حيطان البيت فتتناثر حجارته ويظل أحدكم يبنى بيته ولا يبنى بيت الله ألا إنى هادمه بالغداة فقد بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو كانت لنا سعةٌ لبنيته على أُسٍّ(٣)

(١) هو شجر المقل والنبق وضخام الشجر ما كان . (٢) شيهم هو الفرس السريع النشيط القوى . (٣) الاس مثلثة أصل البناء كالاساس .

ابراهيم وجعلت له بابين شرقياً وغربياً . وسأل الأسود هل سمعت من عائشة رضى الله تعالى عنها شيئاً فى ذلك ؟ فقال : أخبرتنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « إن النفقة قصرت بقومك فاقتصروا ، ولو حدثان عهدهم بالكفر لهدمته وأعدت فيه ما تركوا » . فاستقر رأى ابن الزبير على هدمه فلما أصبح أرسل إلى عبيد بن عمير فقيل هو نائم فأرسل إليه وأيقظه وقال له : أما بلغك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الأرض لتصيح إلى الله تعالى من نومة العلماء فى الضحى فهدمها ، فأرسل إليه ابن عباس إن كنت هادمها فلا تدع الناس بلا قبلة ، فلما هدمت قال الناس : كيف نصلى بلا قبلة . فقال جابر وزيد صلوا إلى موضعها فهو القبلة ، وأمر ابن الزبير بموضعها فستر ووضع الحجر فى تابوت فى خرقة حرير . قال عكرمة : رأيته فإذا هو ذراع أو يزيد وكان جوفه أبيض مثل الفضة ، وجعل حلىّ الكعبة عند الحجبة فى خزانة الكعبة ، فلما أراد بناءها حفر من قبل الحطيم حتى استخرج أسّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام فجمع الناس ، ثم قال : هل تعلمون أن هذا أسّ إبراهيم ؟ قالوا : نعم فبناها على أس إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم وأدخل فيها من الحجر ستة أذرع وترك منها أربعا . وقيل : أدخل سبعة أذرع وترك ثلاثا وجعل لها بابين ملصوقين بالأرض شرقياً وغربياً ، يدخل من واحد ويخرج من الآخر، وجعل على بابها صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من ذهب . وكان ممن حضر بناءها من رجال قريش أبوالجهم بن حذيفة العدوىّ ، فقال : عملت فى بناء الكعبة مرتين واحدة فى الجاهلية بقوة غلام يافع[1] ، وأخرى فى الإسلام بقوة كبير فان . وذكر الزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير وجد فى الحجر صفائح حجارة خضر قد أطبق بها على قبر ، فقال له عبد الله بن صفوان : هذا قبر نبى الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، فكف عن تحريك تلك الحجارة .

ثم بقيت الكعبة فى أيام ابن الزبير على حالها إلى أن حاربه الحجاج وحصره

---

(١) يفع الغلام راهق العشرين كايفع وهو يافع لا موفع وهو من النوادر .

فى المسجد ونصب عليه المنجنيقات إلى أن ظفر به . وقد تصدعت الكعبة بأحجار المنجنيق فهدمها الحجاج وبناها بأمر عبدالملك بن مروان وأخرج الحجر منها ، وأعادها إلى بناء قريش على ما هى عليه اليوم فكان عبد الملك بن مروان يقول : وددت أنى كنت حملت ابن الزبير من أمر الكعبة وبنائها ما تحمله .

« وأما كسوة الكعبة » فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إن أول من كسى الكعبة سعد اليمانى ، ثم كساها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثياب اليمانية . ثم كساها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعثمان رضى الله عنه القباطى[1] ، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج الخسْروانى[2] وحكى محارب بن زياد إن أول من كسى الكعبة الديباج خالد بن جعفر بن كلاب أصاب نظمة فى الجاهلية وفيها نَمَطُ ديباج فناطه بالكعبة ، ثم كساها ابن الزبير والحجاج الديباج . ثم كساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل نجران فى حربهم وفوقها الديباج ، ثم جدد المتوكل رخام الكعبة وأزرها بالفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها بالذهب ، ثم كسا أساطينها الديباج ، ثم لم يزل الديباج كسوتها .

« وأما المسجد الحرام » فقد كان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ، ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جدار يحيط به ، فلما استخلف عمر رضى الله تعالى عنه وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً فهدمها وزادها فيه ، وهدم على قوم من جيران المسجد دوراً أبوا أن يبيعوا ، ووضع لهم الأثمان حتى أخذوها بعد ذلك ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه ، فكان عمر رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ جداراً للمسجد فلما استخلف عثمان رضى الله تعالى عنه ابتاع منازل فوسع بها المسجد وأخذ منازل أقوام ووضع لهم أثمانها فضجوا عند البيت

---

(١) جمع قبطى وهو ثوب من كتان رقيق يعمل بمصر نسبة الى القبط على غير قياس فرقا بينه وبين الانسان كما فى المصباح . (٢) نوع من الثياب .

فقال إنما جرأكم عليّ حلمي عنكم فقد فعل بكم عمر رضى الله تعالى عنه هذا فأقررتم ورضيتم . ثم أمر بهم إلى الحبس حتى كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فخلى سبيلهم وبنى للمسجد الأَروقَةَ حين وسعه ، فكان عثمان رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ للمسجد الأروقة ، ثم إن الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام . ثم إن المنصور زاد فى المسجد وبناه وزاد فيه المهدى بعده وعليه استقر بناؤه إلى زمن طويل .

« وأما مكة » فلم تكن ذات منازل وكانت قريش بعد جرهم والعمالقة ينتجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً إلى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصيصاً بالحرم لحلولهم فيه ويرون أنه سيكون لهم بذلك شأن ، ولما كثر فيهم العدد ، ونشأت فيهم الرياسة قوى أملهم وعلموا أنهم سيتقدمون على العرب ، وكان فضلاؤهم وذوو الرأى والتجربة يتخيلون أن ذلك لرياسة فى الدين ، وتأسيس لنبوة ستكون ، لأنهم تمسكوا من أمور الكعبة بما هو بالدين أخص ، فأول من شعر بذلك منهم وألهمه كعب بن لؤى بن غالب . وكانت قريش تجتمع إليه فى كل جمعة ، وكان يوم الجمعة يسمى فى الجاهلية عروبة فسماه كعب يوم الجمعة وكان يخطب فيه على قريش . ويخبرهم ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وهذا من فطن الإلهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت . وسنستوفى الكلام على هذا إن شاء الله فى المجتمعات . ثم انتقلت الرياسة بعده إلى قصى بن كلاب فبنى بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش ، ثم صارت لتشاورهم وعقد الألوية فى حروبهم . قال الكلبى فكانت أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه وكلما قربوا من عصر الإسلام ازدادوا قوة وكثرة عددٍ حتى دانت لهم العرب فصدقت المخيلة الأولى فى الرياسة عليهم ، ثم بعث الله سبحانه نبيه رسولا فصدقت المخيلة الثانية فى حدوث النبوة فيهم فآمن به من هدى وجحد من عاند ، وهاجر عنهم صلى الله تعالى عليه وسلم حين اشتد به الأذى حتى عاد ظافراً بعد ثمان سنين من هجرته عنهم .

واختلف الناس فى دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عام الفتح هل دخلها عنوة أو صلحاً مع إجماعهم على أنه لم يغنم منها مالا ولم يسب فيها ذرية ، فذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه دخلها عنوة فعفا عن الغنائم ومنّ على السبى ، وأن الإمام إذا فتح بلداً عنوة فله أن يعفو عن غنائمه ويمنّ على سبيه ، وذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه دخلها صلحاً عقده مع أبى سفيان ، وكان الشرط فيه أن من أغلق بابه كان آمناً ، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن إلا ستة أنفس استثنى قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم : « عبد الله بن سعد « أخو بنى عامر بن لؤىّ لأنه كان قد أسلم . وكان يكتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوحى فارتدّ مشركا راجعاً إلى قريش « وعبد الله بن خطل » رجل من بنى تيم بن غالب ، فإنه كان مسلماً فبعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصّدّقاً وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكانت له قينتان وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهما معه « والحويرث بن نفيذ » بن وهب بن عبد قصىّ ، وكان ممن يؤذيه بمكة . « ومقيس بن صبابة » وإنما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله لقتله الأنصارىّ الذى كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركا « وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب » وكانت ممن تؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة . « وعكرمة بن أبى جهل » ثم إن من هؤلاء من عفا عنه بعد حين . ومنه من ظفر به بعد الهزيمة فقتله ، ولأجل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دخلها صلحاً لم يغنم ولم يسب . وليس للإمام إذا فتح بلداً عنوة أن يعفو عن غنائمه ولا أن يمن على سبيه لما فيها من حقوق الله تعالى وحقوق الغانمين . فصارت مكة وحرمها حين لم تغنم أرض عشر إن زرعت لا يجوز أن يوضع عليها خراج .

واختلف الفقهاء فى بيع دور مكة وإجارتها فمنع أبو حنيفة من بيعها وأجاز إجارتها فى غير أيام الحج ، ومنع منهما فى أيام الحج لرواية الأعمش عن مجاهد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها . وذهب الشافعى رحمه الله تعالى إلى جواز بيعها وإجارتها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرهم عليهـا بعد الإسلام على ما كانت عليه قبله ، ولم يغنمها ولم يعارضهم فيهـا . وكذلك بعده « هذه دار الندوة » وهى أول دار بنيت بمكة صارت بعد قصىّ لعبد الدار بن قصىّ ، وابتاعها معاوية فى الإسلام من عكرمة ابن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصىّ ، وجعلها دار الإمارة ، وكانت من أشهر دار ابتيعت ذكراً ، وأنشرها فى الناس خبراً ، فما أنكر بيعها أحد من الصحابة . وابتاع عمر وعثمان رضى الله تعالى عنهما ما زاده فى المسجد من دور مكة وتملك أهلها أثمانها ، ولو حرم ذلك لمـا بذلاه من أموال المسلمين ، ثم جرى به العمل إلى وقتنا هذا فكان إجماعاً متبوعاً ، وتحمل رواية مجاهد مع إرسالهـا على أنه لا يحل بيع رباعها على أهلها تنبيها على أنها لم تغنم فتملك عليهم فلذلك لم تبع وكذلك حكم الإجارة .

« وأما الحرم » فهو ما أطاف بمكة من جوانبها ، وحدّه من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بنى نفار على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال . ومن طريق الجعرانة بشعب أبى عبد الله بن خالد على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة ومن بطن نمرة على سبعة أميال . ومن طريق جُدَّة منقطع العشائر[1] على عشرة أميال . فهذا حَدٌّ ما جعله الله تعالى حرماً لمـا اختص به من التحريم وباين بحكمه سائر البلاد . قال الله عز وجل :

---

(١) ونظم ذلك بعضهم فقال :

والحرم التحديد من ارض طيبة ... تلاثة اميال اذا رمت اتقـانه
وسبعة اميـال عراق وطائف ... وجـدة عشر ثم تسـع جعرانه

وزاد الدميرى فقال :

ومن يمن سبع وكرر لها اهتدى ... فلم يعد سبل الحل اذ جاء تبيانه

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً (يعنى مكة وحرمها) وارزق أهله من الثمرات) لأنه كان وادياً غير ذى زرع ، فسأل الله تعالى أن يجمع لأهله الأمن والخصب ليكونوا بهما فى رغد من العيش ، فأجابه الله تعالى إلى ما سأل فجعله حرماً آمناً يتخطف الناس من حوله . وجبى إليه ثمرات كل بلد حتى جمعها فيه . واختلف الناس فى مكة وما حولها هل صارت حرماً آمناً بسؤال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أو كانت قبله كذلك على قولين . أحدهما : أنها لم تزل حرماً آمناً من الجبابرة والمتسلطين ومن الخسوف والزلزال ، وإنما سأل إبراهيم عليه السلام ربه سبحانه أن يجعل حرمه آمناً من الجدب والقحط ، وأن يرزق أهله من الثمرات لرواية سعيد بن أبى سعيد . قال : سمعت أبا شريح الخزاعى يقول إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما افتتح مكة قام خطيباً فقال : (أيها الناس إن الله سبحانه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، أو يعضد[1] بها شجراً ، وإنها لا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ألا وهى قد رجعت على حالها بالأمس ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال رسول الله قتل بها فقولوا : إن الله تعالى قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك) . والقول الثانى : إن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وإنها صارت بدعوته حرماً آمناً حين حرمها كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرماً بعد أن كانت حلالا ، لرواية الأشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول صلى الله تعالى عليه وسلم : (إن إبراهيم عليه السلام السلام كان عبد الله وخليله ، وإنى عبد الله ورسوله ، وإن إبراهيم حرم مكة ، وإنى حرمت المدينة ما بين لا بتيها[2] غضاها وصيدها ، ولا يحمل بها سلاح

---

(١) عضد الشجرة عضدا من باب ضرب : قطعها .

(٢) تثنية لابة وهى الحرة والحرة أرض ذات حجارة سود والمدينة لابتان شرقية وغربية وهى بينهما فحرمها ما بينهما عرضا وما بين جبليهـا طولا وهى عير وثور ، وعضاها بكسر العين وتخفيف الضاد كل شجر فيه شوك .

لقتال ، ولا يقطع بها شجر إلا لعلف بعير) . وأما « مروة » فجبل بمكة يعطف على الصفا يميل إلى الحمرة ، وأما « مزدلفة » فهو مبيت الحاج ومجمع الصلاة إذا صدروا من عرفات ، وهو مكان بين بطن مُحَسِّر والمازمين وإذا أفضت من عرفات فأنت فيه حتى تبلغ القرن الأحمر دون محسر « وقزح » هو الجبل الذى عند الموقف ومزدلفة على فرسخ من منى بها مصلى وسقاية ومنارة وعدة برك إلى جنب جبل يثرب . وأما « منى » فهى بليدة على فرسخ من مكة ، طولها ميلان تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها ، وقل أن يكون فى الإسلام بلد مذكور إلا ولأهله بمنى مضرب ، وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر . والمسجد فى الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة . وبها مصانع وآبار وهى بين جبلين مطلين عليها . قال الأصمعى وهو يذكر الجبال التى حول حمى ضَرِيّة ومنى جبل ، وأنشد :

أتبعتهم مقـــلة إنسانها غَرِق كالفص فى رفرف الدمع مغمورُ(١)
حتى توارو لشعف والجـال بهم من هضبتيها وعن جنبى منى زُوَرُ

وعرفات والصفا ونحو ذلك . كلها مواضع تؤدى الحجاج فيها المناسك وهى مفصلة أتم تفصيل ، فى الكتب المعدة لهذا القبيل .

نبذة مما ورد فى فضل مكة

وذكر شىء من حال رؤسائها وأشرافها

قد سبق أن لها عدة أسماء ، وقد سماها الله تعالى (البلد الأمينَ) أيضاً فقال : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) . وفى هداية الحيارى قوله (والتين والزيتون) : هما فى الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح عليه السلام

---

(١) المقلة وزان غرفة : شحمة العين التى يجمع سوادها وبياضها وانسان العين حدقتها .

وأنزل فيها الإنجيل ، وطور سينين هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى تكليما وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التى فيه ، وأقسم بالبلد الأمين وهو مكة التى أسكن إبراهيم إسمعيل وأمه فيه ، وهذا مثل ما ورد فى التوراة : (تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) . قال ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض لأن مجىء الله من طور سيناء إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة)[١] وباسمها تسمى من اتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلاؤه من جبال (فاران) إنزاله القرآن على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وجبال فاران هى جبال مكة ، ولما كان مافى التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزمانى فقدم الأسبق ثم الذى يليه . وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها واظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله ، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فبدأ بالعالى ثم انتقل إلى أعلى منه ثم إلى أعلى منهما ، فإن أشرف الكتب القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء الثلاثة انتهى بتلخيص . وقال تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد) . وقال تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) . وقال سبحانه (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأمنا) . وكذلك قول إبراهيم عليه السلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) . ولما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وقف على الحزورة[٢] وقال : إنى لأعلم أنك أحب البلاد

---

(١) هى قرية بالشام ويقال لها نصرانة ونصورية ينسب اليها النصارى او جمع نصران كالندامى جمع ندمان أو جمع نصرى كمهرى ومهارى .

(٢) قال ابن الاثير : هو موضع عند باب الحناطين وهو بوزن قسورة ، قال الامام الشافعى (رض) الناس يشددون الحزورة والحديبية وهما مخففتان وفى روض السهيلى : هو اسم سوق كانت بمكة وادخلت فى المسجد

إلىّ وانك أحب أرض الله إلى الله الحديث . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : (لولا الهجرة لسكنت مكة فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ولم يطمئن قلبى ببلدة قط ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة) . تريد بقرب السماء منها قرب الرحمة ونحوها ، وإلا فجميع أجزاء الأرض بالنسبة إلى بعدها عن السماء سواء كما حقق فى محله . وقال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطواف :

ياحبذا مكة من وادى أرضٌ بها أهلى وأولادى
أرضٌ بها ترسخ أوتادى أرضٌ بها أمشى بلا هادى

ولما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وعك[1] أبو بكر وبلال رضى الله تعالى عنهما فكان أبو بكر إذا أخذته الُحمّى يقول :

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهله والموتُ أدْنَى من شراكِ نَعْلِهِ[2]

وكان بلال إذا أقْشَعَتْ عنه الحمى رفع عقيرته وقال :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً وعندىَ منها إذْخِرٌ وجليل[3]
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامةٌ وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من مكة . ووقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح على جمرة العقبة ، وقال : (والله إنك لخير أرض ، وإنك لأحب أرض الله إلىّ ، ولو لم أخرج منك ماخرجت إنها لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، وما أحلت لى

= لما زيد فيه ونقل بعضهم عن مشارق عياض مثل ذلك وفيه عن الدارقطنى مثل قول الشافعى ونسب التشديد للمحدثين قال وهو تصحيف ، ونسبه صاحب المراصد الى العامة وزاد انهم يقولون عزورة بالعين بدل الحاء ، وقال القاضى عياض وقد ضبطنا هذا الحرف على ابن السراج بالوجهين .

(١) اى اخذته الحمى . (٢) شراك النعل سيرها الذى على ظهر القدم .

(٣) الاذخر بكسر الهمزة والخاء نبات معروف ذكى الريح واذا جف ابيض ، والجليل الثمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت الواحد جليلة والجمع جلائل ، قال الشاعر :

يلوذ بجنبى مرخة وجلائل

إلا ساعة من نهار ثم هى حرام لايُعْضَدُ شجرها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط ضالّتها إلا لمنشد) قال رجل : يارسول الله إلا الإذخر . وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم (من صبر على حرّ مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائتى عام) . ووجد على حجر مكتوب فيه : (أنا الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لاتزول أخشابها مبارك لأهلها فى اللحم والماء) ، ومما يدل على فضلها قوله تعالى (وما كان ربك مهلكَ القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) . وقوله سبحانه (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . ومن شرفها أنها كانت لقاحاً[1] لاتدين لدين الملوك ولم يؤد أهلها إتاوة ، تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحُمْس[2] من قريش ويزيدون فى تعظيمهم ، ويرون الاقتداء بآثارهم من الشرف والفرائض . وكان أهلها آمنين يغزون الناس ولا يُغزون ويحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد ، وقد ذكر الشعراء كل ذلك فى شعرهم حين مدحوهم . قال الزبرقان بن بدر لرجل من بنى عوف هجا أبا جهل وتناول قريشاً :

أتدرى من هجوت أبا حبيب   سليل خُضارم سكنوا البطاحا[3]
وزادَ الرَّكْب تذكر أم هشاماً   وبيت الله والبلد اللقاحا[4]

وقال حرب بن أمية ودعا الحضرمى أن لاينزل خارجا من الحرم . وكان يكنى أبا مطر ، فقال حرب :

---

(١) سيأتى تفسيرها قريبا (٢) لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس وهم فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان وبنو عامر بن صعصعة ومن تابعهم فى الجاهلية ، هؤلاء الحمس وانما سموا لتحمسهم فى دينهم اى تشددهم فيه وكذا فى الشجاعة فلا يطاقون او لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها ابيض الى السواد وقيل غير ذلك

(٣) الخضارم بالضم الجواد المعطاء والسيد الحمول

(٤) يقال قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا الملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سبأ ، وانشد ابن الاعرابى :

لعمر أبيك والانباء تنمى   لنعم الحى فى الجلى رياح
ابو دين الملوك فهم لقاح   اذا هيجوا الى الحرب اشاحوا

وقال ثعلب : الحى اللقاح مشتق من لقاح الناقة لان الناقة اذا لقحت لم تطاوع الفحل وليس بقوى

أبا مطر هلمّ إلى (صلاح) فيكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك ربّ جيش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت بخير عيش

ومما زاد فى فضلها فضل أهلها لأنهم كانوا حلفاء متألفين متمسكين بكثير من شريعة إبراهيم الخليل عليه والصلاة والسلام ، ولم يكونوا كالأعراب الذين لايوقرهم دين ، ولا يزينهم أدب . وكانوا يحبون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة ويتبرءون من الهربذة[1] ويتباعدون فى المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة وبعداً من المجوسية ، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحسن اختيارهم ، وكانوا يزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ، ولذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما — وقد سأله رجل عن طلاق العرب — : (كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثا فلا سبيل له إليها . قال الاعشى :

أيا جارتى بينى فإنك طالقه كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه
وبينى فقد فارقت غير ذميمةٍ وموموقة منا كما أنت وامقه
وبينى فإن البينَ خيرٌ من العصا وإلا ترى لى فوق رأسك بارقه

ومما زاد فى شرفهم أنهم كانوا يتزوجون من أى قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشترطوا عليه أن يكون متحمساً على دينهم . يرون أن ذلك لايحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدان إليهم وينقاد ، والتحمس التشدد فى الدين ، ورجل أحمس أى شجاع . فحمسوا خزاعة ودانت لهم إذ كانت فى الحرم ، وحمسوا كنانة وجديلة قيس وهم فهم ، وابنا عمرو بن قيس عيلان إلا أنهم ساكنوا الحرم ، وعامر بن صعصعة وإن لم يكونوا من ساكنى الحرم ، فإن

---

(١) الهرابذة قومة بيت النار التى للهند فارسى معرب وقيل عظماء الهند او علماؤهم

أمهم قرشية . وهى مجد بنت تيم بن مرة . وكان من سنة الحمس أنهم لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات إنَّما يقفون بالمزدلفة، وكانوا لا يسلأون[١] ولا يأقطون[٢] ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفا ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتنون بالقباب الحمر فى الأشهر الحرم . ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم إما شراء وإما عارية وإما هبة ، فإن وجدوا ذلك فبِها وإلا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك غير أن المرأة كانت تطوف فى درج مفرج القوائم والمآخير . قالت امرأة وهى تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضهُ أو كله وما بدا منه فلا أحلُّه
أخثم مثل القَعْب بادٍ ظلُّه كأنَّ حُمَّى خيبر تَمَلَّه[٣]

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يُفيضون من عرفة ، وقد كان الملك فى جُرهم وخزاعة وصدر من أيام قريش . فلولا أنهم أمنعُ حيّ من العرب مع نخوة العرب فى إبائها لما أجلى قصى خزاعة جرها ، ولم يكونوا يهتبدون الهبيد[٤] ويأكلون الحشرات كسائر الأعراب ، بل منهم الذى هشم الثريد ، وفيه يقول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتون عجاف[٥]

---

(١) سلا السمن : طبخة وعالجه (٢) الاقط شىء يتخذ من المخيض الغنمى واقط الطعام يأقطه اقطا عمله به فهو مأقوط ، قال ابن هرمة :
لست بذى ثلة مؤنقة آقط البانها واسلؤها
وائتقط اتخذت الاقط (٣) قال ثعلب : فرج اخثم منفتح خرقة قصير السمك خناق ضيق ، والعقب : القدح الضخم الجافى او الى الصغر او يروى ارجل ، وحمى خيبر يضرب بها المثل لأن خيبر مخصوصة بالحمى والوباء ، قال اوس بن حجر :
كأن به اذ جئته خيبرية يعود عليه ورده وملالها
الورد يوم الحمى الدائر ، والملال : الضجر والتضايق
(٤) هو الحنظل او حبه (٥) عمرو هو هاشم بن عبد مناف ابو عبدالمطلب وكان يكنى ابا نضلة ثالث جد لسيدنا رسول الله (ص) سمى هاشما لأنه أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجدب والعام الجماد ، ومسنتون : مقحوطون ، وعجاف : ضعاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء وَرحلة الأصياف

وكان عبد الله بن جُدعان التيمى يطعم الرغو[1] والعسل والسمن ولبّ البرّ حتى قال أمية بن أبى الصلت فيه يمدحه :

لكل قبيلة رأسٌ وهاد وأنت الرأس تقدم كل هادى

له داعٍ بمكة مُشمَعِلٌّ وآخَرُ فوق دارته ينادى

إلى رُدُح من الشيزاء ملأى لبابَ البُرّ يُلْبك بالشهادِ

وفضائل قريش ليس هذا موضع استقصائها ، وقد أفردها الزبير بن بكار بكتاب أجاد فيه وأفاد ، وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ، فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله فى طريقه قبلة ويطوف ويصلى له تشبيهاً بأصنام البيت ، وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه ، فذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة فى منازلها شَغَفاً منها بأصنام الحرم ، وتمام الكلام ، فى هذا المقام ، نورده إن شاء الله تعالى عند البحث عن أديانهم ، وما كانوا يتعبدون به فى سالف أزمانهم . وأما رؤساء مكة فذكر أهل السير أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما حمل ابنه إسماعيل عليه السلام إلى مكة جاءت جُرهم وقطوراء وهما قبيلتان من اليمن وهم أبناء عم ؛ فرأوا بلداً ذا ماء وشجر فنزلوا ونكح إسماعيل عليه السلام من جُرهم ، فلما توفى إسماعيل ولى البيت بعده نابت بن إسماعيل وهو أكبر ولده ، ثم ولى بعده مُضاض ابن عمرو الجرهمى خال ولد إسماعيل عليه السلام ، إلى أن تنافست جُرهم وقطوراء فى الملك وتداعوا للحرب فخرجت جرهم إلى قعيقعان وهى أعلى مكة وعليهم مضاض ابن عمرو ، وخرجت قطوراء من أجياد وهى أسفل مكة وعليهم السميدع ، فالتقوا بفاضح واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميدع وهزمت قطوراء ، فسمى الموضع

---

(١) الزبد.

فاضحاً لأن قطوراء افتضحت فيه ، وسميت أجياداً لما كان معهم من أجياد الخيل ، وسميت قعيقعان لقعقعة السلاح . ثم تداعوا إلى الصلح واجتمعوا فى الشعب وطبخوا القدور ، فسمى المطابخ . ونشر الله ولد إسماعيل عليه السلام فكثروا وتفرقوا فى البلاد لا ينادون قوماً إلا أتوهم طائعين ، وظهروا عليهم بدينهم . ثم إن جُرهماً بغوا بمكة فاستحلوا المحرمات ، وأباحوا المنكرات ، وظلموا من دخلها ، وأكلوا مال الكعبة ، وكانت مكة تسمى الباسة[1] . لا تقر ظلماً ولا بغياً ولا تبقى فيها أحداً من الملحدين إلا أخرجته ، وكان أبوبكر بن عبد بن مناة بن كنانة وغسان وخزاعة حلولا حول مكة فأذنوهم القتال فاقتتلوا فجعل الحارث بن عمرو بن مضاض يقول :

لا هُمَّ إنَّ جرهماً عبادك　　الناس طرف وهم تِلادُك[2]

فغلبتهم خزاعة على مكة ونفتهم عنها . وفى ذلك قال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الأصغر * وقائلة والدمع سكب مبادر * إلى آخر الأبيات التى سبق ذكرها . ثم وليت خزاعة البيت ثلاثمائة سنة يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن أبى حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو خزاعة بن حارثة . وقريش إذ ذاك حلل وحرم وبيوتات متفرقة حول الحرام ، إلى أن أدرك قصىّ بن كلاب وتزوج بنت حليل بن أبى حبشية وولدت بنيه الأربعة فكثر ولده وعظم شرفه ، ثم هلك حليل وأوصى إلى ابنه المحترش أن يكون خازناً للبيت وأشرك معه غبشان[3] الملكانى . وكان إذا غاب أحجب هذا حتى

---

(١) من لست الشىء اذا اذهبته وذكر الخطابى انه يقال لها الباسة ايضا بالموحدة وهو من بست الجبال بسا اى فتت وثريت كما يثرى السويق قال الراجز :

لاتخبز خبزا وبسا بسا　　ماترك السير لهن نسا

يقول لا تشتغلا بالخبز وثريا الدقيق والتقماه . (٢) العرب تحذف الالف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى ، والطرف : المستحدث من المال ، والتلاد : القديم منه :

٣) يضرب به المثل فى الخسران ، قال الثعالبى : وكانت خزاعة سدنة الكعبة قبل قريش وكان ابو غبشان الخزاعى يلى من بينهم امر الكعبة وبيده مفاتيحها فاتفق له انه اجتمع مع قصى بن كلاب فى شرب بالطائف فخدعه

هلك الملكانى فيقال أن قصياً سق المخترش الخمر وخدعه حتى اشترى منه البيت بدنّ خمر وأشهد عليه وأخرجه من البيت وتملك حجابته وصار رب الحكم فيه ، فقصىّ أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل . وذلك فى أيام المنذر ابن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس يومئذ بهرام جور أبو الفرس وجعل قصىّ مكة رباعا وبنى بها دار الندوة . وكانت صوفة[١] وهى قبيلة من جرهم تصيب بمكة من يلى الإجازة بالناس من عرفة مدة . وفيهم يقول الشاعر :

ولا يريمون فى التعريف موقفهم   حتى يقال أجيزوا آل صوفانا[٢]

ثم أخذتّها منهم خزاعة وأجازوا مدّة . ثم عدا عليهم بنو عدوان بن عمرو ابن قيس وصارت إلى رجل منهم يقال له أبو سيارة[٣] أحد بنى سعد ، وله يقول الراجز :

قصى عن مفاتيح الكعبة بان اسكره ثم اشتراها منه بزق خمر واشهد عليه ودفع المفاتيح فى يد ابنه عبد الدار بن قصى وسرحه الى مكة فلما اشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته وقال : يامعاشر قريش هذه مفاتيح بيت ابيكم اسماعيل (ع) قد ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم ، وافاق غبشان من سكره نادما خاسرا فقال الناس أحمق من أبى غبشان واندم من ابى غبشان واخسر صفقة من ابى غبشان ، فذهبت الكلمات الثلاث امثالا واكثرت الشعراء القول فيه فقال بعضهم :

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت   بزق خمر فما فازت ولا ربحت

وقال آخر :

ابو غبشان اظلم من قصى   واظلم من بنى فهر خزاعة
فلا تلحو قصيا فى شراء   ولوموا شيخكم اذ كان باعه

وقال آخر :

اذا افتخرت خزاعة فى قديم   وجدنا فخرها شرب الخمور
تبيع لكعبة الرحمن حمقا   بزق بئس مفتخر الفخور

(١) أبو حى من مضر سمى بذلك لان أمه جعلت فى راسه صوفة وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها وهو الغوث بن مر بن اد بن طابخة . (٢) قوله اجيزوا اى أفيضوا وكان احدهم يقول اجيزى صوفة فاذا اجازت قال اجيزى خندف فاذا اجازت اذن للناس كلهم فى الاجازة ، وآل صوفان ويقال لهم آل صفوان قوم من بنى سعد بن زيد مناة قال ابو عبيدة حتى يجوز القائم بذلك من آل صفوان والبيت لاوس بن مغراء . (٣) اسمه هميلة بن خالد بن اعزل وكان له حمار أسود اجاز الناس عليه من مزدلفة الى منى أربعين سنة وعير ابى سيارة مشهور يتمثل به فيقال اصح من عيرابى سيارة للرجل الصحيح فى بدنه ، قال الجاحظ : اعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر الاهلية

خَلوا السبيل عن أبي سيَّارة   وعن مَوَاليــه بنى فَزَارة[١]
حتى يجيز ســـالمًا حماره   مستقبل الـكعبة يدعو جاره[٢]

وكانت صورة الإجازة أن يتقدمهم أبو سيارة على حماره ، ثم يخطبهم فيقول اللهم أصلح بين نسائنا ، وعاد بين رعايانا ، واجعل المال فى سماحنا وسمحائنا ، أوفوا بعهدكم . وأكرموا جاركم ، وأقروا ضيفكم ، ثم يقول : أشرق ثَبِير ، كيما نُغير ، ثم ينفر ويتبعه الناس . فلما قوى أمر قصىّ أتى أبا سيارة وقومه فمنعه من الإجازة وقاتلوا عليها فهزمهم قصىّ وصار البيت الحرام إلى قصىّ . فلما كبر قصىّ ووهن عظمه جعل الأمر فى ذلك كله إلى ولده عبد الدار لأنه أكبر أولاده ، وهلك قصىّ وأقام قريش على ذلك عبد الدار . ثم إن عبد مناف رأى فى نفسه أنه أحق من عبد الدار بالأمر وكذلك قريش لما كان عليه من النباهة والفضل فأجمعوا على أخذ ما بأيديه ، وهموا بالقتال فمشى الأكابر منهم حتى تداعوا إلى الصلح بأن يكون لعبد مناف السقاية[٣] والرِّفادة[٤] ، وأن تكون الحجابة[٥] واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وعقدوا على ذلك حلفاً مؤكداً لا ينقضونه ، فأخرج بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش جفنة مملوءة طيباً وغمسوا فيهــا أيديهم ومسحوا بها الـكعبة تأكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين ، وأخرج بنو عبد الدار ومن تابعهم جفنة من دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الـكعبة

ولا يعرف حمـــار أهلى عاش اكثر وعمر اطول من عير ابى ســيارة فانهم لا يشكون انه رفع عليه اهل الموسم اربعين عاما .

(١) يعنى بمواليه بنى عمه لأنه من عدوان وعدوان وفزازة من قيس عيلان

(٢) يدعو جاره اى يدعو الله عز وجل يقول اللهم كن لنا جارا مما نخافه اى مجيرا (٣) الموضع يتخذ لسقى الناس (٤) هى ماكانت تخرجه من اموالها وترفد به منقطع الحاج (٥) هى سدانة لبيت وقد أحدثها قصى ، واللواء منصب أحدثه قصى أيضا بمنزلة وزير الحرب فى عصرنا فاذا اخرجه من كان بيده اجتمعت عنده صناديد قريش لايتخلف احد منهم عنه وذلك اذا نابتهم نائبة وغيره لايمكن من ذلك اللواء وكان هذا المنصب مخصوصا ببنى عبد الدار ، والندوة وهى أيضا مما احدثه قصى وهى بمنزلة قصر الامارة ودار الحكومة وهى دار كانوا يجتمعون فيها لابرام أمرهم وتشاورهم والندوة الجماعة ودار الندوة دار الجماعة .

فسموا الأحلاف ولعقة الدم ، ولم يل الخلافة منهم غير عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . والباقون من المطيبين لم يزالوا على حالهم حتى جاءهم الإسلام ، وقريش على ذلك حتى فتح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة سنة ثمان من الهجرة فأقرّ المفتاح فى يد عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه المفاتيح عام الفتح فأنزل الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فاستدعاه ورد المفتاح إليه ، وأقر السقاية فى يد العباس رضى الله تعالى عنه .

من انتهى إليه الشرف بمكة من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام :

اعلم أن من انتهى إليه الشرف من قريش إلى أن بزغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم : (هاشم) و (أمية) و (نوفل) و (وعبد الدار) و (أسد) و (تيم) و (مخزوم) و (عدى) و (جمح) و (سهم) فكان من هاشم العباس ابن عبد المطلب يسقى الحجيجَ فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام ، ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بنى نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة ، وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، يقال : والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زَمَعَة بن الأسود وكانت إليه المشورة وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا ، واستشهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالطائف ومن بنى تيم أبو بكر الصديق ، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغرم ، فكان إذا احتمل

شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حَمَالَة[1] من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد ، كانت إليه القبة والأعنة . فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها مايجهزون به الجيش . وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حىّ لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بنى جُمَح صفوان ابن أمية ، وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لايسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحارث بن قيس ، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية ، وهى السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال والمحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت فى أوليتهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، وجاء الإسلام فوصل ذلك لهم وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام فوصله ، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فى بنى هاشم . فأما السقاية فمعروفة ، وأما العمارة فهو أن لايتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رَفَثٍ ولا يرفع فيه صوته ، كان العباس ينهاهم عن ذلك . وأما حلوان النفر فان العرب لم تكن تملك عليها فى الجاهلية أحداً فان كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجنّ ، وسبحان من صرف الدهور ، على حسب مصالح الأمور .

---

(١) الحمالة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم .

ذكر ما وقع لأصحاب الفيل في مكة شرفها الله تعالى

اعلم أن أبرهة الأشرم بعد أن استولى على اليمن وقتل أميرها أرياطاً بنى القُلَّيْسَ بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها، ثم كتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من النسأة [1] أحد بنى فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر فخرج حتى أتى القُلَّيْسَ [2] فقعد فيها يعنى أحدث فيها ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة. فقال: من

(١) الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانة الشهر من أشهر الحل ليواطئوا عدة ماحرم الله ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تبارك وتعالى انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما قوله ليواطئوا اى ليوافقوا ؛ وكان اول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما احل وحرمت منها ماحرم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة وقيل له القلمس لجوده اذ القلمس من أسماء الحرب وتفصيل الكلام يأتى فى الجزء الثالث (٢) هو كنيسة بصنعا سميت لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لأنها فى أعلى الرؤس ويقال تقلنس الرجل وتقلس اذا لبس القلنسوة وقلس طعاما اى ارتفع من معدته الى فيه ، وكان ابرهة قد استذل اهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعا من السخر وكان ينقل اليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان (ع) وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ملكها فاستعان بذلك على ما اراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ونصب فيها صلبان من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس وكان اراد ان يرفع فى بنائها حتى يشرف منها على عدن وكان حكمه فى العامل اذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ فى عمله ان يقطع يده !! فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه امه وهى امرأة عجوز فتضرعت اليه تستشفع لابنها فأبى الا ان يقطع يده فقالت : اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغدا لغيرك ، فقال : ويحك ماقلت ؟ فقالت : نعم كما صار هذا الملك من غيرك اليك فكذلك يصير منك الى غيرك فاخذته موعظتها واعفى الناس من العمل فيها بعد ، فلما هلك اقفر ماحول هذه الكنيسة فلم يعمرها احد وكثر حولها السباع والحيات ولم يقربها احد الى زمن أبى العباس فذكر له امرها وبعث اليها بابن الربيع عامله على اليمن معه أهل الحزم والجلادة فخربها وحصلوا منها مالا كثيرا ببيع ماأمكن بيعه من رخامها وآلاتها فعفى بعد ذلك رسمها وانقطع خبرها ودرست آثارها

صنع هذا ، فقيل له : رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع أنك تريد أن تصرف إليها حج العرب غضب فجاء فقعد فيها أى أنها ليست لذلك بأهل ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرجوا معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومَهُ ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخرابه فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلْنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يدان لك — يشير إلى شهران وناهس قبيلى خثعم — بالسمع والطاعة فخلى سبيله وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ، يعنون اللات ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم ، واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة . قال ضرار بن خطاب الفهرى :

وفرت ثقيفٌ إلى لاتها ... بمنقلب الخائبِ الخاسرِ

فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال

حتى أنزله المُغَمَّسَ[1] ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمُغَمَّسَ . فلما نزل أبرهة المُغَمَّسَ بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم — وهو يومئذ كبير قريش وسيدها — فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك ، وبعث أبرهة حناطة الحميرىّ إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : « إنَّ الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هـذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم فإن هو لم يرد حربى فأتنى به » فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال فإنه يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه . فقال حناطة : فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقاً له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشياً . ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إنْ قدر على ذلك ، فقال : حسبى فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده

---

(١) كمعظم ومحدث موضع بطريق الطائف فيه قبر أبى رغال دليل ابرهة ويرجم

بما استطعت فقال : أفعلُ ، فـكلم أنيس أَبْرَهَةَ فقال له : أيها الملك هذا سـيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤوس الجبال فأذن له عليك فليـكلمك فى حاجته . قال : فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملـكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتى أن يردَّ علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتـكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تـكلمنى فيه . قال له عبد المطلب : أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى قال أنت وذاك . وكان — فيما يزعم بعض أهل العلم — قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة يعمر بن نفاثة بن عدىّ ، ينتهى نسبه إلى كنانة وهو يومئذ سـيد بنى بكر ، وخويلد بن واثلة الهذلىّ وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شَعَفِ الجبال[1] والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش[2] . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الـكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الـكعبة :

لاهُمَّ إنَّ المـرءَ يمـ ـنع رَحله فامنع حلالك[3]

(١) الشعف بفتحتين جمع شعفة محركة وهى راس الجبل ، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق وقيل الطريق فى الجبل (٢) المعرة : المساءة
(٣) العرب تحذف الألف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول لاه أبوك تريد لله

لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم أبدا محالك

إن كنتَ تاركَهم وكعـ بتنا فأمر مّا بدا لك

فلئن فعلت فإنه أمر يتمّ به فعالك

أسمع بأرجس ما أرا دوا العَدْوَ وانتهكوا حلالك

جرّوا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف :

لاهُمَّ اخزِ الأسودَ بن مقصودْ الآخذ الهَجْمة فيها التقليد[1]

بين حِراء وثبيرٍ فالبيد يحبسها وهى أولات التطريد[2]

فضمها إلى طماطمٍ سود أَخْفِرْهُ يارب وأنت محمود[3]

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعَف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها ، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل (محموداً) وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيل ابن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل[4] . وخرج

ابوك ويقولون لاهنك اى والله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الألسنة وقد قالوا فيما هو دونه فى الاستعمال اجنك تفعل كذا اى من أجل انك تفعل كذا وكذا والحلال فى هذا البيت القوم الحلول فى المكان والحلال مركب من مراكب النساء ، قال الشاعر : « بغير حلال غادرنه مجحفل » والحلال ايضا متاع البيت وجائز أن يستعيره ههنا (١) الهجمة مابين التسعين الى المائة من الابل والمائة منها هنيدة والمائتان هند ، والأسود بن مقصود صاحب الفيل (٢) حراء وزان كتاب جبل بمكة ، وثبير : جبل بين مكة ومنى ، والبيد بالكسر جمع بيداء وهى الفلاة ، وفى الحديث أن قوما يغزون البيت فاذا نزلوا البيداء بعث الله جبريل فيقول يا بيداء أبيديهم فيخسف بهم اى أهلكيهم وهى هنا اسم موضع بعينه (٣) قوله اخفره اى انقض عزمه وعهده فلا تؤمنه ، وقوله الى طماطم سود يعنى العلوج وقال لكل أعجمى طمطمانى وطمطم (٤) قال ابو القاسم السهيلى : فيه نظر لأن الفيل لايبرك فيحتمل أن يكون

نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطَبرزَين[١] ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن[٢] لهم فى مراقه[٣] فبزغوه[٤] بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول[٥] ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فقال أبو الطيب مسعود فى ذلك ، وقيل : بل قاله عبد المطلب :

إنّ آياتِ ربّنا ساطعاتٌ   لايمارى بهنّ إلا الكَفُورُ[٦]

حبس الفيل بالْمُغَمَّس حتى   مَرَّ يَعْوِى كأنه معقور[٧]

فارسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف[٨] والبلسان[٩] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لاتصيب منهم أحداً إلا هلك . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاؤا منه ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال نفيل حين رأى ماأنزل الله تعالى بهم من نقمته .

أين المفرُّ والإلهُ الطالِبُ   والأشرَمُ المغلوب ليس الغالب

بروكه سقوطه الى الأرض لما جاءه من أمر الله سبحانه ويحتمل أن يكون فعل فعل البارك الذى يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك ، وقد سمعت من يقول أن فى الفيلة صنفا منها يبرك كما يبرك الجمل فان صح والا فتأويله ماقدمناه

(١) ذكر البكرى فى المعجم أن الأصل فيه طبرزين بفتح الباء وقال طبر هو الفأس (٢) جمع محجن وزان مقود خشبة فى طرفها اعوجاج مثل الصولجان قال ابن دريد كل عود معطوف الراس فهو محجن والجمع المحاجن (٣) قال فى القاموس ومراق البطن مارق منه ولأن جمع مرق أو لاواحد لها (٤) اى ادموه ومنه سمى المبزغ (٥) يسرع فى مشيه يقال هرول هرولة اسرع فى مشيه دون الخبب ولهذا يقال هو بين المشى والعدو وجعل جماعة الواو أصلا (٦) الآيات : العلامات وتجمع الآية على آى ايضا ، وقوله ساطعات اى مرتفعات يقال سطع الغبار سطوعا وسطيعا ارتفع وكذا البرق والشعاع والصبح والرائحة ، وقوله لايمارى اى لايجادل ولا يخاصم (٧) المغمس كمعظم بطريق الطايف فيه قبر ابى رغال دليل ابرهة ويرجم (٨) جمع خطاف وهو طائر معلوم (٩) طير من طيور الماء يسمى مالك الحزين وعبر عنه فى حياة الحيوان بلفظ بلشون

وقال أيضاً

ألا حييت عنّا يا رُدَيْنا نعمناكم مع الإصباح عينا[١]

ردينةُ لو رأيتِ فلا تَريه لدى جنب المحصَّب ما رأينا

إذاً لعذرتنى و َحمِدْتِ أمرى ولم تأسىْ على مافات بَيْنا[٢]

َحمِدْتُ الله إذ أبصرت طيراً وخفتُ حجارة تلقى علينا

وكلُّ القوم يسْأَلُ عن ُنفيْلٍ كأنَّ علىَّ للحبشان دَيْنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلـكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهـــة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملةً أنملةً[٣] حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فراخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . ويروى أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرىّ بأرض العرب ذلك العـــام ، وأنه أول ما رؤى بها مرائر الشجر[٤] الحرمل والحنظل . فلما رد الله تعالى الحبشةَ عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم

---

(١) قوله ردينا اسم امراة كأنها سميت بتصغير ردنة وهى القطعة من الردن وهو الحرير ، ويقال لمقدم الكم ردن مذكر واما ردينة بتقديم الدال فهو اسم للأحمق ، ونعمناكم الخ دعاء اى نعمنا بكم فعدى الفعل لما حذف حرف الجر وهذا كما تقول أنعم الله بك عينا (٢) نصب بينا نصب المصدر المؤكد لما قبله اذ كان فى معناه ولم يكن على لفظه لأن فات معنى فارق وبان كأنه قال على مافات فوتا او بان بينا ولا يصح لأن يكون مفعولا من اجله يعمل فيه تاس لأن الاسى باطن فى القلب والبين ظاهر ولايجوز أن يكون المفعول من اجله الا بعكس هذا تقول بكى اسفا وخرج خوفا وانطلق حرصا على كذا ولو عكست الكلام كان خلفا من القول وهذا احد شروط المفعول من اجله (٣) اى ينتثر جسمه والأنملة طرف الاصبع ولكن قد يعبر بها عن طرف غير الأصبع والجزء الصغير (٤) يقال شجرة مرة ثم يجمع على مرائر كما تجمع حرة على حرائر ولا تجمع فعلة على فعائل الا فى هذين الحرفين والقياس فعل نحو درة ودرر ولكن الحرة من النساء فى معنى الكريمة والعقيلة ونحو ذلك فأجروها مجرى ماهو فى معناها من الفعلية وكذلك المرفياسه أن يقال فيه مرير لأن المرارة فى الشىء طبيعة فقياس فعله أن يكون فعل واذا كان قياسه فعل فقياس الصفة منه أن تكون على فعيل والأنثى فعيلة والشىء المر عسير اكله شديد فأجروا الجمع مجرى هذه الصفات التى هى على فعيل لأنها طباع وخصال وافعال الطباع والخصال كلها تجرى هذا المجرى

مؤنة عدوهم ، فقالوا فى ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله تعالى بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم فقال عبد الله بن الزبعرى :

تنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديماً لا يرام حريمها[١]
لاتخلق الشِعرى ليالى حرمت إذْ لا عزيزَ من الأنام يرومها[٢]
سائلْ أميرَ الحبش عنها ما رأى ولسوف ينبى الجاهلين عليمُها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضَهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها[٣]
كانت بها عادٌ وجرْهُمُ قبلهم واللهُ من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل :

ومن صنعه يوم فيل الحبوش إذ كل ما بعثوه رزم[٤]
محاجنُهم تحت أقرابه وقد شرموا أنفَهُ فانخرم

(١) الأبيات من (الكامل) وقد دخل فى قوله تنكلوا الخ خرم ولا يبعدان يدخل الخرم فى متفاعل فيحذف من السبب حرف كما حذف من الوتد فى الطويل حرف واذا وجد حذف السبب الثقيل كله فأحرى ان يجوز حذف حرف منه وذلك فى قول ابن مفرغ :

هامة تدعو صدى بين المشقر واليمامه

وهو من المرفل والمرفل من الكامل الا ترى أن قبله :

وشريت بردا ليتنى من بعد برد كنت هامه

فالمحذوف من الطويل اذا خرم حرف من وتد مجموع والمحذوف من الكامل اذا خرم حرف من سبب ثقيل بعده سبب خفيف قال السهيلى : ولما كان الاضمار فيه كثيرا وهو اسكان التاء من متفاعلن فمن ثم قال أبو على : لايجوز فيه الخرم لأن ذلك يؤول الى الابتداء بساكن ، وهذا الكلام لمن تدبره بارد غث لأن الكلمة التى يدخلها الخرم لم يكن قط فيها اضمار نحو تنكلوا عن بطن مكة والتى يدخلها الاضمار لايتصور فيها الخرم نحو لايبعدن قومى ونحو قوله لم تخلق الشعرى الخ فتعليله فى هذا الشعر اذا لايفيد شيئا وما أبعد العرب من الالتفات الى هذه الأغراض التى يستعملها بعض النحاة وهى أوهى من نسج الخدرنق (٢) ان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الاسلام فهو منتزع من قول النبى صلى الله عليه وسلم أن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس ومن قوله فى حديث آخر ان الله حرمها يوم خلق السموات والأرض والتربة خلقت قبل خلق الكواكب وان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الجاهلية فانما أخذه والله أعلم من الكتاب الذى وجدوه فى الحجر بالخط المسند حين بنوا الكعبة وفيه أنا الله رب بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض الحديث
(٣) يعنى بقوله بعد الاياب سقيمها ابرهة اذ حملوه معهم حين أصابه ما أصابه حتى مات بصنعاء (٤) رزم : ثبت ولزم موضعه وأرزم من الرزيم وهو صوت ليس بالقوى وكذلك صوت الفيل ضئيل على عظم خلقته

وقد جعـــلوا سوطَهُ مِغْولا إذا يمموه قفـــاه كَلِم[١]
فولى وأدبر أدراجـــه وقد باءَ بالظلم من كان ثَم[٢]
فأرسل من فوقهم حاصباً فلفَّهم مثل لف القُزُم[٣]
تحضُّ على الصبر أحبـارُهم وقد ثأجوا كثؤاج الغنم[٤]

« وقال أيضاً »

فقوموا فصـلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب[٥]
فعندكُمُ منـــه بلاء مصدَّق غداةَ أبي يكسوم هادى الـكتائب[٦]
كتيبته بالسهل تمشي ورجله على القاذفاتِ فى رؤس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردَّهم جنود المليك بين ساف وحاصب[٧]
فولوا سراعاً هاربين ولم يَؤُبْ إلى أهله مِلْحَبْشِ غير عصائب[٨]

وقال طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب :

ألم تعلموا ما كانَ فى حرب داحس وجيش أبي يكسوم إذ ملؤا الشعْبا
فلولا دفاعُ الله لا شيء غيره لأصبحتُمُ لا تمنعون لـكم سَرْبا[٩]

وقال أمية بن أبي الصلت ابن أبي ربيعة الثقفى :

إن آيات ربِّنا ثاقباتٌ لا يمارى فيهن إلا الـكفور
خلق الليل والنهار فـكلٌّ مستبين حسابهُ مقـــدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم بمهاةٍ شُعاعها منشور[١٠]

---

(١) المغول كمنبر حديدة تجعل فى السوط فيكون لها غلافا وشبه مشمل الا انه ادق واطول منه ونصل طويل او سيف دقيق له قفا (٢) يقال أدبر او رجع فلان ادراجه اى عاد من حيث جاء ، وباء رجع ، وثم بالفتح اسم يشاربه بمعنى هناك للمكان البعيد ظرف لاينصرف (٣) الحاصب : ريح تحمل التراب أو هو ماتناثر من دقاق الثلج والبرد والسحاب الذى يرمى بهما ، والقزم صغار الغنم ويقال رذال المال (٤) كثؤاج الغنم اى كصوت الغنم (٥) الأخاشب : جبال الصمان (٦) ابو يكسوم كنية ابرهة والكتايب جمع كتيبة وهى الجيش أو الجماعة المستجيزة من الخيل او غير ذلك ، والهادى المتقدم (٧) السـافى الذى يرمى بالتراب ، والحاصب مر تفسيره قريبا (٨) قوله لم يؤب أى لم يرجع وملحبش أى من الحبش (٩) السرب بالفتح المال الراعى والسرب بالكسر القطيع من البقر والظباء ومن النساء ايضـا (١٠) المهاة : الشمس سميت بذلك لصفائها والمها من الأجسام الصافى

حبس الفيل بالمُغَمَّس حتى ظلّ يحبوا كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قط رمن صخر كبكب محدود(١)
حولَهُ من ملوكِ كِنْدَةَ أبطا لٌ ملاويثُ فى الحروب صقور(٢)
خلفوه ثم ابذعَرّوا جميعاً كلّهم عظمُ ساقه مكسور(٣)
كل دين يوم القيامة عند اللّـ ـهِ إلا دين الحنيفة بُورُ(٤)

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك ويهجوا الحجاج بن يوسف:

فلما طغى الحجاج حين طغى بهِ عنا قال إنى مرتق فى السلالم(٥)
فكان كما قال ابنُ نوح سأرتقى إلى جبلٍ من خشية الماء عاصم(٦)
رمى الله فى جثمانه مثلَ مارمى عن القبلة البيضاء ذاتِ المحارم
جنودٌ تسوقُ الفيل حتى أعادهم هباءً وكانوا مُطْرَخِمِّى الطراخم(٧)
نصرت كنصر البيت إذ ساقَ فيله إليه عظيم المشركين الأعاجم

وقال عبد الله بن قيس الرقيات أحد بنى عامر بن لؤى بن غالب يذكر أبرهة والفيل:

كادَهَ الأشرم الذى جاء بالفـ ـيل فولّى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجَنْـ ـدلِ حتى كأنَّهُ مرجوم(٨)
ذاك من يغزُهُ من الناس يرجع وهو فلّ من الجيوش ذميم

الذى يرى باطنه من ظاهره ، والمهاة البلورة ، والمهاة الظبية (١) الجران العنق يريد القى بجرانه الى الأرض وهذا يقوى انه برك الا تراه يقول كما قطر من صخر كبكب وهو جبل محدور أى حجر حدر حتى بلغ الأرض (٢) الملاويث والملاوث جمع ملاث وهو الملاذ السيد الشريف لأن الأمر يلاث به ويعصب أى تقرن به الأمور وتعقد (٣) ابذعروا : تفرقوا من ذعر وهى كلمة منحوتة من أصلين من البذر والذعر (٤) يريد بالحنيفة الأمة الحنيفة اى المسلمة التى على دين ابراهيم الحنيف صلى الله عليه وسلم وذلك انه حنف عن اليهودية والنصرانية اى عدل عنهما فسمى حنيفا أو حنف عما كان يعبد آباؤه وقومه

(٥) السلالم جمع سلم كسكر المرقاة وقد تذكر وتجمع على سلاليم ايضا

(٦) ابن نوح اسمه يام وقيل كنعان ، وعاصم اسم فاعل عصمه اذا حفظه وحماه (٧) المطرخم الممتلىء كبرا أو غضبا والطراخم جمع مطرخم (٨) بالجندل كجعفر مايقله الرجل من الحجارة وتكسر الدال ، ومرجوم الرجم القتل والقذف والطرد ورمى بالحجارة

فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة وبه كان يكنى ، فلما هلك يكسوم بن أبرهة ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى وكان يكنى بأبى مرة فانتزع ملك اليمن من أيديهم بمعاونة كسرى وقد عدت قصة الفيل من آيات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنه كان فى زمانه حملا فى بطن أمه بمكة لأنه ولد بعد خمسين يوما من الفيل وبعد موت أبيه فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ووافق من شهور الروم العشرين من شباط فى السنة الثانية عشر من ملك هرمز ابن أنوشروان . وحكى أبو جعفر الطبرى : أن مولده كان لاثنين وأربعين سنة من ملك أنوشروان فكانت آيته فى ذلك من وجهين . أحدهما : أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا فأهلكهم الله لصيانة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجرى عليه السبى حملا ووليداً . والثانى : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين يدى عابدصنم ، أومتدين وثن ، أو قائل بالزندقة ، أو مانع من الرجعة ، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة ، وتعظيما للكعبة ، أن يجعلها قبلة للصلاة ، ومنسكا للحج ولما انتشر فى العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم ، وأعظموه وزادت حرمته فى النفوس ، ودانت لقريش بالطاعة ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيما . وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية على ما سبق فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين وصار أصحاب الفيل مثلا فى الغابرين . وروى هشام بن محمد الكلبى عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خرج فى الجاهلية تاجراً إلى الشام فمر يزنباع بن روح وكان عشاراً فأساء إليه فى اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال عمر بعد انفصاله :

متى ألفِ زنباعَ بن روح ببلدة　　إلى النصف منها يقرع السن بالندم
ويعلم أنّا من لؤى بن غالب　　مطاعين فى الهيجا مضاريب فى التهم

فبلغ ذلك زنباعاً فجهز جيشاً لغزو مكة فقيل له إنها حرم الله ما أرادها أحد بسوء إلاّ هلك كأصحاب الفيل فكف زنباع فقال :

تمنّى أخو فهرٍ لقاى ودونه   قراضبة مثل الليوث الحواظر[1]

فوالله لولا الله لا شيء غيره   وكعبته راقت إليكم معاشرى

لأقتل منكم كل كهل معمم   وأسبى نساءً بين جمع الأباعر

فبلغ ذلك عمر رضوان الله تعالى عليه فأجابه وقال :

ألم تر أنَّ الله أهْلك من بغى   علينا قديماً فى قديم المعاشر

وأردى أبا يكسوم أبرهة الذى   أتانا مغيراً كالفَنيق الخاطر[2]

بجمع كثير يُخرج العين وسطه   على رأسه تاجٌ على رأس باكر

فما راعنا من ذلك العبد كيده   وكنا به من بين لاه وساخر

وقال سأبغى البيت هدماً ولا أرى   بمكة ماش بين تلك المشاعر[3]

فردّاه رب العرش عنا رداءه   ولم ينجه أعظامه بالمرائر

فأهلكه والتابعين له معاً   وأسرى به من ناصر ومسامر

وليس لنا فاعلم وليس لبيتنا   سوى الله من مولى عزيز وناصر

فدونك زرنا تلق مثل الذى لقوا   جميعهم من دارعين وحاسر

وكان شأن الفيل رادعا لكل باغ ، ودافعاً لكل طاغ ، وقد عاصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمن نبوته وبعد هجرته جماعة شاهدوا الفيل ، وطير الأبابيل[4] ، منهم حكيم بن حزام ، وحاطب بن عبد العزى ، ونوفل بن معاوية ، لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة منها ستين سنة فى الجاهلية ، وستين سنة فى الإسلام .

---

(١) القراضبة : اللصوص الواحد قرضوب وقرضاب .
(٢) الفنيق الفحل المكرم لايؤذى لكرامته على اهله ولا يركب .
(٣) المشاعر : مواضع المناسك والمشعر الحرام جبل بآخر مزدلفة واسمه قزح وميمه مفتوحة على المشهور وبعضهم يكسرها على التشبيه بالآلة .
(٤) فرق جمع بلا واحد .

سؤال وجواب

إن سأل سائل لم كان حبس الفيل فى زمان الجاهلية عن مكة من الإفساد والإلحاد فيها ، ولم يمنع الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمان الإسلام عنها ، وقد نصب المنجنيق[1] على الكعبة وأضرمها بالنار ، فقال فيها على ما حكى عنه :

كيف تراه ساطماً[2] غباره والله فيما يزعمون جارُه

وقال راميها بالمنجنيق :

قطارة مثل الفنيق المزبد أرمى بها أعواد كل مسجد

وسفك فيها الدم الحرام ، وقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه فى المسجد ، وكيف لم يحبس عنها القرامطة ، وقد سلبوا الكعبة ، ونزعوا حليتها وقلعوا الحجر ، وقتلوا العالم من الحاج وخيار المسلمين بحضرة الكعبة ؟

(الجواب) إن حبس الفيل فى الجاهلية كان علماً لنبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتنويهاً بذكر آبائه إذ كانوا عمار البيت وسكان الوادى فكان ذلك الصنيع إرهاصاً[3] للنبوة وحجة عليهم فى إثباتها فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان فى ذلك أمران ، أحدهما : فناء أهل الحرم وهم الآباء والأسلاف لعامة المسلمين ، ولكافة من قام به الدين . والآخر : أن الله سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم فى إثبات نبوّة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأن يجعله مقدمة لكونها وظهورها فيهم ، وكان مولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامئذ

---

(١) معرب من جه نيك اى ما اجودنى أو أنا شيء جيد لأنه لايجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية غير اسم صوت بكسر الميم كما فى القاموس وضبطه ابو منصور بفتحها الة ارمى الحجارة كالمنجنوق ومنجليق لغات فيه معربة وقيل الأقرب انه معرب منجل نيك ومنجل مايفعل بالحيل وميمه زائدة وقيل اصلية ويدل على الأول قول بعض العرب كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيون مرة بمنجنيق وأخرى بوثيق ، وقيل النون زائدة والميم اصلية وعكسه وقيل هما أصليتان وقيل زائدتان كما فصل فى التصريف كما فى شفاء العليل (٢) أى مرتفعا (٣) الارهاص : الاثبات يقال ارهص الشيء اذا اثبته واسسه وهو مجاز ومنه ارهاص النبوة

وكانوا قوما عرباً أهل جاهلية ليست لهم بصيرة فى العلم ، ولا تقدمة فى الحكمة ، وإنما كانوا يعرفون من الأمور ما كان دركه من جهة الحس والمشاهدة ، فلو فلم يجر الأمر فى ذلك على الوجه الذى جرى لم يكن يبقى فى أيديهم شىء من دلائل النبوة تقوم به الحجة عليهم فى ذلك الزمان . فأما وقد أظهر الله الدين ورفع أعلامه ، وشرح أدلته وأكثر أنصاره ، فلم يكن ما حدث عليها من ذلك الصنيع أمراً يضر بالدين ، أو يقدح فى بصائر المسلمين ، وإنما كان ما حدث منه امتحانا من الله سبحانه لعباده ليبلو فى ذلك صبرهم واجتهادهم وليقيلهم من كرامته ومغفرته ما هو أهل التفضل به ، والله يفعل ما يشاء وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . وما ذكرناه نبذةٌ يسيرة مما كان عليه البلد الحرام ، وبقيت أبحاثٌ يضيق عنها نطاق الأرقام ، فإن أردت زيادة على ما ذكرنا فعليك (بشفاء الغرام ، باخبار البلد الحرام) لأبى الطيب محمد المكى المالكى عليه رحمة الملك العلام ، وكذلك تاريخ مكة للإمام الأزرقى عليه الرحمة فإن فيهما البغية [1] لمن أراد الوقوف التام على أحوال مكة المكرمة .

أسواق العرب قبل الجاهلية

كان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر . منها (دُومة الجندل) كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون فى أسواقها للبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة ، وهو من بيوع الجاهلية التى أبطلها الإسلام وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر ارْمِ هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول لى بكل حصاة

(١) بالكسر الحاجة التى تبغيها ، وضمها لغة وقيل بالكسر الهيئة بالضم الحاجة

درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاة فى يده ويقول أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بأن يتبايعا ويقول أحدهما إذا نبذت إليك الحصاة فقد وجب البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول أى شاة أصابتها فهى لك بكذا . وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة . وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر . وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر . ومنها (سوق هَجر) بفتح الهاء والجيم اسم لجميع أرض البحرين ومنه المثل « كمبضع تمر إلى هجر » . وقول عمر رضى الله تعالى عنه « عجبت لتاجر هجر » كأنه أراد لكثرة وبائه أو لركوب البحر . وسمى بهذا الاسم بلد باليمن بينه وبين (عَثّر) يوم وليلة مذكر مصروف وقد يؤنث والنسبة هجرى وهاجرى والسوق الموضع الأول كانوا ينتقلون إليها فى شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم . ومنها (سوق عمان) كغراب . ذكر فى القاموس أنها بلد باليمن ويصرف وكشداد بلد بالشام ولم يذكر الموضع الذى كان سوقاً ، وهو فى أرض البحرين كانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى ، ومنها (سوق المشقّر) كمعظم حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب . والهمهمة : الكلام الخفى وكل صوت معه بحح . وبيع الملامسة على أوجه وهى : أن يأتى بثوب مطوى أو فى ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب : بعتكه بكذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . الوجه الثانى : أن يجعلا نفس اللمس بيعاً بغير صيغة زائدة . الوجه الثالث : أن يجعلا اللمس شرطاً فى قطع خيار المجلس وغيره ، وهو أيضاً من البيوع التى أبطلها

الإسلام كبيع المنابذة وهو أن يجعلا نفس النبذ بيعاً كما تقدم فى الملامسة ، أو أن يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة ، أوْ أن يجعلا النبذ قاطعاً للخيار ومنها (سوق صُحار) بضم الصاد المهملة تقوم لعشر يمضين من رجب الفرد خمسة أيام . ومنها (الشحر) كالمنع ساحل البحر بين عمان وعَدَن ويكسر تقوم فى النصف من شعبان ، وكان بيعهم فى هذه السوق أيضاً برمى الحصاة وإلقاء الحجارة كما فى سوق دومة الجندل . ومنها (سوق عَدَن أبْيَن) كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، وعدن جزيرة فى اليمن أقام بها (أبين) فنسبت إليه فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب ، ومنها (سوق صنعاء) كانوا إذا ارتحلوا من عدَن والشّحْر تقوم سوقهم بصنعاء فى النصف من شهر رمضان إلى آخره وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ، ومنها كان يجلب الأدَم[1] والبرود ، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان فى اليمن ، وقد تقدم بعض الكلام على صنعاء . ومنها (سوق حضر موت) كانت تقوم فى النصف من ذى القعدة يحضرها بعض القبائل من العرب والبعض منهم يحضر سوقا أخرى تقوم فى هذه الأيام أيضاً سيأتى ذكرها . ومنها (سوق ذى المجاز) كانت بناحية عرفة إلى جانبها ، وعند الأزرق من طريق هشام بن الكلبى أنها كانت لهذيل على فرسخ من عرفة ، ووهم هنا صاحب الصحاح فإنه قال فيه ذو المجاز موضع بمنى كان به سوق فى الجاهلية لما رواه الطبرانى عن مجاهد أنهم كانوا لا يبيعون ولا يبتاعون فى الجاهلية بعرفة ولا بمنى ومنها (سوق مجنة) بفتح الميم وكسرها موضع قرب مكة ، وهو الذى عناه بلال رضى الله تعالى عنه بقوله متشوقا إليه بعد الهجرة :

وهل أردنْ يوما مياه مجنة   وهل يبدونْ لى شامة وطفيل

كانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج . ويحضرها كثير من قبائل

---

(١) بفتحتين وبضمتين ايضا جمع اديم وهو الجلد المدبوغ ، والبرود جمع برد بالضم وهو ثوب مخطط وكساء يلتحف به

العرب . ومنها (سوق حُبَاشة) بضم الحاء المهملة وتخفيف الموحدة وبعد ألف شين معجمة . كانت فى ديار بارق نحو (قنونا) بفتح القاف وبضم النون الخفيفة وبعد النون ألف مقصورة من مكة إلى جهة اليمن ، ولم تكن من مواسم الحج ، وإنما كانت تقام فى شهر رجب . ومنها (سوق عكاظ) بضم المهملة وتخفيف الكاف وآخر ظاء معجمة بالصرف وعدمه . قال اللحيانى : الصرف لأهل الحجاز وعدمه لغة تميم . وهو موسم معروف للعرب بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراء (قَرَن المنازل) بمرحلة من طريق صنعاء اليمن ، وكان المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صخور يطوفون حولها ، وكانوا يتبايعون فيها ويتعاكظون[1] ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم وقد كثر ذلك فى أشعارهم كقول حسان :

سأنشر إنْ حييتُ لهم كلاماً ينشّر فى المجامع من عُكاظِ

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقَع . ومنهم قُسُّ بن ساعدة الأيادىّ إذ خطب خطبته الشهيرة هناك وهو على جملة الأورق ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل إلى غير ذلك وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلاّ سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل جهة فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحاشيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . ومن كان له أسيرٌ سعى فى فدائه ، ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة . وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس . ولما كانت هذه السوق مجمع القبائل قال طريف بن تميم العنبرىّ :

أو كلّما وردتْ عكاظ قبيلةٌ بعثوا إلىّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ[2]

---

(١) اى يتفاخرون

(٢) العريف : رئيس القوم لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون

فتوسمونى إننى أنا ذلـكم   شاكى سلاحى فى الحوادث مُعْلَمُ[1]

تحتى الأغرُّ وفوق جلدى نَثْرةٌ   زَغَف تردّ السيف وهو مثلم[2]

حولى أسيد والهجيم ومازنٌ   وإذا حللت فحول بيتى خَضَّمُ[3]

ولـكل بكرىّ لدىّ عداوةٌ   وأبو ربيعةَ شانئٌ ومحلّم

وطَريف هـذا كان من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم قتل مرة رجلا من بنى شيبان ثم حضر ذلك الموسم فأمعن فيه النظر بعض أقارب ذلك المقتول . فسأله طريف عن السبب فقال أريد أنْ أعرفك فلعلى أصادفك يوماً لأقتلك أو تقتلنى ، فأنشد طريف تلك الأبيات . وقد صادف ذلك الرجل طريفاً فى يوم من أيامهم فقتله وأخذ منه ثار قريبه ، وكانت بعكاظ وقائع مرة بعد مرة ، ولذلك يقول دريد ابن الصمة :

تغيبتُ عن يومَىْ عُكاظَ كليْهما   وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ أتغيَّبِ

وإن يكُ يومٌ رابع لا أكن به   وإن يكُ يوم خامس أتجنّبِ

وذكر أبو عبيدة أنه كان بعكاظ أربعة أيام : يوم شمطة ويوم العبلاء ويوم شرب ويوم الحريرة ، وهى كلها من عكاظ قال : « فشمطة » من عكاظ هو الموضع الذى نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بنى كنانة بعد يوم نخلة ، وهو أول يوم اقتتلوا فيه من أيام الفجار بِحَوْلٍ على ما تواعدت عليه مع هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة وقريش ولم يقتل من قريش أحد يذكر ، واعتزلت بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى جبل يقال له (رخم) فلم يقتل منهم أحد ، وقال خداش بن زهير :

الرئيس ، والتوسم التخيل والتفرس وانما كان يتوسمه لأن فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنعوا حتى لايعرفوا

(١) شاكى السلاح : ذو شوكة وحد فى سلاحه ، واعلم نفسه وسمها بسيما الحرب (٢) الزغفة وقد يحرك : الدرع اللينة الواسعة المحكمة الرقيقة الحسنة السلاسل ، درع زغف أيضا ، والنثرة : الدرع السلسة الملبس أو الواسعة (٣) خضم كبقم الجمع الكثير من الناس

فأبلغ إن بلغت به هشاماً   وعبدَ الله أبلغْ والوليدا[1]
بأنا يوم (شمطة) قد أقمنا   عمودَ الدين إنَّ له عمودا

ثم التقى الأحياء المذكورون على رأس الحول من شمطة « بالعبلاء » إلى جنب عكاظ ، فكان لهوازن أيضاً على قريش وكنانة . قال خداش بن زهير :

ألم يبلغكُمُ أنّا جدَعنا   لدى العبلاء خِنْدفَ بالقباد
ضربناهم ببطن عكاظ حتى   تولّوا طالعينَ من النجاد

ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة « بشرب » وشرب من عكاظ ، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه فحافظت قريش وكنانة وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان ، وقيد أبو سفيان وحرب ابنا أمية وأبو سفيان بن حرب أنفسهم وقالوا لايبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو يظفرَ ، فانهزمت هوازن وقيس كلها الابنى نصر فإنها صبرت مع ثقيف ، وذلك أن (عكاظ) بلدهم لهم فيه نخل وأموال فلم يغنوا شيئاً ، ثم انهزموا وقتلت هوازن يومئذ قتلا ذريعاً . قال أمية بن أسكر الكنانى :

الاسائل هوازن يوم لاقوا   فوارسَ من كنانةمعلمينا[2]
لدى شرب وقد جاشواوجشنا   فأوعب فى النفير بنو أبينا[3]

وقال

قومى الَّلذُو بعكاظ طيَّروا شرراً   من روس قومك ضرباً بالمصاقيل[4]

---

(١) حذفت نون التوكيد من ابلغن للضرورة ومثله قول الشاعر :
يا راكبا بلغ اخواننا   من كان من كندة او وائل
وقول الآخر :
ان ابن احوص مغرور فبلغه   فى ساعديه اذا رام العلى نصر
ولا يجوز مثل هذا فى سعة الكلام الا شاذا نحو قراءة ابى جعفر المنصور الم نشرح لك صدرك بفتح الحاء

(٢) المعلم الذى اعلم نفسه اى وسمها بسيما الحرب (٣) أو عب القوم اذا حشدوا (٤) الشرر بفتحتين هواما جمع شررة وهو ماطاير من النار وكذلك الشرار والشرارة واما مصدر شررت يارجل بفتح الراء وكسرها شرا وشررا وشرارة من الشر نقيض الخير ؛ وقوله من روس ومك بحذف الهمزة

ثم التقوا على رأس الحول « بالحُرَيْرَةِ » وهي حرة إلى جنب عكاظ مما يلي مهب جنوبها فكان لهوازن على قريش وكنانة . وكانت تقوم هذه السوق في قول أول ذي القعدة إلى عشرين منه ثم يتوجهون إلى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون إلى أوطانهم . وفي قول آخر : أنهم كانوا يقيمون به جميع شوال إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة ، ولعل ذلك لاختلاف العادة في السنين أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم . والذي عليه صاحب قبائل العرب أنهم كانو يقيمون في هذه السوق من نصف ذي القعدة إلى آخره فإذا أهل ذوالحجة أتوا (ذا المجاز) وهو قريب من عكاظ على ما سبق فتقوم سوقه إلى التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة سمي بيوم التروية لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد ، أو لأنَّ إبراهيم عليه السلام كان يتروى ويتفكر في رؤياه فيه . وفي التاسع عرف وفي العاشر استعمل ثم يصيرون إلى منى وتقوم سوق (نطاة) بخيبر ونطاة عين أو حصن بخيبر . وسوق (حَجْرٍ) بفتح المهملة وسكون الجيم يوم عاشوراء إلى آخر المحرم . ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام إلى أن كان أول ما ترك منها سوق عكاظ في زمن خروج الخوارج الحرورية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة فنهبوها فتركت إلى الآن . واتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة وكان آخر ما ترك من الأسواق المذكورة سوق (حُباشة) في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي في سنة سبع وتسعين ومائة . والله أعلم بحقائق الأمور .

مجتمعات العرب في جاهليتهم

أما المجتمعات في غير هذه الأسواق فهي كثيرة الأنواع والأقسام لا يمكن استيعابها

من رؤس ، والمصاقيل جمع مصقول من الصقل وهو جلاء الحديد وتحديده أي جعله قاطعا أراد كل آلة حديد من السلاح مثل السيف والسنان وفي البيت شاهد على ان النون تحذف من اللدون

فى مثل هذا المقام . منها ما كان لمحض الأنس ، وتنشيط الأنفس ، وذكر ما سلف لهم من الحروب والوقائع ، وتناشد الشعر والقريض ونحو ذلك من الكلام الذى تبتهج له الطبائع . وهذا الحال لا يكون غالباً إلا فى الليالى ، وبعد الاستراحة واستقرار البال ، كما يدل عليه لفظ المسامرة فإن السمر هو التحدث فى الليل والمحاورة . ولله در العرب ، فقد كان لهم من دقيق الفكر ما يوجب العجب ، فإن النهار ولا سيما فى الغدو وهو وقت السعى وطلب المعاش وزمان قضاء مصلحة وتكسب وانتعاش ، وهم كانوا يسعون فيه بمالهم من المصالح والأشغال ، ولا يقضونه فى اللهو والبطالة والقيل والقال ، وهذا بعكس ما عليه أهل زماننا من قبيح العوائد ، فتراهم يقضون نفائس الأوقات فى كل ما عرى عن الفوائد ، ولذلك تأخروا فى الفضائل ، وحرموا والأمر لله تعالى من الصفات الجليلة وجميل الشمائل . وأما العرب الأولون فقد ملأوا بطون الدفاتر ، بما كان لهم من المفاخر والمآثر ، وكانوا يتحلقون إذا اجتمعوا من النادى فى طرف ، وربما كان وسط الحلقة من ينتهى إليه الشرف ، وإذا أراد أحدهم ذكر حادث غريب ، وإلقاء كلام عجيب ، قام وتلاه على القوم كما يفعل الخطيب ، وإذا حدث شخص آخر مس لحيته فى أثناء مخاطبته ، وتناولها بيده فى حال محاورته ، وذلك شكل من أشكال العرب وعادة من عاداتهم ، يفعل الرجل ذلك بصاحبه إذا حدثه ويجرى ذلك مجرى الملاطفة من بعضهم لبعض فى معتقداتهم كما نبه على ذلك الخطابى فى شرح السنن .

« ومنها » ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو إغارة على قوم آخرين فإنهم لا يتحركون حركة فى ذلك الا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد فى محل مخصوص كقبة ينصبها لهم من تكفل بأمرها لأجل ذلك كما أشرنا إليه سابقاً ، وعند الاجتماع تدور بينهم أقداح المذاكرة فما يستقر عليه الرأى يعمل بموجبه ولا يتخلف أحد عنه . « ومنها » ما كان لأجل الحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات التى كانت تقع بينهم كما كانوا يجتمعون فى دار الندوة وهى دار قُصَىّ

ابن كلاب وهو الذى بناها وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، وفيها كانت قريش تقضى أمورها تيمناً بأمر قصىّ ، فما تنكح امرأةٌ ولا يتزوج رجل من قريش ولا تتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها يعقده لهم بعض ولد قصىّ ، وما تدرع جارية من قريش إذا بلغت أن تدرع إلا فى داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها . وكان لا يعذر غلام إلا فيها[1] ، ولا تفصل خصومة بينهم إلا هناك . قال الكلبى : وهى أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه ، وكلما قربوا من عصر الإسلام ازدادوا قوةً وكثرة عددٍ حتى دانت لهم العرب وصار أمر قصى فى قريش كالدين المتبع . وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها أى يجتمعون للخير والشر . وفى القاموس النادى والندوة والمنتدى مجلس القوم نهاراً أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه . وكانت لقريش أندية حول الكعبة يجتمعون فيها كما فى السيرة الهشامية ويتذاكرون فى أمور تخصهم . وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الكعبة على فراش معد له لا يجلس عليه أحد غيره احتراماً له وإجلالا لقدره . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس وهو صغير بجنب جده ولا يدع أحداً يمنعه . وكان يقول : سيكون لابنى هذا شأن فكان كما قال بل فوق ما كان يتصوره ويرجوه .

« ومنها » ما كان لطلب مثوبة واتعاظ بوعظ كما كانت قريش فى الجاهلية تجتمع إلى كعب بن لؤى بن غالب وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم السابع فى كل جمعة فيخطب فيه على قريش فيقول على ما حكاه الزبير بن بكار : أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا . ليلٌ داج[2] ونهار صاح ، والأرض مهاد والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ،

---

(١) عذر الغلام والجارية من باب ضرب ختنه فهو معذور واعذرته بالألف لغة

(٢) أى مظلم

فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالك رجع أو ميت انتشر ، والدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون . وكان يذكرهم بمبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه ، ويقول : زينوا حرمكم وعظموه ، فسيأتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم ينشد :

نهارٌ وليل كل أوبٍ تجاذب سواءٌ علينا ليل ونهارُها
يثوبان بالأحداث حينَ تأوبا وبالنعم الضافى علينا ستورُها
صروف وأبناء تقلب أهلها لها عقدٌ ما يستحل مريرها
على غفلةٍ يأتى النبى محمدٌ فيخبر أخباراً صدوقا خبيرها

ثم يقول : أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر ويد ورجل لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت فيها أرقال[1] الفحل ، ثم يقول :

يا ليتنى شاهد نحواءَ دعوته حين العشيرة تبغى الحقَّ خذلانا

وهذا من فطن الإلهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت ، ويقال : هو الذى سمى يوم العَرُوبة يوم الجمعة . وهو أول من نقلها إلى ماهو المتداول ، لاجتماع الناس إليه فى كل جمعة . وقد كانت العرب العاربة تسمى أيام الأسبوع بأسماء غير هذه الأسماء المتداولة بين الناس اليوم . وكانوا يسمون الأحد أول ، والإثنين أهون ، والثلاثاء جباراً ، والأربعاء دباراً ، والخميس مونسا ، والجمعة ماسبق ، والسبت شِياراً ، ويقال فى أهون أوهن وأوهد وفى شيار الفتح والكسر ، وقد نظم ذلك بعضهم بقوله :

أؤمّلُ أن أعيش وأنَّ يومى بأوّلَ أو بأهونَ أو جبار
أو التالى دبار فإن أفته فمونس فالعَروبة أو شيار

أى إنى أؤمل البقاء فى الدنيا والعيش فيها ، ولابد من الموت فى يوم من هذه

---

(١) هو ضرب سريع من السير .

الأيام ولا محالة وهذا سفه من الرأى ، فينبغى للحازم أن لا يؤمل البقاء وكل يوم من أيام الأسبوع محتمل أن يكون غاية الأجل وللعمر فيه ختام وانقضاء . وكذلك وضعت العرب لساعات النهار والليل أسماء غير ما هو المتعارف ، وهى الدرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ويقال فيها أيضاً البكور ثم الشروق ثم الإشراق ثم الراد ثم الضحى ثم المتوع ثم الهاجرة ثم الأصيل ثم العصر ثم الطفل ثم العشى ثم الغروب ، ذكر هاتين الروايتين ابن النحاس فى كتابه الذى سماه (صناعة الكتاب) . ويقال : إن أول من قسم النهار اثنتى عشرة ساعة آدم عليه السلام : وضمن ذلك وصيته لابنه شيث عليه السلام وعرفه ما وظف عليه فى كل ساعة من عمل وعبادة . وأما ساعات الليل فهى الشاهد ثم الغسق ثم العتمة ثم الفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوسر ثم العبكة ثم التباشير ثم الفجر الأول ثم المعترض ثم الإسفار . وفى كتب اللغة أسماء أخر لساعات الليل والنهار فلتراجع . وكذلك كانوا يسمون الأشهر بأسماء غير ما نعلمها اليوم وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى فى الكلام على النسىء ، وقيل فى سبب تسمية يوم العروبة بيوم الجمعة أن الأنصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام وللنصارى كذلك فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلى ، فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله تعالى سورة الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الإسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهى أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على قبيلة بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وانتبش مسجدهم . ثم خرج يوم الجمعة قاصداً المدينة فأدركته الصلاة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وحكى السهيلى فى كتاب شرح السيرة النبوية : أن يوم الجمعة كان

يسمى بهذا الاسم قبل أن تصلى الأنصار الجمعة وأنه لما كان اليوم الذى جمع فيه خلق آدم عليه السلام سمى بهذا الاسم . قال أهل اللغة : السبت القطع ، ومنه يوم السبت لانقطاع خلق الأشياء فيه . وحكى أيضاً أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك إلا الأسماء التى وضعتها العرب العاربة والأسماء التى وضعتها السريان وهى (أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت) ، ولم يذكروا سابعاً وذكروا أنها أسماء الأيام التى حتى خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات علويها وسفليها . وهذا القول مذكور فى كتاب ابن النحاس أيضاً وكأن السهيلى نقله منه .

« ومنها » ما كان لحلف وعقد معاهدة كما اجتمعت قريش فى الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت فيهم الرياسة وشاهدوا من التغالب والتجاذب مالم يكفهم عنه سلطان قاهر فعقدوا حلفا على رد المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان سببه ما حكاه الزبير بن بكار : أن رجلا من اليمن من بنى زبيد قدم مكة معتمراً ببضاعة فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، وقيل إنه العاص بن وائل فلوى الرجلَ بحقه فسأله ماله أو متاعه فامتنع عليه فقام على الحجر ، وأنشد بأعلى صوته :

يال قصى[1] لمظلوم بضاعته ... ببطن مكةَ نائى الدار والنفر
وأشعث محرم لم تقض حرمته ... بين المقام وبين الحِجْر والحَجَر
أقائمٌ من بنى سهم بذمتهم ... أو ذاهبٌ فى ضلال مالُ معتمر

ثم إن قيس بن شيبة السلمى باع متاعا على أبىّ بن خلف فلواه وذهب بحقه فاستجار برجل من بنى جمح فلم يجره ، فقال قيس :

يالَ قصىٍّ كيفَ هذا فى الحَرَمْ ... وحرمة البيت وأحلاف الكرمْ
أظلم من لايمنع عنى الظلم

فأجابه العباس بن مرداس السلمى[2] :

---

(١) ويروى عنه ياآل فهر . (٢) جده أبو عامر بن حارثة احد بنى سليم

إن كانَ جارُكَ لم ينفعك ذمتهُ　　وقد شربت بكأس الذل أنفاسا

فأتِ البيوتَ وكن من أهلها صددا　　لاتلق تأديبهم فحشاً ولا باسا

ومن يكن بفناء البيت معتصما　　يَلْقَ ابن حربٍ ويلقَ المرء عباسا

قومى قريش بأخلاق مكملة　　بالمجد والحزم ماعاشا وما ساسا

ساق الحجيج وهذا ناشر فلج　　والمجد يورث أخماسا وأسداسا

فقام أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب فرد عليه ماله ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا فى دار عبد الله بن جُدْعان على رد المظالم بمكة وأن لا يظلم أحد إلاّ منعوه وأخذوا للمظلوم حقه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوة ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة فعقدوا حلف الفضول فى دار ابن جدعان فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاكراً للحال : لقد شَهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلف الفضول ما أحب أنْ لى به حمر النعم ولو أدعى إليه فى الإسلام لأجبت . وأتَى بقصته وما يزيده الإسلام إلا شدة ، فقال بعض قريش فى هذا الحلف :

تيمَ بنَ مرةَ إن سألتَ وهاشما　　وزهرةَ الخير فى دار ابن جُدْعان

متحالفين على الندى ما غرّدت　　ورقاء فى فَنَنٍ من جَذع كتْمان

وهذا وإن كان فعلا جاهلياً دعتهم إليه السياسة فقد صار بحضور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له وما قاله فى تأكيد أمره حكما شرعياً ، وفعلا نبوياً ، وكما اجتمعوا على الحلف الشهير (بحلف المطيبين) وقد مرت الإشارة إليه عند الكلام على مكة شرفها الله تعالى . وهو على مافى السيرة الهشامية نقلا عن ابن إسحق : أن قصىّ بن كلاب لما هلك أقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده فاختطوا مكة رباعا بعد الذى كان قطع لقومه بها . فكانوا يقطعونها فى قومهم

ابن منصور وامه الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد وكان العباس فارسا شاعرا مخضرما شديد العارضة والبيان سيدا فى قومه من كلا طرفيه وفد الى النبى (ص) واسلم وكان من المؤلفة قلوبهم ثم حسن اسلامه .

وفى غيرهم من حلفائهم ويبيعونهم فأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بنى عبد مناف بن قصى بن عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفلا أجمعوا على أن يأخذوا مابأيدى بنى عبد الدار قصىّ مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنّهم أحق من بنى الداز لمكانهم فى قومهم . وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لاينزع منهم ماكان قصىّ جعل إليهم فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف ، وكان صاحب بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان بنو أسد ابن عبد العزى بن قصى . وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة بن كعب وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بنى عبد مناف ، وكان بنو مخزوم ابن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص كعب ، وبنو جمح بن عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار ، وخرجت عامر ابن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين . فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً مابلّ بحر صوفه[1] ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم

(١) هذا من الابديات لامن الامثال كما زعم بعضهم وحكى اللحيانى مابل البحر صوفة والظاهر ان هاء صوفة فيه للتأنيث كهاء تمرة وان المراد بذلك القطعة من الصوف المعروف وذكر بعض اهل اللغة انه يحتمل ان تكون الهاء هاء الضمير وحمل صوف البحر على شىء يكون فيه يشبه الصوف المعروف من وجه ويسمى سحاب البحر وغمامة والزبد الطرى وقيل هو الطحلب ويسمى غزل الماء كما قال الطبيب داود الضرير ورجح الأول بأن السفنج المتبادر منه البحر المالح بخلاف الطحلب فانه يكون فى مناقع الماء مطلقا فالأوفق بالاضافة فى صوف البحر ارادة ما كان مختصا وبأن شبه السفنج للصوف الحيوانى اقوى من شبه الطحلب له ، والا ظهر أن الهاء للتأنيث والصوفة قطعة من الصوف المعروف .

فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا الأحلاف . ثم سوند بين القبائل ولزم بعضها ببعض فعبيت بنو عبد مناف لبنى سهم ، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار ، وعبيت زهرة لبنى جمح ، وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدىّ بن كعب . ثم قالوا لتغز كل قبيلة من أسند إليها فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز الناس عن الحرب وثبت كل قوم مع من حالفوا فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة . وبقى لهم اجتماعات كثيرة مذكورة فى كتب السير والتواريخ

***

الكلام على مفاخرات العرب فى الجاهلية ومنافراتهم

اعلم أن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان . وفى القاموس : الفخر والفخار والفخارة بفتح الفاء التمدح بالخصال كالافتخار ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض ، وفاخرهم مفاخرة وفخارة عارضه بالفخر ففخره كنصره غلبه ، وفخره عليه كمنع فضله عليه فى الفخر كأفخره عليه . والمفخرة وتضم ما فخر به انتهى. والفخر نهاية الحمق عند من نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله . وقد أبطلته الشريعة المحمدية ، ونهت عن تعاطيه بالكلية ، فإن أعراض الدنيا عارية مستردة لا يؤمن كل ساعة أن ترجع . فالباهى بها مباهٍ بغير ثراه ، ومتبجح بما فى نظر سواه ، كالفاجرة تَبَجَّحُ بزِيّها بل هو دون ذلك ، فقد قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه : إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لافيك ، ولو تكلمتْ هذه الأشياء لقالت هذه محاسننا فمالك

من الحسن ؟ وأيضاً فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع ، وظل زائل عن قليل يضمحل ، كما قال الشاعر :

إنمــا الدنيا كرؤيا فرّحتْ   من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنــاه من السماء فاختلط به نبات الأرض » . فإن افتخرتَ فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه ، أو بقاءك وزواله أو فناء كما جميعاً ، فإذا أرابك ما هو لك ، فانظر إلى قرب خروجه من يدك ، وبعد رجوعه إليك ، وطول حسابك عليه ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر . وقد ذم الله تعالى الفخور ، بقوله « والله لايحبُّ كل مختال فخور » وتفاخر حيان من قريش بنو عدنان وبنو سهم وتــكاثروا بالسيادة والإشراف بالإسلام فقال كل حيّ منهم : نحن أكثر سيداً ، وأعظم رجالا ، وأكثر قائداً ، فإن التــكاثر التفاعل فيــكون من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعزُّ نفراً فــكثر بنو عبد مناف بنى سهم ، ثم تــكاثروا بالأموات فــكثرتهم بهم فنزل « أَلْهـٰكُمُ التــكاثر حتى زرتم المقابر » قاله الــكلبي . وعن أبى بردة : أنها نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار : فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتــكاثروا فقالت إحداهما : فيــكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحيــاء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيــكم مثل فــلان يشيرون إلى القبر ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله تعالى « أَلْهـٰكُمُ التــكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ردع وزجر لهم وتنبيه على أنهــم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد ، وفى ذلك دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمــكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . والعرب لم يكن لهم فى الجاهلية من يردعهم ويكفهم عن سفاسف الأمور وذميم الأخلاق فإنهم كانوا فى زمان فترة من الرسل والأنبياء فلم يكن لهم وقوف على غايات الأمور

والعواقب المحمودة وما يترتب عليه الثواب والعقاب من الفعل الحسن والقبيح ، وكان غالب مفاخراتهم بالشجاعة والكرم والوفاء ونحو ذلك ، وها أنا ذاكر من مفاخراتهم ومنافراتهم لُمَعًا لأنى لو تقصيت ذلك لأفنيت العمر دون الجزء الذى لايتجزى منه قلة ، فأقول : نقل عن أبى عبيدة أنه قدم على النعمان بن المنذر وفود ربيعة ومضر ابنى نزار ، فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطام ابن قيس والحوفزان بن شريك البكران . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم والأقرع بن حابس فلما انتهوا إلى النعمان أكرمهم وحباهم ، وكان يتخذ للوفود عند انصرافهم مجلساً يطعم فيه معهم ويشرب ، وكان إذا وضع الشراب سقى النعمان فمن بدىء به على أثره فهو أفضل الوفد فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر إلى النعمان مَن الذى يأمرها أن تسقيه وتفضله من الوفد فنظر فى وجهها ساعة ثم أطرق ثم رفع رأسه وأنشأ يقول :

اسق وفودك بمـا كنت ساقيتى ... وابدى بكأس ابن ذى الجدَّين بسطام
أغرَّ يَنْميه من شيبانَ ذو أنف ... حامى الذمارِ وعن أعراضها رام
قد كان قيس بن مسعود ووالده ... تبدا الملوك به أيام أيام
فارضوا بمـا فعل النعمانُ فى مُضَرٍ ... وفى ربيعةَ من تعظيم أقوام
هم الجماجِمُ والأذناب غيرهُـمُ ... فارضوا بذلك أو بُوءوا بإرغام

فقال عامر بن الطفيل :

كان التتابع فى دهر لهم سلف ... وابن المُرارِ وأملاك على الشام
حتى انتهى الملك من لَخْمٍ إلى ملك ... بادى السنان لمن لم يرمه رام
أنحى علينا بأظفار فطوَّقنا ... طوقَ الحمام بإتعاس وإرغام
إن يمكن الله فى يومٍ يشاء به ... نتركك وحدك تدعو رَهْطَ بسطام
فانظر إلى الصيد لم يحموك من مضر ... هل فى ربيعةَ إن لم تدعنا حام

فأجابه بسطام بن قيس فقال :

لعمرى لئن صحت تميمٌ وعامرٌ لقد كنت قِدْماً فى حلوقهم شَجَا
أرونى كمسعودٍ وقيس وخالد وعمرو وعبد الله ذى الباع والنَّدَى
فكانوا على افناء بكر بن وائل ربيعاً إذا ما سال سائلهم جدا
وسرتُ على آثارهم غير تارك وصيتهم حتى انتهيت إلى المدى

« وروى عن ابن الكلبى » أنه قال : قال كسرى للنعمان بن المنذر يوما : هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ، قال : نعم ، قال فبأى شىء ؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكمال رابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب إليه . قال : فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر وآل ذى الجدين وآل الأشعث بن قيس بن كندة فجمع الجميع ومن معهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول وقال : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر أول متكلم ، وكان ألسنَ القوم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقْدَم ، والعزَّ الأعظم ، ومآثر للصنيع الأكرم . فقال من حوله : ولم ذاك ياأخا فزارة ؟ قال . ألسنا الدعائم التى لاترام ، والعز الذى لايضام ؟ قيل له : صدقت . ثم قام شاعرهم فقال .

فزَارةُ بيت العز والعز فيهمُ فزارة قيس حسب قيس نضالها
لها العزة القعساء والحسب الذى بناه لقيسٍ فى القديم رجالها
فمن ذَا إذا مد الأكف إلى العلا يمد بأخرى مثلنا فينالها
فهيهاتَ قد أعيا القرونَ التى مضت مآثرُ قيس مجدُها وفعالها
وهل أحدٌ إنْ مدَّ يوما بكفه إلى الشمس فى مجرى النجوم ينالها
فإن يصلحوا يصلح لذاك جميعنا وإن يفسدوا يفسدْ على الناس حالُها

ثم قام الأشعث بن قيس وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته بالنعمان ، فقال : لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ، وقديم زحفها الأكبر ، وأنا

غياث اللَزْبات[١] . فقالوا : لم يا أخا كندة ؟ قال . لأنا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بحبوبه[٢] الأكرم ، ثم قام شاعرهم فقال

إذا قستَ أبيات الرجال ببيتنا ... وجدت له فضلا على من يفاخر

فمن قال . كلا أو أتانا بخطةٍ ... ينافرنا يوماً فنحن نخاطر

تعالوْا فعُدُّوا يعلم الناس أيُّنا ... له الفضلُ فيما أورثته الأكابر

ثم قام بسطام بن قيس فقال . قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزول ، ومغرس عزها الذى لا يحول . قالوا . ولم يا أخا شيبان ؟ قال . لأنا أدركهم للثأر ، وأضربهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لعَمْرِى بسطام أحقُّ بفضلها ... وأول بيت العز عز القبائل

فسائل أبيت اللعن عن عزقومها ... إذا جدَّ يوم الفخرِ كلُّ مناصل

فيخبرك الأقوام عنها فإنها ... وقائع ليست نُهْزَةً للقبائل

ألسنا أعز الناس قوماً وأسرة ... وأضربهم للكبش بين القبائل[٣]

وقائع عز كلها رَبَعِيَّةٌ ... تذل لهم فيها رقاب المحافل

إذا ذكرت لم ينكر الناس فضلها ... وعاذ بها من شرها كلُّ قائل

وأنا ملوك الناس فى كل بلدة ... إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال . قد علمت العرب أنا فرع دعامتها ، وقادة زحفها . قالوا . ولم ذاك يا أخا بنى تميم ؟ قال . لأنا أكثر الناس عديداً ، وأنجبهم طراً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقيل . ثم قام شاعرهم فقال :

ولقد علمت أبناء خِنْدَف أننا ... لنا العزُّ قدْماً فى الخطوب الأوائل

وأنا كرام أهل مجد وثروة ... وعز قديم ليس بالمتضائل

فكم فيهم من سيد وابن سيد ... أغر نجيب ذى فعال ونائل

---

(١) لزبات بالتسكين جمع لزبة وهى الشدة . (٢) بحبوحة الشىء وسطه

(٣) الكبش : سيد القوم وقائدهم .

فسائل أبيتَ اللعنَ عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السعدى فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم ، وأثبتهم فى النائبات مقادم . قالوا : ولمَ ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال : لأنا أدركهم للثأر ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكل إذا حملنا ، ولا نرام إذا حللنا . ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وخِنْدِفُ أننا وجل تميم والجموع التى ترى

بأنا عماد فى الأمور وأننا لنا الشرف الضخم المركب فى الندى

وأنا ليوث البأس فى كل مأزق إذا جزّ بالبيض الجماجم والكلا

وأنا إذا داعٍ دعانا لنجدة أجبنا سراعاً فى العلائم من دعا

فمن ذا ليوم الفخر يعدل عاصماً وقيساً إذا مد الأكف إلى العلا ؟

فهيهاتَ قد أعيا الجميعَ فعالهُم وفاتوا بيوم الفخر مسماةَ من سعى

فقال كسرى حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حباءهم ، وأعظم صلاتهم « وافتخر » رجلان بباب معاوية بن أبى سفيان أحدهما من بنى شيبان والآخر من بنى عامر بن صعصعة . فقال العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر ، فعد علىّ عشرة من بنى شيبان . فقال الشيبانى هات إذا شئت . فقال العامرى : خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، والطفيل بن مالك قائد هوازن ، وفارس قردل ، ومعاوية بن مالك معوّذ الحكماء ، وربيعة بن مالك فارس ذى علق ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن الصعق وأربد بن قيس وهو أربد الحتوف . فقال الشيبانى . خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، وهانئ ابن قبيصة أمين النعمان بن المنذر ، وقبيصة ابن مسعود وافد المنذر ، ومفرق ابن عمرو[1] حاضن الأيتام ، وسنان بن مفروق ضامن الدمن ، والأصم عمرو بن قيس صاحب روس بنى تميم ، وعمران ابن مرة الذى أسر يزيد بن الصعق مرتين ، وعوف ابن النعمان : فقال معاوية :

(١) وسيأتى قريبا : مفروق بن عمران فانظر أيهما أصوب .

عامر أفخر هوازن ، وشيبان أفخر بكر بن وائل ، وقد كفاكما الله المؤنة . هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما . عدىّ بن حاتم . وشريك بن الأعور الحارثى . ثم قال معاوية للشيبانى . من تعبأ لعامر بن مالك . قال أصم بن أبى ربيعة : الذى قتل من تميم مائة رجل على دم . فقال معاوية للرجلين : ما تقولان ؟ قالا : رجح الأصم على عامر بن مالك . قال معاوية : فمن تعبأ لعامر بن الطفيل قال الشيبانى : الحوفزان بن شريك . فقال الحكمان : رجح الحوفزان . قال : فمن تعبأ لعلقمة بن علاثة ؟ قال الشيبانى : بسطام بن قيس . فنظر معاوية إلى الحكمين فقالا : رجح بسطام بن قيس . قال معاوية : فمن تعبأ لعتبة بن سنان ؟ فقال الشيبانى : معروق بن عمران بن مرة . فقالا له : رجح مفروق . قال معاوية : فمن تعبأ للطفيل بن مالك ؟ قال الشيبانى : عمران ابن مرة . فقالا رجح عمران بن مرة . قال فمن تعبأ لمعاوية بن مالك ؟ قال الشيبانى عوف بن النعمان . فقالا : رجح عوف بن النعمان . قال فمن تعبأ لعوف بن الأحوص ؟ قال قبيصة بن مسعود . فقالا . رجح قبيصة . قال فمن تعبأ لربيعة بن مالك ؟ قال : هانىء بن قبيصة . قال معاوية : فمن تعبأ ليزيد بن الصعق ، قال : سنان بن مفروق . قال فمن تعبأ لأربد بن قيس ؟ قال الأسود بن شريك . فقال معاوية للشيبانى : فأين نسيب قيس بن مسعود ؟ قال : أصلحك الله ليس من هذه الطبقة فإنهم قيس مجداً وطولا فقال العامرى فى ذلك :

أعدّ إذا عددت أبابراء ... وكان علا على الأقوام فضلا
وكان الجعفرىّ أبو علىّ ... إذا ما هاجت الهيجاء علّا
ووالده الذى حدثت عنه ... طفيلٌ خيرنا يَفَعا وكَهلْا
وكان معوّذ الحكما البارى ... رياح الصيف أعلى القوم فعلا
وقد أورتْ زناد أبى لبيد ... ربيعة يوم ذى علق فأبلا
وعلقمة بن الأحوص كان كهفا ... كلابياً رحيبَ الباع سهلا

وعتبة والأغـــرّ يزيد إنى   رأيتهما لـكل الفخر أهلا
وعوفا ثم أَرْبدَ ذا المعـالى   كفى بهما عليك ندى وبذلا
أولئك من كلاب فى ذُراها   وخير قُرومها حَسَباً ونُبْلا

فقال الشيبانى مجيباً له :

أعدّ إذا عددت أبا خفافٍ   وعمرانَ بن مُرَّةَ والأصمّا
وهانينا الذى حدثت عنه   وكان قبيصة الأنف الأشمـا
ومفروقاً وذا النجدات عوفاً   وبسطاما ووالده الخضمّا
وأسود كان خيرينى شريك   ولم يكُ قرنه كبشاً أجمّا
أولئك من عكابةَ خير بكر   وأكرم من يليك أباً وأمّا
وأفضل من ينص إلى المعالى   إذا ما حصلوا خالاً وعمّا
وأكثر قومهم بالشر طوقاً   وأبعد قومهم فى الخير همّا

فقال معاوية للحكمين : ما تقولان ؟ قالا : شيبان أكرم الحيين . فقال معاوية : وذاك قولى فأكرمهما وحباهما ، وفضل الشيبانى على العامرى .

ومن حديث ذى الجدين

أن الملك النعمان قال : لأعطينّ أفضل العرب مائةً من الإبل فلما أصبح الناس اجتمعوا لذلك ولم يك ابن مسعود فيهم وأراده قومه على أن ينطلق فقال لا لئن كان يريد بها غيرى لا أشهد ذلك وإن كان يريدنى بها لأعطينها . فلما رأى النعمان اجتماع الناس قال : ليس صاحبها شاهداً . فلما كان من الغد ، قال له قومه : انطلق فانطلق . فدفعها الملك إليه . فقال حاجب بن زرارة أبيت اللعن ما هو بأحق بها منى . فقال قيس بن مسعود : أنافره عن أكرمنا قعيدةً ، وأحسننا أدب ناقة وأكرم لئيم قوم . فبعث معهما النعمان من ينظر فى ذلك ، فلما انتهيا إلى بادية حاجب بن زرارة مروا على رجل من قومه فقال حاجب : هذا ألأمُ قومى وهو

فلان بن فلان والرجل عند حوضه يورد إبله فأقبلوا إليه فقالا : ياعبد الله دعنا فلنستق فإنا قد هلكنا عطشا وأهلكنا ظهورنا فتجهم وأبى عليهم فلما أعياهم قالوا لحاجب أسفر فسفر ، فقال : أنا حاجب بن زرارة فدعنا فلنشرب . قال : أنت ؟ فلا مرحبا بك ولا أهلا فأتوا بيته فقالوا لا مرأته هل من منزل يا أَمَةَ الله ؟ قالت : والله مارب المنزل شاهد أو ما عندنا من منزل وأرادوها على ذلك فأبت ثم أتوا رجلا من بكر بن وائل على ماء يورد فقال قيس : هذا والله ألأمُ قومى فلما وقفوا عليه قالوا مثل ما قالوا للآخر فأبى عليهم وهمّ أن يضربهم . فقال له قيس ابن مسعود : ويلك أنا قيس بن مسعود فقال له : مرحباً وأهلا أوردْ . ثم أتوا بيته فوجـدوا فيه امرأته قدرها تَغِطّ[١] فلما رأتِ الركب من بعيد أنزلت القدر وتردت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أَمَةَ الله منزل ؟ قالت : نعم انزلوا فى الرحب والسعة فلما نزلوا وطعموا وارتحلوا أخـذوا ناقتيهما فأناخوها على قريتين للنمل ، فأما ناقة قيس بن مسعود فتضورت[٢] وتقلبت ثم لم تَثُرْ[٣] . وأما ناقة حاجب فمكثت وثبتت حتى إذا قالوا قد اطمأنت طفقت هاربةً ، فأتوا الملك فأخبروه بذلك فقال له قد كنت ياقيس ذا جدّ فأنت اليوم ذو جدين ، فبذلك سمى ذا الجدين · وقيل : إنما سمى بذلك لأسيرين أسرهما مرتين . وقيل بل سبق فى سبقين هكذا جاءت الرواية . والذى أعرف أنا أن ذا الجدين إنما هو عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام سمى بذلك لأنه اشترى كعب بن مامة من أيدى قوم عَنَزِيّين وكتم نفسه وعرفه عبد الله أنه لم يشتره إلا عن معرفة فوهبه كل ما لقى فى طريقه من إبل أبيه بعبدانها وكانت سوداً وحمراً وصهباً ، وبلغ به إلى أبيه ، فأجاز له ذلك وأعطاه قبته بما فيها ، فلما أتى الحيرة قال بعض من رآه لصاحبه : أنه لذو جد . قال الآخر : بل هو ذو جدين فسمى بذلك .

---

(١) أى تصوت وذلك عند اشتداد غليانها. (٢) التضُّور : الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع . (٣) من ثار يثور .

مفاخرة يمن ومضر

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان : هلمّ أفاخرك وهما عند هشام بن عبد الملك فقال له خالد : قل ، فقال الأبرش : لنا ربع البيت يريد الركن اليماني ، ومنا حاتم طيّء ، ومنا المهلب ابن أبي صفرة . قال خالد بن صفوان : منا النبي المرسل ، وفينا الكتاب المنزل ، ولنا الخليفة المؤمل . قال الأبرش : لافاخرت مضريا بعدك . ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كلب ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم فقال هشام لخالد بن صفوان : أَجِبِ القوم فقال : أخوال أمير المؤمنين . قال : لابد أن تقول قال : وما أقول لقوم يا أمير المؤمنين هم بين حائك بُرْد ، وسائس قِرَد ، ودابغ جلد ، دل عليهم هُدْهُدٌ ، وملكتهم امرأة ، وغرقتهم فأرة ، فلم يثبت لهم بعدها قائمة .

* * *

مفاخرة الاوس والخزرج

تفاخرت الأوس والخزرج فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة حنظلة ابن الراهب ، ومنا عاصم بن الأفلح الذى حمت لحمه الدبر[1] ، ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ . قالت الخزرج : منا أربعة قرءوا القرآنَ على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقرأه غيرهم زيد بن ثابت وأبو زيد ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب سيد القراء ، ومنا الذى أيده الله بروح القدس فى شعره حسان بن ثابت .

المنافرات الشهيرة التى وقعت بين العرب فى الجاهلية

« منها منافرة عامر بن علقمة » كانت العرب فى الجاهلية إذا تنازع الرجلان منهم فى الشرف تنافرا إلى حكامهم وسنذكرهم إن شاء الله قريباً فيفضلون

---

(١) جماعة النحل والزنابير .

الأشرف . ونافر معناه حاكم فى النسب وسميت منافرةً لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة إنا أعز نفراً . وقد ألف أبو عبيدة وغيره من الأئمة البارعين فى اللغة كتباً فى منافرات العرب ، وأشهر منافرة كانت فى الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ابن جعفر حين قال له علقمة : الرياسة لجدى الأحوص ، وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجله ، وقد استسن عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك وإن شئت نافرتك . فقال له عامر : قد شئت والله لأنا أشرف منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول قصباً فقال . علقمة : أنافرك وإنى كَبَرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لواف وإنك لغادر . فقال : عامر : أنافرك أنى اسمى منك سمة ، وأطول قمة ، وأحسن لمة ، وأجعد جمة ، وأبعد همة ، فقال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر فقالت : نافره أيكما أولى بالخيرات . ففعلوا على أن جعلوا مائة من الإبل يعطيها الحكم الذى ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببنى خالد بن جعفر وبنى الأحوص ومعهما القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وخرج عامر ببنى مالك وقال : إنها لمقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا بمثل ماشخصوا به . وقال لعمه أبى براء أعنّى فقال سبنى ، فقال : كيف أسبك وأنت عمى . فقال : وأنا لاأسب الأحوص وهو عمى ولم ينهض معه ، فجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ثم إلى أبى جهل ابن هشام فلم يقولا بينهما شيئاً ، ثم رجعا إلى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى . فقال : نعم لأحكمن بينكما فأعطيانى موثقاً أطمئن به أن ترضيا بحكمى وتسلما لما قضيت بينكما ففعلا فأقاما عنده أياماً ، ثم أرسل إلى عامر فأتاه سراً فقال : قد كنت أحسب أن لك رأياً وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فوالله لئن فعلت لا أفلح

بعدها أبداً هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فإن كنت لابد فاعلا فسَوٍّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى من آرائى . فانصرف عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سراً فقال له ما قال لعامر ، وقال له : أتفاخر رجلا هو ابن عمك فى النسب وأبوه أبوك ، وهو مع ذلك أعظم منك غناء وأحمد لقاء ، وأسمح سماحاً ، فما الذى أنت به خير منه ؟ فرد عليه علقمة ما رد به عامر وانصرف وهو لايشك أنه ينفر عامراً عليه فأرسل هرم إلى بنيه وبنى أخيه وقال لهم : إنى قائل فيهم غداً مقالة فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا يكونوا بينهم جماعة ، ثم أصبح هرم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا فقال هرم . إنكما يا ابنى جعفر قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأَدْرَم الفحل تقمان الأرض وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، ولم يفضل واحداً منهما على صاحبه لكيلا يجلب بذلك شراً بين الحيين ونحر الجزر وفرق على الناس ، وعاش هرم حتى أدرك خلافة عمر . فقال : يا هرم أىّ الرجلين كنت مفضلا لو فعلت ؟ قال : لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شعفات هَجَر . فقال عمر : نعم مستودع السرّ أنت يا هرم مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم . والحكاية طويلة قد اختصرناها . وقال فيه الأعشى :

حكمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الباهر

لا يأخذ الرشوة فى حكمه ... ولا يبالى غبن الخاسر

هذا ما وجدناه فى أول شرح المقامات الحريرية للشريشى . وقد شرحها بأكثر من هذا مرتين أو ثلاثاً الأصبهانى فى الأغانى[1] فقال : قال ابن الكلبى حدثنى أبى ومحيريز بن جعفر وجعفر بن كلاب الجعفرى عن بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلمى بن مالك بن جعفر عن أبيه عن أشياخه وذكر بعضه أبو مسكين قالوا :

(١) ج ١٥ ص ٥٠

أول ما هاج النفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، وأم عامر كبشة بنت عروة الرحال بن عتبة بن جعفر ، وأمها أم الظباء بنت معاوية فارس الهراز بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة ، وأمها خالدة بنت جعفر بن كلاب ، وأمها فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وأم أبيه الطفيل أم البنين بنت ربيعة بن عامر بن صعصعه . قال أبوالحسن الأثرم : وكانت أم علقمة ليلى بنت أبي سفيان بن هلال بن النخع سبية وأم أبيه ماوية بنت عبد الله ابن الشيطان بن بكر بن عوف بن النخع مهيرة ، وذكر أن علقمة كان قاعداً ذات يوم يبول فبصر به عامر فقال لم أرَ كاليوم عورةَ رجل أقبح . فقال علقمة : أما والله ما وثبت على جاراتها ولا تنازل كناتها يعرض بعامر. فقال عامر: وما أنت والقروم والله لَفرَس أبي حيوة أذكر من أبيك ولفحل أبي غَيْهَب أعظم ذكراً منك في نجد . قال : وكان فرسه فرساً جواداً نجا عليه يوم بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وكان فحله فحلا لبني حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . قال الأثرم : وأخبرني رجل من جهينة بدمشق قال هو الأشعر بن صرمة . قال الأثرم : وسمى صرمة غيهب لسواده . قال ابن الكلبي : فاستعاره منهم يستطرقه فغلبهم عليه . فقال علقمة : أما فرسكم فعارة وأما فحلكم فغدرة ولكن إن شئت نافرتك . فقال : قد شئت . فقال عامر : واللهِ لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً . فقال علقمة : لأنا خير منك ليلا ونهاراً . فقال عامر : لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك . فقال عامر : أنافرك على أني أنحر منك للقاح ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشياح . فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أني جبان ولأن تلقى العدو وأنا أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك وأنت جواد والناس يزعمون أني بخيل ولست كذلك ، ولكن أنافرك أني خير منك أثراً ، وأحدّ منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك

فى العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك على أنى أنشر منك أمّةً ، وأطول منك قة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همة . قال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قصير ، وأنت جميل وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى . فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك بهم ، ولكنى أنافرك أنى خير منك عقبا ، وأطعم منك جدبا . قال علقمة : قد علمت أن لك عقباً فى العشيرة ، وقد أطعمت طيئاً إذ سارت ، ولكنى أنافرك أنى خير منك ، وأدلى بالخيرات منك ، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم . قال : فخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : ياعامر نافره أيكما أولى بالخيرات . قال أبو المنذر : قال أبو مسكين قال عامر فى مراجعته والله لأنا أركبُ منك فى الحماه ، وأقل منك للكماه ، وخير منك للمولى والمولاه . فقال له علقمة : والله إنى لَبَرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لوفىّ وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى يا عامر ، فقال عامر : والله إنى لأنزلُ منك للقفرة ، وأنحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة [1] ، وأطعن منك للثُغرة ، فقال علقمة : والله إنك لكليل البصر . نكد النظر ، وثاب على جاراتك بالسحر . فقال بنو خالد بن جعفر وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ولكن قل له أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات ، وخذ عليه بالكبر . قال له علقمة هذا القولَ . فقال عامر (عير وتيس وتيس وعنز) فذهبت مثلاً ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم أينا نفر عليه صاحبه أخرجها ، ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدِ رجلٍ من بنى الوحيد ، فسمى الضمين إلى الساعة وهو الكفيل . قال : وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتى عامر بن الطفيل عامر بن مالك وهو أبو براء . فقال : يا عماه أعنى . فقال يا ابن أخى : سبنى . فقال لا أسبك وأنت عمى قال : فسب الأحوص . فقال عامر : ولا أسب والله الأحوص وهو عمى . فقال :

---

(١) القطعة من اللحم

دونك نعلى فإنى قد ربعت فيها أربعين مِرْباعا[1] فاستعن بها فى نفارك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم . قال : فأينا اليمين فقال كلاكما يمين . وأبى أن يقضى بينهما فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما فوثب مروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص بن جعفر فقال :

يالَ قريشٍ بيّنوا الكلاما إنا رَضِينا منكُم الأحكاما

فبينوا إن كنتم حُكّاما كانَ أبونا لهم إماما

وعبد عمرو منع الفئاما فى يوم نحر معلماً إعلاما[2]

ودعلج أقدمه إقداما لولا الذى أجشمهم إجشاما

* لاتّخذتْهمْ مَذْحِجٌ نعاما *

قال : فأبوا أن يقولوا بينَهما شيئاً وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أَن يقول بينهما شيئاً ، فأتيا غيلان بن سلمى ابن معتب الثقفى فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى فردهما إلى هرم بن قطبة ابن سنان بن عمرو الفَزارى فانطلقا حتى نزلا به . وقال بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلم : إنهما ساقا الإبل معهما حتى أشتتْ وأربعت لايأتيان أحداً إلا هاب أن يقضى بينهما فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفضلن ثم لست أثق إلى أحد منكما فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول وتسلما لما قضيت بينكما وأمرهما بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، فخرج علقمة ببنى الأحوص فلم يتخلف منهم أحد معهم القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وجمع عامر بنى مالك فقال : إنما تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه ولم ينهض أبو براء معه وقال لعامر : والله لا تطلع ثنية إلا وجدت الأحوص منيخاً بها وكره أبو براء ما كان من أمرهما . فقال عامر فيما

(١) ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية

(٢) الفئام : الجماعة من الناس

كان من منافرتهما ودعا عامر إياه أن يسير معه .

أأومَرُ أن أسبَّ أبا شريحٍ ولا والله أفعل ما حَييتُ
ولا أهدى إلى هَرِمٍ لقاحاً فيحيا بعد ذلك أو يميتُ
أكلف سعى لقمان بن عادٍ فيا لأبي شريح ما لقيت

قال : وأبو شريح هو الأحوص فكره كل واحد من البطنين ما بينهما . وقال عبد عمرو بن شريح بن الأحوص :

لحا الله وفدينا وما ارتحلا به من السوءة الباقى عليهم وبالها
إلا إنما يردى صفاق متينة أبى الضيم أعلاها وأثبت حالها

قال : فسار عامر وبنو عامر على الخيل مجنبى الإبل وعليهم السلاح . فقال رجل من غنى : يا عامر ما صنعت أخرجت بنى مالك تنافر بنى الأحوص ومعهم القباب والجزر وليس معك شيء تطعمه الناس ما أسوءَ ما صنعت ! فقال عامر لرجلين من بنى عمه : أحصيا كل شيء مع علقمة من قبة أو قدر أو لقمة . ففعلا ، فقال عامر : يا بنى مالك إنها المقارعة عن أحسابكم فاشخصوا بمثل ما شخصوا به ففعلوا وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى ، ومع علقمة الحطيئة وفتيان من بنى الأحوص منهم السندرى بن يزيد بن شريح ومروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص وهم يرتجزون ، فقال لبيد :

يا هرمٌ وأنت أهلُ عدلِ إنْ نفر الأحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهــله بأهلى لا يجمعن شكلهم وشكلى
ونسل آبائهم ونسلى

وقال أيضاً :

إنى امرُؤٌ من مالك بن جعفر علقم قد نافرت غير منفر
نافرت سقباً من سقاب العرعر

فقال لحافة بن عوف بن الأحوص :

نَهْنِهْ إليك الشعر يا لبيدُ   واصدد فقد ينفعك الصدود
سادَ أبونا قبلَ أَنْ تسودوا   سؤددكم مطرف زهيد

وقال أيضاً :

انى إذا أكنّنى الخباء   وضاع يومَ المشهد اللواء
أنمى وقد حق لى النماء   إلى كهولٍ ذكرها سناء
إذ لا يزال جلدة كوماء   مبقورة   لسقبها   رغاء
لم ينهنا عن نحرها الصفاء   لنا عليكم   سورة   ولاء
الجدُ والسؤددُ والعطاء

وقال أيضاً :

أنتم عزلتم عامرَ بنَ مالكِ   فى سنوات مضر الهوالك
يا شر ناحياً وشر هالك

قال : وأنشدها السندرى يومئذ ورفع صوته فقيل : مَنْ هذا ؟ فقال :

أنا لمن أنكر صوتى السندرى   أنا الفتى الجعد الطويل الجعفرى
من ولد الأحوص أخوال غنى

فقال عامر . أجب يا لبيد فرغب لبيد عن إجابته وذلك لأن السندرى كانت جدته أمَةً اسمها (عيساء) فقال :

لما دعانى عامرٌ لأُجيبَهُ   أبيتُ وإن كانَ ابنُ عيساءَ ظالما
لكى لا يكون السندرى نديدتى   واشتم أعماماً عموما عما عما
وأنشر من تحت القبور أُبوةً   كراماً هم شدوا علىّ التمائما
لعبت على أكتافهم وحجورهم   وليداً وسمّونى وليداً وعاصما
ألا أيّنا ما كان شراً لمالك   فلا زال فى الدنيا ملوماً ولائما

قال ووثب الحطيئة فقال :

ما يحبس الحكام بالفصل بعدما   بدا سابق ذو غرة وحجول

وقال أيضاً :

ياعامُ قد كنتَ ذا باع ومكرمة	لو أن مسعاةَ من جاريته أَمَمُ
جاريت قَرْماً أجاد الأحوصان به	سمح اليدين وفى عِرْنينه شَمَمُ
لا يصعب الأمر إلا ريثَ يركبه	ولا يبيت لمرعوبٍ له قسم
هابتْ بنو مالك مجداً ومَكْرُمةً	وغاية كان فيها الموت لو قدموا
وما أساءوا فراراً عن مجلحة	لا كاهن يمترى فيها ولا حَكَمُ

قال : وأقام القوم عنده أياما ، وأرسل إلى عامر فأتاه سراً لا يعلم به علقمة . فقال يا عامر : قد كنت أرى لك رأيا وإن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟ قال عامر نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فو الله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فإن كنت لا بدّ فاعلاً فَسوِّ بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه . ثم أرسل إلى علقمةسراً لا يعلم به عامر فأتاه فقال يا علقمة : واللهِ إن كنت لأحسب فيك خيراً وإن لك رأيا وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتفاخر رجلا فى النسب وأبوه أبوك ، وهو مع هذا أعظم قومك غناءً ، وأحمدهم لقاءً ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر علىّ عامراً أجزز ناصيتى واحتكم فى مالى وإن كنت لا بد أن تفعل فَسوِّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج وهولا يشك أنه سيفضل عليه عامراً .. قال أبى : وسمعت أن هرما قال لعامر حين دعاه يا عامر كيف تفاضل علقمة ؟ فقال عامر : ولِمَ يا هرم ؟ قال : لأنه أَنْجل منك عيناً فى النساء ، وأكثر منك نفيراً عند ثورة الدعاء ، قال عامر : هل غير هذا ؟ قال : نعم هو أكثر منك نائلا فى الثراء ، وأعظم منك حقيقة عند الدعاء . ثم قال لعلقمة : كيف تفاضل عامراً ؟ قال . ولمَ يا هرم ؟ قال : هو أنفذ منك لسانا ، وأمضى منك سنانا . قال علقمة : فهل غير هذا ؟ قال . نعم هو أقتل منك للكماة ، وأفك

منك للمناة . قال : ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه إنى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ويطرد بعضكم عشر جزائر ولينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا تكونوا لهم جماعة . وأصبح هرم فجلس مجلسه ، وأقبل الناس وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد فقال :

يا هرمُ ابن الأكرمين منصبا   إنك قد وليت حكما معجبا
فاحكم وصوّبْ رأىَ من تصوبا   إنّ الذى يعلو عليها ترتبا[1]
لخيرنا عمـاً وأمّاً وأبا   وعامرٌ خيرهما مركبا
وعامر أدنى لقيس نَسبا

فقام هرم فقال . يا بنى جعفر قـد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأدْرم تقعان إلى الأرض معاً وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم . وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم عن علقمة عشراً وعن عامر عشراً وفرقوا الناس فلم يفضل هرم أحـداً على صاحبه وكره أن يفعل وهما ابنا عم فيجلب بذلك عداوةً ويوقع بين الحيين شراً . قال . وكان الأعشى حين رجع من عند قيس بن معدى كرب بمـا أعطاه طلب الجوار والخفرة من علقمة فلم يكن عنده ما طلب ، وأجاره وخفره عامر حتى أداه وماله إلى أهله . قال .

علقم ما أنت إلى عامرٍ   الناقص الأوتار والواتر[2]

---

(١) الترتب الدائم النابت كذا فى نسخة الأصل (٢) من أبيات أعشى بن قيس بن ثعلبة يمدح عامر بن الطفيل ويهجو علقمة بن علاثة وبعده :

ان تسد الحوص فلم تعدهم   وعامر ســاد بنى عامــر
عهدى بها فى الحى قـد درعت   صفرآء مثل المهــرة الضامر
قد حجم الندى على نحـرها   فى مشرق ذى بهجـة ناضر
او اسندت ميتـا الى نحـرها   عاش ولـم ينقــل الى قابر
حتى يقول الناس ممـا رأوا   ياعجبـا الميت النـاشر

ثم أتمها بعد النفار فلما بلغ علقمة ما قال الأعشى وأشـــاع فى العرب أن هرما قد فضل عامراً ؛ توعد الأعشى فقال الأعشى : (لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصاً) قال ابن الكلبى : حدثنى أبى قال فماش هرم حتى أدرك سلطان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسأله أىّ الرجلين كنت مفضلا لو فضلت ؟ فقال : لو قلت ذاك يا أمير أمير المؤمنين لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجز . فقال : نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السر ومسند الأمر إليه أنت يا هرم ، مثل هذا فَلْيسُدِ العشيرة . وقال : إلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم . قال أبو الفرج الأصبهانى : وقد أدرك علقمة ابن علاثة الإســلام فأسلم ثم ارتد فيمن ارتد من العرب ، فلما وجه أبو بكر خالد بن الوليد إلى بنى كلاب ليوقع بهم وعلقمة يومئذ رئيسهم هرب وأسلم ، ثم أتى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فأعلمه أنه قد نزع عما كان عليه فقبل إسلامه وآمنه ، وهكذا ذكر المدائنى . وأما سيف بن عمر فإنه روى عن الكوفيين غير ذلك والله تعالى أعلم .

منافرة بين فزارة وبنى هلال

إن بنى فزارة وبنى هلال تنافراً إلى أنس بن مدرك ، وتراضوا به فقالت بنو هلال : يا بنى فزارة أكلتم أيرَ الحمار . فقال بنو فزارة : لم نعرفه . وكان سبب ذلك أن ثلاثة اصطحبوا فزارى وتغلبى وكلابى فصادفوا حمار وحش ، ومضى الفَزارى فى بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبآ للفَزارى أير الحمار ، فلما رجع قالا له قد خبأنا لك سهمك فكُل ، وأقبل يأكل ولا يسيغه فجعلا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام إليهما وقال : لتأكلان منه وإلا قتلتكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ولذلك رمى بنو فَزارة بأكل أير الحمار قال الكميت ابن ثعلبة .

نشدتُك يا فَزارُ وأنتَ شيخٌ   إذا خيرت تخطىء فى الخيار

أصيحانيةٌ أدمتْ بِسَمْن أحبُّ إليك أم أيْرُ الحمارِ
بلى أيْرُ الحمارِ وخصيتاه أحبّ إلى فَزارة من فَزارِ

قوله نشدتك أراد به نشدتك بالله أى ذكرتك به واستعطفتك به لتخبرنى عما أسألك ويقال أيضاً نشدتك الله من باب نصر والخيار هو الاختيار . وقوله أصيحانية أدمت : أى أتمرة صيحانية والصحيانى تمر معروف بالمدينة ويقال كان كبش اسمه صيحان بمهملتين شدّ بنخلة فنسبت إليه وقيل صيحانية : وأدمت : من الأدام يقال أدمت الخبز إذا أصلحت إساغته بالأدام وهو مايؤتدم به مائعاً كان أو جامداً . ولكون هذه الأبيات فيها خفاء أشرنا إلى تفسير مبهماتها . . فقالت بنو فَزارة منكم يا بنى هلال من سقى إبله فلما رويت سَلَحَ[1] فى الحوض ومدره بخلا ، يريدون به رجلا من بنى هلال يضرب به المثل فى البخل فيقال (هو أبخل من مادر) . وبلغ من بخله أنه كان يسقى إبله فبقى فى أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مادراً ، فنفرّهم أنس بن مدرك على الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير ، وكانوا تراهنوا عليها ، وفى بنى هلال يقول الشاعر :

لقد جللت خزياً هلالُ بن عامر بنى عامرٍ طراً لسلحة مادر
فأفّ لكم لا تذكروا الفخرَ بَعْدَها بنى عامر أنتم شرارُ العشائر

هذا ما أورده الجاحظ فى مساوى البخل من كتاب المحاسن والأضداد ، ونقله حمزة الأصبهانى والميدانى والزمخشرى فى أمثالهم بعبارات مختلفة محصلها ما ذكرناه تعالى أعلم .

* * *

قصة الفقعسى وضمرة وما جرى بينهما من المنافرة

قال أبو محمد الأعرابى فى (ضالة الأديب) : إنَّ ضمرة بن ضمرة بن جابر

(١) السلح مايخرج من البطن

ابن قطن بن نهشل كان جاراً لنوفل بن جابر بن شحنة بن حبيب بن مالك بن نصر وأم نوفل عاتكة بنت الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو ابن قعين ، وكان ضمرة كثير المقامرة فنحر نوفل جزوراً فدعا الحى فأكلوا فدعا ضمرة فقال يا معشر بنى قعين هذا جاركم وأنا منه خلو . ثم إن ضمرة قام فقمر ماله كله ، وانتجعت[1] أسد نحوَ أرض بنى تميم وهم مقحمون مضعفون فأرسل ضمرة إلى من يليهم من بنى تميم أن ميلوا عليهم فإنهم لأول من أتاهم ، فأتى بنى نصر الخبر فانصرفوا وأْتَمَرُوا بضمرة أن يأكلوه حين ينزلون فأمر نسوته سراً أن يتأخرن ويلحقن بظعن بنى فقعس وسار هو فى سلف بنى نصر وقد علم أنهم آكلوه إذا نزلوا ، فلما نزلوا ركض نحو بنى فقعس فقال أنا جارٌ لكم فقالوا إنك لست بجار ولك أمانُ العائذ الغادر ومنعوه من بنى نصر ، وإذاً ماله فى بنى نصر قد أحرزوه فلما جاء ظعن بنى فقعس إذا نسوته فيهن فعدل له بنو فقعس خمسين شائلة[2] ونحروا الجزور ، وكان فيهم زماناً ثم لحق بقومه فنافر معبد ابن نضلة بن الأشتر بن حجوان خالد بن وهب الصيداوى وجمعهما وضمرة مجلس النعمان ، فأرسل ضمرة إلى خالد نافره واجعلنى الكفيل وهو بينى وبينك نصفين فإنه لا يخافنى ، واجعلهما مائة فى مائة فى خفرة النعمان وأجعل بينكما بها رهناً فإنه لا بد من أدائها إذا كنت أنا الكفيل . فلما راحوا إلى النعمان سب خالد معبداً ، فقال : أتسبنى ولم تنافرنى قال : أنافرك قال ما بد الك . قال خالد : إنى أجعل الكفيل من شئت وإن شئت ولىّ نعمتكم هذا . قال معبد : فإنى قد فعلت وأعتقد عليه بما أمره به ضمرة . ثم تغاديا على ضمرة ، فقال ضمرة : والله إن بنى طريف لمن أكرم الناس وما رأينا قط أكرم من خالد فنفره على معبد فى مجلسه فحبس قيس بن معبد عند النعمان رهينة بمائة من الإبل ، فقال معبد لبنى جابر بن شحنة : اكفلونى

---

(١) اى طلبت الكلأ فى موضعه . (٢) الشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها او وضعها سبعة اشهر فجف لبنها

يابنى عمى فإنى لم يشنى غدر ضمرة ولا كذبه . قال بنو جابر : نرى بنى فقعس مقرين بهذا . قال : نعم يرون أنها خيانة ولا تضرهم فكفل بنو جابر الإبل فلما أتى معبد بنى فقعس قال بنو وثار وبنو نوفل بن فقعس : والله ما نرضى بهذا أبداً ما بقى منا إنسان فنهضت بنو فقعس إلى النعمان فوجدوا عنده ضمرة فقال سبرة بن عمرو بن الحارث بن وثار بن فقعس بن طريف :

إنى إن أنكر وجهى سبره ... الرجل الأشم فيه الزعره[1]

كالميسم الحامى عليه الغبره

إلى أن قال .

والله ما نعقل منها بكره ... أو يأمر النعمان فيها أمره

فأمرهم النعمان أن يتقاضوا إلى العُزّى صنم كان بنخلة فعندها قال سبرة .

أضَمْرُ بن ضمر أبلقَ الاست والقفا ... وهل مثلنا فى مثلها لك غافر

أتنسى دفاعى عنكَ إذ أنتَ مُسْلَمٌ ... وقد سال من ذلّ عليك قراقر[2]

ونسوتكم فى الرَّوْع بادٍ وجوهُها ... يُخَلْنَ إماء والإماء حرائر[3]

يسلخن بالليل الشوىّ بأذرع ... كأيدى السباع والرءوس حواسر

أعيّرتنا ألبانها ولحومها ... وذلك عارٌ يا ابنَ ريطةَ ظاهر[4]

وإنا لتغشانا حقوقٌ ولم تكن ... تقربنا المخزيات الأباعِرُ

نحابى بها أكفاءنا ونهينها ... ونشربُ فى أثمانها ونقامر[5]

وتكسبها فى غير غدر أكفنا ... إذا عقدت يوم الحِفاظ الدوائر

---

(١) الزعرة : سوء الخلق (٢) المسلم : المخذول الذى لاناصر له ، وقراقر اسم واد (٣) الروع هنا الحرب ، وقوله يخلن امآء اى يحسبن امآء وكانت الحرة فى ذلك الوقت تتشبه بالأمة خوفا على نفسها من السبى ، وقوله والاماء حرائر معناه أنكم تفرقتم حتى تركتم اماءكم فيما تركتم فصرن بمنزلةالحرائر (٤) عيره الأمر قال المجد ولا تقل عيره بكذا اى نسبه الى العار والذم ، وظاهر اى زائل ، يريد عيرتنا البان الابل ولحومها واقتناء الابل مباح لامحظور فيه وعاره ذاهب (٥) نحابى من المحاباة وهى العطاء ، والاكفاء جمع كفء وهو النظير المماثل الك ، وقوله ونهينها اى للاضياف ومن يطلب القرى

وإنا لنقرى الضيف فى ليلة الشتا   عظيم الجفان فوقهن الحوائر

والحوائر جمع حوير وهو الشحم الأبيض وبعد هذا ثلاثة أبيات أخر . ثم أورد لسبرة الفقعسى أشعاراً كثيرة يخاطب بها ضمرة ويهجوه بها فى سياقه هذا نقص فإنه لم يذكر فيه وجه تعييره بالإبل ولا إلى أى شىء تم حالها والله أعلم .

منافرة جرير البجلى وخالد بن أرطاة الكلبى

قال ابن الأعرابى فى نوادره : كان جرير بن عبد الله البَجَلى تنافر هو وخالد بن أرطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، وكان عالم العرب فى زمانه . والمنافرة المحاكمة من النفر لأن العرب كانوا إذا تنازع رجلان منهم وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه تحاكما إلى عالم فمن فضل منها قدم نفره عليه ، أى فضل نفره على نفره . فقال الأقرع : ما عندك يا خالد ؟ فقال : ننزل البراح [1] ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح ، فقال : ماعندك ياجرير ؟ فقال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حيٌّ لقاح ، نطْعِم ما هبت الرياح ، نضمن الدهر ، ونصوم الشهر ، ونحن الملوك القسر . فقال الأقرع : واللات والعزَّى ، لو نافرتَ قيصرَ ملكَ الروم ، وكِسْرَى عظيم الفرس ، والنعمان ملك العرب لنفرت عليهم ، وروى لنصرت عليهم . فقال عمرو بن خثارم البَجَلى فى هذه المنافرة :

يا أقرعَ بنَ حابسٍ يا أقرعُ   إنى أنا أخوك فانظرَنْ ما تصنَع
إنك إنْ يُصْرَع أخوك تصرعُ   إنى أنا الداعى نِزاراً فاسمعوا
فى باذخٍ من عز مجد يفرع   به يضر قادر وينفع
وأدفع الضيم غداً وأمنع   عزٌّ ألدُّ شامخ لا يقمع
يتبعه الناس ولا يستتبع   هل هو إلا أذنب وأكرع

---

(١) يأتى شرح هذه الكلمة وما بعدها فى الأصل .

وزَمَع مُؤْتَشَبٌ مجمّـع وحَسَبٌ وَغْلٌ وأنفٌ أجْدَعُ

وقوله : يا أقرع بن حابس هو من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وكانت هذه المنافرة فى الجاهلية قبل إسلامه . والصرع : الهلاك . ونزار : هو أبو قبيلة وهو نزار بن معد بن عدنان . والباذخ : العالى يقال جبل باذخ بمعجمتين . والمجد : العظمة والشرف . ويفرع : أى يعلو كل عز ومجد ، يقال فرعت قومى ، أى علوتهم بالشرف ونحوه وهو بالفاء ومهملتين ، والألد : الأشد ولدّه يلدّه غلبه فى الخصومة والشامخ : المرتفع ، ويقمع : أى يقهر ويذل يقال قمعه بالقاف والميم فانقمع ، وقوله هل هو الضمير لخالد بن أرطاة الـكلبى . والأكرع جمع كراع بالضم وهو مستدق الساق أستعاره لأسفل الناس كالذنب . والزمع بفتح الزاى والميم هو رذال الناس ، يقال هو من زمع الناس ، أى من مؤخريهم . والمؤتَشَب بفتح الشين قال فى الصحاح . فلان مؤتَشَب أى مخلوط غير صريح فى نسبه ، والوغل بفتح الواو وسكون المعجمة . قال فى الصحاح : والوغل النذل من الرجال . وأجدع بالجيم والدال المهملة مقطوع الأنف . وقوله نزل البراح بفتح الموحدة والحاء المهملة المكان الذى لاسترة فيه من شجرة وغيره وهو منزل الـكرماء . وقوله : والأحمر المعتصر هو الخمر . وقوله حى لقاح بفتح اللام بعدها قاف . قال فى الصحاح : يقال حى لقاح للذين لايدينون للملوك أو لم يُصبهم فى الجاهلية سبأ . وجرير بن عبد الله البجلى صحابى وكان جميلا .

قال عمر هو يوسف هذه الأمة وقدمه عمر فى حروب العراق على جميع بَجِيلة وكان لهم أثر عظيم فى فتح القادسية ثم سكن جريرُ الـكوفةَ وأرسله علىٌّ رسولا إلى معاويةَ ثم اعتزل الفريقين وسكن قرقيساء حتى مات سنة إحدى وقيل أربع وخمسين . وفى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعثه إلى ذى الُخلصة فهدمها وفيه قال ما حجبنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآنى إلا تبسم ، كذا فى الإصابة لابن حجر . وخالد بن أرطاة الـكلبى جاهلى . وسيأتى ذكر ابن حابس

فى الـكلام على الحـكام . وأما عمرو بن خثارم البجلى فهو جاهلى والله أعلم هذا على وجه الاختصار . وأما على وجه البسط فهو ما أورده أبو محمد الأعرابى فى (فرحة الأديب) قال : أملى علينا أبو الندى قال : كان سبب المنافرة بين جرير بن عبد الله البجلى وبين خالد بن أرطاة بن خشين بن شيث الـكلبى . أن كلباً أصابت فى الجاهلية رجلا من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بنى عادية بن عامر بن قداد فوافوا به عكاظ فمر العادى بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل ابن أبى عمرو بن كعب بن عريج بن الحويرث بن عبد الله بن مالك بن هلال بن عادية بن عامر بن قداد يأكل تمراً فتناول من ذلك التمر شيئاً ليتحرم به فجذبه الـكلبى . فقال له القاسم إنه رجل من عشيرتى فقال لو كانت له عشيرة منعته فانطلق القاسم إلى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستتبعهم . فقالوا نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها . فانطلق إلى آخر فاستتبعهم فقالوا كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها . فانطلق عند ذلك إلى جرير بن عبد الله البجلى فـكلمه فـكان القاسم يقول إن أول يوم أريت فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذى جئت فيه جريراً فى قسر . وكان سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه فدعاهم فى انتزاع العادى من كلب فتبعوه . فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه . فقال جرير زعمتم أن قومه لا يمنعونه فقالت كلب إن رجالنا خلوف . فقال جرير لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئاً . فقالوا كأنك تستطيل على قضاعة إن شئت قايسناكم المجد وزعيم قضاعة يومئذ خالد بن أرطاة بن خشين بن شيث قال ميعادنا من قابل سوق عكاظ فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل . وصاحب أمر كلب خالد بن أرطاة فحـكموا الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع حكمه جميع الحيين ووضعوا الرهون على يدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فى أشراف من قريش . وكان فى الرهن من قشر الأصرم بن عوف بن عويف

ابن مالك بن ذبيان بن ثعلبة بن عمرو بن يشكر بن على بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر ومن أحمر حازم بن أبى حازم وصخر بن العِلية . ومن بنى زيد بن الغوث بن أنمار وجل ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير ما تجعل قال الخطر فى يدك قال ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء . فقال جرير ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء . قال من لى بالوفاء ؟ قال كفيلك اللات والعُزّى وإساف ونائلة ويَعُوق وذو الخَلَصة ونسر . فمن عليك بالوفاء قال ود ومناة وقلس ورضا . قال جرير لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعَمًّا مُخْوِلا يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله . فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدى من سمينا من قريش . وحكموا الأقرع بن حابس وكان عالم العرب فى زمانه . فقال الأقرع ما عندك يا خالد ؟ فقال ننزل البراح . ونطعن بالرماح . ونحن فتيان الصباح . فقال الأقرع ما عندك يا جرير ؟ قال نحن أهل الذهب الأصفر . والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف . ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لَقَاح . نُطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر . ونضمن الدهر . ونحن الملوك لقسر . فقال الأقرع واللات والعُزّى لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفرتك عليهم وأقبل نعيم بن حجبة النمرى . وقد كانت قسر ولدته بفرس إلى جرير فركبه جرير من قبل وحشيّه[1] فقيل لم يحسن أن يركب الفرس ، فقال جرير الخيل ميامن وإنا لا نركب إلا من وجوهها . وقد كان نادى عمرو بن خثارم أحد بنى جشم بن عامر بن قداد فقال :

يا ابنىْ نزارٍ انصُرا أخاكما ... لا يغلب اليوم فتى إلا كما

ولم أجِدْ لى نَسَباً سواكما ... إن أبى وجــدته أباكما

حتى يحلَّ الناسُ فى مرعاكما ... غيثٌ ربيع ســبط نداكما

قد مُلئتْ فما ترى سواكما ... أنتم سرور عين من رآكما

(١) أى الأيسر .

قد فاز يومَ الفخر من دعاكما ... ولا يعدّ أحــد حصاكما
وإن بنوْا لم يُدركوا بناكما ... مجــداً بناه لكما أباكما
ذاك ومن ينصُرْه مثلاكما ... يوما إذا ما ســعرت ناراكما

وقال أيضاً

يا لنزار قد نمى فى الأخشب ... دعوة داع دعوة المثوب[1]
يا لنزار ثم فاسمى واركبى ... يا لنزار ليس عنكم مذهبى
إن أباكم هو جدى وأبى ... لم ينصر المولى إذا لم تغضبى
يا لنزار إننى لم أكذب ... أحسابكم أخطرتها وحسبى
ومن تكونوا عزه لا يغلب ... ينمى إلى عز هجان مصعب
كأنه فى البرج عند الكوكب

وقال أيضاً

يا أقرع بن حابس يا أقرع ... إنى أخوك فانظرن ما تصنعْ
إنك إن يصرعْ أخوك تصرع ... إنى أنا الداعى نزار فاسمعوا
لى باذخ من عــزه ومفزع ... به يضر قادر وينفــع
وأدفع الضيم غــداً وأمنع ... عــز ألدّ شامخ لا يقمع
يتبعه النــاس ولا يستتبع ... هل هو إلا ذنب وأكرع
وزَمَــع مؤتشَبٌ مجمّع ... وحسب وغْلٌ وأنف أجدع

وقال أيضاً

يا أقرع بن حابسٍ يا أقرع ... إنك إن يصرع أخوك تصرع
إنى أنا الداعى نزاراً فاسمعوا ... فى باذخ من عزه ومفزع
قم قائماً ثَمَّتَ قُل فى المجمع ... للمرء أرطاة أيا ابن الأفدع
ها إن ذا يوم عــلا ومجمع ... ومنظر لمن رأى ومسمع

---

(١) الأخشب : اسم جبــل

فنفره الأقرع بمضر وربيعة ولولاه نفر الـكلبي ، وكانت القرابة بين بجيلة وولد نزار .
أن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب
بن يعرب بن قحطان خرج حاجا فتزوج سلامة بنت أنمار بن نزار . وأقام معها فى الدار
بغور تهامة فأولدها أنمار بن أراش ورجالا فلما توفى أراش وقع بين انمار بن أراش
وإخوته اختلاف فى القسمة فتنحى عن أخويه ، وأقام أخويه فى الدار مع أخوالهم ،
وتزوج انمار بن أراش بهند بنت مالك بن غافق بن الشاهد فولدت أفتل وهو خثعم .
ثم توفيت فتزوج ببجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة فولدت له عبقر ، فسمته باسم
جدها وهو سعد ولقب بعبقر لأنه ولد على جبل يقال له عبقر وولدت أيضاً الغوث
ووادعة وصهيبة وحزيمة وأشهل وشهلاءوسنية وطريفاً وفهماً وخدعةوالحرث ، انتهى
ما أورده أبو محمد الأعرابى والله أعلم .

منافرة القعقاع بن زرارة بن مالك

إن القعقاع بن زرارة بن عدس ، وخالد بن مالك بن ربعى بن سلم بن جندل
ابن نهشل تنافرا إلى أكثم بن صيفى أيهما أكرم وجعلا بينهما مائة من الإبل لمن
كان أكرمهما . فقال أكثم : سفيهان يريدان الشر وطلب إليهما أن يرجعا عما
جاءا له فأبيا فبعث معهما رجلا إلى ربيعة بن حُـذار . وحبس إبلهما التى تنافرا
عليها مائة ومائة . وقال : انطلقا مع رسولى هذا فإنه (قتل أرضاً عالمُها ،[1] وقتلت
أرض جاهلها) فأرسلها مثلا . فلما قدما على ربيعة وأخبراه بما جاء له قال ربيعة
للقعقاع : ما عندك ياقعقاع ؟ قال : أنا ابن معبد بن زرارة وأمى معاذة بنت ضرار
رأس من أعمامى عشرة ومن أخوالى عشرة وهذه قوس عمى رهنها عن العرب
وجدى زرارة أجار ثلاثة أملاك بعضهم من بعض قال : وفى ذلك يقول الفرزدق :

---

(١) أصل القتل التذليل ومنه قتل الخمر وهو مزجها بالماء والمراد بالمثل
ان الرجل العالم بالارض عند سلوكها يذلل الارض ويطالبها بعلمه فلم يضل ولم
يهلك ، يضرب فى مدح العلم وقتلت أرض جاهلها فى مقابلة قتل ارضا عالمها
يضرب لمن يباشر أمرا لاعلم له به .

منا الذى جمع الملوك وبينهم حرب يشب سعيرها بضرام

ثم قال ربيعة لخالد بن مالك : ما عندك ياخالد ؟ قال أنا ابن مالك . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن ربْعى . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن سلم . قال الآن . فمن أمك ؟ قال : قردعة . قال ابنة من ؟ قال : ابنة مندوس . قال ربيعة للقَعقاع : قد نفرتك ياابن الضبية . فقال خالد . أتجعل ابن معبد بن زرارة كمثل ابن سلم بن جندل فقال ربيعة : (ما جُعِلَ العبد كَرَبَّه) فأرسلها مثلاً .

منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس

كان هاشم بن عبد مناف أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد تولى أمر مكة بعد أبيه وساد قومه بما كان عليه من محاسن الأخلاق ، وجليل الشيم ، وكمال الشجاعة ، ووافر الكرم ، وغاية الفصاحة ، وغير ذلك من الصفات الفاضلة التى لم يطاوله بها أحد . وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وهو الذى كان يقوم بأمر الناس فى السنين المقحطة ويطعمهم أحسن الطعام ، ولذلك لهجت ألسنة العرب على اختلافهم فى القبائل بالثناء عليه ، فعند ذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حيث عجز عن محاكاته فى صنيعه ومباراته فى شيمه حتى شمت به أناس كثيرون من قريش . فقال فيه وهب بن عبد قصى :

تحمل هاشم ما ضاق عنه وأعيا أن يقومَ به بريض
أتاهم بالغرائر مثقلاتٍ من الشآم بالبر المفيض
فأوسع أهل مكة من هشيمٍ وشاب اللحم باللحم الغريض(١)

ونشبت العداوة بين أمية وهاشم وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه

(١) الغريض : الطرى .

وقدره . فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعى فى خمسين ناقة سود الحدق ينحرها ببطن مكة والجلاء من مكة عشر سنين نخرج كل منهما فى نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر . فنفر الخزاعى هاشماً وقال لأمية : تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفراً ؟ فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما . فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية وسيأتى لهاشم ذكر فى مبحث حكام العرب ، وما قاله عند تنافر قريش وخزاعة عنده إن شاء الله تعالى .

حكام العرب في الجاهلية

الحاكم منفذ الحكم كالحكم محركة جمعه حكام . وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون بينهم إذا تشاجروا فى الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب وغير ذلك من الأمور التى كانت تقع بينهم وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون إليه وهم كثيرون لا يسعهم الحصر ونحن نذكر منهم من وجدناه فيما عندنا من كتب الأدب ، منهم :

أكثم بن صيفى بن رياح [1]

كان أكثم بن صيفى حكماً من حكام تميم فصيحاً عالماً بالأنساب ، وكان من حديثه أنه لما ظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حُبَيْشاً فأتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال . يا بنى تميم لا تحضرونى سفيهاً فإنه

(١) اقول ومن الحكام ايضا عيينة بن حصن بن حذيفة وحرملة بن الاشعر المرى وهرم ابن قطبة بن سنان بن عمرو الفزازى وبشر بن عبد الله بن جبان وابو سفيان بن حرب بن امية وابو جهل بن هشام وانس بن مدرك .

من يَسْمَعْ يَخَلْ[١] إن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم ، إن ابنى شافه هـذا الرجل مشافهةً وأتانى بخبره وكتابهِ يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران . وقد حلف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق النـاس بمعونة (محمدٍ) ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون النـاس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق النـاس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان أسقف نجران[٢] يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً فكونوا فى أمره أوّلاً ولا تكونوا آخراً . ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، إن الذى يدعو إليه محمدٌ لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تُنزع منكم أبداً وأصبحتم أعزَّ حىّ فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلاّ ذل ، ولا يلزمه ذليل إلاّ عزّ ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم والاختلاف عجز . فقال مالك بن نُوَيرة : قد خرِف شيخكم . فقال أكثم ويلٌ للشجىِّ من الخلىّ ،[٣] ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى فذهب مثلا .

---

(١) المعنى ان من يسمع الشىء ربما ظنَ صحته ، وقيل من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه أى أن المجانبة للناس اسلم ، ومفعولا يخل محذوفان أى يخل مسموعه صادقا على ما فى كتب النحو ، قال الكميت :

فان تصغ تكفاء العداة انآءنا ... وتسمع بنا أقوالٌ اغدائنا يخل

(٢) هو قس بن ساعدة احد بل أوحد حكماء العرب وبلغائهم — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب — (٣) يضرب مثلا لسوء مشاركة الرجل صاحبه ، يقول ان الخلى لا يساعد الشجى على ما به ويلومه ، والخلى الخالى من الهم وياؤه مشددة وياء الشجى مخففة وقد تشدد ، وقيل ان أول من قاله لقمان وقصته فى صغراهن شراهن وقيل بل أن أول من تكلم به أكثم بن صيفى لما اتاه ابنه من عند رسول الله (ص) بكتاب فدعى قومه وحرضهم على الاسلام

قال المدائنى : أول من قال ذلك أكثم بن صيفى التميمى ومن كلامه : مقتل الرجل بين فكيه . والمقتل القتل وموضع القتل أيضاً . ويجوز أن يجعل اللسان قتلا مبالغة فى وصفه بالإفضاء إليه ، كما قال الشاعر : (فإنما هى إقبال وإدبار) ويجوز أن يجعل موضع القتل أى فى سببه يحصل القتل . ويجوز أن يكون بمعنى القاتل فالمصدر ينوب عن الفاعل كأنه قيل قاتل الرجل بين فكيه . قال المفضل : أول من قال ذلك أكثم بن صيفى فى وصيته لبنيه وكان جمعهم فقال : تباروا فإن البرّ يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه . إن قول الحق لم يدع لى صديقاً . الصدق منجاة . لا ينفع التوقى مما هو واقع . وفى طلب المعالى يكون العناء . الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام . من يأْس على فاته ودع بدنه . ومن قَنِعَ[1] بما هو فيه قرت عينه . التقدم قبل التندم . أصبح عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . ويل لعالم أمرٍ ومن جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل . وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق . البطر عند الرخاء حمق . والعجز عند البلاء أفن . أى نقص . لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير . لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يضحك منه . تناءوا فى الديار ولا تباغضوا فإنه من يجتمع يتقعقع عمده . ألزموا النساء المهانة . نِعْمَ لهو الحرة المغزل . حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعِشْ ترَ ما لم ترَه .

فقال مالك بن نويرة قد خرف شيخكم انه ليدعوكم الى الفناء ويعرضكم على البلاء ان تجيبوه تفرق جماعتكم وتظهر اضغانكم ويذل عزيزكم فمهلا مهلا فقال اكثم بن صيفى : ويل للشجى من الخلى فيالهف نفسى على امر لم ادركه ولم يفتنى ماآسى عليك بل على العامة يامالك انك هالك وان الحق اذا قام دفع الباطل وصرعه صرعى قياما فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبى (ص) فلما كان فى بعض الطريق عمد حبيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب فأجهد اكثم العطش فمات واوصى من معه باتباع النبى (ص) واشهدهم انه أسلم فانزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله .

(١) قنع بالكسر قنوعا وقناعة اذا رضى واما قنع بالفتح فمعناه سأل وما احسن ما قال بعضهم :

العبد حر ان قنع والحر عبد ان قنع
فاقنع ولا تقنع فما شىء يشين سوى الطمع

المكثار كحاطب ليل . من أكثر أسقط . لا تجعلوا سراً إلى أمة . فهذه تسعة وعشرون مثلاً كلها من كلام أكثم . وقد أحسن من قال فى معنى قوله (مقتل الرجل بين فكيه) : رحم الله امرأ أطلق ما بين كفيه ، وأمسك ما بين فكيه . ولله درّ أبى الفتح البستى حيث يقول فى معنى هذا المثل أيضاً :

تكلَّم وسَدِّدْ ما استطعتَ فإنما كلامك حىٌّ والسكوت جمادُ
فإن لم تجِدْ قولا سديداً تقولهُ فَصَمْتُك عن غير السديدِ سدادُ

واحتذاه القاضى أبو أحمد منصور بن محمد الهروى فقال :

إذا كنت ذا علم وما راك[1] جاهل فأعرِضْ ففى ترك الجوابِ جواب
و إن لم تصِبْ فى القول فاسكُت فإنما سكوتك عن غير الصواب صوابُ

وضمن الشيخ أبو سهل النيلى شرائط الكلام فى قوله حيث يقول :

أوصيك فى نظم الكلام بخمسةٍ إن كنت للموصى الشفيق مطيعاً
لا تُغفِلَنْ سبب الكلام ووقته والكيف والكم المكان جميعاً

وقد ذكرت نبذة من كلام أكثم مع كسرى وما خطب به فيما سبق ، وسيأتى إن شاء الله فى الخطب شىء منه . ومنهم

حاجب بن زرارة بن عدس التميمى

كان حاجب أيضاً من حكام تميم ، وله معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها وكان من مشاهير فصحاء زمانه وبلغائهم ، ومن المعروفين بالوفاء بين العرب . وفد على كسرى لما منع تميما من ريف العراق فاستأذن عليه فأوصل إليه فقال : أسيد العرب أنت ؟ قال : لا . قال : فسيد مضر ؟ قال لا . قال : فسيد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا . ثم أذن له فلما دخل عليه قال له : من أنت ؟ قال : سيد العرب . قال : أليس قد أوصلت إليك أسيد العرب . فقلت : لا . حتى

---

(١) اى جاد الك وخاصمك .

اقتصرت بك على بنى أبيك · فقلت : لا . قال له : أيها الملك ألم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيدَ العرب . قال كسرى : آه املأُوا فاه دُرًّا . ثم قال : إنكم معشرَ العرب غُدُر فإن أذِنْتُ لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وآذيتمونى . قال حاجب فإنى ضامِنٌ للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا : لهذه العصا يفى . قال كسرى : ما كان ليسلمها لشىء أبداً فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف . ثم إن مضر أتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله هلك قومك ، وأكلتهم الضبع يريدون الجوع . والعرب يسمون السنة الضبع والذئب . قال جرير (من ساقت السنة الشهباء والذيب)[1] وقال آخر :

أبا خُراشةَ أما أنت ذا نفرٍ فإن قومِى لَمْ يأْكلهم الضَّبُعُ[2]

فدعا لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأحيوا . وقد كان دعا عليهم فقال : « اللهم اشدُدْ وطأتَكَ على مضر ، وابعث عليهم سنينَ كسنى يوسف » . ومات حاجب بن زرارة فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال له : ما أنت الذى رهنتها . قال : أجل ، قال : فما فعل ؟ قال : هلك وهو أبى وقد وفى له قومه ووفى هو للملك فردها عليه وكساه حُلة . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم وأسلم على يديه أهداها للنبى

---

(١) قبله : (يأوى اليك فلا من ولا جحد والبيت من قصيدة له يمدح بها ايوب بن سليمان ابن عبد الملك ومعناه يأوى اليك اهل الحاجة الذين سافتهم السنة الشهباء وهى التى لاخضرة فيها أولا مطر والذيب اى الجوع

(٢) نسبه الزمخشرى فى المفصل الى ابى ذؤيب الهذلى ونسبه غير واحد الى العباس بن مرداس من ابيات يخاطب بها خفاف بن ندبة السلمى ، وابو خراشة كنية خفاف بن ندبة . والنفر فى اصل معناه اسم لمادون العشرة والمراد هنا القوم والجماعة والضبع السنة المجدبة ؛ قيل ان ذلك اسم لها وقيل بل اطلاقه عليها على سبيل التشبيه كانه شبه نقص السنة المجدبة لمن تأتى عليه باكل الضبع وهذا البيت من شواهد النحو والشاهد فى اما انت حيث حذف فيه كان بعد أن المصدرية .

صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقبلها فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم . وهذه رواية ابن عبد ربه فى العقد الفريد . وقال الإمام المرزوقى : وقد روى القصة بأبسط مما ذكر . كان السبب فى ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مضر وقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوسف » فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فزارة وقال : إنى أزمعت[1] على أنى آتى الملك يعنى كسرى فأطلب أن يأذنَ لقومنا فيكونوا تحت هذا البحر حتى يحيوا . فقالوا : رشدت فافعل غير أنا نخاف عليك بكر بن وائل . فقال : ما منهم وجه إلاّ ولى عنده يدٌ إلا ابن الطويلة التميمى وسأداويه . ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الاتحاف والبرّ من الناس حتى انتهى إلى الماء الذى عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر دعا بنَطع[2] ثم أمر فصب عليه التمر ، ثم نادى حَىَّ على الغداء فنظر ابن الطويلة . فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه . وأهدى إليه جزراً ، ثم ارتحل فلما بلغ كسرى شكا إليه الجهد فى أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذن لهم فيكونوا فى حد بلاده . فقال : أنتم معشر العرب غُدُر فإذا أذنت لهم عاثوا[3] فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت . قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله ، فقال الملك ، ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مضر إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب فدعا لهم فخرج أصحابه إلى بلادهم وارتحل عطارد ابن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال : ما أنت بالذى وضعتها . قال : أجل إنه هلك وأنا ابنه وفىّ للملك . قال ردوا عليه وكساه حلة . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها إليه فلم يقبلها فباعها من يهودىّ بأربعة آلاف درهم فصار ذلك فخراً ومنقبة لحاجب وعشيرته . وإلى هذه القوس أشار أبو تمام يمدح بها أبا دُلَفٍ العجلى :

---

(١) يقال ازمعت الأمر وعليه أى اجمعت او ثبت عليه كزمعت بالتشديد
(٢) هو بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب : بساط من الأدم
(٣) أى افسدوا

على مثلها من أرْبُـعٍ وملاعبٍ   تذال مصونات الدموع السواكب[١]

أقول لقُرحان من البين لم يجد   رسيس الهوى بين الحشا والترائب[٢]

أعـنّى أفرّق شمل دمعى فإننى   أرى الشمل .منهم ليس بالمتقارب

إلى أن قال

إذا العِيسُ لاقت أبى دُلَف فقد   تقطّع ما بينى وبين النوائب[٣]

هنالك تلقى الجوَد حيثُ تقطعتَ   تمائمه والمجدُ مرخى الذوائب[٤]

تـكاد عطاياه يجنّ جنونهـا   إذا لم يعوّذها بنعمة طالب[٥]

يرى أقبحَ الأشياء أوْبَةَ آملٍ   كسته يدُ المأمول حلةَ خائب[٦]

وأحسن من نَوْرٍ يفتّحه النَّدَى   بياض العطايا فى سواد المطالب[٧]

إذا ألمت يوماً لجيم وحولهـا   بنوالحصن نجل المحصنات النجائب[٨]

فإن المنايا والصــوارمَ والقنا   أقاربهم فى الرَّوْع دون الأقارب

جحَافل لا يتركْـنَ ذا جبرية   سليماً ولا يحرِبنَ من لا يحارب[٩]

يمدونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ[١٠]

---

(١) الاربع : المنازل ، وتذال . تحتقر وتهان ، ويروى تذيل واهينت أيضا
(٢) قرحان : سالم ، والبين الفراق ، والرسيس : الثابت ؛ والترائب عظام الصدر (٣) العيس : الابل البيض بشقرة ، والنوائب . المصائب (٤) التمائم : خررات رقط تعلق فى عنق الصبى لدفع العين والمفرد تميمة ، وفى الحديث من علق تميمة فلا اتم الله له ؛ والجود : الكرم ؛ والذوائب : النواصى وهى قصاصات السعر (٥) هذا البيت انتقد به على ابى تمام حتى قال بعضهم ومابالة ينسبها الى الجنون وبلتمس لها العوذ والرقى هلافك اسارها وعجل خلاصها ولم ينظر بها نعمة الطالب ففعل كما قال المتنبى :

وعطاء مال لو عداه طالب   انفقته فى أن تلاقى طلبا

(٦) الاوبة : الرجعة ، والحلة ثوبان : وهنا استعارة . (٧) النور : زهر النبت ، والصبا الريح الشرقية ؛ وهذا البيت من احسن الشــواهد على المقابلة ، من صناعة البديع ، وهو مأخوذ من قول الاخطل :

رأينا بياضا فى سواد كأنه   بياض العطايا فى سواد المطالب

(٨) النجل النسل ويطلق على الولد ؛ والمحصنات : الحرائر العفيفات .
(٩) الجحافل : الجيوش وذا جبرية أى منجبرة ؛ ويحربن : يسلبن .
(١٠) عواصم : موانع ، وقواض قاضيات . وقواضب : قواطع ، وهـذا البيت يستشهد به فى البديع على الجناس الناقص المطرف

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها فخاراً على ما وطَّدت من مناقب[١]

فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب

يقول إذا افتخرت تميم بذلك ، فأنتم قتلتم الذين أكسبوهم هـذا المجد مما ارتهنوه وهدمتم عزهم . وإنما يعنى وقعة ذى قار حين قتلت بنو شيبان العجم ونـكثوا فيهم . وكان رئيسهم سيار بن حنظلة العجلى ، وأبو دُلف عجلى فلذلك خاطبه بهذا . ومنهم :

الأقرع بن حابس أبو عيينة التميمى

كان الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى المجاشعى الدارمى من حكام تميم ومرجعهم فى واقعاتهم ومنافراتهم . قال ابن إسحق : وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهد فتح مكة وَحُنَيْناً والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه . وقال الزبير فى النسب : كان الأقرع حكماً فى الجاهلية ، وقد نادى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من وَراء الحجرات يا محمد فلم يجبه . فقال : والله يا محمد إن حمدى لزين ، وإن ذمى لشين . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلـكم الله . وروَى ابن شاهين من طريق المدائنى ، قال : لما أصاب عيينة بن حصن بنى العنبر قدم وفدهم فذكر القصة وما فيها فكلم الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السبى . وكان فى المدينة قبل قدوم السبى فنازعه عيينة ابن حصن . وفى ذلك يقول :

وعند رسولِ اللهِ قامَ ابنُ حابسٍ بخطة أسوارٍ إلى المجدِ حازم

له أطلق الأسْرَى التى فى قيودها مغللة أعناقُهـا فى الشـكائم[٢]

وشهد الأقرع مع شُرَحْبيل بن حسنة دُومَةَ الجندل وشهد مع خالد حرب

(١) وطدت ثبتت .

(٢) الشكائم جمع شكيمة وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس فيهـا الفاس .

أهل العراق وفتح الأنبار . وقال ابن دريد : اسم الأقرع بن حابس فراس ، وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه وكان شريفاً فى الجاهلية والإسلام واستعمله عبد الله ابن عامر على جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش ، وذلك فى زمن عثمان . وذكر ابن الكلبى : أنه كان مجوسياً قبل أن يسلم . وذكر الرضى الشاطبى : أنه قتل الأقرع بن حابس باليرموك فى عشرة من بيته والله أعلم . ومنهم :

ربيعة بن مخاشن التميمى

كان من حكام تميم وإليه المرجع فى عصره حيث كان عالمهم واقفاً على أنساب قومه وغيرهم من قبائل العرب مقدّراً لمراتبهم ، ومع ذلك كان من أفصح أهل زمانه ومن الخطباء المشهورين مضْيافاً شجاعاً لا يعدل قومه عن رأيه وَلا يقطعون أمراً دونه . وهو أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم وَبنو تميم يزعمون أنه هو الذى أوّل من قرعت له العصا . وقد ذكرنا الخلاف فى ذلك عند الكلام على ذكاء العرب . ومنهم :

ضمرة بن ضمرة التميمى

كذلك كان من حكام تميم وإليه يتنافرون وعنده يتحاكمون لا يرون فى وَقته كرأيه رأياً ، وَلا يستغنون عن مشورته فى وَقائعهم وَأيامهم لوقوفهم على ما كان عليه من غزارة العقل وَذكاء الفطنة وَطلاقة اللسان وكرم السجية وخبرته بأحوال العرب وَأنسابهم . وفى القاموس : أنه ضمرة بن أبى ضمرة وصوابه ما ذكرناه كما نبه عليه شارحه الزبيدى . وفى مجمع الأمثال للميدانى عند قولهم : « إن العصا قُرِعَتْ لذى الحلم » أن ضمرة حكم فأخذ رشوة فغدر . ومنهم :

عامر بن الظرب العدوانى

كان عامر هذا من حكام قيس ، وَقد ذكرنا فى ذكاء العرب أن أبا عبيدة

قال : أول من قرعت له العصا عامر بن الظَرِب ، والقصة هناك . وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهماً ، ولا بحكمه حكماً ، وفى كتاب مجمع الأمثال : يُقال إنه عاش ثلاثمائة سنة ، ثم ذكر ما يدل على ذلك من شعره ، وقد نقلناه سابقاً مع نبذة من خبره . وكان عامر من فصحاء العرب . ومن كلامه : رُبّ أكلةٍ تمنع أكلات . قال المفضل : أول من قال ذلك عامر بن الظرِب العدوانى ، وكان حديثه أنه كان يدفع بالناس فى الحج فرآه ملك من ملوك غَسَّان فقال : لا أترك هذا العدوانى أو أذله فلما رجع الملك إلى منزله أرسل إليه أحب أن تزورنى فأحبُوك وأكرِمَكَ واتخذك خِلاًّ . فأتاه قومه فقالوا • أتَفِدُ ويَفِدُ معك قومك إليه فيصيبون بجنبك ويتجهون بجاهك فخرج وأخرج معه نفراً من قومه ، فلما قدم بلاد الملك أكرمه وأكرم قومه . ثم انكشف له رأى الملك فجمع أصحابه وقال : « الرأى نائم والهوى يقظان ، ومن أجل ذلك يغلب الهوى الرأى عجلت حين عجلتم ولن أعود بعدها ، إنا قد توردنا بلاد هذا الملك فلا تسبقونى بِرَيْث[1] أمر أقيم عليه ولا بعجلة رأى أخف معه فإن رأيى لكم » فقال قومه ، لقد أكرمنا كما ترى وبعد هذا ما هو خير منه . قال : لا تعجلوا فإن لكل عام طعاماً رُبَّ أكلة تمنع أكلات فمكثوا أياماً . ثم أرسل إليه الملك فتحدث عنده . ثم قال له الملك : قد رأيت أن أجعلك ناظراً فى أمورى . فقال له : إن لى كنز علمٍ لست إلا به تركته فى الحى مدفوناً وإن قومى أضنَّاء بى فا كتب لى سجلا بجباية الطريق فيرى قومى طمعاً تطيب به أنفسهم فأستخرج كنزى وأرجع إليك وافراً . فكتب له بما سأله ، وجاء إلى أصحابه فقال : ارتحلوا ، حتى إذا أدبروا وقالوا : لم نر كاليوم وافدَ قوم أقل ولا أبعد من نوال منك . فقال : مهلاً فليس على الرزق فوت ، وغنم من نجا من الموت ، ومن لا يرى باطناً ، يعش واهناً ، فلما قدم على قومه أقام فلم يَعُد .

ومن كلامه أيضاً : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » قال ابن الكلبى : أول

---

(١) الريث البطىء

من قال ذلك عامر بن الظرب ، وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : « يا صعصعة إنك جئت تشترى منى كَبِدى ، وارحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يُعَدُّ أباً ، قد أنكحتك خشيةَ أن لا أجدَ مثلك » ثم أقبل على قومه فقال يا معشر عَدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطَّ له شيء جاءه ، رُبَّ زارعٍ لنفسه حاصد سواه ، ولولا قسم الحظوظ على غير الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا[1] أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بقلة ، ومن الماء جرعة ، إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصفُ لكم إلا كل ذى قلب واع ، ولكل شىء راع ، ولكل رزق ساع ، ما أكْيَسُ وما أحمق ، وما رأيت شيئاً قط إلا سمعت حسه ، ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، وما رأيت جائياً إلا داعياً ولا غانماً إلا خائباً ، ولا نعمةً إلا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ » قيل : ما هو قد فات فأصبت وأخبرت فصدقت ؟ فقال : « أرى أموراً شتى وشيئاً شيًّا حتى يرجع الميت حيا ، ويعود اللاشىء شيّا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء » فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيْلُمّها نصيحة لو كان مَّن يقبلها . ومن كلامه أيضاً : « من طلب شيئاً وجده » وفى مجمع الأمثال للميدانى أن أول من قال ذلك : عامر بن الظرب وكان سيد قومه فلما كبر وخشى عليه قومه أن يموت اجتمعوا إليه فقالوا : إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفاً وسيداً وقائلا بعدك . فقال : (يا معشر عَدوان كلفتمونى بغياً إن كنتم شرّفتمونى فإنى أريتكم ذلك من نفسى فأنّى لكم مثلى . افهموا ما أقول لكم إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ، يا معشر عَدوان

---

(١) المطر

لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنيّ ومَنْ يرِ يوماً يرَ به ، وأعِدُّوا لكل أمر جوابَه ، إن مع السفاهة الندامةَ ، والعقوبةُ نكالٌ وفيها ذمامة ، ولليد العليا العاقبة والقود راحة لا عليك ولا لك ، وإذا شئت وجدت مثلك إنَّ عليك كما أنَّ لك ، وللكثرة الرُّعب ، وللصبر الغلبة ، ومَن طاب شيئاً وجده ، وإن لم يجده يوشِكُ أن يقع قريباً منه ، ومنهم :

غيلان بن سلمة الثقفى

وهو غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف وسمى أبو عمرو جدّه شرحبيل : قال المرزبانى فى معجم الشعراء : غيلان شريف شاعر أحد حكام قيس فى الجاهلية .

« وأنشد له »

لم ينتقص منى المشيبُ قُلامة[1] الآن حينَ بدا أَلَبُّ وأكْيَسُ

والشيب إنْ يحلل فإنَّ وراءه عمرا يكون خلاله متنفس

وفى مجمع الأمثال للميدانى : غيلان بن سلمة الثقفى من حكام قيس ، وكانت له ثلاثة أيام يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله ، وجاء الإسلام وعنده عشر نسوة فخيره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاختار أربعاً . وعدّه أيضاً صاحب القاموس من حكام قيس . وأسلم بعد فتح الطائف ، وكان أحد وجوه ثقيف وأسلم أولاده عامر وعمار ونافع وهو أحد من نزل فيه قوله تعالى (على رجل من القريتين عظيم) وقد روى ابن عباس عنه شيئاً من شعره ، وهو ممن وفد على كسرى فبنى له حصناً بالطائف ، وله معه خبر ظريف قال أبو الفرج الأصبهانى بعد أن ساق سنده : كان غيلان بن سلمة قد وفد على كسرى فقال له ذات يوم أى ولدك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ قال : عجبت لك هذا العقل . وقد روى الهيثم بن عدى هذه القصة أبين من

(١) القلامة بالضم ماسقط من الظفر .

هذه ، وفيها : كان أبو سفيان فى نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة إلى العراق فقال لهم أبو سفيان : إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا فى دخول بلاده فأعدوا له جواباً . فقال غيلان : أنا أكفيكم على أن يكون نصف الربح لى قالوا نعم فتقدم إلى كسرى وكان جميلا فقال له الترجمان : يقول لك الملك كيف قدمتم بلادى بغير إذنى ؟ فقال : لسنا من أهل عداوتك ولا تجسسنا عليك وإنما جئنا بتجارةٍ فإن صلحت لك خذها وإلا فائذن لنا فى بيعها ، وإن شئت رجعنا بها . قال : وسمعت صوت الملك فسجدت فقيل له لم سجدت ؟ قال : سمعت صوت الملك حيث لا ينبغى أن ترفع الأصوات . فأعجب كسرى وأمر أن توضع تحته مرفقة فرأى عليها صورة كسرى فوضعها على رأسه . فقيل له : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت عليها صورة الملك فأجللتها أن أجلس عليها . فاستحسن ذلك أيضاً ثم قال له : ألك ولد ؟ قال نعم . قال : فأيهم أحب إليك ؟ قال الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتي يقدم . قال : أنت حكيم من قوم لا حكمة فيهم . وأحسن إليه ، وذكرها أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل بغير إسناد أطول مما هنا فقال : خرج أبوسفيان بن حرب فى جمع من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال : إنا فى سيرنا هذا لعلى خطر ، ما قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه وليست بلاده لنا بمتجر فأيكم يذهب بالعير فنحن برآء من دمه إن أصيب ، وأن يغنم فله نصف الربح ؟ فقال غيلان بن سلمة أنا أمضى بالعير وأنشده :

فلو رآنى أبو غيلان إذ حسرتْ ... عنى الأمورُ بأمرٍ ماله طبَقُ[1]
لقال : رُعْبٌ ورهبٌ أنتَ بينهما ... حبُّ الحياة وهول النفس والشفق
أما مشف على مجدٍ ومَكرُمةٍ ... أو أُسْوة لك فيمن يهلك الوَرِقُ[2]

(١) الطبق غطاء كل شىء ، والحسر : الكشف (٢) قوله مشف على مجد هكذا هو فى الأصل ولعله مسف الى مجد من اسف اليه اى دنا ، والمكرمة بضم الراء اسم من الكرم والأسوة : القدوة ، والورق : الدراهم المضروبة

فخرج بالعير وكان أبيضَ طويلا جعْداً[١] فتخلّق[٢] ولبس ثوبين أصفرين وأشهر نفسه وقعد بباب كسرى حتى أَذِنَ له فدخل عليه وشباك بينه وبينه فقال له الترجمان : يقول لك ما أدخلك بلادى بغير إذنى ؟ فقال : لست من أهـل عداوة لك ولم أكن جاسوساً ، وإنما حملت تجارة فإن أردتها فهى لك وإن كرهتها رددتها . قال : فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرّ ساجداً . فقال له الترجمان يقول لك ما أسـجدك ؟ قال : سمعت صوتاً مرتفعاً حيث لا ترفع الأصوات فظننته صوت الملك فسجدت . قال : فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعت تحته فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه . فقال له الحاجب : إنا بعثنا بها إليك لتقعد عليها . فقال : قد علمت ولـكننى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى . فقال : ما طعامك فى بلادك ؟ قال : الخبز . قال : هـذا عقل الخبز ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها وبعث معـه من بنى له أُطُما[٣] بالطائف فكان أولَ أُطم بنى بالطائف . ومن أخبار غيلان فى الجاهلية ما حكاه أبو سعيد السكرى فى ديوان شعره أن بنى عامر أغاروا على ثقيف بالطـائف فاستنجدت ثقيف ببنى نصر بن معاوية وكانوا حلفاءهم فلم ينجدوهم فخرجت ثقيف إلى بنى عامر وعليهم يومئذ غيلان بن سلمة فقاتلوهم حتى هزموا بنى عامر ، وفى ذلك يقول غيلان فذكر شعراً يذكر فيه الوقعة ، وأخباره كثيرة مفصلة فيما أعِدَّ لمثلها من الـكتب . ومنهم :

هاشم بن عبد مناف القرشى

وهو من أكابر رجال قريش . وساداتهم وحكامهم ، وملك بعد أبيه الرفادة والسقاية واستقرت له الرياسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لأمره وتعمل برأيه .

(١) جعد الشعر جعودة اذا كان فيه التوآء وتقبض فهو جعد وذلك خلاف المسترسل (٢) اى تطيب بالخلوق وهو ضرب من الطيب (٣) الأطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح

وكان يعمل الطعام للحجاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ويقال لذلك الرفادة ، وأخباره كثيرة مشحونة منها كتب السير . وكان ذا أهل هلال ذى الحجة قام صُبْحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته : يامعشر قريش إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً ، يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله . أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بنى إسماعيل ، وإنكم يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شُعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر(١) كالقداح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذ البَنيّة(٢) . لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام . فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً ، فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة . وتنافرت قريش وخزاعة إليه فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة فقال فى خطبته : أيها الناس نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم ، يا بنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة(٣) يصيبه سهمه . ومن أمحكه(٤) اللجاج أخرجه إلى البغى ، أيها الناس الحلم شرف ، و الصبر ظفر .

---

(١) جمع ضامر وهو الجمل المهزول (٢) البنية على فعيلة الكعبة لشرفها اذ هى أشرف مبنى يقال لا ورب هذه البنية ماكان كذا وكذا وفى حديث البراء رايت بأن لا اجعل هذه البنية منى بظهر يريد الكعبة وكانت تدعى بنية ابراهيم عليه السلام لأنه بناها وقد كثر قسمهم برب هذه البنية (٣) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم اخى   فاذا رميت اصابنى سهمى

(٤) أغضبه

والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غُيَّر ،[1] والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة . وإياكم والأخلاقَ الدنية فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل[2] ، أهون من حزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها . ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ، فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة وهى كنيته . قال الإمام الماوردى بعد إيراد هذه الخطبة فى كتابه أعلام النبوة : فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق ، ونهى عن مساوى الأفعال ، هل صدر إلا عن غزارة فضل ، وجلالة قدر وعلو همة ، وما ذاك إلا لاصطفاء يراد ، وذكر يشاد . لأن توالى ذلك من الآباء ، يوجب تناهيه فى الأبناء . ومنهم :

عبد المطلب بن هاشم القرشى

وكان أيضاً من حكام قريش ، وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعى (شيبةَ الحمد) لكثرة حمد الناس له لأنه كان مفْزَعَ قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور فكان شريف قريش وسيدها كمالا وفعالا من غير مدافع ، وكان مجاب الدعوة ، وكان يقال له (الفياض) لجوده و (مطعم طير السماء) لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤس الجبال ، وكان من حلماء قريش وحكمائها ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وكان نديمه حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق (تهامة) فأغرى عليه حربٌ من قتله فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب ولم يفارقه حتى أخذ

---

(١) اى متقلب (٢) زجره .

منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودىّ حفظاً لجواره . ثم نادم عبد الله بن جُدْعان ، وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب فى ذلك ، ففكر وقال : واللهَ إن وراء هـذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسىء بإساءته — أى فالظلوم شأنه فى الدنيا ذلك حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهى معدّة له فى الآخرة — ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ووحّد الله سبحانه وتعالى ، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السُّنَّه بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا وأن لا يطوف بالبيت عُرْيان . ومنهم :

***

أبو طالب بن هاشم بن عبد مناف

وهو عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وناصره ولد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات عبد المطلب وصى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إليه فكفله وأحسن تربيته ، وسافر به إلى الشام وهو شاب . ولما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم قام بنصرته وذب عنه من عاداه ومدحه عدة مدائح واسمه عبد مناف على المشهور واشتهر بكنيته ، وقيل اسمه عمران ، وقيل شيبة . وكان من حكام قريش وساداتها ومرجعها فى الملمات . قال الواقدى : وتوفى أبو طالب فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة واختلف فى إسلامه . قال ابن حجر : رأيت لعلىّ بن حمزة البصرى جزءًا جمع فيه شعر أبى طالب ، وزعم أنه كان مسلماً ومات على الإسلام وإن الحشوية تزعم أنه مات كافراً ، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه انتهى . ومن شعره قوله

ودعوتنى وزعمتَ أنك صادق ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا
ولقد علمت بأن دينَ محمدٍ من خيرِ أديانِ البرية دِينا

ومن شعره الذى قاله وهو فى الشعب :

ألا أبلغا عنى على ذاتِ بيننا لؤيّاً وخصّا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجـــدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ فى أول الكتب
وأن عليـــه فى العباد مودةً ولا خير ممن خصه الله بالحب

وهى قصيدة جيدة على هذا الأسلوب ، وله قصيدة لامية طويلة تزيد على مائة بيت وهى من جيد شعره عاذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها إلى أشراف قومه ، وأخبر قريشاً أنه غير مسلم محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد حتى يهلك دونه ومدحه فيها أيضاً ، وقالها فى الشعب لما اعتزل مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب قريشاً . وسبب دخوله الشعب أن كفار قريش اتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا ، فقالوا لقومه : خذوا منّا ديةً مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش وتريحوننا وتريحون أنفسكم فأبى بنو هاشم من ذلك ، وظاهَرَهم بنو عبد المطلب فاجتمع المشركون من قريش على منا بذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب ، فلما دخلوا الشعب أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وكانت مَتْجَراً لقريش ، وكان يثنى على النجاشى بأنه لا يظلم عنده أحد ، فانطلق عامة من آمن بالله ورسوله إلى الحبشة ودخل بنوهاشم وبنوعبد المطلب الشعب مؤمنهم وكافرهم فالمؤمن ديناً والكافر حمية ، فلما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد منعه قومه أجمعوا على أن لا يبايعوهم ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرفق وقطعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً إلا بادروا إليه واشتروه ولا يناكحوهم ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسلّموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها

فى الكعبة ، وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين فاشتد البلاء على بنى هاشم ومن معهم فأجمعوا على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى طالب : يا عم إن ربى قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلحستها إلا ما كان اسماً لله فأبقته . قال : أربك أخبر بهذا ؟ قال : نعم . قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ثم خرج إلى قريش . فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلحست ما فيها فإن كان كما يقول فأفيقوا فلا والله لا نسلمه حتى نموت ، وإن كان يقول باطلا دفعناه إليكم . فقالوا : قد رضينا ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : هذا سحر ابن أخيك وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ، فقال أبو طالب : يا معشر قريش علامَ نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين أنكم أهل الظلم والقطيعة ؟ ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة وقال : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ، ثم انصرف إلى الشعب وقال هذه القصيدة . قال ابن كثير : هى قصيدة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه ، وهى أفحل من المعلقات السبع وأبلغ فى تأدية المعنى . منها قوله :

خليلىَّ ما أذنى لأولِ عاذلٍ بصغْواءَ فى حقٍ ولا عند باطِلِ [1]
خليلىَّ إنَّ الرأىَ ليس بشركةٍ ولا نهْنهٍ عند الأمور البلابلِ [2]

---

(١) بصغواء خبر ما النافية وهى حجازية ولذا زيدت الباء ، والصغو الميل واصغيت الى فلان اذا ملت بسمعك نحوه ولأول عاذل متعلق بصغواء وفى حق متعلق بعاذل اى لا اميل باذنى الأول عاذل فى الحق وانما قيد العاذل بالاول لانه اذا لم يقبل عذل العاذل الأول فمن باب اولى أن لا يقبل عذل العاذل الثانى فان النفس اذا كانت خالية الذهن ففى الغالب ان يستقر فيها اول ما يرد عليها . (٢) اراد ان الراى الجيد يكون بمشاركة العقلاء فان لم يتشاركوا بان كانوا متباغضين لم ينتج شيئا والراى ما لم يتخمر فى العقول كان فطيرا ، والنهنهة بنونين وهاءين كجعفر : المضىء والنير الشفاف الذى يظهر الاشياء على جلبتها واصله الثوب الرقيق النسج ومن شانه ان لا يمنع النظر الى ما وراءه وهو معطوف على شركة ، والبلابل اما جمع بلبلة بفتح الباءين أو جمع بلبال بفتحهما وهما بمعنى الهم ووساوس الصدر كزلازل جمع زلزلة وزلزال بالفتح وهو اما على حذف مضاف اى ذات البلابل او انها بدل من الامور .

ولما رأيتُ القومَ لا ودَّ عنـدهم ... وقد قطعوا كل العُرا والوسائل[١]

وَقد صارَحُونا بالعداوَة وَالأَذى ... وَقد طاوَعوا أمرَ العدوِّ المزايل[٢]

وَقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً ... يعضُّـون غيظاً خلفنَا بالأنَامل[٣]

صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سمحةٍ ... وأبيض عضبٍ من تراث المقاول[٤]

وَأحضرتُ عند البيت رهْطى وإخوتى ... وَأمسكتُ من أثوابه بالوصائل[٥]

قياماً معاً مستقبلين رتاجَــهُ ... لدى حيثُ يقضى خافه كل نافِلِ[٦]

أعوذُ بربِّ الناس من كل طاعن ... علينا بسوءٍ أو مُلحٍّ بباطِلِ[٧]

ومن كاشحٍ يَسْعى لنا بمَعيبةٍ ... ومن مُلحقٍ فى الدِّين مالم نحاوِلِ[٨]

وكلها على هذا المنوال وهى مذكورة مع شرحها فى كتاب لب لباب لسان العرب . وعن هشام بن محمد بن السائب الكلبى أنه قال : لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جمع إليه وُجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشرَ قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المِقدام الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ؛ ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب وعلى حربكم إلْبٌ[٩] ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة (يعنى الكعبة) فإن فيها

---

(١) اراد بالقوم كفار قريش ، والعرا جمع عروة وهى معروفة واراد هنا ما يتمسك به من العهـــود مجازا مرسلا ، والوسائل جمع وسـيلة وهى مايتقرب به . (٢) صارحونا أى كاشفونا بالعداوة وصريحا والصراحة وان كانت لازمة لكنها لما نقلت الى باب المفاعلة تعدت ، والمزايل اسم فاعـل من زايله مزايلة وزيالا فارقه وباينه وانما يكون العدو مفارقا اذا صرح بالعداوة فلا تمكن العشرة . (٣) حالفوا قوما مثل صارحونا فى انه كان لازما وتعدى الى المفعول بنقله الى باب المفاعلة والتحالف التعاهد والتعاقد على أن يكون الامر واحدا فى النصرة والحماية وعلينا متعلق بحالفوا ، والاظنة جمع ظنين وهو الرجل المتهم والظنة بالكسر التهمة والجمع الظن . (٤) الصبر والحبس ، والسمراء : القناة ، والسمحة اللدنة اللينة بالهـز والانعطاف ، والابيض : السيف ، والعضب : القاطع ، والمقاول جمع مقول بكسر الميم الرئيس وهو دون الملك . (٥) الوصائل ثياب مخططة يمانية كان البيت يكسى بها .

(٦) الرتاج : الباب العظيم وهو مفعول مستقبلين ، والنافل فاعـل من النافلة وهو التطوع . (٧) قوله ملح اسم فاعل من الح على الشىء اذا اقبل عليه مواظبا . (٨) المعيبة العيبة والنقيصة ، ونحاول : نريد ، والكاشـح : مضمر العداوة . (٩) واحد مجتمعون عليه بالظلم والعداوة .

مرضاة للرب وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم فإن فى صلة الرحم منسأةً (أى فسحةً) فى الأجل ، وزيادةً فى العدد ، اتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فإن فيهما محبةً فى الخاص وَمَكْرُمةً فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، والصدِّيق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاءنا بأمر قبله الجنَان[1] ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعَفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وَصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذاً أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له بلادَها ، وأعطته قيادَها ، يا معشر قريش كونوا له ولاةً ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحدٌ سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، وفى أجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهى ، ثم هلك ، ومنهم :

العاص بن وائل القرشى

عده صاحب القاموس من حكام قريش وكذلك الميدانى فإنه قال فى كتاب مجمع الأمثال : العاص بن وَائل من حكام قريش . وقد ذكر نسبه الزبيدى فى شرحه على القاموس فقال : العاص بن وَائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى انتهى وهو والد عمرو بن العاص الصحابى المشهور وكان له قدر فى الجاهلية ولم يوفق للإسلام . قال ابن الكلبى : كان من حكام قريش ، وَأجار عمر رضى الله تعالى عنه حين أسلم . وَقد أخرج الزبير بن بكار

(١) القلب .

هذه القصة مطولة وفيها : أنَّ العاص بن وائل قال رجل اختار لنفسه أمراً فـالـكم وله فردٌ المشركين عنه . وكان موته بمـكة قبل الهجرة ، ولم أقف على كال خبره فيمابين يدى من كتب الأدب سوى ما ذكرت وهو كاف فى المقصود . ومنهم :

العلاء بن حارثة القرشى

وهو على ما فى القاموس أيضاً من حكام قريش ، واسم جده نضلة بن عبد العزى بن رياح وكان عند قريش بمـكان مكين من علو المنزلة ونفوذ الحـكم وسعة الاطلاع بأحوال العرب وأنسابهم وأحسابهم . ومنهم :

ربيعة بن حذار الأسدى

كان حكما من حكام بنى أسد وإليه مرجعهم فى كل ما يعنّ لهم من الحوادث وإليه نافر خالد بن مالك بن تميم النهشلى القعقاع بن معبد التميمى كما ذكرناه سابقاً عند ذكر المنافرات وكان ما أوردناه من رواية الميدانى فى كتاب مجمع الأمثال . ورأيت القصة فى كتاب أسد الغابة عند ترجمة خالد هذا بلفظ آخر وكلام أبسط وأشمل فأحببت ذكرها هنا تـكميلا للفائدة وهى : إن خالداً هو الذى نافر القعقاع إلى ربيعة بن حذار الأسدى فقال هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم (شواحط) فارساً فجللت فخذيه بفرسه . فقال : يا قعقاع ما عندك ؟ فأخرج قوس حاجب فقال : هذا قوس عمى رهنها عن العرب وهاتان نعلا جدى قسم فيها أربعين مرْباعاً وهذه زربية[١] زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ولم يمسك بطنب فُسطاطه[٢] أسير إلا فكّ . فنادى ربيعة بن حُذار إن السماحة واللهى[٣] والمِرْباع والشرفَ الأسبغَ للقعقاع إلا أنى نفرت من كان أبوه معبداً وعمه حاجباً وجده زرارة . قال أبو أحمد العسكرىّ : ثم أدرك القعقاع بن معبد وخالد بن مالك النهشلىّ

---

(١) البساط او كل ما بسط واتكىء عليه . (٢) بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر والجمع فساطيط . (٣) العطايا .

الإسلام فوفدا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر هذا[١] . وقال عمر : أمر هذا[٢] . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لولا أنكما اختلفتما لوليتهما وأخذت برأيكما ، وهذه المقالة من أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما قد ذكرت فى ترجمة القعقاع بن معبد من كتاب أسد الغابة ، وكان الثانى الأقرع بن حابس التميمى ، وهو الأكثر . وقد نسب خالدا المذكور ابن الكلبى فقال خالد ابن مالك بن ربعى بن مسلم بن جندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم . وقال كان شريفاً ولم يذكر له صحبة إلا أبو أحمد العسكرى . والله أعلم . ومنهم :

يعمر الشداخ الكنانى[٣]

وهو يَعْمَرُ بن عوف بن كعب ولقب بالشُدّاخ لأنه شَدَخَ دماءَ خُزاعة وكان حكما من حكام كنانة ، وكان عالم العرب فى وقته خبيراً بأنسابهم وأحسابهم . ومنهم :

صفوان بن أمية

كان أيضاً من حكام كنانة وإليه مرجعهم فيما ينوبهم من المهمات وكان فصيح اللسان مشهور البيان ، وأخباره كثيرة تدل على رفعة شأنه وعلو مكانه بين العرب . ومنهم :

سلمى بن نوفل الكنانى

كان أيضاً من حكام كنانة وعرفائها حيث كان فى الفهم والفطنة بمنزلة أذعن له بها العرب غير أنهم كانوا يفضلون عليه عامر بن الظَرِب العدْوانى . ومنهم :

---

(١) هو القعقاع بن معبد بن زرارة . (٢) هو على ما فى الاصابة الاقرع ابن حابس التميمى . (١) قال فى القاموس ويعمر الشداخ كطوال وطياب وقد يفتح : احد حكامهم حكم بين قضاعة وقصى فى امر الكعبة وكثر القتل فشدخ دماء قضاعة تحت قدمه وابطلها فقضى بالبيت لقصى وهذا — الذى ذهب اليه صاحب القاموس — تبعا لبعض المؤرخين وقيل يوجد فى بعض النسخ بين خزاعة .

مالك بن جبير العامرى

كان من حكام العرب وحكائها المشهورين بجودة الفهم وغزارة العقل وسعة الاطلاع . ومن كلامه الذى ضرب به المثل : (على الخبير سقطتَ) والخبير العالم والخبر العلم ، وسقطت أى عثرت عبر عن العثور بالسقوط . لأن عادة العاثر أن يسقط على ما يعثر عليه . وقد تمثل الفرزدق بهذا المثل للحسين بن على رضى الله تعالى عنهما حين أقبل يريد العراق فلقيه وهو يريد الحجاز فقال له الحسين : ما وراءك ؟ قال : (على الخبير سقطت) قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والأمر ينزل من السماء . فقال الحسين رضى الله تعالى عنه : صدقتنى . ومنهم :

عمرو بن حممة الدوسى

وحممة بضم المهملة وفتح الميم الخفيفة بعدها مثلها . ذكر أبو بكر بن دريد أنه وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والذى ذكره غيره أنه مات فى الجاهلية وكان معمَّراً . وهو الذى يقول :

أخبرٌ أخبارَ القرون التى مضت ولا بدَّ يوماً أنْ تطار لمصرعى

أنشده له ابن الكلبى . وقال المرزبانى : كان أحد حكام العرب فى الجاهلية وأَحَدَ المعمَّرين . يقال إنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة . وأنشد له البيت المذكور وقبله :

كبرتُ وطال العمر منى كأننى سليم أفاعٍ ليله غير مودع

وبعده

وما السقم أبلانى ولكن تتابعتْ علىَّ سنون من مَصيفٍ وَمَرْبع

ثلاث مئين من سنين كواملٍ وها أنا هذا أرتجى مرَّ أربع

فأصبحت بين الفخِّ والعُشِّ نادِباً إذا رام تطياراً يقال له : قَع [1]

---

(١) الفخ : آلة يصاد بها .

أخبر أخبـار القرون البيت . قال : ويقال إنه الذى كان يقال له دو الحلم وضربت به العرب المثل فى قرع العصا لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع إليه فهمه وإليه أشار الحارث بن وعلة :

وزعمتمُ أنْ لا حُلومَ لنـا   إن العصا قُرِعت لذى الحلم

وقال الفرزدق :

* كأنّ العصا كانت لذى الحلم تقرعُ *

وقال الآخر :

لذى الحلم قبلَ اليوم ما تُقْرَعُ العصا   وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما

قال ابن دريد بسنده إلى الشعبي قال : كنا عند ابن عباس وهو فى ضفة زمزم يفتى إذ قام إليه أعرابى فقال : أفتيتهم فافتنا . قال : هات قال : مامعنى قول الشاعر لذى الحلم قبل اليوم ، وأنشد البيت السابق ؟ فقال له ابن عباس : ذاك عمرو بن حممة الدوسى قضى بين العرب ثلاث مائة سنة فـكبر فألزموه السابع أو التاسع من ولده ، فـكان إذا غفل قرع له العصا ، فلما حضره الموت اجتمع إليه قومه فأوصاهم وصية حسنة فيها حلم ، وهذا كله منقول من الإصابة لابن حجر . وقد حقق الميدنى أن أول من قرعت له العصا عامر بن الظرِب ، والقول بأنه عمرو ابن حُمَمَة هو قول أهل اليمن ، والأبيات السابقة نسبها إلىعامر أيضاً وجعل بدل قوله « كبرت وقد طال » تقول ابنتى لـما رأتنى كأننى . روى أبو على القالى فى أماليه (١) قال حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنى عمى أبيه عن ابن الـكلبى عن أبى مسكين وعن الشرقى بن قطامى قال : لـما مات عمرو بن حممة الدوسى وكان أحد من تتحاكم إليه العرب مر بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قادمين من الشام الْهِدْم بن امرىء القيس بن الحارث زيد بن كلثوم (أبو كلثوم بن الهدم الذى نزل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) وعتيك بن قيس بن هيشة

---

(١) ج ٢ ص ١٤٥

ابن أمية بن معاوية ، وحاطب بن قيس بن هيشة الذى كان بسببه حرب حاطب فعقروا رواحلهم على قبره وقام الهِدْم فقال :

لقد ضمت الأثراء منكَ مُرَزَّأً عظيمَ رماد النار مُشْتَرَكَ القِدْرِ
حليماً إذا ما الحلم كان حَزَامَةً وَقُوراً إذا كان الوقوفُ على الجمرِ
إذا قلتَ لم تَتْرُكْ مقالاً لقائلٍ وإن صُلْتَ كنت الليث يحمى حمَى الأجْرِ
لِيَبْكِكَ من كانت حياتُك عِزَّهُ فأصبح لما بِنْتَ يُغضى على الصُّغْرِ
سقى الأرضَ ذاتَ الطول والعرض مُثجِم أحَمُّ الرحى وَاهى العُرى دائم القَطْرِ (١)
وَما بِىَ سُقْيا الأرض لكنَّ تُربةً أضلَّكَ فى أحشائها مَلْحَدُ القبر

الرحى وسط الغيم ومعظمه ووسط الحرب ومعظمها . وقام عتيك فقال :

بِرغم العُلا وَالجودِ وَالمجد وَالنَّدَى طواكَ الرَّدَى يا خيرَ حافٍ وَناعِلِ
لقد غال صَرْفُ الدهر منك مُرَزَّأً نَهُوضاً بأعباء الأمور الأثاقلِ
يَضُمُّ العُفاة الطارقين فناؤُهُ كما ضَمَّ أمُّ الرأس شَعبُ القبائل
وَيَسْرُو دَجى الهَيْجا مَضَاءُ عَزِيمةٍ كما كَشَفَ الصبحُ اطِّراق الغَياطل (٢)
وَيُسْتَهزَم الجيش العَرَمْرَمُ باسمه وإن كان جَرَّاراً كثيرَ الصواهِل
وَينقادُ ذو البأوِ الأبىُّ لحُكمه فيرتَدُّ قَسْراً وَهو جَمُّ الدَّغَاوِلِ (٣)
وَيَمْضِى إذا ماالحربُ مَدَّتْ رِوَاقُهَا على الرَّوْعِ وَارفضَّتْ صدورُ العوامل
فإمّا تُصِبْنا الحادثاتُ بنَكْبةٍ رمتك بها إحدى الدوَاهى الضآبل
فلا تَبْعُدَنْ إن الحُتُوفَ مَوَارِدُ وكل فتًى من صَرْفِهاَ غيرُ وَائل

الضآبل الضواهى واحدها ضِئْبيل . وقام حاطب بن قيس فقال :

سلامٌ على القبر الذى ضمَّ أعظُماً تَحومُ المعالى حولَهُ فتُسَلِّمُ

---

(١) اثجم المطر اذا دام واثجمت السماء اسرع مطرها ثم أقلعت وقبل اثجمت السماء دام مطرها كنجمت ثجما . (٢) الغيطلة : الظلمة والغيطلة اختلاط الأصوات قال أبو النجم : مستأسدا ذبانة فى غيطل) وهو جمع غيطلة والغيطلة البقرة الوحشية والغيطلة الشجر الملتف ، قال ابن الاعرابى : الغيطلة التفاف الناس واجتماعهم والغيطلة غلبة النعاس .

(٣) الدغاول : الدواهى .

سلام عليه كلما ذرَّ شارقٌ ... وما امتدَّ قِطْعٌ من دُجَى الليل مُظلِم
فيا قبرَ عمرٍو جادَ أرضاً تعطَّفتْ ... عليك مُلِثٌّ دائم القَطْرِ مُرْزِمُ
تَضمَّنْتَ جسماً طابَ حيًّا وَميتاً ... فأنتَ بما ضُمِّنْتَ فى الأرض مُعْلَمُ
فلو نطقت أرضٌ لقال تُرابها ... إلى قبر عمرو الأزدِ حَلَّ التَكرُّمُ
إلى مَرْمَس قد حلَّ بين تُرابها ... وأحجاره بدْرٌ وأضبَطُ ضَيْغَمُ
فلو وَأَلَتْ من سَطوة الموت مُهْجَةٌ ... لَكنتَ ولكنَّ الرَّدى لا يُثَمْثِمُ[1]
ولا يُبعِدَنْك الله حيًّا وَميتاً ... فقد كنتَ نورَ الخطْبِ وَالخطبُ مُظلِم
وقد كنتَ تُمضى الحكم غير مُهَلِّلٍ ... إذا غَال فى القولِ الأَبَلُّ الغَشَمْشَمُ[2]
لعَمْرُ الذى حُطَّت إليه على الونى ... حَدَابيرُ عوجٌ نيُّهَا مُتَهَمِّمُ[3]
لقد هدَّ مِلْعَلْياء موتُك جانباً ... وَكان قديماً ركنها لا يهدَّم

ومنهم :

الحارث بن عباد الربعى

قال أبو رياش فى شرح الحماسة : كان الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان اعتزل حرب بنى وائل وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه وحل وَتَرَ قوسه ونزع سنان رمحه ولم يزل معتزلا حتى إذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له نَدَّتْ[4] يطلبها فعرض له مهلهل فى جماعة يطلبون غِرَّة (أى غفلة) بكر بن وائل فقال لمهلهل امرؤ القيس بن أبان بن كعب بن زهير بن جشم (وكان من أشراف بنى تغلب . وكان على مقدمتهم زماناً طويلا) : لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به منكم كبش لا يسئل عن خاله من هو وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة ، وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه

---

(١) وألت . نجت ، ويثمثم : يبطىء وينمثم بحرك ويدفع .
(٢) المهلل: المتوقف ويقال حمل عليه فما هلل، والابل: الظلوم، والغشمشم: الذى يركب براسه لا يثنيه شىء عما يحب ويهوى . (٣) الحدابير جمع حدبار وهى المنحنية الظهر . والنى الشحم ، والمنهمم : الذائب ، وقوله ملعياء اى من العلياء . (٤) اى شردت ونفرت .

بالرمح وقتله وقال بُؤْ بشسع نعل كليب . يقال أبأت فلاناً بفلان فبآء به إذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء للأول ، وسيأتى باقى القصة عند ترجمته فى مبحث الفرسان . ومنهم :

القلمس الكنانى[1]

كان أحد حكام العرب فى الجاهلية ، وكان أيضاً من نَسَأَةِ الشهور كان يقف عند جمرة العقبة ، ويقول : اللهم إنى ناسىءُ الشهور وواضعُها مواضِعَها ولا أعابُ ولا أجاب ، اللهم إنى قد أحْلَلتُ أحد الصَفَرَيْن وحرمت صفر المؤخَّر ، وكذلك فى الرَجَبَيْن يعنى رجباً وشعبان ، انفِرُوا على اسم الله تعالى . وذلك قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وسيأتى له ذكر إن شاء الله تعالى فى ترجمة ابنة الْخُسّ ، ومنهم :

ذو الأصبع العدوانى

كان أحد حكام العرب فى الجاهلية وشعرائهم المعَمَّرين ، قال أبو حاتم فى كتاب المعمرين : عاش ذو الإصبع وهو حرثان بن محرث من عدوان بن عمرو ابن قيس عيلان ثلثمائة سنة وقال :

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين أربعةً ... والشخص شخصين لما مسَّنى الكِبَرُ
لا أسمَعُ الصوتَ حتى استدِيرَ له ... ليلا وإنْ هو ناغانى به القَمَرُ

وإنما قال ليلا لأن الأصوات هادئة ، فإذا لم يسمع بالليل والأصوات ساكنة كان من أن يسمع بالنهار مع ضجة الناس ولغطهم أبعد . وإنما قيل له ذو الإصبع لأنه كانت له فى رجله أصبع زائدة . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : ذو الإصبع حرثان بن عمرو من عدوان بن عمرو بن قيس عيلان ، وكان جاهلياً وسمى ذو الإصبع لأن حية نهشت إصبع فقطعها انتهى . وقال ابن الأنبارى فى شرح المفضليات .

---

(١) القلمس معناه البحر .

نسبه أحمد بن عبيد وغيره ، فقالوا : هو حرثان بن الحارث والأصمعي يقول : ابن السموءل بن محرث بن شبابة بن ربيعة بن هبيرة بن ثعلبة بن الظرب ابن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان وهو الحرث بن عمرو بن سعد بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار ، وإنما سمى ذا الإصبع لأن أفعى نهشت إبهام رجله فقطعها ، ويقال إنه كانت له إصبع زائدة انتهى . وقال السيد المرتضى فى أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد : ومن المعمرين ذو الإصبع العدوانى واسمه حرثان بن محرث ابن الحارث بن ربيعة بنَ وهب بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر ابن عَدْوان وهو الحرث بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر وإنما سمى الحرث عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله وقيل بل فقأ عينه ، وقيل إن اسم ذى الإصبع محرث بن حرثان ، وقيل حرثان بن حويرث ، وقيل حرثان بن حارثة ويكنى أبا عدوان ، وسبب لقبه بذى الإصبع أن حية نهشته على إصبعه فشلت فسمى بذلك ، ويقال إنه عاش مائة وسبعين سنة . وقال أبو حاتم : إنه عاش ثلاثمائة سنة وهو أحد حكام العرب فى الجاهلية ، ثم أورد السيد جملا من أحواله إلى أن أورد هذه الحكاية وأوردها الزجاجى أيضاً فى أماليه الصغرى بسندها إلى سعيد بن خالد الجدلى أنه قال : لما قدم عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير دعا الناس إلى فرائضهم فأتيناه فقال : ممن القوم ؟ فقلنا : من جديلة . فقال جديلة عدوان ؟ قلنا : نعم . فتمثل عبد الملك .

عَذِيرَ الحىِّ من عَدْوا ... نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ (١)

بغى بعضُهُم بعضــــاً ... فلم يرعوا على بَعْضِ (٢)

---

(١) اختلف فى العذير فمنهم من جعله مصدرا بمعنى العذر وهو مذهب سيبويه ومنهم من جعله بمعنى عاذر كعليم وعالم والمعنى عنده هات عذرك واحضر عاذرك وامتنع أن يجعله بمعنى العذر لأن فعيلا لايبنى على المصـــدر الا فى الأصوات نحو الصهيل والنهيق والنبيح والاولى مذهب سيبويه لان المصدر يطرد وضعه موضع الفعل بدلا منه لانه اسمه ولا يطرد ذلك فى اسم الفاعل وقد جاء فعيل فى غير الصوت كقولهم وجب القلب وجيبا اذا اضطرب، وقوله كانوا حية الارض اى كانوا يتقى منهم لكثرتهم وعزتهم كما يتقى من الحية المنكرة . (٢) الارعاء الابقاء على اخيك .

ومنهم كانت السادا تُ والموفونَ بالقَرْض

ثم أقبل على رجل كنا قدمناه أمامنا جسيم وسيم ، فقال . أيكم يقول هذا الشعر ؟ فقال : لا أدرى . فقلت من خلفه : يقوله ذو الإصبع فتركنى وأقبل على ذلك الجسيم . فقال : وما كان اسم ذى الإصبع ؟ فقال لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : اسمه حرثان ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال : لم سمى ذا الإصبع ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشته حية على إصبعه . فأقبل عليه وتركنى . فقال : من أيكم كان ؟ فقال : لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : من بنى ناج ، فأقبل على الجسيم فقال : كم عطاؤك ؟ فقال : سبعمائة درهم . ثم أقبل علىَّ فقال . كم عطاؤك ؟ قلت : أربعمائة درهم فقال لكتابه : حط من عطاء هذا ثلاثمائة وزدها فى عطاء هذا فرُحْتُ وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة انتهى . وأورد له من شعره قوله :

أكاشر كالظغن المبين منهم وأضحك حتى يبدُوَ النابُ أجمعُ
وأهدنه بالقول هدناً ولو يرى سريرةَ ما أُخفى لباتَ يفزع

ومعنى أهدنه أسكنه . ومن شعره أيضاً قوله :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ شراشِرَهُ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سَيَلْقَى الشامتون كما لقينا

ومنه قوله أيضا :

ذَهَبَ الذين إذا رأونى مقبلا هَشُّوا إلىَّ ورحَّبوا بالمقبلِ
وهمُ الذين إذا حملت حَمَالَةً ولقيتُهم فكأننى لم أحمل

والحمالةُ بالفتح تحمل دية القتيل عن القاتل ومعنى الشراشر فى البيت السابق الثقل ومنه قوله :

ولى ابن عمٍّ على ما كانَ من خُلُقٍ مختلفان فَأَقْليه ويَقْلِينى
أزرى بنا أننا شالت نَعامَتنا فخالَنى دونه بل خِلْتُه دونى[1]

---

(١) يقال ازرى به اذا قصر وزرى عليه اذا عابه ، وقوله شالت نعامتنا اى تفرق امرنا واختلف والمعنى تنافرنا فصرت لا اطمئن اليه ولا يطمئن الى .

لاهِ ابنُ عمك لاأفْضَلْتَ فى حسب ... عنى ولا أنت ديّانى فَتَخْزُونى(١)

إنى لَعَمْرُكَ مابابى بذى غَلَق ... عن الضيوف ولا خيرى بمَمْنون

ولا لسانى على الأدنى بمنطقٍ ... بالفاحشات ولاأغضى على الهون

ماذا علىَّ وإن كنتم ذوى رحمى ... أن لا أحبكم إن لم تحبونى

ياعمرُو إنْ لم تَدَعْ شتمى ومنقصتى ... أضرِبْك حتى تقول الهامة اسقونى(٢)

كل امرىء صائرٌ يوماً لشيمته ... وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

لا يخرجُ القسر منى غير مغضبة ... ولا ألين لمن لا يبتغى لينى(٣)

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شرح الشواهد للعينى(٤) وكان لذى الإصبع بنات أربع فعرض عليهن أن يزوجهن فأبين وقلن خدمتك وقربك أحب إلينا ثم أشرف عليهن يوماً من حيث لا يرينه فقلن . لتقل كل واحدة ما فى نفسها . فقالت كل منهن شعراً تعرّض به إلى حب الازدواج ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل القصة عند ذكر مناكح العرب وأنه زوّجهن .

***

حكيمات العرب

كان فى نساء العرب أيام الجاهلية ذواتُ كمال ، ووفور معرفة ، ومزيد فطانة وذكاء ، وحدة نظر ، حتى تزينت بذكر مآثِرِهنّ صحف التواريخ ، وقد دونت

---

(١) قوله لاه ابن عمك قال قوم اراد لله ابن عمك وقال ابن دريد : اقسم بالله ابن عمك ، وقوله عنى أى على ، والديان القيم بالأمر المجازى به وتخزونى : تسوسنى سياسة وتخزونى بالخاء والزاى المعجمتين مضارع خزاه خزوا بالفتح ساسه وقهره وملكه وأما الخزى بالكسر وهو الهوان والذل فالفعل منه كرضى . (٢) قوله أضربك حتى تقول الهامة اسقونى ، قال الاصمعى العطش فى الهامة واراد أضربك فى ذلك الموضع اى على الهامة حتى تعطش . وقال آخرون : ان العرب تقول ان الرجل اذا قتل خرجت من راسه هامة تدور حول قبره وتقول اسقونى اسقونى فلا تزال كذلك حتى يؤخذ بثاره وهذا من مذاهب العرب فى الجاهلية ــ راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٣) القسر : القهر أى أن اخذت قسرا لم أزده الا اباء .

(٤) وذكرها القالى فى اماليه ابضا انظر ج ١ ص ٢٥٩

كتب ودواوين مشهورة فى شعرهن وفصاحة كلامهن ، وكانت منهن جملة اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأى فى الحكومة . منهن :

ابنة الخس

وهى هند بنت الخس الأيادية جاهلية قديمة ، وقد أدركت القَلَمَّسَ أحد حكام العرب وقد سبق ذكره . تحاكمت هى وأختها جمعة إليه ومدحته بأبيات منها :

إذا الله جازى منعماً بوفائِهِ فجازاك عنى يا قلمَّسُ بالكرمْ

وبعض الرواة يزعم أنها ماتت فى زمن النعمان عند هند ابنته ويستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

وفيت بعهد كان منك تكرماً كما لابنةِ الخسّ الأيادى وفت هِنْدُ

وليس الأمر كذلك ، وإنما مراد الفرزدق أن هنداً وفت لأختها جمعة ابنة الخس لا أنها عند ابنة النعمان ، وقد ترجمها الشريف المرتضى فى أماليه وذكر طرفاً من أمورها . ولها أسجاع كثيرة وشعر قليل ، وكانت تحاجى[1] الرجال إلى أن مرّ بها رجل فسألته المحاجاة فقال لها : كاد . فقالت : كاد . العروس يكون أميراً . فقال : كاد . فقالت : كاد المنتعل يكون راكباً . فقال : كاد . فقالت : كاد البخيل يكون كلباً . وانصرف ، فقالت له : أحاجيك . فقال قولى . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للسبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت لحفرة بين فخذيك لا يمل حفرها ، ولا يدرك قعرها . فخجلت وتركت المحاجاة . وقد روى الحريرى هذه القصة فى كتابه درة الغواص ونسبها لامرأة من الجن والصواب ما ذكرناه . ومن أسجاعها . قيل لها أى الخيل أحب إليك ؟ قالت : ذو الميعة[2] الصنيع ، السليط التليع[3] ، الآيد

---

(١) يقال حاجيته محاجاة وحجاء فحجوته فاطننه فغلبته .

(٢) يقال ماع الشيء يميع جرى على وجه الارض منبسطا فى هينة والفرس جرى .

(٣) السليط : الشديد . والتليع : الرافع رأسه فى مشيه .

الضليع[1] ، اللهب[2] السريع . فقيل لها : أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت : ذو الهَيْدَب[3] المنبعق ، الأضخم المؤتلق[4] ، الصخب المنبق[5] ، وروى الشريف المرتضى فى أماليه عن ابن الأعرابى أنه قيل لابنة الخس : ما مائة من المعز . قالت : مويل يشف من ورائه مال الضعيف وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لا حمى لها . قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : بخ جمال ومال ، ومنى الرجال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الحمر ؟ قالت : عازبة الليل ، وخزى المجلس ، لا لبن فيحلب ولا صوف فيجز ، إنْ ربط عيرها أدلى ، وإن ترك ولى . وقيل لها : من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . وعن ابن الأعرابى أيضاً قيل لابنة الخس : ما أحسن شيء ؟ قالت غادية فى إثر سارية فى بنخاء قاوية . قال : بنخاء أرض مرتفعة لأن النبات فى موضع مشرف أحسن . وفى أمالى أبى على القالى شيء من أسجاعها . وشعرها جيد ، ومنه قولها :

أشَمّ كَنَصْلِ السيف جَعْد مرجّل ... شغفتُ به لو كانَ شيء مدانيا
وأقسم لو خيرت بين لقائهِ ... وبين أبى لاخترتُ أنْ لا أباليا

والخس بضم الخاء المعجمة وتشديد السين المهملة ابن حابس رجل من إياد قال فى القاموس : وهو أبو هند بنت الُخسّ أو هى من العماليق والأيادية جُمعة بنت حابس كلتاهما من الفصاح انتهى . وأغرب الجواليقى فقال : قال الأصمعى سمعت ناساً يحدثون أن ابنة الخس كانت قاعدة فى جوارٍ فمر بهـــا قطا واردٌ فى مضيق من الجبل . فقالت : يا ليت ذا القطا لنا * ومثل نصفه معه * إلى قطاة أهلنا * إذا لنا قطا مائة * فاتبعت القطا فعدت على المـــاء فإذا هى ست وستون

(١) الآيد : القوى ، والضليع : التام الخلق المجفر والغليظ الالواح والكثير العصب . (٢) هو الذى يجتهد فى عدوه حتى يثير الغبار . (٣) الهيدب : السحاب ما تهدب منه اذا اراد الودق كانه خيوط ، والمنبعق : الســحاب المتصبب بشدة . (٤) ائتلق البرق : لمع واضاء . (٥) الصخب ذو الصياح والجلبة ، والمنبثق : المنفجر .

انتهى[١] والصواب أن صاحبة القطاهى زرقاء اليمامة . وإلى هذه القصة أشار النابغة الذبيانى بقوله من أبيات يخاطب بها النعمان بن المنذر ويعاتبه ويعتذر إليه مما اتهم به عنده :

فاحكم كحكم فتاة الحى إذ نَظرتْ ... إلى حمام شراعٍ وارد الثَّمد
يحفّه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمَد
قالت ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقَدِ
فحسبوه فألفوه كما ذكرت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد[٢]
فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبةً فى ذلك العدد

قال من شرح هذه القصيدة قوله فاحكم كحكم أى كن حكيما كهذه الفتاة أى أصب فى أمرى كإصابتها فى حدسها بالنظر . وأراد بفتاة الحى زرقاء اليمامة . قال الزمخشرى : أبصر من الزرقاء من مستقصى الأمثال هى من بنات لقمان بن عاد ملكة اليمامة ، واليمامة اسمها فسميتْ البلدة باسمها وقيل اسمها عنز وهى إحدى الزُّرق الثلاث أعينها والزباء والبَسوس . وكانت جديسية ، وحين قتل جديس طسما استجاش قبيلة طسم حسان بن تبّع إلى اليمامة فلما صاروا من جو على مسيرة ثلاث ليال صعدت الأطُم[٣] الذى يقال له (الكاب) فنظرت إليهم وقد استتر كل بشجرة تلبيساً عليها فارتجزت بقولها :

---

(١) اقول ان هذه القصة قد تداولها الناس فى كتبهم وتلقوها بالقبول ، وانى لا ارى من المستحيل ان يتفق هذا لاحد مع التساهل فى تجويز الرؤية وسرعتها على أن احصاء هذا العدد والحمام والقطا فى طيرانه كيف يتهيأ وبعضه يتقدم وبعضه يتأخر وبعضه يتسفل وبعضه يستعلى . والأغرب ماذكره النابغة فى بيته :

يحضه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

يريد بجانبى النيق : حافتى الجبل واذا كان الحمام بين جبلين ضاق المكان عليه وركب بعضه بعضا متراكما فيكون أبعد لاحصاء عدده بخلاف ما اذا كان منبسطا فى الجو ، والاغرب أيضا ما يذكرونه من ان زرقاء اليمامة كانت تنتظر الفارس من مسيرة ثلاثة أيام وقد ذكر فخر الدين الرازى فى (السر المكتوم) ما هو أسخف من هذه السخافات والامر لله .

(٢) قوله فحسبوه بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات وبعضهم يخففها ويقول بجواز ذلك فى بحر البسيط ، وألفوه : وجدوه .

(٣) القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح .

أُقسمُ باللهِ لقد دبَّ الشَجَرْ أو حمير قد أخذتْ شيئاً تجر

فـكذبها قومها فقالت : والله لقد أرى رجلا ينهس كتفا أو يخصف نعلا ، فما تأهبوا حتى صبحهم الجيش ولما ظفر بها حسان قال : ما كان طعامك ؟ قالت : درمكة[1] فى كل يوم بمخ . قال فبم كنت تـكتحلين ؟ قالت : بالإثمد وشق عينها فرأى عروقاً سوداً من الإثمدِ وهى أول من اكتحل بالإثمـد من العرب انتهى المقصود منه . ومنهن :

جمعة بنت حابس الإيادى

وكانت من حكيمات العرب ذات فصاحة ومنطق عذب لاتبارى ببيانها وسلاطة لسانها ، وقد سبق أنها أخت هند بنت الخس وأنهما تحاكما إلى القَلَمَّس فى كلام لهما ، وذكرها صاحب القاموس والميدانى فى جملة حكيمات العرب وسبق القول أن جُمعة ليست أخت هند . والأول أشهر . ومنهن :

صحر بنت لقمان

كانت من نساء العرب المشهورات بالعقل والـكمال والفصاحة ، وكانت العرب تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات فى الأنساب وغيرها . وصُحُر بالصاد والحاء المهملتين وكون أبيها لقمان هو الأصح ، وبعضهم يقول : هى أخت لقمان لا بنته والله أعلم . ومنهن :

خصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى

كانت خصيلة من حكيمات العرب كما فى القاموس ومجمع الأمثال ، ولعلها هى التى كان أبوها عامر يقول لهـا (مَسِّى سُخَيْلُ بعدها أو صبّحى) بناء على أنها كانت تسمى سخيلا أيضا . قال الميدانى عند شرحه لهـذا المثل : سخيل جارية

---

(١) الدرمك كجعفر : دقيق الحوارى .

كانت لعامر بن الظرب العدوانى وكان عامر حكم العرب . وكانت سخيل ترعى عليه غنمه ، فكان عامر يعاتبها فى رعيتها إذا سرحت قال : أصبحتِ ياسُخَيل ، وإذا أراحت قال : أمسيت ياسخيل وكان عامر عىّ فى فتوى قوم اختلفوا إليه فى خنثى يحكم فيه وسهر فى جوابهم ليالى فقالت الجارية . أَتْبعه المبال فبأيهما بال فهو هو ففُرِّج عنه وحكم به . وقال مَسى سخيل بعدها أى بعد جواب هذه المسئلة أى لاسبيل لأحد عليك بعد ما أخرجتنى من هذه الورطة ، يضرب لمن يباشر أمراً لا اعتراض لأحد عليه فيه . ومنهن :

حذام بنت الريان

وهى القائلة (لو تُرِكَ القطا ليلا لنامَ) قال المفضل الضبى : أول من قال ذلك جَذامِ بنت الريَّان ، وذلك أن عاطس بن خلاَّج سار إلى أبيها فى حمير وخثعم وجعفى وهَمْدان ولقيهم الريان فى أربعة عَشَرَ حياً من أحياء اليمن فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم تحاجزوا وأن الريان خرج تحت ليلته وأصحابه هراباً فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا وأصبح عاطس فغدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بَلاقِعُ فجرد خيله فانتهوا إلى عسكر الرَيَّان ليلاً فلما كانوا قريباً منه أثاروا القطا ، فمرت على أصحاب الرَيّان فخرجت حَذاَمِ بنت الريان إلى قومها فقالت :

ألا يا قومَنا ارتَحِلوا وسيروا فلو تُرِكَ القطا ليــلاً لناما

أى أن القطا لو ترك لما طار هذه الساعة وقد أتاكم القوم ، فلم يلتفتوا إلى قولها وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من الكلال فقام ديسم بن طارق فقال بصوت عال :

إذا قالتْ حَذامِ فصدِّقوها فإن القولَ ما قالت حَذَامِ

فثار القوم فلجأوا إلى واد كان قريباً منهم فاعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا منهم . قال الميدانى : قلت وفى رواية أبى عبيد أن البيت للجيم بن صعب فى امرأته

حدام ، وقد ذكرته فى باب القاف . قال : وهـذا مثل يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته . هذا ما وقفت عليه من هذا الباب ، وعليك بالـكتب المؤلفة فيه إن أردت الاستيعاب ، وما ذكرته كاف فى المقصود ، ونسأله تعالى التسهيل إنه ذو الـكرم والجود .

الـكلام على أعياد العرب فى الجاهلية وأفراحهم

اعلم أن العيد اسم لـما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً ما تعود السنة أو يعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمـكان بعينه وقد يكون مطلقا وكل من هذه الأمور قد تسمى عيدا ، فالزمان كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيدًا) يعنى يوم الجمعة . والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس (شهدت العيد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فـكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة) والمكان ، كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تتخذوا قبرى عيداً) وقوله صلى الله تعالى عليـه وسلم للّذى نذر أن ينحر بِبُوانة[1] (أَبِها وثن من أوثان المشركين او عيد من أعيادهم ؟ قالا : لا . قال : فأَوْفِ بنذرك . وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من جملة حديث (دعهما يا أبا بكر فإن لـكل قوم عيداً وهذا عيدنا) إذا عرفت ذلك فاعلم أن العرب كانوا فى الجاهلية شِيَعاً متفرقين وفرقاً مختلفين . قال ابن قتيبة فى أديان العرب : إنّ النصرانية كانت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارس بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية فى تميم منهم زُرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب ابن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس فقد كان مجوسياً ،

(١) بوانة كثمامة : هضبة وراء ينبع وماءه لبنى جشم وماء لبنى عقيل .

وأبو الأسود جد وكيع بن حسان فقد كان مجوسياً أيضاً ، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة والمراد بالزندقة هنا عدم الإيمان بالآخرة وبالربوبية ولها غير هذا المعنى وكان بنو حنيفة اتخذوها فى الجاهلية إلهاً من حيْس[1] فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من تميم :

أكلتْ ربَّها حنيفةُ منْ جو ع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفةُ ربَّهـــا زمن التقحُّم والمجاعه

لم يحذَروا من ربهم سوءَ العواقب والتباعه

والتقحم القحط والحيْس الخلط وتمر يخلط بسمن وأقِط فيعجن شديداً ثم يندر[2] منه نواه وربما جعل فيه سويق ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام فى ذلك كله . والمقصود أن العرب لم يكونوا متفقى المذهب ، ولا متحدى المسلك والمشرب ، ولا شك أن الأعياد من الديانات ، ولو احق العبادات ، وإلى ذلك ذهب المفسرون فى قوله تعالى : (ولكلِّ أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) فقد فسروا المنسك بالعيد فلم يكن العرب يومئذ متفقين فى الأعياد ، كما لم يتفقوا فى الدين والاعتقاد ، فلزم أن نبين ما لكل فرقة منهم من الأعياد والمواسم على وجه الإجمال ، ولو ذكرنا ما كان لكل قبيلة من ذلك على وجه التفصيل لطال المقال ، ومن الله نستمد التوفيق وعليه الاتكال .

أعياد المشركين من عبدة الأصنام

كان لعباد الأصنام من العرب فى الجاهلية أعياد كثيرة منها مكانية ومنها زمانية أما « المكانية » فكثيرة ، وهى مواضع أصنامهم وأوثانهم وأمكنة طواغيتهم وكانت الطواغيت الكبار التى كانت تشد إليها الرحال وتتخذ عيداً ثلاثةً : اللات

(١) سيأتى تفسيره . (٢) ندر الشيء ندورا من باب قعد سقط أو خرج من غيره ومنه نادر الجبل وهو ما يخرج منه ويبرز وندر فلان من قومه .

والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه حيث قال : (أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى ألَكم الذَّكَرُ وله الأنثى تلك إذاً قِسْمَةٌ ضيزى)[1] وكل واحد من هذه الثلاثة لمصر من أمصار العرب ، والأمصار التى كانت من ناحية الحرم ومواقيت الحج ثلاثة : مكة والمدينة والطائف ، فكانت اللات لأهل الطائف . ذكروا أنه كانَ فى الأصل رجلاً صالحاً يلُتّ[2] السويقَ للحاج فلما مات عكفوا على قبره مدة ثم اتخذوا تمثاله ثم بنوا عليه بنية سموها بيت الربة . وأما العُزّى فقد كانت لأهل مكة قريباً من عرفات ، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون ، فبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد عقب فتح مكة فأزالها وقسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مالها وخرجت منها شيطانة ناشرةً شعرَها فيئست العُزّى أن تعبد . وأما مَنَاة فكانت لأهل المدينة يهلون لها شركا بالله تعالى ، وكانت حذو قديد الجبل الذى بين مكة والمدينة من ناحية الساحل . وكانت لهم مواسم من السنة مخصوصة للاجتماع فى هذه الثلاثة ، وكانت العرب تَقْصِدُها من كل فَجّ وتعظمها كتعظيم الكعبة ، وكان لها سدنة[3] وحُجّاب ، وكانوا يهدون إليها كما يهدون للكعبة ويطوفون بها وينحرون عندها مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها لعلمهم أنها بيت أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده ، وكان ذو الخلَصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد ، وفى الحديث : (كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبة الشامية ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجرير ألا تريحنى من ذى الخلصة ؟ قال جرير : فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته فدعا لنا

---

(١) أى ناقصة ويقال جائرة ويقال اضازه حقه اذا نقصه وضاز فى الحكم اذا جار فيه وضيزى وزنه فعلى وكسرت الضاد لمياء وليس فى النعوت فعلى .

(٢) لت الرجل السويق لتا من باب قتل بله بشىء من الماء وهو اخف من البس . (٣) يقال سدنت الكعبة سدنا من باب قتل خدمتها فالواحد سادن والجمع سدنة والسدانة باكسر الخدمة .

ولأحمسَ) وفى رواية أخرى فقال رسول جرير : والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ ، قال فبارك فى خيل أحمس ورجالها خمس مرات ، وهذا غير ذى الخلصة الذى نصبه عمرو بن لُحَىٍّ أسفلَ مكة . وكانوا يلبسونه القلائد ويحملون عليه بيض النعام ويذبحون عنده .

وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد وموسم فى كل سنة إذا كان ذلك العيد عاقوا عليها كل ثوب حسن وحلى النساء ثم خرجوا إليها وعكفوا عليها يوماً فابتاع فيمونَ — وكان مؤمناً بعيسى عليه السلام — رجلٌ من أشراف أهل نجران وابتاع صالحاً آخر ، فكان فيمون إذا قام من الليل يتهجد فى بيت له أسكنه إياه سيده فإذا صلى أضاء له البيت نوراً حتى يُصبح ، فأحس بذلك سيده فأعجبه ما يرى منه فسأله عن دينه فأخبره به فقال له فيمون : إنما أنتم فى باطل إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده أهلكها وهو الله وحده لا شريك له فقال سيده فافعل فإنك إن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه . فقام فيمونُ فتطهر وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى عليها فأرسل الله عليها ريحاً فجعفتها أى قلعتها من أصلها فألقتها فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب .

وأما « الزمانية » فهى أيام مسراتهم وأفراحهم لظفرهم على عدوهم ونصرتهم على خصومهم ومحاربيهم ، وذلك إنما يكون بحسب قوم دون قوم ولقبيلة دون أخرى فيتفق فى يوم هو عيد لقوم وسرور وهو لآخرين حزن وبؤس . وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما[1] فلما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة قال لهم (قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر والأضحى) ويوم (السبع) عيد من أعياد قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية يشتغلون فيه باللهو

(١) ذكر بعض شراح الحديث انهما النيروز والمهرجان وكانهم اخذوهما من الفرس .

واللعب ، وكذلك يوم (السباسب) كان عيداً لقوم من العرب فى الجاهلية ، قال النابغة .

رقاقُ النعال طيّب حُجُزاتهم يُحَيّون بالرّيحان يوم السباسب[1]

يقول : هم أعفاء الفروج لا يحلون إزارهم لريبة ، وكانوا إذا حيوا يقدمون مع التحية الريحان لا أنهم يحيون بنفس الريحان . وذلك فى هذا الموسم خاصة وبعض الأدباء عمّم .

أعياد المجوس وهم الفرس وشرذمة من العرب وغيرهم

وهى كثيرة جداً حتى إن علىّ بن حمزة الأصبهانى عمل فيها كتاباً ذكر فيه سبب اتخاذهم لها وسنن ملوكهم فيها فكرهت أن أقتفى أثره فى ذلك خوف التطويل فاقتصرت منها على المشهور الذى أولع الشعراء بذكره ، واعتنى الأمراء بأمره ، وهو (النيروز) و(المهرجان) و (السدق) فأما « النيروز » فهو تعريب نوروز وهو أعظم أعيادهم فيقال : إن أول من اتخذه (جمشاد) أحد ملوك الطبقة الأولى من الفرس وهذا الاسم فى الأصل مركب من جم وهو القمر وشاد وهو الشعاع والضياء وسبب اتخاذهم لهذا اليوم عيداً إن (طمهورة) لما هلك ملك بعده جمشاد فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروزاً أى اليوم الجديد ، ونقل عن بعض المجاميع إن جمشاد ملك الأقاليم السبعة والجن والإنس ، وأنه لما مضى من ملكه ثلثمائة وستة عشر سنة أقبل على عجلة من زجاج عملتها له الشياطين سار بها إلى (دنباوند) إلى (بابل) فى يوم واحد ، وجعل يسير بها فى الهواء حيث شاء ، وأن اليوم الذى ركبها فيه كان أول من شهر (أفروريزماه) وكان مدة ملكه لا يريهم وجهه فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ وافر من الجمال فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً وسموه نوروزاً والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفرس يصفون جمشاد بما وصف

---

(١) الحجزة . بالضم مقعد الازار ومن السراويل موضع التكة .

به سليمان بن داود عليهما السلام ، وأنه كان مجاب الدعوة ، وأنه سأل ربه أن يرفع عن رعيته الموت والسقم فكثر الخلق حتى ضاقت بهم الأرض فسأل ربه أن يوسعها عليهم فأمره أن يأتى جبل (البرز) وهو جبل (قاف) المحيط بالأرض فيأمره أن يتسع ثلثمائة فرسخ فى أدوار الأرض فاتسع ، ثم بعد ذلك طغى وتجبر فذهب بهاؤه وشعاعه وهرب يجول فى الأرض مائة سنة ثم ظَفِر به الضحاك فنشره بالمنشار . ومن الفرس من يزعم أن النيروز هو اليوم الذى خلق الله تعالى فيه النور ، وأنه كان معظماً قبل جمشاد . وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه بالدوران ، ومدته عندهم ستة أيام أولها اليوم الأول من شهر (أفرودريزماه) الذى هو أول شهور سنتهم ويسمون اليوم السادس النيروز الكبير لأن ، الأكاسرة كانوا يقضون فى الأيام الخمسة حوائج الناس على اختلاف طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم .

وحكى ابن المُقَفَّع : أنه كان من عادتهم فيه أن يأتى الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله حسن الاسم والوجه فيقف على الباب حتى يُصبِح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ووقف حيث يراه ، فيقول له الملك : من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك ؟ فيقول : أنا المنصور واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالهنا والسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ، ثم يجلس ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة وعليه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وأرز ، من كل جنس سبع سنابل وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان فيضع الطَبَق بين يدى الملك ، ثم تدخل عليه الهدايا ويكون أول من يدخل عليه وزيره ثم صاحب الخراج ثم صاحب المئونة ثم الناس على مراتبهم ، ثم يقدّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب موضوع فى سلة فيأكل منه ويطعم من حضره ، ثم يقول : هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد يحتاج

إلى أن نجدد فيه ما أخلق الزمان ، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه مملكته ويَصِلهم ويفرق فيه ما حمل إليه من الهدايا . وأما عوام الفرس فكانت عادتهم إيقاد النار فى ليلته ورش الماء فى صباحه ، وزعموا أن إيقاد النار فيه لتحليل العفونات التى أبقاها الشتاء فى الهواء وقيل : إنما فعلوا ذلك تنويهاً بذكره وإشهاراً لأمره . وقيل فى رش الماء إنما هو بمنزلة النُّشْرَةِ[١] لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة فى ليلته . وقال آخرون : إن سبب رش الماء أن فيروز بن يزدجرد لما استتم بناء سور (جَىّ)[٢] وأصبهان القديمة لم يقع المطر سبع سنين من ملكه ، ثم مطرت فى هذا اليوم ففرح الناس بالمطر فصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به فصار ذلك سنة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام[٣] . وكثيراً ما نحا الناس هذا النحو لموافاته إياهم بالكدر بدلاً عن الصفو . وعند القبط بمصر عيد يسمونه (النيروز) أيضاً ويتخذونه فى رأس سنتهم ويسميه نصارى الشام (القلنداس) وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور وإيقاد النيران وصب المياه ضعف ما يفعله الفرس ويشاركهم فى ذلك العوام من المسلمين إلا أن أهل مصر يزيدون فيه التصانع بالنطاع ، وربما حملهم ترك الاحتشاد على أن يجترئوا على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك لمنعوا الطريق من السالك وهم مع هذا من ظَفِروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم من الفداء ، كما يفعل بمن حصل فى أيدى الأعداء ، ويقال إن أول من عمل نيروز القبط أشمود بن قبطم ابن مريم أحد ملوك القبط الأول ، وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأول من رفع ذلك عمر بن عبد العزيز ،

(١) بالضم رقية يعالج بها المجنون والمريض (٢) بالفتح لقب اصبهان قديما
(٣) وما احلى قول بعضهم يخاطب من يهواه ويذكر مايعتمد فى النيروز من شب النيران وصب الافواه :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى	وكل مافيه يحكينى واحكيه
فتارة كلهيب النار فى كبدى	وتارة كتوالى عبرتى فيه
اسلمتنى فيه ياسؤلى الى وجب	فكيف تهدى الى من أنت تهديه

واستمر ذلك إلى أن فتح الهدية فيه (أحمد بن يوسف الكاتب) فانه أهدى فيه للمأمون سفطاً ذهبٍ فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه وكتب معه هذا يوم جرت فيه العادة ، بألطاف العبيد للسادة ، وقد قلت :

على العبد حقٌ وهو لاشك فاعلهُ   وإنْ عَظُمَ المولى وجَلَّتْ فواضِلَهُ[1]

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز : هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك وتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ولم أجد فيما أملك مايفى بحقك ، ووجدت تفريطك أبلغ من أداء مايجب لك ومن لم يؤت فى هدية إلا من جهة قدرته ، فلا طعن عليه فى همته . ولم يزل الناس على سنن الفرس فى استجباء الخراج عند دخول النيروز حتى دخل عليهم الخلل فى دور السنين فحاولوا أن يؤخروه وذلك فى زمن هشام بن عبد الملك ، وبذلوا لخالد ابن عبد الله القسرى مائة ألف دينار على ذلك فكتب فيه إلى هشام ، فكتب إليه هشام : أخاف أن يكون هذا من النسىء الذى قال الله تعالى فيه : إنما النسىء زيادة فى الكفر . فامتنع خالد من ذلك ثم سئل يحي بن خالد بن برمك فى أيام الرشيد أن يؤخر النيروز إلى شهرين فعزم على ذلك فبلغه أن قوماً قالوا أراد أن ينصر المجوسية فامتنع من ذلك إلى أن رأى المتوكل وقد ركب للصيد يوم النيروز والزرع لم يسبل بعد وقال : قد استؤذنت فى فتح الخراج والزرع لم يسبل بعد فعرّفه إبراهيم بن عباس الصُولى أن الأكاسرة كانت تسقط فى كل عشرين ومائة سنة شهراً ، وإن الروم طرحت بعد موت الإسكندر من كل أربع سنين يوما وربع يوم ، وإنما فعلوا ذلك لأن الشمس تقطع الفلك فى كل ثلثمائة وستين يوما وربع يوم فيجمع من هذا الربع يوم فى كل أربع سنين فيطرح وتسمى هذه السنة

[1] ويروى بعده :

الم ترنا نهدى الى الله ما له   وان كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدى للجليل بقدره   لقصر عنه البحر يوما وساحله
ولكننا نهدى الى من نجله   وان لم يكن فى وسعنا ما نشاكله

كبيسة فلما جاء الإسلام عملوا على رسم دواوين العجم من غير أن يطرحوا هـذا اليوم ، فأمر المتوكل الْحُسَّابَ أن يحسبوا ماطرحوه فحسبوا الذى مضى من السنين التى لم تكبس فيها بعد ذهاب الفرس فوجدوه مائتين وخمسين سنة فجعلوا لكل مائة وعشرين سنة شهراً ، فوافق السابع عشر من حزيران ، وأمر أن يجمل النيروز فى هذا اليوم ، وأن لايفتح الخراج إلا فيه ، وكان هـذا فى أواخر سنة اثنتين وأربعين ومائتين . ثم قدّم فى أيام المعتضد إلى الحادى عشر من حزيران تحريراً للحساب الأول ، ونقلت فى أيام المطيع لله سنة خمسين وثلثمائة الخراجية إلى سنة أحدى وخمسين .

وأما « المهرجان » فوقوعه فى السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان ، ومن شهور الفرس فى السادس عشر من مهرماه وهذا الأوان وسط زمن الخريف ولهذا قال الشاعر :

أَحِبُّ المهرجان لأَنَّ فيه سروراً للملوك ذوى السناء
وباباً للمصير إلى أوانٍ تفتحُ فيـه أبواب السماء

وهو ستة أيام ويسمى اليوم الثالث المهرجانِ الأكبر . قال المسعودى وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يسمى مهراً يسير فيهم بالعنف والعسف فمات فى نصف الشهر الذى يسمونه مهر ماه ، ومعنى ماه القمر فسمى ذلك اليوم مهرجان وتفسيره : نفس مهر ذهبت لأن العجم يقدمون المضاف إليه على المضاف بخلاف العرب ، وهذه اللغة لغة الفرس الأولى وتسمى الفهلوية ويقال مهر وفاء وجان سلطان وكان معناه سلطان الوفاء . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح[1] . ويقال : إنما ظهر فى عهد إفريدون الملك ، ومعنى هذا الاسم أدراك النار بعده عن دين المجوسية

(١) وفى ذلك يقول عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر :

اذا ما تحـقق بالمهرجـا ن من ليس يعرف معناه غاظا
ومعناه ان غلب الفرس فبه فسموه الروح فيه حفاظا

وسبب اتخاذهم له أن بيوراسب وهو الضحاك[1] . ويقال له الإزدهاق ذو الجثتين

(١) قال ابن الاثير فى الكامل ذكر بيوراسب وهو الازدهاق الذى يسميه العرب الضحاك قال واهل اليمن يدعون أن الضحاك منهم وانه اول الفراعنة وكان ملك مصر لما قدمها ابراهيم الخليل .

والفرس تذكر انه منهم وتنسبه اليهم وانه بيوراسب بن ارونداسب ابن رينكال بن وندريشتك بن يارين بن فروال بن سيامك بن ميشى بن جيومرث ومنهم من ينسبه هذه النسبة .

وزعم اهل الاخبار انه ملك الاقاليم السبعة وانه كان ساحرا فاجرا ، قال هشام ابن الكلبى ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون والله أعلم ألف سنة ونزل السواد فى قرية يقال لها برس فى ناحية طريق اكوفة وملك الارض كلها وسار بالفجور والعسف وبسط يده فى القتل وكان أول من سن الصلب والقطع واول من وضع العشور وضرب الدراهم واول من تغنى وغنى له ، قال وبلغنا أن الضحاك هو نمروذ وان ابراهيم عليه السلام ولد فى زمانه وانه صاحبه الذى اراد احراقه .

وتزعم الفرس أن الملك لم يكن الا للبطن الذى منه أوشهبنجوجم وطهمورث وان الضحاك كان غاصبا وانه غصب أهل الارض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه وقال كثير من أهل الكتب ان الذى كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كراس التعبان وكان يسترهما بالثياب ويذكر على طريق التهويل انهما حينان يقتضيانه الطعام وكانتا تتحركان تحت ثوبه اذا جاعا . ولقى الناس منه جهدا شديدا وذبح الصبيان لان اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضربانه فاذا طلاهما بدماغ انسان سكنتا فكان يذبح فى كل يوم رجلين فلم يزل الناس كذلك حتى اذا اراد الله هلاكه وثب رجل من العامة من أهل اصبهان يقال له كابى بسبب ابنين له اخذهما اصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه، واخذ كابى عصا كانت بيده فعلق بطرفها جرابا كان معه ثم نصب ذلك كالعلم ودعا الناس الى مجاهدة بيوراسب ومحاربته فاسرع الى اجابته خلق كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور فلما غلب كابى نفاءل الناس بذلك العلم فعظموه وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الاكبر الذى يتبركون به وسموه درفش كابيان فكانوا لايسيرونه الا فى الامور الكبار العظام ولا يرفع الا لأولاد الملوك اذا وجهوا فى الامور الكبار ، وكان من خبر كابى انه من أهل اصبهان فثار بمن اتبعه فالتفت الخلائق اليه فلما أشرف على الضحاك قذف فى قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منازله وخلى مكانه فاجتمع الاعجام الى كابى فاعلمهم انه لا يتعرض للملك لانه ليس من أهله وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم لانه ابن الملك أوشهبنج الاكبر ابن فروال الذى رسم الملك وسبق فى القيام ، وكان أفريدون بن اثفيان مستخفيا من الضحاك فوافى كابى ومن معه فاستبشروا بموافاته فملكوه وصار كابى والوجوه لافريدون أعوانا على امره فلما ملك وأحكم ما احتاج اليه من أمر الملك واحتوى على منازل الضحاك وسار فى اثره فأسره بدنياوند فى جبالها .

وبعض المجوس تزعم انه وكل به قوما من الجن وبعضهم يقول انه القى سليمان بن داود وحبسه سليمان فى جبل دنباوند وكان ذلك الزمان بالشام فما برح بيوراسب بحبسه يجره حتى حمله الى خراسان فلما عرف سليمان

والأفواه الثلاثة والأعين الستة الداهية الخبيث المتمرد لما قتل جمشاد وملك . جاءه إبليس فى صورة خادم فقبل منكبيه فبدت فيهما حبتان وكانت تؤلمه فوصف له أدمغة الناس فقتل كل يوم غلامين لذلك فأجحف قتل الولدان بالرعية فخرج رجل بأصبهان يقال له (كابى) وعقد لواء من سنبك جدى ، وقيل من جلد أسد ودعا الناس إلى محاربة الضحاك فاجتمع له خلق كثير ، وشخص إلى الضحاك فهابهم وهرب منهم فاجتمع الفرس إلى (كابى) ليملكوه عليهم ، فقال : ما أنا من أهله وذكر لهم أن معه صبياً من ولد جمشاد يسمى أفريدون ، فقال : أرى أن تملكوه وتعيدوا الملك إلى أهله . فملكوه فخرج أفريدون فى طلب الضحاك فوجده فأخذه وشده وحبسه فى جبل دنباوند ، وجعل ذلك اليوم عيداً وسماه المهرجان . ويقال إن ذلك اللواء لم يزل عند الفرس مغشى بالديباج المذهب المرصع بضروب الجواهر ، وكان يسمى (درفس كابى) ومعنى درفس قائم ، وكانت ملوك الفرس لا تخرجه إلاّ فى يوم حرب تبركا به ، ولا يحمل إلاّ على رأس ملك أو ولى عهد ، ولم يزل عندهم إلى أن جاء الإسلام فحمل على رأس رستم فى وقعة القادسية ، فلما هزمت الفرس وقتل رستم صارت هذه الغنائم إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقوّمت بألفى ألف ومائتى ألف وثلاثين ألف درهم . وقيل : كان أخذها يوم فتح المدائن . وقيل : يوم فتح نهاوند . وزعم بعض الفرس أن الضحاك هو نمروذ ، وأفريدون هو إبراهيم عليه السلام . ويقال : إن المهرجان هو اليوم الذى

ذلك امر الجن فاوثقوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسما كرجلين يدقان باب الغار الذى حبس فيه ابدا لئلا يخرج فانه عندهم لا يموت . وهذا ايضا من اكاذيب الفرس الباردة ولهم فيه اكاذيب اعجب من هذا تركنا ذكرها .

وبعض الفرس يزعم ان افريدون قتله يوم النيروز فقال العجم عند قتله امر وزنوروز اى استقبلنا الدهر بيوم جديد فاتخذوه عيدا وكان اسره يوم المهرجان فقال العجم امد مهرجان نقتل من كان يذبح وزعموا انهم لم يسمعوا فى امور الضحاك بشيء يستحسن غير شيء واحد وهو ان بليته لما اشتدت ودام جوره تراسل الوجوه فى امره فاجمعوا على المصير الى بابه فوافاه الوجوه فاتفقوا على أن يدخل عليه كابى الاصبهانى فدخل عليه ولم يسلم فقال ايها الملك اى السلام عليك سلام من يملك الاقاليم كلها ام سلام من يملك هذا الاقليم ، فقال بل سلام من يملك الاقاليم كلها لانى ملك الارض .

هذا ما اردنا ذكره توضيحا لما أجمل فى الاصل ايس الا .

عقد فيه التاج على رأس أزدشير بن بابك أول ملوك الفرس الساسانية وقال عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :

أخا الفُرسِ إنّ الفرسَ تعلم أنه . لأطيبُ من نيروزِها مهرجانُها
لإدبار أيام يغمُّ هواؤهـــا وإقبـــال أيام يسر زمانها

وكان مذهب الفرس فيه أن تدهن ملوكهم بدهن البان تبركا وكذلك عوامهم وأن يلبس العصب والوشى وأن يتتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها ، ويكون أول من يدخل عليها الموبذان بطبق فيه أترجة وقطعة سكر ونبق وسفرجل وعناب وتفاح وعنقود عنب أبيض وسبع طاقات آس قد زمزم عليها ، ثم تدخل الناس على تفاوت طبقاتهم بمثل ذلك . وكان أزدشير وأنوشيروان يأمران بإخراج مافى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفرش فيفرق كلها فى الناس على مراتبهم ويقولان . إن الملوك تستغنى عن كسوة الصيف فى الشتاء وعن كسوة الشتاء فى الصيف ، وليس من أخلافهم أن تجبى كسوتهم فى خزائنهم وتساوى العامة فى فعلها . وزعم أصحاب التاريخ أن النيروز عملته الفرس قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة . وكانوا يهدون فى النيروز والمهرجان المسك والعنبر والعود الهندى ويعرضون فى النيروز عن الزعفران الكافور . وأما « السدق » ويعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر أيارماه ويسمى هذا اليوم عند الفرس روزابان لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم أسماء ويقال فى سبب اتخاذهم له : إن فراسياب لما تملك سار إلى بلاد بابك فأكثر فيها الفتنة وخرب ما كان عامراً منها فخرج عليه زفرب بن طهماز شب فطرده عن مملكة فارس إلى بلاد الترك . وكان ذلك فى يوم روزابان فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً وجعلوه ثالثاً لعيدى النيروز والمهرجان ، ولما تملك وضع عن الناس خراج سبع سنين فعمرت البلاد . ويقال أيضاً فى سبب اتخاذهم لهذا العيد : إن الأب الأول وهو عندهم كيومرت لما كمل له من بنيه مائة ولد زوج الذكور بالإناث وصنع لهم

عرساً أكثر فيه من إيقاد النيران ، وَقد وَافق هذا تلك الليلة المذكورة فاستنت ذلك الفرس بعده وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان وَيزيدهم الولوع بها حتى أنهم يلقون فيه سائر الحيوانات .

وللفرس أعياد دون ما ذكرناه . منها عيد يسمى « نيركان » زعموا أنه لما وقعت المصالحة بين منوجهر وفراسياب التركى على أن يعطى فراسياب منوجهر من المملكة قدر رمية سهم فانبروا رجلا يقال له آيس ، وكان مؤيداً فى الرمى فغرز سهماً فى قوسه وَرمى وامتدَّ السهم من جبال طبرستان إلى أعالى طخرستان ، وهذا يكون فى الثالث عشر من تيرماه . وأيام « الفيروزجان » وهى خمسة أيام أولها السادس والعشرون من أبان ماه ومعناه تربية الروح لأنهم كانوا يصنعون فيها أطعمة وأشربة لأروَاح موتاهم ، وَيزعمون أنها تأتى وتغتذى بها « وركوب الكوسج »[1] يعمل فى أوّل يوم من آذرماه . وَسُنتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كوسج قد أعدَّ لما يَصنع به يأكل الأطعمة الحارَّة ويشرب الشراب الصرف أياماً قبل حلول الشهر ، فإذا حل لبس غلالة صبورية وركب بقرة وأخذ على يده غراباً ، وَيتبعه الناس يصبون عليه الماء وَيضربون وجهه بالثلج ويُروِّحون عليه بالمراوح وهو يصيح بالفارسية كرم كرم . ومعناه : الحرّ الحرّ ، يفعل ذلك سبعة أيام ومعه أوْباش الناس ينهبون ما يجدون من الأمتعة فى الحوانيت ، وللسلطان عليهم مال فإذا وُجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا . ويقال : إن هذا الفعل كان يتداوَله أهل بيت كل منهم كوسج . وَحكى الزمخشرى فى كتاب (ربيع الأبرار) فى سببه : أن كوسجاً كان يشرب فى هذه الأيام وَيطلى بدنه فيها فعملته الفرس . وفى ركوبه يقول الشاعر :

قد ركب الكوسجُ يا صاحِ فالتذَّ بالمزهرِ وَالراحِ
وَأنعم بآزرماه عيشًا وخذ من لذة العيش بمفتاحِ

(١) الكوسج معرب كوسه بمعنى ناقص الشعر وقيل ناقص الاسنان والاول هو المعروف واشتقوا منه فعلا فقالوا من طالت لحيته تكوسج عقله ، ويقال كوسق وهو اسم سمكة وهو معرب أيضا .

و « عيد بهمنجه » يتخذونه فى يوم بهمن فى شهر بهمن ماه يؤكل فيه بهمن الأبيض باللبن الخالص على أنه ينفع الحفظ ، ورؤساء خراسان كانوا يعملون فيه الدعوات على طبيخ فيه كل حب مأكول ولحم كل حيوان يؤكل ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

أعياد القبط والنصارى

قال الشيخ شهاب الدين الحموى فى كتابه (عجائب المخلوقات) : للقبط أربعة عشر عيداً سبعة يسمونها كباراً وسبعة يسمونها صغاراً فالكبار :

« البشارة » ويعنون بها بشارة (غبريال) وهو جبريل عليه السلام على زعمهم لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه يعملونه فى اليوم التاسع والعشرين من برمهات من شهور القبط .

و « الزيتونة » وهو عيد الشعانين وتفسيره التسبيح يعملونه فى سابع أحد من صومهم وكانت سنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ركوب المسيح العفو فى القدس وهو معنى الحمار ودخوله صيور وهو راكب والناس يسبحون بين يديه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

و « الفصح » وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام وخلص آدم من الجحيم وأقام فى الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء ، وكان يوافق فصح اليهود قبل زمان قسطنطين . ولما تنصر قسطنطين وانين واجتمع الأساقفة حينئذ على وضع الأمانة وهى العقيدة التى يدين بها جميع فرق النصارى فاتفقوا أيضاً على مخالفة اليهود فى الفصح فأخروه عنه وجعلوه يوم الأحد .

و « خميس الأربعين » ويسميه الشاميون (السلاق) وهو الثانى والأربعون من الفطر يزعمون أن المسيح عليه السلام تسلق فيه من بين تلاميذه إلى السماء بعد القيام ووعدهم إرسال (الفار قليط) وهو روح القدس .

و « عيد الخمسين » وهو العنصرة يعمل بعد خمسين يوماً من عيد القيام يقولون إن روح القدس حلت فى التلاميذ وَتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة وَراح كل واحد منهم إلى بلاد لسانه يدعونهم إلى دين المسيح عليه السلام .

و « الميلاد » وهو الذى ولد فيه المسيح عليه السلام . يقولون : إنه وُلد يوم الاثنين وَيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد وهم يقدون فيها المصابيح بالكنائس ويزينونها ، وَوُلد صلوات الله عليه ببيت لحم قرية من أعمال فلسطين يعمل فى التاسع وَالعشرين من كيفكر من شهور القبط . وَقال المسعودى : يوم الأربعاء لستّ من كانون الثانى ، وكانت مريم عليها السلام يوم وَلدته بنتَ ثلاث عشرة سنةً .

و « الغطاس » ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم ، يقولون إن يوحنا وهو يحي بن زكريا عليهما السلام غمس بالمعمدان ، وفيه غسل عيسى عليه السلام فى بحيرة الأردن . وَيزعمون أنه لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة وَالنصارى يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم وَوَقته شديد البرد . وَرأيت فى بعض الكتب هذه الأعياد ، وَذكر فيه يوم ظهور المجوس وأنهم أهدوا له دقيقاً وَلبانًا وَتمرًا وَهو يوم النجم .

وَأما الأعياد الصغار « فالختان » ويعمل فى سادس (بُونة) وَيقولون : إن المسيح ختن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

وَ « الأربعون » عيد دخول الهيكل ، يقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه وَبارك عليه ويعمل فى ثامن أمشير .

و « خميس العهد » ويعمل قبل الفطرِ بثلاثة أيام وسنتهم فيه أنهم يأخذون إناء وَيملأونه ماء وَيُزمزمون عليه ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس وَيزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلمهم التواضع وَأخذ

عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض والعامة من النصارى يسمون هذا الخميس (خميس العدس) لأنهم يطبخون فيه العدس على ألوان شتى ويسميه أهل الشام (خميس الرز وكان) ويسميه أهل الأندلس (خميس إبريل) وهو اسم شهر من شهور الروم .

و « سبت النور » وهو قبل الفصح بيوم يقولون : إن النور يظهر على مقبرة المسيح فى هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس وما ذلك إلا من التخيلات النيرنجية التى يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها العقول الضعيفة وذلك أنهم كانوا يعلقون القناديل فى بيت المذبح ويتحيلون فى إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطاً من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدهن البَلَسان ودهن الزنبق فإذا صلوا وحان وقت الزوال فتحوا المذبح فدخل الناس إليه وقد اشتعلت فيه الشموع ويتوصل به بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط النار فتسرى عليه فتتقد القناديل واحد بعد واحد إذ من طبيعة دهن البلسان علوق النار فيه سريعا بأدنى ملامسة له فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل وكذلك اتخذوا شريطاً دقيقاً من حديد مدهون بهذا الدهن منصوبا من أعلى القبة إلى فتيلة قنديل معلق فى وسط القبة فيوقد طرف الشريط فتسرى النار فيه إلى الفتيلة فتشتعل . وقد أراد بعض ملوك الشام من بنى أيوب إبطالها فقيل له : إنك تحصل بهذا كثيراً من المال فى كل سنة فكف عنها وتركها .

و« الأحد الجديد » وهو بعد الفصح بثمانية أيام يعمل أول أحد بعد الفطر لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس ومنه يأخذون فى العدد للمعاملات والقبالات والأمور الدنيوية .

و « التجلى » يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع فى هذا اليوم وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى عليهما السلام فأحضرهما لهم بمصلى

بيت المقدس ثم صعد وصعدوا ويعمل فى ثالث عشرة مسرى .

و « عيد الصليب » وتزعم النصارى أن قُسْطنطين بن هيلانة انتقل من اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية فيه وبنى كنيسة قُسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون فى سبب ذلك أنه كان مجاوراً للرومان فضاق بهم ذرعاً من كثرة غاراتهم على بلاده فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه أتاوة فى كل عام ليكفوا عنه فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان فحاربت الرومان فانهزموا فلما أصبح عمل أعلاماً وصور فيها صلباناً ثم قاتل فيها الرومان فهزمهم . وقيل : إنه رأى فى المنام صليباً من بعد فى السماء وقائلا يقول : اعمل مثل هذا على رؤس أعلامك فإنك تنتصر . فلما أصبح أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤس أعلامه وقاتل بها ونصر فسأل من كان فى بلده من التجار الذين طافوا فى بلاد الدنيا فقالوا له هذا دين النصرانية ، وإنه فى بلد الخليل من أرض الشام فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه وأن يقصوا شعورهم ويحلقو لحاهم ، وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبل أن يأمروهم بالتعبد بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومثلوا بهم بهذه المثلة نكالًا ففعلوا ذلك تأسّياً أى اقتداء بهم ولما انتصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة إلى الشام ، فبنت فيه الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح على ما تزعم النصارى وكانت مدفونة فى مربطة عظيمة فأخرجت منها وفيها موضع سبعة مسامير ، وكانت اليهود قد وثبت على يعقوب بن يوسف أخى عيسى فى الصليبية على زعم النصارى ببيت المقدس فألقوه من أعلى الشكل (لعله الهيكل) فمات لا متناعه من الرجوع إلى دينهم ومقامه على دين النصرانية وهدموا البِيعَةَ وأخذوا خشبة الصلب وخشبتى اللصين اللذين صلبا معه على زعمهم فدفنوهم فى قبر واحد . وهذه الأعياد عندهم يصومونها

وإذا كان أحدهم فى موطن أو قرية لا يرتحل حتى يعيد فلما حملت إليها غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها ، فعمل من المسامير لجاماً لفرسه وعمل صليباً من ذهب ووضعه على جبهته واتخذت يوم رؤيتها لها عيداً وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول ووافق ذلك سبع عشرة ليلة من توت من شهور القبط . قال المسعودى وكان من مولد المسيح إلى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلاثمائة وثمان وعشرون سنة .

أعياد اليهود

وهى على ما ذكره الحموى أيضاً خمسة نطقت بها التوراة بزعمهم وهى « عيد رأس السنة » يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه (عيد رأس هيشا) أى عيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون إن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده اسحق فيه وفداه بذِبْح[1] عظيم .

و « عيد صوماريا » ويسمى (الكبور) وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم صومه ، ومدة الصوم خمسة وعشرون ساعة يبتدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين وتختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر ، ولهذا ربما يسمى العاشور ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنى بالمُحْصَنَةِ وظلم الرجل أخاه وجحده لربوبية الله تعالى .

و « عيد المظال » وهو ثمانية أيام أولها الخامس عشر من تشرين وكلها أعياد ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا . تفسيره : شجر الخلاف . وهو أيضاً حج لهم وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون والخلاف وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك

(١) الذبح بكسر الذال ما ذبح ، والذبح بضمها المصدر .

تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام . وكيفية عمل هذه الظلال أن يصنع كل من أمكنه فى بيته طارمة من قصب وسقفها من الجريد الأخضر وسعفه ويترك داخلها أسفار التوراة . ومنهم من يوزرها بالديباج ومتى زالت من السعف سعفه حتى تدخل الشمس المكعب فسد عليه عيده ، وتكون هذه الظلة فى علو الدار تحت السماء ويعمل كل واحد فى أول يوم من هذه الأيام الثمانية قبضة مرسين فيها ثلاثة عيدان فى كل عود ثلاثة أغصان بعضها أعلى من بعض فى كل غصن ثلاثة أوراق وفى وسطها قلب من سعف النخل مستقيم طوله ثلاث قبضات ، وعود من الصفصاف وأترجة سالمة من الخدوش صحيحة من التعفن ويحمل ذلك إلى البيعة ويودع عند القمص ، وإذا كان قبل يوم من الأيام الثمانية دخلوا البيعة وصلوا وأعطى قيم البيعة إلى كل رجل منهم بيده اليمنى قبضة ، وبيده اليسرى الأترجة فيكون فى أيديهم وهم قيام . ويقرأ عليهم مزموراً من المزامير ، فإذا فرغ من المزمور سلم عليهم الختران وهو المعلم وقرأ عليهم شيئاً من التوراة فإذا فرغ من القراءة صلى صلاة ثانية قرب الظهر . ومنهم من يبرد إلى العصر فى بيته ، ومنهم من يعلم القيم وينصرف .

و « عيد الفطير » ويسمونه الفصح فيكون فى الخامس عشر من نيسان وهو سبعة أيام أيضاً يأكلون فيها الفطير وينظفون فيها من خبز الخمير لأنها عندهم الأيام التى خلص الله تعالى بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه فخرجوا إلى أرض التيه ، وجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفى آخر هذه الأيام غرق فرعون واتفق أن كان القمر فى ذلك اليوم تام الضوء فأمروا بحفظ ذلك اليوم فصاروا يراعون وقوعه فى ذلك الزمن .

و « عيد الأسابيع » وهى الأسابيع التى فرضت فيها الفرائض وكمل فيها الدين ، ولهم فيها حساب طويل امتطوا فيه مطىّ التعسف ، ويسمى (عيد العنصرة) و (عيد الخطاب) . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، ويقولون : إنه اليوم

الذى خاطب الله تعالى فيه بنى إسرائيل من طور سيناء ، وفى جملة هـذا الخطاب الـكلمات العشر ، وهى وصايا تضمنت أمراً ونهياً وتضمنت التوفيق ، وهو حج من حجوجهم ، وحجوجهم ثلاثة الأسابيع والفطير والمظال وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطايف ويتفننون فى عملها ويجعلونها بدلاً عن المنّ الذى أنزل عليهم فى هذا اليوم على ما يزعمون . واتخاذهم لهذا العيد السادس من سيوان ، ويسمى عشرتا مشتق من الاجتماع . و « عيد الفوريم » وهو عيد أحدثوه ويسمونه الفوريم ، وذكر فى سبب اتخاذهم له أن بختنصر لما أجلى من كان ببيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم أسكنهم (بجَىَّ) وهى إحدى مدينتى أصفهان ، ثم ذهبت أيام الـكلدانيين ، وملـكت الفرس الأولى والأخيرة . فلما ملك أزدشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية احشويرش . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هامان ، ولليهود يومئذ حبر يسمونه بلغتهم مردخاى ، فبلغ أزدشير أن له ابنة عم من أحسن نساء أهل زمانها وأكملهن عقلا ، فطلب تزويجها منه فأجاب لذلك فحظيت عنده حظوة صار بها مردخاى قريباً منه فأراد هامان إصغاره واحتقاره حسدا له وعزم على إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملـكة أزدشير ، فرتب مع نواب الملك فى سائر الأعمال أن يهلك كل واحد منهم من بعمله من اليهود ، وعين له يوماً وهو النصف من آذار وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفى فيه ، وأراد بذلك المبالغة فى نـكايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى عليه السلام ، فانضح لمردخاى ذلك من بطانة هامان فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم هامان فى أمر اليهود وسألها إعلام الملك بذلك وحضها على إعمال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها ، فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصحنا لك ، فأمر بقتل هامان وقتل أهله وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان فى ذلك اليوم فاتخذوه عيداً واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام . وهذا العيد عندهم عيد

سرور ولهو وخلاعة يهدى بعضهم فيه إلى بعض ، ويصورون من الورق صورة هامان ويملأون بطنها نخالة وملحاً ويلقونها فى النار حتى تحترق يخدعون بذلك صبيانهم .

و « عيد الحنكة » وهو أيضاً مما أحدثوه ، وهو ثمانية أيام أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا ، ويقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفى الثانية سراجين وهكذا إلى أن يكون فى الثانية ثمانى سرج . وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك ببنى إسرائيل وافتض أبكارهم ، فوثب عليه أولاد كاهنهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لوقيد الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم فى كل ليلة إلى تمام ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه (الحنكة) وهو بمعنى التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار . وبعضهم يسميه (عيد التبريك) . وقيل : إن عيد التبريك كان فيه استتمام نزول التوراة وسلمت إلى أئمتهم لتوضع فى الهيكل . وهم يخرجون فيه التوراة ويتبركون فيها .

القول فى أعياد المسلمين

ولما انجرّ الكلام إلى ذكر غالب أعياد الأمم ، وبيان عاداتهم وسننهم فى مواسمهم على الوجه الأتم ، اقتضى ذلك أن نذكر ما اشتهر من أعياد المسلمين على سبيل الاختصار ، إذ قد بسط الكلام عليها العلماء الأخيار ، فنقول : قد أسلفنا أنه كان لكل قوم من الأمم يوم يتجملون فيه ويخرجون من بلادهم بزينتهم وتلك عادة لاينفك عنها أحد من طوائف العرب والعجم ، وقد قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال ما هذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال : قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر قيل : هما النيروز والمهرجان ، وإنما بدلا لأنه ما من عيد

فى الناس إلا وسبب وجوده تنويه بشعائر دين أو موافقة أئمة مذهب أو شىء مما يضاهى ذلك نخشى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن تركهم وعاداتهم أن يكون هنالك تنويه بشعائر الجاهلية أو ترويج لسنة أسلافهم فأبدلها بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفة ، وضم مع التجمل فيهما ذكر الله وأبواباً من الطاعات لئلا يكونَ اجتماع المسلمين بمحض اللعب ولئلا يخلوَ اجتماع منهم من إعلاء كلمة الله إحداهما : يوم فطر صيامهم وأداء نوع من زكاتهم فاجتمع الفرح الطبيعى من قبل تفرغهم عما يشق عليهم وأخذ الفقير الصدقات ، والعقلى من قبل الابتهاج مما أنعم الله عليهم من توفيق أداء ما افترض عليهم وأسبل عليهم من إبقاء رءوس الأهل والولد إلى سنة أخرى . والثانى : يوم ذبح إبراهيم ولده إسماعيل وإنعام الله عليهما بأن فداه بِذِبْحٍ عظيم . إذ فيه تذكر حال أئمة الملة الحنيفة والاعتبار بهم فى بذل المهج والأموال فى طاعة الله تعالى وقوة الصبر وفيه تشبه بالحاج وتنويه بهم وشوق لما هم فيه ولذلك سن التكبير وهو قوله تعالى (ولتكبروا الله على ما هداكم) يعنى شكراً لما وفقكم للصيام ، ولذلك سن الأضحية والجهر بالتكبير أيام منى واستحب ترك الحلق لمن قصد التضحية وسن الصلاة والخطبة لئلا يكون شىء من اجتماعهم بغير ذكر الله وتنويه شعائر الدين وضم معه مقصد آخر من مقاصد الشريعة وهو أن كل ملة لا بدلها من عرصة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ولذلك استحب خروج الجميع الصبيان والنساء وذوات الخدور وَالْحُيَّضُ ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ولذلك كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخالف فى الطريق ذهاباً وإياباً ليطلع أهل تلك الطريقين على شوكة المسلمين . ولما كان أصل العيد الزينة استحب حسن اللباس والتقليس أى ضرب الدفوف ومخالفة الطريق والخروج إلى المصلى وسنة صلاة العيدين أن يبدأ بالصلاة من غير أذان ولا إقامة يجهر فيها بالقراءة يقرأ عند إرادة التخفيف بـ« سبح اسم ربك الأعلى » . و«هل أتاك» . وعند الإتمام «ق» و«اقتربت الساعة» يكبر فى الأولى

سبعاً قبل القراءة والثانية خمساً قبل القراءة ، وعمل الكوفيين أن يكبر أربعاً كتكبير الجنائز فى الأولى قبل القراءة وفى الثانية بعدها ، وهما سنتان وعمل الحرميين أرجح ثم يخطب يأمر بتقوى الله ويَعِظ ويذكر . وفى الفطر خاصة أن لا يغدو حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً وحتى يؤدى زكاة الفطر إغناءً للفقراء فى مثل هذا اليوم ليشهدوا الصلاة فارغى القلب وليستحق مخالفة عادة الصوم عند إرادة التنويه بانقضاء شهر الصيام . وفى الأضحى خاصة أن لا يأكل حتى يرجعَ فيأكل من أضحيته اعتناء بالأضحية ورغبة فيها وتبركا بها ولا يضحى إلا بعد الصلاة لأن الذبح لا يكون قربة إلا بتشبه الحاج وذلك بالاجتماع للصلاة والأضحية سنة من معز أو جذع من ضأن فى كل أهل بيت وقاسوها على الهَدْىِ فأقاموا البقرة عن سبعة والجزور عن سبعة مقامها . ولما كانت الأضحية من باب بذل المال لله تعالى وهو قوله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كان تسمينها واختيار الجيد منها مستحباً لدلالته على صحة رغبته فى الله فلذلك يتقى من الضحايا أربع : العرجاء البين ضلعها ، والعوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعجفاء التى لا تنقى ، وينهى عن أعضب القرن والأذن وسُنَّ استشراف العين والأذن وأن لا يضحى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء . والمقابلة : ما يقطع من قبل أذنها أى مقدمها . والمدابرة : التى قطع من مؤخر أذنها والشرقاء : مشقوقة الأذن . والخرقاء : مقطوعة الأذن ثقباً مستديراً . وسن الفحل الأقرن الذى ينظر فى سواد — أى سواد العينين — ويبرك فى سواد — أى سواد البطن والصدر — ويطأ فى سواد — أى سواد الأرجل — لأن ذلك تمام شباب المعز ومن أذكار التضحية : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ اللهم منك وإليك ولك من الله والله أكبر . . واستيفاء الكلام على الأعياد الزمانية والمكانية والاجتماعية وما حدث منها فى الإسلام فى كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية رحمه الله .

بيان ما كان العرب يصنعون فى أعيادهم ومواسمهم

كانوا فى أيامهم ومواسمهم يتزينون بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل الثمنة والبرود المعجبة والفرسان منهم يتسابقون على الخيل والأجواد ييسرون أى يلعبون بالميسر[١] وصبيانهم يلعبون أنواعا من الملاعب قد استوفاها صاحب القاموس ، ويزمرون بالدفوف والمزاهر ونحو ذلك مع التغنى بأراجيز وأبيات من الشعر أنشدوها فى أيامهم كيوم بِعاث ،[٢] وكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزية أولاً ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادى ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين الكلام بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكًّا لقرائحهم فى إصابة المعانى وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى إلا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تغنى الحداة منهم فى حُداء إبلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين

---

(١) اى القمار .

(٢) بالعين المهملة والغين المعجمة ويثلث : موضع على ليلتين من المدينة ويومه معلوم .

ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً مّا ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة (نشيط الفارسى) و (طويس) و (سائب) و (حاثر) مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم (معبد) وطبقته (وابن سريج) وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه إلى زمن بعيد وأمعنوا فى اللهو واللعب . واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون . وأمثال ذلك من اللعب المعدّ للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك فى بغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه (زرياب) أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأثنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطمى منها بإشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . كذا فى مقدمة العبر .

تغنَّ بالشعرِ إن ما كنتَ قائله　　إنَّ الغِناء لهذا الشعرِ مِضْمارُ

يقولون فلان يتغنى بفلان أو فلانة إذا صنع فى أحدهما شعراً قال ذو الرُّمة :

أُحِبُّ المكانَ القَفْرَ من أجل أنني　　به أَتَغَنَّى باسمِها غيرَ مُعجمِ

وكذلك يقولون حدا به إذا عمل فيه شعراً . قال المرار الأسدى :

ولو إنى حدوتُ به ارفأنَّتْ　　نعامتُـه وأبصر ما يقول[1]

وغناء العرب على ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج . « فأما النصب » فغناء الركبان وغناء الفتيان . قال إسحق بن إبراهيم الموصلى : وهو الذى يقال له المراثى وهو الغناء الجنابى اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل فنسب إليه ، ومنه كان أصل الحداء كله ، وكله يخرج من الطويل فى العروض . « وأما السناد » فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وهو على ست طرق : الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه والرمل وخفيفه « وأما الهزج » فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . قال إسحق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله تعالى بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير . قال الجاحظ : العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى الوزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون : ويقال : إن أول من أخذ من ترجيعه الحداء مضر بن نزار بن معد بن عدنان سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول وايداه وايداه ، وكان أحسن خلق الله تعالى صوتاً وجرماً فأصغت

(١) قال المجد : ارفان ارفئنانا نفر ثم سكن ، والنعامة الجهل ، قال فى التاج يقال سكنت نعامته ثم قال : قال المرار الفقعسى :

ولو انى حدوت به ارفانت　　نعامته وابغض ما اقول

إليه الإبل وجدّت فى السير فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون فى الإبل ، حكى ذلك عبد الكريم فى كتابه ، وزعم ناس من مضر أنَّ أول من حدا رجل منهم كان فى إبله أيام الربيع فأمر غلاماً له ببعض أمره فاستبطأه فضربه بالعصا فجعل يشتد فى الإبل ويقول يا يداه يايداه قال له : الزم الزم فاستفتح الناس الحداء من ذلك . وذكر ابن قتيبة : إنهم قالوا ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وحكى الزبير ابن بكار فى حديثٍ رَفَعَه : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقوم من بنى غفار حين سمع حاديَهم بطريق مكة ليلا فمال إليهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعائه فوجد إبله قد تفرقت فأخذ عصاً فضرب بها كف غلامه فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح وايداه وايداه فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه . فقال مضر لو اشتق مثل هذا انتفعت به الإبل واجتمعت فاشتق الحداء « وأما التغبير » فهو تهليل أو ترديد صوت بقراءة أو غيرها حكى ذلك ابن دريد . وحكى أبو إسحق الزجاج قال : سألنى بعض الرؤساء لم سمى التغبير تغبيراً ؟ قلت : لأنه وضع على أنه يرغب فى الغابر أى الباقى أى يرغب فى نعيم الجنة وفيما يعمل للآخرة وقال غيرى : إنما قيل له تغبير لأن ما يخرج من الفم بمنزلة الغبار فعرض جوابانا على أبى العباس ثعلب فاستجاد جوابى . ويقال للمراسل فى الغناء : المتالى حكاه غلام ثعلب ، والله تعالى ولىّ التوفيق .

* * *

الكلام على عادات عرب الجاهلية فى المأكل والمشرب

إعلم أن جميع سكان الأقاليم الصالحة اتفقوا على مراعاة آدابهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم وقيامهم وقعودهم وغير ذلك من الهيئات والأحوال وكان ذلك كالأمر المفطور عليه الإنسان عند سلامة مزاجه وظهور مقتضيات نوعه عند اجتماع أفراد منه وترائى بعضها لبعض وكانت لهم مذاهب فى ذلك ، فكان منهم من يتخذها على قواعد الحكمة الطبيعية فيختار فى كل ذلك ما يرجى نفعه ولا

يخشى ضرره بحكم الطب والتجربة ، ومنهم من يتخذها على قوانين الإحسان حسبما تعطيه ملته ، ومنهم من يريد محاكاة ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم ، ومنهم من يتخذها على غير ذلك ، وكانت عادات العرب فى ذلك أوسط العادات ولم يكونوا يتكلفون فى المطاعم والمشارب تكلف العجم ، وكانت لهم فى هذا الباب عوائد مستحسنة ومألوفات يتلقاها دوو العقول بالقبول ، من ذلك أنهم كانوا يبكرون فى الغداء ويرون أن ذلك أقرب إلى راحة البدن وصحته . وسُئِل ابن هبيرة عن ذلك فقال : إنَّ فيه ثلاثَ خصال ، الأولى أنه ينشف المرة . والثانية : يطيب النكهة[1] . والثالثة : أنه يعين على المروءة . قيل . وكيف يعين على المروءة ؟ قال إذا خرجت من بيتى وقد تغديت لم أتطلع على طعام أحد من الناس . وكانوا يؤخرون العشاء رغبة فى ورود الأضياف واجتماع الأكلة بعد انقضاء حاجاتهم وعودهم من مسارحهم وغاراتهم ولأن بلادهم حارة الهواء فكلما ذهبت منه شدة ببرد الليل كان الطعام أمرى ، والشاهية فى الأكل أدعى ، والأصل الأصيل فى ذلك مراعاة الضيوف فقد كان لهم مزيد اعتناء بأمرهم كما تنطِقُ بذلك أشعارهم وأخبارهم . قال قائلهم :

إنّى إذا خَفِيَتْ نارٌ لُمرْمِلةٍ ... ألفى بأرفعِ تلٍّ رافعاً نارى

ذاك وإنى على جارى لذوحَدَبٍ ... أحنو عليه بما يحنى على الجار

المرملة : الجماعة التى نفد زادها ورجل مرمل لاشىء له مشتق من الرمل كأنه لا يملك غيره كما يقال ترب الرجل إذا افتقر يقال أرمل الرجل إذا نفد زاده وافتقر فهو مرمل وجاء أرمل على غير قياس والجمع أرامل وأرملت المرأة فهى أرملة للتى لازوج لها لافتقارها إلى من ينفق عليها . وقال الأزهرى لايقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسرة فليست بأرملة والجمع أرامل . والتل ما ارتفع من الأرض . وإيقاد النار فى الأماكن العالية من أخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف

(١) يقال نكه الرجل على فلان ونكه له نكها من بابى نفع وضرب اذا تنفس على انفه ونكهه نكها يتعدى بنفسه ايضا اذا فعل ذلك ليشم ريح فمه ليعلم هل شرب أم لا واستنكهه كذلك والنكهة مثل تمرة اسم منه كذا فى المصباح .

إليه فى الليل المظلم ويأتى . يقول : إذا خفيت نار غيرى بأن لاتوقد فى أيام الجدب والقحط فأنا أوقدها فى تلك الأيام لتهتدى إلىّ الضيوف يصف نفسه بشدة الكرم وبسط الكف للمستر فدين · وقال الأحوص :

عوّدت قومى إذا ماالضيف نبهنى — عقر العشار على عسرى وإيسارى

أراد بقوله نبهنى طرقنى ليلا فنبهنى . والعقر ضرب قوائم البعير بالسيف ولا يكون العقر فى غير القوائم · وربما قيل عقره إذا نحره ، والعشار جمع عشراء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر وهى عند العرب أعز الإبل فذبحها للضيف يكون غايةً فى الجود والإكرام . وقوله على عسرى وإيسارى أى أعقرها له على كل حالة سواء كنت معسراً أو موسراً . وعقر العشار مشتمل على إيقاد النار ودال عليه فكأنه قال عودت قومى أنى أوقد النار للطارق . وقال حريث بن عناب الطائى :

عوى ثم نادى هل أحستم قلائصاً — وسمن على الأفخاذ بالأمس أربعا[١]

غلام قليبى يحف سباله — ولحيته طارت شعاعاً مقزعا[٢]

غلام أضلته النبوح فلم يجد — بما بين خبت فالهباءة أجمعا[٣]

أناساً سوانا فاستمانا فلم يرى — أخا دلج أهدى بليل وأسمعا[٤]

---

(١) فاعل عوى هو غلام فى اول البيت الذى بعده وقوله هل احستم يريد احسستم قال الجوهرى وربما قالوا ماأحسست منهم فقالوا احد السينين استثقالا وهو من شواذ التخفيف والقلائص جمع قلوص وهى الناقة الشابة، وجملة وسمن على الافخاذ صفة قلائص . (٢) قليبى منسوب الى قليب بضم القاف وفتح اللام وهى قبيلة أو منسوب الى القليبة مصغر قلبة وهى موضع فى طرف الحجاز واسم مواضع اخر ، ويحف بالحاء المهملة يقال يقال حف الرجل شاربه حفا من باب قتل اذا احفاه اى بالغ فى قصه ؛ والسبالى بالكسر الشارب ، والشعاع بالفتح المتفرق ، والمقزع بالقاف وفتح الزاى المشددة المفتول يعنى ان لحيته من الهواء والبرد تفرقت وصارت كالفتائل

(٣) النبوح بضم النون والموحدة وحاء مهملة ضجة الحى واصوات كلابهم ، وخبت بفتح الخاء المعجمة وسكون الموحدة اسم ماء اكلب وقيل اكندة وموضع آخر ، والهباءة موضع فى أطراف الربذة خارج المدينة المنورة وكانت فيه حرب من حروب داحس لعبس على ذبيان . (٤) قوله فاستمانا اى تصيدنا والمتسمى المتصيد والمسماة جورب يلبسه الصائد البحر وقوله فلم يرى هذه الالف نشأت من اشباع فتحة الراء وهو بالبناء للمفعول بمعنى يعلم والضمير فيه للغلام ، والدلج بفتحتين اسم مصدر من ادلج ادلاجا اى سار الليل كله فان خرج آخر الليل فقد ادلج بتشديد الدال كذا فى المصباح .

فقلت أجرّا ناقة الضيف إننى — جدير بأن تلقى إنائى مترعا[١]

فما برحت سجواء حتى كأنما — تغادر بالزيزاء برساً مقطما[٢]

كلا قادميها يفضل الكف نصفه — كجلد الحبارى ريشه قد تزلعا[٣]

دفعت إليه رسل كوماء جلدة — وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا[٤]

إذا قال قطنى قلت آليت حلفة — لتغنى عنى ذا إنائك أجمعا[٥]

يدافع حيزوميه سخن صريحها — وَحلقاً تراه للثمالة مقنعا[٦]

إذا عم خرشاء الثمالة أنفه — تقاصر منها للصريح وأقمعا[٧]

وشرح هذه الأبيات يطول وقد أراد الشاعر أن هذا الغلام شردت له قلائص أربع فخرج فى طلبها حتى أظلم عليه الليل فضل عن الطريق فعوى حتى سمعت الكلاب صوته فنبحته فاستدل بصوتها علينا فجاء فسأل عن قلائصه . والعرب تزعم أن سارى الليل إذا أظلم عليه فلم يستبن محجة ولم يدر أين الحلة

---

(١) اجر بفتح الهمزة وكسر الجيم امر من اجررته رسنه اذا تركته يصنع ما يشاء يعنى خذوا رسنها ودعوها تأكل ما شاءت، وناقة الضيف الناقة التى جاء راكبها عليها وهذا من اخلاق الكرام فان أكرام دابة الضيف غاية الاكرام عند الضيف وانائى بالمد والاضافة الى الياء والاناء الوعاء ، ومترع من ترعت الاناء بالتشديد واترعته اى ملأته وهذا كناية عن الخصب والكثرة .

(٢) سجواء بالنصب خبر برح وسجواء بالمهملتين والمد اى ساكنته عند الحلب ، وتغادر تترك ، والزيزاء بكسر الزاى الاولى والمد الموضع الصلب من الارض والبرس بكسر الموحدة واهمال الراء والسين القطن شبه ما سقط من اللبن به . (٣) الحبارى بضم المهملة بعدها موحدة وبالقصر طائر على شكل الاوزة براسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا ، وتزلع تقلع . (٤) الرسل بكسر الراء اللبن ، والكوماء بفتح الكاف والمد الناقة العظيمة السنام والجلدة بفتح الجيم وسكون اللام هى أدسم الابل لبنا والجمع الجلاد بالكسر ، والطرف العين ، وتضلع امتلأ ما بين أضلاعه . (٥) قطنى أى حسبى اى قلت قد حلفت ان تشرب جميع ما فى انائك . (٦) قوله حيزوميه هو ما اكتنف حلقومه من جانبى الصدر ، والسخن الحار ، والصريح اللبن الذى ذهبت رغوته ، والثمالة بضم المثلثة رغوة اللبن يريد انه يرفع حلقه لاستيفاء اللبن ومقنع اسم مفعول من اقنع راسه اذا رفعه . (٧) الخرشاء بكسر الخاء جلد الحية وقشرة البيضة العليا بعد أن تكسر ويخرج ما فيها ثم يشبه به كل شىء فيه انتفاخ وتفتق وخروق ، واقمعا يقال أقمعت ما فى السقاء اى شربته كله .

أى القوم النزول وضع وجهه مع الأرض وَعوى عواء الكلب لتسمع ذلك الصوت الكلاب إن كان الحىّ قريباً منه فتجيبه فيقصد الأبيات . قال الفرزدق :

وداع بلحن الكلب يدعو ودونه   من الليل سجفاً ظلمة وغيومها
دعا وهو يرجو أن ينبه إذ دعا   فتى كابن ليلى حين غارت نجومها
بعثت له دهماء ليست بلقحة   تدر إذا ما هب نحساً عقيمها

ابن ليلى : هو أبو الفرزدق . ومعنى بعثت له دهماء : أى رفعتها على أثافيها . ويعنى بالدهماء القدر واللقحة الناقة أراد أن قدره تدرّ إذا هبت الريح عقيماً لا مطر فيها . وما أحسن قول ابن هَرْمة :

ومستنبحٍ يستكشط الريح ثوبَهُ   ليسقُطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه   لينبح كلب أو ليفزعَ نُوَّمُ
فجاوبه مستسمع الصوت للقِرى   له مع إتيان المحبين مَطْعَمُ
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

يقال فزعت لفلان : إذا أغثته . والمهبون : الموقظون له ولأهله وهم الأضياف . وإنما كان له معهم مطعم لأنه ينحر لهم ما يصيب منه وأراد بقوله يكلمه من حبه الخ بصبصته وتحريكه ذَنَبَهُ . ومثله قوله أيضاً :

وإذا أتانا طارق متنوِّرٌ   نبحت فدلته علىَّ كلابى
وفرحن إذ أبصرنه يضربنه   من أنسها بشراشر الأذناب

يقال شرشر الكلب إذا ضرب بذنبه وحركه للأنس . وأما قول الأخطل :

دعانى بصوتى واحد فأجابه   منادٍ بلا صوت وآخر صيت

فمعناه أن ضيفاً عوى بالليل والصدى من الجبل يجيبه فذلك معنى قوله بصوتى واحد . وقوله فأجابه مناد بلا صوت : أى نار رفعها له فرأى سناها فقصدها ، والصيت الآخر الكلب لأنه أجاب عواءه . والمقصود من ذكر هذه الأبيات بيان ما كان للعرب من مزيد الاعتناء بالضيف حتى أوقدوا النيران فى الليل

واتخذوا الكلاب ليهتدى إليهم من لم يعرف المنازل . ومن عاداتهم المحمودة وأفعالهم الجميلة ، أنهم كانوا إذا ألمّ بأحدهم ضيف ظهرت البشاشة على وجهه وتلقاه بالترحيب والتكريم ، وأدّوا له آداب الضيافة كلها فإنه حين يستقر بالضيف المقام يسرع إلى أهله ليجيئهم بنزلهم بحيث لا يكاد يشعر به أحد ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أنه يذهب باختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه فيستحى فلا يشعر به إلاّ وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى أتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه ، وقد تلقوا هذه السنن من أبيهم إبراهيم عليه السلام فهو أول من قرى الضيف ، وتأمل ثناء الله سبحانه عليه فى إكرام ضيفه حيث يقول سبحانه (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) ففى هذا من الثناء على إبراهيم وجوه متعددة . منها : أنه وصف إكرام ضيفه بأنهم مكرمون أى إن إبراهيم أكرمهم . ومنها : قوله تعالى إذ دخلوا عليه فلم يذكر استئذانهم ، ففى هذا دليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم فبقى منزل مضيفه مطروقا لمن ورده لا يحتاج إلى استئذان ، بل استئذان الدخول دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم . ومنها : قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الإسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم سلاما يدل على سلمنا سلاماً وقوله سلام أى سلام عليكم . ومنها : أنه حذف المبتدأ من قوله قوم منكرون ، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لوقال أنتم قوم منكرون ، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام . ومنها : أنه راغ إلى أهله ليجيئهم نزلهم والروغان هو الذهاب فى اختفاء بحيث لا يكاد يشعر

به وهذا من كرم المضيف على ما سبق . ومنها : أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عنـدهم مُهَيّأً للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه . ومنها : قوله فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيـف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذى ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهـذا أبلغ فى إكرام الضيف . ومنها : أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه . ومنها : أنه سمين لا هزيل . ومعلوم أن ذلك من أنفر أموالهم . ومثله يتخذ للإقتناء والتربية فآثر به ضيفانه . ومنها : أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك . ومنها أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه : وهذا أبلغ فى الكرامة أن تجلس الضيف ثم تقرب الطعام إليه وتحمله إلى حضرته ولا تضع الطعام فى ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه . ومنها : أنه قال لهم ألا تأكلون ، وهذا عرض وتلطف فى القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدّوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ، ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق ألا تجبر ونحو ذلك . ومنها : أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن فى الأكل بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم : ألا تأكلون ، ولهذا أوجس منهم خيفة أى أحسها وأضمرها فى نفسه ولم يبدها لهم . فقد جمعت هـذه الآية آداب الضيافة التى هى أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التى هى تخلف وتكلف إنما هو من أوضاع الناس وعاداتهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً . ومن تصفح أخبار العرب وأشـعارهم وجدهم فى أمر الضيافة على تلك الآداب ، وأنهم لم يغيروا شيئاً منها بعـد مرور الأزمان والأحقاب . حتى إنهم كانوا يقومون بأمر من يرد إلى مكة من الحاج بالغاً ما بلغ ، وكان هاشم وهو أحد أجـداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش إنـكم جيران الله وأهل بيته وهم ضيف الله وأحق

الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التى لا بد لهم من الإقامة فيها فإنه والله لو كان لى مال يسع لذلك ما كلفتكموه فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرىء على حسب قدرته وطاقته فيصنع به للحاج طعاماً حتى يصدروا وهذه هى الرفادة التى هى من سنن قصى على ما سبق . وهاشم هو الذى هشم الثريد لقومه بمكة وكان اسمه عمراً كما يشعر به قول الشاعر :

عمرو الذى هَشَم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عِجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

أشار فى البيت الثانى إلى رحلة الشتاء والصيف ، وهو أول من سنهما لقريش .

ومن عاداتهم فى هذا الباب أنهم يقلون من الأكل ويقولون البطنة تذهب الفطنة . أى الذى يملأ بطنه من الطعام تذهب منه فطنته . وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع . قال الشنفرى :

إذا مُدَّتِ الأيدى إلى الزادِ لم أكُن بِأَعْجَلِهِمْ إذْ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ(١)

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية : ما أفضل الدواء ؟ قال : الأزم . يريد قلة الأكل وقد أصاب فى ذلك . قال بعض حكمائهم : أى بنىّ لأمر مّا طالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب ، ولله در ابن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الأزم فالداء كله من فضول الطعام فكيف لا ترغب فى شىء يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة ، أى بنىّ لم صار الضب أطول عمرا لأنه يبتلع النسيم ، أى بنىّ قد بلغت تسمين عاما ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ولا عرفت ذنين أنف(٢) ولا سيلان عين

(١) الجشع : اشد الحرص والماضى جشع بكسر الشين وتجشع كذلك ورجل جشع وقوم جشعون وهذا من جنس قول حاتم :

اكف يدى من ان تنال اكفهم اذا نحن اهوينا وحاجاتنا معا

(٢) الذنين رقيق المخاط او ماسال من الانف رقيقا او عام فيهما وذنن كفرح والاذن من يسيل منخراه والذناء للانثى .

ولا سلس بول ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك انتهى . وقال الأصمعى : تقول العرب فى الرجل الأكول : إنه برم قرون . البرم الذى يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئاً . والقرون الذى يأكل تمرتين تمرتين ، ويأكل أصحابه تمرة تمرة . والحاصل أن الشبع مذموم بالعقل والنقل ومضاره كثيرة فإنه يقسى القلب بخلاف الجوع فإنه يرققه ويصفيه فيتهيأ به لإدراك لذة المناجاة وللتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يتأثر به حتى كأن بينه وبينه حجاباً وذلك من قساوة القلب الحاصلة من الشبع ولذلك قال بعض العارفين : القلب إذا جاع أو عطش صفا ورق ، وإذا شبع عمى . ومن مضاره أنه يفسد الذهن لأنه يكثر البخار فيورث البلادة حتى إن الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والإداك . ومنها : أنه يعطل القوى الباطنة عن إدراك المعانى الكاملة والعلوم الفاضلة واستجلاء المعارف ، واستحلاء العوارف . قال لقمان لابنه : يا بنىّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادات . ومنها : أنه ينشط الأعضاء على المعصية لأن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ومادتهما لا محالة الأطعمة فبتقليلها يضعفان وبتكثيرها يقويان . وإذا قويتا تحصل المعاصى ، وقد وردت عدة أحاديث فى ذم الشبع . منها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (المؤمن يأكل فى مِعًى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء) أى يأكل سبعة أضعاف المؤمن ، أو أن شهوته سبعة أمثال شهوة المؤمن وتكون الأمعاء كناية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما تأخذ الأمعاء وليس المعنى زيادة أمعاء الكافر على أمعاء المؤمن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه إن كان ولابد من التجاوز عما ذكر فلتكن أثلاثا ، فثلث للطعام . وثلث للشراب ، وثلث للنفس . ولله در العرب حيث رعوا فى مأكلهم هذه الدقائق والأسرار وهم زمن الجاهلية .

تفصيل الوصف بكثرة الأكل وترتيبه عند العرب

لما كان كثرة الأكل عندهم معيباً وليس ذلك بمنزلة واحدة بل هو درجات متفاوتة كما تدل عليه لغتهم فقد قالوا : إذا كان الرجل حريصاً على الأكل فهو نَهِمٌ وشَرِهٌ . فإذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جشع . فإذا كان لا يزال قرما[1] إلى اللحم وهو مع ذلك أكول فهو جمم . فإذا كان يتتبع الأطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس . فإذا كان رغيب البطن كثير الأكل فهو عيصوم . فإذا كان أكولاً عظيم اللقم واسع الحنجور فهو هبلع . فإذا كان مع شدة أكله غليظ الجسم فهو جعظرى . فإذا كان يأكل أكل الحوت الملتقم . فهو هاقام وتاقامة وجراضم . فإذا كان كثير الأكل من طعام غيره فهو مجاح . فإذ كان لا يبقى ولا يذر من الطعام فهو قحطى . وهو من كلام الحاضرة دون البادية . قال الأزهرى أظنه نسب إلى التقحط لكثرة أكله كأنه نجا من القحط . فإذا كان يعظم اللقم ليسابق فى الأكل فهو مدهبل . فإذا كان لا يزال جائماً أو يرى أنه جائع فهو مستجيع وشحذان ولهسم . فإذا كان يتشمم الطعام حرصاً عليه فهو أرشم . فإذا كان شهوان شرهاً حريصاً فهو لعمظ ولعموظ . فإذا دخل على القوم وهم يطعمون ولم يدع فهو وارش . فإذا دخل عليهم وهم يشربون ولم يدع فهو واغل . فإذا جاء مع الضيف فهو ضيفنٌ . وقال الجاحظ فى عيوب الأكل الزقاق الذى فى فيه لقمة لم يسغها فيشرب الماء ويسمى زاقّ الفرخ أيضاً . والمبلعم الذى فى فيه لقمة لم يسغها ويبادر خلفها بأخرى . والمحلحل الذى يأخذ سكرجة فيحركها ليجتمع الأبزار فيأكل ويترك ملحاً ساذَجاً . والمغربل الذى يحرك طبق الرطب والباقلاء وما أشبهه ثم يأكل نقاوته . والمقبب الذى يجمع اللحم بين يديه على رغيف كأنه قبة ويدع رفقاءه بغير لحم . والمنعل الذى يأخذ لقمة أكبر مما يسع فاه فيضع يده أو كسرة تحتها . والمعلق الذى فى فيه لقمة وفى يديه أخرى .

---

(١) القرم محركة شدة شهوة اللحم .

مطاعم العرب الشهيرة

كان مأكولهم فى غالب الأزمان لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم[١] والشيح أو حَرَش اليربوع[٢] والضب أوصاد الظَّبْىَ والأرنب . وكان الغالب من أهل باديتهم لايعاف شيئاً من المأكل لقلتها عندهم . ومنهم من كان يعاف القذر ويتجنب عن أكل كل مادبّ ودرج . وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل ولا يفضلون شيئاً عليها ، وكان منهم من يستطيب أكل الضب .

« يقول قائلهم »

أكلتُ الضبابَ فما عفتُها ... وإنى اشتهيتُ قديدَ الغَنَمْ[٣]
ولحم الخرُوفِ حَنيذاً وقدْ ... أتيتُ به فاتراً فى الشَبِمَ
وأما البِهَط وحيتـانكم ... فأصبحت منها كثير السقم
وركبتُ زُبْداً على تمرة ... فنعم الطعام ونعم الأدم
وقد نلت منها كما نلتمُ ... فلم أرَ فيها كضبٍّ هرم
وما فى التيوس كبيض الدجاج ... وبيض الدجاج شفاء القَرِم
ومَكْن الضباب طعام العرب ... وكاشيه منها رؤسُ العجم

قوله الحنيذ : أى الشوى . وماء الشبم بفتح الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة ماء الأسنان . والبهط بكسر الباء الموحدة وفتح الهاء وبالطـاء المعجمة الأرز باللبن . والقرم بفتح القاف وكسر الراء الرجل يشتهى اللحم . والمكن بفتح الميم وإسكان الكاف وبالنون فى آخره بيض الضب . والكشى كشية بضم الكاف وإسكان الشين المعجمة وهى شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه . . وكان الاصطياد

(١) نبت وهو صنفان انثى وذكر النافع من اطرافه وزهره مر جدا .
(٢) يقال حرس الضب يحرشه حرسا وتحراشا صاده كاحترشه بأن يحرك يده على باب حجره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .
(٣) هذه الابيات لأبى الهنـدى .

ديدنا لهم وسيرة فاشية حتى كان ذلك أحد المكاسب التي عليها معاشهم ، وكان لهم شغل شاغل عن الاعتناء بأمر المأكل لاضطرارهم إلى النقلة فى الغالب لرعى مواشيهم وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضاً . وأما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق فى الأطعمة المتنوعة والألوان الشهية فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم ، حتى حكى أن عبد الله بن جُدْعان وكان سيداً شريفاً فى قريش وفد على كِسْرَى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته فقيل له هى لُباب البر يُلبَكُ مع العسل فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج فوضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر فكان ممن حضر أمية ابن أبى الصلت ، فقال مادحا :

لكل قبيلةٍ رأسٌ وهادى وأنت الرأسُ تقدم كلَّ هادى
له داعٍ بمكة مُشْمَعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارته يُنادى[(١)]
إلى رُدُحٍ من الشِيزَى ملاء لُباب البُرّ يُلْبَكُ بالشِهاد[(٢)]

وكان للعرب أطعمة شهيرة يتخذونها من لحوم وحبوب وألبان وغير ذلك « فمنها السخينة » وهى تتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء وإنما يأكلونها فى شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال وهى التى كانت تعير بها قريش . حكى أن معاوية قال للأحنف : ما الشئ الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وإنما أراد معاوية قول القائل :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم فسَرَّكَ أن يعيش فجئ بزادِ[(٣)]

---

(١) اشمعل اشرف والقوم فى الطلب بادروا فيه (٢) الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت او قطعة تزاد فيه والرداح الخفيفة العظيمة، والشيز والشيزى خشب اسود يتخذ منه القصاع وقوله لباب البراى من لباب البر وروى البيت الثالث هكذا : الى ردح من الشيزى عليها الخ (٣) هذا الشعر ليزيد ابن عمرو بن الصعق الكلابى وذكر الجاحظ انه لابى المهوس الاسدى ؛ وقوله اذا ما مات ميت من تميم ، قال ابن السيد فيه رد على ابى حاتم السجستانى ومن ذهب مذهبه لان ابا حاتم كان يقول قول العامة مات الميت خطأ والصواب مات الحى وهذا الذى انكره غير منكر لان الحى قد يجوز أن يسمى ميتا لان

بخبز أو بتمر أو بِسَمْنٍ   أو الشيء الملفّف فى البجاد[1]

تَراه يطوف فى الآفاق حِرْصاً   ليأكل رأسَ لقمان بن عاد[2]

وكان الأحنف من تميم ، وإنما أراد الأحنف بالسخينة رمى قوم معاوية بالبخل لأنّهم كانوا يقتصرون عليها عند غلاء السعر حتى صار هذا اللفظ لقباً لقريش واسماً لهم . قال حسان :

زعمت سخينةُ أنْ ستغلبُ ربّها   وليُغلبنّ مغالبُ الغلاّبِ

ويروى أن كعباً لبس يوم أحـــد لاَمَةَ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صفراء ولبس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامته فجرح كعب أحد عشر جرحا ولما قال كعب :

جاءت سخينة كى تغالب ربها   فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لقد شكرك الله يا كعب على قولك

امره يئول الى الموت كما يقال للزرع قصيل لأنه يقصل اى يقطع وتقول العرب بئس الرمية فيسمونها رمية لانها مما يرمى ويقال الكبش الذى يراد ذبحه ذبحة وهو لم يذبح وضحية ولم يضح بهـا ، وقال الله تعالى : (انك ميت وانهم ميتون) وقال : « انى ارانى اعصر خمرا » وانما يعصر العنب . وهذا النوع فى كلام العرب كثير والعجب من انكار أبى حاتم اياه مع كثرته وقـد فرق قوم بين الميت بالتشـديد والميت بالتخفيف فقالوا الميت بالتشـــديد ما سيموت والميت بالتخفيف ماقد مات وهذا خطا فى القياس ومخالف السماع اما القياس فان ميت المخفف انما أصله ميت المشـدد فخفف وتخفيفه لم يحدث فيه معنى مخالفا لمعناه فى حال التشديد كما يقال هين وهين ولين ولين فكما أن التخفيف فى هين ولين لم يحل معناهما فكذلك تخفيف ميت . واما السماع فانا وجدنا العرب لم تجعل بينهما فرقا فى الاســـعمال ومن ابين ما جاء فى ذلك قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت   انمـا الميت ميت الاحيـــاء

قال ابن قنعاس الاســدى :

الا ياليـــنى والمـــرء ميـــت   وما يغنى عن الحدثان ليت

ففى البيت الأول سوى بينهما وفى البيت الثانى جعل الميت المخفف الحى الذى لم يمت ، الا ترى أن معناه سيموت فجرى مجرى المثل انك ميت وانهم ميتون فجعل الميت بالتشديد ماقد مات .

(١) البجاد : الكساء فيه خطوط (٢) قوله ليأكل راس لقمان الخ انما ذكر لقمان ابن عاد لجلالته وعظمته يريد أنه لشدة نهمه وشرهه اذا ظفر باكلة فكانه ظفر براس لقمان لسروره بما نال واعجابه بما وصل اليه كما يقال لمن يزهى بما فعل ويفخر بما أدركه كأنه قد جاء براس خاقان .

هذا « ومنها الحريقة » وهى أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيحسى وهى أغلظ من السخينة يبقى بهـا صاحب العيال على عياله إذا عضه الدهر « ومنها الصحيرة » وهى اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق « ومنها العذيرة » وهى دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف[١] « ومنها العكيسة » وهى لبن يصب عليه الإهالة وهى الشحم المذاب « ومنها الغريقة » وهى حلبة تضم إلى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنُّفَساء « ومنها الرغيدة » وهى اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق « ومنها الأصية » وهى دقيق يعجن بلبن وتمر « ومنها الرهية » وهى برّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن يقال ارتهى الرجل إذا اتخذ ذلك « ومنها الوليقة » وهى طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن « ومنها اللويقة » وهى مالين من الطعام وفى حديث عبادة ولا آكل إلا مالوّق لى « ومنها الألوقة » وهى أيضاً الملين منه إلا أن اللويقة اللين « ومنها الخزيفة » وهى شحمة تذاب ويصب عليها ماء يطرح عليه دقيق فيلبَكُ به وهى عند الأطباء ثلاث : الخبز والسكر والسمن ، وشتان ما بينهما « ومنها الرغيفة » وهى حسو من دقيق وماء وليست فى رقة السخينة « والربيكة » وهى طعام يتخذ من بر وتمر وسمن . ومنها المثل « غرثان فاربكوا له » .[٢] « والتلبينة » وهى حُثالةٌ يتخذ من دقيق أو نخالة ويجعل فيه عسل وإنما سميت تلبينة تشبيهاً باللبن لبياضها ورقتها . وفى الحديث : عليكم بالتلبينة . وكان إذا اشتكى أحدهم فى منزله لم تنزل البرمة حتى يأتى أحد طرفيه ومعناه حتى يبرأ من علته أو يموت ، وإنما جعل هذان طرفيه لأنهما منتهى أمر العليل « والوشيقة » وهى أن يغلى اللحم ثم يرفع يقال منه وشقت أشق وشقاً . وقال الحسن بن هانىء :

---

(١) الرضيف كامير : اللبن يغلى بالرضفة (٢) يقال دخل ابن لسان الحمرة على اهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود واتوه به فقال : والله ماادرى اآكله ام اشربه ، فقالت امراته : غرثان فاربكو له ؛ اى اخلطوا له طعاما ، ويروى فاكبوا له من البكيلة وهى اقط يلت بسمن فلما طعم وشرب قال كيف الطلا وامه فارسلها مثلا ، والطلا ولد الظبية فاستعاره لولده ، يضرب لمن قد ذهب همه وتفرغ لغيره ، وقيل يضرب مثلا للرجل تكلمه وله شأن يشغله عنك .

حتى رفعنا قدرنا بضرامها واللحم بين موزم وموشق

« والعثيمة » بالعين غير معجمة طعام يطبخ ويجعل فيه جراد وهو الغثيمة أيضاً « والبغيث والغليث » الطعام المخلوط بالشعير فإذا كان فيه الزوان فهو المغلوث « والعريقة » وهى شىء يعمل من اللبن « والبكيلة » السمن يخلط بالأَقِط وهى التى عناها الراجز بقوله :

لأَكلَةٌ من أقط وسمْنٍ ألينُ مسًّا فى حشايا البطن[1]
من يثْرَبيات قذاذ خُشْنٍ [2]

وقال أبو زيد هى الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت . وقال الكلابى : هو الأَقِطُ المصحون تبكله بالماء كأنك تريد أن تعجنه : وقال ابن السكيت : وهى السويق والتمر يبلان بالماء « والعبيثة » وهى الأقط بالسمن والتمر . وقيل هى الأَقِطُ الرطب يخلط بالتمر اليابس « والحَيْسُ »[3] وهو الأقط مع السمن والتمر « والمجيع » وهو التمر مع اللبن وهو حلواء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « والبسيسة » وهو كل شىء خلطته بغيره مثل السويق بالأقط ثم تلته بالسمن أو بالزيت ومثل الشعير بالنوى للإبل يقال بسسته أبسه بساً « والصناب » وهو الخردل مع الزبيب . « والبريك » وهو الزبد مع الرطب « والخبيط » وهو اللبن الرائب باللبن الحليب « والخليط » وهو السمن بالشحم « والنخيسة » وهو لبن الضأن يخلط بلبن المعز « والمرضة » وهى اللبن الحلو إذا اختلط مع اللبن الحامض « والوطيئة » وهى العصيدة الناعمة « النفيتة » وهى العصيدة إن ثخنت « واللفيتة » وهى النفيتة إذا زادت قليلا فإذا انعقدت وتعلكت فهى العصيدة « والخزيرة »

---

(١) الاقط : قال الازهرى يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل (٢) قال فى التاج : الاقذ سهم لاريش عليه ، وقيل هو المستوى البرى بلا زيغ فيه ولا ميل ، وقال اللحيانى : السهم حين يبرى قبل ان يراش والجمع قذ وجمع القذ قذان قال الراجز : من يثر بيات قذاذ خشن ، انهتى باختصار
(٣) هر تمر واقط وسمن وانشد :

التمـــر والسمن والاقط الحيس الا انــه لــم يختلط

أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فإذا نضج ذرّ عليه الدقيق فإن لم يكن لحم فهو عصيدة . وأول من عمل الخزيرة سويد بن هرمى ، ولذلك قال شاعرهم لبني مخزوم :

وعلمتُمُ أكل الخزير وأنتُمُ على عُدَواء الدهر صم صلاب[1]

ومن تتبع كتب اللغة ونحوها وجد غير ماذكرنا مما هو على هذا القبيل ولا يسعنا استيعابه .

***

ولائم العرب الشهيرة

الولائم جمع وليمة ، وهى كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى إليه . وقال الإمام الشافعى وأصحابه : تقع الوليمة على كل دعوة تتخذ لسرور حادث من نكاح أو ختان وغيرهما ، لكن الأشهر استعمالها عند الإطلاق فى النكاح وتقيد فى غيره ، فيقال وليمة الختان ونحو ذلك . وقال الأزهرى الوليمة مأخوذة من الولم وهو الجمع وزناً ومعنى لأن الزوجين يجتمعان . وقال ابن الأعرابى : أصلها من تتميم الشىء واجتماعه . وذهب غالب أهل اللغة إلى أن اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وهو المنقول عن الخليل بن أحمد وثعلب وغيرهما ، وجزم به الجوهرى وابن الأثير . وقال صاحب المحكم : الوليمة طعام العرس والأملاك ، وجزم الماوردى ثم القرطبي بأنها لا تطلق فى غير طعام العرس إلا بقرينة . وأما الدعوة فهى أعم من الوليمة وهى بفتح الدال على المشهور وضمها قطرب فى مثلثاته وغلطوه فى ذلك على ما قال النووى . قال : ودعوة النسب بكسر الدال وعكس ذلك بنو تيم الرباب ففتحوا دال دعوة النسب وكسروا دال دعوة الطعام انتهى . وما نسبه لبنى تيم الرباب

---

(١) العدواء ارض يابسة صلبة وربما جاءت فى البئر اذا حفرت وقد يكون حجرا يحاد عنه فى الحفر ، وقيل العدواء المكان الذى لايطمئن من قعد عليه يقال على مركب ذى عدواء أى ليس بمطمئن ، وفى المحكم جلس على عدواء أى على غير استقامة .

نسبه صاحب الصحاح والمحكم لبنى عدى الرباب فالله أعلم . . وولائم العرب ست عشرة وليمة . الأولى « الخُرْسُ » بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وهى الطعام الذى يصنع للنفَساء لسلامة المرأة من الطلق . وقيل : هو طعام الولادة . والثانية « العقيقة » وهى ما يصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع . والثالثة « الأعذار » وهى ما يصنع للختان . والرابعة « ذو الحذاق » وهى ما يصنع لحافظ القرآن فهى مما حدثت بعد الإسلام . وقيل : إنه الطعام الذى يتخذ عند حذق الصبى ذكره ابن الصباغ فى الشامل . والخامسة « الملاك » وهى ما يصنع للخطبة . ويقال الأملاك . وطعامه يسمى (الشُنْدَخ) بضم المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وقد تضم وآخره خاء معجمة مأخوذ من قولهم فرس شندخ أى يتقدم غيره سمى طعام الأملاك بذلك لأنه يقدم الدخول . والسادسة « وليمة العرس » وهى ما يصنع للدخول بالزوجة . والسابعة « الوضيمة » وهى ما يصنع للميت أى لأهل المصيبة . والثامنة « الوكيرة » وهى ما يصنع للبناء يعنى للسكن المتجدد مأخوذ من الوكر وهو المأوى والمستقر . والتاسعة « العقيرة » بعين مهملة فقاف وهى ما يصنع لهلال رجب . والعاشرة « التحفة » وهى ما يصنع للزائر . والحادية عشرة « الشُنْدُخ » بالشين المعجمة والدال المهملة المضمومتين آخره خاء معجمة وهى ما يصنع عند وجود الضالة وقد سبق أنه يطلق أيضاً على طعام الأملاك والثانية عشرة « النقيعة » بالقاف ثم العين المهملة وهى ما يصنع للقدوم من السفر وقيل : النقيعة التى يصنعها القادم والتى تصنع له تسمى التحفة . والثالثة عشرة « القرى » وهى ما يصنع للضيف . والرابعة عشرة « المأدبة » وهى ما ليس له سبب من ذلك . والخامسة عشرة « الجَفَلَى » بفتح الجيم والفاء . وهى التى تعم دعوتها . والسادسة عشرة « النَقَرى » بفتح النون والقاف وهى التى تخص دعوتها . قال طَرَفة :

نحن فى المشتاةِ ندعو الجَفَلَى   لاترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِر

وصف قومه بالجود وأنَّهم إذا صنعوا مأدبة دعوا إليها عموماً لا خصوصاً وخص أيام الشتاء لأنهـا مَظِنَّةُ قلة الشيء وكثرة احتياج من يدعى ، والآدب بوزن اسم الفاعل من المأدبة وينتقر مشتق من النَّقَرى .

أوانى العرب المميزة بأسماء مخصوصة

وحيث فرغنا من الإشارة الى ما كانوا عليه من أمر المطعم ناسب أن نذكر آنيتهم . وهى الدسيعة بالسين والعين المهملتين بوزن كريمة . والجفنة والقصعة والمكتلة والفَيْخَة بفتح الفاء والخاء المعجمة وتسمى بالسكرجة أيضاً بضم السين المهملة والكاف والراء المشددة وبالجيم إناء صغير لا يشبع الرجل والصحفة تشبع الرجل . والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة . والقصعة تشبع الأربعة والخمسة . والجفنة تشبع السبعة إلى العشرة . والدسيعة أكبرها . وقيل أكبرها الجفنة وهى التى يذكرها الشعراء فى شعرهم فى الغالب كقوله :

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نجدة دما

وقد نقدت الخنساء على هذا البيت كما فى المفتاح فقالت أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف . ألا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأىّ فخر فى أن يكون جفنته وقت الضخوة وهو وقت تناول الطعام غراء لا معة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ثم أنّى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة . وقد قال وأسيافنا يقطرن . أما كان يجب أن يتركها إلى يسلن أو يفضن أو ما شاكل ذلك .

عادات العرب فى الشرب

اعلم أن عادات العرب فى الشرب وآدابهم فيه قد جاءت الشريعة بكثير منها وهى مفصلة فى كتبها . منها : الشرب قاعداً قالوا : فإن للشرب قائمـا آفات

عديدة ، منها أنه لا يحصل له الرى التام ولا يستقر الماء فى المعـدة حتى يقسمه الـكبد على الأعضاء وينزل بسرعة وحـده إلى المعدة فيخشى منـه أن يبرد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج . وكل هذا يضر بالشارب وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة لم يضره ولا يعترض بالعوائد على هذا فإن العوائد طبائع ثوان ولها أحكام أخرى وهى بمنزلة الخارج عن القياس . ومن آدابه أن يقطع عن الشرب ثلاث مرات . فإنه أروى وأمرأ وأبرأ . فأروى أشـد ريًّا وأبلغه وأنفعه وأبرأ من البرء وهو الشفاء أى يبرأ من شدة المطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات فتسكن الدفعـة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه والثالثة ما عجزت الثانية عنه . وأيضاً فإنه أسلم لحرارة المعدة وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلةً واحدة ونهلة واحـدة ، وأيضاً فإنه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة ثم يقلع عنها ولم يكسر سوْرتَها وحدتَها فان انـكسرت لم تبطل بالـكلية بخلاف كسرها على التدريج ، وأيضاً فانه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة فإنه يخاف منه أن يطفىء الحرارة الغريزية بشدة برده وكثرة كميته أو يضعفها فيؤدى ذلك إلى فساد مزاج المعدة والـكبد وإلى أمراض رديئة خُصوصاً فى سكان البلاد الحارة كالعراق والحجاز واليمن ونحوها وفى الأزمنة الحارة كشدة الصيف ، فإن الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جـداً فإن الحار الغريزى ضعيف فى بواطن أهلها وفى تلك الأزمنة الحارة . وأما كونه أمْرَأ فإنه من مرىء الطعام والشراب فى بدنه إذا دخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع ومنـه فـكلوه هنيئاً مريئاً . هنيئاً فى عاقبته ، مريئاً فى مذاقه . وقيل معناه أنه أسرع انحدارا عن المرى لسهولته وخفته عليه بخلاف الـكثير فإنه لا يسهل على المرى انحداره

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يخاف منـه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لـكثرة الوارد عليه فيغص به فإذا تنفس رويداً ثم يشرب أمن من ذلك

ومن فوائد القطع ثلاثاً . إن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانى الحار الذى كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه فأخرجته الطبيعة عنها فإذا شرب مرة واحدة اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار فيتدافعان ويتعالجان ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يهنأ الشارب بالماء ولا يمر به ولا يتم ريه . وقد ورد فى الحديث إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً ولا يعب عباً فإنه من الكُباد . والكباد بضم الكاف وتخفيف الباء هو وجع الكبد . وقد علم بالتجربة أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها و يضعف حرارتها ، وسبب ذلك المضادة التى بين حرارتها وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ولو ورد بالتدريج شيئاً فشيئاً ولم يضادد حرارتها لم يضعفها . وفى الحديث أيضاً لا تشربوا نَفَساً واحداً كشرب البعير لكن اشربوا مثنى وثلاث وسموا إذا أنتم شربتم واحمدُوا إذا أنتم فرغتم . ومن الآداب قطع النفس عند الشرب فإن الشارب إذا تنفس فى القدح تخالط نفسه الماء استقذر وربما سقط من أنفه فى الماء ما يستكره وأحدث فيه داء وربما كان فى فم النافخ رائحة كريهة يعاف الماء لأجلها إلى غير ذلك من المضار وكانوا يكرهون الشرب من ثلمة الإناء وهذا من الآداب التى يتم بها مصلحة الشارب فإن الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد . أحدها أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح الثانى أنه ربما يشوش على الشارب ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة . الثالث أن الوسخ والزهومة يجتمع فى الثلمة ولا يصل إليها الغسل كما يصل إلى الجانب الصحيح . الرابع أن الثلمة محل العيب فى القدح وهى أردأ مكان فيه فينبغى تجنبه وقصد الجانب الصحيح فإن الردىء من كل شىء لا خير فيه . ورأى بعض السلف رجلا يشترى حاجة رديئة فقال لا تفعل إن الله تعالى نزع البركة من كل ردىّ . الخامس أنه ربما كان فى الثلمة شق وتحديد يجرح شفة الشارب . وكانوا يكرهون أيضاً الشرب من فم السقاء ، لأن تردد أنفاس الشارب

فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يعاف لأجلها وربما غاب الداخل إلى جوفه من الماء فتضرر به ، وربما كان فيه حيوان لا يشعر به فيؤذيه ، وربما كان فى الماء قذارة أو غيرها لا يراها عند الشرب فتلج جوفه . وكانوا يحثون على تغطية الإناء لما فى انكشافه من المحاذير التى لا تخفى . وفى الحديث : غطوا الإناء ، وأوكوا السقاء .

ما يعتبر به جودة الماء عند العرب

تعتبر جودة الماء من عشرة طرق . أحدها من لونه بأن يكون صافياً الثانى : من رائحته بأن لا يكون له رائحة البتة . الثالث : من طعمه بأن يكون عذب الطعم حلوه كالنيل والفرات ونحوها . الرابع : من وزنه بأن يكون خفيفاً رقيق القوام . الخامس : من مجراه بأن يكون طيب المجرى والمسلك . السادس : من منبعه بأن يكون بعيد المنبع . السابع : من بروزه للشمس والريح بأن لا يكون مختفياً تحت الأرض فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته . الثامن : من حركته بأن يكون سريع الجرى والحركة . التاسع : من كثرته بأن يكون له كثرة تدفع المخالطة له . العاشر : من مصبه بأن يكون آخذاً من الشمال إلى الجنوب أو من المغرب إلى المشرق . وإذا اعتبرت هذه الأوصاف لم تجدها بكمالها إلا فى النيل والفرات وسيحون وجيحون ونحوها . وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه . أحدها سرعة قبوله للحر والبرد . الثانى : بالميزان . الثالث : أن تبل قطنتان متساويتان الوزن بمائين مختلفين ثم يجففا بالغاً ثم توزنا فأيهما كانت أخف فماؤها كذلك .

والماء وإن كان فى الأصل بارداً رطباً فإن قوته تنتقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها فإن الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأخر يكون بارداً وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال . وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر . والماء الذى ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المَعْدِن ويؤثر فى البدن تأثيره

والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء والبارد منه أنفع وألذ . قالوا : ولا ينبغى شربه على الريق ولا عقب الجماع ولا عند الانتباه من النوم ولا عقب أكل الفاكهة ، وأما على الطعام فلا بأس به إذا اضطر إليه بل يتعين ولا يكثر منه بل يتمصه مصاً فإنه لا يضره البتة بل يقوى المعدة وينهض الشهوة ويزيل العطش . والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه وبائته أجود من طريه . قالوا : والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه فى الخارج والحار بالعكس ، وينفع البارد من عفونة الدم وصعود الأبخرة من الرأس ويدفع العفونات ويوافق الأمزجة والأسنان والأزمان والأماكن الحارة ويضر كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل كالزكام والأورام ، والشديد البرودة منه يؤذى الأسنان ، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر . والبارد والحار بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء لأن أحدهما محلل والآخر مكثف . والماء الحار يسكن لذع الأخلاط الحادة ، ويحلل وينضج ويخرج الفضول ويرطب ويسخن ويفسد الهضم شربه ويطفو بالطعام إلى أعالى المعدة ويرخيها ولا يسرع فى تسكين العطش ويذبل البدن ويؤدى إلى أمراض رديئة ويضر فى أكثر الأمراض ، وعلى أنه صالح للشيوخ وأصحاب الصرع والصداع البارد والرمد وأنفع ما استعمل من خارج والشديد السخونة يذيب شحم الكلى . وعلى كل حال أن المـاء البارد أنفع ولا سيما إذا خالطه ما يحليه كالعسل والزبيب والسكر ونحو ذلك فإنه من أنفع ما يدخل البدن وأحفظ عليه صحته . ولهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم البارد الحلو . ولما كان الماء البائت أنفعَ من الذى يشرب وقت استقائه قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد دخل إلى حائط أبى الهيثم بن التيهان : هل من ماء بات فى شَنّهِ ؟ فأتاه به فشرب منه ، فإن الماء البائت بمنزلة العجين الخمير والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير وأيضاً فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات والمـاء الذى فى القرب والشنان ألذ من الذى يكون فى آنية الفخار والأحجار

وغيرها عندهم ولا سيما أسقية الأدم ، ولهذا التمس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماء بات فى شنه دون غيرها من الأوانى ، وفى الماء إذا وضع فى الشنان خاصية لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التى يرشح منها الماء ، ولهذا كان الماء فى الفخار الذى يرشح ألذّ منه وأبرد فى الذى لا يرشح .

المياه المشهورة عند العرب

منها ماء (الغيث) وهو لديهم لذيذ الاسم على السمع والمسمى على الروح والبدن تبتهج أسماعهم بذكره ، وقلوبهم بوروده ، وماؤه ألطف المياه وأفضلها وأنفعها وأعظمها بركة ، ولا سيما إذا كان من سحاب راعد واجتمع فى مستنقعات الجبال وهو أرطب من سائر المياه لأنه لم تطل مدته على الأرض فيكتسب من يبوستها . ولم يخالطه جوهر يابس ولذلك يتغير ويتعفن سريعاً للطافته وسرعة انفعاله وهل الغيث الربيعى ألطف من الشتوى أو بالعكس فيه قولان ، قال من رجح الغيث الشتوى : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل فلا يجتذب من ماء البحر إلا ألطفه والجوّ صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية والغبار المخالط للماء ، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه وخلوه من مخالط . وقال من رجح الربيعى : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة وتوجب رقة الهوى ولطافته فيخف بذلك الماء وتقل أجزاؤه الأرضية وتصادف وقت حيوة النبات والأشجار وطيب الهواء .

ومنها ماء (الثلج) و (البَرد) و (الجمد) وهذا الماء قليل عندهم لغلبة الحرارة على قطرهم ولكونه لديهم من أنفع المياه وأنقاها . ورد فى الحديث : اللهم اغسلنى من خطاياى بماء الثلج والبَرَد . والثلج له فى نفسه كيفية حادة دخانية فماؤه كذلك ، والحكمة فى طلب الغسل من الخطايا بمائه ما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية ، ويستفاد من هذا الأصل طب الأبدان والقلوب ومعالجة أدوائها بضدها ، وماء البَرد ألطف وألذ من ماء الثلج . وأما ماء الجمد وهو الجليد فبحسب أصله ، والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التى يسقط عليها

فى الجودة والرداءة وينبغى تجنب شرب الماء المثلوج عقب الاستحمام والجماع والرياضة والطعام الحار ولأصحاب السعال ووجع الصدر وضعف الكبد وأصحاب الأمزجة الباردة .

ومنها ماء (الآبار) و (القناء) و (العيون) وهذه المياه غالب مياه العرب . وقد جمع بعض الأدباء المتقدمين أسماء مياههم فى رسالة لطيفة وذكر أصحابها جاهلية وإسلاماً وما ورد فيها من الشعر ممايطول ذكره . ومياه الآبار قليلة اللطافة وماء القناء المدفونة تحت الأرض ثقيل لأن أحدها محتقن ولايخلو عن تعفن والآخر محجوب عن الهواء . وينبغى أن لايشرب على الفور حتى يصدر للهواء ، وتأتى عليه ليلة . وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص أوكانت بئره معطلة ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة فهذا الماء دنِيٌّ وخيم . وأما ماء بئر زمزم فهو عند العرب جاهلية وإسلاماً سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمناً وأنفسها ، وهو هزمة جبريل وسقيا أسماعيل عليهما السلام ، وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنه قال لأبى ذروقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة وليس له طعام غيره : فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنها طعام طعم ، وشفاء سقم . وفى الحديث : ماء زمزم لما شرب له . وقد جرب كثير من الناس من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة ، وقد شوهد من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من الشهر ولا يجد جوعاً ويطوف مع الناس كأحدهم . وأما مياه العيون فالغالب عليها الثقل كأكثر مياه الآبار . وللأصمعى رسالة ذكر فيها ما اعتبرته العرب من الأسماء فى البئر وأنواعها وآلاتها وهى فريدة فى بابها ، وسنذكر إن شاء الله عند الكلام على علومهم ما لهم من اليد الطولى فى معرفة استنباط المياه وإجرائها وإن قسماً منهم يقال لهم (النصاتون) يضع أحدهم أذنه على الأرض فيعلم مسافة بعد الماء فى تلك الأرض .

أسماء أوانى المياه عند العرب

كما أن لأوانى الأطعمة أسماءً مخصوصةً كذلك لأوانى الشرب أسماء تخص

كلاًّ منها عن الآخرى ، وقد استوعبها ابن فارس وغيره فى كتب فقه اللغة . منها « التبن » بكسر التاء وفتحها قال فى القاموس هو قدح يروى العشرين . ومنها « الصحن » وهو العُسُّ العظيم . ومنها « العس » وهو القدح العظيم . ويقال : إنه الذى يروى الثلاثة والأربعة . ومنهـا « القَدَح » بفتح القاف والدال قال فى القاموس هو آنية تروى الرجلين ومنها « القَعْب » بفتح القاف وسكون العين قال فى القاموس : هو القدح الضخم الجافى أو إلى الصغر يروى الرجل . ومنها « الغُمَرْ » بضم الغين المعجمة وفتح الميم وهو قدح صغير أو أصغر الأقداح ، ويقال تغمر الرجل إذا شرب به .

تقديم العرب الأيمن فى الشرب

إن العادة كانت جارية بين ملوك الجاهلية ورؤسائهم بتقديم الأيمن فى الشرب وكانت عادة العرب مجاراة ملوكهم بتقديم الأيمن فالأيمن فى أىّ شرب كان وعلى ذلك قول عمرو بن كُلثوم فى معلقته وهو :

صددتِ الكأسَ عنا أمَّ عمروٍ وكان الكأسُ مجراها اليمينا

وقد أقر الشرع هذه العادة ولم يغيرها لفضل اليمين على اليسار . ولهم فى شرب الخمور عوائد وآداب مذكورة فى كتاب (مساوى الخمرة) وكذلك أسماء أوقاته كالصَبُوح والغَبُوق ونحو ذلك ، وهكذا لما يشرب من اللبن وذكره يطول .

عادات العرب فى سقى إبلهم وأسمائها

اعلم أن للعرب فى سقى إبلهم عوائد مختلفة ولكل منها اسم يخصه ، فكانوا إذ أوردوها كل يوم يقولون : سقيناها رفها . أى فى كل يوم . وإذا أوردوها يوماً وتركوها فى المرعى يوماً قالوا : سقيناها غبًّا . وإذا أقاموها فى المرعى بعد يوم الشرب يومين ثم أوردوها فى اليوم الثالث يقولون : سقيناها ربعاً . ولا يقولون ثلثاً أبداً لأنّهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب فيعدونها أربعة ويؤيده أنه يقال للحمى التى تأتى يوما وتنقطع يومين ثم تأتى فى الثالثة حمى الربع ، وتمام ظمأ الإبل

فى الغالب ثمانية أيام فإذا أوردوها فى اليوم التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا : سقيناها عشراً بالكسر فالعشر تسعة أيام أبداً لأن يوم الشرب الأول من العشر السابق فى الواقع لا من هذا العشر . وإذا زادوا على العشرة قالوا : أوردناها رفها بعد عشر . وحكى عن الليث أنه قال : قلت للخليل زعمت أن عشرين جمع عشر والعشر تسعة أيام . فكان ينبغى أن يكون العشرون سبعة وعشرين يوماً لتستكمل ثلاثة أتساع . قال ثمانية عشر يوماً عشران ضممت إليها يومين من العشر الثالث فجمعتها بذلك الاعتبار . قلت : هل يجوز أن تقول للدرهمين مع الدانقين ثلاثة دراهم ؟ قال : لا أقيس على هذا وإنما أقيس على قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى حيث قال : إن من طلق امرأته تطليقتين وعشر تطليقة تقع ثلاث تطليقات فكما جاز له أن يعتد بعشر تطليقة ويجعله تطليقة واحدة كاملة جاز لى أن أعتدّ بيومى عشر وأعدها عشراً كاملا .

الاختلاف فى تغذية الماء

اختلف أطباء العرب فى الماء هل يغذى البدن أم لا . فأثبت طائفة التغذية بناء على ما يشاهد من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ولا سيما عند شدة الحاجة إليه قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة . منها النموّ والاغتذاء والاعتدال . وفى النبات قوة حس وحركة تناسبه ، ولهذا كان غذاء النبات بالماء فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء أو أن يكون جزأ من غذائه التام . قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام وإنما أنكرنا أن لا تكون للماء تغذية البتة . قالوا : وأيضاً الطعام إنما يغذى بما فيه من المائية ولولاها لما حصلت به التغذية . قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشىء حصلت به التغذية فكيف إذا كانت مادته الأصلية ، فكيف ينكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟ قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرىّ بالماء البارد تراجعت إليه قواه ونشاطه

وحركته وصبر عن الطعام وانتفع بالقدر اليسير منه ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام و لا يحدثه القوة والاغتذاء . ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن وإلى جميع الأعضاء وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به ، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى إنكار الأمور الوجدانية . وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به وأنه لا يقوم مقام الطعام وأنه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولايخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته وتغذية كل شىء بحسبه وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه ، والرائحة الطيبة تغذى نوعا من الغذاء ، فتغذية الماء أظهر وأظهر .

ما يعالج به ضرر الماء

كان لهم طرق من العلاج لدفع مضرة ماء البحر إذا اضطر أحد منهم إلى شربه ، منها أن يجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف فإذا كثر عصره من عمل ذلك ولا يزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون فى الصوف من البخار ما عذب ويبقى فى القدر الزُعاق ، ومنها أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها جانبها قريبا منها أخرى ترشح هى إليها ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء . ولهم فى تصفية الماء ودفع كدورته حيل وذلك إذا ألجأت أحدهمُ الضرورة إلى شرب الماء الكدر ألقى فيه قطعة من خشب الساج أو جمراً ملتهباً يطفى فيه أو طينا أرمنيا أو سويق حنطة ، فإن كدورته ترسب إلى أسفل .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول ــ فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى ــ فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث ــ فى أسماء البلدان والقبائل

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية ــ بمصر

الفهرس الأول

فى مواضيع الكتاب

أنظر فهرس أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

بلوغ الأرب
في معرفة أحوال العرب

تأليف
السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه
محمد بهجة الأثري

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلام على عوائد العرب فى الازدواج والتناكح أيام الجاهلية

كان النكاح فى الجاهلية على أنحاء[1] : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطِبُ الرجل إلى الرجل وليته أو[2] ابنته فيُصْدِقُهَا[3] أى يعين صداقها ويسمى مقداره ثم يعقد عليها ، وكانوا يخطبون المرأةَ إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بنى عمها ، وكان الخاطب يقول إذا أتاهم : أنعموا صباحاً[4] . ثم يقول : نحن أكفاؤكم ونظراؤكم فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا وكنا لصهركم حامدين ، وإن رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين . فإن كان قريب القرابة من قومه قال لها أبوها أو أخوها إذا حملت إليه : أيسرتِ وأذكرتِ ولا أنثتِ جعل الله منكِ عدداً وعزًّا وخلداً . أحسنى خلقك ، وأكرمى زوجك ، وليكن طيبك الماء .. وإذا زوجت فى غربة قال لها : لا أيسرتِ ، ولا أذكرتِ ، فإنك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسنى خلقَكِ ، وتحببى إلى أحمائك ، فإن لهم عيناً ناظرةً إليك ، وأذناً سامعة إليك ، وليكن طيبك الماء . وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب فى النكاح ، فإن الله تعالى استخصّ رسولَهُ من أطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلابٍ طاهرة ، إلى

---

(١) جمع نحو أى ضرب وزنا ومعنى ؛ ويطلق النحو أيضا على الجهة والنوع وعلى العلم المعروف اصطلاحا (٢) أو هنا للتنويع لا الشك (٣) قوله يصدقها بضم أوله والصداق بفتح الصاد وكسرها مأخوذ من الصدق لاشعاره بصدق رغبة فى الزوجة وفيه سبع لغات ، وله ثمانية أسماء يجمعها قوله :

صداق ومهر نحلة وفريضة حباء وأجر ثم عقر علائق

(٤) راجع باب تحية ملوك العرب فى هذا الجزء .

أرحام طاهرة ، واستخلصه من أكرم العناصر ، وأمده بأوكد الأواصر [١] ، حفظاً لنسبه من قدح ، ولمنصبه من جرح ، لتكون النفوسُ له أوطا ، والقلوب له أصغى ، فيكون الناس إلى إجابته أسرع ، ولأوامره أطوع . ومنها :

(نكاح آخر) كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طَمْثِها — أى حيضها — أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه — أى اطلبى منه الجماع — لتحملى منه . والمباضعة : المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج . ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبينَ حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد أى اكتساباً من ماء الفحل لأنهم كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم فى الشجاعة أوالكرم أو غير ذلك . وكان السر فى كون ذلك بعيد الطهر أن يسرع علوقها منه ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ومنها .

(نكاح آخر) يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبها أى يطؤها وذلك إنما يكون عن رضا منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تَضَعَ حملَها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كانَ من أمركم وقد ولدتُ فهو ابنك يافلان تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها لايستطيع أن يمتنعَ به الرجل . قيل : هذا إن كان ذكراً ، وإلا فلا تفعل ذلك لما عرف من كراهتهم فى البنت وقد كان منهم من يقتل بنته التى يتحقق أنها بنت فضلا عمن تجىء بهذه الصفة . ومنها :

(نكاح) يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمنع من جاءها وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن راياتٍ تكون عَلَماً فمن أرادهن دخل عليهنّ ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [٢] ثم ألحقوا ولدها بالذى

(١) جمع آصرة وهى الرحم والقرابة والمنة (٢) جمع قائف بقاف ثم فاء وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية .

يرون فالتاطته به[١] ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك . وقد ساق هشام ابن الكلبي في (كتاب المثالب) أسامي صواحبات الرايات في الجاهلية فسمى منهن أكثر من عشر نسوة مشهورات . منهن امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح في الجاهلية فأراد بعض الصحابة أن يتزوجها فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك »[٢] . ومنها .

(نكاح الخدن) وهو المشار إليه بقوله تعالى: « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »[٣] كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم . ومنها :

(نكاح المتعة) وهو تزويج المرأة إلى أجل فإذا انقضى وقعت الفرقة . ومنها :

(نكاح البدل[٤]) وهو أن يقول الرجل للرجل . انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي . ومنها :

(نكاح الشغار) وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوّجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق وغير البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك ، فذكر البنت في تفسير الشغار مثال :

---

(١) في رواية الكشميهني فالتاط بغير مثناة اى استلحقته به . وأصل اللوط بفتح اللام اللصوق (٢) قلت : ومنهن ايضا عناق وكانت صديقة مرثد في الجاهلية وكان رجلا شديدا وكان يقال له دلدل وبعد ان أسلم لقى صديقته فدعته الى نفسها فقال ان الله قد حرم الزنا ، وسريفة جارية زمعة بن الاسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤى ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو ابن عثمان المخزومى ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر .

وهؤلاء البغايا لسن من قريش ولا من صميم العرب بل هن من الاماء السواقط يدل عليه قوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) لأن الفتيات في عرف القرآن لا تطلق الا على الاماء ، يدل عليه قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ولو وجد بغى بين حرائر العرب لما خص النهى عن البغاء بالاماء فتخصيص النهى بالاماء يدل على ان البغاء لم يكن بين حرائر العرب وان انفة العرب عن بغاء الحرائر قد أغنى عن نزول النهى عنه ، والتفصيل في ردنا على كتاب المثالب لابن الكلبى الزنيم (٣) أى أصدقاء واحدهم خدن (٤) أخرجه الدارقطنى من حديث أبى هريرة ولكن اسناده ضعيف جدا كما ذكر الحافظ العسقلانى في الفتح

مقاصد العرب من الزواج

لم تزل العرب تجتذب البعداء ، وتتألف الأعداء ، بالمصاهرة حتى يرجع المنافر موانساً ، ويصيرَ العدو موالياً ، وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين ، وموالاة بين العشيرتين ، وإنما كانت سبباً من أسباب الألفة لأنها استحداث أصله وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار ، انعقدا على خير وإيثار ، فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة . حكى عن خالد بن يزيد[1] .

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن ابى سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف — كان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء فأفنى بذلك عمره واسقط نفسه ، وام خالد بن يزيد ام هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

ولما فتل ابن الزبير حج خالدبن يزيدبن معاوية فخطب رملة بنت الزبير بن العوام فأرسل اليه الحجاج حاجبه عبيد الله بن موهب وقال له : ماكنت أراك تخطب الى آل الزبير حتى تشاورنى وكيف خطبت الى فوم ليسوا لك بأكفاء وكذلك قال جدك معاوية وهم الذين قارعوا اباك على الخلافة ورموه بكل قبيحة وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة ، فنظر اليه خالد طويلا ثم قال له : اولا انك رسول والرسول لايعاقب اقطعتك اربا اربا تم طرحتك على باب صاحبك ، قل له : ماكنت ارى أن الأمور بلغت بك الى ان أشاورك فى خطبة النساء ، وأما قولك لى : قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح ، فانها قريش يقارع بعضها بعضا ، فاذا أقر الله عز وجل الحق قراره كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر احلامهم وفضلهم ، واما قولك : انهم ليسوا بأكفاء فقاتلك الله ياحجاج ما اقل علمك بأنساب قريش أيكون العوام كفؤا لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية وبتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد ولا تراهم اهلا لأبى سفيان ؟ فرجع الحاجب اليه فأعلمه ، وقال عمرو بن شبة فى خبره : قال خالد بن يزيد بن معاوية فيها :

اليس يزيد السير فى كل ليلة ... وفى كل يوم من أحبتنا قربا
احن الى بنت الزبير وقد علت ... بنا العيس خرقا من تهامة او نقبا
اذا نزلت أرضا تحبب اهلها ... الينا وان كانت منازلها حربا
وان نزلت ماء وان كان قبلها ... مليحا وجدنا ماءه باردا عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا ارى ... لرملة خلخالا بجول ولا قلبا
اقلوا على اللوم فيها فاننى ... تخيرتها منهم زبيرية قلبا
احب بنى العوام طرا لحبها ... ومن حبها احببت أخوالها كلبا

قال أبو زيد وزادوا فى الأبيات :

فان تسلمى نسلم وان تتنصرى ... يحط رجال بين أعينهم صلبا

فقال له عبد الملك تنصرت ياخالد قال وما ذاك ؟ فأنشده هذا البيت فقال له خالد : على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله (راجع الأغانى ح ١٦ ص ٨٤ الخ)

أنه قال : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير حتى تزوجت منهم (رملة) فصاروا أحب خلق عز وجل إلىّ . وفيها يقول :

أُحبُّ بنى العوّام طراً لأجلها ومن أجلها أحببتُ أخوالها كلبا
فإن تُسلمى نُسلِمْ وإن تتنصرى يخطّ رجالٌ بين أعينهم صُلبا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل إليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة ، فلا يجد إلى المخالفة سبيلا ، ولا إلى المباينة والمشاقة طريقا . ولما فى النكاح من حصول الألفة أكثرت العرب من النساء ، وكان عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تسع نسوة . والذى تحصل من كلام أهل العلم فى الحكمة فى سبب استكثاره من النساء عشرة أوجه . أحدها : أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فينتفى عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك . ثانيها : لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم ، ثالثها : للزيادة فى تألفهم لذلك . رابعها : للزيادة فى التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حبب إليه منهن عن المبالغة فى التبليغ . خامسها : لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه . سادسها : نقل الأحكام الشرعية التى لا يطلع عليها الرجال لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفى مثله . سابعها : الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة فقد تزوج أم حبيبة وأبوها إذ ذاك يعاديه ، وصفيةَ بعد قتل أبيها وعمها وزوجها فلو لم يكن أكمل الخلق فى خلقه لنفرن منه بل الذى وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن . ثامنها : لإظهار المعجزة البالغة فى خرق العادة فى كثرة الجماع مع التقليل من المأكول والمشروب ، وكثرة الصيام والوصال ، وقد أمر من لم يقدر على مُؤَن النكاح بالصوم ، وأشار إلى أن كثرته تكسر شهوته ، فانخرقت هذه العادة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم . تاسعها : للدلالة على كمال بشريته ، والعرب كانت تمدح بكثرة النكاح لدلالته على الرجولية . عاشرها : إن ذلك زاده عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن ، واكتسابه لهن

وهدايته لهن ، ولم ينصف من نقد فى هذا الأمر فإنه لم يكن بِدْعاً [1] من الرسل فى ذلك فإن التزوج لا ينافى النبوة وأن الجمع بينهما قد وقع فى رسل كثيرة قبله . ذكر أنه كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهرية وسبعمائة سرية وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة .

ومن مقاصدهم فى الزواج

القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وإن كان مختصاً بمعاناة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لأنه قد يجوز أن يعانيَهُ غيرهن من النساء ، ولذلك قيل : المرأةُ ريحانة ، وليست بقهرمانة [2] . وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة ، والأحمد فى مثل هذا التماس ذوى الأسنان والحنكة فمن قد خبرن تدبير المنزل وعرفن عادات الرجال فإنهن أقوم بهذه الحال ، وقد يكون المقصود به الاستمتاع وهذه الحال مذمومة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهواته الذميمة ، وقد قال الحارث بن النضر الأزدى . شر النكاح نكاح الغلمة إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالإضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عينٌ لريبة ، ولا تنازعه نفس إلى فجور ، ولا يلحقَه فى ذلك ذم ، ولا ينالَه وصْم [3] ، وهو بالحمد أجدر ، وبالثناء أحق . ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر إلى الإماء كان أكمل لمروءته ، وأبلغ فى صيانته . وهذه الحال تَقِفُ على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الأمور ، وهى أخطر الأحوال بالمنكوحة لأن الشهوات غايات متناهية يزولُ بزوالها ما كان متعلقاً بها ، فتصير الشهوة فى الابتداء ، كراهيةً فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب فى الجاهلية البنات ، ووأدتهن [4] إشفاقاً عليهن وحميةً

---

(١) يقال فلان بدع فى هذا الأمر : اى هو أول من فعله ، وفى التنزيل « قل ماكنت بدعا من الرسل » اى ما أنا اول من جاء بالوحى من عند الله وتشريع الشرائع بل ارسل الله تعالى الرسل قبلى مبشرين ومنذرين فأنا على هداهم

(٢) القهرمانة : بلغة الفرس القائمة بأمر الرجل (٣) الوصم : العار

(٤) وأد بنته يئدها : دفنها حية

لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال . وكان من تحَوَّبَ[1] من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتُهن أحبَّ إليه ، وآثَرَ[2] عنده . ولما خطب إلى عقيل بن علقمة ابنته الحرباء قال : إني وإن سيق إليَّ المهر ألف وعُبدان وذَوْد[3] عشر أحب أصهاري إليَّ القبر . وقال عبد الله بن طاهر .

لكل أبي بنت يراعي شئونها ثلاثة أصهار إذا حُمِدَ الصهرُ[4]
فبَعْلٌ يُراعيها وخِدْرٌ يُكنّها وقبرٌ يواريها وأفضلُها القبر[5]

ومن مقاصدهم

التناسل والتوالد فقد كانت العرب ترغب في النكاح لطلب الولد وتقول من لايلد لاولد . ولذلك كانوا يلتمسون الحداثة والبكارة لأنها أخص بالولادة وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : عليكم بالأبكار فانهن أعذب أفواهاً وأنتقُ أرحاماً وأرضى باليسير » ومعنى قوله « أنتق أرحاماً » أي أكثر أولاداً .

وقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه : « عليكم بالأبكار فإنهن أكثر حباً وأقل خنا » . وهذه الحال هي أولى الأحوال ، لأن النكاح موضوع لها والشرع وارد بها ، وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : سوداء ولود خير من حسناء عاقر . وقد كان العرب يختارون لمثل هذه الحال إنكاح البعداء والأجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون إنكاح الأهل

(١) التحوب : التأثم من الشيء (٢) أي أفضل (٣) عبدان جمع عبد وهو المملوك ، والذرد : من الابل مابين الثلاث الى العشر ، والذود مؤنثة لأنهم قالوا ليس في أقل من خمس ذود صدقة والجمع أذواد مثل ثوب وأثواب

(٤) الأصهار جمع صهر ، قال الخليل : هو أهل بيت المرأة » قال : ومن العرب من يجعل الاحماء والاختان جميعا أصهارا ، وقال الأزهري : الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوى المحارم وذوات المحارم كالأبوين والأخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ومن كان من قبل الزوج من ذوى قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضا ، وصاهرت اليهم اذا تزوجته منهم (٥) البعل : الزوج ، والخدر : الستر ويطلق على البيت ان كان فيه امرأة والا فلا ، ويكنها بضم الياء يسترها ، وواراه موارة : ستره

والأقارب ويرونه مضراً بخلق الولد بعيداً من نجابته . ويقولون إن ولد الغيرىّ لاينجب وإنّ أنجب النساء الفروك[١] لأن الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال ، ويزعمون أن تقارب الأنساب مدح فى الإبل لأنه إنما يكون فى الكرايم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعها وهو ذم للناس لأنه فيهم سبب للضعف . وفى الحديث: اغتربوا لا تَضْوَوْا . أى إن تزوج القرائب يوقع الضَوَى فى الولد والضَوَى بالضاد المعجمة بوزن الهوى مصدر ضَوِى بالكسر يضْوَى بالفتح بمعنى الضعف والهزال ، ولذلك يمدحون بضد ذلك كقول راجزٍ :

إنّ بلالاً لم تشنه أمه لم يتناسب خاله وعمه

وقول شاعر :

فتًى لم تلده بنتُ عم قريبة فيَضْوَى وقد يَضْوَى رذيلُ الأقاربِ

وقال آخر :

تجاوزتُ بنت العم وهى حبيبة مخافةَ أن يضْوَى علىّ سليلى

ومن هذا القبيل ما يحكى عن العرب أيضاً أن التهجينَ مدحٌ فى الإبل وذم فى الآدميين لأن معناه فى الإبل كرم الأبوين ، وفى الآدميين أن يكون الأب عربياً والأم أمَةً ، يقال منه رجل هجين وإن كان الأمر بالعكس قيل : رجل مُقْرِفٌ وفَلَنقَس بوزن سفرجل أوله فاء ورابعه قاف ، قال الراجز :

العبدُ والهجين والفلنقسُ ثلاثةٌ فأيهم تلتمسُ

وقال الشاعر:

كم بجودٍ مقرفٌ نال الغنى وكريم بُخْلُهُ قد وضعَهْ

وقالوا : إن الرجل إذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت .

---

(١) هى التى تبغض الرجل ، قال القطامى :

لها روضة فى القلب لم يرع مثلها فروك ولا المستعبرات الصلائف

قال أبو كبير الهذلي :

ولقد سَرَيْتُ على الظلام بِمِغْشَمٍ ... جَلْدٍ من الفتيان غير مُثَقَّلِ (١)

ممن حَمَلْنَ به وهنَّ عواقِدٌ ... حُبُكَ النِطاقِ فشبّ غيرَ مُهَبَّلِ (٢)

حَمَلَتْ به في ليلةٍ مَزْءُودَةٍ ... كُرْهًا وعَقْدُ نِطاقِها لم يُحْلَلِ (٣)

فأتت به حُوشَ الفؤادِ مُبَطَّنًا ... سهُدًا إذا ما نامَ ليلُ الهَوْجَلِ (٤)

ومُبَرَّءٍ من كل غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وفسادِ مُرْضِعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ (٥)

وإذا نَبَذْتَ له الحصاةَ رأيتَهُ ... يَنْزُو لوقعتها طُمُورَ الأَخْيَلِ (٦)

وإذا يَهِبُّ من المنام رأيتَهُ ... كرُتُوبِ كعبِ الساق ليس بزُمَّلِ (٧)

ما إنْ يَمَسّ الأرضَ إلا منكبٌ ... منه وحرفُ الساقِ طيَّ المِحْمَلِ (٨)

وإذا رميت به الفِجاجَ رأيتَهُ ... يهوي مخارِمَها هُوِيَّ الأَجْدَلِ (٩)

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وَجهِهِ ... برَقَتْ كبرق العارض المتهلّلِ (١٠)

---

(١) يقال سريت بمعنى سرت ، وعلى الظلام اى في الظلام ، والمغشم : من يرتكب الأمور على غير نظر فيها ، والمثقل : الثقيل على النفوس (٢) الحبك : الطرائق ، والنطاق من ملابس النساء ، والمهبل : المدعو عليه بالهبل بفتح الباء وهو ان تفقده امه (٣) الزؤد : الفزع ونسبه الى الليلة اوقوعه فيها ، وأظهر التضعيف في لم يحلل وهو في لغة تميم ووجه الكلام لم يحل (٤) حوش الفؤاد : اى اذكى الفؤاد ، والمبطن الخميص البطن ، والسهد : من السهاد وهو السهر ، والهوجل : الثقيل الكسلان ، وقيل الأحمق لامسكة به ، وجعل الفعل لليل لأنه يقع به (٥) قوله غبر حيضة أى بقايا حيضة ، والمغيل من الغيلة بكسر الغين وهو ان تغشى المراة وهي ترضع (٦) قوله ينزو : أي يثب ، والطمور : الوثوب من علو الى اسفل ، والأخيل : طائر هو الشاهين (٧) الهبوب : الانتباه من النوم ، ورايته اى رايت رتوبه فحذف المضاف والرتوب القيام والانتصاب ، والزمل : الضعيف (٨) ان زيدت لتوكيد النفي ، وطي المحمل انتصب على المصدر دل عليه ماقبله لأنه لما قال يمس الأرض منه اذا نام جانبه وانه حرف الساق علم انه مطوى غير سمين ، والمعنى انه اذا نام لاينبسط على الأرض ولا يتمكن منها بأعضائه كلها حتى لايكاد يتشمر عند الانتباه بسرعة ، والمحمل : حمالة السيف (٩) الفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع في جبل او غيره ، والمخارم جمع مخروم وهو منقطع انف الجبل ، والأجدل : الصقر وهذا الكلام كناية عن كونه صاحب همم اذا نيطت به الصعاب ذالها (١٠) اسرة وجهه اى خطوط جبهته ، والعارض من السحاب مايعرض في جانب السماء ، والمتهلل المتلألىء بالبرق ، وروى في الحماسة بعد هذا بيتا وهو :

صعب الكريهة لايرام جنابه ... ماضي العزيمة كالحسام المقصل

الكريهة اسم للحرب والجناب الفناء والحسام السيف والمقصل القطاع

يحمى الصحابَ إذا تكون كريهةٌ   وإذا همُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ[١]

وقد ذكر التبريزى قصة هذه الأبيات وتفسير ألفاظها فى شرح الحماسة[٢]

ومقصود الهذلى وصف ربيبه تأبط شرًّا بأنه جمع جميع أوصاف الرجال المحمودة ومعنى قوله ممن حملن به الخ إنه من الفتيان الذين حملتهم أمهم وهن غير مستعدات للفراش فنشأ محموداً مرضياً لم يدع عليه بالهَبَل والثكل . وحكى عن بعضهم : إذا أردت أن تنجب المرأة فأغضبها عند الجماع ، ولذلك يقال فى ولد المذعورة : إنه لا يطاق .

قال الشاعر :

تسنمتُها غَضْبى فجاء مُسَهَّدًا   وأنفع أولاد الرجالِ المسهدُ

وقال المبرد فى الكامل : يقال أنجب الأولاد ولد الفارك وذلك لأنها تبغض زوجها فيسبقها بمائه فيخرج الشبه إليه فيخرج الولد ذكراً . وقال بعض الحكماء من العرب : إذا أردت أن تنجب المرأة فأغضبها ، ثم قع عليها فإنك تسبقها بالماء وكذلك ولد الفزعة كما قال أبو كبير : وأنشد البيتين ، والنطاق بكسر النون شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة والأسفل ينجر إلى الأرض . ومعنى قوله : حملت به فى ليله مَزْءودَةٍ ؛ أى فى ليلة ذات زؤد وهو الفزع المستوجب لعدم ميل النساء للجماع لانكسار سورة شهوتهن إذ ذاك

(١) الصحاب الأصحاب ، والعيل جمع عائل وهو الفقير ههنا يصفه بأنه شجاع كريم (٢) أقول اما شرحها فقد كتبناه لك بعبارة موجزة سهلة ، وأما قصتها فهى : ان الهذلى تزوج ام تأبط شرا وكان صغيرا فلما راى أبا كبير يكثر الدخول على أمه تنكر له وعرف ذلك أبو كبير فى وجهه فقال ابو كبير لأمه ويحك قد والله رابنى أمر هذا الغلام ولا آمنه فلا اقربك ، قالت فاحتل عليه حتى تقتله ، فقال له ذات يوم هل لك أن تغزو ؟ فقال : ذاك من أمرى ، فخرجا ليلا حتى اذا أدركهما مساء اليوم الثانى ابصرا نارا يعرف ابو كبير أنها نار أعداء لتأبط شرا فوجهه اليها فرأى عليها رجلين من ألص العرب فوثبا اليه يريدان قتله فلما كان احدهما أقرب اليه من الآخر عطف عليه فقتله ورجع الآخر فرماه أيضا فقتله ثم جاء الى نارهما فأخذ الخبز وجاء الى ابى كبير فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه فلما رجعا قال : ان أم هذا الغلام لا أقربها ابدا وقال هذه الأبيات.

فلا يكون لهن فى الولد حظ كامل ، و يكون كال الشهوة لأبيه ، فيكتسب بذلك إتمام خصال الرجولية . وفائدة ذكر الليلة أن تكون بدأت بحمله ليلا وهو أنجب له وصاحبه يوصف بالشجاعة وقد دعاهم ذلك إلى أن وصلوا أنسابهم بالليل تحققاً به . وقال .

أنا ابنُ عم الليل وابنُ خاله   إذا دجا دخلتُ فى سرباله

* لست كمن يَفْرَقُ من خياله (١) *

فتبين أن العرب كانت غاية مقاصدهم ومرمى نظرهم من الزواج التناسل والأولاد لا قضاء الشهوة الحيوانية ولذلك تتبعوا الأسباب الباعثة على نجابة ذراريهم .

ما يستحسن من المرأة لدى العرب خلقاً وخلقاً

اعلم أن العرب كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدة الإدلال وقد قالوا : من بسطه الإدلال ، قبضه الإذلال ، و إما لما يخاف من محنة الرغبة و بلوى المنازعة . وقد حكى : أن رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له : افعل و إياك والجمالَ البارع فإنه مرعى أنيق فقال الرجل وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأول :

لن تصادفَ مرعى مُمرعاً أبداً   إلا وجدتَ به آثار منتجَع (٢)

و إما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة و يتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه امرأة تقول :

إن النساء رياحين خُلِقْنَ لكم   وكلكم يشتهى شم الرياحين

فقال رضى الله تعالى عنه :

إن النساء شياطين خُلِقْنَ لنا   نعوذ بالله من شر الشياطين

و إن كان العقد رغبة فى الجمال فذلك أدوم للألفة من المال لأن الجمال صفة

---

(١) دجا الليل : اظلم ، والسربال فى الأصل مايلبس من قميص أو درع ، وفرق كفرح يفرق فزع (٢) المرع : الخصيب ، والمنتجع : المنزل فى طلب الكلاء

لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل : حسن الصورة أولى السعادة . وفى الحديث : « أعظم النساء بركةً أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً » ، فإن سلمت الحال من الإدلال ، المفضى إلى الملال ، استدامت الألفة ، واستحكمت الوصلة « أما محاسن خلقها » فأن تكون شابة حسنة الخلق جميلة الوجه حسنة المعرى والقد ، لينة القصب لم يركب بعض لحمها بعضاً لطيفة البطن ، لطيفة الكشحين[١] . لطيفة الخصر[٢] . مع امتداد القامة طويلة العنق . فى اعتدال وحسن ، عظيمة الوركين والعجيزة ممتلئة الذراعين والساقين رقيقة الجلد . ناعمة البشرة . كأن الماء يجرى فى وجهها طيبة الريح . طيبة الفم . طيبة ريح الأنف . طيبة الخلوة . لعوباً ضحوكا . تامة الشعر . لم يكن لمرفقها حجم .

« وأما محاسن أخلاقها » فأن تكون حَيِيَّةً منخفضةَ الصوت محبةً لزوجها متحببةً إليه نفوراً من الريبة تجتنب الأقذار عاملة اليدين خفيفتهما فى العمل ولوداً ، « وعن أبى دريد » قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال وصف أعرابى نساء فقال : يلتثمن على السبائك[٣] ويتّشِحْنَ على النيازك[٤] ، ويأْتَزِرْنَ على العوانك[٥] ، ويرتفعن على الأرائك[٦] ، ويتهادَيْنَ على الدرانك[٧] ، ابتسامهن وميض[٨] ، عن وليع كالأغريض[٩] ، وهن إلى الصبا صُور[١٠] ، وعن الخنا نَور[١١] « وعن أبى دريد » أيضاً بسنده إلى أبى عمرو بن العلاء قال : كان لرجل من مقاول[١٢] حمير ابنان يقال لأحدهما عمرو وللآخر ربيعة وكانا قد برعا فى العلم

---

(١) الكشح : كفلس مابين الخاصرة الى الضلع الخلف (٢) الخصر من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين (٣) اللثام على الفم واللفام على طرف الأنف يقال تلثمت المرأة وتلفمت المراة ، والسبائك ههنا الأسنان شبهها لبياضها بالسبائك (٤) يتشحن : يتقلدن ، والنيازك واحدها نيزك وهو الرمح القصير (٥) واحدها عانك وهو رمل منعقد يشقى فيه البعير لايقدر على السير فيقال حينئذ قد اعتنك (٦) السرر واحدها أريكة ، وقال قوم الفرش (٧) واحدها درنوك وهو الطنفسة ، ويتهادين : يمشين مشيا ضعيفا ، قال الأعشى

تهادى كما قد رايت البهيرا

(٨) اللمعان الخفى (٩) الاغريض والوليع : الطلع (١٠) اى موائل ومنه قيل للمائل العنق اصور والصبا جهلة الفتوة (١١) اى نفر من الريبة واحدها نوار ، والخنا : الفحش (١٢) جمع مقول بكسر الميم وهو الرئيس دون الملك

والأدب ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره وأشفى على الفناء ، دعاهما ليبلو عقولهما ويَعْرِفَ مبلغَ علمهما فلما أتياه سألهما عن أشياء فأحسنا فى الجواب عنها . ولعلنا نورد كل سؤال مع جوابه فيما يناسبه من مباحث الكتاب ومطالبه . وقد سألهما عن حال النساء فقال اخبرنى يا عمرو أى النساء أحب إليك ، قال الهِرْكَوْلَةُ اللفّاء[1] ، الممكورة الجيْداء[2] ، التى يشفى السقيم كلامها ، ويبرى الوصِب[3] إلمامُها ، التى إن أحسنتَ إليها شكرَتْ ، وإن أسأت إليها صبرَتْ ، وإن استعتبتها أعتَبَتْ ، الفاترة الطَرْف ، الطفلة الكف[4] ، العميمة الردف[5] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نَعَتَ فأحسَنَ وغيرُها أحبُّ إلىّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : الفتانة العينين ، الأسيلة الخدين[6] ، الكاعب الثديين[7] الرَداح الوَرِكين[8] ، الشاكرة للقليل ، المساعدة للحليل ، الرخيمة الكلام[9] ، الجمّاء العظام[10] ، الكريمة الأخوال والأعمام العَذْبة اللثام[11] ، وقال رجل من العرب لآخر وقد أراد أن يتزوج : خذ ملساء القدمين ، لفاء الفخذين ضخمة الذراعين رخصة الكفين[12] ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين كحلاء العينين ، زجآء الحاجبين[13] ، لمياء[14] الشفتين ، بلجاء الجبين[15] شماء العرنين[16] ، شنباء[17] الثغر ، مُحْلَوْلِكة الشعر[18] ، غيداء العنق[19] . مكسرة البطن . . وقد وصف

---

(١) الهركولة كبرذونة الحسنة الجسم والخلق والمشية ، واللفاء الملتفة الجسم (٢) الممكورة : المطوية الخلق : والجيداء : الطويلة العنق او دقيقتها مع طول (٣) المريض (٤) الطفل الناعم من كل شيء (٥) العمم عظم الخلق فى الناس وغيرهم ، وردف المرأة : عجزها (٦) الاسيل من الخدود : الطويل المسترسل (٧) هى التى نتأ ثديها (٨) هى الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين (٩) هى اللينة الكلام ، قال ذو الرمة

لها بشر مثل الحرير ومنطق   رخيم الحواشى لاهراء ولا نزر

(١٠) هى التى لايوجد لعظمها حجم بمنزلة الجماء من البقر (١١) اراد موضع اللثام فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه (١٢) اى ناعمتها (١٣) هى الدقيقة الحاجبين فى طول (١٤) هى التى فى شفتيها سمرة او شربة سواد (١٥) البلج : نقاوة مابين الحاجبين (١٦) الشمم : ارتفاع الأنف ، والعرنين من كل شيء أوله ومنه عرنين الأنف لأوله وهو ماتحت مجتمع الحاجبين وهو موضع الشمم (١٧) هى التى فى أسنانها رقة وعذوبة او فيها حدة تراها كالمنشار (١٨) المحلولك : الشديد السواد (١٩) اى مائلة العنق

المنذر الأكبر جارية أهداها إلى كسرى أنو شروان فقال فى كتابه له إنى قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء وطفاء[١] ، كحلاء ، دعجاء[٢] ، حوراء[٣] ، عيناء[٤] ، قنواء[٥] ، شماء[٦] ، برجاء[٧] ، رجاء[٨] ، أسيلة الخد ، شهية المقبل ، جثلة الشعر[٩] ، عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القُرط[١٠] ، عيطاء[١١] عريضة الصدر ، كاعب الثدى ، ضخمة مُشاش[١٢] المنكب والعضد ، حسنة المعصم[١٣] ، لطيفة الكعب والقدم ، قَطُوف المشى[١٤] مِكسال الضحى ، بضة المُتَجَرَّد[١٥] سموعٌ للسيد ، ليست بخنساء[١٦] ولا سفعاء[١٧] رقيقة الأنف ، عزيزة النفس ، لم تغذّ فى بؤس ، رزينة ، حليمة ، ركينة ، كريمة الخال ، تقتصر على نسب أبيها ، دون فصيلتها[١٨] ، وتستغنى بفضيلتها ، دون جماع قبيلتها[١٩] ، قد أحكمتها الأمور فى الأدب ، فرأيها رأى أهل الشرف ،

---

(١) هى الكثيرة شعر الحاجبين والعينين (٢) هى الشديدة سواد العين مع سعتها (٣) فى مختصر العين ولا يقال للمراة حوراء الا للبياض مع حورها (٤) اى حسنة العينين واسعتهما (٥) بينة القنا والقنا ارتفاع اعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه او تتوسط القصبة واشراقه وضيق المنخرين من غير قبح ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم كان أقنى العرنين ، وفى قصيدة كعب

قنواء فى ضرتيها للبصير بها   عتق مبين وفى الخدين تسهيل

(٦) مر تفسيره قريبا (٧) البرج محركة أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله (٨) هى التى يترجرج كفلها اى يضطرب (٩) اى كثيرته وغليظته (١٠) القرط الشنف او المعلق فى شحمة الأذن ويقال ان أول من استعمل لفظ القرط فى نظمه هو عمرو ابن ابى ربيعة ، حيث يقول :

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل   أبوها واما عبد شمس وهاشم

وادعى بعضهم انه من مخترعات امرىء القيس ولم نعثر عليه فى شعره والله اعلم

(١١) هى الطويلة العنق (١٢) المشاش : رؤوس العظام المكنة المضغ (١٣) كمنبر موضع السوار من الساعد (١٤) القطوف التى تعجل سيرها مع تقارب الخطو (١٥) البضاضة : نعومة البدن ورقة الجلد ، وفى القاموس وشرحه للزبيدى : امراة بضة الجردة والمجرد والمتجرد اى بضة عند التجرد والمتجرد على هذا مصدر فان كسرت الراء اردت الجسم ، وفى التهذيب : امراة بضة المتجرد اذا كانت بضة البشرة اذا جردت من ثوبها ، انتهى باختصار (١٦) الخنساء هى التى انخفضت قصبة انفها (١٧) هى التى فى خدها سواد وشحوب (١٨) الفصيلة من الرجل عشيرته ورهطه الأدنون او أقرب آبائه اليه (١٩) جماع الناس كرمان اخلاطهم من قبائل شتى ومن كل شىء مجتمع أصله وكل ماتجمع وانضم بعضه الى بعض

وعملها عمل أهل الحاجة ، صَنَاع الـكفين[١] ، قطيعة اللسان[٢] ، رهوة الصوت[٣] ساكنة تزين الولى ، وتشين العدو ، ان أردتَها اشتهت ، وإن تركتَها انتهت ، تحملق[٤]، عيناها ، وتحمر وجنتاها ، وتذبذب شفتاها[٥] ، وتبادرك الوثبة إذا قمت ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست . . وأحسن ما رأيت من وصف النساء خَلقاً وخُلُقاً ما ذكره كثير من أئمة الأدب ومنهم الميدانى فى كتابه مجمع الأمثـال عند قولهم (ما وراءك يا عصام) قال : قال المفضل ؛ أول من قال ذلك الحارث ابن عمرو ملك كندة[٦] ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عَوْف بن محلم ، وكمالها ، وقوة عقلها ، دعا امرأةً من كندة يقال لها عِصام ذاتَ عقلٍ ولسان وأدب ، وقال لها : اذهبى حتى تعامى عِلْمَ ابنة عوف فمضت حتى انتهت إلى أمها وهى أمامة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت إلى ابنتها ، وقالت : أىْ بُنَيَّة هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ،فلا تسترى عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خُلُقٍ وناطقيها إن استنطقتك فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم ترَ مثله قط فخرجت من عندها وهى تقول (ترك الخداع ، من كشف القناع) فأرسلتها مثلا . ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال : ماوراءكِ ياعصام ؟ قالت : صَرَّح المحْضُ عن الزُبْدِ[٧] ، رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يَزِينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن

---

(١) امرأة صناع اليدين كسحاب حاذقة ماهرة بعمل اليدين (٢) اى غير سليطة (٣) من الرهو وهو السكون (٤) حملق فتح عينيه ونظر شديدا (٥) الدبذبة هو أن يسمع الرجل ولا يدرى مايقول يعنى أنها اذا تكمه لايسمع صوتها ولا يدرى ماتقول من حيائها (٦) وقيل ان المثل على التذكير ، وقائله النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير حاجب النعمان وكان مريضا وقد أرجف بموته فقال :

فانى لا ألومك فى دخول ولـكن ما وراءك يا عصام

يقول لست ألومك بمنعك اياى من الدخول ولكن أعلمنى حقيقة خبره ، ويجوز ان يكون اصل المثل ماذكر اولا ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث كما فى فرائد اللآل (٧) صرح الشىء بالضم صراحة وصروحة خلص من متعلقات غيره فهو صريح ، ومخضت اللبن مخضا اذا استخرجت زبده بوضع الماء فيه وتحريكه فهو مخيض فعيل بمعنى مفعول ، والزبد كقفل مايستخرج بالمخض من لبن البقر والغنم وأما لبن الابل فلا يسمى مايستخرج منه زبدا بل يقال له جباب والزبدة أخص من الزبد

أرسلته خِلْقَةً سلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل [١] ، وحاجبين كأنما خطَّا بقلم ، أو سُوِّدا بِحُمَم [٢] ، تقوّسا على مثل عين الظبية العَبْهَرة [٣] ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع [٤] ، حفّت به وجنتان ، كالأُرْجُوان [٥] ، في بياض كالجُمان [٦] شُقَّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غُرّ ، ذات أُشُر [٧] ، تقلب فيه لساناً بفصاحة و بيان [٨] ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد إذا دُلك ، في رقبة بيضاء كالفضة ، رُكبت في صدر كصدر تمثال دُمية [٩] ، وعضُدان مُدْمَجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يُمَسّ ولا عِرْق يُجَسّ ، ركبت فيهما كفّان دقيقٌ قصبهما ، لَيِّن عصبهما ، تعقدان شئت منهما الأنامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طُوِيَ طيّ القُباطِيّ [١٠] المدمجة ، كسّر عكَناً [١١] كالقراطيس المدرَجة ، تحيط بتلك العُكَن سُرّة كالمدهُن المجلوّ ، خلفَ ذلك ظهر فيه كالجدول [١٢] ، ينتهي إلى حصر [١٣] لولا رحمة الله لانبتر [١٤] ، لها كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، كأنه دِعصُ [١٥] رمل لبّدَهُ سقوط الطلّ ، تحمله فخذان لَفّا كأنما قُلبا على نَضد جُمان ، تحتها ساقان خدلتان [١٦] ، كالبردتين وشّيتا بشعر أسود ، كأنه حلقُ الزرَد ، يحمل ذلك قدمان كحذْو اللسان ، فتبارك الله مع صغرها ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه . و بعث

---

(١) المطر السديد الضخم القطر (٢) كصرد الفحم واحدته بهاء ، وحمم : سخم الوجه به (٣) الممتلئة الجسم والعظيمة والناعمة الطويلة والجامعة لتحسن (٤) الصقيل المجرب (٥) الصبغ الأحمر الشديد الحمرة (٦) بالضم اللؤلؤ او هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة الواحدة جمانة (٧) اشر الأسنان وأشرها التحزيز الذى فيها يكون خلقة ومستعملا ونهى عنه ، وفى حديث لعنت الآشرة والمأشورة (٨) وفى نسخة : تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان (٩) بالضم الصورة المنقشة من الرخام او عام (١٠) الثياب المنسوبة الى القبط بالكسر نصارى مصر (١١) جمع عكنة كغرفة وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا (١٢) النهر الصغير ، ويكون ذلك اذا ازداد السمن (١٣) هو من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين (١٤) انبتر : انقطع (١٥) بالكسر قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه المجتمع او الصغير والجمع دعص وادعاص ودعصة (١٦) أى ممتلئتان ضخمتان مستديرتان

بصداقها فجهزت . فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بُنيةُ إن الوصيةَ لو تُركت لفضلِ أدبٍ تُركتْ لذلك منكِ ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعولة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلقن ، ولهن خُلق الرجال ، أى بنيةّ إنك فارقت الجوّ الذى منه خرجت ، وخلفت العُشّ الذى فيه درجتِ ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكونى له أمَةً يكنْ لك عبداً وشيكا . يا بنية احملى عنى عشرَ خصالٍ يكنْ لك ذُخراً وذكرا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينيه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عيناه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا طيبَ ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه حين منامه : فإن حرارة الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النوم مَبغْضَةَ ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء[1] على العيال والحشم حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ، لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره ، أوْغَرْتِ صدره[2] ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان تَرِحا[3] ؛ والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، أطولَ ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبّينَ حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يخيرُ لكِ . . . فحملت إليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعةَ الذين ملكوا بعده اليمن . انتهى

---

(١) الارعاء الابقاء على أخيك ، قال ذو الاصبع :

بغى بعضهم بعضا   فلم يرعو على بعض

(٢) وغر صدره وغرا : امتلأ غيظا (٣) ترح ترحا فهو ترح مثل تعب تعبا فهو تعب اذا حزن ويتعدى بالهمزة

ما أورده الميدانى ، ومثل ذلك فى عقد الأندلسى . . . وفى الشعر الجاهلى كثير م
أوصاف النساء المحمودة ، من ذلك قول بعضهم من قصيدة :

بيضاء قد لبس الأديم أديـ ... ـم الحسن فهو لجلدها جلدُ
ويَزِينُ فَوْدَيْهاَ إذا حسرت ... ضافى الغدائر فاحمٌ جَعْدُ (١)
فالوجه مثـل الصبح مبيض ... والفرع مثل الليل مسودُّ (٢)
وجبينهـا صَلْتٌ وحاجبها ... شخت المخطّ أزج ممتدّ (٣)
وكأنهـا وَسْنَى إذا نظرتْ ... أو مدنفٌ لمـا يفِقْ بعدُ (٤)
بفتورِ عينٍ ما بهـا رَمَدٌ ... وبهـا تداوى الأعين الرُّمْدُ
وتُريك عرنيناً به شَمَمٌ ... وتريك خداً لونه الورد (٥)
وتجيل مسواكَ الأراك على ... رَتَلٍ كأنَّ رُضابَهُ الشهدُ (٦)
والجيد منها جيـد راتعة ... تعطو إذا ما طالها المَرْدُ (٧)
وامتـد فى أعضادها قصب ... فعم تلته مرافق ورد (٨)
والمعصمان فمـا يرى لهما ... من نَعمة وغضاضةٍ زند (٩)
ولها بنَانٌ لو أردتَ بها ... عَـدًا بكفك أمكن العَقْدُ (١٠)

---

(١) الفود : معظم شعر اللمة مما يلى الأذنين وناحية الرأس ، وقال ابن السكيت الفودان الضفيرتان ، والغدائر جمع غديرة وهى الذاؤبة ، والفاحم الأسود ، والجعد من الشعر خلاف السبط أو القصير منه ، وحسرت المرأة خمارها كشفته (٢) الفرع الشعر التام ، ويروى بدل مبيض (منبلج) (٣) الصلت الجبين الواضح وقد صلت صلوتة ، والشخت : الدقيق ، والأزج الحاجب الدقيق فى طول (٤) الوسن بفتحتين : النعاس ورجل وسنان وامرأة وسنى بهما سنة ، والمدنف : المريض الذى لازمه المرض (٥) العرنين من كل شىء أوله ومنه عرنين الأنف لأوله وهو ماتحت مجتمع الحاجبين وهو موضع ارتفاع الشمم أى ارتفاع الأنف ، ويروى البيت :

وتريك عرنينا يزينه ... شمم وخدا لونه الورد

(٦) الأراك : شجر من الحمض يستاك بقضبانه الواحدة اراكة ، والرتل محركة بياض الأسنان وكثرة مائها ، والرضاب : الريق المرشوف أو قطع الريق فى الفم (٧) تعطو : ترفع رأسها والمرد : الغض من ثمر الأراك أو نضيجه (٨) الفعم الممتلىء ، وقوله تلته يروى بدله زهته ، والمرافق جمع مرفق وهو موصل الذراع فى العضد ، وقوله ورد هكذا بالأصل وفى بعض النسخ درد فليحقق (٩) المعصم كمنبر موضع السوار من الزند ، ونعم الشىء : لان ملمسه (١٠) البنان الأصابع أو اطرافها

وكأنما سقيت ترائبها والنحر ماء الورد إذ تبدو[١]

وبصدرها حقان خِلْتَهُما كافورتين علاهما نَدٌ[٢]

والبطن مطوى كما طويت بيضُ الرياط يصونها المَلْدُ[٣]

وبخَصْرِها هَيَفٌ يزينه فإذا تنوء يكاد ينقد[٤]

والتف حاذاها وفوقهما كَفَلٌ كدِعْصِ الرمل مشتدُّ[٥]

وقيامها مَثْنى إذا نهضت من لينها وقعودها فرد

والكعب أدْرَمُ ما يَبينُ له حجمٌ وليس لرأسه حَدُّ[٦]

ومشت على قدمين خصّرتا والتفتا فتكامَلَ القــدُّ

ما عابها طولٌ ولا قِصَرٌ فى خلقها فقوامها قصدُ

والقصيدة طويلة ولها قصة مشهورة . وكانت العرب مع اعتبارهم هذه الأمورَ فى المرأة يُرَاعون شرف الفضيلة ، وهم الذين ينتفى بهم العار ، ويحصل بهم الاستكثار . وفى الحديث « تخيروا لنطفكم ولا تضعوها إلا فى الأكفاء » . وروى أن أكثم بن صيفى قال لولده : يابنىَّ لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فإن المناكح اللئيمة مدرجة للشرف . قال أبو الأسود الدؤلى لبنيه : قد أحسنتُ إليكم صغاراً وكباراً ، وقبل أن تولدوا . قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال . اخترت لكم من الأمهات من لاتسبون بها . وأنشد الرياشى :

فأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة العراق بادٍ عَفافُها[٧]

---

(١) الترائب : موضع القلادة ، والنحر أعلى الصدر (٢) الحقان : الثديان ، والند : طيب معروف ويكسر أو العنبر (٣) الرياط جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق ، والملد : الناعم اللين من الرجال (٤) الخصر من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين ، والهيف حركة ضمر البطن ورقة الخاصرة ، وتنؤ : تنهض ، وينقد : ينقطع (٥) الحاذان ماوقع عليه الذنب من ادبار الفخذين واهل الأولى (فخذاها) بدل حاذاها كما فى بعض الكتب ، والكفل : العجز . والدعص : الكثيب من الرمل المجتمع (٦) الأدرم فسره بقوله مايبين له حجم وليس لرأسه حد (٧) أقول : أن شعر العرب وكلامهم فى هذا الباب جاهلية واسلاما لايعد ولا يحصى وقد درجوا على العمل بهذه الوصايا الى يومنا هذا .. ومن لطيف ما احفظ بيتان لأحد الشعراء وهما :

النعوت المذمومة فى المرأة عند العرب خلقا وخلقا

مايلزم التحرز عنه من صفات الذات وأحوال النفس أمورٌ كثيرة مآلها إلى بعد الخير عنها ، وقلة الرشد فيها ، فإن كوامنَ الأخلاق باديةٌ فى الصور والأشكال كالذى روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة : أتزوجت يازيد ؟ قال : لا . قال : تزوج تَسْتَعْفِفْ مع عفتك ، ولا تتزوج من النساء خمساً . قال : وما هن يارسول الله ؟ قال : لاتتزوج شَهْبَرَةً ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هندرة ولا لفوتا . فقال يارسول الله إنى لا أعرف مما قلت شيئاً . قال أما الشهبرة فالزرقاء البذية . أما اللهبرة فالطويلة المهزولة . وأما النهبرة فالعجوز المدبرة . وأما الهندرة فالقصيرة الدميمة . وأما اللفوت فذات الولد من غيرك . . وقال شيخ من بنى سليم لابنه : يابنى إياك والرَّقُوب والغَضُوب القَطوب : الرقوب التى تراقبه أن يموت فتأخذ ماله . وأوصى بعض الأعراب ابنه فى التزوج فقال : إياك والحنَّانة والمنَّانة والأنَّانة فالحنانة التى تحن لزوج كان لها ، والمنانة التى تمن على زوجها بمالها . والأنانة التى تئن كسلا وتمارضاً . وقال أوفى بن دلهم : النساء أربع ، فمنهن مقمع ، لها سنها أجمع ومنهن ممنع ، تضر ولا تنفع ، ومنهن مصدع ، تفرق ولا تجمع ، ومنهن غيث وقع ، ببلد فأمرع[1] . وقال الشاعر :

أرى صاحب النسوان يحسب أنها سواء وبَوْنٌ بينهن بعيد[2]
فمنهنّ جنّاتٌ يفىء ظلالها ومنهن نيران لهن وقيد

وروى ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله إن شربك لاشتفاف[3] ، وضجعتك لانجعاف[4]

لاتخطبن سوى كريمة معشر فالعرق دساس من الطرفين
او ماترى أن النتيجة دائما تبع الأخس من المقدمتين

(١) أى أخصب بكثرة الكلأ (٢) البون بالضم مسافة مابين الشيئين ويفتح وبينهما بون أى بين درجتيهما أو بين اعتباريهما فى الشرف وأما فى التباعد الجسمانى فتقول بينهما بين بالياء كذا فى المصباح (٣) هو شرب مافى الاناء كله (٤) الانجعاف : الانصراع يقال ضربه فجأفه وجعفه

وشملتَـك الالتفاف ، وإنك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف . فقال لها : والله إنك لَـكَرْواء الساقين[١] ، قعواء الفخذين[٢] ، مقاء الرفغين[٣] ، مفاضة الـكشحين[٤] ضيفك جائع ، وشرك شائع ، ومن جملة أسئلة القيل الحميرى ولديه أنه قال : وأىُّ النساء أبغضُ إليك ياعمرو ؟ قال : القتاتة الـكذوب[٥] ، الظاهرة العيوب ، الطوافة الهَبوب[٦] ، العابسة القَطوب[٧] السبابة الوثوب ، التى إن ائتمنها زوجها خانته ، وإن لان لها أهانته ، وإن أرضاها أغضبته ، وإن أطاعها عصته قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس — والله — المرأةُ ذكر وغيرُها أبغض إلىّ منها قال : وأيتهن التى هى أبغض منها ؟ قال : السليطة اللسان[٨] ، المؤذية للجيران ، الناطقة بالبهتان ، التى وجهها عابس ، وزوجها من غيرها آيس ، التى إن عاتبها زوجها وترته[٩] ، وإن ناطقها انتهرته . قال ربيعة : وغيرها أبغض إلىّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : التى شقى صاحبها ، وخزى خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : صاحبها مثلها ، فى خصالها كلها . لا تصلح إلا له ولا يصلح إلاّ لها . فصفه لى . قال : الـكفور غير الشكور ، اللئيم الفَجُور ، العبوس الـكالح[١٠] الحرُون الجامح[١١] ، الراضى بالهوان ، المختال المنان ، الضعيف الجنان[١٢] الجَعْدُ البنان[١٣] ، القئول غير الفعول ، الملول غير الوصول ، الذى لا يبرح عن

---

(١) اكرواء الدقيقة الساقين والكرا دقة الساق والكرى النوم والكرا بمعنى الكروان وكرآءممدود : موضع (٢) قال أبوبكر : القعواء المتباعدة مابين الفخذين ولم يسمع هذا من غيره ، والذى ذكره اللغويون فى كتبهم : الفجواء المتباعدة مابين الفخذين ، هذا مازعمه أبو على القالى (٣) قال أبو زيد : المقاء الدقيقة الفخذين وكذلك الرفغاء » وقال الأصمعى المقاء الطويلة والمقق الطول ورجل أمق طويل (٤) أى مسترخية الخاصرتين (٥) القتاتة : النمامة ، وقال اللحيانى : القتات والنمام والهماز واللماز والغماز والقساس والدراج والهينم والمهتمل والمائس والمؤوس مثال معوس والمماس متال ممعس وقد مأس يمأس مأسا اذا مشى بينهم بالنميمة والفساد » وقال مأس بين الناس ومسأ بينهم يمسأ مسأ مثل معسا وكله واحد ويقال انه لذونيرب ومئبرة وابرة اذا كان نماما كله عن اللحيانى (٦) الكثيرة الانتباه (٧) قطب يقطب فهو قطوب زوى مابين عينيه وكلح (٨) أى البذية اللسان (٩) أى أدركته بمكروه (١٠) كلح كلوحا وكلاحا بضمهما تكشر فى عبوس (١١) يقال حرنت الدابة فهى حرون وهى التى اذا استدر جريها وقفت والجامح الذى يركب هواه (١٢) بالفتح القلب (١٣) اى بخيل

المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم ؛ وذكر أهل الأدب كثيراً من معايبهن .. ومن النعوت المذمومة : أن تكونَ المرأة نهاية فى السمن والعظم ضخمة البطن ، مسترخية اللحم ، ضخمة الثديين ، طويلتهما ، مسترخيتهما ، أو أن تكون قليلة اللحم ، قصيرةً ، دميمة[1] ، غير طيبة الخلوة ، دقيقة الساقين والذراعين ، منتنة الريح ، أو أن تكون حديدة اللسان ، شديدة الصوت ، جريئة قليلة الحياء ، بذيئة فاحشة وقحة ، وتسمى هذه سَلْفَعَةَ ؛ وفى الحديث «شرهن السلفعة» . ومن الشعر المشتمل على ما يذم من النساء قول قائلهم :

لِأَسْماءَ وَجْهٌ بِدْعَةٌ من سماجةٍ ... يرغبنى فى نَيْكِ كلّ أتان[2]
بدا فبدت لى شُقَّةٌ من جهنم ... فقمت ومالى بالجحيم يدان[3]
وغادرت أصحابى الذين تخلفوا ... بما شئتَ من خزى وطول هوان[4]
وما كنت أدرى قبلها أن فى النسا ... جحيما أراها جهرةً وترانى

وقال آخر :

رَقْطَاءُ حَدْباءُ يُبْدِى الكَبْدَ مضحكها ... قنواء بالعَرْضِ والعينان بالطول[5]
لها فَمٌ مُلتقَى شِدْقَيْهِ نقرتها ... كأنَّ مِشْفَرَهَا قد طُرّ من فيلِ[6]
أسنانها أُضعِفَتْ فى خَلْقِهَا عَدَداً ... مُظَهَّرَاتٍ جميعاً بالرواويل[7]

وقال آخر فى القصر :

ألا يا شبيهَ الدُّب مالك معرضاً ... وقد جعلَ الرحمنُ طولكَ فى العَرْضِ[8]
وا قسم لو خرّتْ من استكَ بيضةٌ ... لما انكسرت لقرب بعضك من بعض

---

(١) الدمامة بالفتح قبح المنظر وصغر الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة او النملة الصغيرة (٢) قوله بدعة اى لم يصنع مثله فى القبح ، والسماجة : القباحة ، والاتان : الأنثى من الحمير (٣) الجحيم : النار ، واليدان أراد بهما القوة (٤) غادرت : تركت . والخزى : الوقوع فى البلية (٥) الرقطاء : المنقطة بالبرش ، والحدباء : الخارجة الظهر ، والكبد الشدة ، وقوله قنواء بالعرض الخ يعنى به أن طول أنفها قد بدأ بالعرض وعرض عينيها قد بدا بالطول فصار الحسن قبحا (٦) قوله نقرتها اراد لقرز قفاها ، ومعنى طر قطع من طرته اى جانبه يصفها بأن فمها فى السعة بلغ نقرة القفا وان سفمها غاية فى الغلظ كأنها قطعة من شفة الفيل (٧) قوله مظهرات اى جعل بعضها فوق بعض ، والرواويل جمع راوول وهو اللعاب وكل سن زائدة لاتنبت على نبتة الأضراس (٨) المعرض : الذاهب فى العرض ، وخرت : سقطت . والاست الدبر .

وقال آخر :

أَلِمْ بجوهَرَ بالقُبضانِ والمَدَر   وبالعصىّ التى فى روسها عُجَرَ [١]

أَلِمْ بها لا لتسليم ولا مِقَةٍ   إلا ليَكْسِرَ منها أنفَها الحجرُ [٢]

أَلِمْ بوطباء فى أشداقها سعةٌ   فى صورة الكلب إلا أنها بشر [٣]

حدباء وقصاء صيغت صيغةً عجباً   وفى ترائبها عن وصفها زَوَر [٤]

وقال آخر :

لا تنكِحَنَّ الدهر ما عشتَ أيِّماً   مُخَرَّمةً قد ملَّ منها ومَلَّتِ [٥]

تحُكُّ قفاها من وراء خمارها   اذا فقدت شيئاً من البيت جُنت [٦]

تجودُ برِجْلَيْها وتمنع دَرَّها   وإنْ طُلِبَتْ منها المودة هَرَّتِ [٧]

وقال آخر :

لا تَنكِحَنَّ عجوزاً إن أُتيتَ بها   واخلَعْ ثيابك منها مُمْعِناً هَرَبا [٨]

وإن أتوك وقالوا : إنها نَصَفٌ   فإن أمثلَ نِصْفَيْها الذى ذَهَبا [٩]

الى غير ذلك من الشعر المشتمل على ما يذم من أوصاف النساء وكتب الأدب مشحونة منه . وربما اختار بعض العرب غير المستكملة للأوصاف المحمودة رغبة فى حسبها .

---

(١) الالمام : الزيارة الخفيفة ، وقوله بالقضبان أى والقضبان معك كما يقال خرج بسلاحه أى والسلاح معه ، والعجر جمع عجرة وهى العقدة (٢) المقة : المحبة (٣) الوطباء : العظيمة الثديين ، والأشداق : جوانب الفم (٤) الحدباء : الخارجة الظهر الداخلة الصدر ، والوقصاء : القصيرة العنق ، والترائب ، عظام الصدر ، والزور : الميلان ، ومعنى الأبيات الأربعة : ان ترد ان تأتى هذه المراة فلا تأتها الا ومعك العصا والحجارة لضربها ولا يكن اتيانك لتسليم عليها او لمحبة لها بل لتكسر بالحجر انفها وهذه المراة بشعة الخلق كبيرة الفم أشبهت الكلاب فى الصورة وان كانت بشرا معوجة الظهر قصيرة العنق مائلة عظام الصدر اعجوبة من عجائب الدهر (٥) أراد بالنكاح العقد اى لاتتزوج ، والايم من النساء التى فارقها زوجها بموت أو طلاق ، وقوله مخرمة أى كثر الدعاء عليها ان تخترمها المنية أى تأخذها ، وقوله قد مل منها يريد انها طعنت فى السن وقضت مأرب الشهوات وقضيت منها (٦) قوله تحك قفاها اى من وسخها وكثرة القمل عليها ، والخمار ماتستر به المراة وجهها (٧) قوله تجود برجليها هذا مثل أى تسرع بشرها ، وتمنع درها أى خيرها ، وهرت : نبحت مثل الكلاب (٨) أمعن فى الهرب : اسرع فيه وابعد (٩) النصف من النساء : ماتكون لاصغيرة ولا كبيرة ، والأمثل : أفضل

ما ورد عن عرب الجاهلية في الزوج من الصفات المحمودة وغيرها

عن أبي بكر بن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه قال : كان قَيْل[١] من أقيال حمير . منع الولد دهراً ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدّبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها ملكها أهل مِخْلافها[٢] فاصطنعت النسوة اللاتى ربينها وأحسنت إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوما : يا بنتَ الكرام لو تزوجت لتم لك الملك . فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم الشىء هذا . فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أَصْرَد[٣] ، ومُتَّكَئى حين أرقُد ؛ وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال طيب العيش ، فقالت الثالثة : الزوج لما عنانى كاف ، ولما شَفَّنى[٤] شاف يكفينى فقد الأُلَّاف ، ريقه كالشُهد ، وعناقه كالخلد لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه . فقالت أمهلننى أنظر فيما قلتنّ ، فاحتجبت عنهن سبعاً ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملكه رقى ، وأبثه باطلى وحقى ، فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق[٥] ، فقد أدركت بِغيتى[٦] ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شِقْوتى ، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً ، يسود عشيرته ، ويرُبُّ فصيلته[٧] لا أتقنَّعُ به عاراً فى حياتى ، ولا أرفع به شَناراً[٨] لقومى بعد وفاتى ، فعليكُنَّه فابغينه وتفرقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحِباء[٩] علىّ لها

---

(١) القيل : الملك أو دون الملك الأعلى (٢) بكسر الميم بلغة اليمن الكورة والجمع المخاليف واستعمل على مخاليف الطائف اى نواحيه وقيل فى كل بلد مخلاف اى ناحية (٣) اى ابرد (٤) يقال شفه الهم : اى اهزله (٥) الدواهى (٦) بالكسر الحاجة التى تبغيها وضمها لغة وقيل بالكسر الهيئة وبالضم الحاجة (٧) يرب يجمع ويصلح ، والفصيلة من الرجل عشيرته ورهطه الأدنون واقرب آبائه اليه (٨) الشنار العار (٩) العطاء

الوفاء ، فخرجن فيما وجهتهن له وكن بنات مقاول ذوات عقل ورأى . فجاءتها إحداهنّ وهى عَمَرّطَةُ بنت زرعة ابن ذى خفر . فقالت : قد أصبتُ البغية . فقالت : صفيه ولا تسميه . فقالت غيثٌ فى المحل ، ثِمال فى الأَزْل[1] ، مُفيد ، مُبيد ، يصلح النائر[2] ، وينعَشُ العاثر ، ويغمر الندىّ ، ويقتاد الأبىّ ، عرضه وافر ، وحسبه باهر ، غض الشباب ، طاهر الأثواب . فقالت : ومن هو ؟ قالت : صبرة بن عوّال بن شدّاد بن الهمّال . ثم خلت بالثانية فقالت : أصبت من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ولا تسميه . فقالت : مُصامِصُ النَّسَب ،[3] كريم الحسَب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مُقْتَبَل الشباب ، خصيب الجناب ، أمره ماض ، وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت : يعلى ابن ذى هزّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالث . فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثيرَ الفوائد ، عظيم المرافد ، يُعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال ، فى العشيرة معظم ، وفى النـدىّ مكرم ، جم الفواضل ، كثير النوافل ، بذال أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت من هو ؟ قالت : رواحة بن حُمَيْر بن مُضْحى بن ذى هلاهلة . فاختارت يعلى بن ذى هزال فتزوجته ، فاحتجبت عن نسائها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء . وأعظمت لهن العطاء . . وعن أبى بكر محمد ابن الحسن بن دريد أيضاً . قال أخبرنى عمى عن أبيه عن ابن الـكلبى . قال : قالت عجوزٌ من العرب لثلاث بنات لها صفن ما تحببن من الأزواج فقالت الـكبرى : أريده أروع[4] بساما ، أحذ مجذاما[5] ، سيد ناديه ، وثمال[6] عافيه ، ومحسب راجيه ، فناؤه رحب[7] ، وقياده صعب .

---

(١) اى غياث فى الضيق والشدة . (٢) قال المجد : نأرت نائرة كمنع هاجت هائجة . (٣) المصامص : الحسيب الزاكى . (٤) الاروع والنجيب واحد وهما الكريم وقيل الاروع الذى يروعك جماله . (٥) الاحذ ههنا الخفيف والاحذ ايضا الخفيف الذنب ومنه قطاة حذاء ، والمجذام مفعـال من الجذم وهو القطع تريد انه قطاع للامور . (٦) الثمال : الغياث وثمال القوم غياثهم ومن يقوم بأمرهم ، والعافى : السائل وكل طالب فضل أو رزق .
(٧) اى واسع ويقال فناء الدار وثناؤها .

وقالت الوسطى : أريده عالى السناء[١] ، مُصَمِّم المَضاء[٢] ، عظيم نار ، متمم أيسار[٣] ، يفيد و يبيد ، ويبدى و يعيد ، هوفى الأهل صبى ، وفى الجيش كَمِىّ[٤] ، تستعبده الحليلة[٥] ، وتسوده الفصيلة[٦] ، وقالت الصغرى : أريده بازل عام[٧] ، كالمهند الصمصام[٨] ، قِرانُهُ حُبور ، ولقاؤه سرور ، إنْ ضَمّ قَضْقَض[٩] ، وإنْ دَسَرَ[١٠] أغمض ، وإن أخلّ أحمض . فقالت أمها : فُضّ فوك لقد فَرَرْتِ شرّة الشباب جَذَعة[١١] « وذكر الميدانى » فى كتاب مجمع الأمثال : أن العَجْفاء بنت عَلْقمة السَعْدِىّ وثلاثَ نسوةٍ من قومها خرجن فاتَّعَدْنَ بروضةٍ يتحدثن فيها فوافَيْن بها ليلاً فى قمر زاهر وليلةٍ طلقة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خِصْبة ، فلما جلسن قلن ما رأينا كالليلة ليلةً ولا كهذه الروضة روضةً أطيبَ ريحاً ولا أنضرَ . ثم أفَضْنَ فى الحديث فقلن : أىّ النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخَرُود[١٢] الوَدُود[١٣] الوَلُود[١٤] . قالت الأخرى : خيرهن

---

(١) السناء من الشرف ممدود ومن الضوء مقصور . (٢) المصمم من الرجال فى الامور لا يرد عزمه شىء والمصمم من السيوف الذى يمضى فى الضرائب لا يحبسه شىء . (٣) جمع يسر وهو الذى يدخل مع القوم فى القداح وهو مدح وقال الشاعر :

وراحلة نحرت لشرب صدق ... وما ناديت ايسار الجزور

والبرم الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر وهو ذم وجمعه ابرام ، قال متمم :

ولا برم تهدى النساء لعرسه ... اذا التشع من برد الشتاء تقعقعا

ويقال كان رجل برما فجاء الى امراته وهى تاكل لحما فجعل يأكل بضعتين بضعتين فقالت له : أبرما قرونا فأرسلتها مثلا . (٤) أى جرىء مقدم كان عليه سلاح أو لم يكن وقيل غير ذلك . (٥) حليلة الرجل امراته وحليلة ايضا جارته التى تحاله وتنزل معه . (٦) هم رهط الرجل الادنون .

(٧) أى تام الشباب كامل القوة لان البعير اتم ما يكون شبابا واكمله قوة اذا كان بازل عام . (٨) هو السيف لاينثنى . (٩) أى حطم كما يقضقض الاسد الفريسة وهو أن يحطمها وينفضها فتسمع لعظامها صوتا والاسد القضقاض الحطام ، قال رؤبة :

كم جاوزت من حية نضناض ... واسد فى غيلة قضقاض

ليث على اقرانه رباض ... يلقى ذراعى كلكل عرباض

والعرباض الثقيل العظيم (١٠) اى دفع ومنه قول ابن عباس رضى الله عنهما فى العنبر انما هو شىء دسره البحر أى لا زكاة فيه » وفلان مدسر جماع أى نياك . (١١) شرة الشباب بالكسر نشاطه ، وفر الامر جذعا بالضم اذا رجع عودا لبدئه . (١٢) البكر لم تمسس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة . (١٣) الكثيرة الحب لزوجها .

(١٤) الكثير الولادة .

ذات الغناء ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السَمُوع الجَموع النفُوع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها الوادعةُ الرافعة لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحَظِىُّ الرضى غير الحظّال[1] ولا التنبال . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخىّ الوفىّ الرضىّ ، الذى لا يغير الحرّة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن إن فى أبى لنعتكنّ كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفَلَج عند السباق ، و يَحْمَدُهُ أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كلُ فتاةٍ بأبيها معجبة * وفى رواية أخرى : أن إحداهن قالت إنّ أبى يكرم الجار ، و يعظم النار ، وينحر العشار ، بعد الحُوار ، ويحمل الأمور الكبار . فقالت الثانية : إن أبى عظيم الخطر ، منيع الوزر ، عزيز النفر . يحمد منه الوِرْد والصَدَر . فقالت الثالثة : إنّ أبى صدوقُ اللسان ، كثير الأعوان ، يروى السِنانَ عند الطعان . قالت الرابعة : إنّ أبى كريم النزال ، مُنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤآل كريم الفعال . ثم تنافرن إلى كاهنة معهن فى الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلنا واحكمى بيننا واعدلى . ثم أعدن عليها قولهن . فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة، ولكن اسمعن قولى : خيرُ النساء المبقيةُ على بعلها ، الصابرةُ على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفَشَل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل . كثير النَفَل . ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها مُعجبة . فصار مثلا يضرب فى عجب الرجل برهطه وعشيرته * وكان ذو الإصبع العَدْوانىُ حَكَم العرب رجلا غيوراً . وله بنات أربع وكان لا يزوجهن غَيْرَةً . ويقال إنه عرض عليهن أن يزوجهن فأبين وقلن خدمتك وقربك أحب إلينا . فاستمع عليهن يوماً من حيث

---

(١) المقتر الذى يحاسب اهله بالنفقة .

لا يرينه وقد خلون يتحدثن ، فقالت قائلة منهن : لتقل كل واحدة منا ما في نفسها ولنصدق جميعاً . فقالت كبراهن :

ألا هَلْ أراها ليلةً وضجيعها أشمّ كنصل السيفِ عين مُهَنّدِ
عليم بأدواء النساء وأصلُه إذا ما انتمى من سرّ أهلي ومَحْتِدِي

ويروى : من أهل سري ومن أصل سري : فقلن لها أنتِ تريدينَ ذا قرابةٍ قد عرفتهِ . وفي رواية : أنت تريدين ابن عم لك قد عرفته .

ثم قالت الثانية :

ألا ليتَ زوجي من أناس ذوي عدي[1] حديث الشباب طيِّب النشر والذكر
لصوقٌ بأكبادِ النساء كأنَّهُ خليفةُ جانٍ لا ينام على وَتْرِ

ويروى : لا ينام على هجري ولا يقيم على هَجْرِ . فقلن لها : أنت تريدين فتى غنياً ليس من أهلك .

ثم قالت الثالثة :

ألا ليتَهُ يَكْسى الجمال نديّه له جَفْنَةٌ تشقى بها المعز والجُزْرُ
له حكمات الدهر من غير كربةٍ تَشين فلا وانٍ ولا ضَرِعٌ غُمْرُ

وروى النيب بدل المعز ، وكبرة بدل كربة . فقلن لها : أنتِ تريدين سيداً شريفاً . وقلن للرابعة : ما تقولين ؟ قالت : لا أقول شيئاً : فقلن : لا ندعك وذاك إنّك قد اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك . . فقالت : (زَوْجٌ من عُودٍ ، خَيْرٌ من قُعُود) فمضت مثلا . فخطبن فزوجهن جمع ثم أمهلهن حولا وتركهن . ثم أتى الكبرى وزارها ، فقال : يا بنية كيف ترين زوجك ؟ قالت : خير زوج يُكرم الحليلة ، ويعطي الوسيلة . قال لها : فما مالكم ؟ قالت : خير مال الإبل . قال : وما هي ؟ قالت : نشرب ألبانَها جزعا ، ونأكل لُحمانَها مُزَعا ، وتحملنا وضعيفنا معا . فقال : يا بنية زوج كريم ، ومال عميم . ثم أتى الثانية فقال : يا بنية

(١) في رواية ، ذوي غنى .

وكيف زوجك ؟ قالت : خير زوج يكرم أهله ، وينسى فضله . قال : وما مالكم ؟ قالت : البقر . قال : وما هى ؟ قالت : تألف الفناء ، وتملأ الإناء ، وتُودِك السقاء ، ونساء مع نساء . فقال : حظيتِ ورضيت . وفى رواية : رضيت فحظيت . ثم أتى الثالثة فقال : يا بنية كيف زوجك ؟ فقالت : لا سَمْحٌ بَذِر ، ولا بخيل حكِرٌ . قال : فما مالكم ؟ قالت : المِعْزَى . قال : وما هى ؟ قالت : لو كنا نولّدها فُطَماً ونَسْلَخُها أَدَما ، لم نبغ بها نَعَماً . فقال لها : جذوة مغنية . ثم أتى الصغرى فقال لها : يا بنية كيف زوجك ؟ قالت : شر زوجٍ يكرم نفسه ، ويُهين عرسه . قال : فما مالكم ؟ قالت : شر مال . قال : وما هو ؟ قالت : الضأن . قال : وما هى ؟ قالت : جُوفٌ لا يشبعنَ ، وهِيمٌ لا ينقعن ، وصمٌّ لا يسمعن . وأمرَ مغويتهنّ يتبعن . فقال أبوها : (أشبه امرؤٌ بعضَ بَزِّهِ) فمضت مثلا . وقد روى هذه القصة المبرد ، ونقلها عنه الميدانى وفيها بعض مغايرة للرواية السابقة : قال السيد المرتضى علم الهدى بعد إيراده ما سبق فى ترجمة ذى الإِصْبَعَ العَدْوانى" فى الأمالى[1] أما قول إحدى بناته فى الشعر : أشم فالشمم هو ارتفاع أرنبة الأنف وورودها ، يقال : رجل أشمّ وامرأة شماء وقوم شمٌّ . قال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهم　　　شمُّ الأنوفِ من الطّراز الأوّلِ

والشمم : الارتفاع فى كل شىء . فيحتمل أن يكون أراد حسان بشم الأنوف ما ذكرناه من ورود الأرنبة لأن ذلك دليلُ العِتْق والنجابة عندهم ، ويجوز أنْ يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الأمور ورذائلها . وخص الأنوف بذلك لأن الحمية والغضب والأنفة يكون فيها ولم يُرِدْ طولَ أنفهم ، وهذا أشبه أن يكون مراده لأنه قال بيض الوجوه ، ولم يُرِدْ بياضَ اللون فى الحقيقة ، وإنما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم وجميل أخلاقهم وأفعالهم ، كما يقول القائل : جاءنى فلان بوجه أبيض ، وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا ، وإنما يعنى ما ذكرناه .

---

(١) ج ١ ص ١٧٨

وقول المرأة : أشم كنصل السيف يحتمل الوجهين أيضاً ، ومعنى قول حسان : من الطراز الأول . أى أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم ، وأنهم لم يحدثوا أخلاقاً مذمومة لا تشبهُ نِجارَهُمْ وأصولهم . وقولها : عين مهند ؟ أى هو المهند بعينه وعين الشئ نفسه ، وعلى الرواية الأخرى غير مهند ، أى ليس هو السيف المنسوب إلى الهند فى الحقيقة . وإنما هو شبيه فى مضائه . وقولها : من سر أهلى أى من أكرمهم وأخلصهم . يقال : فلان فى سرّ قومه أى فى صميمهم وشرفهم وسرّ الوادى أطيبه تراباً . والمحتد : الأصل . وقول الثانية : ذوى عدى فإنما معناه أن يكون له أعداء لأن من لا عدو له هو السفل الرذل الذى لا خير عنده والكريم الفاضل من الناس هو المحسد المعادى . وقولها : لصوق بأكباد النساء ، يعنى فى المضاجعة ، ويحتمل أن يكون أرادت فى المحبة والمودة ، وكَنَّتْ بذلك عن شدة محبتهن وميلهنّ إليه وهو أشبه . وقولها : كأنه خليفة جان أى كأنه حية لِلُصُوقِهِ والجان جنس من الحيات لخففت لضرورة الشعر : وقول الثالثة : يكسى الجمال نديّه فالندىّ هو المجلس وقولها : له حكمات الدهر . تقول : قد أحكمته التجارب وجعلته حكيما . فأما الضرع : فهو الضعيف والغُمْرُ الذى لم يجرب الأمور « وقول الكبرى » يكرم الحليلة ، ويعطى الوسيلة : فالحليلة هى امرأة الرجل . والوسيلة : الحاجة . وقولها : نشرب ألبانها جزعا . فالجزع جمع جزعة وهو الماء القليل يبقى فى الإناء . وقولها : مزعا المزعة البقية من دسم . ويقال : ماله جزعة ولا مزعة . هكذا ذكره ابن دريد بالضم فى جزعة ووجدت غيره يكسرها فيقول جزعة وإذا كسرت فينبغى أن يكون نشرب ألبانها جزعا وتكسر المزعة أيضا ليزدوج الكلام . فتقول ونأكل لحانها مزعا فان المزعة بالكسر هى القطعة من الشحم والمزعة أيضا بالكسر من الريش والقطن وغير ذلك كالمزقة من الخرق . والتمزيق : التقطيع والتشقيق . يقال : يكاد يتمزق من الغيظ . ومزع الظبى يمزع مزعاً : إذا أسرع . وقوله : مال عميم أى كثير « وقول الثانية » تودِك السقاء من الودك الذى هو الدسم .

وقول الثالثة : نولّدها فطما ، الفطم جمع فطيم وهو المقطوع من الرضاع . وقولها : نسلخها أدماً . فالأدم جمع أدام وهو الذى يؤكل ، تقول لو أنا فطمناها عند الولادة وسلخناها للأدم من الحاجة لم نبغ بها نعما وعلى رواية أخرى أدماً من الأديم . وقوله جذوة مغنية فالجذوة القطعة « وقول الصغرى » جُوفٌ لا يشبعن : الجوف جمع جوفاء وهى العظيمة الجوف والهيم : العطاش . ولا ينقعن : أى لا يروين : ومعنى قولها : وأمرَ مغويتهن يتبعن أى القطيع من الضأن يمر على قنطرة فتزل واحدة فتقع فى الماء فيقعن كلهن اتباعاً لها . والضأن يوصف بالبلادة .

قال المفضل الضبى : أن عَثْمَةَ بنت مطرود البَجَلية كانت ذات عقل ورأى مستمع فى قومها ، وكانت لها أختٌ يقال لها خود ذات جمال وميسم وعقل ، وأن سبعة إخوة من غلمة بطن الأزد خطبوا خوداً إلى أبيها فأتوه وعليهم الحلل اليمانية ، وتحتهم النجائب الفره[1] ، فقالوا : نحن بنى مالك بن غُفَيْلة ذى النحيين فقال لهم : انزلوا على الماء . فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبة لهم يقال لها الشعثاء كاهنة فروا بوصيدها — وهو فناؤها — يتعرضون لها كلهم وسيم جميل ، وخرج أبوها فجلسوا إليه فرحب بهم . فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ونحن كما ترى شباب ، وكلنا نمنع الجانب ، ونمنح[2] الراغب . فقال أبوها : كلكم خيار ، فأقيموا نر رأينا . ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين فقد أتاك هؤلاء القوم . قالت : أنكحنى على قدرى ، ولا تشطط[3] فى مهرى ، فإن تخطئنى أحلامهم ، لاتخطئنى أجسامهم ، لعلى أصيب ولداً وأكثر عدداً . فخرج أبوها فقال : أخبرونى عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : اسمع أخبرك عنهم هم إخوة ، وكلهم أسوة . أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يتعب السنابك[4]

---

(١) النجائب : عتاق الابل التى يسابق عليها ، والفره جمع فاره وهو النشيط الحاد القوى . (٢) اى نعطى . (٣) اى لا تفرط . (٤) جمع سنبك وهو طرف الحافر وجانباه من قدم ، قال العجاج :

سنابك الخيل يصد عن الاير من الصفا العاسى ويدهسن الغدر

و يستصغر المهالك ، وأما الذى يليه فالغمر بحر غمر [١] ، يقصر دونه الفخر ، نهد [٢] ، صقر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صليب المعجمة [٣] ، منيع المشتمة ، قليل الجمجمة . وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جلد صارم ، أبىّ حازم ، جيشه غانم ، وجاره سالم ، وأما الذى يليه فثواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذى يليه فمدرك ، بَذُول لما يملك ، عزوب عما يترك ، يفنى و يهلك . وأما الذى يليه فجندل ، لِقِرْنه [٤] مجدل ، مقلّ لما يحمل ، يُعطى و يبذل ، وعن عدوه لا ينكل [٥] . فشاورت أختها عثمة فيهم . فقالت أختها : «ترى الفتيان كالنَّخْل.وما يدريك مَا الدَّخْل» ، فذهب قولها مثلا يضرب فى ذى المنظر الأخير عنده . والدخل العيب الباطن . ثم قالت . اسمعى منى كلمة ، إنّ شر الغريبة يُعْلَن . وخَيْرَها يدفن . انكحى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام ، فلم تقبل منها . و بعثت إلى أبيها : أنكحنى مدركا . فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها ، وحملها مدرك فلم تلبث عنده إلا قليلاً حتى صبحتهم فوارس من بنى مالك بن كنانة فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها و إخوته و بنى غامد انكشفوا فسبوها فيمن سبوا فبينا هى تسير بكت . فقالوا : ما يبكيك أعلى فراق زوجك ؟ فقالت : قبحه الله . قالوا : لقد كان جميلا قالت : قبح الله جمالا لا نفع معه ، إنما أبكى على عصيانى أختى . وقولها : ترى الفتيان كالنخل المثل وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس شاب أسود أفوه مضطرب الخلق : أترضين بى على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أ كذلك هو ؟ قالوا: نعم إنه مع ماترين ليمنع الحليلة ، وتتقيه القبيلة قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به فزوجوها منه .

وقد سأل القيل الحميرى ولديه عن الرجال فى جملة ماسأل . قال للأكبر « وهو

---

(١) اى كثير الماء مغرق بين الغمورة ، يريد انه كريم جواد كثير العطاء والنوال . (٢) النهد . الكريم ينهض الى معالى الامور . (٣) اى عزيز النفس اذا جرسته الامور وجدته عزيزا صلبا . (٤) الكفء فى الشجاعة أو عام . (٥) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولانكص وجبن .

عمرو » ما أحب الرجال إليك وأكرمهم عليك ؟ فقال عمرو : السيد الجواد ، القليل الأنداد الماجد الأجداد ، الراسى الأوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل الذوّاد ، الصادر الوراد ، قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : ما أحسنَ ما وصف ! وغيره أحب إلىّ منه . قال : ومن يكون بعد هذا ؟ قال : السيد الكريم ، المانع للحريم ، المِفْضال الحليم ، القَمقام[1] الزعيم ، الذى إن همّ فعل ، وإن سُئِلَ بذل . قال : أخبرنى يا عمرو ما أبغض الرجال إليك ؟ قال : البَرَم[2] اللئيم ، المستخذى[3] للخصيم ، المِبْطان النهيم[4] . العيِى البكيم[5] ، الذى إن سُئِلَ منع ، وإن هدد خضع ، وإن طلب جَشِع[6] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أبغض إلىّ منه . قال : ومن هو ؟ قال : النَّئُوم[7] الكذوب ، الفاحش الغَضوب ، الرغيب عند الطعام ، الجبان عند الصدام .

حديث النسوة التى أخبرن عن أحوال أزواجهن

روى أهل الكتب الصحيحة فى الحديث . وأئمة أهل اللغة والأدب . أنه خرج إحدى عشرةَ امرأة من خثعم وهى قبيلة من قبائل عرب اليمن . وكانت فى قرية من قرى اليمن فى الجاهلية إلى مجلس فجلسن وقلن تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً . فتكلمت كل واحدة منهن فى وصف زوجها بكلام بلغ من فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارة والبديع ما لا مزيد عليه . ولا سيما كلام الأخيرة منهن وهى أم زرع فإنه مع كثرة فصوله ، وقلة فضوله ، مجتاز الكلمات ، واضح السمات ، نير النسمات ، قد قدرت ألفاظه قدر معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، أفرغ فى قالب

---

(١) بالفتح ويضم السيد الكثير الخير الواسع الفضل (٢) مر تفسيره قريبا (٣) الاستخذاء : الخضوع (٤) المبطان الذى همه بطنه أو الرغيب لا ينتهى من الاكل، والنهيم المفرط الشهوة فى الطعام ولا تمتلىء عينه ولايشبع (٥) البكم محركة الخرس او مع عى وبله أو ان يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ، بكم كفرح فهو ابكم وبكيم (٦) الجشع اسوا الحرص وقد جشع الرجل فهو جشع (٧) ويروى النؤوم اى الكثير النوم والاول انسب .

الانسجام ، وأتى به الخاطر بغير تكلف ، وجاء لفظه تابعاً لمعناه منقاداً له غير مستكره ولا منافر ، والله يمن على من يشاء بما شاء لا إله إلا هو[1] . ولنذكر كلامهن مع شرحه :

قالت الأولى وهى مهدد بنت أبى هزومة :

(زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل ، وفى رواية فينتقى) . وصفته بقلة الخير و بعده مع القلة . فشبهته باللحم الذى صغرت عظامه عن النقى . وهو المخ وخبث طعمه وريحه مع كونه فى مرتقى يشق الوصول إليه . فلا يرغب أحد فى طلبه لينقله إليه . مع توفر دواعى أكثر الناس على تناول الشىء المبذول فقد أودعت كلامها تشبيه شيئين بشيئين : شبهت زوجها باللحم الغث ، وهو الهزيل الذى يستغث من هزاله ، أى يستترك و يستكره . وشبهت سوء خلقه بالجبل الوعث ، أى كثير الضجر شديد الغلظة يصعب الرقى إليه . والوعث بالمثلثة الصعب المرتقى بحيث توحل فيه الأقدام ، فلا يتخلص منه و يشق فيه المشى ، ومنه وعثاء السفر ، ثم فسرت ما أجملت فكأنها قالت لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلا لأن الشىء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وجد بغير نصب ، ثم قالت : ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة فى صعود الجبل لأجل تحصيله .

قالت الثانية :

(زوجى لا أبث خبره إنى أخاف أن لا أذره إن أذكره أذكر عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ)

جملت حال زوجها ، واكتفت بالإشارة إلى معايبه خشية أن يطول الخطب بإيراد جميعها . قال ابن فارس : يقال فى المثل أفضيت إليه بعجرى و بجرى أى بأمرى كله ومعنى : إنى أخاف أن أذره أى أخاف أن لا أترك من خبره شيئاً . والعُجَرُ والبُجَرُ جمع عُجْرَةٍ و بُجْرَة بضم ثم سكون . فالعُجَر تعقد العصب والعروق فى الجسد حتى

(١) هذا الوصف لابن حجر العسقلانى .

تصيير ناتئة . والبُجَرَ مثلها إلا أنها مختصة بالتى تكون فى البطن . قاله الأصمعى وغيره وقال ابن الأعرابى : العجرة نفخة فى الظهر ، والبجرة نفخة فى السرة وقال ابن أبى أويس : العجر العقد التى تكون فى البطن واللسان ، والبجر العيوب . وقيل : العجر فى الجنب والبطن ، والبجر فى السرة . هذا أصلهما ، ثم استعملا فى الهموم والأحزان . ومنه قول على رضى الله تعالى عنه يوم الجمل : أشكو إلى الله عُجَرى وبُجَرى . وقال الأصمعى : استعملا فى المعائب . وبه جزم ابن حبيب وأبو عبيد الهروى . وقال أبو عبيد بن سلام ، ثم ابن السكيت : استعملا فيما يكتمه المرء ويخفيه عن غيره . وبه جزم المبرد . قال الخطابى : أرادت عيوبه الظاهرة . وأسراره الكامنة وقد سبق قول ابن فارس :

قالت الثالثة وهى كبشة بنت الأرقم :

(زوجى العَشَنَّقُ ، إن أنطق أطلق . وإن أسكت أعلق) العشنق : الطويل المذموم الطول . قال الأصمعى : أرادت أنه ليس عنده أكثر من طوله بغير نفع . وقيل : ذمته بالطول لأن الطول فى الغالب دليل السفه ، وعلل ببعد الدماغ عن القلب . وقال أبو سعيد الضرير : الصحيح أن الشنق الطويل النجيب الذى يملك أمر نفسه ، ولا تحكم النساء فيه ، بل يحكم فيهن بما شاء فزوجته تهابه إن تنطق بحضرته فهى تسكت على مضض . قال الزمخشرى : وهى من الشكاية البليغة انتهى . ويؤيده ماوقع فى رواية يعقوب بن السكيت من الزيادة فى آخره وهو على حد السنان المذَلّق . أى المجرد بوزنه ومعناه ، تشير إلى أنها منه على حذر . ومعنى إن أنطق أطلق الخ أى إن ذكرت عيوبه فيبلغه طلقنى وإن سكت عنها فأنا عنده معلقة لا ذات زوج ولا أيم . فكأنها قالت : أنا عنده لا ذات بعل فانتفع به ، ولا مطلقة فأتفرغ لغيره ، فهى كالمعلقة بين العلو والسفل ، لا تستقر بأحدهما . ولم يرتض هذا بعضهم . وقال : وفى الشق الثانى عندى نظر لأنه لوكان ذلك مرادها لأنطقت ليطلقها فتستريح ، قال : والذى يظهر لى أنها أرادت وصف

سوء حالها عنده ، فأشارت إلى سوء خلقه وعدم احتماله لكلامها إن شكت له حالها وإنها تعلم أنها متى ذكرت له شيئاً من ذلك بادر إلى طلاقها ، وهى لا تؤثر تطليقه لمحبتها فيه ، ثم عبرت بالجملة الثانية إشارة إلى أنها إن سكتت صابرة على تلك الحال كانت عنده كالمعلقة التى لا ذات زوج ولا أيم . قال عياض : أوضحت بقولها : على حد السنان المذلّق ، مرادها بقولها قبل أن أسكت أعلق ، وإن أنطق أطلق . أى انها إن حادت عن السنان سقطت فهلكت ، وإن استمرت عليه أهلكها .

قالت الرابعة :

(زوجى كليل تهامة ، لا حرّ ولا قرّ ، ولا مخافةَ ولا سآمة ، والغيث غيث غمامة) تصف زوجها بأنه لين الجانب ، خفيف الوطأة على الصاحب . ومعنى والغيث غيث غمامة : إنه لا شر فيه يخاف . وقال ابن الانبارى : أرادت بقولها ولا مخافة أى أن أهل تهامة لا يخافون لتحصنهم بجبالها ، أو أرادت وصف زوجها بأنه حامى الذمار ، مانع لداره وجاره ، ولا مخافة عند من يأوى إليه ، ثم وصفته بالجود . وقال غيره : قد ضربوا المثل بليل تهامة فى الطيب ، لأنها بلاد حارة فى غالب الزمان ، وليس فيها رياح باردة فاذا كان الليل كان وهج الحرّ ساكناً فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كان فيه من أذى حرّ النهار . فوصفت زوجها بجميل العشرة ، واعتدال الحال ، وسلامة الباطن ، فكأنها قالت لا أذى عنده ولا مكروه ، وأنا آمنة منه فلا أخاف من شره ، ولا ملل عنده فيسأم من عشرتى أو ليس بسيء الخلق فأسأم من عشرته ، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل .

قالت الخامسة وهى حبىّ بنت علقمة :

(زوجى إن دخل فَهِد ، وإن خرج أسِد ، ولا يسأل عما عَهِدَ ، ولا يرفع اليوم لغد) شبهته فى لينه وغفلته بالفَهَد لأنه يوصف بالحياء ، وقلة الشر وكثرة النوم ، وشبهته بالأسد تصفه بالنشاط فى الغزو . وقال ابن أبى أويس : معناه

إن دخل البيت وثب علىّ وثوب الفهد ، و إن خرج كان فى الإقدام مثل الأسد . تشير إلى كثرة جماعه لها إذا دخل فينطوى تحت ذلك تمدحها بأنها محبوبة لديه بحيث لا يصبر عنها إذا رآها ، و إذا خرج على الناس كان أمره أشد فى الجرأة والإقدام والمهابة كالأسد . وقولها : ولا يسأل عما عهد بمعنى أنه شديد الكرم ، كثير التغاضى ، لا يتفقد ما ذهب من ماله ، و إذا جاء بشىء لبيته لا يسأل عنه بعد ذلك ، أو لا يلتفت إلى ما يرى فى البيت من المعائب ، بل يسامح و يغضى ومعنى قولها : ولا يرفع اليوم لغد . يعنى لا يدّخر ماحصل عنده اليوم من أجل الغد فَكَنَّتْ بذلك عن غاية جوده . و يحتمل أن يكون المراد أنه يأخذ بالحزم فى جميع أموره فلا يؤخر ما يجب عمله اليوم إلى غد . فالتمثيل بالفهد من جهة كثرة التكرم أو الوثوب ، و بالأسد من جهة الشجاعة ، و بعدم السؤال من جهة المسامحة ، و بعدم الرفع إلى الغد ما ذكر من عدم الادخار .

قالت السادسة وهى بنت أوس بن عبد ودّ :

(زوجى إن أكل لف ، و إن شرب اشتفّ ، و إن اضطجع التف ، ولا يولج الكف ليعلم البث) . وفى رواية بزيادة و إن ذبح اغتث . أى تحرى الغث وهو الهزيل . وقد جمعت فى وصفها له بين اللؤم والبخل ، والنهمة والمهانة ، وسوء العشرة مع أهله . فإن العرب تذم بكثرة الأكل والشرب ، وتتمدح بقلتهما و بكثرة الجماع لدلالتها على صحة الذكورية والفحولية . فإن المراد باللف الإكثار من الأكل واستقصاؤه حتى لا يترك شيئاً منه . والاشتفاف فى الشرب استقصاؤه مأخوذ من الشفافة بالضم والتخفيف وهى البقية تبقى فى الإناء . فإذا شربها الذى شرب الإناء قيل اشتفّها وقولها : التف . أى رقد ناحيةً وتلفف بكسائه وحده ، وانقبض عن أهله إعراضاً فهى كئيبة حزينة لذلك . ولذلك قالت : ولا يولج الكف ليعلم البث أى لا يمد يده ليعلم ما هى عليه من الحزن فيزيله ، و يحتمل أن تكون أرادت أنه ينام نوم العاجز الفشل الكسل . والمراد بالبث الحزن ، و يطلق

على الشكوى ، وعلى المرض وعلى الأمر الذى لا يصبر عليه . أرادت أنه لا يسأل عن الأمر الذى يقع اهتمامها به فوصفته بقله الشفقة عليها ، وأنه لو رآها عليلة لم يدخل يده فى ثوبها ليتفقد خبرها كعادة الأجانب فضلا عن الأزواج ، وقيل فى المراد به غير ذلك .

قالت السابعة وهى هند :

(زوجى غياياء طباقاء ، كل داء له داء ، شَجَّك أو فَلَّك ، أو جمع كُلاًّ لك) الغياياء الطباقاء الأحمق الذى ينطبق عليه أمره وعن الجاحظ الطباقاء الثقيل الصدر عند الجماع ينطبق صدره على صدر المرأة فيرتفع سفله عنها . وقد ذمت امرأةٌ امرأ القيس فقالت له ثقيل الصدر خفيف العجز ، سريع الإراقة ، بطىء الإفاقة . وقولها : كل داء له داء أى كل شىء تفرق فى الناس من المعائب موجود فيه . وقولها : شجك أو فلك أى جرحك فى رأسك وجسدك . قال عياض وصفته بالحمق والتناهى فى سوء العشرة وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطَرِها مع الأذى ، فإن حدثته سبها ، وإذا مازحته شَجّها ، وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها ، أو شق جلدها ، أو أغار على مالها ، أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام وأخذ المال .

قالت الثامنة وهى عمرة بنت عمرو :

(زوجى المس مس أرنب ، والريح ريح زَرْنَب) وصفته بأنه لين الجسد ناعمه فإن الأرنب دُوَيبة لينة المس ناعمة الوبر جداً ، والزرنب بوزن الأرنب لكن أوله زاى وهو نبت طيب الريح ، ويحتمل أن تكون كَنَّتْ بذلك عن حسن خلقه ، ولين عريكته ، بأنه طيب العرق لكثرة نظافته ، واستعماله الطيب تظرفا ويحتمل أن تكون كنّت بذلك عن طيب حديثه ، أو طيب الثناء عليه لجميل معاشرته . وفى رواية أخرى بزيادة قولها : وأنا أغلبه والناس يغلب . فوصفته مع جميل عشرته لها ، وصبره عليها بالشجاعة . وهو كما قال معاوية رضى الله عنه :

يغلبن الكرام ، و يغلبهن اللئام . وأما قولها : والناس يغلب ففيه نوع من البديع يسمى التتميم لأنها لو اقتصرت على قولها وأنا أغلبه لظن أنه جبان ضعيف فلما قالت والناس يغلب دل على أن غلبها إياه إنما هو من كرم سجاياه . فتمت بهذه الكلمة المبالغة فى حسن أوصافه .

قالت التاسعة وهى كبشة :

(زوجى رفيعُ العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرّماد ، قريب البيت من الناد) زاد الزبير بن بكار فى روايته : (لا يشبع ليلةَ يُضاف ، ولاينام ليلةَ يخاف) وصفته بطول البيت وعلوه فإن بيوت الأشراف كذلك يعلونها ويضربونها فى المواضع المرتفعة لِيَقْصِدَهم الطارقون والوافدون ، فطول بيوتهم إما لزيادة شرفهم ، أو لطول قاماتهم ، و بيوت غيرهم قصار . وقد لهج الشعراء بمدح الأول وذم الثانى كقوله :

* قصار البيوت لاترى صهواتها *

وقال آخر :

إذا دخلَوا بيوتهم أكبّوا على الركبات من قصر العماد

ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً فيدل على كثرة الحاشية والغاشية . وقيل : كَنَتْ بذلك عن شرفه ورفعة قدره . والنجاد بكسر النون وجيم خفيفة حمالة السيف ، تريد أنه طويل القامة يحتاج إلى طول نجاده ، وفى ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته ، وكانت العرب تتمادح بالطول وتذم بالقصر وقولها : عظيم الرماد . تعنى أن نار قراه للأضياف لا تُطْفَأ لتهتدى الضيفان إليها فيصير رماد النار كثيراً لذلك . وقولها : قريب البيت من الناد وقفت عليها بالسكون لمواخاة السجع ، والنادى والندىّ : مجلس القوم . وصفته بالشرف فى قومه ، فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوه على رأيه وامتثلوا أمره ، أو أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهلَ لقاؤه و يكون أقرب إلى الوارد وطالب القرى . قال زهير :

يسط البيوتَ لـكى يكون مَظِنَّةً   من حيث توضع جَفْنَةُ المسترفدِ

ويحتمل أن تريد أن أهل النادى إذا أتوه لم يصعب عليهم لقاؤه لـكونه لا يحتجب عنهم ولا يتباعد منهم بل يقرب ويتلقاهم ويبادر لإكرامهم ، وضده من يتوارى بأطراف الحلل وأغوار المنازل ويبعد عن سمت الضيف لئلا يهتدوا إلى مكانه ، فإذا استبعدوا موضعه صدوا عنه ومالوا إلى غيره . ومحصل كلامها : أنها وصفته بالسيادة والـكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة .

قالت العاشرة وهى حبىّ بنت كعب .

(زوجى مالك وما مالك ، مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح ، وإذا سمعن صوت المِزْهَر أيقنّ أنهن هوالك) ووقع فى رواية يعقوب بن السكيت وابن الأنبارى من الزيادة : وهو أمام القوم فى المهالك . المبارك بفتحتين جمع مبرك وهو موضع نزول الإبل . والمسارح : جمع مسرح وهو الموضع الذى تطلق لترعى فيه . والمِزْهَر بكسر الميم وسكون الزاى وفتح الهاء آلة من آلات اللهو ، فجمعت فى وصفها له بين الثروة والـكرم وكثرة القرى والاستعداد له والمبالغة فى صفاته ، ووصفته أيضاً مع ذلك بالشجاعة لأن المراد بالمهالك الحروب . وهو لثقته بشجاعته يتقدم رفقته . وقيل : أرادت أنه هاد فى السبل الخفية ، عالم بالطرق فى البيداء . فالمراد على هذا بالمهالك المفاوز ، والأول أليق والله أعلم . وما فى قولها : وما مالك استفهاميةٌ يقال للتعظيم والتعجب والمعنى وأى شىء هو مالك ما أعظمه وأكرمه ، وتـكرير الاسم أدخل فى باب التعظيم . وقولها : مالك خير من ذلك زيادةٌ فى الإعظام ، وتفسير لبعض الإبهام ، وأنه خير مما أشير إليه من ثناء وطيب ذكر ، وفوق ما اعتقد فيه من سؤدد وفخر ، وهو أجل ممن أصفه لشهرة فضله . وهذا بناء على أن الإشارةَ بقولها ذلك إلى ما تعتقده فيه من صفات المدح . ويحتمل أن يكون المراد مالك خير مما فى ذهنك من الأموال وهو خير مما سأصفه به . ويحتمل أن تـكون

الإشارة إلى ما تقدم من الثناء على الذين من قبله ، وأن مالكا أجمع من الذين قبله لخصال السيادة والفضل . ومعنى قولها : قليلات المسارح أنه لاستعداده للضيفان بها لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلا ويترك سائرهن بفنائه . فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يَقْرِيه به من لحومها وألبانها . ومنه قول الشاعر :

حبسنا ولم نسرحْ لكى لا يلومنا   على حكمه صبراً معوّدة الحبس

ويحتمل أن تريد بقولها : قليلات المسارح الإشارةَ إلى كثرة طروق الضيفان . فاليوم الذى يطرقه الضيف فيه لا تسرح حتى يأخذ منها حاجته للضيفان ، واليوم الذى لا يطرقه فيه أحد أو يكون هو فيه غائباً تسرح كلها ، فأيام الطروق أكثر من أيام عدمه ، فهى لذلك قليلات المسارح وبهذا يندفع اعتراض من قال لو كانت قليلات المسارح لكانت فى غاية الهزال . وقيل : المراد بكثرة المبارك أنها كثيراً ما تثار فتحلب ثم تترك فتكثر مباركها لذلك . وقال ابن السكيت : إن المراد أن مباركها على العطايا والحملات [1] وأداء الحقوق وقرى الأضياف كثيرة ، وإنما يسرح منها ما فضل عن ذلك . فالحاصل أنها فى الأصل كثيرة ، ولذلك كانت مباركها كثيرة ، ثم إذا سرحت صارت قليلة لأجل ماذهب منها . وأما رواية من روى : عظيمات المبارك . فيحتمل أن يكون المعنى أنها من سمنها وعظم جثتها تعظم مباركها ، وقيل : المراد أنها إذا بركت كانت كثيرةً لكثرة من ينضم إليها ممن يلتمس القرى ، وإذا سرحت سرحت وحدها فكانت قليلة بالنسبة لذلك . وأما قولها : أيقنّ أنهن هوالك . فالمعنى أنه لما كثرت عادته بنحر الإبل لقرى الضيفان — ومن عادته أن يسبقهم ويلهيهم أو يتلقاهم بالغناء مبالغة فى الفرح بهم — صارت الإبل إذا سمعت صوت الغناء عَرَفت أنها تنحر :

قالت الحادية عشر وهى عاتكة كما قال ابن دريد فى كتاب الوشاح :

(زوجى أبو زرع ، فما أبو زرع ؟ أناسَ من حُلّى أُذُنَىّ ، وملأ من شحم

---

(١) الحمالة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم كالحمال .

عَضُدَىّ ، و بَجّحنى فبَجّحَتْ إلىّ نفسى ، ووجدنى فى أهل غُنَيْمَةٍ بشق ، فجعلنى فى أهلِ صهيلٍ وأطيطٍ ودائسٍ ومنِقّ ، فعنده أقول : فلا أقبح وأرقد فأتصبّح ، وأشرب فأتقنّح ، أم أبى زرع ، فما أم أبى زرع ؟ عُكُومها رداح ، و بيتها فَساح ، ابن أبى زرع ، فما ابن أبى زرع ؟ مضجعه كمسل شطبة ، و يشبعه ذراع الجفرة . بنت أبى زرع ، فما بنت أبى زرع ؟ طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها . جارية أبى زرع ، فما جارية أبى زرع ؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً ، ولا تنقّث ميرتنا تنقيثا ، ولا تملأُ بيتنا تعشيشا . قالت : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقنى ونكحها ، فنكحت بعده رجلا سَرّيا ، وركب شريّا ، وأخذ خطيا ، وأراح علىّ نعَماً ثريّا ، وأعطانى من كل رائحة زوجا ، وقال : كلى أمّ زرع وميرى أهلك . قالت : فلو جمعتُ كل شىء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع .

زاد الطبرانى فى رواية بعد قولها فيا أبو زرع (صاحب نعم وزروع) ومعنى أناس من حلىّ أذنى : أنه ملأُ أذنيها بما جرت به عادة النساء من التحلى به من قرط وشنف من ذهب ولؤلؤ ونحو ذلك . ومعنى وملأُ من شحم عضدى : قال أبو عبيد : لم ترد العضد وحده وإنما أرادت الجسد كله ، لأن العَضُدَ إذا سمنت سمن سائر الجسد ، وخصت العضد لأنه أقرب ما يلى بصر الإنسان من جسده . ومعنى بجحنى فبجحت إلىّ نفسى : أنه فرحها ففرحت . وقال ابن الأنبارى: المعنى عظمنى فعظمت إلىّ نفسى . ومعنى وجدنى فى أهل غنيمة بشق : أنهم كانوا فى شق جبل أى ناحيته ولقلتهم وسعهم . ومعنى أهل صهيل وأطيط أى خيل وإبل ، وأصل الأطيط صوت أعواد المحامل ، والرحال على الجمال ، فأرادت أنهم أصحاب محامل تشير بذلك إلى رفاهتهم ودائس من الدوس . قال ابن السكيت : هو الذى يدوس الطعام فكأنها أرادت أنهم أصحاب زرع . وقال أبو سعيد : المراد أن عندهم طعاماً منتقى . وهم فى دياس شىء آخر فخيرهم متصل . ومنق بكسر النون وتشديد

القاف ، وقد اختلف أهل اللغة فى تفسير هذه الكلمات . الحاصل أنها ذكرت أنه نقلها من شظف عيش أهلها إلى الثروة الواسعة من الخيل والإبل والزرع وغير ذلك . ومن أمثالهم : إن كنت كاذباً فحلبت قاعداً أى صار مالك غنما يحلبها القاعد ، و بالضد أهل الإبل والخيل . ومعنى فلا أقبح : لا يقال لى قبحك الله أو لا يقبح قولى ولا يردعلىّ ، أى لكثرة إكرامه لها وتدللها عليه لا يرد لها قولاً ولا يقبح عليها ما تأتى به . ومعنى وأرقد فأتصبح . أنام الصبحة ، وهى نوم أول النهار فلا أوقظ إشارة إلى أن لها من يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها . وأرادت بقولها وأشرب فأتقنّح . أنها تشرب حتى لا تجد مساغا . واختلف اللغويون فى معنى أتقنح فقال أبو عبيد : معناه أروى حتى لا أحب الشرب . وقيل غير ذلك . والشرب يعم شرب اللبن والخمر والنبيذ والسويق وغير ذلك . والعكوم بضم المهملة جمع عِكم بكسرها وسكون الكاف هى الأعدال والأحمال التى تجمع فيها الأمتعة . ورَداح أى عظام كثيرة الحشو قال أبو عبيد . وقال الهروى : معناه ثقيلة . يقال للمرأة إذا كانت عظيمة الكفل ثقيلة الورك رداح . وفَساح بفتح الفاء والمهملة أى واسع . وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش واسعة المال كبيرة البيت ، إما حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة ، وإما كناية عن كثرة الخير ورغد العيش والبر بمن ينزل بهم لأنهم يقولون فلان رحب المنزل أى يكرم من ينزل عليه . وأشارت بوصف والدة زوجها إلى أن زوجها كثير البر لأمه وأنه لم يطعن فى السن لأن ذلك هو الغالب ممن يكون له والدة توصف بمثل ذلك وقولها (ابن أبى زرع . فما ابن أبى زرع ، مضجعه كمسل شطبة ويشبعه ذراع الجفرة) وفى رواية لابن الأنبارى بزيادة (وترويه فِيقَةُ اليَعْرة . ويميس فى حلق النترة) قال ابن الأعرابى : أرادت بمسل الشطبة سيف سل من غمده فمضجعه الذى ينام فيه فى الصغر كقدر مسل شطبة واحدة . والجفرة : الأنثى من ولد المعز إذا كان ابن أربعة أشهر وفصل عن أمه وأخذ فى الرعى قاله أبو عبيد وغيره

وقال ابن الأنبارى وابن دريد : ويقال لولد الضأن أيضاً إذا كان ثنياً . وقال الخليل : الجفر من أولاد الشاة ما استجفر أى صار له بطن . والفيقة بكسر الفاء وسكون التحتانية بعدها قاف ما يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والفُواق بضم الفاء الزمان الذى بين الحلبتين . واليعرة : بفتح التحتانية وسكون المهملة بعدها راء العناق . ويميس بالمهملة أى يتبختر . والمراد بحلق النترة . وهى بالنون المفتوحة ثم المثناة الساكنة . الدرعُ اللطيفة أو القصيرة ، وقيل اللينة الملمس ، وقيل الواسعة . والحاصل أنها وصفته بهيَف القد وأنه ليس ببطين ولا جافٍ قليل الأكل والشرب ملازم لآلة الحرب يختال فى موضع القتال ، وكل ذلك مما تتمادح به العرب ويحتمل أنها وصفته بأنه خفيف الوطأة عليها لأن الزوج غالباً يستثقل ولده من غيرها فـكان هذا يخفف عنها فإذا دخل بيتها فاتفق أنه قال[1] فيه مثلا لم يضطجع إلاقدر ما يسل السيف من غمده ثم يستيقظ مبالغة فى التخفيف عنها . وكذا قولها : يشبعه ذراع الجفرة أنه لا يحتاج ما عندها بالأكل فضلا عن الأخذ بل لو طعم عندها لاقتنع باليسير الذى يسد الرَمَقَ من المأكول والمشروب . وقولها فى بنت أبى زرع : طوع أبيها وطوع أمها أى أنها بارة بهما . وفى رواية الزبير بزيادة : (وزين أهلها ونسائها) أى يتجملون بها . وملء كسائها : كناية عن كمال شخصها ونَعْمة جسمها . وغيظ جارتها ، أى ضرتها . أوهو على حقيقته لأن الجارات من شأنهن ذلك . وزاد الـكاذى فى روايته عن ابن السكيت (وصفر ردائها) وزاد فى رواية (قبَّاء ، هضيمة الحشا، جائلة الوشاح ، عكناء، فعماء ، نجْلاء ، دعجاء ، رَجّاء ، قَنْواء ، مونَّقة، مغنَّقة) وصِفْر بكسر الصاد المهملة وسكون الفاء أى خال فارغ . والمعنى : أن رداءها كالفارغ الخالى لأنه لا يَمسُّ من جسمها شيئاً ، لأن ردفها وكتفيها يمنع مسه من خلفها شيئاً من جسمها ونهدها يمنع مسه شيئاً من مقدمها . وفى كلام ابن أبى أويس وغيره : معنى قولها صفر ردائها تصفها بأنها خفيفة موضع التردية وهو أعلى بدنها .

---

(١) قال قيلا وقائلة وقيلولة : نام فى القائلة وهى نصف النهار .

ومعنى قولها : وملء كسائها أى ممتلئة موضع الأزرة وهو أسفل بطنها . والصفر الشىء الفارغ . قال عياض : والأولى أنه أراد أن امتلاء منكبيها ، وقيام نهديها ، يرفعان الرداء من أعلى جسدها فهو لا يمسه فيصير كالفارغ منها بخلاف أسفلها . ومنه قول الشاعر :

أبَتِ الروادف والنهود لقمصها من أن تَمَسَّ بطونها وظهورها

وقولها « قبّاء » بفتح القاف و بتشديد الموحدة أى ضامرة البطن « وهضيمة الحشا » هو بمعنى الذى قبله « وجائلة الوشاح » أى يدور وشاحها لضمور بطنها « وعكناء » أى ذات أعكان « وفعماء » بالمهملة أى ممتلئة الجسم « ونجلاء » بنون وجيم أى واسعة العين « ودعجاء » أى شديدة سواد العين « ورَجّاء » بتشديد الجيم أى كبيرة الكفل ترتج من عظمه إن كانت الرواية بالراء ، فإن كانت بالزاى فالمراد فى حاجبيها تقويس « وقنواء » بفتح القاف وسكون النون والمد من القنو طول فى الأنف ورقة الأرنبة مع حدبة فى وسطه « ومونقة » بنون ثقيلة وقاف « ومغنّقة » بوزنه أى مغذية بالعيش الناعم وكلها أوصاف حسان ، وقولها فى جارية أبى زرع ، لاتبث حديثنا تبثيثاً ، بمعنى لانظهره ، ولاتنقث بتشديد القاف بعدها مثلثة أى تسرع فيه بالخيانة وتذهبه بالسرقة ، والميرة بكسر الميم وسكون التحتانية بعدها راء الزاد وأصله ما يحصله البدوى من الحضر و يحمله إلى منزله لينتفع به أهله ، وقولها : ولا تملأ بيتنا تعشيشا أى إنها مصلحة للبيت مهتمة بتنظيفه وإلقاء كناسته و إبعادها منه وأنها لاتكتفى بقم[1] كناسته وتركها فى جوانبه كأنها الأعشاش . قالت : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض أرادت أنه يبكر بخروجه من منزلها غدوة وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم . والأوطاب : جمع وطب بفتح أوله وهو وعاء اللبن . وانطوى فى خبرها كثرة خير داره وغزارة لبنه وأن عندهم ما يكفيهم و يفضل حتى يمخضوه و يستخرجوا زبده ، ويحتمل أن يكون أنها أرادت أن الوقت الذى خرج فيه كان فى زمن الخِصْبِ وطيب الربيع ، وكان سبب ذكر

---

(١) قم البيت : كنسه .

ذلك توطئة للباعث على رواية أبى زرع للمرأة على الحالة التى رآها عليها ، أى إنها من مخض اللبن تعبت فاستقلت تستريح فرآها أبو زرع على ذلك . وفائدة وصف الولدين بأنها كالفهدين التنبيهُ على أسباب تزويج أبى زرع لها لأنهم كانوا يرغبون فى أن تكون أولادهم من النساء المُنجِبات فلذلك حرص أبو زرع عليها لما رآها : وفى تشبيه النهدين بالرمانتين إشارة إلى صغر سنها . وقولها : فنكحت بعده رجلا سريّاً أى من سراة الناس وهم كبراؤهم فى حسن الصورة والهيئة والسرىّ من كل شىء خياره . وركب شَرِيّا : تعنى فرساً خياراً فائقاً . وأخذ خطياً : أى رمحاً منسوباً إلى الخط وهو موضع بنواحى البحرين تجلب منه الرماح وأراح : من الرواح . ومعناه أتى بها إلى المراح وهو موضع مبيت الماشية . قال ابن أبى أويس : معناه أنه غزا فغنم فأتى بالنعم الكثيرة . والنَعَم بفتحتين الإبل خاصة ، ويطلق على جميع المواشى إذا كان فيها إبل وثريا أى كثيرة . والثرى : المال الكثير من الإبل وغيرها ، وأرادت بقولها : وأعطانى من كل رائحة زوجاً كثرة ما أعطاها وأنه لم يقتصر على الفرد من ذلك والرائحة الآتية وقت الرواح وهو آخر النهار . ومعنى قوله كلى أم زرع وميرى أهلك أى صليهم وأوسعى عليهم بالميرة وهى الطعام . والحاصل : أنها وصفته بالسؤدد فى ذاته والشجاعة والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدى منه ما شاءت لأهلها مبالغة فى إكرامها ؛ ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لأبى زرع . وكان سبب ذلك أن أبازرع كان أول أزواجها فسكنت محبته فى قلبها ، كما قيل : * ما الحب إلا للحبيب الأوّل * ولذلك قالت . فلو جمعت كل شىء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع . وقد تبين مما أوردناه من أسجاع العرب فى وصف الرجال والأزواج على الاختلاف فى العبارات أن مآله ومحصّله أن المحمود منهم هو الجامع للصفات المحمودة خلقاً وخلقا عند ذوى العقول السليمة ، وأن المذموم منهم من اتصف بخلاف ذلك ، وبه يعلم ما كان عليه العرب جاهليةً من المكانة فى الرأى .

طلاق العرب فى الجاهلية وعدة نسائهم

كان العرب فى الجاهلية يطلقون ثلاثا على التفرقة ، وأول من سن ذلك لهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ثم فعلت العرب ذلك ، فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها . ومنه قول الأعشى حين تزوج امرأة فرغب بها عنه[1] فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها :

أيا جارتى بِينى فإنك طالقه   كذاك أمورُ النـاسِ غادٍ وطارقه[2]

قالوا : ثانية فقال :

وبِينى فإن البينَ خيرٌ من العصا   وإلا تَرَىْ لى فوقَ رأسك بارقه

قالوا : ثالثة . فقال :

وبِينى حصان الفرج غيرَ ذميمةٍ   وموموقة قد كنتِ فينا ووامقه[3]

وكانوا يخلعون نساءهم أيضاً . والخلع فراق الزوجة على مال مأخوذ من خلع الثوب ، لأن المرأة لباس الرجل معنى وضم مصدره تفرقة بين الحسىّ والمعنوى . وذكر أبو بكر بن دريد فى أماليه : أنه أول خلع كان فى الدنيا أن عامر بن الظَرِب بفتح المعجمة وكسر الراء ثم موحدة ، زوج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث

---

(١) وقيل بل انه لم يرضها ولم يستحسن خلقها فطلقها (راجع ج ٨ ص ٨٠ و ٨١ من الاغانى) .

(٢) قوله بينى يقال بان الشىء اذا انفصل فهو بائن وابنته بالالف فصلته وبانت المراة بالطلاق فهى بائن بغير هاء وابانها زوجها بالالف فهى مبانة : وطلق الرجل امراته تطليقا فهو مطلق وطلقت هى تطلق من باب قتل وفى لغة من باب قرب فهى طالق بغيرها ، قال الآزهرى : وكلهم يقول طالق بغير هاء، قال وأما قول الاعشى ايا جارتى الخ فقال الليث اراد طالقة غدا وانما اجترا عليه لانه يقال طلقت فحمل النعت على الفعل . وقال ابن فارس ايضا : امراة طالق طلقها زوجها وطالقة غدا فصرح بالفرق لأن الصفة غير واقعة ، وهذه تعليلات باردة وأقوال فاسدة لا يقوم عليها برهان ولا شىء اضعف من حجج النحويين والصواب جواز الوجهين بدون تعليل وتمحل دعاوى واهنة ، قال الجوهرى : يقال طالق وطالقة وانشد بيت الاعشى ، واجيب بجوابين متكلفين، فان احببت الوقوف عليهما فراجع مادة طلاق من المصباح

(٣) الحصان بالفتح المراة العفيفة وهى بينة الحصانة اى العفة ، ومقه كورثه ومقا ومقه احبه فهو وامق .

ابن الظرب . فلما دخلت عليه نفرت منه فشكا إلى أبيها ، فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك وقد خلعتها منك بما أعطيتها . قال : فزعم العلماء أن هذا كان أول خلع فى العرب « وقال الشافعى » رحمه الله تعالى سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث (الظهار) و (الإيلاء) و (الطلاق) فأقر الله تعالى الطلاق طلاقاً وحكم فى الإيلاء والظهار بما بين فى القرآن انتهى « والظهار » تشبيه الرجل زوجته أو ما يعبر به عنها أو جزء شائع بمحرم عليه تأبيداً ، كأن يقول : أنتِ علىّ كظهر أمى ، أو كبطنها ، أو كفخذها ، أو كفرجها ، أو كظهر أختى ، أو عمتى . وأما الإيلاء : فهو الحلف على ترك قربان المرأة مدة . أخرج الطبرانى من حديث ابن عباس : كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين ، فوقَّت الله لهم أربعة أشهر فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء . وكانت النساء تعتد من الطلاق والموت ، وكن يبالغن فى احترام حق الزوج ، وتعظيم حرمة عقد النكاح غاية المبالغة . فقد كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها تتربص سنة فى شر ثيابها ، وحِفْش[1] بيتها ، وبذلك أخبر الحديث . فنى البخارى عن أم سلمة جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحُلُها : فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول : لا . ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنما هى أربعة أشهر وعشراً ،[2] وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول . قال حميد : فقلت لزينب : وما ترمى بالبعرة على رأس الحول ؟ فقالت زينب : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر[3] فتفتض به فقلما تفتض بشىء إلا مات ، ثم

---

(١) بكسر الحاء وسكون الفاء : البيت الصغير الحقير وقيل فى ضبطه وتفسيره غير ذلك (٢) كذا فى الأصل بالنصب على حكاية لفظ القرآن ولبعضهم بالرفع وهو واضح (٣) قوله بدابة بالتنوين وحمار بالجر والتنوين على البدل وقوله أو شاة أو طائر للتنويع لا الشك واطلاق الدابة على ما ذكر هو بطريق الحقيقة اللغوية لا العرفية .

تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره انتهى . وتفتض بفاء ثم مثناة ثم ضاد معجمة ثقيلة فسره مالك بقوله : تمسح به جلدها ، وأصل الفض الكسر أى تكسر ما كانت فيه وتخرج منه بما تفعله بالدابة . ووقع فى رواية للنسائى : تقبض بقاف ثم موحدة ثم مهملة خفيفة وهى رواية الشافعى . والقبض : الأخذ بأطراف الأنامل . قال الأصبهانى وابن الأثير : هو كناية عن الإسراع أى تذهب بِعَدْوٍ وسرعة إلى منزل أبويها لكثرة حيائها لقبح منظرها أو لشدة شوقها إلى التزويج لبعد عهدها به . والضبط الأول أشهر . قال ابن قتيبة : سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض أى تكسر ما هى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتنبذه ، فلا يكاد يعيش بعد ما تفتض به . واختلف فى المراد برمى البعرة فقيل : هو إشارة إلى أنها رمت العدة رمى البعرة . وقيل : إشارة إلى أن الفعل الذى فعلته من التربص والصبر على البلاء الذى كانت فيه لما انقضى كان عندها بمنزلة البعرة التى رمتها استحقاراً له وتعظيما لحق زوجها . وقيل : بل ترميها على سبيل التفاؤل بعدم عودها إلى مثل ذلك . ووقع فى رواية شعبة : فإذا كان حول فمر كلب رمت ببعرة : وظاهره أن رميها البعرة يتوقف على مرور الكلب سواء طال زمن انتظار مروره أم قصر . وقيل : ترمى بها من عرض من كلب أو غيره ترى من حضرها أن مقامها حولا أهون عليها من بعرة ترمى بها كلباً أو غيره . وقد أبطل الله تعالى ذلك بالإسلام وشريعته التى جعلها رحمة وحكمة ومصلحة ونعمة ، فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً على وفق الحكمة والمصلحة ، إذ لابد من مدة مضروبة لها ، وأولى المدد لذلك المدة التى يعلم فيها وجود الولد وعدمه ، فإنه يكون أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين علقة ، ثم أربعين مضغة ، فهذه أربعة أشهر ، ثم ينفخ فيه الروح فى الطور الرابع ، وقدر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثَمَّ حمل .

بيان ما كان للعرب في هذا الباب مما أبطلته الشريعة

كانت العرب فى جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها . كانوا لاينكحون الأمهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات ، إلا ما يحكى أن حاجب بن زرارة وهو سيد بنى تميم تزوج بنته وأولدها . وقد كان سماها (دختنوس) باسم بنت كسرى ، فقال فيها حين نكحها مرتجزاً :

يا ليتَ شعرى عنك دختنوسُ ... إذا أتاها الخبر المرموسُ
أتسحب الذيلين أم تميسُ ... لا بل تميس إنها عروسُ[(١)]

وقد تنزهت العرب ولا سيما قريش من هـذه المناكح حفظاً لحرمة الأرحام الدانية أن تُنْتَهَك بالمناكح العاهرة فتضعف الحمية ، وتقل الغيرة ، وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة . وكان أقبح ما يصنع بعضهم أن يجمع بين الأختين . وأول من جمع بينهما أبو جنحة سعيد بن عاصم جمع بين هند وصفية ابنتَىْ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فأبطل ذلك الإسلام . ومن قبيح ما كانوا يفعلون أن يخلف الرجل على امرأة أبيه وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن . قال أوس بن حجر التميمى يعير قوماً من بنى قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم واحـداً بعد آخر وكانوا ثلاثة :

نيكوا فـكيهة وامشوا حول قبتها ... فكلُّكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَفُ[(٢)]

وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيـه وإن كان

---

(١) نسبهما أبو الفـرج الأصبهانى فى الاغانى (ج ١٠ ص ٣٨ والمجد فى القاموس) الى لقيط ابن زرارة ، قال أبو الفرج : دختنوس بنت لقيط بن زرارة وكانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس وكذلك الزمخشرى فى الأساس فى مادة رمس ، قال : ورمست على الأمر كتمته ورمس الخبر قال لقيط بن زرارة ياليت شعرى الخ ، والميس : التبختر ، وسيأتى للبحث مزيد تفصيل

(٢) رواية التاج :

والفارسية فيهم غير منكرة ... فكلهم لابيه ضيزن سـلف

يقول هم مثل المجوس يتزوج الرجل منهم امراة ابيه وامراة ابنه ، وقال ابن الاعرابى : الضيزن الذى يتزوج امراة ابيه اذا طلقها أو مات عنها ، وقيل من يزاحم أباه فى امراته .

له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سَلَفَ إنه كانَ فاحِشةً ومقتاً وساء سبيلا » وقد كان هذا النكاح يسمى فى الجاهلية نكاح المقت ويسمى الولد منه مقتىّ ، ويقال له أيضاً مقيت أى مبغوض مستحقر . وكان من هذا النكاح على ما ذكره الطبرسى : الأشعثُ ابن قيس ومعيط جد الوليد بن عقبة . قال ابن قتيبة : من خلف على امرأة أبيه بعده جماعة ، كانت برة ابنة مرّ أخت تميم بن مرّ تحت خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر . فخلف عليها ابنه كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة وغيره من ولده إلا عبد مناة بن كنانة . وكانت ناجية بنت جرم بن ريان من قضاعة تحت سامة بن لؤىّ فولدت له غالب بن سامة ، ثم هلك عنها فخلَف عليها ابنه الحارث بن سامة . وكانت واقدة من بنى مازن بن صعصعة عند عبد مناف فولدت له نوفلا وأبا عمرو فهلك عنها ، وخلف عليها هاشم بن عبد مناف فولدت له خالدة وضعيفة وكانت آمنة بنت أبان بن كليب عند أُميّةَ بن عبد شمس فولدت له الأعياص ثم هلك عنها فخلف عليها ابنه أبو عمرو بن أمية وولدت له أبا معيط . وكانت مليكة بنت سنان ابن أبى حارثة المرى أخت هرم بن سنان تحت زبان ابن سيار بن عمرو الفزارىّ فتزوجها بعده ابنه منظور بن زبان وولدت له خولة بنت منظور وهاشم بن منظور فتزوج بها الحسن بن على بن أبى طالب فولدت له الحسن بن الحسن رضى الله تعالى عنهم ، ثم خلف عليها بعده محمد بن طلحة بن عبيد الله فجاءت بإبراهيم بن محمد وهو الأعرج إلى غير ذلك انتهى . وعمرو بن معد يكرب تزوج امرأة لأبيه بعده فى الجاهلية ، وهى التى قال فيها هذه الأبيات :

تقول حَليلتى لما قَلَتْنى ... شرائح بين كُدرِىّ وجون

تراه كالثَغام يعلّ مسكا ... يسوء الفالياتِ إذا فلينى

فزينُك فى شريطك أمّ عمرو ... وسابِغة وذو النُونَينِ زينى

فلو شمَّرْنَ ثم عَدَوْنَ رَهْواً　　بكل مُدَجَّجٍ لعرفت لونى
إذا ماقلتُ : إن علىَّ ديناً　　بطعنة فارسٍ قضيتُ دينى
اقعقعة اللجام برأس طِرْف　　أحبُّ إلىَّ من أن تنكحينى
أخاف إذا هَبَطْنَ بنا خَباراً　　وجدَّ الركضُ أن لاتحمليني
فلولا إخوتى و بنىَّ منها　　ملأتُ لها بذى شطب يمينى

الحليلة : الزوجة . وقلتنى : من القلى وهو البغض . وشرائج : جمع شريج بضم الشين المعجمة وآخره جيم الضرب والنوع قال ابن دريد فى الجمهرة : كل لونين مختلفين هما شريجان وأنشد هذا البيت . وقوله . بين كدرى وجون أى بعض الشرائج كدرى أى أغبر و بعضها جون والكدرىّ منسوب إلى الكدرة وجون بضم الجيم جمع جونة وهو مصدر الجون بالفتح وهو من الاضداد . يقال للأبيض جون وللأسود جون . وقوله : تراه كالثغام الخ أى ترى الحليلة الشعر كالثغام وهو نبت له نور أبيض يشبه به الشيب وعللته ماء عللاً من باب طلب : سقيته السقية الثانية ، وعل وهو يعل من باب ضرب : إذا شرب . قال الأعلم : ومعنى يعل يطيب شيئاً بعد شىء ، وأصل العلل الشرب بعد الشرب وهذا غير مناسب هنا . والفاليات : جمع فالية وهى التى تفلى الشعر أى تخرج القمل منه . وقوله : فزينك فى شريطك الخ هذا خطاب لها ، وأم عمرو منادى . والزين نقيض الشين . والشريط هو العَيْبَةُ الصغيرة . والعيبة . بالفتح ما يجعل فيه الثياب . والسابغة الدرع الواسعة الطويلة . وذو النونين : السيف والنون شفرته . وقوله : فلو شمرن ثم عدون الخ يعنى النساء الفاليات وشمر أزاره تشميراً رفعه . والرهو : السير السهل . والمدجج بجيمين على صيغة اسم المفعول وهو اللابس آلة الحرب والسلاح . وقوله : إذا ما قلت الخ هو بضم التاء فى الموضعين والطرف : بالكسر الفرس الجواد . والخبار بفتح الخاء المعجمة بعدها موحدة الأرض الرخوة وذو شطب : السيف وشطب السيف طرائقه التى فى متنه الواحدة شطبة ، ولغموض هذه الأبيات ذكرنا تفسيرها .

ومما أبطله الشرع من عوائدهم فى هذا الباب

أنهم كانوا يطلقون النساء حتى إذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن لا عن حاجة ولا لمحبة ، ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضراراً . وكان الرجل يطلق امرأته ، أو يتزوج ، أو يعتق ويقول : كنت لاعباً ، فأبطل الله تعالى ذلك وردّه عليهم بقوله سبحانه : « وإذا طلقتم النساء فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومَنْ يفعلْ ذلك فقد ظلم نفسه » . وفى الحديث : ثلاث جدهن جد وهزلهن جدّ النكاح والطلاق والرجعة ، ومن ذلك أنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية جاهلية كما يقع كثيراً من نحو الملوك غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أنْ يَصِرْنَ تحتَ غيرهم فإنهم بسبب ما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بنى آدم إلا من عصمه الله تعالى منهم بالورع والتواضع . وقد أبطل الله تعالى ذلك ونهى عنه بقوله : « وإذا طلقتم النساء فَبلغْنَ أجلهنّ فلا تَعضلوهُنّ أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يُوعَظُ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ومن ذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحقّ بامرأته إنْ شاء أن يتزوجها بعضهم وإن شاءوا زوّجوها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها ، فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » . أى لتأخذوا ميراثهن أو ليدفعن إليكم صداقهن إذا أذنتم لهن بالنكاح . قال ابن عباس فى سبب هذه الآية : كان الرجل يرثُ امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها . وفى رواية : إن كانت جميلةً تزوجها وإن كانت دميمةً[1] حبسها حتى تموتَ فيرثها ، وحاصل معنى الآية :

---

(١) الدمامة بالفتح : قبح المنظر وصغر الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة والنملة الصغيرة .

لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم وتحسبوهن لأنفسكم . ولهم فى هذا الباب غير ذلك من المنكرات قد ذكرت فى كتب الحديث والتفاسير .

صفة حروب العرب فى الجاهلية وحروب غيرهم من الأوائل

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله تعالى وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منهم أهل عصبيته ، فإذا تذامروا[1] لذلك وتواقفت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب ، وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل . وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب الملك وسعى فى تمهيده . فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة ، والعشائر المتناظرة . والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم ، الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك ، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم ، والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة . والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل ، وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر ، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة

---

(١) تذمر : تنكر له وأوعده .

و يمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته ، وفي التنزيل : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات . وفي الحديث الكريم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ومن هنا تظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه ، فمن ولّى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف و باء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين ، وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه[1] فعد من الكبائر . و يظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع . وأما قتال الكرّ والفرّ فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ، و يقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد .

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس و يسوون في كل كردوس صفوفه ، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب ، واعتوروا[2] مع عدوهم الطعن والضرب ، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض ، فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً و يضمون المتعارفين بعضهم لبعض و يرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب و يسمون هذا الترتيب (التعبئة) وهو مذكور في أخبار فارس والروم وللدولتين صدر الإسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكراً

---

(١) السياج : الحائط وما احيط به على كل شيء مثل النخل والكرم
(٢) اعتوروا الشيء وتعوروه وتعاوروه : تداولوه

منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره و يسمونه المقدمة ، ثم عسكراً آخر ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سَمْته يسمونه الميمنة ، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ، ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة و يقف الملك وأصحابه فى الوسط بين هذه الأربعة و يسمون موقفه القلب ، فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم أما فى مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها ، أو كيفما أعطاها حال العساكر فى القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة .

وانظر ذلك فى أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق ، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى فى التعبئة فاحتيج لمن يسوقها من خلفه . وعين لذلك الحجاج بن يوسف وكان فى الدولة الأموية أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأنا إنما أدركنا دولة قليلة العساكر[1] لا تنتهى فى مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة أو مدينة و يعرف كل واحد منهم قِرنه[2] و يناديه فى حَوْمَةِ[3] الحرب باسمه ولقبه ، فاستغنى عن تلك التعبئة .

ومن مذاهب أهل الكر والفر فى الحروب

ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العُجْم فيتخذونها ملجأ للخيالة فى كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدونَ للحرب ، وأقرب إلى الغلب ، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة ، فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلةَ فى الحروب و يحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلةِ والسلاح والرايات و يصفونها وراءهم

(١) لا تعجب أيها القارىء الكريم من هذا الكلام فانه ليس المصنف انما هو للامام ابن خلدون (المقدمة ٢٢٦ ط بولاق) !
(٢) القرن بالكسر الكفء فى الشجاعة أو عام
(٣) حومة الحرب : أشد موضع فيها .

فى حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم ، وانظر ماوقع من ذلك فى القادسية ، وأن فارس فى اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا فى اليوم الرابع . وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم ، فكانوا يتخذون لذلك الأسرّة ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات فى أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكرّ والفرّ وجعل ذلك الفرس أيام القادسية . وكان (رستم) جالساً فيها على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب فى سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل . وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوذة وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعل ذلك فى حروبها وتراه أوثق فى الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط [1] . يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغنى غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار فى المواقف . وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم . الثانى : أنهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان ، والزحف إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطل الصف فى الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن

١) جمع فسطاط بالضم والكسر بيت من شعر

الحكم فى قتال الضحاك الخارجى والجبيرى بعده . قال الطبرى : لما ذكر قتال الجبيرى فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى ويلقب أبا الدلفاء ، قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى . فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف ، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف ، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم فى الإحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء فى الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية ، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية أى الخيام ، وكان ذلك صفتهم فى الحرب ، ولا يغنى كل الغناء لأنه لايدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتَصْرفهم الهيعات[1] وتخرم صفوفهم . ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده فى قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج فى جندهم واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً[2] للمقاتلة أمامه فلا بد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات فى الزحف وإلا أجفلوا[3] على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر بأجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة الثبات فى الزحف — وهم الأفرنج — ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على مافيه من الاستعانة بأهل الكفر وأنهم استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكها من تخوف الأجفال على مصاف السلطان ، والأفرنج لا يعرفون غير الثبات فى ذلك لأن عادتهم فى القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب

(١) هى الاصوات تفزع منها (٢) اى عونا (٣) أجفل القوم : انقلعوا : فمضوا

مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما فى الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم[1] على المسلمين . وقد كان قتال أمم الترك مناضلة بالسهام وتعبئة الحرب عندهم بالمصاف ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً . وكل صف ردء للذى أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لأحدى الطائفتين على الأخرى وهى تعبئة محكمة غريبة . . وكان من مذاهب الأول فى حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذراً من معرة البيَات والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس فى الظلمة ستراً من عاره ، فإذا تساووا فى ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم[2] ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول فى أمثال هذا قوة وعلية واقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدى عليه فى كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك ، فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفَعَلة نسى هذا الشأن جملةً كأنه لم يكن والله خير القادرين .

وانظر وصية على كرم الله تعالى وجهه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجِدْ كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحدٌ أبصرَ بها منه . قال فى كلام له : فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع وأخروا الحاسر ، وعَضُّوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة وغُضُّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكنُ للقلوب ، اخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبْر ينزل النصر . . وقال الأشتر

---

(١) ملاه على الأمر ومالاه : ساعده وشايعه وتمالئوا عليه : اجتمعوا
(٢) اى خيامهم

يومئذ يحرض الأزد : عَضُّوا على النواجِذ[١] من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين[٢] يثأرون بآبائهم وإخوانهم حناقا على عدوهم ، وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ، ولا يلحقهم فى الدنيا عار . كذا فى مقدمة العبر وتمام الكلام فيها ، وما نقلناه واف بغرضنا .

آلات العرب فى الحروب

وهى كل ما استعمل لإزهاق الروح وإهلاك الأنفس وهى كثيرة منها السيوف وهى أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً فلذلك كثرت أسماؤها عندهم ولهجوا بها فى أشعارهم ، وأول من عمل الحديد من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة . ولذلك قيل لبنى أسد القيون ، وقيل لكل حداد هالكى . وكان من أحسن السيوف عند العرب السيوف المشرفية وكانوا أكثر ما يتحمسون بها كما فى قوله :

ولو سئلت عنا جَنُوب لخبرت عشيةَ سالتْ عَقْرباء بها الدم
عشية لاتغنى الرماح مكانها ولاالنبلُ إلا المشْرَفى المصمّم[٣]

والمشرفى بفتح الميم هو السيف المنسوب إلى مشارف . قال البكرى فى معجم ما استعجم : قال الحربى والمشارف قرى من قرى العرب تدنو من الريف واحدها مشرف . وقال فى موضع آخر : وهى مثل خيبر ودومة الجندل وذى المروة والرحبة . وقال البكرى فى (مؤتة) أيضاً : وكان لقاؤهم يعنى المسلمين الروم فى

(١) جمع ناجذ وهو السن بين الضرس والناب وضحك حتى بدت نواجذه قال تعلب : المراد الانياب وقيل الناجذ آخر الاضراس وهو ضرس الحلم لانه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل وقيل الاضراس كلها نواجذ

(٢) الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه

(٣) البيتان من جملة أبيات لضرار بن الازور، وقوله بها الدم يروى بداله وملهم، و (عقرباء) منزل من أرض اليمامة فى طريق النباج قريب من قرقرى وهو من أعمال الفرض وهو لقوم من بنى عامر بن ربيعة كان لمحمد بن عطاء أحد فرسان ربيعة المذكورين وخرج اليها مسيلمة لما بلغه سرى خالد الى اليمامة فنزل بها لانها فى طرف اليمامة ودون الاموال وجعل ريف اليمامة وراء ظهره فلما انقضت الحرب وقتل مسيلمة قتله وحشى مولى جبير بن مطعم قاتل حمزة ؛ قال ضرار بن الأزور : ولو سئلت الخ وكان المسلمين مع مسيلمة الكذاب عنده وقائع (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٣) .

قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء ثم انحاز المسلمون إلى (مؤتة) وهو موضع من أرض الشام من عمل البلقاء فالسيف المشرفيّ إن كان منسوبا إلى الأول فالنسبة على القياس لأن الجمع يرد إلى الواحد فينسب إليه و إن كان منسوبا إلى الثانى فالنسبة على خلاف القياس . وبهذا التحقيق يعرف ما فى قول الصاغانى وغيره : والسيوف المشرفية منسوبة إلى مشارف الشام . قال أبو عبيدة : هى قرى : من أرض العرب تدنو من الريف يقال سيف مَشْرِفيّ ولا يقال مشارفى لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن انتهى . وقال صاحب المصباح بعد أن نقل هذا : وقيل هذا خطأ بل هى نسبة إلى موضع من اليمن . وقال ابن الانبارى فى شرح المفضليات عند الكلام على هذا البيت : والمشرفى منسوب إلى المشارف وهى قرى للعرب تدنو من الريف . و يقال : بل هى منسوبة إلى مشرف رجل من ثقيف . فالقول الأول من كلام البكرى ويدل على الجمعية دخول اللام عليها فى كلامها . وفى عمدة ابن رشيق : وليس قول من قال إنها : منسوبة إلى مشارف الروم أو مشارف الهند بشىء عند العلماء و إنْ قاله بعضهم . ومن أحسن السيوف السُّرَيجية نسبة إلى سُرَيج وهو رجل من بنى أسد . قال محمد بن حبيب : هو أحد بنى معرّض بن عمرو ابن أسد بن خزيمة وكانوا قُيُونا . قال عمرو الحميرى لما سأله أبوه القيل عن أحب السيوف إليه : الصقيل الُحسام ، الباتر الجذَام[1] ، الماضى السِطام[2] ، المرهف الصمصام[3] ، الذى إذا هززته لم يكْبُ ، وإذا ضربت به لم يَنْبُ ، وقال أخوه ربيعة : نعم السيفُ نَعَتَ وغيره أحب إلىّ منه ، وهو الُحسام القاطع ، ذو الرونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إذا هززتهُ هتك ، و إذا ضربتَ به بتك[4] . ثم قال الأب : فما أبغض السيوف إليك ياعمرو ؟ قال : الفُطار بالفاء مضمومة[5] الـكَهام[6]

---

(١) مفعال من الجذم وهو القطع (٢) حد السيف وغيره وفى الحديث : العرب سطام الناس اى حدهم (٣) رهف السيف كمنع رققه ، والصمصام: السيف الذى لا ينثنى (٤) اى قطع (٥) هو الذى لا يقطع وهو مع ذلك حديث الطبع (٦) كسحاب الكليل الذى لا يقطع .

الذى إن ضربت به لم يقطع ، وإن ذبح به لم ينخع[١] . قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس السيفُ واللهِ ذكَرَ وغيره أبغضُ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطبع الددان[٢] ، المعضَد المهان[٣] . . ومن آلاتهم (الرماح) وأجودها عندهم الرماح الآزنيّة منسوبة إلى ذى يزن الملك . ويقال لها اليزنية أيضاً . قال ذو الرمة :

أزين الذى استودعنَ سوداء قلبه هوى مثل شكّ الآزنىّ النواجمِ

قال هكذا جاءت الرواية فى البيت . والرماح الخطية منسوبة إلى خط اسم أرض . قال الأصمعى : لا أعلم إلامَ نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين إليها تنسب الرماح إلا أن يقال إن سفن الرماح ترفأ[٤] إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية . والردينية منسوبة إلى امرأةٍ يقال رُدَيْنَة كانت تعمل الرماح .(والرمح فوق الصعْدَةِ فإن العنزَةَ إذا طالت شيئاً وفيها سنان دقيق فهى نَيْزك ومطرد فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهى ألّةٌ وحَرْبةٌ فإذا كانت مستوية نبتت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف فهى صَعْدة فإذا اجتمع فيها الطول والسنان فهى القناة والرمح . ومن الأسنة ضرب يقال لها القَعضَبيَّة تنسب إلى قَعْضَب رجل قشيرىّ كان يعملها وكذلك الشرعبية أيضاً . قال الأعشى :

ولدنٍ من الخطىّ فيها أسنةٌ ذخائرُ مما سَنَّ أبزى وَشَرْعَب

وسأل القيلِ الحميرى ابنه عمراً عن أحب الرماح إليه عند المراس ، إذا اعتكر الباس ، واشتجر الدعاس[٥] . قال : أحبُّها إلىّ المارنُ المثقَّف[٦] المقوم المخطف ، الذى إذا هززته لم ينعطف ، وإذا طعنتَ به لم ينقصف ، ثم قال لأخيه : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعمُ الرمحُ نعَتَّ ، وغيره أحب إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الذابل العسّال[٧] ، المقوم الذسّال ، الماضى إذا هززته ، النافذ إذا همزته[٨] . قال :

(١) أى لم يبلغ النخاع والنخاع مثلثة الخيط الابيض فى جوف الفقار ينحدر من الدماغ وتتشعب منه شعب (٢) الطبع : الصدىء ، والددان الذى لا يقطع وهو نحو الكهام (٣) القصير الذى يمتهن فى قطع الشجر وغيرها
(٤) رفأ اليه : لجأ (٥) أى الطعان يقال دعسه اى طعنه والمداعسة المطاعنة
(٦) الرمح المارن : الصلب اللدن (٧) اى الشديد الاضطراب اذا هززته ومنه العسلان وهو عدو فيه اضطراب ، والنسلان قريب منه
(٨) الهمز : الضرب والنخس

أخبرنى يا عمرو ما أبغض الرماح إليك ؟ قال : الأعصل[1] عنـد الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هززته انعطف ، وإذا طعنت به انقصف . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس الرمح ذكر وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المهز ، اليابس الكز[2] ، الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا طعنت به انقصم . .

ومن آلاتهم (القسىّ) وأجودها القسىّ العُصفورية منسوبة إلى رجل يسمى عُصفوراً حكاه الجاحظ وأنشد لابن بشير :

عطف السياتِ موانع فى بذلها　　تعزى إذا نسبت إلى عُصفور[3]

يعنى قسىّ البندق دعا بها على حمام جاره . والقسى الماسخية منسوبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة وهو أول من عملها .) وسهم القوس الذى يرمى به فإن أول ما يقطع العود ويقتضب يسمى قطعا ثم يبرى فيسمى بريًا وذلك قبل أنْ يقوَّمَ فإذا قُوِّم وأنى له أن يُراش وينصل فهو القدح فإذا ريش وركب نصله صار سهماً ونبلا . قال أبو عبيدة : أجود السهام التى وصفتها العرب سهامُ بِلادِ وسهام يثرب وهما قريتان من حَجْر اليمامة . وأنشد للأعشى : (بسهام يثرِبَ أو سهام بَلادِ)[4] والكنانة محفظة النبال . والكنائن الزغرية : منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام تعمل به كنائن حمر مذهبة . قال أبو دؤاد يصف فرساً :

ككنانة　الزُغَرى　زيَّنهـا من الذهب الدُلامص[5]

(وكان الشماخُ أوصفَهم للحُمُر الوحشية والقسىّ بشهادة الُحطَيْئةِ والفرزدق وكذلك الشَنْفَرَى كان من أوصف الشعراء للقسىّ قال :

---

(١) الملتوى المعوج　(٢) اى الذى خشبته صلبة　(٣) سية القوس بالكسر مخففة ما عطف من طرفيها ، وتعزى : تنسب

(٤) بلاد بوزن قطام وحذام ورواه بعضهم بكسر الباء بلد قريب من حجر اليمامة ، وقيل بلاد محارث باليمامة ، وهذا الشطر من بيتين للاعشى ذكرهما الحموى فى معجم البلدان وهما :

انى تذكر ودها وصفاءها　　سفها وانت بصوة الاثمان
منعت قياس الماسخية راسه　　بسهام يثرب او سهام بلاد

(٥) الدلامص : اللمعان ، وفى القاموس ان زغر كزفر ابو قبيلة كنائنهم من ادم حمر مذهبة .

وإنّى كفانى فقدُ من ليس جازياً بحُسْنَى ولا فى قربه مُتَعلَّلُ (١)

ثلاثةُ أصحابٍ فؤادٌ مشيَّعٌ وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ (٢)

هَتُوفٌ من الملس المتونَ يزينها رصائعُ قد نيطَتْ إليها ومِحْمَلُ (٣)

إذا زلَّ عنها السهمُ حَنَّتْ كأنّها مُرَزَّأة ثَكْلى ترِنُّ وتُعْوِل (٤)

ومن آلاتهم (الدرع) وهو القميص المتخذ من الزرد وتنسب إلى فرعون . قال شاعرهم :

بكل فرعونيةٍ لونُها لون فضيض البَغْشَةِ الغاديه (٥)

وتنسب إلى داود وسليمان عليهما السلام وإلى تُبَّع وإلى محرِّق يريدون بذلك القدم وجودة الصنعة . والدروع الُحطَميَّة منسوبة إلى حُطَمَة بن محارب بن عمرو ابن وديعة بن لكيز بن عبد القيس بن أفصى . وقال ابن الكلبى : هى منسوبة إلى حُطَم أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة . والدروع السلوقية منسوبة إلى سلوق قرية باليمن وإليها تنسب أيضاً الكلاب السلوقية وقد لبس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدرع فى الحروب ولا ينافى لبسُها التوكلَ ، وكذا اتخاذ سائر الآلات ، والحق أنَّ الحذر ، لا يرد القدر ، ولكن يضيق مسالك الوسوسة لما طبع عليه البشر . وفى كتاب الأحكام السلطانية للإمام الماوردى : أنَّ درع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المعروفة بالبتراء كانت على الحسين بن علىّ رضى الله تعالى

---

(١) التعلل التلهى بالشىء يقال فلان يتعلل بكذا أى يتلهى به والمتعلل هو الشىء الذى يتعلل به (٢) المشيع: الشجاع المقدام كانه فى شيعة ، والاصليت: الصقيل الماضى ، والصفراء اسم القوس ذكره الجوهرى وقال غيره قوس من نبع ، والعيطل : الطويلة (٣) الهتوف : من القسى المصوتة بكثرة ومثله الهتافه والهتفى بالتحريك ، والمتون : الظهور واحدها متن ، والرصائع جمع رصيعة وهى كل حلقة مستديرة فلعل القسى العربية كانت تزين بالحلق المستديرة ومن الناس من فسر الرصائع هنا بسيور مضفورة ، والمحمل : علاقة السيف وهو السير الذى يقلده المتقلد ، ونيطت : علقت (٤) حنت : صوتت والمرزأة: الكثيرة الرزايا أى المصائب ، والثكلى : الحزينة على فقد وليدها ويروى عجلى ، وترن : تصوت مأخوذ من الرنة وهى الصوت ، وتعول : ترفع صوتها بالبكاء (٥) الفضيض : ما انتشر من الماء اذا تطهر به وكل متفرق ومنتشر ، والبغشة : المطرة الضعيفة ، والغادية : السحابة تنشأ غدوة او مطرة الغداة ، والبيت على ما فى عمدة ابن رشيق لراشد بن كثير .

عنهما يوم قتل فأخذها عبيد الله بن زياد ، فلما قتل المختار عبيدَ الله بنَ زياد صارت الدرع إلى عباد بن الحصين الحنظلى . ثم إن خالد بنَ عبد الله بن خالد بن أسيد وكان أمير البصرة سأل عباداً عنها فجحده إياها فضربه مائة سوط فكتب إليه عبد الملك بن مروان : مثلُ عباد لا يضرب إنما كان ينبغى أن يقتل أو يعفى عنه ، ثم لم يعرف للدرع خبر بعد ذلك ، ومنها « البَيْضة » بفتح الباء وهى ما يلبس فى الرأس من آلات السلاح . ومنها « المِجَنّ » وهى والتُرس والدرقة بمعنى واحد وهى ما يعمل من بعض الجلود بلا خشب ولا عقب وقد توجد الآن فى أحياء العرب يتقون بها وقع السيوف على أبدانهم . ومنها « المنجنيق »[1] بكسر الميم وهى آلة لرمى الحجارة . والعرّادات بتشديد الراء أصغر من المنجنيق وقد نصب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف ويروى أن أول من استعمله نمروذ فى حادثة إبراهيم عليه السلام . ولهم غير ذلك من الآلات وقد رأيت عدة رسائل فى كيفية استعمالها والمضاربة بها مع العدو . وأما (اللواء) وهو العَلَم أيضاً فكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه . وقال أبو بكر بن العربى : اللواء غير الراية فاللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه . والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه[2] الرياح . وقيل اللواء دون الراية وقيل : اللواء العلم الضخم والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار والراية يتولاها صاحب الحرب . وكانت عادة جميع العرب اتخاذ اللواء فى حروبهم ومن عاداتهم جعل الرايات فى أطراف الرماح وبذلك تعرف الحكمة فى الاقتصار على ذكر الرمح دون غيره من آلات الحرب كالسيف فى الحديث الذى فى صحيح

---

(١) معرب من جه نيك (اى ما اجودنى) او انا شىء جيد لانه لا يجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية غير اسم صوت بكسر الميم فى القاموس وضبطه ابو منصور بفتحها آلة لرمى الحجارة كالمجنون ومنجليق لغات فيه معربة ، وقيل الاقرب انه معرب منجل نيك ومنجل ما يفعل بالحيل وميمه زائدة وقيل اصلية ويدل على الاول قول بعض العرب كانت بيننا حروب عون ، تفقا فيها العيون ، مرة بمنجنيق ، واخرى بوثيق » وقيل النون زائدة والميم اصلية وعكسه ، وقيل هما اصليتان وقيل زائدتان كما فصل فى التصريف» انتهى من شفاء العليل للخفاجى (٢) اى تحركه

البخاريّ عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه قال جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى . ولما كان ظل الرمح أسبغَ كان نسبة الرزق إليه أليق . وقد تعرض فى الحديث الآخر لظل السيف فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم . الجنة تحت ظلال السيف . فنسب الرزق إلى ظل الرمح لأن المقصود بذكر الرمح الراية ونسبت الجنة إلى ظل السيف لأن الشهادة تقع به غالباً ، ولأن ظل السيف يكثر ظهوره بكثرة حركة السيف فى يد المقاتل ولأن ظل السيف لايظهر إلا بعد الضرب به ، لأنه قبل ذلك يكون مغموداً معلقاً . وفى الحديث السابق إشارة إلى فضل الرمح وإلى حل الغنائم لهذه الأمة و إلى أن رزق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعل فيها لافى غيرها من المكاسب ولهذا قال بعض العلماء : إنها أفضلُ المكاسب والمراد بالصغار (وهو بفتح المهملة و بالمعجمة) بذلُ الجزيةِ . وفى قوله تحت ظل رمحى إشارة إلى أن ظله ممدود إلى أبد الآباد .

أيام العرب المشهورة

وقد ناسب أن نذكر هنا أيام العرب ونثبت بعض وقائعهم على سبيل الاختصار ولم أستقْصها فإن أبا عبيدة وغيرَهُ قد فرغوا مماذكرت حتى إن أبا الفرج الأصبهانى قد استقصى حسب إمكانه أيامهم فى كتابٍ أفرده لذلك فكانت ألفاً وسبعمائة يوم (يوم أداب[1]) لبنى ثعلبة بن بكر رئيسهم الهذيل أبو حسان على بنى رياح بن يربوع وقد كان الهزيل سبى نساء بنى رياح والتقى بهم على أداب وقد سبقه بنو رياح إليه ليمنعوهم الماء حتى يردوا السبى فأقسم الهذيل لئن رددتم إلينا إناء فارغاً ايأتينكم فيه رأس إنسان منكم تعرفونه فاشتروا منه بعض السبى وأطلق البعض (يوم نعف

(١) كذا الاصل ، وفى العمدة يوم ارب ، والصواب : يوم اراب ، قال مساور بن هند :

وجلبته من اهل ابضة طائعا ... حتى تحكم فيه اهل اراب

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

أتبكى ان رايت لام وهب ... مغانى لم تحاورك الجوابا
أثافى لا يرمن واهل خيم ... سواجد قد خوين على أرابا

قشاوة) لبسطام بن قيس رئيس بنى شيبان على بنى يربوع قتل فيه بَجِيْراً وأسر أباه أبا مليل ثم منّ عليه من وقته وترك له مليلا وولده وكان أسيراً عنده بعد أن كساه وحمله يوم (نجران) للأقرع بن حابس فى قومه بنى تميم على اليمن هزمهم وكانوا أخلاطاً وفيهم الأشعث بن قيس وأخوه وفيهم ابن ناكور الكلاعى الذى اعتق فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أربعة آلاف أهل بيت فى الجاهلية أسروا (يوم الصمد) وهو يوم طلح و يوم بلقاء ويوم أود ويوم ذى طلوح كلها يوم واحد لبنى يربوع على بنى شيبان ورئيسهم الحوفزان ورئيس اللهازم أبجر بن بجير العجلى (يوم طخفة) وهو أيضا يوم ذات كهف و يوم خزان [1] فى قول بعضهم لبنى يربوع والبراجم على المنذر بن ماء السماء أسروا فيه أخاه حسانا [2] وابنه قابوس وجزت ناصية قابوس وكان ذلك لسبب إزالة الردافة عن عوف بن عتاب الرياحى (يوم المَرُّوت) — وهو أيضاً يوم إرَم الكلبة نقا قريب من النباج لبنى حنظلة وبنى عمرو بن تميم على بنى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر وكان الذكر فيه لبنى يربوع وإنما أغارت قشير على بنى العنبر وسبيهم من بنى عامر (يوم مليحة) لبنى شيبان رئيسهم بسطام ابن قيس على بنى يربوع وقتل ذلك اليوم عصمة بن النجار فلما رآه بسطام قال ما قتل هذا إلا لتثكل رجلا أمه فقتل به (يوم العظالى) قاتله هيش [3] بن

(١) الصواب (خزاز) أو خزازى قال عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة اوقد فى خزازى　　رفدنا فوق رفد الرافدينا

هذه رواية محمد بن خطاب والزوزنى « وروى الخطيب (خزاز) واكثر ما جاء فى الشعر خزازى راجع معجم البلدان .

(٢) اسره بشر بن عمرو الرياحى ثم من عليه وارسله فقال مالك بن نويرة :

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما　　راى القوم منه والخيول تلهب
عليه دلاص ذات نسج وسيفه　　جراز من الهندى أبيض مقضب
طلبنا بهـا انا مداريك قبلها　　اذا طلب الشأو البعيد المقرب

وكان طارق بن عميرة ضرب فرس قابوس فعقره واخذه ليجز ناصيته فقال قابوس ان الملوك لا تجز نواصيها فجهزه وارسله الى ابيه وهذه الرواية اعنى مسألة جز ناصية قابوس تخالف ما ذكره المصنف

(٣) فى العمدة : الهبش بالموحدة .

المقعاس) يوم اللوى [١] لفزارة على هوازن فيه قتل عبـد الله بن الصمة وأثخن أخوه دريد (يوم الصليفـاء) لهوازن على فزارة وعبس وأشجع وفيه قتل دريد بأخيه ذؤاب بن أسماء (يوم الهباءة) وهو يوم الحفر لعبس على ذبيان فيـه قتل حُذَيْفَةَ بن بدر وأخوه حمل سيدا بنى فزارة وكان يقال لحذيفـة رب معد (يوم عراعر) لعبس على كلب وذبيان وفيه قتل مسعود بن مصاد الـكلبى وكان شم يفاً (يوم الفروق) بين عبس و بنى سعـد بن زيد مناة قاتلوهم فمنعت عبس نفسها وحريمها وخابت غارة بنى سعد وقيل لقيس بن زهير ويقال عنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : مائة فارس كالذهب لم نـكثر فنفشل ، ولم نقل فنذل . (يوم شعب جبلة) قال أبو عبيدة : كانت أيام العرب ثلاثةً يوم كلاب ربيعة ويوم شعب جبلة ويوم ذى قار . وكان يوم الشعب لبنى عامر بن صعصعة وعبس حلفـاؤهم على الحليفين أسد وغَطفَان رئيسهم حصن بن حذيفة يطلب عبساً بدم أبيه ومعهم معاوية بن الجون الـكندى فى جمع من كندة وعلى بنى حنظلة بن مالك والرباب [٢] رئيسهم اقيط بن زرارة يطلب بدم معبد أخيه ويثربىّ بن عدس ومعهم حسان بن الجون

---

(١) تفصيل المسألة هو أن عبد الله بن الصمة (وهو اخو دريد بن الصمة لابيه وامه) اغار على غطفان فاصاب منهم ابلا عظيمة فاطردها فقال له دريد النجاء فقد ظفرت ، فابى عليه وقال : لا ابرح حتى انتقع نقيعتى — والنقيعة ناقة ينحرها من وسط الابل فيصنع منها طعاما لاصحابه ويقسم ما اصاب على اصحابه — فاقام وعصى أخاه فتتبعته فزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له (اللوى) فقتل عبد الله وارتث دريد فبقى فى القتلى فلما كان فى بعض الليل اتاه فارسان فقال احدهما انى أرى عينيه تبص فانزل فانظر الى نفسه فنزل فكسف ثوبه فاذا هى تزمر فطعنه فخرج دم قد كان احتقن ، قال دريد : فافقت عندها فلما جاوزانى نهضت قال فما شعرت الا وانا عنـد عرقوب جمل امراة من هوازن فقالت من انت اعوذ بالله من شرك ، قلت: لابل من انت ويلك ، قالت : امراة من هوازن سيارة ، قلت وانا من هوازن وانا دريد بن الصمة قال وكانت فى قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة فضمته وعالجته حتى افاق فقـال دريد يرثى عبد الله أخاه ويذكر عصيانه له وعصيان قومـه بقصيدة مطلعها :

اعاذل ان الرزء فى مثـــل خالد ولا رزء فيما اهلك المرء عن يد
وقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء والقوم شهدى

(٢) سموا بذلك لانهم ادخلوا ايديهم فى رب وتعاقدوا والرب بالضم دبس الرطب اذا طبخ وقبل الطبخ هو صقر .

أخو معاوية وقيل بل عمرو بن الجون · وحسان بن وبرة الكلبي أخو نعمان بن المنذر لأمه . وقال غير أبي عبيدة : كان مع أسد وذبيان معاوية بن شُرَحْبيل بن الأخضر ابن الجون بن آكل المُرار ومع بني حنظلة والرباب حسان بن عمرو بن الجون في جموع من كندة وغيرهم فأقبلوا إليهم بوضائع كانت تكون مع الملوك بالحيرة وغيرها وهم الرابطة وجاءت بنو تميم فيهم لقيط وحاجب وعمرو بن عمرو . ولم يتخلف منهم إلا بنو سعدٍ لزعمهم أن صعصعة هو ابن أسعد ولم يتخلف من بني عامر إلا هلال بن عامر وعامر بن ربيعة بن عامر . وشهد غني وباهلة وناس من بني سعد ابن بكر وقبائل بَجِيلة كلها إلا قُشَيراً . وشهدت بنو عبس بن رفاعة بن بهثة بن سليم عليهم مرداس بن أبي عامر أبو العباس بن مرداس . وشهد معهم نفر من عُكْل فانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً ، وجاء الآخرون في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ولم يجتمع في الجاهلية جمع قط مثله ، فانهزمت سليم وذبيان وأسد وكندة ومن لف لفهم . وقتل لقيط بن زرارة طعنه شريح بن الأحوص فحمل مرتثاً فمات بعد يوم وأسر حسان بن الجون أسره طفيل بن مالك وأسر معاوية بن الجون أسره عون بن الأحوص وجز ناصيته وأطلقه على الصواب وكان يوم جبلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة . وفي يوم الشعب ولد عامر بن الطفيل هكذا روى محمد بن حبيب عن أبي عبيدة . وروى غيره عنه خلاف ذلك (يوم اقرن) لبني عبس على بني تميم وبخاصة بني مالك بن حنظلة . وفيٌ هذا اليوم قتل عمرو بن عمرو ابن عدس وابنه شريح وأخوه ربعيّ وكان عمرو بن عمرو بن عدس خرج مراغماً للنعمان بن المنذر فسبي سبياً من عَبْس وغنم مالا وابتنى بجارية من السبي فأدركته عبس فكان من أمره ما كان (يوم زبالة) لبني بكر بن وائل وخاصة بني شيبان وبني تيم الله رئيسهم بسطام على بني تميم ورئيسهم الأقرع بن حابس . أسر فيه الأقرع وأخوه فراس فاستنقذهما بسطام بعد أن حكم عليه عمران بن مُرَّةَ بمائة ناقة (يوم جدود) لبني سعد بن زيد مناة على بني شيبان وكانت شيبان أغارت

مع الحوفزان على سعد فأدركهم قيس بن عاصم المنقرى ففلهم واستنقذ ما كان فى أيديهم وفاته الحوفزان بصلابة فرسه فلما يئس من أسره حفزه[1] بالرمح فى خزانة وركه فانتقضت عليه بعد حول فمات منها وسالمت فى هذا اليوم بنو يربوع الجيش على تمر أخذوه منهم وفضل ثياب فعيرتهم بذلك منقر (يوم الكُلاب الأول) لسلمة بن الحرث بن عمرو المقصور ومعه بكر بن وائل وحنظلة بن مالك و بنو أسيد وطوائف من بنى عمرو بن تميم والرباب ولم يكونوا ذلك الوقت يدعون ربابا وإنما تربوا بعد ذلك حكاه أبو عبيدة فقتل شُرَحْبيل قتله أبو حنش عاصم بن النعمان الجشمى ويقال بل قتله ذو السُّنَيْنة حبيب بن عُتبة الجشمى[2] كانت له سن زائدة وهو أخو أبى حنش لأمه سلمى بنت عدىّ بن ربيعة أخى مهلهل هكذا أثبتوا فى هذا الموضع أن عدياً أخو مهلهل . ويسمى الكُلاب الأول أيضاً يوم الشعيبة[3] (يوم الكُلاب الثانى) لبنى تميم وبخاصة بنى سعد والرباب رئيسهم قيس ابن عاصم على قبائل مَذْحِج وكانت مذحج فى نحو اثنى عشر ألفاً . رئيسهم يزيد ابن المأمور وهم مذحج وهمدان وكندة ، وفى هذا اليوم أسر عبد يغوث ابن وقاص الحارثى وهتم فم[4] سنان ابن سمى بن سنان بعد أن أسر رئيس كندة هتمه قيس بن عاصم بقوسه وانتزع عبد يغوث من يد الاهتم بعد أن شرط المأصول[5] الموصلة إليه مائة من الإبل انتزعته التيم فقتلوه برئيسهم النعمان ابن جساس وكان قد قتل ذلك اليوم ويسمى الكلاب الثانى يوم جزّ الدوابر . وقال أبو عبيدة : لم يشهده من تميم إلا الرباب وسعد خاصة ، وكان الغناء من الرباب للتيم ، ومن سعد لمقاعس (يوم ذى بيض) أغار الحوفزان على بنى

---

(١) أى طعنه (٢) فى القاموس : البجلى (٣) كذا الاصل ومثله فى عمدة ابن رشيق (٢ : ١٦٣) والصواب (الصفقة) انظر العقد الفريد (٣ : ٢٥٣) من طبعة الجمالية . ومعجم البلدان (٥ : ٣٦٨) من طبع مطبعة السعادة.
(٤) هتم فاه يهتمه القى مقدم اسنانه كاهتمه ، وكفرح انكسرت ثناياه من أصولها فهو اهتم وتهتم تكسر (٥) وفى العمدة : (المأسورة) ولعل الاصح المأمور فليحرر .

يربوع فسبى نسوة منهم فأصرختهم بنو مالك بن حنظلة فاستنقذوا النسوة وأسر الحوفزان . أسره حنظلة بن بشر بن عمرو . وزعم قوم : أن هذا اليوم يوم الصمد . (يوم عاقل) لبنى حنظلة على هوازن وفيه أُسر الصمّة بن الحارث بن جُشَم وهزم جيشه وكان الذى أسره الجعد بن الشمّاخ أحد بنى مالك بن حنظلة ثم أطلقه بعد سنة وجزّ ناصيته على أن يثيبه فأتاه على الثواب فضرب الصمة عنقه ثم غزا بنى حنظلة ثانية فأسره الحرث بن بيبة المجاشعى وأسر رجل من بنى أسد كان نزيلا عند ابن أخت له فى بنى يربوع أبناء للصمة فافتدى الصمة نفسه ومضى مع ابن بيبة[1] فى فداء ابنه إلى المنازل فى بنى يربوع فطعنه أبو مرحب بالسيف فقتله لشىء كان بينهما عند حرب بن أمية فبنو مجاشع تعير بذلك . (يوم عَيْنَيْن) لبنى نهشل على عبد القيس منعوا منه بنى منقر وقد خرجوا ممتارين من البحرين فعرضت لهم عبد القيس فاستغاثوا بنى نهشل فحموهم واستنقذوهم (يوم قَلْهى) منعت فيه بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان بنى عبس الماء وغلبتهم عليه بعد إصلاح فزارة ومرة حتى أخذوا دية عبد العُزّى بن جدار[2] ومالك بن سُبيع . (يوم بُزاخة) لبنى ضبة على محرق الغسانى وأخيه فارس مودود . أغارا على بنى ضبة بُزاخة فى طوائف من العرب من إياد وتغلب وغيرهما فأدركهم بنو ضبة فأسر زيد الفوارس محرقاً وأسر أخاه حبيش بن الذلف[3] ثم قتلاهما بعد أن هزم من كان معهما وقتل منهم عدة ، (يوم إضم) لبنى عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة على الحرث بن مُزَيْقِياء الملك الغسانى ومزيقياء هو عمرو بن عامر وفيهم كان ملك غسان فى الشام فى آل جفنة بن علبة بن عمرو بن عامر قتل بنى عائذة قتلا ذريعاً . وفى ذلك اليوم قتل الرديم وحمل رجل من بنى عائذة ثم من بنى قيس يدعى عامر ابن ضامر فقال . والله لأطعنَنَّ طعنة كمنخر الثور النعر[4] . ثم قصد ابن مزيقياء

---

(١) فى العمدة : (ابن نبيه) فليحقق (٢) فى معجم البلدان جداد بدالين
(٣) فى العمدة : (حنش بن الدلف) (٤) هو الذى يصيح بخيشومه .

فقتله وانهزم أصحابه هزيمة فاحشة . وزعم قوم أن هذا اليوم هو يوم بزاخة . وقال آخرون : بل كانت الوقعة مع غير الحرث من ولد مُزَيْقِياء . وزعم غيرهم أنها مع مزيقياء بنفسه لا مع ولده . (يوم نقا الحسن) الحسن شجر سمى بذلك لحسنه وقيل هو جبل وهذا اليوم لبنى ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل وفيه قتل بسطام بن قيس قتله عاصم بن خليفة أحد بنى صباح وكان رجلا أعسر[١] فأصاب صدغه الأيسر حتى نجمَ السنانُ[٢] من الصدغ الأيمن (يوم أعيار) وهو يوم النقيعة لبنى ضبة على بنى عَبْس وفيه قتل عمارة الوهاب قتله شرحاف بن المثلم بابن عم له يدعى مفضالاً كان عمارة قد قتله وانطوى خبره ثم سمعه شرحاف ذكره على شراب وكان حينئذ غلاماً فحين شبَّ أخـذ بثأر ابن عمه يوم النقيعة واستنقذت بنو ضبة إبلها من بنى عبس وكانوا أدركوهم فى المرعى (يوم رحرحان الأول) غزا يثربى بن عدس بن زيد بن عبـد الله بن دارم بن عامر بن صعصعة وعلى بنى عامر يومئذ الأحوص بن جعفر بن كلاب فقتل من بنى عامر قريط بن عبد بن أبى بكر ابن كلاب . وقتل يثربى (يوم رحرحان الثانى) لبنى عامر بن صعصعة ورئيسهم الأحوص على بنى دارم وفى ذلك اليوم أسر معبد بن زرارة أسره عامر ابن مالك وأخوه طفيل وشاركهما فى أسره رجل من غنىّ يقال له أبو عميلة[٣] عصمة بن وهب . وكان أخا طفيل من الرضاعة وفى أسرهم مات معبد شدوا عليه القيد وبعثوا به إلى الطائف خوفاً من بنى تميم أن يستنقذوه وكان هذا كله بسبب قتل الحرث بن ظالم المرى خالد بن جعفر غدراً عند الأسود بن المنذر . وقيل عند النعمان والتجأ به إلى زرارة بن عدس فلما انقضت وقعة رحرحان جمع لقيط ابن زرارة لبنى عامر وألّب عليهم وكان بين رحرحان ويوم جبلة سنة واحـدة (يوم ضرية) اختلف سعد والرباب على بنى حنظلة وكان بنو عمرو بن تميم حالفت

---

(١) أعسر يسر يعمل بيديه جميعا فان عمل بالشمال فهو اعسر وهى عسراء
(٢) نجم من باب قعد : طلع ، والسنان : نصل الرمح (٣) فى عمدة ابن رشيق : عميرة .

بكر بن وائل فصافت حنظلة لسعد والرباب فساروا إلى عمرو بن تميم فردوهم وحالفوهم ثم جمعوا لسعد والرباب ورئيسهم يومئذ ناجية بن عقال ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم فقال ابن خفاف لسعد والرباب : من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلهم ؟ قالوا : نحن . قالوا : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟ قالوا : هم . قال : فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم . وتكلم الأهتم بذلك ورجال من أشراف سعد وساروا إلى عمرو وحنظلة إلى النسار من حمى ضرية فأجابهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة وسنان بن علقمة بن زرارة إلى الصلح وأبى ذلك مالك بن نويرة[1] .

خيل العرب وما يحمد منها ويذم

اعلم أن الخيل أحسنُ ذوات الأربع صورةً وأفضلها وأشبهها بالإنسان فى الكرم ، وشرف النفس ، وعلو الهمة . وقد ورد الثناء عليها فى القرآن والحديث وأشعار العرب . قال تعالى (ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقال سبحانه (والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً) أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً وهو صوت أنفاسها عند العدو . والموريات التى تورى النار والإيراء إخراج النار . يقال : قدح الزند فأورى . فالمغيرات تغير أهلها على العدو . صبحاً أى فى وقته . فأثرن به نقعاً فهيجن بذلك الوقت غباراً . فوسطن به أى توسطن بذلك الوقت جمعاً من جموع الأعداء . وفى الحديث : الخيل معقودٌ فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة . وفى حديث آخر : بطونها كنز ، وظهورها حرز ، وأصحابها معانون عليها . وسأل

(١) تنبيه : ان ايام العرب كثيرة جدا وقد اقتصر المصنف على ايراد طرف مما هنالك ولم يستوعب ومن أحب التوسع فليرجع الى (عقد الفريد) لابن عبد ربه ، و (العمدة) لابن رشيق القيروانى . و (الاغانى) لابى الفرج الأصبهانى و (الكامل) لابن الاثير . وغيرها من كتب التاريخ والادب .

رجلٌ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إنى أريد أن أشترى فرساً أعده فى سبيل الله فقال له : اشترِ أدهَمَ أو كُمَيْتاً(١) أقرح(٢) أرثَمَ(٣) محجلاً(٤) مطلق اليمين فإنها ميامن الخيل . وخيل العرب أجود خيول الدنيا ويزعمون أنها كانت من الوحش ، وأول من ذال الصعب منها أبوهم إسماعيل عليه السلام . وكانت الخيل عندهم أعظم عددهم فى الحروب وعليها مدار أمرهم وبها يجولون فى كرّهم وفرّهم وكانوا يقودون خيولهم ليريحوها ويركبون إبلهم ، فإذا قربوا من عدوهم وأغاروا نزلوا عن إبلهم إلى خيلهم مخافةَ أن يتبعوا فيدركوا قال شاعرهم :

النازلينَ بكل معتركٍ والطيبين معاقد الأزُر(٥)

وقيل فى معنى البيت أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم . وفى ذلك الوقت يتداعون : نزالِ كما قال ربيعة بن مقروم الضبيّ :

ولقد شهِدْتُ الخيل يوم طرادها بسليم أوظفة القوائم هيكل(٦)

فدعوا : نزالِ ، فكنت أولَ نازلٍ وعلامَ أركبه إذا لم أنزلِ

وقال ابن السيد : النزول فى الحرب على ضربين : أحدهما ماذكر . والثانى فى أول الحرب وهو أن ينزلوا عن إبلهم ويركبوا خيلهم . قال اللخمى : وإنما ينزلون عن الإبل إلى الخيل فى الغارات . وزعم ابن سيدة فى نزولهم إنما هو من الإبل إلى الخيل وليس كذلك . وفى قوله النازلين إلخ إشارة إلى أن حالهم فى القتال على الخيل كحالهم فى القتال على الأقدام وأنهم لا يكفون عن النزول إذْ أحوال الناس فى ذلك مختلفة ولا ينزل فى ذلك الموضع إلا أهل البأس والشدة ولذلك قال مهلهل :

---

(١) الدهمة السواد والادهم الاسود ، والكمتة : حمرة تدخلها قنوُ

(٢) القرحة بالضم فى وجه الفرس دون الغرة (٣) الرثمة بالضم بياض فى طرف انف الفرس أو كل بياض أصاب الجحفلة العليا فبلغ المرسن أو بياض فى الانف (٤) التحجيل : هو البياض بموضع الخلاخيل من اليدين والرجلين

(٥) الازر جمع ازار ، وطيب معاقدها كناية عن عفة ذويها والبيت من أبيات فى الفخر للخرنق الشاعرة الشهيرة (٦) الاوظفة جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق من الخيل وغيرها ، والقوائم : الارجل، والهيكل : العظيم ووصف به الفرس .

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا ... وأخو الحرب من أطاق النزولا

وكان للعرب فى تربية الخيل مزيد اعتناء جاهلية وإسلاماً . وكان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وأهله وولده . وقد دل على ذلك أشعارهم . فمن ذلك قول الجعفى :

الخيرُ ما طلعت شمسٌ وما غربت ... معلّق بنواصى الخيل معقود

وقال طفيل الغنوىّ :

وللخيل أيامٌ فمن يَصطبرْ لها ... ويعرف لها أيامها الخير يعقب

وقال شاعر بنى عامر :

بنى عامر ماذا أرى الخيلَ أصبحت ... بطاناً وبعض الضر للخيل أمثل

بنى عامر إن الخيول وقايةٌ ... لأنفسكم والموت وقت مؤجل

أهينوا لها ما تكرمون وباشروا ... صيانتها والصون للخيل أجملُ

متى تكرموها يكرم المرء نفسه ... وكل امرىء من قومه حيث ينزل

وقال رجل من قريش :

أتّقى دونه المنايا بنفسى ... وهو يغشى بنا صدور العوالى

فإذا مُتُّ كان ذاك تراثى ... وسخالاً محمودةً من سخالى

وقال لبيد :

معاقلنا التى نأوى إليها ... بناتُ الأعوجيّةِ والسيوفُ (١)

وقال ضبيعة العبسىّ :

جزى الله الأغرَّ جزاء صدق ... إذا ما أوقدت نار الحروب

يقينى باللّبان ومنكبيه ... وأحميه بمطّرد الكُعوب (٢)

وأدفيه إذا هبت شمالٌ ... بَليلٌ حَرْجَفٌ عند الغروب (٣)

---

(١) قوله بنات الاعوجية : سيأتى بيانه قريبا فى (خيل العرب المشهورة) والمعاقل : جمع معقل وزان مسجد وهو الملجأ ، وناوى : نلجأ

(٢) اللبان بالفتح : الصدر ، ومطرد الكعوب : هو الرمح

(٣) الشمال : ريح تأتى من ناحية القطب الشمالى ، والحرجف كجعفر : الريح الباردة الشديدة الهبوب ، والبليل كقتيل المبلولة من الندى او بالة لما تمر عليه لرطوبتها .

أراه أهل ذلك حين يسعى   رعاء الحى فى جمع الحلوب
فيخفق مرة ويفيد أخرى   ويفجع ذا الضغائن بالأريب [١]
إذا سمن الأغر دنا لقاء   يغص الشيخ باللبن الحليب
شديد مجامع الكتفين طِرْفٌ   به أثر الأسنة كالعلوب [٢]
وأكرهه على الأبطال حتى   يرى كالأرجوانىّ الجوب [٣]
ألست بصاحبى يوم التقينا   بسيف وصاحبى يوم الكثيب

ويروى بعضهم هذا الشعر لشداد . قال أبو محمد الأعرابى فى كتاب الخيل : أنكر أبو الندى هذا الشعر أن يكون لشداد بن معاوية ، وأن يكون الأغر فرسه وذكر أن الأغر لضبيعة بن الحارث العبسى وهو القائل فيه :

لولا اعتراض فى الأغر وجرأةٌ   لفعلت فاقرة بجيش مُقيدِ [٤]

قال : مقيد عامر بن الطفيل بن مالك الجعفرى أقاد العرب دماء قومه يوم الرقم انتهى . وقال عنترة بن شداد بن معاوية بن فراد أحد بنى مخزوم بن عوذ بن غالب ، وكانت أمه حبشية سوداء وهو من غرابيب العرب صاحب المعلقة :

ويمنعنا من كل ثغر نَخَافُهُ   أقَبُّ كسرحان الأباءة ضامرُ [٥]
وكل سبوح فى العنان كأنها   إذا اغتسلت بالماء فتخاء كاسرُ [٦]

وقال أيضاً فى معلقته :

تُمْسى وتُصبح فوق ظهر حَشِيَّةٍ   وأبيتُ فوق سَرَاةِ أدهمَ مُلْجَمِ

---

(١) ذو الضغائن : ذو الاحقاد (٢) الطِّرف : الكريم من الخيل ، والاسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ، والعلوب ثلم السيف (٣) الارجوان بالضم الاحمر وثياب حمر وصبغ أحمر وأحمر ارجوانى قانى

(٤) الفاقرة : الداهية الكاسرة الفقار كذا قاله الليث وغيره وقال ابواسحق فى قوله تعالى « تظن أن يفعل بها فاقرة » المعنى توقن اى يفعل بها داعية من العذاب ونحو ذلك (٥) أى يحمينا فى الثغور — وهى مواضع المخافة من فروج البلدان — فرسان على افراس كأنها الذئاب ، وسرحان من أسماء الذئب ، والقبب ، دقة الخصر وضمور البطن ، والاباءة كعباءة : اجمة الحلفاء والقصب

(٦) قوله سبوح فى العنان كناية عن الفرس . والفتخاء من العقبان اللينة الجناح ، والكاسر : الطير الذى يضم جناحيه يريد الوقوع .

وحَشِيَّتي سَرْجٌ على عَبْل الشَّوَى ‏ نَهْدٍ مراكِلُهُ نبيلِ المَحْزِمِ

هل تُبلِغَنّي دارَها شَدَنِيَّةٌ ‏ لُعِنَتْ بمحروم الشراب مُصَرَّمِ

خَطَّارةٌ غِبَّ السُّرى زَيَّافَةٌ ‏ تَقِص الإكامَ بذاتِ خفٍّ ميثَمِ

وفى هذه الأبيات ألفاظ تخفى معانيها على المطالعين فلابد من كشفها على سبيل الإيجاز . فقوله : تمسى وتصبح يعنى حبيبته عَبْلة . والحشية : الفراش المحشو والسراة بفتح السين أعلى كل شيء ، وأراد به هنا ظهر فرسه . يقول : تمسى وتصبح فوق فراش وطيء وأبيت أنا فوق ظهر فرس أدهم ملجم يعنى أنها تتنعم وأنا أقاسى شدائد الأسفار والحروب ويريد بقوله : وحشيتى سرج أنه مستوطئ بسرج الفرس كما يستوطئ غيره الحشية ، والاضطجاع عليها . ثم وصف الفرس بأوصاف محمودة وهى غلظ القوائم وانتفاخ الجنبين وسمنها . والعبل بالفتح الغليظ . والشوى بالفتح القوائم جمع شواة أى على فرس غليظ القوائم . والعظام كثير العصب . والنهد بفتح النون الضخم المشرف . والمراكل جمع مركل كجعفر وهو الموضع الذى يصيب رجل الفارس من الجنبين إذا استوى على السرج . والنبيل العظيم . والمحزم موضع الحزام . وقوله : هل تبلغنى الخ استبعد الوصول إليها لشدة بعدها فاستفهم عنه وأبلغه المنزل إذا أوصله إليه . ودارها أى دار عبلة . وشدنية ناقة منسوبة إلى شدن بفتحتين وهو حىّ باليمن ، وقيل أرض فيه . وقوله : لعنت قال التبريزى فى شرح المعلقة : دعاء عليها بانقطاع لبنها أى بأن يحرم ضرعها اللبن فيكون أقوى لها وأسمن وأصبر على معاناة شدائد الأسفار لأن كثرة اللحم والولادة يكسبها ضعفاً وهُزالاً ، ويجوز أن يكون غير دعاء ويكون خبراً ، وأصل اللعن البعد . وقوله : بمحروم الشراب أى بضرع ممنوع شرابه وأصل حرم منع وقيل بمحروم الشراب فى محروم الشراب . وقال خالد بن كلثوم : لعنت نحيت عن الإبل لما علم أنها معقومة فجعلت للركوب الذى لايصلح له إلا مثلها

(والمصرم الذى أصاب أخلافه[1] شىء فقطعه من صرار أو غيره وقال أبو جعفر المصرم الذى يلوى رأس خِلْفه حتى ينقطع لبنه وهو هنا مثل يريد أنها معقومة ولا لبن لها انتهى . وقال الاعلم فى شرح الأشعار الستة : قوله لعنت أى سبت بضرعها كما يقال لعنه الله ما أدهاه وما أشعره ! وانما يريد أن ضرعها قد حرم اللبن فذلك أوفر لقوتها وأصلب لها فتلعن ويدعى عليها على طريق التعجب من قوتها . والمصرم : المقطوع اللبن . وقيل : معنى لعنت أنه دعا عليها بأن ضرعها يكون مقطوع اللبن اذ كان أقوى لها ، والمعنى الاول أحسن وأبلغ انتهى . وقوله : خطارة الخ هو صفة لشدنية ، والخطارة التى تخطر بذنبها يمنة ويسرة لنشاطها . والسُرى : سير الليل . وغب الشىء بعده . يقول : هى خطارة بعد السرى فكيف بها اذا لم تسر . والزيافة : التى تزيف فى سيرها كما تزيف الحمامة أى تسرع . وقوله : تقص الإكام أى تكسرها خفافها لشدة وطئها وسرعة سيرها . يقال وقص يقص بالقاف والصاد المهملة . ويروى تطس بمعناه يقال وطس يطس اذا كسر . والإكام بالكسر جمع أكم بفتحتين كجبال جمع جبل وهو ما ارتفع من الأرض . والميثم : الشديد الوطء : يقال وثم الأرض يثمها بالمثلثة اذا وَطِئَها وطئاً شديداً . وقوله : بذات خف أى بقوائم ذات أخفاف . ومن الشعر الدال على اعتنائهم بالخيل قول طفيل الغنوى :

إنى وإن قلّ مالى لا يفارقنى ... مثل (النعامة) فى أوصالها طول
تقريبُها المرَطى والجوزُ معتدلٌ ... كأنه سُبــد بِالماء مغسول[2]
أو ساهم الوجه لم تقطع أناجله ... يصان وهو ليوم الروع مبذول[3]

(١) جمع خلف بكسر فسكون وهو من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع (٢) التقريب : ضرب من العدو ، والمرطى فوق التقريب ودون الألهاب ، والجوز : الوسيط ، والسبد : ثوب يسد به الحوض المركو لئلا يتكدر الماء يفرش فيه وتسقى الابل عليه .

(٣) ساهم الوجه عاليه وهى صفة ممدوحة للحرب فى الخيل ، والناجل : الكريم النسل كما فى كتاب نخبة عقد الاجياد .

وقال آخر فى ذلك :

لمـــا رأيت قبيلةً مسعودةً   بالخيل يسعفها الرهان ويجلبُ
صافيت منهوس اللبانِ كأنه   بازٍ تراوحه اليدان مذربِ[١]
وإذا تصفحه الفوارسُ معرضاً   فتقول سرحان الفضا المتنصب

ويروى أن أحد فرسان العرب أيام الجاهلية وهو عبيدة بن ربيعة التميمى قد طلب منه أحد ملوكهم فرساً تسمى (سكاب) فمنعها منه وقال :

أبيْتَ اللعنَ إن سَكاب عِلْقٌ   نفيسٌ لايعار ولا يباعُ[٢]
مفدّاةٌ مكرمةٌ علينا   يُجاع لها العيالُ ولا تجاعُ
سليلةُ سابقَيْن تناجلاها   إذا نسبا يضمهما الـكُراع[٣]
ففيها عزةٌ من غير نفر   يحيدها إذا حر القراع[٤]
فلا تطمع — أبيتَ اللعنَ — فيها   ومنعكها بشىء يستطاع
وكنى تستقل بحمل سيفى   وبى ممن تهضّمنى امتناع[٥]
وحولى من بنى قُحفانَ شِيبٌ   وشبان إلى الهيجا سِراع[٦]
إذا فزعوا فأمرهُمُ جميعٌ   وإن لاقوا فأيديهم شَعاعُ[٧]

---

(١) المنهوس : القليل اللحم ، واللبان بالفتح : الصدر ، والباز : ضرب من الصقور ، والسرحان من اسماء الذئب (٢) قوله أبيت اللعن : من تحيات العرب لملوكهم وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، ومعنى ابيت اللعن : ابيت ان تأتى من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه ، وسكاب : اسم فرس ، وقوله علق نفيس اى مال يبخل به وهذا كما يقال : هو علق مضنة (٣) يقول : هى ولد فرسين سابقين اذا انتسبا انتهيا الى كراع وهو بالضم فحل كريم معروف واصل الكراع انف يتقدم من الجبل فسمى هذا الفحل به لعظمته ، وسليلة : الحق الهاء بها وان كان فعيلا فى معنى مفعول لانه جعل اسما كما تقول هى قبيلة بنى فلان ومعنى سل نزع ويقال : نجلا والدهما وتناجلاه بمعنى واحد ومنه النجل بمعنى الولد

(٤) قوله يحيدها اى يجعلها حائدة وحر بمهملتين اى اشتد ، والقراع : مصدر قارعة اذا ضاربه (٥) يقال تهضم حقه اى ظلمه (٦) قحفان بالضم والشيب بالكسر جمع اشيب وهو الذى حصل له شيب ، والهيجا يمد ويقصر الحرب (٧) الشعاع : المتفرق يقول : ان فزعوا من امر فكلمتهم واحدة واذا لاقوا العدو فايديهم متفرقة عليه بالطعن .

إلى غير ذلك من الشعر الذى لا يسعه المقام مما يدل على عزة الخيل لديهم وأنها مقدمة على أنفسهم ولعزتها فدوها بالأمهات والآباء ، وقدموها على عيالهم فى البأساء والضراء ، وآثروها على أعزتهم فى الطعام والماء .

ما يحمد من الخيل ويذم لدى العرب

كل من مارس شيئاً ولازمه كان أدرى بشؤونه وأعرف بأحواله مما سواه . هؤلاء العرب لما كانوا على ممر الأيام فى كرّ وفرّ وإقدام وإحجام ، لم تزل مواكبهم مصطفة ، وكتائبهم ملتفّة ، وأعلامهم منشورة ، وراياتهم مشهورة ، وبنودهم [١] خافقة ، وجموعهم مشتبكة ، وأقرانهم متطاعنة ، وفرسانهم متضاربة ، وسيوفهم بدم النحور مشرقة [٢] ، ورماحهم متشاجرة ، وخيولهم متصاهلة ونيران حروبهم مشتعلة ، كانت الخيل من أعظم عددهم وأنفذ آلات ظفرهم بمقصدهم ، بل كانت حصونهم المشيدة ، وكنوزهم المحلاة ، وعزهم الرفيع ، وحرزهم المنيع [٣] ، فلذلك وقفوا من أحوالها وأوصافها المحمودة والمذمومة ما لم يقف عليه غيرهم ، وعلموا من عللها وأدوائها ما لم يعلمه سواهم ، حتى بلغ فى ذلك صبيهم ووليدهم ما لم يبلغه شيوخ قوم آخرين . والشواهد على ذلك كثيرة استوعبتها كتبهم المؤلفه فى الخيل . ولنورد من ذلك شاهداً مشتملا على بيان ما نحن بصدده . روى أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى عن أبيه عن الكلبىّ عن أبيه . قال : اجتمع خمس جوارٍ من العرب فقلن : هلممن ننعتْ خيل آبائنا . فقالت الأولى : فرسُ أبى ورده وما ورده ؟ ذات كفل مُزَحْلَقَ ، ومتن أخلق ، وجوف أخْوَق ،

(١) جمع بند وهو العلم الكبير (٢) يقال شرق الشىء شرقا فهو شرق اشتدت حمرته بدم أو بحسن لون أحمر ، قال الاعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

(٣) الحرز بالكسر العوذة والموضع الحصين ، ومنه حديث الدعاء : اللهم اجعلنا فى حرز حارز ، أى كهف منيع ، والقياس أن يكون حرزا محرزا لان الفعل منه أحرز قال ابن الاثير : كذا روى ولعله لغة .

ونَفْس مَرُوُح ، وعين طَروح ، ورجل صروح ، ويد سبوح ، بُداهَتها إهذاب وعَقْبُها غِلاب . وقالت الثانية : فرس أبى اللعّابُ ، وما اللعاب ؟ غَبْيَةٌ سَحاب ، واضطرام غاب ، مُتْرَصُ الأوصال ، أشم القَذال ، مُلاحَكُ الحَال ، فارسه مُجيد وصيده عتيد ، إنْ أقبل فظبيٌ مَعّاج ، وإن أدبر فظليم هدّاج ، وأن أحضر فعِلْجٌ هرّاج .. وقالت الثالثة : فرس أبى حُذَمَة . وماحُذَمة ؟ إن اقبلتْ فقناة مقوّمة ، و إن أدبرت فأثفية ململمه وإن أعرضت فذئبة مُعَجْرَمة أرساغها مترصه وفصوصها مُحصة ، جريها انثرار . وتقريبها إنكدار .. وقالت الرابعة فرس أبى خيفق وما خيفق ؟ ذات ناهق مُعْرَق ، وشدق أشدق ، وأديم مُمَلّق؛ لها خاق أشدف ، ودسيع منفنف ، وتليل مسيف ، وثَابة زَلوج ، خَيْفانة رَهُوج ، تقريبها إهماج ، وحُضَرُها ارتعاج .. وقالت الخامسة : فرس أبى هُذلُول وماهذْلول ؟ طريده محبول ، وطالبه مشكول ، رقيق الملاغم أمين المعاقم ، عَبْلُ المَحْزِم ، مِخَدٌ مِرْجَم ، منيف الحارك أشم السنابك ، مجدول الخصائل ، سَبِط الفلائل ، غَوج التليل ، صَلْصَال الصهيل ، أديمه صاف ، وسبيبه ضاف ، وعفوه كاف . . فمن هذه الفقرات التى ارتجلتها جوار لم يبلغن الحلم ، ولم يتدارسن شيئاً من فنون العلم ، يعلم الحاذق ما كان عليه القوم من الفطنة وقوة الفهم والإدرك ، وما أوتوه من الذكاء والوقوف على دقائق الحقائق والفصاحة فى المنطق العذب ، وحيث إن هذه الكلمات التى اشتملت عليها هاتيك العبارات مما تخفى معانيها على كثير من الناس استوجب كشف ما فيه من إبهام والتباس فنقول فى شرح قول الأولى ؛ قالت : فرس أبى وردة وما وردة ؟ معنى هذا العبارة أن من عوائدهم فى محاوراتهم اللطيفة إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شئ ودرايته أتوا بإجمال وتفصيل أى أى شئ أعلم المخاطب ماهى تأكيداً لعتقها وجودتها حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب على معنى أن عظم شأنها وما اشتملت عليه من الأوصاف مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ، ولم تصل إليه معرفة سامع من السامعين ، ولا أدركه وهمه وكيفما قدر حالها فهى وراء ذلك

..

وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه من أنها لاتعلم ولا يصل إلى ما هى عليه من الأوصاف وهم ولا فهم . والجوار الخنس سلكن هذا المسلك البديع ، والأسلوب الرفيع . ووردة . اسم فرس أبيها سميت بذلك إما للمشابهة فى اللون أو فى اللطافة وكان ذلك من عوائدهم كما سموا كل ما يخصهم من أسباب وآلات بأعلام شخصية تمييزاً لها عما يشاركها فى الجنس المستوجب انبهام مقصدهم لولا الوضع وقد جبلوا على الفصاحة والبيان فى المنطق ولا سيما الخيل فهى لديهم أحق مما سواها بالاعتناء والتمييز فلذلك سموها بأسما ناسبت أحوالها ، قولها : « ذات كفل مزحلق » الكفل محركة العجز أو ردفه أو القطن محركة وهو ما بين الوركين . والمزحلق المملس كأنه زحلوقة وهى آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل وذلك فى الخيل من سيماء العتق ودليل النجابة . ومعنى قولها : «ومتن أخلق» أنها ناعمة الجلد فالمتن ما اكتنف بالصلب والظهر والأخلق الأملس ومنه صخرة خلقاء أى ملساء . ونعومة الجلد فى الخيل دليل العتق والجودة كما أن خشونته من أمارات الهجنة وعلاماتها . ومعنى قولها : « وجوف أخوق » أنها واسعة البطن فإن الأخوق الواسع ، وسعة الجوف من خصائص جياد الخيل وصفاتها المحمودة ، وضيقه من علائم الهجنة ومن المنكر فى الخيل . روى أن الحجاج بن يوسف الثقفى سأل ابن القرية عن صفات الجواد فقال : نعم أصلح الله الأمير الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الرحب الثلاث ، الصافى الثلاث ، فقال : صفهن و بين لفظك . فقال . أما الطويل الثلاث : فالأذن والعنق والذراع . وأما القصير الثلاث فالعسيب والساق والظهر . وأما الرحب الثلاث : فالجوف والمنخر والجبهة . وأما الصافى الثلاث : فالأديم والعين والحافر . ومعنى قولها : « ونَفَس مروح[1] » أنها تتنفس بنفس سهل كثير التردد وأما إذا كان التنفس بصعوبة وضيق فهو من العيوب فى الخيل . ومعنى قولها : « عين طروح » أنها حادة البصر بعيدة مرمى النظر فإن

---

(١) فى أمالى ابى على القالى : ومروح : كثيرة المرح ، وضبط النفس بسكون الفاء .

ذلك معنى الطروح وهو من الصفات المحمودة وضد هذه الصفة من العيوب . ومعنى قولها : « ورِجل ضروح » إنها قوية الرجل عند الجرى لا يتعبها مشيها ، و إنها تدفع ما يصادفها من الحجارة ولا يصدها عن جريها ، فإن الضروح الدفوع يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا مشت[١] . ومعنى قولها : « و يد سبوح » أنها سهلة المشى ، حسنة الجرى ، لا تتعب راكبها بل كأنه فى سفينة تجرى فى الماء والقطوف تتعب راكبها وتقلقه . ومعنى قولها : « بداهتها إهذاب » أنها إذا أركضت لاتهملج[٢] أولاً ثم تهذب ، بل إنها تهذب فجاءة من غير مقدمة فالبداهة والبديهة واحد وهو الفجاءة والإهذاب السرعة . يقال : أهذب الفرس إهذابا فهو مهذب ومعنى قولها : « وعقبها غلاب » أن هذه الفرس تستمر على الجرى ولا تتعب بل إنها إذا تطاير الحجر بمصادفة قوائمها تسبقه إلى موقعه وعدم الكلال من العتاقة والجودة كما أن الإعياء بسرعة من الهجنة فالعقب جرى بعد جرى . وغلاب مصدر غالبته مغالبة وغلابا كأنها تغالب الحجر . وحاصل ما وصفت به هـــذه الجارية فرس أبيها وردة أنها كثيرة اللحم عظيمة الكفل . ملساء الجلد وناعمته ، واسعة الجوف سهلة التنفس حادة البصر قوية القوائم . حسنة الجرى . بحيث لا تتعب راكبها كأنها تجرى فى الماء سريعة الحركة . متيقظة . إن أجراها فارسها كان أول حركتها وجريها إهذاب وأسرع ما يكون من الحركة مع عدم كلالها وتعبها وأضداد هذه الأوصاف منتفية عنها حيث إنها من العيوب .

(شرح قول الثانية) فرس أبى اللعاب وما اللعاب غَبْيَة سحاب أى الدفعة من المطر . وذلك أنه لشدة جريه كأنه غيث نزل من السحاب ، وربما يقال إن فارسه فى غزوه عليه يكون فى خِصْب ونعمة لأنه بمنزلة الغيث النازل . أو يقال إنه فى سرعة انحداره ومشيه كأنه مطر نازل من السحاب على حد قول امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كجُلمود صخر حطَّه السيل من علِ[٣]

(١) وفى نسخة : اذا عدت (٢) هملجت الدابة مشت مشية سهلة فى سرعة
(٢) الكر : العطف ، والمكر فعل من كريكر ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم فلان مسعر حرب و فلان مقول ومصقع متضمنا مبالغة لأن مفعلا قد يكون

ومثل ذلك قولها : « واضطرام غاب » فان الاضطرام الاشتعال والغاب جمع غابة وهى الأجمة [1] تريد به سرعة جريه كما يسرع الحريق فى الأجم وعليه مثل الحريق وافق القَصَبا [2] ، ومعنى « مترص الأوصال » أنه محكم الأعضاء قويها لا يتزلزل عند الجرى ولا يكل والمترص المحكم والأوصال الأعضاء . ومعنى « أشم القذال » أن قَذاله وهو مَعْقد العِذار أشم مرتفع وذلك من أدلة العتق حيث يدل على عظم الدماغ فيكون قابلا للتطبع ، وأما الهجين فهو بخلاف ذلك ومعنى « مُلاحَك المحال » أن فقرات ظهره متقاربة متضامة دخل بعضها فى بعض فالملاحك المداخل والمحال جمع محالة وهى فقار الظهر وواحدة الفقار فَقارة ، ومتى رأيت الفقار متباينة متباعدة فى فرس فهو هجين ركيك الظهر لا يتحمل كثرة الركوب ومعنى « قولها فارسه مجيد » أن راكبه راكب فرس جواد ، وقد سبق تعريفه فى قول ابن القرية من أنه الطويل الثلاث القصير الثلاث الرحب الثلاث الصافى الثلاث . وربما يقال : إن فارسه يعد فى الحروب صاحب جواد بناء على أنهم كانوا يفضلون بين راكب الجواد وراكب الهجين كما فاضلت الشريعة الغراء . ومعنى قولها : « صيده عتيد » أنه إذا انفلت من فارسه لا يغيب عنه بل صيده عتيد أى حاضر لديه وهكذا شأن الخيل العتاق إذا انفلتت من يد فارسها أو سقط عنها راكبها وقفت أو دارت حوله بخلاف الهجين فى ذلك . ومعنى قولها : « إن أقبل فظبى معّاج وإن أدبر فظليم هداج وإن أحضر فعلج هراج » أنه سريع الجرى على كل حال من الأحوال الثلاثة فهو كالظبى المسرع إذا أقبل ، وكالظليم إذا أدبر ، وكحمار الوحش إذا أحضر . والمعاج : من معج فى سيره وعمج إذا أسرع . والظليم :

من أسماء الأدوات نحو المعول والمكتل والمخرز فجعل كأنه أداة للكرور وآلة لسعر الحرب وغير ذلك والكلام فى مفر نحو الكلام فى مكر ، والجلمود : الحجر العظيم الصلب ، والحط : القاء الشىء من علو الى سفل ، وقوله : من عل اى من فوق (١) الأجمة محركة الشجر الكثير الملتف والجمع اجم بالضم وبضمتين وبالتحريك وآجام واجام واجمات (٢) تمامه : (والتبن والحلفاء فالتهبا) وقد عزاه سيبويه فى الكتاب لرؤبة وقال ابن يسعون انه لربيعة بن صبيح على مازعم الجرمى.

ولد النعام وهو يوصف بسرعة المشى . واهداج : من الهدج وهو المشى الرويد ، والسريع . والعلج هنا : حمار الوحش . والهراج : كثير المشى .

(شرح قول الثالثة) معنى « إن أقبلت فقناة مقومة » إنها سريعة الجرى كأنها قناة مقومة رميت فإنها حينئذ أسرع فى النفوذ . والقناة الرمح والمقومة المعدلة المثقفة . وربما يقال فى معنى ذلك أنها دقيقة المقدم وهو مدح فى الإناث يدل على ذلك قولها فى الفقرة التى تليها : وإن أدبرت فأثفية ململمة . والأثفية : واحدة الأثافى . والململمة : المجتمعة : تريد أنها مدورة المؤخر والعجز . ومعنى « وإن أعرضت فذئبة معجرمة [1] » لم يتعرض أحد له وكأن المراد أنها على كل وضع وحالة محمودة وعلى أى حال صادفتها استحقت المدح اللائق بها . ومعنى « جريها انثرار ، وتقريبها انكدار » أنها سريعة السير سهلته . فجريها كأنه انثرار وتقريبها وهو ضرب من السير كأنه انكدار . وكنى بذلك دليلا على ماهى عليه من القوة والسرعة .

(شرح قول الرابعة) معنى « خفيق » من الخفق وهو السرعة . ومعنى « ذات ناهق مُعْرَق » أن عظم خدّيها قليل اللحم ، فالناهق : العظم الشاخص فى خد الفرس والناهقان : العظمان الشاخصان فى خديها . والمعرق : قليل اللحم . وكان العرب يستحسنون ذلك ويجعلونه من شواهد العتق . وقال أبو عبيدة : النواهق من الحمار مخرج نهاقه . ومعنى « وشدق أشدق » أنها واسعة الشدق وهوأيضاًمن شواهد العتق ولعل ذلك يزيدفىحسن الصورفىالخيل . وقد يقال الشدق الشخص والأشدق العظيم الشخص وهو معنى صحيح فى الخيل كما لا يخفى . ومعنى «وأديمملق» أنها ناعمة الجلد فالأديم الجلد . والملق المملس . وهو كامر من خصائص عتاق الخيل وجيادها . ومعنى « ودسيع منفنف » أن أصل عنقها واسع عظيم . فالدسيع مركب العنق

(١) المعجرمة وثب كوثب الظبى وهذا القول لأبى بكر ، قال القالى: ولا اعرف عن غيره فى هذا الحرف تفسيرا

فى الحارك . ومنفنف واسع من النفنف ، وهو الهواء بين السماء والأرض . و إذا لم يكن أصل العنق واسعاً فهو صفة ذم فى الفرس ومعنى « وتليل مسيف » أن عنقها كالسيف فى الدقة والانحناء والطول وذلك مما نص علماء الخيل على استحسانه فالتليل العنق . والمسيف : كالسيف ومعنى « وثابة زلوج » أنها سريعة الوثب . ومعنى « خيفانة رهوج » كمعنى سابقه . والخيفانة : الجرادة التى بها نقط سود تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس خيفانة لسرعتها لأن الجرادة إذا ظهرت بها تلك النقط كان أسرع لطيرانها ورهوج كثيرة الرهج وهو الغبار . يعنى أنها سريعة كثيرة الجرى والمشى فلذلك يكثر الغبار خلفها . ومعنى « تقريبها إهماج وحضرها ارتعاج » أن أقل عدوها الذى هو التقريب بمنزلة الاهماج الذى هو أسرع العدو وهكذا الحضر والارتعاج فإن الحضر ضرب من السير دون الارتعاج وهو سرعة الجرى وأصله كثرة البرق وتتابعه . وحاصل هذه الأوصاف : أن خيفق قليلة لحم الوجه ، واسعة الاشداق ، ناعمة الجلد ،واسعة الدسيع — وهو مركب العنق طويلة العنق ، دقيقته ، مقوسته ، سباقة الغايات ، سريعة الخطو والحركات —

(شرح قول الخامسة) معنى « طريده محبول . وطالبه مشكول » أنه إذا طلب أدرك و إذا طرد لم يدرك . فطالبه ومطلوبه كلاهما كأنهما مقيدان بقيد لسرعة جريه وبُطْء غيره عنه والطريد بمعنى المطرود . ومحبول فى حبالة ومشكول موثق فى إشكال وهو القيد . ومعنى « دقيق الملاغم » أنه دقيق الجحافل وهو جمع جحفلة[1] ، وهى معلومة . و بعضهم أبى ذلك وقال : إنما الملاغم من الإنسان ما حول الفم . وكلا التفسيرين موافق لحقيقة الحال . ومعنى « أمين المعاقم » أمين المفاصل وعَبْل الحزم غليظه . وهو من علامات العتق بخلاف ما إذا لم يكن محزمه عبلا بل كان دقيقاً فإنه ليس بمحمود « ومعنى مخد مرجم » أنه قوى على السير حتى كأنه يشق الأرض بحوافره شقاً و يجعل ما يصادف الحوافر من الحجارة يرجم بعضه بعضا على حد قوله :

---

(١) هى بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة نَفْىَ الدراهم تنقاد الصياريف[1]

فالمخد من خد الأرض يخدها أى يجعل فيها أخاديد ، وهى الشقوق واحدها أخدود . ومرجم من الرجم . وقد يكون بمعنى أنه يرجم الأرض بحوافره . ومعنى أنه منيف الحارك : أن حاركه وهو مِنسج الفرس مرتفع . وأشم السنابك بمعنى أن أطراف حوافره مرتفعة والسنابك جمع سنبك . ومعنى مجدول الخصائل مفتولها والخصائل جمع خصلة . هذه جملة من الأوصاف المحمودة فى الخيل تضمنتها هـذه الفقرات والأسجاع البليغة التى أعجزت فرسان ميادين الفصاحة . ولبعض المتأخرين من أهل الفضل والأدب كتاب أنشأه فى أوصاف الخيل مشتمل على فوائد جمة نذكره تتميماً للمقصد وهو : ينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها ، وادخرت صهواتها[2] حصوناً يعتصم فى الوغى[3] بصاصيها[4] « فمن أشهب » غطاه النهار بحلته ، وأوطأه الليل على أهلته ، يتموج أديمه رياً ويتأرّج رِياً[5] ، ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هـذا الفجر قد طلع بالثريا ، إن التقت المضايق انساب انسياب الأيم[6] ، وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم ، كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته ، وكم عاين طرف السنان مقاتل العدا فى ظلام النقع[7] بنور أشعته . لا يستن[8] داجن فى مضماره . ولا تطمع الغبراء فى شق غباره . ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره . تسابق يداه مرامى طرفه ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه « ومن أدهم » حالك الأديم[9] ، حالى

---

(١) وصف ناقته بسرعة السير فى الهواجر فيقول ان يديها لشدة وقعهما فى الحصى تنفيانه فيقرع بعضه بعضا ويسمع له صليل كصليل الدنانير اذا انتقدها الصيرفى فنفى رديها عن جيدها وخص الهاجرة لتعذر السير فيها ، وزاد الياء فى الصياريف تشبيها لها بما جمع فى الكلام على غير واحد نحو ذكر ومذاكير وسمح ومساميح (٢) جمع صهوة وهى ما اسهل من ناحيتى سراة الفرس او مقعد الفارس (٣) الوغى مقصور الجلبة والأصوات ومنه وغى الحرب وقال ابن جنى الوعى بالمهملة الصوت والجلبة وبالمعجمة الحرب نفسها (٤) الصياصى: الحصون وكل ما امتنع به (٥) ارج المكان ارجا فهو ارج اذا فاحت منه رائحة طيبة ذكية ، والرى الريح الطيبة (٦) انساب : جرى ومشى مسرعا ، والايم : الحية (٧) اى فى ظلام الغبار (٨) يستن يسلك (٩) اى اسود الجلد

الشكيم[١] ، له مقلة غانية[٢] وسالفة ريم[٣] ، قد ألبسه الليل بُرده ، وأطلع بين عينيه سعده ، يظن من نظر إلى سواد طرّته ، وبياض حجوله وغرته ، أنه توهم النهار نهراً فخاضه ، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة ، لين الأعطاف سريع الانعطاف ، يُقبل كالليل . ويمر كجلمود صَخرٍ حطه السيل[٤]. يكاد يسبق ظله[٥] . ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله[٦] « ومن أشقر » وشاه الغدو بلهبه ، وغشاه الأصيل بذهبه ، يتوجس لديه برقيقتين ، وينفض وَفْرَتَيْهِ[٧] ، عن عقيقتين ، وينزل عذار لجامه بين سالفتيهِ على شقيقتين ، له من الراح لونها ، ومن الرياح لينها ، إن جرى فبرق خفق ، وإن أسرع فهلالٌ على شفق ، لو أدرك وائل حرب بنى وائل لم يكن للوجيه[٨] وجاهة ، ولا للنعامة[٩] نباهة ، ولكان ترك إعارة سَكابِ لؤماً وتحريم بيعها سفاهة[١٠] ، يركض ما وجد أرضاً ، وإذا اعترض به راكبه بحراً وثبه عرضاً « ومن كميتٍ » نهْدٍ[١١] ، كأن راكبه

---

(١) لعله جمع شكيمة ، وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فى الفرس (٢) المقلة شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ، أو الحدقة ، والغانية : التى غنيت بزوجها عن غيره (٣) الريم الظبى الخالص البياض وسالفته ماتقدم من عنقه (٤) الجلمود الحجر العظيم الصلب ، والحط القاء الشيء من علو الى أسفل هذا من قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معـــا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقد مر تفسير هذا البيت قريبا (٥) هذا من قول بعضهم

يجرى فلمع البرق فى آثاره ... من كثرة الكبوات غير مفيق

ويكاد يخرج سرعة من ظـله ... لو كان يرغب فى فـراق رفيق

(٦) أقول وقريب من هذا قول الصفى الحلى الشهير :

واغـر تبرى الاهـاب مـورد ... سبط الأديم محجـل ببياض

أخشى عليه أن يصاب بأسهمى ... ممـا سابقها الى الأغـراض

(٧) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس أو ماسال على الأذنين منه أو ماجاوز شحمة الأذن ثم الجمة ثم اللمة (٨) الوجيه من مشاهير خيل العـرب قال الشاعر :

بنات الوجيه والغـراب ولاحق ... واعوج تنمى نسـبة المتنسب

(٩) النعامة اسم لعدة افراس (١٠) يشير الى قصة فرس عبيدة بن ربيعة التميمى أحد فرسان العرب وكان أحد ملوكهم طلب منه فرسا تسمى سكاب فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن أن سـكاب علق ... نفيس لاتعـار ولا تبـاع

الى آخر الأبيات التى مرت قريبا فى هذا الجزء فراجعها (١١) الكميت الذى خالط حمرته قنوء والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف

فى مهد[١] عندمى الإهاب[٢] ، شمالى الذهاب ، يزلّ الغلام الخف عن صهواته ، وكأن نغم الغَرِيض ومعبـد[٣] فى لهواته[٤] ، قصير المطا[٥] فسيح الخطا ، إن ركبَ للصيد قيد الأوابد[٦] وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد[٧] وإن جنب إلى حرب لم يزورّ من وقع القَنا بلَبانه[٨] . ولم يشك لو علم الـكلام بلسانه ، لم ير دون بلوغ الغاية وهى غرض راكبه ثانياً من عنانه ، وإن سار فى سهل[٩] ، اختال براكبه كالثمل[١٠] ، وإن أصعد فى جبل طار فى عقابه كالعقاب وانحط فى مجاريه كالوعل[١١] ، متى ما ترق العين فيه تسهل . ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره ما أنت هناك فتمهل (ومن حبشى أصفر) يروق العين ، ويشوق القلب مشابهته العين ، كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالا وكأنه نفر من الدجا فاعتنق منه عرفا واعتنق حجالا ، ذى كفل يزين سرجه ، وذيل يسد إذا استدبرته منه فرجه[١٢] قد أطلعته الرياضة على مراد فارسه . وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده ، وتوشيع ملابسه[١٣] . له من البرق خفة

---

(١) المهد : الموضع يهيأ للصبى ويوطأ (٢) العندم : دم الاخوين أو البقم ، والاهاب ككتاب الجلد (٣) الغريض ومعبدهما من مشاهير المغنيين ، ولهما اخبار مذكورة فى الأغانى الاصبهانى (٤) جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق أو مابين منقطع اصل اللسان الى منقطع القلب من أعلى الفم (٥) أى الظهر (٦) الأوابد ، الوحوش وقد ابد الوحش يأبد ابودا ومنه تأبد الموضع اذا توحش وخلا من القطان ومنه قيل للفذ آبدة لتوحشه عن الطباع ، قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيـد الأوابد هيكل

قالوا هذا البيت يعد من ابتداعاته ومخترعاته لأنهم كانوا يقولون فى الفرس السابق يلحق الغزال والظليم ونشبهه حتى قال (قيد الأوابد) ومثل هذا له كثير ولم يكن قبله من فطن لمثلها غيره فامتثلوه بعده (٧) أى ذوات اللبـدة كالأسد ونحوه ، واللبدة شعر مجتمع على زبرة الأسد وفى المثل هو أمنع من لبدة الأسد (٨) قوله لم يزور أى لم ينحرف ، والقنا جمع قناة وهى الرمح ، واللبان بالفتح : الصدر (٩) قال ابن فارس : السهل خلاف الحزن ، وقال الجوهرى : السهل خلاف الجبل وللنسبة اليه سهلى بالضم على غير قياس (١٠) السكران (١١) بالفتح وككتف ودئل « وهذا نادر » تيس الجبل (١٢) هذا من قول امرىء القيس فى معلقته الشهيرة :

ضليع اذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

(١٣) توشيع الملابس اعلامها

وطئه وخطفه ، ومن النسيم لين مروره ولطفه ، ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه . يطير بالغمز . ويدرك بالرياضة مواقع الرمز . ويعدو كألف الوصل فى استغناء مثلها عن الهمز « ومن أخضر » حكاه من الروض تفويفه . ومن الوشى تقسيمه وتأليفه . قد كساه النهار والليل حلّتىْ وقار وسنا ، واجتمع فيه من السواد والبياض ضدان لما اجتمعا حَسُنا[1] ومنحه البارى حلية وشيه . ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه ، يُعطيك أفانين الجرى قبل سؤاله ، ولما لم يسابقه شىء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقة خياله كأنه تفاريق شيب فى سواد عذار ، أو طوالع فجر خالط بياضه الدجا فما سجا ومازج ظلامه النهار فما أنار ، يختار لمشاركة اسم الجرى بينه و بين الماء فى السير كالسيل ، ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع و بين البرقية من الخيل ، ويكذب المانوية[2] لتولد اليمن بين إضاءة النهار وظلمة الليل ، « ومن أبلق[3] » ظهره حرم ، وجريه ضرم[4] ، إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه و بينها عدم ، وإن صرف فى حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تُريد الكف والقدم ، قد طابق الحسن البديع بين ضدّىْ لونه ، ودلت على اجتماع النقيضين علة كونه ، وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار . وأخذ وصف حالتىْ الدجا فى حالتىْ الإبدار والسِرار[5] لا تكلّ مناكبه ، ولا يضل فى حجرات الجيوش راكبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترشد

---

(١) من قول الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا   والضد يظهر حسنه الضد

والبيت من القصيدة المعروفة بالدعدية وقد مر بعضها وحلا ، واكثر هذه الأوصاف التى تراها هنا مأخوذة من أقوال الشعراء (٢) المانوية قوم ينسبون الى رجل اسمه مانى يقول الخير من النهار والشر من الليل ، وقد رد عليه المتنبى فقال :

وكم لظلام الليل عندى من يد   تخبر أن المانوية تكذب

وقال ردى الأعداء تسرى اليهم   وزارك فيه ذو الدلال المحجب

(٣) البلق محركة سواد وبياض وارتفاع التحجيل الى الفخذين (٤) فرس ضرم ككتف عداء (٥) الابدار طلوع البدر ، والسرار : آخر ليلة من الشهر

فيه كواكبه ، ولا يجاريه الخيال فضلا عن الخيل ، ولا يَمَلُّ السُرى إلا إذا كل مشبهاه النهار والليل ، ولا تتمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ، فهو الأبلق الفرد[1] . والجواد الذى لمحاربه العكس وله الطرد ، قد أغنته شهرة نوعه من جنسه عن الأوصاف ، وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها فى الاعتراف له جادة الإنصاف ، فترقى الملوك إلى رتب العز من ظهورها ، وأعدها مطية الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها . وكلف بركوبها فكلما أكمله عاد ، وكلما أمله سره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ، ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل . وعلم أنها ليومَىْ سلمه وحربه جَنة الصائد وجُنة الصائل . وقابل إحسان مُهديها بثنائه ودعائه ، وأعدها فى الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه ، والله تعالى يشكر بره الذى أفرده فى النَدَى بمذاهبه ، وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه .

ما ورد عن العرب فى مشى الخيل وعدوها

من المشى : العَنَقُ وهو أول المشى . والتوقص وهو أن ينزوَ نزواً ويقرمط[2] ويقال مرّ يتوقص به فرسه . ومن المشى الدّألان وهو مشى يقارب فيه الخطو ويتقى فيه كأنه مثقل من حمل . ومنه الذألان وهو مر خفيف سريع يقال : مرّ فرسه يذأل ذَألانًا . ومنه سمى الذئب ذؤالة لخفة مره . وإذا راوح بين يديه فذلك الخبب ، فإذا رفع يديه ووضعهما معاً فذلك التقريب ، فإذا عدا عدو الثعلب فتلك الثعلبية ، فإذا ارتفع حتى يكون إحضاراً قيل مر يحضر ويقال مرّ يعدو ، فإذا ارتفع فسال سيلا قيل مرّ يجرى جرياً ، فإذا اضطرم جريه قيل مر يُهذب إهذابا ومر يلهب إلهابا ، فإذا بدا العدو قيل مَرّ يضطرم وقيل قد أمَجَّ إمجاجا ، فإذا اجتهد قيل أهمج يُهمج إهماجاً ، فإذا رجم الأرض رجماً بين العدو

---

(١) قال المجد : هو حصن السموال بن عاديا بناه ابوه او سليمان (عليه السلام) بأرض تيماء وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق (٢) القرمطة : مقاربة الخطو .

والمشى الشديد قيل رَدَى يَرْدِى رَدَيَاناً . قيل لمنتجع بن نبهان ما الرديان ؟ قال : عدو الحمار بين آريه ومتمعكه[١] ، فإذا رمى بيديه رمياً فلم يرفع سُنْبكه[٢] عن الأرض قيل مر يدحو دحواً . فإذا مرَّ مراً سهلا بين العدو الشديد واللين فذاك الطميم يقال مر يطم طميا ، فإذا وقعت حوافر رجليه موضع حوافر يديه قيل قد قرن قراناً وهو قَرون ، وإذا مر مراً خفيفاً قيل مر يهزع ويمزع ويمصع ، فإذا خلط بين الهملجة فراوح بين شيء من هذا قيل قد ارتجل ارتجالا . وقيل خير جرى الذكور أن يشترف[٣] وخير جرى الإناث أن تنبسط وتصغى كعدوة الذئبة . ويقال للفرس إذا كان شديد العدو وكثيره : إنهُ لَمِهْرَجٌ ، وإذا بدأ الجرى من غير أن يختلط قيل قد غلج يغلج غلجاً وإنه لَمِغْلَجٌ فإذا كان رغيب الشحوة[٤] كثير الأخذ من الأرض قيل هو ساطٍ من الخيل ويقال هو غمر وسكب وبحر وفيض وحَت كل هذا إذا أكثر العَدْوَ ، فإذا جمع يديه فوثب فوقعت مجموعة يداه فذلك الضبر فإذا أهوى بحافره إلى عضده فهو الضبع وهو فرس ضبوع والخناف وهو أن يهوى بحافره إلى وحشيه[٥] ويقال : الخيل تجرى مساويها يراد بذلك أن الفرس يعدو وفيه بعض هذه العيوب ، ويقال الذى لا يسبق من غاية بعيدة أهضم . ويكره من جرى الخيل الهملجة .

ألوان الخيل

الكمتة والحمة وهو أحب الألوان إلى العرب مع الحوة والكمتة حمرة تدخلها

---

(١) الآرى ويخفف الاحية ، والمتمعك : محل تمرغ الدابة يقال تمعكت الدابة تمعكا أى تمرغت فى التراب وتقلبت فيه (٢) السنبك فنعل بضم الفاء والعين طرف مقدم الحافر وهو معرب وقيل سنبك كل شيء أوله كذا فى المصباح (٣) أى ينتصب وفرس مشترف سامى النظر سابق ، قال جرير :

من كل مشترف وان بعد المدى ضرم الرقاق مناقل الأجرار

(٤) أى واسع الخطوة (٥) الوحشى من كل دابة الجانب الأيمن وقال الشاعر :

فمالت على شق وحشيها وقد ريع جانبها الأيسر

قال الأزهرى قال أئمة العربية الوحشى من جميع الحيوان غير الانسان الجانب الأيمن وهو الذى لا يركب منه الراكب ولا يحلب منه الحالب والانسى الجانب الآخر وهو الأيسر .

كُنُوءًا يقال اكْأَت يكمئت اكميتاتاً ويقال أكمت يكمت إكمتاتاً ويقال ادهامَّ يدهام ادهيماماً ، وفي الكمتة لونان يكون الفرس كميتاً مُدَمّى ويكون كميتاً أحم . وأشد الخيل جلوداً وحوافِرَ الكُمتُ والحم . ومنها « الصفر » يقال فرس أصفر وفرس صفراء ولايسمى أصفر حتى يصفر ذنبه وعرفه . ومنها « الحوة » وهى خضرة تضرب إلى سواد . ويقال قد احواوى يحواوى احويواء ، وبعض العرب يقول احووى يحووى احوواء وبعض العرب يقول قد حوى يحوى حوة . ومن الخيل : الوردة[١] يقال فرس ورد وفرس وردة وخيل ورد . وفي الخيل « الدغم » وهو قليل من الألوان وهو أن يكون وجهه يضرب إلى السواد وجحافله[٢] أشد سواداً يقال فرس أدغم وفرس دغماء . وفي الألوان « الاغراب » وليس بناصع[٣] الحمرة فإذا ابيضت الأرفاغ وهى أصول الفخذين مما يلى الخاصرةَ والمحاجر والأشفارفهو مغرب فإذا ابيضت الحدقة فهو أشد الإغراب . ومنها « الخضرة » وهى التى تخلطها غبرة قال الجعديّ :

واخضر كالقَهقرّ ينفض رأسهُ　　　أمامَ رِعالِ الخيل وهو يُقرّبُ

وفي الخيل « الشقرة » وهى الحمرة التى فيها مغرة يقال فرس أمغر بَيّن المغرة وفي الخيل « الدهمة » وهو السواد شديده وهينه . وفيها « الحوة » وهو سواد ليس بالشديد تصفر أرفاغ الدابة معه ومحاجرها ويكون أعلاه أشدّ سواداً . وفيها «الشهبة» وهو البياض فإذا كان في الدابة ضروب من الألوان من غير بلق فذلك التوليع يقال برذون مولع .

---

(١) الوردة التى تعلوها الحمرة الى الشقرة الخلوقية واصول شعرها سود (٢) جمع جحفلة وهى بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير (٣) نصع لونه خلص وابيض واحمر ناصع قال الشاعر :

من صفرة البياض وحمرة　　　نصاعة كشقائق النعمان

وهذه الكلمة مما يؤكد بها اللون الأحمر ، ولشيخنا المؤلف رسالة مفيدة في تأكيد الالوان نشرت في مجلة المجمع العلمى العربى م : ١　(٤) القهقر : الحجر الأملس الصلب الأسود كالقهقار ، والرعال : الجماعات واحدها رعلة ، والتقريب ضرب من السير

الشيات

منها الغرة وهى بياض الجبهة فإذا صغرت فهى قرحة فإذا استطالت وانصبت شِمْراخ فإذا انتشرت قيل غرة شادخة وفرس شادخ الغرة . قال ابن مفرغ :

شدخت غرة السوابق فيهم في وجوه مع اللمام الجعاد(١)

فإذا ابيض موضع اللطمة من الفرس قيل لطيم فإذا ابيضت جحفلته العليا فهو أرثم وهى رثماء وهى الرثمة ويقال : إنها لذات أحجال إذا كان بها تحجيل والواحد حجل ، فإذا خالط البياضُ الذنبَ فى أىّ لون كان فذلك الشعلة يقال فرس أشعل وفرس شعلاء فإذا خاص لونه من كل لون كان بهيما إذا كان من ضرب واحد لم يختلف . ويقال إذا كان بأطراف جحفلته شىء من بياض ألمظ وهى لمظاء ، وفيها التجويف وهو أن يصعد البلق حتى يبلغَ البطن قال الغنوى :

شميط الذنابى جوفت وهى جونة بنقبة ديباج وريط مقطع(٢)

فإذا ارتفع التحجيل فجاوز الثنن حتى يصعد فى الأوظفة فهو التجبيب يقال فرس مجبب ومجببة فإذا جاوز البياض الركبة فى اليد وفى العرقوب فى الرجل فهو أبلق وإذا صعد البياض فى البطن إلى الجنب فهو أنبط والمصدر النبط قال ذو الرُمة :

كعرض الحصان الأنبط البطن قائما تمايل عنه الجل فاللون أشقر

ويقال فرس أنبط وفرس نبطاء . وفى كل الألوان يكون البلق فكل لون خالطه بياض فهو أبلق والبلق هجنة فى الخيل فإذا ابيضت اليد فهو فرس أعصم فإذا ابيضت الرجل فهو فرس أرجل والمصدر الرجل والعصم ، وإذا كان البياض بموضع الخلاخيل من اليدين والرجلين فهو التحجيل ، فإذا حجلت بثلاث وتركت واحدة قيل محجل ثلاث مطلق واحدة ، فإذا ابيضت الرجل واليد التى من شقها

---

(١) يريد أن غررهم انتشرت فى وجوههم حتى انتهت الى اللمام (٢) البيت لطفيل الغنوى يصف فرسا ؛ يقول : اختلط فى ذنبها بياض وغيره وقال ابن دريد : قوله شميط الذنابى أى شعلاؤها والتجويف ابيضاض البطن حتى يتحدد البياض فى القوائم

قيل به شكال ، فاذا ابيضت رجله من شقه الأيمن ويده من شقه الأيسر قيل به شكال مخالف ، وعليك بالكتب المطنبة فى استيفاء هذا المطلب .

سوابق الخيل

قال الأصمعىُّ : ما سبق فى الرهان فرس أهضم[1] قط . وأنشد لأبى النجم[2] (منتفج الجوف عريضٌ كَلْكَلُهُ[3]) قال وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق فسبقت له فرس أنثى وصلت أختها ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال علىَّ بالشعراء . قال أبو النجم : فَدُعينا فقيل لنا : قولوا فى هذه الفرس وأختها فسأل أصحاب الرشيد النظرة حتى يقولوا ، فقلت له : هل لك فى رجل ينقدك إذا استنسئوك ؟ قال : هات . فقلت من ساعتى :

أشاع للغراء فينا ذكرَها   قوائمٌ عوجٌ أطعنَ أمرها
وما نسينا بالطريق مهرها   حتى نقيسَ قدْرَهُ وقدرها
وصبره إذا عـدا وصبرها   والماء يعلو نحرَهُ ونحرها
ملمومة شد المليكُ أزرها   أسفلَها وبطنَها وظهرها
قد كاد هاديها يكون شطرَها[4]

قال أبو النجم . فأمر لى بجائزة وانصرفت . وعن الأصمعى أن هارون الرشيد ركب سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميـدان لشهود الحلبة ، قال الأصمعى فدخلت

---

(١) الهضم محركة خمص البطن ، ولطف الكشح وفى الخيل استقامة الضلوع وانضمام اعالى البطن واستقامتها ودخول أعالبهـا وهو عيب (٢) أبو النجم هو الفضل بن قدامة الراجز المشهور (٣) يجوز رفع منفج وعريض وخفضهما لأن قبله :

بمفرع الكتفين حـر عيطله   نفـرعه فرعا ولسـنا نعتله
طار عن المهر نسيل ينسـله   صور فى صلب أمين موصـله

فمن خفضهما جعلهما صفتين للفرع أو الصاب ، ومن رفعهما قطعهما مما قبلهما واضمر مبتدأ يحملهما عليه والقطع فى الصفات التى يراد بها المدح أو الذم ابلغ من اجرائها على موصوفها والانتفاج نحو من الانتفاخ الا أن الانتفاخ من علة وداء والانتفاج من خلقة وسمن ، والكلكل من الفرس مابين محزمه الى مامس الأرض منه اذا ربض (٤) الهادى : العنق

لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر لجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهارون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك فى وجهه وقال علىّ بالأصمعى فنوديت له من كل جانب فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه . فقال يا أصمعىُّ خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قَوْنَسِهِ إلى سُنبكه[1] فإنه يقال إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير . قلت : نعم يا أمير المؤمنين وأنشدك شعراً جامعاً فيه من قول أبى حزرة . قال : فأنشدنا لله أبوك . قال : فأنشدته :

وأقبّ كالسرحان تمّ له ما بَيْنَ هامتِهِ إلى النسر

الأقب : اللاحق المخطف البطن وذلك يكون من خلقته وربما حدث من هُزال أو بعد قود والأنثى قباء والجمع قب والمصدر القبب . والسرحان : الذئب شبهه فى ضموره وعدوه به وجمعه سراحين وقد قالوا سراح . والهامة أعلى الرأس وهى أم الدماغ وهى من أسماء الطير . والنسر : هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النوى والحصى وهو من أسماء الطير وجمعه نسور .

رحبت نَعامتُه ووفَّر فرخه وتمكن الصُرَدانِ فى النحر

رحبت : اتسعت . نعامته : جلدة رأسه التى تغطى الدماغ وهى من أسماء الطير . وقوله : ووفر فرخه . الفرخ : هو الدماغ وهو من أسماء الطيور ووفر أى تم يقال وفرت الشئ ووفرته بالتخفيف فهو موفور . والصُرَدان : عرقان فى أصل اللسان . ويقال إنهما عرقان أخضران مكتنفان باطن اللسان منهما الريق ونفس الرية وهما من أسماء الطير وفى الظهر صُرَد أيضاً وهو بياض يكون فى موضع السرج من أثر الدبَرَ يقال فرس صُرَد إذا كان ذلك به . والنحر موضع القلادة من الصدر وهو البرك .

وأناف بالمُصفور من سعف هام أشمّ موثق الجَذْرِ

---

(١) أى من اعلى راسه الى طرف حافره

وأناف : أشرف . والعصفور : منبت الناصية والعصفور أيضاً عظم ناتئ في كل جبين والعصفور من الغُرَر أيضاً وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقرحة وهي من أسماء الطير . والسعف : يقال فرس بين السعف وهو الذي سالت ناصيته . هام : أي سائل منتشر . أشم : مرتفع والشمم في الأنف ارتفاع قصبته ويروى هادٍ أشم يريد عنقاً مرتفعاً وجمعه هواد . وقوله موثق أي شديدقويٌّ . والجذر : الأصل من كل . شيء قال الأصمعي وغيره : هو بالفتح وقال أبو عمرو بن العلاء هو بالكسر .

وازدانَ بالديكَيْنِ صلصلهُ ونَبَتْ دَجاجتهُ عن الصَدْرِ

ازدان : افتعل من قولك زان يزين وكان الأصل ازتان فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاي ، وكذلك ازداد من زاد يزيد . والديكان : واحدهما ديك وهوالعظم الناتئ خلف الأذن وهو الذي يقال له الُخشَشاء والخشاء . والصلصل : بياض الناصية ويقال هو أصل الناصية . والدجاجة اللحم الذي على زوره بين يديه والديك والصلصل والدجاجة من أسماء الطير .

والناهضان أمرّ جلزهما فكأنما عثما على كسر

الناهضان : واحدهما ناهض وهو لحم المنكبين ويقال هو اللحم الذي يلي العضدين من أعلاها والجمع نواهض . ويقال في الجمع أنهض على غير قياس والناهض فرخ القطا وهو من أسماء الطير . وقوله أمرّ جلزهما أي فتل وأحكم يقال أمررت الحبل فهو ممر أي فتلته . الجلز : الشد وقوله : فكأنما عثما على كسر ؛ أي كأنهما كسرا ثم جبرا يقال : عثمت يده ، والعثم الجبر على عقدة وعوج وعثمان فعلان منه .

مسحنفر الجنبين ملتئم ما بين شيمته إلى الغر

مسحنفر الجنبين : أي منتفخهما . ملتئم : أي معتدل . وشيمته : منخره والشيمة أيضاً من قولك فرس بين الشيمة وهي بياض فيه . ويقال أن تكون

شامة أو شام جسده . والغر فى الأغلب على الذى يسمى الرخمة من الفرس وهى عضلة الساق .

وصفت سماناه وحافره وأديمه ومنابت الشعر

السمانى طائر وهو موضع من الفرس لا أحفظه إلا أن يكون أراد السَمامةَ وهى دائرة تسكون فى سالفة الفرس وهى عنقه . والسَمامة من الطير أيضاً والأديم الجلد .

وسما الغراب لموقعيه معاً فأبين بينهما على قدر

سما الغراب : أى ارتفع والغُراب رأس الوَرِك ويقال للصلوين الغرابان وهما مكتنفا عجب الذنب ويقال لهما أعالى الوركين والموقعان منه فى أعالى الخاصرتين فأبين أى فرق بينهما على قدر أى على استواء واعتدال .

واكتنَّ دون قبيحه خطافه ونأت سَمامته على الصقر

اكتن أى استتر ، والقبيح ملتقى الساقين ولا يقال إنه مركب الذراعين فى العضدين والخطاف من أسماء الطير وهو حيث أدركت عقب الفارس إذا حرك رجليه . يقال لهذين الموضعين من الفرس المركلان . ونأت أى بعدت والسمامة دائرة تسكون فى عنق الفرس وقد ذكرناها ، وهى من أسماء الطير والصقر أحسبها دائرة فى الرأس ولم أقف عليها وهى من أسماء الطير .

وتقدمت عند القَطاة له فنأت بموقعها عن الحر

القَطاة : مقعد الردف وهى من أسماء الطير ، والحر : من الطير يقال إنه ذكر الحمام وهوَ من الفرس سواد يكون فى ظاهر أذنيه .

وسما على نقويه دون حداته خَرَبان بينهما مدى الشبر

النقوان واحدهما نقو والجمع أنقاء وهو عظم ذو مخ وإنما عنى ههنا عظام الوركين لأن الخَرَب هو الذى تراه مثل المدهن فى ورك الفرس وهو من الطير ذكر الحبارى والحداة من الطير وأصله الهمز ولكنه خفف وهى سالفة الفرس

وجمعها حــداء على وزن فعال كما تقول عظاة وعظاء ويقال عظاية وإذا فتحت الفاء قلت حداة وهو الفأس ذات الرأسين وجمعها حدأ مثل نواة ونوى وقطاة وقطا .

يدع الرضيم إذا جرى فلقاً   بتوائم كمـواسم سمر

الرضيم : الحجارة . الفلق : المكسورة فلقا بتوائم جمع توأم وقد قالوا أتؤم على وزن أفعل جمع تؤم على غير قياس يقال هو مثنى يعنى حوافره . والمواسم جمع ميسم الحديد أى فى صلابتها . وقوله : سمر أى لون واحد وهو أصلب الحوافر .

ركبن فى محض الشوى سبط   كفت الوثوب مشدّد الأسر

الشوى : ههنا القوائم والواحدة شواة ويقال فرس محض الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة . سبط : سهل . كفت الوثوب : أى مجتمع ، من قولك كفت الشيء إذا جمعته وتممته . مشدد الأسر : أى الخلق . . قال الأصمعى : فأمر لى بألف درهم . وأنشد بعضهم :

قد أطرق الحىّ على سابحٍ   أسطع مثل الصدع الأجردِ[١]
لما أتيت الحى فى ودقه   كأن عرجوناً بمثنى يدى
أقبل يختالُ وفى شأوهِ   يضرِب فى الأقرب والأبعدِ
كأنه سكرانُ أو عابسُ   أو ابنُ رب حرثِ المولدِ

وقال عنترة :

أما إذا استقبلتَهُ فكأنه   جِذْعٌ سما فوقَ النخيلِ مشذَّبُ[٢]
وإذا عرضتَ له استوتْ أقرابُهُ   وكأنه مستدبِراً مستصوب[٣]

والشعر فى هذا الباب كثير فإن غالب شعر العرب فى وصف الخيل ومايتعلق بها .

---

(١) الطروق : المجيء أو الزيارة ليلا ، والسابح الفرس لسبحه بيديه فى سيره ، والأسطع : الطويل العنق ، والصدع : قال الجوهرى هو الوسط من الوعول ليس بالعظيم ولا الصغير ولكنه وعل بين وعلين وكذلك هو الظباء والحمر لايقال فيه الا بالتحريك (٢) قال فى الأساس : فرس مشذب طويل استعير من الجذع المشذب ، قال يصف فرسا :

بمشذب كالجذع صـــا   ك على حواجبه خضابه

يعنى دم الصيد (٣) الأقراب : الخواصر

الحلبة والرهان

الحَلْبة[1] مجمع الخيل ويقال مجتمع الخيل ويقال مجتمع الناس للرهان وهو من قولك حلب بنو فلان على بنى فلان وأحلبوا إذا اجتمعوا . ويقال منه أخذ حَلَبَ الحالبُ اللبنَ فى القدح أى جمعه فيه . والحلب الحبل الذى يمد فى صدور الخيل عند الإرسال للقبض والمنصبة الخيل حين تنصب للإرسال . وأصل الرهان من الرهن كان الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة يَضَع هذا رهناً وهذا رهناً فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه . والرهان مصدر راهنته مراهنةً ورهاناً كما تقول قاتلته مقاتلة وقتالا . وهذا كان من أمر الجاهلية وهو القمار المنهى عنه فإن كان الرهن من أحدهما بشىء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شىء وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر . وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما محللا وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ويسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شىء ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيباً وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعاً وإن سبق هو لم يكن عليه شىء ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً لا يأمنان أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محللا . قال الأصمعى : السابق من الخيل الأول والمصلّى الثانى الذى يتلوه . قال : وإنما قيل له مصلى لأنه يكون عند صلوى السابق وهما جانبا ذنبه عن يمينه وشماله . ثم الثالث والرابع لا إسم لواحدٍ منهما إلى العاشر فإنه يسمى سكّيتاً . قال أبو عبيدة : لم نسمع فى سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه إسماً لشىء منها إلا الثانى والعاشر فإن الثانى إسمه المصلى والعاشر السكيت وما سوى ذَيْنَك يقال له الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع ثم السكّيت ويقال السكيت بالتشديد والتخفيف فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به .

---

(١) وزان سجدة

والفِسْكل بالكسر الذى يجىء آخر الخيل والعامة تسميه الفُسكل بالضم . وقال أبو عبيدة القاشور الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل وهو الفِسكل وإنما قيل للسكيت سكيتاً لأنه آخر العدد الذى يَقِفُ العادُّ عليه والسكت الوقوف هكذا كانوا يقولون فأما اليوم فقد غيروا . وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير :

إذا شئتُمُ أن تمسحوا وجهَ سابقٍ جوادٍ فمدّوا فى الرهانِ عنانيا

أقول : ذكر الخطيب التبريزى وغيره من مشاهير أهل الأدب وأئمة اللغة ؛ أن أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمى كل واحد منها باسم فالأول منها السابق وهو المجَلِّىّ لأنه كان يجلى عن صاحبه ، والثانى المُصَلِّىّ لأنه يضع جحفلته على صَلا[1] السابق ، والثالث المُسَلِّىّ لأنه يسليه ، والرابع التالى ، والخامس المُرْتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمَّل ، والثامن الحظىّ ، والتاسع اللَطِيم لأنه يلطم عن الحجرة ، والعاشر السكيت لأنه يعلوه تخشع وسكوت . ويقال سكيت أيضاً مشددة الكاف ، والفسكل الذى يجىء آخر الخيل فى الحلبة . ويقال للحبل الذى يجعل فى صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « الخيل تجرى بأعراقها وعتقها فإذا وضعت على المقوس جرت بجدود أربابها » . وقيل إن أسماء خيل الحلبة إن أولها المجلىّ ثم المصلّى ثم المسلّى ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظىّ ثم المؤمَّل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم اللواتى لا حظوظ لها اللطيم ثم الوغد ثم السكيت . وقال محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان يصف الحلبة وذكر أسماء الخيل .

جَلّى الأغرّ وصلّى الكميت وسلّى فلم يذمم الأدهمُ
وأتبعها رابعٌ تالياً وإنّى من المنْجِدِ المتْهِمِ
وما ذم مرتاحها خامساً وقد جاء يقدم ما يقدم
وسادسها العاطف المستحير يكاد لحيرته يحرم

(١) الصلا وزان العصا مغرز الذنب من الفرس

وخاب المؤمِّل فيما يخيب　　وعنّ له الطائر الأشأم
وجاء الحظىّ لها ثامناً　　فأسهم حصتَه المسهم
حدا سبعة وأتى ثامناً　　وثامنة الخيل لا تسهم
وجاء اللطيم لها تاسعاً　　فمن كل ناحية يلطم
يخب السُكَيْت على أثرها　　وعلباه من قُنْبِهِ أعظم[1]
على ساقة الخيل يعدو به　　مليماً وسائسه ألوم
إذا قيل من ربُّ ذا لم يجب　　من الحزن بالصمت مستعصم[2]

خيل العرب المشهورة

قد أفرد أبو محمد الأعرابى الغندجانىّ وهو اللغوى الشهير كتابا ذكر فيه أسماء خيل العرب الفحول والحجور التى نجلت وأنجبت وتفرق نجلها فى العرب ، وإنها لمن كانت فى بدء أمرها وإلى من صارت وفيمن صار نجلها من العرب ممن ذكر ذلك وافتخر به فى الجاهلية والإسلام ، وأسماء خيل العرب المنفردة التى ذكرت بأنفسها ولم يذكر نجلها ، وقد رتبه على ولاء الحروف المعجمة ليسهل على المطالع مرامها ، وينقادَ إليه زِمامها ، وفى الحقيقة أن هذا الكتاب لم يسبق إليه مؤلفه . وقد طالعته مراراً فوجدته مفيداً فى بابه . ولا بأس أن نذكر منه نبذة يسيرةً تكون كالأنموذج فى هذا الباب « فمن مشاهيرها » أعوج الأكبر لغنى ابن أعصر . قال بشر ابن أبى خازم يفتخر ببنات أعوج :

وبكل أجردَ سابحٍ ذى ميعة　　متماحلٍ فى آل أعوجَ ينتمى[3]

---

(١) القنب بالضم فالسكون جراب قضيب الدابة أو وعاء قضيب كل ذى حافر هذا الأصل ثم استعمل فى غير ذلك ويقال اضرب قنب فرسك تنج بك ، والرواية الصحيحة فى البيت

يخيب السكيت على أثره　　حياؤه من خزيه اعظم

(٢) تجد القصيدة برمتها فى (ص ٢٤٩) من كتاب نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد تأليف المفضال الأمير محمد باشا نجل أمير العلماء وعالم الأمراء الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى (٣) السابح : الفرس سمى إسبحه بيديه فى سيره ، والأجرد : السباق ، وماع الفرس يميع جرى وميعة الحضر : أوله نشاطه ، والمتماحل : الطويل المضطرب الخلق من الابل

وقال طفيل بن عوف :

بنات الوجيه والغُراب لاحق   وأعوجَ تَنمى نسبة المنتسب

وليس لهم فحل أشهر في العرب ولا أكثر نسلاً ولا الشعراء والفرسان أكثر ذكراً له وافتخاراً به من أعوج . قال الأصمعي : حدثني حبيب بن شوذب — رجل من أهل نجد وكان ينزل ضرية — قال حدثني أبي قال سمعت كعب بن سعد الغنَوي ينشد المرثية براذان أراه في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . قال : أول ما روى من عدو أعوج يعني الأكبر الذي لغنى أنه أغير على الناس في يوم النسار . وصاحب أعوج الأكبر موثقه بثُمامةٍ (١) . فلما أغارت الخيل في وجه الصبح حال في متنه (٢) ثم صاح به ونسى الوثاق . فاقتلع الثمامة فخرج يحف به (٣) كأنه خُذروف (٤) فسار بياضَ يومه ثم أمسى يأكل حميم قباء . وسار أربع مراحل كأنه دفعه من الأنسر من ضرية ثم أتى العين ثم فَلْجة ثم الدفينة ثم قباء ثم لم يشغله . وقد كان عدا مسيرةَ أربع ليال أن تعشى من حميم قباء . وأما أعوج الأصغر فهو لبني هلال بن عامر « ومنها الأغر » وهو لبلعاء بن قيس الكناني الذي يقول :

أبلغ الحرث عنى أننى   شرٌّ شيخ في أيادٍ ومُضَر
رألة منتتف بلعومها   تأكل القتَّ وخُمَّان الشجر (٥)
إن مضى الحول ولم أغزُكمُ   في عناج تهتدى أحوى طِمِرّ (٦)

---

(١) واحدة الثمام كغراب وهو نبت يسد به خصاص البيوت (٢) اى وثب واستوى على ظهره (٣) حف الفرس حفيفا سمع عند ركضه صوت وهو دوى جريه ويقال اجرى الفرس حتى احضه اى حمله على الحضر الشديد (٤) كعصفور شيء يدوره الصبى بخيط في يديه فيسمع اه دوى ، قال امرؤ القيس :

درير كخذروف الوليد امره   تتابع كفيه بخيط موصل

وعوام البغداديين اليوم يسمونه (معجان) ومنهم من يقول (معجال) باللام (٥) الرالة : فرخ النعام ، والقت : الاسفست بالكسر وهى الفصفصة اى الرطبة من علف الدواب كذا فى النهاية وخص بعضهم به اليابسة منها ، والخمان بالضم والكسر ردىء الشجر وبالضم نبات (٦) قوله « ولم اغزكم » يروى بدله « ولم آتكم » وقوله « بعناج » يروى وبعناجى فمن رواه بعناج

قدّر الرحمن أن ألقـاكُم عارضاً رمحى على متن (الأغر)[١]

« ومنها الأشقر » كان لقتيبـة بن مسلم . فبعث به إلى الحجاج فعرض له « اشكاب » اللص بجوخى فسرقه . وخبر هذا أن الحجاج بن يوسف كتب إلى قتيبة بن مسلم أنه قد اجتمعت جياد خيل العرب بخراسان فاكتب إلى أهـل الـكور ومرهم باجراء الخيل وابعث إلىّ بسوابقها ففعل . فبعث إليه قتيبة بالأشقر والرؤاسى وهما ابنا الحميراء لبطنها فجاءت بهما رسـله ، فعرض لهما إشكاب اللص بجوخى فسرق الأشقر فذهب به وجاءوا بالرؤاسى إلى الحجاج فبعث به الحجاج إلى عبد الملك فاستوهبه منه بشر بن مروان أخوه فوهبه له . فـكانت خيل عبد الملك ابن بشر من بنات الرؤاسى فـكانت سوابق الخيل بالعراق . وكان يوسف بن عمر يجرى الخيل فسبقه عبـد الملك بن بشر ببنات الرؤاسى . وقيل ليوسف ابن عمر . ألا تجرى الخيل ؟ فقال : ألا أتغنىّ وابعث بالسبق إلى عبد الملك فلم تزل عند عبد الملك بن بشر فحمل بعضهن على بعض فرقهن وقادهن عبد الملك بعدُ إلى بنات الذائد بالشام فسبقتها الذائدية فما قصبت الرؤاسية مع الذائدية وذلك لأنهن رققن وضعفن . وكانت الذائدية أغلظ منها وأقوى فاعترّتها بقوتها . قال أبو يحيى وإنما سمى الرؤاسى لأن رجلا من بنى سليم يقال له عبد الملك رؤاس استوهب ما فى بطن الحميراء من معقل بن عروة فوهبه له ، فلما وضعته أعجب معقل بن عروة . فقال لعبد الملك رؤاس دعه العام وأهب لك ما شئت فأبى فقال معقل : إذا لا ألبته لك قال هاته فأخذه واشترى له برذونةً حين وضعت فألباه منها ثم صنعه حتى اجذع فأرسله فلم يصنع شيئاً ، ثم أثنى فأرسله فلم يصنع شيئاً فأعاره رجلا من دهاقين[٢] أهل خُراسان فابتذله الدهقان حتى أربَعَ فانتسب

أى بعناجيج (وهى جياد الخيل) فحذف الياء للضرورة فقال بعناجج ثم حول الجيم الاخير ياء قصار على وزن جوار فنون لنقصان البناء وهو محول التضعيف ، ومن رواه (عناجى) جعله بمنزلة قوله « واضفاى جمة نقانق » اراد غناجيج كما أراد ضفادع ، (التاج) والاحوى : الاحمر يضرب الى السواد والطمر : الفرس الجواد (١) المتن : الظهر (٢) جمع دهقان بالكسر والضم وهو الباجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الاقاليم وقيل : هو مقدم قرية او صاحبها بخرسان والعراق ، فارسى معرب

الفرس بعد ما ابتذل فكان سابقاً مبراً . انتسب أى رجع إلى نسبه وعرقه ».
وقال أبو يحيي : كانت الحيراء لمعقل بن عروة وكانت سابقة و بناتها سوابق ،
وكان معقل بصيراً بالخيل وكان إذا أجريت الخيل استدبرها فأيها كان أدنى
سُنبكاً[١] من الأرض سبقه عليها « ومنها الأحزم » فرس نُبَيْشَةَ بن حبيب السُلَمىّ
قال يوم قتل ربيعة بن مكدم وهو (الـكَديد) :

سائِلْ كنانةَ أين فارسُها الذى ... ورد الـكَديدَ ربيعةُ بن مكَدَّم
فلتخبرنّ بنـو فراس أنه ... ألوى بمهجته جرىء المقدم
لمـا أطالَ عِنانَهُ متقصداً ... نحوى قصرت له عنانَ (الأحزم)
فأثرتُ بينَ ضُلوعِهِ جياشةً ... فوهاء تنفث بالحقين و بالدمِ[٢]

ومنها « الأزور » فرس عبد الله بن حازم السُلَمى . قال فيه :

لَعَمْرى لقد أنظرت بكر بن وائل ... وخندفَ حتى لم أجد متنظراً
إذا أ كثروا يوماً علىّ فرجتهم ... برمحى وألحقتُ الفوارسَ أزورا

ومنها « البيضاء » فرس قعنب بن عتاب بن الحرث بن عمرو بن همام بن رياح
بن يربوع . قال بعض الشعراء :

لو أمكنتنى من شامةَ مهرتى ... للاقى كما لاقى فوارسُ قعنبِ
تمطت به البيضاء بعد اختلاسةٍ ... على دهش وخلتنى لم أ كذبِ

قال أبو بكر بن دريد : هى فرس بجير وفيها يقول الشعر . قال أبو محمد ،
قلت : الصحيح إنها لقعنب وذلك أنه التقى هو و بُجَيْرَ بن عبد الله بن سَلَمة بن
قُشَير بن كعب بِعُكاظ والناس متوافرون فقال بجير لقعنب : يا قعنب كيف
شكرك للبيضاء ؟ قال قعنب : وما عسيت أن أشكرها . قال : ولم لا تشكرها وقد

---

(١) السنبك : ضرب من العدو ، وطرف الحافر وجانباه من قدم
(٢) اثرت بعثت ، والافوه والفوهاء : البينا الفره والفوه محركة سعة الفم وعظمه ومن المجاز طعنة فوهاء : اى واسعة ، وحقنه يحقنه فهو محقون، وحقين : حبسه

أنجتك منى ؟ قال : ومتى ذاك ؟ قال بجير : حيث أقول :

أمخترمى ريبُ المنونِ ولم أرع بشعث النواصى سرح عمرو بن جندبِ
ولو أمكنتنى من بشامةَ مهرتى للاقى كما لاقى فوارسُ قعنب
تمطت به البيضاء بعد اختلاسةٍ على دهش وخلتنى لم أكذب

قال أبو عبيدة : فأنكر ذلك قعنب فتحالفا وتلاعنا فآلى قعنب يميناً لئن اجتمع سقفى وسقفك (يعنى شخصى وشخصك) لأقتلنك أو أقتل دونك . وله حديث فيه طول . وقتل قعنب بُجَيْراً فى المَرُّوْتِ ويسمى يوم إرم الكلبة . ومنها « بُرْجة » فرس لسنان بن أبى حارثة المرىّ . قال فيها :

لما رأونى ووجه بُرْجة والربطة ولى فوارس الملك
فأدبروا والرماح تأخذهم نزو القطا فى حبائل الشرك[1]

وقال فيها أيضاً :

ألا فاعجلْ (لبرجةَ) بالصَّبُوح صَريحاً إنها بنتُ الصريحِ[2]

ومنها « البرّيتُ » فرس إياس بن قبيصة الطائى . قال حارثة بن أوس الكلبى :

ونحى إياساً منى سيف مجنب تراه إذا ما جدتِ الخيلُ يلعب[3]
أبو أمه (البرّيت) أو هو خالهُ إلى كل عرق صالح يتنسب

ورواه بعض العلماء أبو أمه العريان فأنكره أبو الندى وقال : هو البريت وقال أبو بكر بن دريد هو البريت بضم الباء وتخفيف الراء وأنشد الشعر على غير ما أنشده أبو محمد :

---

(١) نزو القطا : وثوبه ، والشرك محركة : حبائل الصيد وما ينصب للطير والجمع شرك بضمتين نادر ، وبرجة بضم الباء وفى اللسان : هى لسنان بن ابى سنان (٢) الصبوح بالفتح ماحلب من اللبن بالغداة ، والصريح : الخالص من كل شىء (٣) قوله (سيف مجنب) لعل صوابه (شدف مجنب) والشدف ككتف الطويل العظيم السريع الوثبة من الخيل سكن داله ضرورة ، والمجنب المنعطف العظام والتجنيب فى الخيل مما يوصف صاحبه بالشدة

ونجى إياساً سابحٌ ذو عُلالةٍ ... ملح إذا يعلو الحَزَابىّ يغلب [١]

أبو أمه (العريان) أو هو خالهُ ... إلى كل عرق صالح يتنسب

كأن استهُ إذ أخطأته رماحُنا ... وفات (البُرَيْتَ) لبده يتصبب

ذنابى حبارى أخطأ الصقر رأسه ... فجادت بمكنون من السلح يثعب [٢]

ومنها « البرخاء » لعوف بن الكاهن الأسلمى . قال فيها :

نصبت لهم وجهى و (برخاء) جونة ... إذا نصبت للشر أقعت على رجل [٣]

كأن بها كراثَ رمل خميلة ... ولت نبته الجوزاء بالنبل والوبل [٤]

« ومنها « جِروة » فرس قعين بن عامر النميرىّ . قال فيها :

تركت ابنَ بدرٍ والسباع يعدنه ... وفى النفس مما يذكر الناس عاذرُ

قصرت له من صدر (جروة) إنها ... تصادم أحياناً وحيناً تغاور

قصرت له من صدرها وكأنها ... عقاب تدلت مطلع الشمس كاسرُ [٥]

ومنها « الحرون » بن الأثائى بن الخرز بن ذى الصوفة بن أعوج لمسلم بن عمرو الباهلى أبى قتيبة بن مسلم وإنما سمى الحرون لأنه كان يسبق الخيل فإذا فاتها حرن وإذا لحقته نجا ثم يحرن وله يقول القائل :

إذا ما قريشٌ خلا ملكها ... فإن الخلافةَ فى باهله [٦]

---

(١) يقال لاول جرى الفرس (بداهة) والذى يكون بعده (علالة) كما فى التاج والحزابى : اماكن منقادة غلاظ مستدقة ، والسابح الفرس لسبحه بيديه فى سيره (٢) الذنابى : ذنب الطائر وقيل منبت الذنب ، والحبارى : طائر معروف وهو على شكل الأوزة براسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا ، والسلح : الغائط ، ويثعب : يجرى (٣) اقعى الكلب والسبع جلس على استه واقعى فرسه رده القهقرى (٤) قوله ولت اى امطرت (٥) العقاب بالضم معروف ، وكسر الطائر جناحيه كسرا ضمهما للوقوع وباز كاسر وعقاب كاسر ، وجروة ايضا فرس شداد ابى عنترة (٦) باهلة قبيلة من اخس قبائل العرب ويضرب بلؤمها المثل ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم فى الجاهلية والاسلام ثم خفت منهم تلك السمة وشرفت بقتيبة بن مسلم وبنيه حتى قال القائل : اذا ماقريش الخ

ومما يحكى من لؤم باهلة انه قيل لأعرابى : ايسرك ان لك مائة الف درهم وانت من باهلة فقال : لا والله . فقيل : افيسرك ان لك حمر النعم وانك منها ؟ قال : اللهم لا ، قيل : افيسرك انك فى الجنة وانت باهلى ؟ قال نعم ولكن بشريطة ان لايعلم اهلها اننى منها !! ومما يستجاد لبعضهم قوله :

لِرَبِّ الحرون (أبى صالح)   وما تلك بالسنة العادله[1]

وقد اشتراه مسلم من أعرابى بالبصرة بألف دينار معارضة بمتاع فذكر أنه كان فى عنقه رسن حين أدخله الأعرابى يطير عفاؤه[2] فسبق الناس عليه عشرين سنة .

وكان الحجاج بعث بابن يقال له البطان إلى الوليد بن عبد الملك فصيره لمحمد ابنه وولد البطان البطين لمحمد بن الوليد أيضاً قال العجلى .

أغر من خيل بنى ميمون   بين الحيليات والبطين

يعنى ميمون بن موسى المرأى وولد البطين الذائد وهو للعباس بن الوليد ابن عبد الملك . وكان لا يدخل عليه سائسه إلا بإذن يرفع له المخلاة فيها شعير ، فإن رفع رأسه دخل إليه وإن لم يفعل به ذلك شد عليه فمنعه من الدخول إليه وكذلك كان يصنع بالفرس إذا جاراه يَكْدِمُهُ[3] قال الأصمعى : وكان إذا أرسل معه حمار أو فرس مثله فى الجودة جاء سابقه بقدر رمح . وأخبار هذا كثيرة .

ومنها « حزمة » ذكر الأصمعى قال : حدثنى شيخ يقال له (ابن قتب) قال : قدم أعرابىٌّ من أهل نجد على الوليد بن عبد الملك ، وقد أضمر الوليد الخيل ليرسلها ، فأتى أعرابى فقال : ياأمير المؤمنين أريد أن أرسل خيلى مع خيلك . قال : ياأسيلم كيف تراها ؟ فقال : حجازية لو ضمها مضمارك ذهبت . فقال له الأعرابى : ما اسمك ؟ قال : أنا أسيلم بن الأحنف . قال فقال : إنك لمنقوص الاسم أعوج اسم الأب . قال فأرسلت الخيل فسبق الأعرابى على فرس له يقال له (حزمة) فقال له الوليد : أواهبها أنت لى ؟ قال إنها قديمة الصحبة ولها حق ولكنى أحملك على مُهْرٍ لها سبق الناس عاماً أول وهو فى بطنها له عشرة أشهر .

اباهــل ينبحنى كلبــكم   واســدكم كــكلاب العرب
ولو قيــل للــكلب : يا باهــلى   عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقول آخر :

لاتنفع الأنساب من هاشــم   ان كانت الأنفس من باهــله

والشعر فى باهلة كثير وله محل آخر (١) أبو صالح هو مسلم بن عمرو الباهلى

(٢) العفاء : الشعر الطويل الوافى ، ووبر البعير (٣) اى يعضه بأدنى فمه

والفرس إذا أتت عليه عشرة أشهر وهو فى بطن أمـــه ربض وكذلك البعير إلا أنه يبرك ، فمرض هذا الأعرابى فأرسل الوليد بن عبد الملك الأطباء إليـه يداوونه فأنشأ يقول :

جاء الأطباء من (حمصٍ) كأنّهمُ   من أجل أن لا يداوونى مجانين[1]

قال الأطباء : ما يشفى ، فقلت لهم :   دخان رِمثٍ من (التسرير) يشفينى[2]

مما يجرّ إلى عُمران حاطبه   من الجُنينة جزلا غـير ممنون

الرمث بالكسر مرعى الإبل . قال : فأرسل إليه أهله بحمل من سليخة رمث فوجدوه قد مات . (والسليخة) قال أبو بكر بن دريد : أن يجف الرمث فلا يبقى فيه من الندى شىء . قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن اسم هذا الأعرابى ونسبه ، فقال هو الأصم حكيم بن مالك بن جناب النميرى . قال (وحزمة) قال فيها ابنه عتاب بن الأصم هذا الرجز :

يا (حَزْمَ) قد جد الرهان بالقوم   ليس عليك اليوم فى جَرْيٍ لَوْم

إن أنت جليت الوجوه ذا اليوم

ومنها « حومل » لحارثة بن أوس الكلبىّ . ولها يقول يوم هزمت بنو يربوع بنى عبد ودّ من كلب :

ولولا جَرْيُ (حوملَ) يوم غدر   لَمَزّقنى وإياها السلاحُ

---

(١) حمص : كورة بالشام (٢) الرمث : شجر يشبه الغضا لايطول ولـكنه ينبسط ورقه وهو شبيه بالاشنان والابل تحمض بها اذا شبعت من الخلة وملئها وربما يخرج فيه عسل ابيض كأنه الجمان وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقود حار وينتفع بدخانه من الزكام ، والتسرير ذو بحـار اسفله حيث سيواله السر : قال ابو رياد : ذو بحار واد يصب أعلاه فى بلادبنى كلاب ثم يسلك نحو مهب الصبا ويسلك بين الشريف شريف بنى نمير وبين جبلة فى بلاد بنى تميم حتى ينتهى الى مكان يقال له التسرير من بلاد عكل ، قال : وفى التسرير اثناء وهى المعاطف فيه ، منها ثنى لغنى بن اعصر وثنى نمير ابن عامر وفيه ماء يقال له الغريفة وجبل يقال له الغريف وثنى لبنى ضبة لهم فيه مياه ودار واسعة ثم سائر التسرير الى أن ينتهى فى بلاد بنى تميم ، قال الراعى :

حى الديار ديار ام بشـــير   بنـو يعتين فشاطىء التسرير

لعبت بها عصف النعامى بعـدما   زوارهـا من شـمأل ودبور

تثيب إثابةَ اليَعْفُورِ لماً تناول ربّها الشُعْثُ الشِّحَاح[1]

« ومنها الحفار » فرس سراقة بن مالك الكنانى . قال فيه :

صبرت لهم نفسى وأحرزت جنتى ومثل مشدى يوم ذلك يذكر
ومرجعى (الحفار) خلف ظهورهم بمعترك ضنك به الضيم أعسر

ومنها « الحسامية » لحميد بن حريث بن بجدل الكلبىّ . قال فيها شبيل بن الجنبار العميرىّ :

ولى حميد ولم ينظر فوارسه قبل التبين والمغرور مغرورُ
من بعد ما ألثق السربال طعنته كأنه بعصير الورس ممكور[2]
نجىّ (الحسامية) الكبداء مبترك من جريها وحثيث الركض مذعورُ
كأنما يلدغ الأقراب إذ حميت من شدها بحصى الأرض الزنابير[3]

ومنها « خصافٌ »[4] لِسُمَيْر بن ربيعة الباهلى ويسمى فارس خصاف ويضرب به المثل . فيقال (أجرأ من فارس خِصاف) قال بعض الشعراء .

إذا وجّهَ الدهرُ السهامَ إلى امرىء أصاب ولم يُخْطِىء وَيَمَّمَ قاصِدا
ورُبَّ خِصافٍ قد أصابتْ سهامُهُ وأىُّ فتى يبقى على الدهر خالدا

ولمالك بن عمرو الغسانى فرس أنثى يقال لها (خصاف) أيضاً . وكان مالك فيمن شهد (يوم حليمة) فأبلى بلاء حسناً وجاءت حليمة تطيب رجال أبيها من مركن[5] ، فلما دنت من هذا قبلها فشكت ذلك إلى أبيها فقال هو أرجى رجل عندى فدعيه فإما أن يقتل أو يبلى بلاء حسناً . ويسمى فارس خصاف . ويقال أجرأ من فارس خصاف بسبب القصة المذكورة « وخِصَافٌ » أيضاً لِحَمل بن زيد ابن عوف بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل

---

(١) اليعفور : ظبى بلون العفر وهو التراب او عام فى الظباء ، والشعث جمع اشعث وهو المغبر الرأس المنتتف الشعر الحاف الذى لم يدهن ، والشحاح جمع الشحيح (٢) الثقه : بلله ونداه فالتثق به ، والورس نبات يصبغ به ، وممكور : مصبوغ (٣) الأقراب : الخواصر (٤) على وزن كتاب وكذلك فرس حمل بن زيد وأما فرس مالك بن عمرو الغسانى فعلى وزن قطام وحذام (٥) كمنبر آنية

كان معه هذا الفرس فطلبه المنذر بن امرىء القيس ليفتحله فخصاه بين يديه لجرأته فسمى (خاصىَ خصاف) ويقال فى المثل (أجرأ من خاصى خصاف) . ومنها « خَرج »[١] فرس جريبة بن الأشيم الأسدىّ قال فيها :

تالله مامنوا علىّ وإنما   منت علىّ (خراج) حين تصرفوا

قال أبو الندى وابن الأعرابى : هو بالتخفيف . وقال غيرهما . هو الخراج وأنشد البيت . منوا على الخراج حين تصرفوا . وأنشد لجريبة أيضاً :

وكنت إذا (الخراج) حال استحلته   بمنجية أو قلت : (خراج) أعقبا

فما الأزرق الحولىّ منه بأوثب   رأى أرنباً فامتلّ فى شأو أرنبا[٢]

ومنها « درهم » فرس خداش بن زهير العامرىّ قال فيه :

وقلت لعبد الله فى السر بيننا :   لك الويلُ قَدِّمْ لى اللجامَ ودرهما

لجاء بلا شختٍ قصير لَبانُهُ   ولا حنكل بادى الشرارة أدهما[٣]

وقلت له : إنْ تدرك القومَ لاتزل   مكانَ (بجير) أو أحب وأكرما

بجير : ابنهُ وقال أيضاً يذكر ضيفاً :

وأقفيتهُ دون العيال لحافَنا   وبات أنيسيه (بجير) و (درهمُ)[٤]

ومنها « دعلج » فرس عبد عمرو بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب قال فيه يوم فيف الريح :

طُلِّقْتِ إن لم تسألى أىّ فارس   حليلُكِ إذ لاقى صداء وخثعما

أقدمُ فيهم (دَعلَجاً) وأكرّه   إذا كرهوا فيه الرماح تحمحما[٥]

---

(١) قال فى القاموس : خراج كقطام فرس حريبة بن الأشيم (٢) امتل : اسرع ، والشأو : السبق والغاية والأمد (٣) الشخت الدقيق الضامر لاهزالا ويحرك ، واللبان : الصدر ، والحنكل كجعفر القصير والجافى الغليظ (٤) القفى والقفية الشيء الذى يكرم به الضيف من الطعام قال عيلان يصف فرسا : مقفى على الحى قصير الاظماء ، والقفى الضيف المكرم .واقفى الرجل على صاحبه فضله فمعنى قوله واقفيته دون العيال أى خصصته دون العيال (٥) ونسبهما بعضهم لعامر بن الطفيل ، وقوله طلقت يحتمل ان يكون دعاء او اخبارا ، وحليل المراة زوجها ، وصداء وخثعم : قبيلتان كانتا مع من اراد قتال بنى عامر فى ذلك اليوم

ومنها « دباس » فرس جبار بن قرط الكلبي قال فيه :

ألا أبلغْ أبا كربٍ رسولاً مغلغلةً وليست بالمزاح
فإني لن يفارقني (دباسٌ) ومطردٌ أحذٌّ من الرماح (١)
يراخيني إذا ماشئتُ منهم ويدنيني إذا كرهوا جناحي

ومنها « العرادة » لهبيرة بن عبد مناف اليربوعي (٢) واشتهر بابن الكلحبة والكلحبة أمه وهو الذي يقول في العرادة :

فإن تنجُ منها يا (حزيم بن طارقٍ) فقد تركتْ ما خلفَ ظهركَ بلقعا
ونادى منادى الحيِّ أنْ قد أتيتمُ وقد شربت ماء المزادة أجمعا (٣)
وقلت لكأس ألجميها فإنما نزلنا الكثيب من (زَرود) لنفزعا
فأدرك إبقاء (العرادة) ظلعها وقد جعلتني من (حزيمة) إصبعا
أمرتكمُ أمري بمنعرج اللوى ولا أمرَ للمعصيّ إلا مضيعا
إذا المرء لم يغشَ الكريهةَ أوشكت حبالُ الهوينى بالفتى أن تقطَّعا (٤)

وسبب هذه الأبيات أن ابن الكلحبة كان نازلا (بزَرود) وهي أرض بني مالك بن حنظلة وهو من بني يربوع فأغارت بنو تغلب على بني مالك وكان رئيسهم (حزيمة بن طارق) فاستاق إبلهم فأتى الصريخ إلى بني يربوع فركبوا في أثره فهزموه واستنقذوا ما كان أخذه . فقوله « إن تنج منها الخ » أي من الفرس . و « حزيم » بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى المعجمة مرخم حزيمة . وهذا البيت يشعر بانفلاته وشعر جرير يشعر بأسره . وهو قوله « قُدْنا حَزيمةَ قد علمتم عنوةً » ولا مانع منه بأن أدركه غير ابن الكلحبة وأسره لما ظلعت فرسه . قيل : ولما أسر اختصم فيه اثنان أحدهما أنيف بن جبلة الضبي وهو أحد بني

(١) رسالة مغلغلة محمولة من بلد الى بلد ، والمطرد رمح قصير يطرد به الوحش ، والأحذ السريع النفاذ (٢) في القاموس : العرني (٣) البلقع : الأرض القفر ، والمزادة بفتح الميم الراوية أو لاتكون الا من جلدين تقام بثالث بينهما لتتسع (٤) قوله الهوينى يروى بدله « المنايا »

عبد مناة بن سعد بن ضبة . وكان أنيف يومئذٍ نازلا فى بنى يربوع وليس معه من قومه أحد . وثانيهما أسيد بن حناءة السليطىّ فاختصما إلى الحرث بن قراد فحكم أن جز ناصيته لأنيف وأن لأسيد عنده مائةً من الإبل فرضيا بذلك والحرث ابن قراد بن بنى حميرى بن رياح بن يربوع وأمه من بنى عبد مناة بن بكر بن سعد ابن ضبة . وقوله : « فقد تركت الخ » العرب كثيراً ما تذكر أن الخيل فعلت كذا وكذا وإنما يراد به أصحابها لأنهم عليها فعلوا وأدركوا . يقول : إن تنج يا حزيمة من فرسى فلم تفلت إلا بنفسك وقد استبيح مالك وما كنت حويتـه وغنمته فلم تدع لك هذه الفرس شيئاً . وقوله : « ونادى منادى الحى الخ » كأن ابن الكلحبة يعتذر من انفلات حزيمه . يقول : أتى الصريخ وقد شربت فرسى ملء الحوض ماء وخيل العرب إذا علمت أنه يغار عليها وكانت عطاشاً . فمنها ما يشرب بعض الشرب ولا يروى و بعضها لا يشرب البتة لما قد جربت من الشدة التى تلقى إذا شربت المـاء وحورب عليها . وقوله : « وقلت لكأس البيتَ » كأس بنت ابن الكلحبة . وقيل : جاريته . والعرب لا تثق فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . وقوله : « لنفزع الخ » أى لنغيث . يقول : ما نزلنا فى هذا الموضع إلا لنغيث من استغاث بنا والفزع من الأضداد بمعنى الإغاثة والاستغاثة . وقوله : « فأدرك إبقاء العرادة الخ » العَرَادة بفتح العين والراء والدال المهملات اسم فرس ابن الكلحبة كانت أنثى ، و (الإبقاء) ما تبقيه الفرس من العَدْو إذ من عتاق الخيل مالا تعطى ما عندها من العدو بل تبقى منه شيئاً إلى وقت الحاجة يقال فرس مبقية إذا كانت تأتى بجرى عند انقطاع جريها وقت الحاجة يريد أنها شربت المـاء فقطعها عن إبقائها ففاته حَزيمة . وروى (انقاء العرادة) بفتح الهمزة وبالنون جمع نقو بالكسر وهو كل عظم ذى مخ يعنى ظلعها وصل إلى عظامها . وروى أيضاً (إرقال العرادة) بكسر الهمزة والقاف وهو السير السريع وهو مفعول والظلع فاعل . قال ابن الأنبارىّ : الظلوع فى الإبل بمنزلة الغمز أى العرج اليسير يقال

ظلع يظلع بفتحهما ظلعاً وظلوعاً ولا يكون الظلوع فى الحافر إلا استعارة . يقول : فاتنى حَزِيمة وما بينى و بينه إلا قدر أصبع . وقوله « أمرتكم أمرى الخ » اللوى بالقصر هو لوى الرمل أى منقطعه حيث ينقطع و يفضى إلى الجدد ومنعرجه حيث انثنى منه وانعطف ، و إنما قال بمنعرج اللوى ليعلم أين كان أمره إياهم كما قال الآخر :

ولقد أمرتُ أخاك عمراً فأبى وضيعه بذات العجرمِ

« ومنها الغرّاف » للبراء بن قيس بن عتاب بن هرمى بن رياح اليربوعى قال فيه :

فإن يك عراف تبدل فارساً سواى فقد بدلت منه السميدعا

قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن السميدع من هو ؟ فقال : كان جاراً للبراء بن قيس وكانا فى منزل فأغار عليهما ناس من بكر بن وائل فحمل البراء أهله وركب فرساً يقال له (غراف) فلا يلحق به فارس منهم إلا صرفه برمحه . وأخذ السميدع فناداه : يا براء أنشدك الجوار . وأعجب القوم الفرس فقالوا : لك جارك وأنت آمن وأعطنا الفرس فاستوثق منهم ودفع إليهم الفرس واستنقذ جاره فلما رجع إلى أخويه عمرو وأسود لاماه على دفعه فقال البراء فى ذلك :

ألا أبلغا عمروَ بن قيس رسالةً وأسودَ أن لو ما على الغيب أودعا

وشرّ عوان المستعين على الندى ملامة من يرجى إذا العتب أضلعا

فإن يك (عراف) تبدل فارساً سواى فقد بدلت منه السميدعا

دعانى فلم أوره به فأجبته ومد بثدى بيننا غير أقطعا

وقال : تذكر سعيكم فى رقابنا ولا تتركنى العام أخضر لعلعا

« ومنها الكاملة » لعمرو بن معدى كرب عرضها على سلمان بن ربيعة الباهلى فهجنها سلمان فقال عمرو « إن الهجين يعرف الهجينا » وأنشأ يقول :

يهجن سلمان بنت البعيث جهلاً لسلمان بالكاملة

فإن كان أبصَرَ منى بهـا   فأنى لا أمه الثاكله[١]

قال أبو محمد الأعرابى ؛ قال أبو الندى : لا أعرف الكاملةَ ولا البعيث ولا هذه الأبيات . قال أبو محمد : وقرأت أنا بخط يعقوب بن السكيت قال ؛ عرض سلمان بن ربيعة الباهلىّ الخيل فمر عمرو بن معد يكرب على فرس فقال له سلمان : هجين قال عمرو : عتيق ، فأمر به سلمان فعطش ثم دعا بماء ودعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو فثنى يده وشرب وهذا صنيع الهجين . فقال له سلمان : ترى ! فقال أجَلْ الهجينُ يعرف الهجينَ و بلغت عمر وكتب إليه قد بلغنى ما قلت لأميرك و بلغنى أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندى سيف أسميه مصمماً . وأيم الله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به شيئاً قد ذكره من جوفه فإن سرك أن تعلم أحقٌ ما أقول فعـد . ومنها « الـكلب » فرس عامر بن الطفيل وكان تسمى (الورد) و (المزنوق) لأنه زنقه[٢] . قال أبو الندى : الزناق فى الجحفلة . و (أحوى) أخو الـكلب فرس عامر وأبوهما المتهد (!) فرس مرة بن خالد بن جعفر بن كلاب . قال عامر :

وقد عَلِمَ (المزنوق) أنى أكرّهُ   عشيةَ فيف الريح كرَّ المدوّرِ[٣]

إذا ازورّ من وقع الرماح زجرتُهُ   وقلت له : ارجع مقبلاً غيرَ مدبِرِ

وأنبأتهُ أن الفرارَ خزاية   على المرء مالم يبل جهداً فيعذرِ

ومنها « المُحَبَّر » فرس ضرار بن الأزور الأسدى وهو قاتل مالك بن نويرة[٤] وكان يقال له فارس المحبَّر . قال فيه :

جزانى ذؤابته المحـبر إذ بدا   بذى الرمث أعجاز السوام المؤبَّلِ[٥]

كأنى طلبت الخيلَ حين تفاوتت   سوابقها دون السماء بأجدلِ[٦]

---

(١) ثكلت المرأة ولدها : فقدته (٢) زنق فرسه : جعل تحت حنكه الأسفل حلقة فى الجليدة ثم جعل فيها خيطا ، وكل رباط فى الجلد تحت الحنك فهو زناق ككتاب (٣) رواية التاج :

وقد علم المزنوق انى اكره   على جمعهم كر المنيح المشهر

(٤) المشهور فى التاريخ والسير ان الذى قتل مالكا خالد بن الوليد (رض) « التاج » (٥) ذؤابة الفرس شعر فى اعلى ناصيته ، وذو الرمث اسم موضع ، والرمث مرعى من مراعى الابل وهو الحمض ، والسوام : الابل الراعية ، والمؤبل كقبر : المهملة بلا راع (٦) الأجدل : الصقر

من المنهبات الركض ظلّ كأنه على الجمر حتى يستغيثَ بمأ كلِ
أخالط منهم من أردت بمخلط وإنْ أنأَ عنهم انأَ عنهم بمِزْيل (١)
أُنَهْنِهُ عنّى نفسه وكأنه بذى الرمث والغضياء مريخ معتلى (٢)

« ومنها مرهوب » للجميح بن الطماح الأسدى أعطاه إياه خراشة بن علبة المرّىّ . وكان الجميح غزا فعقر به فجاء إلى صديق له من بنى مرة بن عوف بن سعد ابن ذُبيان يقال له خراشة بن علبة : ولخراشة ابنٌ يقال له نزال أسير فى بنى سليم وكان لخراشة فرس يقال له مرهوب رائع وكان ابنه أسيراً فيهم يتغالون بفدائه ويسومون خراشة أن يفديه بفرسه فيأبى فحمل عليه الجميح وترك ابنه أسيراً فقال الجميح .

نفسى الفداء لمن لمـا تـكايدنى كسب الجياد حشا سرجى بمرهوب
وقلّت الخيل عندى واختللت لها وحصنى الشرك أر باب المثاحيب
هذا الثناء وإن يجلبك مأربة فى المال ذانـكبة أو غير منـكوب
اصبر لها وتجدنى دائمـاً خلقى والقول منه كثير غير مرقوب

« ومنها النعامة » وهو اسم لعدة أفراس : اسم لفرس الحرث بن عباد . ولها يقول :

قربا مربطَ (النعـامة) منى لقحت حربُ وائل عن حيال (٣)

واسم فرس خالد بن نضلة الأسدى قال يوم النِسار لمـا أسر حنثر بن بحر وهب بن وبر بن الأضبط بن كلاب ، ودودان بن خالد أحد بنى نفيل :

تدارك أرخاء (النعامة) حنثراً ودودان أدّت فى الحديد مكبّلا (٤)

---

(١) المخلط كمنبر من يخالط الامور ويزايلها وهو يخلط مزيل كما يقال رانق فانق، والنأى : البعد (٢)انهنه : اكف، والغضياء مجتمعالغضا أو منبتها والمريخ : السهم الذى يغالى به وهو سهم طويل له اربع قذذ (٣) لقحت : حملت ، والحيال ان يضرب الفحل الناقة فلا تحمل وهذا مثل ضربه لان الناقة اذا حالت وضربها الفحل كان أسرع القاحها وانما يعظم امر الحرب لما تولد منها الامور التى لم تكن تحتسب (٤) الكبل : القيد وكبلت الاسير كبلا : قيدته والتشديد مبالغة

واسم فرس مرداس بن معاذ الجشمى وكان يقال لها ابنة صمعر قال فيها : —

ولم أزج فى ظل اللواء ظهيرةً   خنوفاً إذا صاح الرقيب ونَفَّرا(١)

إذا الكلاب لم يعرف حليلةَ أهلهِ   وخالط فى يوم الصباح وأنكرا(٢)

وقلت لهم شلوا مع القوم إننى   مطرف أولى القوم يا ابنة صمعرا(٣)

فلم أقِ نفسى و (النعامةَ) عامداً   كلومَ السلاح أن أصاب وتعقرا(٤)

ظللت كأنى للرماح دريئـة   أقلب سربالاً من الدم أحمرا(٥)

واسم فرس مسافع بن عبد العزى الضمرى قال :

ووالله لا أنسى النعامة ليـلةً   ولا يومها حتى أوسد مِعصمى(٦)

مسحة غيطان الفضـاء ولقوة   إذا طوطئت كأنها حمى منسم(٧)

ومنها « ابن النعامة » فرس عنترة وكان يؤثره أى يفضله على سائر خيله ويسقيه اللبن وكانت امرأته تلومه على ذلك فخاطبها وقال :

لا تذكرى فرسى وما أطعمته   فيكون جلدُك مثلَ جلد الأجرب !

إن الغَبُوقَ له وأنتِ مسوءة   فتأوّهى ما شئت ثم تحوبى !

كذَبَ العتيقُ وماء شنٍّ باردٍ   إن كنتِ سائلتى غَبُوقا فاذهبى

إن الرجالَ لهم إليك وسيلة   إن يأخذوك تكحلى وتخضبى !

ويكون مركبكِ القَعود وحِدْجه   وابن النعامة عند ذلك مركبى

---

(١) الزجو : السوق ، وفرس خنوف : يميل راسه الى فارسه من نشاطه
(٢) الحليلة : الزوجة (٣) شل الدرع لبسها وشله : طرده ، والشلال القوم المتفرقون ، وطرف الخيل تطريفا : رد أوائلها على اواخرها ، قال الشاعر
وقد علمت اولى المغيرة اننا   نطرف خلف الموقصات السوابقا
(٤) الكلوم : الجروح (٥) الدريئة كالخطيئة الحلقة يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها ، قال عمرو بن معديكرب :
ظللت كأنى للرماح دريئـة   اقاتل عن أبناء جرم وفرت
(٦) المعصم وزان مقود : موضع السوار من الساعد ، ووسده اياه اذا جعله تحت راسه (٧) فرس مسح بالكسرة اى جواد سريع ، والغيطان جمع غوط وهو المطمئن الواسع من الارض ، واللقوة التى تلقح لاول قرعة ، وطأطأ فرسه : دفعه بفخذيه وحركه للاسراع .

وأنا امرؤٌ إنْ يأخذونىَ عَنْوَةً أقرن إلى شر الركاب وأجنبِ

إنى أحاذر أن تقولَ ظعينتى هـذا غبارٌ ساطعٌ فتلببِ

وهذه أبيات بعيدة المرمى تحتاج إلى كشف وبيان ؛ فقوله(مثل جلد الأجرب) أى لا تلومين فى إيثار فرسى فأبغضك واهجـر مضجعك وأتحاماك كما يتحامى الأجرب من الإبل و يبعد عنها لئلا يعديها . وقيل معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب فيـكون تهددها بالضرب الأليم . وقوله (إن الغبوق له الخ) الغبوق شرب اللبن بالعشى والعشى ما بين الزوال إلى الغروب ، وقيل من الزوال إلى الصباح . ومسوءة أى آتٍ إليك ما يسوؤكِ بإيثار فرسى عليك . والتأوه التحزن وأن تقول آه توجعاً . والتحوب التوجع ويقال هو الدعاء على الشىء . وقوله (كذب العتيق الخ) أى عليك بالعتيق وهو إغراء . والعتيق هو التمر القديم . قال الدينورى فى كتاب النبات : يقال عتَق وعتُق بالفتح والضم إذا تقادم والعتيق اسم للتمر علم وأنشد هذا البيت . والشن القربة الخلق والماء يكون فيها أبرد منه فى القربة الجديدة ، يقول : عليك بالتمر فـكليهِ والماء البارد فاشربيه ودعينى أوثر فرسى باللبن وإن تعرضت لشرب اللبن فاذهبى و إنما يتوعدها بالطلاق . وقوله (إن الرجال الخ) ويروى إن العدو والوسيلة القربة وقيل المنزلة القريبة . قال الأعلم فى شرح مختار شعر عنترة : هذا منه وعيد وتخويف أن تسبى فيستمتع بها الرجال قال تـكحّلى وتخضبى ، والمعنى إنْ أخذوك تـكحلتِ وتخضبتِ لهم ليستمتعوا بك . وقوله (ويكون الخ) القَعود بفتح القاف ما اتخذ من الإبل للركوب خاصةً والحدج بكسر المهملة وآخره جيم مركب من مراكب النساء وروى بدله رحله ، وابن النعامة اسم فرسه يقول إن أخذوك حملت سبيه على قعود ونجوتُ أنا على فرسى ، وقوله (وأنا امرؤ الخ) العنوة بالفتح القسر والقهر والركاب الإبل التى يحمل عليها الأثقال ، واقرن أى الصق بها واجعل مقروناً إليها واجنب أقاد . يقول : إن أخذت عنوة قرنت إلى شر الإبل وجنبت كما تجنب الدابة . وقوله

(أنى أحاذر الخ) الظعينة الزوجة مادامت فى الهودج ، والتلبب : التحزم أى تحزم للمحاربة . وقيل : هو الدخول فى السلاح . وقوله (هذا غبار) يعنى غبار الخيل عند الغارة والساطع المستطير فى السماء .

ومنها (ناصح) لسويد بن شداد العبشمى وفيها كان يقول :

أناصحُ بَرِّزْ للسباق فإنها غداةَ رهانٍ جمعتْهُ الحلائبُ[١]

فإنك مجلوبٌ علىَّ ضحى غدٍ ومالك إن لم يجلب الله جالبُ

قال أبو الندى : هذا الشعر للحرث بن مراغة الحبطى وناصح له لا لسويد ابن شداد[٢] .

« ومنها النبز » فرس طارق بن ضمرة وفيه يقول نبزة أخو طارق بن ضمرة حين تراهن خديج بن قيس بن عمرو بن قطن . وطارق بن ضمرة بن جابر بن قطن على فرسيهما المجنحة والنبيز وسبقه . ولما كان بعد ذلك ذعر الناس فركبوا فأدرك طارق على المجنحة إبلا فلما حواها انقطعت فرسه فأدركه خيب الناس فاقتسموا تلك الإبل وطارق غلام . فقال فى ذلك ضمرة أخو طارق بن ضمرة :

أبقى رهان أبى ربيعة غدوة منها ولم يك بعدها تعقيب

وتسوقها رجلا جداية حُلْبٍ وتسد لبة صدرها وتصوب[٣]

غيبت عن ذاك الصنيع وأهله والعز يشهد مرةً ويغيب

ومنها « نحلة[٤] » لسبيع بن الخطيم التيمى قال فيها :

---

(١) برز بروزا: خرج الى البراز أى الفضاء كتبرز وظهر بعد الخفاء، والحلائب جمع حلبة كسجدة وهى تجمع السابق من كل أوب ولا تخرج من وجه واحد قال الفيومى : يقال جاءت الفرس فى آخر الحلبة أى فى اخر الخيل وهى بمعنى حليبة ولهذا جمعت على حلائب (٢) قلت جاء فى القاموس مانصه : والناصح فرس الحرث بن مراغة أو فضالة بن هند وفرس سويد بن شداد ، انتهى ، وهذا يفند ماادعاه أبو الندى نعم يجوز أن يكون الحرث بن مراغة قال هذا الشعر فى فرسه ...... (٣) الجداية : الغزال كذا فى القاموس ، وفى الصحاح والمحكم هو الذكر والأنثى من أولاد لظباء اذا بلغ ستة أشهر أو سبعة اشهر ، والحلب كسكر نبت فى القيظ بالقيعان وشطآن الادوية ويلزق بالارض حتى يكاد يسوخ ولا تأكله الابل انما تأكله الشاء والظباء وهى مغزرة مسمنة وتحتبل عليها الظباء يقال تيس حلب ذو حلب وهو أسرع الظباء (٤) فى القاموس ونحلة فرس لكندة ولسبيع بن الخطيم

تقول (نحلة) أودعني ، فقلت لها   عول عليّ بإبكار هراجيب[١]
لجت عليّ يمين لا أبدلها   من ذات قُرْطين بين النحر واللوب[٢]

قال أبو محمد الأعرابي : سألت أبا الندى عن معنى البيتين . فقال : كان خطب إلى عمه بنته فقال أعطني مهرها نحلة فقال لا ولكن خذ إبلا فرده عمه ولم يخطبه « ومنها اليَحْموم » فرس النعمان بن المنذر قال الأعشى :

ويأمر (لليحموم) كلّ عشيةٍ   بِقتٍّ وتعليق فقد كان يسنق[٣]

وله أيضاً على ماثبت فى ديوانه :

وإليكَ أعملتُ المطيةَ من   سهل (العراق) وأنت بالقفر
أنت الرئيسُ إذا هُمُ نزلوا   وتواجهوا كالأسد والنمر
أو فارس (اليَحْموم) يتبعهم   كالطلق يتبع ليلةَ البهر
ولأنتَ أشجعُ من أسامة إذ   يقع الصُراخ ولج فى الذعر
ولأنتَ أجودُ بالعطاء من الـ   ريان لما ضُن بالقطر
ولأنت أحيا من مخبأة   عذراء تقطن جانب الكِسْر
ولأنت أبين حين تنطقُ من   (لقمانَ) لما عيّ بالأمر
لو كنت من شيء سوى بشر   كنتَ المنور ليلة القدر

وفارس اليحموم : هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة . واليحموم اسم فرسه والطلق الليلة التى لا حر فيها ولا برد وليلة البهر ليلة البدر حين بهر النجوم . وفى القاموس أسامة بالضم معرفة علم الأسد والأسامة لغة فيه . والصُراخ بالضم الصوت الشديد يكون للاستغاثة وغيرها . والريان قال ياقوت فى معجم البلدان جبل ببلاد طيىء لايزال يسيل منه الماء وضن بالبناء للمفعول أى بخل وتقطن بالقاف أى تسكن

---

(١) الهراجيب : الطوال الضخام (٢) القرط مايعلق فى شحمة الاذن
(٣) القت : الفصفصة اذا يبست ، وقال الازهرى القت حب برى لاينبته الآدمى فاذا كان عام قحط وفقد أهل البادية مايقتاتون به من لبن وتمر ونحوه ، دقوه وطبخوه واجتزؤا به على ما فيه من الخشونة ، وسنق الفصيل من اللبن كفرح : بشم واتخم .

والكسر بكسر الكاف الشفة السفلى من الخباء . ولقمان هو كما قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين هو لقمان بن عاد الأكبر . وكانت العرب تعظم شأنه في النباهة والقدر وفي العلم وفي الحكم وفي اللسان وفي الحلم وهو غير لقمان المذكور في القرآن العظيم الشأن .

ومنها (الهراوة) للريان بن حويص العبدى وكانت لا تدرك وتسمى (هراوة الأعزاب) لأنه تصدق بها على أعزاب قومه فكان العزب منهم يغزوا عليها فاذا استفاد مالاً وأهلاً دفعها إلى آخر من قومه فكانوا يتداولونها كذلك فضربت مثلاً . قال لبيد :

لا تسقنى بيديك إن لم ألتمس نعم (الضجوعُ) بغارةٍ أسرابِ
تهدى أوائلهن كل طمرة جرداء مثل (هراوة الأعزاب) [١]

قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن الضجوع فقال هو قتادة بن كعب ابن عوف بن عبد بن أبى بكر بن كلاب أخو جواب بن كعب . وقال عمرو المحاربى من عبد القيس :

سقى جدثَ الريان كل عشية من المزن وكاف العشىّ دلوحُ [٢]
أقام لفتيان العشيرة سهوة لهم منكح من جريها وصبوح [٣]
فيامن رأى مثل الهراوة منكحاً إذا بلّ أعطافَ الجياد جروح
وذى إبل لولا الهراوة لم يثب له المال ما انشق الصباح يلوح

وذكر أبو بكر محمد بن دريد أن الهراوة تسمى آوة وبعضهم يسميها الهراوة . وهذا الذى أوردناه ، كاف فيما قصدناه ، وهذا الباب ، بحر عُباب ، كم ألف فيه من كتاب .

---

(١) الطمرة : المستعدة العدو او المستنفرة للوثب من الخيل ، والجرداء : السباقة ، والضجوع على مافى التاج موضع وقيل رحبة لهم ، وقيل الضجوع رملة بعينها معروفة (٢) الجدث محركة : القبر وتقول شر الاحداث ، نزول الاجداث ، والوكاف : المطر المنهل ، والمزن : السحاب الواحدة مزنة ، وسحابة دلوح كثيرة الماء (٣) السهوة الفرس السهلة ، والصبوح بالفتح شرب الغداة

طرف من أخبار مشاهير فرسان العرب

اعلم أن العرب فى الجاهلية لم يزالوا فى كر وفرّ وغارات ومحاربات . أرخصوا نفوسهم فى طلب العز وإشادة المجد وهانت عليهم الحياة دون وصمة تلحقهم ، ومذلة تشينهم ، حتى أصبحوا كلهم فرسانا كماة ، بل ليوث غابات ، وكان قائلهم يقول (وهو النابغة الجعدى) :

وإنا لَقَوْمٌ ما نعوّد خيلنا ... إذا ما التقينا أن تَحيدَ وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوانَ خيلنا ... من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا (١)
وليس بمعروف لنا أن نردها ... صحاحاً ولا مستنكراً أن تعقرا

إلى أن قال :

حَسبنا زماناً كلّ بيضاء شحمةً ... ليالىَ إذ نغزو جُذاماً وحميرا (٢)
إلى أن اقينا الحىّ بكر بن وائل ... ثمانين ألفاً دارعين وحُسّرا (٣)
فلما قرعنا النبعَ بالنبعِ بعضه ... ببعض أبتْ عيدانه أن تكسرا (٤)
سقيناهمُ كأساً سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموت أصبرا

واستيعابهم لا تقوم متونُ الكتب المفصلات ولكننا نذكر طرفا من

---

(١) يوم الروع هو يوم الحرب ، والجون من الابل والخيل الادهم ، والاشقر الاحمر فى مغرة حمرة يحمر منها العرف والذنب ، والمغرة بالضم اون ليس بناصع الحمرة أو شقرة بكدرة ، ومعنى تحيد فى البيت الاول : تتنحى وتبعد

(٢) يقول كنا نطمع فى أمر فوجدناه على خلاف ماكنا نظن وهذا قولهم فى المثل : (ماكل بيضاء شحمة) ومثله (ماكل سوداء تمرة) وجذام بضم الجيم بطن من كهلان من القحطانية وحمير قبيلة من بنى سبأ من القحطانية وهم بنو حمير بن سبأ (٣) الدارع الذى عليه درع ، والحاسر من لا مغفر له ولا درع او لا جنة (٤) النبع شجر صلب تعمل منه القسى ، وقوله عيدانه الضمير فيه عائد الى النبع وقيل عيدانه يعنى القوم الذين حاربوه لأنه شهد لهم بالصبر ، ضرب ذلك مثلا لتكافؤ الفريقين جلادة وصبرا

هذا وقد نسب بعضهم هذا الشعر لأبى الهذيل زفر بن الحرث الكلابى كبير قيس فى زمانه وهو فى الطبقة الاولى من التابعين من أهل الجزيرة وكان من الامراء وشهد وقعة صفين مع معاوية رضى الله عنه أميرا على أهل قنسرين وشهد وقعة مرج راهط تلك الوقعة المشهورة مع الضحاك ابن قيس ، قيل وفيها يقول هذا الشعر ، ومرج راهط بالاضافة موضع بالشام

أخبار بعض من اشتهر منهم بالفروسية ومقاومة الأقران ، وضربت به الأمثال وذكرته الشعراء عند المفاخرة وهم عدد كثيرون . منهم :

ربيعة بن مكدم

وهو من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة وكان يُعْقَرُ على قبره فى الجاهلية ولم يعقر على قبر أحـــدٍ غيره . ومر على قبره حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه(١) فقال :

نَفَرَتْ قَلوصى من حجارةِ حرَّةٍ   بُنِيتْ على طَلْقِ اليدين وَهُوب (٢)

لا تَنْفِرى يا ناقُ منه فإنه   شِرّيبُ خمرٍ مِسْعَرٌ لحرُوب (٣)

لولا السفارُ وطولُ قفرٍ مَهْمَهٍ   لتركتها تحبو على عرقوب

وكان بنو فراس بن كنانة أنجد العرب . كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم وفيهم يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه لأهل الـكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخْيَب أبدلـكم الله بى من هو شر لـكم وأبدلنى بكم من هو خير منـكم ووددت والله أن لى بجميعكم وأنتم مائة ألف . ثلاثمائة من بنى فراس ابن غنم .

هنالك لو دعوت أتاك منهم   فوارسُ منهم ارميةِ الحميم (٤)

---

(١) نسب هذا الشعر فى ديوان مختارات اشعار القبائل الى حفص بن الاخيف الكنانى وقال محمد بن سلام : الصحيح أن هذه الابيات لعمرو بن شقيق احد بنى فهر بن مالك ، ومن الناس من يرويها لكرز بن حفص بن الاخيف العامرى وعمرو بن شقيق اولى بها ، وهذا الشعر قيل فى قتل ربيعة بن مكدم الكنانى احد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمى فى يوم الكديد ، وقبل هذه هذه الابيات قوله :

لايبعدن ربيعة بن مكدم   وسقى الغوادى قبره بذنوب

الغوادى جمع غادية وهى سحابة الصباح ، والذنوب بفتح الذال الداو العظيمة استعير هنا للغيث ، يتفجع على ربيعة ويدعو له بالرحمة والرضان

(٢) نفرت : فزعت ، والقلوص من النوق الشابة ، وقوله من(حجارة حرة) المراد بها قبر ربيعة والحرة ارض ذات حجارة سود (٣) مسعر على وزن منبر آلة فى ايقاد الحرب ، والسفار : السفر ، والمهمه المفازة البعيدة الاطراف ، والحبو المشى على اليدين والبطن ، وعرقوب الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها (٤) الارمية جمع رمى كغنى قطع صغار من السحاب أو سحابة عظيمة القطر والوقع ، والحميم القيظ والمطر الذى يجىء بعد اشتداد الحر

ومنهم :

عنترة العبسى بن شداد

قال الكلبى : شداد جده غلب على اسم أبيه وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد وقال غيره شداد عمه تكفله بعد موت أبيه فنُسب إليه . و يقال إن أباه ادعاه بعد الكبر وذلك أنه كان لأمة سوداء يقال لها (ز بيبة) وكانت العرب فى الجاهلية إذا كان لأحدهم ولد من أمة استعبده وكان لعنترة إخوة من أمه عبيد وكان سبب ادعاء أبى عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بنى عبس فأصابوا منهم فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم وفيهم عنترة فقال له أبوه كرّ ياعنترة فقال : « العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصرّ » قال كرّ وأنت حر فقاتلهم واستنقذ مافى أيدى القوم من الغنيمة فادعاه أبوه بعد ذلك وهو أحد (أغربة العرب) وهم ثلاثة . والثانى خُفاف كغراب واسم أمه نَدْبة كتمرة . والثالث السُلَيْك بالتصغير واسم أمه السُلَكة بضم ففتح وأم الثلاثة سود . وكان عنترة أشجع أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده وكان شهد حرب (داحس) و (الغبراء) وحمدت مشاهده فيها وقتل فيها ضمضما المرى أبا الحصين بن ضمضم وأبا أخيه هرم ولذلك قال فى معلقته :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ   للحرب دائرةٌ على ابنَىْ ضَمضمِ (١)
الشاتِمَىْ عِرْضى ولم أشتمهما   والناذِرَيْنِ إذا لم ألقَهُما دمى
إنْ يفعلا فلقد تركتُ أباهما   جزرَ السباع وكلّ نسْرٍ قَشْعمِ (٢)

وهذا آخر المعلقة قال أبو عبيدة : إن عنترة بعد ما أوت عبس إلى غَطَفان بعد يوم جبلة وحمل الدماء احتاج وكان صاحب غارات فكبر وعجز عنها . وكان

(١) الدائرة اسم للحادثة سميت بها لأنها تدور من خير الى شر ومن شر الى خير ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة (٢) النسر القشعم : الكبير المسن ، يقول ان يشتمانى لم يستغرب منهما ذلك فانى قتلت اباهما وصيرته جزر السباع وكل نسر كبير مسن

له يد على رجل من غَطَفان فخرج يتجازاه فمات فى الطريق . ونقل عن أبى عبيدة أيضاً : أن طيئاً تدعى قتلَ عنترة ويزعمون أن الذى قتله (الأسد الرهيص) وهو القائل .

أنا (الأسدالرهيص) قتلت (عمراً) و (عنترةَ الفوارس) قد قتلتُ

والله أعلم والعنتر فى اللغة الذباب الأزرق الواحد عنترة ونونه ليست بزائدة ومنهم

ملاعب الأسنة

وهو عامر بن مالك وسمى ملاعب الأسنة بقول أوس بن حجر[(١)] :

ولاعب أطرافَ الأسنة عامرٌ فراحَ له حظُّ الكتيبة أجمع[(٢)]

قال ابن قتيبة : وملاعب الأسنة عم لبيد انتهى . وكان أخذ أربعين مرباعا[(٣)] فى الجاهلية وهو من الفرسان الذين يضرب بهم المثل فى الشجاعة والإقدام . ومنهم :

زيد الخيل

هو كما قال صاحب الاستيعاب زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب الطائى . قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وفد طيء سنة تسع فأسلم وسماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (زيدَ الخير) وقال له ما وصف لى أحد فى الجاهلية فرأيته فى الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرَك وأقطع له أرضين فى ناحيته . يكنى (أبا مكنف) وكان له ابنان مكنف وحريث وقيل حارث أسلما وصحبا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . وكان زيد الخيل شاعراً محسناً خطيباً لسناً شجاعاً بُهْمَةً[(٤)] كريماً . وكان بينه وبين كعب

---

(١) حجر بفتحتين (٢) الكتيبة : الطائفة من الجيش مجتمعة والجمع كتائب (٣) مرباع ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ثم صار خمسا فى الاسلام (٤) الشجاع لايهتدى من اين يؤتى

ابن زهير هجاء لأن كعباً اتهمه بأخذ فرس له . مات زيد الخيل منصرَفهُ من عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محموماً فلما وصل إلى بلده مات . وكان قبل إسلامه قد أسر عامر بن الطفيل وجز ناصيته . هذا ما أورده صاحب الاستيعاب . وقيل له زيدالخيل لخمسة أفراس كانت له . وكان طويلاجسيما موصوفاً بطول الجسم وحسن القامة وكان يركب الفرس العظيم الطويل فتخطّ رجلاه في الأرض كأنه راكبٌ حماراً . وهو القائل :—

تمنى مِزْيَدٌ زيد فلاقى أخا ثقةٍ إذا اختلف العوالى[1]
كمنيةِ جابرٍ إذ قال : ليتى أصادفه وأتلف بعض مالى[2]
تلاقينا فما كنا سواء ولكن خرّ عن حالٍ لحالِ[3]
ولولا قولهُ يا زيد قَدْنى لقد قامت نويرة بالمـآلى[4]
شككت ثيابه لما التقينا بمطرد المهزة كالخلال[5]

ومزيد رجل من بنى أسد كان يتمنى أن يلقى زيدالخيل فلقيه زيد الخيل فطعنه فهرب منه . وجابر رجل من غطفان تمنى أن يلقى زيداً حتى صبحه زيد . فقالت له امرأته كنت تتمنى زيداً فعندك فالتقيا فاختلفا طعنتين وهما دارعان فاندق رمح جابر ولم يغن شيئاً وطعنه زيد برمح له كان على كعب من كعابه ضبةٌ من حديد فانقلب ظهراً لبطن وانكسر ظهره . فقالت امرأته وهى ترفعه منكسراً ظهره

---

(١) قوله اخاثقة أى صاحب ونوق بشجاعته وصبره فى الحرب ؛ والعوالى جمع عالية والعالية من الرمح مايلى الموضع الذى يركب فيه السنان يعنى وقت اخلاف الرماح ومجيئها او ذهابها الطعان (٢) المنية بالضم اسم للتمنى وفى الاصل الشيء الذى يتمنى ويستشهد النحويون بهذا البيت على ان حذف نون الوقاية من ليتنى شاذ خاص بالضرورة وظاهر الخلاصة انه نادر ، قال : وليتنى فشا وليتى ندرا . ولا يخفى أن النادر والشاذ بينهما فرق .

(٣) قوله خر اى سقط و (حال) الأول ظهر الفرس والثانى بمعنى فى الحال اى سقط من حاله (٤) نويرة اسم امراة جابر ، والمآلى جمع مئلاة وهى الخرقة النى تكون مع النائحة تأخذ بها الدمع أى لولا ذلك لقتله

(٥) شككته بالرمح : طعنته ، والخلال : عود يجعل فى اسان الفصيل لئلا يرضع ، والخلال العود الذى يخل به الثوب اى يثقب

« كنت تتمنى زيداً فلاقيت أخاثقة » ومعنى البيتين : أن مزيداً تمنى أن يلقى زيداً كما تمنى جابر ، وكلاهما لقى منه ما يكره . ومنهم :

عامر بن الطفيل

واسم جده مالك بن كلاب العامرى وهو ابن عم لبيد الصحابىّ ، وكنية عامرٍ فى الحرب أبو عقيل ، وفى السلم أبو على ، وكان أصيبت إحدى عينيه فى بعض الحروب . قال ابن الأنبارى فى شرح المفضليات : كان عامرٌ من أشهر فرسان العرب بأساً ونجدةً وأبعدها اسماً حتى بلغ أن قيصرَ كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك و بين عامر بن الطفيل ؟ فإن ذكر نسباً عظم عنده حتى وفد عليه علقمة بن علاثة فانتسب له فقال ابن عم عامر بن الطفيل فغضب علقمة . وكان ذلك مما أوغر صدره[1] وهيجه إلى أن دعاه إلى المنافرة . وكان عمر بن معد يكرب وهو فارس اليمن يقول : ما أبالى أىّ ظعينة لقيت على ماء من من أمواهِ معدٍّ مالم يلقنى دونها عبداها أو حراها . و يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعىّ ، وعنى بالعبدين عنترة العبسى والسُّلَيْك ابن السلكة . قال الأشرم : و يقال كانت المنافرة أن علقمة بن علاثة شرب الخمر فضرب به عمر الحد فلحق بالروم فارتد ، فلما دخل على ملك الروم قال : انتسب فانتسب له علقمة . فقال : أنت ابن عم عامر بن الطفيل ؟ فقال ألا أرانى لا أعرف ههنا إلّا بعامر فغضب فرجع فأسلم وتقدم[2] بيان المنافرة عند الكلام على المفاخرات . ولما قدمت وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسعٍ من الهجرة قدم وفد بنى عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس أخو لبيد الصحابى لأمه وكانا رئيسى القوم ومن شياطينهم ، فقدم عامر بن الطفيل عدوّ الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد الغدر به وقد قال له

---

(١) اى ملأه غيظا (٢) انظر الجزء الأول ص ٢٧٨ .

قومه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى عن تتبع العرب عقبي فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش . ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل وإنى شاغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف فلما قَدِما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به فجعل أربد لا يحير شيئاً ، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال له عامر أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى وليّ الأرض بعدك فأسلم فأبى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فانصرف عامر وقال : أما والله لأملأنَّها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم اكفنى عامر بن الطفيل ، فلما خرجا من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال عامر لأربد : ويلك يا أربدُ أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوفَ عندى عليّ منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً . قال : لا أباً لك لا تعجل عليّ والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلتَ بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف وخرجا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سَلول فجعل يقول : يا بنى عامر أغدة كغدة البَكْر(١) فى بيت امرأة من بنى سَلول ثم خرج أصحابه حين واروه التراب حتى قدموا أرض بنى عامر فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما . وقد أشار إلى ذلك أخوه لأمه لبيد العامريّ بقوله يرثيه :

أخشى على (أربد) الحتوف ولا أرهبُ نوء السِّماكِ والأسدِ(٢)

---

(١) الغدة لحم يحدث من داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك والغدة للبعير كالطاعون للانسان واغد البعير صار ذا غدة والبكر : الفتى من الابل .

(٢) الحتوف جمع حتف وهو الموت ، والنوء : المطر ، والسماك : الأعزل . والرامح نجمان نيران ، والأسد : احد البروج الاثنى عشر .

فجعنى البرق والصواعق بالفا رس يوم الـكريهة النجد[1]

وروى ابن الأنبارىّ فى شرح المفضليات : لما مات عامر نصبت بنو عامر نصاباً ميلا فى ميل حِمًى على قبره لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلـكه راكب ولا ماش . وكان جبار بن سلمى بن عامر بن مالك غائباً فلما قدم قال : ما هذه الأنصاب ؟ قالوا . نصبناها حمى على قبر عامر . فقال : « ضيقتم على أبى علىّ إن أبا على بانَ من الناس بثلاث كان لا يعطش حتى يعطش الجمل وكان لا يضل حتى يضل النجم وكان لا يجبن حتى يجبن السيل » . ولعامر وقائع فى مَذْحِج وخثعم وغَطَفَان وسائر العرب ، ومنهم :

عمرو بن معد يكرب

ينتهى نسبه إلى كهلان بن سبأ ، ومعدى اشتقاقه مثل اشتقاق معدان و يزيد عليه بأنه يجوز أن يكون من العدوان ، وكرب يجوز أن يكون من الـكرب الذى هو أشد الغم ومن كرب فى معنى قارب أو من أكربت الدلو إذا شـددتها بالـكرب وهو الحبل الذى يشد على العَرَاقى . قال ابن جنى : فسره ثعلب أنه عداه الـكرب أى تجاوزه وانصرف عنه . وكنية عمرو أبو ثور وهو الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام . قال فى الاستيعاب . وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم فى سنة تسع . وقال الواقدى : فى سنة عشر . فى وفد ز بيد فأسـلم انتهى . وأقام مدة فى المدينـة ثم رجع إلى قومه وأقام فيهم سامعاً مطيعاً وعليهم فروة ابن مسيك فلما توفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ارتد . قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات : ارتد مع الأسود العنسىّ فسار إليه خالد بن سعيـد فقاتله فضرب به خالد على عاتقه فانهزم وأخذ خالد سيفه فلما رأى عمرو الأمداد من أبى بكرٍ أسـلم ودخل على المهاجر بن أبى أمية بغير أمان فأوثقه و بعث به إلى أبى بكر

---

(١) يوم الكريهة : يوم الحرب .

فقال له أبو بكر : أما تستحيي كل يوم مهزوماً أو مأسوراً لو عززت هذا الدين لرفعك الله تعالى . قال : لا جرم لأقبلن ولا أعود فأطلقه وعاد إلى قومه ثم عاد إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك انتهى . وله فى اليرموك بلاء حسن وقد ذهبت فيه إحدى عينيه ثم بعثه عمر إلى العراق وله فى القادسية أيضاً بلاء حسن وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف فانهزمت الأعاجم وكان سبب الفتح ومات سنة إحدى وعشرين من الهجرة . وفى كيفية موته خلاف : قيل مات عطشاً يوم القادسية ، وقيل قتل فيه ، وقيل بل مات فى وقعة نهاوند بعد الفتح ، وقيل غير ذلك ، وعمره يومئـذ مائة وعشرون سنة وقيل مائة وخمسون ولم يذكره السجستانى فى المُعَمَّرِين . روى أن رجلا رآه وهو على فرسه فقال : لأنظر مابقى من قوة أبى ثور فأدخل يده بين ساقه وجنب الفرس ففطن لهـا عمرو فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس ولا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال له : يا ابن أخى مالك ؟ قال . يدى تحت ساقك ، فخَلَّى عنه وقال له : إن فى عمك بقية ؛ وعمرو بن معد يكرب هو القائل .

ولما رأيت الخيل زُوراً كأنها ... جداول زُرع أرسلت فاسبطرَّت

فجاشت إلىَّ النفسُ أول مرةٍ ... فردَّتْ على مكروهها فاستقرتِ

عـلامَ تقول الرمحُ يُثْقِلُ عاتقى ... إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرَّتِ[١]

لحا الله جَرْماً كلما ذَرَّ شارق ... وجوهَ كلاب هارشتْ فازبأرَّتِ[٢]

فلم تغن جَرْمَ نهـدها إذ تلاقيا ... ولـكن جَرْماً فى اللقاء ابذعرَّتِ[٣]

ظَلَلْتُ كأنى للرِّماح دريئـةٌ ... أُقاتل عن أبناء جَرْم وفرَّتِ[٤]

---

(١) شرح المؤلف البيتين الأولين فكفانا مؤنتهما . ولنأخذ بشرح ابيات الباقية العاتق : موضع الرداء من المنكب ، أو هو ما بين المنكب والعنـق . وكرت الخيل : عطفت .

(٢) لحاه الله : اى قبحه ، وجرم : قبيلة . وذرت الشمس : بدا قرنها اول الطلوع . والشارق : الشمس . ووجوه كلاب : نصب على الذم . والمهارشة: المواثبة وازبأرت : تهيأت للقتال .

(٣) نهد : قبيلة ومعنى « ابذعرت تفرقت . (٤) دريئة : اى عرضة .

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم   نطقتُ ولـكنَّ الرماحَ أجَرَّتِ[1]

وقصة هـذه الأبيات هو ما حكاه المفضل الطبرسى فى شرح الحماسة أن جرماً ونهداً وهما قبيلتان من قضاعة كانتا من بنى الحرث بن كعب فقتلت جرم رجلا من أشراف بنى الحرث فارتحلت عنهم وتحولت فى بنى زبيد فخرجت بنو الحرث ففرت جرم واعتلت بأنها كرهت دماء نهد فهزمت يومئذ بنو زبيد فقال عمرو هذه الأبيات يلومها ثم غزاهم بعد فانتصف منهم . فقوله زوراً هو جمع أزور وهو المعوج الزَّوْر بالفتح أى الصدر يقول لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن وقد خلوا أعنة دوابهم وأرسلوها علينا كأنها أنهار زرع أرسلت مياهها فاسبطرت أى امتدت والتشبيه وقع على جرى الماء فى الأنهار لا على الأنهار فكأنه شـبه امتداد الخيل فى انحرافها عنـد الطعن بامتداد الماء فى الأنهار وهو يطرد ملتوياً ومضطرباً وهذا تشبيه بديع . وقوله فجاشت الخ جاشت ارتفعت من فزع وهذا ليس لـكونه جباناً بل هذا بيان حال النفس ونفس الجبان والشجاع سواء فيما يدهمهما عند الوهلة الأولى ثم يختلفان فالجبان يركب نفرته والشجاع يدفعها فيثبت قال أبو عبيدة قال عبد الملك بن مروان وجدت فرسان العرب ستة نفر ثلاثة منهم جزعوا من الموت عند اللقاء ثم صبروا وثلاثة لم يجزعوا . قال عمرو :

فجاشت إلىَّ النفس أول مرة   فردت على مكروهها فاستقرَّت

وقال ابن الأطنابة :

وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانَكِ تُحمدى أو تستريحى[2]

---

(١) اجرت من الاجرار وهو شق لسان الفصيل لئلا يرضع أمه ويجعل فيه عويد ، يقول لو أنهم ابلوا فى الحرب بلاء حسنا لمدحتهم وذكرت بلاءهم ولكنهم قصروا فاجروا لسانى فما أنطق بمدحهم والافتخار بهم (٢) يستشهد فى النحو بهذا البيت على أن العرب جزمت بعد الظرف — يعنى الواقع اسم فعل وهذا معنى بيت الخلاصة :

والامر ان كان بغير افعل فلا   تنصب جوابه وجزمه اقبلا

قال فى التصريح : فجزم (تحمدى) فى جواب اسم الفعل وهو مكانك فانه فى معنى اثبتى ، وقولى مصدر مبتدأ خبره مكانك تحمدى على حد قولى

وقال عنترة :

إن يتقون بى الأسنة لم أخم　　عنها ولكنى تضايق مقدمى[١]

فأخبر هؤلاء الثلاثة أنهم هابوا ثم أقدموا وقال عامر بن الطفيل : —

أقول لنفس ما أريد بقاءها　　أقلى المراحم إننى غير مدبر (؟)

وقال قيس بن الخطيم :

وإنى فى الحرب الضروس موكل　　بإقدام نفس ما أريد بقاءها[٢]

وقال العباس بن مرداس :

أشدُّ على الكتيبة لا أبالى　　أحتفى كان فيها أم سواها[٣]

فأخبر هؤلاء أنهم لم يجزعوا . وشرح الأبيات يطول . وربما عد فى مثل هذا المقام من الفضول . ومنهم :

دريد بن الصمة

روى أبو بكر بن دريد عن أبى عبيدة قال : خرج دريد بن الصمة فى فوارس من بنى جُشَم حتى إذا كانوا فى واد لبنى كنانة يقال له الأخرم — وهم يريدون الغارة على بنى كنانة . رُفع لهم رجل فى ناحية الوادى ومعه ظعينة[٤] ، فلما رآه قال لفارس من أصحابه صِح به « خلّ الظعينة وانجُ أنت بنفسك وهم لا يعرفونه »

لا اله الا الله ، وجشأت : ارتفعت وجاشت غنت من الغثيان ، وقوله مبتدا الاظهر انه عطف بيان على وضربى فى البيت الذى قبله :

أبت لى عفتى وابى ابائى　　واخذى الحمد بالثمن الربيح
واجشامى على المكروه نفسى　　وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدى أو تستريحى
لادفع عن مآثرى صالحات　　واحمى بعد عن عرض صحيح

يقال ان معاوية رضى الله عنه يوم صفين هم بالفرار فما منعه الا هذه الابيات

(١) الاتقاء : الحجز بين الشيئين تقول اتقيت العدو بترسى اى جعلت الترس حاجزا بينى وبين العدو ، والخيم : الجبن ، والمقدم : موضع الاقدام

(٢) الضروس : الشديدة ، وفلان موكل بكذا ملازم له ومقبل عليه .

(٣) الشدة بالفتح : الحملة فى الحرب ، والكتيبة : الطائفة من الجيش مجتمعة ، والحتف : الهلاك (٤) قال الفيومى : ويقال المرأة ظعينة فعيلة بمعنى مفعولة لان زوجها يظعن بها ويقال الظعينة الهودج وسواء كان فيه

فانتهى إليه الفارس فصاح به وألح عليه . فلما رأى إباءه ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة : —

سِيرى على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ   سيْرَ رَداحٍ ذات جأشٍ ساكنِ (١)
إن انثنائى دون قرنى شائنى   أبلى بلائى واخْبُرِى وعاينى (٢)

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه الظعينة ، فبعث دريدٌ فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ، فلما انتهى إليه ورآه صريعاً صاح به فتصامم عنه فظن أنه لم يسمع فغشيَهُ فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة ثم رجع وهو يقول :

خَلِّ سبيل الحرة المنيعة   إنك لاقٍ دونَها ربيعة
فى كفه خَطّية مطيعة   أو، لا . فخذها طعنةً سريعة
فالطعنُ منى فى الوَغَى شريعة (٣)

ثم حمل فصرعه ، فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنعا . فلما انتهى إليهما رآهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خلِّ سبيل الظعينة . فقال للظعينة اقْصِدى قَصْدَ البيوت ثم أقبل عليه يقول : —

ماذا تريد من شَتِيمٍ عابس   ألم تر الفارسَ بعد الفارسِ ؟
أرادهما عاملُ رمحٍ يابسِ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه . وارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق ربيعة وقد دنا من الحى ووجد أصحابه قد قتلوا . فقال أيها الرجل : إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً والخيلُ ثائرة بأصحابها فدونَكَ هــذا الرمحَ فإنى منصرف إلى أصحابى فَمُثَبِّطهم (٤) عنك ! فانصرف

امراة ام لا والجمع ظعائن وظعن بضمتين ويقال الظعينة فى الاصــل وصف للمراة فى هودجها ثم سميت بهذا الاسم وان كانت فى بيتها لانها تصير مظعونة

(١) قوله على رسلك بالكسر أى على هينتك ، والرداح : الثقيلة الاوراك .

(٢) القرن وزان حمل من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك .

(٣) الخطية : الرمح المنسوب الى خط اسم أرض وقــد مر تفسيرها . والوغى مقصور : الجلبة والاصوات ومنه وغى الحــرب ، وقال ابن جنى : الوعى بالمهملة الصوت والجلبة ، وبالمعجمة الحرب نفسها ، والشريعة : الدبن

(٤) ثبطه عن الامر عوقه وبطأ به عنه كثبطه فيهما .

دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع رمحى ولا مَطْمَعَ لكم فيه فانصرفوا فانصرف القوم . فقال دريد فى ذلك : —

ما إنْ رأيت ولا سمعتُ بمثله ... حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل

أردى فوارسَ لم يكونوا نُهزةً ... ثم استمرّ كأنه لم يفعَلِ (١)

مُتَهللاً تبدو أسرة وجهه ... مثلَ الحسامِ جَلَتْه كفُّ الصَيْقَل (٢)

يزْجِى ظعينتَهُ ويسحَبُ ذيلَهُ ... متوجهاً يُمناه نحوَ المنزلِ (٣)

وتَرى الفوارسَ من مخافة رمحه ... مثلَ البغاثِ خَشِينَ وَقْعَ الأجدل (٤)

يا ليتَ شعرى من أبوه وأمه ... يا صاح من يكُ مثلهُ لم يُجْهل

وقال ربيعة :

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائلى ... عنى الظعينةَ يومَ وادى الأخرمِ

إذْ هِى لأول من أتاها نُهْبةٌ ... لولا طعانُ ربيعةَ بن مكدَّمِ

إذ قال لى أدنى الفوارس ميتةً ... خلِّ الظعينة طائعاً لا تندم

فصرفت راحلة الظعينة نحوه ... عمداً ليعلمَ بعضَ ما لم يعلَمِ

وهتكتُ بالرمح الطويل إهابَهُ ... فهوى صريعاً لليدَيْن وللفم (٥)

ومنحت آخَرَ بعده جَيّاشةً ... نجلاء فاغرةً كشِدْق الأضجم (٦)

ولقد شفعتهما بآخَرَ ثالثٍ ... وأبى الفرارَ لىَ الغداةَ تكرمى

ثم لم تلبث بنو كنانة أن أغارتْ على بنى جشَم فقتلوا وأسروا دريدَ بن

---

(١) النهزة بالضم الفرصة تجدها من صاحبك ويقال فلان نهزة المختلس أى هو صيد لكل أحد (٢) تهلل الوجه : تلألأ ، والاسرة جمع سر وهو خط الوجه والجبهة ، والحسام : السيف القاطع أو طرفه الذى يضرب به ، والصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها (٣) قوله يزجى أى يسوق سوقا رفيقا ، راجع معنى الظعينة التى مر تفسيرها قريبا (٤) البغاث من الطير ما لا يصيد ولا يرغب فى صيده لانه لا يؤكل ، والاجدل : الصقر (٥) يقال هتك الستر وغيره يهتكه فانهتك وتهنك جذبه فقطعه من موضعه او شق منه جزا فبدا ما وراءه ، والاهاب ككتاب الجلد (٦) النجلاء : الطعنة الواسعة ، والفاغرة : الفاتحة ، والسدق : جانب الفم ، والضجم : عوج فى الفم وميل فى الشدق ، وقد يكون عوجا فى الشفة والذقن والعنق .

الصمة فأخفى نفسه فبينا هو عندهم محبوس إذ جاءه نسوة يتهادَيْنَ إليه فصرخَت إحداهن فقالت هلكتم وأهلكتم ماذا جرّ علينا قومنا هذا والله الذى أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة ، ثم ألقت عليه ثوبها وقالت يالفراسِ أنا جارةٌ له منكم هذا صاحبنا يوم الوادى فسألوه من هو ؟ فقال : أنا دريد بن الصمة . فمن صاحبي ؟ قال : ربيعة ابن مكدم . قال : وما فعل ؟ قال : قتلته بنو سُلَيم . قال : فما فعلت الظعينة ؟ قالت المرأة أناهِيَهْ وأنا امرأته فحبسه القوم وأمروا أنفسهم ، فقال بعضهم لا ينبغى لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا . وقال آخرون والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى الْمُخارق الذى أسره فانبعثت المرأة فى الليل — وهى رَيْطة بنت جِذل الطعان — تقول :

سَنَجزى دُرَيْداً عن ربيعةَ نعمةً	وكلُّ امرىء يجزى بما كان قدما
فإن كان خيراً كان خيراً جزاءه	وإن كان شراً كان شراً مُذَمَّما
سنجزيه نُعمى لم تكن بصغيرةٍ	بإعطائه الرمحَ الطويلَ المقوَّما
فقد أدركت كفاه فينا جزاءه	وأهلٌ بأن يجزى الذى كان أنعَما
فلا تكفرُوه حق نُعماه فيكمُ	ولا تركبوا تلك التى تملأُ الفما
فلو كان حياً لم يَضِقْ بثوابه	ذراعاً غنيًّا كان أوْ كان مُعدِما
ففكوا دريداً من إسار مُخارقٍ	ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَّما

فلما أصبحوا أطلقوه فكسته وجهزته ولحق بقومه ، فلم يزل كافًّا عن غزو بنى فراس حتى هلك . ومنهم :

زيد الفوارس

وهو ابن حصين بن ضرار الضبى وهو جاهلى وذكره الآمدى فى (المؤتلف والمختلف) ولم يرفع نسبه ولا ذكر له شيئاً من شعره . وهذه نسبته من جمهرة ابن الكلبى : زيد الفوارس بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب ابن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . كان من أشهر الفرسان وطالت رياسته ،

وشهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه وزيد الفوارس كان فارسهم ، ولهذا قيل له زيد الفوارس وهو القائل :

دلهتِ إن لم تسألى أىّ امرىء ... بلوى النقيعة إذ رجالك غُيّبُ (١)
إذ جاء يوم ضوؤه كظلامه ... بادى الكواكب مقمطرٌ أشهب (٢)
عوذ وبُهثَةُ حاشدون عليهمُ ... حَلَق الحديد مضاعفاً يتلهّبُ
ولَوْا تكبهم الرماح كأنهم ... أثل جافتَ أصوله أو أثأب (٣)
لو غدوة حتى أغاث شريدهم ... جو العشاوة فالعيون فزُنقبُ
فتركت زراً فى الغبار كأنه ... بشقيقتى قدمية متلبب (٤)

قال أبو محمد الأعرابى كان سبب هذه الأبيات إنه أغار زر بن ثعلبة أحد بنى عوذ بن غالب بن قطيعة بن عَبْس فى بنى عبس وعبد الله بن غطفان فأصابوا نعماً لبنى بكر بن سعد بن ضبة فطردوها ، فأتاهم الصريخ ورئيسهم يومئذ زيد الفوارس حتى أدركوهم بالنقيعة تحت الليل فقتلوا زراً والجند بن تيجان من بنى مخزوم وابن أزنم من بنى عبد الله بن غطفان . فقال زيد الفوارس هذه الأبيات فى ذلك ومنهم :

أمية بن حرثان الكنانى

وينتهى نسبه إلى مضر وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة وابنه كلاب بن أمية أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم مع أبيه ثم هاجر إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وروى صاحب الأغانى بسنده إلى الزهرى عن عروة بن الزبير قال : —

---

(١) دلهه العشق والهم : حيره وأذهبه ودلهت المراة على ولدها تدليها اذا فقدته (٢) المقمطر الشديد العبوسة (٣) الاثل : شجر وهو نوع من الطرفاء ، الاثاب : شجر ينبت فى بطون الاودية بالبادية وهو على ضرب التين ينبت ناعما كأنه على شاطىء نهر وهو بعيد من الماء . وجاف الشجرة : قلعها من أصلها (٤) القدمية محركة ضرب من الادم ، والمتلبب المتحزم بالسلاح وغيره وكل مجمع لثيابه متلبب .

هاجر كلاب بن أمية بن الأسكر إلى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأقام بها مدة ثم لقى ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما أى الأعمال أفضل فى الإسلام ؟ فقال الجهاد فسأل عمر فأغزاه فى جيش وكان أبوه قد كبر وضعف فلما طالت غيبة كلاب عنه قال :

لِمَن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض فى إباء ... فلا وأبى كلاب ما أصابا
إذا سجعت حمامة بطن وجّ ... إلى بيضاتها دَعوا كلابا[1]
أتاه مهاجران تكنّفاه ... ففارق شيخه خطأ وخابا
تركت أباك مرعشةً يداه ... وأمك لا تسيغ لها شرابا[2]
تمسح مُهره شفقاً عليه ... وتجنبه أباعرها الصعابا[3]
فإنك وابتغاء الأجر بعدى ... كباغى الماء يتّبع السَرابا[4]

فبلغت عمر رضى الله تعالى عنه فلم يردد كلاباً فاهتز أمية وخلط جزعاً عليه ثم أتاه يوماً وهو فى مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه وأنشأ يقول : —

أعاذلَ قد عذلتِ بغير علمٍ ... وما تدرينَ عاذلَ ما ألاقى
فإما كنتِ عاذلتى فردى ... كلاباً إذ توجه للعراق
ولم أقضِ اللبانةَ من كلابٍ ... غداةَ غدٍ وآذنَ بالفراق[5]
فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديد الركنِ فى يوم التلاقى
فلا وأبيكَ ما باليت وجدى ... ولا شغفى عليك ولا اشتياقى

---

(١) سجعت الحمامة سجعا : هدرت وصوتت ، ووج اسم واد بالطائف .
(٢) قوله لا تسيغ يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا سهل مدخله واسغته اساغة جعلته سائغا ويتعدى بنفسه فى اللغة وقوله تعالى ولا يكاد يسيغه اى يتبلعه ، وقوله فى البيت المتقدم (تكنفاه) اى احاطا به (٣) المهر : ولد الخيل ، والاباعر : الصعاب التى تركت ولم تركب (٤) السراب ما تراه نصف النهار كانه ماء وفى التنزيل (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) (٥) اللبانة بالضم : الحاجة ، وآذنه الامر وبه اعلمه .

وإبقائى عليك إذا شتونا ... وضمك تحت نحرى واعتناق

فلو فلق الفؤاد شديدُ وجد ... لهمَّ سواد قلبى بانفلاق

سأستعدى على الفاروق ربّاً ... له رفع الحجيج إلى بُساق[١]

وأدعو الله مجتهداً عليه ... ببطن الأخشبَيْن إلى دُفاق[٢]

إنِ الفاروقُ لم يردد كلاباً ... إلى شيخين هامهما زواق[٣]

قال فبكى عمر بكاءً شديداً وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بالكوفة يأمره بإقفال كلاب بن أمية إلى المدينة فلما دخل عليه قال له : ما بلغ من برّك بأبيك قال : كنت أكفيه أمره وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً أغزرَ ناقة فى إبله وأسمنها فأريحها فأتركها حتى تستقر ثم أغسل أخلافها[٤] حتى تبرد ثم أحلب له فأسقيه . فبعث عمر إلى أمية فجاء يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى فقال له : وكيف أنت يا أبا كلاب ؟ فقال : كما ترى يا أمير المؤمنين . قال : فهل لك من حاجة ؟ قال نعم ، أشتهى أن أرى كلاباً فأشمه شمةً وأضمه ضمة قبل أن أموت فبكى عمر وقال : ستبلغ فى هذا ما تحب إن شاء الله ثم أمر كلاباً أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث إليه بلبنها ففعل فناوله عمر الإناء قال : دونك هذا يا أبا كلاب فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال لعمر : الله ! يا أمير المؤمنين ! إنى لأشم رائحة يَدىْ كلاب من هذا الإناء فبكى عمر ، وقال له : هذا كلاب عندك

---

(١) بساق بالضم ويقال بصاق بالصاد : جبل بعرفات وقيل واد بين المدينة والجار (٢) الاخشبان : جبلا مكة ابو قبيس والاحمر وجبلا منى . ودفاق : واد (٣) الهام جمع هامة وهى الراس والهامة الصدى والبومة وكانت العرب تقول ان عظام الموتى وقيل أرواحهم تصير هامة اى بومة فتطير فنفاه الاسلام ونهاهم عنه (التاج) وقال المسعودى : من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ويزعمون ان هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبدا مستوحش ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وأنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره انتهى ، والزواقى جمع زاق من زقا يزقى زقيا اذا صاح وكل صائح زاق ومنه قيل للديكة الزواقى (٤) جمع خلف وهو من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع .

حاضر قد جئناك به فوثب اليه ابنه فضمه اليه وقبله وجعل عمر يبكى ومن حضره وقال لـكلاب : الزم أبويك ما بقيا ثم شأنك بنفسك بعدها وأمر له بعطائه وصرفه إلى أبيه فلم يزل معه مقيماً حتى مات أبواه . وأمية الـكنانى هو القائل :

ألا سائِلْ هوازنَ يوم لاقوا فوارسَ من كنانة معلمينا[1]

لدى شربٍ وقد جاشوا وجشنا فأَوْعَبَ فى النفير بنو أبينا[2]

ومنهم :

عمرو بن كلثوم

وهو صاحب المعلقة الشهيرة وينتهى نسبه إلى تغلب بن وائل قال أبو عبيد البـكرى فى شرح نوادر القالى : عمرو بن كلثوم شاعر فارس جاهلى وهو أحد فُتّاكِ العرب وهو الذى فتك بعمرو بن هند الملك . وكنيته أبو الأسود وأخوه مرة هو الذى قتل المنذر بن النعمان وأمه أسماء بنت مهلهل بن ربيعة ولما تزوج مهلهلٌ هنداً بنت عتيبة ولدت له جارية فقال لأمها : اقتليها وغيبيها ، فلما نامَ هتف به هاتِفٌ يقول * كم من فتى مؤمّل * وسيدٍ شمرذل[3] * وعددٍ لا يجهل * فى بطن بنت مهلهل * فاستيقظ فقال : أين بنتى ؟ فقالت : قتلتها . فقال : لا وإله ربيعة وكان أول من حلف بهـا ثم رباها وسماها « أسماء » وقيل « ليلى » وتزوجها كلثوم بن مالك . فلـما حملت بعمرو أتاها آتٍ فى المنام فقال : * يالك ليلى من من ولد * يقدم إقدام الأسد * من جشم فيه العدد * أقول قولا لا نفد . فلـما ولدت عمراً أتاها ذلك الآتى فقال :

أنا زعيم لك أم عمرو بماجدِ الجـد كريم النحر

---

(١) قوله معلمينا من اعلم نفسه اذا وسمها بسيما الحرب (٢) قوله جاشوا اى فزعـوا ، واوعب بنو فـلان . جاءوا اجمعين وجاءوا موعبين اذا جمعوا ما استطاعوا من جمع ، وانطلق القوم فاوعبوا اى لم يدعوا منهم احدا، ونفروا الى الشيء اسرعوا اليه ويقال القوم النافرين لحرب او لغيرها نفير تسمية بالمصدر كما فى المصباح (٣) لغة فى الشمرذل وهو الفتى السريع من الابل وغيرها الحسن الخلق .

أشجع من ذى لبد هِزَبْرِ وقّاص أقرانٍ شديد الأَسر[1]
يسودهم فى خمسة وعشر

وكان كما قال سادهم وهو ابن خمس عشرة سنة ومات وهو ابن مائة وخمسين سنة . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : عمرو بن كلثوم جاهلى قديم وهو قاتل عمرو بن هند الملك وكان سبب ذلك أن عمرو بن هند قال ذات يوم : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ قالوا : لانعلمها الا ليلى أم عمرو بن كلثوم . قال : ولِمَ ذلك ؟ قالوا : لأن أباها مهلهلُ بن رَبيعة ، وعمّها كليبُ وائل أعزُّ العرب و بعلها كلثوم بن مالك فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه فأرسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره و يسأله أن يُزِير أمه فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب وأقبلت ليلى فى ظعن من بنى تغلب وأم عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل عمرو بن كلثوم رواقه ودخلت ليلى بنت مهلهل على هند قبتها ، وهند أم عمرو بن هند عمة امرىء القيس الشاعر ، وليلى بنت مهلهل هى بنت أخى فاطمة بنت ربيعة أم امرىء القيس ، فدعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها ثم دعا بالطرف فقالت هند : ياليلى ناولينى ذلك الطَبَق ! فقالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ! فأعادت عليها فلما ألحت صاحت ليلى واذُلاَّه يالتغلب ! ! فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه فقام الى سيف لعمرو بن هند معلقٍ بالرواق وليس هناك سيف غيره فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ! ونادى فى بنى تغلب فانتهبوا جميع مافى الرواق واستاقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة ! وابنه عتاب بن عمرو بن كلثوم قاتل بشر بن عمرو بن عدس ، وأخوه مرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر ولذلك قال الأخطل :

---

(١) ذولبد : كنية الاسد ، والهزبر : الاسد » ووقص عنقه : كسره ، والأسر : شدة الخلق .

أبنى كليبٍ إن عَمَّىَّ اللـذا　　قتلا الملوكَ وفكـكا الأغلال (١)

ومنهم :

الشنفرى الحارثى القحطانى

وكان من الفرسان المذكورين والشعراء المفلقين وهو كما فى الجمهرة وغيرها من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحَجْر بن الهُنْء بن الأزد ، وهو بفتح الشين وآخره ألف مقصورة هو اسمـه الأواس بفتح الهمزة والحجر بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم والهنء بتثليث الهاء وسكون النون و بعدها همزة . وزعم بعضهم أن الشنفرى لقبه ومعناه عظيم الشفة وأن اسمـه ثابت بن جابر ، وهذا غلط كما غلط العينى فى زعمه أن اسمه (عمرو بن بَرّاق) بفتح الباء وتشـديد الراء المهملة بل هما صاحباه فى التلصص . وكان الثلاثة أعدى العـدائين فى العرب لم تلحقهم الخيل ، ولـكن جرى المثل فى الشنفرى فقيل « أعدى من الشنفرى » ومن حديثه ما ذكره أبو عمرو الشيبانى كما نقله ابن الأنبارى فى شرح المفضليات وحمزة الأصبهانى فى الدرة الفاخرة ، قال : أغار تأبط شراً وهو ثابت بن جابر ، والشنفرى الأزدى ، وعمرو بن براق على بجيلة بفتح الباء وكسر الجيم فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم الماء رصداً فلما مالوا له فى جَوْفِ الليل قال لهم تأبط شراً : إن بالماء رصداً وإنى لأسمع وجيبَ قلوبِ القوم أى اضطراب قلوبهم قالوا : والله ما نسمع شيئاً ولا هو إلا قلبك يَجِبُ فوضع يده على قلبه فقال : والله ما يَجِبُ وما كان وجّاباً . قالوا : فلا والله ما لنا بدٌّ من ورود الماء فخرج الشنفرى . فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرب ثم رجع إلى أصحابه فقال والله ما بالمـاء أحد ولقد

(١) البيت من قصيدة له يفتخر فيها بقومه ويهجو جريرا وعنى بعميـه عمرا ومرة ابنى كلثوم وقيل عنى بهما ابن هبيرة التغلبى والهذيل بن عمران الاصغر وقيل غير ذلك وبنو كليب قوم جرير ، والاغلال : القيود واحدها غل ، ومن نسب البيت الى الفرزدق فقد أخطأت اسـته الحفرة لان رواة الاخبار اتفقوا على ان عميه اللذين افتخـر بهما وقال انهما « قتـلا الملوك وفككا الاغلال » على الاختلاف فيهما هما من بنى تغلب وتغلب قوم الاخطل لاقوم الفرزدق .

شربت من الحوض فقال تأبط شراً : بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرب ثم رجع فلم يعرضوا له ، فقال : ليس بالماء أحد . فقال تأبط شراً : بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى . ثم قال للشنفرى : إذا أنا كرعت فى الحوض فإن القوم سيشدون على فيأسروننى فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فَكِنْ[١] فى أصل ذلك القَرْن[٢] فإذا سمعتنى أقول « خذوا خذوا » فتعالَ فأطلقنى . وقال لابن براق : إنى سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك . ثم أقبل تأبط شراً حتى ورد الماء فلما كرع فى الحوض شدُّوا عليه فأخذوه وكتفوه بوتر وطار الشنفرى فأتى حيث أمره وانحاز ابن براق حيث يرونه . فقال تأبط شراً يا بجيلة هل لكم فى خير هل لكم أن تياسرونا لنا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ فقالوا : نعم ويلك يا ابن براق إن الشنفرى قد طار فهو يصطلى نار بنى فلان وقد علمت الذى بيننا و بين أهلك فهل لك أن تستأسر ويياسروننا فى الفداء ؟ فقال : أما والله حتى أروزَ[٣] نفسى شوطاً أو شوطين ، فجعل يعدو فى قُبل[٤] الجبل ثم يرجع ، حتى إذا رأوا أنه قد أعيا وطمعوا فيه اتبعوه . ونادى تأبط شراً « خذوا خذوا » فذهبوا يسعون فى أثره فجعل يطمعهم و يبعد عنهم ورجع الشنفرى إلى تأبط شراً فقطع وثاقه فلما رآه ابن براق قد قطع عنه انطلق وكروا إلى تأبط شراً فإذا هو قائم فقال : أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدونّ لكم عَدْوًا أنسيكموه ثم انطلق هو والشنفرى . انتهى .

« ومن المشهورين » فى العدو السُلَيْك بن السلكة وهو تميمى من بنى سعد والسليك بالتصغير فرخ الحجلة[٥] والأنثى سُلكة بضم السين وفتح اللام وهى

---

(١) قوله كن أى استتر (٢) الاصل اسفل الشىء والقرن : الجبل الصغير أو قطعة تنفرد من الجبل (٣) أى اجرب ، ومن سجعات الاساس « كم رزته روزا ، فلم أر عنده فوزا (٤) القبل من الجبل سفحه (٥) قال فى المصباح الحجل : طير معروف الواحدة حجلة وزان قصب وقصبة وجمعت الواحدة أيضا على حجلى ولا يوجد جمع على فعلى بكسر الفاء الاحجلى وظربى انتهى، ويعرف الآن (بالككلك) بضم فسكون فضم وهى شائعة فى لسان البغداديين واظنها فارسية والله اعلم .

اسم أمه وكانت سوداء وإليها نسب . وذكر أبو عبيدة السليك فى العدائين مع المنتشر بن وهب الباهلى وأوفى بن مطر المازنى . والمثل للسليك من بينهم فقيل « أعدى من السليك » ومن حديثه فيما ذكره أبو عبيدة كما نقله حمزة الأصبهانى فى الدرة الفاخرة : أن السليك رأته طلائع [١] الجيش من بكر بن وائل جاءوا متجردين ليغيروا على بنى تميم ولا يعلم بهم فقالوا : إنْ علم بنا السليك أنذر قومه فبعثوا إليه فارسين على جوادين فلما هايجاه خرج يعدو كأنه ظبيٌ فطارداه يوماً أجمع ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا فيسقط فنأخذه فلما أصبحا وجدا أثره قد عثر بأصل شجرة وقد وثب وانحطمت قوسه فوجدا قطعة منها قد ارتزّت [٢] بالأرض ، فقالا : لعل هذا كان من أول الليل ، ثم فتر فتبعاه فإذا أثره متفاجاً قد بال فى الأرض وخدّها[٣] : فقالا : ما له قاتله الله ! ما أشد متنَهُ ! [٤] والله لا نتبعه ! فانصرفا . ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية وجاء الجيش فأغاروا عليهم .

رجعنا إلى حديث الشنفرى ، روى الأصبهانى فى الأغانى وابن الأنبارى فى شرح المفضليات أن الشنفرى أسرته بنو شَبابة وهم حى من فهم بن عمرو ابن قيس عيلان وهو غلام صغير فلم يزل حتى أسرت بنو سَلامان بن مفرج « بسكون الفاء وآخره جيم » رجلاً من فهم ، ثم أحد بنى شَبابة ففدته بنو شبابة بالشنفرى فكان الشنفرى فى بنى سلامان يظن أنه أحدهم حتى نازعته ابنة الرجل الذى كان فى حجره وقد كان اتخذه ابناً فقال لها : اغسلى رأسى يا أخية فأنكرت أن يكون أخاها فلطمته فذهب مغاضباً إلى الذى هو فى حجره فقال له : أخبرنى من أنا ؟ فقال له : أنت من الأوس بن الحجر . فقال : أما أنى سأقتل منكم مائة رجلٍ بما اعتديتمونى . ثم إن الشنفرى لزم دار فهم وكان

(١) جمع طليعة وهى القوم يبعثون امام الجيش يتعرفون طلع العدو بالكسر اى خبره (٢) اى ثبتت (٣) اى حفرها حفرا مستطيلا (٤) اى ظهره

يغير على بنى سلامان على رجليه فيمن تبعه من فهم وكان يغير عليهم وحده أكثر وما زال يقتل منهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً حتى قعد له فى مكان أسيد بن جابر السلاماني بفتح الهمزة وكسر السين ومع أسيد ابن أخيه وحازم البقمى وكان الشنفرى قتل أخا أسيد بن جابر فمر عليهم الشنفرى فأبصر السواد بالليل فرماه . وكان لا يرى سواداً إلا رماه ، فشك[1] ذراع ابن أخى أسيد إلى عضده فلم يتكلم وكان حازم منبطحاً يرصده فقطع الشنفرى بضربة أصبعين من أصابع حازم حتى لحقه أسيد وابن أخيه فأخذوا سلاح الشنفرى وأسروه وأدوه إلى أهلهم . وقالوا له : أنشدنا . فقال : « إنما النشيد على المسرة » فذهبت مثلاً . ثم ضربوا يده فقطعوها ثم قالوا له حين أرادوا قتله : أين نُقبرك ؟ فقال :

لا تقبرونى إن قبرى محرَّمٌ عليكم ولكن أبشرى أمّ عامرٍ[2]
إذا احتملت رأسى وفى الرأس أكثرى وغُودِر عند الملتقى ثَمّ سائرى[3]
هنالك لا أرجو حياة تسرنى سجيسَ الليالى مبسلاً بالجرائرِ[4]

وكانت حلفة الشنفرى على مائة قتيل من بنى سلامان فبقى عليه منهم رجل إلى أن قتل فمر رجل من بنى سلامان بجمجمته فضربها برجله فعقرته فتم به عدد المائة وذرع خطو الشنفرى يوم قتل فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوةً ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة . وكان حرام ابن جابر أخو أسيد بن جابر المذكور قتل أبا الشنفرى ولما قدم مِنىً وبها حرام ابن جابر قيل للشنفرى هذا قاتل أبيك فشد عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه وقال : —

---

(١) أى طعن (٢) أم عامر كنية الضبع يقول : لا تدفنونى فانه محرم عليكم دفنى بل اتركونى ياكلنى الضبع (٣) اذا ظرف لقوله ابشرى وثم ظرف أيضا بدل من (عند الملتقى) ، والسائر بمعنى الباقى (٤) سجيس الليالى امتدادها ، قال ابن فارس فى كتابه الاتباع والمزاوجة : ولا أفعله سجيس عجيس يريدون الدهر انتهى ، وقال الاصمعى : لا آتيك سجيس عجيس اى الدهر وسجيسه آخره ومنه قيل لماء الكدر سجيس لانه آخر ما يبقى والعجيس تأكيد وهو فى معنى الآخر وروى أبو عمرو سديس عجيس وهى كما قيل للدهر الازلم الجذع ، المبسل والجرائر : الجرائم .

قتلتُ (حراماً) مهدياً بملبدٍ ببطن منًى وسطَ الحجيج المصوِّتِ

فرصد له أسيد بن جابر فأمسكه مع ابن أخيه . وقيل فى سبب قتل الشنفرى غير هذا وهو مسطور فى شرح المفضليات والأغانى . ومنهم :

الحرث بن عباد الربعى

قال أبو رياش فى شرح الحماسة : كان الحرث بن عباد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين . وكان اعتزل حرب بنى وائل وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه وحلّ وتر قوسه ونزع سِنانَ رمحه ولم يزل معتزلاً حتى إذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له نَدّت[1] يطلبها فعرض له مهلهل فى جماعة يطلبون غرة بكر بن وائل فقال لمهلهل امرؤ القيس بن أبان بن كعب بن زهير بن جشم (وكان من أشراف بنى تغلب . وكان على مقدمتهم زمناً طويلا) : لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن منكم كبش لا يسأل عن خاله من هو وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه بالرمح وقتله وقال : بُؤْ بِشِسْع[2] نعل كليب (يقال أبأت فلانا بفلان فباء به إذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء للأول) فبلغ فعل مهلهل عم بجير وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأساً . فقال الحرث نعم القتيلُ قتيل أصلح بين ابنَىْ وائلٍ . فقيل له : إنما قتله بشسع نعل كليب فلم يقبل ذلك . وأرسل الحرث إلى مهلهل : إن كنت قتلت بجيراً بكليب وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك فأرسل إليه مهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب فغضب الحرث ودعا بفرسه . وكانت تسمى (النعامة) فجزّ ناصيتها وهلَبَ[3] ذَنَبَها وهو أول من فعل ذلك بالخيل وقال : —

---

(١) ند البعير : نفر وذهب على وجهه شاردا (٢) قبال النعل .
(٣) هلب ذنب الفرس : جزه .

قَرِّبا مربطَ (النعامة) منى لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حِيالِ
لا بجيرٌ أغنى قتيلا ولا ره طُ كليب تزاجروا عن ضلالِ
لم أكُنْ من جُناتها عَلِمَ اللّٰ هُ وإنى لحرها اليومَ صالى
قرّبا مربط (النعـــامة) منى إنَّ قتلَ الغلامِ بالشِسْع غالى

ولقحت حملت والحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تَحمل وهذا مثل ضرب به لأن الناقة إذا حالت وضربها الفحل كان أسرع للقاحها و إنما يعظم أمر الحرب لما تولد منها من الأمور التى لم تـكن تحتسب) ثم ارتحل الحرث مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل وعليهم يومئذ الحرث بن همام بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة فقال الحرث بن عباد له : إن القوم مستقلّون قومك وذلك زادهم جرآءة عليكم فقاتلهم بالنساء ! قال له الحرث بن همام : وكيف قتال النساء ؟ قال : قلد كلّ امرأة إداوَةً من ماء وأَعْطها هراوةً واجعل جمعهن من ورائـكم فإن ذلـكم يزيدكم اجتهاداً وعلموا بعلامات يعرفنها فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه فأطاعوه . وحلقت بنو بكر يومئذ رؤسها استبسالا للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم و بين نسائهم واقتتل الفرسان قتالا شديداً وانهزمت بنو تغلب ولحقت بالظعن بقية يومها وليلتها واتبعهم سرعان[١] بكر بن وائل وتخلف الحرث بن عبادة . فقال لسعد بن مالك القائل :

يا بؤسَ للحربِ التى وضعت أراهِطَ فاستراحوا[٢]

أتُرانى ممن وضعته ؟ قال : لا ، ولـكن لا مخبأ لعطر بعد عروس . ومعناه إنه لم تنصر قومك الآن فلمن تدخر نصرك . ومنهم :

---

(١) سرعان الناس محركة : أوائلهم ويسكن (٢) قوله يابؤس للحـــرب ، اللام فيه لتأكيد الاضافة اى يابؤس الحرب ووضعت تركت ، والاراهط : جمع رهط : الجماعة من الناس والمعنى أسفا على داهية الحرب التى تركها اراهط فاستراحوا من شدائدها المورثة الشدائد التي بها نيل المكارم وهـــذا البيت مطلع قصيدة سعد بن مالك بن ثعلبة جد طرفة بن العبد ، وهى قوله بعد البيت :

سعد بن مالك

وجدّه ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل قال الآمدى فى المؤتلف والمختلف : كان سعد هذا أحد ساداتِ بكر بن وائل وفرسانها فى الجاهلية وكان شاعراً وله أشعار جياد فى كتاب بنى قيس بن ثعلبة . قال : وشاعر آخر اسمه سعد بن مالك بن الأقيصر القريعىّ أحد بنى قريع بن سَلامان بن مفرج. وكان فارساً شاعراً . ومنهم :

مهلهل بن ربيعة التغلبى

قال الآمدى اسمه امرؤ القيس بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب وهو الشاعر المشهور ويقال اسمه عدىّ انتهى . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : مهلهل بن ربيعة هو عدى بن ربيعة وسمى مُهلهلاً لأنه هلهل الشعر أى أرقّه ، ويقال إنه أول من قصد القصيد ، قال الفرزدق : « ومهلهل الشعراء ذاك الأول » وهو خال امرىء القيس

والحرب لا يبقى لجا حمها التخيل والمراح
الا الفتى الصبار فى النـ جدات والفرس الوقاح
والنثرة الحصداء والبيض المكلل والرماح
وتساقط الاوشاظ والذنبات اذ جهد الفضاح
والكر بعد الفر اذ كره التقدم والنطاح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
فالهم بيضات الخدو د هناك لا النعم المراح
بئس الخلائف بعدنا أولاد يشكرو اللقاح
من صد عن نيرانها فانا ابن قيس لا براح
صبرا بنى قيس لها حتى تريحوا أو تراحوا
ان الموائل خوفها يعتاقه الاجل المتاح
هيهات حال الموت دو ن الفوت وانتضى السلاح
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح
اين الاعزة والاسنة عند ذلك والسماح

ابن حجر صاحب المعلقة انتهى . والصحيح هذا و يدل له أنه ذكر اسمه فى شعره فقال :

ضربَتْ صدرَها إلىّ وقالت يا عدىٌّ لقد وَقَتكَ الأواقى[١]

ولم يقل أحد قبله عشرة أبيات وقال الغزل وعُنِىَ بالنسيب فى شعره و يقال سمى مهلهلا بقوله : « هلهلت أثأرُ مالكا أو صنبلا[٢] » قال ابن سلام : زعمت العرب أنه كان يتكثر و يدعى فى قوله بأكثر من فعله . وكان شعراء الجاهلية فى ربيعة أولهم المهلهل والمرقشان وسعيد بن مالك . والمهلهل أخو كليب الذى هاج بمقتله حرب البسوس وهى حرب بكر وتغلب ابنى وائل . وكان من خبرها ما حكاه ابن عبد ربه فى العقد الفريد والأصبهانى فى الأغانى وقد تداخل كلام كل منهما فى كلام الآخر ؛ قال أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب : لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم عامر وربيعة وكليب وهو عامر ابن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحرث وهو قائد معد يوم البيداء حين تمذحجت مَذْحِج وسارت إلى تهامة وهى أول وقيعة كانت من تهامة واليمن . والثانى ربيعة بن الحرث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كعب وهو قائد معد يوم الميلان وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن . والثالث كليب بن ربيعة وهو الذى يقال فيه (أعز من كليب وائل) وقاد معداً كلها ففض جموع اليمن وهزمهم فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قَسْم المَلِك وتاجه

---

(١) وقتك : حفظتك ، والأواقى جمع واقية وهى مايقى الانسان ويحفظه من الاقدار السابقة اى لقد نجتك المقادير وحفظتك من القتل والمعنى ضربت هذه المراة صدرها اشفاقا على من القتل كذا قال ابن سيده ، قال الفهرى: والصحيح ماقاله غيره من انها ضربت صدرها متعجبة من كيده وقوته وهو من فعل النساء وكان مهلهل قد اسر فى تلك الحروب فنكر امره ولم يعلم بمكانه واخذ منهم ذمة وعهدا على ان لايقتلوه فلما راته هذه وعلمت مااخذ لنفسه من الذمة ضربت صدرها اليه متعجبة من كيده وفوزه ونجاته وقالت لقد وقتك الا واقى اى لقد نجاك الله من امور عظام اشرفتك على الموت

(٢) اوله : « لما توغل فى الكراع هجينهم » ، هذه رواية القاموس ويقال ان الذى فى شعره توعر ، قوله مالكا صوب بعضهم رواية جابر بدل مالك ، والكراع : انف الحرة

وتحيته وطاعته فغبر بذلك حيناً من دهره ثم دخله زَهْوٌ شديد و بغى على قومه ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه وكان يحمى من المرعى مدى صوت كلب فيختص به و يشاركهم فى غيره و يجير على الدهر فلا تخفر ذمته[1] و يقول وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ولا يورد مع إبله أحد ولا توقد نار مع ناره حتى قالت العرب (أعز من كليب وائل) . وكانت بنو جشم و بنو شيبان فى دار واحدة بتهامة وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل ابن شيبان وأخوها جساس بن مرة وكانت لجساس خالة تسمى البسوس بنت منقذ التميمية جاورت ابن أختها جساساً وكان لها ناقة يقال لها (سراب) ولها تقول العرب (أشأم من سراب) وأشأم من البسوس . فمر إبل كليب بسراب وهى معقولة بفناء البسوس فلما رأت سراب الإبل خاخات عقالها وتبعت إبل كليب فاختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض ومعه قوس وكنانة ولما رآها أنكرها فرماها بسهم فى ضرعها فنفرت سراب وولت حتى بركت بفناء صاحبتها وضرعها يشخب[2] دماً ولبناً فبرزت البسوس صارخة يدها على رأسها تصيح واذلاه ! وأنشأت تقول :

لعمرىَ لو أصبحت فى دار منقذٍ   لما ضِيمَ سعدٌ وهو جار لأبياتى

ولكننى أصبحت فى دار غربةٍ   متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى

فيا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحل   فإنك فى قوم عن الجارِ أمواتِ

فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك فبلغ كليباً فظن أنه أراد قتل عُلَيّان وهو فحل كريم له فقال :

(١) يقال خفر بالعهد يخفر من باب ضرب اذا وفى به وخفرت الرجل حميته واجرته من طالبه ، وخفرت بالرجل اخفر من باب ضرب غدرت به ؛ واخفرته بالالف نقضت عهده

(٢) اى يجرى ويسيل

« هيهات دون عليّان خرط القتاد » [١] ثم انتجع الحى [٢] فمروا على نهر يقال له (شبيث) فنهاهم كليب عنه ثم على آخر يقال له (الأحص) فنهاهم عنه حتى نزلوا على السائب فمر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقال : طردت إبلنا عن المياه حتى كدت تقتلها عطشاً . فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون . فقال له جساس : هذا كفعلك بناقة خالتى . قال : أوقد ذكرتها لو وجدتها فى غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل فعطف عليه جساس فطعنه فأزراه ووجد الموت . فقال : ياجساس اسقنى فقال « هيهات تجاوزت شبيثاً والأحص [٣] » وروى أن البسوس لما صرخت وأحمت جساساً ركب فرساً له وتبعه عمرو بن الحرث بن ذهل بن شيبان ومعه رمحه حتى دخلا على كليب الحمى فضربه جساس فقصم صلبه وطعنه عمرو بن الحرث من خلفه فقطع قطَنَه [٤] فوقع كليب يفحص برجله فلما فرغ من قتله جاء إلى أهله وأخبرهم بأنه قتل كليباً ثم هرب وكان همام بن مرة أخا جساس وكان ينادم المهلهل أخا كليب وكان قد صادقه وآخاه وعاهده أن لا يكتم عنه شيئاً فجاءت أمة إليه فأسرت إليه قتل جساس كليباً فقال له مهلهل ما قالت لك ؟ فلم يخبره فذكره العهد فقال : أخبرت أن أخى قتل أخاك فقال أست أخيك أضيق من ذلك فسكت وأقبلا على شرابهما فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن وهمام يشرب شرب الخائف فلم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلا فانسلّ همام فأتى قومه بنى شيبان وقد قوّضوا الخيام وجمعو الخيل والنعم ورحلوا حتى نزلوا بماء يقال له النِهِىّ ولما ظهر قتل كليب وأفاق

---

(١) من أمثال العرب فى الامر دونه مانع قولهم من دون ذلك خرط القتاد لأن شوك القتاد مانع من خرط ورقة وشوك القتاد مضروب به المثل فى الخشونة والشدة كما قال أبو تمام :

بنا خبر كأن القلب أمسى يجربه على شوك القتاد

(٢) انتجع : طلب الكلأ فى موضعه (٣) شبيث ، الاحص : موضع هناك ، وقد مر الجريب فى موضع يقال له دارة شبيث ، الاحص : موضوع هناك ، وقد مر ذكرهما فى الجزء الأول ومعناه ليس حين طلب الماء ، يضرب لمن يطلب شيئا فى غير وقته (٤) بالتحريك وهو مابين الوركين

مهلهل اجتمعت إليه وجوه قومه فاستعد لحرب بكر وترك النساء والغزَل وحرم القمار والشراب وأرسل إلى بنى شيبان وهو فى نادى قومه فقالت الرسل : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بناب[١] من الإبل فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ونحن نعرض عليكم أحد خلالٍ أربع لكم فيها مخرج ولنا مقنع . فقال مرة : ما هى ؟ قالوا : تحيي لنا كليباً أو تدفع إلينا جساساً قاتله نقتله به أو هماماً فإنه كفء له أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه . فقال : أما إحيائى كليباً فهذا ما لا يكون . وأما جساس فإنه غلام طعَن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىّ البلاد احتوت عليه . وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومه فلن يسلموه إلىّ فأدفَعَهُ إليكم ليقتل بجريرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكونَ أولَ قتيلٍ فيها فما أتعجل من الموت ولكن لكم عندى إحدى خَصلتين ؛ أما إحداهما فهؤلاء بنىّ الباقون فعلقوا فى عنق من شئتم نسعة[٢] وانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الخرُوف ، وإلا فألف ناقة سوداء المقلة أقوم لكم بها كفيلاً من بكر بن وائل فغضب القوم وقالوا قد أسأت فى الجواب وسمتنا اللبن من دم كليب ووقعت الحرب بينهم ولحقت زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب النمر بن قاسط فانضمت إليها وصاروا يداً معهم على بكر ولحقت بهم عقيلة بن قاسط واعتزلت قبائل بكر ابن وائل وكرهوا مجامعة بنى شيبان ومساعدتهم على قتل إخوتهم وعظموا قتل جساس كليباً بناب من الإبل فظعنت لجيم عنهم وكفت يشكر عن نصرتهم وانقبض الحرث ابن عباد فى أهل بيته وهو أبو بجير وفارس النعامة قال أبو المنذر : أخبرنى خراش أن أول وقعة على ماء كانت بنو شيبان نازلة عليه ورئيس تغلب المهلهل ورئيس شيبان الحرث بن مرة فكانت الدائرة لتغلب وكانت الشوكة فى شيبان واستحر القتل فيهم إلا أنه لم يقتل فى ذلك اليوم أحد من بنى مرة ثم التقوا

---

(١) الناب : الناقة المسنة (٢) بالكسر سير منسوج

بالذنائب وهو أعظم وقعة كانت لهم فظفرت بنو تغلب وقتلت بكر مقتلة عظيمة . وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وهو جد الحوفزان وهو جد معن بن زائدة ، والحوفزان هو الحرث بن شريك بن عمرو بن قيس ابن شراحيل قتله عتاب بن قيس بن زهير بن جشم وقتل الحرث بن مرة بن ذهل ابن شيبان قتله كعب بن زهير بن جشم وقتل من بنى ذهل بن ثعلبة عمرو بن مندوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة وقتل من بنى تيم الله جميل بن مالك بن تيم الله وعبد الله ابن مالك بن تيم الله وقتل من بنى قيس ابن ثعلبة وكان شيخاً كبيراً فهؤلاء من أصيب من رؤساء بكر يوم الذنائب ثم التقوا بواردات وعلى الناس رؤساؤهم الذين سمينا فظفرت بنو تغلب واستحر القتل فى بنى بكر ، فيومئذ قتل شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة وسيار بن حارث بن سيار ، وفيه قتل همام بن مرة أخو جساس فمر به مهلهل مقتولا فقال له : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز علىّ فقداً منك وقتله ناشرة . وكان همام رباه وكفله كما كان ربى حذيفة بن بدر قرواشاً فقتله يوم الهباءة ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب ثم كان بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك الدائرة فيها لبنى تغلب على بنى بكر . وقال مهلهل يَصِفُ الأيام وبنعاها على بكر فى قصيدة طويلة أولها : —

أليلتَنا بذى حُسُم أنيرى إذا أنتِ انقضيت فلا تَحُورى(١)

---

(١) قال أبو على (ذى حسم) : موضع ، وتحورى : ترجعى ، يقال ماله لاحار الى أهله اى لارجع البهم ويقال نعوذ بالله من الحور بعد الكور اى من النقصان بعد الزيادة والكور مأخوذ من كور العمامة كأنه رجع عما كان احكمه من الخير وشده ومثل من أمثالهم « حور فى محارة » يضرب مثلا للرجل ينقص بعد الزيادة وقال ابو عبيدة الحور الهلكة ، وهاانا ذاكر قصيدة المهلهل برمتها لما فيها من الفوائد التاريخية ولرقتها وجزالة تعبيرها وحسن اسلوبها قال بعد البيت المتقدم :

فان يك بالذنائب طال ليلى فقد ابكى من الليل القصير !
وانقذنى بياض الصبح منها لقد انقذت من شر كبير
كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربع كسير

وقال مهلهل لما أسرف فى القتل

أ كثرت قتلى بنى بكر بربهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد

آليت بالله لا أرضى بقتلهم حتى أبهرج بكراً أينما وجدوا

قال أبو حاتم : أبهرج أدعهم بهرجا لا يقتل فيهم قتيل ولا يؤخذ لهم دية ويقال المبهرج من الدراهم من هذا . وقال أيضاً : يالبـكر أنشروا لى كليباً .(١)

فان الجدى فى مثناة ربق أسـير او بمنزلة الأسـير
كان النجم اذ ولى سحيرا نصال جلن فى يوم مطـير
كواكبها زواحف لاغبـات كان سماءهـا بيدى مدير
كواكب ليلة طالت وغمت فهذا الصبح راغمة فغورى
وتسائلنى بديلة عن ابيهـا ولم تعلم بديلة ماضميرى
فلو نبش المقابر عن كليب فيخبـر بالذنائب اى زير
بيوم الشعثمين لقـر عينا وكيف لقاء من تحت القبور
وانى قـد تركت بواردات بجيرا فى دم مثل العبـير
بنوء بصدره والرمح فيـه ويخلجه خـدب كالبعير
هتكت به بيوت بنى عبـاد وبعض القتل اشفى للصدور
وهمام بن مرة قد تركنـا عليه القشعمين من النسور
على ان ليس عدلا من كليب اذا طرد اليتيم عن الجزور
على ان ليس عدلا من كليب اذا رجف العضاة من الدبور
على ان ليس عدلا من كليب اذا ما ضيم جيران المجير
على ان ليس عدلا من كليب اذا خيف المخوف من الثغور
على ان ليس عدلا من كليب غداة بلابل الامر الكبـير
على ان ليس عدلا من كليب اذا برزت مخبأة الخـدور
على ان ليس عدلا من كليب اذا علنت نجيات الامـور
فدى لبنى الشقيقة يوم جاؤا كاسد الغاب لجت فى زئير
كان رماحهم اشطان بئر بعيد بين جاليهـا جرور
فـلا وابى جليلة ما أفأنا من النعم المؤبل من بعير
ولـكنا نهكنـا القـوم ضربا على الاثباج منهم والنحـور
قتيل ماقتيل المـرء عمرو وجساس بن مرة ذو ضرير
تركنا الخيل عاكفة عليهم كأن الخيل تدحض فى غدير
كانا غدوة وبنى ابينـا بجنب عنيزة رحيـا مدير
فلولا الريح اسمع اهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور

(١) تمامه « يالبكر اين اين الفرار » وقوله يالبكر بفتح اللام التى للتعجب او التهديد وحينئذ لا حذف فى الكلام ويحتمل انها لام الاستغاثة والمستغاث له محذوف تقديره لكليب » وقوله انشروا بفتح الهمزة من أنشر الرباعى وهو عبارة عن احياء الموتى واخراجهم من قبورهم والفرار الهروب

الأبيات وله أشعار كثيرة فى رثاء أخيه كليب . ثم إن المهلهل أسرف فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع . وكانت أكثر بكر قعدت عن نصرة بنى شيبان لقتلهم كليباً وكان الحرث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب وقال « لا ناقة لى فى هذا ولا جمل » فذهبت مثلاً فاجتمعت قبائل بكر إليه فقالت : قد فنى قومك فأرسل بجيراً ابن أخيه الى مهلهل وقال له : قل له إنى قد اعتزلت قومى لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم وقد ادركت ثارك وقتلت قومك فأتى بجير إليه فقتله مهلهل كما تقدم شرحه . فبعد ذلك نهض الحرث للحرب فقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم وفيه أسر الحارث بن عباد مهلهلا وهو لا يعرفه واسمه عدى بن ربيعة فقال له : دلنى عل عدى وأخلى عنك فقال له : عليك العهد بذلك إن دللتك عليه . قال : نعم . قال : فأنا عدى فجزّ ناصيته وتركه وقال فيه : —

لهفَ نفسى على عدىٍّ ولم أعـ ـرف عدياً إذ أمكنتنى اليدان

وفيه قتل عمرو وعامر التغلبيان قتلهما حجر بن ضبيعة . ثم إن مهلهلا فارق قومه ولم يزل مقيما فى أخواله بنى يشكر ضجراً من الحرب وأرسل الحارث بن عمرو بن معاوية الكندى وهو جد امرؤ القيس بن حجر فى الصلح بينهم والتمليك عليهم وقد كانوا قالوا : إن سفهاءنا غلبوا علينا وأكل القوى منا الضعيف فالرأى أن نملك علينا ملكا نعطيه البعير والشاة فيأخذ من القوى ويرد الظالم ولا يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون فلا تنقطع الحروب ،فأصلح بينهم وشغلهم بحرب اللخميين من بنى غسان ملوك الشام . وبقى مهلهل وحيداً عند أخواله الى أن مات . قيل : وجد ميتاً بين رجلى جمل هاج عليه وقيل بل مات أسيراً . وذلك أنه لما نزل اليمن نزل فى بنى جَنْب وجنب من مذحج فخطبوا إليه ابنته فقال لهم إنى طريد بينكم فمتى

أنكحتكم قالوا اقتسروه فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه فى صداقها أدماً فقال :

أنكحها فقدُها الأراقمَ فى جنبٍ وكان الحباء من أدم

من أبيات ثم انحدر فلقيه عوف بن مالك أبو أسماء صاحبة المرقش الأكبر فأسره فمات فى أسره : قال السكرى فى أشعار تغلب : أسر مهلهلا عوف بن مالك أحد بنى قيس بن ثعلبة ، أتوا عوف بن مالك أحد بنى قيس فقالوا : أرسل معنا مهلهلا فأرسله معهم فشرب فلما رجع جعل يتغنى بهجاء بكر بن وائل فسمعه عوف ابن مالك فغاظه فقال : لاجرم إن لله علىّ نذراً أن لايشرب عندى قطرة ماء ولا خمراً حتى يورد الخضير بمجمتين مصفراً وهو بعير لعوف لا يرد المـاء إلا سبعاً فقال له أناس من قومه : بئس ما حلفت فبعثوا الخيول فى طلب البعير فأتوا به بعد ثلاثة أيام ومات مهلهل عطشاً . وقيل بالقتل وكان السبب فى قتله أنه أسن وخرف وكان له عبدان يخدمانه فملاّه وخرج بهما إلى سفر فبينما هو فى بعض الفلوات عزما على قتله فلما عرف ذلك كتب على قتب رحله وقيل أوصاهما :

من مبلغُ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

ثم قتلاه ورجعا إلى قومه فقالا مات وأنشداهم قوله . فقال بعض ولده (قيل هى ابنته) : إن مهلهلا لا يقول مثل هذا الشعر وإنما أراد : —

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلاً فى الفلاة مجدَّلا (١)

لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يُقْتَلا

فضربوا العبدين حتى أقرا بقتله والله أعلم بحقيقة الحال . ومنهم :

---

(١) قوله مجدلا يقال جدله فانجدل وتجدل رماه وصرعه على الجدالة اى الأرض

معاذ بن صرم الخزاعى

كان فارس خزاعة فى وقته ، ومن خبره أن أمه كانت من عك (١) وكان يكثر زيارة أخواله فاستعار منهم فرساً وأتى قومه فقال له رجل يقال له جُحيش ابن سَوْدة وكان له عدواً . تسابقنى على أن من سبق صاحبه أخذ فرسه ، فسابقه فسبق معاذ وأخذ فرس جحيش وأراد أن يغيظه فطعن أيطل الفرس وهو الخاصرة بالسيف فسقط . فقال جحيش . لا أم لك قتلتَ فرساً خيراً منك ومن والديك فرفع معاذ السيف فضرب مفرقه فقتله . ثم لحق بأخواله و بلغ الحى ما صنع ، فركب أخ لجحيش وابن عم له فلحقاه فشد على أحدهما فطعنه فقتله . وشد على الآخر فصر به بالسيف فقتله وقال فى ذلك : —

قتلت جحيشاً بعدَ قتلِ جوادِهِ ... وكنتُ قديماً فى الحوادث ذافتكِ

قصدتُ لعمروٍ بعد بدرٍ بضربة ... فخرّ صريعاً مثلَ عائرة النسك (٢)

لكى يعلمَ الأقوامُ أنىَ صارمٌ ... خزاعة أجدادى وأمى إلى عَكٍّ

فقد ذقت ياجحش بين سَوْدة ضربتى ... وجرّبتنى إن كنت من قبل فى شكٍّ

تركت جحيشاً ثاوياً ذانوائح ... خضيبَ دم جاراته حولَهُ تبكى

ترنّ عليـه أمـه بانتحابها ... وتقشر جلدَى محجريْها من الحك (٣)

ليرفع أقواماً حلولىَ فيهم ... ويزرى بقوم إن تركتهم تركى (٤)

وحصنى سراه الطِرْف والسيف معقلى ... وعطرى غبار الحرب لا عَبَق المسك (٥)

(١) قال الجوهرى : عك بن عدنان اخو معدو هو اليوم فى اليمن ، وهو بعينه قول الليث ومثله فى معارف ابن قتيبة وطبقات محمد بن سلام وهذا قول لائمة النسب وقيل غير ذلك مما يطول ذكره (٢) عائرة النسك : كان الرجل من العرب فى الجاهلية اذا بلغت ابله الفا عارعين بعير منها أراد بعائر النسك ألفا من الابل تعور عين واحد منهم (والنسك العبادة) كانهم كانوا يفعلون ذلك تعبدا (٣) رن يرن رنا صاح عند البكاء ، قال ابن الاعرابى : الرنة صوت فى فرح أو حزن ، والانتحاب : البكاء بصوت طويل ومد ، ومحجر العين ما دار بها (٤) ازرى بالشيء ازراء : تهاون به (٥) الحصر : المكان الذى لايقدر عليه لارتفاعه ، والسراة : الظهور ومنه الحديث

تتوق غداةَ الروع نفسى إلى الوغى   كتوق القطا تسمو إلى الوشل الرك (١)

ولست برعديدٍ إذا راع معضلٌ   ولا فى نوادى القوم بالضيق المُسْك (٢)

وكم مَلِكٍ جدلتُهُ بمُهَنَّدٍ   وسابغةٍ بيضاء محكمة السَّكِّ (٣)

فأقام فى أخواله زماناً ، ثم إنه خرج مع بنى أخواله فى جماعة من فتيانهم يتصيدون فحمل معاذ على عَيْر فلحقه ابن خال له يقال له الغضبان ، فقال خل عن العير فقال لا ولا نعمت عين . فقال له الغضبان أما والله لو كان فيك خير لما تركت قومك . فقال معاذ « زر غباً تزدد حباً » فأرسلها مثلا . ثم أتى قومه فَأَراد أهل المقتول قتله . فقال لهم قومه : لا تقتلوا فارسكم و إن ظلم فقبلوا منه الدية . ويروى هذا المثل عن النبى صلى الله عليه وسلم و إليه أشار الشاعر:

إذا شئت أن تُقلى فزر متـواتراً   و إن شئت أن تزداد حباً فزُرغبا

« وقال آخر »

عليك بأغباب الزيارة إنها   إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلـكا

ألم تر أن القطر يُسأمُ دآئباً   ويسأل بالأيدى إذا هـو أمسكا

ومنهم :

فمسح سراة البعير وذفراه ، والطرف : الكريم من الخيل العتيق قال الراغب وهو الذى يطرف من حسنه، والمعقل وزان مسجد : الملجأ ، والعبق : الرائحة الطيبة الذكية (١) تاقت نفسه الى الشيء اشتاقت ونازعت اليه ، والوغى : الجلبة والاصوات ومنه وغى الحرب وقال ابن جنى : الوعى بالمهملة الصوت والجلبة وبالمعجمة الحرب نفسها ، والوشل محركة الماء القليل ينحلب من جبل او صخرة يقطر منه قليلا قليلا ولا يتصل قطره او لا يكون ذلك الا من أعلى الجبل ، والركّ بالفتح ويكسر المطر القليل الضعيف أو هو فوق الدث .

(٢) الرعديد : الجبان يرعد عند القتال جبنا وراع افزع ، والمعضل : الامر الشديد تضيق على الانسان به الحيل ، والنوادى جمع نادى وهو المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه واذا تفرقوا عنه فليس بندى كما فى المحكم والصحاح وقيل غير ذلك وفى هذا رد على من زعم من لغويى العصر كابراهيم اليازجى ومن على شاكلته من كل ضيق العطن من ان النوادى غير مستعمل فى جمع النادى ، والمسك : العقل (٣) جدله : رماه وصرعه على الجدالة اى الارض، والمهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والسابغة : الدرع التامة الوافرة الطويلة ، والسك : الدرع الضيقة الحلق وفى العباب اللينة الحلق .

بشامة بن حزن النهشلى [1]

وهو من الفرسان الحائزين قصب السبق فى كل ميدان . وله وقائع كثيرة ، وهو القائل :

إنا محيوكِ يا سلمى فحيينا ... وإن سَقيتِ كرامَ الناس فاسقينا [2]

وإنْ دعوتِ إلى جُـلّى ومكْرمَة ... يوماً سراة كرام النـاس فادعينا [3]

إنا بنى نهشلٍ لا ندعى لأبٍ ... عنه ولا هو بالأبنـاء يشرينا [4]

إن تُبتدر غايةٌ يوماً لمـكرمةٍ ... تلقَ السوابقَ منا والمصلينا [5]

وليس يهلك منا سيدٌ أبداً ... إلا افتلينا غلاماً سـيداً فينا [6]

نكفيه إنْ نحن متنا أن يسبَّ بنا ... وَهُوَ إذا ذكر الآباء يكفينا

إنا لنرخص يوم الرَّوْع أنفسنَا ... ولو نُسام بها فى الأمن أغلينا [7]

بيضٌ مفارقنا تَغلى مراجلنَا ... نأسو بأمـوالنا آثارَ أيدينا [8]

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم ... قول الـكماة ألا أين المحامونا ! [9]

لوكان فى الألف منا واحد فدعوا ... « مَنْ فارسٌ » خالهم إياه يعنونا [10]

---

(١) قال البغدادى الظاهر انه اسلامى ولم ار له ترجمة فى كتب الانساب انتهى وفى القاموس وشرحه : وبشامة بن حزن النهشلى شاعر (٢) فحيينا من التحية بمعنى السلام وقيل معنى سقيت دعوت يعنى ان دعوت الكرام بالسقيا فادعى لنا أيضا (٣) الجلى تأنيث الأجل ، والسراة جمع سرى وهو الشريف والكريم يقول : ان اشدت بذكر خيار الناس بجليلة نابت أو مكرمة عرضت فاشيدى بذكرنا أيضا وهذا الكلام القصد منه الوصول الى بيان شرفه ولا سقى ثم ولا تحية (٤) بنى نهشل منصوب على الاختصاص ولو رفعه لقال انا بنو نهشل ومعنى لا ندعى لاب لا ننتسب لاب غير ابينا ، وقوله ولا هو بالاباء الخ معناه انه رضى بنا كما نحن راضون به (٥) يقال ابتدرنا الغاية والى الغاية أى استبقنا اليها » وقوله لمكرمة اى لاكتساب مكرمة والمصلى من اسماء خيل الحلبة وهى عشرة (٦) الافتلاء : الافتطام والاخذ عن الام (٧) يوم الروع يوم الحرب ، والالف فى اغلينا للاشباع (٨) بياض المفارق كنـاية عن نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب » وتغلى مراجلنا أى حروبنا ، ونأسو : نداوى ومعناه انهم أغنياء لا يطمع الناس فى مقاصتهم بل يكتفون منهم بأخذ الدية . (٩) الكماة جمع كام كما يقال غاز وغزاة وذلك من قولهم كمن نفسه فى السلاح اذا توارى فيه ، يقول انى من جماعة أفنتهم الاعانة والاغاثة والنجدة والاقدام فى الحروب (١٠) خالهم اى ظنهم معناه انهم لشدة بأسهم وقوة حماستهم لا يعترفون بشجاعة غيرهم .

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم حدُّ الظباة وصلناها بأيدينا[١]
ولا تراهم و إن جلّت مصيبتُهم مع البكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره أحياناً فيفرجه عنا الحِفاظ وأسيافٌ تواتينا[٢]

والفرسان كثيرون لا يستوعبهم مثل هــذا المقام . وقد ذكر أبو عبيدة فى كتاب (مقاتل الفرسان) شيئاً كثيراً من ذلك وهو كتاب جليل لم يسبق إليه فمن أراد الاستيفاء فعليه بذلك الكتاب . فإن فيه بغيته ، ويجد هناك ضالته ، والله ولى التوفيق .

الكلام على نيران العرب فى الجاهلية

قد أولع العرب بإيقاد النيران ينبهون بها على عوارض حدثت ، وحوادث عرضت ، وهى كثيرة .

منها (نار القرى) وهى نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل ، وتسمى أيضاً (نار الضيافة) وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر وربما يوقدونها بالمندلى الرطب (وهو عطر ينسب إلى مندل وهو بلد من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به) ليهتدى إليها العميان وأشعارهم ناطقة بذلك . وهذه النار عندهم أجل سائر النيران ، بسبب أنها تهدى إلى بيوتهم الضيفان ، وكانوا يتمدحون بها فى شعرهم . قال الأعشى : —

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نار فى يفاعٍ تُحَرَّقُ[٣]
تُشَبُّ لمقرورَيْنِ يصطليانهـا وبات على النار الندى والمحلّق[٤]

---

(١) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف ، وقوله وصلناها بأيدينا هذا الكلام كناية عن علو همتهم فى الحرب وطول باعهم فيها (٢) الكره المكروه وركوبه كناية عن وقوعهم فيه وقصدهم اليه ، والحفاظ المحافظة والذب عن المحارم، وتواتينا : توافقنا . (٣) اليفاع مثل سلام ما ارتفع من الأرض . (٤) المقرور من اصابه القر بالضم البرد أو يختص بالشتاء وعنى بالمقرورين الندى الجود والمحلق، لقب عبدالعزى بن حنتم بن شداد ابن ربيعة بن عبدالله بن عبيد بن كلاب العامرى ، وضبطه صاحب اللسان كمحدث لأن حصانا له عضه فى خده وكانت العضة كالحلقة هذا قول أبى عبيدة ، أو اصابه سهم عزب فكوى بحلقة مقراض فبقى اثرها فى وجهه ، وهذا أحد من رفعه ما قيل فيه من الشعر

ومنها (نار المزدلفة) وهى التى توقد حتى يراها من دفع من عرفة وأول من أوقد النار بالمزدلفة قصى بن كلاب وهى على ما يقال باقية إلى اليوم .

ومنها (نار التحالف) كانوا إذا أرادوا الحلف أوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم عندها ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحل العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت فإذا استشاطت قالوا للحالف « هذه النار تهددتك » فإن كان مبطلا نكل وإن كان بريئاً حلف ولهذا سموها أيضاً (نار المهوّل) وإنما خصوها لأنها لا ينتفع بها من بين أنواع الحيوان غير الإنسان .

ومنها (نار الغدر) كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين[1] ثم صاحوا هذه غدرة فلان ليحذره الناس .

بعد الخمول وذلك أن الاعشى قدم مكة ونسامع الناس به وكانت المحلق امرأة عاقلة وقيل بل ام فقالت له : ان الاعشى قدم وهو رجـل مفوه مجدود فى الشعر ما مدح احدا الا رفعه ، ولاهجا أحدا الا وضعه ، وانت رجل كماعلمت فقير خامل الذكر ذو بنات وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس اليه فدعوته الى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما نشترى به شرابا يتعاطاه لرجوت لك حسن العافية فسبق اليه المحلق فانزله ونحر له ووجد المرأة قد خبزت خبزا وأخرجت نحيا فيه سمن وجاءت بوطب لبن فلما أكل الاعشى واصحابه وكان فى عصابة قيسية قدم اليه الشراب واشتوى اليه من كبد الناقة واطعمه من اطايبها فلما جرى فيه الشراب واخذت منه الكاس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنـات فقال الاعشى كفيت امرهن واصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السـهاد المؤرق	وما بى من سقم وما بى معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى اين يريد الاعشى بقوله الى ان سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنـة	كجابية الشـيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم	مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيـون كثيرة	الى ضـوء نار باليفاع تحـرق
تشب لمقرورين يصطليانهـا	وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفـا	باسـحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه	كمـا زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة الا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه والاشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جريا يخطبون بناته لمكان شعر الاعشى فلم تمس واحدة منهن الا فى عصمة رجل أفضل من ابيها الف ضعف .

(١) الاخشبان جبلا مكة وهما أبو قبيس وقعيقعان ويقال بل هما ابو قبيس والاحمر وقال ابن وهب الاخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة وكل خشن غليظ من الجبال فهو اخشب .

ومنها (نار السلامة) وهى التى توقد للقادم من سفر سالماً غانماً .

ومنها (نار الطرد) كانوا يوقدونها خلف من يمضى ولا يشتهون رجوعه وكانوا يقولون فى الدعاء عليه « أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً أثره » .

ومنها (نار الأهبة[1]) للحرب كانوا إذا أرادوا حرباً وتوقعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر فيأتونهم .

ومنها (نار الصيد) وهى نار توقد للظباء لتعشى إذا نظرت إليها ويطلب بها أيضاً بيض النعام .

ومنها (نار الأسد) وهى نار يوقدونها إذا خافوه وهو إذا رأى النار استهالها فشغلته عن السابلة . وقال بعضهم : إذا رأى الأسد النار حدث له فكر يصده عن إرادته والضفدع إذا رأى النار تحير وترك النقيق .

ومنها (نار السليم) توقد للملدوغ إذا سهر وللمجروح إذا نزف والمضروب بالسياط ولمن عضه الكلب لئلا يناموا فيشتد بهم الأمر ويؤدى إلى الهلاك .

ومنها (نار الفداء) وذلك أن الملوك إذا سبوا القبيلة خرجت إليهم السادة للفداء فكرهوا أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن ، وفى الظلمة يخفى قدر ما يحبسون لأنفسهم من الصفىّ فيوقدون النار ليعرضن .

ومنها (نار الوسم) كانوا يقولون للرجل ما نارك ؟ على الاستخبار عن الإبل أى ما سمتك وما علامتك فى إبلك فيبينها لهم . وحكى أن بعض لصوص العرب قرب إبلا للبيع فى (سوق عكاظ) فقيل له : ما نارك ؟ وكان أغار عليها من كل وجه وإنما سئل عن ذلك لأنهم يعرفون ميسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها . فقال :

تسألنى الباعةُ أين نارها   إذ زعزعتها فسمت أبصارها[2]

---

(١) بالضم العدة واهبة الحرب عدتها (٢) الباعة جمع بائع ، والنار السمة والعرب تقول ما نار هذه الناقة ؟ اى ما سمتها سميت نارا لانها بالنار توسم ويروى اين دارها موضع اين نارها ، والزعزعة : الحركة الشديدة ؛

كلُّ نِجَارِ إبلٍ نِجارُها وكل نارِ العالمين نارُها[1]

ويروى أن البيتين هكذا : —

تسألنى الباعة ما نجارها إذ زعْزعوها فسمت أبصارها

فكل دار لأناس دارها وكل نار العالمين نارها

ومنها (نار الاستمطار) كانت العرب فى الجاهلية الأولى إذا احتبس عنهم المطر يجمعون البقر ويعقدون فى أذنابها وعراقيبها[2] السلع[3] والعُشَر[4] ويصعدون بها فى الجبل الوعر ويشعلون فيها النار ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر وسيأتى الكلام على هذه النار عند البحث عن عوائدهم التى جَبَّهَا الإسلام .

وأما (نار الحرتين[5]) فقد كانت فى بلاد عبس فإذا كان الليل فهى نار تسطع وفى النهار دخان يرتفع وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها فحفر لها خالد ابن سنان فدفنها فكانت معجزة له كذا فى الأوائل لإسمعيل الموصلى . وروى الكلبى أنه كان يخرج منها عنق مسيرة ثلاثة أيام لا يمر بشىء إلا أحرقه وأن خالد ابن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجلا فخرج بهم نحوها ومعه درّة حتى انتهى إلى طرفها وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير فاطط بهم فقالوا هلكت

وسما بصره : علا (١) النجار بالكسر والضم الاصل والحسب ويقال اللون ، وقوله كل نجار ابل نجارها مثل فى المخلط قال الجوهرى اى فيه كل لون من الاخلاق ولا يثبت على راى واحد نقله عن ابى عبيدة ونصه وليس له راى يثبت عليه ومن امثالهم (نجارها نارها) اى سمنها تدل على نجارها يعنى الابل (٢) جمع عرقوب بالضم وهو من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها

(٣) محركة شجرمر ، قال ابو حنيفة الدينورى اخبرنى اعرابى من اهل الشراة ان السلع ينبت بقرب الشجرة ثم يتعلق بها فيرتقى فيها حبالا خضرا لا ورق لها ولكن قضبان تلتف على الغصون وتتشبك وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار فاذا اينع اسود فتأكله القرود فقط ولا يأكله الانسان ولا السائمة، قال ولم اذقه واحسبه مرا قال واذا قصف سال منه ماء لزج صاف له سعابيب

(٤) كصرد شجر فيه حراق مثل القطن لم يقتدح الناس فى اجود منه ويحشى فى المخاد لنعومته وقال ابو حنيفة العشر من العضاه وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو وهو عريض الورق ينبت صعدا فى السماء .

(٥) هى التى ذكرها الشاعر بقوله :

ونار الحرتين لها زفير يصم لهوله الرجل السميع

واللهِ أشياخُ بنى عبس آخرَ الدهر . فقال خالد : كلا وجعل يضرب به بالدِرَّةِ و يقول : بدا بدا كل هدى اللهَ يودى أنا عبد الله خالد بن سنان فضرب حتى رجع فجعل يتبعه والقوم يتبعونه كأنه ثعبان ينحك فى حجارة الحوة[1] حتى انتهى إلى قائب[2] فانساب[3] فيه فدخل خلفه طويلاً فقال ابن عم له يقال له عروة بن شبه لا أرى خالداً يخرج إليكم فخرج ينطف وهو يقول زعم ابن راعنة المعزىّ أنى لا أخرج فقيل لهم بنوا راعنة المعزىّ

وأما (نار السعالى) فهو شىء يقع للمتغرب والمتقفر قال أبو المضراب عبيد ابن أيوب :

وللهِ درُّ الغول أى رفيقة لصاحب دوّ خائف متقفر[4]
أرنّت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالىّ نيراناً تبوخ وتزهر[5]

وأما (نار الحُباحب) فكل نار لا أصل لها مثل مايقتدح من نعال الدواب وغيرها

وأما (نار اليراعة) فهى طائر صغير إذا طار بالليل حسبته شهاباً وضربٌ من الفراش إذا طار بالليل حسبته شراراً . وأول من أورى نارها أبو حباحب ابن كلب بن و برة بن تغلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . فقالوا (نار أبى حباحب) ومن حديثه ما ذكر عن ابن الكلبى قال كان أبو حباحب رجلا من العرب فى سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نارٌ بليل مخافة أن يقتبس منها فان أوقدها ثم أبصرها مستضىء أطفأها فضربت العرب به المثل فى البخل والخلف

---

(١) بالضم سواد الى الخضرة والحوة جانب الوادى (٢) هو حفر فى الارض (٣) أى مشى مسرعا وفى الحديث : ان رجلا شرب من سقاء فانسابت فى بطنه حية ، فنهى عن الشرب من فم السقاء ، اى دخلت وجرت مع جريان الماء (٤) الغول بالضم احد الغيلان وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم كما فى حياة الحيوان ، وقال الجوهرى هو من السعالى والجمع اغوال وغيلان وكل ما اغتال الانسان فاهلكه فهو غول ، والدو : الفلاة الواسعة البعيدة الاطراف ، والمتقفر : المتطلب والمتتبع ، وفى حديث يحيى بن يعمر « ظهر قبلنا ناس يتقفرون العلم » اى يتطلبونه (٥) ارنت : صاحت ، واللحن : اللغة بلغة بنى كلاب وبه فسر قول عمر (رض) : تعلموا اللحن فى القرآن اى تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم كذا فى التاج وانشد هذا البيت وآخر قبله ، وباخت النار : سكنت وفترت ، وزهرت النار زهورا اضاءت .

فقالوا (أخلف من نار أبى حباحب) وقال ابن الشجرى فى أماليه : حباحب رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسب إليه كل نار لا ينتفع بها فقيل لما تقدحه حوافر الخيل على الصفا نار الحباحب ، قال النابغة فى وصف السيوف : (ويوقدن بالصفاح نار الحباحب[1]) . وجعل الكميت اسمه كنية للضرورة فى قوله :

يرى الراؤن بالشعرات منها كنار (أبى حباحب) والظبينا[2]

وقال القطامى :

ألا إنما نيران قيس إذا شتوا لطارق ليل مثل نار الحباحب[3]

انتهى وهذا هو التحقيق لا ما ذكره الموصلى تبعاً للعسكرى فى أوائله قال ابن قتيبة فى أبيات المعانى فى نار التحالف : كانوا يحلفون بالنار ، وكانت لهم نار يقال أنها كانت بأشواف اليمن لها سدنة فإذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع بينهم وكان اسمها (هولة) و (المهولة) ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه من الحلف بها ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فإذا وقع فيها استشاطت وتنفضت فيقول « هذه النار قد تهددتك » فإن كان مريباً نكل[4] وإن كان بريئاً حلف قال الكميت :

هم خوفونا بالعمى هوّةَ الردى كما شب نارَ الحالفين المهولُ[5]

وقال الكميت وذكر امرأة :

---

(١) الصفاح كرمان حجارة عراض دقاق الواحدة صفاحة (٢) الشفرات جمع شفرة وشفرة السيف : حده ، وظبة السيف : طرفه وأصلها ظبو والهاء عوض من الواو والجمع اظب فى أقل العدد مثل ادل وظبات وظبون بالواو والنون ومعنى البيت يرى الراؤن فى شفرات السيوف وحدها لمعانا وبريقا كنار هذا الطائر والظبينا معطوف على الشفرات ، وترك الشاعر صرف ابى حباحب لانه جعل حباحب اسما لمؤنث وروى وقود موضع كنار . و (منها) الضمير فيه للسيوف (٣) شتا الرجل بالبلد أقام به شتاء وشتا القوم اجدبوا فى الستاء خاصة ، والطارق : الآتى بالليل وسمى لحاجته الى دق الباب وفى الحديث نهى المسافر أن يأتى أهله طروقا أى ليلا

(٤) نكص ورجع (٥)والهوة الوهدةالعميقة والحفرة البعيدة العقر، والردى: الهلاك ، وشب النار : اوقدها ، والمهول كمحدث المحلف وهو سادن النار الذى يطرح الملح فيها .

فقد صِرْتُ عمًّا لها بالمشيب زوالاً لديها هو الأزول[١]
كهولةِ ما أوقـد المحلفون لدى الحالفين وما هولوا[٢]

وقال أوس[١] :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صد عن نار المهول حالفُ

وقال أيضاً فى نار الأهبة : كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبل لتجتمع إليهم عشائرهم فإذا جدوا وأعجلوا أوقدوا نارين وقال الفرزدق :

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفنا على النيران

وكانوا يضربون المثل بنار الغضا فى الحرارة لأن الغضا من بين سائر العيدان لا يصلح إلا للوقود فـكأنه خلق للنار لا غير قيل إن جمره يبقى أكثر من يوم

(ونار الحلفى) يضرب بها المثل فى سرعة الإيقاد والانطفاء .

(ونار العرفج) وتسمى (نار الزحف) وذلك لأن العرفج إذا التهبت فيه النار أسرعت وعظمت فمن كان يقربها يزحف عنها . ثم لا يلبث أن تنطفىء من ساعتها فيحتاج الذى زحف عنها إلى أن يرجع إليها من ساعته فلا يزال المصطلى بها كذلك و يضرب بها المثل فيمن لا يستقر على حال « ومن الاستعارات » فى النار (نار الشرف) و (نار المسرة) و (نار الحرب) وقد أولع الشعراء بوصفها فى أشعارهم قديماً وحديثاً .

صفة اقتداح العرب بالزند والزندة

لما ذكرنا نيران العرب ومذاهبهم فيها ناسب التنبيه على منشأ مادتها عندهم وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى فى كتاب النبات صفة الزند والزندة وكيفية الفتل فلا بأس بإيراده هنا . قال : أفضل ما اتخذت منه الزناد شجرتا المرخ والعَفَار بفتح

---

(١) عن اللحيانى هو يزول فى الناس اى يكثر الحركة ولا يستقر وزول ازول على المبالغة وقال ابو السمح الازول ان يأتيه امر يمنعه الفرار (٢) الهولة : نار السدنة التى يحلفون عليها (٣) وهو ابن حجر يصف حمار وحش .

العين المهملة بعدها فاء فتسكون الأنثى وهي الزندة السفلى مرخاً ويكون الذكر وهو الزند الأعلى عفاراً . أخبرني بعض علماء الأعراب أن العفار شجر يشبه صغار شجر الغبيراء[1] منظره من بعيد كمنظره . وأما المرخ فقد رأيته ينبت قضباناً سمحة طوالا لا ورق لها . ولفضل هاتين الشجرتين في سرعة الورى وكثرة النار سار قول العرب فيهما مثلا فقالوا : (في كل الشجر نار . واستمجد المرخ والعفار) أي ذهبا بالمجد فكان الفضل لهما ولذلك قال الأعشى :

زنادك خير زناد الملو ك خالط فيهن مرخٌ عفارا

ويختار أن تكون الزندة من المرخ والزند من العفار . ومن فضيلة المرخ في كثرة النار وسرعة الورى ماذكر أبو زياد الكلابي فإنه قال ليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ قال وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفا وهبت الريح فحك بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادي كله . ولم نر ذلك في شيء من الشجر . ثم بعد أن ذكر الأشجار التي تتخذ منها الزناد قال : وصفة الزندة عود مربع في طول الشبر أو أكثر وفي عرض أصبع أواشف وفي صفحاتها فُرَضٌ وهي نقر الواحدة منها فُرضة وتجمع فُراضاً أيضاً والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطرفه أرق من سائره

« فأما وصف الاقتداح بها » فإن المقتدح إذا أراد أن يقتدح بالزناد وضع الزندة ذات الفراض بالأرض ووضع رجليه على طرفيها ثم وضع طرف الزند الأعلى في فرضة من فراض الزنده وقد تقدم فهيأ في الفرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز وقد حزه بالسكين في جانب الفرضة ثم فتل الزند بكفه كما يفتل المثقب وقد ألقى في الفرضة شيئاً من التراب يسيراً يبتغي بذلك الخشنة ليكون الزند أعمل في الزندة وقد جعل إلى جانب الفرضة عند مفضى الحزّية تأخذ فيها النار فإذا فتل الزند لم يلبث الدخان أن يظهر ثم يتبعه النار فتنحدر في الحز وتأخذ في الرية وتلك النار هي السقط . انتهى كلامه باختصار كثير من لب اللباب ، والله الموفق .

(١) قال المجد : الغبراء نبات كالغبيراء أو الغبراء ثمرته والغبيراء شجرته او بالعكس .

الـكلام على ملوك العرب فى الجاهلية
وما يناسب ذلك

كان للعرب فى الجاهلية ملوك وأقيال ، وسادات يتولون أمورهم فى سائر الأحوال، و إنى ذاكر فى هذا المقام ، من ملوك النواحى ما لخصه العلماء الأعلام .

ملوك اليمن

قال ابن قتيبة وغيره : أول من حيى بتحية الملك (أبيت اللعن وأنعم صباحاً) يعرب بن قحطان فولد له يشجب وولد ليشجب سبأ . وقيل : إنه أول من سبى السبى من ولد قحطان واسمه عبد شمس وقيل عامر . وأول الملوك من ولده حمير بن سبأ ملك حتى مات هرماً ولم يزل الملك فى ولد حمير لا يعدو ملـكهم اليمن حتى مضت قرون وصار الملك إلى الحرث الرائش و بينه و بين حمير خمسة عشر أباً فخرج من اليمن وغزا وجلب الأموال فراش الناس و بذلك سمى . وفى عصره مات لقمان صاحب النسور وهو لقمان الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسقى لها فلما أهلـكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات سمر ، من أظبٍ عفرٍ (١) ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر ، أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاختار النسور . فـكان آخر نسوره يسمى لبداً وقد ذكرته الشعراء قال النابغة :

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى على لبد (٢)

وسماه لبداً معتقداً فيه أنه أبد فلا يموت ولا يذهب و يزعمون أنه حين كبر قال له : انهض لبد ، فأنت نسر الأبد ! ولقمان هذا هو ممن آمن بهود عليه السلام وهلك قومه لـكفرهم به فأهلـكهم الله تعالى بالريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما ،

---

(١) اظب جمع ظبى وعفر جمع اعفر وهو ما تعلو بياضه حمرة أو الذى فى سراته حمرة واقرابه بيض او الابيض ليس بالشديد البياض .
(٢) يروى أمست خلاء وامسى اهلها الخ ، وأخنى عليهم الدهر : أتى عليهم واهلكهم .

فلم تدع منهم أحداً . وسلم هود ومن آمن معه وأرسلت عليهم يوم الأربعاء فلم تدر الأربعاء وعلى الأرض منهم حى . وأما لقمان المذكور فى القرآن فهو غيره . وكان ملك الرائش مائة وخمساً وعشرين سنة وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم : أنشد ابن قتيبة له .

وأحمد اسمه يا ليت إنى   أعمَّر بعد مبعثه بعام

ثم أبرهة ذو المنار بن الرائش وكان ملكه مائة وثلاثاً وثمانين سنة ثم أفريقيس ابن أبرهة وهو الذى بنى أفريقية وبه سميت وكان ملكه مائة وستين سنة . ثم العبد بن أبرهة وهو ذو الإذعار سمى بذلك لقوم سباهم منكرى الوجوه تزعم اليمن أنهم النسناس وكان ملكه خمساً وعشرين سنة . ثم هدهاد بن شُرَحبيل بن عمرو ابن الرائش وهو أبو بلقيس ملك سنة واحدة . ثم بلقيس إلى أن أسلمت على يدى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثم ناشر بن عمرو بن يعفر بن شرحبيل وكان ملكه خمساً وثمانين سنة . ثم شمر بن أفريقيس وهو الذى أخرب مدينة سمرقند وبه سميت شِمرُ كند ومعنى كندَ أخربها وهو الذى سمى يرعش لارتعاش كان به . وكان ملكه مائة وسبعاً وثلاثين سنة . ثم ابنه الأقرن بن شمر يرعش وكان ملكه مائة وثلاثاً وستين سنة . ثم ابنه كليكرب ولم يغز حتى مات وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة . ثم ابنه تبع بن كليكرب وهو أبو كرب تبع الأوسط وكان يغزو بالنجوم ويعمل أعماله كلها بأحكامها . ويقال أنه آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو القائل فيه :

شهدت على (أحمد) أنه   رسول من الله بارى النسم[1]
ولو مدّ عمرى إلى عمره   لكنت وزيراً له وابنَ عم

ومن شعره :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً   ملكا تدين له الملوك وتحشد

---

(١) قوله بارىء اى خالق ، والنسم جمع نسمة وهى نفس الروح .

من بعده بِلقيس كانت عمتى ملكتهم حتى أتاها الهدهد

وكان إيمانه قبل أن يبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسبعمائة سنة وهو الذى غزا جَدِيساً وقتل اليمامة التى سميت جو اليمامة وقصتها شهيرة . . ثم عمرو ابن تبع أخو حسان وكان ملكه ثلاثاً وستين سنة . ثم عبد كلال بن مثوب وكان على دين عيسى عليه السلام يسرّ إيمانه وكان ملكه أربعاً وسبعين سنة . ثم تبع ابن حسان وهو الأصغر وكان الحرث بن عمرو بن حجر جد امرئ القيس ابن أخته وتبع هـذا هو الذى عقد الحلف بين ربيعة واليمن وهو الذى أدخل فى اليمن دين اليهود وكان ملكه ثمانى وسبعين سنة . ثم أخوه لأمه مرثد بن عبد كلال . وقيل مزيد وكان ملكه إحدى وأربعين سنة . ثم ابنه وليعة بن مرثد ملك سبعاً وثلاثين سنة . ثم أبرهة بن الصباح ملك ثلاثا وسبعين سنة وكان يكرم معداً ويعلم أن الملك كائن فى ولد النضر بن كنانة . ثم حسان بن عمرو بن تبع بن كلى كرب ملك سبعاً وخمسين سنة ومدحه خالد بن جعفر بن كلاب لما شفعه فى أسارى من قومه . ثم ذو الشناتر . واسمه لخينعة ينوف ولم يكن من أهل بيت المملكة لكنه من أبناء المقاول قتله ذو نؤاس . وكان غلاماً من أبناء الملوك حسن الوجه له ذؤابتان أراده على نفسه فرماه بخنجر كان قد أعده له فقتله ورضيته حمير لأنفسها لما أراحها من ذى شناتر . وذو نؤاس صاحب الأخدود الذى ذكره الله تعالى وكان يهودياً فخد الأخدود لقوم من أهل نجران تنصروا على يَدَىْ رجل من قبل آل جفنة دعاهم إلى اليهودية فأبوا فحرقهم ثم ظهرت الحبشة على اليمن فحاربوا ذا نؤاس أشد حرب فلما أيقن بالهلاك اعترض بفرسه فكان آخر العهد به . ثم قام بعده ذوجدن فهزمته الحبشة واقتحم البحر فهلك . وملك اليمن أبرهة الأشرم وهو الذى زحف إلى مكة بالفيل فهلك جيشه وابتلى بالآكلة فحمل إلى اليمن فهلك بها . وملك بعده ابنه يكسوم وساءت سيرته باليمن واستجاش عليه سيف بن ذى يزن كسرى فجيش له جيشاً عظيماً وقد مات يكسوم . وولى بعده مسروق أخوه

وهو أخو سيف لأمه فقتلت الحبشة وسبيت نساؤهم وأقام سيف ملكاً من قبل كسرى حتى غدره خدامه من الحبشة ولم يجتمع ملك اليمن لأحد بعده . ثم بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشفت به الظلمة ، واهتدت بهديه الأمة ، واستقر الملك فى نصابه ، بعد الخلفاء الأربعة من أصحابه ، ممن وجبت طاعته ، وصحت بيعته ، كذا فى عمدة ابن رشيق ببعض زيادة . وفى لب اللباب بعد أن تكلم فى الأذواء : ومنهم الكلاع الأكبر وذو الكلاع الأصغر وأدرك الأصغر الإسلام كتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم مع جرير بن عبد الله البجَلى فأسلم وأعتق يوم أسلم أربعة آلاف عبد وهاجر بقومه فى أيام أبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة ثم سكنوا حمص (واشتقاق الكلاع بضم الكاف وفتحها من الكلع بالتحريك وهو شقاق ووسخ يكون فى القدم يقال منه كلعت رجله) ومنهم ذو عَشكلان (بفتح العين وسكون المثلثة وهو اسم مرتجل) . وذو ثعلبان بالضم (وهو ذكر الثعالب) وذو زهران وذو مكارب (أى ذو مفاصل شداد جمع مكرب كمكرم) وذو مناخ (بالضم) وكان نزل ببعلبك . وذو ظليم واسمه حوشب (وهو العظيم البطن والظليم ذكر النعام) وشهد ذو ظليم صفين مع معاوية انتهى المقصود من نقله . وقد رأيت كتاباً حافلا فى ملوك اليمن وبيان ما كانوا عليه وما وقع لهم من الوقائع والحوادث والله أعلم .

ملوك الشام من العرب الجاهلية

كان بالشام سليح وهم من غسان ويقال من قضاعة . أول ملوكهم النعمان ابن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك ، ثم ابنه عمرو بن مالك إلى خروج مُزَيْقياء وهو عمرو بن عامر من اليمن فى قومه من الأزد وسمى مزيقياء لأنه كان يمزق كل يوم حلة لا يعود إلى لبسها ثم يهبها وسمى عامر ماء السماء[1] لأنه كان

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الازدى وهو ابو عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن لما احس بسيل العرم فسمى بذلك لانه كان اذا اجدب قومه مانهم — اى احتمل مؤنتهم اى قوتهم — حتى يأتيهم الخصب فقالوا هو ماء

يحتبى فى المحل فينوب عن الغيث بالرفد ثم ابن حارثة الغطريف ابن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن قاتل الجوع . ثم دراء بن الأزد ومعه رجل يقال له جذع بن سنان فنزلوا بلاد عَكّ فقتل جذع ملك بلاد عك . وافترقت الأزد والملك فيهم حينئذ ثعلبة بن عمرو بن عامر فانصرف عامله لحارب جرهم وأجلاهم عن مكة واستولوا عليها زماناً ثم أحدثوا إحداثاً . وجاء قصى بن كلاب لجمع معداً وبذلك سمى مجمعاً واستعان ملك الروم فأعانه وحارب الأزد فغلبهم واستولى على ملكه دونهم فلما رأت الأزد ضيق العيش بمكة ترحلت وانخزعت خزاعة[1] لولاية البيت وبذلك سميت فسار بعض الأزد إلى السواد فملكوا عليهم مالك بن فهم وهو أبو جذيمة الأبرش ، وسار قوم إلى يثرب وهم الأوس والخزرج وسار قوم إلى عمان ، وسار قوم إلى الشام وفيهم جذع بن سنان وأتاه عامل الملك فى خرج وجب عليه فدفع إليه سيفه رهناً ، فقال الرومى أدخله فى كذا من أم الآخر فغضب جذع وقنعه[2] به فقتله فقيل « خذ من جذع ما أعطاك » وسارت مثلا ، وولوا الشام ، فكان أولهم الحارث بن عمرو ، ومحرق سمى بذلك لأنه أول من حرق العرب فى بيوتها وهو الحارث الأكبر يكنى أبا شمر . ثم ابنه الحارث بن

السماء لانه خلف منه وقيل لولده بنو ماء السماء وهم ملوك الشام ، قال بعض الأنصار :

انا ابن مزيقيا عمرو وجدى   ابوه عامر ماء السماء

وماء السماء أيضا لقب ام المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة ابن نضر اللخمى وهى ابنة عوف بن جشم من النمر بن قاسط وسميت بذلك لجمالها وقيل لولدها بنو ماء السماء وهم ملوك العراق قال زهير :

ولازمت الملوك من آل نصر   وبعدهم بنى ماء السماء

وفى حديث ابى هريرة أمكم هاجر يابنى ماء السماء يريد العرب لأنهم كانوا يتبعون قطر السماء فينزلون حيث كان

(١) خزاعة بلا لام حى من الازد سموا بذلك لانهم لما ساروا مع قومهم من مارب فانتهوا الى مكة تخزعوا عن قومهم اى تخلفوا عنهم واقاموا بمكة وفى الصحاح : لأن الازد لما خرجت من مكة لتتفرق فى البلاد تخلفت عنهم خزاعة واقامت بها . قال الشاعر :

فلما هبطنا بطن مر تخزعت   خزاعة عنا فى حلول كراكر

(٢) قنع راسه بالسيف : غشاه به ضربا

أبى شمر وهو الحارث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين[١] وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية الكندى وأختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار[٢] الكندى . عن أبى عبيدة قال : كان أبو قيس بن رفاعة يَفِد سنة إلى النعمان اللخمى بالعراق وسنة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام . وقال له يوماً وهو عنده : يا ابن رفاعة بلغنى عنك إنك تفضل النعمان على ؟ فقال : « وكيف أفضله عليك أبيت اللعن فوالله لقفاك أحسن من وجهه . ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أجود من نداه ، ولقليلك أنفع من كثيره ، ولثمالك أغزر من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك أفضل من شهوره . ولشهرك أبر من دهوره ، ولزندك أورى من زنده ، ولجيدك أغر من خده ، وأنك لمن غسان أرباب الملوك ، وأنه لمن لخم الكثيرى النوك ، فكيف أفضله عليك ؟ » وإلى الحارث الأعرج زحف المنذر الأكبر فانهزم جيشه وقتل هو ثم الحرث الأصغر . ثم الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر . ومن ولد الحرث الأعرج عمرو بن الحرث وكان يقال له أبو شمر الأصغر . وله يقول النابغة الذبيانى :

علىّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة ... لوالده ليست بذات عقاربِ[٣]

---

(١) القرط الشنف أو المعلق فى شحمة الاذن وفى المثل خذه ولو بقرطى مارية قال فى التاج : هى بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية الكندى أم الحارث بن ابى شمر الغسانى وهى اول عربية تقرطت وسار ذكر قرطيها فى العرب وكانا نفيسى القيمة قيل أنهما قوما باربعين ألف دينار وقيل كانت فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما وقيل هى امرأة من اليمن أهدت قرطيها الى البيت يضرب فى الترغيب فى الشىء وايجاب الحرص عليه اى لايفوتنك على حال وان كنت تحتاج فى احرازه الى بذل النفائس (٢) قال ابو عبيد أخبرنى ابن الكلبى ان حجرا انما سمى آكل المرار لأن ابنة كانت له سباها ملك من ملوك سليح يقال له ابن هبولة فقالت له ابنة حجر كأنك بأبى قد جاء كأنه جمل آكل المرار يعنى كاشرا عن انيابه فسمى بذلك وقيل غير ذلك ؛ والمرار بالضم شجر مر من افضل العشب واضخمه اذا اكلته الابل قلصت عنه مشافرها فبدت أسنانها واحدته مرارة (٣) قوله ليست بذات عقارب اى هينة غير ممنونة والعقارب المنن على التشبيه وعيش ذو عقارب اذا لم يكن سهلا وقبل فيه شر وخشونة قال الاعلم :

حتى اذا فقد الصبو ... ح يقول عيش ذو عقارب

والنعمان بن الحرث هو أخو الحرث الأصغر . وله يقول النابغة :

هذا غلامٌ حسنٌ وجهه مستقبل الخير سريع التمام

وللنعمان هـذا ثلاثة بنين عمرو وحجر والنعمان . ومن ولد الأعرج أيضاً المنذر والأبهم أبو جبلة ، وجبلة آخر ملوك غسان وكان طوله اثنى عشر شبراً وهو الذى تنصر [١] فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ملوك الحيرة من العرب

الحيرة هى أرض فى العراق بلدة كانت قريبة من الكوفة . قال الهمدانى فى كتاب (جزيرة العرب) : سار تبع أبو كرب فى غزوته الثانية فلما أتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن غنم بن دوس على أثقاله وتخلف معه من ثقل من أصحابه فى نحو اثنى عشر ألفاً وقال تحيروا هذا الموضع فسمى الموضع الحيرة (وهو من قولهم تحير الماء إذا اجتمع وزاد وتحير المكان بالماء إذا امتلأ) ، فمالك أول ملوك الحيرة وأبوهم وكانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البرارى الغمير والقطقطانة وحفية وكان مكان الحيرة أطيب البلاد وأرقه هواء وأخفه ماء وأعذبه تربة وأصفاه جواً قد تعالى عن عمق الأرياف ، واتضع عن حزونة الغائط واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ [٢] سفن البحر من الهند والصين وغيرهما انتهى . . قال ابن رشيق فى العمدة . وملك بعد مالك بن فهم ابنه جذيمة بن مالك وهو الأبرش والوضاح وكان ملكه ستين سنة . . ثم عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة اللخمى

---

(١) حدثنا شيخنا المؤلف انه عثر بعد تاليف هذا الكتاب وطبعه على نسخة مخطوطة قديمة من كتاب (ما اتحد لفظه واختلف معناه) لابن الشجرى ، فراى فيه تكذيب قصة جبلة مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفيه ان جبلة ارتد من نفسه ، وهذا الكتاب ارسله صاحبه بواسطة الاستاذ الى بعض الوارقين فى مصر للطبع فانكره عامله الله بعدله ويقال انه قد باعه لبعض الافرنج والطامة اعظم ! والكتاب نفيس جم الفوائد كبير المنفعة فريد فى بابه نادر الوجود (٢) يقال رفأ السفينة يرفؤها رفأ ادناها من الشط والموضع مرفأ بالفتح ويضم كمكرم واختاره الصاغانى .

وعمرو هذا هو ابن أخت جذيمة الأبرش وفيه قيل « شب عمرو عن الطوق (١) » ثم امرؤ القيس بن عمرو بن عـدى . ويقال بل الحرث بن عمرو وأنه هو الذى كان يدعى محرقاً . ثم النعمان بن امرئ القيس وهو النعمان الأكبر الذى بنى الخورنق ، وكانت له خمس كتـائب الرهائن والصنائع والوضـائع والأشاهب ودوسر أما (الرهائن) فإنهم خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يجيء بدلهم خمسمائة أخرى وينصرف أولئك إلى أحيائهم فـكان الملك يغزو بهم ويوجههم فى أموره . وأما (الصنائع) فبنو قيس وبنو تيم اللات ابنَيْ ثعلبة وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه . وأما (الوضائع) فإنهم كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدة لملوك العرب وكانوا أيضاً يقيمون سنة ثم يأتى بدلهم ألف رجل وينصرف أولئك وأما (الأشاهب) فإخوة ملك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من أعوانهم سموا الأشاهب لأنهم كانوا بيض الوجوه . وأما (دوسر) فإنها كانت أخشن كتائبه وأشدها بطشاً ونـكاية » وكانوا من كل قبائل العرب وأكثرهم من ربيعة سميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطئتها قال الشاعر :

ضربتْ (دوسرُ) فيهم ضربةً أثبتت أوتادَ ملكٍ فاسـتقر (٢)

وكان ملك العرب عند رأس كل سنة وذلك أيام الربيع تأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن وقد صير لهم أكلاً عنده وهم ذوو الآكال فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم وينصرفون إلى أحيائهم ؛ (والآكال سادة الأحياء الذين يأخذون المرباع (٣)) . ثم المنذر بن امرىء القيس وهو المنذر الأكبر ابن ماء السماء أبو النعمان الأكبر . ثم المنذر بن المنذر وهو الأصغر .

---

(١) يضرب مثلا الشيء يكبر عنه الانسان واياه عنى السرى بقوله :

تصاحى فاضحى بعد سلوته شبا وعاود عمرو طوقه بعد ماشبا

(٢) البيت للمتقب العبدى يمدح عمرو بن هند (٣) بكسر الميم ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ثم صار خمسا فى الاسلام .

ثم أخوه عمرو بن المنذر وهو عمرو بن هند وسمى محرقا أيضاً[1] لأنه حرق بنى تميم . وقيل بل حرق نخل اليمامة .ثم النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى وهو آخر ملوك لخم . ثم ولى بعده إياس بن قبيصة الطائى ثمانية أشهر . واضطرب ملك فارس وضعف وكانت ملوك الحيرة من تحت أيديهم وأتى الله تعالى بالإسلام فعز أهله بالنبى عليه الصلاة والسلام .

قصة عمرو بن عدى اللخمي

أول ملوك الحيرة من لخم مع خبر عدى

ملك عمرو بن عدى الحيرة بعد خاله جذيمة مائة وثمان عشرة سنة وهو أول من ملك من ملوك لخم وكان مدة ملك لخم بالحيرة خمسمائة سنة وكان من حديث عدى أن جذيمة قال ذات يوم لندمائه : لقد ذكر لى غلام من لخم فى أخواله من بنى إياد له ظرف وأدب فلو بعثت إليه ووليته كأسى ، والقيام على رأسى ، لكان الرأى فقالوا : الرأى ماراه الملك فليبعث إليه ففعل فلما قدم عليه قال : من أنت ؟ قال : أنا عدى بن نصر فولاه مجلسه فعشقته رقاش بنت مالك أخت

---

(١) كان عمرو بن هند شديد الباس وكان له اخ مسترضع فى بنى تميم فخرج يوما يتصيد فمر بابل لرجل من بنى تميم فراى فيها ناقة حسنة فرماها فعقرها فجاء صاحبها فلما رآها معقورة وثب عليه فقتله ، فنذر عمرو بن هند ان يقتل من بنى تميم مائة بدلا منه فغزاهم يوم اوارة فسبى ما اصاب فى بلادهم واقبل يقتلهم على الثنية وآلى ليقتلنهم حتى يبلغ الدم الى الارض وليحرقنهم فقيل له ايها الملك لترفعن السيف اوقد افنيتهم ! فقال والله لا تركتهم او تأتونى بمائة رجل من خيارهم فطلبوا فلم يوجد منهم الا تسعة وتسعون رجلا فلما جىء بهم امر بحفر زبية فاحتفرت له ، ثم قال اضرموا نارا والقوا فيها الحطب فاججت نار عظيمة فقال القوا فيها رجلا رجلا وبقى واحد من نذره فبينما هم كذلك اذ هم برجل راكب قد طلع عليهم وكان من البراجم فابصر الدخان ووجد قتار لحومهم (اى ريح لحومهم وعظامهم المحرقة) على بعد فظن انه طعام يصنع للناس فاقبل نحوهم فلما بلغ وراى ما راى جزع فقال عمرو انظروا من الرجل فاخذ فاتى به اليه فقال من انت ؟ فقال ابيت اللعن انا وافد البراجم ، فقال عمرو : (ان الشقى وافد البراجم) ، ثم امر به فقذف فى النار فتم نذره ، والبراجمة من بنى تميم وفى ذلك يقول جرير يعير الفرزدق :

واخزاكم عمرو كما قد خزيتم　　وادرك عمارا شقى البراجم

جذيمة فقالت له : إذا سقيت القوم فامزج لهم وعرق الملك (أى امزج له قليلا كالعرق (فإذا أخذت الخمر منه فاخطبنى إليه فإنه يزوجك فأشهد القوم إن فعل . ففعل الغلام وخطبها فزوجه وأشهد عليه وانصرف إليها فعرفها فقالت : عرس بأهلك . فلما أصبح غدا متضمخاً بالخلوق [١] فقال له جَذيمة : ما هذه الآثار يا عدىّ ؟ قال : آثار العرس . قال : وأى عرس ؟ قال : عرس رَقاش . فنخر [٢] وأكب على الأرض ورفع عدىٌّ جراميزَه [٣] فأسرع جذيمة فى طلبه فلم يجده وقيل بل قتله و بعث إليها : —

حدثينى وأنت لا تكذبينى أبحرّ زنيتِ أم بهجين [٤]
أم بعبدٍ فأنت أهلٌ لعبد ، أم بدون فأنتِ أهلٌ لدونِ [٥]

فأجابته رقاش

أنتَ زوجتنى وما كنت أدرى وأتانى النســاء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفاً وتماديك فى الصبا والمجُون [٦]

فنقلها جذَيمة إليه وحصنها فى قصره فاشتملت على حمل وولدت غلامًا فسمته عمراً حتى إذا ترعرع حلته وعطرته ثم أزارته خاله فأعجب به وألقيت عليه محبة منه ثم إن جذيمة نزل منزلاً وأمر الناس أن يجتنوا له الكمأة فكان بعضهم إذا وجد شيئاً منها يعجبه آثر به نفسه على جذيمة وكان عمرو بن عدى يأتيه بخير ما يجد فعندها يقول عمرو :

هذا جَناى وخيارُه فيه إذ كل جان يَدُهُ إلى فيه

ثم إن الجن استهوته فطلبه جذيمة فلم يسمع له خبراً فكف عنه ثم أقبل رجلان

---

(١) التضمخ لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر ، والخلوق على وزن صبور ضرب من الطيب (٢) اى مد الصوت والنفس فى خياشيمه .
(٣) أى نكص وفر (٤) رواية القاموس : (حدثينى وانت غير كذوب) . والهجين : اللئيم (٥) عبد والد من امة أو من ابوه خير من امه ، والدون : الخسيس (٦) المدامة : الخمرة ، وصرفا اى لم تمزج ، والمجون : الهزل .

من بنى القين يقال لأحدهما مالك وللآخر عقيل ابنا فالح ويروى فارح (١) — من من الشام وهما يريدان الملك بهدية فنزلا على ماء ومعهما قينة يقال لها أم عمرو فنصبت لهما قدراً وهيأت لهما طعاماً فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث الرأس قد طالت أظفاره وساءت حاله ومدَّ يده فناولته القينة طعاماً فأكله، ثم مدَّ يده فقالت القينة أعطى العبد كراعاً فطلب ذراعاً فأرسلتها مثلا . ثم ناولت صاحبيها من شرابهما وأوكت سقاءها . فقال عمرو بن عدى :

صددت الكأسَ عنا أمَّ عمرو   وكان الكأسُ مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أمَّ عمرٍو   بصاحبك الذى لا تُصبحينا (٢)

ويروى هذا الشعر لعمرو بن كلثوم التغلبى . ويقال إن عمرو بن كلثوم أدخله فى معلقته فقال له الرجلان : من أنت ؟ قال أنا عمرو بن عدى فقاما إليه وسلما عليه وقلما أظفاره وقصرا من شعره وألبساه من طرائف ثيابهما وقالا : ما كنا نهدى إلى الملك هدية هى أنفس عنده ولا هو عليها أحسن عطاء من ابن أخته قد رده الله عليه فلما وقفا بباب الملك بشراه فسرَّ به وصرفه إلى أمه وقال : لكما حكمكما . فقالا : حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا . قال : ذلك لكما . فهما ندمانا جذيمة المعروفان وإياهما عنى متمم بن نويرة بقوله فى مرثيته لأخيه مالك بن نويرة :

وكنا كندمانَىْ جذيمةَ حقبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا (٣)

---

(١) فى القاموس ابنا فارج (بالراء والجيم) قال الشارح كذا فى العباب ويقال ابنا فالج أيضا باللام كما فى شرح الدريدية لابن هشام اللخمى

(٢) قوله صددت المشهور صبنت أى صرفت وصبحت فلانا أى ناولته صبوحا من لبن او خمر ، وقد زعم بعض الرواة أن هذين البيتين لعمرو بن معد يكرب وأخذهما عمرو بن كلثوم فى معلقته (٣) الحقبة من الدهر مدة لا وقت لها ، ويضرب المثل بمالك وعقيل لطول ما نادماه كما يضرب باجتماع الفرقدين . والبيتان من قصيدته المشهورة المتخيرة فى المراثى ونذكر بعضا منها فمن ذلك قوله :

اقول وقد طار السنا فى ربابه   وغيث يسح الماء حتى تريعا
سقى الله ارضا حلها قبر مالك   ذهاب الغوادى المدجنات فأمرعا
وآثر سيل الواديين بديمة   ترشح وسميا من النبت خرعا
تحيته منى وان كان نائيا   واضحى ترابا فوقه الارض بلقعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معا

وقال أبو خراش الهذلى يرثى أخاه عروة :

ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا نديما صفاء مالك وعقيل

وروى أن جذيمة كان لا ينادم أحداً كبراً وزهواً وكان يقول : أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً و يصب لكل واحد منهما كأساً فلما أتى مالك وعقيل نادماه أربعين سنةً ما أعادا عليه حديثاً ثم إن أم عمرو جعلت فى عنقه طوقاً من ذهب لنذر كان عليها ثم أمرته بزيارة خاله فلما رأى لحيته والطوق فى عنقه قال « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلاً وأقام عمرو مع خاله جذيمة قد حمل عنه عامة أمره إلى أن قتل .

فما وجـد اظآر ثلاث روائم واين مجرا من حوار ومصرعا
يذكرن ذا البث الحزين ببثه اذا حنت الاولى سجعن لها معا
بأوجع منى يوم فارقت مالكا ونادى به الناعى الرفيع فاسمعا

وفيها :

وكنا كندمانى جزيمة الخ البيتين

وعشنا بخير فى الحياة وقبلنا اصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فان تكن الايام فرقن بيننا فقد بان محمودا اخى يوم ودعا
تقول ابنة العمرى مالك بعد ما اراك حديثا ناعم البال أفرعا
فقلت لها: طول الاسى اذ سألتنى ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
وفقد بنى ام تفانوا فلم أكن خلافهم ان استكين واضرعا
ولست اذا ما الدهر احدث نكبة ورزءا بزوار القرائب اخضعا
ولا فرح ان كنت يوما بغبطة ولا جزع ان ناب دهر فأوجعا
ولكننى امضى على ذاك مقدما اذا بعض من لاقى الخطوب تكعكعا
فعمرك الا تسمعينى ملامة ولا تنكئى قرح الفؤاد فييجعا
وقصرك انى قد شهدت فلم اجد بكفى عنه المنية مدفعا
فلو ان ما القى اصاب متالعا أو الركن من سلمى اذا لتضعضعا

وفيها :

لقد كفن المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشية اروعا
ولا برم تهدى النساء لعرسه اذا القشع من برد الشتاء تقعقعا
لبيبا أعان اللب منه سماحة خصيبا اذا ما رائد الجدب اوضعا
تراه كنصل السيف يهتز للندى اذا لم تجد عند امرىء السوء مطمعا
اذا ابتدر القوم القداح واوقدت لهم نار ايسار كفى من تضجعا
بمثنى الايادى ثم لم تلف مالكا على الفرث يحمى اللحم ان يتمزعا

قصة قصير مع الزباء وخبر قتل جذيمة

كان جذيمة من أفضل الملوك رأيا وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية . وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق كما مر . وكانت منازله مابين الأنبار و بقة وهيت وعين التمر وأطراف البر والقُطقُطانة والحيرة فقصد فى جموعه عمر و بن الظرب بن حسان ابن أذينة بن السميدع بن هو بر العاملى من عاملة العماليق فجمع عمرو جموعه ولقيه فقتله جذيمة وفض جموعه فانفلوا وملكوا بعده عليهم ابنته الزباء . وكانت من أحزم النساء مارُئِيَ فى نساء زمانها أجملَ منها ، وكانت كبيرة الهمة فخافت أن يغزوها ملوك العرب فاتخذت لنفسها نفقاً[1] فى حصن كان لها على شاطىء الفرات وسكرت الفرات فى وقت قلة الماء و بنت فى بطنه أزجا[2] من الآجر[3] والكلس[4] متصلا بذلك النفق وجعلت نفقاً آخر فى البرية متصلا بمدينة أختها ثم أجرت الماء عليه فكانت إذا خافت عدوًّا دخلت النفق . فلما استجمع لها أمرها أرادت أن تغزو جذيمة ثائرة بأبيها فقالت لها أختها . وكانت ذات رأى وحزم : الرأيُ ابعثى إليه فأعلميه أنك قد رغبت فى أن تتزوجيه وتجمعى ملكك إلى ملكه وسليه أن يجيبك فإن اغتر ظفرت به بلا مخاطرة . فكتبت إليه بذلك فاستخفه الطمع وشاور أصحابه فكلٌّ صوب رأيه فى قصدها و إجابتها إلا (قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس ابن هلال بن نمارة بن لخم) فقال : « هذا الرأى فاتر ، وغدر حاضر ، فإن كانت صادقة فلتُقبل إليك و إلاَّ فلا تمكنها من نفسك » فلم يوافق جذيمة قوله ورحل إليها ، فلما

---

(١) محركة سرب فى الأرض له مخلص الى مكان آخر ومنه قوله تعالى فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء (٢) فى القاموس الازج محركة ضرب من الأبنية وفى الصحاح والمصباح واللسان : الازج بيت يبنى طولا ويقال له بالفارسية أو سنان (٣) هو اللبن بكسر الباء اذا طبخ ومد الهمزة والتشديد اشهر من التخفيف الواحدة آجرة وهو معرب

(٤) بالكسر النورة واخلاطها قال عدى بن زيد العبادى :

شـاده مرمرا وجلله كلسـا فللطير فى ذراه وكـور

دخل عليها أمرت بقطع رواهشه[١] ونزف دمه[٢] إلى أن مات فخرج قصير إلى عمرو ابن عدى بن أخت جذيمة ، فقال : هل لك فى أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب بدم خالك ، فجعل ذلك له فأتى القادة والأعلام فقال : أنتم القادة والرؤساء وعندنا الأموال والكنوز فانصرف إليه منهم بشر كثير وملكوا عمرو بن عدىّ فقال قصير : انظر ما وعدتنى به فى الزباء . قال : وكيف وهى (امنع من عُقاب الجو[٣]) فقال إذا أبيتَ فإنى جادعٌ أنفى وأذنى ومحتال لقتلها فأعنّى وخَلاكَ ذمّ . فقال له عمرو : أنت أبصر فجدع قصير أنفه ثم انطلق حتى دخل على الزباء . فقال : أنا قصير لا ورب البشر ما كان على ظهر الأرض أحد كان أنصح لجذيمة منى ولا أغش لك حتى جدع عمرو بن عدىّ أنفى وأذنى فعرفت أنى لم أكن مع أحد أثقل عليه منك . فقالت : أى قصير نقبل ذلك منك ونصرفك فى بضاعتنا فأعطته مالا للتجارة فأتى بيت مال الحيرة فأخذ مما فيه بأمر عمرو ابن عدى ماظن أنه يرضيها وانصرف إليها به ، فلما رأت ماجاء به فرحت به وزادته ولم يزل بها حتى آنست به ، فقال لها يوماً إنه ليس من ملكة ولا ملك إلا وينبغى لها أن تتخذ نفقاً تهرب إليه عند حدوث حادثة . فقالت : إنى قد فعلت ذلك تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى وأرته إياه فأظهر سروراً بذلك وخرج فى تجارته كما كان يفعل وعرف عمرو بن عدىّ ما فعله فركب عمرو فى ألفٍ دارع على ألف بعير فى جُوالق حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير ودخل على الزباء ، فقال : اصعدى حائط مدينتك فانظرى إلى مالك فإنى قد جئت بمال صامت[٤] وقد كانت أمِنَتْه فلم تكن تتهمه . فلما نظرت إلى ثقل مشى الجمال قالت وقيل إنه مصنوع منسوب إليها :

---

(١) هى عروق ظواهر الكف (٢) اى سال دمه حتى افرط (٣) مثل يضرب فى الرفعة والمنعة ويقال ان اول من تكلم به هو عمرو بن عدى (٤) الصامت من المال الذهب والفضة والناطق منه الحيوان من الابل والغنم .

ما للجمال مشيها وئيداً أجندلاً يحملن أم حديداً[1]

الأبيات المشهورة . فلما دخلت الإبل خرجوا من الجوالق فثاروا بأهل المدينة ضرباً بالسيف ودخلوا عليها قصرها فهربت تريد السرب فوجدت قصيراً قائماً عنده بالسيف فانصرفت راجعة واستقبلها عمرو بن عدى فضربها وقيل بل مصّت خاتمها ، وقالت « بيدى لا بيد عمرو » وخربت المدينة وسبيت الذرارى وغنم عمرو كل شىء كان لها ولأبيها وأختها ، والله مالك الأمر كله[2] .

---

(١) مشى مشيا وئيدا اى على تؤدة ، والجندل ما يقله الرجل من الحجارة وقيل هو الحجر كله (٢) قلت : وقد ذكر عدى بن ريد العبادى غدر الزباء بجذيمة الابرش فى قصيدة طويلة فاحببت أن أورد منها ما يناسب المقام، قال:

الا يا ايها المثرى المرجى — الم تسمع بخطب الأولينا
دعا (بالبقة) الامراء يوما — (جذيمة) ينتحى عصبا ثبينا
فطاوع أمرهم وعصى (قصيرا) — وكان يقول لو تبع اليقينا
ودست فى صحيفتها اليه — ليملك بضعها ولأن تدينا
ففاجاها وقد جمعت فيوجا — على أبواب حصن مصلتينا
فاردته ورغب النفس يردى — ويبدى للفتى الحين المبينا
وحدثت (العصا) الانباء عنه — ولم أر مثل فارسها هجينا
وقددت الاديم لراهشيه — والفى قولها كذبا ومينا
ومن حذر الملاوم والمخازى — وهن المندبات لمن منينا
اطف لانفه الموسى قصير — ليجدعه وكان به ضنينا
فاهواه لمارنه فاضحى — طلاب الوتر مجدوعا مشينا
وصادفت امرءا لم تخش منه — غوائله وما أمنت أمينا
فلما ارتد منها ارتد صلبا — يجر المال والصدر الضغينا
اتتها العيس تحمل مادهاها — وقنع فى المسوح الدارعينا
ودس لها على الانفاق (عمرا) — بشكنه وما خشيت كمينا
فجللها قديم الاثر عضبا — يصك به الحواجب والجبينا
فأضحت من خزائنها كأن لم — تكن (زباء) حاملة جنينا
وابرزها الحوادث والمنايا — وأى معمر لا يبتلينا
اذا امهلن ذا جد عظيم — عطفن له ولو فرطن حينا
ولم اجد الفتى يلهو بشىء — ولو اثرى ولو ولد البنينا

ألقاب الملوك الدائرة بين العرب

وما يناسب ذلك

كانت العرب تسمى (قيصر) لمن ملك الشام مع الجزيرة من الروم قال المسعودى فى كتابه مروج الذهب : وتفسير (قيصر) أى شق عنـه وذلك أن أغستس الذى هو الثانى من ملوكهم ماتت أمه وهى حامل به فشق بطنها فـكان هذا الملك يفتخر فى وقته بأن النساء لم تلده وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم انتهى . وتسمى من ملك الفرس (بكسرى) و (النجاشى) لمن ملك الحبشة و (المقوقس) لمن ملك الاسكندرية . و (فرعون) لمن ملك مِصْرَ كافراً . و (بطليموس) لمن ملك الهند . ولهم أعلام أجناس غير ذلك ذكرها الحافظ عماد الدين المعروف بابن كثير الدمشقى فى تاريخه المسمى بالبداية والنهاية . وأذواء اليمن بعضهم ملوك و بعضهم أقيال والقيل دون الملك . قال فى الصحاح : والقيل ملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم والمرأة قيلة وأصله قيل بالتشديد كأنه الذى له قول أى ينفذ قوله والجمع أقوال وأقيال أيضاً ومن جمعه على أقيال لم يجعل الواحد منه مشدداً والمقول بالـكسر القيل أيضاً بلغة أهل اليمن والجمع المقاول . وفى القاموس : القيل الملك أو من ملوك حمير يقول ما شاء فينفذ كالقيل أو هو دون الملك الأعلى ، وفيه أيضاً أن التبابعة ملوك اليمن الواحد كسكر ولا يسمى به إلا إذا كانت له حمير وحضرموت . وفى كتاب أسرار اللغة : أرداف الملوك فى الجاهلية الوزراء فى الإسلام والردافة كالوزارة قال لبيد :

وشهدت أندية الأفاقة عالياً   كعبى وأرداف الملوك شهود

والأقيال لحمير كالبطاريق للروم والقواد للعرب انتهى . وفى لب اللباب : الردف بكسر فسكون هو الذى يجلس على يمين الملك فإذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس و إذا غزا الملك قعد الردف فى موضعه وكان خليفته على النـاس

حتى ينصرف وإذا عادت كتيبة الملك أخذ الردف ربع الغنيمة ، وكان لهم « عرفاء » والعريف عندهم القيم بأمر القبيلة والحلة يلى أمرهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم ، وهو الذى عناه طريف بقوله :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلىَّ عريفهم يتوسمُ (١)

(١) كانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنعوا حتى لا يعرفوا ، وذكر عن طريف بن تميم العنبرى هذا انه كان لا يتقنع كما يتقنعون فوافى عكاظ سنة وقد حشدت بكر بن وائل وكان طريف قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيبانى فقال حصيصة بن شراحيل أرونى طريفا فاروه اياه فجعل كلما مر به طريف تأمله ونظر اليه حتى فطن له طريف فقال له : مالك تنظر الى مرة بعد مرة ؟ فقال : اتوسمك لاعرفك فلله على لئن لقينك فى حرب لاقتلنك أو لتقتلنى فقال طريف عند ذلك :

او كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم ؟
فتوسمونى اننى انا ذالكم شاكى السلاح فى الحوادث معلم
تحتى الاغر وفوق جلدى نثرة زغف ترد السيف وهو مثلم
حولى اسيد والهجيم ومازن واذا حللت فحول بيتى خضم

ثم ان بنى عائذة خلفاء بنى ربيعة من ذهل بن شيبان خرج منها رجلان يصيدان فعرض لهما رجل من بنى شيبان فذعر عليهما صيدهما فوثبا عليه فقتلاه فثارت بنو مرة بن ذهل بن شيبان يريدون قتلهما فأبت بنو ربيعة عليهم ذلك فقال هانىء بن مسعود وهو رئيسهم : يابنى ربيعة ان اخوانكم قد ارادوا ظلمكم فانحازوا عنهم ففار قومهم فساروا حتى نزلوا بمنابض ماء لهم فأبق عبد لرجل من بنى ربيعة وسار الى بلاد تميم فأخبرهم ان حيا جريدا من بنى بكر بن وائل نزل على منابض وهم بنو ربيعة والحى الجريد المنتقى من قومه فقال طريف : هؤلاء ثارى ياآل تميم انما هم اكلة رأس واقبل فى بنى عمرو بن تميم فانذرت بهم بنو ربيعة فانحاز بهم هانىء بن مسعود رئيسهم الى علم منابض واقاموا عليه وسرحوا بالأموال والسرح وصبحهم تميم فقال لهم طريف : افزعوا من هؤلاء الاكلب يصف لكم ماوراءهم ، فقال له بعض رؤساء قومه: اتقاتل اكلبا احرزوا انفسهم وتترك اموالهم ماهذا براى ! وابو اعليه ، وقال هانىء لأصحابه لايقاتل رجل منكم فلحقت تميم بالنعم والعيال فأغاروا عليهما فلما ملأوا أيديهم من الغنيمة قال هانىء لأصحابه: احملوا عليهم فهزموهم وقتل يومئذ طريف بن العنبرى قتله حصيصة الشيبانى ابن شراحيل وقال فى ذلك :

ولقد دعوت طريف دعوة جاهل سفها وانت بمعلم قد تعلم
واتيت حيا فى الحروب محلهم والجيش باسم ابيهم يستهزم
فوجدت قوما يمنعون ذمارهم بسلا اذا هاب الفوارس اقدموا
واذا دعوا ببنى ربيعة شمروا بكتائب دون السماء تلملم
حشدوا عليك وعجلوا بقراهم وحموا ذمار ابيهم ان يشتموا
سلبوك درعك والأغر كليهما وبنو أسيد اسلموك وخضم

يريد أن له على كل قبيلة جناية فإذا وردوا عكاظ طلبه الكافل بأمرهم وهذا مدح فى العرب للجرىء منهم . وقيل إنما بعثوا إليه لأنه لا يتم إظهار مفاخرهم إلا بحضرته لأنه الرئيس على كل شريف ، والقاضى على كل مجد منيف ، وقد جاء ذكر العريف فى حديث رواه أبو داود فى سننه قال حدثنا مسدد حدثنا بشر بن الفضل حدثنا غالب بن القطان عن رجل عن أبيه عن جده : أنهم كانوا على منهل من المناهل فلما بلغهم الإسلام جعل صاحب الماء لقومه مائة من الإبل على أن يسلموا فأسلموا وقسم الإبل بينهم و بدا له أن يرتجعها منهم فأرسل ابنه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له ائت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له أبى شيخ كبير وهو عريف الماء وأنه يسألك أن تجعل لى العرافة بعده فأتاه فقال إن أبى يقرئك السلام . فقال : عليك وعلى أبيك السلام . فقال : إن أبى جعل لقومه مائة من الإبل على أن يسلموا فأسلموا وحسن إسلامهم ثم بدا له أن يرتجعها منهم أفهو أحق بها أم هم ؟ قال : إن بدا له أن يسلمها إليهم فليسلمها و إن بدا له أن يرتجعها منهم فهو أحق بها منهم فإن أسلموا فلهم إسلامهم و إن لم يسلموا قوتلوا على الإسلام . فقال . إن أبى شيخ كبير وهو عريف الماء وأنه يسألك أن تجعل لى العرافة بعده فقال إن العرافة حق ولا بد للناس من عرفاء ولكن العرفاء فى النار.قوله العرافة حق يريد أن فيها مصلحة للناس ورفقاً فى الأمور ألا ترى أنه قال ولا بد للناس من عرفاء . وقوله العرفاء فى النار معناه التحذير من التعرض للرئاسة والتأمر على الناس لما فى ذلك من المحنة والفتنة وأنه إذا لم يقم بحقه ولم يؤد الأمانة فيه أثم واستحق من الله سبحانه العقوبة وخيف عليه دخول النار « وأما الرائد » فهو الذى كان يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ للنزول عليه . وكان لكل قبيلة من العرب رائد له بصر وخبرة بحال الأراضى والمياه وغير ذلك . قال الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها ‏ ‏ فكل حتف امرىء يجرى بمقدار

أى أقيموا نقاتل فإن موت كل نفس يجرى بقدر الله تعالى لا الجبن ينجيه ولا الإقدام يرديه .

شروط السؤدد عند العرب

قال الجاحظ فى كتاب شرائع المروة : كانت العرب تسود على أشياء أما مضر فتسود ذا رأيها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسوّدون الامن تـكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وصار فى الإسلام سبعاً . وقيل لقيس بن عاصم : بِمَ سُدْت قومك ؟ قال ببذل الندى وكفّ الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القِرَى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . قال بعضهم : السؤدد اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وروى عن أبى بكر قال أخبرنى الرياحى عن العتبىّ عن رجل من الأنصار من أهل المدينة قال قال معاوية لعَرابة بن أوْس بن حارثة الأنصارى : بأى شىء سدت قومك يا عرابة ؟ قال أخبرك يا معاوية بأنى كنت لهم كما قال حاتم . قال . وكيف ؟ قال فأنشده :

فأصبحت فى أمر العشيرة كلها ... كذى الحلم يرضى مايقول ويعرف
وذلك أنى لا أعادى سراتِهم ... ولا عن أخى حراتهم أتنـكف[1]
وإنى لأعطى سائلى ولربما ... أكاف ما لا أستطيع فأكاف
وإنى لمذموم إذا قيل حاتم ... نبا نبوةً أنّ الـكريم يعنف

وإنى — والله — لأعفو عن سفيههم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى فى حوائجهم وأعطى سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل

---

(١) السراة الاشراف ، وتكف عنه : انف منه وامتنع ، ورواية البيت فى ديوان حاتم المطبوع فى لندن سنة ١٨٧٢ م :
وانى ارمى بالعداوة اهلها ... وانى بالاعداء لااتنكف (فليحقق)

منى ، ومن قصر عن فعلى فأنا خير منه . فقال معاوية : لقد صدق الشماخ إذ يقول فيك :

رأيت عَرَابة الأوسىّ يسمو إلى الخيرات منقطعَ القرين

إذا ما راية رُفعتْ لمجدٍ تلقاها عَرابةُ باليمين[1]

وقال الأصمعى : ذكر أبو عمرو بن العلاء عيوبَ جميع السادة وما كان فيهم من الخلال المذمومة إلى أن قال : ما رأيت شيئاً يمنع من السؤدد إلا قد رأيناه فى سيدٍ ، وجدنا الحداثة تمنع السؤدد وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخل دار الندوة[2] وما استوت لحيته . ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلا عاهراً . وكان عامر بن الطفيل بخيلا قاهراً وكان سيداً والظلم يمنع من السؤدد، وكان كليب بن وائل ظالماً وكان سيد ربيعة ، وكان حذيفة بن بدر ظالماً وكان سيد غطفان والحمق يمنع السؤدد ، وكان عيينة بن حصن أحمق وكان سيداً وقلة العدد تمنع السؤدد ، وكان شبل بن معبد سيداً ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان والفقر يمنع السؤدد . وكان عتبة بن ربيعة مملقاً[3] وكان سيداً . وينبغى أن الذى يسوده قومه لا يسودونه إلا لشىء من الخصال الجميلة والأمور المحمودة رآها قومه فيه فسودوه لأجلها والله الموفق .

---

(١) ذكر المبرد وابن قتيبة ومحمد بن سعد أن الشماخ خرج يريد المدينة فلقيه عرابة بن أوس فسأله عما أقدمه المدينة فقال : اردت ان أمتار لاهلى وكان معه بعيران فأوقرهما عرابة تمرا وبرا وكساه واكرمه فخرج من المدينةوامتدحه بالقصيدة التى يقول فيها :

رأيت عرابة الاوسى يسمو الخ ...

(٢) هى بمكة معروفة بناها قصى بن كلاب لانهم كانوا يندون فيها أى يجتمعون المشاورة كما فى الصحاح وقال ابن الكلبى وهى أول دار بنيت بمكة بناها قصى ليصلح فيها بين قريش ثم صارت لمشاورتهم وعقد الالوية فى حروبهم ، وكانت الجارية اذا حاضت أدخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف درعها ثم درعها اياه وانقلب بها أهلها فحجبوها ولا يعذر غلام أى يختن الا فيها وكانت مخصوصة بولد عبد الدار ايضا (٣) من الاملاق وهو الفقر

بيوتات العرب

إعلم أن كل أحد يدعى لنفسه سابقة ويمت[1] بفضيلة غير أن الصحيح ما اتفق عليه العلماء وتداولته الرواة . قال ابن الكلبي : كان أبى يقول : « العدد من تميم فى بنى سعد ، والبيت فى بنى دارم والفرسان فى يربوع والبيت من قيس فى غطفان ثم فى بنى فزارة والعدد فى بنى عامر والفرسان فى بنى سُليم والعدد من ربيعة ، والبيت والفرسان فى شيبان » قال ابن سلام الجمحى : كان يقال « إذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة وكاثر بسعد وحارب بعمرو . وإذا كنت من قيس ففاخر بغطفان وكاثر بهوازن وحارب بسليم . وإذا كنت من بكر ففاخر بشيبان وكاثر بشيبان وحارب بشيبان » . قال أبو عبيدة : ليس فى العرب أربعة إخوة أنجب ولا أعد ولا أكثر فرساناً من بنى ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن وبنوه شيبان وذهل وقيس وتيم الله . قال : وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسى وفاتكها الحارث بن ظالم وحكمها هرم بن قطبة وجوادها هرم بن سنان المرى وشاعرها النابغة الذبيانى . وفارس بنى تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب أحد بنى يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبرى . وفارس دارم عمرو ابن عمرو بن عدس . وفارس سعد فدكى بن المنقرى . وفارس الرباب زيد الفوارس ابن حصين الضبى . وفارس قيس عامر بن الطفيل . وفارس ربيعة بسطام بن قيس . قال أبو عبيدة : بيوتات العرب ثلاثة : فبيت قيس فى الجاهلية بنو فزارة ومركزه بنو بدر . وبيت ربيعة بنو شيبان ومركزه ذو الجدين . وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرارة . وقال أبو عمرو بن العلاء : بيت بنى سعد اليوم آل الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد . وبيت بنى ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم . وبيت بنى عدى بن عبد مناة آل شهاب من

---

(١) المت التوسل والتوصل بقرابة او حرمة او غير ذلك

بنى ملــكان . و بيت التيم آل النعمان بن جساس . قال الجمحى : فارس اليمن فى بنى ز بيد عمر و بن معديكرب . وشاعرها امرؤ القيس و بيتها فى كندة الأشعث بن قيس لايختلف فى هذا و إنما اختلف فى نزار . قال : وأما الشرف ما كان قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واتصل فى الإسلام . وقال أبو إياس البصرى : كان بيت قيس فى آل عمر و بن الظرب العدوانى . ثم فى غنىّ فى آل عمر و بن يربوع ثم تحول إلى بنى بدر فجاء الإسلام وهو فيهم . وقال الأخفش : على بن سليمان فرعا قريش هاشم وعبــد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمر و بن لوذان وسيار بن عمر و بن جابر . وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنـا يربوع . وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا قضاعة عذرة والحرث بن سعد ، قاله ابن رشيق فى العمدة . ومن كان له شرف فى الجاهلية لم يغيره الإسلام وعلى ذلك ورد الحــديث : الناس معادن خيارهم فى الجــاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فَقُهوا . ووجه التشبيه أن المعدن لمــا كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صــفته فــكذلك صفة الشرف لاتتغير فى ذاتها بل من كان شريفاً فى الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه ، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين فى الجاهلية . وأما قوله إذا فَقُهوا ففيه إشــارة إلى أن الشرف الإســلامى لايتم إلا بالتفقه فى الدين ، وعلى هذا فتنقسم الناس أربعة أقسام مع مايقابلها . الأول شريف فى الجاهلية أسلم وتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه الثانى شريف فى الجاهلية أسلم ولم يتفقه و يقابلة مشروف فى الجاهلية لم يسلم وتفقه . الثالث شريف فى الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية أسلم ثم تفقه . الرابع شريف فى الجاهلية لم يسلم وتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية أسلم ولم يتفقه فأرفع الأقسام من شرف فى الجاهلية ثم أسلم وتفقه و يليه من كان مشروفاً ثم أسلم وتفقه ، و يليه من كان شريفا فى الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه ، و يليه من كان مشروفا ثم أســلم ولم يتفقه . وأما من لم يُسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفا أو مشروفا وسواء تفقه أو

لم يتفقه . والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها متوقياً لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها .

أول من سن الجوائز من ملوك العرب

قال أبو جعفر النحاس : أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه : أجزني ! أي أعطني ماء حتى أذهب لوجهتي وأجوز عنك ثم كثر حتى جعلت الجائزة عطية . قال الراجز :

يا قيِّم المـاءِ فدتك نفسى   أحسنْ جوازى وأقل حبسى

وقال ابن قتيبة : أصل الجائزة والجوائز أن قطن بن عوف[1] بن أصرم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة أحد رؤساء العرب ولى فارس لعبد الله بن عامر فمر به الأحنف بن قيس فى جيشه غازياً إلى خراسان فوقف لهم على قنطرة الكر فجعل ينسب الرجل فيعطيه على قدر حسبه فكان يعطيهم مائة مائة فلما كثروا عليه قال أجيزوهم فأجيزوا فهو أول من سن الجوائز . قال الشاعر :

فدًى للأكرمين بنى هلال   على علَّاتهم عمى وخالى

همُ سنوا الجوائزَ فى معدٍّ   فصارت سنةً أخرى الليالى

وكان كثيراً ما تكون الجائزة بالبدرة وهى عشرة آلاف درهم سميت بذلك لوفورها . قال بعضهم : ومنه سمى القمر ليلة أربع عشرة بدراً لتمامه وامتلائه من النور . ويقال : بل لمبادرته الشمس . وقيل : بل البدرة جلد السخلة إذا فطمت أو الجذع من المعز يملأ مالًا فسمى المال بدرة باسم الوعاء مجازاً . والصلة ما أخذه الرجل من السلطان أو ما يتصل به ثم كثر ذلك حتى قيل لهبة الملك صلة . والله أعلم .

---

(١) وفى عمدة ابن رشيق (ج ٢ ص ٢٤٢) : عبد عوف

دراهم العرب فى الجاهلية

اعلم أن الدراهم كانت فى الجاهلية على نوعين مختلفين بغليّة وطبرية نوع عليه نقش فارس ، والآخر نقش الروم . فالبغلية نسبة إلى ملك يقال له رأس البغل وهى السود ، كل درهم منها ثمانية دوانيق والطبرية نسبة إلى طبرية الشام وزن كل درهم منها أربعة دوانيق وهى العتُق وفى هذا المقام تفصيل ذكره الإمام الماوردى فى الأحكام السلطانية وكذا غيره من العلماء الأعلام .

تحية ملوك العرب فى الجاهلية

وما يناسب ذلك

إعلم أن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيى بعضهم بعضاً عند لقائه وكل طائفة لهم فى تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها ، فكان العرب يقولون فى تحيتهم بينهم فى الجاهلية « أنعم صباحاً وأنعموا صباحاً » فيأتون بلفظ أنعموا من النَعمة بفتح النون وهى طيب العيش والحياة ويصلونها بقولهم (صباحاً) لأن الصباح أول النهار فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذاناً بتعجيلها وعدم تأخرها إلى أن يتعالى النهار . وكذلك يقولون « أنعموا مساء » . فإن الزمان هو صباح ومساء . فالصباح من أول النهار إلى ما بعد انتصافه والمساء من بعد انتصافه إلى الليل . ولهذا يقول الناس « صبحت الله بخير ومساك الله بخير » فهذا هو معنى « أنعم صباحاً ومساء » إلا أن فيه ذكرَ الله . وفى اللب عند شرح قوله :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العصر الخالى

قوله « عم صباحاً » هذه الكلمة تحية عند العرب يقال « عم صباحاً وعم مساء وعم ظلاماً » والصباح من نصف الليل الثانى إلى الزوال . والمساء من الزوال

إلى نصف الليل الأول . قال ابن السيد فى شرح شواهد أدب الكاتب : يقال وعم يَعِمُ كوعد يعدو ومق يمق ، وذهب قوم إلى أن يعم محذوف من ينعم وأجازوا عم صباحاً بفتح العين وكسرها كما يقال أنعم صباحاً وأنعم ، وزعموا أن بعض العرب أنشأ « ألا عَمْ صباحاً أيها الطال البالى » بفتح العين . وحكى يونس أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن قول عنترة (وعمى صباحاً دارَ عبلة واسلمى)[1] فقال هو من نعم المطر إذا كثر ونعم البحر إذا كثر ربده كأنه يدعو لها بالسقيا وكثرة الخير وقال الأصمعى والفراء : إنما هو دعاء بالنعيم والأهل وهو المعروف وما حكاه يونس نادر غريب انتهى « وكان الفرس » يقولون فى تحيتهم « هزار سال بمانى » أى تعيش ألف سنة . وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئآت خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه ، وألفاظ خاصة يتميز بها تحية الملك من تحية السُوقة ، كما كان العرب فى الجاهلية يخصون ملوكهم عند التحية بقولهم « أبيت اللعن » أى أبيت أن تأتى من الأخلاق المذمومة ما تلعن عليه وكانت هذه تحية ملوكَ لخم وجذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها . وتحية ملوك غسان « يا خير الفتيان » وكانت منازلهم الشام وتحية بعض القبائل « أسلم كثيراً » وحكى ثعلب عن الفراء أن المشيخة كانوا يضيفون أبيت إلى اللعن على الغلط لأنه إذا أضافه خرج ذماً فيقول أبيت اللعن كأنه شبهوه بالإضافة على الغلط وقال : أراد بيت اللعن أى يأمن هو بيت اللعن والقول هو الأول . والمقصود من كل التحايا الحياة ونعيمها ودوامها ولهذا سميت تحية وهى تفعلة من الحياة ليلزمه من الكرامة لكن أدغم المِثْلان فصار تحية . وقد شرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم « سلام عليكم » . وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التى منها ما هو محال

---

(١) صدره : (يادار عبلة بالجوآء تكلمى) والجواء بلد فى نجد والبيت من معلقته الشهيرة

وكذب نحو قولهم « تعيش ألف سنة » وما هو قاصر المعنى مثل « أنعم صباحاً »
ومنها مالا ينبغى إلا الله مثل السجود . فكانت التحية بالسلام أولى من
ذلك كله لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها فهى الأصل المقدم على
كل شىء ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين بسلامته من الشر
وحصول الخير كله . والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهى
الأصل ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولا ثم غنيمته ثانياً .
على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لوفاته حصل له الهلاك والعطب
والنقص والضعف . ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة فتضمنت
السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة
إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له وحذف التاء منها لما ذكرنا
من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة . ولما كانت دار السلامة من كل عيب
وشر وآفة بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة كانت تحية أهلها فيها
سلام والرب يحييهم فيها بالسلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب « سلام
عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

أديان العرب قبل الإسلام

إعلم أن العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحىّ الخزاعى
فيهم على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه
الصلاة والسلام وقد تلقوها من ولده نبى الله تعالى إسماعيل عليه السلام وهى
الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يعتقدون أن الله تعالى واحد
لا شريك له ولا وزير ، ولا معين ولاظهير . موصوف بصفات الكمال من
الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات
التى أثبتها لنفسه فى كتبه وجاءت على لسان رسله سالكين الطريق المستقيم فهو

موصوف بما وصف به نفسه كما يليق بجلال قدسه وأن ذاته لا تشبه الذوات كما أن صفاته لا تضاهى الصفات ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه تبارك وتعالى منزه عن كل مالا يليق به من صفات الأجسام وحوادث الأعيان والأجرام وأنه المتفرد بملك الضرّ والنفع والعطاء والمنع وغير ذلك من خواص الألوهية التى لا يملكها إلا الإله ، عالمين أن لا معبودَ بحق فى الوجود سواه فهو الإله الواحد الملتجأ فى جميع الأمور إليه ، المتوكل فى كل الشؤون عليه ، يستحيل وصفه بالظلم إذ هو المالك المقسط العدل ولا يجب عليه شيء بل هو المتفضل على خلقه وله الفضل تعالى عن كل شبيه ومعارض عالٍ على عرشه دانٍ بعلمه من خلقه أحاط علمه بالأمور ، وأنفذ فى خلقه سابق المقدور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فالخلق عاملون بسابق علمه لا يملكون لأنفسهم من الطاعة نفعاً ، ولا يجدون إلى صرف المعصية عنها دفعاً ، خلق الخلق بمشيئته من غير حاجة كانت به ولم يزالوا يترددون من قدر إلى قدر ، وأمره سبحانه نافذ فيهم فلا ينجيهم حذر ، والناس بآجالهم ميتون ، و بعد الضغطة فى القبور مسؤولون ، و بعد البلاء منشورون ويوم القيامة إلى ربهم يحشرون ، وكما بدأهم له من شقاء وسعادة يومئذ يعودون وقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام ، من أصول وفروع وأحكام ، وكانوا يصلون و يصومون ، و يحجون و يزكون و يصلون الأرحام ، و يعينون على نوائب الحق ويكرمون الأضياف كل الإكرام ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأعمال المرضية السديدة فلما طال الأمد و بعدوا عن زمن النبوة كثر فيهم الجهل وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى والدين المبين وجروا على شهوات أنفسهم واتبعوا كل ناعق وراجت عليهم الآراء الفاسدة ، والمذاهب الخبيثة الكاسدة ، حتى افترقت كلمتهم كل الافتراق سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعى وشرع لهم من الدين مالم يأذن به الله مما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، فهنالك انقسمت العرب فى التعبد إلى أقسام ، وافترقوا إلى أصناف حسبما أدت بهم الوساوس والأوهام .

الموحدون من العرب

وهم من استبصر ببصيرته فاعترف بوجود الله وتوحيده ، ولم يدرك دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بل بقى على أصل فطرته ونظر بعين بصيرته فلم يغير ولم يبدل وهم البقايا ممن كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة (١) والوقوف على عرفة وهدى البدن (٢) والإهلال (٣) بالحج والعمرة وغير ذلك وهؤلاء افترقوا فمنهم من بقى على أصل التوحيد وما استفاض من إفراد الله تعالى فى عبادته التى تضافرت على الإرسال به جميع الرسل . ومنهم من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته كعيسى بن مريم عليه السلام . وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا إلا عدداً معلوماً فى كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية .

---

(١) هى الحج الاصغر مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة ، والتفصيل فى الكتب الفقهية (٢) جمع بدنة قالوا هى ناقة او بقرة وزاد الازهرى او بعير ذكر قال ولا تقع البدنة على الشاة وقال بعض الأئمة البدنة هى الابل الخاصة ويدل عليه قوله تعالى فاذا وجبت جنوبها سميت بذلك لعظم بدنها وانما الحقت البقرة بالابل بالسنة وهو قوله صلى الله عليه وسلم : تجزى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ففرق الحديث بينهما بالعطف اذ لو كانت البدنة فى الوضع تطلق على البقرة لما ساغ عطفها لأن المعطوف غير المعطوف عليه وفى الحديث مايدل عليه قال اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعمرة سبعة منا فى بدنة فقال رجل لجابر انشترك فى البقرة مانشترك فى الجزور فقال ماهى الا من البدن والمعنى فى الحكم اذ لو كانت البقرة من جنس البدن لما جهلها اهل اللسان ولفهمت عند الانطلاق ايضا (٣) اهل الملبى رفع صوته بالتلبية واهل المحرم بالحج اذا لبى ورفع صوته ، وقال الليث : المهل يهل بالاحرام اذا اوجب الحرم على نفسه تقول أهل بحجة أو بعمرة فى معنى احرم بها وانما قيل للاحرام اهلال لرفع صوته بالتلبية واصل الاهلال رفع الصوت وقال الراجز :

يهل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر

عبدة الأصنام

وهم الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك[١] والمشاعر[٢] وأحلو وحرموا وهم الدهماء من العرب وإقرارهم بالخالق هو الذى يسمى توحيد الربوبية . وهو الذى أقرت به الكفار جميعهم ولم يخالف أحد منهم فى هذا الأصل إلا الثّنَوية وبعض المجوس . وسيأتى الكلام على ما قالوه فيما يناسب من الأصناف . وأما غيرهما من سائر فرق الكفر والشرك فقد اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره . كما قال سبحانه وتعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله » « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله » « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّنْ يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » . وكانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة . فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه تعالى كما قال حكاية عنهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . وفرقة قالت الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته . وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلا بأمر الله فمن عبد الصنم

---

(١) جمع منسك بفتح السين وكسرها يكون زمانا ومصدرا ويكون اسم المكان الذى تذبح فيه النسيكة وهى الذبيحة وزنا ومعنى وفى التنزيل « ولكل أمة جعلنا منسكا » بالفتح والكسر فى السبعة ومناسك الحج عباداته وقيل مواضع العبادات ومن فعل كذا فعليه نسك أى دم يريقه (٢) مواضع المناسك

حق عبادته قضى الشيطانُ حوائجــه بأمر الله . وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله وهذا الصنف هم الذين أخبر عنهم التنزيل فى قوله سبحانه « وقالوا ما لهــذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تــكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » فرد عليهم سبحانه بقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليــأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » . وشبهات العرب كانت مقصورة على إنكار البعث وجحد إرسال الرسل . فعلى الأول قالوا « ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنَّا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » إلى غير ذلك من الآيات وذكروا ذلك فى أشعارهم . قال قائلهم :

حياةٌ ثم موت ثم نشر   حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو[1]

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك يرثى كفار قريش يوم بدر لما قتلوا وألقاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القَليب (وهى البئر التى لم تطو[2])

وماذا بالقَليبِ قليبِ بَدْرٍ   من الشِّيزى تزين بالسنام

وماذا بالقليب قليب بدر   من القَينات والشَّرْب الكرام

تحيينا السلامة أم بكر   فهل لى بعد قومى من سلام

يحدثنا الرسول بأن سنحيا   وكيفَ حياةُ أصداء وهامِ

والشيزى بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها زاى مقصور ؛ وهو شجر

(١) النشر احياء الميت ، وخرافة : رجل من بنى عذرة استهوته الجن فلما خلت عنه رجع الى قومه وجعل يحدثهم بالاعاجيب التى رآها فكذبوه فكانت العرب اذا سمعت حــديثا لا اصل له قالت حديث خرافة ثم كثر هــذا فى كلامهم حتى قيل للاباطيل والترهات خرافات ، وخرافة كثمامة ولا يدخله الألف واللام لأنه معرفة اى ان تريد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل ، ونسب بعضهم هذا البيت لابن الزبعرى (٢) أى لم تبن قال الشاعر :

فان الماء ماء أبى وجــدى   وبئرى ذو حفرت وذو طويت

اى الذى حفرته وبنيته بالحجارة

يتخذ منه الجفان . والقصاع : الخشب التى يعمل فيها الثريد . وقال الأصمعى : هى من شجر الجوز تسودّ بالدسم . والشيزى جمع شيز والشيز يغلظ حتى ينحت منه فأراد بالشيزى مايتخذ منها ، وبالجفنة صاحبها كأنه قال : ماذا بالقليب من أصحاب الجفان الملأى بلحوم أسنمة الإبل وكانوا يطلقون على الرجل المِطْعام جفنة لكثرة إطعامه الناس فيها . وأغرب الداودى فقال الشيزى الجمال . قال : لأن الإبل إذا سمنت تعظم أسنمتها و يعظم جمالها ، وغلطه ابن التين . قال : و إنما أراد أن الجفنة من الثريد تزين بقطع اللحم من السنام . والقينات : جمع قينة بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها نون هى المغنية وتطلق أيضاً على الأمة مطلقا . والشرب بفتح الشين المعجمة وسكون الراء : جمع شارب والمراد بهم الندامى وأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم . وهام جمع هامة وهو الصدى أيضا وهو عطف تفسيرى . وقيل الصدى الطائر الذى يطير بالليل . والهامة جمجمة الرأس وهى التى يخرج منها الصدى بزعمهم . وأراد الشاعر إنكار البعث بهذا الكلام كأنه يقول إذا صار الإنسان كهذا الطائر كيف يصير مرة أخرى إنسانا وقال أهل اللغة : كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتيل الذى لايدرك بثأره تصير هامة فتزقو وتقول اسقونى اسقونى . و إذا أدرك بثأره طارت فذهبت . قال الشاعر :

ياعمرو إن لاتدر شتمى ومنقصتى   أضربْك حتى تقولَ الهامة اسقونى !

و يروى أنه إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة . ولايخفى أن هذا نوع من القول بالتناسخ المبرهن على بطلانه وقد ورد لا هامة ولا طيرة ولا عدوى ولا صفر . وأما على الثانى فكان إنكارهم لبعث الرسل فى الصورة البشرية أشد و إصرارهم على ذلك أبلغ وأخبر عنهم التنزيل بقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » إلى غير ذلك من الآيات . فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتى ملك من السماء وقالوا لولا أنزل عليه

ملك ، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة منا إلى الله تعالى هى الأصنام المنصوبة . أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المذكر فيعبدون الأصنام التى هى الوسائل بزعمهم وكثير من الآيات القرآنية ترد عليهم أتم رد ، ومحل ذلك كتب التفسير ونحوها .

ذكر شيء من أخبار الأصنام وسبب اتخاذ العرب لها وكيف أزالها النبى صلى الله عليه وسلم

قال أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى فى كتاب الأصنام : حدثنى أبى وغيره أن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله تعالى عليهما وسلم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا فى البلاد والتماس المعاش وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها وحباً وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم كقوم نوح وفيهم بقايا على دين أبيهم إسماعيل مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى[1] عمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى وهو أبو خزاعة . وكان الحرث هو الذى يلى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية وقاتل جرهما ببنى إسماعيل ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت[2] ثم إنه مرض

---

(١) راجع بحث السائبة والوصيلة والبحيرة والحامى فى اوائل الجزء الثالث
(٢) سدانته وتولى حفظه وفى الحديث قالت بنو قصى فينا الحجابة ، والمفاتيح تكون بايديهم

مرضاً شديداً فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمّةً [1] إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستقى بها المطر ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة ! وحدث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس [2] أن إسافاً رجل من جرهم يقال له إساف بن يعلى ونائلة بنت زيد من جرهم ، وكان يتعشقها فى أرض اليمن فأقبلوا حجاجاً فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر بها فى البيت فمسخا فوجدوهما مسيخين فوضعوهما موضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت من العرب . وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم سموها بأسمائها على ما بقى فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل بن مدركة اتخذوا « سُواعاً [3] » فكان لهم (برهاط) من أرض ينبع وكانت سدنته بنى لحيان يعبده من يليه من مضر . وفى ذلك يقول رجل من العرب :

تراهم عند قبلتهم عكوفاً كما عكفت (هذيلُ) على سُواع [4]

واتخذ مذحج وأهل جرش « يغوث » وكان بأكمة اليمن بيد أنعم بن عمرو المرادى واتخذت خيوان « يعوق » فكان بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين ، تعبده همدان ومن والاها من اليمن . واتخذت حمير « نسراً » فعبدوه بأرض يقال لها بلخع وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معد يكرب تعبده حمير ومن والاها فلم يزالوا يعبدونه حتى هودهم ذو نؤاس ، ولم أسمع حميراً سمت به أحداً ولم أسمع له ذكراً فى أشعارها ولا أشعار العرب . وأظن ذلك كان

---

(١) بالفتح وتشديد الميم : كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى به الاعلاء

(٢) ابو صالح لم ير ابن عباس ، قالوا : واوهى الطرق عن ابن عباس طريقة الكلبى عن ابى صالح فان انضمت اليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير فذلك سلسلة الكذب (٣) بالضم فى قوله تعالى (لا تذرن ودا ولا سواعا) والفتح لغة فيه وبه قرا الخليل (٤) يروى قيلهم بدل قبلتهم كما فى التاج وبعده :

يظل جنابه برهاط صرعى عتائر من ذخائر كل راع

لانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية . وكان لحمير أيضاً بيت بصنعاء يقال له « رئام » بهمزة بعد الراء المكسورة يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح وكانوا فيما يذكرون يكلمون منه : فلما انصرف تبع من مسيره الذى سار فيه من العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام وتهود تبع وأهل اليمن فمن ثم لم أسمع بذكر رئام ولا نسر فى شيء من الأشعار ولا الأسماء ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام . قال أبو المنذر : ولم أسمع فى رئام وحده شعراً وقد سمعت فى البقية . هذه الخمسة الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح وذكرها الله تعالى فى كتابه بقوله (ولا تذرنّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) فلما صنع عمرو بن لحى دانت العرب للأصنام ، فكان أقدمها مناة[1] وسمت العرب عبد مناة وزيد مناة وكان منصوباً على ساحل البحر بناحية (المشلل) بقديد بين المدينة ومكة . وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله وكان أشد الناس إعظاماً له الأوس والخزرج . وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل . وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ومناة هى التى ذكرها الله تعالى بقوله (ومناة الثالثة الأخرى) وكانت هذيل وخُزاعة وجميع العرب تعظمها إلى أن خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة سنة ثمان من الهجرة وهو عام الفتح فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال بعث علياً فهدمها وأخذ ما كان لها فأقبل به إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث ابن أبى شمر ملك غسان أهداهما : أحدهما اسمه (مخذم) والآخر (رسوب) فوهبهما لعلى فيقال أن ذا الفقار سيف على

(١) وزنه فعلة من منيت الدم رغيره اذا صببته لان الدماء كانت تمنى عنده تقربا اليه ومنه سميت الاصنام الدمى وفى الحديث لا والدمى لاأرى بما تقول بأسا وكذلك مناة الطاغية التى كانوا يهلون اليها بقديد والحظ من هذا المطلع مافى قوله تعالى « ومناة الثالثة الاخرى » من الفائدة جعلها ثالثة للات والعزى واخرى بالاضافة الى مناة التى كان يعبدها عمرو بن الجموح وغيره من قومه فهما مناتان واحداهما عن الاخرى بالاضافة الى صاحبها

أحدهما و يقال إن علياً وجدهما فى (الفَلْس) صنم لطىء حين بعثه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهدمه . ثم اتخذوا اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة وكان يهودى يَلتُّ عندها السويق[1] وكان سَدَنتها من ثقيف وكانوا بنَوْا عليها بناء وكانت قريش وسائر العرب تعظمها وسمت زيد اللات وتيم اللات . وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار[2] ثم اتخذوا العزى وسمى بها عبد العزى بن كعب وكان الذى اتخذها ظالم بن أسعد وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المُصْعِد إلى العراق من مكة فوق ذات عِرق بتسعة أميال فبنى عليها بيتاً وكانوا يسمعون فيـــه الصوت وكان أعظم الأصنام عند قريش وكانت تطوف بالكعبة وتقول « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فانهن الغرانيق العُلى[3] وإن شفاعتهن لترتجى » وكانوا يقولون « بنات الله » تعالى

---

(١) ات الرجل السويق لتا من باب قتل بله بشيء من الماء وهو اخف من البس ، والسويق ما يعمل من الحنطة والشعير معروف (٢) روى بعض من الف فى السير ان المغيرة قال لأبى سفيان : آلا اضحكك من ثقيف فقــال بلى فاخذ المعول وضرب به اللات ضربة ثم صاح وخر على وجهه فارتجت الطائف بالصياح سرورا بأن اللات قد صرعت المغيرة واقبــلوا يقولون « كيف رأيتها يا مغيرة دونكها ان استطعت الم تعلم انها تهلك من عاداها ويحكم الا ترون ما تصنع » فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم ياخبثاء والله ما قصدت الا الهزء بكم ثم اقبل على هدمها حتى أستاصلها واقبلت عجائز ثقيف تبكى حولها وتقول ا اسلمها الرضاع اذكر هو المصاع ، اى اسلمها اللئــام حــين كرهوا القتال ورويت فى ذلك روايات اخــرى ، فاذا احببت الوقوف عليها فعليــك بالســير

(٣) هى الاصنام وهى فى الاصل الذكور من طير الماء وقال ابن الانبارى : الغرانيق الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق قال أبو خــيرة سمى به لبياضه وقيل هو الكركى شبهت الاصنام التى تعــلو وترفع فى السماء على زعمهم .. واعلم ان حديث الغــرانيق الذى صار مشهورا عند المتأخــرين او جوده فى اكثر كتب التفسير التى تتناولها الايدى ، هو من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين المفسدين ولو صح لكان اكبر شبهة على الدين فكن على حذر ــ وقد ينفع الحذر ــ مما تراه فى كتب الاعاجم واياك والتقليــد الاعمى فانه راس البلاء ، واصــل كل داء ، واحسن من تكلم على هذا البحث هــو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (رض) فانه نفى الشك والارتياب وأتى بالحكمة وفصل الخطاب فعليــك به ولا تسمع قول عمرو وزيد ففى جوف الفر اكل الصيد .

الله عن ذلك علواً كبيراً . وهن يشفعن إليه فلما بعث الله رسوله أنزل عليه (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى[١]) وحمت لها قريش شعباً[٢] من وادى حُراض[٣] يقال له سُقام[٤] يضاهون به حرم الكعبة وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يقال له الغبغب وكانت قريش تخصها بالإعظام فلذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادة الأصنام .

تركتُ اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد والصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَىْ بنى غنم أزورُ
ولا هبلاً أزور وكان ربّاً ... لنا فى الدهر إذ حلمى صغير

وكان سدنة العزى بنى شيبان من بنى سُلَيم وكان آخر من سدنها دبية[٥] فلم تزل كذلك حتى بعث الله نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فعاب الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتد ذلك على قريش فلما كان يوم الفتح دعا خالد بن الوليد فقال انطلق إلى شجرة بطن نخلة فاعضدها[٦] فانطلق فقتل دبية وحدثنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس . قال : كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات[٧] ببطن نخلة ، فلما بعث النبى خالد بن الوليد قال له ائتِ بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه عليه الصلاة والسلام فقال هل رأيت شيئاً قال لا . قال فاعضد الثانية فعضدها ثم أتى النبى

---

(١) أى جائزة (٢) الطريق فى الجبل (٣) كغراب موضع قرب مكة بين المساش والغمير فوق ذات عرق الى البستان قيل كانت به العزى وقيل بالنخلة الشامية وقد جاء ذكره فى الحديث ، قال الفضل بن العباس اللهبى :

وقد كانت وللايام صرف ... تدمن من مرابعها حراضا

كذا فى القاموس وشرحه التاج (٤) بالضم وقد بفتح (٥) كسمية وهو دبية بن حرمس السلمى (٦) عضد الشجرة عضدا من باب ضرب قطعها وفى حديث تحريم المدينة نهى أن يعضد شجرها أى يقطع (٧) السمر بضم الميم : شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يا كلها الناس وليس فى العضاه شىء أجود خشبا من السمر ينقل الى القرى . فتغمى به البيوت واحدتها سمرة بهاء

صلى الله تعالى عليه وسلم فقال هل رأيت شيئاً قال لا . قال فاعضد الثالثة فأتاها فإذا هو بخنّاسة نافشة شعرها واضعة ثديها على عاتقها تصرف بأنيابها[1] وخلفها دبيّة السلمى ، فلما نظر إلى خالد قال :

فياعزُّ شدّى شدةً لا تـكذّبى ... على خالدٍ ألقى الخمارَ وشمرى

فإنك إن لا تقتلى اليوم خالداً ... تبوئى بذل عاجلًا وتُنصّرى

« فقال خالد رضى الله تعالى عنه »

يا عزّ كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حُمَمة[2] ، ثم عضد الشجرة وقتل دبيّة ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : (تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب) قال أبو المنذر : ولم تـكن قريش ومن بمكة يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة . فأما العزى فـكانت تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية وكانت ثقيف تخص اللات . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة وكلهم كان معظماً للعزى ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى رفعها عمرو بن لحى كرأيهم فى هذه . وكانت لقريش أصنام فى جوف الـكعبة وحولها وكان أعظمها (هُبَل) عندهم وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من الذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال لها هبل خزيمة . وكان قدامه سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق ، فإذا شكوا فى مولود أهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه وإن كان ملصقاً رفعوه ، وقدحاً على الميت وقدحاً على النكاح وثلاثة لم تفسر لى فإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده فما خرج عملوا به وانتهوا إليه . وكان لهم (أساف) و (نائلة) لما مسخا حجرين وضعا عند الـكعبة ليتعظ الناس

---

(١) صرف الانسان والبعير نابه وبنا به يصرف صريفا حرفه فسمعت له صوتا

(٢) وزان رطبة ما احرق من خشب ونحوه والجمع بحذف الهاء

بهما فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة إلى الآخر وكانوا ينحرون ويذبحون عندها . فلما ظهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بِسِيَةِ قوسه[1] فى عيونها ووجوهها ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحرقت . فقال فى ذلك راشد بن عبد الله السلمى :

قالت : هلمّ إلى الحديث فقلت : لا   يأبى الآله عليك والإسلامُ

أو ما رأيت محمداً وقبيله   بالفتح حين تكسر الأصنام ؟

لرأيت نور الله أضحى ساطعاً   والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان لهم أيضاً « مناف » وسمت به عبد مناف ولا أدرى أين كان ولا من نصبه ولم تكن الحيّض من النساء تدنو من أصنامهم ولا تمسح بها إنما كانت تقف ناحيةً منها وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به فلما بعث الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وأتاهم بتوحيد الله وعبادته قالوا : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب » يعنون الأصنام واشتهرت العرب فى عبادتها فمنهم من اتخذ بيتاً . ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم (الدوار) . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاث أثافى لقدره وإذا ارتحل غيره فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها وهم على ذلك

---

(١) سية القوس خفيفة الياء ولامها محذوفة وترد فى النسبة فيقال سيوى والهاء عوض عنها ، طرفها المنحنى .

عارفون بفضل الكعبة عليها . وكانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ، وفيهم نزلت (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) وكان من تلك الأصنام « ذو الخلصة[١] » وكان مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبع ليال من مكة وكانت تعظمه وتهدى له خثعم ودوس وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . قال رجل منهم :

لو كنت ياذا الخلص الموتور مثلى وكان شيخُك المقبورا

لم تنهَ عن قتل العداة زورا[٢]

وكان أبوه قُتِلَ فأراد الطلب بثأره فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم بنهيه عن ذلك فقال هـذه الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لجرير ألا تكفينى ذا الخلصة فسار اليه بمائة وخمسين راكباً من أحمس[٣] فقاتله خثعم وباهلة

---

(١) قال السهيلى : هو بيت دوس والخلص فى اللغة نبات طيب الريح يتعلق بالشجر له حب كعنب الثعلب وجمع الخلصة خلص قال ووقع فى كتاب ابى الفرج ان امرا القيس بن حجر حين وترته بنو اسد بقتل ابيه استقسم عند ذى الخلصة بثلاثة ازلام وهى الزاجر والآمر والمريض فخرج له الزاجر فسب الصنم ورماه بالحجارة وقال له أعضض ببظر أمك وقال : (لو كنت ياذاالخلص الموتورا) الى آخره ولم يستقسم أحد عند ذى الخلصة بعد حتى جاء الاسلام وموضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم ذكره المبرد من ابى عبيدة انتهى وذو الخلصة محركة ويقال بضمتين وحكى ابن دريد فتح الاول واسكان الثانى وضبطه بعضهم بفتح أوله وضم ثانية والأول الاشهر عند المحدثين (٢) نصب زورا على الحال من المصدر الذى هو النهى اراد نهيا زورا وانتصاب المصدر على هذه الصورة انما هو حال أو مفعول مطلق فاذا حذفت المصدر واقمت الصفة مقامه لم تكن الا حالا والدليل على ذلك انك نقول ساروا شديدا وساروا رويدا فان رددته الى ما لم يسم فاعله لم يجز رفعه لانه حال ولو لفظت بالمصادر فقلت ساروا سيرا رويدا لجاز أن تقول فيما لم يسم فاعله سير عليه سير رويد هـذا كله معنى قول سيبويه فدل على أن حكمه اذا لفظ به غير حكمه اذا حذف والسر فى ذلك ان الصفة لا تقوم مقام المفعول اذا حذف لا تقول كلمت شديدا ولا ضربت طويلا يقبح ذلك اذا كانت الصفة عامة والحال ليست كذلك لانها تجرى مجرى الظرف وان كانت صفة فموصوفها معها وهو الاسم الذى هى حال له ومن هذا الباب قوله تعالى « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا » ، والموتور من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، والعداة جمع عدو (٣) فى القاموس وشرحه : بنوا حمس بطن من ضبيعة كما فى العباب وبطن آخر من بجيلة وهو ابن الغوث بن انمار

فظفر بهم وهدم بيت ذى الخلصة وأضرموا فيه النار وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة . وكان لمالك وملكان ابنى كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل له مؤبلة[١] ليقفها عليه ابتغاء بركته فيما يزعم فلما أدناها منه ورأته وكان يهراق[٢] عليه الدماء نفرت منه فذهبت فى كل وجه فغضب ربها فتناول حجراً فرماه به وقال (لا بارك الله فيك إلهاً انفرت على إبلى) ثم خرج فى طلبها حتى جمعها . ثم انصرف وهو يقول :

أتينا إلى (سعد) ليجمع شملنا   فشتتنا (سعد) فلا نحن من سعد

وهل (سعد) إلا صخرة بتنوفة   من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد[٣]

وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له « مناة » أيضاً فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابنه ومعاذ بن عمرو وغيرهم ممن أسلم وشهد العقبة كانوا يدلجون[٤] بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذرات[٥] الناس منكساً على رأسه فاذا أصبح عمرو قال (ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟) قال ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه . ثم قال : والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته فاذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك فيغدوا يلتمسه فيجد به مثل ما كان من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له (والله إنى لا أعلم من يصنع بك ما ترى فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك) فلما أمسى ونام غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس فغدا عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج

---

(١) كمعظمة اتخذت القنية (٢) اى يصب (٣) التنوفة : المفازة والقفر من الارض وقيل الارض الواسعة البعيدة ما بين الاطراف أو الفلاة التى لا ماء فيها ولا انيس وان معيشة والجمع تنائف

(٤) يقال أدلج ادلاجا مثل أكرم اكراما سار الليل كله فهو مدلج فان خرج آخر الليل فقد ادلج بالتشديد (٥) اى خرؤهم وغائطهم .

يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه أبصر شأنه وكله من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه . فقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصره من أمره و يشكر الله تعالى إذ أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة .

والله لو كنت إلَهاً لم تكن … أنت وكلب وسطَ بئرٍ فى قرن (١)
أفٍّ لملقاك آله مستدن … الآن فتشناك عن سوء الغبن (٢)
الحمد لله العلى ذى المنن … الواهب الرزاق ديان الدين (٣)
هو الذى أنقذنى من قبل أنْ … أكون فى ظلمة قبر مرتهن

وكان لدوس ثم لبنى منهب بن دوس صنم يقال له « ذو الكفين » فلما أسلموا بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسى فحرقه وهو يقول :

ياذا الكفين لست من عبادكا … ميلادنا أكبر من ميلادكا
إنى حشوت النار فى فؤادكا

وكان لبنى الحرث بن يشكر من الأزد صنم يقال له « ذو الشرى » وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطَفَان صنم فى مشارف الشام يقال له « الأقيصر »

---

(١) القرن : الحبل ، وفى الحديث : الحياء والايمان فى قرن اى مجموعان فى حبل (٢) اف : كلمة تضجر ، ومستدن : من السدانة وهى خدمة البيت وتعظيمه ، والغبن فى الراى يقال غبن رايه كما يقال سفه نفسه فنصبوا لان المعنى خسر نفسه وأو بقها وافسد رايه ونحو هذا (٣) قوله ديان الدين : جمع دينة وهى العادة ويقال لها دين ايضا قال ابن الطثرية واسمه يزيد :

ارى سبعة يسعون للوصل كلهم … له عند ليلى (دينة) يستدينها
فالقيت سهمى بينهم حين اوخشوا … فما صار لى فى القسم الا ثمينها

ويجوز ان يكون اراد بالدين الاديان أى هو ديان أهل الاديان ولكن جمعها على (الدين) لانها ملل ونحل كما قالوا فى جمع الحرة حرائر لانهن فى معنى الكرائم والعقائل وكذلك مرائر الشجر وان كانت الواحدة مرة ولكنها فى معنى فعيلة لانها عسيرة فى الذوق وشديدة على الاكل وكريهة اليه . . .
ويروى بعد الابيات هذا الشعر :

بأحمد المهدى النبى المرتهن

وكان لمزينة صنم يقال له « نهم » وبه سمت عبد نهم . وكان سادنه خُزاعى بن عبد نهم من مزينة فلما سمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثار إلى الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت إلى (نُهْم) لأذبح عنده عتيرة نسك كالذى كنتُ أفعل [1]
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها : أهذا إله أبكمٌ ليس يعقل ؟
أبيت ! فدينى اليوم دين (محمد) إله السماء الماجد المتفضل

ثم لحق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم وضمن إسلام قومه مزينة وكان لأزد السَّراة صنم يقال له « عائم » بالهمزة وكان لعنزة صنم يقال له « سُعَيْر » فخرج ابن أبى خلاس الكلبى على ناقته فمرت به وقد عترت عنده عتيرة فنفرت ناقته منه فأنشأ يقول :

نَفَرتْ قَلوصى من عتائر صرعت حولَ (السُّعَير) يزوره ابنا يَقْدُم [2]
وجموعُ يذكُرَ مهطعين جنابةً ما إن يحير إليهم بتكلم [3]

قال أبو المنذر يقدم ويذكر ابنا عَنَزَة فرأى بنى هؤلاء يطوفون حول السعير . وكان لبكر بن وائل صنم يقال له « عوض » قال قائلهم :

حلفت بمائراتٍ حول (عوض) وأنصابٍ تركن لدى (السُّعَيْر)

فقد حلف بالدماء المائرات أى الجاريات على وجه الأرض حول عوض .

ومن عادة المشركين أنهم كانوا يذبحون ذبائح لأصنامهم فلولا أن (عوضاً) صنم لما ذبح له شيء ولما حلف بالدماء التى حوله تعظيما له ويدل على كونه صنما ذكره مع (السُّعَيْر) وهو بالتصغير . والبيت قائله رُشَيْد بن رُمَيْض (بالتصغير فيهما) العنزى . وبعده :

---

(١) العتيرة : شاة كانوا يذبحونها فى رجب لاصنامهم فنهى الشارع صلى الله عليه وسلم بقوله : (لافرع ولا عتيرة) والجمع عتائر ، والنسك : التطوع بقربة (٢) القلوص كصبور : الناقة الشابة ، والصرع : الطرح على الارض (٣) أهطع : مدعنقه وصوب رأسه كاستهطع . وكمحسن من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع فى بصره

أجوب الأرض دهراً إثر عمرٍو ولا يلفى بساحته بعيرى

وكان لِخَوْلان صنم يقال له « عُمْيانس » يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه و بين الله تعالى بزعمهم فما دخل فى حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه وما دخل فى حق الصنم من حق الله الذى سموه له تركوه . وفيهم نزل فيما بلغنا (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) وكان لجديلة طيّء صنم يقال له «اليعبوب» وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا اليعبوب بعده قال عبيد :

فتبدلوا (اليعبوبَ) بعد إلههم صنما فقروا يا (جديل) وأعذبوا

أى لا تأكلوا على ذلك ولا تشربوا . وكان للأزد فى الجاهلية ومن جاورهم من طيء وقضاعة صنم يقال له « باجَر » بالموحدة وبالجيم المفتوحة وربما كسرت وكانوا يعبدونه إلى غير ذلك مما يطول . وعن أبى رجاء العطاردى قال : لما بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار قال : وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وقال أيضاً : كنا نعمد إلى الرمل فنجمّعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه . وعن أبى عثمان النهدى يقول : كنا فى الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرجال إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً ! قال : فخرجنا كلّ صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه ! وإذا حجر فنحرنا عليه الجزور .

ولما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما فجعل يطعن بسية قوسه فى وجوهها وعيونها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) وهى تتساقط على رؤوسها ثم أمر بها فأخرجت

من المسجد وحرقت . وكان لبنى الحرث كعبة بنجران يعظمونها وكان أبرهة الأشرم بنى بيتاً بصنعاء سماها (القَلِيس) بفتح القاف وكسر اللام وضبطه صاحب القاموس بضم القاف وفتح اللام المشددة بناها بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب إلى ملك الحبشة : إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد ولست تاركاً العربَ حتى أصرف حجهم عن الكعبة . فبلغ ذلك بعض نَسَأَة الشهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها ففعلا فلما بلغه ذلك غضب وخرج بالفيل والحبشة فكان من أمره ما أسلفناه فى أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب . وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة . قال أبو المنذر : المعمول من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو صنم وإذا كان من حجارة فهو وثن . هذا ملخص ما ذكره من الأصنام ولأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كتاب الأصنام أيضا وقد أبدع فيه . وفى تاريخ مكة للإمام الأزرقى تفصيل كيفية عبادة العرب لها على أتم وجه . وكتب السير لا تخلو عن شيء من ذلك .

أسباب أخر لعبادة الأصنام

قال ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما يروى عن هشام عن أبيه ، أنه قال : كان ود وسُواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين فماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم فقال رجل من بنى قابيل : يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن

أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا : نعم ! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه و يسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول وكانت عملت على عهد برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم . ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشدّ من تعظيم القرن الأول . ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ! فعبدوهم وعظموا أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله إليهم (إدريس) فدعاهم فكذبوه فرفعه الله مكاناً عليًّا ولم يزل أمرهم يشتد فيما قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس حتى أدرك نوح فبعثه الله نبياً وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم إلى الله فى نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فأمره الله أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة وغرق من غرق ومكث بعد ذلك ثلاث مائة وخمسين سنة فكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة فأهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض (جدة) فلما نضب الماء بقيت على الشط ونسفت الريح عليها حتى وارتها .

قلت : ظاهر القرآن يدل على خلاف هذا وأن نوحاً لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وأن الله أهلكهم بالغرق بعد أن لبث فيهم هذه المدة . . قال الكلبى : وكان عمرو بن لحى كاهناً وله رِئِى [1] من الجن فقال (عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، ائت جدة ، تجد أصناماً معدة . فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب) فأتى نهر جدة فاستثارها فحملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة ابن زيد اللات فدفع إليه وداً فحمله فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبدود فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامراً سادناً فلم يزل بنوه

---

(١) على وزن غنى ويكسر : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة أو طبا وفى حديث قال لسواد بن قارب : انت الذى أتاك رئيك بظهور رسول الله ، قال : نعم

مسدنين حتى جاء الله بالإسلام . قال الكلبي : فحدثني مالك بن حارثة أنه رأى ودًّا قال وكان أبي يبعثني باللبن إليه فيقول (أسقه إلهك) فأشربه . قال : ثم رأيت خالد بن الوليد كسره فجعله جذاذاً [1] . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم فقتلهم وهده وكسره . قال الكلبي : فقلت لمالك بن حارثة « صف لي ودًّا حتى كأني أنظر إليه » قال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر (أي نقش) عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وقصعة فيها نبل يعني جعبة . . وأجابت عمراً المذكور كثير من القبائل وقد ذكرنا قريباً ما يغني عن الإعادة . ولهذا لعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً وقال : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل [2] فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلًا وإما عناداً لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئاً . وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين وأما خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحجاباً وحجًّا وقرباناً ولم تزل هذه في الدنيا قديماً وحديثاً فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كان به أصنام أخرجها

---

(١) اى فتانا ، ومنه قيل السويق الجذيذ ، ويقال : جذ الله دابرهم أى استأصلهم (٢) ليعتبر المسلمون فى اقطار الأرض بكلام نبيهم الاعظم ! فاين هو من عنايتهم اليوم بتشييد القباب على القبور ؟ واين هو من تعظيمهم الموتى تعظيما يأباه العقل والشرع ؟ واين هو من السجود على أعتاب المشاهد والتبرك بالاحجار ؟ واين هو من سوق الهدايا والقرابين الى مشاهد الاولياء ؟ فما هذا الضلال المبين وما هذا المروق من الدين ؟ فهل أبيتم ايها المسلمون الاخلاف اوامر نبيكم فضارعتم أهل الجاهلية عباد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أم أضلكم أحباركم أحبار السوء فانتم على آثارهم مهتدون ؟

لا يعجبنك ماترى من قبة ضربوا على موتاهم وطراف
هجموا على الحق المبين بباطل وعلى سبيل القصد بالاسراف

بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار . ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة فخربه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخربه المعتصم . وأشد الأمم فى هذا النوع من الشرك الهند قال يحيى بن بشر : إن شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له (برهمن) ووضع لهم أصناماً وجعل أعظم بيوتها بيتاً بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولى الأكبر وفتحت هذه المدينة فى أيام الحجاج واسمها الملتان فأراد المسلمون قلع الصنم فقيل (إن تركتموه ولم تقلعوه جعلنا لكم ثلث ما يجتمع له من المال) فأمر عبد الملك بن مروان أن يتركه ، فالهند تحج إليه من نحو ألفى فرسخ ولا بد لمن يحجه أن يحمل معه من النقد ما يمكنه من مائة إلى عشرة آلاف لا يكون أقل من هذا ولا أكثر فيلقيه فى صندوق هناك عظيم و يطوف بالصنم فإذا ذهبوا ورجعوا إلى بلادهم قسم ذلك المال فثلثه للمسلمين وثلثه لعمارة المدينة وحصونها وثلثه لسدنة الصنم ومصالحه ، وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة وهم قوم إبراهيم الذين ناظرهم فى بطلان الشرك وكسرحجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه وهومذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى .

فمنهم عباد الشمس

زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهى أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهى عند ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت و يصلون فيه لها ثلاث كرات فى اليوم و يأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم و يصلون و يدعونه و يستشفعون

به . وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها و إذا غربت و إذا توسطت الفلك ولهذا يقارنها الشيطان فى هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ولهذا نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن تحرى الصلاة فى هـذه الأوقات قطعاً لمشابهة الـكفار ظاهراً وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام .

وطائفة أخرى اتخذت القمر صنما

وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة و إليه تدبير هذا العالم السفلى ومن شريعة عبادتهم أنهم اتخذوا له صنما على شـكل عجل و بيد الصنم جوهرة يعبدونه و يسجدون له و يصومون له أياماً معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه . ومنهم من يعبد أصناماً اتخذوها على صورة الـكواكب وروحانيتها بزعمهم و بنوا لها هياكل ومتعبدات لـكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ومتى أردت الوقوف على هـذا فانظر فى كتاب « السر المـكتوم فى مخاطبة النجوم » المنسوب إلى ابن خطيب الرى تعرف سر عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها . وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام فإنهم لا تستمر لهم طريقة إلا بشخص خاص على شـكل خاص ينظرون إليه و يعكفون عليه . ومن ههنا اتخذ أصحاب الروحانيات والـكواكب أصناماً زعموا أنها على صورتها فوضع الصنم إنما كان فى الأصل على شـكل معبود غائب فجعل الصنم على شـكله وهيئته وصورته ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه ، و إلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجراً بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده .

(ومن أسباب عبادة الأصنام) أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطتهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتـكلم المخاطب وعقلاؤهم يقولون : إن

تلك روحانية الأصنام و بعضهم يقول : إنها الملائكة و بعضهم يقول : إنها العقول المجردة و بعضهم يقول : هى روحانيات الأجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهًا ولا يسأل عما وراء ذلك . وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم وعبادتها فى الأرض من قبل نوح كما تقدم وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبق الأرض . قال إمام الحنفاء صلى الله تعالى عليه وسلم (واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس) . والأمم التى أهلكها الله بأنواع الهلاك كلهم كانوا يعبدون الأصنام كما قص الله تعالى ذلك عنهم فى القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين ويكفى فى معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض ما صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . وقد قال الله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) وقال (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) . وقال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل النفوس وأموالهم وأبنائهم ، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم وما يزيدهم ذلك إلا حباً لها وتعظيما ويوصى بعضهم بعضاً بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره فى نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التى فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها . ففتنة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها . والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبة فى الدنيا والآخرة وهو يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر غير ما أعد الله تعالى له فى الآخرة وفى البرزخ ولا يزيده ذلك إلا إقداماً وحرصاً على الوصول والظفر بحاجته . فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام وأشد فإن تأله القلوب بها أعظم من تألهها للصور التى

يراد منها الفاحشة بكثير . والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرحة ببطلان هـذا الدين وكفر أهله وأنهم أعداء الله تعالى و رسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهـل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات[1] . ونزلت بهم العقوبات . وأن الله سبحانه برىء منهم هو وجميع رسله وملائـكته وأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا . وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف وقد أباح الله لرسـوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة فهؤلاء فى شق و رسل الله فى شق . (ومن أسـباب عبادة الأصـنام) الغلو فى المخلوق و إعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظًّا من الإلهية وشبهوه بالله سبحانه وهذا هو التشبيه الواقع فى الأمم الذى أبطله الله سبحانه و بعث رسله وأنزل كتبه فإنـكاره الرد على أهله فهو سبحانه ينفى و ينهى أن يجعل غـيره مثلا له وندًّا له وشبهاً له لا أن يشبه هو بغـيره إذ ليس فى الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مِثْلا لشىء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصـلا وشبهت به الخالق . فهـذا لا يعرف فى طائفة من طوائف بنى آدم و إنمـا الأول هو المعروف فى طوائف أهل الشرك غَلَوْا فيمن يعظمونه و يحبونه حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الإلهيـة بل صرحوا أنه الإله وأنـكروا جعل الآلهة إلها واحداً وقالوا (اصبروا على آلهتكم) وصرحوا بأنه إلٰه معبود يرجى و يخـاف و يعظم و يسجد له و يحلف باسمه وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التى لا تنبغى إلا لله فـكل مشرك فهو مشبه لإلٰهه ومعبوده بالله سـبحانه و إن لم يشبهه به من كل وجـه حتى إن الذين وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم : إن الله فقـير وإن يد الله مغلولة وإنه استراح لمـا فرغ من خلق العالم والذين جعلوا له ولداً وصـاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً لم يكن قصـدهم أن يجعلوا المخلوق أصلا ثم يشبهون به الخـالق

(١) المثلات : العقوبات واحدها مثلة ، ويقال المثلات : الاشياء والامثال مما يعتبر به

تعالى بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً لا قصد أن يكون غيره أصلاً فيها وهو مشبه به . ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل لكونها فى نفسها نقائص وعيوباً ليس جهة البطلان فى اتصافه بها هو التشبيه والتمثيل فلا يتوقف فى نفيها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه كما يفعله بعض أهل الكلام الباطل حيث صرحوا بأنه لا يقوم دليل عقلى على انتفاء النقائص والعيوب عنه وإنما تنفى عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل .

وأطال الكلام ابن القيم فى هذا المقام إلى أن قال : والمقصود أنه لم يكن فى الأمم من مثله بخلقه وجعل المخلوق أصلا ثم شبهه به . وإنما كان التمثيل والتشبيه فى الأمم حيث شبهوا أوثانهم ومعبوديهم به فى الإلهية وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام والقرآن مملوء من إبطال أن يكون فى المخلوقات من يشبه الرب تعالى أو يماثله فهذا هو الذى قصد بالقرآن إبطالاً لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله غيرَه قال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق والند الشِبْه يقال فلان ند فلان وند نده أى شبهه ومثله . ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بنِد فشركما لخيركما الفداء [1]

وقال جرير :

أيما تجعلون إلىَّ نداً وما تَيْمٌ لذى حسب نديد

ثم قال بعد كلام : فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق فى

---

(١) الاستفهام للانكار ، اى ماكان ينبغى لك أن تهجوه ولست من اكفائه ونظرائه فلم تنصفه ، وقوله فشركما لخيركما الفداء مع علمه أن رسول الله (ص) خيرهما بلا ريبة — جار على أسلوب الكلام المنصف وهو ان ينصف المتكلم من نفسه أو ممن يتكلم من جهته فيضطرب السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا لانكاره والمنازعة فيه . نحو (وانا أو اياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين فان من المعلوم ان المتكلم ومن معه على هدى وان المخاطبين فى ضلال وانما ابهم الامر بين الفريقين ليكون أدعى المخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد حيث يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وانصفه

العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به والنذر له والسجود له والعكوف عند بيته وحلق الرأس له والاستغاثة به والتشريك بينه و بين الله تعالى فى قولهم ليس إلا الله وأنت وأنا متكل على الله وعليك وأنا فى حسب الله وحسبك وما شاء الله وشئت وهذا لله ولك وأمثال ذلك فهؤلاء هم المشبهة ، فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة فى الأرض بعبادة الأصنام وتبين له سر القرآن فى الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة والله سبحانه الهادى إلى سواء الطريق .

وصنف من العرب دهريون

وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم (ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) وهؤلاء فرقتان . فرقة قالت « إن الخالق سبحانه خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقته ولم يقدر على ضبطها و إمساك حركتها » وفرقة قالت « إن الأشياء ليس لها أول ألبتة و إنما تخرج من القوة إلى الفعل فاذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها و بسائطها من ذاتها لا من شىء آخر » وقالوا « إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل و يضمحل إلا وهو يبطل و يضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى فيه » وهؤلاء هم المعطلة حقاً . وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى عند الكلام على الدهرية ما حاصله : وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا الطبع المحيى والدهر المفنى وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد بقوله تعالى : « مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْر » إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر .ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . فاستدل عليهم بضروريات فكرية فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِين » .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى مَاخَلَقَ اللهُ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ . يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » . فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق فإنه قادر على الكمال إبداء و إعادة . وقال سبحانه « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[1] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقال عز اسمه « أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد » . وفى كتاب (مفتاح دار السعادة) رداً لقول من يقول بالطبيعة : وكأنى بك أيها المسكين تقول هذه المكونات كلها من فعل الطبيعة وفى الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبريني عن هذه الطبيعة أهى ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمتبوع تابعة له محمولة فيه ؟ فإن قالت لك هى ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارىء المصور فلم تسميه طبيعة فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت فى جملة العقلاء السعداء فإن هذا الذى وصفت به الطبيعة صفته تعالى . وإن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التى تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا فعل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذه إلا دخول فى سلك المجانين والمبرسمين[2] ، ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن هذه الصفة

(١) اى بالية ، يقال : رم العظم اذا بلى (٢) البرسام علة يهذى فيها ، وهو =

ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها ؟ مَنْ طبعها وجعلها تفعل ذلك ؟ فهى إذاً من أدل الدليل على باريها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجدك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا لمخالفتك لموجب العقل والفطرة ولو حكمناك إلى الطبيعة لأريناك أنك خارج عن موجبها فلا أنك مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا . فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن محكم إلا من صانع قادر مختار مدبّر عليم بما يدبر قادر عليه لا يعجزه ولا يصعب عليه ولا يؤوده . قيل لك : فقد أقررت — ويحك — بالخلاق العظيم الذى لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أوعقلا فعالا أو موجباً بذاته وقل هـذا هو الخالق البارىء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأرضين رب المشارق والمغارب الذى أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما صنع فما لك جحدت أسماءه وصفاته بل وذاته وأضفت صنعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليـه ولا بد فالحمـد لله رب العالمين انتهى . وللآمدى كلام لطيف مع القائلين بالطبيعة فى كتابه (أبكار الأفـكار) فارجع اليه . ولولا أن هذا الداء قد سرى فى أكثر أقطار الارض لما تعرضنا لرده فإن ذلك ليس من موضوع الـكتاب . ومن قال بالدهر أثبت له صفات الـكمال كالعلم والقدرة وغير ذلك قال قائلهم[١] :

مَنَعَ البقاء تقلب الشمس   وطلوعُها من حيث لا تُمسى
وطلوعُها حمراء صافيةً   وغروبُها صفراء كالورس[٢]
تجرى على كَبِدِ السماء كما   يجرى حِمام الموت فى النفس[٣]

ورم حار يعرض الحجاب الذى بين الكبد والامعاء ثم يتصل الى الدماغ ، وقد برسم الرجل فهـو مبرسم وكأنه مركب من (بر) و (سام) وبر بالفارسيـة الصدر وسام هو الموت نقله الازهرى

(١) أى لا يثقله ولا يشق عليه (٢) قيل : القائل تبع الاقرن . وقال القالى : هو روح بن رباح ، وقيل غيرهما (٣) الورس : نبت اصفر يزرع باليمن ويصبغ به . وقيل : صنف من الكركم . وقيل يشبهه (٤) حمام الموت : قضاء الموت وقـدره

أليومَ أعلم مايجىء به ومضى بفصلِ قضائهِ أمسِ[1]

و بمقتضى ماتقرر أنه لافرق بين القـائلين بالدهر والطبيعيين ، و بعضهم يفرق ففى (شرح المقاصد) للسعد التفتازانى فى تفصيل فرق الـكفار : قد ظهر أن الكافر اسم لمن لا إيمان له فإن أظهر الإيمان خُصّ باسم المنافق و إن طرأ كفر بعد الإسلام خص باسم المرتد لرجوعه عن الإسـلام فإن قال بإلهين أو أكثر خص باسم المشرك لإثباته الشركة فى الألوهية و إن كان متديناً ببعض الأديان والـكتب المنسوخة خص بالـكتابى كاليهودى والنصرانى و إن كان يقول بقدم الدهر و إسـناد الحوادث إليه خص باسم الدَّهْرىّ و إن كان لايثبت البارى سـبحانه خص باسم المعطل و إن كان مع اعترافه بنبوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم و إظهار عقائد الإسـلام يبطن عقائد هى كفر بالاتفاق خُصّ باسم الزنديق وهو فى الأصل منسوب إلى (زند) اسم كتاب أظهره (مزدك) فى أيام (قباد) وزعم أنه تأمل كتاب المجوس الذى جاء به (زرادشت) الذى يزعمون أنه نبيهم انتهى . وهو اصـطلاح جديد ولا مشاحة فيه .

وصنف من العرب يصبو إلى الصابئة

وهم من يعتقد فى الأنواء[2] اعتقـاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنَوْء من الأنواء و يقول مطرنا بنوء كذا وسيجىء تفصيل ذلك عند الـكلام على علومهم . والصابئة أمة كبيرة من الأمم الـكبار ، وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً بحسب ماوصل إليهم من معرفة دينهم وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر . قال تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى

(١) اليوم : منصوب على الظرفية بفى مقدرة وهو متعلق بأعلم وهو على تقدير لا اعلم وامس فاعل مضى محله رفع وهذا مذهب الحجازيين لتضمنه معنى لام التعريف والكسرة فيه لالتقاء الساكنين ولبنائه عندهم شروط ليس هذا محل ذكرها ، والبيت من شواهد النحو (٢) جمع نؤ وهو النجم مال للغروب ، او سقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته فى الشرق

وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون » فذكرهم فى الأمم الأربع الذين تنقسم كل أمة منهم إلى ناج وهالك . وذكرهم أيضاً فى الأمم الست الذين انقسمت جملتهم إلى ناج وهالك كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فذكر الأمتين اللتين لا كتاب لهم ولا ينقسمون إلى شقى وسعيد وهم المجوس المشركون فى آية الفصل ولم يذكرهم فى آية الوعد بالجنة وذكر الصابئين فيهما ، فعلم أن فيهم الشقى والسعيد وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل عليه السلام وهم أهل دعوته وكانوا بحران فهى دار الصابئة وكانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين . والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ويصورونها فى هياكلهم . ولتلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة وهى المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى والبِيَع لليهود ، فلهم هيكل كبير للشمس ، وهيكل للقمر وهيكل للزهرة ، وهيكل للمشترى ، وهيكل للمريخ ، وهيكل لعُطارد ، وهيكل لزحل ، وهيكل للعلة الأولى ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة ويصورونها فى تلك الهياكل ويتخذون لها أصناماً تخصها ويقربون لها القرابين ولها صلوات خمس فى اليوم والليلة نحو صلوات المسلمين .

وطوائف منهم يصومون شهر رمضان ويستقبلون فى صلواتهم الكعبة ويعظمون مكة ويرون الحج إليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ويحرمون من القرابات فى النكاح ما يحرم المسلمون وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابئ صاحب الديوان الإنشائى وصاحب الرسائل المشهورة وكان يصوم مع المسلمين ويعبد معهم ويزكى ويحرم المحرمات وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين وليس على دينهم . « وأصل دين هؤلاء » فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً

وعملا ولهذا سموا صابئة أى خارجين فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا ما رأوه فيه من الحق . وكانت كفار قريش تسمى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صابئاً والصحابة الصباة يقال صبأ الرجل بالهمز إذا خرج من شىء إلى شىء وصبا يصبوا إذا مال ومنه قوله تعالى : « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ » أى أميل . والمهموز والمعتل يشتركان فالمهموز ميل عن الشىء والمعتل ميل إليه . واسم الفاعل من المهموز صابئ بوزن قارئ ومن المعتل صاب بوزن قاض وجمع الأول صابئون كقارئون والثانى صابون كقاضون وقد قرئ بهما . والمقصود أن هذه الأمة قد شاركت جميع الأمم وفارقتهم . والحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام فى الحنيفية والمشركون شاركوا عباد الأصنام ورأوا أنهم على صواب وأكثر هذه الأمة فلاسفة والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول ، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك ولهذا لم يكن هؤلاء ولا الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبىّ وإن كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة إلا وقد أقام الله سبحانه عليها حجة وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم . والمقصود أن الصابئة فرق : فصابئة حنفاء ، وصابئة مشركون ، وصابئة فلاسفة ، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقيد بملة ولا نحلة ، ثم منهم من يقر بالنبوّات جملة ويتوقف فى التفصيل ، ومنهم من يقرّ بها جملةً وتفصيلاً ، ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا وهم يقرون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيما مقدساً عن العيوب والنقائص . ثم قال المشركون منهم « ولا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه » وهم الروحانيون والمقربون المقدسون عن المواد الجسمانية وعن القوى الجسدانية ، بل قد جبلوا على الطهارة فنحن نتقرب إليهم ونتقرب

بهم إليه فهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عنـــد رب الأرباب و إله الآلهة فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الغضبية حتى تحصل المناسـبة بيننا و بين الروحانيات وتتصل أرواحنا بهم فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبو فى جميع أمورنا إليهم فيشفعون لنا إلى إلٰهنا و إلٰههم ، وهـذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستعداد من جهة الروحانيات وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات والزكوات وذبح القرابين والبخورات والعزائم ، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بأن نأخذ من المَعْدِن الذى أخذت منه الرسل فيكون حكمنا وحكمهم واحداً ونحن و إياهم بمنزلة واحدة قالوا : « والأنبياء أمثالنا فى النوع وشركاؤنا فى المادة وأشـكالنا فى الصورة يأكلون مما نأكل و يشربون مما نشرب وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا » . فهؤلاء كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسـل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم . أحدهما عبادة الله وحده لا شريك له والـكفر بما يعبد من دونه من إله ، والثانى الإيمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقاً وإقراراً وانقياداً وامتثالا . وليس هذا مختصاً بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم لـكن شرك الصابئة كان من جهة الـكواكب والعلويات . ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه فى بطلان إلٰهيّتها بما حكاه سبحانه فى سورة الأنعام أحسنَ مناظرة وأبينَها ظهرت فيها حجته ودحضت فيها حجتهم ، فقال بعد أن بين بطلان إلٰهية الـكواكب والقمر والشمس بأفولها وأن الإِلٰهَ لا يليق به أن يغيب و يأفل لا يكون إلا شاهداً غير غائب — كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور ، نافعاً لعابده يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه و يرى مكانه و يهديه و يرشده و يدفع عنه كل ما يضره و يؤذيه ، وذلك ليس إلا الله وحده فـكل معبود سواه باطل فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والـكواكب ليست بهذه المثابة

صعد منها إلى خالقها وفاطرها ومبدعها فقال : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » . وفى ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التى هى مفتقرة إليها ولا قوام لها إلا بها فهى محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها و يدبرها و يربّها والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهاً فحاجَّهُ قومه فى الله ومن حاج فى عبادة الله فحجته داحضة فقال إبراهيم : « أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي » وهذا من أحسن الكلام أى أتريدون أن تصرفونى عن الإقرار بربى وتوحيده وعن عبادته وحده وتشككونى فيه وقد أرشدنى و بين لى الحق حتى استبان لى كالعيان و بين لى بطلان الشرك وسوء عاقبته وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة وأن عبادتها توجب لعابدها غاية الضرر فى الدنيا والآخرة فكيف تريدون منى أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به وقد هدانى إلى الحق وسبيل الرشاد فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ، ومجادلتكم إياى فى الإله الحق الذى كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذى يألهه مع الله أن يناله بسوء . فقال الخليل : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » فإن آلهتهم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها . ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده وأنه هو الذى يخاف و يرجى فقال : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً » والمعنى لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة لكن إن شاء ربى شيئاً نابنى وأصابنى لا آلهتكم التى لا تشاء ولا تعلم شيئاً وربى له المشيئة النافذة قد وسع كل شىء علماً ، فمن أولى بأن يخاف و يعبد هو سبحانه : أم هى ؟ ثم قال : « أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » فتعلمون بطلان ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئاً بمن له المشيئة التامة والعلم التام . ثم قال : « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً » وهذا من أحسن قلب الحجة وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله و بطلان مذهبه فإنهم خوفوه بآلهتهم التى لم ينزل الله عليهم

سلطاناً بعبادتها وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى فأىّ الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف فريق الموحدين أم فريق المشركين ؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذى لاحكم أصح منه فقال : « اَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ (أى بشرك) أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون » ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ! فقال : « إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم » فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن وللمشركين بضد ذلك وهو الضلال والخوف ثم قال : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم » قال أبو محمد بن حزم : وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا الحوادث وبدلوا شرائعه فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام الذى نحن عليه اليوم وتصحيح ما أفسدوه وبالحنيفية السمحة التى أتانا بها محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عند الله وكانوا فى ذلك الزمان وبعده الحنفاء . قلت : هم قسمان صابئة مشركون وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات وقد حكى الشهرستانى بعض مناظراتهم ، والله ولى الهداية والتوفيق .

وصنف من العرب زنادقة

وهم طائفة من قريش . قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) عند الكلام على أديان العرب فى الجاهلية : وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة . وفى القاموس : الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان أو هو معرب زن دين أى دين المرأة والاسم الزندقة . وقد ألف ابن الكمال رسالة فى بيان معنى هذا اللفظ قال فيها : وأما الذى ذهب إليه صاحب القاموس من أنه معرب زن دين فلا وجه

له كما لا يخفى و (زند) اسم كتاب أظهره (مزدك) رئيس الفرقة المزدكية من الفرق الثنوية في زمن كسرى بن أنو شروان والمزدكية غير المانوية أصحاب مانى الحكيم[١] الذى ظهر فى زمن سابور بعد بعث عيسى عليه الصلاة والسلام . ثم قال بعد كلام طويل ، قال فى الصحاح : الزنديق من الثنوية وهو معرب والجمع الزنادقة والهاء عوض عن الياء المحذوفة وأصله الزناديق والاسم الزندقة أو نافيا للصانع الحكيم قائلا لو كان له وجود لما كان الأمر كذا . والذى يظهر لى أن مراد ابن قتيبة من الزندقة التى نسبها الى بعض العرب اعتقاد الثنوية أو القائل بالنور والظلمة بمقتضى قوله أخذوها من الحيرة فإنها كما أسلفنا فى الكلام على ملوك الحيرة من بلاد الفرس وان كان سكنتها وملوكها من العرب المتدينين بدين الفرس أو دين المسيح ولو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة و بالربوبية لم يكن لأخذها من الحيرة وجه فإن كثيراً من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده ما ذكرنا فلا بد من بيان ما كان عليه الثنوية والقائلين بالنور والظلمة ليتبين المقصود .

بيان معتقدات الثنوية

وهم طائفة قالوا : الصانع اثنان ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين وهما مختلفان فى النفس والصورة متضادان فى الفعل والتدبير فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شىء من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح المنظر ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة منتنة مضرة منها الشر

---

(١) هو رجل يقول : الخير من النهار والشر من الليل ، وانتحل هذاالمذهب وقد رد عليه المتنبى فقال :

وكم لظلام الليل عندى من يد ... تخبر ان المانوية تكذب
وقاك ردى الاعداء تسرى اليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

والفساد ، ثم اختلفوا فقالت فرقة منهم : إن النور لم يزل فوق الظلمة . وقالت فرقة : بل كل واحد منهما إلى جانب الآخر . وقالت فرقة : النور لم يزل مرتفعاً فى ناحية الشمال والظلمة منحطة فى الجنوب ولم يزل كل واحد منهما مبايناً لصاحبه وزعموا أن لكل واحد منهما أربعة أبدان وخامس هو الروح ، فأبدان النور الأربعة الماء والنور والريح والماء وروحه النسيم ولم يزل متحركا فى هذه الأبدان ، وأبدان الظلمة الأربعة الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان وسموا أبدان النور ملائكة وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت و بعضهم يقول : الظلمة تولد شياطين ، والنور يولد ملائكة ، والنور لا يقدر على الشر ولا يجىء منه والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجىء منها . ولهم مذاهب سخيفة جداً وفرض عليهم صوم سبع العمر وأن لا يؤذى أحد منهم ذا روح ألبتة ومن شريعتهم أن لا يدخروا إلا قوت يوم ويجتنب الكذب والبخل والسحر وعبادة الأوثان والزنى والسرقة ، واختلفوا هل الظلمة قديمة أو حادثة فقالت فرقة منهم : هى قديمة لم تزل مع النور ، وقالت فرقة : بل النور هو القديم ولكنه فكر فكرة ردية حدثت منها الظلمة . فدار مذهبهم على أصلين من أبطل الباطل . أحدهما : أن شر الموجودات وأخبثها وأردأها كفء لخير الموجودات وضد له ومناوئ له يعارضه ويضاده ويناقضه دائماً ولا يستطيع دفعه وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام الذين عبدوها لتقربهم إلى الله فإنهم جعلوها مملوكة له مربوبة مخلوقة كما كانوا يقولون فى تلبيتهم « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » الأصل الثانى أنهم نزهوا النور أن يصدر منه شر ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده وأثبتوا إلهين وربين وخالقين فجمعوا بين الكفر بالله وأسمائه وصفاته ورسله وأنبيائه وملائكته وشرائعه وأشركوا به أعظم الشرك . وحكى أرباب المقالات عنهم أن قوماً منهم يقال لهم (الديصانية) زعموا أن طينة العالم كانت طيبة حسنة ؛ وكانت تحاكى جسم النور الذى هو البارئ عندهم زماناً فتأذى بها فلما طال ذلك

عليه قصد تنحيتها عنه فتحول فيها واختلط بها فتركب من بينهما هـذا العالم المشتمل على الظلمة والنور فما كان من جهة الصلاح فمن النور وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة . قال : وهؤلاء يغتالون الناس ويخنقونهم ويزعمون أنهم يحسنون إليهم بذلك وأنهم يخلصون الروح النورانية من الجسد المظلم . وقال بعضهم : إن البارئ سبحانه لما طالت وحدته استوحش ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته فاستحالت ظلمة فحدث منها إبليس فرام البارئ إبعاده عن نفسه فلم يستطع فتحرز منه بخلق الجنود والخيرات فشرع إبليس فى خلق الشر ، وأصل عقد مذهبهم الذى عليه خواصهم إثبات القدماء الخمسة البارئ . والزمان . والخلاء . والهيولى[1] وإبليس . فالبارئ خالق الخيرات . وإبليس خالق الشرور ، وكان (محمد ابن زكريا الرازى) على هذا المذهب لكنه لم يثبت إبليس فجعل مكانه النفس وقال بقدم الخمسة مع رشحة به من مذاهب الصابئة والدهرية والفلاسفة والبراهمة فكان قد أخذ من كل دين شرّ ما فيه ، وصنف كتاباً فى إبطال النبوّات ورسالة فى إبطال المعاد فركب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم وقال أنا أقول إن البارئ والنفس والهيولى والزمان والمكان قدماء وإن العالم محدث . قيل له : فما العلة فى إحداثه ؟ قال : إن النفس اشتهت أن تتخيل فى هذا العالم وحركتها الشهوة لذلك ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا انحلت فيه فاضطربت وحركت الهيولى حركات مشوشة مضطربة على غير نظام وعجزت عما أرادت فأعانها البارئ على إحداث العالم وحملها على النظام والاعتدال . وعلم أنها إذا ذاقت وبال ما اكتسبته عادت إلى عالمها وسكن اضطرابها وزالت شهواتها واستراحت فأحدثت هذا العالم بمعاونة البارى لها . قال : ولولا ذلك لما قدرت على إحداث هـذا العالم ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم ! نسأله سبحانه العصمة من الخذلان .

---

(١) هى فى كلام المتكلمين اصل الشىء قال فى المزهر : فان يكن (اى لفظ الهيولى) من كلام العرب فهو صحيح فى الاشتقاق ووزنه فعولى ، وقيل هو مخفف هيئة اولى . والصواب انه لفظ يونانى بمعنى الأصل والمادة . وفى الاصطلاح =

وصنف من العرب عبدوا الملائكة

وهم أفراد من العرب قد رد الله تعالى عليهم بقوله « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » وقال تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ : ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً[1] فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً » وقد تكلم المفسرون على هـذه الآيات بما لا يسعنا إيراده فمن أرادها فليرجع إلى كتب التفاسير .

ومنهم صنف عبدوا الجن

وهم شرذمة قليلون من أهل البوادى قد حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » أى كبراً وعتواً أو غيا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم . فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : (أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه) وقال تعالى : « بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » وقال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » وقال تعالى « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » يعنى قد استكثرتم من إضلالهم و إغوائهم . قال ابن عباس ومجاهد والحسن

= جوهر فى الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال محل للصورتين النوعية والجسمية

(١) البور : الهـلاك

وغيرهم : أضللتم منهم كثيراً فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ) يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم واستمتاع الإنس بالجن أنهم أعانوهم على معصية الله والشرك به بكل مايقدرون عليه من التحسين والتزيين والدعاء وقضاء كثير من حوائجهم واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها فإطاعتهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور وإطاعتهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر . وفى كتاب (اكام المرجان فى أحكام الجان) حدثنا الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الأعمش عن ابراهيم عن أبى معمر قال قال عبد الله بن مسعود : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم فأنزل الله تعالى : (أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) وفى رواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس كانوا يعبدونهم ولا يشعرون .

وصنف منهم عبدوا النار

وهم أشتات من العرب وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس وقد قيل إن عبادة النار كانت فى الأرض من عهد قابيل كما ذكره أبو جعفر بن جرير أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم أتاه إبليس فقال له : إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها وسرى هذا المذهب فى المجوس فبنوا لها بيوتاً كثيرة واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب فلا يدعونها

تخمد لحظة واحدة فاتخذ لها (أفريدون) بيتاً (بطوس) وآخر (ببخارى) ، واتخذ لها (بهمن) بيتاً (بسجستان) واتخذ لها (أبو قتادة) بيتاً (بناحية بخارى) واتخذت لها بيوت كثيرة . وعباد النار يفضلونها على التراب و يعظمونها و يصوبون رأى إبليس وقد رمى بشار بن برد[1] بهذا المذهب لقوله فى قصيدته :

الأرضُ سافلةٌ سوداء مظلمةٌ   والنار معبودةٌ مذ كانت النارُ

و يقولون : إنها أوسع العناصر خيراً وأعظمها جرماً وأوسعها مكاناً وأشرفها جوهراً وألطفها جسما ولا كونَ فى العالم إلا بها ولا نموّ ولا انعقاد إلا بممازجتها . ومن عبادتهم لها أن يحفروا لها أخدوداً مربعاً فى الأرض و يطوفون به . وهم أصناف مختلفة « فمنهم » من يحرم إلقاء النفوس فيها واحتراق الأبدان بها وهم أكثر المجوس « وطائفة أخرى » منهم تبلغ بهم عبادتهم لها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم ولهم سنة معروفة فى تقريب نفوسهم وإلقائهم فيها فيعمد الرجل الذى يريد أن يفعل ذلك بنفسه أو بولده أو حليلته فيجمله و يلبسه أحسن اللباس وأفخر الحلىّ و يركب أعلى المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهى تأجج طرح نفسه فيها فضج الحاضرون صيحة واحدة بالدعاء له وغبطه على ما فعل فلم يلبث إلا يسيراً حتى يأتيهم الشيطان فى صورته وهيئته وشكله لا ينكرون منه شيئاً فيأمرهم بأمره و يوصيهم بالتمسك بهذا الدين و يخبرهم أنه صار إلى الجنة ورياض وأنهار وأنه لم يتألم بمس النار له فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعنهم أن يفعلوا مثله « ومنهم » زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين

(١) هو الشاعر العربى الشهير ، محله فى الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ورئاسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك ـ يغنى عن وصفه وهو من شعراء مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية ، ولد اعمى فما نظر الى الدنيا قط وكان يشبه الأشياء فى شعره بعضها ببعض فيأتى بما لايقدر البصراء ان يأتوا بمثله ... قال الجاحظ : كان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الامم ويصوب رأى ابليس عليه اللعنة فى تقديم عنصر النار على الطين وذكر ذلك فى شعره فقال :

الارض سافلة سوداء مظلمة   والنار معبودة مذكانت النار

عاكفين عليها . ومن سنتهم الحث على الأخلاق الجميلة كالصدق والوفاء وأداء الأمانة والعفة والعدل وترك أضدادها ولهؤلاء شرائع فى عبادتها ونواميس وأوضاع لا يخلون بها « ومن عجائب العقول وتناقضها » فإن طائفة أخرى تعبد الماء من دون الله وتسمى (الحلبانية) وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شىء وبه كل ولادة ونموّ ونشوء وطهارة وعمارة وما من عمل فى الدنيا إلا يحتاج إلى الماء ، ومن شريعتهم فى عبادته أن الرجل منهم إذا أراد عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل فيه حتى يصير إلى وسطه فيقيم هناك ساعتين أو أكثر بقدر ما أمكنه ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين فيقطعها صغاراً فيلقيها فيه شيئاً فشيئاً وهو يسبحه ويمجده فإذا أراد الانصراف حرك الماء بيده ثم أخذ منه فيضعه على رأسه وجسده ثم يسجد وينصرف قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) وكانت المجوسية فى تميم منهم زرارة ابن عدس التميمى وابنه حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم . ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً انتهى . وما ذكر أن حاجب بن زرارة تزوج ابنته ليس من عوائد العرب ولا من مذاهبهم وقد سرى لحاجب هذا المنكر من المجوسية والعرب كانوا يتحرجون من نكاح المحارم على اختلافهم فى المذاهب والمشارب ، وهذا الذى ذكره ابن قتيبة ذكره غيره أيضاً ، قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) حكى أن حاجب بن زرارة وهو سيد بنى تميم نكح بنته وأولدها وقد كان سماها (دخشوس) باسم بنت كسرى وقال فيها حين نكحها مرتجزاً .

يا ليتَ شعرى عنك دختنوسُ ... إذا أتاها الخبر المرموسُ [1]

أتسحب الذيلين أم تميس ... لا بل تميس إنها عروس [2]

---

(١) الخبر المرموس : المكتوم (٢) تسحب : تجر ، وتميس : تتبختر ، وقد نسب هذين البيتين الزمخشرى فى الأساس والزبيدى فى التاج والاصبهانى فى الاغانى الى لقيط بن زرارة ، قال الاصبهانى (الاغانى ج ١٠ ص ٣٨) : =

وهـذا فى قريش من الفواحش انتهى . وترجمة زرارة وابنه الأقرع بن حابس وأبى الأسود مذكورة فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصبهانى وكتاب لب لباب لسان العرب . والأقرع بن حابس أسلم وكان من الصحابة . قال ابن حجر فى (الإصابة) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى المجاشعى الدارمى قال ابن إسحق : وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه . وقال الزبير فى (النسب) كان الأقرع حكما فى الجاهلية وفيه يقول جرير . وقيل غيره لما تنافر إليه هو والفرافصة أو خالد بن أرطأة :

يا أقرعَ بن حابس يا أقرعُ ... إنك إن يصرع أخوك تصرعُ[1]

= دختنوس بنت لقيط بن زرارة وكانت تحت عمرو بن عدس ! وفى تاج العروس (ج ٤ ص ١٤٧): دختنوس كعضرفوط بيت لقيط بن زرارة التميمى وهى معربة أصلها دخترنوش اى بنت الهنىء سماها باسم ابنة كسرى قلبت الشين سينا لما عربت قال لقيط :

ياليت شعرى اليوم دختنوس ... اذا اتاها الخبر المرموس
اتحلق القرون أم تميس ... لابل تميس انها عروس ...اهـ

وليس فى الأصول التى بأيدينا مايشعر بأنها ابنة حاجب وانه قال فيها هذين البيتين حين نكحها مرتجزا ! بل المشهور ان لقيطا قالهما يوم شعب جبلة عند موته ، وجعلت بنو عامر يضربونه وهو ميت فقالت دختنوس :

الا يالها الويلات ويلة من بكى ... لضرب بنى عبس (لقيطا) وقد قضى
لقد ضربوا وجها عليه مهابة ... وماتحمل الضيم الجنادل مزردى
فلو انكم كنتم غداة لقيتم ... (لقيطا) ضربتم بالاسنة والقنا
غدرتم ولكن كنتم مثل خضب ... اضاءت لها القناص من جانب الشرا
فما ثأره فيكم ولكن ثأره ... عليكم حريقا لايرام اذا سما
فان تعقب الايام من فارس تكن ... (شريح) اردته الاسنة او هوى
ليجزيكم بالقتل قتلا مضعفا ... ومافى دماء الخمس يامال من بوا
ولو قتلتنا (غالب) كان قتلها ... علينا من العار المجدع العلى
لقد صبرت للموت (كعب) وحافظت ... (كلاب) وما انتم هناك لمن رأى

(١) حرك مجزوم (أن) بالضم للضرورة الشعرية ، قال سبيويه رحمه الله وقد تقول أن أتيتنى آتيك اى اتيتك ان تأتينى ، قال زهير :

وان أتاه خليل يوم مسألة ... يقول لا غائب مالى ولا حرم

ولا يحسن أن تأتينى اتيك من قبل أن أذهى العاملة وقد جاء فى الشعر قال جرير : يا أقرع بن حابس .. البيت . اى انك تصرع ان يصرع =

قال ابن دريد : اسم الأقرع بن حابس فراس وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه وكان شريفاً فى الجاهلية والإسلام . وروى ابن شاهين أنه لما أصاب عيينة بن حصين بنى العنبر قدم وفدهم فذكر القصة وفيها فكلم الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السبى وكان بالمدينة قبل قدوم السبى وفى ذلك يقول الفرزدق يفخر بعمه الأقرع :

وعند رسول الله قام (ابن حابس) ... بخطة أسوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التى فى قيودها ... مغللة أعناقها فى الشكائم[1]

وصنف من العرب عبدوا الشمس

وهم عرب حمير قبل أن يتهودوا ومنهم قوم بلقيس صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه العزيز فى قوله « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » . روى أن سليمان عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام به ما شاء ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهراً فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى . ولعل فى عجائب قدرة الله تعالى وما خص به من خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ »

= اخوك الخ وقد خرج الرضى البيت على خلاف ما خرجه سيبويه فجعل تصرع جواب الشرط مع مبتدأ محذوف مع الفاء الرابطة والتقدير فانت تصرع والجملة الشرطية خبر (ان) وسيبويه جعل تصرع خبر ان وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله . وهذا الرجز لجرير ويقال : انه لعمرو بن الخثارم

(١) الشكائم جمع شكيمة وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها الفاس كما هو نص الجوهرى وفاس اللجام هى الحديدة القائمة فى اللجام اذا كان ذا عارضة وجد

يعنى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان . « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قيل كان ثلاثين ذراعاً فى ثلاثين عرضاً وسمكاً أو ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر . « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُون . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » إلى آخر الآيات الواردة فى هذه القصة .

وقد آل الأمر بها إلى الإيمان كما يدل عليه قوله « وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ » أى وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام . « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ[1] فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً[2] وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا » روى أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره فى صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنت ماء راكداً فكشفت عن ساقيها « قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ[3] . قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقد اختلف فى أنه تزوجها أو زوجها من ذى تبع ملك همدان . وتفصيل ما كان فى كتب التفسير والتواريخ وقد ذكرنا سابقاً سبب عبادة الشمس وما كان يزعمه فيها عبّادها وشريعتهم فى عبادتها فلا حاجة إلى الإعادة .

---

(١) القصر ، وكل بناء مشرف من قصر أو غيره فهو صرح (٢) اللجة : معظم البحر

(٣) ممرد : مملس . والقوارير جمع قارورة وهى ماقر فيه الشراب أو بخص بالزجاج ، وقوارير من فضة : اى من زجاج فى بياض الفضة وصفاء الزجاج عند المؤولة من المفسرين

وصنف من العرب عبدوا الكواكب

وهم طائفة من تميم عبدوا (الدبران) من النجوم ومن زعمهم الكاذب أن (العيوق) عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً وهى نجوم صغار نحو عشرين نجماً فهو يتبعها أبداً خاطبا لها ولذلك سموا هذه النجوم (القلاص) وعليه قول الشاعر :

أما ابن طوقٍ فقد أوفى بذمته   كما وفى (بقلاص النجم) حاديها [1]

وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا (الشعرى العبور) وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بعث الرسول وخالف قريشاً وغيرهم من العرب فى عبادة الأوثان كانوا يسمونه ابن أبى كبشة لمخالفته لهم كمخالفة أبى كبشة لهم فى عبادة الشعرى وهى التى عناها الله تعالى بقوله : « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » وخصها بالذكر لعبادة من ذكرنا لها أو أن تخصيصها للإشعار بأن النبى عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة فى مخالفتهم خالفه أيضاً فى عبادتها . وفى الكواكب (شعرى الغميصاء) أيضاً ، أما العبور فإنها من نجوم الجوزاء وهى من النجوم التى فى العظم الأول وأصحاب الصور يرسمونها فى (السرطان) . ويسمى (كلب الجبار) وسميت (بالعبور) لأنها على ماحكاه أصحاب اللغة فى أكاذيب العرب وخرافاتها كانت و (الغميصاء) و (سهيل) مجتمعة ولذلك يقال للشعريان (أختا سهيل) فانحدر سهيل فصار يمانياً وتبعته العبور فعبرت (المجرة) وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت . والغمص فى العين نقص وضعف، والشعرى العبور أشد ضياء من الغميصاء . والغميصاء من نجوم الذراع المبسوطة وبينها وبين العبور المجرة

---

(١) حاديها هو الدبران ، قال ذو الرمة :

قلاص حداها راكب متعمم   هجائن قد كادت عليه تفرق

وأصحاب الصور يعدونها فى صورة الكلب الأكبر وهى تقطع السماء عرضاً وليس غيرها من الكواكب كذلك . وبعض طيء عبدوا (الثريا) وهى عدة كواكب مجتمعة . وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم) كمنبر ، والمرزمان نجمان مع الشعريين والرزم بمعنى الجمع ورزم الشتاء رزمة برد وبه سمى نوء المرزم . ويقال إن أحد المرزمان يتبع الشعرى العبور وأصحاب الصور يسمونه (كف الكلب) والآخر هو الكوكب الأخفى من كوكبي الذراع المبسوطة . والقمر عبدته كنانة وقد ذكرنا شرائعهم فى عبادة كل ذلك .

وصنف منهم على دين اليهود

كانت اليهودية فى حِمير بعد أن كان الغالب من المجوس وعبدة الشمس ونحو ذلك ، والسبب فى ذلك أن (تبع الأصغر) وهو تبع حسان بن تبع بن كليكرب بن تبع الأقرن وهو آخر التبابعة لما ملك وكان مهيباً — بعث ابن أخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندى وهو جد أمرئ القيس الشاعر إلى معد وملكه عليهم وسار إلى الشام وملوكها غسان فأعطته المقادة واعتذروا من دخولهم إلى النصرانية وصاروا إلى ابن أخته الحارث بن عمرو وهو بالمشقر من ناحية هجر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن خرج مع عمرو بن عامر مزيقاء وخالفوا اليهود بيثرب فشكوا اليهود وذكروا سوء مجاورتهم له ونقضهم الشرط الذى شرطوه لهم عند نزولهم ومَتّوا [1] إليه بالرحم فأحفظه [2] ذلك فسار إليه يثرب ونزل فى سفح أُحُد [3] وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة وخمسين رجلا صبرا وأراد إخرابها فقام إليه رجل من اليهود قد أتت له مائتان وخمسون سنة فقال له : أيها الملك لا تقتل على الغضب ولا تقبل قول الزور وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج وإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية . قال : ولم ؟

---

(١) المت : التوسل (٢) احفظه : اغضبه (٣) سفح الجبل : مثل وجهه وزنا ومعنى

قال : لأنها مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من عند هذه البنية[١] يعني البيت الحرام فكف تبع عن ذلك ومضى يريد مكة ومعه هذا اليهودي ورجل آخر من اليهود عالم وهما الحبران فأتى مكة وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل :

فكسونا البيت الذي حرم الله ه مـلاء معظما وبروداً[٢]

ويقول قوم : إن قائل هذا هو تبع الأوسط . ثم رجع إلى اليمن ومعه الحبران وقد دان بدينهما وآمن بموسى وما نزل في التوراة وبلغ ذلك أهل اليمن فاختلفوا عليه وامتنعوا من متابعته على دينه فحاكمهم إلى النار بأن دخلها الحبران وقوم منهم فأحرقتهم وسلم الحبران والتوراة فانقادوا له وتابعوه فبذلك دخلت اليهود اليمن و (تبّع) هذا هو الذي عقد الحلف بين اليمن وربيعة وكان ملكه ثماني وسبعين سنة . وكانت اليهودية أيضاً في بني كنانة وكندة وبني الحرث بن كعب . ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم في يثرب وخيبر وغير ذلك .

وصنف منهم على دين النصارى

فقد كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم (العِباد) بكسر العين وتخفيف الباء منهم عديّ بن زيد العبادي وسيأتي ذكره وخبره قريباً . وكان بنو تغلب أيضاً من نصارى العرب وكانت لهم شوكة وقوة يد وقد صالح عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في أيام خلافته على أن لا يغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية

---

(١) البنية على فعلية الكعبة لشرفها اذ هي اشرف مبنى يقال : لاورب هذه البنية ما كان كذا وكذا ، وفي حديث البراء بن معرور : رايت ان لا اجعل هذه البنية مني بظهر ، يريد الكعبة ، وكانت تدعى بنية ابراهيم عليه السلام لانه بناها وقد كثر قسمهم برب هـذه البنية (٢) الملاء جمع ملاءة بالضم والمد هي الريطة ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة أو كل ثوب لين رقيق ، و (معظما) صوابه : (معضدا) كمعظم وهو ثوب له علم في موضع العضد ، وقيل ثوب معضد مخطط على شكل العضد وقال اللحياني هو الذي وشيه في جوانبه ؛ وفي الاساس ثوب معضد : مضلع

ويضاعف عليهم الصدقة فإذا وجب على المسلم شيء فى ذلك فعلى النصرانى التغلبى مثله مرتين . ونساؤهم كرجالهم فى الصدقة فأما الصبيان فليس عليهم شيء وكذلك أرضوهم التى كانت بأيديهم يوم صولحوا فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم . وأما الصبى والمعتوه فيؤخذ ضعف الصدقة من أرضه ولا يؤخذ من ما شيته ولا شيء عليهم فى بقية أموالهم ورقيقهم . وكان أهل نجران أيضاً من نصارى العرب وقدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم السيد وهو الكبير والعاقب وهو الذى يكون بعده وصاحب رأيهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أسلما . قالا : أسلمنا . قال : ما أسلمتما قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما عبادتكما الصليب وأكلكم الخنزير وزعمكما أن لله ولداً ونزل : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون . فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول . ونزلت آية المباهلة وهى : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ[1] فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تعالى قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم . فقالوا : ياأبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم . قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل ولئن لاعنتموه لاستأصلكم ، وما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلف

(١) اى نتباهل فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة وافتعل وتفاعل اخوان فى كثير من المواضع كاشتور وتشاور واجتور وتجاور والاصل فى البهلة بالضم والفتح فيه كما قيل اللعنة والدعاء بها ثم شاعت فى مطلق الدعاء كما يقال فلان يبتهل الى الله تعالى فى حاجته ، وقال الراغب بهل الشيء والبعير اهماله وتخليته ثم استعمل فى الاسترسال فى الدعاء سواء كان لعنا أو لا الا انه هنا يفسر باللعن لانه المراد الواقع كما يشير اليه قوله تعالى (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) اى فى أمر عيسى عليه السلام فانه معطوف على نبتهل مفسر للمراد منه اى نقول لعنة الله على الكاذبين أو اللهم العن الكاذبين، انتهى من روح المعانى .

دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم . وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ومعه عليّ والحسن والحسين وفاطمة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن أنا دعوت فأمنوا أنتم فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية وهى ألف حُلّة فى صَفَر وألف فى رجب ودراهم . وروى أنهم صالحوه على أن يعطوه فى كل عام ألفَىْ حلة ، وثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً وكتب لهم بذلك كتاباً وبعث إليهم عمرو بن حزم وكتب له حين بعثه إلى نجران : بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمان من الله ورسوله يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهد من محمد النبى لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمين آمره بتقوى الله فى أمره كله وأن يفعل ويفعل[1] ويأخذ من المغانم خمس الله جل ثناؤه وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من الثمار . وأن نسخة كتاب النبى عليه الصلاة والسلام لهم التى هى فى أيديهم .

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأهل نجران إذ كان له عليهم حكمة فى كل ثمرة وفى كل صفراء وبيضاء ورقيق فافضل ذلك عليهم واترك ذلك كله لهم على ألفى حلة من حلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة فما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقى فبالحساب وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلى ومبعثهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرسا وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة . وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليهم ربابة ولا دم

(١) العرب تقول « فعل به وفعل » أى احسن اليه

جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم جزيتهم نسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل منهم ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير منقلبين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب . وغيلان بن عمرو . ومالك بن عوف من بنى نصر . والأقرع بن حابس الحنظلى . والمغيرة بن شعبة ، وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبى بكر وكتب لهم بعد ذلك كل من الخلفاء الراشدين أيام خلافته مثل ذلك .

ذكر بعض من اشتهر أنه كان على دين من العرب فى الجاهلية

كان جمع من عقلاء العرب وحكمائها غير موافقين لعمرو بن لحى فيما ابتدع من الدين ولا متبعين ما شرع من عبادة الأصنام وغير ذلك من المنكرات ، بل كانوا مخالفين له فيما ذهب إليه من الزيغ والباطل الذى سَوَّلَتْهُ له نفسه ، وتعبدوا بما ترتضيه العقول وتظاهره الشرائع المقررة وهم أفراد من القبائل المتفرقة متفاوتون فى الطبقة والأحكام ونذكر بعض من وقفنا على حاله فى الكتب المعتبرة ، وما لا يُدْرك كله لا يترك كله ، ليكون الكتاب بمحلٍّ من نظر الأدباء والله الموفق لما يرضاه . منهم :

قس بن ساعدة الإيادي

و إياد بكسر الهمزة من معدّ بن عدنان . قال الذهبى : قس بن ساعدة أورده ابن شاهين وعبدان فى الصحابة وكذلك قال ابن حجر فى الإصابة ذكره أبو على ابن السكن وابن شاهين وعبدان المروزى وأبو موسى فى الصحابة . وصرح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة . وفى سيرة ابن سيد الناس بسنده إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قَدِم الجارود بن عبد الله وكان سيداً فى قومه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال والذى بعثك بالحق لقد وجدت صفتك فى

الإنجيل ولقد بشر بك ابن البتول فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، قال : فآمن الجارود وآمن من قومه كل سيد فسر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم . وقال : يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله وأنا من بين القوم كنت أقفو أثره كان من أوساط العرب فصيحاً عمر سبعمائة سنة أدرك من الحواريين سمعان فهو أول من تأله من العرب (أى تعبد) كأنى أنظر اليـه يُقْسِمُ بالرب الذى هو له ، ليبلغن الـكتاب أجله . وليوفين كل عامل عمله . ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكارُ وليالٍ خلا لهنَّ نهارُ

في أبيات آخرها :

والذى قد ذَكرت دل على الله نفوساً لهـا هـدى واعتبارُ

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : على رِسْلِكَ[١] يا جارود فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق[٢] وهو يتـكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه . فقال أبو بكر : يا رسول الله فإنى أحفظه كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته . أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آتٍ آت . إن في السماء لخبَرا . وإن في الأرض لعِبَرا ، مهادٌ موضوع . وسقفٌ مرفوع ، ونجومٌ تمور ، وبحارٌ لن تغور ، ليلٌ داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قُسٌّ قسما حتماً لئن كان في الأرض رضى ليـكونن بعده سخطاً ، وإن لله — عزّت قدرته — ديناً هو أحب إليه من دينـكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ ثم أنشد أبو بكر شعراً له كان يحفظه :

في الذاهبينَ الأولــين من القرون لنـا بصائِرْ

---

(١) بالكسر اى على هينتك (٢) الاورق : الذى لونه كلون الرماد

لما رأيت موارداً الموت ليس لها مصادر[١]
ورأيت قومى نحوها يسعى الأكابرُ والأصاغر
لا يرجِــع الماضى الىّ ولا من الباقين غابر[٢]
أيقنتُ أنى لا محا لةَ حيث صار القوم صائر[٣]

والذى فى كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى : عاش قس بن ساعدة ثلاثمائة وثمانين سنة وقد أدرك نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وسمِع النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا وأول من قال أما بعد ، وكان من حكماء العرب، وهو أول من كتب إلى فلان ابن فلان . وقال المرزبانىّ : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة . وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين قسًّا وقومه قال : إن له ولقومه فضيلةً ليست لأحد من العرب لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم روى كلامه وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه . وهذا شرف تعجز منه الأمانى وتنقطع دونه الآمال . وإنما وفق الله تعالى ذلك لقس لاحتجاجه للتوحيد ولإظهاره الإخلاص وإيمانه بالبعث وَمِنْ ثمّ كان قس خطيبَ العرب قاطبةً . وفى نسبه خلاف فقيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر . وقيل : حذافة بن زهر بن أياد بن نزار . وقيل : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى ابن مالك بن أيدعان بن النمر بن وائلة بن الطشان بن عوذ بن مناة بن يقدم ابن أفصى بن دعمى بن إياد وقيل هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدى ابن مالك والله تعالى أعلم . ومنهم :

---

(١) الموارد جمع مورد وهو محل الورود اى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر وهو موضع الصدور اى الانصراف والرجوع (٢) الغابر : الماضى (٣) اى ايقنته انى منتقل حيث انتقل القوم ، فصائر خبر ان وصار بمعنى انتقل والقوم فاعله . ولا محالة ، بفتح الميم اى لا تغيير ولا تبديل وانى بفتح الهمزة وايقنت جواب لما

زيد بن عمرو بن نفيل

قال صاحب الاستيعاب كان زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى العدوى يطلب دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام قبل أن يبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان لا يذبح للأنصاب ولا يأكل الميتة والدم . قال ابن حجر فى الإصابة ذكر البغوى وابن منده وغيرهما زيداً هذا فى الصحابة وفيه نظر لأنه مات قبل البعثة بخمس سنين ولكنه يجىء على أحد الاحتمالين فى تعريف الصحابى وهو أنه من رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمناً به هل يشترط فى كونه مؤمناً به أن تقع رؤيته له بعد البعثة فيؤمن به حين يراه أو بعد ذلك أو يكفى كونه مؤمناً به أنه سيبعث كما فى قصة هذا وغيره . وقد ذكر إبن إسحق أن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معشر قريش والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » وأخرج الفاكهى بسند له إلى عامر بن ربيعة قال لقيت زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد (حراء) فقال : يا عامر إنى قد فارقت قومى واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده كان يصلى إلى هذه البنية [1] وأنا أنتظر نبياً من ولد إسمعيل ثم من ولد عبد المطلب وما أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى الحديث . زاد الواقدى فى حديث نحوه : فإن طالت بك مدة فاقرأه منى السلام . وفيه : ولما أسلمت أقرأت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منه السلام فرد عليه وترحم عليه وقال رأيته فى الجنة يسحب ذيولا . وروى الواقدى عن ابنه سعيد بن زيد قال : توفى أبى وقريش تبنى الكعبة وكان ذلك قبل المبعث بخمس سنين . وأما سعيد بن زيد المذكور فقد كان من السابقين إلى الإسلام

(١) مضى تفسيرها قريبا

وهاجر وشهد أحداً والمشاهد بعدها ولم يكن بالمدينة زمان بدر فلذلك لم يشهدها وهو أحد العشرة المبشرة وكان إسلامه قديما قبل عمر . وكان إسلام عمر عنده فى بيته لأنه كان زوج أخته فاطمة . قال الواقدى توفى بالعقيق فحمل إلى المدينة وذلك سنة خمسين من الهجرة ، وقيل إحدى وخمسين ، وقيل سنة اثنتين . وعاش بضعاً وسبعين وزعم الهيثم بن عدى أنه مات بالكوفة وصلى عليه المغيرة بن شعبة قال وعاش ثلاثاً وسبعين سنة . وزعم العلامة الدوانى فى شرح (ديباجة العقائد العضدية) وتبعه السيد عيسى الصفوى فى (شرح الفوائد الغياثية) أن زيد بن عمرو المذكور نبى أوحى إليه لتكميل نفسه ، وهذه عبارته : النبى إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه وعلى هذا لا يشمل من أوحى الله ما يحتاج إليه لكماله فى نفسه من غير أن يكون مبعوثا إلى غيره كما قيل فى زيد بن عمرو بن نفيل اللهم إلا أن يتكلف . أقول : هذا غير صحيح فإنه لم يقل أحد من المؤرخين والمحدثين أنه نبى أو ادعى النبوّة وأمره مشهور وكان حياً فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس فى عصره نبى غيره . قال الذهبى زيد بن عمرو بن نفيل هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وكان على دين إبراهيم ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وتوفى قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم . وكان دخل الشام والبلقاء ، وكان نفر من قريش زيد وورقة وعثمان بن الحرث وعبيد بن جحش خالفوا قريشاً وقالوا لهم : إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام ولا يأكلون ذبائحهم واجتمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة وقال له : إنى شاممت النصرانية واليهودية فلم أر فيها ما أريد فقصصت ذلك على راهب فقال لى . إنك تريد ملة إبراهيم الحنيفية وهى لا توجد اليوم فالحق ببلدك فإن الله تعالى باعث من قومك من يأتى بها وهو أكرم الخلق على الله انتهى . ومنه تعلم أن ما قاله الدوانى لا يليق بمثله أن يذكره . وكذا ما فى (حواشى الكازرونى) من أنه يجوز أن يكون زيد مبعوثا إلى الخلق بدليل أنه كان يسند ظهره إلى

الـكعبة و يقول : أيها الناس هلموا إلىّ فإنه لم يبق على دين إبراهيم غيرى ويعلم من هذا أنه يجوز أن يكون نبياً فلا ينتقض به التعريف انتهى . وهذا ممـا يقضى منه التعجب وكذا جميع ما ذكره هنا أرباب حواشيه . وذكره البيضاوى عند تفسير قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَادًا » وقال هو موحد الجاهلية انتهى . وهو القائل فى فراق دين قومه وما كان لقى منهم :

أربّاً واحداً أم ألفَ ربٍ أدينُ إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعُزّى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتَيْها ولا صنَمَىْ بنى عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان رباً لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرِ قوم فيربل منهم الطفل الصغير[1]
و بينا المرء يعثر ثاب يوماً كما يتروح الغصن المطير[2]
ولـكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ماتحفظوها لا تبور
ترى الأبرار دارهم جنان وللـكفار حامية سعير[3]

ومما يروى له وقد خالف فى ذلك ابن هشام :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولاً رضياً لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إلهٌ ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى فإنك لا تخفى من الله خافيا[4]

---

(١) يقال ربل الطفل يربل اذا شب وعظم (٢) أى كماينبت ورق الغصن بعد سقوطه

(٣) نصب حامية على الحال من السعير لان نعت النكرة اذا تقدم عليها نصب على الحال وانشد فى مثله : لمية موحشا طلل (٤) قوله الا أيها الانسان الخ تحذير من الردى والردى هو الموت فظـاهر اللفظ متروك وانمـا هـو تحذير مما يأتى به الموت ويبديه ويكشفه من جزاء الاعمـال ولذلك قال : فانك لا تخفى من الله خافيـا

وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا

حنانيكَ إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا [(١)]

رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلها غيرك الله ثانيا [(٢)]

وأنت الذى من فضل منّ ورحمة ... بعثت إلى (موسى) رسولا مناديا

فقلت له : إذهب وهارون فادعُوَا ... إلى الله (فرعون) الذى كان طاغيا [(٣)]

وقولا له : أأنت سويت هذه ... بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا ؟

وقولا له : أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفِقْ إذا بك بانيا ؟

وقولا له : أأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا

وقولا له : من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا ؟

وقولا له : من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا ؟

ويخرج منه حبه فى رءوسه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعيا ؟

وأنت بفضل منك نجيت يونساً ... وقد بات فى أضعاف حوت لياليا [(٤)]

وإنى ولو سبحت باسمك ربَّنا ... لأكثر إلا ماغفرت خطائيا [(٥)]

---

(١) حنانيك بلفظ التثنية . قال النحويون : يريد حنانا كأنهم ذهبوا الى التضعيف والتكرار لا الى القصر على اتنين خاصة دون مزيد وقال بعض الائمة : ويجوز ان يريد حنانا فى الدنيا وحنانا فى الآخرة واذا قيل هذا لمخلوق نحو قول طرفة : (حنانيك بعض البشر أهون من بعض) فانما يريد حنان دفع وحنان نفع ، لان كل من أمل ملكا فانما يؤمله ليدفع عنه ضيرا ، أو ليجلب اليه خيرا (٢) قوله فلن أرى أدين الها أى لاله فحذف اللام وعدى الفعل لانه فى معنى أعبد الها . وقوله (غيرك الله) برفع الهاء أراد يا الله . وهذا لا يجوز فيما فيه الالف واللام الا أن حكم الالف واللام فى هذا اللفظ المعظم بخالف حكمها فى سائر الاسماء الا ترى انك تقول. يا أيها الرجل ولا ينادى اسم (بيا أيها) ؟ وتقطع همزته فى النداء فتقول (يا الله) ولا يكون ذلك فى اسم غيره الى أحكام كثيرة يخالف فيها هذا الاسم لغيره من الاسماء المعرفة ، وفيها بيت حسن لم يذكره وذكره أبو الفرج فى أخبار (زيد) وهو :

أدين الها يستجيب ولا أرى ... أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

(٣) قوله اذهب وهرون عطفا على الضمير فى اذهب وهو قبيح اذ لم يؤكد ولو نصبه على المفعول معه لكان جيدا (٤) بعده بيت لم يذكره ووقع فى جامع ابن وهب وهو :

وانبت يقطينا عليه برحمة ... من الله لولا ذاك أصبح ضاحيا

(٥) معنى البيت انى أكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الا ما غفرت و(ما) بعد (الا) زائدة. وان سبحت اعتراض بين اسم (ان) وخبرها

فربَّ العباد ألقِ سيباً ورحمةً   عليَّ و بارك في بني وماليا[1]

وعن ابن إسحق أنه قال حدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل أن زيداً كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقّا ، عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم إذ قال :

إني لك اللهم عانٍ راغمُ   مهما تجشمني فإني جاشم

وقال أيضاً على ما رواه ابن إسحاق :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له المزن تحمل عذباً زُلالا

إذا هي سيقت إلى بلدة   أطاعت فصبت عليها سجالا

وقد كان الخطاب آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل حراء مقابل مكة ووكل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ماهم عليه . فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه .

لاهُمَّ إني محرمٌ لاحله   وإن بيتي أوسط المحله[2]

عند الصفا ليس بذي مضله

ثم خرج يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم أقبل فجال الشام

= كما تقول انى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الا والله يغفرلى لا افعل كذا . والتسبيح هنا بمعنى الصلاة أى لا أعتمد — وان صليت — الا على دعائك واستغفارك من خطاياى (١) السيب : العطاء (٢) لاهم — العرب تحذف اللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول : لاه أبوك . وتريد لله ابوك . لاهنك . وتريدو الله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الالسنة وقد قالوا فيما هو دونه فى الاستعمال : اجنك تفعل كذا وكذا ، أى من أجل انك الخ . وقوله انى محرم لاحله : محرم ساكن الحرم ، والحلة : اهل الحل يقال للواحد والجميع حلة

كلها حتى انتهى إلى راهب بميفَعَة[١] من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية فقال له ما قال فخرج سريعا يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة بن نوفل يبكيه :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا[٢]

بدينك رباً ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا

وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تكُ عن توحيد ربك ساهيا

فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلّل فيها بالكرامة لاهيا

تلاقى خليلَ اللهِ فيها ولم تكن ... من الناس جباراً إلى النار هاويا

وقد تدْركُ الإنسان رحمةُ ربهِ ... ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وذكر البخارى فى صحيحه أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لعلىّ أن أدين دينكم فأخبرنى . فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبداً وأنا أستطيعه فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله فخرج فلقى عالما من النصارى فذكر مثله . فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبداً وأنا أستطيع فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال إنى اللهم أشهدك أنى على دين إبراهيم . ومنهم :

---

(١) تروى بكسر الميم والقياس فيها الفتح لانه اسم موضع اخذ من اليفاع وهو المرتفع من الارض

(٢) رشدت : أى بالغت فى الرشد كما يقال امعنت النظر وانعمته والابيات واضحة

أمية بن أبى الصلت

واسمه عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى . قال الأصمعى : ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة وعنترة بعامة ذكر الحرب . وقد صدقه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض شعره ، وفى صحيح مسلم عن الرشيد بن سويد قال ردفت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت: نعم . قال : هيه . فأنشدته بيتاً فقال : هيه حتى أنشدته مائة بيت . فقال : كاد ليُسلم وفى رواية : كاد ليسلم فى شعره . وفى رواية : آمن شعره وكفر قلبه . وفى الإصابة عن ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنشد قول أمية :

رجل وثورٌ تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : صدق وهذه صفة حملة العرش . وفى شرح ديوانه لمحمد بن حبيب : يقال إن حملة العرش ثمانية رجل وثور ونسر وأسد هذه أربعة وأربعة أخرى فأما اليوم فهم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة أخرى فذلك قوله تعالى « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ » كذلك بلغنى والله أعلم . ويقال : إن الذى فى صورة رجل هو الذى يشفع لبنى آدم فى أرزاقهم ، وأما الذى فى صورة نسر فهو الذى يشفع للطير فى أرزاقهم وبلغنى أيضاً أن لكل ملك منهم أربعة وجوه :وجه رجل ، ووجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه نسر انتهى . وفى الأغانى بسنده لما أنشد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قول أمية بن أبى الصلت :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق أشطانا
ألا نبىٌّ لنا منا فيخبرنا مابعد غايتنا من رأس مجرانا
بينا يربينا آباؤنا هلكوا وبينما نقتنى الأولاد أبلانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف تلحق أخرانا بأولانا
وقد عجبت وما بالموت من عجب ما بال أحيائنا يبكون موتانا

إلى أن قال :

يارب لاتجعلنىّ كافراً أبداً · واجعل سريرةَ قلبى الدهرَ إيمانا

واخلط به بنيتى واخلط به بشرى · واللحم والدم ما عمرت إنسانا

إنى أعوذُ بمن حج الحجيجُ له · والرافعون لدين الله أركانا

مسلّمين إليه عند حجهم · لم يبتغوا بثواب الله أثمانا

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه . وقال ابن قتيبة فى طبقات الشعراء : وكان أمية يخبر أن نبياً يخرج قد أظل زمانه وكان يؤمل أن يكون ذلك النبى فلما بلغه خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كفر به حسداً . ولما أنشد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه : وأتى بألفاظ كثيرة لاتعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : —

بآية قام ينطِقُ كلُّ شىء · وخانَ أمانةَ الديك الغرابُ

وزعم أن الديك كان نديما للغراب فرهنه على الخمر وغدر به وتركه عند الخمار فجعله الخمار حارسا . ومنها قوله :

قمر وساهورٌ يسل ويغمد [1]

وزعم أهل الكتاب أن (الساهور) غلاف القمر يدخل فيه إذا انكسف وقوله فى الشمس :

ليست بطالعة لهم فى رسلها · إلا معذبة وإلا تجلد

وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، وعلماؤنا لايرون شعره حجة على الكتاب ولما حضرته الوفاة قال :

كل عيش وإن تطاول يوما · صائرٌ مرة إلى أن يزولا

---

(١) يقول : القمر وغلافه مختلفان فمرة ينزع من غلافه فيكون بدرا كاملا ومرة يرد الى غلافه حتى يكون مستسرا ثم يبدو هلالا فيتزايد الى ان يعود بدرا

ليتنى كنت قبل ما قد بدالى في رؤوس الجبال أرعى الوعولا[١]

قال شارح ديوانه فى شرح بيت الشمس : قال أبو عمرو قال أبو بكر الهذلى ، قلت لعكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أرأيت ما بلغنا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لأمية ابن أبى الصلت آمن شعره وكفر قلبه فقال هو حق وما أنكرتم من ذلك ؟ قال : قلنا أنكرنا قوله : —

والشمس تُصبحُ كلَّ آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم فى رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فما شأن الشمس تجلد ؟ قال : والذى نفسى بيده ما طلعت الشمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقال لها اطلعى ! فتقول : لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله فيأتيها ملكان حتى تستقل لضياء العباد فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها وما غربت قط إلا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن سجودها فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها ! فذلك قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : «تطلع بين قرنَىْ شيطان وتغرب بين قرنَىْ شيطان». وفى الأغانى عن الزبير بن بكار قال حدثنى عمى قال : كان أمية فى الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح[٢] تعبداً وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرم الخمر وتجنب الأوثان وصام والتمس الدين طمعاً فى النبوّة لأنه كان قد قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث فى الحجاز من العرب وكان يرجو أن يكون هو فلما بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حسده وكان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ويرثى من قتل فيها . فمن ذلك قصيدته الحائية التى نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم روايتها التى يقول فيها .

ماذا ببدرٍ فالعقنقل من مرازبه جحاجح[٣]

---

(١) الوعول : جمع وعل وهو الشاة الجبلية (٢) جمع مسح وهو ثوب من الشعر الغليظ

(٣) المرازبة جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، والجحاجح جمع جحجح وهو السيد السمح وقيل الكريم ولا توصف به المرأة . وبدر والعقنقل : موضعان

لأن رؤوس من قتل بها عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وهما ابنا خاله لأن أمه رقية بنت عبد شمس . وفى الإصابة ذكر صاحب المرآة فى ترجمته عن ابن هشام قال كان أمية آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر ، فلما نزل بدراً قيل له : إلى أين يا أبا عثمان ، فقال : أريد أن أتبع محمداً فقيل له ، هل تدرى مافى هذا القليب ؟ قال لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع[1] أنفَ ناقته وشق ثوبه وبكى وذهب إلى الطائف فمات بها ذكر ذلك فى حوادث السنة الثامنة ، والمعروف أنه مات فى السنة التاسعة ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر . وقيل إنه الذى نزل فيه قوله تعالى « ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا » وقيل إنه مات سنة تسع من الهجرة فى الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون ، ورأيت فى ديوانه قصيدة مدح بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أولها :

لك الحمد والمن رب العبا ... دِ أنت المليك وأنت الحكم

إلى أن قال :

ودنْ دين ربك حتى التقى ... واجتنبن الهوى والضجم[2]

(محمد) أرسله بالهدى ... فعاش غنيا ولم يهتضم

عطاء من الله أعطيته ... وخص به الله أهل الحرم

وقد علموا أنه خيرهم ... وفى بيتهم ذى الندى والكرم

يعيبون ما قال لما دعا ... وقد فرج الله إحدى البُهَم[3]

به وهو يدعو بصدق الحديث ... إلى الله من قبل زيغ القدم

أطيعوا الرسول عباد الإله ... تنجون من شر يوم ألم

تنجون من ظلمات العذاب ... ومن حر نار على من ظلم

دعا النبى به خاتم ... فمن لم يجبه أسرّ الندم

---

(١) اى قطع (٢) الضجم : الاختلاف (٣) البهم جمع بهمة بالضم : الخطة الشديدة .

نبى هـدى صادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبـله ومن بعده من نبى ختم
يموت كما مات من قد مضى يرد إلى الله بارى النسم
مع الأنبيا فى جنان الخلود هم أهلها غير جل القسم
وقدس فينـا بحب الصلاةِ جميعاً وعلّم خط القـلم
كتاباً من الله نقرا به فمن يعتديه فقـد مَا أثم

وله :

ألا كل شىء هالك غير ربنا ولله ميراثُ الذى كان فانيا
ولىّ له من دون كل ولاية إذا شاء لم يمسوا جميعاً مواليا
وإن يكُ شىء خالداً ومعمّراً تأملْ تجدْ من فوقِهِ اللهَ باقيا
له مارأت عين البصير وفوقه سماء الإلهِ فوق سبع سمائيا

وهذه قصيدة عظيمة تشتمل على توحيد الله تعالى وقصص بعض الأنبياء كنوح ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . ويعجبنى منها قوله :

ألا لن يفوتَ المرء رحمةُ ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا
يعالى وتدركه من الله رحمة ويضحى ثناء فى البرية زاكيا

وقوله فى آخرها :

وأنت الذى من فضل سيبٍ ونعمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقال أعنى يا ابن أمى ! فإننى كثير به يارب صل لى جناحيا
وقلت لهارون : اذهبا فتظاهرا على المرء فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له آأنت الذى سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أأنت سويت وسطها منيراً إذا ما جنه الليل ساريا
وقولا له من أخرج الشمس بكرة فأصبح ما مست من الأرض ضاحيا

وقولا له من أنبت الحب فى الثرى ... فأصبح منه البقل يهتز رابيا
فأصبح منه حبه فى رؤوسه ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقد سبق أن بعض الأدباء نسب هذه القصيدة إلى زيد بن عمرو بن نفيل وهو غير صحيح فإنها مثبتة فى ديوان أمية وهى أنسب بشعره وعليه الشارحون ، والله ولى التوفيق . ومنهم :

أرباب بن رئاب

قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) عند الكلام على من كان على دين قبل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أرباب بن رئاب وهو من عبد القيس من شن وكان على دين عيسى وسمعوا قبل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مناديا ينادى خير أهل الأرض ثلاثة رئاب الشنى وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فكان لا يموت أحد من ولد أرباب فيدفن إلا رأوا طشًّا على قبره انتهى . وكان هذا النداء من هتوف الجن فقد كثر قبيل البعثة النبوية . وذكر الإمام الماوردى فى كتاب (أعلام النبوة) شيئاً كثيراً من ذلك قال يروى عن رجل من خثعم قال : كانت خثعم لا تحل حلالا ولا تحرم حراما وكانت تعبد أصناما فبينا نحن عند صنم منها ذات ليلة نتقاضى إليه فى أمر قد شجر بيننا إذ صاح من جوف الصنم صائح :

يا أيها الركبُ ذوو الأحكام ... ما أنتم وطائشو الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام ... يصدع بالحق وبالإسلام
هذا نبىٌّ سيدِ الأنام ... أعدل ذى حكم من الأحكام
ويتبع النور على الإظلام ... سيعلين فى البلد الحرام
قد طهر الناس من الآثام

قال الخثعمى : ففزعنا منه وخرجت إلى مكة وأسلمت مع النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم . ومن هتوفهم ما حكاه أبو عيس قال : سمعت قريش فى الليل هاتفاً على جبل (أبى قبيس) يقول :

إن يسلم (السعدان) يصبح بمكة (محمد) لا يخشى خلافَ المخالفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان من السعدان سعد بكر وسعد تميم فلما كان فى الليلة الثانية سمعوه يقول :

ياسعدُ سعدَ الأوسِ كن أنت ناصراً و ياسعدُ سعدَ الخزرجين الغطارف [1]

أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا على الله فى الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات زخارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة انتهى واستيعاب ذلك كله فى الكتاب المذكور وسائر كتب السير . ومنهم :

سويد بن عامر المصطلقى

روى السيد المرتضى فى أماليه أن مسلم الخزاعى ثم المصطلقى قال : شهدت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر :

لا تأمنَن وإن أمسيت فى حرم إن المنايا بكفَّىْ كل إنسان

واسلك طريقك تمشى غير مختشع حتى يبينَ ما يمنى لك المانى

فكل ذى صاحب يوماً يفارقه وكل زاد وإن أبقيتهُ فانى

والخير والشر مقرونان فى قَرَنٍ بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أدركته لأسلم انتهى . وذلك لأن هذه الأبيات تنبىء أنه كان يميل إلى الحنيفية ، والملة الإبراهيمية : ومنهم :

---

(١) جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخى السرى

أسعد أبوكرب الحميرى

قال ابن قتيبة : كان أسعدُ آمنَ بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهدتُ على أحمد أنه رسولٌ من الله بارى النَّسَمْ[1]
فلو مد عمرى إلى عصره لـكنت وزيراً له وابنَ عَم

وهذا تُبّعُ الأوسط أكثر الغزوَ ولم يدع مسلـكا سلـكه آباؤه إلاسلـكه وكان يغزو بالنجوم و يسير بها و يمضى أموره بدلالاتها وطالت مدته واشتدت وطأته وملته حمير وثقل عليهم ما كان يأخذهم به من الغزو فسألوا ابنه حسان ابن تبع أن يمالئهم[2] على قتله و يملـكوه فأبى ذلك عليهم فقتلوه ، ثم ندموا على قتله فاختلفوا فيمن يملـكون بعـده حتى اضطرتهم الأمور إلى أن يملـكوا ابنه حسانا وأخذوا عليه موثقا أن لا يؤاخذهم بما كان منهم فى أبيه . و يقال : إن تبعاً هذا أول من كسا الأنطاعَ والبرودَ البيتَ وهو القائل :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملـكاً تَدِين له الملوكُ وتحشدُ
من بعـده بِلْقِيسُ كانت عمتى ملـكتهم حتى أتاها الهُــدْهُدُ

ومنهم :

وكيع بن سلمة بن زهير الإيادى

قال ابن الـكلبى كان وكيع بن سلمـة ولى أمر البيت بعد جرهم فبنى صرحاً بأسفل مكة وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) وبها سميت حزورة مكة وجعل فى الصرح سلماً ، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجى الله تعالى وكان ينطق بكثير من الخير ، وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين . وكان من قوله (مرضعة وفاطمة ووادعة وقاصمـة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الـكلم) ومن

---

(١) انظر ص ١٧٠ ؛ (٢) أى يساعدهم ويتابعهم

كلامه (زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا . وبالشر عقابا . إن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء . هلكت جرهم وربلت إياد . وكذلك الصلاح والفساد) . فلما حضرته الوفاة جمع إياداً فقال لهم : اسمعوا وصيتى (الكلام كلمتان . والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه . ومن غوى فارفضوه . وكل شاة برجلها معلقة) فأرسلها مثلا . قال ومات وكيع فنعى على الجبال وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادى :

ونحن إياد عباد الآله ورهط مناجيه فى سلم

ونحن ولاة الحجاب العتيق (زمان النخاع) على جرهم

يقال إن الله تعالى سلط على جرهم داء يقال له النخاع فهلك منهم ثمانون كهلاً فى ليلة واحدة سوى الشباب . وفيهم قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب[1]

نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب

ومنهم :

عمير بن جندب الجهنى

كان هذا الرجل ممن يوحد الله تعالى فى الزمن الجاهلى ولا يشرك بربه أحداً وله قصة عجيبة ذكرها صاحب القاموس فى مادة فصل[2] من كتابه . فقال : روينا عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مات عمير بن جندب من جهينة قبيل الإسلام فجهزوه بجهازه إذ كشف القناع عن رأسه فقال : أين القُصَل ؟ و (القصل أحد بنى عمه) قالوا : سبحان الله مر آنفاً فما حاجتك إليه ؟ فقال : أتيت فقيل لى (لامك الهَبَل[3] ألا ترى إلى حفرتك تنتثل . وقد كادت أمك تَثْكَلْ . أرأيت إن حولناك إلى مُحوَّل . ثم غُيِّبَ فى حُفرتك القُصَل . الذى مشى فاحزألّ[4] .

(١) البنية : مضى تفسيرها قريبا (٢) وكان الاولى ذكرها فى : قصل وهى كما تراها عجيبة ! وعجيب من صاحب القاموس وغيره أن يوردها فى كتاب !! (٣) الهبل : الثكل وهو الموت والهلاك وفقدان الحبيب أو الولد (٤) احزال البعير فى السير حزئلالا : ارتفع ، قال :

اذا احزالت زمر بعد زمر

ثم ملأناها من الجندل[1] أتعبد ربك وتُصَل . وتترك سبيلَ من أشرك وأضل ؟)
فقلت : نعم . قال : فأفاق ونـكح النساء وولد له أولاد . ولبث القُصَل ثلاثا ثم مات
ودفن فى قبر عمير . ومنهم :

عدى بن زيد العبادى

كان عدىّ بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب من بنى امرئ القيس بن زيد
مناة بن تميم . قال صاحب الأغانى : وكان أيوب هـذا أول من سمى من العرب
أيوبَ وكان عدى شاعراً فصيحا من شعراء الجاهلية وكان نصرانيا وكذلك أبوه
وأمه وأهله فقد كانوا على دين المسيح أيضا . قال : وكان سـبب نزول آل عدى
الحيرة أن جده أيوب كان بمنزلة اليمامة فأصاب دما فى قومه فهرب إلى أوس بن
قلام أحد بنى الحرث بن كعب بالحـيرة وكان بينهما نسب من قبل النساء فأكرمه
وابتاع له موضـع دار بثلاثمائة أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتى أوقيـة ذهبا ،
وأعطاه مائتين من الإبل يرعاها وفرسا وقينة واتصل بملوك الحـيرة وعرفوا حقـه
وحق ابنه زيد بن أيوب فـلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز .
ثم إن زيداً نـكح امرأة من (آل قلام) فولد له حمـاد فخرج زيد بن أيوب يوما
للصيد فلقيه رجـل من بنى امرئ القيس الذى كان له الثأر فاغتال زيداً وهرب ،
ومكث حمـاد فى أخواله حتى أيفع[2] وعلمته أمه الـكتابة فـكان أول من كتب
من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس حتى صار كاتب النعمان الأكبر فلبث
كاتبا حتى ولد له ولد فسماه زيداً باسم أبيه . وكان لحمـاد صديق من دهاقين[3]
الفرس اسمه فروخ ماهان . فلما حضرت الوفاة حماداً أوصى بابنه زيد إلى الدهقان
وكان من المرازبة فأخذه إليه وكان زيد قد حذق الـكتابة وعلمه الدهقان الفارسية

---

(١) هو ما يقله الرجل من الحجارة (٢) ايفع الغلام : راهق العشرين وهو يافع لا موفع
(٣) جمع دهقان بفتح الدال وكسرها فارسى معرب (ده خان) اى رئيس القرية ومقدم أهل الزراعة من العجم ولذلك تسب به العرب كما يقولون علج

وكان لبيبا فأشار الدهقان إلى كسرى أن يحمله على البريد فى حوائجه فولاه وبقى زمانا . ثم إن النعمان هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد الأمر كسرى لرجل منهم فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية فولدت له عديًّا وولد للمرزبان ابن وسماه (شاهان مرد) فلما أيفع عدىّ أرسله المرزبان مع ابنه إلى كُتّاب الفارسية وتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعربية وقالَ الشعر وتعلم الرمى بالنشاب وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة[1] وغيرها . ثم إن المرزبان لما اجتمع بكسرى قال له : إن عندى غلاما من العرب هو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية والملك محتاج إلى مثله فأحضر المرزبان عدى بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن ، وكانت الفرس تتبرك بالجميل الوجه فرغب فيه فكان عدى أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ولم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى معظما وأبوه زيد كان حيا إلى أن خمل صيته بذكر ابنه عدى :

ثم لما هلك المنذر اجتهد عدى عند كسرى حتى ملك النعمان بن المنذر الحيرة ثم بعد مدة افتروا على عدى وقالوا للنعمان إن عديا يزعم أنك عامله على الحيرة فاغتاظ منه النعمان وأرسل إلى عدى بأنه مشتاق إليه ليستزيره فلما أتى إليه حبسه وبقى فى الحبس إلى أن جاء رسول كسرى ليخرجه فخاف النعمان من خلاصه فغمه حتى مات وندم النعمان على قتله وعرف أنه غلب على رأيه ثم إنه خرج يوما إلى الصيد فلقى ابنا لعدى يقال له زيد فلما رآه عرف شبهه فقال له : من أنت ؟ قال : أنا زيد بن عدى فكلمه فإذا هو غلام ظريف ففرح به فرحا شديداً فقربه واعتذر إليه من أمر أبيه . ثم كتب إلى كسرى يربيه ويشفع له مكان

---

(١) جمع صولجان بفتح الصاد واللام وهو العود المعوج . فارسى معرب . والهاء لمكان العجمة قال ابن سيده : وهكذا وجد أكثر هذا الضرب الاعجمى مكسرا بالهاء وفى التهذيب : الصولجان عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب

أبيه فولاه كسرى وكان يلى المكاتبة عند آل ملوك العرب وفى خواص أمور الملك وكانت لملوك العجم صفة النساء مكتوبة عنـدهم وكانوا يبعثون فى تلك الأرضين تلك الصفة فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها فى أرض العرب . فلما كتب كسرى فى طلب الصفة قال له زيد بن عدى أنا عارف بآل المنذر وعند عبدك النعمان بين بناته وأخواته وبنات عمه أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة فابعثنى مع ثقة من رجالك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه فبعث معه رجلا فطناً وخرج به زيد فجعل يكرم الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة فلما دخل على النعمان قال له : إن كسرى قد احتاج إلى نساء لنفسه ولولده وأراد كرامتك بصهره فبعث إليك . فقال النعمان لزيد والرسول يسمع : أما فى مها السواد وعِين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ فقال الرسول لزيد بالفارسية ما المها ؟ فقال له بالفارسية كاوان أى البقر فأمسك الرسول وقال زيد للنعمان : إنما أراد الملك أن يكرمك ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به فأنزلهما عنده يومين . ثم كتب إلى كسرى : إن الذى طلب الملك ليس عندى . وقال لزيد : اعذرنى عنده فلما رجعا إلى كسرى قال زيد للرسول : أَصدق الملك عما سمعت فإنى سأحدثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه فلما دخلا إلى كسرى قال زيد : هذا كتابه فقرأه عليه فقال له كسرى : وأين الذى كنت خبرتنى به ؟ قال . قد كنت خبرتك ببخلهم بنسائهم على غيرهم وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش وإيثارهم السموم على طيب أرضك حتى إنهم ليسمونها السجن فسل هذا الرسول الذى كان معى عما قال فإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال ؟ فقال للرسول وما قال النعمان ؟ فقال له الرسول : إنه قال ؛ أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ فعرف الغضب فى وجهه وسكت كسرى أشهراً وسمع النعمان غضبه ثم كتب إليــه كسرى أن أقبل فإن لى حاجةً بك فخاف النعمان وحمل سلاحه وما قدر عليه ولجأ إلى قبائل العرب فلم يُجِرْهُ أحد وقالوا : لا طاقة

لنا بكسرى حتى نزل بذى قار فى بنى شيبان سراً فلقى هانئ بن قبيصة فأجاره وقال : لزمنى ذمامك و إنى مانعك مما أمنع نفسى وأهلى و إن ذلك مهلكى ومهلكك وعندى رأى لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتى ولكنه الصواب فقال : هاته ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة[1] والموت نازل بكل أحد وَلَأَنْ تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك امض إلى صاحبك واحمل إليه هدايا ومالاً وألق نفسك بين يديه فإما أن يصفح عنك فعدت ملكا عزيزاً و إما أن يصيبك فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها . قال : فكيف بحرمى وأهلى ؟ قال : هن فى ذمتى ولا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتى فقال : هذا وأبيك الرأى . ثم اختار خيلا وحُللا من عصب اليمن وجواهر وطُرَفًا كانت عنده ووجه بها إلى كسرى وكتب إليه يعتذر و يعلمه أنه صائر إليه فقبلها كسرى وأمره بالقدوم فعاد إليه الرسول وأخبره بذلك وأنه لم ير له عند كسرى سوءا فمضى إليه حتى إذا وصل إلى (ساباط) لقيه زيد ابن عدى فقال له : انجُ نعيم إن استطعت النجاة ! فقال له النعمان : أفعلتها يا زيد أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ! فقال له زيد : قد والله آخيت لك آخيــة لا يقطعها المُهر الأَرِن[2] . فلما بلغ كسرى أنه بالباب غدر به[3] وذلك قبيل الإسلام بمدة وغضبت له العرب حينئذ فكان قتله سبب وقعة ذى قار . ومنهم :

---

(١) السوقة خلاف الملك وهم الرعية التى تسوسها الملوك . سموا سوقة لان الملوك يسوقونهم فينساقون لهم . وكثير من كتاب العصر يظن أن السوقة اهــل الاســواق

(٢) الآخية بالمد والتشديد عروة تربط الى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة واصلها فاعولة والجمع الاواخى . . . والمهر ولد الخيل ، والارن كنشط وزنا ومعنى (٣) ويقال بل انه لما بلغه انه بالباب بعث اليه فقيــده وبعث به الى سجن كان له بخانقين فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه ، وقال حماد الراوية والكوفيون : بل مات بساباط فى حبســه . وقال ابن الكلبى : القــاه تحت ارجل الفيلة فوطئته حتى مات واحتجوا بقول الاعشى :

فذاك وما انجى من الموت ربه   بساباط حتى مات وهو محزرق

قال المحزرق : المضيق عليه . وأنكر هذا من زعم أنه مات بخانقين ، وقالوا : لم يزل محبوسا مدة طويلة وانه انما مات بعد ذلك بحين قبيل الاسلام . . =

أبو قيس صرمة بن أبي أنس

قال ابن قتيبة : وهو من بنى النجار وكان ترهب ولبس المسوح[1] وفارق الأوثان وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ثم دخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وهو القائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثوى فى قريش بضعَ عشرةَ حجةً　　بمكة لو يلقى صديقا مواتيا

وهو القائل فى الجاهلية :

سبحوا الله شرق كل صباح　　طلعت شمسه وكل هلال

يا بنىَّ الأرحامَ لا تقطعوها　　وصلوها قصيرة من طوال

يا بنىَّ النجوم لا تظلموها　　إن ظلم النجوم داء عضال

ومنهم :

سيف بن ذى يزن

قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسنين أتى وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وعبد الإله بن جُدْعان وأسد بن خويلد بن عبد العزى فى ناس من أشراف قريش فلما قدموا عليه إذا هو فى رأس قصر يقال له (غمدان) وهو الذى يقول فيه أمية بن أبى الصلت :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا　　فى رأس (غُمْدَان) دار منك محلالا

قال : فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه ، فإذا الملك مضمخ بالعنبر[2]

= (الاغانى : ج٢ ص٢٩) (١) مضى تفسيرها قريبا (٢) الضمخ : لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر

يرى و بيص الطيب من مفرقه[١] عليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر سيفه بين يديه وعن يمينه وعن يساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول[٢] قال : فدنا عبد المطلب واستأذن فى الكلام . فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فتكلم فقد أذنا لك ، فقال عبد المطلب (إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته[٣] ، وعزت جرثومته[٤] ، وثبت أصله ، و بسق فرعه[٥] ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن ، وأنت أبيت اللعن[٦] ملك العرب ور بيعها الذى يخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة) فقال ابن ذى يزن فأيهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم . قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم ابن أختكم . قال : ادنُ فأدناه على القوم وعليه ، فقال (مرحبا وأهلا وناقة ورجلا . ومستناخا سهلا . وملكا رِبَحْلاً يعطى عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم . وعرف قرابتكم . وقبل وسيلتكم . فأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة ما أقمتم . والحباء إذا ظعنتم) قال : ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف . قال : ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه وقال : يا عبد المطلب إنى مفوض إليك من سر علمى ما لو كان غيرك لم أبح له ولكن رأيتك مَعْدِنَهُ وأطلعتك عليه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ فيه أمره . إنى أجد فى الكتاب المكنون ،

---

(١) الوبيص : اللمعان . ومفرق الرأس مثال مسجدحيث يفرق فيه الشعر
(٢) جمع مقول بكسر الميم وهو الرئيس وهو دون الملك (٣) الارومة بالفتح والضم : الاصل (٤) جرثومة الشيء : أصله (٥) بسق النخل بسوقا : طال
(٦) ابيت اللعن : من تحيات ملوك العرب فى الجاهلية راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء

والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيره ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرف الحياة . وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة . ولك خاصة . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سَرَّ وَبَرَّ ، فما هو فداك أهل الوبر ، زمراً بعد زمر . قال : (إذا ولد بتهامة . غلام بين كتفيه شامة . كانت له الإمامة ولكم به الزعامة . إلى يوم القيامة) ، فقال له عبد المطلب : (أبيتَ اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد . فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياى ما ازداد به سروراً) قال ابن ذى يزن : (هذا حينه الذى يولد فيه أوقد ولد اسمه أحمد . يموت أبوه وأمه : ويكفله جده وعمه . وقد ولدناه مراراً . والله باعثه جهاراً . وجاعل منا له أنصاراً . يعز بهم أولياؤه . ويذل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض . ويستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان . وتخمد النيران ويعبد الرحمن ويدحر الشيطان . قوله فصل . وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله . وينهى عن المنكر ويبطله) قال عبد المطلب : (أيها الملك عز جدك وعلا عقبك . وطاب ملكك . وطال عمرك فهل الملك سارّى بإفصاح . فقد أوضح بعد الإيضاح ؟) فقال ابن ذى يزن : (والبيت ذى الحجب . والعاملات على النصب . إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب) . قال : فخر عبد المطلب ساجداً . فقال ابن ذى يزن : (ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك . فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك) فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجباً رفيقاً أو رقيقاً فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب ابن عبد مناف فأتت بغلام سميته محمداً مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . بين كتفيه شامة . وفيه كلما ذكرت من علامة) قال ابن ذى يزن : (إن الذى قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة . من أن تكون لك الرياسة . فيبغون له الغوائل . وينصبون له الحبائل . وهم فاعلون وأبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت يجتاحنى

قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإني أجد في الكتاب الناطق . والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره . وأهل نصرته وموضع قبره . ولولا أني أقيه الآيات . وأحذر عليه العاهات . لأعلنت على حداثة سنه ذكره . وأوطيت أسنان العرب عقبه . ولكني صارف ذلك إليك . بغير تقصير ممن معك) ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشرة إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرشاً مملوءة عنبراً . ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك . وقال له : إذا حال الحول فأتني بأمره . وما يكون من خبره . قال : فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول . قال : فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كان كثيراً فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي ذكره وفخره وشرفه فإذا قيل له : وما ذاك ؟ قال : ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين انتهى . وهذا من هواجس النفوس من إلهام العقول . فإن العقل ينذر بالخواص الكائنة حدساً . ويعلم بعد الوجود حساً . فقل حادث إلا تقدم نذيره . وبحسب خاطره يكون تأثيره . ومنهم :

ورقة بن نوفل القرشي

وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي يجتمع مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جد جده . قال الزبير بن بكار : كان ورقة قد كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب وكانت خديجة رضي الله تعالى عنها تسأله عن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيقول لها ما أراه إلا نبيّ هذه الأمة الذي بشر به موسى وعيسى . وقال ابن كثير : قال ابن إسحق ؛ وكانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ذكرت لورقة وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها (يعني ميسرة) من أمر الراهب في السفرة التي سافرها لخديجة إلى الشام ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي وما كان ميسرة يرى منه إذ كان الملكان يظلانه فقال ورقة : إن كان حقاً يا خديجة إن محمداً لنبيّ هذه

الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه قال فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لججتَ وكنتَ فى الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا[1]

ووصف من (خديجة) بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا (خديجا)

ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا[2]

بما خبرتنا من قول (قُسٍّ) ... من الرهبان أكره أن يعوجا[3]

بأن (محمداً) سيسود يوماً ... ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

---

(١) اللجاج : التمادى فى الامر ، والنشيج : مثل بكاء الصبى اذا ضرب فلم يخرج بكاؤه وردده فى صدره . وعن ابن الاعرابى : النشيج من الفم والنخير من الانف . وفى التهذيب : وهو اذا غص البكاء فى حلقة عند الفزعة (٢) قال الاما م المحدث أبو القاسم الخثعمى السهيلى فى (الروض الانف) ثنى مكة، وهى واحدة لان لها بطاحا وظواهر . وللعرب مذهب فى اشعارها فى تثنية البقعة الواحدة وجمعها نحو قوله : « وميت بغزات » يريد بغزة . وبغادين فى بغدان . واما التثنية فكثير نحو قوله :

«بالرقمتين له أجر وأعراس » «والحمتين سقاك الله من دار»

وقال زهير «ودار لها بالرقمتين» وقول ورقة من هذا «ببطن المكتين» لا معنى لادخال الظواهر تحت هذااللفظ وقد اضاف اليها البطن كما اضافه المبرق حين قال « ببطن مكة مقهور ومفتون » وانما مقصد العرب فى هذا الاشارة الى جانبى كل بلدة او الاشارة الى أعلى البلدة واسفلها فيجعلونها اثنين على هذا المغزى وقد قالوا « صدنا بقنوين » وهو قنا اسم جبل وقول عنترة « شربت بماء الدحرضين » هو من هذا الباب فى أصح القوابن . وقال عنترة أيضا : « بعنترتين واهلنا بالعيلم » وعنيزة : اسم موضع . وقال الفرزدق : « عشية سال المربدان كلاهما » وانما هو مربد البصرة . وقولهم : « تسألنى برامتين سلجما » وانما هو رامة . وهذا كثير وأحسن ما تكون هذه التثنية اذا كانت فى ذكر جنة وبستان فتثنيتهما جنتين فى فصيح الكلام اشعارا بأن لها وجهين وانك اذا دخلتها ونظرت اليها يمينا وشمالا رايت من كلتا الناحيتين ما يملأ عينيك قرة وصدرك مسرة . وفى التنزيل « عن يمين وشمال » الى قوله سبحانه « وبدلناهم بجنتيهم جنتين » وفيه « جعلنا لاحدهما جنتين » الآية . وفى آخرها «ودخل جنته» فأفرد ماثنى وهى هى . وقد حمل بعض العلماء على هذا المعنى قوله سبحانه « ولمن خاف مقام ربه جنتان » والقول فى هذه الآية يتسع والله المستعان (٣) قس : هو ابن ساعدة الايادى خطيب العرب الموحد المشهور وقد تقدمت ترجمته قريبا

فيلقى من يحاربه خساراً ... ويلقى من يسالمه فلوجا

فياليتنى إذا كان ذاكم ... شهدتُ وكنت أوّلهم ولوجا [1]

ولو جاقى الذى كرهت قريش ... ولوعجت بمكتها عجيجا

أرجى بالذى كرهوا جميعاً ... إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا

وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا

فإن يبقوا وأبق تكن أمورٌ ... يضج الكافرون لها ضجيجا

وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفةً خروجا

ومات ورقة فى فترة الوحى رضى الله تعالى عنه قبل نزول الفرائض والأحكام وقال الزبير فى كتاب نسب قريش : ورقة بن نوفل لم يعقب . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تسبوا ورقة فإنى رأيته فى ثياب بيض . وهو الذى يقول

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثنى عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

ومر ببلال بن رباح رضى الله عنه وهو يعذب برمضاء مكة فيقول أحد أحد فوقف عليه فقال أحد أحد والله يا بلال ونهاهم عنه فلم ينتهوا فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره حناناً وقال :

لقد نصحتُ لأقوام وقلت لهم : ... أنا النذير فلا يغرركم أحدُ

لا تعبُدنّ إلهاً غير خالقكم ... فإن دُعيتم فقولوا دونه حَدَدُ [2]

سبحان ذى العرش لاشىء يعادله ... رب البرية فرد واحد صمد

---

(١) قوله « فياليتى » بحذف نون الوقاية وحذفها مع ليت نادر وهو فى لعل احسن منه لقرب مخرج اللام من النون . قال ابن مالك فى الالفية :

وليتنى فشا وليتى ندرا ... ومع لعل اعكس ...

(٢) الحدد : بفتح الحاء والدال المهملتين : المنع

سبحانهُ ثم سبحاناً نعوذ به وقبلنا سبّحَ الجودى والجُمُدُ (١)
مسخر كلُّ من تحت السماء له لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لم تغن عن هُرْمُزٍ يوماً خزائنُه والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانُ إذا دان الشعوبُ له والجنُّ والأنسُ تجرى بينها البُرُد (٢)
لا شيء مما ترى تبقى بشاشتهُ يبقى الإله ويودى المال والولد

قال السهيل : قوله حناناً أى لأتخذن قبره منسكا ومترحماً والحنان الرحمة وقد ألف أبو الحسن برهان الدين ابراهيم البقاعى الشافعى تأليفاً فى إيمان ورقة بالنبى وصحبته له صلى الله تعالى عليه وسلم ولقد أجاد فى جمعه وشدد الإنكار على من أنكر صحبته وجمع فيه الأخبار التى نقلت عن ورقة بالتصريح بإيمانه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسروره بنبوته والأخبار الشاهدة له بأنه فى الجنة وما نقله العلماء من الأحاديث فى حقه وما ذكروه فى كتبهم المصنفة فى أسماء الصحابة ، وسمى تأليفه (بذل النصح والشفقة . للتعريف بصحبة السيد ورقة) وحاصل ما ذكره البقاعى فى شأن ورقة بن نوفل : أنه ممن وحد الله فى الجاهلية فخالف قريشاً وسائر العرب فى عبادة الأوثان وسائر أنواع الإشراك وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل عليه السلام ووحد الله تعالى واجتهد فى طلب الحنيفية دين إبراهيم ليعرف أحب الوجوه إلى الله تعالى فى العبادة فلم يكتف بما هداه إليه عقله بل ضرب فى الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله تعالى المنزلة من عنده الضابطة للأديان فأداه سؤاله أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الذى أوجبه الله تعالى فى ذلك الزمان وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانية ولم يتبعهم فى التبديل بل فى التوحيد ، وصار يبحث عن النبى

(١) وروى الرياشى « نعودله » بالدال المهملة واللام اى نعاوده مرة بعد اخرى ، والجمد بضم الجيم والميم وتخفيف الميم أيضا بالسكون : جبل تلقاء أسنمة واسنمة بفتح الالف وسكون السين وضم النون وقيل بضم الهمزة والنون : رملة باسفل الدهناء على طريق فلج (٢)، ويروى :
ولا سليمان اذ تجرى الرياح له والانس والجن فيما بينها ترد

صلى الله تعالى عليه وسلم الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام . فلمـا أخبرته ابنة عمه الصديقة الـكبرى خديجةُ رضوان الله تعالى عليها بما رأت وأخبرت به فى شأن النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم من المخايل بإظلال الغمام ونحوها ترجى أن يكون هو المبشر به ، وقال فى ذلك أشعاراً يتشوق فيها غايةَ التشوق إلى إنجاز الأمر الموعود لينخلع من النصرانية إلى دينـه لأنه كان قال لزيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء إن أحب الدين إلى الله تعالى دين هذا المبشر به : أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتىَ هذا النبى . فلما حقق الله الأمر وأوقع الإرهاصات[1] بالسلام من الأحجار والأشجار على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم و بمناداة إسرافيل عليه السلام للنبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم مع الاستتار وخاف النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك فاشتد خوفه فنقل ذلك إلى ورقة رضى الله تعالى عنه فاشتد سروره بذلك وثبته وشـدّ قلبه وشجعه ، فلما بدا له الأمر بفراغ نوبة إسرافيل وأتاه جبريل عليه السلام وفعل ما أمره الله به من شق صدره الشريف وغسل قلبه و إيداعه الحـكمة والرحمة وما يشاء الله تعالى وتبدى له جبريل وأنزل عليه بعضَ القرآن وأخبره به قفّ شعر ورقة وسبح الله وقدسه وعظم سروره بذلك وشهد أنه أتاه الناموس[2] الأكبر الذى كان يأتى الأنبياء قبله عليهم السلام وشهد أنه الذى أنزل عليه كلام الله وشهد أنه نبى هذه الأمة وتمنى أن يعيش إلى أن يجاهد معه . هذا مع ما له بالنبى عليه الصلاة والسلام وزوجته الصديقة خديجة من أعظم القُرْب والانتساب الموجب للحب رضى الله تعالى عنه وأرضاه . ومن شعره :

---

(١) الارهاص : الاثبات . يقال ارهص الشيء اذا أثبته وأسسه وهو مجاز ومنه ارهاص النبوة

(٢) ولفظ البخارى : فقال له ورقة هـذا الناموس الذى نزل الله على موسى ياليتنى فيها جذع ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : او مخرجى هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودى وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحى

أتبكر أم أنت العشيةَ رائحُ ... وفى الصبر من إضمارك الحزن قادحُ
لفرقة قومٍ لا أحبُّ فِراقَهم ... كأنك عنهم بعد يومَيْنِ نازحُ [(١)]
وأخبار صدق خبرتْ عن (محمّدٍ) ... يخبرها عنه إذا غاب ناصحُ
فتاكِ الذى وجهتِ يا خيرَ حرةٍ ... بغورٍ وفى النجدَيْن حيثُ الصحاصحُ [(٢)]
إلى سوق بُصرى فى الركاب التى غدت ... وهنَّ من الأحمال قُعصٌ ذوائحُ [(٣)]
يخبرنا عن كل حَبْرٍ بعلمه ... وللحق أبوابٌ لهن مفاتحُ
بأن ابنَ (عبدِ الله أحمد) مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
وظنى به أن سوف يبعث صادقاً ... كما أرسل العبدانِ (هود) و (صالحُ)
و (موسى) و (إبراهيم) حتى يرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضحُ
ويتبعه حيا (لؤىّ بن غالب) ... شبابهم والأشيبون الجحاجحُ [(٤)]
فإن ابقَ حتى يدركَ الناسُ أمره ... فإنى به مستبشرُ الودِ فارحُ
وإلا فإنى يا (خديجةُ) فاعلمى ... عن أرضك فى الأرض العريضة سائحُ

ومن شعره أيضاً

وإن يك حقاً يا (خديجةُ) فاعلمى ... حديثك إياها (فأحمد) مرسلُ
و (جبريلُ) يأتيه و (ميكال) فاعلمى ... من الله وحىٌ يشرح الصدر منزل
يفوز به من فاز فيها بتوبةٍ ... ويشقى به العانى الغرير المضلل
فريقانِ منهم فرقةٌ فى جنانه ... وأخرى بأجواز الجحيم تغلل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره ... ومن هو فى الأيام ما شاء يفعل

---

(١) نزح نزوحا اذا بعد (٢) الصحاصح: جمع صحصح وهو ما استوى من الارض وجرد وأرض صحاصح وصحصحان ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار الماء (٣) بصرى فى موضعين بالضم والقصر أحداهما بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديما وحديثا ذكرها كثير فى اشعارهم. وبصرى أيضا من قرى بغداد قرب عكبراء كما فى معجم البلدان. وقعصه واقعصه اذاقتله قتلا سريعا. وقوله ذوائح صوابه دوالح من دلح البعير اذا مر بحمله مثقلا. وقال الازهرى: الدالح البعير اذ دلح وهو تثاقله فى مشيه من ثقل الحمل وناقة دلوح مثقلة حملا أو موقرة شحما.
(٤) جمع جحجح وهو السيد السمح وقيل الكريم.

وَمَنْ عرشه فوق السموات كلها وأقضاؤه فى خلقه لا تبدل

ومن شعره أيضاً

يا للرجال وصرف الدهر والقدر وما لشيء قضاهُ اللهُ من غِيَرِ[1]
جاءت (خديجةُ) تدعونى لأخبرَها وما لنا بخفىّ الغيب من خبر
جاءت لتسألنى عنه لأخبرها أمراً أراه سيأتى الناس من اخر
فخبرتنى بأمرٍ قد سمعتُ به فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بأن (أحمدَ) يأتيه فيخبره (جبريلُ) أنك مبعوثٌ إلى البشر
فقلت : علّ الذى ترجين ينجزه لك الآله فرجى الخير وانتظرى
وأرسليه إلينا كَىْ نسائله عن أمره ما يرى فى النوم والسهر
فقال حين أتانا منطقاً عجباً يقفُّ منه أعالى الجلد والشعر :
إنى رأيت أمينَ الله واجهنى فى صورةٍ أكملت من أعظم الصور
ثم استمر فكاد الخوف يذعرنى مما يُسلِّم ما حولى من الشجر
فقلت : ظنى وما أدرى أيصدقنى أن سوف يبعث يتلو منزل السور
وسوف أبليك أن أعلنتَ دعوتهم من الجهاد بلا منٍّ ولا كدر

ومنهم :

عامر بن الظرب العدوانى

كان من حكماء العرب وخطبائهم كما سبق فى فصلهم . وله وصية طويلة يقول فى آخرها : إنى ما رأيت شيئاً قطُّ خلق نفسه ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناسَ الداء لأحياهم الدواء . ثم قال : إنى أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حيًّا ، و يعود اللاشيء شيّا ، ولذلك خلقت السموات والأرض فتولوا عنه ذاهبين . وقال :

(١) الغير : اسم من التغير عن اللحيانى وانشد :
اذ انا مغلوب قليل الغـير

وَيْلُمِّها[1] نصيحةً لو كان من يقبلها . وقد سبق لعامر هذا ذكر فى غير موضع من الكتاب وذكرنا بعضاً من أحواله وسنذكر بعضها فيما يناسب . إن شاء الله ومنهم :

عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة

كان يؤمن بالخالق عز وجل وبخلق آدم عليه السلام وقال فى ذلك شعراً وهو كذا :

أدعوك ياربِّ بما أنت أهلُه ... دعاء غريق قد تشبَّث بالعُصَمْ
لأنك أهلُ الحمد والخير كله ... وذو الطوْل لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانياً ... ولم يَرَ عبدٌ منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذى ... تبدأتَ خلق الناس فى أكنم العدم
وأنت الذى أحللتنى غيبَ ظلمةٍ ... إلى ظلمة فى صُلْب (آدم) فى ظلم

ومنهم :

علاف بن شهاب التميمى

كان أيضاً يؤمن بالله ويوم الحساب . وفى ذلك يقول وقد أحسن وأجاد فى مقاله :

---

(١) قوله ويلمها مدح خرج بلفظ الذم والعرب تستعمل لفظ الذم فى المدح فتقول : اخزاه الله ما اشعره ولعنه الله ما اجراه وكذلك يستعملون لفظ المدح فى الذم فيقولون للاحمق يا عاقل وللجاهل يا عالم ومعنى هذا يا أيها العاقل عند نفسه أو عند من يظنه عاقلا فسموه عاقلا على ما يعتقده فى نفسه وأما قولهم اخزاه الله ما أشعره ونحو ذلك من المدح الذى يخرجونه بلفظ الذم فلهم فى ذلك غرضان احدهما ان الانسان اذ رأى الشىء فأثنى عليه ونطق باستحسان فربما اصابه بعين واضربه فيعدلون عن مدحه الى ذمه لئلا يؤذوه والثانى انهم يريدون انه قد بلغ غاية الفصل وحصل فى حد من يذم ويسب لان الفاضل يكثر حساده والمعادون له والناقص لا يتلفت اليه ولذلك كانوا يرفعون انفسهم عن مهاجاة الخسيس ومجاوبة السفيه ولذلك قال الفرزدق:

وان حراما أن اسب مقاعسا ... بآباءك الشم الكرام الخضارم
ولكن نصفا لو سببت وسبنى ... بنو عبد شمس من مناف وهاشم

وقال ابو الطيب :

صغرت عن المديح فقلت : اهجى ... كأنك ما صغرت عن الهجاء

هذا وقد بقى كلام فى أعراب الكلمة (ويلمها) يطلب من الاقتضاب

ولقد شَهِدتُ الخصم يومَ رفاعةٍ   فأخذت منـه خِطّةَ المغتالِ
وعلمت أن الله جازٍ عبدَهُ   يومَ الحسابِ بأحسن الاعمال

ومنهم :

المتلمس بن أمية الكنانى

فقد كان يخطب العرب بفناء الكعبة و يقول : أطيعونى ترشدوا . قالوا : وما ذاك ؟ قال : إنكم قد تفردتم بآلهة شتى و إنى لأعلم ما اللهُ راضٍ به وإن الله تعالى رب هذه الآلهة وإنه ليحب أن يعبد وحده فتفرقت عنه العرب حين قال ذلك وتجنبت عنه طائفة وزعموا أنه على دين بنى تميم ومنهم :

زهير ابن أبى سلمى

وكان يمر بالعِضاه[1] وقد أورقت بعد يُبس نيقول : لولا أن تسبنى العرب لآمنتُ أن الذى أحياك بعد يُبس سيحيي العظامَ وهى رميم . وقال فى معلقته :

ألا أبلغ الأحلافَ عنّى رسالةً   وذُبيان هَلْ أقسمتُمُ كل مُقسَمِ

الأحلاف : أسَدٌ وغَطَفانُ[2] هنا . واحدهم حلف وفلان حلف بنى فلان إذا منعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأن يكون عوناً على غيرهم . ومعنى هل أقسمتم كل مقسم : أى كل إقسام . يقول أبلغ ذبيانَ وحلفاءها وقل لهم : قد حلفتم على إبرام حبل الصلح كل حلف فتحرجوا من الحنث وتجنبوا .

فلا تكتُمُنّ اللهَ مافى نفوسكم   ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ

يقول : لا تكتموا الله ما صرتم إليه من الصلح وتزعمون أنكم لم تحتاجوا إلى الصلح وأنا لم نملّ الحرب فإن الله يعلم من ذلك ما تكتمونه من الغدر كما فعل حصين بن ضمضم إذ قتل العبْسى بعد الصلح . وتفسير الزوزنى أوضح من هذا حيث قال : أى لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد ليخفى على

(١) كل شجر له شوك (٢) أقول : وطيىء أيضـا

الله ومهما يكتم من الله شيء يعلمه . يريد أن الله عالم بالخفيات والسرائر ولا يخفى على الله شيء من ضمائر العباد فلا تضمروا الغدر ونقض العهد فإنكم لو أضمرتموه علمه الله تعالى .

يؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَرْ   ليوم الحسابِ أو يعجّل فينقَمِ

أى لا تكتمن الله مافى نفوسكم فيدخر ذلك إلى يوم الحساب فيحاسبكم به الله أو يعجل لكم النقمة فى الدنيا . وفى شرح الزوزنى يقول : يؤخر عقابه ويرقم فى كتابه فيدخر ليوم الحساب أو يعجل العقاب فى الدنيا قبل المصير إلى الآخرة فينتقم من صاحبه يريد لا مخلص من عقاب الذنب عاجلاً وآجلا انتهى . فقد اعترف فى هذه الأبيات بوجود البارىء عز اسمه وأثبت له سبحانه صفات الكمال كالعلم والحياة والقدرة ، وأقر بالبعث والنشور والثواب والعقاب والحفظة وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية البيضاء ، وهذا أدلُّ دليلٍ على يقينه وإيمانه . ومنهم :

خالد بن سنان بن غيث العبسى

كان مقراً بتوحيد الربوبية والألوهية ، ناهجاً منهج الملة الحنيفية وكثير من الناس ذهب إلى أنه كان نبياً . وفى الحديث (ذاك نبى أضاعه قومه) وذلك أنه قال لقومه (ادفنونى فإذا جاءت الظباء بعد ثلاث فأخرجونى فسأنبئكم بما أمرت) فجاءت الظباء إلى قبره بعد ثلاث فلم يخرجوه وقالوا تتحدث العرب عنا أنا نبشنا موتانا . وأتت بنته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعته يقرأ قل هو الله أحد فقالت : قد كان أبى يقرأ هذا . وأهل هذا القول اختلفوا فى الزمن الذى كان فيه فالكثير على أنه كان فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام . ومنهم من قال : كان قبل عيسى والبنت التى جاءت إلى الرسول ليست بنته الصلبية بل كانت من ذريته ونسله . وقد وقع فى بعض بلاد الحجاز فى الجاهلية

نار عظيمة فقام فى أمرها خالد بن سنان حتى أخمدها ومات بعد ذلك فى قصة له ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى فى (كتاب الجماجم) وأوردها الحاكم فى المستدرك من طريق يعلى بن مهدى عن أبى عوانة عن أبى يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحدثان فذكر القصة . وفيها : فانطلق وهى تخرج من شق جبل من حرة يقال لها حرة أشجع فذكر القصة فى دخوله الشق والنار كأنها جبل سقر فضربها بعصاه حتى أدخلها وخرج وقد ذكرتُ طرفا من هذه القصة فى مبحث نيران العرب .
ويقال إن خالد بن سنان هذا هو الذى دعا على العنقاء فذهبت وانقطع نسلها .
والأصح أن الذى دعا عليها حنظلة بن صفوان وكان نبياً بعثه الله تعالى إلى أهل الرس (والرس البئر) فكذبوه وقتلوه فأوحى الله تعالى إلى نبى كان مع بختنصر يقال له أرميا بن برخيا : مُرْ بختنصر يغزو العرب الذين لا إغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم . قال الزمخشرى فى أمثاله عند قولهم « طارت به عنقاء مُغْرِب » : زعموا أنها طائر كان على عهد حنظلة بن صفوان الحميرى نبى أهل الرس عظيم العنق . وقيل : كان فى عنقه بياض ولذلك سمى عنقاء وكان أحسن طائر خلقه الله تعالى فاختطف غلاما فأغرب به ولذلك سمى المغرب فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة انتهى . وقال الدميرى فى حياة الحيوان هو طائر غريب تبيض بيضاً كالجبال وتبعد فى طيرانها سميت بذلك لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق . وقال القزوينى إنه أعظم الطير جثةً وأكبرها خلقةً تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر وكانت قديماً بين الناس فتأذوا منها إلى أن سلبت يوماً عروساً بحليها فدعا عليها حنظلة النبى فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط وراء خط الاستواء . وهى جزيرة لا يصل إليها الناس وفيها حيوان كثير كالفيل والكركدن والجاموس والبَبْر والسباع وجوارح الطير . وعند طيرانها يسمع لأجنحتها دوىّ كدوى الرعد القاصف والسيل وتعيش ألفى سنة وتزاوج إذا

مضى لها خمسمائة عام . وقال العكبرى فى شرح المقامات كان لأهل الرس جبل شامخ فيه طيور شتى منها العنقاء وهى طائر عظيم الخلق طويل العنق ووجهه وجه إنسان من أحسن الطير شكلاً وكانت تأكل الطير فجاعت مرة فأخذت صبياً ثم جارية فاشتكوها لنبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها حنظلة فذهبت وانقطع نسلها . وقيل : أصابتها صاعقة فاحترقت . وكان حنظلة فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وسميت العنقاء لطول عنقها . وقيل إنها كانت فى زمن موسى . وفى المثل (كالعنقاء تسمع بها ولا تُرى كالغول) وأراد عدم رؤيتها بعد الانقراض المذكور . وسميت مُغْرِبا بزنة اسم الفاعل من أغرب لأنها كانت تجىء بالغرائب . وقد وقع استعمالها فى هذا المثل بدون الوصف . ومنه يعلم جواز استعمالها بدون الوصف كقول الشاعر :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم خلٌّ وفىٌّ للشدائد أصطفى
أيقنت أن المستحيلَ ثلاثةٌ الغولُ والعنقاء والخلّ الوفىّ

وكان القاضى الفاضل ينشد كثيراً :

وإذا السعادة أحرستك عيونها نَمْ فالمخاوف كلهن أمان
واصطَدْ بها العنقاء فهى حبالةٌ واقتد بها الجوزاء فهى عنان

« وقال غيره »

الجود والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكنِ

وقد أورد ابن حجر العسقلانى طرفا من ترجمة خالد بن سنان فى كتابه فى الصحابة فعليك به . ومنهم :

عبد الله القضاعى

وهو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة وكان يؤمن بالله واليوم الآخر وكان من حكماء العرب وفضلائها الشهيرين ينهج فى ديانته منهج الحنفية كأضرابه السابقين

دل على ذلك ماروى من كلامه . وبليغ نظامه ومثل اسمه لم يكن فى الجاهلية إلا نادراً بناء على ما اتخذوه من القاعدة والعادة فى وضع أسمائهم . وسيأتى ذلك عند الكلام على مذاهبهم فى أعمالهم وأفعالهم . ومنهم :

عبيد بن الأبرص الأسدى

كان عبيد هذا ينتهى نسبه إلى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وشعره يدل على توحيده قال :

ولتأتين بعـــدى قرون جمة ترعى محارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجرى أنحساً وسعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره : ياذا الزمانة هل رأيت عَبيدا ؟
مائتى زمان كاملين وبضعة عشرين عشت معمراً محمودا
أدركت أول ملك نصر ناشئاً وبناء شداد وكان أبيدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتنى ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبتغى من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجه المعبود

وكان من فحول شعراء الجاهلية جعله ابن سلام الجمحى فى الطبقة الرابعة وقرن به طرفة وعلقمة بن عبدة . قال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء عاش عبيد هذا أكثر من ثلثمائة سنة . وكان المنذر بن امرئ القيس جد النعمان بن المنذر له يوم بؤس ويوم نعيم . وكان يقتل أول من رأى فى يوم بؤسه فخرج المنذر فى يوم بؤسه فلقى عبيد بن الأبرص فقتله . فى قصة طويلة لا يسعها المقام[1] . ومنهم :

كعب بن لؤى بن غالب

وهو أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذكرنا فى المجتمعات

---

(١) انظرها فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ما حكاه الزبير بن بكار من خطبته لقريش ، واجتماعهم عليه فى كل جمعة فكان يأمرهم فيها بالإطاعة والفهم والتعلم والتفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ويحثهم على صلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه من ولده ويأمرهم باتباعه إن أدركوه وأنه يخرج من بيت الله الحرام . وينشد شعراً يذكر فيه ذلك ويتشوق إلى مشاهدة دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغير ذلك مما يعد من فطن الإلهامات ، وصادق التخيلات وهذا من أوضح البراهين على تمسكه بدين إبراهيم عليه السلام وأخذه بالحنيفية والإسلام . وذهب كثير من العلماء إلى أن جميع أصول النبى عليه الصلاة والسلام من الآباء والأمهات كانوا موحدين فى اعتقادهم مؤمنين بالبعث والحساب ، وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية من الأحكام . وإلى ذلك يشير كلام الماوردى فى (أعلام النبوة) فإنه قال : لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخير خلقه لما كلفهم من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر ، وأمدهم بأوكد الأواصر[1] ، حفظاً لنسبهم من قدح ، ولمنصبهم من جرح ، لتكون النفوس لهم أوطا ، والقلوب لهم أصغى فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع ؛ ولأوامرهم أطوع . انتهى . وقد كان عبد المطلب يتلألأ من وجهه النور وتلوح فى أساريره علامات الخير . وكان يأمر ولده بترك البغى والظلم ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن سفاسف الأمور . وكان يقول فى وصاياه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم ولم تصبه عقوبة . فقيل لعبد المطلب فى ذلك ،

(١) الاواصر : جمع آصرة وهى ما عطفك على الرجل من الرحم والقرابة والمعروف والمنة . يقال ما تاصرونى على فلان آصرة اى ما تعطفنى عليه منة ولا قرابة قال الحطيئة :

عطفوا على بغير آ   صرة فقد عظم الاواصر

اى عطفوا على بغير عهد قرابة

ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه . ويعاقب فيها المسيء بإساءته . . وكان مجاب الدعوة ، وقد حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من تعبد بحراء . وكان إذا رأى هلال رمضان صعد إلى حراء يطعم المساكين ويرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال : وكان يفوح منه رائحة المسك الأذفر ، وكانت قريش إذا أصابها قحط يستسقون به فيسقيهم الله تعالى غيثاً عظيما . وانتقلت السقاية[1] والرفادة[2] والرئاسة إلى عبد المطلب وأخذ عهداً من ملوك الشام وأقيال حمير ، باليمن وصارت رحلته إليها وحفر عبد المطلب حين قوى واشتد بئر زمزم وأخرج منها ما كان ألقاه فيها عامر بن الحرث الجرهمى من غزالَىْ الكعبة وحجر الركن فضرب الغزالين صفائح ذهب على باب الكعبة ووضع الحجر فى الركن وصار عبد المطلب سيداً عظيم القدر ، مطاع الأمر نجيب النسل ، حتى مر به أعرابى وهو جالس فى الحجر وحوله بنوه كالأسد . فقال : إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء فأنشأ الله تعالى لهم بالنبوة دولة خلد بها ذكرهم ورفع بها قدرهم حتى سادوا الأنام ، وصاروا الأعلام ، وصار كل من قرب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من آبائه أعظم رياسة وتنوهاً . وأكثر فضلا وتألهاً .

(وأما هاشم) فقد كان يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق وكان نور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتلألأ فى وجهه لا يراه أحد إلا قبل يده ولا يمر بشيء إلا سجد له . وكان يضرب بجوده المثل وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف . وأراد أمية بن عبد شمس أن يتشبه بهاشم فى صنيعه فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش فقال فيه وهب بن عبد قصى :

---

(١) هى ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء .

(٢) الرفادة : شيء كانت تترافد به قريش فى الجاهلية فتخرج فيما بينها مالا وتشترى به للحجاج طعاما وزبيبا للنبيذ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج

تحمل هاشم ما ضاق عنه   وأعيا أن يقوم به بريض
أتاهم بالغرائر متأقلات   من الشام بالبر البغيض[(١)]
فأوسع أهل مكة من هشيم   وشاب اللحم باللحم الغريض[(٢)]

وكان اسمه عمراً فسمى هاشماً[(٣)] لأنه أول من هشم الثريد لقومه فى مكة فى سنة لزبة قحطة رحل فيها إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة ونحر الجزر وجعلها ثريداً عم به أهل مكة حتى استقلوا فقال فيه الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلاّ نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها   الراحلون لرحلة الإيلاف
والرائشون وليس يوجد رائش   والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم   حتى يكون فقيرهم كالكافى
عمرو العلى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

(وأما عبد مناف) فقد كان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله واسمهُ المغيرة وعن الزبير رضى الله تعالىٰ عنه أنه وجد حجراً منقوشاً عليه أنا المغيرة بن قصى أوصى قريشاً بتقوى الله وصلة الرحم وكان يبغض الأصنام وكان يلوح عليه نور

---

(١) الغرائر : جمع غرارة بهاء ولا تفتح وهى الجوالق (٢) لحم غريض ، طرى (٣) قال السهيلى : المعروف فى اللغة أن يقال ثردت الخبز فهو ثريد ومثرود فلم يسم ثاردا وسمى هاشما . وكان القياس كما لا يسمى الثريد هشيما بل يقال فيه ثريد ومثرود أن يقال فى اسم الفاعل أيضا كذلك ولكن سببهذه التسمية يحتاج الى بيان : ذكر أصحاب الاخبار أن هاشما كان يستعين على اطعام الحاج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة فاحتمل الى الشام بجميع ماله واشترى به أجمع كعكا ودقيقا ثم أتى الموسم فهشم ذلك الكعك كله هشما ودقه دقا ثم صنع للحاج طعاما أشبه الثريد فبذلك سمى هاشما لان الكعك اليابس لا يثرد وانما يهشم فبذلك مدح حتى قال شاعرهم فيه عبد الله بن الزبعرى :

كانت قريش بيضة فتفقأت   فالمح خالصه لعبد مناف
الخالطين فقيرهم بغنيهم   والظاعنين لرحلة الايلاف
والرائشين وليس يوجد رائش   والقائلين : هلم للاضياف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه   قوم بمكة مسنتين عجاف

انتهى ما أريد نقله . والمح بالضم صفرة البيض

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وكان اسمه المغيرة فدفعته أمه إلى (مناف) وكان من أعظم أصنام مكة تعظيما له فغلب عليه عبد مناف واستحكمت رئاسته بعد أبيه لجوده وسياسته حتى قال فيه الشاعر :

كانت قريش بيضة فتفقأت   فالمُحُّ خالصه لعبـــد مناف

(وأما قصى) فـكان عالم قريش وأقومها للحق وكان يجمع قومه يوم العروبة ويذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث فيه نبى وكان ينهى عن عبادة الأصنام وخلصت الرئاسة فى مكة لقصى بعد أن أجلى خزاعة عنها فجمع قريشاً وهم فى أوزاع بنى كنانة فمنعت بنو كنانة منهم فحاربهم بمن أطاعه حتى أفردهم منهم وجمعهم بمكة فسمى (مجمعاً) وفيه يقول شاعرهم :

أبونا قصى كان يدعى مجمعاً   به جمع الله القبائل من فهر

فلما اجتمعوا أنزلهم بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال وقسمها رباعاً بين قومه وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها . وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء [1] وصارت سنة فى قريش كالدين الذى لا يعمل بغيره فزادت القوة بجمعهم حتى عقد الولاية وجدد بناء الكعبة ، وهو أول من بناها بعــد إبراهيم وإسماعيل وبنى دار الندوة للتحاكم والتشاجر والتشاور وهى أول دار بنيت بمكة وكانوا يجتمعون فى جبالهم ثم بنى القوم دورهم بها فتمهدت لهم الرياسة ، وظهرت فيهم السياسة . وبالجملة إذا خبرت حال نسبه ،

(١) الحجابة : سدانة البيت اى خدمته وهى مما أحدثه قصى . والحجابة عندهم منصب شريف تكون مفاتيح الكعبة عند من تقلد هذا المنصب وهــو المسئول عن ما فى الكعبة من الامانات ، والاموال المهداة ، وهى بيد آل شيبة ، والندوة : من محـــدثات قصى ايضا وهى بمنزلة قصر الامارة ودار الحكومة وكانوا يجتمعون فيها لابرام أمرهم وتشاورهم والندوة الجماعة ودار الحكومة دار الجماعة وقيل فى وجه التسمية غير ذلك . وكانت الجارية اذا حاضت ادخلت دار الندوة ثم شــق عليها بعض ولد عبدمناف درعها ودرعها اياه وانقلب بها اهلها فحجبوها ولا يعذر غلام (أى يختن) الا فيها . واللـــواء : منصب احدثه قصى ايضا وهو بمنزلة وزير الحرب فى عصرنا فاذا أخرجه من كان بيده اجتمعت عنده صناديد قريش لايتخلف احد منهم عنه وذلك اذا نابتهم نائبة . وغيره لا يمكن من ذلك اللواء وكان هذا المنصب مخصوصا ببنى عبد الدار . اما السقاية والرفادة فقد مضى تفسيرها فى ص ٢٨٣

وعرفت طهارة مولده ، علمت أنه سلالة آباء كرام سادوا ورأسوا فإنه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وليس فى هؤلاء خامل مسترذل ، ولا مغمور مستذل ، كلهم سادة قادة اشتهروا بأحسن المكارم والفضائل . وقد ذكر ذلك مفصلاً فى كتب السير ولا يسعنا إيراده فى مثل هذا المقام . ومات أبوه عبد الله بمكة وهو حمل ، وأما أمه آمنة فماتت عنه بالمدينة وهو ابن ست سنين ، والله أعلم .

بيان ما كان العرب عليه من العبادات والأعمال فى الجاهلية

اعلم أن العرب قبل ظهور الإسلام لم يكونوا مكلفين بشريعة من الشرائع لا شريعة إبراهيم ولا غيرها من شرائع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لقوله سبحانه : (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) وقد ذكر المفسرون فى هذا المقام أنه لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل كانوا فى فترة وهى الزمن بين الرسولين والمراد بالقوم هنا العرب لوجودهم فى فترة بين إسماعيل ومحمد عليهما السلام وهى مايزيد على ثلاثة آلاف سنة بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى إسرائيل لما فى الصحيحين (أعطيتُ خُمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجلٍ من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ وأحلت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى وأعطيت الشفاعةَ وكان النبى يبعث إلى قومه و بعثت إلى الناس عامة) ولا ينافى كون إسماعيل عليه السلام مرسلا إليهم القول بعدم تكليفهم ، فإن التكليف إنما يبقى إذا لم تندرس شريعة الرسول وههنا قد اندرست كما سبق . ومعلوم أن الأنبياء هم رسل الله تعالى إلى

عباده بأوامره ونواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها وإلزاما لما جوزته من مباحاتها لما أراده الله تعالى من كرامة العاقل وتشريف أفعاله ، واستقامة أحواله ، وانتظام مصالحه ، حين هيأه للحكمة ، وطبعه على المعرفة ، ليجعله حكيما ، وبالعواقب عليما ، لأن الناس بنظرهم لاينكرون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم ولا ينزجرون مع اختلاف هممهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين ، وأخبار القرون الماضين ، فتكون آداب الله فيهم مستعملة ، وحدوده فيهم متبعة ، وأوامره فيهم ممتثلة ، ووعده ووعيده فيهم زاجراً ، وقصص من غَبَرَ من الأمم واعظا ، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع والمعانى الغريبة إذا أيقظت الأذهان استمدتها العقول فزاد علمها وصح فهمها ، وأكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علما أكثرهم عملا ، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدل ، ولا منهم فى انتظام المصالح بدل ، فلما خلت أمة العرب فى تلك المدة المديدة من النذير اختلت أفعالهم ، وتشوشت أحوالهم ، ومع ذلك بقيت فيهم بقايا من سنن إبراهيم وشرائعه ، وكان لهم بعض عبادات وأعمال من ذلك العهد وإن عرض لبعضها تغيير بزيادة أو نقصان وقد أسلفنا شيئاً منها ونذكر هنا بعضها :

« فمن ذلك » أنهم كانوا مداومين على طهارات الفطرة التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام فى قوله سبحانه (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) وهى الكلمات العشر : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد . فأما التى فى الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والفرق والسواك . وأما التى فى الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلما جاء الإسلام قررها سنة من السنن . وفى كتب الحديث تفصيل ذلك « ومن ذلك » أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم . قال الأفوه الأودى :

ألا عللانى واعلما أننى غرر ... فما قلت ينجينى الشقاق ولا الحذر

وما قلت يجدينى ثوابى إذا بدت   مفاصل أوصالى وقد شخص البصر

وجاءوا بمــاء بارد يغسلوننى   فيالك من غسل سيتبعه غبر

وكانوا يكفنون موتاهم ويصلون عليهم وكانت صلاتهم إذا مات الرجل وحمل على سريره يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثنى عليه ثم يدفنه ثم يقول عليك رحمة الله . وقال رجل من كليب فى الجاهلية لابن ابن له :

أعمــرو إن هلــكت وكنت حياً   فإنى مكثر لك من صــلاتى

وأجعــل نصف مالى لابن سـام   حياتى إن حييت وفى ممــاتى

« ومن ذلك » أن قريشاً كانوا فى الجاهلية يصومون يوم عاشوراء ولعلهم تلقوه من الشرع السالف ولهذا كانوا يعظمون هذا اليوم بكسوة الـكعبة فيه وغير ذلك ويقال إن قريشاً أذنبت ذنبا فى الجاهلية فعظم فى صــدورهم فقيل لهم صوموا عاشوراء يكفر ذلك . وفى بعض الأخبار أنهم كانوا أصابهم قحط ثم رفع عنهم فصاموه شــكراً «ومن ذلك» أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ، قال زهير بن أبى سُلمى :

جعلْنَ القنَانَ عن يمين وحزنهُ   وكم بالقَنان من مُحلٍ ومُحْرِمِ[1] .

وكانوا يطوفون بالبيت سبعا ويمسحون الحجر ويسعون بين الصفا والمروة قال أبو طالب :

وأشواط بين المروتين إلى الصفا   وما فيهما من صورة ومخــايل

وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فيقول « لبيك اللهم لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملــكه وما ملك » . وكانوا يقفون المواقف كلها وبذلك نطقت أشعارهم . وكانوا يهدون الهدى ويرمون الجمار

---

(١) القنان جبل لبنى أسد ، والحزن ما غلظ من الأرض ، والمحل الذى لا عهد ولا ذمة له ولا جوار ، والمحرم الذى له حرمة وذمة من أن يغار عليه . وقيل المحل الذى دخل فى اشهر الحل ، والمحرم الذى دخل فى اشهر الحرم . والمعنى ان هؤلاء الظغن لما تحملن جعلن عن ايمانهن حزن القنان ومن اقام به من عدو محل من نفسه وصديق محرم

ويروى عن أبى مجلز . أن أهل الجاهلية كان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر[1] . وقيل كان الرجل يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء[2] شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء ، وكانوا لا يغيرون فى الأشهر الحرم وينصلون فيها الأسنة ويهرع الناس فيها إلى معائشهم ولا يخشون أحداً وقد توارثوا ذلك على ماقيل من دين إسماعيل عليه السلام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى زيد قال : كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ولم يكن فى العرب ملوك كذلك فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياماً يدفع به بعضهم عن بعض فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ماقتله . وقد كانت قريش ابتدعت رأى الحمس[3] رأيا رأوه وأدارو فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة[4] وولاة البيت وقطان[5] مكة وسكانها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعترفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبرهيم عليه السلام . ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس والحمس أهل الحرم ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يحل لهم مايحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم . وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك . ويروى عن أبى عبيدة النحوى : أن بنى عامر بن صعصعة دخلوا معهم فى ذلك أيضاً . وقال عمرو بن معد يكرب .

(١) الاذخر بكسر الهمزة والخاء المعجمة : نبات معروف زكى الرائحة واذا جف ابيض (٢) اللحاء بالكسر والمد والقصر لغة ما على العود من قشرة
(٣) الحمس : التشدد (٤) فى نسخة : الحرم
(٥) القطان : السكان

أعباس لو كنت شياراً جيادنا (بتثليث) ما ناصيت بعدى الأحامسا

وتثليث موضع من بلادهم والشيار الحسان . يعنى بالأحامس بنى عامر بن صعصعة وعباس هو ابن مرداس السلمى وكان أغار على بنى زبيد بتثليث . وقال لقيط بن زرارة الدارمى فى (يوم جبلة) .

أجذم إليك أنها بنو عبس المعشر الحلة فى القوم الحمس[(١)]

لأن بنى عبس كانوا يوم جبلة حلفاء فى بنى عامر بن صعصعة ويوم جبلة يوم كان بين بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة ، وبين بنى صعصعة فكان الظّفر فيه لبنى عامر على بنى حنظلة . ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط[(٢)] ولا يسلأوا السمن[(٣)] وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم رفعوا ذلك فقالوا لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجًا أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً[(٤)] . وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى[(٥)] فحملوا على ذلك العرب

---

(١) اجذم : زجر معروف الخيل وكذلك ارحب وهب وهقط وهقب .

(٢) الاقط : يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل وهو بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن القاف للتخفيف مع فتح الهمزة وكسرها مثل تخفيف كبد نقله الصاغاني عن الفراء (٣) سلا السمن يسلؤه سلأ : طبخه وعالجه فأذاب زبده قال ابن هرمه :

ان لنا صرمة مخيسة نشرب ألبانها ونسلؤها

(٤) ذكر الحلة وهم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة ان لم يجدوا ثياب الحمس وكانوا يقصدون فى ذلك طرح الثياب التى اقترفوا فيها الذنوب عنهم . ولم يذكر الطلس من العرب وهم صنف ثالث غير الحلة والحمس : كانوا يأتون من أقصى اليمن طلسا من الغبار فيطوفون بالبيت فى تلك الثياب الطلس فسموا بذلك ذكره محمد بن حبيب (٥) هو الثوب الذى يطرح بعد الطواف فلا يأخذه احد

فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراة . أما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا عليها ثم تطوف فيه . فقالت امرأة[١] من العرب وهى كذلك تطوف بالبيت :

اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّه وما بدا منه فلا أحله
أخثم مثل القعب بادٍ ظله كأن حمّى خيبر تمله[٢]

ومن طاف منهم فى ثيابه التى جاء فيها من الحل ألقاها فلم ينتفع بها هو ولا غيره . فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تركه من ثيابه فلا يقربه وهو يحبه :

كفى حزناً كرّى عليها كأنها لقى بين أيدى الطائفين حريم[٣]

يقول لا تمس فكانوا كذلك الى البعثة النبويه فنزل « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » فأمر قريشا بالإفاضة من حيث أفاض العرب ونزل إبطالاً لما ابتدعوه من تحريم الطعام واللبوس عند البيت حين طافوا عراةً وحرموا ما جاؤابه من الحل من الطعام . قوله تعالى «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فوضع الله تعالى أمر الحمس

---

(١) يذكر ان هذه المراة هى ضباعة بنت عامر بن صعصعة ثم من بنى سلمة بن قشير وذ ذكر محمد بن حبيب : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها فذكرت له عنها كبرة فتركها فقيل انها ماتت كبدا وحزنا على ذلك . قال السهيلى : ان كان صح هذا فما اخرها عن ان تكون اما المؤمنين . وزوجا لرسول رب العالمين . الا قولها « اليوم يبدو بعضه أو كله » تكرمة من الله لبنيه وعلما منه بغيرته والله اغير منه

(٢) الاحثم : صوابه الاخثم وهو الركب المرتفع الغليظ والركب محركة العانة او منبتها أو الفرج أو ظاهره أو الركبان أصل الفخذين عليهما لحم الفرج أو خاص بهن . والقعب : القدح الضخم الغليظ الجافى

(٣) قوله (حريم) أى محرم لا يؤخذ ولا ينتفع به وكل شىء مطرح فهو لقى قال الشاعر يصف فرخ قطا :

تروى لقى ألقى فى صفصف تصهره الشمس فما ينصهر

تروى بفتح الباء أى تستقى له . ومن اللقى حديث فاختة أم حكيم بن حزام وكانت دخلت الكعبة وهى حامل متم بحكيم بن حزام فجاءها المخاض فلم تستطع الخروج من الكعبة فوضعته فيها فلفت فى الانطاع هى وجنينها وطرح مثبرها وثيابها التى كانت عليها فجعلت لقى لا تقرب

وما كانت قريش ابتدعت منه وجعل الناس كلهم فى الإفاضة من عرفات والوقوف عليها سواء .

« ومن ذلك » أنهم كانوا يقطعون يد السارق اليمنى إذا سرق . وكانت ملوك اليمن وملوك الحيرة يصلبون الرجل إذا قطع الطريق ، وكانوا يأخذون فى دية النفس مائة من الإبل ، ويحكمون بإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثا وللزوجة الرجعة فى الواحدة والاثنتين وتفريق الفراش فى وقت الحيض وفى القرآن « واعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » فجاء الشرع بتأكيد ما كان والقصاص فى الجروح والرجم للزانى المحصن والزانية المحصنة واتباع الحكم فى المبال فى الخنثى وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر والنسب . وكانوا يتواصون بدفع الظلم والوفاء بالعهود وإكرام الجار والضيف . وهذه أمور مشهورة عندهم نطقت بها أشعارهم وخطبهم يحتاج ذكرها لمزيد بسط أغنى عنه ما ذكره أهل الحديث والتفسير والتاريخ « ومن ذلك » أنهم كانوا يعتبرون القَسامة وهى بفتح القاف وتخفيف المهملة اليمين وهى فى عرف الشرع حلف معين عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفى وهى مأخوذة من قسمة الأيمان على الحالفين . وأول قسامة كانت فى الجاهلية لفينا بنى هاشم كان رجل من بنى هاشم استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى فانطلق معه فى إبله فمر به رجل من بنى هاشم قد انقطعت عروة جُوالقه (وهو الوعاء من جلود وثياب وغيرها وهو معرب) فقال أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقى لا تنفر الإبل فأعطاه عقالاً فشد به عروة جوالقه فلما نزلوا عقلت الإبل إلا بعيراً واحداً فقال الذى استأجره ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل قال ليس له عقال قال فأين عقاله قال مرّ بى رجل من بنى هاشم قد انقطع عروة جوالقه واستغاث بى فأعطيته فخذفه (أى رماه) بعصاً كان فيها أجله فمر به رجل من أهل اليمن قال أتشهد الموسم أى موسم الحج قال ما أشهد وربما شهدته . قال هل أنت مبلغ عنى رسالة من الدهر قال نعم ذلك . قال فكتب

إذ أنت شهدت الموسم فناديا آل قريش فإذا أجابوك فناديا آل بنى هاشم فإن أجابوك فاسأل عن أبى طالب فأخبره أن فلاناً قتلنى فى عقال . ومات المستأجر بعد أن أوصى اليمانى بما أوصاه ، فلما قدم الذى استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا قال مرض فأحسنت القيام عليه فوليت دفنه . قال : قد كان أهل ذاك منك فمكث حيناً فإنهم صدقوه ولم يظنوا به غير ذلك . ثم إن الرجل الذى أوصى إليه أن يبلغ عنه وافى الموسم فقال يا آل قريش قالوا هذه قريش قال يا بنى هاشم قالوا هذه بنو هاشم قال من أبو طالب قال هذا أبو طالب قال أمرنى فلان أن أبلغك رسالة أن فلاناً قتله فى عقال فأتاه أبو طالب فقال له اختر منا إحدى ثلاث إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا و إن شئت حَلَفَ خمسون من قومك أنك لم تقتله فإن أبيت قتلناك به . فأتى قومه فقالوا نحلف فأتته امرأة من بنى هاشم كانت تحت رجل منهم وهو عبد العزى ابن أبى قيس العامرى قد ولدت له واسم ولدها منه حويطب . فقالت يا أبا طالب أحب أن تجيز ابنى هذا برجل من الخمسين ولا تصبر يمينه حيث تصبر الإيمان أى لاتلزمه أن يحلف بأعظم الإيمان وهو اليمين بين الركن والمقام ففعل فأتاه رجل منهم فقال يا أبا طالب أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران هذان بعيران فاقبلهما عنى ولا تصبر يمينى حيث يصبر الأيمان فقبلهما ، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا بين الركن والمقام أن خداشاً برىء من دم المقتول . قال ابن عباس فوالذى نفسى بيده ما أحال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف أى تتحرك . زاد ابن الكلبى وصارت رباع الجميع لحويطب فبذلك كان أكثر من بمكة رباعاً ، وروى الفاكهى من طريق ابن أبى نجيح عن أبيه قال حلف ناس عند البيت قسامة على باطل ثم خرجوا فنزلوا تحت صخرة فانهدمت عليهم . ومن طريق حويطب أن أمة فى الجاهلية عاذت بالبيت فجاءتها سيدتها فجذبتها فشلت يدها . ومن طريق طاووس قال : كان أهل الجاهلية لا يصيبون فى الحرم شيئاً إلا عجلت لهم عقوبته . وفى كتاب (مجابى الدعوة)

لابن أبي الدنيا فى قصة طويلة فى معنى سرعة إجابة الدعوة فى الحرم للمظلوم فيمن ظلمه ، قال فقال عمر كان يفعل بهم ذلك فى الجاهلية ليتناهوا عن الظلم لأنهم كانوا لا يعرفون البعث فلما جاء الإسلام أخر القصاص إلى يوم القيامة . قال وروى الفاكهى من وجه آخر عن طاووس قال : يوشك أن لا يصيب أحد فى الحرم شيئاً إلا عجلت له العقوبة فكأنه أشار إلى أن ذلك يكون فى آخر الزمان عند قبض العلم وتناسى أهل ذاك الزمان الأمور الشرعية فيعود الأمر غريباً كما بدا . والله الهادى الى سواء السبيل .

« ومن ذلك » أن منهم من كان يحرم الخمر على نفسه تكرماً وصيانه لأنفسهم وهم أناس كثيرون ، قال أبو القاسم عبد الرحمن السعدى الأندلسى وتوفى بمصر فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فى كتاب (مساوى الخمرة) وهو كتاب ضخم فى مجلدين . قال فيه : وقد حرم الخمر والقمار والزنى على نفسه فى الجاهلية عفيف ابن معد يكرب الكندى عم الأشعث بن قيس وقال فى ذلك :

فلا والله لا ألفى وشَرْباً ... أنازعهم شراباً ما حَيِيتُ
أبى لى ذاك آباء كرام ... وأخوال بعزِّهم رَبيتُ

وقال أيضاً :

وقالت لى : هلمّ إلى التصابى ... فقلت : عففت عما تعلمينا
وودّعت القداح وقد أرانى ... لها فى الدهر مشغوفاً رهينا[1]
وحرمت الخمور علىّ حتى ... أكونَ بقعر ملحود دفينا

أنت ترى كيف تفهم مافى القمار من المشاركة للزنى والخمر فى سوء الذكر ولا تنس قوله وحرمت الخمور فأتى بها بلفظ الجمع إشارة الى اختلاف أجناسها

---

(١) قوله مشغوفا صوابه مشعوفا والشعف حرقة يجدها الرجل مع لذة فى قلبه ولذلك قال امرؤ القيس :

ايقتلنى وقد شعفت فؤادها ... كما شعف المهنوءة الرجل الطالى

لان المهنوءة تجد للهناء لذة مع حرقة .

كالخمر المتخذة من ماء العنب ونبيذ الزبيب والتمر والذرة والشعير والحنطة والعسل وأمثال هذه إذ الكل خمور مختلفة الألوان والطعوم والأمزجة . وقد قال ابن شبرمة منبهاً على اشتراك هذه كلها فى المعنى :

يا أخلاء إنما الخمر ذيب وأبو جعدة الطلاء المريب
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه فهو للخمر والطلاء نسيب

وقال عبيد بن الأبرص :

هى الخمر تكنى الطلاء كما الذئب يكنى أبا جعدة

وقال أبو الأسود الدؤلى :

دع الخمر تشربها الغواة فإننى رأيت أخاها مجزئاً لمكانها

فقيل له فنبيذ الزبيب فقال :

فإلا يَكُنْها أو تكُنْهُ فإنه أخوها غذته أمه بلبانها

وقد أودع فى كتابه هذا من مساوى الخمرة ومفاسدها ما يكفى اللبيب عبرة إذا وقف على بعض منها وأورد قصصاً عجيبة فى ذلك يطول الكلام بذكر شىء منها . وكان عامر بن الظَرب الذى أسلفنا ذكره قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها وقال فيها :

إن أشرب الخمر أشربْها للذتها وإن أدعها فإنى ماقتٌ قالى
لولا اللذاذة والقينات لم أرَها ولا رآنى إلا من مدًى عالى
سآلةٌ للفتى ما ليس فى يده ذهابة بعقول القوم والمال
تورث القوم أضغاناً بلا إحَن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى تمزق ترب الأرض أوصالى

وممن كان قد حرم الخمر فى الجاهلية قيس بن عاصم التميمى وقال ذلك :

لعمرك إن الخمرَ ما دمت شارباً لَسَالبة مالى ومُذهِبة عقلى

وتاركة بين الضـيوف قراهم   ومورثة حربَ الصديق بلا قتل [١]

وحرمها صفوان بن أمية بن محرّب [٢] الـكنانى . وقال فى ذلك :

رأيت الخمر صالحةً وفيها   مناقب تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربهـا حياتى   ولا أشفى بهـا أبداً سقيما

وابن قتيبة يروى هذين البيتين لقيس كما سيأتى وما ذكرته رواية ابن دريد

وقال آخر وقد حرم الزنى والخمر أيضا فى الجاهلية :

سالمت قومى بعد طول مضاضة   والسلم أبقى فى الأمور وأعرف

وتركت شرب الراح وهى أميرة   والمومسات وترك ذلك أشرف [٣]

وعففت عنـه يا أميم تـكرماً   وكذاك يفعل ذو الحجى المتعففُ

وحرمها سويد بن عدى الطائى وقد أدرك الإسلام وقال فى ذلك :

تركتُ الشعرَ واستبدلتُ منه   كتابَ اللهِ ليس له شَريكُ

وقال أيضاً :

إذا داعى مُنادى الصبح قاما   وودعتُ المُدامة والنـدامى

وحرّمت الخمور وقد أرانى   بها سَدِكاً وإن كانت حراما [٤]

قال ابن قتيبة فى كتاب الخمرة ويسمى أيضاً كتاب الأشربة : وقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جنايتها . وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما شرب أبو بكر خمراً فى جاهلية ولا إسلام » ، وقال عثمان رضى الله تعالى عنه : « ما تغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام ولا مسست فرجى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » وقيل للعباس بن مرداس فى الجاهلية :

---

(١) رواه القالى فى اماليه :

وتاركتى من الضعاف قواهم   ومورثتى حرب الصديق بلانيل

(٢) صوابه : محرث (٣) الراح : الخمر ، والمومسات جمع مومسـة وهى الفاجرة وتجمع على مواميس ايضا (٤) قوله سدكا اى مولعا .

لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد فى جراءتك ؟ فقال : « ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله فى جوفى وأصبح سيد قومى وأمسى سفيههم » . وقيل له بعد ما أسن وأسلم : قد كبرت سنك ودق عظمك فلو أخذت من هذا النبيذ شيئاً يقويك ! فقال : « أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم آليت أن لا يدخل رأسى ما يحول بينى و بين عقلى » وكان قيس بن عاصم يأتيه فى الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار فى جواره حتى ينفذ ما عنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحاً فجذب ابنته وتناول ثوبها ورأى القمر فتكلم بشىء ثم نهب ماله ومال الخمار وأنشد وهو يضربه :

عن تاجرٍ فاجرٍ جاء الإلهُ به كأنَّ لحيتهُ أذنابُ أجمال
جاء الخبيث (بتيسانية) تركت صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال [1]

فلما صحا أخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر وقال :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها خصالٌ تُفْسِدُ الرجلَ الحليما
فلا واللهِ أشربها صحيحاً ولا أشفى بها أبداً سقيما
ولا أعطى بها ثمناً حياتى ولا أدعو لها أبداً نديما

وكان عثمان بن مظعون حرَّم الخمر فى الجاهلية وقال : لا أشرب شراباً يذهب بعقلى و يضحك بى من هو أدنى منى وأزوج كريمتى من لا أريد فبينا هو بالعوالى إذ أتاه آتٍ فقال : أشعرت أن الخمر حرمت وتلا عليه الآية فى المائدة فقال : تبًّا لها لقد كان بصرى بها نافذاً . وكان العرب فى الجاهلية يشتدون على النساء فى شرب الخمر حتى لم يحفظ أن امرأة سكرت . وعن الأصمعى قال : كان عقيل ابن علقمة المرى غيوراً . فكان يسافر ببنت له يقال لها (الجرباء) فسافر بها مرة فقال :

---

(١) قوله (بتيسانية) صوابه (ببيسانية) بالفتح ثم السكون وهى الخمر المنسوبة الى بيسان مدينة بالاردن بالغور الشامى قال حسان :

من خمر بيسان تخيرتها ترياقة توشك فتر العظام

قضت وطراً من دير سَعْدٍ وربما   على عرَض ناطحته بالجماجم (١)

ثم قال لابن يقال له عملس (٢) أجز فقال :

فأصبحن بالموماة يحملن فتيةً   نشاوَى من الإدلاج ميلَ العمائم (٣)

ثم قال لابنته : أجيزى يا جرباء . فقالت :

كأن الكرى سقاهم صرخَديَّةً   عُقاراً تمشت بالمطا والقوائم (٤)

فقال لها : ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ثم أحال عليها يضربها فلما رأى ذلك بنوه وثبوا عليه فخلوا فخذه بسهم فقال :

إن بنيّ ضرَّجونى بالدمِ   من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكْلَمِ
شِنْشِنَةٌ أعرفُها من أخْزَمِ (٥)

وقد كفانا الله تعالى فيها بقوله سبحانه : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) . قال ابن قتيبة فى كتاب الخمرة : وقد فضح الله بالشراب أقواماً من الأشراف وحدّوا ودونت بالكتب أخبارهم ، ولحقت تلك السبة أعقابهم . ثم

---

(١) دير سعد : بين بلاد غطفان والشام ، والجماجم دير بظاهر الكوفة ؛ والوطر : الحاجة (٢) العملس لغة القوى على السير السريع والذئب الخبيث وكلب الصيد (٣) الموماة : المفازة الواسعة ونتساوى : سكارى ، والادلاج . سير الليل كله . (٤) الكرى : النعاس ، والصرخدية : الخمر المنسوبة الى صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة . قال الشاعر :

ولذ لطعم الصرخدى تركته   بأرض العدى منخشية الحدثان

اللذ : ههنا النوم . . والمطا : الظهر مقصور يكتب بالالف (٥) ضرجه بالدم: أدماه ، ويكلم يجرح ، والشنشنة: الطبيعة والعادة أى اشبهوا أباهم فى العقوق وهو مثل يضرب فى قرب الشبه ، وهو كقولهم : ان العصا من العصية ويروى نشنشة وكأنه مقلوب شنشنة ، وفى الحديث أن عمر قال لابن عباس رضى الله عنه حين شاوره فأعجبه اشارته : شنشنة أعرفها من اخزم ويروى : نشنشة اعرفها من اخشن وذلك انه لم يكن لقرشى مثل رأى العباس فشبهه بأبيه فى جودة الرأى . وقال الليث : الاخزم الذكر وكمرة خزماء قصر وترها وذكر اخزم . وكان لاعرابى بنى يعجبه فقال يوما : شنشنة من اخزم . أى قطران الماء من ذكر أخزم .

أخذ يعددهم فقال : منهم ومنهم مما يطول ذكره وقال بعد ذلك وربما بلغت جناية الكأس زوال النعمة وسقوط المرتبة وتلف النفس فإن الرجل ربما استخلصه السلطان لمنادمته وأدخله موضع أنسه فيزين له الكأس غمزة القينة والعبث بالخادم والتعرض للحرمة . وقال المأمون : الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء ، إفشاء السر ، والقدح فى الملك ، والتعرض للحرم . وقد بلغك من ذلك ما لا احتياج إلى ذكره . وقديماً بلى المعاقرون بمثل هذا من جرائر الكأس وقد كان عمرو بن هند استخلص طرفة بن العبد لمنادمته فبينا هو يوماً معه يشرب أشرفت أخته عليهما فرأى طرفة ظلها فى الجام الذى فى يده فقال :

ألا يا أيها الظبى الـ ـذى تتفرق شفتاه[1]

ولولا الملك القاعد قد ألثمنى فاه

فسمعه عمرو بن هند فكتب له كتاباً لعامله بالبحرين وأوهمه أنه أمر له فيه بجائزة وأمر العامل بقتله فلما ورد على العامل سقاه الراح حتى أثمله ثم فصد له من عرق الأكحل حتى نُزِفَ[2] فمات وقبره هناك مشهور يشرب عنده الأحداث ويصبون فضل كؤوسهم عليه . . وروى أن رجلاً من طيء نزل به رجل من شيبان يقال له المكاء فذبح له الطائى شاة وسقاه من الخمر فلما سكر الطائى قال للشيبانى : هلم أفاخرك أطيء أكرم أم شيبان ؟ فقال له الشيبانى : حديثٌ حسن ومنادمة كريمة أحبُّ إلينا من الفخار . فقال الطائى : لا والله ما مدَّ رجل يداً أطولَ من يدى ومد يده . فقال له الشيبانى : أما والله لئن أعدتَها لاخضبنَّها من كوعها[3] فأعاد فضرب به الشيبانى فقتله . فقال أبو زبيد فى ذلك لبنى شيبان :

---

(١) هكذا أورده المؤلف وهو — كما ترى — محرف وغير مستقيم الوزن وصوابه :

الا ياتى لى الظبى الـ ـذى يبرق شنفاه

(٢) قال المجد : الاكحل عرق فى اليد وهو عرق الحياة ولا تقل عرق الاكحل ، ونزف دمه كعنى : سال حتى يفرط فهو منزوف ونزيف .

(٣) الكوع : طرف الزند الذى يلى الابهام أو غير ذلك . واخضبنها ادمينها.

خبرتنا الركبان أن قد فخرتم وفرحتم بضربة (المكاء)
ولعمري لعارُها كان أدنى لكم من تقى وحق وفاء
ظلّ ضيفاً أخوكم لأخينا في صَبُوح ونعمة وشِواء[1]
ثم لما رآه ثابتْ به الخمـر إلا تريبه باتقاء
لم تهب حرمة النديم وحقت يا لَقَوْمي للسَّوْأة السَّوْآء[2]

وذكر ابن قتيبة للخمرة أنواعاً من المفاسد والمساوى ونبذة مما كان أهل الجاهلية يعدونه من المنافع وهى كما ورد فى القرآن : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » وقد اتفق جميع أهل الملل والنحل على قبحها بالمرة .. وقد رأيت فى بعض الصحف العربية المطبوعة فى دار السلطنة العثمانية ما نصه : قد رأينا فى البشير تحت عنوان (نتائج المشروبات المسكرة) ما نصه : كتب فى التقاويم الأخيرة أن المشروبات المسكرة تقتل فى ألمانيا فى السنة أربعين ألفاً ، وفى روسية عشرة آلاف ، وفى بلجيكا أربعة آلاف ، وفى فرانسة ألف وخمسمائة وأما فى أمريكا فقد مات ثلاثمائة ألف نفس فى الولايات المتحدة فى مدة ثمان سنوات فيكون عدد الذين تقتلهم الخمور فى أمريكا سنوياً تسعاً وثلاثين ألفاً وخمسمائة نسمة . وقتلى الخمر فى الممالك المذكورة فى كل سنة ثلاثاً وتسعين ألف نفس انتهى ما هو المقصود . فهل ينبغى للأريب أن يوقع نفسه فى مثل هذه المهالك سيما إن كان ممن يتعبد بالاجتناب عنها والعرب لم يكونوا مكافين بالنهى عنها ومع ذلك قد سمعت ما ذكرناه من كلام عقلائهم فيها ، هذا وقد بقى من أعمالهم الموافقة لما جاءت به الحنيفية ما يطول بيانه وهى مذكورة فى غالب أبواب العلم من حديث وفقه وغير ذلك فمن جدّ وجد والله الموفق .

---

(١) الصبوح بالفتح شرب الغداة (٢) السوأة السوآء : الخصلة القبيحة . وانظر القصة في الاغانى (ج ١١ ص ٢٤) .

بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية
من الأعمال التي أبطلها الإسلام

اعلم أن ههنا نكتاً ممتعة من مذهب العرب وتخيلاتها قد نسخها الإسلام وأبطلها وقد ساقنا الموضع إلى ذكرها . أنشد هشام بن الكلبي لأمية ابن أبي الصلت :

سنة أزمة تبرح بالناس ترى للعضاهِ فيها صريراً[1]
لا على كوكب تنوء ولا ريح جنوب ولا ترى طحروراً[2]
ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن تبورا[3]
عاقدين النيران في ثُكن الأذناب منها لكي تهيجَ البحورا[4]
سُلَعٌ مّا ومثله عُشَرٌ مّا عائل مّا وعالت البيقورا[5]

يروى : أن عيسى بن عمرو قال ما أدرى معنى هذا البيت؟ ويقال : إن الأصمعي صحف فيه فقال وغالت البيقور ، بالغين المعجمة وفسره غيره فقال عالت بمعنى أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر والبيقور البقر وعائل غالب أو مثقل « وكانت العرب » إذا أجدبت وأمسكت السماء عنهم وأرادوا أن يستمطروا عمدوا الى السلع والعشر فحزموها وعقدوها في أذناب البقر وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وعر واتبعوها يدعون الله تعالى ويستسقونه وإنما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاؤلا للبرق بالنار . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات وقال أعرابي :

---

(١) سنة أزمة : شديدة ، وتبرح بالناس : تجهدهم (٢) قال أبو حنيفة: نؤ النجم هواول سقوط يدركه بالغداة اذا همت الكواكب بالمصوح وذلك في بياض الفجر المستطير . وفي التهذيب ناء النجم ينوُ نوًا اذا سقط ... والطحرور بالحاء والخاء : اللطخ من السحاب القليل (٣) وباقر : جماعة البقر (٤) الثكن جمع ثكنة وهي القلادة والجماعة ... (٥) البيقور : البقر ، والسلع بالتحريك شجر مر ، والعشر شجر فيه حراق مثل القطن لم يقتدح الناس في اجود منه ويحشى في المخاد ويخرج من زهره وشعبه سكر يقال له سكر العشر وفيه شيء من مرارة .

شفعنا ببيقور إلى هاطل الحيـا فلم يُغْنِ عنا ذاك بل زادنا جَدْبا
فعدنا إلى رب الحيـا فأجارنا وصير جدب الأرض من عنده خصْبا[١]

وقال آخر :

قل لبنى نهشل أصحاب الحور أتطلبون الغيث جهلًا بالبقر ؟
وسلع من بعد ذاك وعُشَر ليس بذا يجلل الأرض المطر

ويمكن أن يحمل تفسير الأصمعى على محمل صحيح فيقال غالت بمعنى أهلكت يقال غاله كذا واغتاله أى أهلكه ، وغالتهم غول يعنى المنية . ومنه : الغضب غول الحلم .

وقال آخر :

لما كسونا الأرض أذناب البقر بالسلع المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخر :

يا (كَحْلُ) قد أثقلت أذنابَ البَقَرْ بسلع يعقد فيها وعُشَر
فهل تجودين ببرقٍ ومَطَرْ ؟

وقال آخر[٢] يعيب العرب بفعلهم هذا :

لا دَرَّ درُّ أناسٍ خاب سعيهمُ يستمطرون لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعةً ذريعةً لك بين الله والمطر[٣]

وقال بعض الأدباء : كل أمة قد اتخذوا فى مذاهبها مذاهب ملة أخرى وقد كانت الهند تزعم أن البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها فى الأرض وإن

---

(١) الحيا : المطر ، والهاطل المتتابع المتفرق العظيم القطر ، والجدب : المحل : والخصب بكسر فسكون : ضده (٢) هو وداك الطائى (٣) اعلم ان صاحب القاموس ادعى فى مادة (س ل ع) ان فى هذا البيت تسعة اغلاط ولم يذكرها . ولا يكاد يسلم وجود ذلك فى هذا البيت كما قد بسط الكلام عليه شيخ مشايخنا الامام أبو الثناء السيد محمود شهاب الدين الالوسى المفسر الشهير فى كتابيه غرائب الاغتراب ، والاجوبة العراقية عن الاسئلة الايرانية فراجعهما ان شئت .. ومعنى الذريعة الوسيلة والمسلعة ثيران وحش علق عليها السلع كما فى شرح شواهد المغنى للسيوطى نقلا عن ائمة اللغة .

لها عنده حرمةً وكانوا يلطخون الأبدان بأخثائها ويغسلون الوجوه ببولها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبركون بها فى جميع أحوالهم فلعل أوائل العرب حذوا هـــذا الحذو وانتهجوا هذا المسلك .

وللعرب فى البقر خيال آخر :

وذلك أنهم إذا أوردوها فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقر بعده ويقولون : إن الجن تصد البقر عن الماء وإن الشيطان يركب قرنى الثور . وقال قائلهم:

إنى وقتلى سُلَيْـكاً حين أعقله　　　كالثور يُضْرَبُ لما عافَتِ البَقَرُ(١)

وقال نهشل بن جرى :

كذلك الثور يضْرَبُ بالهراوى　　　إذا ماعافتِ البقر الظماء(٢)

وقال آخر :

كالثور يضرب للورو　　　د إذا تمنعتِ البقرْ

فإن كان ليس إلا هذا فليس ذاك بعجيب من البقر ولا بمذهب من مذاهب العرب لأنه قد يجوز أن تمتنع البقر من الورود حتى يرد الثور كما تمتنع الغنم من سلوك الطرق أو دخول الدور والأخبية حتى يتقدمها الـكبش أو التيس كالنحل تتبع اليعسوب(٣) والـكراكى تتبع أميرها ولـكن الذى يدل عليه أشعارهم أن الثور يرد ويشرب ولا يمتنع ولـكن البقر تمتنع وتعاف الماء وقد رأت الثور يشرب فحينئذ يضرب الثور مع إجابته إلى الورد فتشرب البقر عند ضربه وهذا هو العجب

---

(١) يروى بدل قوله (حين أعقله) : ثم أعقله . وبعد البيت :

غضبت للمرء اذ نيكت حليلته　　　واذ يشد على وجعائها الثفـر

وهما لرجل اسمه انس يقول أهل الاخبار انه قالهما عند قتله السليك ابن السلكة وكان السليك مر بامرأة فى بيت وحدها فاغتصبها فلما علم بذلك هذا تبعه فقتله وأبى أن يعطى ديته فقال : انى وقتلى سليكا .. الخ وقوله ثم أعقله بالنصب على تقدير ان المصدرية عطفا على وقتلى . ولما عافت البقر: أى لما كرهت شرب الماء الخ .. يقول ان قتل سليك كان بحق فالعقل يكون ظلما كضرب الثور عند امتناع البقر (٢) الهراوى بفتح الهاء جمع هراوة بكسرها وهى العصا (٣) هو أمير النحل وذكرها .

قال الشاعر :

فإنى إذاً كالثور يضرب جنبه إذا لم يَعفْ شرباً وعافت صواحِبُه

وقال آخر :

فلا تجعلوها كالبقير وفحلهـــا يكسر ضرباً وهو للورد طائع
وماذنبـــه إنْ لم تَرِدْ بقَرَاته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال الأعشى :

لـكالثور و (الجنىّ) يضرب وجهه وماذنبه إن عافت المـاء باقر[1]

وما إن تعاف المـاء إلا لتضربا

قالوا فى تفسيره : لمـا كان امتناعها يتعقبه الضرب حسن أن يقالَ عافت المـاء ليضرب وهذه اللام هى لام العاقبة كقوله :

له ملك ينادى كلّ يومٍ لِدُوا للموت وابنُوا للخرابِ

وعلى هذا فسر أصحابنا قوله سبحانه : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ)[2] .

ومن مذاهب العرب أيضاً

تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ يرون أنه يُفيق بذلك ويقال إنه إنما يعلق عليه لأنهم يرون إن نام يسرى السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلىّ والجلاجل وأصواتها عن النوم وهذا قول نضر بن شميل . وبعضهم يقول : إنه إذا علق عليه حلى الذهب برأ وإن علق الرصاص أو حلى الرصاص مات . وقيل لبعض الأعراب : أتريدون سهره ؟ فقال : إن الحلىّ لا تسهر ولـكنها سنة ورثناها . وقال النابغة :

فَبِتُّ كأنى ساورتنى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُمُّ ناقع[3]
يسهد من ليل التمـــام سليمُها لحلى النسـاء فى يَدَيْهِ قعـــاقع[4]

---

(١) اراد بالجنى اسم راع (٢) معنى ذرانا : خلقنا (٣) تساورنى : تواثبنى ونقاتلنى ، والضئيلة : الحية الدقيقة ، والرقش الحيات المنقطة بسواد وبياض
(٤) فلان يسهد : لا يترك ان ينام .

وقال بعض بنى عذرة :

كأنى سليمٌ نالَهُ كلم حيةٍ ترى حوله حلى النساء موضعا

وقال آخر :

وقد عللوا بالبطل فى كل موضعٍ وغروا كما غر السليم الجلاجل

وقال جميل وظرف فى قوله ولو قاله العباس بن الأحنف لكان ظريفاً :

إذا ما لديغ أبرأ الحلى داءَهُ فحليك أمسى يا بثينة دائيا

وقال عويمر النبهانى وهو يؤكد قول النضر بن شميل :

فَبِتُّ معنًّى بالهموم كأننى سَليمٌ نفى عنه الرقاد الجلاجلُ

ومثله قول الآخر :

كأنى سَليمٌ سَهَّدَ الحلىُ عينَهُ فراقَبَ من ليل التِّمام الكواكبا

(وشبه مذهبهم فى ضرب الثور) مذهبهم فى العُرّ يصيب الإبل فيكوى الصحيح ليبرأ السقيم وقال النابغة :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العُرّ يُكْوَى غيرُه وهو راتعُ

وقال بعض الأعراب :

كمن يكوى الصحيح يروم برءاً به من كل جرباء الإهاب

وهذا البيت يبطل رواية من روى بيت النابغة كذى العر بضم العين لأن العر بالضم قروح فى مشافر الإبل غير الجرب والعر بالفتح الجرب نفسه فإذا دل الشعر على أنه يكوى الصحيح ليبرأ الأجرب فالواجب أن يكون بيت النابغة كذى العَرّ بالفتح ومثل هذا البيت قول الآخر :

فألزمتنى ذنباً وغيرى جَرَّهُ حنانَيْكَ لا تكْوِ الصحيحَ بأجربا

إلا أن يكون إطلاق لفظ الجرب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز

لمشابهته له . وفى كتاب لب لباب لسان العرب عند الكلام على شرح قصيدة النابغة التى منها :

أتوعد عبداً لم يخنك أمانةً وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع

حملت علىّ ذنبه وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع

ما نصه ؛ قال الأصمعى : العَر بالفتح الجرب نفسه وأنشد « كالعر يكمن حيناً ثم ينتشر » والعُر بالضم قرح يأخذ الإبل فى مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع وربما تفرق فى مشافرها مثل القُوَباء يسيل منه ماء أصفرُ ، قال ابن السيد فى شرحه لأدب الكاتب : فى معناه خمسة أقوال « أحدها » أن هذا أمر كان يفعله جهال الأعراب كانوا إذا وقع العُر فى إبل أحدهم اعترضوا بعيراً صحيحا من تلك الإبل فكووا مشفره وعضده وفخذه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العَر عن إبلهم كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشيةَ العطب ، ويفقئون عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين وهذا قول الأصمعى وأبى عمرو وأكثر اللغويين .

« ثانيها » قال يونس سألت رؤبة بن العجاج عن هذا فقال : هذا وقولُ الآخر « كالثور يضرب لما عافت البقر » شىء كان قديما ثم تركه الناس ويدل عليه قول الراجز :

وكان شكرُ القوم عند المنن كىّ الصحيحات وفقء الأعين

« ثالثها » قيل إنما كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق الداء به لا ليبرأ السقيم حكى ذلك ابن دريد « رابعها » قال أبو عبيدة : هذا لم يكن وإنما هو مثل لاحقيقة أى أخذت البرىء وتركت المذنب فكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هذا مما يكون . قال : ونحو من هذا قولهم : « يشرب عجلان ويسكر ميسرة » ولم يكونا شخصين موجودين « خامسها » قيل أصل هذا أن الفصيل كان إذا أصابه العُر لفساد فى لبن أمه عمدوا إلى أمه فكووها فتبرأ ويبرأ فصيلها ببرئها لأن ذلك الداء إنما كان سرى إليه فى لبنها وهذا أغرب الأقوال وأقربها إلى الحقيقة ، ومن روى كذى العَر بفتح العين فقد غلط لأن العَر الجرب ولم يكونوا يكوون من الجرب

و إنما يكوون من القروح التى تخرج فى مشافر الإبل وقوائمها خاصة وهذا ضربه مثلا لنفسه يقول أنا برىء وغيرى سقيم فحملتنى ذنب السقيم وتركته وقد قال الكميت :

ولا أكوى الصحاح براتعاتٍ بهن العرّ قبلى ما كوينا

قال ابن أبى الإصبع أنشد ابن أبى شرف القيروانى ابن رشيق :

غيرى جنى وأنا المعاقبُ فيكم فكأننى سبّابة المتندم

وقال له : هل سمعت هذا المعنى ؟ فقال : سمعته وأخذته أنت وأفسدته . فقال : ممن ؟ فقال : من النابغة الذبيانى حيث يقول :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتعُ

أما فساده فلأنك قلت فى صدر بيتك : إنك عوقبت بجناية غيرك ولم يعاقب صاحب الجناية ثم قلت فى عجز بيتك : إن صاحب الجناية قد شركك فى العقوبة فتناقض معناك وذلك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم وسبابة المتندم تألم فى المتندم ثم يشركها المتندم فى الألم فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله لأن المدرك من كل مدرك حقيقته وحقيقته على المذهب الصحيح هى جملته المشاهدة منه والمكوى من الإبل يألم وما به عر وصاحب العر لا يألم جملة فمن ههنا أخذت المعنى وأفسدته انتهى ، وهذا تدقيق فلسفىٌّ لا مدخلَ له فى الشعر .

(فأما مذهبهم فى البلية) وهى ناقةٌ تعقل عند القبر حتى تموت فمذهب مشهور والبلية أنهم إذا مات منهم كريم بلوا ناقته أو بعيره فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها فى حفيرةٍ لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملىء جلدها ثُماماً . وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشياً ومن كانت له بلية حشر راكباً على بليته قال حريبة ابن الأشيم الفقعسى لابنه :

يا سعدُ إما أهلكنّ فإننى أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ

لا أعرفنّ أباك يحشر خلفكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب

واحمل أباك على بعيرٍ صالح   وتقى الخطيئة إنه هو أصوب
ولعل لى مما جمعتُ مطية   فى الحشر أركبها إذا قيل : اركبوا !

وقال حربية أيضاً :

إذا متّ فادفنى بجرّاء ما بها   سوى الأصرخين أو يفوِّز راكب(١)
فإن أنت لم تعقر علىّ مطيتى   فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولا تدفننى فى صـوىّ وادفننى   بديمـومة تنزو عليها الجنادب(٢)

قال ابن أبى الحديد : وقد ذكرت فى مجموعى المسمى (بالعبقرىّ الحسان) أن أبا عبـد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع رحمه الله تعالى ذكر فى كتابه فى (آراء العرب وأديانها) هـذه الأبيات واستشهد بها على ما كانوا يعتقدون فى البلية وقلت : إنه وهم فى ذلك و إنه ليس فى هـذه الأبيات دلالة على هذا المعنى ولا لها به تعلق و إنما هى وصية لولده أن يعقر مطيته بعد موته إما لـكى لا يركبها غيره بعده أوعلى هيئة القربان كالهدى المعقور بمكة أو كما كانوا يعقرون عند القبور . إلى أن قال: وليس فى هذا الشعر ما يدل على مذهبهم فى البلية فإن ظن ظانٌّ أن قوله أو يفوِّز راكب فيه إيماء إلى ذلك فليس الأمر كما ظنه . ومعنى البيت أدفنى بفلاة جداء مقطوعة عن الإنس ليس بها إلا الذئب والغراب أو أن يعتسف راكبها المفازة وهى المهلـكة سموها مفازة على طريق الفأل . وقيل أنها تسمى مفازة من فوّز أى هلك فليس فى البيت ذكر البلية ولـكن الخالع أخطأ فى إيراده فى هذا الباب كما أخطأ فى هذا الباب أيضا فى إيراده قول مالك بن الريب :

وعطل قلوصى فى الركاب فإنها   ستبرد أكباداً وتبكى بواكيا

فظن أن ذلك من هذا الباب الذى نحن فيه ولم يرد الشاعر ذلك و إنما أراد

---

(١) فوز الرجل : مات ، وفوز الطريق بدا وظهر والرجل اذا صـار الى المفازة وقيل ركبها ومضى فيها (٢) الصوى : الاعلام من الحجارة الواحـد صوة . وفى الحديث (ان للاسلام صوى ومنارا) اى طرائق واعلاما يهتدى بها، والديمومة : الفلاة يدوم السير فيها لبعدها والجمع الدياميم ، والجنادب : جمع جندب وهو الذكر من الجراد وفسره السيرافى بانه الصدى يصير بالليل ويقفز ويطير.

لا تركبوا راحلتى بعدى وعطلوها بحيث لا يشاهدها أعادىّ وأصادق ذاهبة جائية تحت راكبها فيشمت العدو ويساء الصديق . وقد أخطأ الخالع فى مواضع عدة من هذا الكتاب وأورد أشعاراً فى غير موضعها وظنها مناسبة لما هو فيه . وأنا أقول إن الحق مع ابن أبى الحديد ، فإن بصره فى هذا الباب حديد ، والعقر على القبور غير مذهبهم فى البلية وسأذكر ذلك إن شاء الله تعالى . وقال عمرو بن زيد المتمنى يوصى ابنه عند موته فى البلية :

أبنىَّ زوّدنى إذا فارقتنى　　فى القبر راحلةً برحل فاتر

للبعث أركبُها إذا قيل : اظعنوا　　مستوثقين معاً لحشر الحاشر

من لا يوافيه على عثراته　　فالخلق بين مدفع أو عاثر

وقال عويمر النبهانى :

أبنىَّ لا تنسَ البلية إنها　　لأبيك يوم نشوره مركوبَ

وذكر أبو زيد فى تشبيه رجال بالبلايا فقال :

كالبلايا رؤوسها فى الولايا　　مانحات السموم حُرَّ الخدود

قال : الولايا البراذع وكانوا يقورون البرذعة ويدخلونها فى عنق تلك الناقة . وقال الشهرستانى كانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلى ظهرها أو مما يلى كلكلها أو بطنها ويأخذون ولية فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند القبر ، وهذه الأقوال مآلها واحد ولا اختلاف إلا فى اللفظ .

ومن مذاهب العرب العقر على القبور

قال زياد الأعجم يرثى المغيرة بن المهلب :

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا　　والباكرين وللمجدّ الرائح[1] :

---

(١) القوافل جمع قافلة وهى الرفقة الراجعة من سفرها الى وطنها ، والباكرين : المسرعين فى الذهاب من أول النهار ، وأجد فى الامر : اجتهد ، والرائح : الراجع .

إن الشجاعة والسماحةَ ضُمِّنَا قبراً (بمَرْوَ) على الطريق الواضح[1]
فإذا مررت بقبره فاعقِرْ به كُومَ الجلاد وكل طِرْفٍ سابح[2]
وانضَح جوانب قبرهِ بدمائها فلقد يكون أخا دَمٍ وذبائح[3]

وهذه أبيات من قصيدة طويلة عدتها خمسون بيتاً أوردها القالى فى ذيل الأمالى وأورد أكثرها ابن خلكان فى ترجمة والده المهلب .

وقال الآخر[4] .

نفرَت قَلوصى عن حجارة حَرَّةٍ بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَين وهُوبِ
لاتنفِرى يا ناقَ منه فإنه شَرِّيبُ خمرٍ مِسْعَرٌ لحرُوبِ
لولا السفارُ وبعد خرْقٍ مَهْمَهٍ لتركْتُها تحبوا على العُرقوب

قال ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد : اختلف فى سبب عقرهم الإبل على القبور فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل فى حياته وينحره للأضياف واحتجوا بقول الشاعر :

وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

وقد قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام وقيل إنما كانوا يفعلونه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت فكأنهم

---

(١) مرو : هنا (مرو الشاهجان) لا (مرو الروذ) وكلاهما فى اقليم خراسان ومن سراة اولاد المهلب ابو فراس المغيرة وكان ابوه يقدمه فى قتال الخوارج وله معهم وقائع مشهورة ابان فيها عن نجدة وصرامة وكان مع أبيه فى خراسان واستتنا به فى مرو الشاهجان وتوفى فى حياة ابيه سنة ٨٢ هـ فى رجب وهذا البيت يستشهد به النحويون على اعادة الضمير الى المؤنثين بضمير المذكرين وكان القياس ان يقول (ضمنتا) وعده ابن عصفور من قبيل الضرورة .

(٢) عقر البعير بالسيف : اذا ضرب قوائمه به ولا يطلق العقر فى غير القوائم وربما قيل عقره اذا نحره كذا فى المصباح ، والكوم بالضم جمع كوماء بالفتح وهى الناقة العظيمة السنام ، والجلاد جمع جلدة بفتحها وهى ادسم الابل دهنا ، والطرف بالكسر : الاصيل من الخيل ، والسابح : الفرس الكثير الجرى

(٣) النضح : الرش القليل . والنضح البل فهو ابلغ من الأول ، وهذا البيت يستشهد به النحويون على ان المضارع وهو (يكون) مؤول بالماضى اى ولقد كان لانه مرثية ميت وهو اخبار عن شىء وقع ومضى لا اخبار عما سيقع لانه غير ممكن . هذا ولا يسعنا ايراد القصيدة لضيق المقام ..

(٤) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء .

يثأرون لهم فيها . وقيل إن الإبل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنها قدهانت عليهم لعظم المصيبة وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث لا عقر فى الإسلام قال المناوى كانوا فى الجاهلية يعقرون أى ينحرون الإبل على قبور الموتى فنهى عنه .

(ومن تخيلات العرب ومذاهبها) ما حكاه ابن الأعرابى قال : كانت العرب إذا نفرت الناقة فسميت لها أمها سكنت من النفار قال الراجز :

أقول والوجناء بى تقحم : ويلك قل ما اسم أمها (علكم)[1]

علكم اسم عبده وإنما سأل عبده ترفعاً أن يعرف اسم أمها لأن العبيد بالإبل أعرف وهم رعاتها وأنشد السكرى :

فقلت له ما اسم أمها هات فادعها تجبك ويسكن روعها ونفارها

ومما كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة

وذلك أنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت ولا قتيل يقتل إلا ويخرج من رأسه هامة فإن كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامة على قبره اسقونى فإنى صدية ! وعن هذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (لا هامة) . وحكى أن أبازيد كان يقول الهامة مشددة الميم إحدى هوام الأرض وأنها هى المتكونة المذكورة . وقيل : إن أبا عبيد قال ما أرى أبا زيد حفظ هذا وفى مروج الذهب للمسعودى من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبداً مستوحش ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وأنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره انتهى . وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء قال قائلهم :

---

(١) الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة وقيل العظيمة الوجنتين .

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام !

وقال أبو دؤاد الإيادى :

سلط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

وقال بعضهم لابنه :

ولا تزقون لى هامةٌ فوقَ مرقبٍ فإن زقاء الهام للمرء عائب

تنادى : ألا اسقونى ! وكل صدى به وتلك التى تبيضُ منها الذوائب

المرقب : الموضع الذى شرف يطلع عليه الرقيبُ ويقال له المرقبة أيضاً يقول له لا تترك ثأرى إن قتلت فإنك إن تركته صاحت هامتى . اسقونى ! فإن كل صداء (وهو ههنا العطش) بأبيك وتلك التى تبيض منها الذوائب لصعوبتها وشدتها كما يقال أمر يشيب رأس الوليد ، ويحتمل أن يريد صعوبة الأمر عليه وهو مقبور إذا لم يثأر به ، ويحتمل أن يريد صعوبة الأمر على ابنه يعنى أن ذلك عار عليك . وقال ذو الإصبع :

يا عمرو إلا تدعْ شتمى ومنقصتى أضرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقونى !

وقال آخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى

ويحتمل هذا البيت أن يكون خارجا عن هذا المعنى الذى نحن فيه وأن يكون رىّ هامة الذى طلبه من ربه وهو وصال ليلى وهما فى الدنيا وهم يكنون عما يشفيهم بأنه يروى هامتهم . وقال مغلس الفقعسى وهو أبو قبيلة :

وإن أخاكم قد علمت مكانه بسفح (قُبا) تسفى عليه الأعاصر[1]

له هامة تدعو إذا الليل جنّها : بنى عامر هل للهلالىّ ثائر

تسفى أى تذرى عليه التراب . وقال توبة بن الحمير :

---

(١) سفح الجبل وجهه ، والاعاصر : الرياح التى فيها العصار وهو الغبار الشديد ، وسفت الريح التراب ذرته ، أو حملته .

ولو ان (ليلى الأخيلية) سلمت علىّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليمَ البشاشةِ أو زقا إليها صــدى من جانبِ القبر صائح

وقال قيس بن الملوح وهو المجنون :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دوننا رمس من الأرض أنكب
لظل صدى رمسى و إن كنت رمّةً لصوت صدى ليلى يهشُّ و يطرب

و بعضهم يرويه « ومن دون رمسينا من الأرض سبسب » وقال حميــد ابن ثور :

ألا هل صدى (أم الوليد) مكلم صداى إذا ما كنت رمساً وأعظما

ومما أبطل الإسلام قول العرب بالصفر

زعموا أن فى البطن حية إذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبده وقيل هو الجوع بعينه ليس أنها تعض بعد حصول الجوع . فأما لفظ الحديث (لاعدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول) فإن أبا عبيدة معمر بن المثنى قال : هو صــفر الشهر الذى بعــد المحرم . قال : نهى عليه الصلاة والسلام عن تأخيرهم المحرم إلى صفر يعنى ما كانوا يفعلونه من النسىء . قال ابن أبى الحديد : ولم يوافق أحــد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير . أقول الذى رأيته فى (فتح البارى) ماحاصله : إن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم فجاء الإسلام برد ما كانوا يفعلونه من ذلك فلذلك قال صلى الله تعالى عليه وسـلم : (لاصفر) وهــذا القول مروى عن مالك وقــد فسره البخارى فى صحيحه بأنه داء يأخذ البطن . وقد نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى فى (غريب الحديث) له عن يونس بن عبيد الجرمى : أنه سأل رؤبة بن العجاج فقــال : هى حية تــكون فى البطن تصيب المــاشية والناس وهى أعدى من الجرب عند العرب فعلى هــذا فالمراد بنفى الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى . ورجح عند البخارى هــذا القول لــكونه قرن فى الحديث

بالعدوى انتهى . والذى يظهر أن لفظ الصفر من الألفاظ المشتركة والشارع نفى كل ما كان يعتقده العرب من المعانى الباطلة . والإمام الطبرى رجح تفسير البخارى من أنه داء يأخذ البطن على ماسبق واستشهد له بقول الأعشى[١] :

لا يتأرّى لما فى القدر يرقبهُ ولا يعضُّ على شُرسوفه الصَفَرُ

والشُرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء الضلع والصفر يكون فى الجوف فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه . وقال بعض شعراء بنى عبس يذكر قيس بن زهير لما هجر الناس وسكن الفيافى[٢] وآنس بالوحش ثم رأى ليلة ناراً فَعَشَى إليها فشم عندها قُتار اللحم[٣] فنازعته شهوته فغلبها وقهرها ومال إلى شجرة سَلَمٍ فلم يزل يكدمها[٤] ويأكل من خَبَطها[٥] إلى أن مات :

إن قيساً كان مِيتته كَرَمٌ والحىُّ منطلقُ

شام ناراً (بالهوى) فهوى وشجاع البطن يختفق

فى دَرِيسٍ ليس يستره رُبَّ حُرٍّ ثوبه خَلَقُ

قوله فى دريس أى ثوب مندرس حقير وقوله بالهوى اسم موضع بعينه . وقال أبو النجم العجلى :

إنك ياخير فتى تستعدى على زمان مسنا بجهد

عضا كعض صفر بكبد

---

(١) هو اعشى باهلة واسمه عامر بن الحرث بن رياح ويكتنى أبا فحافة والبيت من شعره يرثى به المنتشر بن وهب الباهلى ومعناه انه يمدحه بأن همته ليست فى المطعم والمشرب وانما همنه فى طلب المعالى فليس يرقب نضج ما فى القدر اذا هم بأمر له فيه شرف بل يتركها ويمضى لما يريده ، وهذا البيت مركب من بيتين والذى رواه ابو العباس المبرد :

لا يتأرى لما فى القدر يرقبه ولا تراه امام القوم يقتفر

لا يغمز الساق من اين ولا وصب ولا يعض على شرسوفه الصفر

هذا ويجوز أن يكون مانقله فضيلة الاستاذ رواية ثانية (٢) جمع فيفاة أو فيفاء وهو المكان المستوى أو المفازة التى لا ماء فيها (٣) قتار اللحم : ريحه (٤) أى يعضها بأدنى فمه (٥) أى ورقها .

وقال آخر :

أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيرى من عيالك بالطعم

فإن قلت : مامعنى النفى إذا أريدبالصفر الحية أو الجوع أو وجع فى البطن يأخذ من الجوع أو اجتماع الماء الذى يكون منه الاستسقاء مع تحققه ففى الحديث (صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم) أى جوعة و يقولون صفر الإناء إذا خلا عن الطعام وفى حديث رواه ابن مسعود (أن رجلا أصابه الصفر فنعت له السَكَر) أى حصل له الاستسقاء فوصف له النبيذ ؟ قلت المراد بالنفى نفى ما كانوا يعتقدون أن من أصابه قتله أو أعدى فردّ ذلك الشرع بأن الموت لا يكون إلا إذافرغ الأجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون .

(ومن خرافات العرب) أن الرجل منهم كان إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها أو جِنَّها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهق نهيق الحمار ثم علق عليه كعب أرنب كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير . قال شاعرهم :

ولاينفع التعشيرُ إنْ حُمَّ واقعٌ ولازعزع يغنى ولا كعب أرنب[1]

وقال الهيثم بن عدى : خرج عروة بن الورد إلى خيبر فى وقعة ليمتاروا فلما قربوا منها عشروا وعاف عروة أن يفعل فعلهم وقال :

لعمرى إن عشّرتُ من خيفة الردى نُهاقَ حمير إننى لجزوع[2]

فلا وألت تلك النفوس ولا أتوا قفولاً إلى الأوطان وهى جميع[3]

وقالوا ألا انهق لاتضرك خيبر وذلك من فعل اليهود وُلوع

(١) حم الامر بالضم : قضى وله ذلك قدر (٢) ويروى :

وانى وان عشرت فى ارض مالك نهاق حمار . . . الخ

(٣) وال اليه بئل والا وؤولا ووئيلا ، ووآءل موآءلة ووئالا : لجأ وخلص وفى حديث على رضى الله عنه ان درعه كانت صدرا بلا ظهر فقيل له : او احترزت من ظهرك . فقال : اذا أمكنت من ظهرى فلا وألت اى لا نجوت . وقال الشاعر :

لا وآءلت نفسك خليتها للعامريين ولم تكلم

وقفل من سفره قفولا : رجع .

الولوع بالضم الكذب يقال ولع الرجل إذا كذب فيقال إن رفقته مرضوا ومات بعضهم ونجا عروة من الموت والمرض . وقال آخر :

لاينجينك من حمام واقعٍ   كعب تعلّقه ولا تعشيرُ

« ويشابه هذا » أن الرجل منهم كان إذا ضل فى فلاة قلب قميصه وصفق بيديه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدى . قال أعرابى :

قلبت ثيابى والظنونُ تجولُ بى   وترمى برجلى نحوَ كلِّ سبيل
فلأياً بلأيٍ ما عرفت حليلتى   وأبصرت قصداً لم يصب بدليل[1]

وقال أبو العملّس الطائى :

فلو أبصرتنى بلوى بطانٍ   أصفق بالبنان على البنان ![2]
فأقلب تارةً خوفاً ردائى   وأصرخ تارة بأبى فلان !
لقلت أبو العملس قد دهاه   من الجنّان خالعةُ العنان !

والأصل فى قلب الثياب التفاؤل بقلب الحال وقد جاء فى الشريعة الإسلامية نحو ذلك فى الاستسقاء .

ومن مذاهب العرب الرتم

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خيط فعقده فى غصن شجرة أو فى ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه وإن لم يجده أو وجده محلولا قال : قد خانتنى وذلك العقد يسمى الرتم . ويقال بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر . وذكر ابن الأعرابى أن رجلا من العرب أراد سفراً فأخذ يوصى امرأته ويقول : إياك أن تفعلى وإياك فإنى عاقد لك رتمة بشجرة فإن أحدثت حدثاً انحلّت ! فقال له الراجز :

هل ينفعنك اليوم إن همت بِهَمّْ   كثرة ماتوصى وتَعقاد الرتم

---

(١) اللأى كالسعى : الابطاء والاحتباس والجهد والمشقة .
(٢) بطان بكسر الباء : موضع .

وقال آخر :

خانته لما رأت شيباً بِمَفْرِقِهِ وغرّهُ حَلْفُها والعَقْدُ للرتمِ [1]

وقال آخر :

لا تحسبن رتائما عقّدتها تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر :

يعلل عمروٌ بالرتائم قلبَهُ وفى الحىّ ظبى قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولا جنت عليه سوى ما لا يحب رتائمه

وقال آخر :

ما الذى تنفعك الرتائمُ إذ أصبحت وعشقها ملازم

وهى على لذاتها تداومُ يزورها طبٌّ الفؤاد عازم [2]

بكل أدواء النساء عالم

ومن أمثال العرب (أَمْحَلُ [3] تَعقَادِ الرَّتَمَ) قال الميدانى : كان من عادة العرب إذا أراد الواحد منهم سفراً أن يعقد خيطاً بشجرة و يعتقد فيه أنه إن أحدثت امرأته حدثاً انحل ذلك الخيط وكانوا يسمونه الرتم والرتمة . وقد كانوا يعقدون الرتم للحمى و يرون أن من حلها انتقلت الحمى إليه . قال الشاعر :

حللت رتيمة فمكثت شهراً أكابد كلّ مكروه الدواء

(ومن مذاهبهم) ما حكاه ابن السكيت قال : إن العرب كانت تقول إن المرأة المقلاة وهى التى لا يعيش لها ولد إذا وطئت القتيل الشريف عاش ولدها . قال بشر بن أبى حازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقُلْنَ ألا يُلْقَى على المرء مئزرُ

وقال أبو عبيدة : تتخطاه المقلاة سبعَ مراتٍ فذلك وطؤها له . وقال

(١) المفرق كمقعد ومجلس وسط الراس وهو الذى يفرق فيه الشعر .
(٢)الطب بالفتح الماهر الحاذق بعلمه كالطبيب (٣)امحل من المحال وهو الباطل

ابن الأعرابي : يمرون به و يطئون حوله . وقيل : إنما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدراً أو وقوداً . وقال الكميت :

وتطيل المرزآت المقاليت إليه القعود بعد القيام

وقال آخر :

تركن (الشعثمين) برمل خَبْتٍ تزورهما مقاليت النساء [1]

وقال آخر :

بنفسي الذي تمشي المقاليت حوله يطأن له كشحاً هضيماً مهشما [2]

وقال آخر :

تباشرت المقالت حين قالوا ثوى (عمرو بن مرة) بالحفير

(ومن تخيلات العرب وخرافاتهم) أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال يا شمس أبدليني بسن أحسن منها ولتجر في ظلمها آياتك أو تقول أياؤك وهما جميعاً شعاع الشمس . قال طرفة بن العبد البكري :

سقته أياة الشمس إلا لثاته أسِفَّ ولم تكدم عليه بأثمد

يصف ثغر معشوقته فقال سقاه شعاع الشمس أي كأن الشمس أعارته ضوءها . ثم قال إلا لثاته لأنه لا يستحب بريقها . ثم قال أسف الأثمد على اللثة أي ذر عليها ولم تكدم بأسنانها على شيء يؤثر فيها . ونساء العرب تذر الأثمد على الشفاه واللثات فيكون ذلك أشد لمعان الأسنان و إلى هذا الخيال أشار شاعرهم :

شادن يحلو إذا ما ابتسمت عن أقاح كأقاح الرمل غر [3]

بدلته الشمس من منبته بَرَداً أبيض مصقولَ الأثر [4]

---

(١) النسعثماني : شعثم وشعيث ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة . عن أبي عبيد البكري في شرح امالي القالي ، وخبت : هو في الاصل المطمئن من الارض فيه رمل وقيل غير ذلك . . (٢) الكشح مثال فلس ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ، والكشح الهضيم المنضم اللطيف ، والمهشم : المكسر .

(٣) الشادن : ولد الظبية الذي قد قوي يكنى به عن الامرد الجميل .

(٤) البرد بالتحريك : حب الغمام .

وقال آخر :

وأشنب واضح عـذب الثنايا كأن رضابه صافى المُدام
كسته الشمسُ لوناً من سناها فلاح كأنه برقُ الغمام

وقال آخر :

بذى أشرب عذب المذاق تفردت به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا

والناس اليوم فى صبيانهم على هذا المذهب (وكانت العرب) تعتقد أن دم الرئيس يشفى من عضة الـكلب الـكَلِب . قال الشاعر :

بُناة مكارم وأساة جرح دماؤهم من الـكلب الشفاء (١)

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى :

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تَشفى من الـكلب

وقال الـكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكُمُ تشفى من الـكلب

(ومن تخيلات العرب) أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقذار عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . وأنشدوا للممزق العبدى :

فلو أن عندى جارتين وراقياً وعلق أنجاساً علىّ المعلق

قالوا والتنجيس يشفى إلا من العشق قال أعرابى :

يقولون علق يا لك الخير رُمةً وهل ينفع التنجيس من كان عاشقا (٢)

وقالت امرأة وقد نجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات :

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفـوس

---

(١) الأساة : الاطباء ، والكلب داء يشبه الجنون يأخذه فيعقر الناس .
(٢) الرمة : القطعة من الحبل .

وكان أبو مهدية يعلق فى عنقه العظام والصوف حذر الموت وأنشدوا :

أتونى بأنجاس لهم ومنجس فقلت لهم ما قدر الله كائن

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها . وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما خدرت رجله فقيل له ادع أحب الناس إليك فقال يا رسول الله [1] . وقال الشاعر :

على أن رجلى لا يزال امذلالها مقيماً بها حتى أجيلك فى فكرى

والامذلال : الاسترخاء والفتور . وقال كثير :

إذا مذلت رجلى ذكرتك اشتفى بدعواك من مذل بها فيهون

وقال جميل :

وأنت لعينى قرة حين نلتقى وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

وقالت امرأة :

إذا خدرت رجل دعوت ابن مصعب فإن قلت : عبد الله ! أجلى فتورها

وقال آخر :

صبٌّ محبٌّ إذا ما رجله خدرت نادى (كبيشة) حتى يذهب الخدرُ

---

(١) اقول : قد استدل الحشسويون وعباد القبور بهذا الكلام على جواز الاستغاثة باصحاب القبور عند الشدائد ونداء غير الله سبحانه وتعالى وهو كما ترى استدلال غريب يدل على جهل فيهم عظيم . . والجواب عنه ان هذا ليس نداء بما لا يقدر عليه الا الله تعالى غاية ما فيه ذكر المحبوب لاطلب شيء منه ولا استغاثته والالازم ان كل من ذكر محبوبه فقد استغاث به وبطلانه ظاهر . وهذا الفعل كما علمت من مذاهب العرب فى الجاهلية وقد ساق فضيلة الاستاذ من اشعارهم ما يؤيد ذلك وفيه يقول ابو العتاهية :

وتخدر فى بعض الاحايين رجله فان لم يقل ياعتب لم يذهب الخدر

أفيقال ان هؤلاء لما خدرت ارجلهم استغاثوا بمن يحبونه من امراة او غلام؟ لا ارى من يقول بذلك الا من خدر عقله وتركب جهله !

وقد علل بعض العلماء زوال الخدر بذكر المحبوب بأنه بمسرته وتوجه حواسه نحوه تنتفش حرارته الغريزية فيذهب الخدر . وقال ان فعل الجاهلية وحديث ابن عمر يؤيدان صحة ما جربه الناس فى ذلك ! . . .

وقال الموصلى :

والله ما خدرت رجلى وما عثرت إلا ذكرتك حتى يذهب الخدر

وقال الوليد بن يزيد :

أثيبى هائماً كلفاً مُعنّى إذا خدرت له رجل دعاكِ

(ومن مذاهبهم) وهو نظير هذا الوهم أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال (أرى من أحبه) فإن كان غائباً توقع قدومه و إن كان بعيداً توقع قربه وقال بشر :

إذا اختلجت عينى أقول لعلها فتاة بنى عمرو بها العين تلمع

وقال آخر :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى أراك و إن كان المزار بعيدا

وقال آخر :

إذا اختلجت عينى أقول : لعلها لرؤيتها تهتاج عينى وتطرف

وهذا الوهم باقٍ فى الناس اليوم وربما كان ذلك لدى البعض منهم كالقاعدة المطردة .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسل وأفرط عليه العشق حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبى وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلا وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه فيما يزعمون .

قال أعرابى :

كويتُم بين رانفتىَّ جهلا ونار القلب يضرمها الغرام[1]

وقال آخر :

شكوت إلى رفيقىَّ اشتياقى فجاآنى وقد جمعا دواءا

---

(١) الرانفة : اسفل الالية اذا كنت قائما .

وجاءا بالطبيب ليكوياني ولا أبغي - عدمتهما - اكتواءا

ولو أتيا (بسلمى) حين جاءا لعاضاني من السقم الشفاءا

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كُثيّر :

أغاضر لو شهدت غداة بنتم حنوَّ العائذات على وسادى

أويت لعاشق لم ترحميه بواقدة تلذع بالزناد

وهذا البيت ليس بصريح فى هذا الباب . ويحتمل أن يكون مراده فيه المعنى المشهور المطروق بين الشعراء من ذكر حرارة الوجد ولذعه وتشبيهه بالنار إلا أنه قد روى فى كتابه خبراً يؤكد المقصد الذى عزاه وادعاه وهو عن محمد بن سليمان بن فليح عن جده قال : كنت عند عبد الله بن جعفر فدخل عليه كثير وعليه أثر علة فقال عبد الله : ما هذا بك ؟ قال : هذا ما فعلت بى أم الحويرث ! ثم كشف عن ثوبه وهو مكوى وأنشد :

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها علام تعنيني وتكمى دوائيا

ولو آذنونى قبل أن يرقموا بها لقلت لهم : أم الحويرث دائيا !

(ومن أوهامهم وتخيلاتهم) أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبته فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما ! قال سحيم عبد بنى الحسحاس[1] :

وكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس[2]

---

(١) قيل : بل اسمه حية ومولاه جندل وهو من المخضرمين قد ادرك الجاهلية والاسلام ولا تعرف له صحبة وكان اسود شديد السواد وكان مع جودة شعره أعجمى اللسان ينشد الشعر ثم يقول « اهنسنت والله ! » يريد « احسنت والله » . وكان عبد الله بن أبى ربيعة قد اشتراه وكتب الى سيدنا عثمان رضى الله عنه : (انى قد ابتعت الك غلاما شاعرا حبشيا) فكتب اليه : (لاحاجة لى به فاردده فانما قصارى اهل العبد الشاعر ان شبع ان يشبب بنسائهم ، وان جاع ان يهجوهم) فرده عبد الله فاشتراه معبد فكان كما قال ذو النورين شبب ببنته عميرة وفحش وشهرها فحرقه معبد بالنار .

(٢) قوله (ومن برقع الخ) يروى بدله (على طفلة ممكورة غير عانس) والطفلة بفتح الطاء اى ناعمة ، والممكورة الطويلة الخالق من النساء يقال امرأة ممكورة الساقين اى جدلاء مفتولة ، والعانس التى طال مكثها فى منازل اهلها

إذا شُقَّ برد شق بالبرد برقع دَوالَيْكَ حتى كلنا غير لابس[1]
نروم بهذا الفعل بُقيا على الهوى وألف الهوى يغرى بهذى الوساوس[2]

وقال آخر :

شققت ردائى يوم (برقة عالج) وأمكنتنى من شق برقعك السحقا
فما بال هذا الود يفسد بيننا ويمحق حبلَ الوصل ما بيننا محقا

(ومن مذاهبهم) أنّهم كانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد فى الشجاعة والقوة وهذا مذهب طبى والأطباء يعتقدون به . قال بعضهم :

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما تظن أنك تلقى منه كرّارا
فلو أكلت سباع الأرض قاطبةً ما كنت إلا جبان القلب خوّارا[3]

وقال بعض الأعراب وقدأ كل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً فعدا عليه نمر فجرحه :

أكلت من الليث الهصور فؤاده لأصبح أجرأ منه قلباً وأقدما[4] !
فأدرك منى ثأره بابن أخته فيالك ثأراً ما أشدّ وأعظما !

وقال آخر :

إذا لم يكن قلبُ الفتى غدوةَ الوغى أصمَّ فقلب الليث ليس بنافعِ
وما نفع قلب الليث فى حومة الوغى إذا كان سيفُ المرء ليس بقاطع[5]

(ومن مذاهبهم) أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبه فعرق تحته اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره والهقعة دائرة تكون بالفرس وربما كانت على الكتف فى الأكثر ، وهى مستقبحة عندهم . قال بعضهم لصاحبه ينبهه على ذلك :

بعد ادراكها حتى خرجت عن عداد الابكار وهذا ما لم تتزوج فان تزوجت فلا يقال عنست .

(١) معنى دواليك مداولة بعد مداولة ولايفرد له واحد ، ومن ذلك حنانيك وحواليك وغيرهما (٢) البقيا بالضم ويفتح اسم من بقى يبقى بقاء ، قال الشاعر :

فما بقيا على تركتمانى ولكن خفتما صرد النبال

(٣) الخوار : الضعيف (٤) الهصور من صفات الاسد ، من الهصر وهو الكسر والدفع (٥) الوغى : الحرب نفسها ، وحومة القتال : معظمه او أشد موضع فيه .

إذا عرق المهقوع بالمرء أنعظت حليلتُهُ وازداد حَرًّا عجانها[١]

فأجابه صاحبه راداً عليه فيما اعتقده : —

وقد يركب المهقوع من ليس مثله وقد يركب المهقوع زوج حَصانِ[٢]

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا يوقدون النار المسافر الذى لا يحبون رجوعه خلفه ويقولون فى دعائهم (أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً أثره) قال بعضهم :

صحوتَ وأوقدتَ للجهل ناراً وردّ عليك الصبا ما استعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم و بين المنزل الذى يريدونه ولم يوقدوها بينهم و بين المنزل الذى خرجوا منه تفاؤلا بالرجوع إليه ، ولهم نيران كثيرة غير هذه قد ذكرناها سابقاً .

(ومن مذاهبهم المشهورة تعليق كعب الأرنب)

قال ابن الأعرابى : قلت لزيد بن كثوة : أتقولون أن من علق عليه كعب أرنب لم تقر به جنان الدار ولا عمار الحى ؟ قال : أى والله ولا شيطان الحماطة (وهو شجر شبيه بالتين وهو أحب شجر إلى الحيات) ولا جار العشيرة وهى تصغير العشرة (وهى شجرة أيضاً) ولا غول القفر . وقال امرؤ القيس :

أيا هند لا تنكحى بوهةً عليه عقيقته أحسبا[٣]

موضعة بين أزناقه به عَسَم يبتغى أرنبا[٤]

ليجعل فى رجله كعبها حذار المنية أن يعطبا[٥]

---

(١) انعظ الرجل والمرأة علاهما الشبق، والعجان مثل كتاب مابين الخصية وحلقة الدبر كذا فى المصباح (٢) امرأة حصان كسحاب عفيفة (٣) البوهة : الرجل الضاوى وقيل الضعيف الطائش وقيل الاحمق ، والاحسب رجل فى شعر رأسه شقرة . قال الزبيدى فى التاج : يصفه باللؤم والشح كأنه لم تحلق عقيقته فى صغره حتى شاخ وعقيقته شعره الذى يولد به ، يقول لا تتزوجى من هذه صفته (٤) العسم محركة يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم ، وقوله « موضعه بين أزناقه » محرف تحريفا ظاهرا وصوابه « مرسعة بين أرساغه » وفى رواية « مرسعة وسط أرفاغه » المرسعة التميمة التى كانوا يعلقونها على الرسغ مخافة الموت او العطب والارساغ جمع رسغ وهو من الانسان مفصل ما بين الكف والساعد وما بين القدم والساق.
(٥) كان حمقى العرب فى الجاهلية يعلقون كعب الارنب فى الرجل كالمعاذة

وقال أبو محلم : كانت العرب تعلق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفا من الخطفة والنظرة ، ويقولون : ان جنية أرادت صبيّ قوم فلم تقدر عليه فلامها قومها من الجن فى ذلك . فقالت تعتذر إليهم :

كان عليه نُفَره ثعالب وهِرَرَه
والحيض حيض السَّمُرَه

يعنى كان عليه ما ينفرنى منه لأن أتعرض له . والسمرة من شجر الطلح وحيضها شىء يسيل من السمر كدم الغزال (وكانت العرب) إذا ولدت المرأة أخذوا من دم السمر وهو صمغه الذى يسيل منه ينقطونه بين عينى النُّفَساء وخطوا على وجه الصبي خطًا ويسمى هذا الصمغ السائل من السمر الدودم ويقال بالذال المعجمة أيضاً وتسمى هذه الأشياء التى تعلق على الصبي (النفرات) قال عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى : إن بعض العرب قال لأبى : إذا ولد لك ولد فنفر عنه ! فقال له أبى : وما التنفير ؟ قال : غرب اسمه فولد له ولد فسماه قنفذاً وكناه أبا العدا . قال : وأنشد أبى :

كالخمر مزج دوائها منها بها تشفى الصداع وتبرىء المنجودا[1]

قال يريد أن القنفذ من مراكب الجن وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان ذلك فداوى منهم ولده بمراكبهم .

ومن مذاهبهم الاستعاذة بالجن

كان الرجل منهم اذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد إلى واد ذى شجر فأناخ راحلته فى قرارته وهى القاع المستديرة وعقلها وخط عليها خَطا ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادي . وربما قال بعظيم هذا الوادى . وعن هذا قال الله سبحانه فى القرآن (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن

ويزعمون ان من علقه لم يضره عين ولا سحر لان الجن تمتطى كعب الثعالب والظباء والقنافد وتجتنب الارانب لمكان الحيض. يقول : هو من أولئك الحمقى

(١) المنجود : المكروب .

فزادوهم رهقا) واستعاذ رجل منهم ومعه ولد فأكله الأسد فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادى   من شر ما فيه من الأعادى
فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادى[1]

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البِيد   بسيدٍ معظمٍ مجيدٍ[2]
أصبح يأوى بلوى زَرودِ   ذى عزة وكاهلٍ شديدِ

وقال آخر :

يا جنّ أجزاء اللوى من عالج   عاذ بكم سارى الظلام الدالج
لا ترهقوه بغوىّ هائج

وقال آخر :

قد بِتُّ ضيفاً لعظيم الوادى   المانعى من سطوة الأعادى
راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر :

هياصاحب الشجراء هل أنت مانعى   فإنِّىَ ضيفٌ نازل بفنائكا
وإنك للجنّان فى الأرض سيد   ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

(ومن مذاهبهم) أن الرجل اذا خرج من بلده إلى آخر فلا ينبغى له أن يلتفت فإنه إذا التفت عاد فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذى يريد العود . قال بعضهم :

دَعِ التلفت يا (مسعود) وارمِ بها   وجه الهواجر تأمنْ رجعة البلدِ

وقال آخر أنشده الخالع :

عيل صبرى بالثعلبية لما   طال ليلى وملنى قُرَنائى
كلما سارت المطايا بنا ميـ   ـلاً تنفستُ والتفتُّ ورائى

(١) الهزبر : الأسد ، واجاره : حفظه   (٢) البيد : المقفرة من الأنس

قال ابن أبي الحديد : هذان البيتان ذكرهما الخالع فى هـذا الباب وعندى أنه لا دلالة فيهما على ما أراد لأن التلفت فى أشعارهم كثير ومرادهم به الإبانة والإعراب عن كثرة الشوق والتأسف على المفارقة وكون الراحل عن المنزل حيث لم يمكنه المقام فيه بجثمانه يتبعه بصره ويتزود من رؤيته كقول السيد الرضى :

ولقد مررت على طلولهم   ورسومُها بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى ضجَّ من لغب   نِضْوى ولج بعذلىَ الرَّكْبُ [1]

وتلفتتْ عينى فمـذ خفيت   عنِّى الطلول تلفَّتَ القلب

وليس يقصد بالتلفت ههنا التفاؤل بالرجوع إليها لأن رسومها قد صارت نهباً بيد البلى فأى فائدة فى الرجوع إليها وإنما يريد ما قدمنا ذكره من الحنين والتذكر لمـا مضى من أيامه فيها . وكذلك قول الأول :

تلفتُّ نحو الحى حتى وجـدتُنى   وَجِعتُ من الإصعار ليتاً وأخدعا [2]

ومثل ذلك كثير انتهى . وقال بعضهم فى المذهب الأول :

تلفتُّ أرجو رجعةً بعد نيةٍ   فـكان التفاتى زائداً فى بلائيا

---

(١) اللغب : الاعياء ، والنضو بالكسر : المهزول من الابل وغيرها .

(٢) الاصعار : الانقلاب فى الوجه الى أحد الشقين ، والليت : صفحةالعنق، والاخدع : عرق فيها وهما منصوبان على التمييز ، والبيت من ابيات للصمة ابن عبد الله بن طفيل بن الحرث بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب وكان شاعرا غزلا مقلا من شعراء الدولة الاموية وكان قد خطب بنت عمه وكان لها محبا فاشتط عليه عمه فى المهر فسأل أباه ان يعاونه فلم يعنه بشىء فسأل عشيرته فأعطوه فأتى بالابل عمه فلم يقبلها فى مهر ابنته وقال له سهل أباك ان يبدلها لك فأبى أبوه عليه ذلك فلما رأى منهما مارأى قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير الى أهله وتحمل راحلا فقالت بنت عمه حين رأته يتحمل : تا لله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بأبعرة ثم مضى الى الشام فلما طال مقامه تبعتها نفسهفقال هذه الابيات وهى من أشهر ما يحفظ من النسيب الجزل اللفظ الفخم المعنى البديع ديباجة وحسنا :

حننت الى (ريا) ونفسك باعـدت   مزارك من ريا وشـعبا كمـا معـا

فما حسـن أن تأتى الامر طائعـا   وتجزع ان داعى الصبابة أسـمعا

وأرجو رجوعا بعد ما حال بيننا و بينكم حَزْنُ الفلا والفيافيا[1]

وقال آخر وقد طلق امرأته فتلفتت إليه :

تلفتت ترجو رجعة بعد فرقة وهيهات مما ترتجى أم مازن

ألم تعلمى أنى جموح عنانه إذا كان من أهواه غير ملاين

(ومن مذاهبهم) إذا بثرت شفة الصبى حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحى الحلأ الحلأ الطعام الطعام فتلقى له النساء كسر الخبز وأقطاع التمر واللحم فى المنخل ثم يلقى ذلك للكلاب فتأكله فيبرأ من المرض فإن أكل صبى من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة أو لحمة بثرت شفته ، وأنشد لامرأة :

ألا حلا فى شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه !

الحلأ محركة العقبول وهو واحد العقابيل وهى بقايا العلة وما يخرج على الشفة غب الحمى وحلئت الشفة برئت بعد المرض كذا فى كتب اللغة ومثل هذه المذاهب لا مجال للعقل فيه .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا طرفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول فى الأولى بإحدى جاءت من المدينة . وفى الثانية باثنتين جاءتا من المدينة . وفى الثالثة بثلاث جئن من المدينة إلى أن يقول فى السابعة بسبع جئن من المدينة فتبرأ عين المطروف وفيهم من يقول بإحدى

فقاودعا نجدا ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربى وما احسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك واكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الاصعار ليتا واخدعا
وأذكر ايام الحمى ثم انثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وهو خلاف السهل ، والفلاجمع فلاة وهى الأرض لا ماء فيها وكذلك الفيافى جمع فيفاة .

من سبع جئن من المدينة باثنتين من سبع إلى أن يقول بسبع من سبع .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القُوَباء عالجها بالريق ويروى أن أعرابياً أصابته قوبة فقيل له كل يوم ضع عليها الريق فوضع عليها فصحت فقال :

يا عجباً لهذه الفليقه   هل تذهبن القُوَباء الريقه

الفليقة الداهية والمنكر والقوباء بضم القاف وفتح الواو و بالمد داء يعالج بالريق

(من مذاهبهم) أنهم يزعمون أن ابن المجوسى إذا كان من أخته وخط على النملة تبرأ وتنصلح وترأب قال الشاعر يشير إلى هذا المذهب :

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر   كرام وأنا لانخطّ على النمل

أى لسنا بمجوس ننكح الأخوات وكانوا يكنون عن المجوسى بقولهم فلان يخط على النمل وهذه الطريقة فى الشعر هى إخراج الشىء المحمود بلفظ يوهم غيره يقال فلان كريم غير أنه شريف . قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فُلولٌ من قراع الكتائب[١]

وقال آخر :

فتى كرمت أخلاقه غير أنه   كريم فما يبقى على المال باقياً

وصحف ابن الأعرابى البيت الأول فروى « وأنا لانحط على النّمل » وفسره بأن قال نحن قوم أعزاء كرام ننزل أعالى الأمكنة فلا يخرقنا السيل ولا نحط على قرى النمل إذا كانت فى البطون ولذلك قال النابغة الذبيانى :

يا دار مية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد[٢]

---

(١) الكتائب جمع كتيبة وهى الطائفة من الجيش مجتمعة (٢) قال الزوزنى : انما قال يادار مية بالعلياء توجعا منه لأنه كان معها (أى مع مية) فى نعيم . وقال بالعلياء لأنه كان ذلك المكان الذى فيه الدار بمرتفع من الأرض حيث لا يضره السيل ووصف الدار وقد أضافها الى معرفة لانها ليست فى معنى فلان فلما لم تكن كذلك توهم أنه فى مذهب الالف واللام ، والعلياء اذا فتحت العين مدت واذا ضمت العين قصرت ، والسند : سند الجبل حيث تستند فيه قال اعشى همدان :

فرد عليه أبو عمرو ذلك ، فرجع إلى الصواب والنملة قرحة . وفى القاموس النملة شق فى حافر الدابة وقروح فى الجنب كالنمل و بثرة تخرج فى الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدب إلى موضع آخر كالنملة وسببها صفراء حادة تخرج من أفواه العروق الدقاق ولا تحتبس فيما هو داخل من ظاهر الجلد لشدة لطافتها وحدتها انتهى . وفى سائر كتب اللغة كذلك .

(ومن مذاهبهم) أن المرأة منهم كانت إذا عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور وحجلت على إحدى رجليها ويكون ذلك ليلًا وتقول يا لكاح . أبغى النكاح . قبل الصباح ! فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب . قال رجل لصديقه وقد رأى أمه تفعل ذلك :

أما ترى أمك تبغى بَعلا   قد نشرت من شعرها الأقلا[1]
ولم توفِّ مُقْلَتَيْها كحلا   ترفع رجلا وتحط رجلا[2]
هذا وقد شابَ بنوها أصلا   وأصبح الأصغر منهم كهْلا[3]
خذ القطيعَ ثم سُمْها الذلا   ضرباً به تترك هذا الفعلا[4]

وقال آخر :

تصنّعى ما شئت أن تصنعى   وكحِّلى عينيك أو ، لا ! فدعى !
ثم احجلى فى البيت أو فى المجمع   مالك فى بعل أرى من مطمع

وقال آخر :

قد كحلت عيناً وأعفت عينا   وحجلت ونشرت قرينا
تظن زيناً ما تراه شينا

عهدى بهم فى النقب قد سندوا   تهدى صعاب مطيهم ذالله
واقوت بمعنى خلت .

(١) البعل : الزوج (٢) المقلة : العين (٣) الكهل : من جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيل من بلغ الاربعين (٤) قوله خذ القطيع اى اهجرها ، وسمها الذل أى اهنها .

(ومن مذاهبهم) كانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم وأحبوا أن لا يعود كسروا شيئا من الأوانى وهذا مما يعمله بعض الناس اليوم أيضاً قال بعضهم :

كسرنا القدر بعد أبى سواح فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر :

ولا نكسر الكيزان فى إثر ضيفنا ولكننا نكفيه زاداً ليرجعا

وقال آخر :

أما والله إن بنى نفيل لحلاّلون بالشرف اليَفَاع[1]

أناس ليس تكسر خلف ضيف أوانيهم ولا شعب القصاع

(ومن مذاهبهم) أنهم يقولون أن من ولد فى القمراء تقلصت غرلته فكان كالمختون (والغرلة بالغين المعجمة والراء المهملة القلفة وهى الجلدة فى رأس الإحليل قبل الختان) . قال ابن أبى الحديد : ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواص القمر كما أن من خواصه إبلاء الكتان وإنتان اللحم . وقد روى عن أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه إذا رأيت الغلام طويل الغرلة فاقرب به من السؤدد وإذا رأيته قصير الغرلة كأنما ختنه القمر فأبعده به . وقال امرؤ القيس لقيصر وقد دخل معه الحمام فرآه أقلف :

إنى حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ لأنت أغلف إلا ما جنى القَمَرُ

والأغلف والأقلف بمعنى واحد وهو الذى لم يختن .

ومن مذاهبهم التشاؤم بالعطاس

قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان يتنبه للصيد قبل أن يتنبه الناس من نومهم لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه . وقال آخر :

---

(١) الشرف العلو وأشرف الموضع ارتفع فهو مشرف ، واليفاع مثل سلام ما ارتفع من الأرض .

وخرقٍ إذا وجهت فيه لغزوة مضيت ولم يحبسك عنه العواطس

والخرق : القفر والأرض الواسعة . يعنى : ورب قفر إذا وجهت فيه للغزو مضيت فيه على عزمك ولم يحبسك عن السير فيه العواطس وتشاؤمك منها . وقال رؤبة بن العجاج يصفُ فلاة « قطعتها ولا أهاب العطاسا » وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له : عمراً وشباباً وإذا عطس من يبغضونه قالوا له : وريا وقحاباً . والورى كالرمى داء يصيب الكبد فيفسدها . والقحاب كالسعال وزناً ومعنى ، فكان الرجل إذا سمع عطاساً يتشاءم به ويقول : بكلابى . أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بى . وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد كما حكى عن بعض الملوك أن مسامراً له عطس عطسة شديدة راعته فغضب الملك فقال سميره : والله ما تعمدت ذلك ولكن هذا عطاسى : فقال : والله لئن لم تأتنى بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك ! فقال أخرجنى إلى الناس لعلى أجد من يشهد لى فأخرجه وقد وكل به الأعوان فوجد رجلا فقال : يا سيدى نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسى يوماً فلعلك تشهد لى به عند الملك : فقال : نعم أنا أشهد لك . فنهض معه وقال : أيها الملك أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس من أضراسه . فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك ! ! فلما جاء الله تعالى بالإسلام وأبطل برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان عليه أهل الجاهلية من الضلالة نهى عن التشاؤم والتطير وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه دعاء له بالرحمة كما أمر العاين أن يدعو بالتبريك للمعين . ولما كان الدعاء على العاطس نوعاً من الظلم والبغى جعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافى للظلم وأمر العاطس أن يدعو لسامعه ويشمته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال فيقول يغفر الله لنا ولكم أو يهديكم الله ويصلح بالكم . قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى الى طاعة الرسول ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية فدعا له أن يثبته الله عليها ويهديه إليها ، وكذلك الدعاء بإصلاح البال

وهى حكمة جامعة لصلاح شأنه كله وهى من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال وأما الدعاء بالمغفرة فجاء بلفظ يشمل العاطس والمشمت كقوله : يغفر الله لنا ولكم ليتحصل من مجموع دعوى العاطس والمشمت لهما بالمغفرة والرحمة لهما معاً فصلوات الله وسلامه على المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة . ولأجل هذا والله أعلم لم يؤمر بتشميت من لم يحمد الله فإن الدعاء له بالرحمة نعمة فلا يستحقها من لم يحمد الله ويشكره على هذه النعمة ويتأسى بأبيه آدم عليه السلام فإنه لما نفخت فيه الروح إلى خياشيمه عطس فألهمه ربه تبارك وتعالى أن نطق بحمده فقال : الحمد لله . فقال الله سبحانه : يرحمك الله يا آدم . فصارت تلك سنة العاطس فمن لم يحمد الله لم يستحق هذه الدعوة ولما سبقت هذه الكلمة لآدم قبل أن يصيبه ما أصابه كان مآله إلى الرحمة وكان ما جرى عارضاً وزال فإن الرحمة سبقت العقوبة وغلبت الغضب . وأيضاً إنما أمر العاطس بالتحميد عند العطاس لأن أهل الجاهلية . كانوا يعتقدون فيها أنه داء ويكره أحدهم أن يعطس ويود أنه لم يصدر منه لما فى ذلك من الشؤم وكان العاطس يحبس نفسه عن العطاس ويمتنع من ذلك جهده من اعتقاد جهالهم فيه ولذلك والله أعلم بنوا لفظه على بناء الأدواء كالزكام والسعال والدوار والسهام وغيرها فاعلموا أنه ليس بداء ولكنه أمر يحبه الله تعالى وهو نعمة منه يستوجب عليها من عبده أن يحمده عليها . وفى الحديث المرفوع أن الله تعالى يحب العُطاس ويكره التثاؤب ، والعطاس ريح مختنقة تخرج وتفتح السُّدَد من الكبد وهو دليل جيد المريض مؤذن بانفراج بعض علته . وفى بعض الأمراض يستعمل ماء يعطس العليل ويجعل نوعاً من العلاج ومعيناً عليه هذا قدر زائد على ما أحبه الشارع وأمر بحمد الله عليه وبالدعاء لمن صدر منه وحمد الله عليه . ولهذا والله أعلم يقال : شمته إذا قال له يرحمك الله وسمته بالمعجمة وبالمهملة وبهما روى الحديث فأما التسميت بالمهملة فهو تفعيل من السمت الذى يراد به حسن الهيئة فمعنى سمت

العاطس وقرته وأكرمته وتأدبت معه بأدب الله ورسوله فى الدعاء له لا بأخلاق أهل الجاهلية من الدعاء عليه والتطير به والتشاؤم منه . وقيل سمته دعا له أن يعيده الله تعالى إلى سمته قبل العُطاس من السكون والوقار وطُمَأنينة الأعضاء فإن فى العطاس من انزعاج الأعضاء واضطرابها مايخرج العاطس عن سمته فإذا قال له السامع «يرحمك الله» فقد دعا له أن يعيده الله إلى سمته وهيئته . وأما التشميت بالمعجمة فقالت طائفة منهم ابن السكيت وغيره : أنه بمعنى التسميت وأنهما لغتان ذكر ذلك فى كتاب القلب والإبدال ولم يذكر أيهما الأصل ولا أيهما البدل . وقال أبو على الفارسى : المهملة هى الأصل فى الكلمة والمعجمة بدل منها واحتج بأن العاطس إذا عطس انتفش وتغير شكل وجهه فإذا دعا له فكأنه أعاده إلى سمته وهيئته . وقال تلميذه ابن جنى : لو جعل جاعل الشين المعجمة أصلاً وأخذه من الشوامت وهى القوائم لكان وجهاً صحيحاً وذلك أن القوائم هى التى تحمل الفرس ونحوه وبها عصمته وهى قوامه فكأنه لما دعا بالرحمة قد قصد إزالة الشماتة عنه وينشد فى ذلك :

ما كان ضر المرضى بجفونه ... لو كان مرّض منهما من أمرضا

وإلى هذا ذهب ثعلب . والمقصود أن التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذى أبطله الإسلام وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أن الله يحب العطاس كما فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الله يحب العُطاس ويكره التثاؤب فإذا تثاوب أحدكم فَلْيَسْتُرْهُ ما استطاع فإنه اذا فتح فاه فقال آه آه ضحك منه الشيطان .

ومن مذاهبهم التشاؤم بالغراب ونحوه

من الطيور وسائر الحيوان

كانوا يضربون الغراب مثلا فى الشؤم فقالوا فلان أشأم من غراب البين . وإنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أى طلب الكلأ

فى موضعه وقع فى موضع بيوتهم يتلمس و يتقمم فتشاءموا به وتطيروا منه إذ كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر صافى العين حتى قالوا أصفى من عين الغراب ، كما قالوا أصفى من عين الديك ، وسموه الأعور كناية كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير . وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم . وكما قالوا للمهالك من الفيافى المفاوز ، وهذا كثير . ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب . وليس فى الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شىء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ! و يرون أن صياحه أكثر أخباراً وأن الزجر فيه أعم . قال عنترة :

حرق الجناح كأن لَحْيَىْ رأسه   جَلَمَانِ بالأخبارِ هش مولع

الجلم الذى يخبر به والهش الخفيف . وقال غيره :

وصاح غراب فوق أعواد بانةٍ   بأخبار أحبابى فقسمنى الفكر
فقلت : غراب باغتراب و بانة   ببين النوى تلك العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنابى منهم   وهاجت صبا قلت : الصبابة والهجر

وقال آخر :

تغنى الطائران ببين سلمى   على غصنين من غرب و بانِ
فكان البان إن بانت سليمى   وفى الغرب اغتراب غير دانِ

وقال آخر :

أقوم يوم تلاقينا وقد سجعت   حمامتان على غصنين من بان :
الآن أعلم أن الغصن لى غصص   وإنما البان بَيْنٌ عاجل دان
فقمت تخفضنى أرض وترفعنى   حتى ونيت وهذا السير أركانى

وحمل على هذا المذهب قول ذى الرمة :

رأيت غُراباً ساقطاً فوق قضبة   من القضب لم ينبت لها ورق خضر

فقلت : غراب لاغتراب وقضبة　　لقضب النوى هذى العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنابك منهم　　ونفح الصبا تلك الصبابة والهجر

وقول بعضهم

دعا صُرَد يوماً على غصن بانةٍ　　وصاح بذات البين منها غرابها[1]
فقلت : أتصريدٌ وشحط وغربة ؟　　فهـذى لعمرى نأيها واغترابها[2]

فهذا نمط شعرهم فى الغراب لا يتغير وهو كثير لا يمـكننا استقصاؤه . بلى قد يزجرون من الطير غير الغراب على طريقين . أحدهما : على طريق الغراب فى التشاؤم . والآخر على طريق التفاؤل . قال الشاعر :

وقالوا : تغنى هُدْهُدٌ فوق بانةٍ　　فقلت : هدى يغدو به ويروح

وقال آخر :

وقالوا : عقاب قلت : عقبى من النوى　　دنت بعـد هجر منهم ونزوح

وقال آخر :

وقالوا : حمام . قلت : حُمّ لقاؤها　　وعادت لنا ريح الوصال تفوح[3]

فهذا إلى الشاعر لأنه إن شاء جعل العقاب عقبى خير وإن شاء جعلها عقبى شر وإن شاء جعل الحمام حماماً وإن شاء قال حم اللقاء والهدهد هدى وهداية والحبارى حبور وحبرة والبان بيان يلوح والدوم دوام العهد كما صارت الصبا عنده صبابة والجنوب اجتناب والصرد تصريداً إلا أن أحـداً منهم لم يزجر فى الغراب شيئاً من الخير هذا قول أهل اللغة . وذكر بعض أهل المعانى : أن نعيب الغراب يتطير منه ونعيقه يتفاءل به وأنشد قول جرير :

إن الغراب بما كرهت لَمُولَعٌ　　بنوى الأحبـة دائم التَّشحاج

(١) الصرد وزان عمر قال أبو حاتم فى كتاب الطير : هو طائر ابقع ابيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار له برثن ويصطاد العصافير وصغار الطير وهو مثل القارية فى العظم انتهى (٢) الشحط : البعد ومثله النأى ، والتصريد : التقلبل وقيل انما كرهوا الصرد وتشاءموا به من اسمه من التصريد (٣) معنى حم : دنا .

ليت الغراب غداة ينعب دائباً كان الغراب مقطع الأوداج[1]

شحيج الغراب صوته وكذلك النعيب . وقول ابن أبى ربيعة :

نعب الغراب ببين ذات الدُّمْلُجِ ليت الغرابَ ببينها لم يشحج[2]

ثم أنشدوا فى النغيق :

تركت الطير عاكفة عليهم وللغربان من شبع نغيق

قال : ويقال نغق الغراب نغيقاً إذا قال غيق غيق فيقال عندها نغق بخير ويقال نعب نعيباً إذا قال غاق فيقال عندها نعب بشرّ . ومنهم من يقول نغق ببين وزهيرٌ منهم . وأنشد له :

ألقى فراقهم فى المقلتين قذى أمسى بذاك غراب البين قد نغقا

وقال من احتج للغراب : العرب قد تتيمن بالغراب فتقول هم فى خير لا يطير غرابه أى يقع الغراب فلا ينفر لكثرة ما عندهم فلولا تيمنهم به لكانوا ينفرونه فقال الدافعون لهذا القول : الغراب فى مثل هذا المثل السواد . واحتجوا بقول النابغة :

ولرهط حراب وقدّ سورة فى المجد ليس غرابها بِمُطارِ

أى من عرض لهم لم يمكنه أن ينفر سوادهم لعزهم وكثرتهم وهى مشئومة ومن أمثالهم « لاقيت أخيل » قال ابن الأعرابى الأخيل الشقراق ويتطيرون منه للظهر ويسمونه مقطع الظهور يقال إذا وقع على بعير وإن كان سالماً يئسوا منه وإذا لقى المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت فى الظهر . قال الفرزدق :

إذا قطن بلغتنيه ابنَ مدرك فلاقيت من طير العراقيب أخيلا

وكل طائر يتطير منه للإبل فهو طير العراقيب . وهذه لفظة يتكلم بها عند الدعاء على المسافر كذا فى شرح مجمع الأمثال الميدانى . وقال ابن رشيق فى العمدة :

---

(١) الاوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق

(٢) الدملج والدملوج : المعضد .

الغراب أعظم ما يتطيرون به و يتشاءمون بالثور الأعضب وهو المكسور القرن والسانح ماولاك ميامنه والبارح ماولاك مياسره وأهل نجد تتيمن بالأول وتتشاءم بالثانى وأهل العالية على عكس هذا . وأنشد للكميت :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه   أصاح غُرابٌ أم تعرض ثعلب ؟

ولا السانحات البارحات عشية   أمر سليم القرن أم مرّ أعضب ؟

وسيجىء فى بيان علومهم عند الكلام على علم الزجر والعيافة أن من العرب من أنكر هذه الأمور بعقله . وأبطل تأثيرها بنظره . وذم من اغترّبها واعتمد فى أمره عليها . وما ورد فى الشريعة من إبطال ذلك على أتم وجه وأبينه إن شاء الله تعالى .

ومن مذاهبهم العدول عن الألفاظ المتطير بها إلى غيرها

كانت العرب تتطير من ذكر البرص فتكنى عنه بالوضح ومنه (جَذِيمة الوضاح) وكان أبرص وكنوا عنه بالأبرش أيضاً وكان يسمى الوضاح و يسمى الأبرش أيضاً وجَذِيمة بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة . قال الجاحظ فى البيان والتبيين عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى أن جذيمة الوضاح هو الأبرش التنوخى الأزدى وهو آخر ملوك قضاعة بالحيرة وهو أول من حذا النعال واتخذ المنجنيق ووضعه على الحصون وأول من أدلج من الملوك وأول من رفع له الشمع . وكان جَذِيمة من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية وأظهرهم حزماً وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش وكان به برص وكانت العرب تكنى عن أن تسميه به وتنسبه إليه إعظاماً له فقيل له جذيمة الوضاح وجذيمة الأبرش وكانت منازله فيما بين الحيرة والأنبار و بقة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر وتجبى إليه الأموال وتفد عليه الوفود وكان غزا طسماً وجديساً فى منازلهما من جوّ وما حوله وجوّ هى اليمامة فوافق خيول حسان بن أسعد

أبى كرب قد أغارت على طسم وجديس فانكفأ جذيمة راجعاً انتهى . وكل أبيض وضح عند العرب يقول قائلهم ما أكثر الوضح عندكم ! أى ما أكثر اللبن عندكم « ومما يتفاءل بذكره عندهم » قولهم للفلاة مفازة لأن القفار فى ركوبها الهلاك وكان حقها أن تسمى مهلكة ولكنهم اجتنبوا لفظها تطيراً وعكسوه تفاؤلا ، ولبعض المحدثين :

أحب الفأل حين رأى كثيراً أبوه عن اقتناء المجد عاجز
فسماه لقلته كثيراً كتقليب المهالك بالمفاوز

وقال بعضهم : المفازة مفعلة من فوّز الرجل إذا هلك فعلى هذا تكون الكلمة على أصلها غير معدول بها إلى غيرها « ومن ذلك » قولهم للديغ سليم تفاؤلا قال الشاعر :

أرقت ونام عنى من يلومُ ولكن لم أنم أنا والهموم
كأنى من تذكرها ألاقى إذا ما أظلم الليل البهيم
ومن تأميل رؤية أم جهم وقد خفقت مع الغور النجوم
سليم ملّ منه أقربوه وأسلمه المجاور والحميم

ومنه قولهم للأعور (ممتع) تطيراً من ذكر الأعور . ومثل ذلك كثير فى كلامهم . وفى كتاب الكنايات الكبير للإمام الثعالبى مايغنى عن إتعاب القلم فى هذا الباب .

(ومن مذاهبهم) قولهم فى الدعاء (لاعشت إلا عيش القراد) يضربونه مثلا فى الشدة والصبر على المشقة ويزعمون أن القراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً ويقولون إنه يترك فى طينة ويرمى بها الحائط فيبقى سنة على بطنه وسنة على ظهره ولا يموت قال بعضهم :

فلا عشت إلا كعيش القراد عاما ببطن وعاماً بظهر

(ومن مذاهبهم) أن النساء منهم كن إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن تراباً

من موضع قدمه وموضع رجله وكانت العرب تزعم أن ذلك أسرع لرجوعه ! وقالت امرأة من العرب :

أخـذت ترابًا من مواطئ رجله   غـداةَ غدٍ كيما يثوب مسلمـا

وقالت امرأة أخرى :

قالت له واقتبضت من أثره   يارب أنت جاره فى سفره
وجار خصيتيْه وجار ذكره ! !

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا يسمون العشاء فى العين الهدبد وأصل الهدبد اللبن الخاثر أى الغليظ فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ومن الكبد قطعة وقلاها ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فيا سناماً وكبدْ   ألا اذهبا بالهُدَبِدْ
ليس شفاء الهدبد   إلا السنام والكبد

ويزعمون أنه يذهب العشاء بذلك .

(ومن مذاهبهم) أنهم يعتقدون أنهم يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم ويشاهدون الغول وربما جامعوها وتزوجوها وتولد لهم أولاد منها كل ذلك من المسلمات لديهم .

قصة عمرو بن يربوع والغول

قالوا : إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين ومكثت عنده دهراً فكانت تقول له إذا لاح البرق من جهة بلادى وهى جهة كذا فاستره عنى فإنى إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك وطرت إلى بلاد قومى ، فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره . وإلى هذا المعنى أشار أبو العلاء المعرّى فى قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرق :

طربن لضوء البارق المتعالى ببغداد وهناً مالهن ومالى !
سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه من هنّا وثَم وصالى
إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد إليه فى صدور عوالى
تمنت قُوَيقاً والصراة أمامها تراب لها من أينق وجمال
إذا لاح إيماض سترت وجوهها كأنى عمرو والمطىّ سعالى
وكم همّ نِضوٌ أن يطيرَ مع الصبا إلى الشام لولا حبسه بعقال

قالوا : فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها فطارت وقالت له وهى تطير :

أمسك بنيك عمرو إنى آبق برق على أرض السعالى آلق

ومنهم من يقول : ركبت بعيراً وطارت عليه أى أسرعت فلم يدركها وعن هذا قال الشاعر :

رأى برقاً فأوضع فوق بَكْر فَلَأْياً ما أسال ولا أعاما[1]

قال : فبنو عمرو بن يربوع إلى اليوم يدعون ببنى السعلاة . ولذلك قال الشاعر يهجوهم :

ياقبح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا بأبطال ولا أكيات

والمراد بالنات الناس وبالأكيات الأكياس فأبدل السين تاء وهى لغة قوم من العرب .

ومن مذاهبهم فى الغول

أنهم يقولون إنها إن ضربت بالسيف ضربة واحدة هلكت فإن ضربت ثانية عاشت وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :

(١) أوضع : اسرع فى السير ، والبكر بالفتح : الفتى من الابل ، واللأى : الشدة ، والاسالة : الجرى ، والاعامة : مسير الابل .

فقالت : ثنّ ! قلت لها : رويداً مكانك إننى ثبت الجنان

ومما ورد من شعرهم فى الغول : قول أبى البلاد الطهوى . ويروى لتأبط شرّاً وهو من أبيات :

لهانَ على جهينةَ ما ألاقى من الروعات يوم رحا بِطان[1]
لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان
فقلت لها : كلانا نِضْو أرض أخو سفر فخلى لى مكانى[2]
فشدت شدة نحوى فأهوى لها كفى بمصقول يمانى
فقالت: زد ! قلت : رويدَ إنى على أمثالها ثبت الجنان

والذين يروون هذا الشعر لتأبط شرا يروون أوله :

ألا من مبلغ فتيات جهم بما لاقيت عند رحا بِطان
بأنى قد لقيت الغول تهوى بمرت كالصحيفة صحصحان
فصدت فانتحيت لها بعضب حسام غير مؤتشب يمانى
فقدّ سراتها والبرك منها فخرت لليدين وللجران
فقالت : ثنّ ، قلت لها: رويداً مكانكِ إننى ثبت الجنان
ولم أنفك مضطجعاً لديها لأنظر مصبحاً ماذا دهانى
إذا عينان فى رأس دقيق كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدَّج ولسان كلب وثوب من عباء أو شنان

والمرت المفازة والصحصحان المكان المستوى والمؤتشب المخلوط وسراة كل شىء ظهره ووسطه والبرك الصدر وجران البعير مقدم عنقه والمخدج الناقص والشنان جمع شن وهو القربة الخلقة .

وقال البهرانى :

وتزوجت فى الشبيبة غولاً بغزال وصدقتى زق خمر

---

(١) بكسر الباء : موضع (٢) النضو بالكسر : المهزول من الابل وغيرها .

قال الجاحظ : أصدقها الحمرَ اطيب ريحها والغزال لأنه من مراكب الجن .

وقال أبو عبيد بن أيوب العنبرى أحد اصوص العرب :

تقول وقد ألممت بالأمس لمة مخضبة الأطراف خرس الخلاخل :

أهذا خَدِينُ الغول والذئب والذى يهيم بربات الحجال الهراكل

رأت خلق الدرسين أسود شاحباً من القوم بساماً كريم الشمائل

تعوّد من آبائه فتكاتهم وإطعامَهم فى كل غبراء شامل

إذا صاد صيداً ألقه بضرامة وشيكا ولم ينظر لغلى المراجل

فنهشاً كنهش الصقر ثم مراسة بكفيه رأس الشيحة المتمائل

والهراكل جمع هركولة وهى الجارية الضخمة والغبراء الشامل السنة المجدبة والضرامة ما يوقد به النار والوشيك القريب والمراجل جمع مرجل وهو القدر والشيحة اسم نبت ومن هذه الأبيات :

إذا ما أراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

وأول عجز القوم عما ينوبهم تقاعدهم عنه وطول التواكل

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول لؤم القوم لؤم الحلائل

التواكل تفاعل من وكل أمره إلى غيره يكله وكلا فهو وكل . والحلائل جمع حليلة وهى الزوجة وهذا الشعر من جيد شعر العرب وإنما كان غرضنا منه متعلقاً بأوله وذكرنا سائره لما فيه من الأدب وقال أبو عبيد بن أيوب أيضاً فى المعنى الذى نحن بصدده :

وصار خليل الغول بعد غرارة صفياً وربته القفار البسابس[١]

وقال أيضاً :

فلله درّ الغول أى رفيقة لصاحب قفر فى المهامه يذعر[٢]

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالىّ نيرانا تلوح وتزهر[٣]

(١) البسابس جمع بسبس وهو القفر الخالى .
(٢) المهامه : المفاوز البعيدة والبلاد المقفر .
(٣) ارنت صوتت ، وقوله تلوح صوابه تبوخ اى تسكن وتزهر : تضىء .

وقال أيضاً :

وغولا قفرة ذكر وأنثى كأن عليهما قطعَ البجاد[١]

وقال أيضاً :

فقد لاقت الغزلان منى بلية وقد لاقت الغيلان منى الدواهيا

وقال البهرانى فى قتل الغول :

ضربت ضربة فصارت هباء فى محاق القمر آخر شهر[٢]

وقال أيضاً يزعم أنه لما ثنى عليها الضرب عاشت :

فثنيت والمقدار يحرس أهله فليت يمينى يوم ذلك شلتِ

وقال تأبط شراً يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها :

فأصبحت والغول لى جارةٌ فيا جارة أنت ما أغولا

وطالبتها بضعها فالتوت فكان من الرأى أن تقتلا[٣]

فجللتها مُرْهَفاً صارماً أبان المرافق والمفصلا

فطار بقحف ابنة الجن ذو شقاشق قد أخلق المحملا

فمن يك يسأل عن جارتى فإن لها باللوى منزلا

غطاءة أرض لها حلتان من ورق الطلح لم تغزلا[٤]

وكنت إذا ما هممت اهتبلت وأحرى إذا قلت أن أفعلا[٥]

قوله التوت أى امتنعت وتثاقلت والمرهف السيف والصارم القاطع وقوله ذو شقاشق قد أخلق المحملا معناه لو كانت هذه الشقاشق لجمل لكان يخلق المحمل

(١) البجاد ككتاب : كساء مخطط من أكسية الاعراب (٢) الهباء : الغبار أو يشبه الدخان ودقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض ، والمحاق مثلثة آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره أو ان يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية سمى لانه طلع مع الشمس فمحقه والمحق الابطال (٣) البضع : التزوج والمجامعة (٤) الطلح : من شجر العضاه (٥) اهتبل الرجل : كذب ، واهتبل الصيد بغاه وتكسبه وعلى ولده اثكل واهتبلت غفلته اغتنمتها وافترصتها .

ويدرسه لكثرتها إذا أراد بالمحمل حمائل السيف قال امرؤ القيس فى معلقته :

ففاضت دموع العين منى صبابة   على النحر حتى بل دمعىَ مِحْمَلى

والشعر فى الغول كثير والغالب منه من شعر تأبط شراً وهو من فحول شعراء الجاهلية وفرسانها المشهورين فناسب بيان حاله ، وذكر نبذة من لطيف أخباره . وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار :

ترجمة تأبط شراً

اسمه ثابت وكنيته أبو زهير بن جابر بن سفيان بن عميل بن عدى يعنى كعب بن حرب بن تيم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان وأمه أميمة من قين بطن من فهم . وفى تلقيبه بتأبط شراً أربعة أقوال « أحدها » وهو المشهور أنه تأبط سيفاً وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدرى تأبط شراً وخرج « الثانى » أن أمه قالت له فى زمن الكمأة : ألا ترى غلمان الحى يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها : فقال لها : أعطنى جرابك حتى أجتنى لك فيه فأعطته فملأه لها أفاعى من أكبر ما قدر عليه وأتى به متأبطاً له فألقاه بين يديها ففتحته فسعين بين يديها فى بيتها فوثبت وخرجت فقالت لها نساء الحى : ماذا كان الذى تأبطه ثابت اليوم ؟ قالت : تأبط شراً « الثالث » أنه رأى كبشاً فى الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول طول الطريق عليه فلما قرب من الحى ثقل عليه حتى لم يقله فرمى به فإذا هو الغول . فقال له قومه : بم تأبطت يا ثابت ؟ فاخبرهم . فقالوا : لقد تأبط شراً « الرابع » أنه أتى بالغول فألقاه بين يديها فسئلت أمه عما كان متأبطاً ؟ فقالت ذلك فلزمه . وكان أحد لصوص العرب يغزو على رجليه وحده وكان إذا جاع نظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه . وترجمته مذكورة فى الأغانى بحكايات كثيرة يتعجب منها العقل لغرابتها فعليك بذلك الكتاب إن أردتها .

ماورد فى الشريعة من أمر الغول والسعلاة

قد ورد فى شأن الغول حديثان صحيحان « أحدهما » قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا غول « والثانى » قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان أى ادفعوا شرها بذكر الله تعالى . وحاصل ما ذكر أهل الحديث فى الجمع بين هذين الحديثين المتعارضين أنه ليس المراد بالحديث الأول نفى وجود الغول وإنما معناه إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالهم فقد قال أهل اللغة : إن الغول من السعالى وهى إناث الشياطين سميت بذلك لأنها بزعمهم تغتالهم أو لأنها تتلون كل وقت من قولهم تغولت على البلاد إذا اختلفت . قالوا : ومعنى لا غول أى لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد له حديث لا غول ولكن السعالى وهم سحرة الجن أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل ، فحيث أثبتت فى الحديث فالمراد إثبات وجودها . وحيث نفيت فالمراد نفى ما كانوا يزعمون فيها . ومثل ذلك كثير فى الكلام الفصيح . وعلى هذا يحمل قول ابن هشام فى شرح بانت سعاد : إن للعرب أموراً تزعمها لا حقيقة لها . منها أن الغول تتراءى لهم فى الفلوات وتتلون لهم وتضلهم عن الطريق . ومنها الهديل زعموا أنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده بعض الجوارح وأن جميع الحمام يبكيه إلى يوم القيامة قال قائلهم : —

يذكرنيك حنين العجول وصوت الحمامة يدعو هديلا

والعَجول بالفتح الفاقدة لولدها من الإبل انتهى . وفى كتاب حياة الحيوان للدميرى : الغول بالضم أحد الغيلان وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم قال الجوهرى هو من السعالى والجمع أغوال وغيلان وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول والتغول التلون قال كعب :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون فى أثوابها الغول

و يقال تغولت المرأة إذا تلونت و يقال غالته غول إذا وقع فى مهلكة والغضب غول الحلم . قال : وسأل رجل أبا عبيدة عن قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » و إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فأجابه بأن الله تعالى كلم العرب على قدر كلامهم أما سمعت امرأ القيس كيف قال :

أيقتلنى والمَشْرَفىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال (١)

وهم لم يروا الغول قط ولكن لما كان يهولهم أو عدوا به قال أبو عبيدة : ومن يومئذ عملت كتابى الذى سميته (المجاز) ثم ذكر الدميرى كلاماً لا حاجة لنا به . ثم قال : قال جمهور العلماء كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات وهى جنس من الشياطين تتراءى للناس وتغول تغولا أى تتلون تلوناً فتضلهم عن الطريق وتهلكهم فأبطل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك . قال : وقال آخرون ليس المراد بالحديث نفى وجود الغول و إنما معناه إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالها قالوا : ومعنى لا غول لا تستطيع أن تضل أحداً ، و يشهد له حديث آخر لا غول ولكن السعالى وذكر بعد كلام طويل : والذى ذهب إليه المحققون أن الغول شىء يخوّف به ولا وجود له ، كما قال الشاعر :

الغول والخل والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

ولذلك سموا الغول خَيْتَعُور وهو كل شىء لا يدوم على حالة واحدة ويضمحل كالسراب وكالذى ينزل من الكوى فى شدة الحر كنسج العنكبوت قال الشاعر :

كل أنثى وإن بدا لك منها آيةُ الحبِّ حبها خَيْتَعُورُ

وقال : قال قوم ؛ الغول ساحرة الجن وهى تتصور فى صور شتى وأخذوا ذلك

---

(١) المشرفى: السيف المنسوب الى مشارف (راجع ص ٦٢) من هذا الجزء، والمسنون : المحدد المصقول ووصف النصال بالزرقة للدلالة على صفائها وكونها مجلوة ويستشهد أهل المعانى بهذا البيت على التشبيه الوهمى « وهو الغير المدرك باحدى الحواس ولكنه بحيث لو أدرك لكان مدركا بها فان انياب الغول مما لا يدركه الحس لعدم تحققها مع انها لو أدركت لم تدرك الا بحس البصر » .

من قول كعب بن زهير :

فما تكون على حال تدوم بها   كما تلوّن فى أثوابها الغول

وقد تقدم ذلك قريباً . وفى (دلائل النبوة) للبيهقى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال : إذا تغولت لأحدكم الغيلان فليؤذن فإن ذلك لا يضره وتزعم العرب أنه إذا انفرد الرجل فى الصحراء ظهرت له فى خلقة الإنسان فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق فتدنو منه وتتمثل له فى صور مختلفة فتهلكه روعاً . وقالوا : إذا أرادت أن تضل إنساناً أوقدت له ناراً فيقصدها فتفعل به ذلك قالوا وخلقتها خلقة إنسان ورجلاها رجلا حمار . قال القزوينى : ورأى الغول جماعة من الصحابة منهم عمر رضى الله عنه حين سافر إلى الشام قبل الإسلام فضربها بالسيف وذكر عن ثابت بن جابر الفهرى أنه لقى الغول وذكر أبياته النونية فى ذلك انتهى ما ذكره الدميرى فى الغول . وأنت تعلم ما فى كلامه من الاضطراب . وقال فى تفسير السعلاة ، إنها أخبث الغيلان وكذلك السعلاء تمد وتقصر والجمع السعالى واستسعلت المرأة أى صارت سعلاة أى صارت صخابة و بذيئة . قال الشاعر :

لقد رأيت عجباً مذ أمسا   عجائزاً مثل السعالى خمسا

يأكلن ما أصنع همسا همسا   لاترك الله لهن ضرسا[1]

ثم قال ، قال الجاحظ : يقال إن عمرو بن يربوع كان متولداً من السعلاة والإنسان قال : وذكروا إن جرهما كان من نتاج الملائكة و بنات آدم عليه السلام قال وكان الملك من الملائكة إذا عصى ربه فى السماء أهبط إلى الأرض فى صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت فوقع بعض الملائكة على بعض بنات آدم عليه السلام فولدت جرهما ! ولذلك قال شاعرهم :

---

(١) الهمس : كل خفى ومضغ الطعام والفم منضم ويروى :

يأكلن ما فى رحلهن همسا

ورووا بعد هذين البيتين قوله :

ولا لقين الدهر الا تعسا   فيها عجوز لا تساوى فلسا

لا تأكل الرندة الا نهسا

لاهُمَّ إن جرهما عبادكا الناس طرف وهما تلادكا [1]

قال : ومن هذا الضرب كانت بِلقيس ملكة سبأ وكذلك كان ذو القرنين ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً ينادى رجلاً : ياذا القرنين ! قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة انتهى . والحق فى ذلك أن الملائكة معصومون من الصغائر والكبائر كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قاله القاضى عياض وغيره . وأما ما ذكروه من أن جرهما كان من نتاج الملائكة و بنات آدم وكذلك ذو القرنين و بلقيس فممنوع واستدلالهم بقصة هاروت وماروت ليس بشىء فإنها لم تثبت على الوجه الذى أوردوه انتهى كلام الدميرى المقصود . ونقل عن السهيلى بعد أن أسهب وأطال أن السعلاة ما يتراءى للناس بالنّهار والغول ما يتراءى للناس بالليل . وقال القزوينى : السعلاة نوع من المتشيطنة مغايرة للغول قال عبيد بن أيوب :

وساحرة عينىّ لو أن عينها رأت ما ألاقيه من الهول جنّتِ
أبيت وسعلاة وغول بقفرة إذا الليل وارى الجن فيه أرنّتِ

قال : وأكثر ما توجد السعلاة فى الغياض وهى إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال : وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها وإذا افترسها ترفع صوتها وتقول أدركونى فإن الذئب قد أكلنى : وربما تقول من يخلصنى ومعى ألف دينار يأخذها : والقوم يعرفون أنه كلام السعلاة فلا يخلصها أحد فيأكلها الذئب انتهى . وفيها حكايات كثيرة قديماً وحديثاً الله أعلم بصحتها .

---

(١) قوله لا هم : العرب تحذف اللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول لاه أبوك وتريد لله ابوك وكذلك تقول لاهنك وتريد والله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الالسنة ، والطرف المال المستحدث وهو خلاف التلاد .

أشعار العرب وأحاديثهم فى رؤية الجن
وخطابهم وهتوفهم ونحو ذلك

روى أبو عثمان الجاحظ لسمير بن الحرث الضبى .

ونار قد حضأت بُعَيْدَ وَهْن بدار لا أريد بها مقاما [1]
سوى تحليل راحلة وعين أكالئها مخافة أن تناما [2]
أتوا نارى فقلت منون ؟ قالوا سراة الجن: قلت عمُوا ظلاما [3]
فقلت: إلى الطعام: فقال منهم زعيم : نحسد الإنس الطعاما
لقد فُضِّلتمُ بالأكل فينا ولكن ذاك يعقبكم سقاما
أمطْ عنا الطعامَ فإن فيه لآكله النقاصةَ والسقاما

ذكر فى أبياته أن الجن طرقته وقد أوقد ناراً لطعامه فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه وزعموا أنهم يحسدون الإنس فى الأكل وأنهم فضلوا عليهم بأكل الطعام ولكن ذلك يعقبهم السقام . وقوله (لقد فضلتم بالأكل فينا) ظاهره أن الجن لا يأكلون ولا يشربون . وقال ابن السيرافى : قال زعيمهم نحسد الإنس . على أكل الطعام والالتذاذ وليس من شأننا أن نأكل ما يأكله الإنس . وقال ابن المستوفى : لم يُرِدْ أن الجن لا تأكل ولا تشرب وإنما أراد أن طعام الإنس أفضل من طعام الجن . وهذان القولان خلاف الظاهر . ويؤيد ما قلنا قول ابن خَرُوف فى شرح أبيات سيبويه قوله (لقد فضلتم بالأكل فينا) مخالف للشرع لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال إن الجن تأكل وتشرب . وفى (آكام

---

(١) حضأ النار : اوقدها او فتحها للهب ، وبعيد ظرف تصغير بعد ، والوهن من اول الليل الى ثلثه اشتق من وهن يهن اذا فتر وضعف لهدوء الناس فيه (٢) كالأه مكالأة وكلاء : راقبه (٣) قوله منون اى من انتم وهذا نادر واليه اشار ابن مالك بقوله :

وان تصل فلفظ من لا يختلف ونادر منون فى نظم عرف

وقوله : عموا ظلاما وكذلك قولهم عموا صباحا من تحياتهم فى الجاهلية (راجع ص ١٩٢) من هذا الجزء ، والسراة : الاشراف .

المرجان فى أحكام الجان) لبدر الدين محمد بن عبد الله الشبلى الحنفى الشامى وقد صنفه كما قال الصفدى فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة : — وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال « أحدها » أن جميع الجن لا يأكلون ولا يشربون وهذا قول ساقط « ثانيها » إن صنفاً منهم يأكلون و يشربون وصنفاً لا يأكلون ولا يشربون « ثالثها » إن جميع الجن يأكلون و يشربون فقال بعضهم : أكلهم وشربهم تشمم واسترواح لا مضغ و بلع وهذا لا دليل له . وقال آخرون : أكلهم وشربهم مضغ و بلع . و يدل لهذا حديث أمية ابن مخشى من رواية أبى داود : ما زال الشيطان يأكل معه فلما ذكر الله تعالى استقاء ما فى بطنه . وفى الصحيحين : إن الجن سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزاد فقال : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى يد أحدهم أوفر ما يكون لحماً وكل بعر علف علف لدوابهم . وفى حديث يزيد بن جابر قال ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفى سقف بيتهم من الجن من المسلمين إذا وضع غداؤهم نزلوا فتغدوا معهم و إذا وضع عشاؤهم نزلوا فتعشوا معهم يدفع الله بهم عنهم . والجن على مراتب قال ابن عبد البر : إذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جنى فإن أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا أرواح فإن خبث ولؤم قالوا شيطان فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك وقوى أمره قالوا عفريت فإن طهر ولطف وصار خيراً كله فهو ملك . وقال ابن عقيل : الشياطين العصاة من الجن وهم من ولد إبليس والمردة أعتاهم وأغواهم وهم أعوان إبليس . وقال الجوهرى كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان . وقال ابن دريد : الجن خلاف الإنس . و يقال جنه الليل وأجنه وأجن عليه وغطاه فى معنى واحد إذا ستره وكل شيء استتر عنك فقد جن عنك و به سميت الجن . وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جناً لاستتارهم عن العيون قالوا والحن بالحاء المهملة زعموا أنه ضرب من الجن . وقال أبو عمر الزاهد : الحن كلاب الجن وسفلتهم والجان أبو الجن . قال

السهيلي في (كتاب النتائج) : ومما قدم للفضل والشرف تقديم الجن على الإنس في أكثر المواضع لأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما اجتن عن الأبصار . قال تعالى (وجعلوا بينه و بين الجنة نسباً) وقال الأعشى :

وسخر من جن الملائك سبعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

فأما قوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) وقوله تعالى (و أنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) فإن لفظ الجن ههنا لا يتناول الملائكة لنزاهتهم عن العيوب فلما لم يتناولهم عموم اللفظ لهذه القرينة بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم . وقال جذع بن سنان :

أتوا ناري فقلت : منون أنتم ؟ فقالوا : الجن قلت : عموا صباحا
نزلت بشِعْبِ وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا
أتيتهمُ وللأقدارِ حتم تلاقي المرء صبحاً أو رواحا
أتيتهم غريباً مستضيفاً رأوا قتلي إذا فعلوا جناحا
أتوني سافرين فقلت : أهلاً رأيت وجوههم وسماً صِباحا
نحرت لهم وقلت : ألا هلموا ! كلوا مما طهيتُ لكم سماحا
أتاني (قاشر) و بنو أبيه وقد جن الدجى والليل لاحا
فنازعني الزجاجة بعد وهن مزجت لهم بها عسلا و راحا
وحذرني أموراً سوف تأتي أهز لها الصوارم والرماحا
سأمضي للذي قالوا بعزم ولا أبغي لذلكمُ قداحا
أسأت الظن فيه ومن أساه بكل الناس قد لاقى نجاحا
وقد تأتي إلى المرء المنايا بأبواب الأمان سدى صراحا
سيبقى حكم هذا الدهر قوما و يهلك آخرون به ذُباحا
أثعلبة بن عمرو ليس هذا أوان السير فاعتدَّ السلاحا
ألم تعلم بأن الذل موت يتيح لمن ألمَّ به اجتياحا

ولا يبقى نعيم الدهر إلا لِقَرْمٍ ماجد صدق الـكفاحا

قال ابن السيد : إن قيل كيف جاز أن يقول لهم عموا صباحاً وهم فى الليل وإنما يليق هذا الدعاء بمن يلقى فى الصباح ؟ فالجواب من وجهين « أحدهما » أن الرجل إذا قيل له عم صباحاً فليس المراد أن ينعم فى الصباح دون المساء كما أنه إذا قيل أرغم الله أنفه وحيا الله وجهه فليس المراد الأنف والوجه دون سائر الجسم . وكذلك إذا قيل له أعلى الله كعبك وإنما هى ألفاظ ظاهرها الخصوص ومعناها العموم . ومثله قول الأعشى (الواطئين على صدور نعالهم) والوطء لا يكون على صدور النعال دون سائرها « والوجه الثانى » أن يكون معنى أنعم الله صباحك أطلع الله عليك كل صباح بالنعيم لأن الصباح والظلام نوعان والنوع يسمى به كل جزء منه بما تسمى به جملته . والشِعب بالـكسر الطريق فى الجبل وَوُسْماً بالضم جمع وسيم وهو الذى عليه سمة الجمال وكذلك الصباح بالـكسر جمع صبيح شبه بالصبح فى إشراقه ، وطهيت طبخت يقال طهيت اللحم وطهوته فأنا طاهٍ . وقوله لا أبغى لذلـكم قداحاً أى لا أطلب ضرب القداح لأنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر ضربوا بالقداح فإن خرج القدح المـكتوب عليه افعل فعل الأمر . وإن خرج القدح المـكتوب عليه لا تفعل لم يفعل الأمر . وقوله أسأت الظن فيه يقول أسأت الظن بضرب القداح والتعويل على ما تأمر به وتنهى عنه وعلمت أن ما أمرتنى به الجن أحرى أن يعوّل عليه . وقوله سـدى صراحاً . السدى الإبل المهملة التى لا يردها أحد والصراح الظاهرة . والذُّباح بضم الذال المعجمة بعدها موحدة نبات يقتل من أكله ومن رواه بكسر الذال جعله جمع ذبيح . وقوله يتيح أى يقدر ويجلب يقال أتاح الله كذا أى قدره وألمَّ نزل . والاجتياح بجيم بعدها مثناة فوقية الاستئصال . والقَرْم بفتح القاف وسكون الراء السيد وأصله الفحل من الإبل . والـكفاح بالـكسْر ملاقاة الأعداء انتهى . وهذا الشعر وقع فى كتاب خبر سدمأرب ونسبه إلى جذع بن سنان الغسانى

فى حكاية طويلة زعم أنها جرت له مع الجن . قال ابن السيد فى شرح أبيات الجمل للزجاجى : وكلا الشعرين أكذوبة من أكاذيب العرب لم تقع قط . وفى كتاب اللب : جذع بن سنان الغسانى بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة شاعر جاهلى قديم . وغسان قبيلة من الأزد من قحطان وجذع خرج مع من خرج من الأزد قبل سيل العرم وجاءوا إلى الشام وكان ملكها إذ ذاك سليح وهم من غسان أيضاً . وقيل من قضاعة وكانوا يؤدون لسليح عن كل رجل دينارين فجاء عامل الملك إلى جذع بن سنان يطلب الخراج الذى وجب عليه فدفع إليه سيفه رهناً فقال أدخله فى حرامك فغضب جذع وقنعه به[1] فقيل خذ من جذع ما أعطاك وسارت مثلا تضرب فى اغتنام ما يجود به البخيل[2] وقيل فى سبب المثل غير هذا وامتنعت غسان من هذا الخراج بعد ذلك وولوا الشام كما تقدم شرحه فى ملوك بنى جفنة .

ويزعمون أن عمير بن ضبيعة رأى غلمانا ثلاثة يلعبون نهاراً فوثب غلام منهم فقام على عاتقَىْ صاحبه ووثب الآخر فقام على عاتقَىْ الأعلى منهما فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون فقال عمير بن ضبيعة فما مررت يومئذ بشجرة إلا وسمعت من تحتها ضحكا فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر .

وحكى الأصمعى عن بعضهم : أنه خرج هو وصاحب له يسيران فإذا غلام على طريق فقالا له : من أنت ؟ قال : أنا مسكين قد قطع بى ! فقال أحدهما لصاحبه أردفه خلفك ؟ فأردفه فالتفت الآخر إليه فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار فرجع عنه ، ثم التفت فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار ففعل ذلك مراراً فقال ذلك الغلام : قاتلكما الله ما أجلدكما ! والله ما فعلتها بآدمى إلا وانخلع فؤاده ! ثم غاب عنهما فلم يعلما خبره !

وذكر الأصفهانى فى كتاب الأغانى ، قال أبو عبيدة . خرج عَبيد بن الأبرص

---

(١) قنع راسه بالسيف : غشاه به ضربا (٢) انظر ص ١٧٣ من هذا الجزء

يريد الشام فلما كان فى بعض الطريق عرض له شجاع يلهث عطشاً فعمد إلى إداوته ونزل عن بعيره فسقاه حتى رواه ثم مضى إلى الشام فقضى حوائجه ورجع فأضلّ فى بعض طريقه بعيره فنكب عن الطريق ليطلبه . فإذا هاتف يقول :

يا صاحبَ البَكرِ المضلّ مذهبه　　دونك هذا البكر منا فاركبه[1]
حتى إذا الليل تراءى غيهبه　　وأقبل الصبح ولاح كوكبه[2]
* فحط عنه رحله وسيبه *

فرأى بعيراً واقفاً فاستوى على ظهره فلم يلبث ساعة أن رأى بيته ! وكان بينه و بينه عشرين مرحلة ! فخلى عنه الرحل وهو يقول : —

يا صاحب البكر قد أنجيت من كرب　　ومن فيافٍ تضل المدلج الهادى[3]
هلا بدأت لنا خلقاً لتعرف من　　(عليك) قد جاد بالنعماء فى الوادى
ارجع حميداً فقد بلغت حاجتنا　　بوركتَ من ذى سلام رائح غادى

« فأجابه » :

أنا الشجاع الذى أرويتنى ظماً　　فى صحصحٍ حصبٍ عن أهله صادى[4]
وجدت بالماء لما عزّ مطلبه　　نصف النهار على الرمضاء فى الوادى
هذا جزاؤك منا لا يمن به　　لك الجميل علينا إنك البادى
الخير يبقى و إن طال الزمان به　　والشر أقبح ما أوعيت من زادِ

وقال الشرقى بن القطامى : كان رجل من كلب يقال له عبيد بن الحارس شجاعاً وكان نازلاً بالسماوة أيام الربيع فلما حسر الربيع وقل ماؤه ، وأقلعت أنواؤه تحمل إلى وادى تبل فرأى روضة وغديراً . فقال « روضة وغدير . وخطب يسير .

(١) البكر : الفتى من الابل ، ودونك بمعنى خذه (٢) الغيهب : الظلمة ولا يخفى ما فى هذا النظم من الخلل والفساد ! (٣) الفيافى المفاوز المهلكة ، والمدلج : السائر فى الليل (٤) الصحصح ما استوى من الارض ، والحصب : ذو الحجارة

وأنا لما حويت مجير » فنزل هناك وله امرأتان اسم أحدهما الرباب والأخرى خولة فقالت له خولة :

أرى بلدة قفراً قليلا أنيسها ... وإنا لنخشى إن دجا الليل أهلها

وقالت له الرباب :

أرتك برأيي فاستمع عنك قولها ... ولا تأمنن جن العزيف وجهلها

فقال مجيباً لهما :

ألست كمياً فى الحروب مجربا ... شجاعاً إذا شبت له الحربُ مِحْرَبا (١)

سريعاً إلى الهيجا إذا حمس الوغى ... فأقسم لا أعدو الغدير منكبا

ثم صَعدَ إلى جبل ثبل فرأى شيهمة (وهى الأنثى من القنافذ) فرماهافأقعصها ومعها ولدها فارتبطه فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن : —

يا ابن الحارس قد أسأت جوارنا ... وركبت صاحبنا بأمر مفظع

وعقرت لقحتَهُ وقُدْتَ فصيلَها ... قوداً عنيفاً فى المنيف الأرفع (٢)

ونزلت مرعى شاتنا وظلمتنا ... والظلم فاعله وخيم المرتع

فلنطرقنك بالذى أوليتنا ... شراً يجيك وماله من مدفع

فأجابه ابن الحارس :

يا مدعى ظلمى ولست بظالم ... اسمع لديك مقالتى وتسمع

إن كنتُم جنًّا ظلمتم قنفذاً ... عقرت فشر عقيرة فى مصرع

لا تطمعوا فيما لدىّ فما لكم ... فيما حويت وحزته من مطمع

فأجابه الجنىّ :

يا ضارب اللقحة بالعضب الأفل ... قد جاءك الموت ووافاك الأجل (٣)

وساقت الحيْن الى جن ثَبل ... فاليوم أقوَيْتَ وأعيتك الحيَل (٤).

---

(١) المحرب بكسر الميم صاحب الحرب وفى حديث على كرم الله وجهه : فابعث عليهم رجلا محربا اى معروفا بالحرب عارفا بها (٢) اللقحة : الناقةالتى نتجت ، وفصيلها : ولدها ، والمنيف : الجبل (٣) العضب : السيف ، والافل : المنثلم (٤) الحين بالفتح والسكون : الهلاك

فأجابه ابن الحارس :

يا صاحب اللقحة هل أنت بجل　　مستمع منى فقد قلت الخطل

وكثرة المنطق فى الحرب فشل　　هيجت قمقاماً من القوم بطل[1]

ليث ليوث وإذا همّ فعل　　لا يرهب الجن ولا الإنس أجل

* من كان بالعقوة من جن ثبل *

قال فسمعها شيخ من الجن فقال لا والله لا نرى قتل إنسان مثل هـذا ثابت القلب ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ وحمد الله تعالى ثم أنشد : —

يا ابن الحارس قد نزلت بلادنا　　فأصبت منها مشرباً ومناما

فبدأتنا ظلماً بعقر لقوحنا　　وأسأت لما أن نطقت كلاما

فاعمد لأمر الرشد واجتنب الردى　　إنا نرى لك حرمة وذماما

واغرم لصاحبنا لقوحاً متبعاً　　فلقد أصبت بما فعلت أناما

فأجابه ابن الحارس :

الله يعلم حيث يرفع عرشه　　إنى لأكرهُ أن أصيب أثاما

أما ادعاؤك ما ادعيت فإننى　　جئت البلاد ولا أريد مقاما

فأسمت فيها مالنا ونزلتها　　لأريحَ فيها ظهرنا أياما

فليغدُ صاحبكم علينا نُعطهِ　　ما قد سألت ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحاً متبعاً للقنفذ وولدها . قال ابن أبى الحديد بعد إيراده هذه القصة فى شرح نهج البلاغة : وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدبا وهى من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها . ويقال إن الشرقى بن قطامى : كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره انتهى . وأقول لعل ابن أبى الحديد بنى ذلك على مذهبه فقال ماقال فإنه من المعتزلة وهم لايثبتون الجن على الوجه الذى يدعيه غيرهم وسيجىء تفاصيل ذلك قريباً .

---

(١) القمقام بالفتح ويضم : السيد

فأما ذكرهم عزيف الجن فى المفاوز والسباسب فكثير مشهور

والعزيف أصوات الجن ومن شعرهم فى ذلك قول بعضهم :

وخَرْقٍ تحدث غيطانه حديث العذارى بأسرارها[1]

والغيطان جمع غائط وهو المطمئن من الأرض . وقال الآخر :

ودويةٍ سبسبٍ سَمْلَق من البِيد تعزف جنّانها[2]

وقالَ الأعشى :

وبهماء تعزف جنانهـا مناهلها آجناتٌ سدم[3]

البهماء أرض كثيرة البهاء ومعنى سدم دفن مناهلها ومواضع مياهها وقال :

و بلدةٍ مثل ظهر التُّرس موحشة للجن بالليل فى حافاتها زَجَلُ[4]

الحافات الجوانب والزجل التصويت . وقال آخر : —

* ببيداء فى أرجائها الجنُّ تعزفُ *

والشعر فى هذا كثير . ومن ذلك ما أسلفناه من القصص قريباً . وفى آكام المرجان مايغنى عن الإطالة .

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثة ويفتونها على رأسها ويقولون روثة راث ثائرك . وقال بعضهم :

طرحنا عليه الروث والزجر صادق فراث علينـا ثاره والطوائل

وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد ويقال لها قتلك العين فلا ثائر لك وفى أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر هو قتيل العين . قال الشاعر :

---

(١) الخرق: القفر والارض الواسعة،والواو واورب اى رب خرق (٢)الدوية: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الاطراف ، والسبسب المفازة او الارض المستوية البعيدة ، والسملق كجعفر القاع الصفصف ، والبيد جمع بيداءوهى الفلاة (٣) الآجنات : المتغيرات الطعم واللون

(٤) الترس بالضم من جلد الارض الغليظ منها كانه على التشبيه . ويقال هو القاع المستدير لاطلس كما قاله الزمخشرى ومنه قولهم واجهت ترسا من الارض

ولم أكن كقتيل العين وسطكم ولا ذبيحة تشريق وتنحار

(ومن أعاجيبهم) أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جُوالق وملأوها حنطة وشعيراً وتمرا وجعلوا تلك الجمال فى باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ماعليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف . قال بعضهم :

قالوا وقد طال عنائى والسقم احملْ إلى الجن جمالات وضم
فقد فعلت والسقام لم يرم فبالذى يملك بُرئى أعتصم

لم يرم أى لم يصلح ومالك البرء هو الله تعالى . وقال آخر :

فياليت إن الجن جازوا جمالتى وزحزح عَنِّى ماعنانى من السقم
و ياليتهم قالوا أنطنا كل ما حوت يمينك فى حرب غماس وفى سلم
أعلّل قلبى بالذى يزعمونه فياليتنى عوفيت فى ذلك الزعم

وأنطنا أى أعطنا والغماس الشديد والسلم الصلح . وقال آخر :

ألا إن جنان النُّوَيْرة أصبحوا وهم بين غضبانٍ علىّ وآسفِ
حملت ولم أقبل إليهم حَمَالَةً تسكن عن قلب من السقم تالف
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لىَ من أمثالهم بالتناصف
تغطوا بثوب الأرض عنى ولو بدوا لأصبحت منهم آمناً غير خائف

النويرة بالنون تصغير النار و بالباء تصغير البُور وهى الأرض التى لم تزرع والتالف الهالك .

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها فى بعض الحيوان

فإنهم يعتقدون فى الديك والغراب والحمامة والورل وساق حر والقنفذ والأرنب والظبى واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة . فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً . ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن . ومنهم من يعتقد أن الورل والقنفذ والأرنب والظبى واليربوع والنعام مراكب الجن يمتطونها أى يجعلونها مطية لهم ومن أشعارهم فى مراكب الجن قول بعضهم فى قنفذ رآه ليلا :

فما يعجب الجنان منك عدمتهم وفى الأسـد أفراس لهم ونجائب
أيسرح يربوع ويلـجم قنفـذ لقد أعوزتـكم ما علمت النجائب
فإن كانت الجنان جنّت فبالحرى ولا ذنب للأقوام والله غالب

ومن الشعر المنسوب إلى الجن فى ذلك :

وكل المطـايا قد ركبنا فلم نجد ألذ وأشهى من ركوب الأرانب
ومن عضرفوط عنّ لى فركبته أبادر سرباً من عظاء قوارب

والعضرفوط العظاء الذكر بعين مهملة وظاء معجمة ممدودة دويبة أكبر من الوزغة ويقال فى الواحدة عظاءة وعظاية والجمع عظاء وعظايا قال عبد الرحمن بن عوف « كمثل الهر يلتمس العظايا » وقال الأزهرى : هى دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيراً تشبه (سام أبرص) إلا أنها أحسن منه ولا تؤذى وتسمى شحمة الأرض وشحمة الرمل وهى أنواع كثيرة منها الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر وكلها منقطة بالسواد وهذه الألوان بحسب مساكنها فإن منها ما يسكن الرمال ، ومنها ما يسكن قريباً من الماء والعشب ، ومنها ما يألف الناس وتبقى فى جحرها أربعة أشهر لا تطعم شيئاً ومن طبعها محبة الشمس لتصلب فيها .

(ومن خرافات العرب) قالوا : إن السموم لما فرقت على الحيوانات احتبست العظاية عند التفرقة حتى نفد السم وأخذ كل حيوان قسطا منه على قدر السبق

إليه فلم يكن لها فيه نصيب . ومن طبعها أنها تمشى مشياً سريعاً ثم تقف ويقال إن ذلك لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم ، والقوارب جمع قاربة وهى السارية فى الليل . وحاصل مادل عليه هذا الشعر أن ركوب الأرنب والعضرفوط لمبادرة سرب العظاء ألذّ من ركوب سائر المطايا . وقال أعرابى يكذب بذلك .

ويستمع الأسرار راكب قنفذ   لقد ضاع سر الله يا أم معبد !

يريد الرد على ما كان يعتقده بعض العرب من إثبات العلم بالغيب للجن فإن من يحتاج فى ركوبه إلى القنفذ بزعمهم كيف يعلم غيب السموات والأرض . ومنهم من يزعم أن سهيلاً والزُّهَرَةَ (وهما كوكبان فى السماء) والضب والذئب والضبع كلها مسوخ . ومنهم من يزعم أن الظباء ماشية الجن . وفى (كتاب آكام المرجان) فى بيان أن الظباء ماشية الجن فى اعتقاد العرب عن حميد بن هلال قال : كنا نتحدث أن الظباء ماشية الجن فأقبل غلام ومعه قوس ونبل فاستتر بأرطأة[1] وبين يديه قطيع من ظبى وهو يريد أن يرمى بعضه فهتف هاتف لا يرى وقال :

إن غلاماً عسر اليدين   يسعى بكيد أو لهين مين[2]

متخذ الأرطاة جُنَّتَيْنِ   ليقتل القيس مع العنزين[3]

فسمعت الظباء فتفرقت . وعن النعمان بن سهل الحرانى قال : بعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا إلى البادية فرأى ظبية مصرورة[4] فطاردها حتى أخذها فإذا رجل من الجن يقول :

يا صاحب الكنانة المكسوره   خلِّ سبيلَ الظبيةِ المصروره

---

(١) الارطاة واحدة الارطى وهو شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تاكلها الابل غضة وعروقها حمر (٢) عسر اليدين : الذى يعمل بيديه (٣) الجنة بالضم الدرع وكل ما وقى من السلاح وفى الصحاح : الجنة ما استترت به من السلاح والجمع الجنن (٤) هى التى شد ضرعها بالصرار ككتاب وهو ما يشد به الضرع

فإنهــا لصبيــة مضروره غاب أبوهم غيبة مذكوره
* فى كورة لا بوركت من كوره *

وخرج مالك بن حريم الدالانى فى نفر من قومه فى الجاهلية يريدون عكاظ فاصطادوا ظبياً وأصابهم عطش شديد فانتهوا إلى موضع فقصدوا ظبيا وجعلوا يشربون من دمه من العطش فلما ذهب دمه ذبحوه وخرجوا فى طلب الحطب وكمن مالك فى خبائه فأثار بعضهم شجاعا فأقبل منساباً حتى دخل رحل مالك فلاذ به وأقبل الرجل فى أثره فقال : يا مالك استيقظ فإن الشجاع عندك فاستيقظ مالك فنظر إليه وهو يلوذ به فقال عزمت عليك إلا تركته فكف عنه وانساب الشجاع إلى مأمنه وأنشأ مالك يقول :

وأوصانى الحريم بعز جارى وأمنعه وليس به امتناع
وأدفع ضيمه وأذب عنه وأمنعه إذا منع المتاع

إلى آخر ما قال من الأبيات فارتحلوا واشتد بهم العطش فإذا بهاتف يهتف بهم ويقول :

يا أيها القوم لا ماء أمامكمُ حتى تسوموا المطايا يومها التّعبا
ثم اعدلوا شامةً فالماء عن كثَب عين رواء وماء يذهب اللّغبا[1]
حتى إذا ما أصبتم منه ريكمُ فاسقوا المطايا ومنه فاملأوا القرَبا

فعدلوا شامة فإذا هم فى عين خرارة فى أصل جبل فشربوا وسقوا إبلهم وحملوا ريهم حتى أتوا عكاظ ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع فلم يروا شيئا وإذا بهاتف يقول :

يا مال عنى جزاك الله صالحةً هذا وداعٌ لكم منى وتسليمُ
لا تزهدنْ فى اصطناع الخير مع أحدٍ إن الذى يحرم المعروف محروم
من يفعل الخير لا يعدم مغبته ما عاش والكفر بعد الغب مذموم

(١) الشامة ضد اليمنة ، والرواء الكثير المروى ، واللغب : تعب المسير ، والكثب بالتحريك : القرب

أنا الشجاع الذى أنجيت من رهق   شكرت ذلك إن الشكر مقسوم

فطلبوا العين فلم يجدوها . وعن رقاد بن زياد قال : حملت ظبيـاً جنحَ الليل فبات عندى فسمعت هاتفاً يهتف من الليل و يقول :

أيا طلحةَ الوادى ألا إنَّ شاتنا   أصيبت بليل وهى منك قريب

أحسى لنا من بات يحتلّ فرقنا   له بهليع الوّادِ بَيْن دبيب

قال فبشكتها أى أطلقتها . قال وسألته عن هليع الوادى فقال أسفله والفرق من الظباء مثل القطيع من الغنم انتهى والديك والغراب والحمام طيور معلومة والورل تقدم معناه « وأما ساق حر » فهو بالسين المهملة و بالقاف بينهما ألف وحر بالحاء والراء المهملتين الورشان وهو ذكر القمارى لا يختلفون فى ذلك . قال الكميت :

تغريد ساق على ساق يجاوبها   من الهواتف ذات الطوق والعطل

عنى بالأول الورشان و بالثانى ساق الشجرة . وقال حميد بن ثور الهلالى :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامةٌ   دعت ساقَ حر ترحةً وترنما

مطوقة غراء تسجع كلما   دنا الصيف وانجال الربيع فأنجما

محلاة طوق لم تكن من تميمة   ولا ضرب صواغ بكفيه درهما

تغنت على غصن عشاء فلم تدع   لنائحة من نوحها متألما

إذا حركته الريحُ أو مال ميلة   تغنت عليه مائلا ومقوما

عجبتُ لها أنى يكون غناؤها   فصيحاً ، ولم تفغر بمنطقها فما؟ (١)

فلم أرَ مثلى شاقه صوت مثلها   ولا عربياً شاقه صوتُ أعجما

قال ابن سيده : إنما سمى ذكر القمارى ساق حر لحكاية صوته فإنه يقول : ساق حر ساق حر وقد وهم ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة حيث قال : ساق حر هو الهديل فإن الهديل طائر آخر ففى حياة الحيوان الهديل ذكر الحمام . قال جران العوْد :

---

(١) فغر فاه : فتحه ويعنى بالمنطق بكاءها

كأن الهديلَ الظالعَ الرجلِ وسطَها من البغى شِرِّيب يغرِّدُ مُنزِفُ (١)

والهديل صوت الحمام يقال هدل القمرى يهدل هديلا ، والهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من الطير فليس من حمامة إلا وتبكى عليه إلى يوم القيامة . قال نصيب :

فقلت : أتبكى ذات طوق تذكرت هديلاً وقد أودى وما كان تُبَّعُ ؟

يقول لم يخلق تبع بعد انتهى . وقال ابن قتيبة فى (كتاب أدب الكاتب) : العرب تجعل الهديل مرةً فرخاً تزعم الأعراب أنه كان على عهد نوح فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه . قال الكميت فى هذا المعنى :

وما من تهتفين به لنصر بأقرب جابةً لك من هديلِ

ومرةً يجعلونه الطائر نفسه قال جِران العوْد « كأن الهديل الظالع الرجل » البيت السابق ، ومرةً يجعلونه الصوت قال ذو الرمّة :

أرى ناقتى عند المحصَّبِ شاقها رواح اليمانى والهديل المرجَّعُ (٢)

انتهى . وهذا بعين ما فى حياة الحيوان . وفى كتاب لب لباب لسان العرب عند شرح قول كعب بن سعد الغنوى :

فإنك واللوم الذى ترجعينه علىّ وما لوّامة بِمَقُولِ

كداعى هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هَديلِ

الهديل . فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة إلا وتبكى عليه وأنشد بيت الكميت السابق ذكره ، ومثل

---

(١) شبه الهديل فى تغنيه وتمايله من المرح بسكير قد سكر فهو يتغنى ؛ والمنزف السكران ويروى بفتح الزاى وكسرها لانه يقال انزف الرجل اذا سكر ونزفه السكر وانزفه (٢) المحصب موضع رمى الجمار بمكة ، يقول : لما رات ناقتى اهل اليمن يروحون الى بلادهم عند انقضاء الحج والابل ترجع هديلها — حنت الى وطنها ، وذكر ناقته انما يريد نفسه ولم يرد باليمانى رجلا واحدا من أهل اليمن انما أراد جميع من كان بمكة من اهل اليمن ، والهديل يكون للابل ويكون للحمام أيضا

ذلك مانقلناه سابقاً عن ابن هشام . ولعل شارح نهج البلاغة اعتبر اعتباراً آخر أو ثبت عنده عن أهل اللغة ماقرره .

(ومن مذاهبهم) أنهم يعتقدون أن السفعة نظرة الجن والمسفوع المعيون وأصابته سفعة أى عين والعين عينان عين إنسية وعين جنية ولبعضهم :

وقد عالجوه بالتمائم والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس[1]

وقالوا أصابته من الجن أعين ولو علموا داووه من أعين الإنس

وقد صح عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال : استرقوا لهـا فإن بها النظرةَ . والسفعة النظرة من الجن يقال بها عين أصابتها من نظر الجن وهى أنفذ من أسنة الرماح . وعن أبى عبيدة يقال رجل معين للذى أصابته عين ورجل معيون للذى به منظر ولا مخبر له .

ومن مذاهب العرب أن لكل شاعر شيطانا يلقى إليه الشعر

وهذا مذهب مشهور بين العرب فى الجاهلية ، والشعراء كافةً عليه قال بعضهم :

إنى وإن كنت صغيرَ السنّ فإن فى العين نبوًّا عنى

فإن شيطانى أميرُ الجن يذهب بى فى الشعر كلَّ فن

وقال حسان بن ثابت :

إذا ما ترعرع فينا الغلامُ فما إنْ يقال له : من هُوَهْ[2]

إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ فذلك فينا الذى لاهوهْ

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هوهْ[3]

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) واسم شيطان المُخَبَّل (عمرو) قال الأعشى :

---

(١) النكس : عود المريض بعد النقه (٢) ترعرع : قارب الحلم ، وفينا اى بيننا ، وادخل فى (هوه) هاء السكت كما فى قوله تعالى (ماهيه . وعاليه . وسلطانيه) (٣) الشيصبان : قبيلة من الجن على زعمهم

دعوت خليلى مسحلًا ودعوا له جُهنّام جَدْعاً للهجين المذمم[١]

وقال آخر :

لقد كان جنّىّ الفرزدق قدوة ولا كان فينا مثل فحل (المخبّلِ)

ولا فى القوافى مثل (عمرو) وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل (مسحل)

وقال أبو النجم :

إنى وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانُهُ أنثى وشيطانى ذَكَرْ

وفى كتاب (آكام المرجان) ماحاصله : يقال للشعراء كلاب الجن . قال عمرو ابن كلثوم فى معلقته :

وأنزلنا البيوت بذى طُلوح إلى الشامات ننفى الموعدينا

وقد هَرّتْ (كلابُ الجن) منا وشذبنا قتادة من يلينا[٢]

يقول أنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذى طلوح إلى الشامات ننفى من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا وقد لبسنا الأسلحة حتى شرعت الشعراء يذكروننا وقد كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا وذلك لزعمهم أن الشياطين تلقى الشعر على أفواههم وسموا الملقى تابعاً ورئيًّا قال جرير : « إنى ليلقى علىَّ الشعر مكتهل . من الشياطين » البيت . ووسموا توابعهم بأعلام قالوا كان للأعشى مسحل ولفرو ابن قطن جهنام ولبشار سنقناق ويقال للخلعاء والمجان جند إبليس . قال الشاعر :

وكنتُ فتى من جندِ إبليسَ فارتقتْ بىَ الحالُ حتى صار إبليس من جندى

ويقال للشعر رقى الشياطين . قال جرير :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

وكذلك كلمات الخلابة[٣] ونحوها قال الشاعر :

---

(١) جهنام بضم الجيم والهاء تابعة الاعشى اى شيطانه ، والهجين : اللئيم ، والجدع : القطع (٢) وفى رواية كلاب الحى بدل كلاب الجن وعلى هذه الرواية فلا شاهد فيه (٣) الخداع .

ماذا يظن بسلمى إذ يُلمُّ بها   مرجّل الراس ذو بُرْدين أوصاح[1]
خزٌ عمامته حلوٌ فكاهته   فى كفه من رقى الشيطان مفتاح

انتهى بزيادة بعض توضيح . وكثير من شعر العرب يدل على هذا المذهب وفيه حكايات عجيبة ذكرها الثقات من رواة الأخبار .

قصة عجيبة وفيها ذكر مسحل هاجس الأعشى

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى بسنده قال : حدث جرير ابن عبد الله البجلى الصحابى قال : سافرت فى الجاهلية فأقبلت ليلة على بعيرى أريد أن أسقيه ماء فلما قربته من الماء فإذا قوم مشوهون عند الماء فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشد تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعر . ثم قالوا : يا أبا فلان أنشد هذا فإنه ضعيف . فأنشد :

ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ   وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ ؟

فوالله ما خرم منها بيتاً حتى أتى على آخرها . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا أقولها ! قلت : لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى قيس بن ثعلبة أنشدنيها عام أول بنجران ! قال : إنك صادق أنا الذى ألقيتها على لسانه وأنا (مسحل) ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس . وروى صاحب الأغانى أيضاً بسنده عن الأعشى قال : حدث الأعشى عن نفسه قال : خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت فضللت فى أوائل أرض اليمن لأنى لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل فأصابنى مطر فرميت ببصرى أطلب مكاناً ألجأ إليه فوقعت عينى على خباء من شعر فقصدت وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت عليه فرد علىّ السلام وأدخل ناقتى خباء آخر كان بجانب البيت فحططت رحلى وجلست . فقال : من أنت ؟ وأين تقصد ؟ قلت : أنا الأعشى أقصد قيس بن معد يكرب . فقال :

---

(١) يلم بها اى يجتمع ، ومرجل الراس مسرح الراس وممشطه

حياك الله أظنك امتدحته بشعر ، قلت : نعم . قال : فأنشدنيه فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سميةُ غدوة أجمالها غضباً عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال : حسبك أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم . قال : من سمية التي تنسب بها ؟ قلت : لا أعرفها وإنما هو اسم ألقي في روعي . فنادى : يا سمية اخرجي ، وإذا جارية خماسية قد خرجت فوقفت وقالت : ما تريد يا أبت ؟ قال : أنشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معد يكرب ونسبت بك في أولها فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها حرفاً فلما أتمتها قال انصرفي . ثم قال : هل قلت شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم كان بيني وبين ابن عم لي يقال له يزيد بن مسهر يكنى أبا ثابت ما يكون بين بني العم فهجاني وهجوته فأفحمته . قال : ماذا قلت فيه ؟ قال : قلت :

ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تُطيق وداعاً أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال . حسبك . من هريرة هذه التي نسبت فيها ؟ قلت : لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها . فنادى : يا هريرة فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت . فقال : أنشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها أبا ثابت يزيد ابن مسهر فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً — فَسُقِطَ في يدي وتحيرت وتغشتني رعدة . فلما رأى ما نزل بي قال : ليفرخ روعك يا أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسي ورجعت إليّ وسكن المطر فدلّني على الطريق وأراني سمت مقصدي وقال : لا تعج يميناً ولا شمالا حتى تقع ببلاد قيس . وروى صاحب الأغاني أيضاً ، أن الأعشى قال هذه القصيدة ليزيد بن مسهر أبي ثابت الشيباني . قال أبو عبيدة : وكان من حديث هذه القصيدة أن رجلًا من بني كهف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة يقال له ضبيع قتل رجلا من بني همام يقال له زاهر بن سيار بن أسعد بن همام

وكان ضبيع مطروفاً ضعيف العقل فهاهم يزيد بن مسهر وهو من بنى ثعلب ابن أسعد بن همام أن يقتلوا ضبيعاً بزاهر وقال : اقتلوا به سيداً من بنى سعد بن مالك ابن ضبيعة فحض بنى سيار بن أسعد على ذلك وأمرهم به فبلغ بنى قيس ما قاله فقال الأعشى هذه القصيدة فى ذلك يأمره أن يدع بنى سيار و بنى كهف ولا يعين بنى سيار فإنه إن أعانهم أعانت قبائل بنى قيس بنى كهف وحذره أن يلقى بنو سيار منهم ما قالوا يوم العين عين محلم بهجر . وكان من حديث ذلك اليوم كما زعم عمر ابن هلال أحد بنى سعد بن قيس بن ثعلبة أن يزيد بن مسهر كان خالع أصرم ابن عوف بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة فلما خلع يزيد بن مسهر أصرم من ماله خالعه على أن يرهنه بنيه أقلب وشهابا ابنى أصرم وأمهما فطيمة بنت شرحبيل ابن عوسجة بن ثعلبة بن سعد بن قيس وأن يزيد قمر أصرم فطلب إليه أن يدفع إليه ابنيه رهينة فأبت أمهما ذلك فنادت قومها فحضر الناس واشتملت فطيمة على ابنيها بثوبها ودافع قومها عنهما وعنها . فذلك قول الأعشى :

نحن الفوارس يوم العين ضاحية   جنبى فطيمة لا ميــلٌ ولا عُزل[1]

قال : فانهزم بنو سيار فحذر الأعشى يزيد بن مسهر مثل تلك الحالة قال أبوعبيدة وذكر عامر ومسمع عن قتادة الفقيه أن رجلين من بنى مروان تنازعا فى هذا الحديث فجردوا رسولًا فى ذلك إلى العراق حتى قدم الـكوفة فأخبر أن فطيمة من بنى سعد بن قيس وأنها كانت عند رجل من بنى سيار وله امرأة غيرها من قومه فتعايرتا فعمدت السيارية فحلقت ذوائب فطيمة فاهتاج الحيان فاقتتلوا فهزمت بنو سيار يومئذ .

::::::::::::::::::::::::

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث

وفيه تتمة البحث مما كان يعتقده بعض العــرب من النكت

---

(١) الميل جمع اميل وهو من يميل على السرج فى جانب ومن لاترس معــه ولا سيف ولا رمح والجبان ، والعزل جمع اعزل وهو الذى لا سلاح معه . .

أنظر الفهارس

ثلاثة فهارس

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

الفهرس الأول

فى موضوعات الكتاب

﴿ انظر الفهرس الثانى ﴾

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ن)

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل

تمت الفهارس الثلاثة

بلوغ الأرب

في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سبق فى اواخر الجزء الثانى من هذا الكتاب نبذة مما كان يعتقده بعض العرب من النكت المتعة ولم نستوف ذكرها هناك لملاحظة ان يخرج حجم الجزء عن مشاكلة امثاله فاقتضى ايراد تتمة ذلك البحث فى هذا المقام حرصا على ما انطوى عليه من الادب فنقول متمسكين بحبل التوفيق .

ما ثبت عنهم فى الغائب اذا لم يقفوا على خبره

كانوا اذا غُمَّ[1] عليهم أمر الغائب ولم يَعْرِفوا له خبراً جاءوا الى بئر عادية (أى مظلمة بعيدة القعر وبالتشديد منسوبة الى عاد كناية عن قدمها) أو جاءوا إلى حفر قديم ونادوا فيه : يا فلان ، أو يا أبا فلان ثلاث مرات ويزعمون أنه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً وإن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهماً أو سمعوه من الصدى فبنوا عليه عقيدتهم . قال بعضهم :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوةً فما آضَ صوتى بالذى كنتُ داعيا

أظنُّ أبا المغوار فى قعر مظلم تجر عليه الذارياتُ السوافيا[2]

ومعنى آض : رجع . وقعر مظلم : كناية عن القبر . وقال آخر :

وكم ناديته والليل ساجٍ[3] بعاديِّ البِئار فما أجابا

وقال آخر :

ألم تعلمى أنى دعوت مجاشعاً من الحفر والظلماء باد كسورُها

فجاوبنى حتى ظننت بأنه سيطلع من جَوْفاء صعب حدورُها

(١) بالبناء للمفعول اى خفى . (٢) الذاريات : الرياح الهائجة والسوافى جمع سافية وهى هنا التراب .

(٣) يقال سجا الليل يسجو سجوا : اى سكن . ومنه قوله تعالى : والليل اذا سجا . قال الزجاج وابن الاعرابى : اى سكن . وقال الفراء : سجا الليل ركد واظلم ومعنى ركد سكن . وفى المصباح : سجا الليل ستر بظلمته .

لقد سكنت نفسي وأيقنت أنه سيقدم والدنيا عُجابٌ أُمورها

والكسور : الأرض ذات صعود ونزول . والجوفاء : شجرة ذات جوف وأراد بها البئر التي صاح ونادى فيها . ومعنى حدورها : الانحدار إليها وقال آخر :

دعوناه من عادية نَضْبَ ماؤها وهدم جاليها اختلافُ عصورِ

فرد جواباً ماشككْتُ بأنه قريبٌ إلينا بالإيابِ بصيرُ[1]

أقوى[2] في البيت الثاني وسكن (نضْب) ضرورة كما قال « لو عُصر منه البانُ والمسك انعصرْ »[3] ومعنى جاليها : جوانبها . وقال آخر :

غاب فلم أرج له إيابا والحفر لا يرجع لي جوابا

وما قرأت مذ نأى كتابا حتى متى استنشد الركابا

* عنه وكل يمنع الخطابا *

(ومن مذاهب العرب وأعاجيبها) أنهم كانوا في الحرب ربما أخرجوا النساء فبلْنَ بين الصفّين يرون أن ذلك يطفيء نار الحرب و يقودهم إلى السلم . قال بعضهم:

لقونا بأبوال النساء جهالةً ونحن نلاقيهم ببيضٍ قواضبِ

والبيض : السيوف . والقواضب : القاطعات . وقال آخر :

---

(١) نضب الماء نضوبا من باب قعد : غار في الارض ، وينضب بالكسر لغة. وسكن الضاد للضرورة ومن هذا القبيل الشاهد الذي أورده الاستاذ . والاياب : الرجوع . (٢) اقوى : اى خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر . والاقواء من عيوب القافية ، ماخوذ من قولهم حبل قو بمعنى مختلف القوى اى الطاقات من عدم احكام فتله بان تفتل احدى الطاقتين على اليمين والاخرى على اليسار ثم اذا جمعت بينهما لا ينفتل هذا الحبل للمخالفة بل ينفك . سمى العيب المذكور بذلك لما فيه من المخالفة بين القافيتين او ماخوذ من قولهم : اقوى الربع اذا تغير وخلا عن سكانه لان الروى تغير وخلا عن حركته الاولى .. وقلت قصيدة لشعراء الجاهلية ينشدونها بلا اقواء ثم لا يستنكرونه لانه لا يكسر الشعر وايضا فان كل بيت منها كانه شعر على حياله ، كذا في التاج . ولنا هنا بحث لا يسعه مثل هذا المقام وتجده في كتابنا (العروض والقوافي) . (٣) هذا الشطر لابى النجم العجلى وقبله :

كانما في نشرها اذا نشر فغمة روضات تردين الزهر

هيجها نفح من الطل سحر وهزت الريح الندى حتى قطر

قال البطليوسى : ويروى (لو عصر منها) فمن انث الضمير اعاده على المراة التى تغزل بها . ومن ذكر الضمير اعاده على الفرع المذكور قبل هذا البيت في قوله :

بيضاء لا يشبع منها من نظر خود يغطى الفرع منها المؤتزر

بالتْ نساء بنى خراشةَ خيفة   منّا وأدبرتِ الرجالُ شلالا[١]

وقال آخر :

بالت نساؤهم والبيض قد أخذت   منهم مآخذ يستشفى بها الكلب[٢]

وهذان البيتان يمكن أن يراد بهما أن النساء بُلْنَ خفيفة وذعراً لا على المعنى الذى نحن فى ذكره فحينئذ لا يكون فيهما دلالة على المراد .

وقال الآخر :

هَيْهاتَ رد الخيل بالأبوال   إذا غدت فى صور السعالى[٣]

وقال آخر :

جعلوا السيوف المشرَفِيّةَ منهم   بول النساء وقل ذاك غناء[٤]

فأما مذهبهم فى الخرزات والأحجار والرقى والعزائم فمشهور

فمن خرزتهم (السُلوانة) ويقال لها السُّلْوَة وهى خرزة يسقى العاشق منها فيسلو فى زعمهم وهى بيضاء شفافة . قال الراجز :

لو أشرب السلوان ماسَليتُ   مابى غنى عنكم وإن غَنِيت

السلوان جمع سلوانة . وقال اللحيانى : السلوانة تراب من قبر يسقى منه العاشق فيسلو . قال عُروة بن حِزام[٥] :

---

(١) قال الزبيدى : ذهب القوم شلالا اى انشلوا مطرودين وجاؤا شلالا اذا جاء يطردون الابل والشلال القوم المتفرقون . قال ابن الدمينة :

أما والذى حجت قريش قطينه   شلالا ومولى كل باق وهالك

(٢) الكلب : داء يعرض للانسان من عض الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض احدا الا كلب وتعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . وزعمت العرب أن دواءوه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه ، ومنه يقال كلب الرجل اذا أصابه ذلك . (٣) هيهات : بعد . والسعالى جمع سعلاة وهى أخبث الغيلان وقيل نوع من المتشيطنة مغايرة الغول . وقد ذكرها العرب فى شعرهم كثيرا . وقال بعضهم : لم تصف العرب بالسعلاة الا العجائز والخيل . (٤) المشرفية بفتح الميم المنسوبة الى مشارف وهى قرى من ارض العرب تدنو من الريف ، وقيل هذا خطأ بل هى نسبة الى موضع من اليمن . (٥) هو أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى . قيل لا يعرف له شعر الا فى (عفراء) ابنة عمه عقال بن مهاصر . وفى الاغانى طرف من اخباره مع عفراء . وابياته هذه من قصيدة له رنانة ، ذكرها ابو على القالى البغدادى فى نوادره . (راجع ذيل الامالى والنوادر ص ١٥٩ من طبعة المطبعة الكبرى الاميرية سنة ١٣٢٤) .

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمه وعراف نجد إن هما شَفَيانى[١]
فقالا : نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العُوّادِ يبتدران
فما تركا من رُقْيةٍ يعرفانها ولا سلوةٍ إلا وقد سقيانى

وقال آخر :

سقونى سلوةً فسلوت عنها سقى الله المنيةَ من سقانى

أى سلوت عن السلوة واشتد بى العشق ودام . وقال الشمردلُ :

ولقد سُقيتُ بسلوة فكأنما قال المُداوى للخيال بها ازدد

ومن خرزاتهم (الهِنَمة) وهى خرزة يجتلب بها الرجال و يستعطف بها قلوبهم فيما يزعمون . ورقيتها : أخّذته[٢] بالهِنِمَّة ، بالليل زوج و بالنهار أمة ، ومنها (الفَطْسة والقَبَلة . والدردبيس) وكلها لاستجلاب قلوب الرجال . قال الشاعر :

جمّعْنَ من قَبَلٍ لهن وفَطْسةٍ والدردبيس تمائمًا فى المنظم[٣]
فانقاد كل مُشذّب مَرِسِ القُوى لحبالهنّ وكل جَلْد شَيْظَمِ[٤]

وقيل : الدردبيس خرزة سوداء يتحبب بها النساء إلى بعولتهن توجد فى القبور العادية ورقيتها : أخذْته بالدردبيس ، تدرُّ العرق اليبيس وتَذَرُ الجديد كالدريس[٥] . وأنشد :

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدردَبيس

وأصل الدرد يس فى اللغة الداهية ونقلت إلى هذه الخرزة لقوة تأثيرها بزعمهم . ومن خرزاتهم (القِرْزَحْلَةُ) أنشد ابن الأعرابى :

لا تنفع القِرْزَحْلةُ العجائزا إذا قطعنا دونها المفاوزا[٦]

---

(١) قال ابن خلدون : عراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف الابلق الاسدى . والعرافة : سيأتى الكلام عنها فى هذا الجزء (٢) اى رقيته . (٣) القبل : جمع قبلة والقبلة والفطسة خرزتان . والمنظم : الخيط ينظم الخرز فيه؛ وقوله « تمائما » يروى ايضا « مقابلا » .

(٤) المشذب : الشارد ، والمشذب الطويل الحسن الخلق . والمرس : الشديد المراس . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس (٥) الدريس : القديم البالى من الثياب (٦) المفاوز جمع مفازة وهى الموضع المهلك مأخوذ من فوز — بالتشديد — اذا مات لانها مظنة الموت وقيل من فاز اذا نجا وسلم وسميت به تفاؤلا بالسلامة

وهى من خرز الضرائر ، إذا لبستها المرأة مال إليها بعلها دون ضرتها .

ومنها خرزة (العُقرة) تشدها المرأة على حَقْوَيْها[1] فتمنع الحبل ذكر ذلك ابن السكيت فى (إصلاح المنطق) . ومنها (اليَنْجَلِبُ) ورُقيتها : أخذته باليَنجلب فلا يَرِمْ ولا يَغِب ، ولا يَزَل عند الطُنُب . ومعنى لا يرم لا يبرح من مكانه وذكر الأزهرى هذه الخرزة فى الرباعى قال : ومن خرزات الأعراب اليَنجلب وهو الرجوع بعد الفرار والعطف بعد البغض . ومنها (كَرَّار) مبنية على الكسر . ورقيتها : يا كَرَّار كُرِّيه إن أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبر فضُرِّيه ، من فرجه إلى فيِّه . ومنها (الهَمرة)[2] ورقيتها ياهمرةُ اهمريه ، من استه إلى فيه ، وماله وبنيه . ومنها (الخَصْمة) وهى خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم أو فى زر القميص أو فى حمائل السيف قال بعضهم :

يعلّق غيرى (خصمة) فى لقائهم   ومالى عليكم خصمة غير منطق

ومنها (الوجيهة) وهى كالخصمة حمراء كالعقيق . ومنها (العَطفة) وهى خرزة العطف ، والكَحْلة خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . والقبلة خرزة بيضاء تجعل فى عنق الفرس من العين . والفطسة خرزة يمرض بها العدو ويقتل . ورقيتها : أخذته بالفطسة ، بالثُؤبا[3] والعطسة ، فلا يزل فى تعسه ، من أمره ونكسه ، حتى يزور رمسه . . (ومن رقاهم للحب) هوابه هوابه[4] ، البرق والسحابة ، أخذته بمِرْكن[5] ، فحبه تمكن ، أخذته بإبره ، فلا يزل فى عَبْره ، جلبته بإشْفَى[6] فقلبه لا يهدأ ، جلبته بمِبْرد ، فقلبه لا يبرد . وترقى الفارك[7] زوجها إذا سافر عنها فتقول : بأفول القمر ، وظل الشجر ،

---

(١) الحقو : موضع شد الازار وهو الخاصرة . ثم توسعوا حتى سموا الازار الذى يشد على العورة حقوا والجمع أحق وحقى مثل فلس وافلس وفلوس

(٢) قال فى اللسان : الهمرة خرزة الحب يستعطف بها الرجال . يقال : ياهمرة اهمريه ، وياغمرة اغمريه ، ان اقبل فسريه ، وان ادبر فضريه .

(٣) الثؤباء بالمد فترة تعترى الشخص فيفتح عندها فمه . وهى هنا بالقصر مراعاة لوزن المنهوك (التاج) . (٤) الهوابة : النار الملتهبة والشمس المتوهجة . « عن كتاب المراة العربية للعفيفى » (٥) المركن : اجانة تغسل فيها الثياب ونحوها . (٦) الاشفى : بالكسر والقصر ، المثقب يكون للاساكفة .

(٧) الفارك : المراة التى تبغض زوجها .

شمال تشمله[١] ، ودَبُور تدبره[٢] ونكباء[٣] تنكبه ، شيكَ فلا انتقش[٤] .
ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة . وتقول : حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعته[٥] ببعره . . وقالت فارك فى زوجها — والفارك هى المبغضة لزوجها :

أتبعته إذ رحل العيس ضحى بعد النواة روثة حيث انتوى
* الروث للريث وللنأى النوى[٦] *

وقال آخر :

رمت خلفه لما رأت وشك بينه نواةً تلتْها روثة وحصاةُ
وقالت : نأت منك الديار فلا دنت وراثت بك الأخبار والرجعات[٧]
وحصت لك الآثار بعد ظهورها ولافارق الترحالَ منك شتات

وقال آخر يخاطب امرأته :

لاتقذفى خلفى إذا الركب اغتدى روثة عير وحصاة ونوى
لن يدفعَ المقدار أسباب الرقى ولا التهاويل على جنّ الفلا[٨]

هذا الرجز أورده الخالع فى هذا المعرض وهو بأن يدل على عكس هذا المعنى أولى لأن قوله :

لن يدفع المقدار أسباب الرقى ولا التهاويل على جنّ الفلا

كلام يشعر بأن قذف الحصاة والنواة خلفه كالعوذة له لا كما تفعله الفارك

---

(١) الشمال : الريح تقابل الجنوب . (٢) الدبور : وزان رسول ريح تهب من جهة المغرب تقابل الصبا ، ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحوالمشرق . وفى الحديث : نصرت بالرعب واهلكت عاد بالدبور . (٣) هى ريح انحرفت ووقعت بين ريحين او بين الصبا والشمال .
(٤) الانتقاش : استخراج الشوك من الرجل ومنه حديث ابى هريرة(ض) : واذا شيك فلا انتقش اى دخلت فيه الشوكة فلا خرجت وهو دعاء عليه .
(٥) كذا ويظهر ان فى العبارة سقطا . (٦) انتوى : قصد ، والريث : الابطاء ، والنأى : البعد . (٧) رثت : ابطأت
(٨) التهاويل جمع تهويل وهو ما هول به الانسان . والفلا : جمع فلاة وهى الارض التى لا ماء فيها ، والعير : الحمار وغلب على الوحشى .

التى تتمنى الفراق . وقد أبطل الشرع ذلك كله والأحجار لاتنفع ولا تضر فى مثل ماسبق من الأمور . ومثل ذلك النشر والتمائم ، ففى سنن أبى داود عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال سألنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن النُشرة فقال : هى من عمل الشيطان . والنشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مسّ الجن . وقيل سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه أى يحل عنه ماخامره من الداء . وعن الأصمعى قال : النشرة من السحر . وأنشد من قول جرير :

أدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنّ به مسًّا من الجنّ أو ريحًا من النَّشَر

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما أبالى ما أتيت إن أنا شربت ترياقًا أو تعلقت تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسى قال الخطابى : ليس شرب الترياق مكروهاً من أجل أن التداوى محظور ، وقد أباح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التداوى والعلاج فى عدة أحاديث ولكن من أجل مايقع فيه من لحوم الأفاعى وهى محرمة . والترياق أنواع فإذا لم يكن فيه لحوم الأفاعى فلا بأس بتناوله والله أعلم . والتميمة يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، واعتقاد هذا الرأى جهل وضلال إذ لامانع ولا دافع غير الله سبحانه ، ولايدخل فى هذا التعوذ بالقرآن والتبرك والاستشفاء به لأنه كلام الله سبحانه ، والاستعاذة به ترجع إلى الاستعاذة بالله سبحانه . . ويقال بل التميمة قلادة تعلق فيها العوذ . قال أبو ذُؤَيْب :

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفع[1]

---

(١) البيت من شواهد التلخيص ؛ والشاهد فيه الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فهو هنا شبه فى نفسه المنية بالسبع فى اغتياله النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم فأثبت لها الاظفار التى لايكمل الاغتيال فى السبع بدونها تحقيقا للمبالغةفى التشبيه فتشبيهالمنية بالسبعاستعارة بالكناية واثباتالاظفار لها استعارةتخييلية . والبيتمن قصيدة لابى ذؤيب ـ واسمه خويلد بن خالد بن محرث بن ربيد (بالراء المهملة) بن مخزوم ، ينتهى نسبه لنزار ـ قالها وقد هلك له خمس بنين فى عام واحد وكانوا فيمن هاجر الى مصر فرثاهم بهذه القصيدة واولها :

وقال آخر :

بلادٌ بها عقّ الشباب تميمتي[1] وأول أرض مسّ جلدى ترابها

وقد قيل إن المكروه من العوذ هو ما كان بغير لسان العرب فلا يفهم معناه ولعله قد يكون فيه سحر ونحوه من المحظور وتمام الكلام فى الرقى والتعاويذ يطلب من كتب العقائد ونحوها والله أعلم .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الوشم

وهو على ماذكره أهل اللغة أن يغرز فى العضو إبرة[2] ونحوها حتى يسيل الدم ثم يُحْشَى بنورة[3] أو نحوها فيخضر وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم أنواعا من النقوش من صور حيوانات وغيرها وكذلك الشفاه

امن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت امامة ما اجسمك شاحبا منذ ابنذلت ومثل مالك ينفع
ام ما لجسمك لا يلائم مضجعا الا اقض عليك ذاك المضجع
فاجبتها ارثى لجسمى انه اودى بنى من البلاد فودعوا
اودى بنى فاعقبونى حسرة عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كان حداقها كحلت بشوك فهى عورى تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب واخال انى لاحق مستتبع
سبقوا هوى واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولقد حرصت بان ادافع عنهم فاذا المنية اقبلت لا تدفع
واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدى للشامتين اريهم انى اريب الدهر لا اتضعضع
حتى كانى للحوادث مروة بصفا المشرق كل يوم تقرع
والدهر لا يبقى على حدثانه جون السحاب له جدائد اربع

(١) يقال للصبى اذا نشامع حى حتى شب وقوى فيهم عقت تميمته فى بنى فلان والاصل فى ذلك ان الصبى ما دام طفلا تعلق امه عليه التمائم تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه . ووقع فى خطبة المطول للسعد (بلاد بها نيطت على تمائم) وما ذكره الاستاذ هو الأصح . راجع تاج العروس ج ٧ ص ١٨

(٢) الصواب ان يقال : (أن يغرز (أى ينخس العضو بابرة ونحوها الخ) .

(٣) كذا الصواب « ثم يحشى بنؤور أو نحوه » والنؤور كصبور النيلج ودخان الشحم وحصاة كالاثمد تدق فتسفها اللثة .

فترى شفاه غالب نسائهم زرقاً ، وأما الرجال فكانوا يستعملون الوشم فى بعض المواضع من الجسد يزعم أنه يقوى المفصل الذى وشم عليه . والأطفال منهم يوشمون فى بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة ، وهو مذهب باطل وعادة مستقبحة جداً فلذلك أبطلته الشريعة المحمدية لما فيه من تغيير خلق الله . فنى الحديث : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . والمتنمصات جمع متنمصة . وحكى ابن الجوزى : متنمصة وهى التى تطلب النماص والنامصة هى التى تفعله والنماص إزالة شعر الوجه بالمنقاش ويسمى المنقاش نماصاً لذلك وهى حديدة يؤخذ بها الشعر ويقال إن النماص مختص بإزالة الشعر من الحاجبين ليرققها أو ليسويهما . والمتفلجات جمع متفلجة والفلج تباعد ما بين الثنايا والرباعيات بمبرد ونحوه والحاصل أن كل مافيه تغيير خلق الله حرام .

ومن مذاهبهم النياحة على الهالك منهم والندب ونحو ذلك

كان العرب فى الجاهلية يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم إذا ماتوا وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم وهو موجود فى شعرهم كقول طَرَفة بن العبد :

فإنْ مُتُّ فانْعيني بما أنا أهْلُهُ   وشُقِّي عَلَيَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ (١)

وقال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

تمنّى ابنتاىَ أن يعيشَ أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ؟ (٢)

فقوما وقولا بالذى تعلمانه   ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تحلقا شعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا صديقَهُ   أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

---

(١) النعى : اشاعة خبر الموت . والجيب من القميص هو الذى يدخل منه الراس . وابنة معبد : ابنة اخيه معبد . (٢) قال السيد المرتضى فى اماليه : اراد هل انا الا من احد هذين الحيين فسبيلى ان افنى كما فنيا وانما حسن ذلك لان قصده الذى اجرى اليه وغرضه الذى نحاه هو ان يخبر بكونه ممن يموت ويفنى ولا يخل به اجمال ما اجمل من كلامه فاضرب عن التفصيل لانه لا فائدة فيه ولانه سواء كان من ربيعة او مضر فموته واجب ...

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر[1]

وبعد وفاته كانتا تلبسان ثيابهما فى كل يوم وتأتيان مجلس جعفر بن كلاب قبيلته فترثيانه ولا تعولان فأقامتا على ذلك حولاً كاملا ثم انصرفتا . ومعنى قوله : وهل أنا الخ أن جميع آبائى من ربيعة أو مضر قد ماتوا ولم يسلم أحد منهم من الموت فكذلك أنا لابد لى من الموت .، وإنما قال إلى الحول لأن الزمان ساعات وأيام وجمع وشهور وسنون والسنون هى النهاية فالحول والسنة مدة هى نهاية الزمان فى التقسيم إلى أجزائه ويمكن أن يكون ذلك لما روى فى بعض الآثار أن أرواح الموتى لا تنقطع من التردد إلى منازلهم فى الدنيا إلى سنة كاملة فكأنه إنما أمرهما بما ذكر من الذكر والدعاء وغير ذلك ليشاهد ذلك منهما . ولذلك قال ومن يبك حولا الخ . وقال بعضهم إنما وقّت بالحول لأنه مدة عزاء الجاهلية وهذا لا يصح هنا لأن قائله صحابى ومثل هذا كثير فى أشعارهم وقد أبطلت ذلك الشريعة . وفى الحديث : إن الميت ليعذب ببكاء أهله . قال أهل الحديث : الميت إنما تلزمه العقوبة فى ذلك بما تقدم من أمره إياهم بذلك وقت حياته وإن لم يأمرهم لا يلحقه عقوبة (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) والوزر إنما هو على من ناح وأظهر الجزعَ من تلقاء نفسه . وفى الحديث : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » . والصالقة : هى التى ترفع صوتها بالنياحة . والحالقة : هى التى تحلق شعرها عند المصيبة . وفى الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت : « أخذ علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(١) هذا البيت يورده بعض النحاة على ان لفظ (اسم) مقحم . قال ابن جنى : هذا قول ابى عبيدة ، وكذلك قال فى بسم الله . ونحن نحمل الكلام على ان فيه محذوفا ، قال ابو على : وانما هو حد حذف المضاف اى ثم اسم معنى السلام عليكما واسم معنى السلام هو السلام وكأنه قال ثم السلام عليكما فالمعنى لعمرى ما قاله ابو عبيدة لكنه من غير الطريق التى اتاه هو منها ! الا تراه هو اعتقد زيادة شىء واعتقدنا نحن نقصان شىء ؟

وسلم فى البيعة أن لا ننوح » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة يرفعه : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب والنياحة على الميت » . والنياحة : رفع الصوت بالندب . والنــدب : تعديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت وقيل هو البكاء مع تعديدها وأما البكاء على الميت لرقة ورحمة خاليا عما ذكر فلا محذور فيه فإن الله تعالى أودع الرحمة فى قلوب عباده و إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

(ومن عوائدهم فى هــذا الباب) ما حكاه الأصمعى قال : كانت العرب إذا مات فيهم ميت له قدر ركب راكب فرسا وجعل يسير فى الناس ويقول : نعاء فلانا أى انعه وأظهر خبر وفاته وهى مبنيــة على الـكسر مثل نزال وعلى ذلك قول المتنخل الهذلى :

أقول لما أتانى الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل
رمح لنا كان لم يفلل ننوء به توقى به الحرب والضراء والجلل
رَبَّاء شَمَّاء لا يأوى لقُلَّتِها إلا السحابُ و إلا الأوْبُ والسَّبَلُ[1]

أى هو رباء لأصحابه بالهمز إذا صار ربيئة لهم أى طليعة فوق شرف وموضع مرتفع والشماء مؤنث أشم من الشمم وهو الارتفاع أراد هضبة شماء فحذف الموصوف بدليل القلة وهى رأس الجبل . والهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض . ومن المعلوم أيضا أن التى لا يأوى إلى قلتها إلا السحاب والمطر لا تكون إلا هضبة . والأوب قال الخوارزمى : هو المطر لأنه بخار ارتفع من الأرض ثم آب إليها أى رجع ولذلك سمى رجعا فسموه أوباً ورجعاً تفاؤلا ليرجع ويثوب . وقيل لأن الله تعالى يرجعه وقتا فوقتا و إليه ذهب صاحب الـكشاف عند قوله تعالى (والسماء ذات الرجع) وأنشد هذا البيت على أن المطر يسمى رجعا كما فى الآية وأوباً

(١) هذا الشعر من قصيدة طويلة يرثى بها ابنه أثيلة (مصغرا) قتلتــه بنو سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر . راجع الاغانى ج ٢٠ ص ١٤٥ من طبعة الساسى . وقوله : ذوالنصلين، النصل حديدة السهم والنصلان مثنى عبارة عن النصل والزج . ومعنى تنوء : تنهض . والجال محركة الامر العظيم والصغير ضد والمراد هنا الأول .

كما في البيت تسمية بمصدرى رَجَع وآبَ ، وذلك أن العرب كانت تزعم أن السحاب يحمل الماء من البحر ثم يرجعه إليه . والسبَل بفتحتين المطر المنسبل أى النازل .

(ومن مذاهبهم) أنهم يقولون الميت إذا مات لا تبعد : قالت الخِرْنِقُ(١) :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ سُمُّ العُـداةِ وآفةُ الجُزْرِ
النازلينَ بكلّ مُعْتَرَكٍ والطيبونَ معَاقِدَ الأُزْرِ

وفى كتاب اللب : أن العرب قد جرت عادتهم باستعمال هذه اللفظة فى الدعاء للميت ولهم فى ذلك غرضان . أحـدهما : أنهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته وقد بين هذا المعنى زهير بن أبى سُلمى بقوله :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسُهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزلْ نجوم السماء والأديم صحيح

يريد أنهم يقولون مات حصن ثم يستعظمون أن ينطقوا بذلك و يقولون كيف يجوز أن يموت والجبال لم تنسف والنجوم لم تنكدر والقبور لم تخرج موتاها وجرم العالم صحيح لم يحدث فيه حادث . والغرض الثانى : أنهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته ألا ترى إلى قول الشاعر :

فأثنوا علينا (لا أبا لأبيكم) بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر يرثى يزيد بن الشيبانى :

فإن تك أفنته الليـالى فأوشكت فإن له ذكراً سيفنى اللياليا

---

(١) هى بنت بدر بن هنـان بن مالك وهى اخت طـرفة لامه . . وهذان البيتان أوردهما سيبويه فى باب الصفة المشبهة : قال الاعلم ، الشاهد فيـه (اى البيت الثانى) نصب معاقد الازر بقولها الطيبون تشبيها بالمفعـول به لانه معرفة باضافته الى الازر فهو كقولك الحسنون اوجه الاخ . وصفت قومها بالظهور على العدو ونحر الجزر للاضياف والملازمة للحرب والعفة عن الفواحش فجعلت قومها لاعدائهم يقضى عليهم ، وآفة للجزر لكثرة ماينحرون منها . والمعترك : موضع ازدحام فى الحرب . ويقال فلان طيب معقد الازار اذا كان عفيفا لا يحله لفاحشة .

وقال المتنبي وأحسنَ :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاتَهُ وفضول العيش أشغال[١]

وقد بين مالك بن الريب المزنى مافى هذا الحال من قصيدة تقدمت على غيرها :

يقولون لا تبعدْ وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا[٢]

وقال الفرار السلمى[٣] :

ما كان ينفعنى مقالُ نسائهم وقُتِلْتُ دون رجالهم لا تبعدِ[٤]

ومن مذاهبهم جز النواصى

كانت العرب إذا أنعمت على الرجل الشريف بعد أسره جزُّوا ناصيته وأطلقوه فتكون الناصية عند الرجل يفخر بها والنواصى جمع ناصية وهى الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة . قال بشر بن أبى خازم الأسدى :

وإذ جزت نواصى آل بدر فأدوها وأسرى فى الوثاق

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بُغاةٌ ما بقينا فى شقاق[٥]

وسبب هذا الشعر أن قوماً من آل بدر الفَزاريين جاوروا بنى لأم من طيّ فعمد بنو لأم إلى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا : قد مننَّا عليكم ولم نقتلكم

---

(١) قال ابن القطاع : صحف الرواة هذا البيت فرووه (فاته) بالفاء والصواب بالقاف وعليه فسر الواحدى فقال : اذا ذكر الانسان بعد موته كان ذلك حياة ثانية له وما يحتاج اليه فى دنياه قدر القوت وما فضل من القوت فهو شغل كقول سالم بن وابصة :

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

(٢) البيت من قصيدة له قالها وهو مريض يذكر مرضه وغربته . وقد اوردها القالى فى اماليه (ج ٣ ص ١٣٧) . (٣) اسمه حيان بن الحكم : حيان فعلان من الحياء . والسلمى منسوب الى سليم بالتصغير (٤) وقتلت دون رجالها جملة وقعت حالا وجملة لا تبعد وقعت مقول القول . يقول : ما ينفعنى ان يندبننى ويقلن لا تبعد وقد بعدت (٥) البغاء جمع باغ وهو الظالم من البغى وهو الطلب لانه يطلب ما ليس له بحق . والشقاق العداوة لان كل واحد من المتعاديين يفعل ما يشق على الآخر ، او من الشق بمعنى الجانب لان كل واحد يكون فى طرف غير طرف الثانى . وفى البيت شاهد العطف على محل اسم ان بعد مضى الخبر تقديرا .

و بنو فزارة حلفاء بنى أسد فغضب بنو فزارة لأجل ما صنع بالبدريين فقال بشر هذين البيتين من قصيدة يذكر فيها ما صنع ببنى بدر ويقول للطائيين فإذ قد جززتم نواصيهم فاحملوها إلينا وأطلقوا من قد أسرتم منهم وإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيكم ونطلبكم فإن أصبنا أحداً منكم طلبتمونا به فصار كل واحد منا يبغى صاحبه فنبقى فى شقاق وعداوة أبداً . . وربما جزت ناصية مطلق الأسير شريفاً كان أم لا ، وأخذ للافتخار والعرب متفاوتون فى المذاهب . وقال زهير من قصيدة مدح بها هرم بن سنان المرى أحد الأجواد فى الجاهلية :

حَدِبٌ على المولى الضريك إذا ... نابتْ عليه نوائبُ الدهْرِ
عظمت دسيعته وفضـله ... جزّ النواصى من بنى بدر
أيام ذبيان مراغمة ... فى حربها ودماؤها تجرى
ومُرَهَّق النيران يطعم فى ... اللأواء غير مُلَعَّنِ القِدْرِ

الحدب : المشفق . والمـولى : ابن العم . والضريك : الفقير المحتاج . والدسيعة : العطية الجزيلة . وجز النواصى تقدم معناه . وراغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . ومرهق النيران : أى تغشى ناره يقال رهقت الرجل إذا غشيته وأحطت به والمشدد للتـكثير : يصف أنه يوقد النار بالليل للطبخ وإطعام الناس وليعشو إليها الضيف والغريب . وكثرة النيران للأخبار عن سعة معروفة . واللأواء شدة الزمان والقحط . وقوله : غير ملعن القدر أى لا يؤكل ما فيها دون الضيف والجار واليتيم والمسكين فهو محمود القـدر لا مذمومها وأوقع اللعن على القدر مجازاً ، وهو يريد صاحبها . . وما أحسن قول الخنساء فى هذا الباب مفتخرة بقومهم على الأصحاب :

جَزَزْنَا نواصى فُرْسانهم ... وكانوا يَظُنُّونَ أن لا تُجَزّا
ومن ظنّ ممن يلاقى الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجزا[1]

---

(١) تقول : أن من دخل الحرب وقارع الابطال ؛ وظن انه لا يصاب بشىء فقد ظن ظنـا باطلا وسمته عجزا تجوزا .

نضيف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمد ذُخراً وكنزا
ونلبس فى الحرب سرد الحديد وفى السلم خزاً وعَصْباً وقزا[١]

ومن مذاهب العرب شد اللسان

كان من مذاهب العرب أنهم إذ أسروا أسيراً وكان شاعراً ربطوا لسانه بنِسعة وعلى ذلك قول عبد يغوث القحطانى الحارثى اليمنى من قصيدة :

أقول وقدشدوا لسانى بنسعةٍ : أمعشر تَيمٍ أطلقوا عن لسانيا
أمعشرتيمْ ٍقدملكتم فأسجحوا فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلونى تقتلوا بى سيداً وإن تطلقونى تحربونى بماليا

النسعة بكسر النون : سير منسوج . وأسجحوا بتقديم الجيم على الحاء المهملة بمعنى سهلوا ويسروا . والبواء : السواء أى لم يكن أخاكم نظيراً لى فأكون بواء له وتحربونى تسلبونى وتغلبونى . وبما ذكرنا من المذهب فسر البيت جمع وقالوا : إنهم شدوا لسانه بنسعة حقيقة وإليه ذهب الجاحظ فى البيان والتبيين والأصفهانى فى الأغانى وحكاه أيضاً ابن الأنبارى بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا سمعوه ينشد شعراً فقال أطلقوا لى عن لسانى أذم أصحابى وأنوح على نفسى . فقالوا : إنك شاعر ونحذر أن تهجونا فعاهدهم أن لا يهجوهم فأطلقوا له عن لسانه .

قال الجاحظ : وبلغ من خوفهم من الهجاء أن يبقى ذكرهم فى الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثى حين أسرته تيم يوم

(١) السرد : نسج الدرع واسم للدروع وسائر الحلق . والخــــز : قال الفيومى ، اسم دابة ثم اطلق على الثوب المتخذ من وبرها . والقزمعرب قال الليث هو ما يعمل منه الابريسم ولهذا قال بعضهم القز والابريسم مثل الحنطة والدقيق . والعصب : مثل فلس برد يصبغ غزلة ثم ينسج .

الـكلاب . وفى تفسير شد اللسان قول آخر وهو : إن هذا مثل وذهب إليه شراح أبيات الشعراء والقالى فى أماليه ، وحكاه ابن الأنبارى فى شرح المفضليات وقال : لأن اللسان لا يشد بنسعة وإنما أراد افعلوا بى خيراً لينطلق لسانى بشكركم وإنكم مالم تفعلوا فلسانى مشدود ولا أقدر على مدحكم . والوجه ماتقدم فإن الحقيقة هى الأصل !

ومن مذاهبهم خضاب النحر

كانت العرب فى الجاهلية تعيش فى الغالب بلحوم الصيد وكانت خيلهم لجودتها وعراقتها تسهل عليهم مايراه غيرهم من الصعوبة فى ذلك وتعينهم على نيل مقاصدهم فكانت عندهم من أعز الأموال ، تلحظ لديهم كما يلحظ العيال ، وكان السابق منها يرفع له فى الفخر رايات ، وتوضع عليه لأجل المباهاة علامات ، ولذلك كان من ديدنهم وعوائدهم أنهم إذا ساقو الخيل على الصيد وأغاروها نحوه فالسابق على غيره فى الوصول إليه يخضبون نحره بدم ما يمسكونه من الصيد علامة على كونه لايدرك فى الغارات ، وأنه سباق غايات ، وقد بطلت بعد ظهور الإسلام هذه العادة ولم يعرفها سكان البوادى من العرب اليوم ، غير أن لأعراب الحجاز عادةً قريبة من ذلك وهى أنهم إذا نزل بهم ضيف يعتنى بشأنه ذبحوا له أو نحروا فإذا سافر منهم وترحل عنهم لطخوا طرفَىْ سنام بعيره بدم ما ذبحوه على شكل المثلث إيذاناً بأنه من الرجال المعتنى بشأنهم بين قبائل العرب ومن الأماجد الأعزة الحرى بأن يعز .

ومن مذاهبهم التعقية

قال أبو العباس ثعلب . التعقية سهم الاعتذار : وقال ابن الأعرابى : أصل هذا أن يقتل الرجل رجلا من قبيلته فيطلب القاتل بدمه فيجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية فإن كان أولياؤه ذى قوة أبَوْ ذلك وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهى .

فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون أن تأخذ سهما فترمى به نحو السماء فإن رجع إلينا مضرجا بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية و إن رجع كما صَعِدَ فقد أمرنا بأخذها وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية وكان مسح اللحية علامة الصلح . قال الأشعر[1] الجعفى :

عَقَّوا بسهم ثم قالوا : سالموا ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى !

قال ابن الأعرابى : ما رجع ذلك السهم قط إلا نقياً ولكنهم يعتذرون به عند الجهال . ومن شعر الهذلى ما أنشده أبو عبيد البكرى فى شرح نوادر القالى :

لا ينسىء الله منا معشراً شهدوا يوم الأميلج لا عاشوا ولا مرحوا[2]

عقوا بسهم فلم يشعر بِهِ أحد ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوَضَحُ[3]

قال البكرى : هذا من شعر يهجو به ناساً من قومه كانوا مع أبيه حجاجاً[4] يوم قتل وقوله لا ينسىء الله أى لا يؤخر الله موتهم من الإنساء وهو التأخير . وعقوا بضم القاف وفتحها لأنه جاء من بابين فإنه يقال عق بالسهم إذا رمى به نحو السماء وذلك السهم يسمى عقيقة بقافين ويقال له أيضاً سهم الاعتذار فعقوا بضم القاف . ويقال عقى بسهمه تعقية إذا رماه فى الهواء فعقوا بفتح القاف . وكانت العرب تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها من درك ثأره وشفاء غيظه كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل :

وإن الذى أصبحتمُ تحلبونه دمٌ غير أن اللون ليس بأشقرا

---

(١) هكذا بالشين المعجمة ومثله فى التاج (مادة عق) وصوابه « الاسعر » بالسين المهملة كما ورد فى كتب الأئمة ، ومنهم الاصمعى فى مختاراته (الاصمعيات) المطبوعة فى (ليبسك) . وقد ورد صحيحا فى موضع آخر من التاج (مادة سعر) قال : والاسعر لقب مرثد بن أبى حمران الجعفى الشاعر ، سمى بذلك لقوله :

فلا تدعنى الاقوام من آل مالك اذا أنا لم أسعر عليهم وانقب

(٢) الامليج ، موضع فى بلاد هذيل كانت به وقعة . ومعنى لا مرحوا لا جرحوا . يقول لم يغيبوا فنكفى أن يؤسروا أو يقتلوا ولا جرحوا أى ولا قاتلوا اذا كانوا معنا . عن اللسان .

(٣) اخبر انهم آثروا ابل الدية والبانها على دم قاتل صاحبهم ، والوضح ههنا اللبن .

(٤) فى بعض الكتب (كانوا مع ابنة « حجاج ») . ولا أعلم أن كان له ابن يعرف بهذا الاسم ..

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلا :

ألا أبلغ بنى حجر بن وهب … بأن التمر حلو فى الشتاء

وقال آخر :

خليلان مختلف شكلنا … أريد العلاء وتبغى السمن

أريد دماء بنى مالك … ورأى المعلى بياض اللبن

ولهذا كان يأبى أولياء المقتول عن قبول الدية إذا كانوا أقوياء . هذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح فى المعاش والمعاد من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفى وبين أخذ الدية فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير من أخذ بدل ماله ولم تعده ضعفاً ولا عجزاً البتة بخلاف من أخذ بدل دم وليه .

ومن مذاهبهم حمل الملوك على الأعناق إذا مرضوا

قال أبو عبيدة : وكانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه لأنه عندهم أوطأ له من الأرض[1] .

قال النابغة الذبيانى :

ألم أقسِمْ عليك لتُخْبِرَنى … أمحمولٌ على النعش الهُمَامُ ؟[2]

فأنى لا ألومك فى دخولٍ … ولكن ما وراءك يا عِصَامُ ؟[3]

---

(١) معنى أو طأله من الارض : ان ذلك اسهل له واكثر راحة مما لو وضع على الارض .

(٢) المراد بالنعش هنا مركب شبه الهودج . والهمام : الملك العظيم الهمة ويطلق ايضا على السيد الشجاع السخى . (٣) قوله : ماوراءك يا عصام مثل يضرب فى استعلام الخبر . قيل أول من قاله الحرث بن عمرو ملك كندة وذلك انه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها (عصام) ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف فمضت فدخلت اليها فنظرت الى مالم ترقط مثله فخرجت وهى تقول : ترك الخداع ، من كشف القناع ، فأرسلتها مثلا ثم انطلقت الى الحرث فلما رآها مقبلة قال لها . ما وراءك يا عصام ..؟ الخ .وقيل ان المثل على التذكير وقائله النابغة الذبيانى قاله (لعصام ابن شهبر) حاجب النعمان .. ويجوز أن يكون أصل المثل ما ذكر أولا ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث . ومعنى البيت : لست الومك بمنعك اياى من الدخول ولكن اعلمنى حقيقة خبره .

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يهلكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرام ؟ (١)
ونأخذْ بعـدَهُ بذناب عيش أجَبَّ الظهر ليس له سنَامُ (٢)

ومن حديث هذه الأبيـات أن النابغة كان عند النعمان ملك العرب بالحيرة كبيراً عنده خاصاً به وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلتـه منه فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به وكان للنعمان بواب يقال له عِصام ابن شَهْبرَ الجرمى قال للنابغة إن النعمان موقع بك فانطلق فهرب النابغة إلى ملوك غسان ملوك الشام فـكان يمدحهم وترك النعمان فاشتد ذلك عليه وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث إليه : إنك لم تعتذر من سخطة إن كان بلغتك ولـكنا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدى و بينى و بينهم ما قد علمت وكان النعمان وأبوه وجده

(١) أبو قابوس كنية النعمان بن المنذر . وقابوس ممنـوع من الصرف للعلمية والعجمة لانه معرب كاووس كذا فى القاموس وغيره . ونرى أنه عربى مأخوذ من القبس وهو النار أو الشعلة من النار ، والقابوس لغة ، الرجـل الجميل الوجه الحسن اللون » ومنعه من الصرف يجوز أن يكون للعلمة وشبه العجمة . وقوله « ربيع الناس والشهر الحرام » يريد أنه كالربيع فى الخصب لمجتديه وكالشهر الحرام لجاره لا يوصل الى من أجاره كما لا يوصل فى الشهر الحرام الى أحد .

(٢) قوله (نأخذ) قال النحويون : (روى بالجزم عطفا على جواب الشرط ، والرفع استئنافا ، والنصب بأن مضمرة وجوبا) . والذناب بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر بذنبه فيلطخ راكبه ،ومن كل شيء عقبه ومؤخره . والأجب المقطوع ، وقد شبه العيش بجمل أجب الظهر أى مقطوعه بمعنى أنه لا سنام له . فهو يقول أنا بعده سنكون فى ضيق من العيش كمن يمسك بذناب بعير لا سنام له وذلك أن البعير اذا قطع سنامه أو أكله الرحل لاينمو فكأنه كان لعيشهم بمنزلة السنام للبعير فاذا ذهب سنامه لم يرج منه خير . والظهر يروى بالرفع والنصب والجر . قال الامام ابن مالك فى (الكافية) فى باب الصفة المشبهة باسم الفاعل :

والرفع والنصب حكوا والجرا فى قول من قال : أجب الظهرا

قال فى شرحها — قال النـابغة :

ونأخـذ بعـــده بذناب عيش أجب الظهـــر ليس له سنام

يروى أجب الظهر بالرفع وهو نظـير قولنا جميل الوجه . ويروى أجب الظهر على الاضافة وهو نظير قولنا جميل الوجه انتهى . وفى حاشية الصبان على شرح الاشمونى على الفية ابن مالك : وروى فى أجب الجر صفة لعيش وجره بالكسرة ان أضيف الى مابعده والا فبالفتحة نيابة عن الكسر لانه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل والرفع خبرا لمبتدأ محذوف والنصب حالا .

قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالاً عظيماً و بلغ النابغة أن النعمان ثقيل من مرض أصابه حتى أشفق عليه منه فأتاه النابغة فألفاه محمولاً على رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بين الحيرة فقال لبوابه عصام « ألم تقسم عليك لتخبرنى » الأبيات المذكورة ، فعافاه الله وعفا عن النابغة . قال حسان بن ثابت : وفدت إلى النعمان فحسدت النابغة على ثلاث لا أدرى على أيتهن كنت أشدّ حسداً : أعلى إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له و إصغائه إليه ؟ أم على جودة شعره ؟ أم على مائة بعير من عصافيره [1] أمر له بها ؟ قال أبو عبيدة : قيل لأبى عمرو ؛ أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هر به منه أم لغير ذلك ؟ قال : لا لعمر الله ما لمخافته فعل . إنْ كان إلا آمناً من أن يوجه إليه النعمان جيشاً . وما كان النابغة يأكل و يشرب إلا فى آنية الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك .

ومن مذاهبهم فى دية الملوك وغيرهم

كان عامة العرب يأخذون فى دية النفس مائة من الإبل وكان هذا الحكم جاريا بين قبائلهم . وقد ذكرنا سابقاً أول من سن لهم ذلك ولما كان الملوك ممتازين عندهم فى كثير من الأحكام جعلوا دية أحدهم إذا قتل ألف بعير . قال قراد بن حنش الصاردى [2] :

---

(1) فى الصحاح : عصافير المنذر ابل كانت للملوك نجائب . وفى التهذيب : روى أن النعمان أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره ، قال بن سيده :اظنه أراد من فتايا نوقه . وقال الازهرى : كان للنعمان بن المنذر نجائب يقال لها عصافير النعمان قال حسان بن ثابت : فما حسدت احدا حسدى للنابغة حين أمر له النعمان بن المنذر بمائة ناقة بريشها من عصافيره وحسام وآنية من فضة . قوله بريشها : كان عليها ريش ليعلم أنها من عطايا الملوك . كذا فى اللسان .

(2) هو قراد بن حنش بن عمرو بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة . من بنى صاردة بتقديم الراء على الدال . قال فى التاج : (وبنو الصاردة حى من بنى مرة بن عوف بن غطفان وهو لقب واسمه سلامة . قال ابن دريد : هو من صرد السهم أو من صرد الرجل من البرد) .

ونحنُ رَهَنَّا القوس ثمت فوديت ... بألفٍ على ظهر الفزَارى أقرعا (١)

بعشر مئين للملوك سَعَى بهـا ... ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا

قال ابن عبد ربه فى العقـد الفريد : إن سيار بن عمرو بن جابر الفزَارى احتمل للأسود بن المنـذر دية ابنه الذى قتله الحرث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك ورهنه بها قوسه فوفى . وكان هذا قبـل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان : إن أخا سيار لأمه الحرث بن سفيـان الصاردىّ تـكفلها للأسود فقام منها بثمانمائة ثم مات فرهن سيار قوسه على المائتين الباقيتين لا غير فلما مدح قراد بن حنش بنى فزارة جعل الحمـالة (٢) كلها لسيار . ومثل هذا ما قاله الفرزدق من قصيدة طويلة :

فدى لسيوف من تميم وُفَى بها ... ردائى وجلّت عن وجوه الأهاتم (٣)

شفين حزازات الصدور ولم تدع ... علينا مقالاً فى وفاء اللائم (٤)

أبأنا بهم قتلى وما فى دمائهم ... وفاء وهن الشافيات الحوائم (٥)

جزى الله قومى إذ أراد خفارتى ... قتيبـة سعى الأفضلين الأكارم

هم سمعوا يوم المحصّب من منى ... ندائى إذا التفت رقاق المواسم (٦)

---

(١) ألف أقرع أى تام . يقال : سقت اليك ألفا أقرع من الخيل وغيرها اى تاما وهو لكل ألف كما أن هنيدة اسم لكل مائة كما فى الصحاح قال الشاعر :

قتلنا لو أن القتل يشفى صدورنا ... بتدمر ألفا من قضاعة أقرعا

وقال آخـــر :

ولو طلبـونى بالعقـوق أتيتهم ... بألف أؤديه الى القوم اقرعا

والالف مذكر ولذلك قالوا ألف أقرع ولم يقولوا قرعاء . وقيل : لو أنث باعتبار الدراهم لجاز بمعنى هذه الدراهم ألف . (٢) الحمالة : كسحابة ، الدية يحملها قوم عن قوم . (٣) قال البغدادى فى الخـزانة : قال العينى — الرداء فى البيت بمعنى السيف وانشد عليه بيتا . . . وجلت بالتشديد بمعنى جلت بالتخفيف من جلا القوم عن البـلد يجلون بالضم اذا جلوا وخرجـوا ، والمعنى كشفت ردائى حين وفت بدية الملوك الثلاثة هم ذلك وتمادى الحروب عن أعيـان الاهاتم وكبرائهم فافهم ، هذا كلامه وهو كلام من لم يصـل الى العنقود . أ هـ (٤) حزازات الصدور : غيظ الصدور .

(٥) قوله : أبأنابهم ، يقال أبأت فـلانا بفلان فبـاء به اذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا الا والثانى كفء للاول . والحوائم من الابل العطاش التى تحوم حول الماء (٦) المحصب : موضع رمى الجمار بمكة ، ومنى : قال ياقوت بالكسر والتنوين فى درج — الوادى الذى ينزله الحاج ويرمى فيه الجمار من الحـرام سمى بذلك لما يمنى به من الدماء أى يراق

وقصة رداء الفرزدق رواها أبو عبيدة قال : كان الفرزدق بالمدينة حين جاءت وقعة وكيع ، وحج سليمان بن عبد الملك فبلغه بمكة وقعة وكيع بقتيبة فخطب الناس بمسجد عرفات فذكر غدر بنى تميم ووثوبهم على سطانهم وإسراعهم إلى الفتن وأنهم أصحاب فتن وأهل غدر وقلة شكر فقام إليـه الفرزدق فقال وفتح رداءه : يا أمير المؤمنين هذا ردائى رهن لك بوفاء بنى تميم والذى بلغك كذب . فقال الفرزدق فى ذلك حيث جاءت بيعة وكيع لسليمان تلك الأبيات . يعنى بالأهاتم الأهتم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحرث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن مناة بن تميم فعرف أن الأهتم ليس لقباً لسنان بن خالد . والحوائم : العطاش التى تحوم حول الماء .

ومن مذاهبهم تحريم الخمر على نفوسهم إلى أن يأخذوا بثأرهم

كانت العرب تحرم الخمر على أنفسهم فى مدة طلبهم لأنها مشغلة لهم عن كريم الأخلاق والإقبال على الشهوة . قال الشنفرى يرثى خاله تأبط شرًا ويذكر إدراكه ثأره من قصيدة له [1] :

---

(١) نسبة القصيدة التى منها هذان البيتان الى الشنفرى وانه رثى خاله تأبط شرا غير صحيحة لان الشنفرى مات قبل تأبط شرا ورثاه تأبط شرا بأبيـات مشهورة وممن رواها أبو الفـرج الاصبهانى وابن الانبارى واولها :

على الشنفرى صوب الغمام ورائح غزير الكلى وصيب الماء باكر

ــ ولان تأبط شرا ليس بخال الشنفرى . والصحيح ان هذا الشعر مولد. قال أبو زكريا الخطيب فى شرح ديوان الحماسة : « وذكر أنه لخلف الاحمر وهو الصحيح وقيل : قال ابن أخت تأبط شرا . قال النمرى : ومما يدل على انها لخلف الاحمر قوله فيها (جل حتى دق فيه الاجل) فان الاعرابى لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا . قال أبو محمد الاعرابى : هذا موضع المثل : ليس هذا بعشك فادرجى ليس هذا كما ذكره بل الاعرابى قد يتغلغل الى أرق من هذا لفظا ومعنى وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع لـكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى قال : مما يدل ان هذا الشـعر مولد انه ذكر فيـه سلعا وهو بالمدينة واين تأبط شرا من سلع . وانما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان بثابت بن جابر بن سفيان

من يقتل القـرن ويروى النـدمان » .

فادَّركنا الثأر منهم ولما ينج من لحيان إلا الأقل [١]
حلّتِ الخمر وكانت حراماً وبلأىٍ ما ألمّتْ تحِلُّ [٢]

وفى كتاب (مساوئ الخمر) غزا امرؤ القيس بنى أسد ثائراً بأبيه وقد جمع جموعاً من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها [٣] وهرب بنو أسد من بين يديه حتى أنضوا [٤] الإبلَ وحسروا [٥] الخيل ولحقهم فظفر بهم وقتل بهم مقتلة عظيمة وأبار [٦] حلمة بن أسد ومثل فى عمرو وكاهل ابنىْ أسد وذكر السكابى عن شيوخ كندة أنه جعل يسمل [٧] أعينهم ويحمى الدروع فيلبسهم إياها . وروى أبو سعيد السكرى مثل ذلك وأنه ذبحهم على الجبل ومزج الماء بدمائهم إلى أن يبلغ الحضيض [٨] وأصاب قوماً من جُذام كانوا من بنى أسد . وفى ظفره ببنى أسد يقول :

قولا لدُودانَ عبيد العصا : ما غرَّكم بالأسد الباسل ؟

إلى أن قال :

لا تسقينى الخمرَ إن لم يروا قتلى فِئاماً بأبى الفاضل
حتى أُبيرَ الحىَّ من مالك قتلاً ومن يشرف من كاهل
ومن بنى غنم بن دُودان إذ نقذِفُ أعلاهم على السافل
نعلوهُمُ بالبيض مسنونةً حتى يروا كالخشب الشائل
حات لى الخمرُ وكنت امرءاً عن شربها فى شُغُلٍ شاغلٍ

---

(١) أدركنا أخذنا . ومن لحيان صوابه ملحيين أى من الحييين (٢) قوله : ما ألمت يجوز أن تكون (ما) صلة ويجوز أن تكون مع الفعل بعده فى تقدير المصدرية ، يريد ، بلاى — أى ببطء — ألمت حلالا أو المامها حلالا . والالمام : الزيارة الخفيفة وتوسع فيه فاجرى مجرى حصلت (٣) ذؤبان العرب : لصوصها . والصعاليك جمع صعلوك وهو الفقير
(٤) يقال : أنضى الرجل بعيره اذا هزاله بالسير فذهب لحمه (٥) حسرت الدابة : اتعبتها .
(٦) أى أهلك (٧) سمل عينه سملا من باب قبل : فقأها بحديدة محماة
(٨) هو القرار فى الارض :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل [1]

قوله قولا لدودان الخ دودان بالضم هو ابن أسد بن خزيمة ، وأراد القبيلة وكان أبو امرىء القيس إذا غضب على أحد منهم ضربه بالعصا فسموا عبيد العصا أى يعطون على الضرب والهوان . وأراد بالأسد الباسل أباه . والفئام بكسر الفاء بعدها همزة ممدودة : الجماعة . وأبير : أفنى . ومالك : هو ابن أسد وأراد بمن يشرف من كاهل علباء بن الحرث من بنى كاهل بن أسد . وقوله : نقذف أى نرمى بعضهم على بعض إذا قتلوا . والمسنونة المحدودة . والشائل الساقط . وقوله : (حلت لى الخمر الخ) قال السعدىّ فى مساوىء الخمر : إنما قال هذا لأنه لم يكن حضر قتل أبيه وكان أبوه أقصاه لأنه كره منه قول الشعر و إنما جاءه الأعور العجلى يخبره وهو يشرب فقال : ضيعنى صغيراً ، وحملنى ثقل الثأر كبيراً ، اليوم خمر ، وغداً أمر[2] ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، ثم شرب سبعاً ، ثم لما صحا حلف أن لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره فذلك قوله : حلت لى الخمر . وهذا معنى ما زالت العرب تطرقه . قال إسماعيل بن هبة الله الموصلى فى كتاب الأوائل : أول من اخترع هذا المعنى امرؤ القيس فى هذا الشعر . وقوله فاليوم أشرب الخ المستحقب المكتسب وأصله من

---

(١) يستشهد النحويون بهذا البيت على تقدير رفع الحرف الصحيح كما فى — أشرب — فالباء حرف صحيح وظاهر كلام السيوطى فى الهمع ان ذلك لغة وهو الصحيح لثبوت القرآت التى أشارت اليها . وقال سيبويه : انه ضرورة ، وانكر المبرد هذه الرواية وزعم ان الرواية : — فاليوم فاشرب — وتبعه السيد المرتضى وبعض المعاصرين .. قال ابن جنى : اعتراض أبى العباس المبرد هنا على الكتاب انما هو على العرب لا على صاحب (الكتاب) لانه حكاه كما سمعه ولا يمكن فى الوزن أيضا غيره ، وقول أبى العباس « انما الرواية : فاليوم فاشرب » فكانه قال لسيبويه :كذبت على العرب ولم تسمع ما حكيته عنهم ، واذا بلغ الامر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك انكاره عليه قول الشاعر (وقد بداهنك من المئزر) فقال : انما الرواية (وقد بدا ذاك من المئزر) وما أطيب العروس لولا النفقة » ولو كان الى الناس تخير ما يحتمله الموضع لكان الرجل اقوم من الجماعة به واوصل الى المراد منه . (٢) قال الميدانى : « أى يشغلنا اليوم خمر وغدا يشغلنا أمر الحرب ومعناه اليوم خفض ودعة وغدا جد واجتهاد وهو يضرب للدول الجالبة للمحبوب والمكروه .

استحقب أى وضع فى الحقيبة وهى خرج يربط بالسرج خلف الراكب . وائما مفعول مستحقب كأن شربها بعد وفاء النذر لا إثم فيه بزعمه ، والواغل : الذى يأتى شراب القوم من غير أن يدعى إليه وهو مأخوذ من الوغول وهو الدخول ومعناه أنه وغل فى القوم وليس منهم ، والله أعلم بحقائق الأمور .

ومن مذاهبهم فى الخليع والرجل اللعين

كانت العرب فى الجاهلية إذا قال قائل منهم : هذا ابنى قد خلعته كان لا يؤخذ بجريرته وذنبه . وقال الفاضل الزوزنى فى شرح معلقة امرئ القيس عند الكلام على قوله :

وَوادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قطعتُهُ ... بِهِ الذئبُ يَعْوِى كالخليعِ المُعَيَّلِ (١)

الخليع الذى قد خلعه أهله لخبثه ، وكان الرجل منهم يأتى بابنه إلى الموسم ويقول : ألا إنى قد خلعت ابنى هذا فإن جُرَّ لم أضمن وإن جُرَّ عليه لم أطلب فلا يؤخذ بجرائره انتهى . وفى كتاب فتح البارى : الخليع فعيل بمعنى مفعول يقال تخالع القوم إذا نقضوا الحلف فإذا فعلوا ذلك لم يطالبوا بجنايته فكأنهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه ومنه سمى الأمير إذا عزل خليعاً ومخلوعا . وقال أبو موسى فى اللعين خلعه قومه أى حكموا بأنه مفسد فتبرأوا منه ولم يكن ذلك فى الجاهلية يختص بالحليف بل كانوا ربما خلعوا الواحد من القبيلة ولو كان من

---

(١) الجوف : باطن الشىء . والعير : الحمار والقفر : المكان الخالى . والمعيل : الكثير العيال . وقد عيل تعييلا فهو معيل والعواء صوت الذئب وما أشبهه : زعم صنف من الائمة انه شبه الوادى فى خلائه عن الانس ببطن العير وهو الحمار الوحشى اذا خلا من العلف . وقيل : بل شبهه فى قلة الانتفاع به بجوف العير لانه لا يركب ولا يكون له در . وزعم صنف منهم انه اراد كجوف الحمار ففير اللفظ الى ما وافقه فى المعنى لاقامة الوزن . والخيع زعم الائمة انه فى هذا البيت المقامر . والمعنى : ورب واد يشبه وادى الحمار والخلاءمن النبات والانس أو يشبه بطن الحمار فيما ذكرنا طويته سيرا وقطعة وكان الذئب يعوى فيه من فرط الجوع كالمقامر الذى كثر عياله ويطالبه عياله بالنفقة وهو يصيح بهم ويخاصمهم اذ لا يجد ما يرضيهم به . انتهى ملخصا من شرح الزوزنى .

صميمها إذا صدرت منه جناية تقتضى ذلك وهذا مما أبطله الإسلام من حكم الجاهلية . وفى البخارى : وقد كانت هذيل خلعوا خليعاً لهم فى الجاهلية فطرق أهل بيت من اليمن بالبطحاء فانتبه له رجل منهم فحذفه بالسيف فقتله فجاءت هذيل فأخذوا اليمانى فرفعوه إلى عمر بالموسم وقالوا : قتل صاحبنا . فقال : إنهم قد خلعوه فقال يقسم خمسون من هذيل ما خلعوا ، قال : فأقسم منهم تسعة وأربعون رجلا وقدم رجل منهم من الشام فسألوه أن يقسم فافتدى يمينه منهم بألف درهم فأدخلوا مكانه رجلا آخر فدفعه إلى أخى المقتول فقرنت يده بيده . قال : قالوا ؛ فانطلقنا والخمسون الذين أقسموا حتى إذا كانوا (بنخلة) أخذتهم السماء فدخلوا فى غار فى الجبل فانهجم الغار على الخمسين الذين أقسموا فماتوا جميعاً وأفلت القرينان واتبعهما حجر فكسر رجل أخى المقتول فعاش حولا ثم مات . وحاصل القصة : أن القاتل ادعى أن المقتول لص وأن قومه خلعوه فأنكروا هم ذلك وحلفوا كاذبين فأهلكهم الله بحنث القسامة وخلص المظلوم وحده . وهذيل : القبيلة المشهورة وهم ينتسبون إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر . و يسمى الخليع الرجل اللعين أيضاً . . قال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى : كان الرجل فى الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصبه ؟ وقيل ألا إن فلاناً قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن لظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال . و بعضهم يقول الرجل اللعين هو نفس الخليع . وقد اختلف أهل اللغة فى المراد بقول الشماخ بن ضرار فى مدح عَرَابة بن أوس من قصيدة :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين[1]

---

(١) اللجين : الخبط الملجون . قال الليث هو ورق الشجر يخبط بدقيق أو شعير فيعلف الابل وكل ورق او نحوه فهو ملجون او لجين وفى الصحاح : اللجين الخبط وهو ما سقط من الورق عند الخبط .

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

فقالوا : يريد بقوله ذعرت به القطا الخ أنه جاء إلى الماء متنكراً وذعرت، خوفت ونفرت ونفيت طردت وخص الذئب والقطا لأن القطا أهدى الطير والذئب أهدى السباع وهما السابقان إلى الماء قال شارح الديوان : أى ذعرت القطا بذلك الماء ونفيت عن ذلك الماء مقام الذئب أى وردت الماء فوجدت الذئب عليه فنحيته عنه أراد مقام الذئب كالرجل اللعين المنفى المقصى انتهى . فاللعين على هذا بمعنى الطريد وهو وصف للرجل . وهو ما ذهب إليه ابن قتيبة فى أبيات المعانى : قال اللعين المطرود وهو الذى خلعه أهله لـكثرة جناياته . وقال بعض شراح أبيات المفصل : اللعين المطرود الذى يلعنه كل أحد ولا يؤويه أى هذا الذئب خليع لا مأوى له كالرجل اللعين وقال صاحب الصحاح : الرجل اللعين شىء ينصب فى وسط الزرع يستطرد به الوحوش وأنشد هذا البيت . وقد سبق قول أبى عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى فى ذلك وقد أغرب فإنه لم يظهر للبيت معنى على قوله . وعلى كل حال فهذا المذهب للعرب يدل على أنهم قد بلغوا فى الجاهلية إلى غاية الغايات ، فى ميلهم لمحاسن الأخلاق وجميل الصفات ، حتى أنهم تجاوزوا الحد فى ذلك فبلغوا إلى درجة العقوق ، وعدم المبالاة بما يجب للأقارب والبنين من الحقوق ، حثاً على اجتناب كل ما يشين من الأخلاق الذميمة ، وزجراً عن تعاطى سفاسف الأمور والجرائم العظيمة ، والخلعاء كانوا قد خلعوا عنهم لباس المروءة والإنصاف ، وتردوا بأردية الجور والظلم والاعتساف ، فلذلك عوملوا بهاتيك المعاملة ، ولم تراع فيهم عهود الموافقة والمسالمة ، ولما كان كل أمر تجاوز الحد ، انقلب بما يستنتج من المفاسد إلى الضد ، نهى الشرع عن كل ما يستوجب المفاسد ، وأمر — والحمد لله تعالى — بما يستحق المحامد من المقاصد .

ومن مذاهب العرب : المعاقرة

وهو أن يتبارى الرجلان كل منهما يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ويقر صاحبه فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه ونفره . وفى شرح سنن أبى داود للخطابىّ عند الكلام على قوله نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب وكره أكل لحومها لئلا يكون مما أهل لغير الله ، ثم قال : وفى معناه مما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهم البلدان وأوان حدوث نعمة تتجدد لهم ونحو ذلك من الأمور انتهى . وقد وقعت معاقرة عظيمة فى صدر الإسلام من غالب أبى الفرزدق الشاعر الشهير وذلك فى خلافة الإمام على كرم الله تعالى وجهه ، وإليها الإشارة بقول جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

تعدون عَقْرَ النيبِ أفضلَ مجدكم بنى ضَوْطَرَى لولا الكمىّ المقنَّعا[1]

يعنى أنكم تعدون عقر الإبل المسنة التى لا ينتفع بها ولا يرجى نسلها أفضل مجدكم هلا تعدون قتل الشجعان ، ومنازلة الأقران . . وقضية عقر الإبل هذه مشهورة فى التواريخ محصلها : أنه أصاب أهل الكوفة مجاعة فخرج أكثر الناس إلى البوادى وكان غالب أبو الفرزدق رئيس قومه فاجتمعوا فى أطراف السماوة[2] من بلاد كلب على مسيرة يوم من الكوفة فعقر غالب لأهله ناقة صنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من تميم جفاناً وأهدى إلى سحيم جفنة فكفأها وضرب الذى أتى بها وقال أنا مفتقر إلى طعام غالب ! ونحر سحيم لأهله ناقة ، فلما كان من الغد نحر غالب لأهله ناقتين ونحر سحيم ناقتين ، وفى اليوم الثالث نحر غالب

---

(١) معنى تعدون : تجعلون وتحسبون ولهذا عداه الى مفعولين . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة . وعقر الناقة اذا ضرب قوائمها بالسيف ، وربما قيل عقر الناقة بمعنى نحرها . ويقال للقوم الذين لا يغنون غناء بنو ضوطرى . وقوله : لولا الكمى يريد هلا الكمى — وهو الشجاع أو لابس السلاح . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . وقد زعم ابن الشجرى ان البيت للاشهب ابن زميلة وليس ذلك بصواب . (٢) يقال لهذا المحل الذى اجتمعوا فيه (صوأر) .

ثلاثا فنحر سحيم ثلاثاً ، فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مائة ناقة ولم يكن لسحيم هذا القدر فلم يعقر شيئاً . فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة قال بنو رياح لسحيم : جررتَ علينا عار الدهر ! هلاّ نحرت مثل مانحر غالب ! وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين ! فاعتذر أن إبله كانت غائبة ونحر نحو ثلثمائة ناقة . وكان فى خلافة على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فمنع الناس من أكلها . وقال : إنها مما أهل لغير الله به ولم يكن الغرض منه إلا المفاخرة والمباهاة فجمعت لحومها على كناسة الكوفة فأكلها الكلاب والعِقبان والرخم[1]. وقد أورد القالى هذه الحكاية فى ذيل أماليه[2]. بأبسط مما ذكرناه وأورد ماقيل فيها من أشعار مامدح به غالب وهجى به سحيم والله أعلم .

ومن مذاهبهم تفرد العزيز منهم بالحمى[3]

كان من عوائد العرب فى الجاهلية أن ينفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه كالذى كان يفعله كليب بن وائل فإنه كان يوافى بكلب على نشاز من الأرض —

(١) العقبان بكسر العين المهملة جمع عقاب بالضم طائر . والرخم كقصب جمع رخمة كقصبة طائر يأكل العذرة وهو من الخبائث وليس من الصيد .

(٢) ص ٥٣ طبعة بولاق .

(٣) الحمى بالكسر والقصر واصله فى اللغة الموضع فيه كلأ يحمى من الناس ان يرعوه اى يمنعونهم يقال حميت الموضع اذا منعت منه واحميته اذا جعلته حمى لا يقرب . قال الاصمعى : الحمى حميان ، حمى ضرية وحمى الربذة . قال ياقوت الحموى البغدادى (٣—٣٤٦) : ووجدت أنا ، حمى فيد وحمى النير وحمى ذى الشرى وحمى النقيع — فاما حمى ضرية فهو اشهرها واسيرها ذكرا وهو كان حمى كليب بن وائل فيما زعم لى بعض أهل بادية طيى . قال: ذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابرنا عن كابر . قال : وفى ناحية منه قبر كليب معروف ايضا الى اليوم وهو سهل الموطىء كثير الخلة وارضه صلبة ونباته مسمنة وبه كانت ترعى ابل الملوك .. وحمى الربذة ايضا اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لنعم المنزل الحمى اولا كثرة حياته .. وحمى النير بكسر النون . قال ياقوت، وفيه قبر كليب بن وائل على ما خبرنا فاما فى اشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب من المدينة بينها وبين عرب .. وحمى النير بكسر النون . قال قوت ، وفيه قبر كليب بن وائل على ما خبرنا بعض طيىء على الجبلين قال وهو قرب ضرية (٨—٣٥٦) .. وحمى الشرى: كانوا قد حموه لذى الشرى وهو صنم كان لدوس (٥—٢٤٦) .. وحمى النقيع: حماه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لخيل المسلمين وهو من أودية الحجاز يدفع سيله الى المدينة يسلكه العرب الى مكة منه وهو على عشرين فرسخا أو نحو ذلك من المدينة (٨—٣١٢) والعرب فى الحمى أشعار كثيرا ما يعنون بها حمى ضرية . انتهى ملخصا من معجم البلدان .

وهو المكان المرتفع — ثم يستعويه ويحمى ما انتهى إليه عُواؤه من كل الجهات ويشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله . وفيه يقول العباس بن مرداس من قصيدة :

كما كان يبغيها كُلَيْبٌ بظلمه ... من العزّ حتى طاحَ وهْوَ قتيلها
على وائل إذ يترك الكلب نابحاً ... وإذ يمنع الأفناء منها حلولها[1]

« قال الميدانى » فى تفسير المثل الدائر على ألسنة العرب (أعزُّ من كليب وائل) هو كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير وكان سيد ربيعة فى زمانه وقد بلغ من عزه أنه كان يحمى الكَلأ[2] ، فلا يُقْرَب حماه ويجير الصيد فلا يُهاج وكان إذا مَرّ بروضة أعجبته أو غدير ارتضاه كنع[3] كليباً ثم رمى به هناك فحيث بلغ عُواؤه كان حمى لا يُرعى . وكان اسم كليب بن ربيعة وائلا فلما حمى كليبه المرمى الأكلاء قيل : أعز من كليبِ وائلٍ ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه . وكان من عزه (أنه لاتوقد نار مع ناره ولا يستبق أحد إلى الوِرْد إلا بأمره) ولا يتكلم أحد فى مجلسه ولا يحتبى[4] أحد عنده . ولذلك قال أخوه مهلهل بعد موته :

نُبئْتُ أن النارَ بعدك أُوقِدَت ... واستبّ بعدك يا كليبُ المجلسُ[5]
وتكلموا فى أمرِ كل عظيمةٍ ... لو كنت شاهِدَهُمْ بها لم يَنْبِسُوا[6]

---

(١) طاح : سقط . والافناء من الناس الاخلاط (٢) الكلأ مهموز العشب رطبا كان أو يابسا (٣) اى شد وطرح (٤) احتبى بالثوب : اشتمل او جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها وقد يكون الاحتباء باليدين عوض العمامة او الثوب . ومنه : الاحتباء حيطان العرب اى ليس فى البرارى حيطان فاذا اراد ان يستند احتبى لان الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصير لهم كالجدار « التاج » . (٥) قال التبريزى : كان كليب وائل لا توقد مع ناره للضيفان نار فى احمائه وفيما يقرب من منازلة واوطانه وكان اذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد ان يفاخر أو يسابه اعظاما لقدره فلما فقد تجرأوا على الكلام

(٦) لم ينبسوا : لم يتكلموا ، وهذا نحو قول صفية ابنة عبد المطلب ويروى لغيرها :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الهنابث : الامور الشداد . راجع شرح ديوان الحماسة لابى زكريا الخطيب التبريزى خ ٢ ص ١٩٧ .

وفيه أيضاً يقول معبد بن سَعْنَة التميمى :[(١)]

كفعل كليب كنت خبرت أنه ... يخطّطُ أكلاء المياه ويمنع

يجير على أفناء بكر بن وائل ... أرانب ضاحٍ والظباء فترتع[(٢)]

وكليب هذا هو الذى قتله جساس بن مرة الشيبانى انتهى . وقال الإمام الخطابى فى شرح سنن أبى داود عند الكلام على قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لا حمى إلا لله ولرسوله : قال ابن شهاب بلغنى أن رسول لله صلى الله تعالى عليه وسلم حمى النقيع . قال الخطابى : قوله لا حمى إلا لله ولرسوله يريد لا حمى إلا على معنى ما أباحه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى الوجه الذى حماه . وفيه إبطال ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من ذلك ، وكان الرجل العزيز منهم اذا انتجع[(٣)] بلداً مخصباً أوفى بكلب على جبل أو على نَشَز[(٤)] من الأرض ثم استعوى الكلب ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعُوَاء فحيث انتهى صوته حماه من كل ناحية لنفسه ومنع الناس منه . فأما ما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمهازيل الصدقة واضعفى الخيل كالنقيع وهو مكان معروف مستنقع المياه ينبت فيه الكلأ . وقد يقال إنه مكان ليس بجد واسع يضيق بمثله على المسلمين المرعى ، فهو مباح . وللأئمة أن يفعلوا ذلك على النظر مالم تضق منه على العامة المراعى والله أعلم ، وهذا الكلام الذى سقته معنى كلام الشافعىّ فى كتبه انتهى كلام الخطابى . وقد علم منه أن الشريعة أبطلت هذا المذهب الذى كان عليه أهل الجاهلية وأن المشروع ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) فى القاموس وشرحه : ابن سعنة شاعر جاهلى واسمه معبد ضبةانتهى وورد فى (تهذيب الالفاظ ــ ص ٢١٦ ــ طبعة المطبعة الكاثوليكية فى بيروت) « معبد بن شعبة » بالشين المعجمة والباء الموحدة وهو تصحيف فاحذره .

(٢) الخط الارض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك وقد خطها واختطها اى اتخذها لنفسه واعلم عليها علامة بالخط ليعلم انه قد احتازها ليبنيها دارا . والافناء : مر تفسيره قريبا . وضاح : موضع غربى سلمى فيه ماءة يقال لها مخربة . وقيل رملة . وقيل واد فى ديار كلاب . (٣) انتجع : طلب الكلا فى موضعه . (٤) النشز : المكان المرتفع .

وفى كتاب (الأحكام السلطانية) للإمام الماوردى أتم تفصيل لهـذه المسئلة . فقد قال[1] : قد حمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالنقيع — قال أبو عبيدة النقيع بالنون وقال هذا حماى وأشار بيده الى القاع وهو قدر ميـل فى ستة أميال حماه لخيـل المسلمين فأما حمى الأئمة من بعـده فإن حموا به جميع الموات أو أكثره لم يجز وإن حموا أقله لخاص من النـاس أو لأغنيائهم لم يجز وإن حموه لـكافة المسلمين أو للفقراء والمسـاكين ففى جوازه قولان « أحدهما » لا يجوز ويكون الحمى خاصاً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (الرواية صعب بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم) حين حمى النقيع قال : لا حمى إلا لله ولرسوله . « والقول الثانى » أن حمى الأئمة بعده جائز كجوازه له صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه كان يفعل ذلك لصـلاح المسلمين لا لنفسه فـكذلك من قام مقامه فى مصالحهم . قد حمى أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالرَّبَذة لأهل الصدقة واستعمل عليه مولاه أبا سلامة . وحمى عمر رضى الله تعالى عنه من السرف[2] مثل ما حماه أبو بكر من الرَّبَذَة وولى عليه مولى له يقال له هنى . وقال يا هنى : ضم جناحك عن الناس واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابةٌ وأدخـل ربّ الصُّرَيمة[3] ورب الغُنَيْمة ، وإياك ونعم

---

(١) — ص ١٦٤ . (٢) السرف : بفتح اوله وكسر ثانيه : موضع على عشرة أميال من مكة وقيل اقل او اكثر قرب التنعيم تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحرث وبنى بها بسرف وكانت وفاتها ايضا بسرف ودفنت هنالك . . قال القاضى عياض : واما الذى حمى فيه عمر (رض) فجاء فيه أنه « حمى السرف والربذة » كذا عند البخارى بالسـين المهملة ؛ وفى موطأ ابن وهب « الشرف » بالشـين المعجمة وفتح الراء وكذا رواه بعض رواة البخارى وأصلحه وهذا الصواب واما سرف فلا يدخله الالف واللام . (انظر معجم البلدان : ج ٥ ص ٧١ ، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٥) . (٣) تصغير الصرمـة وهى بالكسر القطعـة من الابل واختلف فى تحديدها فقيل هى نحو الثلاثين كما فى الصحاح وقيل هى ما بين العشرين الى الثلاثين او ما بين الثلاثين الى الخمسين والاربعين فاذا بلغت الستين فهى الصدعة ، أو ما بين العشرة الى الاربعين او ما بين عشرة الى بضع عشرة كأنها اذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها فيقطعها صاحبها عن معظم ابله .

ابن عفان وابن عوف فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى نخل وزرع و إن رب الصريمة و رب الغنيمة يأتيانى بعيالهما فيقولان . يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبالك فالكلأ أهون علىّ من الدينار والدرهم ، والذى نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً . فأما قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حمى إلا لله ولرسوله : فمعناه لا حمى إلا على مثل ما حماه الله تعالى ورسوله للفقراء والمساكين ، ولمصالح كافة المسلمين ، لا على مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية ثم قال : و إذا جرى على الأرض حكم الحمى استبقاء لمواتها سابلا ومنعاً من إحيائها ملكا روعى حكم الحمى فإن كان للكافة تساوى فيه جميعهم من غنى وفقير ومسلم وذمى فى رعى كلئه بخيلهم وماشيتهم . فإن خص به المسلمون اشترك فيه أغنياؤهم وفقراؤهم ومنع منه أهل الذمة ، و إن خص به الفقراء والمساكين منع منه الأغنياء وأهل الذمة ولا يجوز أن يخص به الأغنياء دون الفقراء ولا أهل الذمة دون المسلمين ، و إن خص به نعم الصدقة أو خيل المجاهدين لم يشركهم فيه غيرهم ، ثم يكون الحمى جارياً على ما استقر عليه من عموم وخصوص فلو اتسع الحمى المخصوص لعموم الناس جاز أن يشتركوا فيه لارتفاع الضرر عمن خص به ، ولو ضاق الحمى العام عن جميع الناس لم يجز أن يختص به أغنياؤهم وفى جواز اختصاص فقرائهم به وجهان .
و إذا استقر حكم الحمى على الأرض فأقدم عليها من أحياها ونقض حماها روعى الحمى ، فإن كان مما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان الحمى ثابتاً والإحياء باطلا والمتعرض لإحيائه مردوعاً مزجوراً لا سيما إذا كان سبب الحمى باقياً لأنه لا يجوز أن يعارض حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنقض ولا إبطال .
و إن كان من حمى الأئمة بعده ففى إقرار إحيائه قولان « أحدهما » لا يقر و يجرى عليه حكم الحمى كالذى حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه حكم نفذ بحق « والقول الثانى » يقر الإحياء ويكون حكمه أثبت من الحمى لتصريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : « من أحيا أرضاً مواتاً فهى له . ولا يجوز لأحد

من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعى موات أو حمى لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : المسلمون شركاء فى ثلاث فى الماء والنار والكلأ . انتهى . والمقصود من هذه النقول أن ما كان عليه أعزاء العرب وأقوياؤهم من التفرد بالحمى على الوجه الذى ذكرنا مما أبطله الشرع وهدمه .

مذهب العرب فى البحيرة والسائبة أيام الجاهلية

اعلم أن هذا المذهب من مبتدعات عمرو بن لحى الخزاعى أيضاً ، حمل العرب على التدين به فى جملة ما أحدث من المنكرات التى لم يكونوا يعلمونها من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقد أبطلته الشريعة الإسلامية . قال تعالى : « مَاجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُون » أما البحيرة فهى فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق والتاء للنقل إلى الاسمية أو لحذف الموصوف . قال الزجاج : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا من نحرها وركوبها ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى وهى البحيرة وعن قتادة أنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر فى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه وإن كان أنثى شقوا أذنها وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد فى حلب وركوب ونحو ذلك . وقيل البحيرة هى الأنثى التى تكون خامس بطن وكانوا لا يحلون لحمها ولبنها للنساء ، فإن ماتت اشترك الرجال والنساء فى أكلها . وعن محمد ابن إسحق ومجاهد أنها بنت السائبة وستأتى إن شاء الله تعالى قريباً وكانت تهمل أيضاً . وقيل هى التى ولدت خمساً أو سبعاً وقيل عشرة أبطن وتترك هملا و إذا ماتت حل لحمها للرجال خاصة . وعن ابن المسيب إنها التى منع لبنها للطواغيت فلا تحلب وقيل هى التى ولدت خمس إناث فشقوا أذنها وتركوها هملا . وجعلها فى القاموس على هذا القول من الشاء خاصة وكما تسمى بالحيرة تسمى بالغزيرة

أيضاً . وقيل هى السقب الذى إذا ولد شقوا أذنه وقالوا : اللهم إن عاش فعبىّ و إن مات فذ كىّ فإذا مات أكلوه . وقيل هى التى تترك فى المرعى بلا راع ولما كان مذهب العرب مختلفاً فيها اختلف أئمة اللغة فى تفسيرها . وكل قول يرجع إلى مذهب و بذلك يجمع بين الأقوال .

(وأما السائبة) فهى فاعلة من سيبته أى تركته وأهملته فهو سائب وهى سائبة أو بمعنى مفعول كعيشة راضية . واختلف فيها فقيل هى الناقة تبطن عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز و برها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ونسب إلى محمد بن إسحق . وقيل هى التى تسيب للأصـــنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم . وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم . وقيل هى البعير يدرك نتاج نتاجه فيترك ولا يركب . وقيل كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد أو نجت دابته من مشقة أو حرب قال هى سائبة أو كان ينزع من ظهرها فقارة أو عظماً وكانت لا تمنع عن ماء ولا كلأ ولا تركب وكأنه كان هـذا نذراً من نذورهم إذا قدم الرجل منهم من سفر أو شفى من مرض وهذا الوجه مروى عن أبى عبيدة . وقيل هى ماترك ليحج عليه . وقيل هى التى تركت لآلهتهم فقد كان الرجل يجىء بماشية فيتركها عندها و يسبل لبنها . وقيل هى العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل[1] ولا ميراث وهو وجه غريب .

(وأما الوصيلة) فهى فعيلة بمعنى فاعلة . وقيل مفعولة . والأول أظهر كما ينبىء عن ذلك بيان المراد بها واختلف فيه فقال الفراء : هى الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين و إذا ولدت فى آخرها عناقا وجدياً قيل وصـلت أخاها فلا يشرب ابن الأم إلا الرجال دون النساء وتجرى مجرى السائبة . وقال الزجاج : هى الشاة إذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم و إذا ولدت أنثى كانت لهم و إن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وقيل هى الشاة تَلِدُ ذكراً ثم أنثى فتصـل أخاها

---

(١) العقل : دية المقتول .

فلا يذبحون أخاها من أجلها وإذا ولدت ذكراً قالوا هـذا قربان لآلهتنا . وعن ابن عباس رضى الله تعـالى عنهما هى الشاة تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشىء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء وكذا إن كان ذكراً وأنثى قالوا وصـلت أخاها فتترك معه ولاينتفع بها إلا الرجال دون النساء فإن ماتت اشتركوا فيها . وقال ابن قتيبة : إن كان السابع ذكراً ذبح وأكلوا منه دون النساء وقالوا خالصة لذكورنا محرمة على أزواجنا وإن كانت أنثى تركت فى الغنم وإن كان ذكراً وأنثى فكقول ابن عباس رضى الله تعـالى عنه . وقال محمد بن إسحق : هى الشاة تنتج عشر إناث متواليات فى خمسة أبطن فمـا ولدت بعده للذكور دون الإناث فإذا ولدت ذكراً وأنثى معاً قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوه لمكانها . وقيل هى الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة فإن كان جديا ذبحوه وإن كان أنثى أبقوها وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها . وقال بعضهم : الوصيلة من الإبل وهى الناقة تبكر فتلد أنثى ثم تثنى بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم ويقولون قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر . وقيل هى الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن لاذكر بينها .

(وأما الحامى) فهو فاعل من الحمى بمعنى المنع واختلف فيه أيضاً فقال الفراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده فيقولون : قد حمى ظهره فيهمل ولايطرد عن ماء ولا مرعى . وعن ابن عباس رضى الله تعـالى عنه وابن مسعود وهو قول أبى عبيـدة والزجاج : إنه الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى ظهره فلا يحمل عليه ولايمنع من ماء ومرعى . وعن الشافعىّ إنه الفحل يضرب فى مال صاحبه عشر سنين . وقيل : هو الفحل ينتج له سبع إناث متواليات فيحمى ظهره . والجمع بين الأقوال المتقدمة فى كل من تلك الأنواع بأن العرب كانت تختلف أفعالهم فيها كما سبق (ومعنى الآية السابقة) ما جعل الله من بحيرة الخ ماشرع . ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب حيث يفعلون مايفعلون ويقولون الله

سبحانه وتعالى أمرنا بهـذا و إمامهم عمرو بن لحى فإنه فى المشهور أول من فعل تلك الأفاعيـل الشنيعة . أخرج ابن جرير وغيره عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : يا أكثم عرضت علىّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحى بن قمعة بن خِنْدِف يجر[1] قصبه فى النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم أخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَبَحَّرَ البحيرة وَسَيَّبَ السائبة وحمى الحامى وجاء فى خبر آخر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ووصل الوصيلة . وأخرج عبد الرزاق وغيره عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم إنى لأعرف أول من سيب السوائب ونصب النصب وأول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال عمرو بن لحى أخو بنى كعب لقـد رأيته يجر قصبه فى النار يؤذى أهل النار ريح قصبه و إنى لأعرف أول من بحر البحائر قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام : رجل من بنى مدلج كانت له ناقتان فجذع أذانهما وحرم ألبانهما وظهورهما وقال هاتان لله ثم احتاج إليهما فشرب ألبانهما وركب ظهورهما فلقد رأيته فى النار وهما تقضمانه بأفواههما : واستدل بالآية على تحريم هذه الأمور وهو ظاهر ، واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع . واستدل ابن الماجشون بها على منع أن يقول الرجـل لعبده أنت سائبة وقال لا يعتق بذلك . وجعل بعض العلماء من صور السائبة إرسال الطير ونحوه وصرح بعض العلماء أنه لا ثواب فى ذلك ولعل الجاعل لا يكتفى بهذا القدر و يدعى الإثم فيه والناس عن ذلك غافلون وأكثرهم لا يعقلون إن ذلك افتراء باطل فما تقدم فعل الرؤساء وهذا شأن الأتباع وهمُ المراد بالأكثر وظاهر سياق النظم الكريم أنهم المقـلدون لأسلافهم المفترين من معاصرى رسول

---

(١) القصب بالضم : المعى .

الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم . والحاصل أن المراد بالآية رد ما ابتدعه أهل الجاهلية وأبطاله .

مذهبهم فى ٱلفَرَعِ والعتيرة

(أما الفرع) فهو أول النتائج وهو بفتح الفاء والراء بعدها مهملة . وفى المحكم الفرع أول نتاج الإبل والغنم كان أهل الجاهلية يذبحونه لأصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر ويقال إن الفرع ذبح كانوا إذا بلغت الإبل ما تمناه صاحبها ذبحوه وكذلك إذا بلغت مائة يعتر منها بعيراً كل عام ولا يأكل منه هو ولا أهل بيته ويطلق أيضاً على الطعام الذى يصنع لنتاج الإبل كالخرس للولادة . وفى كتاب ضروب الأمثال للميدانى عند الكلام على قولهم (أول الصيد فرع) ما نصه : الفرع أول ولد تنتجه الناقه كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك وكان الرجل يقول إذا أتمت إبلى كذا نحرت أول نتيج منهـا وكانوا إذا أرادوا نحره زينوه وألبسوه ولذلك قال أوس يذكر أزمة فى شدة برد :

وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ من ال   أقوام سَقْباً مجللاً فَرَعا [1]

الهيدب العبام : العى الثقيل . والسقب : الذكر من ولد الناقة . قال أبو عمرو : ويضرب عند أول ما يرى من خير فى زرع أو ضرع وفى جميع المنافع . ويروى أول الصيد فرع ونصاب . وذلك أنهم يرسلون أول شىء يصيدونه يتيمنون به ويروى أول صيد فرَعَه أى أراق دمه يضرب لمن يرى [2] منه خير قبل فعلته هذه انتهى . ولعل هذا الاختلاف مبنى أيضاً على اختلاف مذاهب العرب فيه فإنهم قلما يتوافقون فى العوائد والأعمال .

---

(١) اى مجللا جلد فرع فاختصر الكلام . والبيت من قصيدة يمدح بها فضالة بن كلدة فى حياته ويرثيه بعد وفاته قال الاصمعى : لم يبتدىء احد من الشعراء مرثية احسن من ابتداء مرثية اوس بن حجر وهو :

(أيتها النفس اجملى جزعا   ان الذى تحذرين قد وقعا)

وقد ساق القالى القصيدة فى ذيل النوادر ص ٣٢ فراجعها . (٢) فى فرائد ذيل النوادر ص ٣٢ فراجعها . (٢) فى فرائد اللآل (ج ١ ص ٢٥) يضرب اللآل (ج ١ ص ٢٥) يضرب لمن لم ير منه خير الخ ..

وأما (العتيرة) فهى بفتح المهملة وكسر المثناة بوزن عظيمة ذبيحة كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب يتقربون بها لأصنامهم وهى الرجبية قاله أبو عبيد . وقال غيره : العتيرة نذر كانوا ينذرونه من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأساً فى رجب . وفى الصحاح : العتيرة هى أن الرجل كان يقول فى الجاهلية إن بلغ إبلى مائة عترت منها عتيرة فى رجب . ونقل أبوداود تقييدها بالعشر الأول من رجب .

وروى الحميدى أنها الشاة التى تذبح عن أهل بيت فى رجب وسميت بذلك لذبحها وهو العتر فهى فعيلة بمعنى مفعولة . واعلم أن الشريعة الإسلامية قد أبطلت كلاً من الفرع والعتيرة ، فى الحديث الصحيح : لافرع ولاعتيرة . وهذا النهى محمول على ما إذا كان الذبح لغير الله تعالى كصنيع الجاهلية فإنهم كانوا يذبحونه لطواغيتهم . وأما إذا كان الذبح لله تعالى فهو جائز جمعاً بين هذا الحديث وبين حديث « الفرع حق » روى الحاكم أنه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الفرع فقال : الفرع حق وإن تتركه حتى يكون بنت مخاض أو ابن لبون[1] فتحمل عليه فى سبيل الله أو تعطيه أرملة خير من أن تذبحه يلصق لحمه بوبره وتوله ناقتك . وفى حديث آخر : نادى رجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنا كنا نعتر عتيرة فى الجاهلية فما تأمرنا ؟ قال : اذبحوا لله فى أى شهر كان . قال : إنا كنا نفرع فى الجاهلية قال : فى كل سائمة فرع تغذوه ماشيتك حتى إذا استجمل ذبحته فتصدقت بلحمه فإن ذلك خير . ففى هذا الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما وإنما أبطل صفة من كل منهما فمن الفرع كونه يذبح أول مايولد . ومن العتيرة خصوص الذبح فى شهر رجب وكون الذبح فى كل منهما لغير الله تعالى .

---

(١) بنت مخاض : الناقة التى دخلت فى السنة الثانية سميت بذلك لأن أمها فى الغالب تصير ذات مخاض اى حامل باخرى . وابن اللبون : ولد الناقة فى السنة الثالثة سمع بذلك لأن امه ولدت غيره فصار لها لبن .

ومن مذاهب العرب في الجاهلية الوأد

يقال وأد الموءودة يئدها دفنها حية والموءودة اسم كان يقع على من كانت العرب تدفنها حية من بناتها وهو وائد وهى وئيد ووئيدة وموءودة . أنشد ابن الأعرابى :

وما لقى الموءود من ظلم أمِّه   كما لقيت ذهل جميعاً وعامر

وبعضهم يقول : الموءودة من الوأد وهو الثقل كأنها سميت بذلك لأنها تثقل بالتراب حتى تموت . وقيل الوأد مقلوب الأود وحكاه المرتضى فى درره عن بعض أهل اللغة وهو غير مرضى عند أبى حيان لأنه لم ينقل عن أحد من أئمة اللغة ذكر الهيثم بن عدىّ على ما حكاه عنه الميدانى أن الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الإسلام . وقد قل ذلك فيها إلا من بنى تميم فإنهم تزايد فيهم ذلك قبل الإسلام وكانت مذاهب العرب مختلفة فى الوأد وقتل الأولاد (فمنهم) من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون . قال الميدانى : وكان السبب فى ذلك أن بنى تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التى كانت عليهم فجرد إليهم النعمان أخاه الريان مع دَوْسر « ودوسر إحدى كتائبه » وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نَعَمهم وسبى ذراريهم . وفى ذلك يقول أبو الْمُشَمْرَج اليشكرى :

لما رأوا رايةَ النعمان مُقْبِلة   قالوا : ألا ليتَ أدنى دارِنا عَدَنُ
ياليتَ أمَّ تميمٍ لم تكن عَرَفَتْ   مُرًّا وكانت كمن أودى به الزمن
إن تقتلونا فأعيارٌ مُجَدَّعَةٌ   أو تُنعموا فقديماً منكم المِنَنُ

فوفدت وفود بنى تميم على النعمان بن المنذر وكلموه فى الذرارى فحكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك إلى النساء فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه فاختلفن

فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ابن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب فوأد بضع عشرة بنتاً . و بصنيع قيس ابن عاصم و إحيائه هـذه السنة نزل القرآن فى ذم وأد البنات . و روى أن أول قبيلة وأدت من العرب ربيعة وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت بنت لأمير لهم فاستردها بعد الصلح فخيرت رضى منه بين أبيها ومن هى عنده فاختارت من هى عنده وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ماوقع وشاع فى العرب غيرهم والله تعالى أعلم بصحة ذلك . وغالب قبائل العرب كان غرضهم من الوأد ماذكر .

وكيفية الوأد كما ذكر غير واحد أن الرجل منهم كان إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم فى البادية و إن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها و زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها أنظرى فيها ثم يدفعها من خلفها و يهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض . و روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه قال : كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة و إذا ولدت ولداً حبسته .

(ومنهم) من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء[1] تشاؤماً منهم بهذه الصفات . ومن هـذا حديث سودة بنت زهرة بن كلاب وذلك أنها لما ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك أمر بوأدها فأرسلها إلى الحَجُون لتدفن هناك فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول : لاتئد الصبية . وخلها البرية . فالتفت فلم ير شيئاً فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر فى المعنى فرجع إلى أبيها فأخبره بما سمع فقال : إن لها لشأناً

(١) الشيماء : السوداء والبرشاء : من البرش وهو بياض يظهر فى الجسد مثل البرص . والكسحاء : العرجاء .

وتركها فكانت كاهنة قريش فقالت يوماً لبنى زهرة إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً فاعرضوا علىّ بناتكم فعرضن عليها فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرض عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه النذيرة أو ستلد نذيراً فى خبر طويل ذكره أبو بكر النقاش وفيه ذكر جهنم ولم يكن اسمها مسموعا عندهم يومئذ فقالوا لها : وماجهنم ؟ فقالت : سيخبركم عنها النذير . وفى السيرة الحلبية : الذى دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عمة وهب والد آمنة كان من أمرها أنها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أى سوداء وكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة أى يدفنونها حية و يمسكون من لم تكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة ، وذكر الخبر السابق . وهذ المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب ولم يأخذ به جمهورهم .

(ومنهم) من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزل قوله تعالى (وَلاَ تَقْتلوُا أَوْلاَدَكمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً) وظاهر لفظ الآية النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفاقة . لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن فنهى فى الآية عن ذلك فيكون المراد بالأولاد البنات و بالقتل الوأد والخشية فى الأصل خوف يشوبه تعظيم قال الراغب : أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه . والإملاق الفقر كما روى عن ابن عباس وأنشد له قول الشاعر :

وإنى على الإملاق ياقوم ماجدٌ أعد لأضيافى الشِّوَاء الُمضَهّبا [1]

---

(١) الاملاق : الافتقار وفى حديث فاطمة بنت قيس : أما معاوية فرجل أملق من المال . أى قد نفد ماله . وأصل الاملاق الانفاق . يقال أملق مامعه املاقا وملقه ملقا اذا اخرجه من يده ولم يحبسه والفقر تابع لذلك فاستعملوا لفظ السبب فى موضع المسبب حتى صار به اشهر . والمضهب كمعظم اللحم الذى شوى على حجارة محماة او الذى شوى ولم يبالغ فى نضجه . قال امرؤ القيس :

نمشى بأعراف الجياد اكفنا اذا نحن قمنا عن شوآء مضهب

وقوله سبحانه (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم أى نحن نرزقهم لاأنتم فلا تخافوا الفقر بناء على علمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم وقوله سبحانه (إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا) تعليل آخر ببيان أن المنهىّ عنه فى نفسه منكر عظيم لما فيه من قطع التناسل وقطع النوع والخطء كالإثم لفظاً ومعنى . وكان كثير من عقلاء العرب لايرتضى هذا الفعل ، وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموءودة من أهلها . وفى صحيح البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يحيى الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لاتقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت[1] قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك و إن شئت كفيتك مؤنتها والاحياء هنا مجاز والمراد بإحيائها إبقاءها وكان صعصعة بن ناجية يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأحيا ستاً وتسعين موءودة إلى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وفى ذلك يقول الفرزدق مفتخراً :

ومنا الذى اختير الرجال سماحةً وخيراً إذا هبَّ الرياحُ الزعازع[2]
ومنا الذى قاد الجيادَ على الوَجَى لنجرانَ حتى صبحتها النزائع[3]
ومنا الذى أعطى الرسول عطيةً أسارى تميم والعيون دوامع[4]
ومنا خطيب لايعاب وحامل أغرّ إذا التفَّت عليه المجامع[5]

---

(١) ترعرع الصبى : تحرك ونشأ . (٢) الخير بكسر المعجمة الكرم وروى بدله (وجودا) والزعازع جمع زعزع وهى الريح التى تهب بشدة وعنى بذلك الشتاء وفيه تقل الالبان وتعدم الازواد ويبخل الجواد فيقول هو جواد فى مثل هذا الوقت الذى يقل فيه الجود . (٣) الذى قاد الجياد هو الاقرع بن حابس وعمرو بن كلثوم ، وكلاهما غزوا نجران . والوجى : الحفا أو أشد منه وهو ان يرق القدم والحافر . والنزائع من الخيل التى نزعت الى اعراق من اللحاح وفى الاساس : ومن المجاز خيل نزائع غرائب نزعت عن قوم آخرين وعنده نزيع ونزيعة نجيب ونجيبة من غير بلاده . (٤) قوله ومنا الذى اعطى الرسول الخ هذا يوم بنى عمرو بن جندب حين رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيهم . وقال ابو عبيدة : كلم الاقرع رسول الله (ص) فى اصحاب الحجرات وهم بنو عمرو بن جندب فرد سبيهم (٥) الخطيب . هو عطارد بن حمل الحمالات يوم المريد يوم قتل مسعود بن عمرو العتكى .

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالبٌ وعمروٌ ومنّا حاجبٌ والأقارع[١]

أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جَمَعَتْنَا يا جرير المجـامع

ورأيت فى بعض كتب السير : أن صعصعة بن ناجية بن عقال كان يفدى الموءودة من القتل ولما أتى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم قال : يارسول الله إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية أفينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ فأخبره بخبر طويل فيـه أنه حضر ولادة امرأة من العرب بنتاً فأراد أبوها أن يئدها . قال فقلت له أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادها . قال : قلت : إنما أشترى حياتها ولا أشترى رقها فاشتراها منه بناقتين عشراوين وجمل وقد صارت لى سنّة فى العرب على أن أشترى ما يئدونه بذلك فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة وقد أنقذتها ! فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : لا ينفعك ذلك لأنك لم تبتغ به وجه الله و إن تعمل فى إسلامك عمـلا صالحاً تثب عليه . وأخرج الطبرانى عن صعصعة بن ناجية المجاشعى قال : قلت يا رسول الله إنى عملت أعمالا فى الجاهلية فهل فيها من أجر ؟ أحييت ثلثمائة وستين من الموءودة أشترى كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل لى من ذلك من أجر ؟ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لك أجره إذ منّ الله تعالى عليك بالإسلام وهـذه الرواية أصح من الرواية الأولى وقد ذكر الفرزدق إحياء جـده الموءودة فى كثير من شعره : كما قال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يُوأدِ

« ومنهم » من كان ينذر إذا بلغ بنوه عشرة نحر واحداً منهم كما فعله عبد المطلب فى قصته المشهورة و إليها أشار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (أنا ابن الذبيحين) يعنى أباه عبد الله وجده إسماعيل عليه الصلاة والسلام . قال الإمام

---

(١) الذى احيا الوئيد هو جده صعصعة بن ناجية .

الماورديّ فى كتاب أعلام النبوة[1] : حكى الزهرى ويزيد بن رومان وصالح ابن كيسان أن عبد المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكوراً ورآهم بين يديه رجالاً أن ينحر أحدهم للكعبة شكراً لربه حين علم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ولده تصوراً أنه من أفضل قربة ، فلما استكمل ولده العدد وصاروا له من أظهر العدد قال لهم : يا بنى كنت نذرت نذراً علمتموه قبل اليوم فما تقولون ؟ قالوا : الأمر لك وإليك . ونحن بين يديك . فقال : لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه وليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوه بالقداح فأخذها وجعل يرتجز ويقول :

عاهدته وأنا موفٍ عهده　　والله لا يحمد شىء حمده
إذ كان مولاى وكنت عبده　　نذرت نذراً لا أحب رده
ولا أحب أن أعيش بعده

ثم دعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال حرك ولا تعجل وكان أحب ولد عبد المطلب إليه عبد الله فضرب صاحب القداح السهم على عبد الله وأخذ عبد المطلب الشفرة وأتى بعبد الله وأضجعه بين أساف ونائلة وأنشأ مرتجزاً يقول :

عاهدته وأنا موف نذره　　والله لا يقدر شىء قدره
هذا بنىّ قد أريد نحره　　وإن يؤخره يقبل عذره

وهمّ بذبحه فوثب إليه ابنه أبو طالب وكان أخا عبد الله لأبيه وأمه وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وأنشأ مرتجزاً يقول :

كلا وربّ البيت ذى الأنصاب　　ما ذبح عبد الله بالتلعاب
يا شيب إن الريح ذو عقاب　　إن لنا مرة فى الخطاب
أخوال صدق كأسود الغاب

---

(١) — ص ١٢٦

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبى طالب وكانوا أخواله قالوا : صدق ابن أختنا ووثبوا إلى عبـد المطلب فقالوا يا أبا الحرث إنا لا نسلم ابن اختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره . فقال : إنى نذرت نذراً وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه قالوا : كلا لا يكون ذلك أبداً وفينا ذو روح و إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد وأنشأ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم مرتجزاً يقول :

يا عجباً من فعل عبد المطلب وذبحه ابناً كتمثال الذهب
كلا و بيت الله مستور الحجب ما ذبح عبد الله فينا باللعب
فدون ما يبغى خطوب تضطرب

ثم وثب السادات من قريش إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم وإنك إن ذبحت ابنك لم تتهنَّ بالعيش من بعده ولـكن لا عليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك إلى كاهنة بنى سعد فما أمرتك من شىء فامتثله . فقال عبد المطلب : لـكم ذاك وكانوا يرون الـكهانة حقاً . ثم خرج فى جماعة من بنى مخزوم نحو الشام إلى الـكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده وارتجز يقول :

ياربِّ إنى فاعل لما ترد إن شئت ألهمت الصواب والرشد
يا سائق الخير إلى كل بلد قد زدت فى المال وأكثرت العدد

فقالت الـكاهنة : انصرفوا عنى اليوم فانصرفوا . وعادوا من الغد فقالت : كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلدكم وقدموا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه وقدموا معه عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القداح فإن خرج القدح على الإبل فانحروها و إن خرج على صاحبكم فزيدوا على الإبل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم فانصرف القوم إلى مكة وأقبلوا عليه يقولون يا أبا الحرث إن لك فى إبراهيم أسوةً فقد علمت ما كان من عزمه فى ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيد ولد إسماعيل فقدم مالك دون ولدك . ولما أصبح

عبد المطلب غدا بابنه عبد الله إلى الذبح وقرب معه عشرة من الإبل ثم دعا بأمين القداح وجعل لابنه قدحاً وقال اضرب ولا تعجل فخرج القدح على عبد الله فجعلها عشرين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها أربعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها خمسين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ستين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها سبعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ثمانين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها تسعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها مائة وضرب فخرج القدح على الإبل فكبر عبد المطلب وكبرت قريش وقالت ياأبا الحرث إنه قد أنهى رضاء ربك وقد نجا ابنك من الذبح . فقال : لا والله حتى أضرب عليه ثلاثاً فضرب الثانية فخرج على الإبل فضرب الثالثة فخرج على الإبل فعلم عبد المطلب أنه قد أنهى رضاء ربه فى فداء ابنه فارتجز يقول :

دعوت ربى مخلصاً وجهرا   يارب لا تنحر بنىّ نحرا
وفاد بالمال تجد لى وفرا   أعطيك من كل سوام عشرا
عفواً ولا تشمت عيوناً خزرا   بالواضح الوجه المغشى بدرا
فالحمد لله الأجل شكرا   فلست والبيت المغطى سترا
مبدلاً نعمة ربى كفرا   ما دمت حياً أو أزور القبرا

ثم قربت الإبل وهى مائة من جلة إبل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد الله وتركت فى مواضعها لا يصد عنها أحد ينتابها من دب ودرج فجرت السنة فى الدية بمائة من الإبل إلى يومنا هذا وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحا فكان عبد الله يعرف بالذبيح . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن الذبيحين يعنى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وأباه عبد الله بن عبد المطلب

(ومنهم) من يقول : الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فألحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن وإلى هؤلاء القوم وردهم يشير قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » ولله درّ التنزيل ما أعلى شأنه ، وأظهر برهانه ، فقد أبطل هذا المذهب الفاسد ، والاعتقاد الكاسد ، بلفظ موجز أىّ إيجاز ، ودليل واضح أقعد أهل الإلحاد على الأعجاز ، ففى التفسير[1] « وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ » هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالى . وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها و بنوتها . قال الإمام : أظن أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء ولهذا لما كان قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ، ونوره القاهر ، أطلقوا عليه لفظ التأنيث . ولا يرد على ذلك أن الجن كذلك لأنه لا يلزم فى مثله الاطراد . وقيل أطلقوا عليها ذلك للاستتار مع كونها فى محل لا تصل إليه الأغيار فهى كبنات الرجل اللاتى يغار عليهن فيسكنهن فى محل أمين ، ومكان مكين ، والجن وإن كانوا مستترين ولكن لا على هذه الصورة ، وهذا أولى مما ذكره الإمام . وأما عدم التوالد فلا يناسب ذلك (سبحانه) تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك أو تعجب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة وهو فى المعنى الأول حقيقة وفى الثانى مجاز « وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » يعنى البنين ، « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى » أى أخبر بولادتها « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا » من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والفكرة والنفرة التى لحقته بولادة الأنثى . قيل : إذا قوى الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف لا سيما إلى

---

(١) راجع ج٤ ص ٣٩٣ من تفسير روح المعانى للامام الكبير شيخ مشايخنا السيد محمود شهاب الدين الاوسى جد المؤلف .

الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فيرى الوجه مشرقا متلألئاً وإذا قوى الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوى فى ظاهر الوجه فيربد ويتغير ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ومن لوازم الغم والحزن إربداده واسوداده فلذلك كنى عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد ولو قيل بالمجاز لم يبعد . (وهو كظيم) أى مملوء غيظا وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لإخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه . والظاهر أن ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكراً . ويؤيده ما روى الأصمعى أن امرأة ولدت بنتاً سمتها الدلفاء فهجرها زوجها فأنشدت :

ما لأبى الدلفاء لا يأتينا يَظَلُّ فى البيت الذى يلينا
يحرد أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما يعطينا[1]

. (يتوارى من القوم) يستخفى من قومه (من سوء ما بشر به) عرفا وهو الأنثى والتعبير عنها بما لإسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء . ويروى أن بعض الجاهلية يتوارى فى حال الطلق فإن أخبر بذكر ابتهج أو بأنثى حزن وبقى متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع (أيمسكه) أيتركه ويربيه (على هون) أى ذل (أم يدسه) أى يخفيه (فى التراب) والمراد يئده ويدفنه حيا حتى يموت وإلى هذا ذهب

---

(١) الدلفاء من اسماء نساء العرب . واهل الدلف محركة صغر الانف واستواء الارنبة ، او صغره فى دقة او غلظ واستواء فى طرفه ليس بحد غليظ . وحرد يحرد حرودا اذا تنحى واعتزل عن قومه ونزل منفردا لم يخالطهم ، وحرد : غضب فهو حارد وحرود .. وورد فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٤) ما نصه : « ولبغض البنات هجر ابو حمزة الضبى خيمة امراته ، وكان يقبل ويبيت عند جيران له حين ولدت امراته بنتا فمر يوما بخبائها واذا هى ترقصها وتقول : —

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ان لا نلد البنينا تالله ما ذلك فى ايدينا
وانما نأخذ ما اعطينا ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ماقد زرعوه فينا

قال : « فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امراته وابنتها » .

السدىّ وقتادة وابن جريج وغيرهم . وقيل المراد إهلاكه سواء كان بالدفن حياً أم بأمر آخر فقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق . روى أن رجلا قال : يا رسولَ الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت وقد كانت لى فى الجاهلية بنت وأمرت امرأتى أن تزينها وأخرجتها فلما انتهيت إلى وادٍ بعيد القعر ألقيتها فقالت : يا أبتِ قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شىء ! فقال صلى صلى الله تعالى عليه وسلم : ما فى الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما فى الإسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يغرقها و بعضهم يذبحها إلى غير ذلك ولما كان الكل إماتة تُفضى إلى الدفن فى التراب قيل أم يدسه فى التراب . وقيل : المراد إخفاؤه عن الناس حتى لا يعرف كالمدسوس فى التراب . (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون لمن تنزه عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم والحال أنهم يتحاشون عنه و يختارون لأنفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله تعالى شأنه مع إبائهم إياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه وجوز أن يكون مداره التعكيس كقوله تعالى (تلكَ إذاً قِسْمةٌ ضِيزَى) وقال ابن عطية : هذا استقباح منه تعالى شأنه لسوء فعلهم وحكمهم فى بناتهم بالإمساك على هون أو الوأد مع أن رزق الجميع على الله تعالى فكأنه قيل ألا ساء ما يحكمون فى بناتهم وهو خلاف الظاهر جداً . وروى الأول عن السدىّ وعليه الجمهور والآية ظاهرة فى ذم من يحزن إذا بشر بالأنثى حيث أخبرت أن ذلك فعل الكفرة . وقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال فى قوله سبحانه (وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهوَ كَظِيم) : هذا صنيع مشركى العرب أخبرهم الله تعالى بخبثه فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه . ولعمرى ما ندرى أىّ خير ! لربَّ جاريةٍ خيرٌ لأهلها من غلام و إنما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجتنبوه ولتنتهوا عنه .

(والحاصل) أن هذا الفعل الشنيع على اختلاف أنواعه قد أبطلته الآيات

القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأبدع النصوص الواردة فى ذلك قوله سبحانه « وإذا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » حيث دل على أن السؤال إنما توجه إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب عنه وإسقاطه عن درجة الاعتبار فإن المجنى عليه إذ سئل بمحضر الجانى ونسبت إليه الجناية دون الجانى كان ذلك بعثاً للجانى على التفكر فى حال نفسه وحال المجنى عليه فيرى براءة ساحته وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما فى قوله تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » وهذه الطريقة أفظع فى ظهور جناية القاتل وإلزام الحجة عليه . وعدّ من الوأد العزل . فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم أنه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الوأد الخفى) وفى حديث آخر (تلك الموؤدة الصغرى) وفيه تفصيل محله كتب الفقه والتفسير . ومن الآيات الواردة فى هذا الباب قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَافَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُون » ومنها قوله عز وجل « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين » إلى غير ذلك مما يطول ذكره وهكذا الأحاديث الصحيحة الواردة فى إبطال هذا العمل وشهرتها تغنى عن ذكرها وإيرادها فى هذا المحل .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الميسر

الميسر القمار وهو مصدر ميمى كالمَوْعد والمرجع من يسر ييسر يقال يسرتُهُ إذا قمرتُه . واشتقاقه أما من اليُسْر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب . أو من اليسار لأنه سلب يساره . وعن ابن عباس رضى الله

تعالى عنه كان الرجل فى الجاهلية يخاطر على أهله وماله . قال الشاعر :

أقول لهم بالشعب إذ ييسروننى   ألم تعلموا أنى ابن فارس زَهْدَمِ [١]

أى يفعلون بى ما يفعل الياسرون بالميسور . وقيل من يسروا الشىء إذا اقتسموه وسمى المقامر ياسراً لأنه بسبب ذلك الفعل يجزئ لحم الجزور . وقال الواحدى : من يَسَرَ الشيء إذا وجب والياسر الواجب بسبب القِدْح . وكان الميسر من مفاخر العرب لأنهم كانوا يفعلونه فى أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء . قال شاعرهم :

وإذا تعذَّرت السواعد والقوت   جال المُفَدَّى وسطها المضبوح

أغلى به رخو الإزار مُعَذَّل   فغدا يُمَار له دمٌ مسفوح

السواعد مجارى اللبن فى الضرع يقول إذا تعذر اللبن جال المفدى يعنى القِدْح والمضبوح الذى ضبح وهو أثر النار لأنه يقوّم بالنار . وأغلى به من الغلاء أى أخذ به أى بالقدح سهاما كثيرة لكثرة فوزه ولذلك سمى المفدى لما يتكرر له من الفوز . ومعذل أى يعذل كثيراً على الإنفاق فغدا يعنى القدح يمار له دم الناقة التى قامر عليها . وقال لبيد بن ربيعة فى معلقته الشهيرة يفتخر بلعب الميسر ونجاحه فيه على غيره وكرمه [٢] .

وجزورِ إيسارٍ دعوت لحتفِهاَ   بمغالقٍ متشابهٍ أجسامُها

أدعو بهنّ لعاقر أو مُطفل   بُذِلَتْ لجيران الجميع لحامُها

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعى الرياحى . وقيل لابنه جابر بن سحيم . وييسروننى هو من الميسر أى يجزوننى ويقتسموننى ، ويروى يأسروننى من الاسر ، وقوله الم تعلموا يروى بدله : ألم تيأسوا والمعنى واحد . وقوله انى ابن فارس زهدم يروى ، انى ابن قاتل زهدم وهو رجل من عبس — وزهدم اسم فرس بشر بن عمرو أخى عوف بن عمرو وعوف جد سحيم بن وثيل قاله أبو محمد الاعرابى — فعلى رواية انى ابن قاتل زهدم يصح أن يكون الشعر لسحيم . قال الزبيدى : ويروى هذا البيت أيضا فى قصيدة اخرى على هذا الروى :

اقول لاهل الشعب اذ ييسروننى   الم تيأسوا انى ابن فارس لازم

وصاحب أصحاب الكنيف كأنما   سقاهم بكفيه سمام الاراقم

قال : وعلى هذه الرواية أيضا يكون الشعر له دون ولده لعدم ذكر زهدم فى البيت . (٢) راجع الجزء الأول ص ٧١

فالضيفُ والجارُ الجنيب كأنما هبطَا تبالةَ مُخْصِباً أهضامُها

الأيسار جمع يسر وهو صاحب الميسر والمغالق سهام الميسر سميت بها لأنها بها يغلق الخطر وهو السبق الذى يراهن عليه من قولهم غلق الرهن يغلق غلقاً إذا لم يوجد له تخلص وفكاك . يقول : ورب جزور أصحاب ميسر دعوت ندمائى لنحرها وعقرها بأزلام متشابهة الأجرام وسهام الميسر يشبه بعضها بعضاً حيث جعلت على قدر واحد . وتحرير المعنى : رب جزور أصحاب ميسر كانت تصلح لتقامر الأيسار عليها دعوت ندمائى لهلاكها أى لنحرها بسهام متشابهة . قال الأئمة : يفتخر بنحره إياها من صلب ماله لا من كسب قماره والأبيات التى بعده تدل عليه وانما أراد السهام ليقرع بها بين إبله أيها ينحر لندمائه . ومعنى البيت الثانى : إنه يقول : ادعو بالقداح لنحر ناقة عاقر أو ناقة مطفل تبذل لحومها لجميع الجيران أى إنما أطلب القداح لأنحر مثل هاتين وذكر العاقر لأنها أسمن وذكر المطفل لأنها أنفس . . ومعنى البيت الثالث : أن الأضياف والجيران الغرباء عندى كأنهم نازلون وادى (تبالة) وهو من أخصب أودية اليمن فى حال كثرة أماكنه المطمئنة شبه ضيفه وجاره فى الخِصْب والسعة بنازل هذا الوادى فى أيام الربيع ، وقال عمرو بنُ قميئةَ صاحب امرئ القيس :

يودل[1] ما قومى على أن تركتهم سليمى إذا هبت شمال وريحُها
اذا النجم أمسى مغرب الشمس رائبا ولم يك برق فى السماء يليحُها
وغاب شعاع الشمس فى غير جلبة ولا هبوة إلا وشيكا مصوحُها
وهاج غَمَام مُقْشَعِرّ كأنه نقيلةُ نعلٍ بان منها سريحُها
إذا عدم المحلوب عادت عليهم قدود كثير فى القدور قديحُها
يثور إليها كل ضيف وجانب كما رد دهداه القلاص نضيحُها

---

(١) قوله : « يؤول » كذا هو فى الاصل ولعل صوابه « بودك » كما جاء فى بيت المرقش :

بودك ما قومى على أن هجرتهم اذا هب فى المشتاة ريح اطائف

انظر كتاب الميسر والقداح للامام ابن قتيبة (ص ٥٦) ومعجم البلدان (ج ١ ص٢٨٢)

بأيديهم مقرومة ومَغالق   يعود بأرزاق العباد منيحُها

قوله يودل الخ يريد يودل ياسليمى ومازائدة على أنك تركتهم وفارقتهم وسليمى امرأته وكانت أرادت منه فراق قومه ورائباً أى مرتفعاً والنجم الثريا وأشد البرد عند طلوع الثريا أول الليل ويليحها يظهرها ويضيئها والجلبة السحابة وكذلك الجلب والوشيك السريع والمصوح الذهاب والهبوة الغبرة ومقشعر لاماء فيه والنقيلة النعل البالية من النعال التى ينعل بها الإبل إذا حفيت وجمعها نقائل والسريح السيور التى تشد بها النعل الواحد سريحة والقديح ما يبقى فى أسفل القدر فيغرف بجهد والدهداه صغار الإبل سميت بذلك لأن الإبل إذا وردت الماء دهدهتها ودحرجتها والنضيح الحوض والمقرومة يعنى القداح بها علامات وليس المنيح ههنا القدح الذى لا سهم له على ما سيجىء وإنما المنيح ههنا الممنوح منها المعطى وهو القدح الفائز ويجوز أن يعود الهاء فى منيحها على العباد ويكون المنيح بمعنى الفاعل أى تمنحهم هذه القداح ما أصابوه من قمرها . وقال شاعر آخر وهو ابن مقبل[1] :

يا بيت آل هشام هل علمت إذا   أمشى المراضيع فى أعناقها خضع

إنى أتمم أيسارى بذى أود   من فرع شوحط ضاح ليطه قرع

---

(١) هو تميم بن أبى (بالتصغير والتشديد) بن مقبل بن عوف : شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، وكان يبكى أهل الجاهلية وبلغ (١٢٠) سنة. وكان يهاجى النجاشى الشاعر فهجاه النجاشي فاستعدى عليه امير المؤمنين عمر (رض) فى قصة ذكرها البغدادى فى الخزانة (ج ١ ص ١١٣) ، والعسقلانى فى الاصابة (ج ١ ص ١٩٥) ويضرب بقدح ابن مقبل المثل فى حسن الاثر . قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب (ص ١٧٣) : ويروى أن عبد الملك بن مروان كتب الى الحجاج : ما أعرف أن أرى مثلا الا قدح ابن مقبل . فلم يعرف معناه واغتم لذلك حتى دخل عليه قتيبة بن مسلم — وكان راوية للشعر حافظا عالما به — فسأله عنه . فقال : أبشر أيها الامير فانه قد مدحك أما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قدحا له :

غدا وهو مجدول وراح كأنه   من الصك والتقليب بالكف افطح

خروج من الغمى اذا صك صكة   بدا والعيسون المستكفة تلمح

انتهى المراد منه . وقد ورد البيتان مشروحين فى (كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ) ص ٥١ و ٥٢

يحدو قتائله بيضٌ غطارفة شم الأنوف مغاليق الضحى خلع
أولو الوفاء ولو أدّوا قداحَهُمُ ولا يزال لهم من لحمها قنع

قوله بذى أود يعنى القدح وإذا كان ذا أود كان أسرع لخروجه وشوحط شجر تتخذ منه القسى أو ضرب من النبع وضاح ليطه ظاهر جلده وما ضحى منه للشمس أى برز والقتائل الأشباه وهذا قتل هذا أى شبهه والجمع أقتال . ويقال أيضاً فلان قتل فلان أى عدوه فقول ابن مقبل يحدو قتائله أى قتائل قدحى ومغاليق الضحى أى يغلقون الرهن والخطر وخلع معناه يسلبون الرجال بالقمار ويخلعونها . وأولو الوفاء أى يؤدون ما يلزمهم وفاؤه ولو لم يبق إلا قداحهم لأدوها والقنع الزيادة والكثرة ويقال هو ذو قنع أى كثير المال جواد . وقال آخر وقد مدح قوما بأبيات منها قوله :

أعداء كوم الذرى ترغوا أجنتها عند المجازرِ بين الحى والحجر
لا يفرحون إذا ما فاز فائزهم ولا يضيق عليهم أزبة العسر (١)
هما الخضارم والأيسار إن ندبوا إذ لا تجيل قداحاً راحتا يسر

الكوم جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام وهم أعداؤها لأنهم ينحرونها يعنى إنها تنحر وهى حوامل فيخرج الجنين حياً يرغو . وقوله لا يفرحون الخ . يقول إذا فازوا لم يفرحوا بذلك ولا يبطرهم الفوز ومنه قول الله عز وجل (إن الله لا يحب الفَرِحين) والأزبة الشدة أى لا يبالون بالغرم وإن كانوا معسرين والخضارم الأسخياء والواحد خضرم وأصل الخضرم البحر . وقال الأعشى :

وجزور أيسار دعوت إلى الندى ونياط مقفرة أخاف ضلالها

والشعر الذى فيه تفاخرهم بالميسر وتمدحهم لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام (وصفة الميسر) أن يجتمع الفتيان منهم وذوو اليسار ويشترون جزوراً بما

---

(١) أورده ابن قتيبة هكذا : (ولا ترد عليهم اربة اليسر) وعزاه الى ابن مقبل راجع ص ١٤٨ و١٤٩

بلغت ويدعون الجزار ويسمونه (القدار) على وزن همام فينحرها ويجعلها عشرة أجزاء فإذا قسمت الجزور على ما تقدم حضر الأيسار (وهم القوم المجتمعون على الميسر وواحدهم يسر) وجيء بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول والنبع شجر للقسى وللسهام ينبت فى قلة الجبل والنابت منه فى السفح أى أصل الجبل يقال له الشريان وفى الحضيض أى القرار فى الأرض وهو المطمئن منهـا يقال له الشوحط وقولهم : لو اقتدح بالنبع لأورى ناراً مثل فى جودة الرأى . وكما يقال لها القداح يقال لها الأزلام والأقلام . وهى عشرة : الفـذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسـبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . وقد نظم أسماءها جمع من أعيان أئمة أهل الأدب منهم الإمام أبو الحسن على بن محمد الهمدانى فقال :

يلى الفذ منها توأم ثم بعده رقيب وحلس بعده ثم نافس
ومسبلها ثم المعـلى فهذه الـ ـسهام التى دارت عليها المجالس

وقد نظمها الشيخ ابن الحاجب على ترتيب أنصبائها أيضاً فقال :

هى فـذ وتوأم ورقيب ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعـلى والوغـد ثم منيح وسفيح هذى الثلاثة تهمل
ولـكل مما سواها نصيب ضعفه إن عددت أول أول

ونظمها بعضهم أيضاً فقال :

كل سهام الياسرين عشره فأودعوها صحفـاً منتشره
لها فروض ولهـا نصيب الفذ والتوأم والرقيب
والحلس يتلوهن ثم النافس وبعده مسبلهن السادس
ثم المعلى كاسمه المعلى صاحبه فى الياسرين الأعلى
والوغـد والسفيح والمنيح غفل فما فيها [(١)] يرى ربيح

---

(١) فى الاصل « منها »

فللأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه وعليه غُرم سهم إن خاب أى لم يخرج وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه إلى المعلى وهو السابع له سبعة وعليه سبعة يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة وهى المنيح والسفيح والوغد . فإذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وقدرته وطاقته ورياسته فمنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له فإن خاب غرم سهماً ورأى ذلك سهلا . وإن فاز أخذ سهماً ورأى ذلك كافياً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالى بالغرم إن خاب وينال النصيب الأوفر إن فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام فيأخذ ما فضل من القداح ويقول للأيسار قد تممتكم . وفى ذلك يقول متمم ابن نويرة فى أخيه مالك :

إذا ابتدر القوم القِداح وأوقِدَتْ لهم نار أيسارٍ كفى مَنْ تَضَجَّعا

يقول : من تضجع من الفتيان ولم يأخذ ما بقى أخذ هو ما بقى حتى يتممهم والتضجع التكاسل والإعراض عن العمل . وقال الغنوى :

إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم كفى الحىَّ وضاح الجبين أريب

وتسمى القداح مغالق لأنها تغلق الرهن إذا ضربوا بها على ما سبق . (والتجزئة) التى يقسمها القُدار هى أن يجعل الكتفين جزءين كل واحد منهما جزءاً والصدر جزءاً وهو الزور . وقال فى القاموس : الزور وسط الصدر أو ما ارتفع منه إلى الكتفين أو ملتقى أطراف عظام الصدر . والعضدان : جزءان ويقال لهما ابنا ملاط والكاهل جزء وهو ابن مخدش . وفى القاموس : هو كمنبر ومحدث كاهل البعير . والملحاء وهو ما بين السنام إلى العجز جزء والعجز جزء . والفخذان كل واحد منهما جزء ويزاد على الفخذين خرزات العنق والطفاطف وهى جمع طفطفة ويكسر الخاصرة أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع أو كل لحم مضطرب أو الرخص من مراق البطن وهو الشىء الناعم . ثم يقسم على الأجزاء العشرة

ما فضل من الجنبين والسنام والكبد ومن قطع اللحم حتى تستوى فإذا استوت الأجزاء العشرة كلها بقى العظم الذى لا يصلح أن يكون على واحد من الأجزاء فإن شاء الجزار أخذه وإلا كان لأهل الفاقة والفقر من العشيرة ولا يأخذ أحد من الأيسار ، لأن ذلك عندهم عيب وعار ، ويسمى ذلك العظم الريم . قال فى الصحاح : الريم عظم يبقى بعد ما يقسم الجزور . وأنشد ابن السكيت .

وكنتم كعظم الريم لم يدر جازر   على أى بدأى مقسم اللحم يوضع[1]

البدء والبدأة النصيب من الجزور والجمع أبداء وبدوء مثل جفن وأجفان وجفون . قال طَرَفَة بن العبد :

وهُمُ أيسارُ لُقمانَ إذا   أغلَتِ الشَّتْوَةُ أبْداءَ الجُزُور[2]

وغير يعقوب يروى بدل يوضع يجعل . وقال ابن الأعرابى الريم القبر وقال :

إذا مت فاعتادى القبور وسلمى   على الريم أسقيت الغمام الغواديا[3]

وأبو العلاء أيضاً فسر الريم فى هذا البيت بالقبر . وأظن أنه أراد الشاعر العظم الباقى من الجسد مجازاً ، وبه قال أبو الحسن على بن أحمد السخاوى . ثم يبقى الرأس والقوائم يأخذها الجزار فى أجرته وتسمى الثُنيا وتسمى الجزارة أيضاً ثم اتسعوا فى ذلك فسموا الرأس والقوائم جزارة قال ذو الرُّمَّة من قصيدة تسمى (المذهبة) فى وصف نعامة :

---

١) قوله (وكنتم) يروى بدله (وانت). وقوله (يوضع) قال ابن سيده : المعروف يجعل — وهى رواية اللحيانى — ولم يرد يوضع أحد غير ابن السكيت .. والبيت لشاعر من حضرموت . وقال ابن برى : لأوس بن حجر من قصيدة عينيه وهو للطرماح الآجىء من قصيدة لامية ..وقيل لأبى شمر بن حجر ، قال : وصوابه يجعل وهكذا انشده ابن الاعرابى وغيره. (٢) البيت من قصيدة لطرفه يصف بها أحواله فى أسفاره وتنقله فى البلاد واهوه وقوله « أيسار لقمان » قال الميدانى : هو نعمان بن عاد كان من العمالقة وهو اضرب الناس بالقداح فضرب به المثل فى ذلك وكان له ايسار يضربون معه فى ذلك وهم ثمانية : بيض وحمحمة وطفيل وزفافة ومالك وفرعه وثميل وعمار فضربت العرب بهؤلاء الايسار المثل كما ضربوه بلقمان فيقولون للايسار اذا شرفوهم كايسار لقمان وواحد الايسار يسر . انتهى . (٣) عزاه الجوهرى فى الصحاح والقالى فى الامالى الى مالك بن الريب المازنى .

شخْت الجزَارة مثل البيت سائره   من المسوح خِدَبٌّ شوقبٌ خشِبُ

وقد ذكر كثير من أبيات هذه القصيدة فى كتاب (مناهج الفكر . ومباهج العبر) وهو على أقسام قسم منه فى الطبائع الحيوانية . والأبيات فى مبحث النعامة (أى أن الظليم المذكور هو دقيق القوائم وجسمه كثير الشعر كبيت الأعراب وهو أسود كالمسح وهو البلاس . والخدب . الضخم . والشوقب : الطويل . والخشب : الجافى) فإذا أخذ كل واحد من الأيسار قدحه دفعوا جميعها إلى رجل و يسمونه « الُحرْضة » قال فى الصحاح : وهو الذى يضرب للأيسار بالقداح ولا يكون إلا ساقطاً برماً : وفسر فى القاموس أنه مبين القامرين ، ومن شأنه المعروف، له أنه لم يأكل لحماً قط بثمن إنما يأكله عند غيره أو يهدى له الأيسار . وكانوا أكثر ما يجتمعون على الميسر بالليل و يوقدون ناراً لذلك ثم يؤخذ ثوب شــديد البياض فَيُلَفُّ على يد الحرضة و يسمى ذلك الثوب « المِجْوَل » و إنما يجعل ذلك الثوب على يده ليغشى بصره فلا يعرف قدح زيد دون عمرو هذا بعد أن يلف كفه بقطعة من جراب لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة فإذا أخذ القداح لم ينظر إليها و بعضهم يقول يجعلها فى الربابة وهى خريطة و يجلس خلفه آخر و يسمى الرقيب و يسمى أيضاً رابىء الضرباء يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبى لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به و يعتمدون على قوله فيه (وهو مأخوذ من ربيئة القوم وهو طليعتهم . والضرباء جمع ضريب ككريم وكرماء وهو الذى يضرب بالقداح وهو الموكل بها ويقال له الضارب أيضاً) ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به . ثم يفيض بالقداح فإذا نشز — أى ارتفع — منها قدح استسله الُحرْضة من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه إلى صاحبه فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فإن شاء بعد ذلك أمسك . و إن شاء أعاد السهم على خِطار آخر وهو جمع خطر وجمع الجمع خطر

وهو السبق يراهن عليه وهو مايوضع بين أهل السباق جمعه أسباق و إعادة السهم تسمى التثنية وهو مراد النابغة فى قوله :

إنى أتَمِّمُ أيسارى وأمنَحُهم مَثْنَى الأيادى وأكسوا الجفنةَ الأُدُما

قال أبو عبيد : مثنى الأيادى هى الأنصباء التى كانت تفضل من الجزور فى الميسر فكان الرجل الجواد يشتريها فيعطيها . وقال أبو عمرو : مثنى الأيادى * أن يأخذ القسم مرة بعد مرة ، وأنشد بيت النابغة وهذا هو المعول عليه . فإن خرج الفذ أخذ صاحبه نصيبه وله جزء واحد كما تقدم ثم ضربوا بالقداح الباقية على التسعة الأجزاء الباقية . و إن خرج التوأم أخذ صاحبه جزءين وقعد إن شاء وضربوا بباقى القداح على السبعة الأجزاء الباقية فإن خرج المعلّى أخذ صاحبه الأجزاء السبعة التى بقيت . ووقع الغرم أعنى ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . وجملة هذه القداح ثمانية عشر سهماً فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً و يلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه ، فإن لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية وهى تتمة الجزور وكانت الغرامة على من لم يخرج قدحه وهم أصحاب القداح الخمسة التى خابت وهى الفذ والتوأم والحلس والنافس والمسبل ومجموع سهامها ثمانية عشر . فإن خرج المعلى أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور واحتاجوا إلى نحر جزور أخرى لأن فى القداح التى خيبت المسبل وله ستة أجزاء . ولم يبق من اللحم إلا ثلاثة أجزاء ومن خاب قدحه فى الجزور الأولى لم يأكل منها شيئاً وذلك عندهم قبيح يعاب . فإذا نحروا الجزور الثانية وضربوا عليها بالقداح فخرج المسبل أخذ صاحبه ستة أجزاء منها الثلاثة التى بقيت من الجزور الأولى ولزمه الغرم فى الجزور الأولى ولم يلزمه فى الثانية شىء لأن قدحه قد فاز فيها وصار غرم الجزور الثانية على من لم يخرج قدحه على ما سبق من

الحساب . و بقى من الجزور الثانية سبعة أجزاء يضرب عليها القداح من بقى فإن خرج النافس أخذ صاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً ولزمه الغرم فى الأولى و بقى جزآن من اللحم وقد بقى من القداح الحلس وله أربعة أجزاء فاحتاجوا إلى نحر أخرى لتتمة الأجزاء الأربعة ولايأكل من خاب فى الجزورالثانية منها شيئاً فإن نحروا الجزور الثالثة وفاز الحلس أخذ صاحبه أربعة أجزاء منها جزآن من الثانية وجزآن من الثالثة ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً لأنه قد فاز وكان ثمنها على من خاب قدحه و بقى من الجزور الثالثة ثمانية أجزاء فيضرب عليهابالقداح من بقى حتى تخرج قداحهم موافقة لأجزاء الجزور ، فإن كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح لم يحتاجوا إلى نحر شىء فإن أعاد من فاز قدحه مرة ثانية فخاب غرم من ثمن الجزور التى خاب قدحه فيها على هذا الحساب ، فإن فضل من أجزاء اللحم شىء وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشيرة ، وهم أهل الضعف وسوء الحال وشدة العيش ، و يقال رجل و بد أى سيىء الحال و يستوى فى الوصف به الواحد والجمع كما تقول رجل عدل و يجمع على أوباد كما يقال عدل وعدول ومنه قول عمرو بن عداء الكلبى :

سعى عقالاً فلم يتركْ لنا سَبَدا ... فكيف لو قد سعى عمرو عقالَيْنِ

لأصبحَ الحىُّ أوباداً ولم يَجِدوا ... عند التفرقِ فى الهيْجا جِمالَيْنِ (١)

أنشدهما أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادىّ فى أمثاله وقال : استعمل معاوية

(١) قوله : أودبادا يروى بدله (أوقاصا) وهو جمع وقص وهو ما بين الفريضتين من نصب الزكاة مما لا يجب فيه شيء . والمعنى لاصبح مال الحى أوقاصا لا يجب فيه شيء من الزكاة . وجمالين انما ثناها لا نه جعلها صنفين صنف يحملون عليه اثقالهم وصنف يقاتلون عليه ويوضحه رواية الاغانى . يوم الترحل والهيجا . ويستشهد النحويون بهذا البيت على جواز تثنية الجمع على تاويل فرقتين . ومثله قول شعبة بن قمير شاعر مخضرم :

لنا ابلان فيهما ما علمتم ... فعن أية ما شئتم فتنكبوا

وقول ابى النجم العجلى :

تبقلت من اول التبقل ... بين رماحى مالك ونهشل

وقولهم : لقا حان سوداوان . وفى الحديث الشريف « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين » الى غير ذلك ، ولكن القياس يا أباه لان الغرض من الجمع

ابن أبى سفيان ابن أخيه عمرو بن عتبة بن أبى سفيان على صـدقات كلب فاعتدى عليهم . فقال عمرو بن العداء هذا الشعر . وسعى فى الموضعين من سعى الرجل على الصدقة أى الزكاة يسعى سعياً عمل فى أربابها . وعقالا وعقالين منصوبان على الظرف أراد مدة عقال ومدة عقالين والعقال صدقة عام . والسبد بفتحتين الشعر والوبر قال ابن السيد فى شرح أدب الـكاتب : إذا قيل ماله سبد ولا لبد فمعناه ماله ذو سبد وهى الإبل والمعز ولا ذو لبد وهى الغنم . ثم كثر ذلك حتى صار مثلا مضروباً للفقر فقيل لـكل من لا ماله له أى شىء كان . يقول : تولى هذا الرجل علينا سنة فى أخذ الزكاة منا فلم يترك لنا شيئاً لظلمه إيانا فلو تولى سنتين علينا على أى حال كنا نـكون . وقوله : لأصبح الحى الخ الحى القبيلة . والأوباد : جمع وَبَدَ بفتحتين ، قال الجوهرى : الوبد بالتحريك شدة العيش وسوء الحال مصدر يوصف به فيستوى فيه الواحد والجمع ثم يجمع فيقال أوباد كما يقال عدل وعدول على توهم النعت الصحيح وأنشد البيت . وقال ابن برى . الوجه أن يكون جمع وبد وهو السيىء الحال كفخذ وأفخاذ وثنّى الجمـال لأنه جعلها صنفين صنفاً لترحالهم يحملون عليها أثقالهم وصنفا لحربهم يركبونه إذا جنبوا خيلهم : وقد أفرد ابن قتيبة (١) الميسر كتاباً بين فيـه مذاهب العرب بيانا شافياً

الدلالة على الكثرة والتثنية تدل على القلة فهما معنيان متدافعان ولولا هذا التأويل لم يسغ ذلك بحال . ومعنى بيتى عمرو : ان هـذا الرجل سعى فى صدقاتنا سنة فلم يترك لنا ذات شعر ولا ذات وبر فكيف لو تولى علينـا سنتين اذن لاصبح رجال الحى على أسوأ حال ولم يجدوا من صنفى الجمال شيئا يستعينون به فى ارتحالهم وقتالهم .

(١) أقول : وقد صنف كثير من العلماء فى الميسر واحسن ما وقفت عليـه كتـاب (المسـفر عن الميسر) لشيخنا المؤلف . وكتب الامام برهان الدين البقاعى فى تفسيره نظم الدرر فى تناسب الآى والسور) بحثا ممتعـا فى الميسر ، وللزبيدى شارح القاموس كتاب فيه أيضـا اسمه (نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح) وقد ضمنه شرح عبارات البقاعى مع ايضاح ما أغفله ، وكانت هذه الرسالة بخط مؤلفها محفوظة فى احدى «مكتبات» برلين ثم طبعت هناك . وصنف فيه بعض الالمانيين أيضا كتابا مستقلا جمع فيه أقوال الائمة . . هذا ما كتبناه هنا منذ ثلاثة أعوام تقريبا ، وقد اطلعنا اليوم على كتاب ابن قتيبة المسمى (الميسر والقداح) مطبوعا أحسن طبع بعناية صديقنا الاديب الجليل الاستاذ محب الدين الخطيب منشىء مجلة الزهراء بمصر ؛ فراقنا أسلوبه ودقة نظره وحسن استخراجه ولا بدع فان

ولم تكن نسخته عندى وما ذكرته كاف فى المقصود وقد خلا عن مثله كثير من الكتب ولله تعالى الحمد على ذلك (وقد حرمته الشريعة الإسلامية وأبطلته) وفى حكم ذلك جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما حتى أدخلوا فيه لعب الصبيان بالجوز والكعاب والقرعة فى غير القسمة وجميع أنواع المخاطرة والرهان وعن ابن سيرين كل شىء فيه خطر فهو من الميسر . وفى ذلك ورد قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فيهما إثم كَبِير ومَنَافِع للنَّاس وإثمهما أكبر من نفعهما) فمنافع الميسر أن أهل الثروة والأجواد من العرب كانوا فى شدة البرد وكلب الزمان ييسرون أى يتقامرون بالقداح فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناس وعاشوا . وكانت العرب تمدح من يأخذ القداح وتعيب من لا ييسر وتسميه البَرَم . قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا:

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه إذا القَشْع من برد الشتاء تقعقعا [1]

(وأما مفاسده) فكثيرة منها أن فيه أكل الأموال بالباطل وأنه يدعو كثيراً من المقامرين إلى السرقة وتلف النفس واضاعة العيال وارتكاب الأمور القبيحة والرذائل الشنيعة والعداوة الكامنة والظاهرة وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من أعماه الله تعالى وأصمه . وفى كتاب فتح البارى : والحكمة فى تحريم الميسر ما فيه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وغير ذلك من المفاسد التى لا يقابلها ما يترتب على الميسر من المنفعة كمصير الشىء إلى الإنسان من غير تعب ولا كد وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح ، وقد ذكر الله سبحانه فى آية أخرى

الامام ابن قتيبة هو ابو عذرة اماثل هذا البحث العويص واليه المرجع فى معرفة تاريخ العرب واطوارهم وعاداتهم . ومن مزايا هذا الكتاب أن مؤلفه رحمه الله نهج فى تاليفه منهجا علميا حيث جمع أبيات شعراء العرب فى الميسر وجعل يتدبرها ويستدل على كيفيته باعتبارها ثم أودع كتابه ما أدى اليه النظر ودل عليه الاستخراج .

(١) راجع الجزء الاول ص ٧١

ما فيه من المفاسد الدنيوية والدينية ، أما الدنيوية فما يوقعه الشيطان فى البين من العداوة والبغضاء فقد يقامر الرجل حتى لا يبقى له شىء وتنتهى به المقامرة إلى أن يقامر بولده وأهله على ما سبق فيؤدى به ذلك إلى أن يصير أعدى الأعداء لمن قمره وغلبه . وأما المفاسد الدينية فهى الصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من أفعال الخير . فإن الميسر إن كان اللاعب به غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلب والقهر والكسب عما ذكر ، وإن كان مغلوباً حصل له من الانقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالبا فلا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك ، وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالنرد والشطرنج ونحوهما يجرى بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله تعالى وغير ذلك من الأمور المنكرة ما يخل بالمروءة ويزرى بذوى العقول السليمة ومن عوفى من ذلك فليحمد مولاه ، ومن ابتلى به فليسأل من الطافه سبحانه أن ينجيه من بلواه .

ومن مذاهبهم المشهورة الاستقسام بالأزلام

كانت العرب فى الجاهلية إذا أرادوا سفراً أو تجارةً أو نكاحا أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل[١] أو غير ذلك من الأمور العظيمة جاءوا إلى هُبَل وهو أعظم صنم لقريش بمكة وكان فى الكعبة ومعهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم وكانت أزلامهم سبعة قداح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها وهى مستوية فى المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرنى ربى) وعلى واحد منها (نهانى ربى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غُفْل أى ليس عليه شىء فإذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذى قصدوا له ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر استقسم لهم أمين القداح بقِدْحى الأمر والنهى فإن خرج

(١) العقل دية المقتول .

قدح الأمر ائتمروا و باشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم و إن خرج قدح النهى أخروا ذلك العمل إلى سنة فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى . و يروى أن هذين القدحين قد كتب على أحدهما (نعم) وعلى الآخر (لا) فإذا ظهر المجيل قدح (نعم) مضوا فيما قصدوه من العمل و إذا ظهر قدح (لا) توقفوا سنة على ما سبق من البيان ، والمقصود من الروايتين واحد . و إذا وقعت منازعة فى نسب أحد منهم استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة (بمنكم . ومن غيركم . وملصق) فإن ظهر (منكم) أعزوا ذلك الرجل الذى اشتبهوا فى نسبه وتنازعوا فى أمره واحترموه غاية الاحترام و إن ظهر (من غيركم) نفروا عنه وتجنبوه و إن ظهر (ملصق) بقى ذلك الرجل مجهول النسب عندهم على ما كان عليه قبل فما ظهر من هذه الأزلام وجب العمل بموجب ما ظهر فيه واعتمدوا عليه كل الاعتماد . و إذا تنازعوا فى العقل — وهى دية المقتول — بأن اشتبه عليهم القاتل أحضروا من اتُّهِمَ بالقتل بالقدحين الموسومين (بالعقل . والغفل) واستقسم لهم الأمين فمن خرج عليه العقل تحمل الدية و إن خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه . وحكى أبو الفرج الأصبهانى : إنهم كانوا يستقسمون عند (ذى الخلصة) أيضاً وإن امرأ القيس لما خرج يطلب بثأر أبيه استقسم عنده فخرج له ما يكره فسب الصنم ورماه بالحجارة ، وأنشد :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا   لم تنهَ عن قتل العداة زورا [1]

قال : فلم يستقسم عنده أحد بعد حتى جاء الإسلام . والذى تحصل من كلام أهل النقل الثقات أن الأزلام كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء : أحدها : قداح الميسر العشرة وقد سبق تفصيلها على الوجه الأكمل . وثانيها : لكل أحد وهى ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل) وعلى الثانى (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) وقال الفراء : كان على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الثانى (نهانى ربى) وعلى الثالث

(١) راجع ص ٢٠٧ من الجزء الثانى

(غفل) فإذا أراد أحدهم الأمر جعلها فى خريطة وهى الربابة وأدخل يده فيها وأخرج واحداً فإن طلع الآمر فعل أو الناهى ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : للأحكام وهى التى عند الكعبة . ذكر ابن إسحق أن أعظم أصنام قريش كان هبل وكان فى جوف الكعبة يتحاكمون عنده فيما أشكل عليهم فما خرج منها رجعوا إليه ، وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق ومعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم بالأزلام ، وقد حرمه الله تعالى فى جملة ما حرم فقال عز اسمه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ » واستشكل تحريم ما ذكر بأنه من جملة التفاؤل وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل . وأجيب بأنه كان استشارة مع الأصنام واستعانة منهم كما يشير إلى ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنهم إذا أرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم وفعلوا ما فعلوا فلهذا صار حراماً . وبعض العلماء يقول : إن سبب تحريم الاستقسام بالأزلام أنه دخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه وافتراء على الله تعالى إن أريد (ربى) فى قولهم : (أمرنى ربى) الله وجهالة وشرك إن أريد به الصنم .

قال (الجد) فى تفسيره[1] ناقلًا عن كتاب الأحكام للجصاص : إن الآية تدل على بطلان القرعة فى عتق العبيد لأنها فى معنى ذلك بعينه إذ كان فيها إثبات ما أخرجته القرعة من غير استحقاق كما إذا أعتق أحد عبيده عند موته على ما بين فى الفقه ، ولا يرد أن القرعة قد جازت فى قسمة الغنائم مثلًا وفى إخراج النساء ؛ لأنا نقول إنها فيما ذكر لتطييب النفوس والبراءة من التهمة فى إيثار البعض ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة . وأما الحرية الواقعة على واحد من العبيد فيما نحن فيه فغير جائز نقلها عنه إلى غيره وفى استعمال القرعة

(١) ج ٢ ص ٢٤٧

النقل وخالف الشافعى فى ذلك فجوز القرعة فى العتق كما جوزها فى غيره وظواهر الأدلة معه وتحقيق ذلك فى موضعه . قال : والحق عندى أن الاستقسام الذى كان يفعله أهل الجاهلية حرام بلا شبهة كما هو نص الكتاب وأن حرمته ناشئة من سوء الاعتقاد وأنه لا يخلو عن تشاؤم وليس بتفاؤل محض و إن مثل ذلك ليس من الدخول فى علم الغيب أصلا بل هو من باب الدخول فى الظن . انتهى ما هو المقصود من كلامه . ولابن القيم كتاب سماه (الطرق الحكمية[1]) ذكر فيه القرعة وجعلها أحد طرق الأحكام الشرعية واستدل على ذلك بقوله تعالى : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » قال[2] : روى عن قتادة كانت مريم عليها السلام ابنة إمامهم وسيدهم فتشاحّ عليها بنو إسرائيل فاقترعوا عليها بسهامهم أيهم يكفلها فقرع زكريا وكان زوج أختها فضمها إليه . وعن ابن عباس : لما وضعت مريم فى المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحى فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . و بقوله تعالى : « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى فقارع فكان من المغلوبين . قال : وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم . و بعد أن أورد عدة أحاديث صحيحة قال : فهذه السنة كما ترى قد جاءت بالقرعة كما جاء بها الكتاب وفعلها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده . قال البخارى فى صحيحه : ويذكر أن قوماً اختلفوا فى الأذان فأقرع بينهم سعد . وقد صنف (أبو بكر الخلال) مصنفاً فى القرعة وهو فى جامعه . قال أحمد فى رواية الفضل ابن عبد الصمد : القرعة فى كتاب الله والذين يقولون القرعة قمار قوم جهال .

وقد أطال ابن القيم فى الاستدلال على كون القرعة من الطرق الحكمية والدلائل الشرعية مما لا يسعه المقام . . ثم بين كيفية القرعة فى فصل مستقل فقال :

---

(١) طبع بمطبعة الاداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ (٢) ص ٢٦٥

إنه يجب من القرعة ما نقل عن سعيد بن المسيّب أنه كان يأخذ خواتيمهم فيضعها في كمه فمن أخرج أولًا فهو القارع . وقال أبو داود : قلت لأبي عبد الله في القرعة يكتبون رقاعاً ، قال : إن شاءوا رقاعاً و إن شاءوا خواتيمهم . وقال أبو منصور : قلت لأحمد كيف يقرع ؟ قال : بالخاتم و بالشيء . وقال إسحق بن راهويه : في القرعة يؤخذ عود شبيه بالقدح فيكتب عليه (عبد) وعلى الآخر (حرّ) . وقال بكير ابن محمد عن أبيه : سألت أبا عبد الله ! كيف تكون القرعة ؟ قال : يلقى خاتم . وعن الأثرم قلت لأبي عبد الله كيف القرعة ؟ فقال سعيد بن جبير يقول بالخواتيم أقرع بين اثنين في ثوب فأخرج خاتم هذا وخاتم هذا ، قال : ثم يخرجون الخواتيم ثم ترفع إلى رجل فيخرج منها واحداً . قلت لأبي عبد الله : فإن مالكا يقول : تكتب رقاعاً وتجعل في طين ، قال : وهذا أيضاً . وقيل لأبي عبد الله : إن الناس يقولون القرعة هكذا يضم الرجل أصابعه الثلاث ثم يفتحها فأنكرها وقال : ليست هكذا انتهى . . ومن أحب الوقوف على تفصيل هذا البحث ومعرفة مواضع القرعة فعليه بهذا الكتاب فإن فيه الكفاية . وعند الحكومة اليوم للقرعة طريق آخر فإنهم يستعملونها في بعض الأمور لا حاجة لنا إلى بيانها ، والله مدبِّر الأمور .

ومن مذاهب العرب المشهورة النسيء

اعلم أن سني العرب كانت موافقة لسني الفرس في الدخول والانسلاخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكَبْس[1] إلى أوان السنة السادسة

(١) قال الشيخ سحنون الميدوى في كتابه (مفيد المحتاج في شرح السراج) للعلامة الاخضرى (ص ١٦) : الكبس في اللغة هو الطي يقال الكبس فلان أي انطوى واجتمع بعضه ببعض وكبست الخرقة اذا طويتها . وفي الاصطلاح : ضم فضلات السنين بعضها لبعض حتى يجتمع منها يوم كامل اما في العجمي فيجتمع في أربع سنين يوم فيزاد في آخر دجنبر وفي السنة الكبيسة فيكون من اثنين وثلاثين يوما وكذلك كبس العربي. انتهى المقصود منه وفي التاج : . . الكبيس في حسابهم في كل أربع سنين يزيدون في شهر شباط يوما فيجعلونه تسعة وعشرين يوما وفي ثلاث سنين يعدونه ثمانية وعشرين يوما يقيمون بذلك كسور حساب السنة ويسمون العام الذي يزيدون فيه عام الكبيس

من ملك أغسطس[١]، وذلك بعد ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسنوا كبس الربع من اليوم فى كل سنة فصارت سنوهم بعد ذلك الوقت محفوظة المواقيت . ويقال إن العرب كانت فى جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تكبس سنيها إلى أن جاورتهم اليهود فى يثرب وأراد العرب أن يكون حجهم فى أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد فى التجارة ولا يزول عن مكانه فتعلموا الكبس من اليهود . ويقال : إن عمرو بن لحى الخزاعى أول من نسأ الشهور وبحّر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى وأول من دعا الناس إلى عبادة الأصنام وقد سبق تفصيل ذلك على أتم وجه . ومعنى النسىء تأخير حرمة شهر إلى آخر . وأصله من نسأت الشىء إذا أخرته فإنهم يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم وهى أربعة : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة فكانوا يتحرجون[٢] فيها من القتال ، وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا فى شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل ويقولون نسىء الشهر فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً فإن احتاجوا أيضاً أحلوه وحرموا ربيعاً الأول ، وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من

---

(١) فى صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٨٧) : « اغيطش » وفى موضع آخر منه « اغشطش »

(٢) اى يكفون انفسهم من حرج القتال اى اثمه . وفى الحديث كنا نتحرج ان نطوف بالصفا والمروة : وهذا مما ورد لفظه مخالفا لمعناه ومنه : تحنث اذا فعل ما يخرج به عن الحنث وتأثم اى جانب الاثم وتحوب اى القى الحوب — وهو الاثم — عن نفسه ، وتلوم اذا تربص بالأمر يريد القاء الملامة عن نفسه قال المرقش :

يا صاحبى تلوما لا تعجلا ان النجاح رهين ان لا تعجلا

الى غير ذلك مما يطول ايراده . وقد الف فى هذا المتقدمون ولكن لم يصلنا — وا اسفاه — شىء منه .

السنة حراماً أيضاً . ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة وكان يختلف وقت حجهم لذلك ، وكان فى السنة التاسعة من الهجرة التى حج بها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة وهو الذى كان على عهد إبراهيم عليه السلام ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام ولذا قال صلى الله عليه وسلم : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .. زعم يوسف بن عبد الملك فى كتابه (تفضيل الأزمنة) أن هذه المقالة صدرت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شهر مارس وهو آذار وهو برمهات بالقبطية وفيه يستوى الليل والنهار عند حلول الشمس برج الحمل والمراد بالزمان السنة . ومعنى كهيئته أى استدار استدارة مثل حالته الأولى . والمراد باستدارته وقوع تاسع ذى الحجة فى الوقت الذى حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوى الليل والنهار . وأضاف رجب إلى مضر لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم فيقال إن ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان وكان من العرب من يجعل فى رجب وشعبان ماذكر فى المحرم وصفر فيحلون رجباً ويحرمون شعبان ، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيداً . وفى رواية أنهم كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين وفى المحرم عامين وهكذا . ووافقت حجة الصديق فى ذى القعدة من سنتيهم الثانية ، وكانت حجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الوقت الذى كان من قبل ولذا قال ما قال .

وحكى ابن إسحق صاحب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أن أول من نسأ الشهور على العرب وأحل منها ما أحل وحرم ما حرم القَلَمّسُ وهو حذيفه بن فقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام على ذلك بعده ولده عباد ثم قام بعد عباد ابنه قلع ثم قام بعد قلع ابنه أمية ثم قام بعد أمية

ابنه عوف ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت عليه بمنى فقام فيها على جبل عند جَمْرَةِ العَقَبَةِ ، وقال بأعلى صوته : اللهم لا أعابُ ولا أخابُ [1] ولا مرد لما قضيت اللهم إنى أحللت شهر كذا ويذكر شهراً من الأشهر الحرم وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه وأنسأته إلى العام القابل أى أخرت تحريمه وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى فكانوا يحلون ما أحل ويحرمون ما حرم . وفى رواية عن الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نقيم بن ثعلبة وكان إذا همّ الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب ويقول لا مرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أخاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول إن صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة [2] وإن قال حلال عقدوا الأوتار وركبوا الأزجة وأغاروا . وعن الضحاك أنه جنادة بن عوف الكنانىّ وكان مطاعاً فى الجاهلية وكان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه . ثم يقوم فى العام القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت النسأة حياً من بنى مالك بن كنانة وكان آخرهم رجلا يقال له القَلَمَّس وهو الذى أنسأ المحرم وكان ملكا فى قومه . وأنشد شاعرهم (ومنا ناسئ الشهر القَلَمَّس) وقال عمير بن قيس أحد بنى فراس ابن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب . ويروى إن القائل الكميت :

لقد علمت معدٌّ أن قومى   كرام الناس إن لهم كراما

---

(١) كذا بالخاء المعجمة) هنا وفى كل موضع وردت فى هذا الكتاب . وفى القاموس (مادة القلمس) اجاب بالجيم ومثله فى شرحه تاج العروس وعليهما اعتمدنا فى تصحيح هذه الكلمة فى (ج ١ ص ٣٣٥) وقد تبين لنا الآن أن صوابها (احاب) بالحاء المهملة من الحوب وهو الاثم فمعنى لا احاب : لا اتهم باثم . فتدبر ! (٢) الازجة جمع زج وهو الحديدة التى تركب فى اسفل الرمح وانكر الجوهرى ورود هذا الجمع . راجع التاج ج ٢ ص ٥١

فأىّ الناس فأتونا بوتر وأىّ الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراماً ؟

(وقال آخر)

أتزعم أنى من فقيم بن مالك لعمرى لقد غيرت ما كنت أعلم
لهم ناسىء يمشون تحت لوائه يحلّ إذا شاء الشهورَ ويحرم

وفى القاموس : إن الناسىء كان يقول اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أخاب اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك فى الرجبين يعنى رجب وشعبان انفروا على اسم الله . وذلك قوله تعالى (إنما النسيء زيادة فى الكفر) وحكى السهيلى فى الروض الأنف أن نسيء العرب كان على ضربين . أحدهما : تأخير شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات وطلب الثارات والثانى تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور فيه إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فوافق حجه فى ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته فى ذى الحجة كما وضع أولا فلما قضى حجه خطب فكان مما قال فى خطبته : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض الحديث . يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة . وقال العسقلانى فى فتح البارى : كانت العرب فى الجاهلية على أنحاء : منهم من يسمى المحرم صفراً فيحل فيه القتال ويحرم القتال فى صفر ويسميه المحرم . ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا . ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا . ومنهم من يؤخر صفر إلى ربيع الأول وربيعا إلى ما يليه . وهكذا إلى أن يصير شوال ذا القعدة وذو القعدة ذا الحجة . ثم يعود فيعيد العدد على الأصل انتهى . وقد استنبط بعض العلماء دليلا على أن

مواقيت الحج لا يجرى على حساب السنة الشمسية الذى كانت الجاهلية تعتمده من قوله سبحانه (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) فإنه جل شأنه خص الحج بالذكر دون غيره من العبادات المؤقتة بالأوقات تأكيداً لاعتباره بالأهلة . وما أحسن ما فصل أبو إسحق الصابى بين السنة الشمسية والقمرية بما يختص به كل واحدة منهما دون الأخرى . فقال : وأما العرب فإن الله تعالى فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مساعيها المتعبة . وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها ، وزكاة أهل ملتها ، وجزية أهل ذمتها ، على السنة الهلالية وتعبدها فيها برؤية الهلال إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة ، وأعلامها لائحة فيتكافأ فى معرفة الفرض ودخول الوقت الخاص والعام ، والناقص الفطنة والتام ، والذكر والأنثى وذو الصغر والكبر ، فحينئذ يجبون فى سنى الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الأراضى الممسوحة ويحسبون فى سنة الهلال الجوالى [1] والصدقات ، والأرحاء والمقاطعات ، وسائر ما يجرى على المشاهرات انتهى

ومن النصوص الواردة فى إبطال النسيء قوله عز اسمه (إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرُم ذلك الدينُ القيم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتّقين ، إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) وما سبق من الكلام يوضح معنى الآية والدين القيم المستقيم . هو دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم حتى

---

(١) قال الخفاجى فى شفاء الغليل : قال فى الزاهر ، الجوالى هم أهل الذمة وانما قيل لهم جوالى لانهم جلوا عن مواضعهم . أ هـ . والناس الآن يتجوزون به عن الخراج وعن الوظائف المرتبة منه وهو ليس بعربى .

إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ويسمون رجب الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا . والمراد بظلم الأنفس فيهن هتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن . ومعنى كون النسيء زيادة فى الكفر الذى هم عليه لأنه تحريم ما أحل الله تعالى وقد استحلوه واتخذوه شريعة وذلك كفر ضموه إلى كفرهم . وقيل لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه . وقيل إنه معصية ضمت إلى الكفر وكما يزداد الإيمان بالطاعة يزداد الكفر بالمعصية . ومعنى ليواطئوا عدة ما حرم الله ليوافقوا عدة ما حرم الله من الأشهر الأربعة أى فعلوا ما فعلوا لأجل موافقة ذلك فيحلوا ما حرم الله بخصوصه من الأشهر المعينة . والحاصل أنه كان الواجب عليهم العدة والتخصيص فحيث تركوا التخصيص فقد استحلوا ما حرم الله كل ذلك اتباعاً لشهوات أنفسهم ، وطلباً لمزيد راحتهم وأنسهم .

الشهور العربية ومآخذ أسمائها

الشهور العربية قسمان : قسم غير مستعمل وهو الذى وضعته العرب العاربة . وقسم مستعمل وهو الذى وضعته العرب منها بالاسم الذى وضع له عند استهلال هلاله . فأما القسم الغير المستعمل فأسماء شهور كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها [(١)] وهى : مؤتمر وناجر وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) وصوان ويقال فيه وَبْصان ورُبَّى وأيِّدة والأصم وعادل وناطل وواغل وَوَرنة وبُرَكُ . وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة . فإن منهم من يقول هى ناتق ونقيل وطليق وأسنح وأنخ وحلك وكسح وزاهر ونوط وحرف ويغش . فناتق هو المحرم ونقيل هو صفر وهكذا ما بعده على سرد الشهور . وكانت ثمود تسميها موجب وموجز ومور [(٢)] وملزم ومصدر وهوبر وهوبل وموها وذيمر [(٣)] ودابر وحيقل ومسيل

---

(١) اعتمدت فى تصحيح هذه الاسماء على صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٦٨) والقاموس وتاج العروس ، ولقطة العجلان . وقد رايت الأستاذ نقل هذا البحث عن اللقطة بالحرف الواحد تقريبا ...

(٢) فى لقطة العجلان « مورد » . (٣) كذا بالذال المعجمة وستأتى قريبا بالمهملة وفى اللقطة : دمير وديمر أيضا .

فرجب هو المحرم وموجر صفر إلا أنهم كانوا يبدأون بالشهور من دبر وهو شهر رمضان فيكون أول شهور السنة عندهم . و بعض أولئك العرب يسميها بالأسماء الأول مع مغايرة يسيرة . و يقول هي : مؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنتم وز با[١] والأصم وعادل وناتق[٢] و واغل وهواع و برك . . ومعنى المؤتمر أنه يأتمر بكل شيء مما تأتى به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر وهو شدة الحر . . وخوان على وزن فعال من الخيانة . وصوان بكسر الصاد وضمها فعال من الصيانة والز با الداهية العظيمة المتكاثفة سمى بذلك لكثرة القتال فيه . ومنهم من يقول بعد صوان الز با و بعد الز با بائدة و بعد بائدة الأصم ثم واغل وناطل وعادل و وَرْنة و بُرَك . فالبائد من القتال إذا كان يبيد فيه كثير من الناس . وجرى المثل بذلك فقالوا « العجب كل العجب بين جمادى و رجب » وكانوا يستعجلون فيه و يتوخون بلوغ الثأر والغارات قبل رجب فإنه شهر حرام . و يقولون له الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه . وذلك لأنه يهجم على شهر رمضان وكان يكثر فى شهر رمضان شربهم الخمر لأن الذى يتلوه هى شهور الحج . وناطل هو مكيال الخمر سمى به لإفراطهم فيه بالشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال . وأما العادل[٣] فهو من العدل لأنه من أشهر الحج وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل . وأما الزبا فلأن الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر . وأما برك فهو لبروك الإبل إذا حضرت المنحر . وقد روى أنهم كانوا يسمون المحرم مؤتمر وصفر ناجر و ر بيع الأول و بصان[٤] و ر بيع الآخر خوان وجمادى الأولى حنتن وجمادى الأخرى ورنة[٥] ورجب الأصم وهو شهر مضر وكانت العرب تصومه فى الجاهلية وكانت تمتار فيه وتميرأهلها وكان يأمن بعضهم بعضاً فيه ويخرجون إلى الأسفار ولا يخافون وشعبان عادل

---

(١) كذا والمشهور (ربى) كما صححناها فى أول البحث من التاج والصبح (٢) فى الاصل «بايق»
(٣) فى القاموس وشرحه : « العاذل » بالذال المعجمة (٤) فى الاصل « نصار » (٥) فى الاصل :« الرنة » .

ورمضان ناتق وشوال واغل وذو القعدة هواع وذو الحجة برك ويقال فيه أيضاً أبروك وكانوا يسمونه الميمون .

(وأما القسم المستعمل) فالمحرم وصفر وربيعان وجماديان ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه الأسماء وضعت على هذه الشهور باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها فسمى ذلك الشهر بها عند ابتداء الوضع فسموا المحرم محرما لأنهم كانوا يغيرون فاتفق أن أغاروا فى هذا الشهر فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه فسموه محرماً وسموا صفراً لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل لأنهم كانوا يغيرون الصفرية وهى بلاد . وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيها بما أصابوا فى صفر والربيع الخِصْبُ ، وقيل غير ذلك والذى ذكر أليق بالتعليل حكاه ابن النحاس فى كتاب (صناعة الكتاب) وجماديان من جمد الماء لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً . ورجب لتعظيمهم له والترجيب التعظيم وقيل رجب لأنه وسط السنة مشتق من الرواجب وهى أنامل الإصبع الوسطى ، وقيل إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه فسمى بذلك ، وكذلك تشعب العود فى الشهر الذى يليه فسمى شعبان ، وقيل سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات ، وسمى رمضان أى شهر الحرّ مشتق من الرمضاء وقد صادف ذلك وقت التسمية ، وشوال من شالت الإبل أذنابها إذا حالت أو من شال يشول إذا ارتفع وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمى به .

ويقال أن أول من سماها بهذه الأسماء كلاب بن مرة ، ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم : ثلاثة سرد وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب مضر على الإضافة لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وهذا الترتيب رواه الأصمعى عن العرب ، واختار غيره أن يبدأ فى العدد بالمحرم ثم رجب وذى القعدة وذى الحجة لتكون الأربع كلها معدودة فى سنة واحدة . وروى عن ابن عباس

رضى الله تعالى عنه ، وأبدى بعضهم لترتيب الأشهر الحرم على هذا الوجه مناسبة لطيفة حاصلها أن للأشهر الحرم مزية على ما عداها فناسب أن يبدأ بها العام وأن تتوسطه وأن تختم به ، وإنما كان الختم بشهرين لوقوع الحج ختام الأركان الأربعة لأنها تشتمل على عمل مال محض وهو الزكاة وعمل بدن محض وذلك تارة يكون بالجوارح وهو الصلاة . وتارة بالقلب وهو الصوم لأنه كف عن المفطرات ، وتارة عمل مركب من مال وبدن، وهو الحج فلما جمعهما ناسب أن يكون له ضعف ما لواحد منها فكان له من الأربعة الحرم شهران . وكانوا يعظمون هذه الأشهر ويحرمون القتال فيها حتى إن الرجل منهم لو لقى قاتل أبيه أو قاتل أخيه لم يكلمه وهم يعظمون أول يوم من رجب أوفر تعظيم حسبما يخطر بالبال ، ومن سنتهم فيه أن يصالح بين من كان بينه وبين غيره موجدة . . ومن هذه الأشهر أربعة لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة وهى شهرا ربيع وشهر رجب وشهر رمضان والأشهر المتفقة أوائلها[1] المحرم مثله شوال . صفر مثل رجب . ربيع الأول مثله

---

(١) ههنا ضابط لا ينجلى معنى هذا الكلام الا بايراده . وهو : انهم وضعوا لكل شهر من شهور السنة حرفا وذلك لمن يريد ان يعرف اليوم الذى يدخل به الشهر العربى فى عامه ويجمع تلك الحروف قوله (اجد وزب جهر ابد) فللمحرم الالف واصفر الجيم وهكذا . . . وكيفيتها : معرفة أول اى شهر اردت انك تاخذ حرف شهرك المجهولة رؤيته وتبدأ بالعدد من اليوم الذى دخل به عامك العربى وهو المحرم فحيث انتهى لك العدد فذلك اليوم الذى يدخل به شهرك المطلوب .

مثال ذلك : ان اول المحرم من هذا العام — ١٣٤٠ — كان (الاحد) فاذا اردت ان تعرف اليوم الذى يبتدىء به ذو القعدة مثلا فخذ حرفه وهو (الباء) وعدده بحساب الجمل (اثنان) فتقول : الاحد الاثنين فتقف على الاثنين فانه اول ذى القعدة وهلم جرا . . فاذا عرفت هذا الضابط الذى هو مناط الثريا على كثير من الناس تبين لك معنى قوله : والاشهر المتفقة اوائلها المحرم مثاله شوال الخ . . واعلم انك اذا ضل عنك الشهر العربى ولم تعلم فى اى شهر انت فيه من شهور العام تعد من يناير الى الشهر العجمى الذى انت فيه واحمل على العدد سبعة ابدا فما اجتمع بدأت به من جمادى الأولى متماديا على الشهور فعلى اى شهر وقف حسابك ففيه انت ان شاء الله . وايضا اذا لم تعلم بأى يوم دخل فانظر بأى يوم اهل الهلال فى الشهر الذى أنت فيه ثم خذ علامة ذلك الشهر وعدها الى وراء من اليوم الذى هل به الشهر الذى انت فيه فحيثما انتهى حسابك فيما قبل فهو اليوم الذى يدخل به المحرم . وهناك ضوابط كثيرة مهمة من هذا القبيل تجدها فى كتب الفلك والله ولى التوفيق

ذو الحجة . ربيع الآخر مثله رمضان ، جمادى الآخرة مثله ذو القعدة ، والشهور الغير المتفقة جمادى الأولى وشعبان . والله ولى التوفيق وهو المستعان ، وقد أوردنا من أفعالهم وأعمالهم التى جبّها الإسلام وأبطلها الشرع المحمدى ما فيه الكفاية فى هذا المقام ، وأما استيعابها فيحتاج إلى كتب مفصلة ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد ، ومن تتبع كتب المتقدمين ، وشروح دواوين الجاهليين ، أمكنه أن يقف على أكثر مما ذكرنا .

ذكر ما كان للعرب فى الجاهلية من العلوم والمعارف

قد أسلفنا فى أوائل الكتاب أن العرب كانوا على أقسام مختلفة ، وأصناف متغايرة ، وأن البائدة منهم كعاد وثمود وطسم وجديس إلى غير ذلك من الأمم قد انقرضوا وانقطعت عنا أخبارهم وتفاصيل أحوالهم . وأن غير البائدة (وهم موضوع الكتاب) قد تفرعوا من عدنان وقحطان : أما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على أحسن ما يكون من التمدن والغالب منهم سكن البلاد المعمورة ، وبنوا القصور المشهورة ، وشيدوا الحصون المذكورة . وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهل الأخبار على أتم وجه . هذه (سبأ) قد ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم فقال عزَّ اسمه (لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فى مسكنهم آيةٌ جنّتانِ عن يمينٍ وشمال كُلُوا من رِزْقِ ربّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وَرَبٌّ غَفُور) وكان لهم ملوك وأقيال دوّخوا البلاد واستولوا على كثير من أقطار الأرض ؛ كل ذلك يدل على كمال وقوفهم على العلوم التى لا بدَّ منها فى حفظ النظام وعليها مدارُ المعاش والانتعاش وسياسة المدن وتدبير المنزل والجيوش وتأسيس المدن وإجراء المياه وغير ذلك مما لا يمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة وكانت لهم أديان مختلفة وقد أرسل الله تعالى لهم من بلغهم ما أراد من الأوامر

والأحكام فآمن مَنْ آمن وكذب من كذب كحال غيرهم من الأمم وكانت لهم اليد الطولى فى كثير من الصناعات وكانت للتبابعة والجبابرة منهم مذاهب فى أحكام النجوم وغيرها : كل ذلك من المسلمات التى لا يمكن لأحد التوقف فى قبولها ولا التردد فى الإذعان لها وقد نطق متواتر الأخبار الصحيحة بها . . وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقتهم حادثة سيل العَرِمِ ، فكانوا على شريعة موروثة وعلم منزل من السماء وهو ما جاء به إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام إلى أن اختلّ أمرهم ، وتغير حالهم ، بمرور العصور ، وتطاول الدهور ، فأهملوا ما كانوا عليه من الدين ، وتركوا سديد القوانين ، ودانوا بما وضع لهم الخزاعى [1] وابتدعه لإغوائهم من الأحكام الباطلة واقتدوا بأقواله وأفعاله ، فمن ذلك اليوم فشا الجهل بينهم وقلّ العلم فيهم وأضاعوا صنائعهم وتشتتوا فى الأطراف والأكناف ، ووقع التنازع والتشاجر بين القبائل وتكاثرت البغضاء بينهم ، فلم يبق عندهم علم منزل ولا شريعة موروثة من نبى ولا هم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطبّ والحساب ونحوهما إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم أو ما احتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب ونحو ذلك . وكانوا يقال لهم الأمة الأمية . قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مُبين) فإن المراد من الأميين العرب والأمى منسوب إلى أمة العرب ولما كانت علومهم الفطرية ومعارفهم الطبيعية مما تدل على حدة أذهانهم ، وقوة فطنتهم ، وكمال استعدادهم وأنها تدل على أنهم فاقوا على [2] غيرهم ، أحببت

---

(١) هو عمرو بن لحى (٢) الصواب : فاقوا غيرهم لأن فاق يتعدى بنفسه . قال المجد : فاق اصحابه فوقا وفواقا علاهم بالشرف . انتهى . وفى الحديث : حبب الى الجمال حتى ما احب ان يفوقنى احد بشراك نعل . وقال الشاعر : —

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

أن أذكر نبذة منها مع تعريفها وتوضيحها و بيان ما يناسب من الأخبار التى صحت بها الرواية ، وثبت عن الثقات من أهل الدراية . فمن علومهم :

علم الشعر والقريض

اعلم أن الشعرَ أكثر علم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من الشعر لحكمة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، و يستعطف بها اللئيم ؛ مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة . وفى عمدة ابن رشيق (١) : العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم كفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ، فإنه لا بد للإنسان من أن يتولى ذلك بنفسه ، أو يحتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه ، وكلام العرب نوعان : منظوم ، ومنثور ولكل نوع منهما ثلاث طبقات : جيدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ولم يكن لأحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً فى التسمية لأن كلّ منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة . ألا ترى أن الدرّ وهو أخو اللفظ ونسيبه و إليه يقاس و به يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى له كسب ، ومن أجله انتخب ، و إنْ كان أعلى قدراً ، وأعلى ثمناً ، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماء ، وتدحرج عن الطباع ، ولم يستقر منه إلا المفرطة فى اللفظ و إن كانت أجمله ،

(١) ص ٤

والواحدة من الألف وعسى أن لا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتيمة [١] المعروفة والفريدة الموصوفة ، فكم فى سفط الشعر من أمثالها ونظائرها لا يعبأ به ولا ينظر إليه ، فإذا أخذ سلك الوزن وعقدة القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده وبناته ، واتخذه اللابس جمالاً ، والمدخر مالاً فصار قرطة [٢] الآذان ، وقلائد الأعناق ، وأما فى النفوس ، وأكاليل الرؤوس ، يقلب بالألسن ، ويخبأ فى القلوب مصوناً باللب ، ممنوعاً من السرقة والغصب ، وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر وأقل جيداً محفوظاً ، وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب جيد المنثور . وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم قد شعروا به أى فطنوا . وزعم [٣] الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً وأنه إنما قصد على عهد هاشم ابن عبد مناف . وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجئ الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة ذكر ذلك الجمحى وغيره . . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلى شيئاً يسيراً وكان على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتى العجاج فافتن فيه فالأغلب العجلى والعجاج فى الرجز كامرىء القيس ومهلهل فى القصيد . . وسئل أبو عمرو بن العلاء [٤] : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحرث بن حلزة ومن شابههما ، وإلا فالقطع أطير فى بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة .

---

(١) أى الدرة التى لا نظير لها . (٢) قرطة : على وزن عنبة جمع قرط وهو ما يعلق فى شحمة الاذن (٣) العمدة : ج ١ ص ١٢٦ (٤) العمدة : ج ١ ص ١٢٤ .

اهتمام القبائل بشعرائها

ومن مذاهب العرب أن القبيلة منهم كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر[1] كما يصنعن بالأعراس ، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم ، وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يُولَد أو فرس تُنْتَج أو شاعر ينبغ فيهم . فممن حمى قبيلته زياد الأعجم : وذلك أن الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً — وهو منهم — فبعث إليه : لا تعجل فإني مهدٍ إليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده هجو وهو هذا :

وماتركَ الهاجون لى إن هجوته　　مصحاً أراه فى أديم الفرزدقِ
ولا تركوا عظما يرى تحت لحمه　　لكاسره أبقوه للمتعرق[2]
سأكسر ما أبقوا له من عظامه　　وأنكت[3] مخّ الساق منه وأنتقى
فأنا وما تهدى لنا إن هجوتنا　　لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

فلما بلغته الأبيات كف عما أراد ، وقال : لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش (العبد) هذا فيهم . وهجا (عبد الله) بن الزبعرى السهمى بنى قصىّ فدفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعراً مُفْلقاً شديد المعارضة قذع الهجاء ، فلما وصل عبد الله بن الزبعرى إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه . فقال عبد الله :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى　　وإن صالحتْ إخوانَها لا أَلومُها

---

(١) جمع مزهر كمنبر وهو العود يضرب به . (٢) عرق العظم وتعرقه : أكل ماعليه من اللحم نهشا باسنانه (٣) نكت العظم : أخرج مخه . ونقوت العظم وانتقيته : استخرجت مخه . قال الشاعر :

ولا يسرق الكلب السروق نعالنا　　ولا ننتقى المخ الذى فى الجماجم

وفى حديث عمرو بن العاص يصف سيدنا عمر (رض) : ونقت له مخنتها ، يعنى الدنيا يصف مافتح له منها .

فود جُناةُ الشر أنّ سيوفَنَا ... بأيمـاننا مسلولةٌ لانشيمُها(١)

فإنّ قُصَيًّا أهل عزّ ونجدةٍ ... وأهل فَعال لايُرام قَديمها

هُمُ منعوا يَوْمَىْ عُكاظ نساءنا ... كما منع الشولَ الهجانَ قرومُها(٢)

وكان الزبير غائباً فى الطائف فلما وصل إلى مكة و بلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ ... ثيابَ أعزةٍ حتى يموتوا

ثيابُهُمُ سِمالٌ أو طمارٌ ... بها دسم كما دسم الحَميتُ(٣)

ولـكنا خلقنا إذْ خلقنا ... لنا الحبرات والمسكُ الفَتِيتُ(٤)

والأخبار فى هذا الباب ، لايحيط بها الاستقصاء والحساب ، وقـد عمل بهذا المذهب إلى صدر الإسـلام ، ولولا خوف التطويل لأوردنا شـيئاً من ذلك فى هذا المقام .

تنقل الشعر فى القبائل

ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحىّ فى كتاب الطبقات وغـيره من المؤلفين أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة . وكان منهم مهلهل بن ربيعة واسمـه عدىّ . وقيل امرؤ القيس وسمى مهلهلاً لهلهلة شعره أى رقته وخفته ، وقيل لاختلافه ، وقيل بل سمى بذلك لقوله :

(١) شام سيفه يشيمه : غمـده واستله ضد . (٢) يوما عكاظ : هما من ايام العرب الشهيرة ، وعكاظ سوق بصحراء بين نخلة والطائف . راجع الجزء الأول (ص ٢٦٧) ، والشول جمع شائلة على غير قياس والشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها او وضعها سبعة اشهر فجف لبنها ، والشائل بغير هاء التى تشول — ترفع — بذنبها اللقاح ولا لبن لها اصلا والجمع شول كركع جمع راكع . والهجان : من الابل الخالصة اللون والعتق وهى اكرم الابل ، والقروم : جمع القرم —بالفتح —وهو الفحل (٣) قوله : سمال . يقال سمل الثوب سمولا وسمولة ، اخلق كاسمل وسمل ككرم فهو ثوب أسمال كما يقال رمح اقصاد وبرمة اعشار ، والطمار : الثياب البالية . والدسم : الودك من لحم وشحم . والحميت : وعاء السمن كالعكة ، وقيل وعاء السمن الذى متن بالرب ، وقيل الزق الصغير او الزق بلا شعر . (٤) الحبرة وزان عنبة ثوب يمانى من قطن او كتان مخطط يقال برد حبرة على الوصف وبرد حبرة على الاضافة والجمع حبر وحبرات مثل عنب وعنبات . قال الازهرى أ ليس حبرة موضعا او شيئا معلوما انما هووشي معلوم اضيف الثوب اليه كماقيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغه فأضيف الثوب الى الوشى والصبغ للتوضيح (المصباح) .

لما توقل فى الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صِنْبلا[1]

ويروى (لما توعر[2] فى الكلاب هجينهم) قال أبوسعيد الحسن بن الحسين السكرى : يعنى بقوله امرأ القيس بن حمام الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره حيث يقول :

عُوجا على الطَّلَلِ المُحِيل لأننا نبكى الديارَ كما بكى ابنُ حُمامِ[3]

---

(١) صنبل : قال المجد « صنبل كخندف علم رجل من تغلب » والهجين : قال الزبيدى « هو امرؤ القيس بن الحمام ، وجابر وصنبل من بنى تغلب » . وروى الجوهرى «مالكا» بدل «جابرا» وهو غير صواب (٢) أى اخذ فى مكان وعر . (٣) البيت هو من قصيدة لامرىء القيس استشهد به صاحب الكشاف عند قوله تعالى (وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون) بفتح الهمزة فى قراءة أهل المدينة بمعنى (لعل) كما أن (لأننا) فى البيت بمعنى (لعلنا) . قال ابن رشيق فى العمدة (ج ١ ص ٥٤) : (يروى فى البيت ـ لأننا بمعنى لعلناوهى لغة امرىء القيس فيما زعم بعض المؤلفين والذى كنت أعرف (لعننا) (بالعين ونونين) والمحيل : الذى أتى عليه الحول . وعوجا : أمر من عجت البعير أعوجه عوجاومعاجا اذاعطفت رأسه بالزمام . وابن حمام : شاعر قديم ، وليس هو ابن حذيم الطبيب المشهور الذى يضرب به المثل فى الطب فيقال (أطب بالكى من ابن حذيم) كما وهم ابن الأثير فى المرصع . قال العلامة الشيخ عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب (ج ٢ ص ٢٣٤) : (جميع من ذكر ابن حذام الشاعر لم يقل انه هو ابن حذيم الطبيب ، وقد اختلف فى ضبط اسمه فالذى رواه الآمدى ـ ابن خذام ـ بمعجمتين . قال : من يقال له ابن خذام منهم ابن خذام الذىذكره امرؤ القيس فىشعره وهو أحد من بكىالديار قبل امرىء القيس ودرس شعره قال امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

قوله (لأننا) يريد (لعلنا) ذكر ذلك أبو عبيدة وقال : قال لنا أبو الوثيق ممن ابن خذام ؟ فقلنا مانعرفه ، فقال : رجوت أن يكون علمه بالأمصار . فقلنا: ماسمعنا به . فقال : بلى قد ذكره امرؤ القيس وبكى على الديار قبله فقال (كأنى غداة البين يوم تحملوا) البيت انتهى . وقال ابن رشيق فى العمدة : الذى أعرف أن (ابن حذام) بذال معجمة وحاء غير معجمة كما روى الجاحظ وغيره . انتهى . وضبطه بعضهم (ابن حمام) بحاء مهملة مضمومة بعدها ميم غيرمشددة واسمهامرؤالقيس. قال الآمدىعند ذكرالمسمين بامرىءالقيس: ومنهم امرؤ القيس بن حمام . ثم ذكر نسبه ، وقال : والذى أدركه الرواة من شعره قليل جدا وكان امرؤ القيس هاربا فقال مهلهل :

لما توغل فى الكراع هجينهم هلهلت اثأر جابرا او صنبلا

فى قصة مذكورة فى أخبار زهير بن جناب وبهذا البيت قيل لمهلهل (مهلهل) وبعض الرواة يروى بيت امرىء القيس بن حجر :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حمام

وكان مهلهل تبعه يوم الـكلاب ففاته ابن الحمام بعد أن تناوله بالرمح وقد كان ابن الحمام أغار على بنى تغلب مع زهير بن جَنَاب فقتل جابراً وصنبلا . وروى لأننا بمعنى لعلنا وهى لغة فيما زعم بعض المؤلفين ، وكان مهلهل أول من قصد القصائد . قال الفرزدق (ومهلهل الشعراء ذاك الأول) وهو خال امرىء القيس ابن حجر وجدّ عمرو بن كلثوم لأمه . ومنهم المرقشان والأكبر منهما عم الأصغر والأصغر عم طَرَفة ابن العبد واسم الأكبر عوف بن سعد وعمرو ابن قَمِيئَةَ ابن أخته[1] ، ويقال إنه أخوه ، واسم الأصغر حرملة ، وقيل ربيعة ابن سفيان وهذا أعرف . . ومنهم سعد ابن مالك الذى يقول :

يا بؤْسَ للحربِ التى وضعتْ أراهطَ فاستراحُوا[2]

يعنى امرأ القيس هذا ويروى ابن خذام . انتهى . ومثله للعسكرى فى كتاب التصحيف قال : ومنهم امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل ابن أخى زهير بن جناب بن هبل ويزعم بعضهم انه الذى عنى امرؤ القيس بقوله (نبكى الديار كما بكى ابن خذام) وكان يغزو مع مهلهل واياه اراد مهلهل بقوله (لما توغل فى الكلاب هجينهم) البيت فالهجين هو امرؤ القيس ابن حمام وجابر وصنبل رجلان من بنى تغلب . انتهى ...) .

(١) فى العمدة : (ابن اخيه) فليحقق ؛ (٢) هذا البيت من قصيدة له قالها فى حرب البسوس حين هاجت بين بكر وتغلب لقتل كليب ، واعتزل الحرث بن عباد وقال هـذا امر لاناقة لى فيه ولاجمل فعرض سعد فى هـذا الشعر بقعوده وقد اوردنا القصيدة فى الجزء الثانى (ص ١٤٩) فلتراجع . وقوله يابؤس للحرب اللام فيه لتاكيد الاضافة وهى اضافة لاتخصص ولا تعرف وهذه اللام على هذا الحد لاتجىء الا فى بابين احدهما فى باب النفى بلا وذلك نحـو لاغلامى لك ولا اباك وما اشبههما ، والثانى فى باب النداء فى مثل قوله يابؤس للحرب وانما المعنى يابؤس الحرب الا ترى انه لو لم يرد الاضافة لنون يابؤس فى النصب لكونه نكرة أو كان يجعله معرفة فيبنيه على الضم وقد أتى الشاعر به فى باب النفى على أصله فى الاضافة فقال :

أبا لموت الـذى لا بد انى مـلاقى لا اباك تخـوفينى

والذى يدل على ان هذه الاضافة لاتخصص أن (لا) قد عمل معها وهو انما تعمل فى النكرات . واراهط جمع ارهط جمع رهط وهو النفر من ثلاثة الى عشرة ، فاذا نصبت اراهط جعلت الحرب الفاعلة ، وليس الوضع ههنا ضد الرفع وانما المراد انها تركتهم فلم تكفلهم القتال وانما يعنى الحرث ابن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب ، ومن رفع اراهط فالمعنى يابؤس الحرب التى وضعها اراهط وهذا اللفظ هو الأصل لأن قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحرب بنى فلان مجاز واتساع . انتهى بتصرف من شرح ديوان الحماسة .

وطَرَفة بن العبد بن سفيان وعمرو بن قَمِيئة والحرث بن حِلِّزة والمتلمس وهو خال طَرَفة ، واسمه جرير بن عبد المسيح . والأعشى واسمه ميمون بن قيس ابن جندل . وخاله المسيب بن عَلَس واسم المسيب زهير . . ثم تحول الشعر فى قيس فمنهم النابغتان ، وزهير بن أبى سُلمى ، وابنه كعب لأنهم ينسبون فى بنى عبد الله ابن غَطَفان ، واسم أبى سُلْمى : ربيعة ، ولَبيد ، والحطيئة ، والشماخ واسمه معقل ابن ضرار ، وأخوه مزرد واسمه جزء بن ضرار . وقيل يزيد وجزء (أخوهما) وكان مزرد[1] شريراً يهجو ضيوفه وهجا قومه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال :

تعلم رسولَ اللهِ أنا كأنما أفأنا بأنمار ثعالب ذى ضحل
تعلم رسول الله لم أر مثلهم أجرّ على الأدنى وأحرم للفضل

الضحل : الماء القليل فى الأرض لا عمق له جمعه أضحال . ومنهم خداش ابن زهير وكان له السبق فى الشعر فى وقته . ثم استقر الشعر فى تميم ومنهم أوس ابن حَجَر شاعر مُضَر فى الجاهلية ولم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وبقى شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع . وكان الأصمعى يقول : أوس أشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه وكان زهير راوية أوس ، وكان أوس زوج أمّ زهير وسئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ فقال : أرجلا أم حياً ؟ قال : حياً فقال : أشعر الناس حياً هذيل . وقال ابن سلام الجمحىّ : وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع . وقال الأصمعى : قال أبو عمرو بن العلاء ؛ أفصح الناس لساناً وأعربهم[2] أهل السروات وهن ثلاث وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن فأولها هذيل وهى تلى السهل من تهامة ثم بَجيلة السراة الوسطى . وقد شركتهم ثقيف فى ناحية أخرى منها ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث ابن نصر بن الأزد وقال أبو عمرو : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس . وقال أبو زهد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة يعنى عجز هوازن . قال ولست أقول ؛

---

(١) ترجمته فى الاصابة للعسقلانى ج٥ ص٨٥ . (٢) فى العمدة (وأعذبهم)

قالت العرب إلا ماسمعت منهم ، و إلا لم أقل قالت العرب . . وأهل العالية أهل المدينة ومَنْ حولها ومن يليها ومن دنا منهم ولغتهم ليست بتلك عندهم[١] . وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرئ القيس وفى الإسلام بحسان بن ثابت ، وفى المولدين بأبى نواس وأصحابه مسلم بن الوليد وأبى الشيص ودعبل كلهم من اليمن . وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين أبو تمام والبحترى ويختمون الشعر بأبى الطيب وهو خاتم الشعراء لا محالة . وكان ينتسب[٢] فى كندة وهى رواية ضعيفة وإنما ولد فى كندة بالكوفة فيما حكاه ابن جنى . وإلا فكان غامض النسب فيقولون بدئ الشعر بكندة يعنون امرأ القيس — وختم بكندة — يعنون أباالطيب وزعم بعض المتأخرين أنه جعفى ، وقوم منهم الصاحب بن عباد يقولون : بدئ الشعر بملك وختم بملك . يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحرث بن سعيد بن حمدان . وقال آخرون : بل رجع الشعر إلى ربيعة فختم بها كما بدئ بها يريدون مهلهلاً وأبا فراس وأشعر أهل المدر بإجماع من الناس واتفاق حسان بن ثابت . وقال أبوعمرو بن العلاء : ختم الشعر بذى الرُّمَّة والرجز برؤبة بن العجاج . وزعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . قال : وإنما هو كلام وأجودهم كلاماً أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شئ يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره كان أجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته (قد جبر الدين الإله فجبر[٣]) فيها نحومائتى بيت وهى موقوفة مقيدة . قال: ولو أطلقت

---

(١) فى — ع — (عنده) (٢) فى — ع — (ينسب (٣) هذا الشطر مطلع ارجوزة طويلة له ، وهى — كما قال — نحو مائتى بيت مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر ،وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لقتال ابى فديك الحرورى فاوقع به وباصحابه . . وبعده :

وعور الرحمن من ولى العور

فالحمد لله الذى اعطى الشبر موالى الحق ان المولى شكر

الى ان قال :—

واختار فى الدين الحرورى البطر فى بئر لا حور سرى وما شعر

والقصة فى نهاية الأرب للنويرى، وخزانة الأدب الشيخ عبد القادر البغدادى (ج ٢ ص ٩٧)

فيها وتباعد فيها الوزن لـكانت منصوبة كلها . وقال أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شـاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله ، وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف مافيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعـل الشعراء بالقصيد ، فـكان فى الرجّاز كامرئ القيس فى الشعراء . وقال غيره : أول من طول الرجز الأغلب العجلى وهو قديم . وزعم الجمحى وغيره أنه أول من رجز ، وما أظن ذلك صحيحاً إلا أنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بابن هرمة ولم أر أنقد من الذى قال : أشعر الناس من أنت فى شعره .

أنفة شعراء العرب من التكسب بالشعر

كانت العرب لاتتـكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم مايصنع فـكاهة أومكافأة عن يد لايستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها . قال امرؤ القيس بن حُجْر يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقرَّ حشى امْرِئِ القيس بن حُجْرٍ (١) بَنُو تـيمٍ مَصابيحُ الظّلام

لأن المعلى أجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء فقيل لبنى تيم مصابيح الظلام ببيت امرئ القيس . وقال أيضاً لسعد بن الضباب :

سأَجْزِيكَ الذى دافعت عنّى وما يَجْزِيك عنّى غير شكرى

فأخبره أن شـكره هو الغاية فى مجازاته ، حتى نشأ النابغة الذُبْيانى فمـدح الملوك ، وقبـل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته

(١) أى سكن روعه .

وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيهما من عطايا الملوك. وتكسب زهير بن أبى سُلْمى يسيراً مع هَرم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابَهُ ، وأجزل عطيته ، لعلمه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استخف به واستهجنه لكنه حَذَا حَذْوَ ملوك العرب ، . وأكثر العلماء يقولون إنه أول من سألَ بشعره وقد علمنا أن النابغة أسنّ منه وأقدم شعراً وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع ما فيه قبح من مجاعلة[1] الحاجب ، ودسّ الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك . وذكر أن أبا عمرو بن العلاء سئل : لم خضع للنعمان النابغةُ ؟ قال : رغب فى عطاياه وعصافيره وأما زهير بن أبى سُلْمى فما بلغ الطائى قطّ معرفة باجتداء من يمدحه ويدلّك على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لابنة زهير حين سألها : ما فعلت حلل هرم بن سنان التى كساها أباكِ ؟ قالت : أبلاها الدهر . قال : لكن ما كسا أبوكِ هرماً لم يبله الدهر . وقال لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى ما قال فيكم زهير فأنشده . فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن . قال : ياأمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . . ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه حتى مقت وذل أهله ، وهلم جرا إلى أن حرم السائل وعدم المسئول . وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس إلا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمة ، ولهذا قال عمر رضى الله تعالى عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته . ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما

---

(١) جاعله مجاعلة وجعالا : رشاه . وفى الأساس هو يجاعله أى يصانعه برشـــوة .

(٢) راجع صفحة ٢٢ من هذا الجزء

بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها لعادته عند هبوب الصّبا وقد أسنّ وأقلّ ، وكان يطعم الناس ما هبت الصبا ، قال لبنته : اشكرى هذا الرجل فإنى لا أجِد نفسى تجيبنى ولقد أرانى لا أعيا بجواب شاعر فقالت :

إذا هبَّتْ رياحُ أبى عقيل دَعَوْنا عند هبتها الوَليدَا [1]
أغرَّ الوجهِ أبيضَ عَبْشَمِيًّا أعان على مروءته لَبيدا [2]
بأمثالِ الهضابِ كأنَّ ركباً عليها من بنى حامٍ قعُودا [3]
أبا وهْبٍ جزاكَ اللهُ خيراً نحرناها وأطْعَمْنا الثّريدا
فَعُدْ إن الكريمَ لهُ مَعَادٌ وظَنّى بابنِ أرْوَى أن يَعُودا

وعرضتها عليه فقال : أجدت لولا أنك استعدْتِ ! كراهيةً فى قولها (فعد إن الكريم له معاد) ويروى : لولا أنك استزدْتِ . . وقالوا : كان الشاعر فى مبتدأ الامر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر ، وشدة المعارضة ، وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمةً وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه ، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة وتتطعموا أموالَ الناس وجشعوا فخشعوا واطمأنّت بهم دار الذلة إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها ، حتى قبض نقيّ العرض مصون الوجه مالم يكن به اضطرار يحل الميتة . فأما من وجد الكفاف والبُلْغة فلا وجه لسؤاله بالشعر

---

(١) هبوب الصبا : كناية عن القحط (٢) عبشميا : منسوبا الى بنى عبد شمس . ويروى أشم الأنف أروع عبشميا (٣) بأمثال : منعلق بأعان . والهضاب جمع هضبة وهى ما ارتفع من الارض أو هى كل جبل منبسط . والمعنى : أعان بجمال ضخام أمثال الهضاب اضخامتها . وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها ، وضربت لسواد أسنمتها مثلا وهم بنو حام أى السودان .

ذكر نبذة من مآثر شعراء العرب وغُرَر شعرهم

قد كتبت فى هذا المقام عند تأليف هذا الكتاب من أخبار شعراء الجاهلية وأحوالهم ، ما كفانا عنه كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الشأن فأسقطته عند الطبع ، وتعوضت عنه بذكر ما انتقاه بعض الأئمة من عيون الأشعار ، وأحاسنها ، وفصوصها ، وفرائدها ، والمختص من الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة ، والألفاظ الفاخرة ، فى الفنون المتغايرة ، لسحرة الشعراء وأمراء الكلام الحرّ ، مِنْ لدن امرئ القيس ، ومَنْ يليه مِنْ فحول الجاهليين ، ومَنْ يتلوهم مِنْ مُفْلِقى المخَضْرَمين وهلم جرّا إلى أعيان الإسلاميين ، وما أورده لكل من المذكورين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم من أمير شعره ، وواسطة عقده ، ودرة تاجه ، وغرة كلامه ، وبيت قصيده ، وفريدة قلادته ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا ما كان عليه القوم من المنزلة الرفيعة فيما امتاز به النوع الإنسانى عن غيره ، وما أوتوه من الحكمة وفصل الخطاب ، وما توفيقى إلا بالله .

امرؤ القيس بن حجر الكندى

هو أمير الشعراء ، بشهادة خير الأنبياء ، وسيد الفصحاء ، صلوات الله وسلامه عليه . وذلك أنه ذكر عنده يوما فقال صلى الله تعالى عليه وسلم (ذلك رجلٌ مذكورٌ فى الدنيا منسيّ فى الآخرة يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار) فيروى أن كلاًّ من لبيد وحسان بن ثابت قال : لبت هذه المقالة فى وأنا المدهدى فيها فيقال إن أمير شعر أمير الشعراء قوله من قصيدة :

البرّ أنجح ما طلبت به   والبرُّ خيرُ حقيبة الرجل

ومن أمثاله السائرة قوله فى القناعة والرضى باليسير عند تعذر الكثير :

إذا ما لم تكن إبلٌ فمِعْزَى ... كأنّ قُرون جِلّتها العِصِيُّ[١]

فتملأُ بيتنا أقِطًا وسَمْنًا ... وحسبكَ من غِنى شِبَعٌ وريٌّ[٢]

ومما يضاد هذه الحالة من بعد الهمة والسموّ إلى معالى الأمور قوله :

فلو أنّ ما أسعى لأدنى مَعيشةٍ ... كفانى ولم أطلُبْ قليلٌ من المال[٣]

ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى[٤]

ومن أمثاله السائرة

وقاهم جَدُّهم ببنى أبيهم ... وبالأشقَيْن ما حلّ العِقابُ[٥]

وقوله

أراهنّ لا يحببن مَنْ قلّ مالُه ... ولا مَنْ رَأَيْنَ الشيبَ فيه وقوّسا

ألا إنّ بعد العُدْمِ للمرء قِنْوةً ... وبعد المشيب طول عمرٍ ومَلْبَسَا[٦]

---

(١) المعزى : ذوات الشعور من الغنم : قال الامام سيبويه : معزى منون مصروف لأن الالف للالحاق لا للتأنيث وهو ملحق بدرهم على فعلل لأن الالف الملحقة تجري مجرى ما هو من نفس اكلم ، يدل على ذلك قولهم معيز واريط فى تصغر معزى وأرطى فى قول من نون فكسروا مابعد ياء التصغير كما قالوا دريهم ولو كانت للتأنيث لم يقلبوا الالف ياء كما لم يقلبوها فى تصغير حبلى وأخرى . وقال الفراء : المعزى مؤنثة وبعضهم ذكرها . وقال ابن الاعرابى : معزى يصرف اذا شبهت بمفعل وهى فعلى ولا تصرف اذا حملت على فعلى . وهو الوجه عنده . . و « جلتها » بكسر الجيم وتشديد اللام جمع جليل أى عظيم وهو فى الأصل المسن من الابل فاستعمله الشاعر فى المسن من الغنم مجازا . ويورد العروضيون البيت (شاهدا فى البحر الوافر) بهذا اللفظ : لنا غنم نسوقها غزار . كأن . . . الخ (راجع المختصر الشافى ص ١٧ من طبعة المطبعة الازهرية والحاشية الكبرى للدمنهورى ص ٤٦) . (٢) قوله « فتملأ بيتنا » فى رواية أخرى « فتوسع أهلها » . والأقط : بفتح الهمزة وكسر القاف شيء يتخذ من المخيض الغنمى (٣) اختلف النحويون فى هذا البيت فمنهم من جعله من باب التنازع ومنهم من لم يجعله ولهم فى توجيهه كلام طويل . وفى كتاب سيبويه : ولا يكون الفعل بغير فاعل وأما قول امرىء القيس : فلو أن ماأسعى الخ فانما رفع لأنه لم يجعل القليل مطلوبا وانما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافيا ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى . قال الأعلم : اراد كفانى قليل من المال ولم أطلب الملك وعليه معنى الشعر ولو اعمل الثانى ونصب به القليل فسد المعنى . وصف بعد همته ، يقول : لو كان سعيى فى الدنيا لادنى حظ منها كفتنى البلغة من العيش ولم أتجشم ما أتجشم . انتهى (٤) المؤثل : المؤصل . (٥) يروى (كان) بدل (حل) ، (وما) مقحمة (٦) القنوة : بالكسر والضم : الكسبة .

وقـوله

وقد طَوَّفتُ فى الآفاق حتَّى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإياب

وقـوله

إذا المرء لم يَخزُنْ عليه لسانَهُ فليس على شىء سواه بخزَّانِ(١)

وقـوله

فإنك لم يفخَرْ عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مُغَلَّبِ

وقوله (جُرْحُ اللسان كجرح اليَدِ) وقوله : إن الشقاء على الأشقين مصبوب)

ومن قلائده الفاخرة قوله فى وصف الفرس ولم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه :

مِـكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كجُلمُودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَّيلُ من عَلِ(٢)

له أَيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نَعَـامَةٍ وإرخاء سِرحانٍ وتَقْرِيبُ تَتفُـلِ(٣)

وقوله فى طول الليل واستعارة أوصافه من الجمل الناهض بالحمل الثقيل :

ولَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرخَى سُدُولَهُ عَلَىَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَـلِى(٤)

---

(١) يقول : اذا لم يخزن المرء لسانه على نفسه ولم يحفه مما يعود ضرره اليه فلا يخزنه على غيره ولا يحفظه مما لاضرر له فيه (٢) قال ابو عبدالله الزوزنى :الكر العطف يقال كر فرسه على عدوه اى عطفه عليه والكر والكرور جميعا الرجوع يقال كر على قرنه يكر كرا وكرورا والمكر مفعل من كر يكر ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع وانما جعلوه متضمنا مبالغة لأن مفعلا قد يكون من اسماء الادوات نحو المعـول والمكتـل والمخرز فجعل كأنه اداة للكرور وآلة لسـعر الحرب وغير ذلك . ومفـر : مفعل من فر يفر فرارا والكلام فيه نحو الكلام فى مكر . والجلمود : الصخـر العظيم . والحط : القاء الشىء من علو الى سفل . ومن عل : من فوق ، وفيه سبع لغات . وقوله : كجلمود صخر من اضافة بعض الشىء الى كله مثل باب حديد وجبة خز ، اى كجلمود من صخر . انتهى باختصار . (٣) الأيطل : الخاصرة . والارخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب . والسرحان : الذئب . والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين فى العدو . والتتفل : ولد الثعلب .. شبه خاصرتى هذا الفرس بخاصرتى الظبى فى الضمر ، وساقيه بساقى النعامة فى الانتصاب والطول ، وعدوه بارخاء الذئب ، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب فجمع اربعة تشبيهات فى هذا البيت .

(٤) شبه ظـلام الليل فى هـوله وصعوبته ونكاره امره بأمواج البحـر . والسدول : الستو ر الواحد منها سدل ، والارخاء : ارسال الستر وغيره . والابتلاء : الاختبار . والباء فى قوله « بأنواع » بمعنى مع .

فقلت له لمّا تمطّى بصُلْبِهِ وأردفَ أعجازاً وناء بكلكل (١)
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثَلِ (٢)
أفاطِمَ مَهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإنْ كنتِ قدأزْمَعْتِ صَرْمي فأجملي (٣)
وإن كنتُ قد ساءَتكِ منى خليقةٌ فسلّى ثيابي من ثيابكِ تنسُلِ (٤)
وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لتضربي بسهميكِ في أعشار قلبٍ مقتّلِ (٥)

لو قاله محدث فى الزمان الرقيق لاستظرف ذلك منه فكيف فى مثل

(١) تمطى : تمدد . والارداف : الاتباع . والاعجاز : المآخير . وناء : مقلوب نأى بمعنى بعد ، كما قالوا : راء بمعنى رأى ، وشاء بمعنى شأى . والكلكل : الصدر .. استعار الليل صلبا ، واستعار لطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ الكلكل ولمآخيره لفظ الاعجاز . (٢) الانجلاء : الانكشاف ، يقال : جلوته فانجلى أى كشفته فانكشف ، والأمثل : الأفضل . ومنك : متعلق بأمثل والأصل « بأمثل منك » . وروى : (وما الا صباح فيك) وعليها اقتصر الأعلم . وبعد هذا البيت قوله :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصابها بأمراس كتان الى صم جندل . .

(٣) هذا البيت لا مناسبة له بما قبله . بل قد ذكر هو وما بعده فى المعلقة قبل نحو (٢٥) بيتا ! .. ومعنى مهلا : رفقا . والادلال والتدلل : أن يثق الانسان بحب غيره اياه فيؤذيه على حسب ثقته به . وازمعت الأمر وأزمعت عليه : وطنت نفسى عليه . والصرم : يقال صرمت الرجل أصرمه صرما اذا قطعت كلامه والصرم الاسم . (٤) الخليقة : الطبيعة . والثياب : من الناس من جعلها فى هذا البيت بمعنى القلب كما حملت الثياب على القلب فى قوله عنترة :

فشككت بالرمح الاصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فالمعنى على هذا القول : ان ساءك خلق من اخلاقى وكرهت خصلة من خصالى فردى على قلبى أفارقك . ومن الناس من حملها على الثياب الملبوسة وقال : كنى بتباين الثياب وتباعدها عن تباعدهما ... والنسول : سقوط الريش والوبر ، والصوف والشعر ، يقال : نسل ريش الطائر ينسل وينسل نسولا واسم ماسقط النسيل والنسال ومنهم من رواه تنسلى وجعل الانسلاء بمعنى التسلى . والرواية الاولى أولاهما بالصواب — كما فى شرح المعلقات للزوزنى ، وبعد البيت : ومنهم من يرويه قبله

أغرك منى أن حبك قاتلى وانك مهما تأمرى القلب يفعل

(٥) ذرفت : دمعت وروى « لتقدحى » موضع « لتضربى » وهو بمعناه . وسهميك : تثنيه سهم والمراد بهما عيناها . ومعنى فى أعشار قلب : أى لتجعليه عشر قطع كما تخرق أعشار البرمة الا أن القلب لا ينجبر والبرمة تنجبر . وقيل المراد بسهميها المعلى والرقيب وهما من سهام الميسر فالرقيب له ثلاثة انصباء والمعلى له سبعة لتستولى على قلبى كله . والمقتل : المذلل غاية التذليل .

ذلك الزمان ؟ وهو أول من شبه شيئين بشيئين فى بيت واحـد حيث قال فى وصف العقاب :

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً   لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى(١)

ويستجاد من تشبيهه قوله :

كأنَّ عُيُونَ الوَحش حَوْلَ خبائِنـا   وَأَرْحالنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ(٢)

وقد سبق إلى أشـياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ .

زهير بن أبى سلمى (٣)

هو أحد الأربعة الذين وقع عليهم الاتفاق على أنهم أشعر العرب . وهم : أمرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى . فأما الاختلاف فى تفضيل بعضهم

---

(١) البيت من شواهد التلخيص ؛ والشاهد فيه التشبيه المكفوف — وهو ان يؤتى على طريق العطف او غيره بالمشبهات أولا ثم بالمشبهة بها — فهنا شبه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب ، واليابس العتيق منها بالحشف البالى (وهـو أردأ التمر والضعيف الذى لا نوى له) اذ ليس لاجتماعهما هيئـة مخصوصة يعتد بها ويقصد تشبيهها ولذا قال الشيخ الامام عبد القاهرة : انه انما يتضمن الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا أن للجمع فائدة فى عين التشبيه . (٢) قال الأصمعى : الظبى والبقرة اذا كانا حيين فعيونهما كلها سود فاذا ماتا بدا بياضهما وانما شبههما بالجزع وفيه سـواد وبياض بعد ما موتت والمراد كثرة الصيد يعنى مما أكلناه كثرت العيون عندنا . وبه يتبين بطـلان ما قيـل ان المراد انها قـد اطالت مسايرتهم حتى ألفت الوحوش رحالهم واخبيتهم . والجزع : بفتح الجيم الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض تشبه به عيون الوحش لكنه اتى بقوله « لم يثقب » ايغالا وتحقيقا التشبيه ، لأن الجزع اذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون .
والبيت من قصيدته المشهورة التى عارض بها قصيدة علقمـة الفحـل . ومطلعها :

خليلى مرابى على ام جنـدب   نقضى لبانات الفؤاد المعـذب

ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب   ولم يك حقـا كل هذا التجنب

وتحكيمهما لأم جندب امراة امرىء القيس وحكمها لعلقمة وطلاق امرىء القيس اياها ، وتزويج علقمة لها كله مشهور فلا نطيل به . ومن ارادة فليرجع الى الأغانى (ج ٧ ص ١٢١)
(٣) سلمى بضم السين وتسكين اللام وليس فى العرب سلمى بالضم غيره

على بعض فقائم على ساق . وكان يقال : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب . والأعشى إذا طرِبَ . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعانى فى القليل من الألفاظ ، وأحسنهم تصرفاً فى المدح والحكمة .

ويقال إن أبياته فى آخر قصيدته التى أولها :

أمِنْ أمّ أوفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمانةِ الدَّرَّاجِ فالمتثلَّمِ (١)

تُشبهُ كلام الأنبياء وهى أحكم حكم العرب . وهى :

ومَنْ لم يُصانِعْ فى أمور كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ (٢)

ومَنْ يجعَلِ المعروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ ومن لا يَتقِ الشتمَ يُشتَمِ (٣)

ومَنْ لم يذُد عن حَوْضِهِ بسِلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ (٤)

ومن يغتربْ يَحْسِبْ عدواً صديقهُ ... ومن لا يُكرِّمْ نفسَهُ لا يُكرَّمِ

ومن يكُ ذا فَضْلٍ فيبخلْ بفضله ... على قَومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ (٥)

ومهما تَكُنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَمِ (٦)

ومن أمثاله السائرة

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاَّ وشيجُهُ ... وتُغْرس إلاَّ فى مَنابِتها النَّخْلُ (٧)

---

(١) أم أوفى : اسم عشيقته . والدمنة : ماسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما . وحومانة الدراج والمتثلم : موضعان (٢) المصانعة : الترفق والمداراة . والضرس : العض على الشيء بالضرس والتضريس مبالغة والمنسم : خف البعير . (٣) وفرت الشيء أفره وفرا كثرته

(٤) الذود : المنع . وأراد بالحوض الحريم . (٥) يقول : من كان صاحب فضل ومال فيبخل به ويحرص عليه استغنى عنه وذم ، فأظهر التضعيف على لغة اهل الحجاز لأن لغتهم اظهار التضعيف فى محل الجزم ، والبناء على الوقف . (٦) الخليقة الطبيعة . يقول : ومهما كان للانسان خلق وظن أنه يخفى على الناس علم ولم يخف ، يعنى ان الأخلاق لا تخفى ، والتخلق لا يبقى .. قيل : أنشد سيدنا عثمان رضى الله عنه هذا البيت فقال : أحسن زهير وصدق فلو أن الرجل دخل بيتا فى جوف بيت لتحدث به الناس (٧) الخطى : الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحدته وشيجة . اى لا تنبت القناة الا القناة ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد انه لا يلد الكرام الا الكرام .

وقوله :

والسِّتْر دونَ الفاحشاتِ ولا   يَلْقاكَ دونَ الخير من سِتْرِ

وماوقع الاتفاق على أنه أمدح بيت للجاهلية قوله :

تراه إذا ما جئتَهُ مُتَهَلِّلاً   كأنكَ تُعْطيه الذى أنت سائلُهْ(١)

قال ثعلب وهو ممن قدم زهيراً : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالاً فى شعره . وقال ابن الأعرابى : لزهير فى الشعر مالم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وأخته الخنساء شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً . وهو الذى يقول :

إنّى لأحبسُ نَفْسى وَهْىَ صَابِرَةٌ (٢)   عن مُصْعَبٍ ولقد بانَتْ لىَ الطرُقُ

رعوا عليه كما أرعى على هَرِمٍ   جدى زهير وفينا ذلك الخُلُقُ

مدح الملوكِ وسعى فى مسرتهم   ثم الغنى ويد المَمْدُوح تَنْطَلِقُ

وكعب هو ناظم قصيدة (بانت سعاد) فى مدح الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . قال ابن قتيبة : وكان زهير يتألّه ويتعفف فى شعره ، ويدل على إيمانه بالبعث ، وذلك قوله :

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَرْ   ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ (٣)

وقد شبه زهير امرأة بثلاثة أوصاف فى بيت واحد فقال :

---

(١) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر . يقول : هو مسرور بمن يسأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى . ولم يرد أنه حريص على الأخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للأخذ وكراهيتها الاعطاء .

(١) فى الأغانى ج ٩ ص ١٥١ : « صادية » . (٣) جميع الافعال بالبناء للمفعول ما عدا الأخير . يقال : نقم منه (من باب ضرب) بمعنى عاقبه وانتقم منه . وقد اخطأ من بناء للمفعول . ويؤخر بدل من (يعلم) فى البيت قبله :

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقيل جزم فى جواب النهى . وهو الصواب .

تنازَعَها المَهَا شَبَهاً ودُرُّ الـ ... نُّحور وشاكَهَت فيها الظباء (١)

ففسر ثم قال :

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْدِ منها ... فمن أدماء مرتَعُها الخلاء (٢)

وأما المُقْلَتَانِ فمن مَهَاةٍ ... وللدُّرِّ الملاحَةُ والصَّفاء (٣)

وقال بعض الرُّواة : لو أن زهيراً نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما مازاد على ما قال :

فإنّ الحقّ مقطَعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء (٤)

يعنى يميناً ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء . وهو بيان وبرهان — يجلو به الحق وتتضح الدعوى — وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال لابن زهير (٥) : مافعلت الحلل التى كساها هَرِم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر ! قال : لكن الحلل التى كساها أبوك هَرِماً لم يبلها الدهر ! ويستجاد قوله فى هرم :

قد جَعَلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسائلونَ إلى أبوابِهِ طرُقا (٦)

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّتِهِ هَرِماً ... يَلْقَ السماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقا (٧)

---

(١) المها : بقر الوحش . وشاكهت : شاكلت وشابهت . ومعنى : تنازعها المها شبها اى فيها من المها شبه وهو حسن العينين ، وفيها من الدر شبه وذلك صفاؤه وملاحته ، واشبهتها الظباء فى طول العنق . واصل المنازعه مجاذبة الداو فضربت مثلا لكل ما أخذ فيه وتشبث به ، ومنه التنازع فى الحديث . وخص در النحور لأنه أملح ما يكون اذا قلت ، ويروى در البحور بالباء . (٢) قوله : فأما ما فويق العقد منها ، يعنى عنقها لأن موضع العقد النحر وفوقه العنق وصغر فوق لتقارب ما بين العنق والعقد . والأدماء : الظبية البيضاء ، والخلاء الموضع الخالى ، وانما خص الظبية لأنه أراد انها اذا نفرت تجزع فتتشوف وتمد عنقها وذلك أحسن لها . (٣) المقلتان : العينان، شبه عينيها بعينى المهاة فى شدة ابيضاض بياضهما واسوداد سوادهما . وشبه ملاحتها وصفاءها بملاحة الدرة وصفائها . (٤) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعجب من حسن تقسيم هذا البيت ويردد انشاده من التعجب . ورووا عنه انه قال : لو أدركته اوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق . أنظر شرح بانت سعاد ص ١٦ والعمدة ١ : ٣٠ والصناعتين ٢٦٨ والبيان والتبيين ١ : ١٣٥ وغيرها . (٥) راجع الجزء الاول ص ٨٦ .

(٦) المبتغون : الطالبون . وقوله (فى هرم) اى عند هرم او من هرم . وترجمة هرم فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨٤ . (٧) قوله (على علاته) يقول : ان تلقه على قلة مال أو عدم تجده سمحا كريما فكيف به وهو على غير تلك الحال ؟ وورد فى الجزء الأول ص ٨٥ هذا البيت :

وروى أن زهيراً كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ، وكانت تسمى قصائده (حوليات زهير) وقد أشار إلى هذا البها زهير فى قوله من قصيدة :

هذا زهيرُكَ لا زهير مزينةٍ وافاكَ لا هَرِماً على عِلاّتِهِ
دَعْهُ وحولياتِهِ ثم استمعْ لزهيرِ عَصْرِكَ حسنَ ليليّاتِهِ

وكان رأى زهير فى منامه فى أواخر عمره أن آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسُّها بيده ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب . ثم قال : إنى لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه . ثم توفى قبل المبعث بسنة . فلما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم خرج إليه ولده كعب(١) بقصيدة (بانت سعاد) وأسلم . وروى أيضاً أن زهيراً رأى فى منامه أن سبباً تدلّى من السماء إلى الأرض كأن الناس يمسكونه وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه فأوله بنبيّ آخر الزمان فإنه واسطة بين الله تعالى وبين الناس وأن مدته لا تصل إلى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره .

النابغة الذبيانى

واسمه زياد بن معاوية : اتفقت الآراء على أنه أحسن الشعراء ديباجة شعر ، وأكثر رونق كلام ، وكان كلامه كلام الكتاب ليس فيه تكلّف ولا تعسف . ويقال إن أجود شعره ما اعتذر به إلى النعمان بن المنذر . وأمير ذلك قوله :

فإنّكَ كالليل الذى هُوَ مُدْرِكِى وإنْ خِلْتُ أنّ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ(٢)

متى تلاق على علاته هـرما تلق السماحة فى خلق وفى خلق
واعله من قصيدة له أخرى فليحقق .

(١) الذى خرج الى النبى وآمن به هو بجير اخو كعب واما كعب فقد أهدر النبى دمه عام الفتح ثم قدم الى النبى تائبا واسلم ومدحه بقصيدة (بانت سعاد) وخلع النبى عليه بردته .

(٢) المنتأى : اسم موضع من انتأى عنه اى بعد .. وشبهه بالليل لأنه وصفه فى حال سخطه وهوله . والمعنى انه لا يفوت الممدوح وان ابعد فى الهرب وصار الى أقصى الارض ، لسعة ملكه ، وطول يده ، ولأن له فى جميع الآفاق مطيعا لأوامره يرد الهارب اليه . قال ابو بكر : اعترض على هذا البيت فقيل لا معنى لتخصيص الليل لأن النهار يدركه كما يدركه الليل . قال ابو جعفر : الليل يغشى كل شىء بظلمته

ومن أمثاله المشهورة قوله :

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قابُوسَ أوْعَدَنى ولامقامَ على زَأرٍ من الأسَدِ(١)

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال يوماً لجلسائه من القائل ؟

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ(٢)

لئن كُنْتَ قد بُلِّغْتَ عنى جنايةً لَمُبْلِغُكَ الواشى أغشُّ وأكْذَبُ(٣)

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ! قال : فهذا أشعر شعرائكم . وفى هذه القصيدة بيته السائر :

فلَسْتَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرّجالِ المهذّبِ(٤)

و بيته الفاخر :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ(٥)

فيصير له كالغشاء والوعاء فيمنع التصرف لسرعة انطباقه على الأرض فى الأرض القريبة من خط الاستواء والنهار وأن البس كل شىء فانه لا يمنع من التصرف والانتشار ، وايضا فان الليل يهاب لظلمته والنهار ليس كذلك . وقال بعض النحاة : انما قدم الليل لأنه أول ولأن اكثر أعمالهم كانت فيه لشدة حر بلدهم فصار عندهم ذلك متعارفا .. وفى معنى هذا البيت قول على بن جبلة :

وما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

واكثر الأدباء يرجحه على بيت النابغة ، وقد تناول الشعراء هذا المعنى واكثروا من الأتيان به فى قصائد المديح انظر معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى (ج ١ ص ١١٢) .

(١) ابو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . واوعدنى : هددنى . وزار الأسد وزئيره واحد وهو صوته . أى لايستقر أحد بلغه أن النعمان أوعده كما لا يستقر من يسمع زئير الأسد .

(٢) الريبة : الشك . يقول حلفت بالله وليس بعد اليمين بالله يمين ولا مذهب فى يمين أخرى فينبغى أن تصدقنى ولا تذهب الى ما كنت تذهب اليه من ظنك بعدان حلفت لك بالله تعالى (٣) الواشى : الذى يزين الكذب ، ويروى (خيانة) موضع (جناية)

(٤) استبقيت فلانا فى معنى أن تعفو عن زلله فتستبقى مودته . والشعث : التفرق والفساد . وتلمه : تجمعه وتصلحه . والمعنى لا تقدر على استبقاء مودة أخ حال كونك ممن لا تلمه ولا تصلحه على تفرق وذميم خصال ثم فسر فقال أى الرجال المهذب ! أى انك لاتجد مهذبا لا عيب فيه! (٥) قال الوزير ابو بكر : وهذا مثل أى اذا ظهرت غمرت الملوك كما يغمر ضوء الشمس النجوم

« ومن قلائده قوله »

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قالَ جَهْلاً ... فإنَّ مظِنَّةَ الجهل الشبابُ(١)

وله فى الهجاء

وكنتَ أمينَهُ لو لم تَخُنْهُ ... ولـكن لا أمانة لليمانى(٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

الرفْقُ يُمْنٌ والأناةُ سـعادةٌ ... فاستأنِ فى أمرٍ تلاقِ نجاحاً(٣)

واليأس عمّا فاتَ يعقبُ راحةً ... ولَرُبَّ مَطْمَعَةٍ تعـودُ ذُباحاً(٤)

فاستبق وُدَّكَ للصديق ولا تـكنْ ... قتَباً يعضُّ بغارِبٍ مِلْحاحا(٥)

وسمى النابغة لقوله (فقد نبغت لنا منهم شؤون) وقيل لأنه لم يقل الشعر حتى صار رجلا . وقيل هو مشتق من نبغت الحمامة إذا تغنت . وحكى (ابن ولّاد) أنه يقال نبغ الماء ونبغ بالشعر فكأنه أراد أن له مادةً من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ .

---

(١) المظنة : الموضع الذى لا تكاد تطلب الشىء الا وجدته فيه . ويروى : مطية الجهل الشباب . يقول : ان كان عامر قد قال جهلا فهو اهل ان يقول الجهل وأن ينطق به لأنه شاب والغرارة والجهل مقترنان بالشباب . قال الوزير ابو بكر : ومن رواه بالطاء (اى مطية) اراد ان الجهل يمتطى الشباب اى يركبه ويصرفه حيث يشاء . (٢) البيت فى هجاء يزيد بن عمرو . وقوله : ولكن . . الخ قال ابو الحسن : انما قال ذلك لأن منازل بعض بنى عامر مما يلى اليمن وكل ما كان يلى اليمن فهو يمانى . ويقال ان يزيد بن عمرو هذا المهجو كان هو وقومه منازلهم قريب من محال بنى الحرث بن كعب وهم من اليمن ، فلما سمع هذا البيت قال لقومه : اجيبوه فأجابه يزيد بأبيات لا محل لذكرها .

(٣) الرفق : خلاف العنف . واليمن : البركة والأناة كقناة الحلم والوقار .

(٤) قوله (عما) فى رواية (مما) و (مطمعة) فى رواية (مطمعة) والذباح كغراب نبت من السموم يقتل آكله ، كذا فى أساس البلاغة والقاموس وشرحه التاج . (٥) القتب : الاكاف على قدر سنام البعير ، والغارب : الكاهل او مابين السنام والعنق ويقولون للملح : هو قتب يعض بالغارب ، يعنى اذا يعلق بخصم لا ينفصل منه حتى يؤثر كما يؤثر القتب بظهر الدابة ، وقتب ملحاح يلزق بظهر البعير فيعقره وكذلك هو من الرحال والسروج وهو مجاز .

أوس بن حجر (١) الأسدى

قال أبو عمرو بن العلاء : كان أوس فحلَ مُضَرَ حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وكان زهير راوية أوس . ومن إحسان أوس المشهور قوله فى المرثية التى أولها :

أيتها النفسُ أجْمِلى جَزَعاً إن الذى تحذَرينَ قد وَقَعا

وليس للعرب مطلع قصيدة فى المرثيــة أحسن من هذا البيت . وبيت القصيدة قوله :

الألمعىُّ الذى يَظنُّ بكَ الظَنَّ كأنْ قدْ رَأى وقد سَمِعا(٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

فإنــكما يا ابنَىْ جناب وجدْتمــا كمن دَبَّ يَستَخفى وفى الحلْق جلْجلُ

وقوله

ولست بخابىء لِغَدٍ طَعاما حِذَارَ غدٍ لــكلِّ غَدٍ طعامُ

بشر بن أبى خازم الأسدى (٣)

من أمثاله السائرة قوله .

ألم تَرَ أنَّ طولَ العهد يُسلى ويِنسى مثلما نسيت جُذَام(٤)

---

(١) حجر بفتحتين ، وليس فى أسماء الأشخاص على هذا البناء غير هذا .

(٢) الالمعى واليلمعى : الذكى المتوقد الذكاء . وقد تداول الشعراء معنى هذا البيت كثيرا قال ابو تمام :

ولذاك قيل من الظنــون جبلة علم وفى بعض القلوب عيــون

وقال المتنبى :

يرى قلبه فى يومه ما يرى غدا ذكى تظنيــه طليعــة عينــه

(٣) خازم : بالخاء المعجمة والزاى . وكان الأصل (هنا وفى غير ما موضع) بالحاء المهملة فصححناه (٤) يروى « طول الدهر » موضع « طول العهــد » وجذام : كغراب قبيلة بجبال حسمى من معد . قال ابو عمرو بن العــلاء . فحلان من فحول الجاهلية كانا يقويان : بشر بن ابى خازم . والنابغة الذبيانى . فأما النابغة فدخل يشرب فغنى بشعره فلم يعد . واما بشر فقال له اخوه سوادة انك لتقوى . قال : وما الا قواء ؟ قال قولك :

وقوله

يكن لك فى قومى يد يشكرونها وأيدى النَّدَى فى الصالحين فروضُ

ومنه أخذ الناس قولهم « الأيادى فروض » وقوله عند موته من أبيات :

تُسائِلُ عن أبيها كلَّ ركبٍ ولم تَعلَمْ بأنّ السهمَ صابا

فَرَجِّى الخيرَ وانتظرِى إيابى إذا ما القارظُ العَنَزىُّ آبا(١)

وقضية القارظان مشهورة .

الأُفوه الأَوْدى(٢)

كان أحد الحكماء فى الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله :

إنما نعمــةُ قَوْمٍ متعة وحياةُ المرء ثوبٌ مستعار(٣)

الم تران طول الدهـر يسلى وينسى مثلما نسيت جــذام

ثم قالت :

وكانوا قومنــا فبغــوا علينــا فسقناهم الى البــلد الشــآم

فلم يعد للاقواء . انتهى .

(١) قوله . « القارظ العنزى » قيل هما قارظان من عنزة أكبرهما يذكر بن عنزة لصلبه واصغرهما رهم بن عامر وقيل هو عامر بن رهم ، يقال انهما خرجا فى طلب القرظ يجتنيانه فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا « لا آتيك أو يؤوب القارظان » يضرب فى انقطاع الغيبة . واياهما اراد أبو ذؤيب بقوله :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر فى القتلى كليب ووائل

والقرظ : محركة ورق السلم يدبغ به كما فى الصحاح .. وأورد الزبيدى البيت الأول هكذا :

وان الوائلى اصــــاب قلبى بسهم لم يكن نكســا لغابا

(٢) الأفوه لقب واسمه صلاءة (لا صــلاة كما وهم صــاحب مجموعة شعراء النصرانية ج ١ ص ٧٠) ابن عمرو بن مالك بن عوف بن الحــرث بن منبه (او ضبة) بن اود بن صعب ابن سعد العشيرة . كان من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية وكان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه والعرب تعــده من حكمائها . وانما قيــل له الأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان (٣) هذه الابيات من قصيدته التى اولها :

ان ترى راسى فيــــه نزع وشــواتى خــلة فيهــا دوار

وهذه القصيدة من جيد شعر العرب ، وهى التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن انشادها لما فيها من ذكر اسماعيل عليه السلام ، واياه عنى بقوله :

ريشت جــرهم نبــلا فــرمى جرهما منهن فــوق وغــرار

ولياليه الإلّ للقوى ومدى قد تجتليها وشفار(١)
وصروفُ الدهرِ فى أطباقهِ خلفةٌ فيها ارتفاع وانحدار
بَيْنما الناسُ على عليائها إذْ هو وافى هُوَّةٍ منها فغاروا(٢)

« وقوله وفيه حكمة بالغة »

والبيتُ لا يُبْتَنى إلا على عَمَدٍ ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ(٣)
فانْ تجَمَّعَ أوتادٌ وأعمِدَةٌ وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذى كادوا(٤)
لا يصلحُ الناسُ فَوْضى لا سَرَاةَ لهم ولا سَرَاةَ إذا جُهّالهم سادوا(٥)
إذا تولّى سَرَاةُ الناسِ أمرَهمُ نمَا على ذاك أمرُ القومِ فازدادوا(٦)
تُهْدَى الأمورُ بأهل الرأى ماصلُحَتْ فان تولّتْ فبالأشرار تنقادُ
أمارة الغَىِّ أن تَلْقى الجميعَ لدى الـإبرامِ للأمرِ والأذناب أكتاد(٧)
كيف الرشادُ إذا ما كنت فى نفَرٍ لهم عن الرّشدِ أغلالٌ وأقيادُ
أعطوا غُواتهم جهلاً مقادتهم فكلهم فى حبالِ الغىّ مُنْقادُ
وهذه من أبلغ الأبيات :

---

(١) الالال : جمع آلة مثل جفان وجفنة وهى الحربة العريضة النصل وفرق بعضهم بين الآلة والحربة فقال الآلة كلها حديدة والحربة بعضها خشب وبعضها حديد . والمدى : جمع مدية مثلثة وهى السكين . والشفار بالكسر جع شفرة بفتح فسكون وهى السكين العظيم وما عرض من الحديد وحدد
(٢) الهوة كقوة ما انهبط من الارض أو الوهدة الغامضة منها .
(٣) العمد بفتحتين جمع عماد وهو ما يسند به والاوتاد جمع وتد بكسر التاء فى لغة الحجاز وهى الفصحى : وهو مازر فى الأرض أو الحائط من خشب . ورسا الشىء ثبت .
(٤) معنى كادوا : أرادوا . (٥) يقال قوم فوضى اذا كانوا متساوين لارئيس لهم . والسراة بالفتح جمع سرى وهو الرئيس وهذا الجمع عزيز لا يكاد يوجد له نظير لأنه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات . كذا فى المصباح
(٦) معنى نما : زاد (٧) الأمارة : العلامةوزنا ومعنى ، والابرام أحكامالعقد. والأكتاد جمع كتد وهو مجتمع الكتفين وبعضهم يقول ما بين الكاهل الى الظهر وقيل مغرز العنق فى الكاهل عند الحارك . ويروى « أقتاد » جمع قتد وهو خشب الرحل وقيل جميع أداته . والمعنى ظاهر

عبيد بن الأبرص (١)

هو جاهلي قديم ، وكان من فحول العرب وشعرائها المفلقين . ومن أمثاله السائرة قولهُ :

مَن يَسألِ الناسَ يُحرموهُ   وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ (٢)
وكلُّ ذي غَيبة يؤُوب   وغائبُ المَوْتِ لا يؤُوبُ

وقوله

الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ   والشرُّ أخبثُ ما أوعيت من زاد

وقوله

الخيرُ لا يأتي على عجلٍ   والشر يسبق سيله مطره

المرقش

كان من مُفلقي شعراء الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله :

ومَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أمْرَهُ   ومنْ يَغوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما

---

(١) عبيد بفتح العين وكسر الموحدة لا بالتصغير كما وهم في ضبطه لويس شيخوا صاحب مجموعة شعراء النصرانية في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٢٥٨ و ٢٧٨ و٤٥٧ ، وقد ذكر العلامة احمد تيمور باشا المصري الأدلة على ذلك وفصل الكلام فيه فيما كتبه على مادة (ق رح) من رسالته (تصحيح لسان العرب) بالقسم الأول منها ، فارجع اليها . وعبيد من فحول شعراء الجاهلية وقد عده ابن سلام في الطبقة الرابعة وقرنه بطرفة وعلقمة بن عبيد وعدي بن زيد العبادي . قال وعبيد بن الأبرص قديم عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا اعرف له الا قوله :

اقفر من اهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

قال : ولا ادري ما بعد ذلك . وقال الجاحظ : ان عبيدا وطرفة دون ما يقال عنهما ان كان شعرهما ما في ايدي الناس فقط ، وقد اشار أبو العلاء المعري الى اختلال بائيته بقوله :

وقد يخطىء الراي امرؤ وهو حازم   كما اختلّ في نظم القريض عبيد

(٢) قال ابن الأعرابي : هذا البيت ليزيد بن ضبة الثقفي (٣) يؤوب : يرجع

(٤) هو المرقش الأصغر . واسمه عمرو بن حرملة وقيل ربيعة بن سفيان . والمرقش الأكبر عمه وهو (اي الأصغر) عم طرفة بن العبد ، قال أبو عمرو : والمرقش الأصغر اشعر المرقشين واطولهما عمرا (٥) هذه الأبيات من قصيدة يقولها في قصة جرت له مع معشوقته فاطمة بنت المنذر ووليدتها بيت العجلان . ومطلعها :

أخوكَ الذى إنْ أحرجَتْكَ مُلِمَّةٌ من الدَّهْرِ لم يَبْرحْ لها الدهر واجِما[1]
وليسَ أخوكَ بالذى إنْ تَشَعَّبَتْ عليكَ أمور ظلَّ يلحاكَ دائما[2]

مهلهل واسمه ربيعة[3]

وهو أول من رقق الشعر فسمى مهلهلا . ومن أمثاله السائرة قوله . وقد خطبت إليه بنته وهى فى دار غربة :

لو بأبانَين جاء يخطبها ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِدَم[4]

الايا اسلمى لا صبر لى عنك فاطما ولا أبدا ما دام وصلك دائما
وقد ساق أبو الفرج الأصبهانى القصيدة فى اغانيه بيد أنه لم يذكر البيتين الأخيرين

(١) الملمة : النازلة ، واحرجتك : أوقعتك فى الحرج . ويروى «أجرضتك» والواجم : العابس المطرق لشدة الحزن او الساكت على غيظ (٢) يلحاك : يلومك (٣) اسمه — على ما هو المشهور فى كتب الأدب — عدى بن ربيعة التغلبى ولكن ورد فى القاموس ما نصه «ومهلل الشاعر واسمه عدى أو ربيعة» لقب لأنه أول من ارق الشعر أو بقوله :
«لما توغل فى الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا وصنبلا» فتدبر!
(٤) قوله (بأبانين) أبان جبل وهما أبانان أبان الأسود وأبان الأبيض . وضرج : لطخ . يعنى رد عنها . وزيدت (ما) بين الفعل ومرفوعه الضرورة .. والبيت من أبيات له سببها أنه نزل فى آخر حرب البسوس فى جنب بن عمرو بن جلد بن مالك وهو مذ حج وجنب حى من أحيائهم وضيع فخطبوا بنته ومهرت أدما فلم يقدر على الامتناع فزوجها فقال :

انكحها فقدها الأراقم فى جنب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها ضرج ما انف خاطب بدم
أصبحت لا منفسا أصبت ولا أبت كريما حرا من الندم
هان على تغلب الذى لقيت اخت بنى المالكين من جشم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا يغنون من عيلة ولا عدم

وقد أشار أبو نواس الى هذه القصة فى قصيدته التى هجا بها بنى نزار فقال :

وتغلب تندب الطلول ولم تثأر قتيلا على ذنائبها
نيكت بأدنى المهور اختهم قسرا ولم تدم انف خاطبها

وقوله

قَرِّبا مَرْبطَ النّعامةِ مِنّى ... لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ

لم أكنْ من جُناتها شَهِدَ اللّهُ ... وإنى بحَرِّها اليومَ صالى

وقوله فى مرثية أخيه كليب بن وائل :

نُبّئْتُ أنّ النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ ... واستَبَّ بعدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ

وتكلموا فى أمر كلِّ عظيمةٍ ... لو كنتَ شاهدهم بها لم ينبِسُوا

الأسود بن يعفر

غرة شعره قصيدته التى أولها :

نامَ الخلىُّ وما أُحِسُّ رقادى ... والهمُّ مُحتضِرٌ لدىَّ وسادى

وفيها أبيات سائرة يتمثل بها فى فناء السادة ومساكنهم الخاوية بعدهم (وهى :)

ماذا أؤمِّلُ بعد آل مُحرِّقٍ ... تركوا منازلهمْ وبَعْدَ إيادِ

أهل الخَوَرْنَق والسّدير وبارق ... والقصر ذى الشُرُفات من سِنْدادِ

---

(١) النعامة : اسم فرس . ولقحت : حملت . والحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل وهذا مثل ضربه لأن الناقة اذا حالت وضربها الفحل كان اسرع القاحها وانما يعرض امر الحرب لما تولد منه من الأمور التى لم تكن تحتسب .. وقد تقدم هذا البيت فى الجزء الثانى (ص ١١٨) منسوبا الى الحرث بن عباد فتدبر ! (٢) راجع ص ١٤٩ من الجزء الثانى .

(٣) محرق : لقب أمرىء القيس بن عمرو بن عدى اللخمى وهو المحرق الأكبر وهو المراد هنا لاغيره . واياد حى من معد . قال الزبيدى : وهم اليوم باليمن . وقال ابن دريد : هما ايادان : اياد بن نزار واياد بن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو . (٤) الخورنق كفدوكس قصر بالعراق النعمان بن المنذر . والسدير كأمير نهر بناحية الحيرة وقيل قصر قريب من الخورنق . وبارق : ماء بالعراق بين البصرة والقادسية . وسنداد ، بالكسر على الأصل والفتح فتكون النون حينئذ زائدة اذ ليس فى كلام العرب فعلال بالفتح نهر معروف . وفى سفر السعادة : انه موضع وقيل اسم قصر بالعذيب وبه صدر فى المراصد . وقيل هى منازل لاياد اسفل سواد الكوفة وكان عليه قصر تحج العرب اليه .

نزلوا بأنقِرَةٍ يَسيلُ عليهم   ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطْوادِ (١)

أرض تخيَّرها لطيب مَقيلِها   كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أمّ دؤادِ (٢)

جَرَتِ الرياحُ على محلّ ديارِهمْ   فكأنهمْ كانوا على ميعادِ (٣)

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشةٍ   فى ظلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ

فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى بهِ   يوما يصيرُ إلى بِلى ونَفادِ (٤)

طرفة بن العبد

هو أجود الشعراء قصيدة وله بعد المعلقة شعر حسن وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل (٥) . وقتل وهو ابن ست وعشرين سنة . وقاتله عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة وقد ذكر القصة ابن قتيبة فى كتاب (الشعر والشعراء) وذكرها يعقوب بن السكيت فى شرح ديوانه بأبسط من ذلك . ويقال إن أول شعر قاله طَرَفة أنه خرج مع عمه فى سفر فنصب فخاً فلما أراد الرحيل قال :

يالكِ من قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ (٦)   خلالكِ الجوُّ (٧) فبيضى واصفرى !

---

(١) انقرة : بالفتح ثم السكون وكسر القاف ، موضع بنواحى الحيرة وقيل : بل المراد هنا انقرة التى ببلاد الروم نزلتها اياد لما نفاهم كسرى عن بلاده ، وحسنه الحموى والله أعلم . والفرات نهر مشهور . والأطواد : الجبال

(٢) اراد كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الايادى الذى يضرب المثل بجوده . وكان أبوه مامة ملك اياد . وابن ام دؤاد : هو أبو دؤاد الايادى الشاعر المشهور . وهذا دليل على أن سنداد كانت منازل اياد (٣) قوله « محل » يروى بدله « عراص » ويروى أيضا « مكان » والمعنى : كأنهم كانوا من الفناء على وعد محقق واجل مصدق فلما دعوا اجابوا ولما روسلوا استجابوا . (٤) النفاد : الفناء

(٥) جمعت اشعار طرفة فى ديوان طبع بشالون بفرنسا سنة ١٩٠٠ م بعناية سالكسن .

(٦) معمر : موضع بعينه . وقيل المعمر المنزل الذى يقال فيه . قال ساجعهم (يبغيك فى الأرض معمرا) . (٧) قال ابو عمرو : هذا مثل والجو هنا ما اتسع من الأودية ويروى عن ابن عباس قال لابن الزبير حين خرج الحسين الى العراق خلالك الجو فبيضى واصفرى .

ونقّرى ما شئتِ أن تنقرى (١)   قد رُفِع الفخّ فماذا تحذرى ؟ (٢)

لا بدّ يوماً أن تُصادِى فاصبرى (٣)

ومن أمثال السائرة على الدهر :

ستُبْدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تُزوّدِ (٤)

ومن أمثاله فى ذم الأخلاّء :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُهُ   لاتركَ اللّهُ له واضحَهْ (٥)

كلهمُ أروغُ من ثعلبٍ   ما أشبه الليلةَ بالبارحَهْ (٦)

ومن أمثاله السائرة لعمرو بن هند :

أبا مُنْذرٍ أفنيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا   حنَانَيكَ بعْضُ الشر أهون من بعض (٧)

وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره   حتى تظـل له الدماء تصبب

(١) التنقير : البحث والطلب ، وقيل التنقير تسوية الطائر لعشه .

(٢) الفخ : المصيدة . وقوله فماذا تحذرى اى فماذا تحذرين فحذف النون للضرورة . ويروى « فلا تحذرى وماتحذرى » . (٣) فى بعض الكتب (لابد من اخذك يوما فاحــذرى) . وقد روى ان هذا الرجــز لكليب وائل (راجع الاقتضاب ص ٣٨٢) لعل طرفة استشهد به (٤) يقول : ستطلعك الايام على ما تغفل عنه . وسينقل اليك الأخبار من لم تزوده اى الذى لم تعطه متاع سفره (٥) الخليل : الصديق : وخالته : صادقته وعاشرته . والواضحة : الاسنان التى تبدو عند الضحك (٦) الثعلب : حيوان معروف . وراغ الثعلب روغا : ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة فهو لا يستقر فى جهة . وقوله ما اشبه الليلة بالبارحة اى ما اشبه بعض القوم ببعض وهو مثل يضرب فى تساوى الناس فى الشر والخديعة

(٧) ابو منذر : كنية عمرو بن هند الملك . ونصب حنانيك على المصدر الموضوع موضع الفعل والتقدير : تحنن عليه تحننا وثنى مبالغة وتكثيرا أى تحنن تحننا بعد تحنن ولم يقصــد بهذا مقصد التثنية خاصة وانما يراد به التكثير فجعلت التثنية علما لذلك لأنهــا اول تضعيف وتكثير . وكذلك ما جاء من نحوه فى البــاب . والبيت من قصيدة لطرفة خاطب بها عمرو بن هند حين امر بقتله وذكر قتله لمن قتل من قومه تحريضا لهم على طلب ثأره ، وقصته معه ومع المتلمس مشهورة

وقوله

وأعلمُ علماً ليس بالظنّ أنه ... إذا ذَلّ مولى المرء فَهُوَ ذليل (١)

وإن لسانَ المرءِ ما لم تكن لهُ ... حَصَاةٌ على عَوْراتهِ لَدليلُ (٢)

جرير بن عبد المسيح الشهير بالمتلمس

هو شاعر مشهور و بليغ مذكور ومن أمثاله السائرة قوله فى الاحتياط :

قليل المال تصلحُهُ فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

وحفظ المال خيرٌ من بغاهُ (٣) ... وجولٍ (٤) فى البلاد بغير زادِ

وقوله فى الإغضاء عن ذنوب الأقرباء :

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نَقيصتى ... جعلت لهم فوق العَرَانين ميسَما (٥)

وما كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كفّهِ ... بكفٍّ له أخرى فأصْبحَ أجذَمَا (٦)

وقوله فى الامتناع عن الذل :

ولا يُقيمُ على ذلٍّ يُرادُ بِهِ ... إلا الأذلاّنِ : عَيْرُ الحىِّ ، والوتدِ (٧)

---

(١) لفظة العلم قد تطلق على الظن الغالب لقيامه مقام ما هو علم فى الحقيقة واكد قوله (واعلم علما) بقوله (ليس بالظن) وليس بالظن صفة العلم، لأنه لا يكون العلم على التحقيق الا علم اليقين . وسمى علم الظن علما على المجاز . والضمير من قوله (انه) للأمر والشان .

(٢) الحصاة : العقل ويقال الرجل ذى العقل انه لذو حصاة وأصاة وهو ذو حصاة اذا كان يكتم على نفسه ويحفظ سره . والمعنى ظاهر .

(٣) ويروى : بغاة وفناه

(٤) وفى رواية : وضرب . (٥) العرانين : جع عرنين وهو من كل شىء أوله ، ومنه عرنين الأنف وهو ما تحت مجتمع الحاجبين وهو موضع الشمم وقد يطلق العرنين على الأنف . يقول : اهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الأنف (٦) الأجذم : المقطوع اليد . يقول او هجوت قومى كنت كمن قطع يده بيده الأخرى (٧) قوله « ذل » يروى مكانه (خسف) والخسف النقيصة . والعير : بفتح المهملة الحمار وغلب على الوحشى والمناسب هنا الأهلى . والاستثناء فى (الا الاذلان) استثناء مفرغ وقد أسند اليه فعل الاقامة فى الظاهر وان كان مسندا فى الحقيقة الى العام المحذوف .

هذا على الخسف مربوطٌ برُمَّتِه وذا يُشَجُّ فلا يَرثى له أحَدُ (١)

علقمة بن عبدة (٢)

من غرر شعره قوله :

فإنْ تسألونى بالنّساء فإنّنى بصيرٌ بأدواء النّساء طَبيبُ (٣)

إذا شابَ رأسُ المرء أو قلّ مالُهُ فليْسَ له فى وُدّهِنّ نَصيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاء المال حَيْثُ عَلِمْنَه وشَرْخُ الشّباب عندهنّ عجيبُ (٤)

وقوله من قصيدة أخرى :

وكلُّ حصْنٍ وإنْ دامَتْ سلامَتُهُ على دَعَائِمِه لا بُدَّ مَهْدُومُ (٥)

ومن تَعرّضَ للغربانِ يَزْجُرُها على سَلامَتِه لا بدَّ مَشْؤومُ (٦)

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يوم الغُنْم مُطْعَمُهُ أنّى توَجّهَ والمحرومُ محْرُومُ

وكلُّ قومٍ وإنْ عَزُّوا وإنْ كَثُروا عَريفُهُم بأثافِيِّ الشرِّ مَرْجُومُ (٧)

---

(١) الرمة : القطعة من الحبل البالى . والضمير يعود الى العير . ويشج : يدق راسه بالفهر

(٢) عبدة مفتوح الباء . قال ابن السيد فى الاقتضاب : ومن سكنها فقد اخطا هذا بقوله :

اعتقت عبدى فى القريض معا عبدة والفحل من بنى عبده

قال : واما عبدة بن الطبيب فساكن الباء وقد قيد ابن الرومى هذا ايضا بقوله :

يتباشرون بأن عبدة مقبل كلا وما جمع الحجيج الى منى

(٣) البصير : العالم . والطبيب : الحاذق . والأدواء : جمع داء

(٤) شرخ الشباب اوله

(٥) الحصن : المكان الذى لايقدرعليه لارتفاعه . والدعائم جمع دعامة بالكسر وهى مايستند به الحائط اذا مال يمنعه السقوط (٦) قال الضبى : هذا يمانه بالطيرة . يقول من يزجر الطير وان سلم فلا بد ان يصيبه شؤم وأنشد :

امام كان لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير

تعلم انه لا طير الا على متطير وهو الثبور

بلى شىء يوافق بعض شىء احايينا وباطله كثير

قال الرستمى : يقول ، الغربان يتشاءم بها فمن تعرض لها يزجرها ويطردها خوفا ان يصيبه الشؤم فلا بد ان يقع بها خاف ويحذر

(٧) العريف كامير : من يعرف اصحابه ، والعريف رئيس القوم سمى به لأنه عرف بذلك ، او النقيب وهو دون الرئيس . والأثافى : جمع اثفيه بالضم ويكسر الحجر الذى يوضع عليه القدر

أبو دؤاد الايادى

قيل للحطيئة : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

لا أعدّ الإقتار عدماً ولكنْ فقدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعدامُ [١]

من رجالٍ من الأقاربِ بادُوا من حذاقٍ هم الرؤوس الكرامُ [٢]

فعلى إثْرِهِمْ تُساقِط نفسى حسرات وذكرهم لى سقَامُ

ومن وسائط قلائده

إذا كنْتَ مرتادَ الرجال لنفعهم فَرِشْ واصطنِعْ عند الذين بهم ترمى [٣]

لقيط بن معبد الايادى

أمير شعرِهِ قصيدته التى كتبها إلى قومه يحذرهم جند كِسْرى ويحرضهم على الجد الممانعة والمقارعة . فمنها قوله :

قُومُوا قياماً على أمْشاطِ أرجلكم ثم افزَعُوا قد ينال الأمْرَ من فَزِعا [٤]

هيهاتَ ما زالت الأموالُ مُذْ أبد لأهلها إنْ أصِيبُوا مرةً تبعا

ومنها فى اختيار الرئيس المضطلع بقيادة الجيش وتدبير الحرب وهو أحسن ما قيل فى معناه :

وقَلِّدُوا أمْرَكم لله درُّكُمُ رَحْبَ الذراع بأمر الحربِ مُضْطَلِعا [٥]

لا مُتْرَفاً إنْ رَخاء العيشِ ساعَدَهُ ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به جَزِعا [٦]

---

(١) الاقتار : الضيق فى النفقة . ورزئته : اصبت به وفقدته (٢) بادوا : هلكوا . وحذاق : يؤخذ من كلام الزبيدى فى التاج انه حذاقة جد لأبى دؤاد ابو بطن من اياد حذف ابو دؤاد منه الهاء . وبه يتبين فساد قول من قال (الشعر والشعراء ص ٣٨) : ان « حذاقا — هنا — جمع حذاقى الفصيح اللسان البين اللهجة » (٣) راش الصديق بريشه ريشا اطعمه وسقاه وكساه . والاصطناع : المبالغة فى اصلاح الشيء (٤) الامشاط جمع مشط وهو سلاميات ظهر القدم وهى العظام الرقاق المفترشة على القدم دون الأصابع . يقال انكسر مشط قدمه وقاموا على امشاط ارجلهم وهو مجاز

(٥) مضطلع : مفتعل من الضليع وهو الشديد يريد انه قوى على أمر الحرب مستقل بها . ورحب الذراع : واسع القوة عند الشدائد

(٦) المترف كمكرم : المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه والمنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها لا يمنع من تنعمه ، والجبار . وقوله : اذا عض مكروه كناية عن نزول المكروه واشتداده

مازال يحلبُ هذا الدهر أشطُره   يكون مُتّبِعا طَوْراً ومُتّبَعا[1]
حتى استمرت على شزْرٍ مَرِيرته   مُستحكِمَ السنّ قَحْماً ولا ضَرَعا[2]
أي لا شيخاً خرِفاً ولا شاباً حدثاً

حاتم الطائى

قد سبق له ذكرى فى الأجواد[3] واقتضى المقام إعادة ذكره فمن أمثاله السائرة قوله :

إذا لزِم الناسُ البيوتَ رأيتَهمْ   عماةً من الأخبار خرق المكاسبِ

وقوله يخاطب امرأته ماوية

أماويّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ   ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
وقد علِمَ الأقوام لو أنّ حاتماً   أراد ثَرَاء المال كان له وَفْرُ

وقوله أيضاً

وأنتَ إذا أعطَيْتَ بطنَك سؤلهُ   وفرجكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا[4]

وقوله أيضاً

أماويّ مايُغني الثراء عن الفتى   إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدْرُ[5]

عمرو بن كلثوم

هو من شعراء الجاهلية وقد حاز قصب السبق فى شعره وتقدمت له ترجمة مفصلة فى فرسان العرب[6] فإنه كما كان متقدماً فى الشعر كان من أشجع الفرسان

---

(١) حلب الدهر اشطره : اختبر خير الدهر وشره . وقوله : يكون متبعا الخ اى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به امر الناس ، واتبع ما يصلح الرئيس كما قال امير المؤمنين عمر رضى الله عنه : قد النا وايل علينا اى قد اصلحنا امور الناس واصلحت امورنا (٢) قوله على شزر مريرته : مثل . يقال شزرت الحبل اذا كررت فتله بعد استحكامه راجعا عليه. والمريرة : الحبل. والضرع: الصغير الضعيف . والقحم آخر سن الشيخ (٣) ج ١ ص ٧٢ الى ٨١

(٤) السؤل : المسؤول واراد به ما يشتهيه. والمعنى ان الشخص اذا اعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ما تزينه له نفسه من شهواتها أصابه من الناس منتهى الذم والشتم (٥) ج ١ ص ٧٨ .

(٦) ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٣ .

وأجرأهم وهو قاتل عمرو بن هند الملك بسبب ما كان منه من الفخر والتطاول على العرب وتقدمت القصة فى ترجمته . وبالجملة أنه كان من الطراز الأول من فحول الشعراء ، ولم يخالف فى ذلك أحد من الأدباء ، وهو صاحب المعلقة المشهورة :

ومن أمثاله السائرة قوله

وإنَّ غَداً وإنَّ اليومَ رَهْنٌ وبَعْدَ غَدٍ بما لا تَعْلَمينا[١]

وفى هذه القصيدة بيتان ينسبان إليه . ويقال إنهما لعمرو بن عدى كما ذكره الإمام الثعالبى فى كتابة (لباب الأدب) وهما :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمْرٍو وكان الكأسُ مجْراها اليمينا[٢]

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمْرٍو بِصاحبك الذى لا تَصبِحينا[٣]

ويروى أن عاملاً للإمام علىّ كرم الله تعالى وجهه ورضى عنه قدم من عمله فأهدى إلى الحسنين الأحسنين رضى الله تعالى عنهما ولم يهد شيئاً إلى محمد ابن الحنفية فضرب على كتفه وتمثل بقول عمرو :

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فأهدى من الغد إلى ابن الحنفية كما أهدى إلى أخويه صلوات الله وسلامه على جدهم وعليهم .

عنترة بن شداد العبسى

كان من مشاهير شعراء الجاهلية كما كان من الفرسان المذكورين وله وقائع كثيرة وتقدمت نبذة من أخباره فى الكلام على الفرسان[٤]. وحذاق الشعراء يرجحون شعر عمرو بن كلثوم على شعره على منزلته الرفيعة فى البلاغة . وقد أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التى يقول فيها :

---

(١) أى بما لا تعلمين من الحوادث . يقول فان الايام رهن بما لا يحيط علمك به أى ملازمة له . (٢) يروى « صبنت » موضع «صددت» أى صرفت

(٣) يقول : ليس بصاحبك الذى لا تسقينه الصبوح شر هؤلاء الثلاثة الذين تسقينهم أى لست شر أصحابى فكيف أخرتنى وتركت سقيى الصبوح!

(٤) ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِى المَنُونَ كَأَنَّنِى أصبحتُ عن غرضِ المَنُونِ بِمَعْزِلِ[١]
فأجَبْتُهَا : إنَّ المنيةَ مَنْهَلٌ لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بكأس المنهل
فاقْنَى حَيَاءَكِ (لا أبالكِ) واعْلَمِى أنى امْرُؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقْتَلِ[٢]

ولما أنشد قوله

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حتى أنالَ بهِ كريمَ المأكلِ[٣]

قال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما وصف لى أعرابيٌّ قطُّ فأحببت أن أراه إلاَّ عنترة .

ومن أمثاله السائرة قوله

نُبِّئْتُ عمرًا غيرَ شاكرِ نعمتى والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنفْسِ المُنْعِمِ[٤]

وبيته الذى ينسب إليه

إن العدُوَّ على العدوِّ لَقائِلٌ ما كانَ لى علمٌ وما لم يعلم

طفيل الغنوى

كان يقال له فى الجاهلية المحبِّر أى المحسن لحسن شعره . ويروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال يوماً للأنصار : زادكم الله عنا يامعشر الأنصار خيراً فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوى :

جَزَى اللهُ عنّا جَعْفَرًا حين أزْلَقَتْ بنا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أبوْا أن يملُّونا ولو أنَّ أمّنا تلاقى الذى يلقونَ منا لَمَلَّتِ

---

(١) بكرت : اسرعت ولم يرد بكور الغدو . والمنون : الموت . والمنهل بفتح الميم والهاء المورد (٢) قنى الحياء : لزمه وحفظه . وقنانى الحياء ان افعل كذا : ردنى ووعظنى وهو يقنينى . قال الشاعر :

وانى ليقنينى حياؤك كلما لقيتك يوما ان ابثك ما بيا

(٣) الطوى : الجوع . ويروى « كريم المطعم » موضع « كريم المأكل »

(٤) التنبئة والتنبى مثل الانباء وهذه من سبعة افعال تتعدى الى ثلاثة مفاعيل . والكفر : تغطية نعم المنعم بالجحود .

ومن غرر شعره قوله

إنّ النساء كأشجارٍ نبتْنَ لنا　　منهنّ مرٌّ وبعضُ المرّ مأكولُ

إنّ النساء متى ينهَيْنَ عن خُلُقٍ　　فإنهُ واجبٌ لا بُدَّ مفعولُ

الاضبط بن قريع السعدى

روى ابن الأنبارى بإسناده قال : عاش الأضبط بن قريع مائة وخمسين سنة ثم مات فى آخر الزمان وأمير شعره قوله :

لكلِّ همٍّ من الهُموم سَعَهْ　　والصُّبحُ وَالْمُسْىُ لاَ بقاء مَعَهْ(١)

قد يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكلِهِ　　ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ

لا تحقرن الفقيرَ عَلَّكَ أنْ　　تركعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ(٢)

وصِلْ حبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الـ　　حَبْلَ وأقصِ القريبَ إن قَطَعَهْ(٣)

واقبَلْ من الدهر ما أتاكَ به　　مَنْ قَرَّ عيناً بعيشه نَفَعَهْ

ما بالُ مَنْ سَرَّهُ مصابُكَ لا　　يملك شيئاً من أمره وزَعَهْ(٤)

أذُودُ عن حوضه ويدفعنى　　ياقوم مَنْ عاذرى من الْخُدَعَهْ(٥)

---

(١) ويروى « والمسى والصبح لا فلاح معه » . والمسى يضم الميم وكسرها وسكون السين اسم من الامساء. والصبح: اسم من الاصباح. والفلاح: البقاء

(٢) قوله « لا تحقرن الفقير » هو رواية الجاحظ فى البيان والتبيين ، ورواه غيره « ولا تعاد الفقير » والرواية المشهورة عند النحاة « لا تهين الفقير » وهم يوردون البيت شاهدا على حذف نون التوكيد الخفيفة من « تهين » لالتقاء الساكنين والأصل « لا تهينن الفقير » فحذف النون وبقيت الفتحة دليلا عليها . وله نظائر كثيرة فى كلام العرب . وعل : لغة فى لعل . والركوع الانحناء والميل وأراد به الانحطاط من المرتبة والسقوط من المنزلة . (تنبيه) زعم العينى وتبعه اناس ان هذا البيت من الخفيف وهو وهم كبير والصواب انه من المنسرح — ويدل له القصيدة — لكن دخل فى أوله الخرم (بالراء) بعد خبنه فصار على وزن فاعلن وهذا جائز عند بعضهم وممتنع عند الخليل . انتهى باختصار من شرحنا لكتاب الضرائر تأليف الاستاذ الالوسى المؤلف ص ٩٩ و ١٠٠ من طبعة المطبعة السلفية بمصر (٣) يعنى : تقرب الى البعيد من النسب اذا طلب قربك واهجر القريب من نسبك اذا هجرك .

(٤) المصاب بالضم : المصيبة . وروى « ما بال من غيه مصيبك » . ووزعه يزعه وزعا : كفه ومنعه . وكان فى الأصل « ودعه » بالدال . يقول : ما بال من تتألم لمصيبته وفقره اذا وجد شيئا من الخير كفه عنك .

(٥) قوله « أذود عن حوضه » هذا مثل للحماية ودفع المكروه عنه .

حتى إذا ما انجلت عمايته أقبلَ يَلحَى وغَيَّه فَجَعَه[1]

عدى بن زيد العبادى

لا يخرج من شعر شاعر من الجاهلية من محكم الشعر وحكمه وما يصلح للمثل به من حسن الديباجة وصفاء الزجاجة ما يخرج من شعر عدى ، وكان يسكن الحيرة ويجاور الريف فرقّ شعره وعذب منطقه ، وكان يونس النحوى إذا أنشد قوله فى الاعتبار بذهاب القرون وذهاب الملوك يقول : لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلّا هذا :

أيُّها الشامِتُ المعيِّر بالدهر م أأنتَ المبرَّأُ الموفورُ ؟[2]
أمْ لديك العهدُ الوثيقُ من الأ يّام ؟ بل أنتَ جاهلٌ مغرور !
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أمْ أينَ قبلهُ سابور ؟[3]
وأخو (الحضْر) إذْ بناه وإذْ دجلة تجبى إليه و (الخابور)[4]
شادَهُ مَرْمَرًا وجلّله كلْ ساً فللطير فى ذُراه وُكور[5]
وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الروم لم يَبْقَ منهم مذكور[6]

و « الخدعة » بضم الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة بطن من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم وهم قومه . قاله صاحب الأغانى وغيره . وقال بعضهم : الخدعة فى هذا البيت اسم للدهر لتلونه ويقال دهر خادع وخدعة وهو مجاز

(١) العماية بفتح العين المهملة : الشدة التى تلتبس منها الامور . يقال : عمى عليه الأمر اذا التبس. وأقبل : شرع . ويلحى : يلوم . والغى: الضلال. وفجعه : أصابه بمكروه (٢) شمت العدو : كفرح وزنا ومعنى (٣) كسرى انوشروان : ملك الفرس . وسابور : ذو الاكتاف ملك العجم معرب شاه بور، معناه : ابن السلطان (٤) أخو الحضر وهو بالفتح ثم السكون اسم مدينة بازاء تكريت فى البرية بينها وبين الموصل والفرات . بناها الساطرون بن اسطيرون الجرمقى . . ودجلة : اسم للنهر الذى يمر ببغداد ولا تنصرف ولا يدخلها الالف واللام . وغلط صاحب (المنجد ــ المعجم المدرسى) فأدخلهما عليها كما غلط فى مسائل كثيرة فيه فليحذر منه ! وتجبى : تجمع . والخابور: نهر بين رأس العين والفرات مشهور . وآخر شرقى دجلة الموصل بينه وبين الرقة عليه قرى كثيرة وبليدات (٥) شاده : بناه . والمرمر : وزان جعفر نوع من الرخام الا انه أصلب وأشد صفاء . وجلله : غطاه . والكلس: بالكسر الصاروج وهو النورة . وذرى الشيء : أعلاه (٦) بنو الاصفر : الروم وقيل ملوك الروم اولاد الأصفر بن روم بن عيصو بن اسحق . وقيل الأصفر لقب روم لا ابنه. وقال ابن الأثير : انما سموا بذلك لأن أباهم الأول كان أصفر اللون وهو روم ابن عيصو ويقال عيصون . أو لغير ذلك .

وتفكر ربّ (الخورنق) إذ أشـ رف يوماً وللهدى تفكير[١]
سرّهُ ملكه وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً و (السدير)
فارعوى قلبُهُ فقال وما غبطة حىّ إلى الممات يصير؟[٢]
ثم أضحوا كأنهم ورق جفّ فألوت به الصَّبا والدَّبور[٣]
ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ ـة وارتهم هناكَ القبور[٤]

ومن أمثاله السائرة

كفى واعظاً للمرء أيامُ دهرِهِ تروحُ له بالواعظات وتغتدى[٥]
عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينِهِ فإنّ القرين بالمقارنِ مقتدى
وظلم ذوى القُربى أشدُّ مضاضةً على الحرّ من وقع الحسامِ المهنّدِ[٦]

وقوله فى حبس النعمان بن المنذر

أبلغ النعمان عنى مألُكاً أنّه قد طال حبسى وانتظارى[٧]
لو بغير الماء حلقى شَرِقٌ كنت كالغَصّان بالماء اعتصارى[٨]

وقوله

فهل من خالدٍ إما هلكنا وهل بالموت يا للناس عارُ

(١) الخورنق والسدير : مر ذكرهما فى ص ١٠٩ من هذا الجزء .
(٢) ارعوى : ارتدع . والغبطة : حسن الحال وهى اسم من غبطته غبطا اذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما اعجبك منه وعظم عندك وهذا جائز فانه ليس بحسد فان تمنيت زواله فهو الحسد
(٣) ألوت به : ذهبت به . والصبا : كعصى الريح التى تهب من مطلع الشمس . والدبور : كرسول الريح التى تهب من جهة المشرق تقابل الصبا . ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق . كذا فى المصباح
(٤) الامة بالكسر النعمة . قال الاعشى :
ولقد جرت الى الغنى ذا فاقة واصاب غزوك امة فأزالها
(٥) الرواح يكون بمعنى الغدو وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى « غدوها شهر ورواحها شهر » أى ذهابها ورجوعها .
(٦) المضاضة : الالم . والحسام : السيف . والمهند : المطبوع من حديد الهند . ويقال سيف مهند وهندى وهندوانى اذا عمل ببلاد الهند .
(٧) المألك : بضم اللام الرسالة . (٨) قوله : قوله :« شرق » من شرق الماء اذاغص . والغصان : الغاص بالطعام أو بالماء . والاعتصار : الملجأ . قال أبو عبيدة : المعنى لو شرقت بغير الماء اسغت شرقى بالماء فاذا غصصت بالماء فبما أسيغه . والبيت من شواهد النحويين .

الحرث بن حلزة اليشكرى

قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم . والحرث بن حلزة . وطرفة بن العبد . وزعم الأصمعى أن الحرث قال قصيدته المعلقة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة ارتجالاً متوكأ على قوسه فزعموا أنه اقتطم كفه (١) وهو لا يشعر من الغضب . وقال ابن السيد فى أدب الكاتب كان متكئاً على عَنَزَة (٢) فارتزَّت (٣) فى جسده وهو لا يشعر . قال الصُّولىّ : ما يوصف تأهّب القوم للسفر وإقبالهم على جمع الآلات للارتحال بأحسن من قول الحرث :

أجمعوا أمْرَهُمْ بِعشاءٍ فلما   أصبحوا أصْبَحَتْ لهم ضوضاء (٤)
منْ مُنادٍ ومن مجيبٍ ومن تصْـ   ـهالِ خيْلٍ خِلالَ ذلكَ رُغاء (٥)

أمية بن أبى الصلت

له فى التوحيد والحكمة شعر كثير . وفيه يقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه . ويقال أنه أول من تلطف للسؤال فى قوله لعبد الله ابن جُدْعان (٦) :

أأذكُرُ حاجتى أم قد كفانى   حياؤك ؟ إنَّ شيمَتَكَ الحياء (٧)
وعلمكَ بالحقوقِ (٨) وأنتَ قَرْمٌ   لكَ الحسبُ المهذّبُ والسَّناء (٩)

---

(١) اقتطم الشىء : عضه او تناوله بأطراف اسنانه وذاقه
(٢) هى رميح بين العصا والرمح فى طرفه سنان مثل سنان الرمح .
(٣) اى انفرزت . (٤) الضوضاء : الجلبة وهى اختلاط الأصوات . واجماع الأمر : عقد القلب وتوطين النفس عليه (٥) التصهال : كالصهيل . والرغاء : بالضم صوت البعير . يقول : اختلطت اصوات الداعين والمجيبين والخيل والابل . يريد بذلك تجمعهم وتأهبهم (٦) ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨٧ (٧) الشيمة : الخلق والطبع .. يعنى ان حياءك يكفى فى قضاء حاجتى (٨) اى ويكفينى معرفتك بما يجب .
(٩) القرم : السيد المعظم ، ويروى « وانت فرع » أى شريف قوم . والحسب المهذب : المنقى المخلص . والسناء : الرفعة .

كريمٌ لا يغيرهُ صبَاحٌ عن الخُلُقِ الجميل ولا مَساء (١)
إذا أثنى عليكَ المرْء يوْماً كفاهُ من تعرّضهِ الثنَاء (٢)

ومن غرر شعره قوله

عطاؤك زينٌ لامْرىء إنْ حَبَوْتَهُ بخيرٍ وما كل العطاء يَزِينُ (٣)
وليس بِشَيْنٍ لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وقد سبق له ذكر فيمن كان على دين أيام الجاهلية .

قس بن ساعدة الايادى

كان له باع طويل فى الشعر ، والخطب ، وسائر فنون الكلام ، مع اشتماله على الحكم البالغة ، والفوائد البديعة ، فمن غرر شعره :

فى الذاهبينَ الأوّلين من القُرون لنا بصائرْ (٤)
لما رأيتُ مواردًا للموت ليسَ لها مَصادِرْ (٥)
ورأيتُ قومى نحوَها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لا يَرْجِعُ الماضى إلىَّ ولا من الباقينَ غابِرْ
أيقَنْتُ أنّى لا مَحَا لَةَ حَيْثُ صارَ الْقوْمُ صائِرْ

وأُنشِدَ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات فلما سمعها قال إنه يبعث أمة على حدة .

---

(١) يروى « خليل » موضع « كريم » والمعنى ظاهر . ويروى بعده هذا البيت :

وأرضك كل مكرمة بنتها بنو تيم وانت لها سماء

(٢) يعنى أن المدح يكفى فى نيل الحاجة منك بدون التعرض لمطالبتك .

(٣) حبوته : اعطيته (٤) القرون : جمع قرن وهو اصل كل مدة فيها نبى أو طبقة من أهل العلم والفضل سواء قلت السنون او كثرت . كذا قالوا .

(٥) الموارد : جمع مورد ، وهو محل الورود اى الاتيان . والمصادر : جمع مصدر ، وهو موضع الصدور اى الانصراف والرجوع (٦) غابر : اسم فاعل من غبر بمعنى مكث وبقى وبمعنى مضى ايضا فهو ضد (٧) أى ايقنت انى منتقل حيث انتقل القوم ، فصائر خبر ان . وصار بمعنى انتقل . والقوم فاعله . ولا محالة : بفتح الميم — لا تغيير ولا تبديل . وايقنت جواب لما فى البيت الثانى .

عائذ بن محصن الشهير بالمثقب العبدى

ولقب بذلك لقوله فى قصيدة أولها :

أفاطمَ قَبْلَ بينكِ متِّعينى ... ومنعكِ ما سألتُ كأنْ تبينى[(١)]

ومنها (وثَقَّبْنَ الوصاوصَ للعيون[(٢)]) وأمير شعره قوله فى هذه القصيدة :

فلا تَعِدِى مواعِدَ كاذبات ... تمرُّ بها رياحُ الصَّيْف دُونى

فلو أنّى تُخالفنى شمالى ... لما أتبعتها أبداً يمينى

إذاً لقطعتها ولقلتُ بِينى ... كذلك أجتوى مَنْ يجتوينى[(٣)]

فإمّا أنْ تكونَ أخى بحقٍّ ... فأعرفَ منك غثّى من سمينى[(٤)]

وإلا فاطَّرِحْنى واتّخِذْنى ... عدوًّا أتّقيكَ وتتّقينى[(٥)]

وما أدرى إذا يَمَّمْتُ أرضاً ... أريدُ الخيرَ أيُّهما يلينى[(٦)]

أألخير الذى أنا أبتغيه ... أم الشرُّ الذى هو يبتغينى ؟[(٧)]

ومن أمثاله أيضاً قوله

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ ... أنْ تُتمَّ الوعدَ فى شىء « نَعَم »

حَسَنٌ قبل « نعم » قولك « لا » ... وقبيحٌ القول « لا » بعد « نَعَمْ »

إنّ « لا » بعد « نعم » فاحشة ... (فَبِلا) فابدأ إذا خفتَ النَدَمْ

---

(١) اى منعك ما سالتك كبينك عندى . والبين : الفراق . ويروى «ومنعك ما سألتك أن تبينى» والمعنى منعك ما سالتك لبينك ومن اجل بينك

(٢) قبله «ظهرن بكلة وسدلن اخرى» هكذا اورده الزبيدى . وفى الصحاح والاساس « ارين محاسنا وكنن اخرى » وفى خزانة الادب للبغدادى « رددن تحية وكنن اخرى » والوصاوص جمع وصواص وهو البرقع الصغير .

(٣) البين : الفرقة . واجتوى : ابغض (٤) قوله « فأعرف » بالنصب معطوف على تكون . والغث: من غث اللحم يغث غثاية وغثوثه فهو غث وغثيث اذا كان مهزولا . وكذلك غث حديث القوم واغث اى ردؤ وفسد . والمعنى ههنا : اعرف منك ما يفسد عما يصلح . وقال الدمامينى : الغث الردىء ، والسمين : الجيد ، اى اعرف منك مساوئى من محاسنى فان المؤمن مرآة اخيه أو اعرف ما يضرنى منك مما ينفعنى واميز بينهما

(٥) اطرحنى : أتركنى ، وهو بتشديد الطاء افتعال من الطرح

(٦) يممت : قصدت (٧) ويروى « ام الشر الذى لآ يأتلينى » اى لا يالو فى طلبى .

واعْلَمْ بأنّ الذمّ نقصٌ للفتى ... ومتى لا تتقى الذمَّ تذم
أكْرِمِ الجارَ وراعِ حقَّهُ ... إن عرفانَ الفتى الحق كرم
لا ترانى رَاتِعاً فى مجلس ... فى لحوم الناس كالسَّبْعِ الضَّرِمِ (١)
إنّ شرّ النَّاسِ من يكشرُ لى ... حينَ يلقانى وإنْ غِبْتُ شتم
وكلام سيء قد وُقِرَتْ ... عنه أذناىَ وما بى من صمم (٢)
فتعديتُ خَشاة أن يرى ... جاهلٌ أنى كما كَانَ زعم
ولبعضُ الصفح والإعراض عن ... ذى الخَنَى أبقى وإنْ كان ظلم (٣)

الممزق العبدى

واسمه شاس بن نهار بن أسود بن حريك (٤) بن حى بن غشاش (٥) وكان ابن أخت المثقب . وإنما لقب بالممزق لبيت قاله لبعض الملوك وكان أسيراً عنده :

أحقاً (أبَيْتَ اللعنَ) إنّ ابن فرتنى ... على غير أجرامٍ بريقى مشرقى (٦)
فإن كنت مأكولًا فكُنْ خيْرَ آكلٍ ... وإلّا فأدْرِكْنِى ولما أُمَزَّقِ

قال أحمد بن عبيد : إنما هو ممزِق بكسر الزاى . ولقب ببيته هذا :

فمن مبلغ النعمان أنّ ابن أختهِ ... على العين يعتاد الصفا ويمزّق (٧)

---

(١) أكل لحم أخيه : اغتابه . والضرم : الشديد النهم أخذا من ضرم النار وهو التهابها . والسبع بضم الموحدة لكن سكنه للضرورة . (٢) وقرت اذنه بالبناء للمفعول توقر وقرا فهى موقرة من الصمم . (٣) ذو الخنى : ذو الفحش
(٤) فى الاصل « جريك » بالجيم والتصحيح من التاج (٥) لم يذكر الزبيدى هذا الاسم فى نسب الممزق الذى أورده فى مادة (مزق) من التاج .
(٦) أبيت اللعن : تحية ملوك العرب فى الجاهلية ـ راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٢ والفرتنى : المرأة الزانية والأمة . وابن الفرتنى هو ابن الأمة البغى . قال الشاعر :

مهلا بعيث فان أمك فرتنى ... حمراء اتخنت العلوج ردامها

وشرق بريقه : غص .
(٧) معنى يمزق يغنى . قال المفضل : وهذا يقوى قول الجوهرى فى كسر الزاى فى « الممزق » الا ان المعروف فى هذا البيت « يمرق » بالراء والتمريق بالراء الغناء فلا حجة فيه على هذا لأن الزاى فيه تصحيف .. وقال الآمدى فى الموازنة : الممزق بالفتح هو شاس بن نهار العبدى سمى لقوله : فان كنت مأكولا البيت .

(والتمزيق وعين محلم موضع بالبحرين[١]) وروى له أبو عبيدة قوله :

هل للفتى من بناتِ الدهر من واق   أم هَلْ له من حمام الموت من واق[٢] ؟

ومنها قوله الذى سار مثلاً

هوِّنْ عليك ولا تولع بإشفاق   فإنما مالنا للوارث الباقى

ومن غرره قوله

لن يجمعوا أوَدى ومعرفتى   أو يجمع السيفانِ فى غمد[٣]

عبد قيس بن خفاف

كان من البراجم[٤] . ومن غرر مواعظه ووصاياه لابنه قوله :

فالله فاتقِهِ وأوفِ بنـذره   واذا حَلَفْتَ ممـارياً فتحلل[٥]

واعلم بأنَّ الضيفَ مكرم أهله   بمبيت ليلته وإن لم يسأل

والضـيف أكرمْهُ فإن مبيته   حقٌّ ولا تكُ لعنةً للنزل

وصِلِ المواصلَ ما صفا لكَ وُدُّهُ   واحززْ حبالَ الخائن المتبدّل[٦]

واترك محـلَّ السوء لا تحلل به   واذا نَبا بك منزل فتحوّل[٧]

دار الهوان لمنْ رآها داره   أفراحلٌ عنها كمنْ لم يرحل ؟

واذا هممْتَ بأمرِ شرٍّ فاتئِـدْ   واذا هممتَ بأمر خير فاعجل[٨]

واذا أتتك من العَدُوِّ قوارصٌ   فاقرصْ هُناك ولا تقل لم أفعل[٩]

---

(١) لينظر ما وجه ايراد هـذه الجملة ههنا (٢) بنات الدهـر : حوادثه ومصائبه . والواقى الحافظ . وحمام الموت بالكسر قضاؤه وقدره .
(٣) الأود : الاعوجاج . والغمد : قراب السـيف (٤) البراجم قوم من اولاد حنظلة بن مالك . (٥) نذر على نفسه ينذر نذرا ونذورا : أوجبه . ونذر لله سبحانه كذا . أو النذر ما كان وعدا على شرط فعلى ان شفى الله مريضى كذا نذر وعلى ان اتصدق بدينار ليس بنذر . وقوله (ممار يا) اى شـاكا ومجادلا . وتحلل فى يمينه اذا حلف ثم استثنى استثناء متصلا .
(٦) احزز : اقطع . (٧) نبابه المنزل : لم يوافقه . (٨) اتاد وتواد : تأنى فى الأمر . (٩) القوارص من الكلام هى التى تنغصك وتؤلمك كالقرص فى الجسد . ولا تزال تقرصنى من فلان قارصة اى كلمة مؤذية .

الشنفرى

تقدم له ذكر أيضاً وأمير شعره قصيدته التى أولها :

إلا أمّ عمرٍ وأجمعت فاستقلّت ... وماودعت جيرانها إذ تولت

و بيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

فدقّتْ وجلّتْ واسبكرّتْ وأظلمت ... فلو جنّ إنسانٌ من الحسن جنّتِ

أى دقت خاصرتها وجلت[1] عجيزتها وامتد قوامها واسودّ شعرها فلو كان إنسان يجن من فرط الحسن لجنت هذه .

عروة بن الورد

أمير شعره وغرة كلامه فى الخطاب بالنفس لطلب المال قولهُ :

فمن يكُ مثلى ذا عيـالٍ ومقترٍ ... من المال يطرحْ نفسَهُ كلّ مطرحِ[2]

ليبلغ عـذراً أو ينالَ رغيبـةً ... ومبلغ نَفْسٍ عذرها مثل منجحِ[3]

وقوله أيضاً

إذا آذا آذاك مالك فامْتَهِنْهُ ... لجاديه وإنْ قَرِعَ المُرَاحُ[4]

أى إذا أعانك مالك فابذله لمن سألك إياه و إن بقيت صفراً منه .

أفنون التغلبى

كان بعض الـكهان أنذره بهلاكه من لدغة تصيبه ، وكان يتحرز منها بجهده ولا ينام إلا على ظهر راحلته . فبينا هو ذات ليلة على ناقة له ، وهى ترعى ، إذ التوتْ حيةٌ على مِشفَرها[5] فاضطربت فرمت بها إليه فلدغته ، فقال فى وقته :

---

(١) أى عظمت (٢) أى من يك مثلى معيلا مقترا (أى صاحب عيال فقيرا) يطرح نفسه فى كل بلاء ومشقة (٣) يصيب رغيبة : ينال مالا . والمنجح : الغانم . وفى الأغانى (ج ٢ ص ١٨٩) : م(نك) بدل (مثل) . (٤) نسبة الزبيرى فى مادة (قرع) لابن أذينة . وآداه ماله : كثر عليـه فغلبه . والمراح بالضم المأوي ، وقرع مأوي المال ومراحه فى المال قرعا فهو قرع : هلكت ماشيته . ويروى « صفر المراح » بدل « قرع المراح » . والجادى : السائل .
(٥) المشفر للبعير كالشفة للانسان .

لَعَمْرُكَ ما يَدْرِى الفتى كيفَ يتَّقى   إذا هوَ لم يجعلْ له الله واقيا

ثم خرَّ ميتاً لساعته .

قيس بن الخطيم

أمير شعره قصيدته التى أولها :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب[1]   لعمرةَ وحْشا غير موقف راكب ؟

و بيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

تراءتْ لنا كالشَّمس بين غمامةٍ   بدا حاجبٌ منها و بانت بحاجب

ولما رأيت الحرْبَ قد جد جدها   لبست مع البردين ثوبَ المحارب

يقول قد جمعت بين ثوب الصلح وثوب المحارب لأكون على بصيرة من أمرى فى الحالين . وفيها :

إذا قصرَتْ أسيافنا كان وصلها   خطانا إلى أعدائنا بالتقارب

وفيها

لو أنّك تلقى حنظلا فوقَ بيضنا   تدحرج عن ذى سامة المتقارب

أحيحة بن الجلاح

غرة شعره الذى يتمثل به قوله :

إستَغْنِ أوْمُتْ ولا يغررك ذو نَشَبٍ   من ابن عمٍ ولا عم ولا خال[2]

إنى مُقيمٌ على الزوراء أعمُرُها   إنَّ الحبيبَ إلى الإخوان ذو المال

وقوله

وما يدرى الفقيرُ متى غناهُ   ولا يدرى الغنىُّ متى يعيل[3]

---

(١) اى كتتابع المذاهب وهى جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها فى أثر بعض
(٢) النشب بفتحتين المال والعقار (٣) يعيل : يفتقر .

عامر بن الطفيل

هو من الشعراء المجيدين . ومن غرر شعره السائر سير الأمثال قوله :

إني وإنْ كنتُ ابنَ سيّدِ عامرٍ   وفارسها المشهور في كلِّ مَوْكب (١)
فما سَوَّدَتني عامرٌ عن وِراثةٍ(٢)   أبى اللهُ أنْ أسْمو بِأمٍّ ولا أبِ(٣)
ولكنني أحمي حماها وأتقي   أذاها وأرمي مَنْ رماها بمنكبي

ويقع قوله هذا في كل اختيار لاشتمال الحسن والجودة على لفظه ومعناه .

أبو الطمحان القيني

واسمه الشرقي بن حنظلة(٤). قال دعبل : إن أمدحَ بيتٍ قالته العرب في الجاهلية قول أبي الطَّمَحان :

وإنَّ بني أوس بن لأم أرومة   علتْ فوْقَ صَعْبٍ لا ترام مَرَاقبُهْ
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم   دُجى الليل حتى نظَّمَ الجَزع ثاقبُهْ (٥)

وكان أبو بكر الخوارزميّ يقول ربما أردت البكاء في بعض مواطنه فيمتنع عليَّ فما هو إلَّا أن أنشد أبيات أبي الطمَحان القيني فيما بيني و بين نفسي حتى ينحل عقد الدمع . وهي هذه :

ألا علِّلاني قبلَ صدْحِ النوائحِ   وقبل ارتقاء النفس فوقَ الجوانحِ (٦)
وقبل غدٍ يا لهفَ نفسي على غدٍ   إذا راح أصحابي ولست برائحِ
إذا راح أصحابي تفيضُ دموعُهم   وغُودِرْتُ في اللحْدِ عليَّ صفائحي (٧)

---

(١) الموكب : كمجلس اسم للجماعة من الناس ركبانا أو مشاة ، أو ركاب الابل للزينة والتنزه (٢) اى ما جعلتني سيد قبيلة بني عامر بالارث عن آبائهم بل سدتهم بأفعالي (٣) قوله أبى الله الخ له معنيان احدهما بمعنى كره وهو المراد هنا . والثاني بمعنى امتنع و (أن اسمو) مفعوله والسمو . العلو ،واستشهد النحاة بهذا البيت على أن النصب على الواو يقدر كثيرا لاجل الضرورة (٤) الصواب « حنظلة بن الشرقي » كما تقدم في الجزءالأول ص ٥٥ (٥) راجع الجزء الأول ص ٥٥ و ٥٦ (٦) التعليل : تطييبالنفس بذكر ما تحب . والجوانح : ضلوع الصدور . وارتقاء النفس : بلوغها التراقي (٧) غودرت : تركت . والصفائح : الحجارة العريضة الرقيقة .

يقولون : هل أصلحتم لأخيكم ؟ وماللحد فى الأرض الفضاء بصالح

والشيء بالشيء يذكر . وذلك أن بعض الأدباء قال : إذا استجلبت ماء العين أيضاً فى وقته فأبى أنشدت قول بعض المحدثين فيما بينى وبين نفسى فما هو إلا أن أمره ببالى وقد جاءت العبرات وهو هذا : —

ولتطلعنَّ الشمسُ بعد فراقنا بيضاء لم تأسَفْ على فقداننا

كم من غداةٍ يُستطاب نسيمُها ويدُ البِلى تقضى على أبداننا

الأعشى

واسمه ميمون بن قيس . وكان يقال له (صَنَّاجة العَرَب) لكثرة ما تفنن فى شعره وهو أحد الأربعة الذين وقع الاتفاق على أنهم أشعر العرب ، وقد تقدم ذكرهم [1] . وهو على ساقة الجاهليين ، ومقدمة المخضرمين ، وكان قد أدرك المبعث ومدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير أنه لم يتوفق للإسلام . فمن أمثاله السائرة قوله فى الخمر :

وكأس شَرِبْتُ على لذّة وأخرى تداويتُ منها بها

لكى يعلم أنّى امْرؤٌ أتيت المروءةَ مِنْ بابِها

وله البيت الذى وقع الاتفاق على أنه أهجى بيت فى الجاهلية . وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

تَبِيتُونَ فى الْمَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وجَارَاتكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصَا [2]

ويروى أن علقمة لما قرع سمعه هذا البيت بكى ، وقال : اللهم اخزه واجزه عنى إن كان كاذباً ! ومن غرر شعر الأعشى وأبيات قصائده وواسطة قلائده قوله

---

(١) فى ترجمة زهير بن ابى سلمى ج ٣ ص ٩٧ (٢) غرثى : جائعة والرجل غرثان . والخمائص : الضامرات البطون ومفردها خميصة .. وقد كذب الأعشى فى هجوه لعلقمة ، فانه كان من اجواد العرب . وقد اسلم وحسن اسلامه

وإن القريبَ مَنْ يقرب نفسه　　لَعَمْرُ أبيكَ الخير لا من تنسَّبَا

ومَنْ يغترب عن قومه لا يزلْ يرى　　مَصَارِعَ مظلوم مجرًّا ومسحبًا

وتدفن منه الصالحات وإنْ يسيء　　يكن ماأساءالنار فى رأس كَبْكَبَا[1]

ومن أمثاله السائرة قوله

ألستَ منتهيًا عن نَحْتِ أثلتنا　　ولستَ ضَائِرَهَا ما أطَّتِ الإبلُ[1]

كناطح صخرةً يومًا ليقلَعَها　　فلم يَضِرْهَا ، وأوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ[2]

وقوله

عَوَّدْت كِنْدَةَ عادة فاصبرْ لهـا　　اغفِرْ لجاهلها ورَوِّ سجالها

أو كُنْ لهـا جملاً ذلولاً ظهره　　واحمل فأنت معوَّد تحمالها

ومن أمثال السائرة قوله .

إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التقى　　ولاقَيْتَ بَعْدَ المَوْت مَنْ قد تزَوَّدا

نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثله　　فترُصِدَ للأمر الذى كان أرصدا[4]

لبيد بن ربيعة العامرى الأنصارى

وهو من الشعراء المخضرمين عاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الإسلام مثلها . وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام . وفى الخبر « أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد .

---

(١) كبكب كجعفر اسم جبل بمكة ولم يقيده فى الصحاح بمكان وقيده غيره بانه جبل بعرفات خلف ظهر الامام اذا وقف وقيل هى ثنيـة . قال الزبيدى : وقد صرفه امرؤ القيس ، والاعشى ترك صرفه (٢) قوله « عن نحت أثلتنا » أى عن ذمنا والطعن فى حسبنا . والاثلة هى الاصل وواحدة الاثل وهى شجرة الطرفاء ، ونحت الاثلة كناية عما تقدم . وضائرها : ضارا بها . يقال ضاره الأمر يضيره بمعنى أضربه . واطت : حنت . يريد انك لا تضرنا ابدا مهما تنقصتنا لان الناس يعرفون حقيقتنا فلا يابهون لذمك .

(٣) قوله « كناطح صخرة » يعنى انك بعملك هذا كوعل ينطح صخـرة ليقلعها وفى رواية « ليوهنها » اى يضعفها . والوعل : حيوان شبيه بالغزال ويقال هو تيس الجبل (٤) ترصد : اى تترصد وتترقب .

ألا كلُّ شىء ماخلا اللهَ باطلُ   وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ (١)

سوى جنةِ الفردَوْس إنَّ نعيمَهَا   يدُومَ وإن الموتَ لابدَّ نازِلُ

وسئل لبيد عن أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضّليل يعنى امْرأ القيس ، قيل : ثم مَنْ ؟ قال : الغلام القتيل ، يعنى طَرَفة . قيل : ثم مَنْ ؟ قال : صاحب المحاز يعنى الشيخ أبا عقيل ، وهو نفسه .. وسمعَ الفرزدقُ رجلا ينشد قول لبيد :

وجَلاَ السُّيولُ عن الطّلولِ كأنها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونهَا أقلامُها (٢)

فسجد ! فقيل : ماهذا يا أبا فراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر ! وروى أنه لما أنشد قصيدته هذه فى الجاهلية وبلغ قوله :

يعلو طريقةَ مَتْنها مُتَوَاتِرٌ   فى ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غمامُها (٣)

سجد له شعرآء زمانه ! وقيل لبشار بن برد : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب . فقال : إن تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديدٌ ، ولكن قد أحسن كل الإحسان لَبيد فى قوله :

وأكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَهَا   إنَّ صدقَ النفس يُزْرِى بالأمَلْ (٤)

وإذا رُمْتَ رحيلاً فارتحلْ   واعْصِ ما يأمر توصيم الكسل (٥)

ومن أمثاله السائرة من قصيدة :

وما المالُ والأهلوُنَ إلاَّ ودائعٌ   ولا بدَّ يَوْماً أنْ تُرَدَّ الودائعُ

وما المَرْء إلا كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ   يَحورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطعُ (٦)

---

(١) قوله « لا محالة » بفتح الميم أى لا تغيير ولا تبديل . والباطل : هو فى الاصل ضد الحق ، واراد به هنا الهالك (٢) جلا : كشف . والطلول جمع طلل وهو الشاخص من آثار الديار . والزبر : جمع زبور وهو الكتاب . وتجد متونها : تجددها . والمتون جمع متن وهو فى الاصل الظهر والمراد بها هنا الكتابة التى تكون فى الزبور . ومفعول جلا محذوف والتقدير : جلت السيول التراب عن الطلول . (٣) طريقة المتن : خط من ذنبها الى عنقها والكفر : التغطية والستر . يقول : يعلو صلبها قطر متواتر فى ليلة ستر غمامها نجومها

(٤) يزرى يقصر (٥) التوصيم : الكسل والفترة (٦) يحور يرجع . وساطع مرتفع .

ومنها

أليس ورائى — إن تراخَتْ منيَّتى   لزُومُ العصَـا تُحْـنَى عليها الأصابعُ
أخبر أخبار القُرُون التى مَضَتْ   أدِبُّ كأنّى كلما قمتُ راكعُ
لعَمْرُكَ ما يدرى المسافر هل له   نجاحٌ ولا يدرى متى هو راجع
أتجْزَعُ مما أحدثَ الدهرُ بالفتى   وأىُّ كريمٍ لم تُصِبْهُ القوارعُ

ومن أمثاله السائرة قوله

ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم   وبقيت فى خَلْف كجلد الأجربِ[1]

وقوله

فقُومَا وقولَا بالذى قد عَلمْتُمَا   ولا تخمِشا خدًّا ولا تحلقا شَعَرْ
إلى الحوْلِ، ثم اسمُ السلام عليكما   ومَنْ يبكِ حولًا كاملاً فقد اعتذرْ

وحكى[2] أنه لم يقل فى الإسلام غير بيت واحد وهو قوله :

الحمدُ للهِ إذ لم يأتنى أجَـلى   حتى اكتسيت من الإسلام سربالا[3]

وحكى ابن دريد : أن لبيداً عاش مائة وخمساً وأربعين سنة : خمساً وخمسين فى الإسلام ، وتسعين فى الجاهلية . وقد كان معاوية همّ بأن ينقص عطاءه فأرسل إليـه : « إنما أنا هامة اليوم أو غد[4] فأعرنى اسمها فلعلى أن لا أقبضها » فمات قبل أن يقبضها . وكانت ابنتاه تأتيان مجلس أبى جعفر فتؤبناه[5] فلا تألوان فبقيتا على ذلك حولاً كاملاً ثم كفتا . وله أخبار طيبة ذكرها ابن قتيبة فى كتاب

---

(١) يقال فلان فى كنف فلان اى فى ناحيته وخيره . يقول ذهب الكـرام الذين ينتفع بهم وبقيت فى قوم لا خير فيهم كجلد الاجرب وجلد الاجرب من الجمال لا ينتفع به (٢) هذه الحكاية التى تناقلها المؤلفون خلفا عن سلف لا تصح بحال . كيف وقد خاطب لبيد حين حضرته الوفـاة ابنتيه بأبياته الشهيرة التى اورد منها المؤلف ههنا بيتين وهما قوله فقوما وقولا بالـذى تعرفانه الخ ... ؟ (٣) السربال : مايلبس من قميص أو درع وقد عزا المحققون هذا البيت الى رجل سلولى من المعمر بن . (٤) يقولون هو هامة اليوم اوالغد اى يموت اليوم أو غدا (٥) التأبين : الثناء على الشخص بعد موته .

الشعر والشعراء وابن عبد البر فى الاستيعاب وأبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين .

كعب بن زهير بن أبى سلمى

هو من المُخَضْرَمين . وكان له عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذنب وحين أوعده عليه السلام فقدم عليه وأنشده قصيدته التى يقول فيها .

نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمولُ

إن الرَّسُولَ لَنُورٌ يُستضاء به وصارمٌ من سُيوف الله مسلول

رضىَ عنه وكساه بردته التى اشتراها (معاوية) من ورثته بستمائة دينار ، وهى البردة التى كانت عند الخلفاء يلبسونها فى العيدين . ويقال إن أمير شعره وغرة كلامه قوله ، ويقال إنه لأبيه :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى[1] أصبتَ لئيماً أو أصابكَ جاهل

العلاء بن الحضرمى

وفد العلاء على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : (وهو الذى أخرج من الحبلى نَسَمة تسعى بين شراسيف وحشى[2]) فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كُفَّ فإن السورة كافية : ثم قال : أتقولُ شيئاً من الشعر ؟ فأنشده :

وحيِّ ذوى الأضغان تسبِ قلوبهم تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل[3]

---

(١) الخنى : الفحش (٢) النسمة : بفتحتين نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون . والشراسيف : جمع شرسوف وهو غضروف معلق بكل ضلع او مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . (٣) حى : أمر من حياه تحية واصله الدعاء بالبقاء والحياة ومنه التحيات لله أى البقاء وقيل الملك ، ثم كثر حتى استعمل فى مطلق الدعاء ثم استعمله الشرع فى دعاء مخصوص وهو سلام عليك . وحى على الصلاة ونحوها دعاء . والاضغان : الاحقاد .

فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً   وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل (١)

فإن الذى يؤذيك منه استماعه   وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكما » .

النمر بن تولب العكلى (٢)

عمر فى الجاهلية وأدرك الإسلام وقد خرف ، وكان شاعراً فصيحاً شجاعاً جواداً كريماً . وكان هِجِيّراه (٣) فى خرفه أصبحوا الضيف أغبقوا الضيف (٤) كعاداته التى كان عليها . وكانت امرأة فى زمانه خرفت أيضاً فكان دأبها أن تقول : خضبونى كحلونى زوّجونى رجلونى . وبلغ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذلك ، فقال : لما لهج به أخو عكل أكرم مما لهجت به خرفة بنى فلان . ومن أمثاله قوله :

يوَد الفتى طول السلامة جاهداً   وكيف يرى طول السلامة يَفعلُ

وقوله :

خاطِرْ بنفسك كى تَنالَ رغيبةً   إنّ القعودَ مَعَ العيال قبيحُ (٥)

إنّ المخاطِرَ مالكٌ أو هالكٌ   والجدّ يُجدِى مرةً فيريحُ

(١) دحسوا بالكره : دسوا بالشر . واخنسوا : سكتوا وانقبضوا .

(٢) قال المبرد فى الكامل (ج ١ ص ١٠٣ — طبعة التقدم العلمية) : « كل نمر فى العرب كالنمر بن قاسط وغيره مكسور النون مجزوم الميم الا النمر بن تولب عن ابن دريد . قال ابو حاتم يقال النمر بفتح النون وسكون الميم ولا يقال النمر » . وفى الاقتضاب (ص ٣٠٣) « كان ابو حاتم يقول النمر بسكون الميم ويزعم أن العرب لا تقوله الا هكذا وهذا الذى ذكره غير معروف »

(٣) أى دابه وشأنه (٤) صبحه : سقاه صبوحا وهو ما اكل او شرب غدوة . وغبقه سقاه غبوقا وهوما يشرب بالعشى . (٥) الرغيبة : الامر المرغوب فيه والعطاء الكثير .

وقوله :

ومتى تُصِبْكَ خصاصةٌ فارْجُ الغنى   وإلى الذى يَهَبُ الرغائبَ فارغبِ [(١)]

لاتغضبَنَّ على امرىء فى مالِهِ   وعلى كرائم أصل مالك فاغضب

حسان بن ثابت

كان شاعِرَ النبىّ (صلى الله تعالى عليه وسلم) والمناضلَ عنه ، وله قال (أُهج مشركى قريش ومعك روح القدس والله إنّ كلامك لأشَدُّ عليهم من وقع السهام فى غَلَس الظلام) . ومن غرر شعره قصيدته التى يقول فيها :

إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً   فهُنَّ لطيِّبِ الرّاح الفِدَاء [(٢)]

ونَشْرَبُهَا فتترُكنا ملوكاً   وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاء [(٣)]

ولما أنشدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانتهى إلى قوله :

هجوتَ (محمداً) فأجبتُ عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء [(٤)]

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (جزاؤك على الله الجنة) فلما انتهى إلى قوله :

فإن أبى ووالدَهُ وعرضى   لِعِرْض (محمَّدٍ) منكم وقاء [(٥)]

قال عليه الصلاة والسلام (وقاك الله هول المطلع) فلما انتهى إلى قوله :

---

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة . والرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير

(٢) الاشربات جمع اشربة وهو جمع شراب وهو ما يشرب من اى نوع كان وعلى اى حال كان . والراح الخمر وكان حسان (رض) قد ابتدأ هذه القصيدة فى الجاهلية ثم اكملها فى الاسلام من قوله «عدمنا خيلنا ان لم تروها» فلا اعتراض عليه من أنه كيف يذكر فى شعره الخمر ويمدحها . فافهم !

(٣) ينهنهها : يكفها ويزجرها . وهذا البيت آخر ما قاله رضى الله عنه من هذه القصيدة فى الجاهلية وقد عابه عليه بعض الادباء فزعم أنه فيه قصر فى الفخر فانهم اذا كانت الخمر تجعلهم ملوكا وأسدا فليس فى ذاتهم سيادة وشجاعة وانما استفادوا ذلك من الشرب ! والجواب : أن المقام مقام صفة الخمر لامقام الفخر فالمطلوب هنا انما هو توفيتها حقها واستيفاء صفتها وتعديد ما يأتى له مدحها به ولكل مقام مقال ، وكما قيل ان الخمرة تظهر الشجاعة فى الشجاع ولا تحدثها فى الجبان . كذا قالوا . (٤) يخاطب به أبا سفيان بن الحارث فانه كان قبل اسلامه يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والجزاء المكافأة على الشىء بالخير أو الشر . قال الله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٥) الوقاء : بالفتح والكسر ما وقيت به الشىء .

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ له بِنِدٍّ فَشَرُّ كما لخـــير كما الفداء (١)

قال من حضر : هذا واللهِ أنصف بيت قالته العرب . وكان فى الجاهلية مداحاً لبنى جَفْنَةَ ملوك غسان . ويقال إن من غرر شعره قوله فيهم :

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قبرِ أبيهمِ قبرِ ابنِ مارِيةَ الكريمِ المُفْضِلِ (٢)
بِيضُ الوجوه نقية أحسابهم شمّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ (٣)
يُغْشَوْنَ حتّى ما تَهِرُّ كلابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ (٤)

(١) الند : بالكسر المثل ولا يكون الند مخالفا . والاستفهام للانكار أى ماكان ينبغى لك ان تهجوه ولست من أكفائه ونظرائه فلم تنصفه . وقوله فشر كما لخيركما الفداء مع علمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير منه بلا ريب جار على أسلوب الكلام المنصف وهو ان ينصف المتكلم من نفســه او ممن يتكلم من جهته فيضطر السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا لانكاره والمنازعة فيه نحو « وأنا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » فان من المعلوم ان المتكلم ومن معه على هدى وأن المخاطبين فى ضلال . وانما أبهم الامر بين الفريقين ليكون أدعى المخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد حيث يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وأنصفه . (٢) جفنة أبو ملوك الشام وهو جفنة بن عمرو مزيقياء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبــة بن عمرو بن جفنـــة . وأراد بأولاد جفنة أولاد الحرث الاعرج بن مارية ، وهم النعمان بن المنذر والمنذر وجبلة ، وأبو شمر ، وهؤلاء كلهم ملوك وهم أعمام جبلة بن الأيهم ، ومارية هى بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة . هذا قول أبى عبيدة وقال ابن الكلبى مثل قوله ثم قال وقالت كندة جمعاء هى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية بن ثور بن كنـــدة وقال القعنبى بنت ظالم بن وهب بن الحرث . وقال ابن السكيت هى مارية بنت أرقم بن ثعلبة . وأراد بقــوله حول قبر ابيهم أنهم فى مساكن أبائهم ورباعهم التى كانوا ورثوها عنهم .

(٣) الشمم ارتفاع أرنبة الانف وورودها يقال رجل أشم وامرأة شـــماء وقوم شم والشمم الارتفاع فى كل شىء فيحتمل أن يكون اراد بشـــم الأنوف ما ذكرناه من ورود الارنبة لأن ذلك دليل العتق والنجابة عندهم . ويجوزان يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الامـــور ورذائلها وخص الانوف بذلك لان الحمية والغضب والانفة تكون فيها ولم يرد طول انفهـــم وهذا أشبه أن يكون مراده لانه قال بيض الوجوه ولم يرد بياض اللون فى الحقيقة ، وانما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم . وجميل أخلاقهم وفعالهم ، كما يقول القائل جاءنى فلان بوجه أبيض وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا وانما يعنى ما ذكرناه كما قال ذلك المرتضى . وقوله من الطـــراز الاول اى أفعال آبائهم وسلفهم وانهم لم يحدثوا أخلاقا مذمومة لا تشبه نجادهم وأصولهم

(٤) يغشون بالبناء للمفعول أى يتردد اليهم من غشيه اذا جاءه . وهر الكلب اذا صوت وهو دون النبـــاح يعنى أن منازلهم لا تخلو من الاضـــياف والفقراء فكلابهم لا تهر على من يقصد منازلهم لاعتيادها بكثرة التردد اليها من الاضياف وغيرهم وقوله لا يسألون اى هم فى سعة لا يســـألون كم نزل بهم من الناس ولا يهولهم الجمع الكثير (وهو الســواد) اذا قصدوا نحوهم .

ومن أمثاله السائرة قوله :

رُبَّ علمٍ أضاعَهُ عَدَمُ الما   ل وجهلٍ غَطَّى عليه النَّعيمُ

ومنها :

ما أبالي أنَبَّ بالحزْنِ تَيْسٌ   أمْ لحاني بظَهْرِ غَيْبٍ لَئيمُ[1]

وواسطة قلادة شعره قوله :

وإنَّ امْرَأً يُمْسى ويُصْبِحُ سالماً   من الناس إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

فأجازه ابنه (عبد الرحمن) بقوله :

وإن امْرَأً نال الغنى ثم لم يَنل   صديقاً ولا ذا حاجةٍ لَزَهيدُ

ثم أجازها (سعيد بن عبد الرحمن) بقوله :

وإنَّ امْرَأً قد عاشَ سبعينَ حجةً   ولم يرض فيها رَبَّهُ لَطَريدُ

ثم أجازها (أبو الحسن الحسنى) بقوله :

وإن امرأً عادى أناساً على الغنى   ولم يَسْأل الله الغِنَى لَحَسُودُ

النابغة الجعدى

اختلف فى اسمه على أقوال أصحها أن اسمه قيس بن عبد الله بن وحوح بن عدس ابن ربيعة بن جعدة . وإنما لقب بالنابغة لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أقام نحو ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه فقاله فسمى النابغة وهو أسن من النابغة الذبيانى لأن الذبيانى كان مع النعمان بن المنذر . وكان النعمان بن المنذر بعد المنذر بن محرِّق وقد أدرك النابغة الجعدى المنذر بن محرق ونادمه . ذكر عمرو بن شبة أنه عمر مائة وثمانين سنة ، وأنه أنشد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :

لَبِستُ أناساً فأفنيتُهُمْ   وأفنيت بعد أناسٍ أناساً

ثلاثة أهلين أفنيتهم   وكانَ الإلهُ هوَ المُستآسا[2]

---

(١) يقول : قد استوى عندى نبيب التيس بالحزن ونيل اللئيم من عرضى بظهر الغيب ونبيب التيس صوته عند هبابه للسفاء . والحزن ما غلظ من الأرض وخصه لأن الجبال ثم أخصب للمعز من السهول (٢) المستآس : المستعاض

فقال له عمر : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال : ستين سنة ! وقال ابن قتيبة : عمر الجعدىّ مائتين وعشرين سنة . ومات بأصبهان . ولا يدفع هذا ماس فإنه أفنى ثلاثة قرون فى مائة وثمانين سنة . ثم عمر إلى زمن ابن الزبير و بعده . قال الثعالبى فى كتابه لباب الأدب : قيس بن عبد الله من المخضرمين المعمرين . وأمير شعره قصيدته التى يقول فيها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

أتيتِ رسولَ اللهِ إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيّرا (١)

بلغنا السماء مَجْدنا وجدودنا وإنّا لنرجو فَوْقَ ذلك مظهَرَا

ولا خَيْرَ فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا (٢)

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إلى أين يا أباليلى ؟ فقال : إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام : إنْ شاء الله ! ويروى أنه عليه الصلاة والسلام لما أنشده البيتين قال : « لافضّ الله فاك » فعمر وهو أحسن الناس ثغراً على كبره ولم تفض له سن . ومن غرر شعره قوله فى مرثية صديق له :

فتى كانَ فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أنّ فيه ما يَسُوء الأعاديا (٣)

فتى كملت أخلاقهُ غَيْرَ أنه جوادٌ فما يُبقى من المال باقيا (٤)

الحطيئة

واسمه جَرْوَل بن مالك . كان راويةً لزهير فنجم مقبول الكلام شَرُود القافية خبيث اللسان حتى كان لسانه مقراض الأعراض حتى إنه هجا أباه وأمه وزوجه ونفسه . فمن قوله لأبيه :

---

(١) النير المضىء. والمجرة البياض المعترض فى السماء والنسران من جانبيها

(٢) البوادر : جمع بادرة وهى ما يبدر من حدتك فى الغضب من قول او فعل وبدأت منه بوادر غضب أى خطأ وسقطات عندما احتد .

(٣) فتى منصوب على الاختصاص ولما كان قوله « فيه ما يسر صديقه » يعلم منه أن فى الناس من يجمع الخير دون الشر وخشى انه اذا سكت على هذه الجملة ظن به القصور من التمام فلا تكون فيه النكاية فى الاعداء والاساءة اليهم فتمم وصفه بأن قال على أن فيه ما يسوء الاعاديا (٤) المعنى : واذكر فتى جمع الأخلاق الفاضلة وكملها فما كان يعاب بشىء سوى انه لم يستبق من ماله شيئا لما فيه من كثرة الجود وهو كمال على كماله الأول .

لحاكَ اللهُ ثم لحاكَ حقاً   أباً ولحاك من عمٍ وخالِ (١)
فنِعْمَ الشيخُ أنت لدى المخازى   وبئسَ الشيخُ أنت لدى المعالى
جمعت اللـؤمَ لا حيَّاكَ ربى   بأنواع السَّفاهة والضَّلال

وقوله لأمه

فهاهنَّ اقعُدى منا بعيداً (٢)   أراحَ الله منكِ العالَمينا
أغِرْبالاً إذا استودِعْتَ سراً   وكانوناً على المتحدِّثينا (٣)

ومن قوله لامرأته

أطوِّفُ ما أطـوف ثم آتى   إلى بيتٍ قعيدتُهُ لـكاعِ (٤)

ومن قوله لنفسه

أبَتْ شفَتاىَ اليومَ إلا تـكلُّمًا   بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائِلُهْ
أرى لىَ وَجْهـاً شوهَ اللهُ خلقَهُ   فقُبِّحَ من وَجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهُ

وصب الله به سوط عذاب على الزبرقان بن بدر فإنه أمضه بهجائه إياه وأبكاه وأقلقه وأحرقه وسير فيه قصيدته السائرة الطيارة التى يقول فيها :

وقد مَرَيْتُـكُمُ لَوْ أنَّ دِرَّتَـكُمْ   يوماًيجىء بها مَسْحى وإبساسى (٥)
أزْمَعْتُ يأساً مربعاً من نوَالـكم   ولن ترَى طارِدًا للحرّ كالياسِ (٦)

---

(١) لحاه الله : لعنه (٢) ويروى «تنحى فاجلسى منى بعيدا» . (٣) الغربال : بالكسر ما ينخل به ، يريد انها نمامة قتاتة . والكانون : قيل هـو الثقيل : وقيل الذى اذا دخل على القوم كنوا حديثهم منه وقيل هو المصطلى وقيل انه هو كانون النار لأنه يؤذى ويحرق . (٤) اطوف : اكثر الطواف اى الدوران. وآوى مضارع آوى الى منزله اذا اقام به وانضم ولجأ . وقعيدة الرجل : امرأته وهى فعيل بمعنى فاعل . والكاع : خبيثة او سيئة الخلق أو وسخه وهذا بيت مفرد . والمصراع الأول من قول قيس بن زهير ابن جذيمة :

اطـوف ما اطوف ثم آوى   الى جار كجار أبى دؤاد

(٥) مريتكم : طالبت ما عندكم . واصله من مريت الناقة وهو أن يمسح ضرعها لتدر . والدرة بالكسر اللبن . والابساس : صوت تسكن به الناقة عند الحلب . يقال بس بس .

(٦) الازماع : تصميم العزم . والبيت من شواهد « مغنى اللبيب » أورده على ان بعضهم قال (من) متعلقـة بقوله (يأسا) والصـواب تعلقها بيئست محذوفة لأن المصدر لايوصف قبل ان يأتى معموله .

من يفعل الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ   لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناس (١)
دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها   واقعُد فأنت لعمرى طاعمٌ كاسى (٢)

ومن غرره فى المدح قوله

أقِلُّوا عليهم (لا أبا لأبيكُمُ)   من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا
أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحْسَنُوا البِنا   وإن عاهدوا أوْفَوْا و إن عقدوا شَدُّوا (٣)

أبو ذؤيب الهذلى

كان يقال هذيل أشعر القبائل وأبو ذؤيب أشعرها . وأمير شعره قصيدته فى المرثية التى أولها :

أمن المَنُونِ وريْبِهِ تتوجَّعُ   والدهْرُ ليس بمعتب مَنْ يجزعُ ؟ (٤)
وتَجَلُّدِى للشامتينَ أريهم   أنى لِرَيْبِ الدهْر لا أتضعضعُ ! (٥)

وبيت القصيدة (وكان الأصمعىّ يقول : هو أبرع بيتٍ قالته العرب) :

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا تردّ إلى قليل تقنعُ

ومن غرر هذه القصيدة قوله

وإذا المنيةُ أنْشَبَتْ أظفارها   ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ

أبو خراش الهذلى

هو من الشعراء المفلقين . وكان له أخ يسمى عروة فقال أبو خراش يَحْمَدُ الله على تخلص ابنه من الأسر وهو أحسن ما قيل فى التسلّى :

(١) الجوازى : جمع جازية أو جاز أو جزاء وبكل فسر قول الحطيئة كذا قال الزبيدى فى التاج

(٢) أورده الفراء فى معانى القرآن فى سورة هود على ان الكاسى بمعنى المكسو كما أن العاصم فى قوله تعالى « لا عاصم اليوم » بمعنى المعصوم . قال ولا تنكرن ان يخرج المفعول على فاعل الا ترى أن قوله « من ماء دافق » بمعنى مدفوق و « عيشة راضية » بمعنى مرضية ، ويستدل على ذلك بأنك تقول رضيت هذه المعيشة ودفق الماء وكسى العريان بالبناء المفعول ولا تقول ذلك بالبناء للفاعل والرواية المشهورة فى الشطر الثانى « واقعد فانك انت الطاعم الكاسى »

(٣) شدوا : ونقوا (٤) المنون : المنية . وجزع ضعفت منته عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا

(٥) السامت : الذى يفرح ببلية العدو . وتضعضع : خضع وذل وافتقر

حَمِدْتُ إلهي بعد عُرْوَةَ إذ نَجَا خِرَاشٌ وبَعْضُ الشرِّ أهْوَنُ مِنْ بعض (١)

فوالله لا أنسى قتيلاً رُزِئْتُهُ بجانبِ قَوْسَى ما مَشَيْتُ على الأرض (٢)

على أنها (٣) تعفو الكُلُوم وإنما نُوَكَّلُ بالأدنى وإن جلّ ما يَمْضى (٤)

ولم أدرِ مَنْ أَلْقَى عليه رداءهُ على أنه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْض (٥)

ولم يَكُ مثلوجَ الفؤاد مُهَبَّجاً أضاع الشبابَ فى الرَّبِيلة والخفض (٦)

ولكنَّهُ قد نازَعَتْهُ مجاوعٌ على أنَّهُ ذو مِرَّةٍ صادقُ النَّهض (٧)

وتزعم الرواة أنها لا تَعْرف رجلاً مدح من لا يعرف غير أبى خراش وشرح هذه الأبيات مفصل فى شرح ديوان الحماسه ، وكذا فى الجزء الثانى من كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب .

المتنخل الهذلى

أمير شعره قوله :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقْرَهُ على نفسه ومُشيعٌ غِناهُ (٨)

---

(١) عروة اخو الشاعر . وخراش : ابنه ، والمعنى : اشكر الله بعد ما افق من قتل عروة على نجاة خراش وبعض الشر اخف من بعض وكنت اعتقد قتلهما معا (٢) رزئته : فجعت به . وقوسى : اسم مكان بالسراة وبه قتل عروة عروة اخوه . (٣) هذا الكلام يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما اطلقه من قوله « لا أنسى قتيلا رزئته مدة حياتى » والضمير فى (انها) للقصة وخبر ان الجملة بعدها . (٤) العفاء : الدروس والذهاب ، والكلوم : جمع كلم وهو الجرح وجل : عظم : ، وموضع « على أنها » نصب على الحال . واراد بهذا تقادم العهد وتطاول الزمن . (٥) من استفهامية وعلى انه فى موضع الحال . والمعنى — لم اتحقق الذى اهتدى لهذه المكرمة فنزع رداءه والقاه على اخى مع كونه مسلولا عن كريم خالص النسب (٦) مثلوج الفؤاد : بارده . والمهبج : الذى استرخى لحمه وتغير اونه . والربيلة : السمن يقول : انه كان ذكى الفؤاد شهما لم يكن ممن ضيع شبابه فى الخفض والدعة وصلاح بدنه . (٧) المجاوع : جمع مجاعة وهى السنة التى يكون فيها الجوع . وارا د منها هنا المخامص جمع مخمصة وهى خلو البطن من الطعام جوعا . وانما اثرت فيه المجاوع لأنه اذا سافر آثر صحبه على نفسه بزاده فيجوع ويشبعهم . والمرة : القوة . وقوله صادق النهض يريد النهوض الى المكارم والمعالى لا يكذب فيها اذا نهض اليها (٨) ابو مالك : هو أبو الشاعر واسمه عويمر لأن المتنخل اسمه مالك بن عويمر والمتنخل اقبه ، ولم يصب

إذا سَدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعةً ومهما وكلتَ إليه كَفَاه(١)

أبو صخر الهذلى

يقال إن أغزل شعر العرب قوله :

أما والذى أبكى وأضحكَ والذى أمات وأحيا والذى أمْرُهُ الأمْرُ(٢)

لقد تركتنى أحسدُ الوحشَ أنْ أرى أليفين منها لا يَرُوعُهُما الذُّعْرُ

فياحبَّها زدْنى جَوىً كلَّ ليلة ويا سلوةَ الأيام موْعِدُكِ الحشْرُ(٣)

عَجِبتُ لِسَعْىِ الدَّهْرِ بينى وبَيْنَها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ(٤)

ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) فى زعمه انه يرثى اخاه ابا مالك عويمر . وقاصر من القصر وهو الحبس . ومشيع من الاشاعة وهى الاذاعة — يريد انه اذا افتقر اخفى فقره واذا أثرى أذاع غناه ليقصد من جهة وهذا من شرف النفس .

(١) معنى سدته من المساودة التى هى المساررة والسواد هو السرار ايضا كأنه قال اذا ساررته طاوعك وساعدك ويروى سسته موضع سدته من سست الرعية سياسة . قال المرتضى : ولم أجد ذلك فى رواية ! قلت هذه الرواية أثبتها أبو تمام صاحب الحماسة فى مختار اشعار القبائل . والمطواع : الكثير الطوع أى الانقياد والتاء لتأكيد المبالغة . وقد روى هذا البيت فى مختار أشعار القبائل لذى الأصبع العدوانى » مع بيتين آخرين وهما :

وما أن أسيد أبو مالك بوان ولا بضعيف قواه

ولكنه هين لين كعالية الرماح عررنساه

فان سسته سست مطواعة ومهما وكلت اليه كفاه

واسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة . والعرر الشديد . والنسا : مقصور عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر فاذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان واذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان ، وماجت الربلتان ، وخفى النسا . واذا قالوا انه لشديد النسا فانما يراد به النسا نفسه . وقال السكرى أراد غليظ موضع النسا . (٢) تكرار القسم للتفخيم ولذلك كان الجواب واحدا وقوله لقد تركتنى هو الجواب . والضمير لحبيبته . وراعه أفزعه والذعر الخوف . (٣) حرقة البعد

(٤) عجبت لسعى الدهر : يجوز أنه يريد به سرعة تقضى الأوقات مدة الوصال بينهما فيكون المعنى انى متعجب من الدهر حيث اسرع بتقضى الأوقات مدة الوصال بيننا فلما انقضى الوصل عاد الى حالته فى السكون والبطء وهذه عادتهم فى استقصار أيام الوصل واستطالة أيام الفراق ويجوز انه يريد بسعى الدهر سعاية أهل الدهر بالنمائم والوشايات وانه لما ارتفع مرادهم فيما طلبوه من الفساد بينهما سكنوا وكما أراد على هذا بسعى الدهر أهله كذلك بسكون الدهر . وقد روى بعد هذه الأبيات بيت وهو :

وما هو الا أن اراها فجاءة فابهت لاعرف لدى و لانكر

تميم بن مقبل (١)

هو مُخَضْرَمٌ معدود فى الفحول . ومن غرر شعره ما أنشد له دعبل :

فأخلفْ وأتلفْ إنما المال عارةٌ　　وكلْهُ مع الدهر الذى هو آكلُهْ
وأيْسَرُ مفقودٍ وأهونُ هالكٍ　　على الحى مَن لا يبلغُ الحىّ نائلُهْ

وقوله

خليلىّ لا تستعجلا وانظُرا غداً　　عَسَى أن يكون الرِّفْقُ فى الأمر أرشدا

عبدة بن الطبيب

من مُفْلقى المخضرمين . وأمير شعره لاميته التى أولها :

هَلْ حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ　　أمْ أنت عنها بَعيدُ الدار مشغولُ ؟
والمرْءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكُهُ　　والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يتعجب من جودة هذا البيت وحسن تقسيمه .
ومن أمثاله السائرة قوله فى مرثية قيس بن عاصم :

وما كانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ　　ولكنَّهُ بنيانُ قومٍ تَهَدَّما (٢)

حميد بن ثور

كان من فحول المخضرمين والمعمَّرين وأمير شعره قوله :

أرى بَصَرى قد رابنى بعد صحةٍ　　وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتسلما
ولن يَلْبَثَ العصرانِ يوماً وليلة　　إذا طلبا أنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّما (٣)
وما هاجَ هذا الشَّوْقَ إلاّ حمامةٌ　　دَعَتْ ساقَ حُرٍّ ترْحةً وترَنُّما (٤)

(١) فى كتاب الشعر والشعراء تميم بن أبى مقبل ، وهو من بنى العجلان الذين هجاهم النجاشى وكان جاهليا اسلاميا . (٢) الهلك : الموت . (٣) أى ما قصـدا .

(٤) ساق حر ذكر القمارى سمى لحكاية صوته فانه يقول ساق حر ساق حر وقد وهم من قال انه الهديل — راجع الجزء الثانى ص ٢٠٤ .

ومنها فى وصف القمرية :

عَجِبْتُ لها أنّى يكونُ غناؤها فَصِيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطِقِها فما(١)

ومن نكت شعره قوله فى وصف الذئب

ينامُ بإحدى مقلتَيْه ويتقى الا أعادى بأخرى فهوَ يقظانُ هاجِعُ(٢)

متمم بن نويرة

غرة شعره قصيدته التى يرثى بها أخاه مالكا . وغرتها قوله :

وقالوا أتبكى كلّ قبر رأيتَهُ لِقَبرٍ ثوَى بين اللوى فالدكادكِ(٣)

فقلت لهم إن الأسى يبعثُ الأسى ذَرُونى فهذا كلهُ قبرُ مالِكِ(٤)

وقوله فى قصيدته التى يرثى بها مالكاً أيضاً :

وكنّا كندْمانىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً من الدهر حتى قيلَ لَنْ يتصدّعا

فلما تفرقْنا كأنى ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا(٥)

دريد بن الصمة

أمير شعره قوله :

أمرتُهُمُ أمرى بِمنعَرَجِ اللوى فلم يَسْتبينوا الرشد إلا ضُحَى الغَدِ(٦)

وهلْ أنا إلا من غَزِيّةَ إن غوت غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غزيةُ أرشدِ(٧)

---

(١) فغر فاه كمنع ونصر فغرا وفغورا : فتحه . ويعنى بالمنطق بكاءها .

(٢) اى هو حذر أو هاجع بين اليقظة والهجوع . وروى «يقظان نائم» ولكنه يخالف ابيات القصيدة

(٣) ثوى بالمكان : اقام به . واللوى والدكادك : اسما موضعين (٤) الاسى : الحزن (٥) ندمانا جذيمة هما مالك وعقيل . ويقال انهما نادماه اربعين سنة ولهما حديث مشهور وفيهما يقول ابو خراش :

ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

والحقبة المدة من الزمان . (٦) المنعرج : المنعطف واللوى ما التوى واسترق من الرمل يقول ابديت لهم رايى بمنعرج اللوى ليكونوا على حذر فلم يظهر لهم رشد قولى الا حين ان دهمهم العدو فى الضحى . (٧) هل للنفى وغزية قومه، والمعنى ما أنا الا من غزية فى حالتى الغى والرشاد فغوايتى ورشادى متعلق بغوايتهم ورشادهم .

قال يونس النحوى : هذا أحزم بيت قالته العرب . وقوله :

ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعْتُ به كاليوم هانئَ أينقٍ جربِ
متبذلا تبـدو محاسنه يَضَعُ الهِناء مواضع النقب (١)

سويد بن أبي كاهل

غرة كلامه وشعره قوله (٢) :

رُبَّ مَنْ أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لىَ موتاً لم يُطَعْ (٣)
ويرانى كالشَّجا فى حَلْقه عسراً مخرجه ما ينتزعْ (٤)
مُزْبد يخطر ما لم يَرَنى فإذا أسمعته صوتى انقمعْ (٥)
قد كفانى اللهُ ما فى نفسه ومتى ما يكف شيئاً لم يضع

(١) هانىء اسم فاعل من هنأ الابل يهناها ويهنئها ويهنؤها هنأ وهناء بكسر الهاء اى طلاها بالهناء وهو ضرب من القطر أن . وأينق جمع ناقة وجـرب جمـع اجرب المذكر وجرباء الانثى والاجـرب من به جرب وهو بثور تعلو ابدان الناس والابل . والمعنى ما رأيت هانىء أينق جرب كالذى رأيته اليوم ولا سمعت به . وكان راى الخنساء أخت صخر تهنأ ابلالها فقال فيها ذلك ، ثم خطبها من أبيها فعرض عليها ذلك فقالت ماكنت تاركة بنى عمى كأنهم عوالى الرماح ومرتثة شيخ بنى جشم هامة اليـوم أو غد . (٢) هذه الأبيـات من قصيدة طويلة عدتها مائة بيت وثمانية أبيات له مسطورة فى المفضليات ويقال لها (اليتيمة) مطلعها : —

بسطت رابعة الحبـل لنـا فوصلنا الحبـل منها ما اتسع

(٣) انضاج اللحم : جعله بالطبخ مستويا يمكن أكله ويحسن وهو هنا كناية عن نهـاية الكمد الحاصل القلب ، أو استعارة شبه تحسـير القلب واكماده بانضاج اللحم الذى يؤكل . وغيظا : مصدر غاظه اذا اغضبه . . والنحويون يوردون هذا البيت شاهدا على أن جملة « انضجت » فى موضع جر على أنها صفة لمن لأنها نكرة بمعنى انسان بدليل دخول (رب) عليهـا . وروى البيت أيضـــا : —

ربما انضجت غيظـا قلب من قد تمنى لى موتا لم يطع

فلا شاهد فيه . وما حينئذ كافة مهيئة لدخول رب على الجملة ومجرور رب هنا فى محل رفع على الابتداء والخبر اما جملة قد تمنى ولم يطع خبر بعد خبر واما لم يطع وجملة قد تمنى صفة ثانية

(٤) الشجا : الغصص ونحوه مقصور يكتب بالألف . (٥) مزبد : من أزبد. وأصل الخطر فى الناس تحريك اليدين فى المشى والاختيال بهما . وانقمع : دخل بعضه فى بعض .

لم يضرنى غير أن يحسُدَنى فهو يَزْقو مثل ما يزقو الضُّوع[١]

ويحيينى إذا لاقيتــهُ وإذا يخـلو له لحمى رتع[٢]

كيف يرجون سقاطى بعد ما جلّلَ الرأسَ مشيبٌ وصلَع[٣]

النجاشى الحرثى

هو شاعر أمير المؤمنين علىّ رضى الله تعالى عنه . وأمير شعره قوله :

إنى امرؤٌ قلّما أثنى على أحَدٍ حتى أرى بعضَ ما يأتى وما يَذَرُ

لا تمدحَنّ امرأً حتى تجرِّبَهُ ولا تذمَّنّ من لم يبله الخبرُ

وهذا من أحسن الإحسان .

الشماخ بن ضرار

هو من فحول المخضْرَمين . ومن أمثاله السائرة قوله :

لمـال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعفّ من القنوع

وغرة شعره قوله فى عرابة الأوسى :

رأيتُ عَرَابةَ الأوسىّ يسمو إلى الخيرات منقطع القرينِ .

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجــدٍ تلقّاها عَرَابةُ باليمــين

عمرو بن معد يكرب

من أمثاله السائرة قوله :

إذا لم تستطعْ أمراً فدَعْهُ وجاوزْهُ إلى ما تسْتَطيعُ[٤]

وقوله

ليس الجمــالُ بمئزَرٍ فاعلم وإن رُدّيتَ بُرْدا

---

(١) الضوع : طائر من طيور الليل كالبومة اذا احس بالصباح صــدح . قال الأعشى يصف فلاة :

لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه بالليل الا نئيم البوم والضوعا

ويزقو — يصيح . (٢) رتع : اكل . (٣) السـقاط : الفترة . يقول على طريق التعجب كيف يؤملون فترتى وسقطى وقد بلغت هذه السن ! (٤) راجع الجزء الاول ص ١٦٧ :

إن الجمالَ مآثرٌ ومناقبٌ أورثْنَ مَجْدا[١]

وقوله

ظَلِلْتُ كأنى للرماح دَرِيَّةٌ أقاتلُ عن أبناء جَرْمٍ وفَرَّتِ[٢]
فلو أنّ قومى أنطقَتْنِى رماحُهمْ نَطَقتُ ولكنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ[٣]

عمرو بن الاهتم

أمير شعره ، وغرة كلامه ، قوله :

لَعَمْرُكَ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ولكنّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

سحيم عبد بنى الحسحاس[٤]

أحسن شعره قصيدتُهُ التى أولها :

عميرة ودِّعْ إنْ تَرَحَّلتَ غاديا كفى الشَّيْبُ والإسلامُ للمرْء ناهيا

وقوله

أشعار عبد بنى الحسحاس قُمْنَ له يوم الفَخار مقامَ الأصل والورقِ[٥]
إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماً أو أسودَ الخلقِ إنى أبيض الخُلقِ

أبو محجن الثقفى

ليس له أحسن وأفخر من قوله :

لا تسألى الناسَ عن مالى وكثرتهِ وسائلى الناس عن بأسى وعن خُلُقى
هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتمُ السرَّ فيه ضربة العُنُقِ[٦]

---

(١) يقول — ليس الجمال فيما تلبسه من الثياب بل أن جمال الانسان فى أصوله الزكية ، وافعاله الكريمة ، التى تورث الشرف والمجد . (٢) دريئة : عرضة . وفرت : هربت وجرم : بالفتح قبيلة . (٣) أجرت من الاجرار وهو أن يشق لسان الفصيل ويجعل فيه عود لئلا يرضع أمه . يقول — لو أنهم ابلوا فى الحرب بلاء حسنا لمدحتهم وذكرت بلاءهم ، ولكنهم قصروا فأجروا لسانى فما أنطق بمدحهم والافتخار بهم . (٤) راجع الجزء الثانى ص ٣٢٢
(٥) الورق عند العرب المال من الابل والغنم ، والورق الفضة . (٦) النجلاء : الواسعة الجرح .

كعب بن سعد

أحسن شعره قوله :

وما أنا للشيء الذي ليس نافعي ويغضبُ منه صاحبي بِقَؤُول
ولست بمبدٍ للرجال سَرِيرَتي[١] ولا أنا عن أسرارهم بِسَؤُول

معن بن أوس

كان من الإسلاميين وأمير شعره قوله :

وفي الناس إن رَثَّتْ حبالُكَ واصلٌ وفي الأرض عن دار القِلى مُتَحَوَّلُ
إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبِلُ[٢]

ومن أمثاله السائرة قوله

أعَلِّمُهُ الرمايةَ كلَّ يوم فلما اشتدّ ساعِدُهُ رماني[٣]
أعلمه الرواية كلَّ يوم فلما قال قافيةً هجاني

كعب بن جعيل

من الإسلاميين المفلقين كان شاعر معاوية ، ومن غرر شعره قوله :

نَدِمْتُ على شتمي العشيرةَ بعدما مضى واستتَبَّتْ للرواة مذاهبُهْ
فأصبحتُ لا أسطيعُ ردّاً لما مضى كما لا يرد الدَّرَّ في الضرع حالِبُهْ[٤]

---

(١) السريرة : كالسر . (٢) رثت : ضعفت والقلى : البغض ، والمعنى واضح . والبيتان من قصيدة له قالها يستعطف بها صديقا له آلى أن لا يكلمه أبدا وكان معن قد تزوج بأخته فاتفق انه طلقها ! (٣) قوله « اشتد » بالشين المعجمة ليس بشيء والرواية المشهورة « استد » بالسين المهملة اى استقام . قال ابن برى : هذا البيت ينسب الى معن بن أوس قاله في ابن أخت له . وقال ابن دريد : هو لمالك بن فهم الازدي وكان اسم ابنه سليمة رماه بسهم فقتله فقال البيت . قال ابن برى : ورايته في شعر عقيل بن علفة يقوله في ابنه عميس حين رماه بسهم وبعده :

فلا ظفرت يمينك حين ترمي وشلت منك حاملة البنان

(قلت) — والمشهور انه لمعن كما عزاه اليه كثير من الأئمة منهم الجاحظ في البيان والتبيين (ج ٣ ص ١١٨ — طبعة الفتوح الأدبية بمصر) . (٤) البيتان — على ما في كتاب الشعر والشعراء — لأخيه عمير لا له وذلك انه هجا قومه بشعر ثم ندم فقال : ندمت على شتمي العشيرة ... الخ ..

زياد بن زيد العذرى

أمير شعره قوله :

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرّنى ولا جازع من صرْفـهِ المتقلّبِ
ولا أتمنىَّ الشرّ والشرُّ تاركى ولـكن متى أحمل على الشر أرْكَبِ !

وقوله

هل الدهرُ والأيامُ إلا كما ترَى رزية مالٍ أو فراق حبيب !

أبو الأسود الدؤلى

يعدّ فى التابعين والشيعة والفصحاء وأصحاب النحو وفى البخلاء وفى المفاليج
ومن غرر شعره فى عبيد الله بن زياد وقد كساه جبة خز :

كسـانى ولم أستكسه لحمدتهُ أخٌ لىَ يُعطينى الجزيلَ وناصرُ
وإن أحق الناس إنْ كنتَ مادحاً بمدحك من أعطاك والوجهُ وافر

ومن أمثاله السائرة قوله

لا تهنى بعد إذ أكرمتنى فشـديد حالة منتزعـهْ
لا يكنْ برقُكَ برقاً خُلّباً إنّ خيرَ البرق ما الغيث مَعَهْ (١)

زفر بن الحرث

غرة شعره قوله فى انهزامه يوم مرج راهط :

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأته بصالح أيامى وحسن بلائيـا
ولم يرَ منى زلة قبل هـذه فرارى وتركى صاحبى من ورائيا
وقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا(٢)

---

(١) الخلب : المطمع المخلف . (٢) الدمن . ما تلبـد من السرجـين وفى الحديث « اياكم وخضراء الدمن » يريد المرأة الحسناء فى منبت السـوء أى لا تتزوجوها . والثرى : التراب الندى . وحزازات النفوس غيظها

عبد الله بن قيس الرقيات

أمير شعره قوله فى مصعب بن الزبير :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلَّت عن وجهه الظلماء

يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ـلح من كانَ همــّه الإتقاء

ملـكه ملك رأفة ٍ ليس فيه ِ جبروتٌ منه ولا كبرياء

المتوكل الليثى

غُرّةُ شعره الذى يتمثل بِهِ قولُهُ :

إبْدَأْ بِنَفْسِكَ فانهها عن غَيِّها فإذا انتهت عنه فأنتَ حكيمُ

فهناك تعذر إن وعظت و يقتدا بالقول ِ منك ويَنْفعُ التعليمُ

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ (١)

وقوله أيضاً

لسنا و إنْ أحسابُنا كَرُمتْ يوماً على الأحساب ِ نَتّـكلُ

نبنى كما كانت أوائِلنــا تَبنى ونَفْعلُ مثل ما فَعَـلوا

هذا آخر ما أحببت ذكره ، من مشاهير الشعراء ، ودرر قلائدهم ، وواسطة عقــد منظومهم ، معرضاً عن استيفائهم ، واستقصاء أحوالهم وذكر قصائدهم المنتخبة ، وأسماء مقاطيعهم المعجبة ، حيث قد قضى الأئمة منه الوطر ، واستوعبوا التقاط هاتيك الدرر ، مثنياً عنانَ القلم إلى ذكر ما لهم من العوائد ِ فى الخطب والوصايا ، وما لهم من البيان الفصيح لدى الخطوب والرزايا ، فقد كان ذلك عندهم من أهم العلوم ، وأعظم ما يتنافس به المتنافسون بعد الشعر المنظوم ، فإن فيه

(١) هذا المعنى من قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟» . والبيت وجد فى قصيدة للأخطل ، وفى أخرى لابى الاســود الدؤلى . ونسبه الحاتمى لسابق البربرى ، ونقل السيوطى عن تاريخ ابن عساكر انه للطرماح . قال اللخمى فى شرح أبيات الجمل : الصحيح أنهلأبى الأسود ، فان صح ماذكر عن المتوكل فانما أخذه من شعر أبى الأسود والشعراء كثيرا ما تفعل ذلك . .

دقائقَ أنظارهم ، ونتائج أفكارهم ، ومنه تعلم منزلة القوم فى غَوْرِ عقولهم ، وعلوّ درجتهم فى سَعة أذهانهم ، ومن الله (عز اسمه) استمد التوفيقَ .

الخطب والوصايا

وما كان من عوائد العرب فيها

من المعلوم ما كان عليه العرب أيام جاهليتهم من الأنفة ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، والمحافظة على شرفهم ، وعلوّ مجدهم وسؤددهم ، حتى حدث ما حدث بينهم من الوقائع والأيام ، والخطوب والمهام ، ولا شك أن كل قوم يتفق لهم مثل ذلك هم أحوج الناس إلى ما يستنهض هممهم ، ويوقظ أعينهم ، ويقيم قاعدهم ، ويشجع جبانهم ، ويشدّ جَنانهم ، ويُثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ؛ صيانةً لعزهم أن يستهان ، ولشوكتهم أن تستلان ؛ وتشفياً بأخذ الثار ؛ وتحرزاً من عار الغلبة وذلّ الدمار : وكل ذلك من مقاصد الخطب والوصايا ، فكانوا أحوج إليها بعد الشعر لتخليد مآثرهم ، وتأبيد مفاخرهم ، وهم أقوم الناس قيلا ، وأقواهم قبيلا ، وأفصحهم لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأهداهم سبيلا ، وأسطعهم برهاناً ودليلا ؛ كما أنهم أعلاهم قدراً ، وأغلاهم درا ، وأسماهم مبنى ، وأسناهم معنى ، وأدقهم فكرا ، وأرقهم سرّا ، وأعرقهم نسبا ، وأعرفهم أبا ، ولذلك كثر فيهم الخطب والخطباء حتى كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب ، كما كان لكل قبيلة شاعر على ما ذكره الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . ولهم خطب يضيق عنها نطاق الحصر ؛ وقد ألف فيها كتب كثيرة : منها كتاب (غاية الأدب [1] فى كلام حكماء العرب) وهو ثلاثة مجلدات ، وكتب أخرى لا يحصرها العد ، وذكر الجاحظ فى البيان نبذةً من خطب الجاهلية والاسلام ، وذكر أن العرب من خطبهم (العجوز) وهى خطبة لآل رقبة ، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من

(١) لعله « الارب » .

بعضها ، و (العــذراء) وهى خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها [١] ؛ و (الشوهاء) وهى خطبة سحبان وائل ، وقيل ذلك لها من حسنها ؛ وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ، ولم يخطب خطيب ! والخطب والوصايا متقاربان فى المفهوم بَيْدَ أن الخطب إنما يقصد بها قوم لا على سبيل التعيين والتخصيص بخلاف الوصايا ، و إن الخطب إنما تـكون فى المشاهد ، والمجامع ، والأيام ، والمواسم والتفاخر ، والتشاجر ، ولدى الـكبراء والأمراء ، ومن الوفود فى أمر مهم ، وخطب ملم ؛ والوصايا بخلافها فى كل ما ذكر فلا تـكون إلا لقوم مخصوصين فى زمن مخصوص ، على شىء منصوص ؛ وكثيراً ما كانت تصدر من شخص لعائلته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض مخاطر ، أو محاولة نقله ، أو شابه ذلك .

وكان للعرب اعتناء بالخطب فى جاهليتهم أكثر من اعتنائها بها فى إسلامهم ، وكانت لهم فيها عوائد غريبة ، وشئون عجيبة ؛ فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعانى ، و ينتخبون لها أحسن الألفاظ ؛ تحصيلاً لغرضهم ، ونيلاً لمقصدهم ، فإن الألفاظ الرائقة ، والمعانى الجزلةَ ، أوقع فى النفوس ، وأشــد تأثيراً فى القلوب ، وأيقظ للهمم ؛ ولذلك ورد « إن من البيان لَسِحْراً » على ما سبق . والأذن للـكلام البليغ أصغى وأوعى ، والطبــع السليم إلى كل مستحسن أميل ، والترغيب فى العاجل ، والترهيب فى الآجــل ، اللذان هما من أهم مقاصد الخطَابة ومطالبها العالية إذا لم يكونا بعبارات تخلب القلوب ، وتأخذ بمجامعها ، فلا تأثير فيها ولا فائدة منها .

ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب فى تفاخر وتنافر وتشاجر ، رفــع يده ووضعها ، وأدّى كثيراً من مقاصده بحركات يده ، فذلك أعون له على غرضه ، وأرهب للسـامعين له ، وأوجب لتيقظهم ، وهو المتشذر المذكور فى قول لبيد :

---

(١) أى أول من افتضها ، وهو مجاز .

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنها   جِنُّ البَدِيِّ رواسِياً أقدامُها

التشذر رفع اليد ووضعها كما سبق . والذحول جمع ذَحْل بفتح الذال المعجمة وسكون الحاء المهملة وهو الحقد . يقول : هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود ، أى خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضاً بسبب الأحقاد التى بينهم . ثم شبههم بجن ذلك الموضع فى ثباتهم فى الخصام والجدال : يمدح خصومه وكلما كان الخصم أقوى وأشد ، كان قاهره وغالبه أقوى وأشد .

ومن عوائدهم فيها أخذ المِخْصَرَةِ بأيديهم ، وهى ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه أو ما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب ، فلا يخطبون إلا بالمخاصر ؛ وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسىّ ، ويشيرون بالعصا والقَنا ؛ ومنهم من كان يأخذ المخصرة فى خطب السلم ، والقسىّ فى الخطب عند الخطوب والحروب . واستشهد الجاحظ فى كتاب البيان ما ذكرناه بكثير من شعرهم .

واستحسن العرب فى الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ولذلك مدحوا سعة الفم ، وذمّوا صغره ، حتى قيل لأعرابىّ : ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، وضخم الهامة [1] ، ورحب الشدق [2] ، وبعد الصوت . وسئل أبو المخشن عن ابنه المخشن [3] وكان جزع عليه جزعاً شديداً فقال : كان أشدق خُرْطُانياً [4] سائلاً لعابه كأنما ينظر من قلبين . كأن ترقوته بوان أو خالفة [5] كأن منكبه كركرة جمل ثقال [6] ، فقأ الله عينى إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله . وقيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال غؤور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين . وقال الشاعر فى عمرو بن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتى مال بالقول شِدقهُ   وكلُّ خطيبٍ (لاأبالك) أشدق

---

(١) الرأس (٢) جانب الفم — بالفتح والكسر (٣) فى نسخة أبو المخش عن ابنه المخش

(٤) كبير الأنف (٥) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . والبوان : عمود الخيمة . والخالفة : عمود من أعمدة البيت فى مؤخره .

(٦) المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد . والكركرة : رحى زور البعير . وجمل ثقال : بطىء لعله لضخم جسمه .

وأنشد أبو عبيدة :

وصُلْع الرؤوس عِظامُ البُطُونِ رِحابُ الشِّدَاقِ طِوَال القَصَرْ[١]

وقال العجير السلوليّ فى شدة الصوت :

ومنهنّ قَرْعى كلِّ باب كأنما به القوم يَرْجُون الأَذِينَ نشورُ[٢]

لجئتُ وخَصْمى يَصْرِفُونَ نيوبَهُمْ كما قُصِبَتْ بين الشّفارِ جَزُورُ[٣]

لدى كلِّ موثوق به عند مثلها له قَدَمٌ فى الناطقين خَطِيرُ

جَهِيرٌ وممتدُّ العِنَانِ مُناقلٌ بَصيرٌ بعورات الكلام خَبيرُ

فظلّ رداء العَصْبِ ملقى كأنّهُ سَلَى فرسٍ تحت الرجال عَقِيرُ[٤]

ولو أن الصخور الصُّمّ يسمعن صَلْقَنَا لرُحْنَ وفى أعراضِهِنّ فُطُورُ[٥]

وقال مهلهل :

ولولا الريح أُسْمِع أهلَ نجدٍ صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذكُورِ[٦]

وكان شبيب يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد وقال الشاعر فيه :

إنْ صاحَ يوماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحدراً والريحَ عاصفةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ

والشعر فى ذلك كثير . والمقصود أن جهارة الصوت مما يمدح به الخطيب وتكون من محاسنه .

---

(١) صلع : جمع أصلع وهو الذى انحسر شعر رأسه عن مقدمه ، والقصر : الأعناق .

(٢) يقال اذن له فى الشىء أذنا وأذينا أى أباحه له — يقول : كأنما القوم نشور يرجون الاذن .

(٣) النيوب : الأسنان خلف الرباعية واحدها ناب ، والصريف : صوت احتكاكها . وقصبت : قطعت . والجزور : الناقة التى تنحر . والشفار بالكسر جمع شفرة بالفتح وهى المدية .

(٤) العصب برد يصبغ ثم ينسج . والسلى : الجلدة التى يكون فيها الولد من الناس والمواشى وإن انقطع فى البطن هلكت الأم وهلك الولد . (٥) الصلق : شدة الصوت . والفطور : التشقوق .

(٦) قوله « أهل نجد » يروى موضعه « أهل حجر » حجر قصبة اليمامة . والصليل : الصوت . والذكور : السيوف التى عملت من حديد غير أنيث . ويروى « نقاف البيض يقرع بالذكور » : ويقال : أول كذب سمع فى الشعر هذا والبيت : من قصيدة للمهلهل أوردناها فى الجزء الثانى ص ١٥٤ و ١٥٥

ومن عوائدهم فى الخطابة أن يكون الخطيب على زى مخصوص فى العمامة واللباس تنويهاً بشأنه وأدخل فى تحصيل الغرض والمقصود . وقد أطنب الجاحظ القول فى كتاب البيان على خطب العرب ، وبيان عوائدهم فيها ، وما أورده من الشعر شاهداً على دعواه مما يغنى عن ذكره فى هذا المقام .

ذكر نبذة من خطباء العرب فى الجاهلية

خطباء العرب أيام الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم ؛ غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد فى الشعراء ، وينتظم فى سلكهم ، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام ، وفصيح البيان ، فيعد من رجال الخطابة شأن كل من غلب عليه معرفة فن من الفنون . فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطب ، وكذلك كثير من الخطباء يعدون من مُفلق الشعراء . ولما كان أولئك الخطباء لا يحيط بهم نطاق العد والإحصاء ؛ ذكرت بعض أفراد منهم هم كالأنموذج لمن سواهم مع ذكر شيء من مستحسن كلامهم . فمنهم :

قس بن ساعدة الأيادى

هو من أشهر الخطباء ذكراً ، وأرفعهم قدراً قدراً ، حيث روى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلامه ، وموقفه على جملة الأوراق[١] ، وموعظته . وعجب من حسن كلامه وكفى بذلك فخراً له ولقومه على مدى الأيام : فإن هذا شرف تنحط دونه رؤوس الأعلام . وفى الحديث : « يرحم الله قساً ! إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده » . وبذلك يعلم أنه لم يكن على دين من الأديان المشهورة ومن نسبه إلى يهودية أو نصرانية فقد لحن فى مقاله ، وانحرف عن جادة الصواب وقد سبق له ذكر فيمن كان على التوحيد من العرب ، ونقل شيء من كلامه ، وكذلك مع الشعراء ومنهم .

---

(١) الذى لونه كلون الرماد .

سحبان وائل الباهلى

هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلى : وائل باهلة خطيب يضرب به المثل فى البيان ، فكانوا إذا أرادوا مدح إنسان بذلك قالوا « هو أخطب من سَحْبان وائل » أدرك الجاهلية ، وأسلم ، ومات سنة أربع وخمسين ، وحكى الأصمعى قال كان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ . وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان فأتى به ، فقال : تكلم ! فقال : انظروا لى عصاً تقوِّم من أودى[1] ! فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده ! فضحك معاوية ، قال : هاتوا عصاه ! فأخذها ، ثم قام فتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقَّف ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه ، وقد بقى عليه شىء فما زالت تلك حالته حتى أشار معاوية بيده فأشار إليه سحبان : أنْ لا تقطع علىَّ كلامى ! فقال معاوية : الصلاة ! فقال : هى أمامك ، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ! فقال سحبان : والعجم والإنس والجن ! ومما روى من خطبه البليغة : إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم ، لدار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا[2] إلى الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ قال حمزة الأصبهانى فى أمثاله فى قولهم « هو أبلغ من سَحْبان وائل » : كان من خطباء العرب وبلغائها ، وفى نفسه يقول :

لقد علم الحىُّ اليمانونَ أننى إذا قلتُ أما بعد أنى خطيبها[3]

---

(١) اعوجاجى (٢) قوله : وأخرجوا الى الدنيا قلوبكم . هكذا فى الأصل ولعل صحة العبارة : وأخرجوا حب الدنيا من قلوبكم . وذلك ليستقيم المعنى ا هـ مصححه (٣) وروى صدره « وقد علمت قيس بن عيلان أننى » وقيس : قبيلة كبيرة ولهذا أنث «علمت» له ، وهو فى الأصل أبو قبائل شتى وهو لقب واسمه (الناس) بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وقد

وهو الذى قال لطلحة الطلحات(١) الخزاعى :

يا طلح أكرم مَنْ بها حَسَبا وأعطاهم لتالدْ(٢)
منك العطاء فأعطنى وعلىَّ مدحُك فى المشاهدْ

فقال له طلحة : احتكمْ ! فقــال : برذونَك الوَرد(٣) ، وغلامَكَ الخباز ، وقَصْرَكَ بِزَرَنْج (وهى مدينة بسجستان) وعشرة آلاف درهم ! فقال طلحة : أفٍّ لك ! لم تسألنى على قدرى و إنما سألتنى على قدرك ، وقدر باهلة(٤) ، ولو سألتنى كل قصر لى ، وعبد ، ودابة لأعطيتك ! ثم أمر له بما سأل ، ولم يزده عليه شيئاً وقال : تالله ما رأيت مسألة محكم ألأم من هذا ! ومنهم :

دويد بن زيد

ابن نهد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميرى

كان من الفصحاء ، ومشاهير الخطباء ، وأوصى بنيه وخطبهم فقال : (أوصيكم بالناس شراً لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تُقيلوا لهم عثرة (٥) ، قصروا الأعنَّة ، وأطيلوا الأسِنَّة ، واطعنوا شزراً(٦) ، واضربوا هبراً(٧) ، وإذا أردتم المحاجزة ، فقبل المناجزة(٨) ، والمرء يعجز لامحالة بالجــد لا بالــكد (٩) ، التجلد ولا التبلد(١٠)

اختلف العلماء فى أول من نطق بأما بعد اختــلافا طــويلا لا أرى له محلا من الأعراب ! ومن أراده فليطلبه من الشروح والحواشى القديمة !

(١) هو احد الأجواد المشهورين فى الاسلام ، واسمه طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى ، واضيف الى الطلحات لانه فاق فى الجود خمسة اجواد اسم كلّ واحدمنهم طلحة ، وهم : طلحة الخيروطلحةالفياض ، وطلحةالجود ، وطلحة الدراهم ، وطلحة الندى . وقيل : كان فى أجــداده جماعة اسم كل طلحة . كــذا قال ابن الحاجب فى شرح المفصل . والتفصيل فى « خــزانة » الامام البغدادى ، وغرر الخصائص . (٢) التالد : كل مال قديم . (٣) البرذون : التركى من الخيل ، والورد : بين الكميت والأشقر . (٤) قبيلة من اخس قبائل العرب ـــ راجع الجزء الثانى ص ١٠٩ (٥) يقال : أقال الله عثرته ، اذا رفعه من سقوطه . (٦) معنى الشزر أن يطعنه من احدى ناحيتيه قال الأصمعى : نظر الى شزرا اذا نظر من عن يمينه وشماله وطعنه شزرا كذلك .

(٧) قال ابن دريد يقال هبرت اللحم اهبره هبرا اذا قطعته قطعا كبارا .

(٨) المناجزة فى الحرب المبارزة . (٩) اى يدرك الرجل حاجتــه وطلبته بالجد وهو الحظ

(١٠) اى تجلدوا ولا تبلدوا .

والمنية ولا الدنية(١) ، ولا تأسوا على فائت وإن عز فقده ، ولا تحنوا إلى ظاعن وإن ألف قربه ، ولا تطمعوا فتطبعوا(٢) ، ولا تهنوا فتخرعوا(٣) ، ولا يكونن لكم المثل عسوء « إن الموصَّيْنَ بنو سَهْوَان(٤) » إذا مت فارحبوا خط مضجعي(٥) ولا تضنّوا(٦) اللىّ برحب الأرض ، وما ذلك بمؤد إلىّ روحاً(٧) ، ولكن حاجة نفس خامرها الإشفاق(٨) ، ثم مات . قال أبو بكر بن دريد فى حديث آخر إنه قال :

اليوم يُبنَى لِدُوَيْدٍ بيتهُ(٩) يارُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيْتهُ
ورُبَّ قِرْنٍ بطلٍ أرديتهُ ورُبَّ غَيْلٍ حسنٍ لَوَيْتهُ(١٠)
ومِعْصَمٍ(١١) مُخضَّبٍ ثَنَيْتهُ لو كان للدهر بِلًى أبليتهُ
أو كان قِرْنى واحداً كفيتهُ

ومن قوله :

ألقى علىّ الدهرُ رِجلاً ويداً والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يُصْلِحُ ما أفْسَدَهُ اليَوْمَ غَدَا

قال أبو حاتم السجستانى . عاش دويد بن زيد أربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة وقال ابن دريد : إن دويد بن زيد كان من المعمّرين . قال : ولا نعد العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً . ومنهم :

---

(١) أى اختار الموت على العار . وهو مثل — قاله أوس بن حارثة — يضرب لمن يختار التلف على قبح الأحدوثة . (٢) الطبع : الدنس . (٣) الوهن الضعف . والخراع والخراعة : اللين ، ومنه سميت الشجرة الخروع للينها .
(٤) صوب الميدانى فى معنى هذا المثل أن يقال : ان الذين يوصون بالشىء يستولى عليهم السهو حتى كانه موكل بهم ، وهو يضرب لمن يسهو عن طلب شيءأمر به . والسهوان : السهو ، ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف أي رجل سهوان وهو آدم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسى . والمعنى أن الذين يوصون لا بدع أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام . وكذا قالوا واكل وجهة (٥) أرحبوا وسعوا . وخط المضجع : القبر . (٦) أى لا تبخلوا .
(٧) راحة (٨) أى خالطتها المحاذرة والخوف . (٩) المراد بالبيت القبر
(١٠) القرن : من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك . والغيل : بالفتح الساعد الريان الممتلىء (١١) المعصم : موضع السوار من اليد .

زهير بن جناب بن هبل الحميرى

كان سيداً مُطاعاً شريفاً فى قومه عاش مائتى سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتى وقعة . ويقال كانت فيه عشرُ خصال لم يجتمعن فى غيره من أهل زمانه : كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم إلى الملوك ، وطبيبهم (والطب فى ذلك الزمان شرف) وحازى[1] قومه (والحزاة الكهان) وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم . وأوصى إلى بنيه وخطبهم فقال : يابنىّ إنى قد كبرت سنّى وبلغت حَرْساً[2] من دهرى فأحكمتنى التجارب والأمور تجربة واختيار ، فاحْفَظُوا عنى ما أقول وعوه : إياكم والخور[3] عند المصائب ، والتوكل عند النوائب[4] ، فإن ذلك داعيةٌ للغم ، وشماتةٌ للعدوّ[5] ، وسوء ظن بالرب ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قط إلاّ ابتلوا ولكن توقعوها . فإن الإنسان فى الدنيا غرضٌ[6] تعاوره[7] الرماة فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابدّ أن يصيبه .

وكان زهير بن جناب على عهد كليب بن وائل ؛ ولم يكن فى العرب أنطق من زهير ولا أوجه عند الملوك منه ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجتمع

---

(١) فى الصحاح : الحازى الذى ينظر فى الاعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن انتهى . وقال ابن شميل الحازى أقل علما من الطارق والطارق يكاد يكون كاهنا والعائف العالم بالأمور والعراف الذى يسم الأرض فيعرف مواقع المياه ويعرف باى بلد هو . وقال الليث : الحازى الكاهن حزا يحزو يحزى وتحزى وانشد :

ومن تحزى عاطسا أو طرقا

(٢) قال الزبيدى : الحرس بالفتح الدهر وقيل وقت الدهر دون الحقب وهو مجاز . قال الراجز : « فى نعمة عشنا بذاك حرسا » والجمع أحرس بضم الراء انتهى . وقال السيد المرتضى فى أماليه (ج ١ ص ١٧٣) : قوله ، حرسا من دهرى — يريد طويلا منه والحرس من الدهر الطويل . قال الراجز « فى سنبيه عشنا بذاك حرسا » والسنبية المدة من الدهر

(٣) الخور : الجبن والضعف .

(٤) التواكل : أن يكل القوم امرهم الى غيرهم من قولهم رجل وكل اذا كان لايكفى نفسه ويكل أمره الى غيره ويقال رجل وكلة تكلة . والنوائب : المصائب .

(٥) الشماتة : اسم من شمت به كفرح يشمت : اذا فرح بمصيبة نزلت به .

(٦) الغرض كل مانصبته للرمى . (٧) أى تداوله .

قضاعةُ إلا عليه وعلى رزاخ بن ربيعة . وسمع زهير بعض نسائه تتكلم بما لا ينبغي لامرأة أن تتكلَّمَ عند زوجها به فنهاها ، فقالت له : اسكت عني وإلاَّ ضربتك بهذا العمود : فوالله ما كنت أراك تسمع شيئاً ولا تعقله ! فقال عند ذلك :

ألا يالقَوْمي لا أرى النجمَ طالعاً ولا الشمسَ إلا حاجتي بيميني
مُعَزِّبتي عند القفَا بعَمودِها تكون نكيري أن أقولَ ذَريني [1]
أميناً على سرّ النساء وربما أكونُ على الأسرارِ غيرَ أمين
فَلَلْموتُ خيرٌ من حِداجٍ مُوَطَّأٍ مع الظعن لا يأتي المحلَّ لحِينِ [2]

وهو القائل

أبنيَّ إنْ أهلِكْ فقد أورثتُكُمْ مجداً بَنِيَّهْ
وتركتكم أبناء سا داتٍ زنادُكُمْ وريَّهْ [3]
منْ كلِّ ما نالَ الفتى قد نلتُهُ إلا التحيَّهْ [4]
ولقد رَحَلْتُ البازلَ الـــكَوْماءَ ليس لها وَليَّهْ [5]
وخطبتُ خطبةَ حازمٍ غيرِ الضعيفِ ولا العَيِيَّهْ

---

(١) قوله : معزبتي — يعني امرأته . يقال معزبة الرجل وحليلته وزوجته : كل ذلك امرأته . والسر : خلاف العلانية ، والسر أيضا النكاح . قال الحطيئة:

ويحرم سر جارتهم عليهم ويأكل جارهم انف القصاع

وقال امرؤ القيس :

الا زعمت بسباسة اليوم انني كبرت والا يحسن السر امثالي

وكلام زهير يحتمل الوجهين جميعا لأنه اذا كبر وهرم لاتتهيبه النساء ان تتحدث بحضرته بأسرارهن تهاونا به وتعويلا على ثقل سمعه وكذلك هرمه وكبره يوجبان كونه أمينا على نكاح النساء لعجزه عنه . (٢) الحداج : مركب من مراكب النساء . والظعن والاظعان : الهوادج ، والظعينة : المرأة في الهودج ولا تكون ظعينة حتى تكون في هودج والجمع ظعائن . وانما خبر عن هرمه وان موته خير من كونه مع الظعن في جملة النساء . (٣) يروى بدل ابناء (ارباب) والزناد جمع زند وزندة وهما عودان يقدح بهما النار (راجع ص ١٦٧ من الجزء الثاني) وكنى بزنادكم ورية عن بلوغهم مآربهم . تقول العرب : وريت بكم زنادي اى بلغت بكم ما احب من النجح والنجاة . ويقال للرجل الكريم واري الزناد . (٤) التحية : الملك فكانه قال : من كل ما نال الفتى قد نلته الا الملك ؛ وقيل التحية ههنا الخلود والبقاء (٥) البازل الناقة التي بلغت تسع سنين فهي أشد ما تكون ولفظ البازل في الناقة والجمل سواء . والكوماء : العظيمة السنام . والولية : برذعة تطرح على ظهر البعير تلي جلده .

فالموتُ خيرٌ للفتى فليهلِكَنْ وبه بقيّهْ
من أنْ يرى الشيخ البَجاَ لَ وقد يُهادَى بالعَشيَّهْ (١)

وهو القائل :

ليتَ شعرى والدهرُ ذو حَدَثانِ أىُّ حينٍ منيَّتى تَلْقانى
أسُباتٌ على الفراش خفاتٌ أم بكفَّىْ مفجَّعٍ حرَّان (٢)

وقال حين مضت له مائتا سنة من عمره :

لقد عُمِّرْتُ حتى لا أبالى أحتفى فى صباحى أم مسائى (٣)
وحقٌّ لمنْ أتت مائتان عاماً عليهِ أن يَملَّ من الثَّوَاء (٤)

ومنهم :

مرثد الخير الحميرى

وهو مرثد الخير بن يَنْكف بن نوف بن مَعْدِيكَرِب بن مُضْحِى . وكان قَيْلاً تَحَدِباً على عشيرته ، مُحِبًّا لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء ، وأخطب الخطباء . قال أبو بكر بن دريد : وكان سُبَيْع بن الحرث أخو عَلَس وعَلَس هو ذو جَدَن ، وميثم بن مثوب بن ذى رُعَيْن تنازعا الشرف حتى تشاحنا (٥) وخيف أن يقع بين حَيَّيْهما شرٌّ فيتفانى جِذْماهما (٦) فبعث إليهما مَرْثد. فأحضرهما ليُصلح بينهما ! فقال لهما : إنَّ التخبُّطَ (٧) وامتطاء الهجَاج (٨) ، واستحْقاب اللجَاج (٩) ،

---

(١) البجال : كسحاب ، المبجل أو هو الشيخ الكبير السيد العظيم مع جمال ونبل . ويهادى . يماشيه الرجال فيستدونه لضعفه والتهادى المشى الضعيف . (٢) السبات : سكون الحركة . والخفات : الضعيف أيضا يقال : خفت الرجل اذا أصابه ضعف من مرض أو جوع . والحران : العطشان الملتهب وهو ههنا المحزون على قتلاه . (٣) الحتف : الهلاك . (٤) الاقامة .
(٥) من التشاحن وهى العداوة . (٦) الجذم : الأصل . (٧) قال أبوبكر: التخبط ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة . (٨) قال المجد : ركب هجاج كقطام ويفتح آخره — ركب رأسه . (٩) الاستحقاب : استفعال من الحقيبة أو من الحقاب فأما الحقيبة فما يجعل فيه الرجل متاعه من خرج أو غيره وحقيبة الجمل التى تكون وراء الرجل تحشى تبنا أو حشيشا . وهذا مثل اما ان يكون أراد انه احتزم باللجاج ، أو جعله فى وعائه .

سَيَتْرُكُكما على شَفَا هُوَّةٍ . فى تَوَرُّدِها بَوَارُ الأصِيلَةِ[١] ، وانقطاعُ الوَسِيلةِ . فتَلَافَيا أمركما قبل انتكاث العَهْد[٢] وانحلال العَقْد ، وتَشَتُّتِ الألفة ، وتباين السُّهْمة[٣] ، وأنتما فى فُسْحَةٍ رافهة[٤] ، وقدم واطدة[٥] ، والمودة مُثْرِية[٦] . والبُقْيا مُعْرِضة[٧] ، فقد عَرَفتم أنباء مَنْ كان قبلكم من العرب ممن عَصَى النَّصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطُع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صَيُّورُ[٨] أمورهم فتلافَوْا القَرْحة قبل تَفاقُمِ الثأى[٩] ، واستفحال الداء[١٠] ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سُفِكَت الدماء ، استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء ، تَقَضَّبَتْ عرى الإبقاء[١١] ، وشمل[١٢] البلاء فقال سبَيْع : أيها الملك ! إن عداوة بنى العَلَّات[١٣] ، لا تُبْرِئُها الأساة[١٤] ، ولا تَشْفيها الرُّقاة ؛ ولا تَسْتَقِلُّ بها الكُفاة ، والحسد الكامن ، هو الداء الباطن ، وقد عَلِمَ بَنُو أبينا هؤلاء أنَّا لهم رِدْءٌ[١٥] إذا رَهِبُوا ، وغيث إذا أَجْدَبُوا ، وعَضُدٌ إذاحاربوا ، ومَفْزَع إذا نُكِبُوا وإنا وإياهم كما قال الأول وهو أوس بن حَجَر :

إذا ما عَلَوْا قالوا أبونا وأمنا وليس لهم عالينَ أمٌّ ولا أبُ

فقال ميثم : أيها الملك ! إن من نَفِس على ابن أبيه الزَّعامة ، وجَدَبَهُ فى المَقَامة[١٦] واستكثر له قليل الكرامة ، كان قَرِفًا[١٧] بالملامة ، ومُؤَنَّبًا على ترك الاستقامة ، وإنَّا والله ما نعتدّ لهم بيدٍ إلا وقد نالهم منَّا كِفَاؤُها ، ولا نذكُرُ لهم حسنة إلا وقد تَطَلَّع منا إليهم جزاؤها ولا يَتفَيَّأ لهم علينا ظلُّ نعمةٍ إلا وقد قوبلوا

---

(١) شفا البئر والوادى والقبر وما اشبهها : حافته ، والهوة ما انهبط من الأرض او الوهدة الغامضة منها . والبوار الهلاك . والأصيلة والأصل واحد.
(٢) الانتكاث : الانتقاض . (٣) القرابة . (٤) اى ناعمة من الرفاهة .
(٥) ثابتة (٦) اى متصلة مأخوذة من الثرى وهو التراب الندى ، يقال : تريت بك : اى كثرت بك (٧) اى ممكنة قد امكنت من عرضها اى جنبها وناحيتها (٨) الصيور : الامر الذى يرجع اليه (٩) القرحة : الجرح . ويقال تفاقم الثأى بينهم اذا وقعت بينهم جراحات وقتل (١٠) اشتداد الداء .
(١١) تقضبت : تقطعت (١٢) عم (١٣) بنو العلات : بنو امهات شتى من رجل واحد لأن التى تزوجها على أولى قد كانت قبلها ناهل ثم عل من هذه
(١٤) الأطباء واحدهم آس . (١٥) عون (١٦) جدبه : عابه ، والمقامة : المجلس والمجلس : الناس . (١٧) خليقا .

بِشَرْواها(١) ، ونحن بنو فحل مُقْرَم (٢) لم تقعُدْ بنا الأمهات ولاَبهم ، ولا تنزِعُنا أعراق السُّوء ولا إيام ، فعلامَ مطُّ الخدود ، وخَزْرُ العيون(٣) ، والجخيف والتّصعُّر (٤) . والبأوُ والتكبر ؟ ألكثرة عَدَد ، أم لفضل جَلَد . أم لطول مقتعد ؟ وإنّا وإيام لكما قال الأول (وهو ذو الأصبع العَدْوانىّ) :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضلْتَ فى حَسَبٍ عَنّى ولا أنتَ دَيّانى فتَخزونى(٥)

ومقاطِعُ الأمور ثلاثة : حربٌ مبيرة ، أو سِلْم قَريرة ، أو مُداجاةٌ وغَفيرة(٦) ، فقال الملك : لا تُنْشِطوا(٧) عُقُلَ الشّوارد ، ولا تُلقحوا العُونَ القواعد(٨) ، ولا تُؤَرِّثوا(٩) نيران الأحقاد ، ففيها المَتْلَفَةُ المُسْتأصِلَةُ ، والجائحة والأليلة(١٠) وَعَفّوا بالحِلْم ، أبلاد(١١) الكَلْم ، وأنيبوا إلى السبيل الأرشد ، والمَنْهَج الأقصد ، فإن الحرب تُقبِلُ بزِبْرِج الغُرور(١٢) وتُدْبِر بالويل والثبور ، ثم قال الملك :

ألا هل أتى الأقوام بَذْلى نصيحةً حَبَوْتُ بها منى سُبَيْعاً وميثما(١٣)
وقلت اعْلَما أن التّدابُرَ غادَرَتْ عواقِبُهُ للذُّلِّ والقُلِّ جُرْهُما(١٤)
فلا تَقْدَحا زند العُقوق وأبْقيا على العِزةِ القعْساء أن تَتهدما(١٥)
ولا تجنيا حرباً تجرُّ عليكما عواقبها يوماً من الشر أشأما

(١) بمثلها (٢) أى سيد شريف والمقرم فى الاصل البعير الذى لا يحمل عليه ولا يذلل وانما هو للفحلة (٣) الخزر : أن ينظر الرجل الى أحد عرضيه يقال انه ليتخازر لى اذا نظر اليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .
(٤) الجخيف : التكبر ومثله البأو ، والتصعر : هو أن يعرض المرء بوجهه عن الناس فى ناحية من الكبر (٥) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٣٨
(٦) المداجاة : المساترة ، والغفيرة الغفران والعرب تقول ليست فيهم غفيرة أى لا يغفرون (٧) لا تحلوا (٨) هذا مثل وأصله فى الابل يقال لقحت الناقة اذا حملت والقحها الفحل ثم ضرب ذلك مثلاللحرب اذا ابتدأت ، والعون : جمع عوان وهى الثيب ويقال الحرب عوان اذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة
(٩) أى لا تذكوا (١٠) الجائحة : الاستئصال . والأليلة : الثكل .
(١١) الابلاد : الآثار واحدها بلد ، والكلم : الجرح (١٢) الزبرج بالكسر الزينة من وشى أو جوهر (١٣) حبوت : أعطيت (١٤) الذل : الذلة ، والقل : القلة (١٥) القعساء : الثابتة .

فان جُنـاة الحرب للحَيْن عُرْضةٌ … تفوِّقهم منها الذُّعافَ المُقَشَّما[1]

حَذَارِ فلا تَسْتَنْبِثُوها فإنها … تغادرُ ذا الأنفِ الأشمِّ مكشَّما[2]

فقالا : لا أيها الملك ! بل نَقْبَلُ نُصْحَكَ ، ونطيع أمرك ، ونُطفى الثائرة[3] ونحُلُّ الضّغائن . ونثوبُ إلى السلم . ومنهم :

الحرث بن كعب المذحجى

كان الحرث هذا من أفصح خطباء زمانه ، قد سلم له طول باعه فى البلاغة وعلو شأنه . قال أبو حاتم السجستانى : جمع الحرث بن كعب بنيه لما حضرته الوفاة فقال « يا بنى قد أتت علىَّ ستون ومائة سنة ما صافحت بيمينى يمين غادر ولا قنعت نفسى بخلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم ولا كَنّة[4] ولا طرحت عندى مُومسة قناعها[5] ، ولا أبحت لصديق بسر ، وإنى لعلى دين شعيب النبى (عليه السلام) وما عليه أحد من العرب غيرى وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مر ، فاحفظوا وصيتى ، وموتوا على شريعتى . . . إلهكم فاتقوه يكفيكم المهم من أموركم ، ويصلح لكم أعمالكم . وإياكم ومعصيته لا يحل بكم الدَّمار[6] ، ويوحش منكم الديار . . . يا بنىّ كونوا جميعاً ولا تفرقوا فتكونوا شيعاً ، وبزُّوا قبل أن تُبزُّوا ، وإن موتاً فى عزّ ، خير من حياةٍ فى ذل وعجز ، وكل ماهو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ؛ والدهر ضربان : فضرب رخاء ، وضرب بلاء ، واليوم يومان : فيوم حبرة[7] ويوم عبرة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك . . وزوجوا الأكفاء ، وليستعملن فى طيبهن الماء ، وإياكم والورهاء[8] فإنها أدوأ الداء ،

---

(١) تفوقهم : تسقيهم الفواق وهو ما بين الحلبتين كأنه يحلب حلبة ثم يسكت ثم يحلب أخرى ، والذعاف بالضم السم ، والمقشم : المخلوط ، والحين : الهلاك (٢) قوله ولا تستنبثوها ، مثل ، اى لا تخرجوا نبيثها وهو ما يخرج من البئر اذا حفرت . يريد لا تثيروا الحرب ، والمكشم : المقطوع . (٣) الهائجة (٤) الصبوة : رقة القلب ، والكنة : امراة اخى الرجل وامراة ابن أخيه (٥) المومسة : الفاجرة البغى واراد انه لم تبتذل عنده وتنبسط كما تفعل مع من يريد الفجور بها (٦) مثل الهلاك وزنا ومعنى. (٧) فرح وسرور (٨) الحمقاء .

وتجنبوا الحمقاء ، فإن ولدها إلى أفن يكون[١] إلا إنه لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقى السيئة والمكافأة بالسيئة دخول فيها . وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم ، تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقب النكد ، ويَمْحَقُ العدد ، ويخرب البلد ، والنصيحة تجر الفضيحة ، والفضيحة[٢] والحقد يمنع الرفد[٣] ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرعة[٤] ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يا بنى إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغبرت ، وكأنى بهم قد لحقت » . ثم أنشأ يقول :

« أكلت شبابى فأفنيتـهُ وأنضيت من بعد دهرى دهورا[٥]
ثلاثة أهلـيْنَ صاحبتهُمْ فبادوا وأصْبحتُ شيخاً كبيرا[٦]
قليلَ الطعام عسـيرَ القيامِ قد ترك الدهرُ خَطوِى قصيرا
أبيتُ أراعى نجـومَ السماء أقلِّبُ أمرى بُطوناً ظهُورا »

ومنهم :

قيس بن زهير العبسى

كان هذا أيضاً من ذوى الفصاحة والبيان ، وعذوبة المنطق وذرب اللسان[٧] ومن أخباره ومستحسن كلامه ، مارواه ابنُ الكلبى ، قال : لما كان بعد يوم الهباءة جاور قيس بن زهير العبسى النمر بن قاسط ، فقال لهم « إنى جاورتكم ، واخترتكم ، فزوجونى امرأةً قد أدبها الغنى . وأذلّها الفقر ، فى حسب وجمال ، فزوجوه (ظبية) ابنة (الكيس النَّمرى)[٨] وقال لهم « إن فىّ خلالاً ثلاثاً :

---

(١) الافن : الحمق (٢) هذا يشبه أن يكون معناه ان النصيح اذا نصح لمن لا يقبل نصيحته ، ولا يصغى الى موعظته ، فقد افتضح عنده لأنه افضى اليه بسره ، واباح بمكنون صدره (٣) العطاء (٤) يقال فلان حسن الرعة والتورع اى حسن الطريقة (٥) انضيت ابليت (٦) بادوا : ذهبوا وانقطعوا (٧) أى فصاحة اللسان (٨) يأتى ذكره فى النسابين قريبا .

إنى غيور ، وإنى فخور ، وانى آنف . واست أفخر حتى أبدأ ، ولا أغار حتى أرى ولا آنف حتى أظلم » فرضوا أخلاقه ـ فأقام فيهم حتى ولد له . فلما أراد الرحيل عنهم قال: « إنى موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال : عليكم بالأناة فإن بها تدرك الحاجة وتنال الفرصة ، وتسويد من لا تعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء فإن به يعيش الناس وبإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الإلحاح وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيس المنازل عن بيوت اليتامى ، وخلط الضيف بالعيال ، وأنهاكم عن الغدر ، فإنه عار الدهر ، وعن الرهان فإنى به ثكلت مالكاً أخى ، وعن البغى فإنه قتل زهيراً أبى ، وعن الإعطاء فى الفضول فتعجزوا عن الحقوق ، وعن السرف فى الدماء فإن يوم الهباءة ألزمنى العار ، ومنع الحرم إلا من الأكفاء ، فإن لم تصيبوا لهن الأكفاء فإن خير منا كحهن القبور أو خير منازلها ؛ واعلموا أنى كنت ظالماً مظلوماً : ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكاً أخى وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له »

ثم رحل عنهم إلى غمار فتنصر بها وعف عن المآكل حتى أكل الحنظل إلى أن مات . ومنهم :

الربيع بن ضبيع (١) الفزارى

كان من الخطباء الجاهليين ، وقد أدرك زمن الإسلام لأنه كان من المعمرين . ويقال إنه بقى إلى أيام بنى أمية . وروى أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : يا ربيع ! أخبرنى عما أدركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية . فقال أنا الذى أقول :

ها أنا ذا آمُلُ الخلودَ وقَدْ أدْرَكَ عقلى ومولدى حُجُرا (٢)

فقال : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبىّ ! قال : وأنا القائل :

---

(١) كذا ، وفى الاصابة « طبعة السعادة » ضبيع ، وفى الاقتضاب ص ٣٦٩ وامالى المرتضى ج ١ ص ١٨٣ والدرر اللوامع ج ١ ص ٢١٠ : (ضبع) .
(٢) يريد بحجر أبا امرىء القيس .

إذا عاش الفَتى ما ئتين عاماً   فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفَتاء[١]

قال : قد رويت هذا من شعرك وأنا غلام ! وأبيك يا ربيع لقد طلبك جد غير عاثر ، ففصل لى عمرك ! قال : عشت مائتى سنة فى فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة فى الجاهلية ، وستين فى الإسلام ! قال : أخبرنى عن فتيةفى قريش متواطئى الأسماء ! قال : سل عن أيهم شئت ! قال : أخبرنى عن عبد الله بن عباس . قال : فهم وعلم ، وعطاء جذم[٢] ، ومقرى ضخم[٣] قال : فأخبرنى عن عبد الله بن عمر . قال : حلم وعلم ، وطول كظم ، وبعد من الظلم قال فأخبرنى عبد الله بن جعفر . قال : ريحانة طيب ريحها ، لينٌ مسها ، قليل على المسلمين ضرها . قال : فأخبرنى عن عبد الله بن الزبير . قال جبل وعر ، ينحدر منه الصخر ، قال : لله درك يا ربيع ما أعرفَكَ بهم ! قال : قرب جوارى ، وكثرة استخبارى . . قال السيد المرتضى فى كتابه غرر الفوائد : إن كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له إنما كان فى أيام معاوية لا فى ولايته ، لأن الربيع يقول فى الخبر عشت فى الإسلام ستين سنة وعبد الملك ولى فى سنة خمس وستين من الهجرة فإن كان صحيحاً فلا بد مما ذكرناه ، فقد روى أن الربيع أدرك أيام معاوية . ويقال إن الربيع لما بلغ مائتى سنة قال :

ألا أبلغْ بنىَّ بنى رَبيعٍ   فأشرارُ البنينَ لكم فِداء

بأنى قد كَبِرتُ ودقَّ عَظمى   فلا تشغَلكُم عنى النساء

فإنَّ كَنائنى لنساء صدقٍ   وما آلى[٤] بَنِيَّ ولا أساؤا

إذا كانَ الشتاء فأدفئونى   فإنَّ الشيخَ يَهْدِمُهُ الشتاء[٥]

---

(١) قوله « مائتين عاما » الوجه حذف النون وخفض عام الا انها شبهت للضرورة بالعشرين ونحوها مما يثبتونه وينصب ما بعده ، وروى أيضا « تسعين عاما » ولا ضرورة فيه على هذا ، ولكنها رواية لا تصح . .

(٢) سريع ، وكل شيء تسرعت فيه فقد جذمته (٣) المقرى : الاناء الذى يقرى فيه (٤) ما قصر (٥) يستشهد النحاة بهذا البيت على مجىء (كان) فى حال تمامها بمعنى حدث . ويهدمه من هدمت البناء ويروى يهرمه أى يضعفه

وأمّا حينَ يذهبُ كلُ قُرٍّ ... فَسِربَالٌ خَفيفٌ أو رِداءُ[1]
إذا عاشَ الفتى مائتين عاماً ... فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفتاء

وقال حين بلغ مائتين وأربعين سنة :

أصبح مِنّى الشبابُ قد حَسِرَا ... إن كان ولّى فقد ثوَى عُصُرا
ودَّعَنَا قبلَ أَنْ نُوَدِّعَهُ ... لما قضَى من جماعنا وطَرَا
ها أنا ذا آمُلُ الخلودَ وقد ... أدرك عقلى ومولدى حُجُرا
أبا امرىء القيس هل سمعت بِهِ ... هيهاتَ هيهاتَ ! طالَ ذا عُمُرا[2]
أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا ... أملِكُ رأسَ البعير إن نَفَرَا
والذئبُ أخشاه إن مَرَرْتُ به ... وحدى وأخشَى الرياحَ والمَطَرا
من بعد ما قُوَّةٍ أُسَرُّ بها ... أصبحت شيخاً أعالج الكِبَرا

قوله عطاء جذم : أى سريع وكل شىء أسرعت فيه فقد جذمته ، وفى الحديث : إذا أذنت فترسل و إذا أقمت فأجذم . والمقرى الإناء الذى يقرى فيه . وقوله : ما آلى بنيّ ولا أساءوا ، أى لم يقصروا والآلى المقصر .ومنهم :

أبو الطمحان القينى

واسمه حنظلة بن الشرقى من بنى كنانة بن القين . قال أبو حاتم : عاش أبو الطمحان القينى مائتىْ سنة فقال فى ذلك :

حَنَتْنى حانيات الدهر حتى ... كأنى خاتلٌ أدنو لِصَيْدِ
قريبُ الخطْوِ يَحْسِبُ من رآنى ... ولستُ مُقَيَّدًا — أنى بقيدِ

قال أبو حاتم السجستانى : وحدثنى عدة من أصحابنا أنهم سمعوا يونس بن حبيب ينشد هذين البيتين ، وينشد أيضاً :

تقارَبَ خطوُ رِجلْك يا دريد[3] ... وقَيّدَكَ الزمانُ بشرّ قيدِ

---

(١) القر : البرد . والسربال بالكسر ما يلبس من قميص او درع
(٢) أى ما أطول هذا العمر (٣) فى أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٨٦) : «ياسويد»

« وهو القائل »

وإنّى من القومِ الذينَ هُمُ هُمُ ... إذا ماتَ منهم سيّدٌ قام صاحِبُهْ
نجومُ سماء كلّما غابَ كوكبٌ ... بَدَا كوكبٌ تأوى إليه كواكبُه[١]
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجوهُهم ... دُجَى الليلِ حتى نظّمَ الجِزْعَ ثاقِبُه[٢]
ومازال مِنْهم حيث كان مُسَوّدا ... تَسيرُ المَنَايا حَيْثُ سارتْ كتائِبُهْ

ومعنى البيتين الأولين يُشبِه قول أوس بن حَجَر[٣] :

إذا مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدّ نابه ... تخمَّطَ فينا ناب آخر مُقْرَم[٤]

ولطفيل الغنوى مثل هذا المعنى وهو قوله :

كواكبُ دَجْنٍ كلما انقضّ كوكبٌ ... بدا وانجلَتْ عنه الدُجُنَّةُ كَوْكَبُ[٥]

وقد أخذ هذا المعنى الخزيمى فقال :

إذا قمرٌ مِنّا تغوّرَ أو خَبَا ... بدا قمر فى جانب الأفق يَلْمَعُ

ومثل ذلك

خِلافةُ أهلِ الأرض فينا وِراثةٌ ... إذا ماتَ منا سيدٌ قام صاحبُه

ومثله

إذا سَيِّدٌ منا مَضَى لسبيلِهِ ... أقام عَمُودَ الملكِ[٦] آخَرُ سيِّدُ

ومنهم :

ذو الاصبع العدوانى

قد ذكرنا نبذةً من أحواله فى الكلام على حكام العرب[٧] ، وكما كان من

---

(١) راجع ص ١٢٨ من هذا الجزء (٢) راجع الجزء الأول ص ٥٦
(٣) بفتحتين وليس فى اسماء الاشخاص على هذا البناء غير هذا
(٤) المقرم : الرجل الشريف ، والتخمط : الاخذ والقهر بغلبة كذا فى التاج، وفى الاساس : تخمط ناب البعير ظهر وارتفع . وأنشد البيت
(٥) الدجن والدجنة : الظلمة . وانقض : سقط .
(٦) فى نسخة « الدين » (٧) ج ١ ص ٣٣٥

حكامهم فهو من أفصح خطبائهم ؛ فلذلك اقتضى المقام إيراد شيء من مستحسن كلامه . قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانيّ : ولما احتضر ذو الأصبع دعا ابنه أسيد فقال له : « يا بنيّ إن أباك قد فنى وهو حيّ ، وعاش حتى سَئِمَ العيش ؛ وإنى مُوصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحْفظ عنى ؛ أَلِنْ جانبك لقومك يُحِبُّوكَ ، وتواضَع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وَجْهَك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعِنْ من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلاً لا يعدوك . وَصُنْ وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً فبذلك يتم سؤددك »

ثم أنشأ يقول

أأسيدُ إنْ مالاً ملكْـ ... تَ فَسِرْ بِهِ سَيْراً جميلا

آخِ الكرامَ إن استطعتَ ... م إلى إخائهم سبيلا

واشْرَبْ بِكأسِهِم وإنْ ... شربوا به السمّ الثميلا[1]

أهِنِ اللئامَ ولا تَكُنْ ... لإخائهم جَمَلاً ذَلُولا

إنّ الكرامَ إذا تؤا ... خيهمْ وَجَدْتَ لهم قبولا

وَدَعِ الذى يَعِدُ العشيرة ... ة أنْ يسيلَ وأن يسيلا

أبنيّ إنّ المالَ لا ... يبكى إذا فقد البخيلا !

ومنهم :

الأوس بن حارثة

قال أبو بكر بن دريد : حدثنى عمى عن أبيه عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن عبد الرحمن بن أبى قَبْس الأنصارىّ قال . عاش الأوس بن حارثة دَهْراً وليس له ولد إلا مالك وكان لأخيه الخزْرَج خمسةُ أولاد : عمرو . وعَوْف

(١) المنقع

وجشم . والحرث . وكعب . فلما حضره الموت قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت ! فقال الأوس : لم يهلك هالك ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج العذق من الجريمة [1] ، والنار من الوَثِيمة أن [2] يجعل لمالك نسلا ، ورجالاً بُسْلا [3] يا مالك ! المنية ولا الدنية [4] والعِتاب قَبْلَ العقاب [5] ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القَبْر ، خيرٌ من الفقر ، وشرّ شاربٍ المشْتَفُ [6] وأقبح طاعمٍ المقتف [7] وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاعُ عن الحريم ، ومن قل ذل : ومن أمِر فل [8] ؛ وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة . والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر ، فإنما تعز من ترى ويعزك من لا ترى ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون : الشريف الأبلج . واللئيم المُعَلْهَجُ [9] ، والموت المفيت ، خير من أن يقال لك : هبيت [10] وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تَلف ، وحياك إلهك » : فنشر الله من مالك بعدد بنى الخزرج أو نحوهم .

ومنهم :

---

(١) العذق : النخلة نفسها بلغة أهل الحجاز ، والجريمة النواة .

(٢) قال أبو على القالى : هى الموثومة المربوطة يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة . والعرب تقسم بهذا الكلام فنقول : لا والذى أخرج العذق من الجريمة والنار من الوثيمة لا فعلت كذا وكذا انتهى ، والعرب فى الجاهلية أيمان كثيرة ألف فيها النجيرمى رسالة ، نشرت مؤخرا فى المجلد الأول من مجلة (الزهراء) فى القاهرة (٣) البسل : الشجعان (٤) راجع ص ١٥٢ من هذا الجزء (٥) مثل يضرب فى النهى عن التسرع الى الشر . (٦) المستقصى

(٧) الآخذ بعجلة . (٨) يعنى : من قل أنصاره غلب ، ومن كثر أقرباؤه فل اعداءه . . يقال أمر القوم اذا كثر عددهم (٩) هو المتناهى فى الدناءة واللؤم .

(١٠) الهبيت : الأحمق الضعيف .

أكثم بن صيفي التميمي

قد ذكرت نبذة لطيفة من ملحه ، وفصيح كلامه ، عند الكلام على حكام العرب . وقد اقتضى المقام إيراد شيء من كلامه ، المزرى بعقد الدرّ ونظامه فمن ذلك قوله يخطب قومه بني تميم ويوصيهم : يا بني تميم لايفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إن بين حَيْزُومي[١] وصدري لكلاماً لا أجدُ له مواقع إلا أسماعكم ولا مقارّ إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغبته[٢] الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مُهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ؛ ولن يعدم المشاور مرشداً ؛ والمستبدُّ برأيه موقوف على مداحص الزلل ، ومن سمع سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ؛ ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سَلَكَ الجدَدَ أمِنَ العِثار[٣] ولن يعدَم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويورث غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه ، يا بني تميم ! الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف[٤] للذم ؛ وَكَلْمُ اللسان أنكى من كَلْمِ السّنان[٥] ؛ والكلمة مرهونة ما لم تنجم[٦] من الفم ، فإذا نجمت فهي أسد مِحْرَب[٧] ، أو نار تلهب ؛ ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأي في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب .

وكان (يزيد بن المهلب) يسلك طريقة الأكثم بن صيفي في خطبه ووصاياه وحكمه ونصائحه فإنها أحسن مسالك البلغاء ، وأرشق أساليب الفصحاء ، فمن ذلك

---

(١) الحيزوم : الصدر او وسطه (٢) اى عاقبته (٣) مثل يضرب في طلب العافية والجدد : الأرض المستوية (٤) اى انتصب كالغرض يرمى بالاقاويل (٥) أنكى : اشد نكاية اى جرحا واثخانا ، وكلم السنان : جرحه وهو نصل الرمح (٦) تنجم : تخرج (٧) بكسر الميم شديد الحرب .

ما أوصى به ابنه مخلداً حين استخلفه على جرجان[1] ، وهو قوله : يا بنى إنى قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحى من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرتادَ الرجالِ لنفعهم فَرِش واصطنع عند الذين بهم ترمى[2]

وانظر هذا الحى من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحى من تميم فأمطرهم ولا تزه لهم ، ولا تدنهم فيطمعوا ، ولا تُقْصهم فيقطعوا وانظر هذا الحى من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصفوهم المنابر فى الإسلام ، ورضاهم منك البشر . يا بنى ! إن لأبيك صنائعَ فلا تفسدها فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يَهْدِم ما بنى أبوه ! وإياك والدماء فإنها لا تُبقّية معها ، وإياك وشتم الأعراض فإن الحرّ لا يرضيه عن عرضه عوض ، وإياك وضرب الأبشار فإنه عارٌ باقٍ ووتر مطلوب ؛ واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه العشائر ، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم ، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفقه عنى وعنك ، فإن كتاب الرجل موضع عقله ، ورسوله موضع سره ، وأستودعك الله فلا بد للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن يرجعَ ، وماعف من المنطق وقلّ من الخطيئة ، أحبّ إلى أبيك ! وكذلك سلك هذا المسلك المحمود . ومنهم :

قيس بن عاصم المنقرى

فمن خطبه الرشيقة ، ووصاياه الأنيقة ، قوله يوصى بنيه : يا بنىّ خذوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى ؛ إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم فسوّدوا أكبركم فإن القوم إذا سوّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم ازدرى ذلك بهم

---

(١) مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان .

(٢) راجع ص ١١٤ من هذا الجزء .

فى أكفائهم ؛ و إياك ومعصية الله وقطيعة الرحم ؛ وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ؛ وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكريم ، وجُنَّةٌ لعرض اللئيم[1] ، و إياكم والمسألة فإنها آخر كسبِ الرجل وأن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب . و إياكم والنِّياحة فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينهى عنها ؛ وادفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى ؛ فقد كانت بينى و بينهم مُشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يدخلوا عليكم بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاثَ خصال : إياكم وكلَّ عرق لئيم أنْ تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ! ثم قال :

أحْيا الضغائنَ آباء لنا سلفوا فلن تَبيد وللآباء أبْناء[2]

قال ابن الكلبى : فيحكى الناس هذا البيت سابقاً للز بيرى وما هو إلا لقيس ابن عاصم . ومنهم :

عمرو بن كلثوم التغلبى

فإنه كما كان يعد من فحول الشعراء ، كذلك كان من مصاقع الخطباء ؛ وله فى هذا الباب كلام حسن ، على أسلوب مستحسن ، من ذلك قوله يخاطب بنيه : يا بنىَّ إنى قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائى وأجدادى . ولا بد من أمر مقتبل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد ، والأمهات والأولاد فاحفظوا عنى ما أوصيكم به : إنى والله ما عيرت رجلا قطُّ أمراً إلا عير بى مثله ؛ إن حقاً فحقاً و إن باطلا فباطلا ، ومن سَبَّ سُبَّ ؛ فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لأعراضكم وصلوا أرحامكم تعمر داركم وأكرموا جاركم يحسن ثناؤكم ، وزوجوا بنات العم بنى العم ، فإن تعديتم بهن إلى الغرباء ، فلا تألوا بهن الأكفاء ؛ وأبعدوا بيوت

---

(١) الجنة : كل ماوقى . (٢) الضغائن : الاحقاد . وتبيد : تنقطع .

النساء من بيوت الرجال فانه أغضُّ للبصر ، وأعف للذكر ، ومتى كانت المعاينة واللقاء ، ففى ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه ، وقلّ من انتهك حرمةً لغيره إلا انتهكت حرمته ، وامنعوا القريب ، من ظلم الغريب ، فإنك تذل على قريبك ، ولا يجمل بك ذل غريبك ، وإذا تنازعتم فى الدماء ، فلا يكن حقكم للقاء ، فرب رجل خير من ألف ، وود خير من حلف ، وإذا حُدِّثتم فَعُوا . وإذا حَدَّثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار ؛ يكون الإهذار ، وموت عاجل ، خير من ضنًى آجل ، وما بكيت من زمان ، إلا دهانى بعده زمان ، وربما شجانى ، من لم يكن أمره عنانى ، وما عجبت من أحدوثة ، إلا رأيت بعدها أعجوبة . واعلموا أن أشجع القوم العطوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف ، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عوتب لا يعتب ، ومن لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره . فبكؤه خير من دَرِّه [1] ، وعقوقه خير من مره ، ولا تبرحوا فى حبكم فإنه من أبرح فى حب آل ذلك إلى قبيح بغض . وكم زارنى إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فبرته . واعلموا أن الحليم سليم ، وأن السيف كليم ، إنى لم أمُتْ ولكن هَرِمْت ، ودخلتنى ذلة فسكت ، وضعف قلبى فاهترت [2] ، سلمكم ربكم وحياكم !

وقد ذكرت نبذة من غرر شمائل عمرو المذكور عند ذكر شعراء العرب

ومنهم : نعيم [3] بن ثعلبة الكنانى

كان يخطب العرب فى الموسم ، وينقادون لأوامره ويمتثلونها وينتهون عما نهى عنه . وهو أول من نسأ الشهور . قال أبو بكر الأنبارى : كانوا إذا صدروا من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة . فقال : أنا الذى لا أعاب

---

(١) يقال : بكأت الناقة بكأ وبكاءة وبكوا وبكاء اذا قل لبنها . والدر : اللبن .

(٢) اهتر : خرف وذهب عقله من كبر او مرض او حزن .

(٣) لم أقف فيما بين يدى بين الامهات والاصول على ما يؤيد صحة هذا الاسم الا فى امالى القالى . وورد فى بعضها فقيم بالفاء فليحقق .

ولا يرد لى قضاء ! فيقولون : أنسئنا شهراً أى أخّر عنا حرمة المحرم فاجعلها فى صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفراً ، فإذا كان فى السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ لهم صفراً . فقال الله عز وجل « إنّما النسيءُ زيادةٌ فى الكُفرِ »

وقال الشاعر:

أَلَسْنَا الناسِئِينَ على معدّ   شهور الحلّ نَجْعلها حراما ؟

وقال آخر

وكُنّا الناسئِينَ على معدٍّ   شُهُورَهُمُ الحَرامَ إلى الحَلِيل

وقال آخر

نسأوا الشهورَ بها وكانوا أَهْلَها   من قبلكم والعِزُّ لم يَتَحَوّلِ

وقد استوعبنا الكلام على النسيء فى الأعمال التى أبطلها الإسلام ، والمقام اقتضى إيراد شيء منه . ومنهم :

أبو سيارة العدوانى

وهو رجل من بنى عدوان اسمه عميلة بن خالد الأعزل . وكان أحد خطباء العرب المذكورين وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة . وكان يقول : [1] أشرقْ ثبير ، كيما نغير [2] ويقول : لا همّ إنى بائع بياعه ، إن كان إثم فعلى قضاعه . لاهم مالى فى الحمار الأسود . أصبحت بين العالمين أحسد . هلا يكاد ذو البعير الجاعد [3] فق أبا سيارة المحسد من شر كل حاسد إذا حسد . ومن أداة النافثات فى العقد . اللهم حبب بين نسائنا . و بغض بين رعائنا . واجعل المال فى سمحائنا . وفيه يقول الشاعر :

---

(١) راجع الجزء الأول ص ٢٤٨ .
(٢) اى نسرع الى النحر . (٣) الصلب الشديد .

خلوا الطريقَ عن أبى سيّارَهْ وعن مواليه بنى فزارَهْ
حتى يجيز سالما حماره مستقبل القبلة يدعو جارَهْ
فقد أجار الله من أجاره

وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشىّ يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ويجعلان أبا سيارة لهما قدوة . ومنهم :

الحرث بن ذبيان بن لجا بن منهب اليمانى

كان من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم فى عصره ؛ وله كلام مستحسن تكلم به فى المجامع والمشاهد العظيمة ، والخطوب الصعبة . روى أبو بكر بن دريد بسنده إلى ابن الكلبى عن أبيه قال : اجتمع طَريف بن العاصى الدوسى وهو جدّ طفيل ذى النورين بن عمرو بن طريف والحرث بن ذُبيان بن لجا بن منهب وهو أحد المعمّرين عند بعض مَقَاول[1] حِمْيَر فتفاخرا فقال الملك للحَرث يا حارث ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنَّمر بن عثمان ؟ فقال : أخبرك أيها الملك ! خرج هَجِينان منّا يرْعَيان غنماً لهما فتشاوَلا[2] بسيفيهما ، فأصاب صاحبهم عَقِبَ صاحبنا فعاث[3] فيه السيف فنزَف[4] فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهَجِين[5] وهى نصف دية الصَّريح[6] ، فأبى قومى وكان لنا رِباء[7] عليهم فأبينا إلا دية الصريح وأبوا إلّا دية الهجين . وكان اسم هجيننا ذهين بن زَبْراء واسم صاحبهم عَنْقَش بن مُهَيْرة ، وهى سوداء أيضاً[8] فتفاقم[9] الأمر بين الحيَّيْن فقال رجل منا :

---

(١) المقاول والاقيال هم الذين دون الملك الاعظم (٢) تضاربا
(٣) أى افسد والعيث الفساد (٤) سال دمه حتى ضعف
(٥) الذى ابوه عربى وامه ليست عربية (٦) الخالص .
(٧) الرباء : الزيادة يقال اربى فلان على فلان فى السباب يربى ارباء اذا زاد عليه (٨) كذا فى الأصل ولم يتقدم الحكم على شىء بالسواد فلعله سقط من قلم الناسخ عند قوله: زبراء «وهى سوداء» انظر امالى القالى ج ١ ص٧٣
(٩) اشتد .

حُلُومَـكُمُ (يا قوم) لا تُعزِبُنَّها ولا تَقْطَعوا أرحامـكم بالتَّدابُرِ (١)
وأَدُّوا إلى الأقوام عَقْلَ ابن عمهم ولا تُرْهِقوهم سُـبَّةً فى العشائر (٢)
فإن ابن زَبْراء الذى فادَ لم يكن بدون مُخلَيْفٍ أو أسـيد بن جابر (٣)
فإن لم تُعاطوا الحقَّ فالسيفُ بيننا وبينـكم والسيفُ أجْوَرُ جائر

فَتَضافروا علينا حسداً فأجمع ذَوُو الحجا منا أن نَلْحق بأمنع بطن من الأزد فلحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله مافَتّ (٤) فى أعضادنا نأينا منهم (٥) ، ولقد أثأَرْنا (٦) بصاحبنا وهم راغمون . فوثب طريف بن العاصى من مجلسه فجلس بإزاء الحرْث ، ثم قال : تالله ما سَمِعْتُ كاليوم قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل (٧) ولا أجلب لقَذَع (٨) من قول هـذا ، والله أيها الملك ، ماقتلوا بهجينهم بَذَجا (٩) ، ولارقوا به درجا ، ولا أنطوا (١٠) به عقلا ، ولا اجتفأوا به خَشْلا (١١) ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ، وأجلاهم عن محلهم ، حتى استلانوا خشونة الإزعاج ، ولجأوا إلى أضيق الولاج ، قُلاً وذُلاً (١٢) ! فقال الحرث : أتسمع ياطريف ؟ إنى والله ما إخالك كافاًّ غَرْبَ (١٣) لسانك ، ولا مُنَهْنِهاً شِرَّةَ نَزَوانك (١٤) حتى أسطوَ بك سطوة تكفُّ طماحك (١٥) ، وتردُّ جماحك ، وتـكبِتُ تَتَرُّعَك (١٦) ، وتَقْمعُ تسرُّعك ! فقـال طريف : مهلا ياجابر لا تَعْرضْ لطَحْمة (١٧) استنانى ، وذَرَب لسانى (١٨) ، وغَرْب شباتى ، ومِيسم سنانى ، فتكون كالأظلّ (١٩) الموطوء ، والعَجَب المَوْجوء (٢٠) ! فقال

---

(١) عزب عنه حلمه واعزب حلمه كقولك اضل بعيره ، وتدابر القـوم : اختلفوا وتعادوا (٢) العقل : الدية، وارهقت الرجل عسرا : كلفته ذلك .
(٣) فاد يفود : مات ، وفاد يفيد : تبختر (٤) أوهن واضعف
(٥) وفى بعض النسخ « فأبنا عنهم » (٦) افتعلنا من الثأر
(٧) خطأ (٨) الكلام القبيح (٩) خروفا وهو فارسى معرب وكذلك البرق فارسى معرب وهو الحمل (١٠) لغـة فى اعطوا (١١) اجتفأوا : صرعوا ، والخشل شجر المقل — وهذه امثال كلها يريد أنهم لم ينالوا ثأره .
(١٢) القل : القلة ، والذل : الذلة (١٣) قال الفيومى : الغرب الحدة من كل شىء نحو الفأس والسكين حتى قيل اقطع غرب لسانه اى حدته .
(١٤) منهنها : كافا . والنزوان : الوثوب . وشرته : حدته ونشاطه .
(١٥) بالكسر النشوز والجماح (١٦) تسرعك الى الشر (١٧) طحمته السيل بالضم والفتح دفعته (١٨) الذرب : الحدة (١٩) أسفل خف البعير .
(٢٠) العجب : أصل الذنب ، والموجوء : المقطوع .

الحرث إيایَ تخاطب بمثل هذا القول ! والله لو وَطِئْتُكَ لأسَخْتُكَ ، ولو وَهَصْتُك لأَوْهَطْتُكَ(١) ، ولو نَفَحْتُكَ لأفدتك ! فقال طريف . متمثلا :

و إنّ كلام المرء فى غير كُنهِهِ(٢)   لَكالنَّبلِ تَهْوى ليس فيها نِصالها(٣)

أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ! لئن لم تَرْبَعْ على ظَلْعِكَ(٤) ، وتَقِفْ عند قدرك ، لأَدَعَنّ حَزْنَكَ(٥) سَهْلاً وغَمْرَكَ ضَحْلاً(٦) ، وَصفاكَ(٧) وَحْلا ! فقال الحرث : أماوالله لو رُمْتُ ذلك لرَغْتَ بالحَضيض(٨) وأُغْصِصْتَ بالجريض(٩) وضاقت عليك الرحاب(١٠) وتقطعت بك الأسباب(١١) ، ولألفيتَ لقى تهاداه الرّوامِس(١٢) ، بالسَّهْبِ الطامس(١٣) فقال طريف : دون ما ناجتك به نَفسُكَ مُقَارَعَة أبطال ، وحياض أهوال . وحفْزة إعجال(١٤) يُمْنَعُ معه تطامن الإمهال ، فقال الملك : إيهاً عنكما(١٥) فما رأيتُ كاليوم مقال رجلين لم يَقْصِبا(١٦) ولم يَشْلِبا(١٧) ولم يَلْصوَا ولم يَقْفوَا(١٨) ! وشرح هـذه الألفاظ يطول ، ومن أراد ذلك فليراجع كتب اللغة .

وأما خطب أهل الصدر الأول من الإسلام

فهى الغاية فى الفصاحـة ، والمنتهى فى البراعة والبلاغة ؛ وفى كتب الأدب الدائرة فى الأيدى شىء كثير من خطب الخلفاء الراشدين وغـيرهم مما تتحير

(١) وهصتك : كسرتك ، وأوهطتك : اهلكتك وقيل صرعتك .
(٢) اى فى غير وقته (٣) جمع نصل وهو حديدة السهم .
(٤) لم تربع : لم تكف وترفق . والظالع : الغمز (٥) الحزن : ما غلظ من الأرض بخلاف السهل (٦) الغمر : الماء الكثير ، والضحل الماء القليل .
(٧) جمع صفاة وهى الصخرة (٨) القرار من الأرض اذا اتصل بالجبل وفى الحديث : ان العدو بعر عرة الجبـل ونحن بحضيضه فالعرعرة أعـلاه والحضيض أسفله (٩) الريق : وفى المثل « حال الجريض ، دون القريض » وهو يضرب لامر يعوق دونه عائق (١٠) الاراضى الواسعة (١١) أى الوصلات، الواحد سبب ووصلته وأصـل السبب الحبـل يشد بالشىء فيجـذب به ثم جعل كل ما جر شيئا سببا (١٢) الرياح التى ترمس أى تدفن
(١٣) السهب : المستوى من الأرض والطامس : الدارس
(١٤) الحفز : الدفع (١٥) قال أبو زيد « ايها » نهى ، و « ايه » امر
(١٦) أى لم يشتما ، يقال قصبه يقصبه اذا وقع فيه واصل القصب القطع
(١٧) أى لم يعيبا وينتقصا (١٨) لصاه : قذفه ، وقفاه يقفوه : قذفـه بأمر عظيم .

منه أولو الألباب ، وتقضى منه العجب العجاب ؛ قد اشتملت على الحكم والأسرار وما يستوجب خيرى الدنيا والآخرة دار القرار ، وما يقرب إلى مرضاة الله تعالى ويباعد عن دار البوار . هذا كتاب نهج البلاغة [١] قد استودع من خطب الإمام على بن أبى طالب سلام الله عليه ماهو قبس من نور الكلام الالهى ، وشمس تضئ بفصاحة المنطق النبوى ، وكذلك أهل القرن الثانى فليسوا بأقلّ فصاحة من العرب العرباء . ولامن أولئك الخطباء . روى أبو بكر بسنده إلى ابن الكلبى عن أبيه قال : لما قَتَلَ عبد الملك مُصْعَب بن الزبير دخل الكوفة فَصَعِدَ المنبر فحمِدَ الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال [٢] : أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السِّلْمَ أَمْنٌ ومسَرّة ، وقد زَبَنَتْنَا الحرب وَزَبَنَّاها [٣] فعرفناها وألفناها ، فنحن بَنُوها وهى أمنا . أيها الناس ! فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودعوا الأهواء المرْدِيَة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلّفونا أعمالَ المهاجرين الأولين ، وأنتم لاتعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً وان نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فَلْيَعُدْ ، وإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

مَنْ يَصْلَ نارى بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بنارِ كريمٍ غير غدّارِ [٤]
أنا النذير لكم منى مُجاهرةً ... كَىْ لا ألامَ على نهيى وإنذارى

---

(١) كان ابن سيرين يرى عامة مايروون عن على رضى الله عنه كذبا لا اصل له ولا سند . قال الشيخ العلامة المقبلى فى «العلم الشامخ» : وصدق ابن سيرين رحمه الله فان كل قلب سليم ، وعقل غير زائغ عن الطريق القويم، ولب تدرب فى مقاصد سالكى الصراط المستقيم ، يشهد بكذب كثير مما فى (نهج البلاغة) الذى صار عند الشيعة عديل كتاب الله بمجرد الهوى الذى اصاب كل عرق منهم ومفصل، وليتهم سلكوا مسلك جلاميد الناس ، واوصلوا ذلك الى على برواية تسوغ عند الناس ، وجادلوا عن رواتها ولكن لم يبلغوا بها مصنفها . . الخ (٢) أوردها القلقشندى فى صبح الاعشى (ج ١ ص ٢١٥) ببعض اختلاف ، وعزاها لمعاوية رضى الله عنه (٣) اى دفعتنا ودفعناها .
(٤) صلى بالنار وصليها صلى من باب تعب : وجد حرها ، والترة : الظلم .

فإن عصيتم مقالى اليومَ فاعترفوا أنْ سَوْفَ تلْقَوْنَ خِزياً ظاهر العار[١]
لِترْجِعُنَّ أحاديثاً مُلَعَّنةً لَهْوَ الُمقيمُ ولهو المُدَّاجِ السارى[٢]
من كان فى نفسه حَوْجاء يطلبها عندى فإنى له رَهْنٌ بإصحار[٣]
أُقيمُ عَوْجَتَهُ إن كان ذا عِوَجٍ كما يُقَوِّمُ قِدْحَ النَّبعة البارى
وصاحبُ الوِتْرِ ليس الدهر مُدْرِكَهُ عنـدى وإنى لَدَرَّاكٌ لأوتارى[٤]

وروى أبو بكر أيضاً . قال : ولَّى جعفر بن سليمان أعرابياً بعض مياههم فخطبهم يوم الجمعة فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ فإن الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقركم من ممرّكم ، ولا تَهْتِـكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانـكم ، ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلقتم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ، وقالت الملائـكة : ما قدّم ، فلله آباؤكم . قدّموا بعضاً ، يكن لـكم قَرْضاً ، ولا تُخلِّفوا كُلاًّ ، يكن عليكم كَـلاًّ ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم . وروى أبو بكر قال حدثنا أبو عثمان عن التوزى عن أبى عبيدة قال : قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم فـكر طويلاً ثم قال : أرْعونى أسماعكم ، وأصغوا إلىَّ قلوبكم ، يَبلغ الوعظ منها حيث أريد . طَمَحَ بالأهواء الأشر[٥] ، وران[٦] على قلوبكم الـكَدَرَ ، وطَخْطَخَ[٧] الجهلُ النظر ، إن فيما يرى لمُعْتَبرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلعُ وتغرُب ، ونجوم تسرى فتَعْزُبُ وقمر تُطلعه النحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثْر[٨] ، وقول مكدر ، وشاب محتضر ، ويفَن قد غَبَر[٩] وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون[١٠]

---

(١) الخزى : الهوان (٢) المدلج : الذى يسير من اول الليل . والسارى: الذى يسير بالليل (٣) الحوجاء : الحاجة . وقوله « فانى له رهن باصحار » اى بالبروز الى الصحراء فلا استتر عنه ولا امتنع فى الاماكن الحصينة .
(٤) الوتر : الذحل والثأر (٥) طمح : ارتفع وعلا (٦) غلب (٧) اظلم
(٨) فى بعض النسخ : « وعاجز مثر ، وحول مكد ، وشـاب مختضر » والمختضر الذى يموت حدثا مأخوذ من الخضرة كانه حصد أخضر .
(٩) اليفن : الشيخ الكبير ، وغبر : مضى (١٠) أى لا يقدمون .

ومطر يُرْسَلُ بقدر ، فيحيي البشر ، و يورق الشجر ، و يُطلع الثمر ، ويُنبت الزّهر . وماء يتفجر من الصخر الأيَرّ(١) ، فيصدع المدَر ، عن أفنان الخُضَر ، فيُحيي الأنام ، و يُشبع السوّام(٢) ، ويُنمى الأنعام ، إنّ فى ذلك لأوضحَ الدلائل على المدبر المقدّر ، البارىء المصوّر ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة(٣) أنى تؤفكون ، وعن أىّ سبيل تعمهون(٤) وفى أى حيْرة تهيمون ، و إلى أىّ غاية تُوفِضُون(٥) ؟ لو كُشِفَتِ الأغطية عن القلوب ، وتجلَّت الغِشاوة عن العيون ، لَصَرَّحَ الشك عن اليقين ، وأفاق من نَشْوة الجهالة(٦) ، من استولت عليه الضلالة. وما ذكرناه من بديع الخطب ، ومستحسن كلام العرب ، و إنْ كان قطرة من مستعذب بحر ، ودرة فريدة من عقد نَحْرْ ، فهو كافٍ فى هذا المقام ، وكافل بأداء المقصود والمرام . ومن علومهم :

علم الانساب

وهو علم يتعرف به أنساب الناس . والعرب فى الجاهلية كان لهم مزيد اعتناء بضبطه ومعرفته فإنه أحد أسباب الألفة والتناصر . وهم كانوا أحوج شىء إلى ذلك حيث كانوا قبائل متفرقين ، وأحزاباً مختلفين ؛ لم تزل نيران الحروب متسعرة بينهم ، والغارات ثائرة فيهم ، فإنَّهم امتنعوا عن سلطان يقهرهم ، ويكف الأذى عنهم ؛ فحفظوا أنسابهم ليكونوا متظافرين به على خصومهم ، ومتناصرين على من شاققهم وعاداهم ، لأن تعاطف الأرحام ، وحمية الأقارب ، يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة ، أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب ، وتوقياً من تسلط الغرباء الأجانب ؛ وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إنّ الرَّحِمَ إذا تماست تعاطفت » وقد بلغت العرب بألفة الانساب

---

(١) على مثال الاصم الصلب (٢) بالفتح الابل الراعية (٣) يقلل نأرت نائرة أى هاجت هائجة . (٤) تؤفكون : تصرفون عن الخير . وتعمهون : تتحيرون (٥) تسرعون (٦) أى سكرة الجهالة .

تناصرها على القوى ، وتأيدت به ، واستحكمت به ركن مجدها العلى ، وقد أعذر نبى الله لوط عليه السلام نفسه حين عـــدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليهم « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » يعنى عشيرة مانعة . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما بعث الله تعالى من بعده نبياً إلا فى ثروة من قومه » وقال وهب « لقد وردت الرسل على لوط وقالوا إن ركنك لَشَديدٌ » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجاً حتى يضمه إلى قبيلة يكون منها . وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من كثر سواد قوم فهو منهم » وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها ، فلزم أن نصف حال الأنساب ، وما يعرض لها من الأسباب فجملة الأنساب أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم والدون ، وقسم مولودون ، وقسم مناسبون ، ولـكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة ، فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم بالطبع . والثانى حادث باكتساب ، فأما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والإشفاق ، وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال ؛ وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال » الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة[1] فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف ، ويحدث هذه الأخلاق ، وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهــذه الحالة التى لايقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعاً ، وحدوثها حتما ؛ وقيل ليحيى بن زكريا (عليهما السلام) ما بالك تـكره الولد ؟ فقال مالى وللولد ! إن عاش كدنى وإن مات هدنى ! وقيل

---

(١) قال المناوى : هذا الحديث متواتر فقد جاء عن بضـــعه وعشرين من الصحابة ورووه هكذا : « الولد ثمرة القلب وانه محبنة مبخلة محزنة » قوله : « ثمرة القلب » أى لأن الثمرة تنتجها الشجرة والولد نتيجة الأب . وقوله « مجبنة » أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، وقوله « مبخلة » أى يمتنع أبوه من الانفاق فى الطاعة خوف فقره ، وقوله « محزنة » أى يحزن أبوه لمرضه خوف موته .

لعيسى بن مريم عليه السلام : ألا تتزوج ؟ فقال : إنما يحب التكاثر في دار البقاء ! وأما ما كان حادثاً بالاكتساب فهو المحبة التي تنمى مع الأوقات ، وتتغير مع تغير الحالات وروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الولد أنوط » يعنى أن حبه يلتصق بنياط القلب[1] وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد » فإن انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت عن عقوق ، أو تقصير مع بقاء الحذر والإشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه ، فقد قال محمد بن على رضى الله تعالى عنهما : إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ، ولم يوصهم بهم ، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم ، وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق ، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط . والأمهات أكثر إشفاقاً ، وأوفر حباً ، لما باشرن من الولادة ، وعانين من التربية ، فإنهن أرق قلوباً ، وألين نفوساً ، وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن ، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر ، وجمع بينهما فى الوصية ، فقال تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً » وقد روى أن رجلا أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « إن لى أماً أنا مطيعها : أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد إليها كسبى فهل جزيتها ؟ » قال : لا ولا بزفرة واحدة . قال : ولم ؟ قال : « لأنها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها » وقال الحسن البصرى « حق الوالد أعظم ، وبر الوالد ألزم » . وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « أنهاكم عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات » وروى خالد بن معدان عن المقداد قال « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » . وأما المولودون فهم الأولاد ، وأولاد الأولاد ، والعرب تسمى ولد الولد الصفوة ،

---

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب من الوتين اذا قطع مات صاحبه .

وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم ، والآخر منتقل . فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو خمول ، والأنفة فى الأبناء فى مقابلة الإشفاق فى الآباء . وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى بقوله :

فأصبحتُ يلقانى الزمانُ لأجله بإعظامِ مولودٍ وإشفاقِ والدِ

فأما المنتقل فهو الإدلال ، وهو أول حال الولد ، والإدلال فى الأبناء أمس . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله ! ما بالنا نَرِق على أولادنا ولا يَرِقُّونَ علينا ؟ قال «لأنا ولدناهم ولم يلدونا» . ثم الإدلال فى الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد أمرين : إما إلى البر والإعظام ، وإما إلى الجفاء والعقوق ؛ فإن كان الولد رشيداً أو كان الأب براً عطوفا صار الإدلال براً وإعظاماً . وقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله : إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ، ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب ، فإن المكافئ ليس بالواصل ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها ، وإن كان الولد غاوياً ، أو كان الوالد جافياً ، صار الإدلال قطيعة وعقوقاً . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « رحم الله امرأ أعان ولده على بره » . وبشر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار ، أو عدو ضار ؛ وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم ، والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الأنفة لأن الأنفة تمنع من التهضم . وليس لها فى كراهة الخمول نصيب إلا أن يقترن بها ما يبعث على الألفة . وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النصرة على البعداء والأجانب . وهى معرضة لحسد الأدانى والأقارب ، موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب ، فإن حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها . واقترن بحمية النسب مصافاة المودة ، وذلك أوكد أسباب الألفة ، وقد قيل لبعض

قريش : أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ قال : أخى إذا كان صديقاً !
وقال مسلمة بن عبد الملك : العيش فى ثلاث : سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل . وقال بعض أهل العلم : البعيد قريب بمودته ، والقريب بعيد بعداوته ؛ وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب ، واعتماداً على حمية القرابة ، غلب عليها مقت الحسد ، ومنازعة التنافس ، فصارت المناسبة عداوة ، والقرابة بعداً . وقال الكندى فى بعض رسائله : الأب ، رب ؛ والولد ، كمد ؛ والأخ ، فخ ؛ والعم غم ؛ والخال ، وبال ، والأقارب ، عقارب . وقال ابن المعتز فى معنى ذلك :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه وما داهيات المرء إلا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وأثنى على واصلها ، فقال تعالى « والذين يصلون ما أمر الله أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » قال المفسرون : هى الرحم التى أمر الله بوصلها ، ويخشون ربهم فى قطعها ، ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت لها من اسمى اسماً فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : صلة الرحم منماة للعدد ، مثرة للمال ، محبة فى الأهل ، منسأة فى الأجل . وقال الأزدى :

وحسبك من ذل وسوء صنيعة مناواة ذى القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوماً إلىّ الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل وعبدٌ لأرحام القرابة قاطعُ

والمقصود أن اعتناء العرب بحفظ الأنساب لما يترتب عليه من مقاصدهم التى ذكرناها ، والشريعة أكدت ما كانوا عليه ، وندبت بنصوصها إليه ، خلافاً لمن زعم أن علم النسب علمٌ لا ينفع وجهل لا يضر . وقد رد ابن حزم فى مقدمة كتاب

النسب على من زعم ذلك بأن فى علم النسب ما هو فرض على كل أحد ، وما هو فرض على الكفاية ، وما هو مستحب ؛ قال : فمن ذلك أن يعلم أن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ابن عبد الله الهاشمى فمن زعم أنه لم يكن هاشمياً فهو كافر ؛ وأن يعلم أن الخليفة من قريش ، وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم ، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة ؛ وأن يعرف أمهات المؤمنين وأن نكاحهن حرام على المؤمنين ؛ وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب ؛ وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك ، ولأن حبهم إيمان وبغضهم نفاق . قال : ومن الفقهاء من يفرق فى الجزية وفى الاسترقاق بين العرب والعجم فحاجته إلى علم النسب آكد . وكذا من يفرق بين نصارى بنى تغلب وغيرهم فى الجزية وتضعيف الصدقة . قال : وما فرض عمر رضى الله تعالى عنه الديوان إلا على القبائل ، ولولا علم النسب ما تخلص له ذلك ؛ وقد تبعه على ذلك عثمان وعلىّ وغيرهما .

وقال ابن عبد البر فى أول كتابه النسب : ولعمرى لم ينصف من زعم أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر ، وقال صاحب كتاب (نهاية الأرب ، فى معرفة قبائل العرب) : لاخفاء أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية ، والمعالم الدينية ؛ فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها فى مواضع ، منها : العلم بنسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه النبى القرشى الهاشمى الذى كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة المنورة فإنه لابد لصحة الإيمان من معرفة ذلك ، ولا يعذر مسلم فى الجهل به ، وناهيك بذلك ! ومنها : التعارف بين الناس حتى لا يعتزى أحد إلى غير آبائه ، ولا ينتسب إلى سوى أجداده ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وعلى هذا يترتب

أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضاً ، وأحكام الأولياء فى النكاح ، فيقدم بعضهم على بعض ، وأحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب ، أو بعض الطبقات دون بعض . وأحكام العاقلة فى الدية حتى يضرب الدية على بعض العصبات ؛ وما يجرى مجرى ذلك . فلولا معرفة الأنساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر الوصول إليها ؛ ومنها : اعتبار النسب فى كفاء الزوج والزوجة فى النكاح ففى مذهب الإمام الشافعى لا يكافىء الهاشمية والمطلبية غيرهما من قريش ، ولا يكافىء القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشى ؛ وفى الكنانية وجهان أصحهما أن لا يكافئها غيرها ممن ليس بكنانى ولا قرشى ؛ وفى اعتبار النسب فى العجمى أيضاً وجهان أصحهما الاعتبار . وفى مذهب الإمام أبى حنيفة : قريش بعضهم أكفاء بعض ؛ و بقية العرب بعضهم أكفاء بعض ؛ وأما فى العجم فلا يعتبر النسب عندهم . فإذا لم يعرف النسب تعذرت معرفة هذه الأحكام . ومنها : مراعاة النسب الشريف فى المرأة المنكوحة فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لدينها وحسبها ومالها وجمالها » فراعى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المرأة المنكوحة الحسب وهو الشرف فى الآباء إلى غير ذلك من الأحكام الجارية هذا المجرى .

طبقات الأنساب

قال الإمام الماوردى فى كتاب (الأحكام السلطانية) وقد رتبت أنساب العرب ست مراتب فجعلت طبقات أنسابهم وهى : شعْب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . سمى شعباً لأن القبائل منه تشعبت . ثم القبيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومُضَر سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها . ثم العِمارة وهى ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة

مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم . ثم الفخذ وهو ماانقسم فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية . ثم الفصيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الفخذ مثل بنى أبى طالب وبنى العباس . فالفخذ يجمع الفصائل . والبطن يجمع الأفخاذ . والعمارة تجمع البطون . والقبيلة تجمع العمائر . والشعب يجمع القبائل . و إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً . والعمائر قبائل انتهى . وقد قسمها الزبير بن بكار فى كتاب النسب إلى شعب ، ثم قبيلة ؛ ثم عمارة (بكسر العين) ثم بطن ، ثم فخذ ثم فصيلة. وزاد غيره قبل الشعب الجذم ، و بعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة فمثال الجذم عدنان ، ومثال الشعب مُضر ، ومثال القبيلة كنانة ، ومثال العمارة قريش ، وأمثلة ما دون ذلك لا تخفى . قال : ويقع فى اعتباراتهم أشياء مرادفة لما تقدم كقولهم حىّ وبيت وعقيلة وأرومة وجرثومة ورهط وغير ذلك . ورتبها محمد بن أسعد النّسابة المعروف بالحرانى جمعها وأردفها فقال : جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيره فى أثنائها ثلاثة وهى : بيت وحى وجماع . فزادت على ما ذكر الزبير عشرة . وقال أبو إسحق الزجاج : القبائل للعرب كالأسباط لبنى إسرائيل ، ومعنى القبيلة الجماعة . ويقال لكل ما جمع على شىء واحد قبيلة أخذا من قبائل الشجرة وهو غصونها . أو من قبائل الرأس وهو أعضاؤها ، سميت بذلك لاجتماعها ، والمراد بالشعوب فى الآية النسب البعيد . وهو قول مجاهد أخرجه الطبرى عنه . وذكر أبو عبيدة مثال الشعب مضر وربيعة ، ومثال القبيلة من دون ذلك . وأنشد لعمرو بن أحمر :

من شعب هَمْدانَ أو سعد العشيرة أو ... خولان أو مَذْحِجٍ هاجوا له طرَبا[1]

(١) همدان : بسكون الميم قبيلة باليمن وجميع ما فى الصحابة والرواة ومصنفات الحديث هو نسبة لهذه القبيلة . وأما همذان البلد فهى بالتحريك والذال المعجمة ولا ينسب اليها احد من الرواة لا فى الصحيحين ولا فى غيرهما

ويقال : المراد بالشعوب فى الآية بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، والله أعلم . وترتيب الإمام الماوردىّ هو الأولى بالاعتبار ، وكأن العرب رتبوا ذلك على بنية الإنسان فجعلوا الشعب منها بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس ، وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض يتصل بها الشئون وهى القنوات التى فى القحف لجريان الدمع : وقد ذكر الجوهرى أن قبائل العرب إنما سميت بقبائل الرأس وجعلوا العمارة تلو ذلك إقامة للشعب ، والقبيلة مقام الأساس من البناء ، وبعد الأساس تكون العمارة ، وهى بمثابة العنق والصدر من الإنسان وجعلوا البطن تلو العمارة لأنها الموجود من البدن بعد العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن لأن الفخذ من الإنسان بعد البطن ، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لأنها النسب الأدنى الذى يفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم . إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى (وفصيلته التى تؤويه) أى تضمه إليها ولا يضم الرجل إلا أقرب عشيرته . واعلم أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات الست المتقدمة : القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة ثم الفخذ والفصيلة . وربما عبر عن كل واحد من الطبقات الست بالحى . إما على العموم مثل أن يقال حىٌّ من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان . ثم إن ترتيب العرب فى الديوان إذا أثبتوا فيه كالترتيب الذى فعله عمر رضى الله تعالى عنه حين دونهم فإنهم تجمعهم أنساب وتفرق بينهم أنساب ، فترتبت قبائلهم بالقربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بالترتيب فى أصل النسب ثم بما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، وعدنان تجمع ربيعة ومضر فقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم ، وقريش تجمع بنى هاشم

من كتب الحديث الستة .. وبنو سعد العشيرة : حى من كهلان من القحطانية وجعل فى العبر سعد العشيرة بطنا من مذحج ، ومذحج قبيلة من كهلان . وخولان بطن من كهلان من القحطانية .

وغيرهم فقدم بنى هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب إليهم حتى استوعب قريشاً ثم بمن يليهم فى النسب حتى استوعب جميع عدنان ، والله يختص بفضله من يشاء .

ما يجب للناظر فى علم الأنساب

لابد للناظر فى علم الأنساب من أمور منها ما ذكره الجوهرى أن القبيلة هى بنو أب واحد . وقال ابن حزم . جميع قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل ، وهى : تَنُوخ ، والعُتْق ، وغسّان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون[1] نعم الأب الواحد قد يكون أبا لعدة بطون ؛ ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد فيحدث عن بعضهم قبيلة أو قبائل فينسب إليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر ولده فينسب إلى القبيله الأولى ومنها إذا اشتمل النسب على طبقة فأكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن ينسب إلى الجميع فيجوز لبنى هاشم أن ينسبوا إلى هاشم وإلى قريش وإلى مضر وإلى عدنان . فيقال فى أحدهم الهاشمى والقرشى والمضرى والعدنانى . بل قد قال الجوهرى إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وبرة الكلبى استغنيت أن تنسبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى مثل أن يقال الأموى العثمانى وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا فيقال العثمانى الأموى ومنها : أن الرجل قد ينضم إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينسب إليهم فيقال فلان حليف بنى فلان أو مولاهم . ومنهـا : أن الرجل إذا كان من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرى

---

(١) أقول : وذلك أن تنوخا اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ؛ فسموا بتنوخ أخذا من التنخ وهو المقام ، والعتق جمع اجتمعوا على النبى صلى الله عليه وسلم فظهر بهم فأعتقهم فسموا بذلك ، وغسان عدة بطون من الاردنزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به .

جاز أن ينسب إلى قبيلته الأولى وأن ينسب إلى القبيلة التى دخل فيها ، وأن ينسب إلى القبيلتين جميعاً مثل أن يقال التميمى ثم الوائلى ، أو الوائلىّ ثم التميمى وما أشبه ذلك . ومنها : أن القبائل فى الغالب تسمى باسم الأب الوالد للقبيلة ، كربيعة ومضر والأوس والخزرج ونحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة باسم أم القبيلة : كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى باسم خاصة (خصت أهل تلك القبيلة) ونحو ذلك وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان ، فإنهم نزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به . وربما وقع اللقب الواحد عليه فسموا به . وقيل غير ذلك مما هو مذكور فى كتب الأنساب . ومنها : إذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان كالحرث والحرث مثلا وأحدهما من ولد الآخر وبعده فىُ الوجود عبروا عن الوالد السابق منهما بالأكبر وعن اللاحق بالأصغر .

مذهب العرب فى أسماء القبائل

أسماء القبائل فى اصطلاح العرب على خمسة أوجه (الأول) أن يطلق على القبيلة لفظ الأب : كعادٍ وثمُودَ ومَديَنَ ، ومن شاكلهم ، وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى (وإلى عادٍ . وإلى ثمُودَ . وإلى مَديَنَ) يريد بنى عاد ، وبنى ثمود ، وبنى مدين ، ونحو ذلك ، وأكثر ما يكون ذلك فى الشعوب والقبائل العظام لا سيما فى الأزمان المتقدمة بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك (الوجه الثانى) أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان . وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ والقبائل الصغار ، لاسيما فى الأزمان المتأخرة (الوجه الثالث) أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيِّين والجعافرة ونحوهما ، وأكثر ما يكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم (الوجه الرابع) أن يعبر عنها بآل[1] فلان : كآل ربيعة ، وآل فَضْل ، وآل علىّ وما أشبه ذلك ؛ وأكثر ما يكون هذا فى الأزمنة المتأخرة ، لاسيما عرب الشام (الوجه الخامس) أن يعبر عنها

(١) المراد بالآل الاهل .

بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة : (كقولهم أولاد زعازع ، وأولاد قريش ونحو ذلك) .

مذهب العرب فى التسمية والكنى

الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلاب وحَنْظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء ، كفلاح ونجاح ونحوهما والسبب فى ذلك ما حُكى أنه قيل لأبى الدقيش[1] الكلابىّ : لِمَ تسُمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء معدة للأعداء ؛ فاختاروا لهم شر الأسماء والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء) كذا فى كتاب (نهاية الأرب) وقال الحافظ ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة : كانت للعرب مذاهب فى تسمية أولادهم ، فمنهم من سمى تفاؤلاً بالظفر على أعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وغارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق . ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك . ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلاً بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل . ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه كائناً ما كان من سبع أو ثعلب أو ضبّ أو ظبى أو كلب أو حشيش أو نحو ذلك وكان القوم على ذلك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام انتهى . وغالب أسماء العرب كما فى النهاية منقولة عما يدور فى خِزَانة خَيالهم مما يخالطونه و يجاورونه ؛ إما من الحيوان كأسد ونَمِر ، وإما من النبات كنبت وحنظلة ، وإما من الحشرات كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك . ورأيت فى سبب

---

(١) أهمله فى الأصل وصوابه الاعجام .

تسمية الموضع الذى قتل فيه الزبير بن العوام (بوادى السباع) وهو من نواحى الكوفة بين البصرة ومكة : أن أسماء بنت دُرَيْم بن القَيْن بن أهْوَد بن بَهراء كان يقال لها أم الأشْبُع وولدها بنو وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة يقال لهم السباع ، وهم كلب وأسد والذئب والفَهد وثعلب وسرحان ونَزْك[1] (بفتح النون وسكون الزاى وهو الحريش[2] ويقال له الكَرْكَدَّن[3] له قرن واحد يحمل الفيل على قرنه على ما قيل) وخثعم (وهو الضبع) والفِزْر (وهو البير نوع من الضباع دون جرم الفهد إلا أنه أشد وأجرأ منه) وعنزة (وهى دابة طويلة الخطم تُعَدُّ من رؤوس السباع تأتى الناقة فتدخل خطمها فى حيائها وتأكل ما فى بطنها ، وتأتى البعير فتملخ عينيه) وهر وضَبُع والسِمْع (بالكسر وهو ولد الذئب من الضبع) ودَيْسَم (وهو الثعلب وقيل ولد الذئب) وتمس (وهو دويبة فوق ابن عرس يأكل اللحم وهو أسود ملمع ببياض) والعِفْر (جنس من البَبْر) وسيد[4] والدُّلْدُل[5] والظربان[6] (دويبّة) منتنة الفساء) ووعْوَع (وهو ابن آوى الضخم) وكانت تنزل مع أولادها بهذا الوادى فسمى (وادى السباع) بأولادها تغليباً ، فإن السباع جمع سبع ، وهو يقال على ماله ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها مثل الأسد ، والذئب والنمر والفهد فأما الثعلب فإنه وإن كان له ناب فإنه ليس بسبع لأنه لا عدوان له وكذلك الضبع قال ابن حبيب : مرّ وائل بن قاسط بأسماء هذه أم ولد وبَرَة ، وكانت امرأة جميلة وبنوها يرعون حولها فهمّ بها ، فقالت له : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً فقال : أجل ! فقالت : لئن لم تنته لأستصرخنّ عليك أسبعى ، فقال ما أرى بالوادى أحداً ! فقالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك ، وأعانتنى عليك ! فقال : أو تفهم السباع عنك ؟ فقالت : نعم : ثم رفعت صوتها : يا كلب ! يا ذئب !

(١) قال المجد : النزك بالكسر ويفتح ذكر الضب والورل .
(٢) دويبة قدر الاصبع بارجل كثيرة او هى دخال الاذن .
(٣) مشددة الدال والعامة تشدد النون (٤) ذئب (٥) القنفذ او عظيمه او شبهه . (٦) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٢٧ .

يا فهد ! يا دُبّ ! يا سرحان ! يا أسد ! فجاءوا يتعادون ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه ولم ترأن تفضح نفسها عند بنيها فذبحوا له وأطعموه ، فقال وائل : ما هذا إلاّ وادى السباع ! فسمى بذلك انتهى ، وقد ذكرت هذه القصة أيضا فى القاموس مع اختصار . . ومنهم من كان يسمى بعبد العزّى وعبد ودّ وعبد مَناة ونحو ذلك مما فيه إضافة العبودية لأحد أصنامهم ، ومنهم من كان يسمى ببيت شعر ونحوه مما يطول ذكره (وأما الكنى) فقد وقعت فى كلامهم قديماً وحديثا ، وكانت العرب تقصد بها التعظيم فإن بعض النفوس تأنف أن تخاطب باسمها ولذلك يجاء بها للانسان فى مقام الإكرام والاحترام كما يشير إلى ذلك قول الشاعر :

أُكنّيه حينَ أُناديه لأُكرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْأَةَ اللقبا[1]

وأصل الكنية من الكناية . وهو أن تتكلم بالشىء وتريد به غيره . ويقال كنيت وكنوت بكذا وعن كذا كنية وكنية والجمع الكنى واكتنى فلان بكذا ويكنى بكذا ، وكنيته أبا كذا وبأبى كذا . وجاء التخفيف والتثقيل والتخفيف أكثر وفلان كَنِىُّ فلان إذا شاركه فى الكنية كما يقال سميّه إذا شاركه فى الاسم (وسبب الكنى فى العرب) أن ملكاً من ملوكهم الأول ولد له ولد توسم فيه أمارات النجابة فشغف به فلما نشأ وترعرع[2] وصلح لأن يؤدب أدب الملوك أحبّ أن يفرد له موضعاً بعيداً من العمارة يكون فيه مقيماً يتخلّق بأخلاق مؤدبيه ، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه ، فبنى له فى البرية منزلا ونقله إليه ورتب له من يؤدبه بأنواع الآداب العلمية والملكية ، وأقام له

---

(١) نسبه ابو تمام فى مختار اشعار قبائل العرب لبعض الفزاريين ولم يسم قائله ، واورد بعده هذا البيت :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى انى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

والسواة منصوب على انه مفعول معه ، واللقب منصوب بألقبه . والملاك : اسم لما يملك به الشىء . والشيمة : الغريزة والطبيعة . والأدب : اسم لما يفعله الانسان فيتزين به فى الناس . (٢) أى تحرك ونشأ .

ما يحتاج إليه من أمر دنياه ، ثم أضاف إليه من هو من أقرانه وأضرا به من أولاد بنى عمه وأمرائه ليؤنسوه ، ويتأدبوا بآدابه ، ويحببوا له التأدب بموافقتهم له عليه وكان الملك فى رأس كل سنة يمضى إلى ولده ويستصحب معه من أصحابه من له ولد عند ولده ليبصروا أولادهم ، فكانوا إذا وصلوا إليهم سأل ابن الملك عن أولئك الذين جاءوا مع أبيه ليعرفهم بأعيانهم ، فيقال له : هذا أبو فلان وهذا أبو فلان ! يعنون آباء الصبيان الذين هم عنده ، فكان يعرفهم بإضافتهم الى أبنائهم ، فمن هنالك ظهرت الكنى فى العرب ، ثم انتشرت واتسعت حتى صاروا يكنون كل إنسان باسم ابنه ، ثم اتسع الأمر فصاروا يكنون من لم يكن له ابن وكان له بنت ببنته كما قيل لمسروق بن الأجدع : أبو عائشة ؛ ومن لم يكن له ابن ولا بنت يكنونه بأقرب الناس إليه ، كما كنى النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله ابن الزبير وهو صبى بأبى بكر وهو جد لأمه أسماء ، ثم لما ولد له ولد سماه خبيباً ، وتكنى به فصار له كنيتان ، وجروا فى كنى النساء بالأمهات هذا المجرى فقالوا : أم سلمة ، وأم زينب فى الكنى بالأولاد ، وأم عبد الله فى كنية عائشة (رضى الله تعالى عنها) يعنون عبد الله بن الزبير وهو ابن أختها أسماء حيث لم يكن لها ولد ثم لما شارك الناس فى الولادة باقى الحيوانات كنوا ما كنوا منها بالآباء والأمهات كأبى معاوية لابن آوى ؛ وأم عامر للضبع ، وأجروها فى ذلك مجرى الأناسى ، وكذلك فعلوا فى إضافة الأبناء والبنات إكراماً واحتراماً لهم بإضافتهم الى آبائهم مع ترك أسمائهم فقالوا : ابن عباس ، وابن عمر ، وكانوا يقولون للحسين : ابن بنت رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) كرامةً له بأمه ، وأجروا غير الأناسى مجراها فى ذلك فقالوا : ابن قترة للحية ، وبنت حذف لضرب من غنم الحجاز ، ولما توسعوا فى إجراء الحيوانات العجم مجرى الناس فى الكنى والأبناء حملوا عليها بعض الجمادات فأجروها مجراها ، فقالوا : أبو جابر للخبز ، وأم قار للداهية ، وابن ذكاء للصبح ، وبنت الأرض للحصاة ، ثم إنهم يجروه على سَنَنٍ واحد

فكنوا بالآباء مذكراً على الأصل فقالوا للذئب : أبو جعدة ، وللنمر أبو جهل ، وكنوا بها مؤنثاً من الجمادات فقالوا للنار : أبو سريع ، وأبو حباحب ، وكذلك فى الأمهات فقالوا للقوس : أم السهام ، ولجبل معروف أم سخل ، وجروا فى البنين والبنات هذا المجرى فقالوا للغراب : ابن دَأية ، ولطائر معروف بنت الماء ، وقد جروا فى الأسماء والكنى على قسمين : معتاد ، ونادر ، فمن المعتاد الكنية بالأولاد ، والنادر كأبى تراب لعلىّ (كرم الله تعالى وجهه) واستعملوهما أيضاً فى ذى وذات ، فمن المعتاد ذو الجلال ، وذات البروج ، ومن النادر ذو النون ، وذات النطاقين ، ومن الكنى والأبناء ما جعل علماً للمسمى لا لمعنى فيه ، ومنها ما جعل صفة لمعنى فيه . وينقسم ما سموه من هذه الأسماء والكنايات والإضافات إلى ثلاثة أقسام : الأول ما يلزم (ألْ) كأبى الحرث للأسد ، وأبى الحصين للثعلب ، والثانى مالا تدخله أل كأبى جعدة ، وأم عامر ، وابن دأية ، وبنت طَبَق للحية ، والثالث ما يجوز إدخال أل فيه وإسقاطها : كأبى مضاء للفرس ، وأم رئال للنعامة ، وابن ماء لطير الماء ، وقد اتسعوا فى الأم أكثر من اتساعهم فى الأب ، واتسعوا فى الابن والبنت أكثر من اتساعهم فى الأم ، حتى قالوا للقصيدة من الشعر : هى ابنة ليلها وفلان ابن بطنه ، وابن فرجه ، إذا كان همه فيهما ، وابن يومه أى لا يتفكر فى غده وقالوا هؤلاء أبناء فارس والروم ، وأبناء مكة وخراسان ، ولم يستعملوا هذا فى الآباء والأمهات ، ولم يقصروا هذا التوسع فى هذه الأسماء خاصة ، بل أجروه فى غيرها ، فقالوا لمن صاحب شيئاً ، أو عاناه ، أو أكثر من استعماله : هو أخوه وأخته ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخا الحرب لبّاساً إليها جِلالَها ... وليس بولّاجِ الخوالفِ أعقلا[1]

---

(١) أخو الحرب . المؤاخى والملازم لها ، ولباس : مبالغة فى لابس ، والجلال: بكسر الجيم جمع جل بضمها وهو الدرع . والولاج : الكثير الولوج اى الدخول، والخوالف : جمع خالفة وهى فى الأصل عماد البيت وأراد بها هنا البيت نفسه ، وأعقلا : بالعين المهملة والقاف مأخوذ من أعقل الرجل اذا اضطربت رجلاه من الفزع والخوف وهو حال من الضمير المستتر فى ولاج أو خبر ثان

وقول أبو الأسود الدؤلى فى الخمر والنبيذ :

فإلاَّ يكنها أو تــكنْهُ فإنهُ   أخوها غذته أمه بِلِبانها[١]

ومن الأشخاص من له اسم ولا كنية له وهو الأكثر ، ومن له اسم وكنية وهو دون الأول فى الـكثرة ، ومن يكون له علم وكنية واسم جنس . كأسامة ، وأبى الحرث ، والأسد ؛ ومن له كنية وليس له اسم غيرها : كأبى براقش[٢] لحيوان معروف ، وأم رباح بالباء الموحدة لطائر أغبر أحمر الجناحين والظهر يأكل العنب ، ومن له كنيتان فى حالين : كعامر بن الطفيل كان يكنى فى السلم بأبى علىّ وفى الحرب بأبى عقيل ، ومن يكون له كنيتان أو أكثر فى حالة واحدة وهو كثير وقد ألف الإمام الثعالبى كتاباً حافلا فى الـكنى ، وما يناسبها ، وهو كتاب جليل والله الموفق.

من اشتهر من العرب فى معرفة النسب

كان العرب لمزيد اعتنائها بحفظ الأنساب أكثر الناس معرفةً بها ولم تخلُ قبيلة من قبائلهم من نسّابةٍ يلحق الفروع بأصولها ، وينفى عنها من ليس منها ، حتى كادوا يكونون جميعاً على هذه الصفة . واستيعاب ذكرهم فى هذا المقام مما لايمكن غير أنا نذكر من ضرب به المثل فى هذا الباب . منهم :

دغفل بن حنظلة السروسى من بنى شيبان

فمن أمثالهم « فلان أنسَبُ من دَغْفَلٍ » وهو رجل من بنى ذُهْل بن ثعلبة ابن عُـكابة . كان أعلم أهل زمانه بالأنساب . زعموا أن معاوية سأله عن أشياء

الليس بناء على جواز تعدد خبرها والالف فيه للاطلاق . والبيت للقلاخ بن حزن يمدح نفسه .

(١) قبله :

دع الخمر يشربها الغواة فاننى   رأيت أخاهـا مغنيا لمكانهـا

— يعنى بأخيها نبيذ الزبيب ، يقول : ان لم يكن الزبيبى الخمر أو يكون الزبيبى فانهما أخوان غذيا بلبن واحد ينوب احدهما مناب الآخر .

(٢) طائر صغير برى كالقنفذ اعلى ريشه اغر واوسطه أحمر وأسفله اسود فاذا هيج انتفش فتغير لونه الوانا شتى . قال الشاعر :

كأبى براقـش كل لـــو   ن لونـــه يتخيـــل

فخبّره بها . فقال له : بِمَ علمت ؟ قال : بلسان سَؤول ، وقلب عَقول ، على أن للعلم آفةً و إضاعةً ، ونكَداً واستجاعة فآفته النسيان ، و إضاعته أن تحدث به من ليس بأهله ، واستجاعته أن صاحبه منهوم لا يشْبَع ، ونكده الكذب فيه . وقيل هو دغفل بن حنظلة السدوسى أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً . ووفد على معاوية وعنده قُدامة بن جَراد القُريعى فنسبه دغفل حتى بلغ أباهُ الذى ولده . فقال وولد جَرادٌ رجلين أما أحدهما فشاعر سفيه والآخر ناسك فأيهما أنت ؟ قال : أنا الشاعر السفيه وقد أصبت فى نسبتى وكل أمرى ! فأخبرنى بأبى أنت متى أموت ؟ قال دغفل : أما هذا فليس عندى . وقتلته الأزارقة . قال الميدانىّ عند الكلام على قولهم « إنّ البلاء مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ » روى عن المفضل أن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عباس قال : حدثنى على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب وأنا معه وأبو بكر فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسّابةً فسلم فردوا عليه السلام . فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . فقال : أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : من هامتها العظمى . قال فأى هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : ذهل الأكبر . قال : أفمنكم عوف الذى يقال له « لا حر بوادى عوف » ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم بسطام[1] ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم جساس بن مرة[2] حامى الذمار ، ومانع الجار ؟ قالوا لا . قال : أفمنكم الحوفزان[3] قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة[4] ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال :

---

(١) هو ابن قيس وقصته فى المفاخرة بمحضر من كسرى مشهورة . راجع الاغانى ١٧ — ١٠٦ ، ونهاية الارب النويرى ص ٣٦٦ ، والجزء الأول من هذا الكتاب . (٢) قاتل كليب وقصته مشهورة راجع الجزء الثانى ص ١٥١ (٣) هو الحرث بن شريك — أنظر فهرس الجزء الأول والثانى . (٤) هو عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

أفمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال : فلستم ذهلاً الأكبر أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه غلام قد بقل وجهه[1] يقال له دغفل . فقال : —

إنّ على سائلنا أن نسأله والعبء لاتعرفه أو تحمله[2]

يا هذا ! إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً . فمن الرجل ؟ قال : رجل من قريش قال : بَخٍ بَخٍ[3] أهل الشرف والرياسة ! فمن أى قريش أنت ؟ قال : من تيم بن مرة قال : أمكنت والله الرامى من صفا الثُغْرة[4] أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعاً ؟ قال : لا . قال أفمنكم هاشم[5] الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال : لا . قال : أفمنكم شيبة الحمد[6] مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قمر يضىء فى ليل الظلام الداجى ؟ قال : لا . قال أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل السقاية[7] أنت ؟ قال : لا . قال : فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال دغفل :

صادف درء السيل درءاً يدفعهْ يهيضهُ حيناً وحيناً يصدعهْ

أما والله يا أخا قريش لو تثبت لأخبرتك أنك من زمعات[8] قريش ولست من الذوائب[9] أو ما أنا بدغفل ! قال فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال على رضى الله تعالى عنه : قلت لأبى بكر ؛ لقد وقعت من الأعرابى على باقعة[10] قال : أجل ! إن لكل طامةٍ طامةً و إن البلاء موكّلٌ بالمنطق . . وكما كان هذا الرجل مشاراً إليه بالبنان فى معرفة أنساب العرب كذلك كان فى معرفة الأنواء

---

(١) أى خرج شعر وجهه (٢) ورد فى نهاية الارب للنويرى « والعبء لا نعرفه أو نحمله » فليحقق (٣) بخ : كلمة تقال عند الرضا بالشىء وهى مبنية على الكسر والتنوين وتخفيف فى الاكثر (٤) الثغرة بالضم نقرة النحر بين الترقوتين (٥) ترجمته فى الجزء الثانى ص ٢٨٣ (٦) عبد المطلب بن هاشم (٧) يطلب تفسير هذه الكلمات فى الجزء الثانى ص ٢٨٣ و٢٨٥ .
(٨) الزمع محركة رذال الناس (٩) الرؤساء واهل العز والشرف .
(١٠) هو الرجل الداهية والذكى العارف الذى لا يفوته شىء ولا يدهى.

وعلم السماء ، وسائر علوم العرب ، وأحوال القبائل .

روى الهيثم بن عدى عن عوانة قال : سأل زياد دغفلاً عن العرب . فقال الجاهلية لليمن ، والإسلام لمضر ، والفتنة لربيعة . قال فأخبرنى عن مضر . قال : فاخر بكنانة ، وكابر بتميم ، وحارب بقيس ، ففيها الفرسان والنجوم ، وأما أسد ففيها ذل وكيد . وقيل له : ماتقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء وأعجاز نساء ... فما تقول فى بنى أسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة ... فما تقول فى بنى تميم ؟ قال : حجر أخشن إن صادفته آذاك وإن تركته أعفاك ... فما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث ... فما تقول فى اليمن ؟ قال : سيود أنوك . قال نصر ابن سيار :

إنا وهذا الحى من يمن   عند الفخار أعزةٌ أكفاء
قومٌ لهم فينا دماء جمة   ولنا لديهم أجنة ودماء
وربيعة الأذناب فيما بيننا   لا هم لنا سلم ولا أعداء
إن ينصرونا لا نعز بنصرهم   أو يخذلونا فالسماء سماء[1]

وعن ابن الأعرابى قال . بلغنى أن جماعة وقفوا على دغفلْ النَّسَّابة بعد ما كف فسلموا عليه . فقال : من القوم ؟ فقالوا : سادة اليمن . قال : أمن مجدها القديم ، وشرفها العميم ، كندة ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الطوال قصباً ، الممخضون نسباً ، بنو عبد المدان ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أقودها للزحوف وأخرقها للصفوف ، وأضربها بالسيوف ، رهط عمرو بن معديكرب ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أحضرها قرى وأطيشها قنى ، وأشدها لقى ، رهط حاتم بن عبدالله الطائى ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الغارسون للنخل ، والمطعمون فى المحل ، والقائلون بالعدل الأنصار ؟ قالوا : نعم ! فانظر إلى هذه الفطنة والذكاء . ومنهم .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٣ من طبعة الجمالية .

ورقاء الأشعر

كان أيضاً ممن يضرب به المثل فى معرفة أنساب العرب فمن أمثالهم (أنْسَبُ من ابنِ لسان الحمَّرَة) وهو أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه واسمه ورقاء الأشعر ويكنى أبا كلاب . قال الميدانى . وكان أنسب العرب وأعظمهم كبراً وفى القاموس : وابن لسان الحمرة كسكرة خطيب بليغ نسابة اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشعر ، ومنهم :

زيد بن الكيس النمرى

وهو من بنى عوف بن سعد بن تغلب بن وائل . قال فى القاموس : كان نسابة . وقال أبو عبيدة : إن زيد بن الكيس ممن يقارب دَغْفَلاً فى العلم بالأنساب من العرب . وفيه وفى دغْفَل يقول مسكين بن عامر :

فحكّم دَغفَلاً وارحل إليه ... ولاتدع المطى من الكلال [1]
أو ابن الكيس النَمرِى زيداً ... ولو أمسى بمُنْخَرِق الشمال [2]

ومنهم :

النخار بن أوس بن الحرث بن هذيم القضاعى

كان هذا الرجل أيضاً من المقدمين فى علم النسب . قال أبو عبيدة : إنه أنسب العرب . وفى القاموس وشرحه : وكشداد النخار بن أوس بن أبير القضاعى أنسب العرب وهو من ولد سعد هذيم ودخل على معاوية فازدراه وكان عليه عباءة فقال . إن العباءة لاتكلمك . انتهى .

وروى عن أبى بكر بن دريد قال . حدثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة قال . كان أبو زُرارة بَجّال بن حاجب العلْقمى من ولد علقمة بن زرارة خرج يريد

---

(١) الاعياء (٢) مهب الشمال .

بنى شيبان (١) بن علقمة حاجاً فرأى حين شارَفَ البلد شيخاً يخفه ركب على إبل عِتاق برحال مِيس (٢) مُلْبسةٍ أدَما . قال : فَعَدَلْت وسلمت عليهم وبدأت به وقلت : من الرجل ومن القوم ؟ فأرَمّ القوم (٣) ينظرون إلى الشيخ هَيبةً له . فقال الشيخ : رجل من مَهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، فقلت : حيّاكم الله ! وانصرفت . فقال الشيخ قفْ أيها الرجل نَسبتنا فانتسبنا لك ثم انصرفت ولم تكلمنا ، قال أبو بكر : وروى السكن بن سعيد عن محمد بن عباد شاَمْتَنا مُشاَمَّة الذئب الغنم ثم انصرفت ! قلتُ ما أنكرتُ سوءاً ، ولكننى ظننتكم من عشيرتى فأناسبكم فانتسبتم نسباً لا أعرفه ولا أراه يعرفنى . قال : فأمال الشيخ لثامه ، وحَسرَ عمامته ، وقال : لعمرى لئن كنت من جِذْم من أجذام العرب لأعرفنك فقلت : فإنى من أكرم أجذامها . قال : فإن العرب بنيت على أربعة أركان : ربيعة ومُضَر ، واليمن ، وقضاعة ، فمن أيهم أنت ؟ قلت : من مضر . قال : أفمن الأرحاء أنت أم من الفرسان ؟ فعلمت أن الأرحاء خِنْدِف . وأن الفُرسان قيس . قلت : من الأرحاء . قال : فأنت إذاً من خندف . قلت : أجَلْ قال : أفمن الأرنبة أم من الجمجمة ؟ فعلمت أن الأرنبةَ مُدْرِكَةُ ، وأن الجمجمة طابخة ، فقلت : من الجمجمة . قال : فأنت : إذاً من طابخة . قلت: أجل ! قال : أفمن الصميم أنت أم من الوشيظ (٥) ؟ فعلمت أن الصميم تميم ، وأن الوشيظ الرباب . قلت من الصميم . قال : فأنت إذاً من تميم . قلت : أجل ! قال : أفمن الأحلمين أم من الأكرمين أم من الأقلين ؟ فعلمت أن الأحلمين عمرو بن تميم ، وأن الأكرمين زيد مناة ، وأن الأقلين الحرث بن تميم . قلت : من الأكرمين قال : فأنت إذاً من زيد مناة . قلت : أجل ! قال أفمن الجدود ، أم من البحور ، أم من الثماد ، (٦) فعلمت أن الجدود مالك ، وأن البحور سعد ،

---

(١) وفى نسخة : خرج يزيد بن شيبان .. الخ (٢) ضرب من الشجر يعمل منه الرحال (٣) سكتوا (٤) الجذم بالكسر الأصل ويفتح
(٥) الخسيس من الرجال (٦) هو فى اللغة الماء القليل الذى لا مادة له .

وأن الثماد امرؤ القيس بن زيد مناة . فقلت : من الجدود ! قال : فأنت إذاً من بنى مالك . قلت : أجل ! قال أفمن الذُّرَى أم من الأرداف ؟ فعلمت أن الذرى حنظلة ، وأن الأرداف ربيعة ومعاوية وهما الكُرْدُوسان . قلت : من الذرى . قال : فأنت إذاً من بنى حنظلة . قلت : أجل ! قال : أفمن البدور أنت أم من الفرسان أم من الجراثيم ؟ فعلمت أن البدور مالك ، وأن الفرسان يربوع ، وأن الجراثيم البراجم . فقلت : من البدور : قال : أفأنت إذاً من بنى مالك بن حنظلة . قلت : أجل ! قال : أفمن الأرنبة أم من اللحيين أم من القفا ؟ فعلمت أن الأرنبة دارم ، وأن اللحيين طُهَيَّة والعَدَوِيَّة ، وأن القفا ربيعة بن مالك بن حنظلة . قلت : من الأرنبة . قال : فأنت إذاً من دارم . قلت : أجل ! قال : أفمن اللُّباب ، أم من الهِضاب ، أم من الشهاب ؟ فعلمت أن اللباب عبد الله ، وأن الهضاب مجاشع ، وأن الشهاب نهشل . قلت : من اللباب . قال : فأنت إذاً من بنى عبد الله ، قلت : أجل ! قال : أفمن البيت أم من الزَّوافر ؟ فعلمت أن البيت بنو زرارة ، وأن الزوافر الأحلاف قلت : من البيت قال : فأنت إذاً من بنى زرارة . قلت : أجل ! قال : فإن زرارة ولد عشرة : حاجباً : ولقيطاً . وعلقمة . ومعبداً . وخزيمة . ولبيداً . وأبا الحرث . وعمراً . وعبد مناة . ومالكا فمن أيهم أنت ؟ قلت من بنى علقمة . قال : فإن علقمة ولد شيبان ولم يلد غيره فتزوج شيبان ثلاث نسوة : مَهْدد بنت حُمْران بن بشر بن عمرو بن مرثد فولدت له يزيد ، وتزوج عِكْرِشة بنت حاجب بن زرارة بن عُدَس فولدت له المأمور [1] وتزوج عمرة بنت بشر بن بنت عمرو بن عدس فولدت له المُقْعَد فلأيتهن أنت ؟ قلت : لمهدد . قال يا ابن أخى ما افترقت فرقتان بعد مدركة إلا كنت فى أفضلهما حتى زاحمك أخوالك فإنهما أن تَلِدَنى أمها أحب إلى من أن تلدنى أمك ! يا ابن أخى أتُرانى عَرَفْتُك ؟ قلت : أى وأبيك أىّ معرفة ! فلله تعالى در هذه النسابة وما بلغه

(١) كذا بالأصل وحرره .

من العلم ومعرفة الناس وأحوالهم ولو كان أباً لهم لربما اختلفت عليهم أحوال بعضهم وهم بهذا العدد الكثير ، والجم الغفير ، ولكن المواهب الإلهية . والعنايات الربانية ، إذا توفق لها أحد سهلت عليه صعاب الأمور ، و بلغ مالم يبلغه الساعى و إن استوعب بمسعاه الدهور . ومنهم :

صعصعة بن صوحان

قد كان صعصعة هذا من المشاهير بمعرفة أنساب العرب ، ومن المقدمين بعلم أحوال قومه ، فى الجاهلية ، وقد أدرك الإسلام . ففى كتاب الأمالى[١] روى عن أبى بكر بسنده إلى الشعبى قال : دخل صعصعة بن صوحان على معاوية رضى الله عنه أول ما دخل عليه وقد كان يبلغ معاوية عنه فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : رجل من نِزار . قال : وما نزار ؟ قال : إذا غزا انْحَوَش ، و إذا انصرف انكَمَش ، و إذا لقِيَ افترش . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من ربيعة قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يغزو بالخيل ، ويُغير بالليل ، ويَجُود بالنَّيل . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أسد . قال : وما أسد ؟ قال : كان إذا طالب أفضى[٢] و إذا أدرك رضى ، و إذا آبَ أنضى[٣] . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جَديلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النِّجاد[٤] ، و يُعِدُّ الجياد ، و يُجيد الجلاد[٥] قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من دُعْمِىٍّ . قال : وما دعمى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشراً قاطعاً ، وخيراً نافعاً . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أقصى . قال : وما أقصى ؟ قال : كان يَنزل القارات[٦] ، وَيكثر الغارات ويحمى الجارات . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال : وما

---

(١) يريد أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٠ (٢) وصل وبلغ (٣) أنضى بعيره : هزله بالسير وانضى الثوب أبلاه وأخلقه بكثرة اللبس (٤) بالكسر حمائل السيف وفلان طويل النجاد كناية عن انه طويل القامة (٥) المضاربة والمقاتلة (٦) جمع قارة وهى الجبيل الصغير .

عبد القيس ؟ قال : أبطال ذادة ،[١] جَحاجحة[٢] قادة ، صناديد[٣] سادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ذا رماح مُشْرَعة[٤] ، وقدور مُترَعة[٥] ، وجفان[٦] مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال من لُكَيْز . قال : وما لكيز ؟ قال كان يباشر القتال ، ويعانق الأبطال ، ويُبَدد الأموال ، قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجل . قال : وما عِجْل ؟ قال : الليوث الضراغمة[٧] ، الملوك القماقمة[٨] ، القروم القشاعمة[٩] ، قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال : كان يسعر الحرب ، ويجيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال: الهمام للهمام ، والقَمْقام للقَمْقام . قال معاوية : والله ما تركت لهذا الحى من قريش شيئاً . قال : بل تركت أكثره وأحبه قال : وما هو ؟ قال تركت لهم الوَبَر والمدَر ، والأبيض والأصفر ، والصفا ، والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمنبر ، والمُلْكَ إلى المحشر . فقال : أما والله لقد كان يسوؤنى أن أراك أسيراً . فقال : وأنا والله لقد كان يسوءونى أن أراك أميراً ، ثم خرج فبعث إليه فرده ووصله وأكرمه . ولصعصعة هذا أخبار كثيرة يطول ذكرها . ومنهم :

عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

وهو النسابة الشهير ، وصاحب الفهم الغزير ، روى عن أبى بكر قال : أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن العباس بن هشام قال : سأل معاوية بعد الاستقامة عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وكان عبد الحجر وفَدَ على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسماه عبد الله فقال له : كيف علمك بقومك ؟ قال .

(١) من الذود وهو الطرد والدفع (٢) جمع جحجح وهو السيد .
(٣) جمع صنديد وهو السيد الشجاع أو الحكيم أو الجواد أو الشريف
(٤) مسددة (٥) ممتلئة (٦) جمع جفنة وهى اناء (٧) جمع ضرغام وهو الأسد القوى الشديد (٨) جمع قمقام وهو السيد (٩) القروم : السادة ، والقشاعمة جمع قشعم وهو المسن من الرجال .

كعلمى بنفسى ! قال : ما تقول فى مُراد ؟ قال : مُدْرِكو الأوتار[١] ، وحماة الذِّمار[٢] ومحرِزو الخِطار[٣] . قال : فما تقـول فى النَّخَع ؟ قال : مانعو السِّرْب ، ومُسْعِرو الحرب[٤] ، وكاشفو الـكرب . قال : فما تقول فى بنى الحرث بن كعب ؟ قال فرّاجُوا اللّـكاك[٥] ، وفُرسان العراك ، ولزاز الضكاك ، تَرَاكِ تَرَاكِ[٦] . قال : فما تقول فى سعد العشـيرة ؟ قال : مانعو الضيم ، وبانو الرِّيم[٧] ، وشافو الغيم[٨] . قال : ما تقول فى جُعْفى ؟ قال : فرسان الصباح ، ومعملو السلاح ، ومبارزو الرياح ، قال : ما تقول فى بنى زَبيد ؟ قال : كماة أنجاد ، سادات أمجاد ، وُقُر عند الذِّياد ، صُبُر عند الطراد ، قال ما تقول فى جَنْب ؟ قال : كُـفاة يمنعون عن الحريم ، ويفرجون عن الـكظيم[٩] . قال . فما تقول فى صُداء ؟ قال : سمام الأعداء ، ومَساعير الهيجاء ، قال : فما تقول فى رَهاء ؟ قال : ينهنهون عادية الفوارس[١٠] . ويَرِدُون الموت وِرْدَ الخوامس[١١] . قال : أنت أعلم بقومك !

ومن أمثال العرب قولهم : أنسب من كثيِّر

أنسب هنا من النسيب وهو ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل . وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء ، والصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه ، وقولهم « أنسب من كثير » أخذ من قول الشاعر :

وكأنَّ قُسًّا فى عُـكاظ يخطُب   وابن المقفَّع فى اليتيمة يُسْهِبُ[١٢]

---

(١) جمع وتر وهو الذحل (٢) كل ما حميته فهو ذمار (٣) الشرف
(٤) يقال « فلان مسعر حرب » أى هو آلة فى ايقاد الحرب (٥) الزحام .
(٦) الضكاك : مثل اللكاك سواء (٧) الريم : الدرجة ، قال ابو عمرو بن العلاء : أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل فقال لى رجل منهم « اسمك فى الريم » أى أعل فى الدرجة (٨) العطش (٩) المكظوم وهو الذى قد رد نفسه الى جوفه (١٠) ينهنهون : يكفون (١١) الخمس بالكسر من أظماء الابل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهى ابل خوامس (١٢) قس : هو ابن ساعدة الايادى الخطيب المشهور — ترجمته فى الجزء الثانى ص ٢٤٤ وعكاظ : سوق من اسواق — انظر فهرس الجزءين : ١ و٢ وابن المقفع : هو احد فحول البلاغة الذين عبدوا للناس طريق الترسل ورفعوا لهم معالم صناعة الانشاء . ولد حوالى سنة ١٠٦ هـ ونشأ بالبصرة على دين أبيه (المجوسية) ثم أسلم على =

وكأن ليلى الأخْيَليّةَ تندبُ   وكُثيِّرَ عزّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِبُ[1]

قال الجمحي : كان لكثير فى النسيب نصيب وافر ، وكان له من فنون الشعر ما ليس لجميل ، واسمه (بضم الكاف وفتح المثلثة وكسر الياء المشددة التحتية) وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة بن الأسود بن عامر ، وقال اللخمى : هو كثير بن أبى جمعة . وكانت أمه جمعة بنت الأشيم ، وكان الأشيم يكنى بابنته هذه فلذلك قيل كثير بن أبى جمعة ، وهو خزاعى ، وأبو خزاعة الصلت بن النضر بن كنانة . وفى ذلك يقول كثير :

أليس أبى بالنضر أم ليس والدى   لكل نجيب من خزاعة أزهرا ؟

فحقق كثير أنه من قريش . وقيل إنه أودىّ من قحطان وهو شاعر حجازى من شعراء الدولة الأموية . ويكنى أبا صخر . واشتهر بكثير عزة وهى محبوبته ، وغالب شعره مشبب بها ، وهى كما قال ابن الكلبى : عزة بنت حُميد (بضم المهملة) ابن حفص من بنى حاجب بن غفار ، وكنيتها أم عمرو الضَّمْرِيَّة نسبة إلى قبيلة ضمرة ، وكثيرا ما يطلق عليها الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى كقوله من قصيدة :

خليلى ! إنّ الحاجبيةَ طَلَّحتْ   قلوصَيْكما وناقتى قد أكلت[2]

قال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : بعثت عائشة بنت طلحة بن عبد الله إلى كثير : يا ابن أبى جمعة ما الذى يدعوك إلى ما تقول من الشعر فى عزة

يد عيسى بن على عم الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى ايام ولايته على كرمان وتسمى (عبد الله) بدل (روزبة) ، ومات قتلا بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة لاتهامه بالزندقة وكيده للاسلام . ترجم ابن المقفع كتبا عدة من الفارسية الى العربية من أشهرها كتاب كليلة ودمنة وله كتاب الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، والدرة اليتيمة ، وطبع الأدب الكبير معنونا الدرة اليتيمة خطأ ثم طبع فى مصر مسمى باسمه الحقيقى ..

(١) ليلى الاخيلية : شاعرة مشهورة . كان توبة بن الحمير يهواها وخطبها الى أبيها فأبى أن يزوجه اياها — والبيتان لأبى تمام فى الحسن بن وهب .

(٢) طلحت : أتعبت واجهدت ، والقلوص : الناقة الفتية .

وليست على ما تصف من الجمال ؟ لو شئت صرفت ذلك إلى من هو أولى به منها أنا أو مثلى . و إنما أرادت تجربته بذلك . فقال :

إذا وصلتنا خـلة كى تزيلها أبينا وقلنا الحاجبيـة أولُ
لها مهل لا يستطاع دراكه وسابقة مِلْحُب لا تتحول(١)
سَنُوليك عرفاً إن أردتِ وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوْصَلُ !

فقالت : والله لقد سميتنى لك خلة وما أنا لك وعرضت علىّ وصالك وما أريد ! هلاّ قلت كما قال جميل :

يارب عارضة علينـا وصلها بالجد تخلطهُ بقول الهـازل
فأجبتها بالرفق بعـــد تستّرٍ حبى بثينةَ عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى كقدر قُلامةٍ وصلتك كتبى أو أتتك رسائلى(٢)

وروى القالى فى أماليه عن العتبى فقال : دخلت عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت : نعم ! قال لها : أ تَرْوِين قول كثير :

وقد زَعَمَتُ أنى تغيَّرْتُ بعدَها ومن ذا الذى يا عَزّ لا يتغَيَّرُ ؟
تغير جسمى والخليقة كالتى عهدتِ ولم يُخبر بسرِّك مخبرُ

قالت : إنى لا أروى هذا ولـكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ
صَفُوحاً فما تلقاك إلا بخيـلةً فمن ملَّ منها ذلك الوصل ملَّتِ(٣)

وروى ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : أن عائشة بنت طلحة قالت لعزة أرأيت قول كثير :

قضى كل ذى دينٍ فوفى غريمه وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

---

(١) ملحب : من الحب (٢) القلامة بالضم : المقلومة اى المقطوعة من طرف الظفــر .
(٣) يروى « صفوح » موضع « صفوحا » والصفوح المعرض

ما كان ذلك الدين ؟ قالت : وعدته قبلة فتحرجت منها ! فقالت اقضيها وعلى إثمها ! وإنما صغر اسمه لشدة قصره وحقارته . قال الوقاصى : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه . وهجاه الحر بن الكنانى بقوله :

قصيرٌ قميصٌ فاحشٌ عند بيتهِ يعضُّ القُراد باستِهِ وهو قائمُ (١)

وكانت وفاته فى خلافة يزيد بن عبد الملك بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام . قال جويرة بن أسماء : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد فقال الناس : اليوم مات أفقه الناس وأشعر الناس ! ولم يتخلف رجل ولا امرأة عن جنازتيهما . وذلك فى سنة خمس أو سبع ومائة ، وغلبت النساء على جنازة كثير . وقد أطنب الأصبهانى فى الأغانى فى ترجمته . والمقصود : أن لفظ أنسب فى المثل من النسيب لا من النسب . وكذلك قولهم « أنسب من قطاة » هو من النسبة وذلك أنها إذا صوّتت فإنها تنتسب لأنها تصوت باسم نفسها فتقول قطا قطا . والقطاة طير معلوم ، وهى مشهورة بسرعة الطيران والله أعلم .

علم العرب بالأخبار

من تتبع شعر العرب واستقراه ، ووقف على ما قالوه من مثل واستقصاه ، تبين له ما كان للعرب الأولين ، من اليد الطولى والقدم الراسخة فى معرفة أخبار الأمم الماضين ، وأخلاقهم وسيرهم ، ودولهم وسياستهم ، لا سيما شعرهم فهو سجل أخلاقهم ، وخزانة معارفهم ، ومستودع علومهم ، وحافظ آدابهم

---

(١) رواه أبو تمام فى ديوان الحماسة هكذا :
(اظن خليلى من تقارب شبخصه * الخ ...)
ولم يسم قائله . والاست: العجز ، ويراد به حلقة الدبر ، والقراد جمع قرادة وهى دويبة تعلق بأعجاز الابل والخيل .

ومَعْدِنُ أخبارهم ، ومرجعهم عند اختلافهم فى الأنساب والحروب ، فلذلك قيل « الشعر ديوان العرب » وعليه قول قائلهم :

الشعر يحفَظُ ما أوْدى الزمان به   والشعر أفخرُ ما ينبى عن الكرم (١)
لولا مقالُ زُهَيرٍ فى قصائده   ما كنت تَعْرِفُ جوداً كان فى هَرِمِ (٢)

ومن شعرهم دون الناس أيامهم وحروبهم : كأبى عبيدة ، وأبى الفرج الأصبهانى ، وغيرهما ، ومن شعرهم ألف أبو حاتم السجستانى (كتاب المعمرين) ! ومن شعوهم ألف من ألف فى أحوال شعرائهم المتقدمين : كـكتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، ومن شعرهم ألف من ألف فى جزيرة العرب ، ووصف ما فيها من البلاد ، والجبال ، والأودية ؛ والوهاد ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أخبار ملوكهم وأحوالهم ، ومن شعرهم أخذ ما ألف فى الحيوان والنبات كـكتاب (الحيوان) للجاحظ ، وكتاب (النبات) لأبى حنيفة الدينورى ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أحوالهم ، وأديانهم ، وما كانوا عليه أيام جاهليتهم ، ومن شعرهم ترجح القول بأن ذا القرنين كان من العرب ، فقد أكثروا ذكره فى أشعارهم (٣) . قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً   بالحِنْوِ فى جدثٍ هُناك مقيم (٤)

وقال الربيع بن ضبيع

والصعب ذو القرنين عمّر ملكه   ألفين أمسى بعدَ ذاك رميا (٥)

وقال قُسّ بن ساعدة

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً   باللَّحْدِ بين ملاعب الأرياح (٦)

---

(١) اودى به : ذهب به . (٢) أخبار هرم فى الجزء الأول من هـذا الكتاب ص ٨٤و٨٥ و٨٦ ، وزهير : هو ابن أبى سلمى الشاعر الشهير وأخباره متفرقة فى هذا الكتاب أنظر الفهارس .

(٣) الشواهد الآتيـة تقدمت فى الجـزء الأول ص ١٧٧ و١٧٨ (٤) قال السهيلى فى الروض الأنف (ج ١ ص ١٩٥) : يريد بالحنو حنو قراقر الذى مات فيه ذوى القرنين بالعراق .

(٥) الرميم العظام البالية (٦) ملاعب الأرياح : مدارجها .

وقال تبع الحميرى

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشدُ (١)

من بعده بِلْقيس كانت عمتى ملكتهمُ حتى أتاها الهُدْهُدُ (٢)

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخاطب قوماً من مضر :

سمُّوا لنا واحداً منكم فنعرفه فى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذى القرنين(٣) يقبله أهل الحجا وأحقّ القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصارىّ

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرىء القيس ، وأوس بن حجر ، وطَرَفَةَ بن العبد وغيرهم ، ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح فى اسمه الصعب ، ومن شعرهم علمنا حال قُس بن ساعدة وما كانت العرب تعتقده فيه حتى عظمته تعظيماً ، وضربت شعراؤها بحكمته الأمثال ، وفى كتاب الإصابة شواهد ذلك ، وهكذا حال لقمان بن عاد الأكبر ، والأصغر ، ولُقَيْم بن لقمان ، فقد كانوا يعظمون شأنهم فى النباهة ، وعلو القدر ، والعلم ، والحكم ، واللسان ، والحلم ، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون ، ولارتفاع قدره ، وعظم شأنه ، قال النمر بن تولب :

لُقَيْمُ بنُ لقمانَ من أخته فكان ابنَ أختٍ له وابنمَا(٤)

ليالى حُمِّقَ فاستحصنتْ عليه فغرَّ بها مظلما(٥)

---

(١) اى تطيعه الملوك وتجيبه مسرعة وتخدمه (٢) بلقيس بالكسر ملكة سبأ

(٣) فى بعض الروايات — كما تقدم فى الجزء الأول — «وذو القرنين» بالرفع

(٤) لقيم : بضم اللام وفتح القاف ، و « أخته » اسمها صحر ، و «ابنم» ابن زيدت عليه الميم .

(٥) حمق : بضم الحاء وتشديد الميم ، اى اسكر حتى ذهب عقله ، ويرويه المفضل حمق بفتحتين وزعم انه يقال اذا شرب الخمر ، يقال لها الحمق ، واستحصنت . بالبناء للفاعل اى أتته وهى حصان كما تأتى المراة وزوجها ، وقوله « ففربها » غر بضم الغين من الغرة وهى الغفلة ويروى موضعه «فجامعها» وقوله « مظلما » بكسر اللام .

فغر بها رجل محكم فجاءت به رجلاً محكما[1]

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة محمقه ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهى لى ليلتك ، ففعلت فباتت فى بيت امرأة لقمان ، فوقع عليها ، فأحبلها بلقيم ، فلذلك قال النمر بن تولب ما قال ، والمرأة إذا ولدت الحمقى فهى محمقة ، ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياساً ، وقد أطال القول فى لقمان ولقيم الجاحظ فى كتاب البيان ، وأورد شواهد العرب فى أحواله ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى الأضياف ، والفرسان ، وغير ذلك ، وقد بالغ العلامة الهمدانىّ على ما ذكر فى كتاب (الوشى المرقوم) فقال : لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة ، وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة ، وجاور الأعاجم ، علم أخبارهم ، وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم ، وبنى إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمين علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان فى ظل الملوك السيارة — إلى أن قال — والعرب أصحاب حفظ ورواية ، والمقصود أن العرب كما لا يخفى على من سبر أقوالهم ، وأشعارهم ، كان لهم حظ وافر من رواية الأخبار ، ومن طالع الكتب المؤلفة فى أمثالهم وقف على كثير من المواد التاريخية التى لا شبهة فيها .

---

(١) قوله « فغربها رجل محكم » يروى فى موضعه « فأحبلها رجل نابه » — ونابه من النباهة ارتفاع الذكر — وهو لقمان فجاءت (أى أخته) به (أى بلقيم) « ومحكما » بفتح الكاف أى حكيما ، وهذه الابيات من قصيدة للنمر عدد أبياتها نحو ٢٣ بيتا . وقد كانت فى الأصل محرفة تحريفا شائنا كما أنها وردت كذلك فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٣ — ط : مطبعة الفتوح الأدبية بمصر) ومما زاد هناك فى الطين بلة أن المصحح الذى أخذ على عاتقه ضبط الكلمات بالشكل الكامل ، خلط فى الضبط خلطا زاد به التحريف غموضا واشكالا ولا حول !. ومرجعنا فى تصحيح هذه الأبيات خزانة الأدب وتاج العروس .

التاريخ عند العرب فى الجاهلية

لما بسطنا القول على ما كان للعرب أيام جاهليتهم من السابقة فى رواية الأخبار ومعرفة القرون الخالية ، وأحوال الأمم الماضية ، وسير الأجيال السالفة ، كما دل على ذلك شعرهم وأمثالهم وسائر أقوالهم ، أتبعناه بذكر مذهبهم فى التاريخ ، وكيفية ضبطهم للوقائع ، ومبدأ الحوادث . وقد لخصت ذلك من كتاب (أدب الكتاب) للإمام أبى بكر الصُولىّ وهو كتاب فريد فى فنه ، فأقول ومنه المعونة : تاريخ كل شىء غايته ووقته الذى ينتهى إليه ، ومنه : فلان تاريخ قومه فى الجود ، أى الذى انتهى إليه ذلك ، وسئلَ بعضُ أهل اللغة : ما معنى ذلك ؟ فقال : معناه التأخير . وقال آخر : هو إثبات الشىء . ويقال : ورخت الكتاب توريخا لغة تميم ، وأرخته تأريخا لغة قيس وتاريخ وتاريخان وتواريخ ، وأرخ كتابك هذا وورخه ، ولكل نبوّة ومملكة تاريخ . فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً ، وهو أصل ومنه صار الكتاب يقولون : نجمت على فلان كذا حتى يؤديه فى نجوم وأنجمة جمع نجوم ، والعرب تخص بالنجم الثريا ، ومنه قولهم :

طلع النجم غديّه فابتغى الراعى كسيّه

والنجم بعد هذا سائر النجوم يدل الواحد على جميعها . كما يقال : أهلك الناس الدينار والدرهم يراد الجنس . وعلى هذا قرأ أبو عمرو بن العلاء (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) والنجم ما نجم من النبات ، ومن الرأى ما ظهر وهو غير هذا ، وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهور متعارف ، فأرخوا بعام الفيل ، وفيه ولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان (وقد مرت قصة الفيل فى أوائل الجزء الأول عند ذكر مكة شرفها الله تعالى) وأرخت العرب بعام الخُنَانِ لأنهم تماوتوا فيه ، وعظم عندهم أمره . فقال النابغة الجعدى :

فمن يك سائلاً عنى فإنى من الشبان أيام الخُنان [1]

مضت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان

وأرخت قريش بموت (هِشام بن المغيرة المخزومى) لجلالته فيهم ، ولذلك قال شاعرهم :

وأصبح بطن مكةَ مقْشعِرًّا كأن الأرضَ ليس بها هِشامُ [2]

وروى عن الزهرى والشعبى أن بنى إسماعيل [3] أرخوا من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت حين بناه مع إسمعيل ، وإن بنى إسمعيل أرخوا من بنيان البيت إلى تفرق معد (فكان كلما خرج قوم أرخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة (٤)) ثم كانوا يؤرخون بشىء شىء إلى موت كعب بن لؤى ، ثم أرخوا بعام الفيل إلى أن أرخ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب إليه : إنه يأتينا من قِبَلِ أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، فلا ندرى على أيها نعمل ! وروى أيضاً أنه قرأ صكا محله شعبان فقال : أى الشعبانين الماضى أم الآتى ، فكان سبب التاريخ من الهجرة بعد أن قالوا : نؤرخ بعام الفيل ، وقالوا من المبعث ، ثم اجتمع الرأى على

---

(١) الخنان « فى الأصل بالتاء بعد الخاء وهو تصحيف » . وايام الخنان : على ما يزعم الصولى والمرتضى — أيام كانت للعرب قديمة هاج فيهم مرض فى أنوفهم وحلوقهم . والمعروف ان الخنان على وزن غراب زكام يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه ، وزمنه كان فى عهد المنذر بن ماء السماء ! قال الأصمعى : كان الخنان داء يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه فصار ذلك تاريخا لهم (٢) هشام : كان من أعاظم بنى مخزوم وكان له ولبنيه صيت بمكة وذكر منتشرة، وكان سيد قريش فى دهره، قيل : لما هلك نادى مناد بمكة أن اشهدوا جنازة ربكم ! وهو والد أبى جهل .. يستشهد النحويون بهذا البيت على أن « كأن » تكون للتحقيق عند الكوفيين ، وخرجه ابن مالك على أن الكاف للتعليل .. وفى التصريح : انه لا حجة للكوفيين فى هذا البيت لأنه محمول على التشبيه فان الأرض ليس بها هشام حقيقة بل هو فيها مدفون .

(٣) كذا الأصل والظاهر أن يكون « بنى اسحاق » فتدبر .

(٤) هذه الجملة التى بين القوسين سقطت من نسخة (أدب الكتاب) التى اعتمدنا عليها فى نشره .

الهجرة ، وقالوا : ما يكون أول التاريخ ؟ فقال بعضهم : شهر رمضان ، وقال بعضهم : رجب فإنه شهر حرام والعرب تعظمه ، ثم أجمعوا على المحرم . فقالوا : شهر حرام وهو منصرف الناس من الحج ، وكان آخر الأشهر الحرم ، فصيروه أولا لأنها عندهم ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب ، فكانت الأربعة تقع في سنتين فلما صار المحرم أولا وقعت في سنة . « قال الصولى » وسألت أبا ذكوان عن أرخت وورخت فقال : مثله أكدت الأمر تأكيداً ووكدته توكيداً لغة تميم وبها نزل القرآن « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وأما التاريخ بلغة قيس فهو الذى يستعمله الناس ، وأما التوريخ لغة تميم فما استعمله كاتب قط ، وإن كانت العرب تتكلم به . وغلبت العرب الليالى على الأيام فى التاريخ لأن ليلة الشهر سبقت يومه ولم يلدها وولدته ، ولأن الأهلة لليالى دون الأيام ، وفيها دخول الشهر ، وما ذكرها الله عز وجل إلا قدم الليالى قال الله تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة »وقال: « سخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام حُسُوماً »وقال : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » وقال : جل اسمه « سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » والعرب تستعمل الليل فى الأشياء التى يشاركه فيها النهار دون النهار لاستثقالهم الليل فيقولون أدركنى الليل بموضع كذا لهيبته ، وقال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتأى عنك واسع [(١)]

وقالوا صمنا عشراً من شهر رمضان . وإنما الصوم للأيام ، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان وأنشد أبو عبيدة .

فصامتْ ثلاثاً من مخافةِ ربِّها   ولو مكثتْ خمساً هناك لَضلَّتِ

وأما الشهور فانها كلها مذكرة إلا جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ؛ ويكتبون من شهر كذا إلا فى ثلاثة أشهر يكتبون فى شهر رمضان لقول الله عز وجل : « ان كنتم تعلمون * شهر رمضانَ الذى أنزل فيه القرءآن » ويقولون شهر ربيع

---

(١) راجع من ١٠١ و١٠٢ من هذا الجزء .

الأول ، وشهر ربيع الآخر ، لأن الربيع وقت من السنة فخافوا إذا قالوا من ربيع ولم يذكروا الشهر أن يظن أنه من الوقت ، قال الراعي :

شَهْرَىْ ربيع ما تذوقُ لبونُهم إلا حموضاً وخمةً وذويلا

كل ما انكسر واسود من النبت فهو ذويل . فإذا رأوا الهلال أول ليلة كتبوا « وكتب ليلة الجمعة غرة كذا ومستهل كذا ومهل شهر كذا » لأنهم يقولون استهل الهلال وأهل الهلال ولا يقولون هل ولا أهل ولا استهل ومن قال ذلك فقد أخطأ ، والاستهلال الصوت والصياح ، ومنه استهلال الصبي صياحه وبكاؤه إذا ولد . فلما كانوا يكبرون عند رؤية القمر كل أول ليلة من الشهر ، وفي أول سائر الشهور لقربهم بمضي الخارج من وقت الحج وسرورهم بالموسم نسبوا الرؤية إلى فعلهم فقالوا استهل وأهل ، وسموا القمر هلالا لهذا المعنى . وكان أهل مكة يجتمعون ويوقدون النار وتلعب ولدانهم وعبيدهم عندها كل أول ليلة من سائر الشهور لفرحهم بقرب وقت الحج ، ويكتبون ليلة الإهلال لغرة كذا ولا يكتبون لليلة خلت، ولا لليلة مضت إلا من الغد لأن الليلة قد مضت ، وإن كتبوا يوم الجمعة قالوا : أول يوم من شهر كذا . ولا يكتبون مستهل ولا مهل لأن الهلال إنما يرى بالليل . ويكتبون في اليوم الثاني لليلتين مضتا فإذا جاز ذلك كتبوا لثلاث خلون وأربع مضين . وكتبوا لثمان خلون فيحذفون الياء ويثبتون الألف في الخط فإذا أضافوا إلى الليالي أثبتوا الياء للإضافة لأنه لا يكون تنوين مع إضافة ، وإنما سقط الياء للتنوين فيسقطون الألف عند ذلك في الخط فيكتبون لثماني ليالي ومنهم من يثبتها ، وإنما أنثوا إلى قولهم لعشر خلون لتقدم الليالي على الأيام كما سبق . فإذا جاوزوا العشرة قالوا لإحدى عشرة ليلة خلت ومضت ولا تثنى عشرة ليلة . وإنما قالوا هَهنا خلت ومضت لأن الترجمة بليلة فوحدوا الفعل لذلك : ويكتبون لخمس عشرة ليلة (خلت) وإن شاءوا كتبوا للنصف من شهر كذا ، ولا يكتبون لخمس عشرة ليلة بقيت كرهوا ذلك لأنه

شبيه الاستثناء ولا يكون إلا أقل مما استثنى منه ، ولكن يكتبون بعد النصف بيوم لأربع عشرة ليلة بقيت . وقد كره أهل الورع ذلك لأنهم لا يدركون كم بقى لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون لإحدى وعشرين ليلة خلت ، والكتاب على غير هذا . فإذا كان آخر ليلة من الشهر كتبوا سلخ كذا لأنهم يقولون : انسلخ الشهر انسلاخاً وسلخت أشهر كذا سلخاً وسلوخاً . ولو كتب كاتب فى ربيع الأول ولم يقل فى شهر أو فى رمضان ولم يقل فى شهر جاز وليس بالمختار . قال الشاعر :

جارية فى رَمضَانَ الماضى ... تُقَطِّعُ الحديث بالإيماض [1]

ولا يدخلون فى شهر من الشهور الألف واللام إلا فى المحرم لأنه أول السنة فعرفوه لذلك كأنهم قالوا هذا الذى يكون أبداً أول السنة . ولا يكتبون لليلة بقيت وأنت فيها كما لم يكتبوا لليلة خلت وأنت فيها . والعرب تسمى أول ليلة من الشهر ليلة البراء لتبرؤ القمر من الشمس . ويسمونها النحيرة لأن الهلال نحرها أى رؤى فى نحرها وأولها ، قال ابن أحمر :

ثم استمر عليها واكف همعٌ ... فى ليلة نحرتْ شعبانَ أو رجبا [2]

نحرت شعبان كانت فى نحره وصدره لأنها أوله كما نحرها الهلال إذا رؤى فى أولها ، ونحيرة فعيلة من نحرت مثل قتلت فهى قتيلة « قال الصولى » قال بعض

---

(١) قال أبو عمرو المطرزى : معناه انهم كانوا يتحدثون فنظرت اليهم فاشتغلوا بحسن نظرها عن الحديث ومضت (أ هـ) وقيل غير ذلك . وفى الروض الأنف السهيلى : فى قوله تعالى «شهر رمضان» أختار الكتاب والموثقون النطق بهذا اللفظ دون أن يقولوا « كتب فى رمضان »وترجم البخارى والنووى على جواز اللفظين جميعا ! وأورد الحديث « من صام رمضان » ولم يقل « شهر رمضان » . قال السهيلى : ولكل مقام مقال ، ولا بد من ذكر شهر فى مقام وحذفه فى مقام آخر ، والحكمة فى ذكره اذا ذكر فى القرآن وغيره ، والحكمة أيضا فى حذفه اذا حذف من اللفظ وأين يصلح الحذف ويكون ابلغ من الذكر : كل هذا قد بيناه فى كتاب (نتائج الفكر) غير أنا نشير الى بعضها فنقول : قال سيبويه ــ ومما لا يكون العمل الا فيه كله المحرم وصفر، يريد أن الاسم العلم يتناوله اللفظ كله وكذلك اذا قلت الاحد والاثنين فان قلت يوم الاحد أو شهر المحرم كان ظرفا ولم يجر مجرى المفعولات وزال العموم من اللفظ لانك تريد فى الشهر وفى اليوم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان » ولم يقل شهر رمضان ليكون العمل فيه كله . انتهى . (٢) الواكف : المطر ، وسحاب همع ككتف : ماطر .

الـكتاب . التاريخ عمود اليقين ، ونافى الشكل ، و به تعرف الحقوق ، وتحفظ العهود . قال : ولا يقع التاريخ فى شىء من الـكتب السلطانية من رئيس أومرؤوس إلا فى أعجاز الـكتب . وقد يؤرخ النظير والتابع ما خلص من الـكتب فى صدورها . وقيل : الـكتاب بغير تاريخ نـكرة بلا معرفة ، وغفل بغير سمة ؛ قال بعض الشعراء فى تاريخ (شخص) توفى :

وكان يؤرّخ علم القرون فهاهو ذا اليوم قد أُرخا !

فأما الذى يروى للمستوغر بن ربيعة فهو قوله وهو عجيب من العمر فى مثل زمانه :

ولقد سَئِمْتُ من الحياة وطولها وازددت من عدد السنين سنينا

مائة أتت من بعدها مائتان لى وازددت من عدد الشهور مئينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا يوم يكرّ وليلة تحـذونا

وقد ذكرنا عند الـكلام على مجامعهم أسماء الأشهر — أيامَ العرب العرباء — وأسماءها لدى المستعربة وغير ذلك مما يناسبه . ثم إن الصُّولى — رحمه الله تعالى أطنب فى بيان تثنية الأيام والشهور وجموعهما ، وفى ذكر فوائد أخر تتعلق بغرضه ، وقد أهمل كثيراً مما كان العرب تؤرخ به . فقد كان لهم فى اليمن والحجاز ونجد تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفاً عن سلف ، وقد كان كل طائفة منهم تؤرخ بالحادثات المشهودة فيها ، وحيث إن استيعاب ذلك يطول اقتصرت على بيان ما كان شائعاً عند جميعهم وهو (زمن الفِطَحْل) فلا بدّ من تفصيل القول فيه و بالله التوفيق :

زمن الفطحل

هو زمن كانوا يؤرخون به كل ما قدم عليه العهد ومرت عليه العصور والدهور واختلف أئمة اللغة فى تفسيره فقال الخليل : هو الزمن الذى لم يخلق فيه الناس بعد ، ومنهم من قال : هو زمن نوح عليه السلام ، ومنهم من قال : هو الزمن الذى كانت الحجارة فيه رطابا ، واذ كل شىء ينطق ، و بذلك أجاب رؤبة حين سئل

عنه . وفى الصحاح : قال الجرمىّ سألت أبا عبيدة عنه فقال الأعراب تقول ؛ هو زمن كانت الحجارة فيه رطبة . وهو معنى قول بعضهم زمن الفطحل إذ السلام رطاب . وقال أبو حنيفة الدينورى : تقول أتيتك عام الفطحل والهدملة يعنى زمن الخصْب والريف . وأنشد أبو عبيدة لرؤبة بن العجاج وقد نزل ماء من المياه فأراد أن يتزوج امرأة فقالت له المرأة : ما سنك ما مالك ما كذاما كذا فأنشأ يقول :

لما ازدَرَتْ نَقْدِى وقلَّتْ إبْلِى تألَّقَتْ واتصلَتْ بِعُكْلِ[1]
تسألنى عن السنين كم لى فقلتُ لو عُمِّرْتُ عمر الحِسْلِ[2]
أو عُمْرَ نوحٍ زمَنَ الفِطَحْلِ والصخرُ مُبْتَلّ كطين الوحْلِ
أو أننى أوتيتُ عِلْمَ الحُكْلِ علم سليمان كلامَ النمل
كنتُ رهينَ هَرَمٍ أو قتل

الحكل بالضم من الحيوان مالا يسمع صوته كالذر والنمل . وبعض أئمة اللغة يقول : هو العجم من الطيور والبهائم . وقال الليث : الحكل فى رجز رؤبة اسم لسليمان عليه السلام ، وهو قوله :

لو أننى أوتيتُ علم الحُكل علمت منه مستسرّ الدّخْل[3]
علم سليمان كلام النمل ما ردأزوى[4] أبداً عن عذل

قال الإمام الثعالبى[5] نقلاً عن القاضى عبد المحسن[6] . أما قولهم أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شىء ينطق فهما من الأمور التى يتداولها جهلة الأمم ،

---

(١) ازدرت نقده . رأته قليلا ، والنقد : الدراهم ، وتألقت : تلونت وتغيرت ، ويجوز أن يريد تنكرت وتخبثت من قولهم « امرأة ألقة ــ بكسر اللام » الخبيثة الصخابة المنكرة ويجوز أن يكون من قولهم تألق البرق أى لمع : يريد أنه لما ذكر لها ماذكر أنكرته وتعجبت منه فلوحت بثوبها الى من يقرب منها ونادت « يال عكل ! » تستغيث بهم ليحضروا فيسمعوا ما تكلم به، والاتصال : أن يعتزى الرجل الى قبيلته (٢) الحسل : الضب وهو لا تسقط له سن ، ومن أمثالهم فى التأبيد « لا أفعله سن الحسل » والتقدير دوام سن الحسل أى مدة دوامه . وقد زعموا أن الضب يعيش ثلثمائة سنة وأنه والحية والقراد والنسر أطول شىء عمرا ولذلك قالوا « أحيا من ضب لطول حياته » .
(٣) الدخل : العيب الباطن (٤) تيس الجبل البرى .
(٥) المضاف والمنسوب ص ٥١٦ (٦) فى المضاف والمنسوب « أبو الحسن ابن عبد العزيز » .

وهو الظاهر بين إغفال العرب هذا وأمية بن أبى الصلت وهو من حكماء العرب والمتخصصين منها بالرواية قال :

وإذ هم لا لبوسَ لهم عراة   وإذ صمّ الصلاب لهم رطابُ
بآية قام ينطِقُ كلّ شيء   وخان أمانةَ الديكِ الغُرابُ

وعن مقاتل بن سليمان أنه كان يقول : إذ الصخور كانت لينة ، واذ قدم إبراهيم عليه السلام أثرت فى صخرة المقام للين الصخور يومئذ ، قال الثعالبى ، وليس مذهب هؤلاء فيما رواه مذهب من جعلها أجزاء من الأرض تستصلب وتتكسر وتتحجر ، فزعم أنها تيبس عن ندوة وتصلب بعد رخاوة ، ولو أرادوا ذلك لوجدوا متسعاً فى القول ، لكن الأوهام التى صورت أن البهائم كانت ناطقة عاقلة ، وفروع السعدان[1] ملساء لينة ، وأغصان العوسج خضرة ناعمة — هى التى أدتهم لذلك ، ولا يبعد أن يكون القوم لما رأوا الحكماء قصدوا استعطاف الأوهام[2] ألى الحكمة فوضعوا أمثالا ، ورشحوها ببعض الهزل ، وأدرجوا الجد فى أثناء المزح ليخف عن القلوب احتمالها ، ويسرع إليها التفاتها — ظن من لم يقع من التمييز موقع الكمال بالبهائم أنها تنطق وتفصح ، وتبين عن نفسها وتعرب؛ فاختلقوا أحاديث أضافوها إليها ، وكان للعرب فى ذلك خصوصاً ما زادت به على سائر الأمم لفضل ما فيها من اللهج بالكلام ، وما أوتيت من القدرة على التصرف فى المنطق ، فنظمت لها قريضاً ، وفصلت أسجاعه كالذى حكت عن الضب أنه قال فى صبره على الماء ، وهو عندهم أصبر ذى نفس عليه : « أصبح قلبى صردا . لا يشتهى أن يَرِدَا ، إلا عراداً عردا . وصليانا بردا ، وعكنا ملتبدا[3] ، » ومنهم

(١) نبت من افضل مراعى الابل ، ومنه « مرعى ولا كالسعدان »
(٢) ن : القلوب
(٣) صرد كفرح يصرد صردا فهو صرد : وجد البرد سريعا وقوله « الاعرادا عردا » قال فى النوادر : عرد الشجر واعرد اذا غلظ وكبر وعراد عرد على المبالغة ثم أنشد « أصبح قلبى الخ » وقال : وانما اراد عاردا وباردا فحذف للضرورة « عن ابى الهيثم » وقوله « عكنا » صوابه « عنكثا » وهو شجر يشتهيه الضب . والصليان بكسرتين مشددة اللام والياء خفيفة ، نبت من الطريفة .

من يرويها هكذا : « آليت أن لا أرِدا ، إلا عراداً عردا ، وصليانا صردا ، وعنكثاً ملتبدا » وزعموا أن القطا قال للحجل : « حجل حجل ، تفر فى الجبل من خشية الوجل » فقالت لها الحجل : « قطا قطا ، أرى قفاك أمعطا[1] بيضك ثنتان و بيضى مئطا[2] » هكذا جاءت الرواية والأمثال تجرى على ألفاظها . . وهذا الوجه الذى ذكره الثعالبى هو المتعين ، وأشباه ذلك فى كلامهم ومحاوراتهم كثيرة مذكورة فى كتب الأدب ؛ ومن ذلك ما حكاه أصحاب اللغة فى وجه تسمية بعض الكواكب وعدوه من أكاذيبها وخرافاتها ، مع أن الوجه ما اختاره الثعالبى من أن ذلك لأغراض مقصودة لهم فقالوا : الشعرى كوكبان إحداهما الشعرى العبور والأخرى الشعرى الغميصاء ، أما العبور فإنها من نجوم الجوزآء و يسمى كلب الجبار ، وسميت بالعبور لأنها كانت والغميصاء وسهيل مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانياً ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، والغمص فى العين نقص وضعف ، وأما الغميصاء فأقل نوراً من العبور وهى من نجوم الذراع المبسوطة ، و بينها و بين العبور والمجرة ؛ وأصحاب الصور يعدونها فى صورة الكلب الأكبر ؛ وهى تقطع السماء عرضاً ، وليس غيرها من الكواكب كذلك ؛ وهى التى عناها الله تعالى بقوله « وأنه ربّ الشعرى » و إنما خصها بالذكر لأن خزاعة كانت تعبدها ، وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة وهب بن غالب جد وهب بن عبد مناف . وقالوا فى وجه تسمية كوكبى الدبران والعيوق : إن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً وهى نجوم صغار مجتمعة فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، والدبران يعوقه ؛ ولذلك سموا هذه النجوم القلاص ، وعليه قول الشاعر[3] :

أما ابن طوق فقد أوفَى بذِمّتهِ   كما وفى بقلاص النجم حاديها[4]

---

(١) اى لأشعر عليه (٢) يريد « مائتان » وحذفت النون شذوذا

(٣) هو طفيل الغنوى (٤) يقال : وفى بالعهد واوفى وقد جمعهما طفيل فى بيته ، وحادى القلاص : هو الدبران . قال ذو الرمة :

قلاص حداها راكب متعمم   هجائن قد كادت عليه تفرق

ولو تتبعنا أمثال ما ذكر مما قصدوا به المعنى الشعرى ، ولم يريدوا به الحقيقة لطال الكلام ، وما أوردناه وافٍ بالمرام .

ما كان للعرب من العلم بالسماء وكائنات الجو

كل ما استقصى شعر العرب الأولين ، وما صح عنهم من الأمثال والأقوال عرف أن أوائل العرب كان لهم بحث عن الأجرام العلوية ، والآثار الجوية ، وأنهم اشتغلوا بالرصد ، ومعرفة حركات الكواكب ، وطلوعها وغروبها ؛ لا سيما ما يتعلق بها غرضهم ، وتمس إليها حوائجهم ، وقد ألف السلف من أئمة اللغة فيما كان لهم من ذلك كتباً مفيدة جمعوا فيها ما كان للعرب من العلم بالسماء ، وهى كثيرة . منها : (كتاب الأنواء) لأبى فيد (مؤرخ) ابن عمر النحوى[1] وآخر لأبى بكر محمد بن حسن المعروف بابن دُرَيْد اللغوى[2] وآخر لأبى عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى[3] وآخر لأبى الحسن النضر بن شُمَيْل النحوى[4] وآخر لأبى إسحق إبراهيم بن محمد الزجاج النحوى[5] وكل هذه الكتب مشتملة على مسائل مفيدة من مذاهب العرب واعتقاداتهم ، وأتمها فائدة كتاب أبى حنيفة الدينَوَرِى[6] ، فإنه تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح ، وتفصيل الأزمان وغير ذلك . وإنى مستعيناً بالله ذاكر فى هذا المقام نبذةً من ذلك عازياً كل مبحث ألخصه ههنا إلى محله مما عثرت عليه من كتب الفن ، لئلا يبقى جيد هذا الكتاب عاطلاً من هاتيك الفرائد الغالية الثمن .

---

(١) ترجمته فى بغية الوعاء السيوطى ص ٤٠٠ من طبعة مصر .

(٢) فهرست ابن النديم ص ٦١ و٨٨ ونزهة الالباء لابن الانبارى ص ٣٢٣ والبغية ص ٣٠ و ٣١ و٣٢ (٣) الفهرست ص ٨٨ والبغية ص ٤٢ وكتاب عبد الرحمن الصوفى ص ٣٢ . (٤) الفهرست ص ٥٢ ونزهة الالباء ص ١١١ والبغية ص ٤٥ (٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٣٦ و٣٤٤ و٣٤ والفهرست ص ٨٨ (٦) الفهرست ص ٧٨ و٨٨ وطبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ٩٥ والنزهة ص ٣٠٦ والآثار الباقية ص ٣٣٦ و٣٤٧ الى ٣٤٨

السماوات والأفلاك

السماء عند العرب كل ما علاك فأظلك ، ولذلك قيل للسقف والسحاب ولأعلى الفرس سماء ، ومن أسمائها الجرباء لاشتباك كواكبها ، والخلقاء إذا لم تر نجومها كالملساء ، والرقيع ، وجربة النجوم ، قال قائلهم :

وخَوَتْ جِرْبةُ النّجومِ فما تشـ ـرَبُ أرْوِيّة بمرىَ الجنوبِ[1]

وأصل الجربة القراح من الأرض[2] وكانوا يعتقدون فيها اعتقاد المليين ، ويثبتون العرش والكرسى ، وكانوا يسمون السماء الدنيا الرقيع . والسماء الثالثة الصاقورة والحاقورة ، والسماء الرابعة الخضراء ، ويقولون لما ولينا منها بطن السماء وظهر السماء لما يخالفه ، والهواء الفتق بين السماء والأرض وهو السُّكاك والسُّكاكة واللوح ، وعنان السماء ما عن منها إذا نظر إليها ولونها العوهق ، والفلك مدار النجوم الذى يضمها ، ومجرة السماء كأثر الجر فيها يسمونها أم النجوم ، ومن كواكبها « الشمس » لأنها فى السماء الرابعة تشبيهاً لها بشمسة القلادة ، ويقال لها ذُكاء وإلاهة والضّحّ والجونة والغزالة والجارية والسراج والبيضاء وبوح وبراح ومهاة والشرق ، إلا أنه لا يقال غاب الشرق ولا غابت الغزالة ، قال قائلهم .

تَرَوَّحْنا من اللعباء قصراً وأعجلنا إلاهَةَ أن تؤوبا[3]

« وقال آخر »

ثم يجلو الظلام ربٌّ رحيمٌ بمهاةٍ شُعاعُها منشُورُ[4]

ودارتها الطُّفاوة ، وآياتها ضوؤها ولعابها ما تراه فى شدة الحر كنسج

---

(١) يقول : صارت كواكب السماء التى كان الناس يسقون بنوئها خالية من الغيث لم يكن عند سقوطها مطر ولم يكن فى الفلاة يسير ماء تشرب منه الشاة الجبلية من الماءالذى تستدره ريح الجنوب (٢) القراح كسحاب الارض التى لا ماء بها ولا شجر او المخلصة للزرع والغرس

(٣) يقول خرجنا بعد الزوال من هذا المكان قرب العشى وبادرنا الى المقصد قبل أن تغرب الشمس (٤) يقول : ثم يكشف ظلمة الليل رب رحيم نظرا لخلقه ليتصرفوا فى معايشهم بشمس نورها ينشر فى البلاد .

العنكبوت ينحدر من السماء كاللعاب من الحيوان ، ويقال شرقت الشمس وذرت ذروراً أى طلعت وأشرقت أى انساح ضوؤها ، وكسفت ذهب ضوؤها ، والفىء الظل بعد الزوال ، وظل دوم لا تنسخه الشمس ، وطفلت وجنحت مالت للغروب ودنقت أيضاً ، وأشفت غابت إلا شفاً أى قليلا ، ووجبت غابت ، ودلكت اصفرت للغيوب ، وصامت الشمس ركدت نصف النهار كأن لها وقفةً وإبطاء عن الزوال ، ودومت ، قال ذو الرّمة :

مُعْرَوْرِياً رَمَضَ الرَّضْراض يركضُهُ   والشمس حَيْرى لها فى الجوّ تدويمُ[(1)]

وقَرْن الشمس وحاجبها أول نواحيها ، والمشرق المطلع ، والمغرب المغيب وهما مشرقان ومغربان : مشرق الصيف هو مطلع الشمس فى أطول يوم ، ومشرق الشتاء وهو أخفض مطالعها فى أقصر يوم ، والمغربان على ذلك ، ودرارى النجوم كبارها .

ومنها القمر

ويقال له أول ما يهل (هلال) إلى ثلاث ليال ، ثم هو قمر إلى أن يهل ثانياً ، قال قائلهم

ثم استمرّت كشقة القمر البد   رِ خفوق الأحشاء والكبد[(2)]

ويقال لكل ثلاث ليال من أول الإهلال إلى أن ينسلخ الشهر اسم ؛ فالأول غُرَر ، وبعدها نُفَل ؛ ثم تُسَع ، ثم عُشَر ؛ وثلاث بيض ، وثلاث درع ؛ وثلاث ظلم ؛ وثلاث حنادس ، وثلاث دَآدئ واحدتها دأداء ؛ وثلاث مِحاق ، وقد نظمها بعضهم فقال :

---

(1) معروريا : راكبا والرمض محركة شدة وقع الشمس على الرمل وغيره . والرضراض : الحصى أو صغارها ، ويروى « رمض الرمضاء » وهى الأرض الشديدة الحرارة ، ويركضه : يضربه برجله ، ومعنى قوله والشمس حيرى الخ ان الشمس فى كبد السماء واقفة متحيرة الى أن تنحط وتجنح الغروب وذلك من مبدأ الزوال والبيت فى وصف الجندب (2) البيت فى وصف بقرة . يقول : ثم استمرت هذه البقرة الوحشية من خوف الصائل وهى فى بياضها كالنصف من البدر فجعة قلقة خوفا من الرامى .

ثم ليالى الشهر قدماً عرفوا   كل ثلاث بصفات تعرفُ

فَغُرَرٌ وَنُفَل وتسع   وعُشَرٌ فالبيض ثم الدرع

وظُلَم حنادس دَآدى   ثم المحاق لانمحاق بادى

وليلة السواء ليلة تمام القمر ، وهو وفاء ثلاث عشرة ، وبعدها ليلة البدر ؛ ومَنْيسان ليلة النصف ، تقول : أسوينا ، وأبدرنا ، وأنصفنا ، أى صرنا فى ذلك وهذه الليالى الثلاث بيض ثم يدرع الشهر ، أى تسود أوائل لياليه ، من قولك شاة درعاء إذا اسود مقدمها وابيض سائرها ، ثم ينتقص القمر حتى يمتحق ؛ وهو أن يطلع مع الشمس فيحترق ، وليلة ثمان وعشرين الدعجاء ، وبعدها الدهماء ، وليلة الثلاثين الليلاء ، وابنا جمير يومان فى المحاق يستسر فيهما القمر ، والبراء آخر ليلة من الشهر لتبرؤ القمر فيه من الشمس وهو السرار . وقيل : بل هو أول يوم من الشهر ؛ والناحر والنحير كذلك . . وقيل يقال للهلال ما أنت ابن ليله رضاع سُخَيْله[١] ، حلّ أهلها بِرُمَيْله ، ما أنت ابن ليلتين : حديث أَمَتَيْن . بكذب ومَيْن[٢] ، ما أنت ابن ثلاث : حديث فتيات ، غير مؤتلفات[٣] ، ما أنت ابن أربع : عتمة أم رُبَيع[٤] لا جائع ولا مُرْضَع ، ما أنت ابن خمس ، عَشاء خَلِفات قعْس[٥] ، ما أنت ابن ست : سرو بت[٦] ، ما أنت ابن سبع : دلجة الضبع ، ماأنت ابن ثمان : قمر أضحيان[٧] ، ما أنت ابن تسع : ملتقط الجزع[٨] ، ما أنت

---

(١) سخيلة : تصغير سخلة . المعنى : ان الهلال يبقى بقدر ماينزل قوم فتضع شاتهم سخلة ثم ترضعها ريرتحلون ، فبقاؤه فى الافق كمقدار رضاع السخلة (٢) يريد ان بقاءه له قليل كمقدار ما تلقى الأمة فتحدثها فتكذب لها حديثا ثم تفترقان (٣) يريد أنه يبقى بقاء فتيات أبكار اجتمعن على غيرميعاد فتحدثن ساعة ثم انصرفن غير مؤتلفات (٤) أم ربع : الناقة . يريد أن بقاء مقدار ماتحلب ناقة لها ولد ولدته فى اول الربيع وهو أول النتاج ، وعتمت ابله اذا تأخرت ومن هذا سميت العتمة لانها آخر الوقت (٥) الخلفات : هى التى استبان حملها ، والقعس جمع قعساء : وهى الداخلة الظهر الخارجة البطن (٦) اى سرفى وبت ، فاننى أبقى بقدر ما يبيت انسان ويسير

(٧) مضىء (٨) اراد انه مضىء أبلج او انقطعت فيه مخنقة فتاة مفصلة بجزع ما ضاع منها شىء لضيائه ونقائه .

ابن عشر . ثلث الشهر ، ويقال إن ما بعدها موضوع ، وهو مذكور فى كثير من كتب الأدب .

والدارة حول القمر (الهالة) ويقال حاق القمر . والقمر الليلة فى الهالة وحجر إذا استدار بخط . ويقال للقمر الزبرقان والأزهر والشهر والساهور ، وقيل غلافه الذى يستتر فيه إذا خسف وفى التسع البواقى . وقال أمية بن أبى الصلت :

لا نقص فيه غير أنّ خبيه   قمر وَسَاهورٌ يسلّ ويغمد[1]

والشامة : السواد فى القمر ، وبذلك ألغز بعضهم :

وما شامةٌ سوداء فى حُرِّ وجهه   مجلّلة لا تنجـلى لزمان

ويدرك فى تسع وخمس شبابَهُ   ويهرم فى سبع معاً وثمان[2]

ويقولون أضاءت القمراء ، وليلة قمراء وضَحْياء ضَحْيانة وبيضاء ، والمحمقات الليالى البيض تغيم فيها السماء فترى ضوءاً ولا ترى قمراً فتظن أنك مصبح وعليك ليل ، يقال غرنى غرور المحمقات ، وبزغ القمر : طلع ، وأفل : غاب ، والفَخْتُ : ضوء القمر ، ويقال : جلسنا فى الفخت وقيل الدأداء الليلة التى يشك فيها أمن الشهر الماضى هى أم من الداخل ؛ وليلة غُمَّى يحال فيها دون الهلال ، وأنشد شاعرهم .

وليـلةٍ مشتبهٍ أهوالهـا   ليلةِ غُمَّى طامس هلالها[3]

وقد سمت العرب كواكب كثيرة يطول استقصاؤها ، واقتصرنا على ذكر النيرين الأعظمين .

---

(١) يقول : القمر وغلافه مختلفان فمرة ينزع من غلافه فيكون بدرا كاملا ومرة يرد الى غلافه حتى يكون مستسرا ثم يبدو ملألأ فيتزايد الى ان يعود بدرا

(٢) قولـه : ويدرك الخ يروى « ويدرك فى ست وتسع شبابه » . قال ابو محمد فى شرح هذين البيتين : الذى عندى انه أراد وماشى فى حر وجهه شامة سوداء ، ويكون سؤاله عن القمر الا أنه ألغز ، وان حمل الكلام على ظاهره كان السؤال عن الشامة ما سببها ، والمجللة : التى جللت وجهه . لا تنجلى لزمان : لاتذهب فى وقت من الأوقات ، وقوله « ويدرك فى ست وتسع شبابه » يريد أنه يتناهى تمامه الى خمس عشرة ليلة من الشهر ثم يتناقص من وقت تمامه الى آخر الشهر ، وانما أنث أسماء العدد لانه أراد الليالى (كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ ص ٤٠١) وحر الوجه . ما بدا منه . (٣) يقول . ورب ليلة مظلمة داجية اذا نظرت اليها رأيته من وحشة ظلمتها ما يهولك ويروعك وهى ليلة لا يرى فيها هلالها . وغمى : كحتى وتمد وتضم الاولى مع القصر .

منازل القمر وأنواؤها

المنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة ، وهي عند أهل الهند سبعة وعشرون لأن القمر يقطع فلك البروج في سبعة وعشرين يوماً وثلث فحذفوا الثلث لأنه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم ، وعند العرب وساكني البدو ثمانية وعشرون لا لأنهم تمموا الثلث واحداً كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلة مختلفة الأوائل لوقوعها في وسط الصيف تارة وفي وسط الشتاء أخرى ، وكذا أوقات تجارتهم وزمان أعيادهم ، احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا في استقبال كل فصل بما يهمهم في ذلك الفصل من الانتقال إلى المراعي وغيرها ، فاحتالوا في ضبطها فنظروا أولا إلى القمر ، فوجدوه يعود إلى وضع له من الشمس في قريب من ثلاثين يوماً ، ويختفي آخر الشهر لليلتين أو أقل أو أكثر ، فأسقطوا يومين من زمان الشهر فبقي ثمانية وعشرون ، وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلاً أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستتراً آخره ، فقسموا دور الفلك عليه ، فكان كل قسم اثنتي عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً ، وهو ستة أسباع درجة ، فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ، ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا في ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستتر دائماً ثلاثة منازل : ما هي فيه بشعاعها ، وما قبلها بضياء الفجر ، وما بعدها بضياء الشمس ، ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ، ثم بشعاعها ، ثم بضياء الشفق ، فوجدوا الزمان بين كل ظهور منزلتين ثلاثة عشر يوماً تقريباً ، فأيام جميع المنازل تكون ثلاثمائة وأربعة وستين ، ولكن الشمس تقطع جميعها في ثلاثمائة وخمس وستين فزادوا يوماً في أيام منزل (غَفْر) وزادوه ههنا اصطلاحا منهم ، أو لشرفه على ما تسمعه إن شاء الله . وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ، ويرجع الأمر إلى النجم الأول ، واعلم أن العرب

جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره أو يحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلاً بقرب أحدها . وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل ، وهى فى فلك الأفلاك . و إذا أسرع القمر فى سيره فقد يخلى منزلا فى الوسط ، وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين فى منزل أول الليلتين فى أوله وآخرهما فى آخره ، وقد يرى فى بعض الليالى بين منزلتين ، وما يقال فى الشهور أن الظاهر من المنازل فى كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفى ، و إنه إذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمى به تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط فى المغرب إذا ظهر ذلك فى المشرق — ظاهر الفساد ، لأنها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد ما بينها متساوية ، ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر ، وقد يكون الخفى ثلاثة عشر .

* * *

والمنازل أنواء اختلف علماؤها فيها ، ولنذكر ملخص ما أورده أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجىّ فى كتابه المؤلف فى الأنوء . قال : السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نَوْء ثلاثة عشر يوماً إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوما (زيد فيه يوم لتكمل السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوماً) وهو المقدار الذى تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثنى عشر ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، وكلما نزلت منزلة من هذه المنازل سترته لأنها تستر ثلاثين درجة : خمس عشرة من خلفها ، ومثلها من أمامها ، فإذا انتقلت عنها ظهرت ، هكذا قال الزجاجى ، فإذا اتفق أن تطلع منزلة من هذه المنازل مع الغداة ويغرب رقيبه فهو (النوء) ولا يتفق ذلك لكل منزلة منها إلا مرة واحدة فى السنة ، وهو مأخوذ من ناء ينوء إذا نهض متثاقلا ، والعرب تجعل النَّوْء للغارب لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، وعلى ذلك أكثر أشعارها ، وتفسير بعض العلماء فى قوله تعالى

(ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى تميل بهم إلى الأرض ، وهذا التفسير أوجه من قول من يجعل الكلمة من المقلوب . قال : وبعضهم يجعله للطالع وهذا مذهب المنجمين لأن الطالع له التأثير والقوة ، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير . قال المبرد : النوء على الحقيقة للطالع من الكوكبين لا الغارب ، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق ويغرب فى المغرب كل يوم وليلة ، وتلك دورة من دوراته .

الربع الأول من السنة : الربيع

ابتداؤه فى تاسع عشر يوماً[1] من آذار ، وبعضهم يجعله فى عشرين يوماً منه ، فيستوى حينئذ الليل والنهار ، ويطلع مع الغداة فرغ الدلو الأسفل وهو المؤخر ، وتسقط العوّاء وإليها ينسب النوء ، وهى تمد وتقصر وصورته[2] خمسة كواكب كأنها ألف معطوفة الذنب إلى اليسار وبذلك سميت . تقول العرب عويت الشىء (إذا) عطفته ، وقال آخرون : بل هى كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد . وقال ابن دريد : بل دبر الأسد والعواء فى كلامهم الدبر . النوء الثانى (السّماك) وهما سماكان : أحدهما الأعزل وهو نجم وقاد شبهوه بالأعزل من الرجال وهو الذى لا سلاح معه وهو منزل القمر . والآخر كوكب تقدمه آخر شبهوه بالرمح ، وهما ساقا الأسد وسمى سماكا لعلوه ولا يقال لغـيره إذا علا « سماك » هكذا قال سيبويه فيما حكى الزجاجىّ عن أبى إسحق الزجاج غير أنه قال فى الأعزل : وقيل إنما سمى الأعزل لأن القمر لا ينزل فيه ، وهذا مخالف لما عليه جمع الناس ، النوء الثالث (الغَفْر) وهو ثلاثة كواكب غير زهر ، وبذلك سميت من قولك غفرت الشىء إذا غطيته ، ومنه سميت الغفارة التى تلبس ، وقيل إنما سمى غفراً من الغفرة وهى الشعر الذى فى طرف ذنب الأسد ، وقال

---

(١) فى العمدة (ج ٢ ص ١٩٧) : « ابتداؤه من سبعة عشر يوما من آذار فليتدبر (٢) فى العمدة « وصفتها » .

أبو عبيدة : الغفر كل شعر صغر دون الكبير وكذلك هو في الريش ، وقال قوم : هو من النكس في المرض يقال أغفر المريض إذا نكس كأن النكس غطى العافية ، النوء الرابع (الزُّبانان) وهما كوكبان متفرقان وهما قرنا العقرب ، وقيل يداها ، وسميا زبانين لبعد كل واحد منهما عن صاحبه من قولهم زبنت كذا إذا دفعته لتبعده ، ومنه إشتقاق الزبانية لأنهم يدفعون أهل النار إليها ، النوء الخامس (الإكليل) وهو ثلاثة كواكب على رأس العقرب ولذلك سميت إكليلا ، النوء السادس (القلب) وهو كواكب أحمر وقاد جعلوه للعقرب قلباً على معنى التشبيه ، النوء السابع (الشَّوْلة) وهو كوكبان أحدهما أحق من الآخر ، وهما ذنب العقرب وذنب العقرب شائل أبداً فشبه به ، هذا قول بعضهم ، و بعضهم يجعل الشولة الإبرة التي في ذنب العقرب وهم أهل الحجاز فهو أصح على مذهب من زعم أنهما كوكبان فقط .

الربع الثانى : الصيف

أول أنوائه (النَعَائم) وهى ثمانية كواكب نيرة : أربعة منها في المجرة تسمى الواردة وأربعة خارجة منها تسمى الصادرة ، وشبهت بالخشبات التي تكون على البئر تعلق بها البكرة والدلاء ، الثانى من الصيف (البَلْدة) وهى فرجة لطيفة لا شيء فيها لكن في جوارها كواكب تسمى القلادة ، وإنما قيل لتلك الفرجة بلدة تشبيهاً بالفرجة التي بين الحاجبين إذا لم يكونا مقرونين ، يقال منه رجل أبلد ، ويقال بل شبهت بالبلدة وهى باطن الراحة ، وقيل باطن ما بين السبابة والإبهام ، الثالث منه (سعدُ الذابحُ) وهما نجمان صغيران أحدهما مرتفع في الشمال معه كوكب آخر يقال له شاتُهُ التي تذبح [1] ، والآخر هابط في الجنوب ، الرابع منه (سعد بُلَعَ) وهما كوكبان صغيران مستويان في المجرة شبها بفم مفتوح يريد أن

(١) قلت : ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد بخلاف سائر السعود فانها يضاف اليها ما بعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب الكاتب .

يبتلع شيئاً ، وقيل إنما قيل له بُلَع لأنه كان قد بلع شاته و بلع غير مصروف لأنه معدول عن بالع مثل زُفَر وقُثَم وسعد مضاف إليه . الخامس منه (سعد السعود) وهو كوكبان أحدهما أنور من الآخر سمى بذلك لأن وقت طلوعه ابتداء كمال الزرع وما يعيش به الحيوان من النبات . السادس منه (سعد الأخبيـــة) وهو كوكبان عن شمال الخباء ، والأخبية أربعة كواكب واحد منها فى وسطها يسمى الخباء لأنه على صورة الخباء ، وزعم ابن قتيبة أنه إنما سمى بذلك لطلوعه وقت انتشار الحيات والهوام وخروج ما كان مختبئا منها . السابع منه (فرغ الدلو الأعلى) وهو المقـدم وبعضهم يسميه العرقوة العليا تشبيهاً بعرقوة الدلو ، وهو كوكبان متفرقان نيران ، وقيل له « الفرغ [1] » لأنه تأتى به الأمطار العظيمة ، و يقال بل سميا بذلك لأنهما مثل صليب الدلو الذى يفرغ منه الماء .

الربع الثالث : الخريف

أول أنوائه (فرغ الدلو الأسفل) وصورته كوكبان مضيئان بينهما بعد صالح يتبعان العرقوة العليا . ثم (الحوت) وهو كوكب أزهر نير فى وسط السمكة مما يلى رأسها و يسمى قلب السمكة . ثم (الشَّرَطان) وهو كوكبان مفترقان مع الشمالى منهما كوكب دونه فى القدر ، وسميا شرطين لأن سقوطهما علامة ابتداء المطر واتصاله ، وكل من جعل لنفسه علامة فقد أشرطها ، ومنه سمى الشرط لأن لهم علامات يعرفون بها . ثم (البطين) وهو ثلاثة كواكب طمس خفيات وهو بطن الحمل إلا أنه قد صغر . ثم (الثريا) وهى النجم ، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى تكاد تتلاصق ، وأكثر الناس يجعلها سبعة ، وقد جاء الشعر بالقولين جميعا ، سميت بذلك لأن مطرها عنه تكون الثروة ، وكثرة العدد والغنى ، وهى تصغير ثروى ، ولم ينطق بها إلا مصغرة . ثم (الدبران) وهو كوكب وقاد على أثر نجوم

---

(١) لعله (الدلو) كما فى العمدة .

تسمى (الدِلاص) وقيل له دبران لأنه دبر الثريا أى جاء خلفها ، ويقال له أيضاً الراعى والتالى والتابع والحادى على التشبيه . ثم (الهَقْعه) سميت بهـذا تشبيها بالدارة التى تـكون عند عقب الفارس فى جنب الفرس [1] ، وصورتها ثلاثة أنجم صـغار متقاربة كآثار رؤوس أصابع ثلاثة فى ثرى إذا جمعت الوسطى والسبابة والإبهام وهى رأس الجوزاء .

الربع الرابع : الشتاء

وهو آخر أرباع السنة . أول أنوائه (الهَنْعة) سميت بذلك لأنها كوكبان مقترنان كل واحد منهما منعطف على صاحبه من قولك هنعته إذا عطفت بعضه على بعض ، واقترانهما فى المجرة بين الجوزاء والذراع المقبوضـة . الثانى (ذراع الأسد المقبوضة) وقيل لها مقبوضة لانقباضها عن سمت الذراع المبسوطة والمقبوضة كوكبان نيران [2] بينهما كواكب صغار تسمى الأظفار ، وأنواء الأسـد أحمد الأنواء ولذلك ، كثر ذكرها فى الشعر بين العرب . قال الشاعر [3] :

يا مَنْ رأى عارضاً أسرّ به بينَ ذراعَىْ وجبْهَةِ الأسدِ [4]

والذراعان والجبهة من المنازل ، فالذراعان أربعة كواكب كل كوكبين منها ذراع . قال أبو إسحق : ذراع الأسد المقبوضة كوكبان نيران بينهما كواكب صغار يقال لها الأظفار كأنها فى موضع مخالب الأسد فلذلك قيل لها الأظفار ، وإنما قيل لها الذراع المقبوضة لأنها ليست على سمت الذراع الأخرى وهى مقبوضة عنها ، ونوؤها يكون لليلتين تمضيان من كانون الثانى يسقط الذراع فى المغرب غدوة ، وتطلع البلدة والنسر الطائر فى المشرق غدوة ، وفيه يجمد الماء ، ويشتد

---

(١) أقول : وقال القلقشندى فى صبح الاعشى ج ٢ ص ١٥٧ : سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عنق الفرس (٢) وقال القلقشندى ج ٢ ص ١٥٨ : الذراع — كوكبان أحدهما نير والآخر مظلم بينهما قدر سوط فى رأى العين .. الخ (٣) هو الفرزدق (٤) العارض السحاب الذى يعترض الافق ، وأسر: أفرح ويروى أكفكفه أى أمسحه مرة بعد أخرى، ويروى أرقت له أى سهرت من أجله . والبيت من شواهد النحو — أنظر المفصل ص ١٠٠

البرد ، والجبهة أربعة كواكب فيها عوج أحدها براق وهو اليمانى منها ، وإنما سميت الجبهة لأنها جبهة الأسد ونوؤها يكون لعشر تمضى من شباط ، تسقط الجبهة فى المغرب غدوة ، ويطلع سعد السعود من المشرق غدوة ، وفيه تقع الجمرة الثالثة ، ويتحرك أول العشب ، ويصوت الطير ، ويورق الشجر ، ويكون مطر جود ، ويسمى نوء الأسد لأنه يتصل بها كواكب فى جبهة الأسد ؛ وخص الشاعر هاتين المنزلتين لأن السحاب الذى ينشأ بنَوْء من منازل الأسد يكون مطره غزيراً فلذلك يسر به . قال الأعلم : وصف عارض سحاب اعترض بين نوء الذراع ونوء الجبهة ، وهما من أنواء الأسد ، وأنواؤه أحمد الأنواء ، وذكر الذراعين والنوء إنما هو للذراع المقبوضة منهما لاشتراكهما فى أعصاب الأسد ، ونظير هذا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) يريد من البحرين الملح والعذب ، وإنما يخرج اللؤلؤ من الملح لا منهما . وقال شاعر من بنى سعد :

وخيفاء ألقى الليث فيها ذراعه ... فسرت وساءت كل ماش ومُصْرِمِ
تمشى بها الدرماء تسحب قُصْبَها ... كأن بطن حُبْلى ذات أونين متئمِ

الخيفاء : روضة فيها رطب ويبيس وهما لونان أخضر وأصفر . وكل لونين خيف ، وبه تسمى الفرس إذا كانت إحدى عينيها كحلاء والأخرى زرقاء ، وسمى الخيف خيفاً لأن فيه حجارةً سوداً وبيضا . وقوله : « ألقى الليث فيها ذراعه » يقول : مطرت بنوء الذراع وهى ذراع الأسد فسرت الماشى ، أى صاحب الماشية ، وساءت المصرم الذى لا مال له لأن الماشى يرعيها ماشيته ، والمصرم يتلهف على ما يرى من حسنها وليس له ما يرعيها . وقوله « تمشى بها الدرماء » يعنى الأرنب وإنما سميت الدرماء لتقارب خطوها ، وذلك لأن الأرانب تدرم درماً تقارب خطوها وتخفيه لئلا يقص أثرها فيقال درماء وكان ينبغى أن يقول دارمة . وقوله « تسحب قصبها » وهذا مثل ، والقُصْب المِعَى مقصور والجمع أقصاب ، وإنما أراد بالقصب البطن بعينه واستعاره يقول : فالأرنب قد عظم

بطنها من أكل الكلأ وسمنت فكأنها حبلى ، والأونان العدلان ، يقول : كأن عليها عدلين لخروج جنبيها وانتفاخهما ، ويقال أون الحمار وغيره إذا شرب حتى ينتفخ جنباه ومتئم اسم فاعل من أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين فى بطن فهى متئم ، والشعر فى هذا الباب كثير ، الثالث من أنواء الشتاء (النثرة) وهى لطخة ضعيفة بين كوكبين ، وهى ما بين فم الأسد وأنفه ومن الإنسان فرجة ما بين الشار بين حيال وترة الأنف ، وقيل إنما سميت نثرة لأنها كقطعة سحاب نثرت الرابع (الطرف) وهو عينا الأسد وهما كوكبان صغيران بينهما نحو قامة فى مرأى العين . الخامسة (الجبهة) وهو كما سبق أربعة كواكب معوجة فى اليمانى لها بريق وهى جبهة الأسد عندهم . السادس (الزُّبْرَة) وهو كوكبان نيران فى زبرة الأسد وهى موضع الشعر فى كتفيه ، ويقال لها الخراتان كأنهما نفذا إلى جوف الأسد مشتق من الخرت وهو الثقب . وزعم قوم أنهما عجز الأسد ، والعيان يبطل ذلك كما قاله الزجاجى . السابع (الصَّرْفة) وهو كوكب وقاد عنده كواكب طمس ، سمى بذلك لانصراف البرد بسقوطه والحر بطلوعه . فهذه عدة المنازل وصفاتها وإنما أضيفت إلى القمر دون الشمس وحظهما فيها واحد لظهورها معه . وتسمى (نجوم الأخذ) لأن الأرض تأخذ عنها بركات المطر ، وقيل لأخذ الشمس والقمر سمتها فى سيرها .

أقسام الأنواء وأيامها لدى العرب

إعلم أن العرب قسمت المنازل بالنسبة إلى أنوائها إلى سبعة أقسام على غير الوجه الذى نقلناه عن أبى إسحق الزجاجى فيما سبق (القسم الأول من الأنواء البدرى) وهو تسعة وثلاثون يوماً من ثمانية أيام خلون من أيلول إلى سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الأول ونوؤه على قول من يجعل النوء سقوط الكوكب فى الغرب مع الغداة سقوط فرغ الدلو المقدم والفرغ المؤخر والحوت (القسم

الثانى الوسمى) وهو اثنان وخمسون يوما ومبدؤه من سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الأول إلى تسعة أيام تمضى من كانون الأول ونوؤه سقوط الشرطين والْبُطَيْنِ والثريا والدَّبَرَان (القسم الثالث الولى) وهو مائة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من تسعة أيام تمضى من كانون الأول إلى ثمانية عشر يوماً تمضى من نيسان ونوؤه سقوط الهقْعة والهنْعة والذراع والنَّثْرة والطَّرْف والجبهة والزُّبرة والصَّرفة والعوّاء والسماك (القسم الرابع الغمير والمد) وهما متداخلان وهما اثنان وخمسون يوماً ، ومبدؤه من ثمانية عشر يوما من نيسان إلى تسعة أيام تمضى من حزيران ونوؤه سقوط الغفر والزُّبانى والإكليـل والقلب (القسم الخامس البسرى) وهو ستة وعشرون يوماً ، ومبدؤه تسعة أيام تمضى من حزيران إلى خمسة أيام تمضى من تموز وتسميه العامـة النفاخ لأنه يكبر فيه البلح فيصير بسراً ، وكذلك الفواكه والسماك ونوؤه سقوط الشولة والنعائم (القسم السادس بارح القيظ) ويسمى أيضا رياح القيظ الشديدة وهى السموم وتسميه العامة الطباخ لأنه يطبخ البسر الذى ينفخه البسرى فيصير رطباً ، وهو تسعة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من خمسة أيام مضين من تموز إلى ثلاثة عشر يوماً خلت من آب ، ونوؤه سقوط البلدة وسعد بُلَع وسعد الذابح (القسم السابع إحراق الهوى) وهو ستة وعشرون يوما من ثلاثة عشر يوماً من آب إلى ثمانية أيام من أيلول ، ونوؤه سقوط سعد السعود وسعد الأخبية .

البعد بين المنازل

إعلم أن البعد من الشَّرَطين إلى البُطَيْن اثنتا عشرة درجة ، ومن البطين إلى الثريا ثلاث عشرة درجة ، ومن الثريا إلى الدّبران خمس عشرة درجة ، ومن الدبران إلى الهقعة أربع عشرة درجة ، ومن الهقْعة إلى الهنْعة ست عشرة درجة ، ومن الهنعة إلى الذراع كذلك ، ومن الذراع إلى النثْرة ثلاث عشرة درجة ، ومن الطرف إلى الجبهة عشر درجات ، ومن الجبهة إلى الزبرة أربع عشرة درجة

من الزبرة إلى الصرفة ثلاث عشرة درجة ، ومن الصَّرفة إلى العوّاء ست عشرة درجة ، ومن العواء إلى السماك اثنتا عشرة درجة ، ومن السماك إلى الغفر مثل ذلك ، ومن الغَفْر إلى الزبانى مثل ذلك أيضاً ، وتسمى هـذه (متساوية الأبعاد) ومن الزبانى إلى الإكليل أربع عشرة درجة ، ومن الإكليل إلى القلب خمس عشرة درجة ، ومن القلب إلى الشَّوْلة ست عشرة درجة ، ومن الشولة إلى النعائم عشرون درجة ، ومن النعائم إلى البلدة تسع درجات (وهن أوسط الأبعاد) ، ومن البلدة إلى سعد الذابح إحدى عشرة درجة ، ومن سعد الذابح إلى سعد بُلَعْ عشرة درجات ، ومن سعد بَلَع إلى سعد السعود مثل ذلك ، ومنه إلى سعد الأخبية مثل ذلك ، ومنه إلى الفرغ المقدم مثل ذلك ، (وهذه الأربعة متساوية الأبعاد) ومنه إلى الفرغ المؤخر تسع عشرة درجة .

ما تقوله العرب فى طلوع المنازل والكواكب

قال ابن قتيبة فى (كتاب الأنواء) يقول ساجع العرب (إذا طلع الشَّرَطان) استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادى الجيران [1] (إذا طلع البُطَيْن) اقتضى الدين [2] ، وظهر الزين [3] ، واقتنى بالعطار والقين [4] (إذا طلع النجم) يعنى الثريا فالحر فى حذم [5] ، والعُشْب فى حطم ، والعانات فى كدم [6] (إذا طلع الدبران) توقدت الحُزّان [7] ، وكرهت النيران ، واستعرت الذبان ،

(١) يربد أنهم يرجعون عن البوادي الى أوطانهم ومياههم لان الغدران بالبوادى حينئذ قد قلت والحر قد رق وكاد النبات يهيج باقبال أوائل الحر، وتهادى الجيران يكون حينئذ لانهم كانوا متفرقين فى النجع ، واذا رجعوا الى مياههم التقوا وتقاربوا فأهدى بعضهم الى بعض . (٢) اقتضاؤهم الدين عند طلوع البطين ، لانهم يرجعون عن البوادى الى أوطانهم — واذا طلع الشرطان — فيتهادون ويتلاقون ولا يزالون كذلك (١٣) يوما حتى يطلع البطين فيطمئنوا ويقتضى بعضهم بعضا ماله عليه من الدين . (٣) يريد أنهم عند التلاقى يتجملون باحسن ما يقدرون عليه . (٤) القين : الحداد . واقتفاؤهم بالعطار والقين برهم بهما لحاجتهم الى ابتياع الطيب من العطار ، واصلاح الحداد مارث من آلاتهم وامتعتهم (٥) يريد أنه حينئذ يهيج وينكسر .

(٦) اى تتعاض (٧) الارضون الصلبة واحدها حزيز وانما تتوقد لشدة وقع الشمس .

ويبست الغدران ، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان [١] (إذا طلعت الهقعه) تقوض الناس للقلعة ، ورجعوا عن النجعة [٢] ، وأردفتها الهنعة [٣] (إذا طلعت الجوزاء) توقدت المَعْزَاء [٤] ، وَكَنَسَت الظباء [٥] ، وعرقت العلباء [٦] ، وطاب الخباء [٧] (إذا طلعت العذاة) لم يبق بِعُمان بسرة [٨] ، إلا رطبة أو تمرة (إذا طلع الذراع) حسرت الشمس القناع [٩] ، وأشعلت فى الأفق الشعاع ، وترقرق السّراب بكل قاع [١٠] ، (إذا طلعت الشعرى) نشف الثرى ، وأجن الصّرى ؛ وجعل صاحب النخل يرى [١١] (إذا طلعت النثرة) قنأ البسرة ، وجنى النخلُ بكرة [١٢] ، وأوت المواشى حجرة [١٣] ولم تترك فى ذات در قطرة (إذا طلعت الطرفة) بكرت الخُرفة ، وكثرت الطُّرفة ، وهانت للضيف الكلفة [١٤] (إذا طلعت الجبهة) تحانت الولهة ، وتنازت السفهة ، وقلت فى الأرض الرفهة [١٥] ، (إذا طلعت الصّرْفة) احتال كل ذى حرفة [١٦] ، وجفر كل ذى نطفة [١٧]

---

(١) ذلك لانهم لا يخافون بردا ولا مطرا (٢) قال المجد النجعة بالضم طلب الكلأ فى موضعه (٣) اى مع طلوعها يرجع الناس الى مياههم .

(٤) الارض الصلبة تتوقد بحر الشمس (٥) يريد أنها تدخل الكنس فى شدة الحر ، واحدها كناس وهو مستترة فى الشجر (٦) يريد العلباوين فى العنق (٧) لانه يكن فى الحر (٨) عمان كغراب بلدة باليمن شديدة الحر ، فاذا بسر النخل بالبصره صرم بعمان (٩) اى كشفت القناع . يريد اشتداد حرارتها (١٠) ترقرق : تحرك ، والسراب : ما تراه نصف النهار كانه ماء ، والقاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام (١١) يريد نغير الماء المجتمع فى الغدران والمناقع لشدة الحرارة وانقطاع المرار عنه وتبين لصاحب النخل ثمرة نخله لانه حينئذ يكثر (١٢) يريد اشتدت حمرة البسرة حتى كادت تسود وذلك أول وقت الصرام فيجنون النخل بكرة لانه فى ذلك الوقت بارد ببرد الليل (١٣) اى ناحية منهم لحاجتهم الى ألبانها وانما يحلبونها فى هذا الوقت ويستقصون ما فى ضروعها لانهم هموا فيه بفصال الاولاد فلا يبقون فى الضروع لها شيئا لتنال من الرعى وتسلو عن الامهات (١٤) يريد ان خرفة التمر تبكر فى وقت طلوعه ، وتكثر الطرفة عندهم ، وتهون الكلفة الضيف لكثرة التمر فى ذلك الوقت وكثرة اللبن الذى يستقصونه من الضروع لفصال الاولاد عن الامهات (١٥) وانما تحانت الولهة لان اولادها قد ميزت عنها وفصلت « فتسمع حنين الامهات ، ويكثر أيضا عند الفصال الموت فى الاولاد والامهات تحن ، وتتناز السفهة لانهم فى خصب من اللبن والتمر فيبطرون ، واذا تنازت السفهة قلت الرفهة اى الرحمة واحتاجوا الى حفظ اموالهم وجميع مواشيهم ونعمهم خوف الغارة (١٦) يريد ان الشتاء قد أقبل وكل ذى حيلة يضطرب ويحتال الشتاء ما يصلحه فيه ، وكانت العرب تقول (من غلى دماغه فى الصيف غلت قدره فى الشتاء » (١٧) يريد عدل عن الضراب فى هذا الوقت لان المخاض فيه وهى الحوامل من الابل قد ظهر بها الحمل وعظمت بطونها فليس يدنو منها الفحل .

وامتيز عن المياه زلفة [(١)] (إذا طلع العوّاء) ضرب الخباء ، وطاب الهواء ، وكره العراء [(٢)] وشنن السقاء [(٣)] (إذا طلع السماك) ذهب العكاك [(٤)] ، وقل عن الماء اللكاك [(٥)] (إذا طلع الغَفْر) اقشع السفر [(٦)] ، وتزيل النضر [(٧)] ، وحسن فى العين الجمر (إذا طلع الزبانى) أحدثت لكل ذى عيال شأنا ، ولكل ماشية هوانا وقالوا كان وكانا ، فاجمع لأهلك ولا توانَى [(٨)] (إذا طلع الأكليل) هاجت الفحول ، وشمرت الذيول ، وتخوفت السيول (إذا طلع القلب) جاء الشتاء كالكلب ، وصار أهل البوادى فى كرب ، ولم تمكن الفحل إلا ذات ثرب [(٩)] (إذا طلعت الشولة) أعجلت الشيخ البولة ، واشتدت على العائل العولة [(١٠)] وقيل شتوة زولة [(١١)] (إذا طلعت العقرب) جَمَسَ المذنب [(١٢)] وقرب الأشيب ، ومات الجِنْدَب [(١٣)] ولم يصِرّ الأخطب [(١٤)] (إذا طلعت النعائم) توسقت البهائم [(١٥)] وخلص البرد إلى كل نائم ، وتلاقت الرعاء بالنّمائم [(١٦)] (إذا طلعت البلدة) حممت الجعدة [(١٧)] وأكلت القشْدَة [(١٨)] وقيل للبرد : إهده [(١٩)] (إذا طلع سعد الذابح) حمى أهله النابح [(٢٠)] ونفع أهله الرائح [(٢١)] وتصبح السارح [(٢٢)]

(١) يريد أنهم يخرجون متبدين ويفارقون المياه التى كانوا عليها لطلب الكلأ والانتجاع (٢) لان البرد حينئذ بالليل يؤذى ويكره العراء يريد النوم فى الصحارى الباردة (٣) أى يبس لانهم قد أقلوا استقاء الماء فيه .

(٤) العكاك : الحر يريد انه لا يبقى منه شىء عند طلوعه (٥) يريد الازدحام عليه لقلة شرب الابل فى ذلك الوقت (٦) المسافرون (٧) يريد ذهاب النضارة عن الارض والشجر بتغيير الكلأ والورق (٨) يريد أن البرد قد هجم فشغل صاحب العيال وابتذل صاحب الماشية نفسه فى تتبع مصالحها ، وانهم أكثروا الحديث والقول (٩) يريد ذات سمن وشحم لانها أحمل البرد من الهزيلة فهى تتقدمها (١٠) الحاجة (١١) عجيبة (١٢) جمد الماء فى مذانب الاودية (١٣) الجراد (١٤) الشقراق أو الصرد ، والصر : الصياح .

(١٥) أى تشعثت وتغيرت (١٦) لانهم حينئذ يفرغون ولا يشغلهم رعى فيتلاقون ويدس بعضهم الى بعض أخبار الناس (١٧) الجعدة : نبت ، يريد طلعت فاخضرت الارض لها ، وحمم وجه الغلام اذا بقل ، وحمم الراس اذا اسود بعد الحلق من غير ان يطول (١٨) هى الزبدة الرقيقة ، وتعرف عندنا بالعراق باسم (الكشوة) بالكاف الفارسية ، ولا شك أنها محرفة عن القشدة يريدان الزبد عندهم فى ذلك الوقت يكثر (١٩) أى يقال « اهدأ عنا » لشدة ما يقاسون منه (٢٠) يريد : الكلب يلزم حينئذ أهله فلا يفارقهم لشدة البرد وكثرة اللبن فهو يحميهم وينبح دونهم (٢١) أى أنهم يأتيهم بالحطب اذا راح فينفعهم بذلك (٢٢) أى لم يبكر بماشيته لشدة البرد .

وظهر فى الحى الأنافح [١] (اذا طلع سعد بُلَع) اقتحم الرُّبَع [٢] ولحق الهبع [٣] وصيد المُرَع [٤] وصار فى الأرض لمع [٥] (اذا طلع سعد السعود) نضر العود [٦] ولانت الجلود [٧] وكره فى الشمس القعود (اذا طلع سعد الأخبية) دهنت الأسقية [٨] ونزلت الأحوية [٩] وتجاورت الأبنية (اذا طلع الدلو [١٠]) هيب الجذو [١١] وأنسل العفو [١٢] وطلب اللهو الخلو [١٣] (اذا طلعت السمكة)أمكنت الحركة — وتعلقت بالثوب الحسكة [١٤] ونصبت الشبكة [١٥] وطاب الزمان للنسكة [١٦] ولهم غير ذلك من الأسجاع فى سائر الكواكب وأنوائها ؛ واستيعابها فيما أعد لها من الكتب.

الطالع والغارب من المنازل والرقيب منها

إعلم أن المنازل كلما كانت ثمانية وعشرين كانت ثلاثة عشر منها ظاهرة

---

(١) جمع انفحة بكسر الهمزة وهى شىء يستخرج من بطن الجدى الرضيع اصفر فيعصر فى صوفه مبتلة فى اللبن فيغلظ كالجبن (٢) الربع كصرد : الفصيل ينتج فى الربيع وهو اول النتاج ، يريد انه يقوى فى مشيه ويسرع فلا يضبط (٣) أى أن الهبع أيضا قد نوى شيئا فهو يلحقه ، وهو : ما نتج فى أول النتاج وهو ضعيف ، وانما سمى هبعا لانه اذا مشى خلف أمه هبع أى مد عنقه فيستعين بعنقه لضعفه (٤) جمع مرعة كهمزة وغرفة وهو طائر يشبه الدراج ، كأنه فى هذا الوقت يقطع (٥) أى قطع من الكلأ

(٦) يريد ان الماء قد جرى فيه قبل ذلك فصار ناضرا غضا .

(٧) وانما لانت بذهاب يبس الشتاء وقحله (٨) وانما تدهن الاسقية لانها فى الشتاء قد يبست وشننت لتركهم الاستقاء فيها فتدهن فى هذا الوقت عند الحاجة اليها (٩) جمع حواء وهى جماعات بيوت الناس ، والحلال مثلها ، وهى تكون من وبر وشعر كأنهم فى هذا الوقت ينتقلون من مشتاهم ويتجاورون

(١٠) جمع الساجع فى سجعه القول الفرغين جميعا بذكره « الدلو »

(١١) يريد ان الرطب جف وخيف أن لا تكتفى به الابل من الماء

(١٢) أى سقط نسله أو حان أن سقط وهو وبره الذى يستجد مكانه كل سنة ، والعفو : ولد الحمار (١٣) يريد طلب التزويج ، واللهو : المراة . وهو النكاح . قال الله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا) أى لو أردنا صاحبة لاتخذنا ذلك عندنا ولم نتخذه عندكم او كنا فاعلين ، وانما يطلب الخلو التزويج فى هذا الوقت لانه قد خرج من ضيق الشتاء وشدته ، وأمكنه التصرف وابتغاء الرزق فطلب التزويج (١٤) يريد شوكة السعدان . يعنى أن النبت قد اشتد وقوى فتعلقت الحسكة بالثوب وغيره (١٥) لان الطيور حينئذ تسقط فى الرياض وتصوت (١٦) يعنى النساك المتقللين الذين يسيحون فى الارض ولا يبالون كيف أخذوا ولا يتأذون بحر ولا برد .

فى الأفق الأعلى ، وثلاثة عشر فى الأفق الأسفل ، والطالع فى حكم الطلوع ، والغارب فى حكم الغروب ، فإذا عرفت الطالع كان رقيبه الخامس عشر . وإنما سمى الغارب رقيباً تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط من المغرب إذا ظهر ذلك من المشرق ، والطالع والغارب كما يعدان لأهل الأفق الأعلى كذلك يعدان لأهل الأفق الأسفل ، وبقية الثلاثة عشر الظاهرة واحد منها متوسط فى وسط السماء ، وستة منها إلى جهة المشرق ، وستة إلى المغرب ، وكذلك الثلاثة عشر السفليه ، فإذا غربت منزلة طلعت من المشرق أخرى فيتوسط ما بعد المتوسط فى العدد ، ومهما كان الطالع فالخامس عشر منه الغارب ، والثامن منه متوسط .

بروج الفلك الاثنا عشر

قسم العرب الفلك الى اثنى عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً ، وهى : الحَمَلُ والثَّوْر والجَوْزاء (ويسمى التوأمين) والسَّرَطان والأسد والسنبلة (وتسمى العذراء أيضا) وهذه البروج الست شمالية ، والميزان والعقرب والقوس (ويسمى الرامى أيضا) والجَدْى والدلو (ويسمى ساكب الماء والدالى أيضا) والحوت (ويسمى السمكتين أيضا) وهذه الست جنوبية ، وجعلوا كل ثلاثة منها لفصل من فصول السنة الأربعة . ونظم بعضهم هذه البروج على الترتيب المعتبر عندهم فقال :

حَمَلَ الثورُ جوزةَ السرَطَان ورعى الليث سُنْبل الميزان
ورمى عقرب بقوس جديا نزحت دلوها بركة الحيتان [1]

وهذه الأسامى المذكورة مأخوذة من صور توهمت على المنطقة من كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقعت وقت التسمية فى تلك الأقسام (فالحَمَل) ثلاثة عشر كوكباً على صورة كبش ذى قرنين مقدَّمه إلى المغرب ومؤخره إلى

---

(١) كذا والرواية الصحيحة :
وزنوا عقربا وقوسا بجدى ومن الدلو مشرب الحيتـان

المشرق وظهره إلى الشمال ورجلاه فى الجنوب وقد التفت إلى خلفه (وللثور) اثنان وثلاثون كوكباً على صورة مقدم نور مقطوع من سرته وقد نكس رأسه ، مقدمه إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب ، ومن كواكبه الثريا والدّبران (وللتوأمين) ثمانية عشر على صورة صبيين عريانين معتنقين فى جوز السماء (أى وسطها) رأساهما فى الشمال والمشرق أى فيما بينهما ، وأرجلهما إلى المغرب والجنوب (وللسّرَطان) تسعة كواكب على صورته مقدمه إلى المشرق والشمال ومؤخره إلى المغرب والجنوب (وللأسد) سبعة وعشرون على صورته وجهه إلى المغرب وظهره إلى الشمال والنيّر الذى هو فيها هو قلب الأسد ، ومنها الهلبة وهى كواكب مجتمعة متكاثفة من جملتها الضّفيرة (وللعذراء) ستة وعشرون كوكباً على صورة جارية ذات جناحين أرسلت ذيلها ، رأسها إلى المغرب والشمال ، وقدماها إلى المشرق والجنوب ، ويدها اليسرى مسبلة مع جنبها ، واليمنى مرفوعة حَذْوَ منكبيها وقد قبضت بها سنبلة والنّير الذى على كفها اليسرى هو السّماك الأعزل (وللميزان) ثمانية على صورة ميزان كفتاه نحو المغرب ، وعموده نحو المشرق (وللعقرب) أحد وعشرون على صورتها ، رأسها إلى الشمال ، وحُمَتُها[1] نحو الجنوب والمشرق ، والأحمر الذى فيه هو قلب العقرب (وللرامى) أحد وثلاثون كوكباً على صورة كأنها جسد دابة إلى العنق وهو فى المشرق ثم يخرج من مغرز العنق نصف رجل من عند الحِقْو[2] عليه عمامة ذات ذوائب ، وقد وضع السهم فى قوسه ، وأغرق فى النزع نحو المغرب (وللجَدْى) ثمانية وعشرون كوكباً على صورة النصف المقدم من جَدْى ذى قَرْنين رأسه ويداه نحو المغرب وظهره إلى الشمال والباقى كمؤخر سمكة إلى ذنبها (ولساكب الماء) اثنان وأربعون كوكبا على صورة رجل قائم ، رأسه فى الشمال ورجلاه فى الجنوب متوجه إلى المشرق مادّ

---

(١) الحمة على وزن ثبة : الابرة التى تضرب بها العقرب

(٢) بالفتح ويكسر : الكشح او الازار أو معقده .

اليدين بإحداهما كوز قد قلبه وانصب الماء إلى مقام رجليه وجرى من تحتهما إلى فم الحوت (وللسمكتين) أربعة وثلاثون على صورة سمكتين قد وصل ذنب إحداهما بذنب الأخرى بخيط طويل من كواكب على تعريج يسمى خيط الكتان إحداهما وهى المتقدمة رأسها إلى المغرب وذنبها إلى المشرق ، ورأس الأخرى الى الشمال وذنبها الى الجنوب ، ولا يذهب عليك أن هذه الكواكب عند البروج متحركة بحركة الفلك الثامن فلاَ محالة تنتقل هذه الصور عن مواضعها فى تلك الأقسام ، والله تعالى أعلم .

فصول السنة على مذهب العرب ، ومالهم فيها من الاختلاف

إعلم أن العرب قسموا السنة الى أربعة أجزاء (فجعلوا الجزء الأول الصَّفَرِيّة) سموا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو السفلى ، وآخره سقوط الهقْعة (وجعلوا الجزء الثانى الشتاء) وأوله عندهم سقوط الهَنْعة ، وآخره سقوط الصَّرفه (وجعلوا الجزء الثالثَ الصيف) وأوله عندهم سقوط العواء ، وآخره سقوط الشولة (وجعلوا الجزء الرابع القيظ) وسمّوا مطره الخريف ، وأوله عندهم سقوط النعائم ، وآخره سقوط عرقوة الدلو العليا ، كذا فى كتاب (در اللآلى) وقال ابن قتيبة فى باب ما يضعه الناس فى غير موضعه وهو أول كتابه (أدب الكاتب) : ومن ذلك الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ويأتى فيه الورد والنَّوْر ، ولا يعرفون الربيع غيره ، والعرب تختلف فى ذلك ، فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده ، ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذى تدعوه العامة الصيف ، ومن العرب من يسمى الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذى يتلو الشتاء ويأتى فيه الكمأة والنور الربيع الثانى ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع

قال شارحه ابن السيد : مذهب العامة فى الربيع هو مذهب المتقدمين ، لأنهم كانوا يجعلون حلول الشمس برأس الحمل أول الزمان وشبابه ، وأما العرب فإنهم جعلوا حلول الشمس برأس الميزان أول فصول السنة الأربعة ، وسموه الربيع . وأما حلول الشمس برأس الحمل فكان منهم من لا يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيعان ، وكان منهم من لا يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيع واحد ، وأما الربيعان من الشهور فلا خلاف بينهم أنهما اثنان ربيع الأول وربيع الآخر .

وقال المرزبانى فى كتاب صنفه فى الأنواء أتى فيه بفوائد كثيرة مقداره مائة وعشرون كراسة : ومن العرب من يقسم السنة نصفين ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى ، قال : وإنما جعلوه أنثى لأن النبات يظهر فيه ، ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيجعل الشتاء أوله ، والربيع آخره ، ويقسم الصيف نصفين فيجعل الصيف أوله ، والخريف آخره ، وفى بعض التعاليق أن من العرب من يجعل للسنة ستة أزمنة (الأول الوسمى) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة أنجم ، أولها العواء (الزمن الثانى الشتاء) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الثالث الربيع) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الرابع الصيف) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الخامس الحميم) وحصته شهران ، وأربعة أنجم وثلثا نجم (السادس الخريف)وحصته شهران وأربعة أنجم وثلثا نجم . والذى عليه الغالب من العرب أن الفصول أربعة وهى المشهورة بين الناس وأن لكل فصل من فصول السنة سبعة منازل فللربيع من الشَّرَطين إلى الذراع ، وللصيف من النثرة إلى السماك ، وللخريف من الغَفْر إلى البلدة ، وللشتاء من سعد الذابح إلى الرشا ، والأوائل من الأطباء وإن كانوا يقسمون السنة على أربعة أقسام إلا أنهم يجعلون الصيف والشتاء أطول زماناً من الربيع والخريف ، فيجعلون للشتاء أربعة أشهر ، وللصيف كذلك ، وللربيع

والخريف أربعة أشهر لكل شهران ، لكونهما متوسطين بين الحر والبرد فكأنهما وصلتان بين الشتاء والصيف ، وقد أعرضنا عما يستشهد به من الشعر لكل مذهب لئلا يطول الكلام .

الجمرات وسقوطها ، وهل هي كواكب أم لا ؟

قال بعض من تكلم في الأنواء : إن بعض الأعراب كانوا إذا اشتد عليهم البرد دخلوا مغارات في الجبال واسعة ، وأدخلوا معهم أغنامهم ومواشيهم من الإبل والبقر والغنم ونحو ذلك ، وخصوا لهم موضعاً ، وللأغنام موضعاً ، ولنحو البقر موضعاً ، وأوقدوا لكلٍّ ناراً دفعاً لِسَوْرَةِ البرد [1] ، فإذا أحسوا بتصرمه أطفأوا ناراً فناراً إلى أن يطفئوا الثلاث ، فعبروا عن ذلك بسقوط الجمرات ، وعن إطفاء كل نار بسقوط جمرة ، ونحوه ما قيل إن ملوك المغل ونحوهم من سكان البلاد كانوا إذا اشتد البرد وأوقدوا في مجالسهم ثلاث مجامر ، فإذا أحسوا بتصرمه رفعوها واحدة فواحدة ، فعبروا عن ذلك بما ذكر ، وشاع استعماله فيما بين الناس غير أولئك الفريقين كناية عن انكسار سَوْرَةِ البرد في الماء والهواء والتراب وعندى أن هذا الوجه في غاية البعد فإن اللفظ من اللغة العربية وعوائد المغل لم تكن معهودة للعرب يومئذ ! ورأيت لبعض المحققين في ذلك وهو الحرى بالإصغاء إليه أن الجمرات عبارة عن كواكب ثلاثة : رأس الحية وهو كوكب من كواكب الطرف ، والذراع الشامى وهو كوكب من كواكب الهَنْعه ، وقلب الأسد وهو كوكب من كواكب الجبهة ، وسميت بالجمرات لتوقدها وضربها إلى الحمرة ، وسقوطها ميلها للغروب ، وقد جرت عادة الله تعالى بظهور أثر الحرارة في الماء عند سقوط رأس الحية في الغداة سابع شباط وميله للغروب في ذلك الوقت ، وبظهور أثرها في الهواء عند سقوط الذراع الشامىّ في الغداة أيضا في رابع عشرة ،

---

(١) اى شدته .

و بظهوره فى التراب عند سقوط قلب الأسد فى ذلك الوقت فى الواحد والعشرين منه ، ولهذه المناسبة قالوا للأولى : جمرة المـاء ، وللثانية جمرة الهواء ، وللثالثة : جمرة التراب ، وربما وقع فى التقاويم فى الترتيب سقوط جمرة المـاء ، ثم سقوط جمرة التراب ، ثم سقوط جمرة الهواء ، وفى بعضها سقوط جمرة الهواء ، ثم سقوط جمرة المـاء ، ثم سقوط جمرة التراب ، فلعل ذلك بناء على الاختلاف فى ترتيب ظهور الآثار ، وفى تقييد السقوط بقوله بالغـداة اندفع إشكال لا يخفى على من يعرف الطالع والغارب ، وذلك إذا أريد بالغـداة ما يعم وقت طلوع الشمس وما بعده إلى الزوال ، وقد يقال الأمر أيضاً سهل إذا أريد بها وقت الطلوع بناء على أن قلب الأسد مثلا فى الدرجة الرابعة والعشرين من برجه ، وأنهم يبنون الأمر على الترتيب كما لا يخفى على من راجع كتب الأحكام ، من ذوى الأفهام ، وفى كتب الأنواء زيادة تفصيل لمثل هذه المطالب .

مخايل العرب فى الأنواء

لمـا كانت العرب أيام جاهليتهم فى ضنك من العيش ، وكلف من الحاجة ، وشدة من العوز ، ألحوا فى تتبع مواقع القطر وأوغلوا فى بطون الأودية ، وجابوا منابت الشجر ، سداً لهم حوائجهم ، وارتياداً لمـا يقوم بمؤنهم ، ويصلح لعلف دوابهم ، ومراعى إبلهم ، وسائر مواشيهم ، وكانت دارهم كثيرة القحط ، قليلة الأنهار والعيون ، فامتدت أعناقهم نحو السماء لمطالعـة علائم الظفر بمقصودهم ومطلوبهم ، فكانت لهم مخايل لصوادق الأنواء لا تـكذب ، فعرفوا السحاب الممطر من غـيره وميزوا البرق الْخُلَّبَ [1] عما سواه ، ووصفوا الغيث والمطر بأقسامه ، ووقفوا على الرياح وخواصها ، وأدركوا ما يعقبها من الحوادث من غير استناد إلى آلة حدثت بعدهم بعدة قرون ، بل فهموا ذلك من علائم ظهرت لهم ، وقد استوى فى معرفتها صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، ولذلك شواهد فى

---

(١) المطمع المخلف .

منظوم كلامهم ومنثوره توقف الناظرين إليها فى موقف الحيرة ، لما كان عليه القوم من فصاحة المنطق ، وذرب اللسان وحـلاوة التعبير ، وسعة نطاق البيـان ، بيد أنى أورد من ذلك غالب ما ذكره الإمام أبى بكر محمد بن الحسن الشهير بابن دريد الأزدى فى كتاب (المطر والسحاب) محيلاً شرح الألفاظ إلى ذلك الـكتاب روماً للاختصار ، وهو كتاب جليل جمع فيه ما ذكرته العرب فى جاهليتها و إسلامها من وصف المطر والسحاب ، وما نعتتـه العرب الروّاد من البقاع مع الشرح المبسوط لألفاظه (روى أبو بكر بن دريد بسنده) قال : بَيْنا رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتَ يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سَحابة ، فقالوا يا رسول الله : هذه سحابة ! قال : كيف ترون قواعدها[1] ؟ قالوا : ما أحْسَنَها وأشَدَّ تمـكنها ! قال : وكيف ترون رَحاها[2] ؟ قالوا ما أحسنها وأشدَّ استدارتها . قال : وكيف ترون بواسقها[3] ؟ قالوا : ما أحسنها وأشدَّ استقامتها ! قال : وكيف ترون بَرْقَها أوَميضاً ، أم خَفْياً[4] ، أم يَشُقُّ شقّاً ؟ قالوا : بل يَشُقُّ شقّاً . قال : وكيف ترون جَوْنَها[5] ؟ قالوا : ما أحسنه وأشـدَّ سوادَهُ ! فقال : الحَيَا[6] . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو منك أفصح ! قال : وما يمنعنى من ذلك فإنما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربيٍّ مُبين .

وروى بسنده عن الأصمعى . قال : خرج معقر بن حماد البارقى ذات يوم وقد كفَّ بصره وابنته تقوده فسمع رعداً ، فقال لابنته : ما ترين ؟ قالت : أراها حماء عقاقة[7] ، كأنها حولاء ناقة[8] ، لها سيرّوانٍ وصدرّدان . فقال : مرّى فلا بأس عليك ؟ ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين ؟ فقالت : أراها كأنها لحمٌ ثِت :

---

(١) أسافلها واحدثها قاعدة (٢) وسطها ومعظمها وكذلك رحى الحرب . ومعظمها حيث استدار القوم (٣) ما علا منها وارتفع وكل شىء ارتفع وطال فقد بسق (٤) الوميض : اللمع الخفى ، والخفو : البرق الضعيف ، وقال أبو عمرو : خفى البرق خفيا اذا برق برقا ضعيفا (٥) أسودها ، والجون من الأضداد يكون الأسود ويكون الأبيض (٦) الغيث والخصب (٧) الحماء : السوداء تضرب الى الحمرة ، والعقاقة : التى تعق بالبرق . تريد ان البرق ينشق عقائق (٨) الحولاء : جلدة رقيقة تقع مع سليل الناقة كأنها مرآة .

منه مسيك ومنه منهرت[١] . فقال : وائلى[٢] الجئ بى إلى جانب قَفْلةٍ[٣] فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل .

وروى بسنده إلى عم الأصمعى . قال : سئل أعرابىّ عن مطر فقال : استقلّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفَل[٤] ، فَشصا واحزألّ[٥] ، ثم اكفهرّتْ أرجاؤه[٦] ، واحمومَتْ أرحاؤه[٧] ! وابذعرَّتْ فوَارِقه[٨] ، وتضاحكت بوَارِقُه[٩] واستطار وادِقه[١٠] ، وارتَتَقَتْ جُوَبُه[١١] ، وارتَعَنَ هَيْدَبُه[١٢] ، وحَشَكَتْ أخلافه[١٣] واستقلّتْ أردافه[١٤] ، وانتشرت أكنافه[١٥] ، فالرعد مُرْتَجِس[١٦] ، والبرق مختلس[١٧] ، والماء مُنْبَجِس[١٨] ، فأترَعَ الغُدُر[١٩] ، وانتبَثَ الوُجُر[٢٠] ، وخَلَطَ الأوعال بالآجال[٢١] ، وقرن الصِّيران بالرِّئال[٢٢] ، فللأودية هَدِير[٢٣] ، وللشِّراج خَرِير[٢٤] ، وللتِّلاع زَفير[٢٥] ، وحَطَّ النَّبْعَ والعتم[٢٦] ، من القُلَل

---

(١) تريد : لحم مسترخ قد انتن فبعضه متماسك وبعضه متساقط

(٢) بادرى (٣) ضرب من الشجر ؛ (٤) استقل : ارتفع فى الهواء ، والسد : السحاب الذى يسد الافق ، والطفل : اختلاط الظلام بعد غروب الشمس .

(٥) شصا : ارتفع يعنى السحاب ، واحزأل : انتصب (٦) اكفهر : تراكم ، وغلظ ، وارجاؤه : نواحيه واحدها رجا مقصور (٧) احمومت : اسودت ، وأرحاؤه : أوساطه (٨) ابذعرت : تفرقت ، والفوارق جمع فارق وهو السحاب الذى ينقطع من معظم السحاب ، وهذا مثل واصله فى الابل ، يقال : ناقة فارق وهى التى تند عن الابل عند نتاجها حيث لا ترى فتنتج (٩) شبه لمعان البرق بالضحك (١٠) استطار انتشر ، والوادق : الذى يكون فيه الودق وهو المطر العظيم القطر (١١) أى التأمت فرجه (١٢) ارتعن : استرخى ، والهيدب : الذى يتدلى ويدنو من الارض مثل هدب القطيفة (١٣) هذا مثل ، يقال : حشك ضرع الناقة اذا امتلأ لبنا ، والاخلاف جمع خلف وهو الضرع للناقة خاصة (١٤) مآخيره (١٥) نواحيه (١٦) مصوت (١٧) كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه (١٨) منصب (١٩) اى ملأها والغدر جمع غدير وهو القطعة من الماء يغادرها السيل (٢٠) اى اخرج نبيثتها وهو تراب البئر والقبر . يريد ان هذا المطر لشدته هدم الوجر (وهى جمع وجار وهو سرب الثعلب والضبع) حتى أخرج ماداخلها من التراب (٢١) الأوعال : التيوس الجبلية ، والآجال : جمع اجل وهو القطيع من البقر . يريد انه لشدته حمل الوعول وهى تسكن الجبال ، والبقر وهى تسكن القيعان والرمال فجمع بينهما .

(٢٢) الصيران : جمع صوار وصيار ايضا وهو القطيع من البقر ، والرئال : فراخ النعام واحدها رأل مهموز (٢٣) صوت كهدير الابل لكثرة السيل .

(٢٤) الشراج : مجارى الماء من الحرار الى السهولة ، والخرير : صوت الماء

(٢٥) التلاع : مجارى ما ارتفع الى بطن الوادى و « لها زفير » اى تزفر بالماء لفرط امتلائها (٢٦) النبع : شجر يتخذ منه القسى ينبت فى الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلى .

الشم[١] ، إلى القيعان الصُّحْم[٢] ، فلم يبق فى القلل إلا مُعْصَم مُجرَنْثم[٣] ، أو داحص مُجَرْجَم[٤] وذلك من فضل رَبٍّ العالمين ، على عباده المجرمين .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : سألت أعرابياً من بنى عامر بن صعصعة عن مطر صاب[٥] بلادهم ، فقال : نشأ عارضا[٦] ، فطلع[٧] ناهضا ، ثم ابتسم وامضا[٨] . فأعس فى الأقطار فأسحاها[٩] ، وامتدّ فى الآفاق فغطاها ، ثم ارتجز فهمهم[١٠] ثم دوى فأظلم ، فأرك ودثّ[١١] ، و بغش وطشّ[١٢] ، ثم قطقط[١٣] فأفرط . ثم ديم فأغمط[١٤] ، ثم ركد فأنجم[١٥] ، ثم و بل فسجم[١٦] وجاد فأنعَم[١٧] . فقمس الرّبى[١٨] ، وأفرط الزّبى[١٩] ، سبعاً تباعا ، ما يزيد انقشاعا ، حتى إذا ارتوت[٢٠] الحزون[٢١] ، وتضحضحت المتون[٢٢] ، ساقه ربك إلى حيث شاء كما جلبه من حيث شاء .

(وروى بسنده عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جدب ، فقال : نشأ حملاً سدّاً[٢٣] . متقاذف الأحضان[٢٤] .

---

(١) القلل : أعالى الجبال ، والشم : المرتفعة (٢) القيعان : جمع قاع وهى الأرض الطيبة الطين الحرة ، والصحم : التى تعلوها حمرة واحدها أصحم .
(٣) المعصم : الذى قد تمسك بالجبال وامتنع فيها ، والمجرنثم : المنقبض
(٤) الداحص : الذى يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع
(٥) اى جاد والصوب المطر الجود (٦) العارض : السحاب يعرض فى أفق السماء (٧) اى ارتفع (٨) أى لامعا لمانا خفيا كالتبسم (٩) قوله « فأعس » لعل صوابه « فعسعس » أى دنا من الأرض فى الاقطار ، « فأسحاها » أى فملأها
(١٠) ارتجز الرعد : صات ، والسحاب تحرك بطيئا لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : اذا سمع له صوت كهمهمة الأسد (١١) أرك : جاء بالرك وهو المطر القليل أو هو فوق الدث (١٢) البغش : المطر الضعيف ، والطش : فوق البغش
(١٣) أى تتابع قطره (١٤) ديم . مطر ديمة والديمة مطر يبقى أياما لا يقلع ، واغمط : دام (١٥) ركد : دام ، وانجم : أقام (١٦) السجم : الصب .
(١٧) أى فبالغ (١٨) أى غوصها فى الماء والربى جمع ربوة (١٩) أى ملأها والزبى جمع زبية وهى حفير تحفر للاسد والذئب ليصاد بها وهى لا تحفر الا فى موضع مرتفع فاذا بلغ السيل الى موضع الزبية فقد بلغ الغاية
(٢٠) افتعلت من الرى (٢١) جمع حزن وهو الغليظ من الأرض
(٢٢) المتون جمع متن وهى صلابة من الارض فيها ارتفاع ، وتضحضحت : صار فوقها ضحضاح من الماء وهو الماء يجرى على وجه الارض رقيقا .
(٢٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذى قد سد الافق .
(٢٤) يريد النواحى .

محومى الأركان[١] . لماع الأقراب[٢] ، مكفهرّ الرّبَاب[٣] ، تحنّ رعوده حنين اضطراب ، وتزمجر زمجرة الليوث الغضاب[٤] لبوارقه التهاب ، ولرواعده اضطراب . فجاحَفَتْ صدوره الشعاف[٥] ، وركبت أعجازه القِفاف[٦] ، ثم ألقى أعباءه[٧] وحطّ أثقاله ، فتألّق وأصعق . وانبجس وانبعق[٨] ، ثم أنجم[٩] فانطلق فغادر النهاء مترعة[١٠] ، والغيطان ممرعة[١١] ، حباءً للبلاد ، ورزقاً للعباد .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً صاب[١٢] بلادهم فى غِبِّ جدْب[١٣] فقال تدارك ربُّك خَلْقَه وقد كلِبَتْ الأمحال[١٤] وتقاصرت الآمال وعكف[١٥] اليأس ، وكُظِمَتِ الأنفاس[١٦] وأصبح الماشى مُصْرِما[١٧] ، والمُترِب مُعْدِماً[١٨] ، وجُفِيت الحلائل[١٩] ، وامتُهِنت العقائل[٢٠] فأنشأ الله سَحابا نشأ رُكاما[٢١] ، كَنَهْوَرًا سَجّاماً[٢٢] ، بروقهُ متألّقة ، ورعوده مُتَقَعْقِعَة[٢٣] فسحّ ساجيا راكداً ثلاثاً غير ذى فوَاق[٢٤] ، ثم أمر ربك الشّمال فَطَحَرَتْ رُكامَه[٢٥] ، وفرّقت جَهامه[٢٦] ، فانقشع محموداً ؛ وقد أحيا فأغنى ،

---

(١) هو مفعول من الحمأ وهو سواد تخلطه حمرة يسيرة وهو من قواهم فرس أحم (٢) الخصور (٣) المكفهر : المتراكب ، والرباب سحاب تراه كانه متعلق بالسحاب الواحدة ربابة (٤) زمجر الليث (وهو السبع) : ردد الزئير

(٥) جاحفت : زاحمت ودانته ، والشعاف : رؤوس الجبال (٦) جمع قف وهو الغلظ من الارض لا يبلغ أن يكون جبلا . يريد ان أعالى هذا السحاب مطل على الجبال ومآخيره على القفاف دان من الارض (٧) اى اثقاله يريد الماء

(٨) الانبجاس : الانفجار بالماء . والانبعاق : الصب الكثير فى سعة

(٩) اقلع (١٠) غادر : ترك ، والنهاء : جمع نهى وهو الغدير او شبهه . ومترعة : ملأى (١١) الغيطان : جمع غائط وهو البطن المطمئن من الأرض ، وممرعة : مخصبة (١٢) من الصوب وهو المطر الجود (١٣) الغب بالكسر : عاقبة الشيء . والجدب : المحل اى القحط (١٤) أى اشتد القحط .

(١٥) أقام وثبت (١٦) اى ردت الى الاجواف (١٧) الماشى صاحب الماشية ، والعرب تقول امشى الرجل اذا كثرت ماشيته ، والمصرم . الذى لا مال له (١٨) المترب هنا الغنى المثرى ، والمعدم : الفقير (١٩) جمع حليلة وهى الزوجة (٢٠) أى استخدمت الكرائم (٢١) متراكما (٢٢) كنهورا : قطعا مثل الجبال ، سجاما : كثير الصب (٢٣) مصوتة (٢٤) سح : صب ، وساجيا : راكدا ثابتا ، و « غير ذى فواق » اى لا يصب صبه ثم يسكن ثم يصب أخرى ثم يسكن مثل فواق الناقة (٢٥) طحرت : ساقت وأبعدت ، والركام : المتراكم (٢٦) هو السحاب الذى قد اهراق ماءه .

وجاد فأروى ، فالحمد لله الذى لا تُكَتُّ نعمه[١] ، ولا تَنفَدُ قسمه ، ولا يَخيب سائلُه . ولا يَنزُر نائله[٢] .

وروى بسنده عن الأصمعى قال : كان شيخٌ من الأعراب فى خِبائه وابنة له بالفناء[٣] إذ سمع رعداً ، فقال : ما ترين يا بنية ! فقالت : أراها حواء قرحاء[٤] كأنها أقرب أتان قمراء[٥] ثم سمع راعدةً أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جمّة الترجاف[٦] ، متساقطة الأكناف[٧] ، تتألقُ بالبرق الولاف[٨] . قال : هلمى المغرفة أنتئ نُؤيا[٩] .

وعن الأصمعى أيضاً قال : وقف أعرابىّ على أبى المكنون النحوىّ ، وهو فى حلقته فسأله ، فقال له : مكانَكَ حتى أفرغ لك ، فدعا واستسقى ، ثم قال : اللهم ربنا وإلهنا ومولانا صلِّ على نبينا محمد ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به إحاطة القلائد ، بترائب الولائد[١٠] ثم أرسخه[١١] كرسوخ السجيل[١٢] ، على أصحاب الفيل[١٣] اللهم اسقنا غيثاً مزناً طبقاً[١٤] مريعاً[١٥] تاماً مجلجلا[١٦] مسحنفراً[١٧] هزجاً[١٨] سحاً سفوحاً غدقاً مثعنجراً[١٩] . قال : فولى الأعرابى

---

(١) اى لا تحصى نعمه (٢) أى لا يقل عطاؤه (٣) الفناء بالكسر ما اتسع من أمام الدار (٤) حواء : سوداء الى الحمرة كلون القرس الاحوى ، قرحاء : يريد ان البرق فى أعاليها فكأنها قرحاء مثل الفرس الاقرح (٥) الاقراب : الخصور . شبهها ببطن الاتان القمراء والقمرة بالضم لون الى الخضرة . او بياض فيه كدرة (٦) أى كثيرة الاضطراب (٧) الاكناف : النواحى . يريد قد استرخت نواحيها لكثرة مائها (٨) هو الذى يبرق ببرقتين متوالفتين . وهو لا يكاد يخلف (٩) المغرفة : المسحاة . والنؤى . الحفير الـذى حول الخباء أوالخيمة يمنعالسيل. ونأيتهوانأيتهوانتأيته: عملته (١٠)الترائب:موضع القلادة (١١) اى اثبته (١٢) هو الطين المتحجر (١٣) اصـحاب الفيل : ورد ذكرهم فى التنزيل ، على سـبيل العظة والاعتبار وقصتهم معروفة متواترة الرواية حتى انهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث فيقولون ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك ، وقد أوردها الاستاذ المؤلف فى الجـزء الأول ص ٢٥١ ، وذكرنا (فى شرح الضرائر المطبوع بمصر سنة ١٣٤١) ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به من امرها ، كما فعل الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم (١٤) الطبق من المطر الذى يطبق الأرض (١٥) هو الذى يمرع اى يخصب (١٦) هو الذى تسمع لرعده جلجلة اى صوتا وهدة (١٧) اسحنفر المطر : كثر (١٨) مصوتا
(١٩) السح: الصب ، والسفوح: المنسفح ، والغدق: الكثير الماء ، والمثعنجر: الجارى حتى يملأ الأرض .

مدبراً . فقال له : مكانك حتى أقضى حاجتك : قال الطوفان وربّ الكعبة حتى آوى عيالى إلى جبل يعصمهم من الماء .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : مررت بغلمة من الأعراب يتماقلون[١] فى غدير ، فقلت لهم : أيكم يصفُ لى الغيثَ وأعطيه درهماً ، فخرجوا إلىّ فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم صفوه فأيكم ارتضيت وصفه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم : عنّ لنا عارض قصْراً[٢] تسوقه الصبا ، وتحدوه الجنوب ، يحبو حبو المُعتنك[٣] حتى إذا ازلأمت[٤] صدوره ، وانتحلت خصوره ، ورجع هديره وأصعق زئيره ، واستقل نِشاَصُه[٥] وتلام خصاصه[٦] وارتعج ارتعاصه[٧] وأوقدت سقابه[٨] وامتدت أطنابه[٩] — تدارك وَدْقه[١٠] وتألق برقه ، وحفزت تواليه[١١] وانسفحت عزاليه[١٢] فغادر الثرى عمداً[١٣] والعَزاز ثئداً[١٤] والحث عقداً[١٥] والضحاضح متواصية[١٦] والشعاب متداعية ، وقال الآخر : تراءت المخايل[١٧] من الأقطار ، تحنّ حنين العشار ، وتترامى بشهب النار ، قواعدها متلاحكة[١٨] وبواسقها متضاحكة[١٩] وأرجاؤها متقاذفه[٢٠] وأعجازها مترادفة وأرحاؤها متراصفة[٢١] فواصلت الغرب بالشرق[٢٢] والوبل بالوَدْق . سحًّا

---

(١) أى يتعاطون فى الماء، وامتقل : غاص مرارا (٢) عن : عرض، والعارض السحاب الذى يعترض فى الافق وأكثر ما يكون ذلك عند اقبال الليل . والقصر : العشى (٣) الحبو : دنو الصدر من الأرض ومن ذلك حبا الصبى اذا زحف وصدره دان من الأرض . والمعتنك : البعير الذى يصعد فى العانك من الرمل وهو الكثيب المتداخل الرمل يشق على الصاعد الصعود فيه والبعير اذا كلف صعوده زحف فشبه نهوض السحاب لثقله بما فيه من الماء به قال رؤبة « اوديت ان لم تحب وحبوا لمعتنك » (٤) انتصبت (٥) بالكسر والفتح ما انتصب من السحاب (٦) الخصاص : الفرج (٧) الارتعاج : تدارك الحركات . والارتعاض : الاضطراب (٨) هذا مثل والسقاب أعمدة الخباء فشبهه بالخباء قد رفع . والايقاد : الرفع (٩) هى حبال الخباء التى تشد بالاوتاد

(١٠) أى تتابع (١١) أى أعجلت مآخيره (١٢) العزالى : عزالى المزادوهو مخارج الماء من أسافلها (١٣) أى رطبا يجتمع فى اليد وغادر : ترك .

(١٤) العزاز : الغليظ من الارض . ومكان ثئد : ند (١٥) الحث : الرمل اليابس (١٦) الضحاضح : ما تضحضح على الارض من الماء . ومتواصية : متواصلة (١٧) السحب التى تحسبها ماطرة (١٨) أى اسافلها متداخل بعضها فى بعض (١٩) اى أعاليها متضاحكة بالبرق (٢٠) اى نواحيها متباعدة

(٢١) أى أوساطها متراكمة قد انضم بعضها الى بعض (٢٢) اى امتدت من المشرق الى المغرب .

دراكا[١] متتابعاً لكاكا[٢] فضحضحت الجفاجف[٣] وأنهرت الصفاصف[٤] وحوضت الأصالف[٥] ثم أقلعتْ محمودة الآثار ، موموقة الخيار . فقال الثالث : والله ما خِلْتهُ بلغ خمساً[٦] ! فقال : هلم الدرهم أصف لك ؟ فقلت لا ، أو تقول كما قالا ، قال : لأبزنهما وصفاً ، ولأوقفنهما رصفاً ، فقلت : هات لله أبوك ! فقال : بينما الحاضر بين الباس والإبلاس[٧] قد غمرهم الإشفاق[٨] رَهْبَةَ الإملاق[٩] وقد جفت الأنواء[١٠] ورَفْرَفَ البلاء ، واستولى القُنُوط على القُلوب ، وكثر الاستغفار من الذنوب ، — ارتاح ربك لعباده ، فأنشأ سَحَاباً مستجهراً كَنَهْوَراً[١١] معنونكا[١٢] محلولكاً[١٣] ثم استقلّ واحزألّ[١٤] ، فصار كالسماء دون السماء[١٥] وكالأرض المدحوّة[١٦] فى لوح[١٧] الهواء ، فأحْسَبَ الشُّهول[١٨] ، وأتأق الهجول[١٩] ، وأحيا الرجاء ، وأماتَ الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين . قال : فملأ (والله) اليَفَع صدرى ، فأعطيتُ كلّ واحدٍ درهماً ، وكتبت كلامهم .

وروى عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : سألت أعرابياً عن مطر أصابهم بعد جَدْب . فقال : ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامرَ القلبَ القنُوط فأنشأ بنوء الجبهة[٢٠] قزعةً كالقَرْضِ من قبل العين[٢١] ، فاحزألّتْ عند ترجّل

---

(١) أى صبا متتابعا . (٢) متلاصقا بعضه ببعض (٣) جمع جفجف وهو الغليظ من الأرض وضحضحها جعلت فيها ضحاضح جمع ضحضاح وهو الماء السائح على وجه الأرض ليس بالكبير (٤) جمع صفصف وهو المستوى من الأرض (٥) جمع الصلفاء وهى ماصلب من الأرض . وحوضتها : جعلت فيها حياضا (٦) الظاهر أن العبارة ينبغى أن تكون هكذا: (.. فقال الثالث — والله ما خلته بلغ خمسا — : هلم ..) (٧) الابلاس : اليأس والتحير
(٨) الجزع (٩) الافتقار (١٠) اى امسكت الامطار (١١) المستجهر : الابيض ، والكنهور : الذى مثل قطع السحب (١٢) المعنونك : الذى قد تراكم حتى صار كالعانك ، والعانك : مر تفسيره قريبا ، والمحلولك: الشديد السواد
(١٣) اى انتصب وارتفع (١٤) أى من كثافته (١٥) المبسوطة وانما قال « كالارض » لغبرته وسواده (١٦) اللوح : الهواء نفسه (١٧) اى كفاها
(١٨) اتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل ، وهو المطمئن من الارض
(١٩) الشباب (٢٠) الجبهة : نجم من نجوم الاسد ونوؤها محمود عندهم .
(٢١) القزعة : القطعة من السحاب صغيرة ، والقرض : الترس الصغير : والعين : القبلة .

النهار(١) ، لإِزْمِيم السِّرار(٢) ، حتى إذا نهضت فى الأفق طالعة أمر مسخرها الجنوب ، فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانُها(٣) ، واحمومت(٤) أركانُها ، وبَسَقَ عَنَانُها(٥) واكفهرّتْ رحاها(٦) ، وانبعجت كلاها(٧) ، وذمرت أخراها أولاها(٨) ، ثم استطارت عقائقها ٩) وارتعجت(١٠) بوارقُها ، وتقَعقَعَتْ صواعقها ، ثم ارْتَعَنَّتْ جوانبها(١١) ، وتداعت سواكبها(١٢) ، ودَرَّت حوالبها ، فكانت الأرض طبقاً ، سح فهضب ، وعم فأحسب(١٣) ، فَعَلَّ القيعان(١٤) ، وضحضح الغيطان(١٥) ، وخوخ الأضواج(١٦) ، وأترع الشِّراج(١٧) ، فالحمد لله الذى جَعَلَ كفاء إساءتنا إحساناً ، وجزاء ظلمنا غُفْراناً .

(وروى عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سمعت أعرابياً من بنى عامر بن لؤى ابن صعصعة يَصِفُ مطراً ، فقال : نشأ عند القَصْر(١٨) ، بنوء الغَفْر(١٩) ، حَبِياً عارضاً(٢٠) ، ضاحكاً وامضاً ، فكلا ولا(٢١) ما كان ، حتى شجيتْ به(٢٢) ، أقطار الهواء ، واحتجبت به السماء ؛ ثم أطرق فاكفهرّ(٢٣) ، وتراكم فادلهمّ(٢٤) ، وبَسَقَ فازْلأمّ(٢٥) ؛ ثم حدت به(٢٦) الريح فخنّ ، فالبرق مرتعج(٢٧) ، والرعد

---

(١) اى عند انبساط الشمس (٢) الازميم بالكسر احدى ليالى السرار وهى ثلاث ليال من آخر الشهر (٣) اى فانبسطت نواحيها (٤) اسودت .
(٥) اى ارتفع سحابها (٦) اكفهرت : كثفت ، ورحاها : وسطها .
(٧) هذا مثل والكلية من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وانبعجت : انشقت شبهه بثنى السقاء والقربة اذا رق ورشح منه الماء فأراد ان مخارج المطر من السحاب متل ذلك (٨) هذا مثل ايضا كأنه حض بعضها بعضا على المطر (٩) استطارت : انتشرت ، والعقائق جمع عقيقة وهى البرقة المستطيلة فى عرض السحاب (١٠) اى تدارك بعضها فى اثر بعض .
(١١) اى استرخت لكثرة ما فيها من الماء (١٢) كأنه دعا بعضها بعضا بالماء
(١٣) اى عم الأرض ولم يخص موضعا دون موضع ، واحسبها اى كفاها واعطاها ما هو حسبها (١٤) العل : السقية الثانية (١٥) ضحضح : مر تفسيره قريبا ، والغيطان جمع غائط وهو البطن المطمئن من الأرض وقد مر ايضا قريبا (١٦) اى هد الاجراف (١٧) اى ملأ مسايل الماء (١٨) العشى
(١٩) من نجوم الاسد (٢٠) الحبى الدانى من الارض ، والعارض : المعترض فى الافق (٢١) اى كقولك كلاولا فى السرعة (٢٢) اى تضايقت به كمايشجى الغاص (٢٣) اطرق : تكاثف بعضه على بعض ، واكفهر : تراكم وغلظ
(٢٤) اسود (٢٥) اى ارتفع فانتصب (٢٦) ساقته (٢٧) متدارك .

متبوج (١)، والخَرْج متبعج (٢)، فأثجم (٣) ثلاثاً، متحيراً مثهاثاً (٤)، أخلافه حاشكه (٥)، ودفعه متواشكة (٦)، وسَوَامه متعاركه (٧)، ثم ودع مُنجماً (٨)، وأقلع مُتهما (٩)، محمود البلاء، مُترع النّهاء (١٠)، مشكور النعماء، بِطَوْل (١١) ذى الكبرياء .

(وروى بسنده عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب) قالوا: أجْدَبَتْ بلاد مَذْحِجْ، فأرسلوا رُوَّاداً (١٢) من كل بطن رجلًا، فبعث بنو زَبيد رائداً، و بعثت جُعْفِيٌّ رائداً، و بعثت النَّخَعُ رائداً، فلما رجع الرُّوّاد قيل لرائد بنى زَبيد: ما وراءك ؟ قال: رأيت أرضاً مُوشمةَ البقاع (١٣)، ناتحة القّاع (١٤)، مُستحلسة الغيطان (١٥)، ضاحكة القُرْيان (١٦)، واعدةً وأحْرِ بِوَفائها (١٧)، راضيةً أرضُها عن سمائها، وقيل لرائد جُعْفِيّ ماوراءك ؟ فقال: رأيت أرضاً جمعت السماء أقطارها (١٨)، فأمرعتْ أصبارها (١٩)، ودَيَّثَت أوعارَها (٢٠)، فَبُطْنانُها غَمِقَه (٢١)، وظُهْرانها غَدِقَه (٢٢)، ورياضها مُسْتَوْسقه (٢٣)، ورَقاقُها رائخ (٢٤)، وواطِئُها سائخ (٢٥)،

---

(١) مرتفع الصوت (٢) الخرج: السحاب اول ما ينشا، ومتبعج: متشقق (٣) أى دام واقام متحيرا كأنه قد تحير له وجه يقصده (٤) متداخلا بعضه فى بعض . وقال أبو بكر: الهنهتة ـ اختلاط الصوت (٥) هذا مثل اخلاف الناقة: ضروعها، وحاشكة: ممتلئة (٦) مسرعة (٧) هذا مثل . السوام الابل السائمة أى الراعية . يشبه السحاب بالابل التى يعارك بعضها بعضا أى يزاحم (٨) أى منقشعا (٩) أى نحو تهامة . يقال: أتهم الرجل اذا أتى تهامة . وأنجد اذا أتى نجدا . وأعمن اذا أتى عمان وأعرق اذا أتى العراق

(١٠) جمع نهى وهو الغدير (١١) بفضل (١٢) جمع رائد وهو المرسل فى طلب الكلأ (١٣) أوشمت الأرض اذا بدأ فيها نبت (١٤) ناتحة: راشحة .

(١٥) المستحلسة: التى قد جللت الأرض بنباتها، وقال الاصمعى: استحلس النبت اذا غطى الأرض أو كاد يغطيها والمعنى واحد (١٦) مجارى الماء الى الرياض مفردها قرى (١٧) واعدة: تعد تمام نباتها وخيرها . وأحر: اخلق

(١٨) السماء: المطر ههنا، يريد أن المطر جاد بها فطال النبت فصار النبت كأنه قد جمع أكنافه . وانشد ابن قتيبة:

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

(١٩) امرعت: اعشبت وطال نباتها، والاصبار نواحى الوادى (٢٠) ديثت: لينت، والاوعار جمع وعر وهو الغلظ والخشونة (٢١) البطنان: جمع بطن وهو ما غمض من الأرض، وغمقة: ندية (٢٢) الظهران: جمع ظهر وهو ما ارتفع يسيرا، وغدقة: كثيرة البلل والماء (٢٣) منتظمة (٢٤) الرقاق . الأرض اللينة من غير رمل، رائخ: مفرط اللين (٢٥) أى تسوخ رجلاه فى الأرض من لينها .

وماشيها مسرور ، ومُصْرِمُها محسور(١) ، وقيل للنخعيّ : ما وراءك ؟ فقال : مَدَاحي سَيْل(٢) ، وزُهَاء ليل(٣) ، وغَيْلٌ يُواصي غَيْلًا(٤) ، قد ارتوَتْ أجْرازها(٥) ، ودُمِّثَ عَزَازُها(٦) ، والتبدت أقوازُها(٧) ، فرائدها أنِق(٨) ، وراعيها سَنِق(٩) ، فلا قَضَض ، ولا رَمَض(١٠) ، عازبُها لا يُفزَعُ(١١) وواردها لا يُنْكَع(١٢) ، فاختاروا مُرَاد النخعيّ .

وروى عن عمه عن ابن الكلبيّ قال : خطب ابنةَ الخُسّ الإيادية(١٣) ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجمالهم ، وأرادت أن تَسْبُرَ عقولهم ، فقالت لهم : أريد أن ترتادوا لى مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بقلًا و بقيلا(١٤) ، وماء غدقا سيلا ، يحسبه الجاهل ليلا(١٥) ، قالت : أمرعت . قال الآخر : رأيت ديمةً بعد ديمة(١٦) ، على عهاد غير قديمة(١٧) ، فالنّاب تَشْبَعُ قبل الفطيمه(١٨) . قال الثالث : رأيتُ غيثاً ثَمْدًا مَعْدًا(١٩) ، مترا كا جعدًا(٢٠) ، كأفخاذ نساء بنى سعد(٢١) ، تشبع منه الناب وهى تعد(٢٢) .

---

(١) الماشى : صاحب الماشية ، والمصرم : المقل المقارب المال (٢) يقول : قد جرى فيها السيل ودحاها اى بسطها حتى استوى ولان وجهها (٣) الزهاء : الشخص وانما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته (٤) الغيل : الماء الجارى على وجه الأرض . ويواصى : يواصل (٥) جمع جرز وهى التى لم يصبها المطر ، ويقال : التى قد اكل نباتها (٦) دمث : لين ، ودمث لان ، والعزاز : الأرض الصلبة الغليظة (٧) جمع قوز وهى رمال تستدير وتنعطف نحو الاحقاف (٨) الرائد :المرسل فى طلب الكلأ ، وانق : معجب بالمرعى (٩) راعيها : الذى يرعاها ، والسنق : البشم من كثرة الرعى (١٠) القضض ، والرمض : الصغار ، يريد ان النبات قد غطى الأرض فلا ترى هناك قضضا ، والرمض أن يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول فليس هناك رمض لان الارض مجللة بالنبت فلا يرمض واطئها (١١)الذى يعزب بأبله اى يبعد بها فى المرعى (١٢) اى لا يمنع (١٣) اخبارها فى الجزء الاول ص ٣٣٩ و ٣٤٠

(١٤) يقول : بقل قد طال ، وتحته غمير قد نشا (١٥) اى كثير يحسبه الجاهل ايلا من كثافته وشدةخضرته (١٦) الديمة: المطر يدوم أياما فى سكون ولين (١٧)العهاد : اول ما يصيب الأرض من المطر (١٨) الناب : الناقة المسنة ، يريد ان العشب قد اكتهل وطال وتم . تشبع منه الناب قبل الصغيرة لانها تتناول الكلأ وهى قائمة لاتطلبه ولاتبرح من موقفها والفطيمة تتبع ماصغر من النبات (١٩) الثمد : الغض من البقل ، ومعد : اتباع . ويقال : « ماله ثعد ولا معد » اى قليل ولا كثير (٢٠) الثرى الجعد : الذى قد كثر نداه فاذا ضممته بيدك اجتمع ودخل بعضه فى بعض كالشعر الجعد (٢١) اراد فى غلظ افخاذ

(وروى عن أبى حاتم عن أبى عبيدة) قال : خرج النعمان فى بعض أيامه فى عقب سماء ، فلقى أعرابياً على ناقة فأمر فأتى به ، فقال : كيف تركت الأرض وراءك ؟ فقال : فيح رحاب[1] ، منها السيول ومنها الصعاب ، منشوطة بجبالها حاملة لأثقالها[2] ! قال : إنما سألتك عن السماء ، قال : مُطلة مستقلة[3] على غيرِ سقاب ، ولا أطناب[4] ، يختلفُ عصراها[5] ، ويتعاقبُ سِراجاها[6] ، قال : ليس عن هذا أسألك ، قال : فسل ما بدالك ! قال : هل صاب الأرضَ غيث ؟ قال : نعم ! أغمطت السماء[7] ، فى أرضنا ثلاثاً رَهْوًا[8] ، فثرّت وأرْزَغَتْ ورسغت[9] ، ثم خرجت من أرض قومى أقروها[10] ، فإذا هى مُتواصية[11] لا خطيطة[12] بينها حتى هبطت بعشار[13] ، فتداعى السّحاب من الأقطار[14] ، فجاءنا بالسيل الحرار ، فعفا الآثار[15] ، وملأ الجفار[16] ، وقوّر[17] عالى الأشجار ، فأحجر الحضار[18] ، ومنع السّفار ، ثم أقلع عن نفع و إضرار[19] ، فلما اتلأبّتْ[20] لى القيعان ، ووضحت السُّبل فى الغيطان[21] ، وفات العَنان[22] ، من أقطار الأعنان[23] ، فلم أجد وَزَرًا إلا الغيران[24] ، ففات جارّ الضبع[25] ، فغادرت السهول كالبحار ، تتلاطم بالتيّار[26] ، والحزون متلفعة بالغُثاء[27] ، والوحوش مقذوفة على

= بنى سعد (٢٢) هذا نحو الكلام الأول. يقول : النبت قد ارتفع وطال والناب الناقة المسنة تعدو وهى تأكل ولا تطاطىء رأسها .

(١) فيح : واسعة (٢) أى مثبتة لاتزول ، حاملة لأثقالها : لمن عليها من الناس وغيرهم (٣) مطلة : مرتفعة ، وكذلك « مستقلة » (٤) السقاب أعمدة الخباء ، والأطناب : الحبال المشدودة الى الأوتاد ، وهذا مثل (٥) أى الليل والنهار (٦) أى الليل والنهار (٧) أى دام مطرها (٨) الرهو : السكون (٩) ثرت : تركت الأرض ثرية ، وأرزغت : تركت الأرض رزغة ، والرزغة : الوحل ، ورسغت : بلغ الماء الى الرسغ (١٠) أى أتتبعها (١١) متصل بعضها ببعض (١٢) الخطيطة : الأرض التى لم تمطر بين ممطورتين أو التى مطر بعضها (١٣) اسم موضع (١٤) النواحى (١٥) اى طمس الطرق (١٦) جمع جفر كسهم وهو البئر التى لم تطو (١٧) اى قطع أو اجتاح (١٨) اى ألزمهم بيوتهم ، و « منع السفار » عن الحركة (١٩) يقول : نفعت عواقبه وضرت لكثرته (٢٠) وضحت (٢١) جمع غائط وهو المطمئن من الأرض (٢٢) السحاب (٢٣) أى من نواحى السماء (٢٤) الوزر : الملجأ ، والغيران جمع غار وهو الكهف فى الجبل (٢٥) أى فات من القى وهذا غاية مايوصف به المطر فى الكثرة ، والمعنى أنه يجر الضبع من وجارها (٢٦) الموج (٢٧) الحزون : جمع حزن وهو ماغلظ من الأرض ، والغثاء : حميل السيل

الأرجاء[١] ، فما زلت أطأ السماء[٢] ، وأخوض الماء ، حتى وطئت أرضكم .

(وروى عن أبي حاتم عن أبي عبيدة) قال : وقف أعرابي على قوم من الحاج فقال : يا قومي بدا شأني الذي ألفجني[٣] إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قَوِيَ[٤] عنا ، ثم تكَرْفأ السحاب[٥]، وشَصَا الرَّباب[٦] ، وادلهمّ سَيِّقه[٧] ، فارتجس رَيِّقه[٨]، وقلنا هذا عام باكر الوسمي[٩] ، محمود السمي[١٠] ، ثم هبت له الشمال ، فاحزألَّتْ طَخَاريره[١١] ، وتقزع كرفئه[١٢] متباشراً ؛ ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تَشيمه الأبصار[١٣] ، وتحده النظار ، ومَرَت[١٤] الجنوب ماءه ، فقوّض الحى مُزْلَئِمِّين[١٥] نحوه ، فسرحنا المال[١٦] فيه ، وكان وخماً وخيما ، فأساف المال[١٧]، وأضف الحال[١٨]، فرحم الله امرأً جاد بِمَيْرٍ[١٩] ، أو دل على خير .

وروى أبو حاتم عن العتبي قال : حدثني أبي قال : خرج الحجاج إلى ظهرنا هذا ، فلقى أعراباً قد انحدروا الميرة ، فقال : كيف تركتم السماء وراءكم ؟ فقال متكلمهم : أصابتنا سماؤنا بالمثل مثل القوائم[٢٠] حيث انقطع الرمث بضرب فيه

---

(١) يقول : قد غرقت الوحوش فهى مطروحة على ارجاء الأرض اى نواحيها (٢) اى أطأ المطر فالعرب تسمى آثار المطر فى الأرض السماء (٣) اى أحوجنى (٤) اى احتبس (٥) اى كثر وتراكم (٦) شصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض (٧) ادلهم اسود ، والسيق ككيس : السحاب الذى لاماء فيه (٨) تمخض ماؤه (٩) الوسمى : اول المطر يقع على الأرض وذلك عند اقبال الشتاء قبل الربيع سمى بذلك لأنه يسم الأرض . قال الأصمعى : اول المطر الخريف وهو الذى يأتى عند صرام النخل ، ثم الوسمى يلى ذلك وهو اقبال الشتاء ، ثم يليه الربيع ، ثم الصيف ثم الحميم (١٠) جمع سماء وهو المطر ، قال العجاج : « تلفه الارواح والسمى » . م(١١) احزألت ارتفعت ، والطخارير: جمع طخرور ـ وهو بالخاء والحاء اللطخ من السحاب القليل . قال الأزهرى: وهى الطحارير والطخارير لقزع السحاب (١٢) تقزع : تقشع ، والكرفىء : قطع من السحاب متراكبة واحدتها كرفئة (١٣) شمت البرق : رقبته تنظر اين يصوب (١٤) استخرجت (١٥) مسرعين (١٦) أى الابل (١٧) اى ذهب به واهلكه (١٨) اى ضعضعها ، والضفف : الفقر والحاجة الى الناس (١٩) المير بالفتح كالميرة وهى الطعام يمتاره الانسان ، ويطلق ويراد به القوت (٢٠) المثل: بكسر اوله وسكون ثانيه ـ موضع بفلج يقال له رحى المثل ، وقوله « مثل القوائم » اراد أن هذا الموضع قطره كمثل مواقع القوائم

نقير[١]، وهو على ذلك يعضِدُ ويرسغ[٢]، ثم أصابتنا سماء « أميثل » منها تسيل الدماث والتلعة الزهيدة[٣]، فلما كنا حذاء (الحفر) أصابنا ضرس جَوْد ملأ الآخاد[٤]. فأقبل الحجاج على زياد بن عمرو العتكى فقال : ما يقولُ هذا الأعرابى ؟ قال : وما أنا وما يقول : إنما أنا صاحب سيف ورمح ! قال : بل أنت صاحب مجذاف وقَلْس، إسبح ! فجعل يفحص الثرى ويقول : لقد رأيتنى وأن المصعب ليعطينى المائة ألف وها أنا أسبح بين يدى الحجاج ! .

وروى عن عبد الرحمن عن عمه . قال قال أبو مجيب وكان أعرابياً من بنى ربيعة ابن مالك . لقد رأينا فى أرض عجفاء[٦]، وزمان أعجف، وشجر أعسم[٧] فى قُفّ[٨] غليظ، فبينما نحن كذلك إذ نشأ الله تعالى من السماء غيثاً مستكفاً نشؤه[٩]، مسبلة عزاليه[١٠]، ضخاماً قطره جَرْداً صوبه[١١]، زاكياً أنزله الله تعالى رزقاً لنا، فتعيش به أموالنا[١٢]، ووصل به طرقنا، وأصابنا وإنا لبنوطة بعيدة الأرجاء[١٣]، فاهْرَمَّع[١٤] مطرها حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء، وضهوات[١٥] الطلح؛ وضرب السيل النجاف[١٦]، وملأ الأودية فزعبها[١٧] فما لبثنا إلا عشراً حتى رأيتها روضة تندى .

---

(١) قال الاصمعى : الرمث — من شجر السهل اهـ فمعنى قوله « حيث انقطع الرمث » حيث أفضى من السهولة الى الحزونة « والضرب من المطر الضعيف الدائم ، والنقير فى الأصل النكتة فى ظهر النواة (٢) قوله « يعضد » اى بكسر ويصرم والمعنى ان هذا المطر مع ضعفه عظيم القطر فعظم قطره يعضد الشجر يدلك على ذلك قوله « بالمثل مثل القوائم » واولا ذلك لما جاز أن يعضد الشجر مع ضعفه ، و « يرسغ » يبلغ طينه وماؤه الرسغ (٣) الدماث : الأماكن اللينة السهلة ، والتلعه : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ضد ، والتلعه : مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى ، والزهيدة : الحقيرة (٤) الضرس : القطعة من الأمطار المتفرقة ، والجود المطر الغزير ، والآخاد : الاماكن التى تحبس الماء كالنقر فى الحجارة والجوب من الأرضين (٥) القلس : حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر (٦) أى لانبات بها (٧) يابس (٨) هو ماغلظ من الأرض وارتفع (٩) المستكف : المستدير والنشء : السحاب المرتفع أو اول ماينشأ منه (١٠) مسبلة : ممطرة . والعزالى : أفواه السحاب وأصل ذلك فى المزادة والقربة (١١) الصوب المطر (١٢) اى ابلنا (١٣) النوطة : المكان المرتفع عن الماء « والنوطة : مكان فى وسطه شجر وطرفاه لاشجر فيهما وهو مرتفع عن السيل والأرجاء : النواحى (١٤) اى در وأسرع (١٥) الضهوة : كالغار يجمع فيها ماء المطر (١٦) جمع نجفة وهو ما أشرف من الأرض (١٧) أى فملأها ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ توكيدا

وعن عبد الرحمن عن عمه قال شام[١] أعرابيٌّ برقاً فقال لابنته : انظرى أين ترينه ، فقالت :

أناخ بذى بَقَرٍ بركه   كأن على عَضُدَيْهِ كِتافا[٢]

ثم قال : عودى فشيمى ، فقالت :

نحته الصَّبا ومَرَتْهُ الجنوب   وانتجفته السماء انتجافا[٣]

وروى بسنده عن الأصمعى قال : كان أعرابيٌّ ضرير تقوده ابنته وهى ترعى غنيمات لها ، فرأت سحاباً ، فقالت : يا أبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها فرس دهماء تجر جلالها ، قال : إرعىْ غنيماتك ، فرعت مليًّا ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عين جمل طريف[٤] ، قال : ارعى غنيماتك ، فرعت مليا ؛ ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : سطحت وابيضت . قال : أدخلى غنيماتك ، قال : فجاءت السماء بشىء شطأ[٥] له الزرع وأينع[٦] ، وخضر ونضر[٧] .

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى[٨] بسنده قال : كان من حديث زهير ابن جناب الكلبىّ أنه كان قد بلغ عمراً طويلًا حتى ذهب عقله ، وكان يخرج تائهاً لا يدرى أين يذهب فتلحقه المرأة من أهله والصبى فيرده ، ويقول له : إنى أخاف عليك الذئب أن يأكلك ! فأين تذهب ؟ فذهب يوماً من أيامه ، ولحقته ابنة له فردته فرجع معها يهدج[٩] كأنه رأل[١٠] ، وراحت عليهم سماء[١١] فى الصيف فعلتهم منها بغشة[١٢] ، ثم أردفها غيث منكر ؛ وسمع له زجلا[١٣]

---

(١) أبصر (٢) ذو بقر : موضع . والبرك : الصدر . والكتاف ماكتف به الشىء (٣) نحته : صرفته . ومرته : استخرجت ماءه وكذلك « انتجفته » (٤) أى مطروف وهو الذى يستطرف الكلأ لايرعى فى مكان واحد كالمرأة المطروفة وهى التى تطرف الرجال لاتثبت على واحد (٥) اى أخرج نباته (٦) أينع النبت يونع ايناعا اذا اخضر وينع الثمر ينعا وينيعا وينوعا اذا أدرك ونضج (٧) أى حسن (٨) — ج ٢١ ص ٦٥ (٩) أى يمشى فى ارتعاش (١٠) ولد النعام أو حوليه (١١) مطر (١٢) مطرة ضعيفة (١٣) صوتا

منكراً . فقال : ما هذا يا بنية ؟ فقالت عارض هائل [١] إن أصابنا دون أهلنا هلكنا . فقال : انعتيه لى ! فقالت : أراه منبطحاً مسلنطحاً [٢] ، قد ضاق ذرعا [٣] وركب ردعا ، ذا هيدب [٤] يطير ، وهماهم [٥] وزفير ؛ ينهض نهض الكسير ، عليه مثل شباريق الساج [٦] ، فى ظلمة الليل الداج [٧] ؛ يتضاحك مثل شعل النيران ، يهرب منه الطير ، ويوائل [٨] منه الحشرة . قال : أى بنية وائلى منه إلى عصر [٩] قبل أن لا عين ولا أثر . وفى هذا الفن كثير من المنظوم وقد ذكرت منه نبذة غير يسيرة فى كتاب جزيرة العرب للهمدانى ، والله ولى التوفيق .

ومن علومهم :

علم القيافة والعيافة

إعلم أن القيافة على قسمين : قيافة الأثر ويقال لها العيافة ، وقيافة البشر ، أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ، وهى التى تكون فى تربة حرة يتشكل بشكل القدم ؛ ونفع هذا العلم بين إذ القائف يجد بهذا العلم الفارّ من الناس ، والضالّ من الحيوان بتتبع آثارها وقوائمها بقوة الباصرة ، وقوة الخيال والحافظة ، حتى يحكى أن بعضهم يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة فى سائر أحوالهما وأخلاقهما . وقد فسرها أبو القاسم الأصفهانى فى كتاب الذريعة بتفسير أوجز فقال : والقيافة ضربان : أحدهما بتتبع أثر الأقدام ، والاستدلال به على السالكين ؛ والثانى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على

---

(١) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . (٢) واسعا عريضا (٣) يقال : ضاق فلان بالأمر ذرعا أى ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . وركب ردعا : خر لوجهه على دمه (٤) هو السحاب المتدلى أو ذيله (٥) أصوات (٦) قطع الطيلسان الأخضر أو الأسود (٧) المظلم (٨) وآءل : طلب النجاة والى المكان بادر (٩) هو الملجأ والمنجاة

نسبته وخص الاستدلال بالقيافة البشرية من العرب بنو مُدْلج [١] ، و بنو لِهْب [٢] وذلك لمناسبة طبيعية حاصلة فيهم لا بتعلم قال الاصفهانى : خص الله تعالى بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثلب نسبهم ، وخبث حسبهم ، وفساد بذورهم ، وزروعهم ، صيانةً للنسبة ؛ ولأجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) أى ليعرف بعضكم بعضاً بمعرفة أصله انتهى ، و بمثل ذلك قال بعض الحكماء ، وحصول هذا العلم بالحدس والتخمين لا بالاستدلال واليقين ، ولا يحصل بالمدارسة والتعليم ، فلذا لم يصنف فيه مصنف لا حادث ولا قديم ، والقيافة اليوم موجودة فى بعض قبائل عرب نجد ، و يقال إنهم بنو مرة ، وهم أعلم الناس بها ، وقد نقل الثقات ممن سافر إلى بلاد نجد أن كثيراً منهم يرى الأثر فيقول : هذا أثر فلان وفلان ، وهذا أثر بعير فلان وفلان ، وهذا أثر أناس لم يطأوا الأرض الفلانية ، وهؤلاء أناس قدموا من كذا وكذا ، فلم يخلوا بشىء منها . وسمعت أن أعرابياً اتبع أثر حمار له سرقته اللصوص حتى دخل (الحلة [٣]) وهو ينشده حتى أوقفه أثره عليه من بين آثار حمير لا تحصى ، و إذا نظروا إلى عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وميزوا الأجنبى إذا كان بينهم ، وأهل مكة فيهم ، من يقارب هؤلاء ، فترى كثيراً منهم يميز بين العراقى والشامى ، والمصرى والمدنى ، والعربى والعجمى ، ولو لم يكن بزيه وهيئته ، وفى هذا الباب حكايات لولا تواترها لحكم عليها بما يقرب من الاستحالة ، والقيافة محكوم بها فى الشرع وهى إحدى الطرق الحكيمة ، ففى الصحيح من حديث مجزز الأسلمى [٤] أنه دخل فرأى أسامة

---

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الازد . (٣) الحلة : علم لعدة مواضع . ويريد المؤلف حلة بنى مزيد مدينة من مدن العراق . كان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الاسدى ، وهى لاتزال عامرة آهلة بالسكان ، واغلب أهلها اليوم شيعة ، وفيها جامع لأهل السنة عامر لانظير له فيها يعرف بالجامع الكبير . وهى طيبة الهواء ، عذبة الماء ، ذات بساتين غناء ، ومروج خضراء ، تسر الناظرين ، وتعجب الرائين . (٤) ترجمته فى الاصابة للحافظ العسقلانى ج ٦ ص ٤٥ — ط : المطبعة الشرفية .

ابن زيد وزيداً وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما و بدت أقدامهما ، فنظر إليها مجزز الأسلمى وقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسرّ بذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى ناشئة من كمال الفطنة والذكاء ، ومن توابع غزارة العقل . ومن علومهم .

علم الفراسة

وهو الاستدلال بهيئة الإنسان ، وأشكاله ، وألوانه ، وأقواله ، على أخلاقه ، وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هى صِناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله : (تعرفهم بسيماهم) وقوله (ولَتعرِفنَّهم فى لحن القول[1]) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحى ، و إياه عنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذى يسمى صاحبه المروع والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام « إن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عُمَرُ » وقيل فى قوله تعالى (وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً أوْ مِن وراء حجاب أو يرسل رسولا) إنما كان وحياً بإلقائه فى الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة ، وقد يكون فى حال المنام ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة » .

(والضرب الثانى من الفراسة) يكون بصناعة متعلمة ، وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة ، والأخلاق ، والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل فى ذلك كتب كثيرة من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ماضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وهىمن توابع

(١) أى فى معنى القول . وفى مذهب القول .

العقل ، وكلما كان العقل أكمل كانت الفراسة أقوى ، ولهذا كانت العرب فيها أوفر نصيباً من غيرهم . وما روى عنهم من عجائب هذا الباب شيء كثير . من ذلك ما ذكره الإمام الماوردى فى كتاب (أعلام النبوة[١]) قال : إن أول من أسس لعدنان مجداً ، وشيد لهم ذكراً ، معدّ بن عدنان حين اصطفاه بختنصر وقد ملك أقاليم الأرض ، وكان قد همّ بقتله حين غزا بلاد العرب ، فأنذره نبيّ كان فى وقته بأن النبوّة فى ولده ، فاستبقاه ، وأكرمه ، ومكّنه ، واستولى على تهامة بيد عالية ، وأمر مطاع ، وفيه يقول مهلهل الشاعر :

غنيت دارنا تهامة بالأمـ س وفيها بنو معدّ حلولا

ثم ازداد العز بولده نزار ، وانبسطت به اليد ، وتقدم عند ملوك الفرس واجتباه (تستشف) ملك الفرس ، وكان اسمه خلدان ، وكان مهزول البدن ، فقال الملك : مالك يا نزار ، وتفسيره فى لغتهم يا مهزول ؟ فغلب عليه هذا الاسم فسمى نزاراً ، وفيه يقول قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

جديسا خلفناه وطَسْماً بأرضه فأكرمْ بنا عند الفخار فخارا
فنحن بَنُو عَدْنان خلدانُ جدُّنا فسماه (تستشف) الهُمَامُ نِزارا
فسمى نِزارًا بعد ما كان اسمه لدى العرب (خلدان) بنوه خيارا

وكان لنزار أربعة أولاد : مُضر ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ، فلما حضرته الوفاة وصاهم . فقال : يا بَنِيّ هذه القبة الحمراء وما أشبهها لمضر ، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه لربيعة ، وهذه الخادمة وما أشبهها لإياد ، وهذه الندوة والمجلس وما أشبهه لأنمار ، فإن أشكل عليكم واختلفتم ، فعليكم بالأفعى الجرهمى بنجران فاختلفوا فى القسمة ، فتوجهوا إليه ، فبيناهم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعى فقال : إن البعير الذى رعى هذا الكلأ لأعور ! وقال ربيعة : هو أزور[٢] وقال إياد : هو أبتر[٣] وقال أنمار هو شرود[٤] ! فلم يسيروا قليلًا حتى لقيهم

(١) ص ١١٨ (٢) اى به زور وهو عوج الزور أو اشراف احد جانبيه على الآخر (٣) مقطوع الذنب (٤) نفور

رجل يوضع[1] على راحلته[2] ، فسألهم عن البعير . فقال مضر : هو أعور ! قال : نعم ! وقال ربيعة . هو أزور ! قال : نعم ! وقال إياد : هو أبتر ! قال : نعم ! وقال أنمار : هو شرود ! قال : نعم ! وهذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه ، فقالوا والله ما رأيناه ، قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه ؟ وسار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمى ، فناداه صاحب البعير : هؤلاء أصحاب بعيرى وصفوه لى بصفته ، وقالوا لم نره ! فقال لهم الأفعى الجرهمى : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً فعرفت أنه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعرفت أنه أزور ! وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ! وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز إلى غيره فعرفت أنه شرود ! فقال الجرهمى لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلبه من غيرهم ! ثم سألهم : مَنْ هم ؟ فأخبروه أنهم بنو نزار بن معد ، فقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام ، فأكلوا وأكل ، وبشراب فشربوا وشرب ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أجود لولا أنها نبتت على قبر ! وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربى بلبن كلب ! وقال إياد : لم أر كاليوم رجلًا أسرى لولا أنه يدعى لغير أبيه ! وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا ! وسمع الجرهمى الكلام فتعجب لقولهم وأتى أمه فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا ولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلًا من نفسها كان نزل به فوطئها فحملت منه به ! وسأل القهرمان عن الخمر ، فقال : من كرمة غرستها على قبر أبيك ! وسألِ الراعى عن اللحم ، فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة ، لأن الشاة حين ولدت ماتت ، ولم يكن ولد فى الغنم شاة غيرها . فقيل لمضر : من أين عرفت الخمر ونباتها على قبر ، قال : لأنه أصابنى عليها عطش

---

(١) اوضع : اسرع فى سيره (٢) الراحلة : المركب من الابل ذكرا كان أوانثى وبعضهم يقول — الراحلة . الناقة التى تصلح أن ترحل .

شديد ! وقيل لربيعة : من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على ابن كلبة ؟ قال : لأنى شممت منها رائحة الكلب ! وقيل لإياد : من أين عرفت أن الرجل يدعى لغير أبيه ؟ قال : لأنى رأيته يتكلف ما يعمله . ثم أتاهم الجرهمى وقال : صفوا لى صفتكم ، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم نزار ، فقضى لمضر بالقبة الحمراء والدنانير والإبل وهى حمر فسمى مضر الحمراء ، وقضى لربيعة بالخباء الأسود والخيل الدّهم فسمى ربيعة الفرس ، وقضى لإياد بالخادمة الشمطاء والماشية البلق[1] ، وقضى لأنمار بالأرض والدراهم ، وهذا الذى ظهر فى أولاد نزار من قوة الذكاء وحدة الفطنة تأسيساً لتميزهم بالفضل ، واختصاصهم بوفور العقل ، مقدمة لما يراد بهم انتهى . فانظر إلى هذه الفراسة التى كادت تصل إلى حد الإعجاز ؛ وكانت فى الوصول إلى مكنون الحقائق أقوم مجاز ، فلله تعالى در العرب ، فهم مظهر كل عجب .

وقد ازدادت فيهم الفراسة بعد أن أشرقت أنوار الإسلام على قلوبهم ، فنظروا بنور الله تعالى المودع فى أعين بصائرهم ما خفى من غيوبهم ، فقد ذكر ابن القيم فى كتابه (مفتاح دار السعادة) أن الإمام الشافعى القرشى كان له النصيب الأوفى منها ، فقد حكى أنه ومحمد بن الحسن رأيا رجلًا فقال محمد إنه نجار ، وقال الشافعىّ إنه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً والآن نجاراً . بل إن كثيراً من أعراب البادية اليوم من له حظ منها ، وسمعت أن كثيراً منهم إذا نظر إلى السحاب المهراق قال : أمطرت أرض كذا وكذا وسال وادى كذا وكذا ، ولم تمطر أرض كذا ، وابتدىء أرض كذا ، فيكون كما قال ؛ وعرب اليمن أوفر حظاً من غيرهم فى الضرب الثانى من الفراسة ، والإمام الشافعى أخذ ذلك عنهم ، وله فى هذا الفن طرائف ، ففى (مفتاح دار السعادة) أن الإمام الشافعى قال : خرجت إلى اليمن فى طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ،

---

(١) جمع ابلق وهو المرتفع التحجيل الى الفخذين

ثم لما كان انصرافى مررت فى الطريق برجل ، وهو مُحْتَبٍ(١) بفناء داره ، أزرق العين ناتىء الجبهة ، فقلت له : هل من منزل ؟ قال نعم ! قال الشافعى : وهذا النعت أخبث ما يكون فى الفراسة ، فأنزلنى فرأيته أكرم رجل : بعث إلىّ بعشاء وطيب وعلف للدواب وفراش ولحاف ، وجعلت أتقلب الليل أجمع ماذا أصنع بهذه الكتب فلما أصبحت قلت للغلام أسرج ، فأسرج ، فركبت ومررت عليه ، وقلت له إذا قدمت مكة ومررت بذى طوى ، فسل عن منزل محمد بن إدريس الشافعى . فقال لى الرجل أمولى لأبيك كنت أنا ؟ قلت : لا ! قال : فهل كانت لك عندى نعمة ؟ قلت : لا ؛ قال : فأين ما تكلفت لك البارحة ، قلت : وما هو ؟ قال : اشتريت لك طعاماً بدرهمين وأدماً بكذا . وعطراً بثلاثة دراهم ، وعلفاً لدوابك بدرهمين . وكرى الفراش واللحاف درهمان ! قلت : فهل بقى شىء ؟ قال كرى المنزل فإنى وسعت عليك وضيقت على نفسى ! فغبطت نفسى حينئذ بتلك الكتب ! فقلت له بعد أن أعطيته ما طلب : هل بقى شىء ؟ قال . امض أخزاك الله فما رأيت شراً منك ! وفى الكتاب المذكور أيضاً عن الربيع أنه قال اشتريت للشافعى طيباً بدينار فقال لى : ممن اشتريته ؟ فقلت : من ذلك الأشقر الأزرق ، فقال ، أشقر أزرق ، اذهب فردّه . وعن حرملة قال : سمعت الشافعى يقول : احذروا من كل ذى عاهة فى بدنه فإنه شيطان ، قال حرملة قلت — من أولئك ؟ قال الأعرج والأحول ونحوهما انتهى .

قال الأصفهانى : فى الذريعة : ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة فى القرءان) وقال (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) الآية . وقال فى قصة إبراهيم (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) وقوله (يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا) والرؤيا : هى فعل النفس الناطقة

---

(١) أى مشتمل بثوب أو جامع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها

ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الإنسان فائدة ، والله يتعالى عن الباطل . وهى ضربان ضرب — وهو الأكثر — أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس بالخواطر الرديئة لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة وضرب — وهو الأقل — صحيح ، وذلك قسمان : قسم لايحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الأضغاث و بين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية و يفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لاتصح له رؤيا . وفيهم من تصح رؤياه ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ، ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوّة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وهذا العلم لايحتاج إلى مناسبة بين متحريه و بينه ، فربّ حكيم لايرزق حذقاً فيه ، وربّ نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة .

ويحكى عن العرب فى التعبير حكايات عجيبة حتى عن المولدين منهم . قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) حكى عن المهدى أنه رأى رؤيا ونسيها ، فأصبح مغتماً بها ، فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل والتعبير ، وكان حاذقاً ، واسمه خويلد ، فلما دخل عليه أخبره بالذى أراده له ، قال له : يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والفأل إلى الحركة ، فغضب المهدى وقال : سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدرى ما هو ! ومسح يده ووجهه ، وضرب بها على فخذه ، فقال له : أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين ! قال : هات ! قال : رأيت كأنك صعدت جبلاً ، فقال المهدى : لله أبوك يا سحار صدقت ! قال : ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك ، وعلمت أن الرأس ليس فوقه شىء إلا السماء فأولته بالجبل ، ثم نزلت بيدك إلى جبهتك ، فزجرت لك بنزولك إلى أرض ملساء فيها عينان مالحتان ثم انحدرت إلى سفح الجبل فلقيت رجلاً

من فخذك قريش ، لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت أن الرجل الذى لقيته من قرابتك ! قال : صدقت ، وأمر له بمال وأمر أن لايحجب عنه ، ومثل هذه الحكاية كثير . قال الأصفهانى : والزكانة ضرب من الفراسة أيضاً ، وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم ؛ والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق ، وقد ذكرناها سابقاً بقسميها ، والله ولى الهداية والتوفيق . ومن علومهم :

علم الكهانة والعرافة

كان هذا العلم فى العرب أيام الجاهلية شائعاً فيهم ، وعليه مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم ؛ وقد تكلم فى الكهانة كثير من أهل العلم ، وبسطوا الكلام فيها وأوجزوا ، ونحن نلخص هنا ما وقفنا عليه فنقول : الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها ، قيل : هى ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيها استراق الجنىّ السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن ؛ والكاهن لفظ يطلق على العراف ، والذى يضرب بالحصى والمنجم ، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ، ويسعى فى قضاء حوائجه ، وقال فى المحكم . الكاهن القاضى بالغيب ، وقال فى الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهناً ، وقال الخطابى : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه ، قال بعض الأفاضل : وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشيةً خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرءان ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه

الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً كما سنبين ذلك فى أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ؛ ثانيها ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد ؛ ثالثها ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه ؛ رابعها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ؛ ومن هذا القسم الأخير ما يضاهى السحر ، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم .

وقال الإمام النووىّ فى شرح صحيح مسلم : الكهانة فى العرب ثلاثه أضرب أحدها أن يكون للإنسان رَئِىّ[1] من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الثانى أن يخبره بما يطرأ ويكون فى أقطار الأرض ، وما خفى عنه مما قرب أو بعد ، وهذا لا يبعد وجوده . ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة فى ذلك ولا بعد فى وجوده ، لكنهم يصدقون ويكذبون ، والنهى عن تصديقهم والسماع منهم عام ؛ الثالث المنجمون ، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فى بعض الناس قوة مّا لكن الكذب فيه أغلب ، ومن هذا الفن العرافة فصاحبها عراف ؛ وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى ؛ وهذه الأضراب كلها تسمى كهانة ، وقد أكذبهم الشرع ، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم انتهى . يريد بالنهى حديث « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ولعل الحكمة فى النهى عن ذلك لغلبة الكذب فى كلامهم ولأن فى تصديقهم فَتْحَ بابٍ يوصل إلى لظى ، إذ قد

(١) قال ابن الأثير : يقال للتابع من الجن رئى ككمى وهو فعيل أو فعول . سمى به لأنه يتراآى لمتبوعه أو هو من الرأى من قولهم فلان رئى قومهم اذا كان صاحب رأيهم .

يجر إلى تعطيل الشريعة والطعن فيها ، لا سيما من العوام ؛ واستثناء ما هو من جنس الكسوف لندرة خطئهم فيه ، بل لعدمه إذا أمكنوا الحساب ؛ ولا كذلك ما يخبرون به من الحوادث إذ قد بنوا ذلك على أوضاع السيارات بعضها مع بعض أو مع بعض الثوابت ، ولا شك أن ذلك لا يكفى فى الغرض والوقوف على جميع الأوضاع ، وما تقتضيه مما يتعذر الوقوف عليه لغير علام الغيوب .

وقد أطال الكلام ابن خلدون فى مقدمته على المدركات الغيبية ، ومنها الكهانة ، ومن كلامه فيها أنه قال[1] وأما الكهانة فهى أيضاً من خواص النفس الإنسانية وذلك أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك . ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ، ولا بأمر من الأمور إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً فى الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه ، وشتان ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة ، وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ، ويكون كالمشيع له ، وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص

(١) المقدمة ص ٨٤ — ط بولاق

والقصور عن الـكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الـكليات ، ولذلك تـكون المخيلة فيهم فى غاية القوة ، لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً فى نوم أو يقظة ، وتـكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها بالمخيلة . وتـكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الـكاهن على الـكمال فى إدراك المعقولات ، لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالـكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه فى تلك الحركة ، والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه عن لسانه فربما صدق ووافق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ؛ فيعرض له الصدق والـكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به ، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ، وأصحاب هـذا السجع هم المخصوصون باسم الـكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مثله (هذا من سجع الـكهان) فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد[١] حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هـذا الأمر ؟ قال : يأتينى صادق وكاذب ، فقال : خلط عليك الأمر يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الـكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والـكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه ، والتبست بالإدراك الذى توجه إليه ، فصار مختلطاً بها ، وطرقه الـكذب من هذه الجهة فامتنع أن تـكون نبوة ، وإنما قلنا : إن أرفع مراتب الـكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز[٢] بعض الشيء .

---

(١) سنذكر عنه شيئا قريبا . (٢) كذا . ولعله سقط من قلم الناسخ لفظ « عن » .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل ، لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه ، وأيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لابد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله ، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شىء بعد ، وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره ، وهو غير مسلم ، فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئاً لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ؛ ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبى ، ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ، ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ،

ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبياً ، وكذا وقع لابن الصياد[١] ، ولمسيلمة[٢] وغيرهم ؛ فإذا غلب الإيمان ، وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدى[٣] وسواد بن قارب[٤] وكان لهما فى الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان . انتهى المقصود من نقله .

كلام فى العرافة

والعرافة قسيمة للكهانة حسبما يفهم من كلام كثير من أهل العلم . قال الأصفهانى فى كتاب الذريعة : الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية . وعرفها بعضهم بقوله . العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة ، أو المشابهة الخفية ، التى تكون بينهما ، أو الاختلاط ، أو الارتباط على أن يكونا معلولى أمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى الاستقبال ؛ وشرط كون الارتباط المذكور خفياً لا يطلع عليه إلا الافراد ، وذلك إما بالتجارب ، أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة ؛ وهى كثيرة فى العرب جاهلية وإسلاماً . يحكى أنه كان فى زمن هرون الرشيد رجل أعمى من أهل العرافة ، وكان يستدل على المسؤول عنه بكلام صدر عن الحاضرين عقب السؤال ، فسرق يوماً من خزانة الرشيد بعض من الأشياء ، فطلب الرجل ، وأمر أن لا يتكلم أحد بعد السؤال أصلا ، ففعلوا كما أمر ، والأعمى ألقى سمعه ولم يسمع شيئاً فأمرّ يده على البساط

---

(١) قال الزبيدى : هو رجل من اليهود أو دخيل فيهم واسمه « صاف » قيماقيل . وكان عنده شيء من الكهانة أو السحر . وجملة أمره انه كان فتنة امتحن الله بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة . ثم انه مات بالمدينة فى الاكثر . وقيل انه فقد يوم الحرة فلم يجدوه انتهى « التاج مادة صيد » (٢) انظر ص ١٩٦ من الجزء الأول (٣) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الاسدى الفقعسى كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم اسلم وحسن اسلامه (٤) سيأتى ذكره قريبا .

فوجد فيه نواة تمرة ، فقال : إن المسئول عنه در وز برجد و ياقوت ! فقال الرشيد أين هو ؟ قال : فى بئر ، فوجدوه كما ذكر الأعمى ، فتحير الرشيد فيه فسئل عن سبب معرفته ، فقال : وجدت نواة تمرة وطلع النخل أبيض ، وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ولون الزمرد كذلك ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ولون الياقوت كذلك ، ثم لما سألتم عن مكان المسروق سمعت صوت دلو فعرفت أنه فى بئر ! فاستحسن الرشيد استخراجه وفراسته ، فأعطاه مالًا جزيلا . وحكى أن أبا معشر وصاحبه ذهبا إلى عراف فسألاه عن شىء فقال إنكما سألتما عن مسجون ! فقالا : إنه يخلص ؟ قال : نعم يخلص ! فسألاه عن سبب معرفته ، فقال : إنكما لما سألتمانى وقع نظرى على قربة ماء فعرفت أن السؤال عن مسجون ولما سألتمانى عن خلاصه نظرت فإذا هو قد فرغ قربته ، ولابن خلدون كلام فى حقيقة العرافة ونحوها يستحسنه أهل النظر ، ولعلنا نذكره فى علم الزجر .

نبذة من أخبار بعض من اشتهر من الكهان والعرافين

قد كان العرب على ما ذكرنا سابقاً يفزعون إلى الكهان والعرافين فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى الخصومات ، ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك ، واشتهر منهم فى الجاهلية جماعة معدودون ، منهم :

عزى سلمة الكاهن

روى هشام بن محمد الكلبى عن أبيه عن أبى صالح عن عقيل بن أبى طالب قال : كان عبد المطلب بن هاشم نديما للحرث بن أمية حتى تنافرا إلى نفيل ابن عبد العزى ، فما نفر عبد المطلب فتفرقا . ومات عبد المطلب وهو ابن عشرين ومائة سنة ، ومات قبل الفجار فى الحرب التى بين هوازن ، ويقال بل تنافرا إلى عزى

سـلمة الـكاهن ، قالوا : كان لعبد المطلب ماء بالطائف يقال له : (ذو الهَرْم[١]) فجاء الثقفيون فاحتفروه فخاصمهم عبد المطلب إلى عزى أو إلى نفيل ، فخرج عبد المطلب مع ابنه الحرث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقفيون مع صاحبهم وحرب ابن أمية معهم على عبد المطلب فنفد ماء عبد المطلب فطلب إليهم أن يسقوه ، فأبوا ، فبلغ العطش منهم كل مبلغ ، وأشفوا[٢] على الهلاك ، فبينا عبد المطلب يثير بعيره ليركب إذ فجر الله له عينا من تحت جِرانه[٣]. فحمد الله وعلم أن ذلك منه فشرب وشرب أصحابه ريهم ، وتزودوا منه حاجتهم ، ونفد ماء الثقفيين ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم ، فأنعم لهم ، فقـال له ابنـه الحرث : لأنتحين على سـيفى حتى يخرج من ظهرى ! فقال عبد المطلب : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك فسقاهم ثم أطلقوا حتى أتوا الـكاهن ، وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة ، وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له : (سوّار) فلما أتوا الـكاهن إذا هم ببقرتين تسـوقان بينهما بَخْرجا[٤] كلتاهما تزعم أنه ولدها ، ولدتا فى ليلة واحدة فأكل النمر أحد البخرجين فهما توأمان الباقى ، فلما وقفا بين يديه قال الـكاهن : هل تدرون من تريد هاتان البقرتان ؟ قالوا لا : قال الـكاهن : ذهب به ذو جسد أربد[٥] وشِدْق مرمع[٦] وناب معلق ، ما للصغرى فى ولد الـكبرى حق ، فقضى به للـكبرى ، ثم قال : حاجتكم ، قالوا : قد خبأنا لك خبيئاً فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا ، قال : خبأتم لى شيئاً طـار فسطع فتصوب فوقع ، فى الأرض منه بقع ، فقالوا : لاده أى بينه ، قال : هو شىء طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار . فقالوا لاده ، قال :

---

(١) بفتح فسكون . وضبطه بعضـهم بكسر الراء . قال ياقـوت : هكذا ضبطناه عن اهل العلم والصحيح عندى انه ذو الهرم بالتحريك وله فيه قصة جاء فيها سجع يدل على ذلك ... ومن ضبط الهرم بالفتح والسـكون قال أنه « مال » كان لعبد المطلب أو لأبى سفيان بالطائف (٢) اشرفوا

(٣) بالكسر مقدم عنقه من مذبحه الى منحره .

(٤) البخرج : ولد البقرة (٥) اى اسود مختلط (٦) الشدق : جانب الفم . ومرمع : مصفر متغير .

إن لاده فلاده ، هو رأس جراده ، فى خرز مزاده ، فى عنق (سوار) ذى القلاده ، قالوا : صدقت ، فأخبرنا فيما اختصمنا إليك فأخبرهم فانتسبوا له فقضى بينهم ورجعوا إلى منازلهم على حكمه . وقد أورد هذا القصة الميدانى أيضاً عند الكلام على قولهم (إلّا دهِ فلَادَهِ) قال : وروى ابن الأعرابى إلاده فلاده ، ويروى أيضاً إلاده فلاده أى إن لم تُعط الاثنين لا تعطى العشرة ، قال أبو عبيد : يضرب به الرجل يقول أريد كذا وكذا . فإن قيل له ليس يمكن ذا قال فكذا وكذا ، وقال الأصمعى : معناه إن لم يكن هذا الآن فلا يكون بعد الآن ، وقال : لا أدرى ما أصله . قال : رؤبة « وقُوَّلٌ إلادهِ فلاده » قال المنذرى : قالوا معناه إلا هذه فلا هذه يعنى أن الأصل الاذه فلاذه بالذال المعجمة فعرب بالدال غير المعجمة ، كما قالوا يهوذ . ثم عرب فقيل يهود ، وقيل أصله إلادهى أى إن لم تضرب فأدخل التنوين فسقط الياء وقبله .

فاليوم قد نهنهنى تنهنهى وأوْلُ حلمٍ ليس بالمُسَفَّهِ
وقُوَّلٌ إلّا دَهِ فلَادَهِ وحقَّةٌ ليستْ بقوْل التُرَّهِ

يقول : زجرنى زواجر العقل ، ورجوع حلم ليس ينسب إلى السفه ، وقُوّل أى ورجوع قول أى نساء قُوَّل يقلن إن لم يتب الآن مع هذه الدواعى لا يتب أبداً . وقوله : و « حقة » أى وقالة حقة يقال حق وحقة كما يقال أهل وأهلة يريد الموت وقر به انتهى . وقال عبد القادر البغدادى فى كتاب خزانة الأدب بعد أن أورد هذه الأبيات : وصف رؤبة قبل هذه الأبيات شبابه ، وما كان فيه من مغازلة الغوانى ومواصلة الأمانى — إلى أن قال — فاليوم قد زجرنى عما كنت فيه أربعة أشياء : الأول التنهنه ، وهو مطاوع نهنهته عن كذا فتنهنه . أى كففته وزجرته عنه فكف ، أى زجرنى زواجر العقل ، الثانى أول حلم أى رجوع عقل لا ينسب إلى السفه ، الثالث عذل القائلين إن لم تتب الآن مع هذه الدواعى إلى التوبة فلا تتوب أبداً فقوله « وقوّل » على حذف مضاف ، والرابع حقة أى خطة حقة ، فالموصوف محذوف ، وأراد بها الموت وقر به ، يقال حق وحقة كما يقال أهل وأهلة ،

والتره اسم مفرد بمعنى الباطل ، يقال تره وترهة وجمع الأول تراريه ، وجمع الثانى ترهات . وقول الرضى (دَهْ) بفتح الدال وسكون الهاء إلى آخر ماذكره هذا كلام شارح اللباب إسمعيل القالى من غير زيادة ولا نقص ، ولا يخفى أنه إذا كان ده بمعنى اضرب فهو اسم فعل لا صوت ، والحق أنها فى لغة الفرس زجر لذى الحافر ليسرع ، أوليذهب وليست بمعنى اضرب ، وهذا أمر ظاهر من استعمالهم إلى الآن ، ولكنهم أجمعوا على أنها بمعنى الضرب وحينئذ فيرد عليهم أنها تكون اسم فعل لا صوتاً قال صاحب اللباب : ذكر جار الله أن ده زجر للإبل مثل هيد وهاد ، وذكر فى أمثاله أن ده بفتح الدال وكسرها فارسية معناها الضرب قد استعملها العرب فى كلامهم ؛ وأصله أن الموتور يلقى واتره فلا يتعرض له ، فيقال له : « إلا ده فلا ده » أى إنك إن لم تضرب به الآن فإنك لا تضرب به أبداً ، وتقديره إن لم يكن ده فلا يكون ده أى إن لم يوجد ضرب الساعة فلا يوجد ضرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلًا فى كل شىء لا يقدم عليه الرجل وقد حان حينه من قضاء دين قد حل ، أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأحوال التى لا يسوغ تأخيرها ؛ والحاصل أن قولهم إلا ده فلا ده قد اختلف فى ضبط لفظه وشرح معناه ، وجميع الأقوال على أنها كلمة فارسية معربة ؛ وقد أبى أبو محمد عبد الله الشهير بابن برى المقدسى أن تكون هذه الكلمة فى هذا المثل غير عربية ، وذهب إلى أنها صفة مشبهة من الدهاء وهو الفطنة ، ورد على ملك النحاة فى زعمه أنها أعجمية فى الأصل بمعنى اسم الفعل ؛ ولقد أجاد ، فيما أفاد ، وحقق مدعاه فوق المراد ، وهو مذكور فى كتاب الخزانة ، ومنهم :

شق بن أنمار بن نزار

كان شق هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، ذكر الحافظ ابن الجوزى : أن خالد بن عبد الله القهرى كان من ولد شق هذا ؛ وهذ

الاسم فى الأصل اسم لحيوان وهو بكسر الشين ؛ قال القزوينى . الشق من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمى ! ويزعمون أن النسناس مركب من الشق ومن الآدمى ، ويظهر للإنسان فى أسفاره . وذكروا أن علقمة بن صفوان بن أميـة خرج فى بعض الليالى فانتهى إلى موضع فعرض له شق ، فقال علقمة : ياشق ! مالى ولك ، اغمد عنى مُنْصلك[1] أتقتل من لا يقتلك ؟ فقال شق : هَيْتَ لك[2] ، واصبرْ لما قد حُمّ لك[3]فضرب كل واحد منهما صاحبه فوقع ميتاً ؛ وفى سيرة ابن هشام عن ابن إسحق : أن مالك بن نصر اللخمى رأى رؤيا هالته ، فبعث إلى جميع الـكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا إليه فقال : إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فقالوا : قصها علينا نخبرك بتأويلها ! فقال لهم إنْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم فى تأويلها ، ولست أصدق فى تأويلها إلاَّ من عرفها قبل أن أخـبره بها ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الذى يرومه الملك لا يجده إلا عنـد شق وسطيح ، فلما أخبروه بذلك أرسل الملك من أتاه بهما ، فسأل سطيحاً فقال : أيها الملك إنك رأيت حممة[4] خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة[5] وأكلت منها كل ذات جمجمة[6] ! فقال الملك ؛ ما أخطأت شيئاً ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملـكن ما بين أبين إلى جرش ! فقال الملك : وأبيك ياسطيح إن هذا لنـا لغائظ موجع ، فمتى يكون ذلك أفى زمانى أم بعده ؟ فقال : بل بعـده بحين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، يمضين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين ! قال الملك : ومن الذى يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليـه ابن ذى يزن[7] يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن ! قال : أفيدوم ذلك من

---

(١) سيفك (٢) أى هلم (٣) أى قضى لك وقدر (٤) قطعة من نار
(٥) منخفضة (٦) انما قال كل ذات جمجمة ولم يقل كل ذى جمجمة لأن القصد الى النفس والنسمة فهو أعم ويدخل فيه جميع ذوات الأرواح ولو جاء بالتذكير لكان اما خاصا بالانسان أو عاما فى كل شىء حىّ أو جماد .
(٧) كذا والصواب « يليه ارم ذى يزن » .

سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال . نبيّ زكيّ ، يأتيه الوحي من ربه العليّ ، قال . وممن هذا النبي ؟ قال . من ولد غالب بن فهر بن مالك ابن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر ، فقال الملك : وهل للدهر من آخر ياسطيح ؟ قال . نعم ! يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ، فقال الملك . أحق ماتقول يا سطيح ؟ قال : نعم ! والشفق[1] والغسق[2] ، والفلق إذا اتّسق[3] ، إن ما أخبرتكم به لحق (ثم إن الملك) دعا شقاً فسأله كما سأل سطيحاً ، فقال له شق . إنك رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة[4] . فأكلت كل ذات نسمة[5] فلما سمع الملك مقالة شق قال له . ما أخطأت شيئاً فما عندك فى تأويلها ؟ فقال شق . أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كلّ طَفْلة البنان[6] ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران ، فقال الملك وأبيك يا شق إن ذلك لنا لغائظ مؤلم فتى يكون ذلك أفى زمانى أم بعده ؟ فقال . بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم الشأن ، ويذيقهم أشد الهوان ، فقال الملك . من هو العظيم الشأن ؟ قال . غلام ليس بدنى ولا مدن[7] يخرج عليهم من بيت ذى يزن ، فقال الملك . أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال . بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل ، فقال الملك . وما يوم الفصل ؟ فقال شق . يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمعها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، ويكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات ، فقال الملك . أحق

---

(١) الحمرة فى الافق من الغروب الى قريب العتمة (٢) ظلمة أول الليل.

(٣) اى انتظم (٤) شرفة كالرابية (٥) النسمة فى الاصل نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون (٦) أى رخصة الاصابع ناعمتها (٧) الدني: معروف والمدني كمحدثٌ الضعيف الخسيس الذى لا غناء عنده المقصر فى كل ما اخذ فيه نقله الازهرى وأنشد :

فلا وأبيك ما خلقى بوعر ولا انا بالدنى ولا المدنى

ما تقول ياشق ؟ قال . إى وربّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتكم به لحق مافيه أمض[1] ، فوقع ذلك فى نفس الملك لما رأى من تطابق شق وسطيح على ما ذكراه ، فجهز أهل بيته إلى الحيرة فرَقاً من سلطان الحبشة . ومنهم :

سطيح بن مازن بن غسان

كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة ويقال إنه كان وجهه فى صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان فى عصره من أشهر الكهان ، وأخباره فى التواريخ والسير كثيرة ؟ وكان هو وشق ولدا فى يوم واحد ، وكانا من المعمّرين . قال كثير من أهل السير وبعضهم يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال . لما كانت الليلة التى ولد فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ارتجس[2] إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرافة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة فى بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره ، وظهر لأهل مملكته ، فأخبرهم الخبر ، فقال المُوْبَذان[3] : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، قال له : وما رأيت ؟ قال رأيت إبلًا صعاباً[4] ، تقود خيلًا عراباً[5] قد اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا ، قال : رأيت عظيماً فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه

---

(١) أى ما فيه شك ولا مسراب (٢) رجف (٣) بضم الميم وفتح الباء فقيه الفرس وحاكم المجوس (٤) جمع صعب وهو من الدواب نقيض الذلول (٥) أى عربية منسوبة الى العرب .

إليك رجلًا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن بُقَيْلَةَ الغسّانىّ ، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك : والله ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولكن جهزنى إلى خال لى بالشام يقال له (سطيح) قال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه وكلّمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أصمّ أم يسمع غِطْرِيف اليمن   يا فاصلَ الخطّة أعيتْ مَنْ ومَنْ[1]
أتاك شيخُ الحىّ من آل سنن   أبيض فَضْفَاض الرداء والبدن[2]
رسول قَيْل العجم يهوى للوثن   لا يَرْهَب الرعد ولا رَيْبَ الزمن[3]

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيح[4] ، جاء إلى سطيح . وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المُوْبَذَان ، رأى إبلًا صعابًا ، تقود خيلًا عرابًا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . ثم قال : يا عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة[5] فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكلّ ما هو آتٍ آت ، ثم قال :

إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم   فإن ذا الدهر أطواراً دهارير[6]
منهم بنو الصرح بهرام وإخوته   والهرمزان وسابور وسابور
فربما أصبحوا يوماً بمنزلة   تهاب صولهم الأسد المهاصير
حثوا المطى وجدوا فى رحالهم   فما يقوم لهم سرج ولا كُور[7]
والناس أوْلادُ عَلَّاتٍ فمن علموا   أن قد أقل فمحقور ومهجور[8]

---

(١) الغطريف بالكسر السيد الشريف والسخى السرى (٢) الفضفاض الواسع (٣) القيل الملك أو هو دون الملك الاعلى (٤) جاد مسرع (٥) الهراوة: العصا ، وصاحب الهراوة : هو سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٦) الدهارير : تصاريف الدهر ونوائبه مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد ويقال دهر دهارير اى شديد (٧) الكور بالضم : رحل البعير (٨) أولاد العلات : اولاد امهات شتى من رجل واحد .

والخير والشر مقرونان فى قرن[1] فالخير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره ، قال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور ، ويدور الزمان ، فهلكوا كلهم فى أربعين سنة ، والموابذة عند الفرس هم القضاة ، والمرابذة هم كالخلفاء للموابذة ، والأصبهبد حافظ الجيوش وأمير الأمراء ، والمدار هو الوزير الأعلى ، والمرازبة حفظة الثغور وولاة المملكة ، كذا فى كتب السير . وأخبار وشق وسطيح كثيرة . قال ابن خلدون فى مقدمته : ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبرا به : من ملك الحبشة لليمن ، وملك مضر من بعدهم ، وظهور النبوة المحمدية فى قريش ، ورؤيا الموبذان التى أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة ، وخراب ملك فارس ، وهذه كلها مشهورة ، ومنهم :

طريفة[2] الكاهنة

كانت طريفة هذه من أشهر كهان عصرها ، وهى التى أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب ، وإتيان سيل العرم وإفساده الجنتين ، بمقتضى ما ظهر لها من الكهانة ، قال عبد الملك فى شرح قصيدة ابن عبدون : إن أرض سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ، فمزقوا كل ممزق ، وكان أول من خرج من اليمن فى أول الأمر عمرو بن عامر مزيقياء ، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعا شديداً ، وأتت الملك عمراً

---

(١) أى مجموعان فى حبل (٢) هكذا ضبطت فى معجم البلدان « طبعة مصر » وضبطها بعضهم بفتح الطاء وكسر الراء .

وهى تقول : ما رأيت كاليوم ، أزال عنى النوم ، رأيت غيماً أرعد وأبرق ، وزمجر وأصعق ، فما وقع على شىء إلا أحرق ، فلما رأى ما دخلها من الفزع سكنها ، ثم إن عمراً دخل على حديقة له ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها وصيف لها اسمه سنان ، فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن (وهى دواب تشبه اليرابيع) فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى ، فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذى فى حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ، فوقعت على الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول على بطنها قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها استحيا منها وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ، ثم قال لها : يا طريفة ، فكهنت وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك ، قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيه الولد الوالد ، قال ما تقولين ؟ قالت أقول قول الندمان لهفاً ، لقد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ ! قال : ماترين فى ذلك ؟ قالت : هى داهية دهياء من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ، قال : وما هو ويلك ؟ قالت : أجل وإن فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وإن الويل فيما يجىء به السيل ، فألقى عمرو عن فراشه وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : إذهب إلى السد فإذا رأيت جرذاً يكثر بيديه فى السدّ الحفر ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن الغمر غمر ، وأنه قد وقع الأمر ، قال

وما الذى تذكرين ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزل ، وباطل بطل ، ونـكال بنا نكل فبغيرك ياعمرو يكون الشكل ، فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب رجليه صخرة ما يقلها خمسون رجلًا ، فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمْراً عادنى منه ألَمْ ... وهَاجَ لى من هَوْله بَرَح السقم[١]

من جرذٍ كفحل خنزير الأَجُمْ ... أو كبش صرم من أفاويق الغنم[٢]

يسحب قطراً من جلاميد العرم ... له مخاليبُ وأنياب قضم[٣]

ما فاته سحلًا من الصَّخْر قصم[٤]

فقالت طريفة : وإن من علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلسَ فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادى وحَزْنِهِ ، وقد علمت أن الجنان مظللة لا يدخلها شمس ولا ريح ؛ فأمر عمر بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا حتى امتلأَت من التراب فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى و بينك سبع سنين ! قال : فنى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وأنه لاتأتى علىَّ ليلة فيما بينى و بين السبع سنين إلا ظننت هلاكه فى غدها أو فى مسائها ؛ ثم رأى عمرو فى منامه سيل العَرِم ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء قد ظهرت فيهـا ، فعلم أنه واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرِب ، وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده

---

(١) البرح : الشدة (٢) الاجم : جمع اجمة وهى الشـجر الكثير الملتف . والصرم : جمع صريمة وهى القطعة من الابل (٣) قضم قضما اكل باطراف سناه (٤) سحله : قشره ونحته . وقصمه : كسره .

ويلطمه ؛ ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مَأْرِب أن عمراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ؛ فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل يأمره فيتأبى عليه ، فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه وكان اسمه مالكاً ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو وبهجته : صبيّ يضرب وجهه ! وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا يرغبون إليه حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم بموضع صنع فيه بى هذا ، ولأبيعن أموالى حتى لا يرث بعدى منها شيئاً ! فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غيظ عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشى بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء . فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج ، فخرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض (عك) فحار بتهم عك ، فارتحلوا عن بلادهم ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو ، وتفرقوا فى البلاد : فمنهم من سار إلى الشام وهم أولاد جفنة عمرو بن عامر ، ومنهم من سار إلى يثرب وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر ، وسارت أزد السراة إلى السراة ، وأزد عمان إلى عمان ، وسار مالك بن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيىء فنزلت أجأ وسلمى ، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة وسموا خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى :

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ومأرب عفّى عليها العَرِمْ
رُخام بَنَتْهُ لهم حِمْيَرٌ إذا جاء موّاره لم يَرِم
فأروى الزروعَ وأعنابها على ساعة ماؤهم إذْ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرو نَ منه على شرب طفل فطم

وذكر الميدانى عند قول العرب فى المثل « تفرقوا أيادى سبأ » عن فروة ابن مسيك ، قال أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أخبرْنى عن سبأ أرجل هو أم امرأة ، فقال : هو رجل من العرب ولد عشرةً : تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد والكندة والمذحج والأشعرون وأنمار منهم بجيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام ، وهم الذين أرسل عليهم سيل العرم ، وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين جبلين ، وحبسوا الماء وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً نقبت ذلك الردم حتى انتقض ، فدخل الماء جنتيهم ، فغرقهما ودفن السيل بيوتهم ، فذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم) والعرم : جمع عرمة وهو السكر الذى يحبس الماء . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يطاق . وقال قتادة ومقاتل : العرم اسم وادى سبأ ، ثم ذكر الميدانىّ عن الكلبى عن أبى صالح أن طريفة الكاهنة قد رأت فى كهانتها أن سد مأوب سيخرب ، وأنه سيأتى العرم فيخرب الجنتين ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه ، حتى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وبما حولها ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابنى الذين تشكون وهو مفرق بيننا . قالوا فماذا تأمرين ؟ قالت : من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد ، فكانت أزد عمان ، ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقسر ، وصبر على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مر ، فكانت خزاعة ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج . ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأسير ، ويلبس الديباج ، والحرير ، فليلحق بِبُصْرَى وغوير ، وهما من أرض

الشام ، فكان الذين سكنوها آل جَفنة ، من غَسَّان . ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ؛ وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جَذيمةَ الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرِّق . . . والمقصود أن طريفة كانت من مشاهير الكهان فى زمنها ، ولها أخبار كثيرة ونوادر شهيرة . ومنهم :

زبراء الكاهنة

كانت من الكهنة المذكورين عند العرب ، وكلامها له وقع فى نفوسهم ، ولها فى ذلك نوادر معجبة . روى القالى فى أماليه[1] عن أبى بكر قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن أبى مِخْنَف عن أشياخ من علماء قضاعة قال : كان ثلاثة أبطُن من قضاعة مُجْتَوِرين بين الشِّحْرِ وحضْرَمَوْت : بنو ناعب وبنو داهنٍ ، وبنو رِئام وكانت بنو رئام ، أقلهم عدداً ، وأشجعهم لقاء ، وكانت لبنى رئام عجوز تسمى خُوَيْلة ، وكانت لها أمةٌ من مولِّدات العرب تسمى (زبْراء) وكان يدخل على خويلة أربعون رجلًا كلهم لها مُحْرَمٌ بنو إخوة وبنو أخَوَات ، وكانت خويلة عقيماً ؛ وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذاتَ يوم فى عُرْس لهم وهم سبعون رجلًا كلهم شجاعٌ بئيس ، فطَعِمُوا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة انطلقى بنا إلى قومك أنْذِرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زَبْرَاء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالًا لها ، فقالت يا ثمر الأكباد ، وأنْدَاد الأولاد ، وشجا الحساد[2] هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء . قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد[3] الشنعاء ، فاسمعوا ماتقول ! قالوا : ما تقولين يا زبراء ؟ فقالت : والليل الغاسق[4] ، واللوح[5] الخافق ،

---

(١) ج ١ ص ١٢٦ (٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه
(٣) أى الداهية والامر العظيم (٤) اى الشديد الظلمة (٥) بالضم ، الهواء بين السماء والأرض ، وبالفتح العطش .

والصباح الشارق ، والنجم الطارق[١] . والمزن الوادق ، إن شجر الوادى لَيَأْدُو خَتْلا[٢] ، ويحرق أنيابا عُصْلا[٣] . وإن صخر الطود لينذر ثُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلا[٤] ، فوافقتْ قوماً أشارَى سُكارى[٥] فقالوا : ريح خَجُوج[٦] ، بعيدة مابين الفروج ، أتت زبراء بالأَبْلَق النَّتُوج[٧] ، فقالت زبراء : مهْلاً يا بنى الأعزة ! والله إنى لأشمُّ ذَفَرَ[٨] ، الرجال تحت الحديد ! فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْل بن مُنْقِذ : يا خذاق[٩] ، والله ما تشمين إلّا ذفَرَ إبْطَيْك ! فانصرفت عنهم : فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون ، وبقى ثلاثون ، فرقدوا فى مَشرَبهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين ، وأقبلت خُوَيْلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عمَدَتْ إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوى بن سَعْوة المهرى وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

ياخيرَ مُعتَمَدٍ ، وأمنع ملجأ وأعزَّ منتقم وأدرَكَ طالِبِ
جاءتك وافدةُ الثَّكالى تَغْتَلى بسوادها فوق القَضاء الناضِبِ[١٠]

---

(١) الطارق : النجم سمى بذلك لانه يطرق اى يطلع ليلا (٢) ادوت له آدو ادوا اذا ختلته — والختل — الخدع — قال الشاعر :

أدوت له لأختلـــه فهيهات الفتى حذرا

(٣) حرق انيابه : حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه « هو يحرق الارم » أى الاسنان . والعصل : المعوجة .
(٤) المعل : المنجى (٥) أشارى : جمع اشر كمرح (٦) سريعة المر
(٧) الأبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا للشيء الذى لا ينال فتقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » والانوق : الذكر من الرخم ولا بيض له . هذا قول بعض اللغويين وعامتهم يقولون : الانوق : الرخمة وهى تبيض فى مكان لا يوصل فيه الى بيضها الا بعد عناء . فيراد على هذا القول انه طلب ما لا يقدر عليه فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله . وعلى الاول انه طلب ما لا يمكن فلما لم يجد طلب ايضا ما لا يكون ولا يوجد ، والعقوق : الحامل (٨) الذفر : يكون فى النتن والطيب وهو حدة الريح . والدفر لا يكون الا فى النتن (٩) خذاق : كناية عما يخرج من الانسان
(١٠) المغالاة : المباعدة فى الرمى . والناصب : البعيد ، ومنه نضب الماء أى بعد عن أن ينال .

عَيْرَانة سُرُح اليَــدَيْن شِمِلَّة عُبْر الهَوَاجِر كالهِزَفِّ الخاضِب[١]
هذى خناصرُ أُسْرَتى مَسْرُودةً فى الجيد منى مثل سِمْطِ الـكاعب[٢]
عشرون مُقْتَبلاً وشطرُ عَدِيدِهم صُيَّابة مِلْقَوْمِ غــير أشايب[٣]
طَرَقَتْهُمُ أُمُّ اللُّهَيْمِ فأصبحوا تَسْتَنُّ فوقَهُمُ ذُيولُ حواصِب[٤]
جَزَراً لعافيــة الخَوَامِــع بعــدما كانوا الغياثَ من الزمان اللاَّحِب[٥]
قَسَمَتْ رجالُ بنى أبيهم بينهم جُرَعَ الرَّدى بمَخَارِص وقَوَاضِب[٦]
فابْرُدْ غليلَ خُوَيْلة الثَّــكْلَى التى رُمِيَتْ بأثْقَلَ من صخور الصَّاقِب[٧]
وتَلاَفَ قَبْلَ الموْتِ ثأرى إنَّه عَلِقٌ بِثَوْبَىْ داهِنٍ أو ناعِبِ

فقال : حِجْرٌ[٨] على مَرْضَاوى الأعذبانِ والأحمرانِ[٩] أوْ يَقْتُلَ بعددِ رئام من داهنٍ وناعب ! ثم قال :

أخالَتَنَا سِرُّ النساء مُحَرَّمٌ علىَّ وتَشْهادُ النَّدَامى على الخَمْرِ[١٠]
كذاكَ وأفلاذُ الفَئِيدِ وما ارْتَمَتْ به بنى جالَيْهَا الوَئِيَّةُ مِلْوَذْرِ[١١]
لئن لم أُصَبِّحْ داهِناً ولَفِيفَهَا وناعِبَهَا جَهْرًا براغية البَــكْرِ[١٢]

---

(١) عيرانة : تشبه العير لصــلابتها . والسرح : السهلة رجع اليــدين . والشملة : السريعة الخفيفة . ويقال « ناقة عبر اسفار » اذا كانت قوية على السفر ، و « عبر الهواجر » اذا كانت قوية على الحر واصل هذا كأنه يعبر بها الهواجر والاسفار . والهزف : الظليم الجافى والخاضب : الذى قد أكل الربيع فاحمرت ظنبوباه واطراف ريشه . والظنبوب مقدم عظم الساق .
(٢) مسرودة : مشكوكة . والسمط قلادة اطول من المخنقة . والكاعب: التى نهد ثدياها (٣) مقتبل : مستأنف الشباب ، والصيابة : صميم القــوم وخالصهم . وملقوم : من القوم . وأشايب : أخلاط من الناس (٤) أم اللهيم: الداهية . وتستن : تسير . والحواصب : الرياح التى تسفى الحصباء .
(٥) الخوامع : الضباع . واللاحب : القاشر (٦) المخارص : جمع مخرص وهو سكين كبير مثل المنجل يقطع به الشجر (٧) الصاقب : جبل معروف
(٨) حرام (٩) الاعذبان : النكاح والاكل . والاحمران : اللحم والخمر
(١٠) السر : النكاح (١١) الأفلاذ : جمع فلذ وهو ما قطع طولا من اللحم. والفئيد : الشواء وهو فعيل بمعنى مفعول يقال فادت اللحم اذا شويته . والجالان : الناحيتان من أعلاهما الى اسفلهما . والوئية : القدر العظيمة . والوذر : من اللحم القطع الصغيرة التى لا عظم فيها (١٢) فى الاساس : كانت عليهم كراغية البكر أى اشتدت عليهم كرغاء ثقب ناقة صالح ، قال الأخطل :
لعمرى لقد لاقت سليم وعامر على جانب الثرثار راغية البكــر

فوَارى بَنَانَ القوم فى غامض الثَّرَى   وصُورى إليكِ من قناعٍ ومن سِتْرِ[1]
فإنى زعيمٌ أن أرَوِّى هامَهُمْ   وأظْمِىءِ هاماً ما انسَرَى الليلُ بالفجر[2]

ثم خرج فى مَنْسرٍ[3] من قومهِ فطرق داهناً وناعباً فأوجع فيهم . ومنهم :

خنافر بن التوأم الحميرى

ذكر القالى فى أماليه[4] عن أبى بكر قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبىّ عن أبيه قال : كان خُنَافر بن التوأم الحميرىّ كاهناً ، وكان قد أوتى بَسْطةً فى الجسم ، وسعَةً فى المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد فاكتَسَحها[5] ، وخرج بأهله وماله ، ولحق بالشِّحْر ، فحالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمىّ وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشّحْر مُخْصِباً كثير الشجر من الأيك والعَرِين[6] (قال خنافر) وكان رئيىّ[7] فى الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلة فى ذلك الوادى نائماً إذ هوى هوىّ العُقَاب ! فقال : خنافر ! فقلت : شِصار ! فقال : إسمع أقلْ فقلت : قل أسمع . فقال : عه تَغْنَمْ ، لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد إلى غاية . قلت : أجل ! فقال : كل دولةٍ إلى أجل ، ثم يُتَاح لها حِوَلٌ[8] ، انْتسِخت النِّحَلُ ، ورجَعَتْ إلى حقائقها الملل ، إنك سجيرٌ موصول[9] ، والنصح لك مبذول ، وإنى

أى الشؤم والشدة

(١) صورى : ميلى (٢) زعيم : ضامن وكذلك قبيل وحميل وكفيل وضمين واحد . وقوله (أروى هاما) كانت العرب تقول اذا قتل الرجل فلم يدرك بثأره خرج من هامته طائر يسمى (الهامة) فلا يزال يقول : (اسقونى ! اسقونى !) حتى يقتل قاتله فيسكن . (انظر الجزء الثانى ص ٣١١ و٣١٢ و٣١٣) (٣) المنسر : من الخيل مابين الثلاثة الى العشرة وقيل مابين الثلاثين الى الأربعين أو من الأربعين الى الخمسين أو الى الستين أو من المائة الى المائتين والمنسر أيضا قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير (٤) امالى القالى ج ١ ص ١٣٣ (٥) كنسها (٦) الأيك : الشجر الملتف الكثير والغيضة تنبت السدر والاراك ، والعرين : جماعة الشجر (٧) الرئى : مايتراءى للانسان من الجن

(٨) تحول (٩) السجير : الصديق ، والشجير بالشين معجمة الغريب . وقد قال بعض اللغويين يقال السجير والشجير للصديق .

آنَسْتُ[١] بأرض الشام ، نفراً من آل العُذَام[٢] . حُـكَّاماً على الحكام، يَذْبُرون[٣] ذا رونق من الـكلام ؛ ليس بالشعر المؤلّف ، ولا بالسجع المتكلّف ، فأصغيت فزُجِرْت ، فعاودت فَظَلُفِتْ[٤] ؛ فقلت : بم تُهَيْنِمُونَ[٥] ، و إلام تعتزون[٦] قالوا خطابٌ كُبّار[٧] ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شِصار ، عن أصدق الأخبار واسلك أوضح الآثار ، تَنْجُ من أوار[٨] النار ! قلت : وما هذا الـكلام ؟ قالوا : فرقان بين الـكفر والإيمان ، رسول من مُضَر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بَهَر ، وأوضح نهجاً قد دَثَرَ ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذٌ لمن ازدجر ، أُلّف بالآى الـكُبَرَ . قلت . ومن هذا المبعوث من مُضَر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشَّبَرَ[٩] ، و إن خالفت أصليتَ سَقَر ، فآمنت يا خُنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، و إلا فهو الفراق لا عن تلاق . قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرّين[١٠] ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح . قال : الْحَقْ بيثرِبَ ذات النخل ، والحرة ذات النعل[١١] ، فهناك أهل الطَّوْل والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم امّلس عنى فبتُّ مذعوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى ، وآذنت[١٢] أعبدى ، واحتملت بأهلى ، حتى وردت الجَوْف ، فرددت الإبل على أربابها ، بحُولها وسِقابها[١٣] ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أمير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فبايعته على الإسلام ، وعلمنى سوراً من القرآن فمنّ الله علىّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقلت فى ذلك :

---

(١) أى ابصرت (٢) قبيلة من الجن . كذا قال ابو بكر (٣) يقرأون (٤) منعت . قال الشاعر :

الم اظلف عن الشعراء عرضى   كما ظلف الوسيقة بالكراع

(٥) الهينمة : الصوت الخفى (٦) تنتسبون (٧) كبير (٨) الاوار : شدة الحر . (٩) الشبر : الخير وحرك للسجع (١٠) قال الاصمعى : جمع الحرة حرار وحرون واحرون (١١) النعل : المكان الغليظ من الحرة (١٢) اعلمت (١٣) الحول: جمع حائل وهى الانثى من أولاد الابل . والسقاب : جمع سقب وهو الذكر

ألم ترَ ان الله عاد بفضــله وأنقذَ من لَفْحِ الزّخيخِ خُنافرا[١]
وكشّفَ لى عن جَحْمَتىَّ عماها وأوصح لى نَهْجى وقد كان داثِرا[٢]
دعانى شِصارٌ للتى لو رفضتهاَ لَاصْليت جمراً من لَظَى الهَوْبِ واهرا[٣]
فأصبحْتُ والإسلام حَشْوُ جوانحى وجانَبْتُ من أمسى عن الحق نائرا[٤]
وكان مُضلِّى مَنْ هُديتُ برُشْدِه فلله مُغْوٍ عادَ بالرُّشْدِ آمرا
نَجَوْتُ (بحمدالله) من كلِّ قُحَمَةٍ تُؤَرِّث هُلْـكاً يوم شايَعْتُ شاصِرا[٥]
وقد أمِنَتْنى بعـد ذاك يُحَابِرٌ بمـا كنت أغشى المُنْديات يُحَابِرا[٦]
فمن مُبْلِغٌ فتيانَ قومى ألُوكَةً بأنّىَ من أقتال من كان كافرا[٧]
عليــكم سواءَ القصد لافُلَّ حدُّكم فقد أصبح الإسلام للـكفر قاهرا

ومنهم :

صواحبات مصاد بن مذعور القينى

روى عن أبى بكر بن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن العباس بن هشام عن أبيه . قال : كان مُصَادُ بن مذعور القينى رئيساً قد أخذ مِرْباع قومه دهراً (وهو ربع الغنيمة) وكان ذا مال فندَّ ذَوْدٌ من أذواد له[٨] ، فخرج فى بغائها[٩] قال فإنى لفى طلبها إذ هبطت وادياً شجيراً[١٠] كثيف الظلال ، وقد تفسخت أيناً[١١] ، فأنخت راحلتى فى ظل شجرة ، وحططت رحلى ، ورسَفْتُ بعيرى[١٢] ، واضطجعتُ فى بُرْدى ، فاذا أربع جَوَارٍ كأنهن اللآلى يرعين

(١) الزخيخ بلغة أهل اليمن النار (٢) الجحمتان : العينان بلغتهم والنهج : الطريق الواضح (٣) الهوب : النار بلغتهم . والواهر : الساكن مع شدة الحر . وكل هذه الأحرف من لغتهم (٤) أى نافرا (٥) القحة : الشــدة (٦) يحابر « كيقاتل مضارع قاتل » ابن مالك بن أدد أبو مراد القبيلةالمشهورة ثم سميت القبيلة يحابر ، والمنديات : المخزيات (٧) الالوكة : الرســالة ، والاقتال : الأعداء (٨) ند : شرد ، والدود : مابين الثلاثة الى العشرة ، والعرب تقول : « الذود الى الذود ابل » يعنى اذا اجتمع القليل الى القليل صار كثيرا (٩) أى طلبها (١٠) كثير الشجر (١١) كلالا وتعبا (١٢) شددت رسغه

بهمّاً لهنّ ، فلما خالطَتْ عيني السِنَةُ أقبلن حتى جلسن قريباً منى ، وفى كف كل واحدة حصيات تقلّبهن ، فخطّتْ إحداهن ثم طرقت فقالت : قلن يابنات عرّاف فى صاحب الجمل النِّياف[1] والبُرْد الكثّاف[2] والجِرْم الخفاف[3] ثم طرقت الثانية فقالت : مُضِلٌ أذوادٍ علاكد[4] ، كُومٍ صَلاخِد[5] ، منهن ثلاث مقاحد[6] وأربع جَدائد[7] شُسُفٌ صَمارِد[8] ، ثم طرقت الثالثة فقالت : رعَيْنَ الفرْع[9] ثم هبطن الكَرَع[10] ، بين العَقِدات والجَرَع[11] ، فقالت الرابعة : ليهبط الغائطَ الأفيح[12] ثم ليظهَرْ فى الملأ الصَّحْصَح[13] ، بين سَدير وأملَح[14] ، فهناك الذَّوْدُ رِتاع ، بِمُنْعَرَج الأجْراع ، قال : فقمت إلى جملى ، فشددت عليه رحله ، وركبت ، ووالله ما سألتهنّ مَنْ هُنّ ولا ممن هن ؟ فلما أدبرت قالت إحداهن أبرح[15] فتى إنْ جَدّ فى طلب . فماله غيرهن نَشَب[16] ، وسيئوب عن كثب[17] ، ففزّع قلبى — والله — قولُها ! فقلت : وكيف هذا وقد خَلَّفْتُ بوادى عُرْجاً عُكامِساً ؟[18] فركبت السمت الذى وصفن لى حتى انتهيت إلى الموضع ، فإذا ذَوْدى رواتع ، فضربت أعجازهن حتى أشرفت على الوادى الذى فيه إبلى فإذا الرعاء تدعو بالويل ، فقلت : ماشأنكم ؟ قالوا : أغارت بهْراء على إبلك فأسْحَفَتْها[19] ، فأمسيت

---

(١) العالى (٢) أى الكثيف (٣) الجرم : الجسد . والخفاف : الخفيف (٤) صلاب والواحد علكد (٥) الكوم : العظام الأسنمة ، والصلاخد : العظام الشداد واحدها صلاخد بالضم وفيه لغات يقال بعير صلاخد وصلخدى وناقة صلخداة . (٦) جمع مقحاد وهى الغليظة السنام والقحدة السنام ويقال أصل السنام (٧) جمع جدود وهى التى انقطع لبنها (٨) شسف : جمع شاسف وهو اليابس ضمرا وهزالا . والصمارد جمع صمرد ، والصمرد والبكيئة والدهين القليلة اللبن (٩) جمع فرعة وهى أعلى الجبل (١٠) هو ماء السماء ينزل فيستنقع وسمى كرعا لأن الماشية تكرع فيه (١١) العقدة : ماتعقد من الرمل . والجرع : جمع جرعة وهى الرملة الطيبة المنبت لاوعوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الدعص لاينبت كالأجرع (١٢) الغائط : المطمئن من الأرض ، والأفيح : الواسع (١٣) الملأ : الفضاء والصحصح : الصحراء (١٤) موضعان (١٥) أشد (١٦) هو المال الأصيل من الناطق والصامت (١٧) أى قرب (١٨) العرج : نحو خمسمائة من الابل ، والعكابس والعكامس جميعا الكثير (١٩) استأصلتها

والله مالى غير الذود ، فرمى الله فى نواصيهن بالرّغس[١] ، و إنى اليوم لأكثر بنى القَين مالًا ، وفى ذلك أقول :

هو الدهر آسٍ تارةً ، ثم جارحُ ‏ ‏ ‏ سوانحُهُ مبثوثة والبوارحُ[٢]
فبينا الفتى فى ظلّ نَعْماء غضّةٍ ‏ ‏ ‏ تُباكِرُهُ أفياؤه وتُراوِحُ[٣]
إلى أن رَمَتْهُ الحادثاتُ بنكبةٍ ‏ ‏ ‏ تضيق به منها الرحابُ الفَسائحُ[٤]
فأصبحَ نِضْواً لا يَنوءُ كأنما ‏ ‏ ‏ بأعظُمِه مما عراه القوادحُ[٥]
فما خِلْتُني من بعد عَرْجٍ عُكامسٍ ‏ ‏ ‏ أُقَسِّسُ أذواداً وهنّ روازحُ[٦]
حَدابيرُ ما ينهضنَ إلا تحاملًا ‏ ‏ ‏ شَوَاسِفُ عُوجٌ أسأرتها الجوائحُ[٧]
فياواثقاً بالدهر كُنْ غيْرَ آمنٍ ‏ ‏ ‏ لما تنتضيه الباهضات الفوادحُ[٨]
فلست على أيامه بمُحَكَّمٍ ‏ ‏ ‏ إذا فَغَرَتْ فاها الخطوب الكوالحُ[٩]
مُجيرك منه الصبر إن كنت صابراً ‏ ‏ ‏ وإلا كما يهوى العَدُوُّ المكاشحُ[١٠]

ومنهم :

سلمى الهمدانية الحميرية

روى أبو على القالى فى أماليه[١١] عن أبى بكر . قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبى قال : أغار رجل من مراد يقال له حريم على إبل عمرو بن برّاقة الهَمْدَانى وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سلمى وكانت

---

(١) البركة والنماء . قال رؤبة :

دعوت رب العزة القدوسا ‏ ‏ ‏ دعاء من لايقرع الناقوسا
حتى أرانا وجهك المرغوسا

(٢) آس : مداو ، والسانح والبارح : المبارك والنشؤم (٣) غضة : طريقة ناعمة (٤) الفسائح : الواسعات (٥) نضوا : مهزولا . وينوء : ينهض بجهد ومشقة ، والقوادح جمع قادحة وهى العيب فى العود والسن (٦) أقسس : اتبع . والروازح : التى قد سقطت من الهزال (٧) الحدابير : التى قدتقوست من الهزال واحدها حدبار . والشواسف : مر معناها قريبا ، والجوائح : الشدائد (٨) فوادح الدهر : خطوبه . وبهضه الأمر : فدحه (٩) فغرت : فتحت . والكوالح : الشدائد . وكلح كلوحا وكلاحا : تكشر فى عبوس (١٠) كشح له بالعداوة وكاشحه : عاداه (١١) ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

بنت سيدهم وعن رأيها كانوا يَصْدُرون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : والخفو[1] والوميض[2] ، والشفق كالأخريض[3] ، والقُلّة والحضيض[4] . إن حريماً لمنيع الحيز[5] ، سيد مزيز[6] ، ذو مَعْقِل حريز ، غير أن الحمَّة ستظفر منه بعثرة[7] ، بطيئة الجبره ، فأغِرْ ولا تُنْكَعَ[8] ، فأغار عمرو فاستاق كل شىء له ، فأتى حَرِيمٌ بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع ، فقال عمرو قصيدةً منها :

تقول سُلَيْمى لا تَعَرَّضْ لتلفةٍ وليلُكَ عن ليل الصَّعاليك نائم[9]

ومنهم :

عفيراء الكاهنة الحميرية

ذكر رواة أخبار العرب نوادر طريفة لعفيراء هذه . من ذلك ما أورده محمد بن ظفر فى كتابه (خبر البشر بخير البشر) . قال : روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة : فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنؤنه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته ، وأهالته فى حال منامه ، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئاً وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهنٍ كاهن ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ! فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه[10] ، وكانت أمه ، قد تكهنت

---

(١) اللمعان الضعيف (٢) هو أشد من الخفو (٣) حجارة النورة (٤) القلة بالضم أعلى كل شىء . والحضيض : القرار فى الأرض (٥) الناحية (٦) فاضل من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه (٧) الحمة : القدر وقيل هى واحد الحمام (٨) تنكع : تردع (٩) الصعاليك : الفقراء (١٠) الأرق السهر بالليل

فقالت له : أبيْتَ اللّعن[١] أيها الملك ! إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه لأن اتباعَ الكواهن من الجان ، ألطف وأظرفُ من اتباع الكهان ، فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل *[٢] ، فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من ذَرى * جبل ، وكان قد لفحه الهجير[٣] ، فعدل إلى الأبيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها فبرزت إليه منه عجوز فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجَفْنَة[٤] المُدَعدَعة * ، والعُلبة * المترعة ، فنزل عن جواده ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح * نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا بين يديه فتاة لم يرَ مثلها قواماً ولا جمالاً ، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك الهُمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته وتصامم عن كلمتها ، فقالت له : لا حذر ، فداك البشر فجدّك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر ، ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وحَيْساً[٥] ، وقامت تذب عنه حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً * وضريباً * فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حسناً وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى (عفيراء) فقال لها : ياعفيراء من الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت : مرثد العظيم الشان ، حاشر الكواهن والكهان ، لمُعضِلة[٦] بعد عنها الجان * ! فقال ياعفيراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام ، قال الملك : أصبت يا عفيراء ! فما تلك

---

(١) انظر ص ١٩٣ من الجزء الثانى (٢) كل ما وضعنا ازاءه هذه النجمة واضربنا عن تفسيره فهو مشروح فى الأصل (٣) لفحه : احرقه والهجير : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر او من عند زوالها الى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا . والهجير : شدة الحر (٤) الجفنة : القصعة (٥) القديد : اللحم المشرر المقطع . والحيس : تمر وأقط وسمن . انظر الجزء الأول ص ٣٨٤ (٦) المعضلة : الشديدة

الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع * ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع * : يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيما أنت سامع ، دعاء ذى جَرْس * صادع ، هلموا إلى المشارع * فروى جارع * ، وغرق كارع * فقال الملك : أجل هذه رؤياى فما تأويلها ياعفيراء ؟ قالت : الأعاصير الزوابع : ملوك تبابع * والنهر : علم واسع ، والداعى : نبى شافع ، والجارع ولى تابع ، والكارع : عدو منازع ، فقال الملك : ياعفيراء أسلم هذا النبى أم حرب ؟ فقالت : أقسم برافع السماء ومنزل الماء من العماء * ، إنه لَمُطِلّ الدماء ، ومنطق العقائل نطقَ الإماء * ، فقال الملك : إلامَ يدعو ياعفيراء ؟ قالت إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام ، فقال الملك : ياعفيراء إذا ذبح قومه فمن أعضاده * ؟ قالت : أعضاده غطاريف * يمانون ، طائرهم به ميمون ، يغزيهم فيغزون ، ويدمث بهم الحزون ، وإلى نصره يعتزون ، فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خطبتها ، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك إن تابعى غَيُور ، ولأمرى صَبُور . وناكحى مثبور ، والكلف بى ثبور ، فنهض الملك وجال ، فى صهوة جواده وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوماء !

* * *

« قال محمد بن ظفر » أوغل فى طلب الصيد : أى بالغ فى ذلك وأمعن ، والوغول الدخول فى الشيء بقوة . وذرى جبل : بفتح الذال المعجمة الكنّ ، والمدعدعة : هى التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص مافيها ثم ملئت بعد ذلك والعلبة بضم العين المهملة وإسكان اللام إناء من جلد والأرواح : هى الرياح وصريفاً : اللبن المحض يحدث آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب . وضريباً : اللبن الرائب . وبعد عنها الجان : أى جنبوا عنها ولم يطيقوها . وأعاصير زوابع : هى من الرياح مايثير التراب فيعليه فى الجو ويديره . وساطع

أى مرتفع . ودعاء ذى جَرْس صادع : الجرس الصوت . والمشارع : الداخل إلى النهر وجارع : أى من شرب جرعا أمن . وكارع : أى من أمعن غرق . وتبابع جمع تبّع ، وهذا لقب لملوك اليمن وهو من الأتباع لأن بعضهم كان يتبع فى الملك بعضاً . والعماء : هو الغيم والغمام . ومنطق العقائل : هن الكرائم من النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء المهنة والخدمة . والأعضاد : الأنصار . والغطاريف : السادة . والتغطرف التكبر . ويدمث : أى يسهل . ويؤامر نفسه : يراد به تعاضد الرأيين المتضادّين فى النفس . وجال فى صهوة جواده : جال أى وثب ، والصهوة مقعد الفارس من ظهر فرسه ، والكوماء : الناقة العظيمة السنام . ومنهم :

سواد بن قارب الدوسى

روى أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى الحسين عن أبيه ابن الكلبى عن الذّيّال بن نَفْر عن الطِّرِمَّاح بن حَكيم قال : خرج خمسة نفر من طيئ من ذوى الحجا والرأى منهم بُرْج بن مُسْهِر وهو أحد المعمَّرين ، وأُنَيف بن حارثة ابن لأم ، وعبد الله بن سعد بن الحشْرَج أبو حاتم طيئ ، وعارق الشاعر ، ومُرّة ابن عبد رضى ، يريدون (سواد بن قارب الدّوْسىّ) ليختبروا علمه ، فلما قربوا من السَّرَاة قالوا : ليخبأ كل واحد منا خبيئاً ولا يخبر به صاحبه لنسأله عنه ، فإن أصاب عرفنا علمه ، وإن أخطأ ارتحلنا عنه ، فخبأ كل واحد منهم خبيئاً ، ثم صاروا إليه فأهدوا إليه إبلاً وطُرفاً من طرَف (الحيرة) فضرب عليهم قبة ونحر لهم ، فلما مضت ثلاث دعا بهم فدخلوا عليه ، فتكلم بُرْجٌ ، وكان أسنَّهُم ، فقال : جادك السحاب ؛ وأمْرَعَ لك الجَنَاب[1] ، وضَفَتْ عليك النعم الرِّغاب[2] ،

---

(١) أمرع : أخصب ، والجناب : ماحول الدار (٢) الضافى : السابغ الكثير . يقال : خير فلان ضاف على قومه أى سابغ عليهم . والرغاب : الواسعةالكثيرة

نحن أولو الآكال[١] ، والحـدائق والأغيال[٢] ، والنَّعَم الجُفال[٣] ، ونحن أصهار الأملاك ، وفُرْسان العِراك ، يُوَرِّى عنهم أنهم من بكر بن وائل ، فقال سَوَادٌ . والسماء والأرض ، والغَمْر والبَرْض[٤] ، والقَرض والفرض[٥] ، إنـكم لَأَهْلُ الهضـــاب الشُّمّ[٦] ، والنخيل العُمّ[٧] ، والصخور الصمّ ، من أجأ العَيْطاء ، وسلمى ذات الرّقبة السَّطْعاء[٨] ، قالوا إنا كذلك وقد خبأ لك كل رجل منا خبيئاً لتخبرنا باسمه وخبيئه فقال لبرج : أقسم بالضياء والحَلَك[٩] ، والنجوم والفلك ، والشروق والدَّلَك[١٠] ، لقد خبئت بُرْثُنَ فَرْخ[١١] فى أعليط مَرْخ[١٢] تحت آسرة الشَّرْخ[١٣] ! فقال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : برج بن مُسْهر عُصْرَة المُمْعر[١٤] وثمال المُحَجَّر[١٥] ، ثم قام أُنَيْف بن حارثة فقال : ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال : والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب[١٦] ، والنعم الـكُثاب[١٧] ، لقد خبأت قُطَامَةَ فَسِيط[١٨] ، وقُذَّة مَرِيط[١٩] ، فى مدَرَةٍ من مَدِىّ مَطِيط[٢٠] ، قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنيف ، قارى الضيف

---

(١) يقال : فلان ذو أكل (بضم الهمزة وسكون الكاف) أى ذو حظ ورزق فى الدنيا والجمع آكال (٢) جمع غيل وهو الماء الجارى على وجه الارض (٣) الكثيرة وهذا الجمع قليل جدا لم يأت منه الا أحرف مثل رباب جمع ربى وهى الحديثة النتاج ، وفرار جمع فرير وهو ولد البقرة ، ونعم كثاب وهى الكثيرة ، وبراء جمع برىء (٤) الغمر : الماء الكثير ، والبرض : الماء القليل وجمعه براض (٥) القرض : الدين ، والفرض الهبة (٦) الهضاب : جمع هضبة وهى الجبل المنبسط على وجه الأرض ، والشم ، الطوال (٧) الطوال أيضا (٨) أجأوسلمى : جبلا طيىء ، والعيطاء : الطويلة وكذلك السطعاء (٩) الظلام (١٠) هو اصفرار الشمس عند المغيب . وفى اللسان : الدلك وقت الدلوك الذى هو اصفرار الشمس (١١) البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطير مثل الحمام والضب والفأرة فاذا كان مما يصيد قيل لظفره مخلب (١٢) المرخ : شجر تقدح منه النار ، والاعليط : وعاء ثمر المرخ والعرب تشبه به آذان الخيل (١٣) الآسرة : القد الذى يشد به خشب الرحل ، وشرخا الرحل : جانباه (١٤) العصرة : المنجاة ، والممعر : الذى ذهب ماله (١٥) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه ، والمحجر : الملجأ المضيق عليه (١٦) الأصباب جمع صبب وهو ما انخفض من الارض ، والأحداب : جمع حدب وهو ما علا (١٧) الكثيرة (١٨) القطامة : ماقطمته بفيك ، والفسيط : قلامة الظفر (١٩) القذة : الريشة . والمريط : من السهام الذى قد تمرط ريشه أى نتف (٢٠) المدرة : قطعة طين يابسة . والمدى : جديول يجرى=

ومُعْمِل السيف ، وخالط الشتاء بالصيف « ثم قام عبد الله بن سعد فقال : ما خبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد . أُقسِمُ بالسَّوَام العازب[١] ، والوقير الـكارب[٢] ، والمُجِدِّ الراكب ، والمشيح الحارب[٣] ، لقد خبأت نُفَاثة فنن[٤] ، فى قطيع قد مَرَن[٥] ، أو أديم قد جَرَن ، قال . ما أخطأت حرفاً فمن أنا ؟ قال . أنت ابن سعد النوال ، عطاؤك سِجال[٦] ، وشرك عُضال[٧] ، وعمدك طـوال ، وبيتك لا ينال ، ثم قام عارق . فقال . ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد . أُقسم بنفنف اللُّوح[٨] ، والماء المَسْفوح[٩] ، والفضاء المندوح[١٠] ، لقـد خبأت رقعة طلاً أعفر[١١] ، فى زِعنفة أديم أحمر[١٢] ، تحت حِلْس نضْو أدبر[١٣] ، قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال . أنت عارق ذو اللسان العضْب[١٤] ، والقلب النَّدْب[١٥] ، والمضَّاء الغَرْب[١٦] ، منَّاع السَّرْب[١٧] ، ومبيح النَّهْب ، ثم قام مرة بن عبد رُضى فقال . ما خبيئى ، وما اسمى ؟ فقال . سَوَاد . أُقسم بالأرض والسماء ، والبرُوج والأنواء ، والظلمة والضياء ، لقد خبأت دِمَّة فى رِمَّه[١٨] ، تحت مُشيط لِمَّه[١٩] ، قال . ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنت مره ، السريع الـكرّه ، البطىء الفرّه ، الشديد المِرّه[٢٠] ، قالوا . فأخبرنا بما رأينا فى طريقنا إليك ، قال . والناظر

= منه ماسال مماهرق من الحوض . كذا قال الأصمعى وانشد « وعن مطيطات المدى المدعوق » . والمطيط : الماء الخاثر فى اسفل الحوض والمدعوق : الذى قد اكثر فيه الوطء (١) السوام : المال الراعى من الابل . والعازب : البعيد (٢) الوقير : الغنم التى بالسواد ، والكارب : القريب (٣) المشيح : الجاد فى لغة هذيل . وفى غيرها الحاذر (٤) النفاثة : ما تنفثه من فيك . والفنن : واحد افنان الأشجار وهى أغصانها (٥) القطيع : الطائفة من الغنم والنعم ، ومرن وجرن : لان فى صلابة (٦) كثير ، يقال أسجله اى اكثر له من العطاء واعطاه سجله من كذا اى نصيبه (٧) شديد (٨) النفنف واللوح واحد وهما الهواء وانما اضاف لما اختلف اللفظان فكأنه اضاف الشيء الى غيره (٩) المصبوب (١٠) الواسع (١١) الطلا : ولد الظبى ساعة يولد ، والاعفر : الذى تعلو بياضه حمرة (١٢) الزعنفة : القطعة من الثوب ، وطرف الأديم (١٣) الحلس للبعير بمنزلة القرطاط للحافر وهو البرذعة . والنضو : المهزول من الابل وغيرها (١٤) اى الحديد الكلام (١٥) الذكى (١٦) الحد (١٧) بالفتح الماشية كلها وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها (١٨) الدمة : القملة . والرمة : العظام البالية (١٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن (٢٠) القوة .

من حيث لايُرَى ، والسامع قبل أن يُناجى ، والعالم بما لايُدْرى ، لقد عنّتْ لكم عُقاب عَجزاء (١) ، فى شَغَانيب دَوْحَةٍ جرداء (٢) ، تحمل جَدْلا (٣) ، فتماريتم (٤) إمَّا يداً وإما رجلاً ، فقالوا : كذلك ، ثم مَهْ ؟ قال سنحَ (٥) لكم قبل طلوع الشرق (٦) ، سيدٌ أمَقّ (٧) ، على ماء طرق (٨) ، قالوا : ثم ماذا ؟ قال : تَيْسٌ أفرَق (٩) ، سَنَدَفى أبْرَق (١٠) ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوابلة (١١) والمرفَق ، قالوا : صدقت وأنت أعلم من تحمل الأرض ! ثم ارتحلوا عنه ، فقال عارق :

ألا لله عِلْمٌ لا يجارى ... إلى الغايات فى جنبَىْ سَوَاد
أتيناه نُسائله امتحانا ... ونحسب أن سيعمد بالعناد
فأبدى عن خفى مخبآتٍ ... فأضحى سرُّها للناس بادى
حُسَام لا يليقُ ولا يثأنى ... عن القَصْدِ الميمم والسَّداد (١٢)
كأن خبيئنا لما انتحينا ... بعينَيْهِ يصرِّح أو ينادى
فأقسم بالعتائر حيث فَلْسٌ ... ومن نسك الأقيصر مِلْعباد (١٣)
لقد حُزْتَ الكهانة عن (سطيح) ... و (شقٍّ) و (المُرقِّلِ) من إياد

سبب إسلام سواد بن قارب ، وقصته البديعة

كان سواد بن قارب من أعلم أهل وقته ، وأشهرهم فى الكهانة والشعر ، وأطولهم باعاً فى جميع المكارم . وقد وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلم

(١) هى التى ابيض ذنبها وقيل : التى كبرت عجيزتها (٢) الشغانيب : ما تداخل من الأغصان . والدوحة : الشجرة العظيمة (٣) عضوا (٤) تجادلتم (٥) عرض (٦) الشمس (٧) السيد : الذئب والامق : الطويل (٨) بولت فيه الابل (٩) هو البعيد مابين قرنيه (١٠) سند : صعد ، والابرق : غلظ من الارض فيه حجارة ورمل وجبل ابرق اذا كان فيه لونان (١١) راس العضد الذى يلى المنكب (١٢) يليق : يمسك . قال الاصمعى للرشيد : ما ألاقتنى ارض حتى خرجت اليك يا امير المؤمنين . اى ما امسكتنى . ويثأنى : يحبس . والميمم : المقصود (١٣) العتائر : جمع عتيرة وهو ذبح كان يذبح للأصنام فى الجاهلية . وفلس : صنم . والاقيصر : صنم ايضا . وملعباد من العباد

وكان رئيّه قد أتاه ثلاث ليـال فى حال سِنتِه يضرب به برجله ، ويقول : قم ياسواد ابن قارب ، واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث نبى من لؤى بن غالب . وقد أورد قصته هذه مفصلة جمع من الثقات منهم الإمام الماوردى فى كتابه (أعلام النبوة) قال بسنده : بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنه ذات يوم جالساً إذ مَرَّ به رجل فقيل له : أتعرف هذا المـار ياأمير المؤمنين ؟ قال : ومَنْ هو ؟ قالوا : هذا سواد ابن قارب رجل من أهل اليمن ، وكان له رئىّ من الجن ، فأرسل إليه عمر فقـال : أنت سواد بن قارب ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، فقال : أنت الذى أتاك رئيك بظهور النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النـائم واليقظان إذْ أتانى رئيى من الجن فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد ابن قارب فاسمع مقـالى ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤىّ ابن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتطلابهـا ... وشدّها العيس[1] بأقتابهـا
تهوى إلى مكةَ تبغى الهدى ... ما صادقُ الجنِّ ككذّابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشمٍ ... ليس قُداماها كأذنابهـا

فقلت له : دعنى فإنى أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة الثـانية أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله تعـالى وإلى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتخبـارها ... وشدِّها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكةَ تبغى الهدَى ... مامؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روابيهـا وأحجارها

فقلت : دعنى فقد أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة

---

(١) العيس : الابل البيض

الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسولٌ من لؤى بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته وأنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتجساسها ... وشدها العيس بأحلاسها[1]

تهوى إلى مكةَ تبغى الهدَى ... ما خيّرو الجن كأنجاسها

فارحل إلى الصّفوة من هاشمٍ ... واسمُ بعينَيْك إلى رأسها

قال : فأصبحت وقد امتحن الله قلبى للإسلام ، فرحلت ناقتى ، وأتيت المدينة ، فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقلت : اسمع مقالى يارسول الله ! قال : هات ! فأنشأت :

أتانى رئيِّى بعد هَدْء ورقدةٍ ... ولم أكُ فيما قد بلوت بكاذِب

ثلاث ليال قوله كلّ ليلة ... أتاك رسولٌ من لؤىّ بن غالب

فشمّرت عن ذيلى الإزارو وسّطت ... بى الذّعْلِبِ الوجناء بين السباسب

فأشهد أن الله لاشىء غيره ... وأنك مأمون على كل غائب

وأنك أدنى المرْسلين وسيلةً ... الى الله يا ابنَ الأكرمين الأطايب

فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل ... وإن كان فيما جئت شيب الذوائب

وكنْ لى شفيعاً يومَ لاذو شفاعةٍ ... بمُغْن فتيلاً عن سوَاد بن قارِب

(الرئى : الخادم من الجن ، والهدء : السكون ، والذعلب بكسر الذال وسكون العين وكسر اللام : الناقة السريعة ، والوجناء : الشديدة ، والسباسب : جمع سبسبٍ ، المفازة) ففرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح فى وجوههم ، قال : فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ فقال مذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن . وتمام الكلام على أخباره فى الاستيعاب والإصابة . ومنهم :

---

(١) جمع حلس وهو كساء على ظهر البعير

فاطمة بنت مر الخثعمية

وهى كاهنة كانت بمكة ، ويحكى عنها أمور فى باب الكهانة عجيبة ؛ ومن الأمثال الشائعة بين العرب « قد كانَ ذلكَ مَرَّةً فاليَوْمَ لاَ » قال الميدانى : أول من قال ذلك فاطمة بنت مر الخثعمية ، قال : وكانت قد قرأت الكتب ، فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فمرّ على فاطمة ، وهى بمكة ، فرأت نور النبوّة فى وجه عبد الله فقالت له : من أنت يافتى ؟ قال أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، فقالت : هل لك أن تقع علىّ وأعطيك مائة من الإبل ؛ فقال :

أما الحرام فالممات دونَه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

ومضى مع أبيه فزوجه آمنة ، وظل عندها يومه وليلته ، فاشتملت بالنبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انصرف ، وقد دعته نفسه إلى الإبل فأتاها ، فلم ير منها حرصاً ، فقال لها : هل لك فيما قلت لى ؟ فقالت «قد كان ذلك مرّة فاليوم لا» فأرسلتها مثلاً يضرب فى الندم والإنابة بعد الاحترام ، ثم قالت له : أى شىء صنعت بعدى ؟ قال : زوجنى أبى آمنة بنت وهب ، فكنت عندها . فقالت : رأيت فى وجهك نور النبوة ، فأردت أن يكون ذلك فىّ فأبى الله تعالى إلا أن يضعه حيث أحبه ، وقالت :

بنى هاشم قد غادرت من أخيكم أمينة إذ للباه يعتلجانِ
كما غادرَ المصباح بعد خبوِّهِ فتائل قد ميثت له بدهانِ
وما كلُّ ما نالَ الفتى من نصيبه بحزمٍ ، ولا ما فاته بتوَانِ
فأجملْ إذا طالبت أمراً فإنّه سيكفيكه جدّانِ يَضْطَرِعانِ

وقالت أيضا .

إنى رأيتُ مخيلةً نَشَأتْ فتلألأتْ بحناتم القطر

لله ما زهرية سلبت منك الذى استلبت وماتدرى

وقد أورد هذه القصة الإمام الماوردىّ أيضاً فى كتاب (أعلام النبوة) مع بعض الزيادة . قولها « بعد خبوه » أى طفئه . والمخيلة . السحابة التى هى مظنة المطر . قال فى الصحاح : وقد خالت السحاب وأخيلت وخايلت إذا كانت ترجى المطر وقد أخلت السحابة وأخيلتها إذا رأيتها مخيلة . والحناتم : سحائب سود لأن السواد عندهم خضرة ، والحنتم : الجرة الخضراء . وزهرية : منسوبة إلى زهرة حى من قريش ، وهو اسم امرأة كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر نسب ولده إليها ، وهم أخوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . . والكهان كثيرون يحتاج استيعابهم ، وماروى عنهم من الأخبار ، وما نطقوا به من السجع والرجز إلى سفر كبير[1] ؛ قال الأصفهانىّ عند الكلام على الكهانة: كان ذلك فى العرب كثيراً ، وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبة سطيح وسَوَاد بن قارب ، قال : وكان وجود ذلك فى العرب أحد أسباب معجزات النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يخبر به ، ويحث على اتباعه .

العرافون

قال ابن خلدون فى مقدمته : العرافون — كان فى العرب منهم كثير ، وذكروهم فى أشعارهم ، قال قائلهم :

فقلتُ لعرّاف اليمامة داونى فإنَّك إنْ داويتنى لَطبيبُ

وقال الآخر .

جعلتُ لعرّافِ اليمامة حكمه وعرّاف نجدٍ إن هما شفيانى

فقالا . شفاك الله ! والله مالنــا بماحملت منك الضلوع يدانِ [2]

---

(١) قلت : وقد الف الخرائطى كتابا فى هذا الباب حافلا ، ومنه — على مابلغنى — نسخة فى مكتبة الظاهر فى دمشق . (٢) انظر ص ٤

وعراف اليمامة . هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد . الأبلق الأسدى انتهى .
وبعض العرب يسمى الكاهن عرافاً أيضاً ، وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب أيضاً ، قال الخطابى فى شرح سنن أبى داود : الكاهن هو الذى يدعى مطالعة علم الغيب . ويخبر الناس عن الكوائن ، وكان فى العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور . فمنهم من كان يزعم أن له رئيًّا من الجن وتابعه يلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يدعى أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه ، قال : وكان منهم من يسمى عرافاً ، وهو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها . كالشىء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها ، ونحو ذلك من الأمور . ومنهم من كان يسمى المنجم كاهناً ، والحديث قد يشتمل على النهى عن إتيان هؤلاء كلهم ، والرجوع إلى قولهم ، وتصديقهم على ما يدعونه من هذه الأمور ، ومنهم من كان يدعو الطبيب كاهناً ، وربما دعوه عرافاً . قال أبو ذؤيب :

يقولون لى : لو كان بالرمل لم يمتْ نشيبة ، والكهان يكذب قيلها

وقال آخر : جعلت لعراف اليمامة البيت . وهذا غير داخل فى جملة النهى وإنما هو مغالطة فى الأسماء . وقد أثبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الطب ، وأباح العلاج والتداوى . ومن علومهم :

علم الزجر والعيافة

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات ، وحركاتها ، وسائر أحوالها ، على الحوادث ، واستعلام ماغاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث ، مستعيناً بما رآه أوسمعه

فيؤديه ذلك إلى إدراك مّا كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى فى يقظة فتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا انتهى

وقد كان العرب أعلم الناس بهذا العلم ، وهومدار أفعالهم ، وقانون حركاتهم وسكناتهم؛ وقد روى عنهم فى هذا الباب ، روايات تحير ذوى الألباب ، قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة[1] : يروى فى حرب بنى تغلب أن تيم اللات أرسل بنيه فى طلب مال له ، فلما أمسى سمع صوت الريح فقال لامرأته : انظرى من أين نشأت السحاب ، ومن أين نشأت الريح ؟ فأخبرته بالواقع ، فقال : والله إنى لأرى ريحاً تدهده الصخر ، وتمحق الأثر ، فلما دخل عليه بنوه قال لهم : ما لقيتم ؟ قالوا : سرنا من عندك فلما بلغنا دعص الشعثمين إذا بعفر جاثمات على دعص من رمل ، فقال : فما ريحكم . ناطح أم دابر أم بارح أم سانح ؟ قالوا : ناطح ، فقال يخاطب نفسه : ياتيم اللات دعص الشعثمين والشعثم الشيخ الكبير وأنت شعثم بنى بكر وجواثم بدعص وريح نطحت فبرحت ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينا ذئباً قد دلع لسانه من فيه وهو يحرن وشعره عليه فقال : ذلك حران ثائر ذو لسان عذول حامى الظهر همه سفك الدماء وهو أرقم الأراقم يعنى مهلهلا ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينا ريحا وسحاباً ، قال فهل مطرتم ؟ قالوا : بلى ! قال : ببرق ؟ قالوا : قد كان ذلك ، فقال أماء سائل ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ذلك دم سائل ومرهفات . قال : ثم مه ؟ قالوا ثم طلعنا قلعة صنعاء ثم تصوبنا من تل فاران ، قال : فكنتم سواء أو مترادفين ؟ قالوا : بل سواء ، قال : فما سماؤكم ؟ قالوا : جناء . قال : فما ريحكم ؟ قالوا : ناطح ، قال فما فعل الجيش الذين لقيتموهم ؟ قالوا نجونا منه هربا وجدّ القوم فى أثرنا قال : ثم مه ؟ قالوا : ثم رأينا عقاباً منقضة على عقاب فتشابكا وهويا إلى الارض ، قال : ذاك جمع رام جمعاً فهو لاقيه . قال : ثم مه ؟ قالوا : رأينا سبعاً على سبع ينهشه وبه بقيـة لم يمت . فقال : ذرونى أما والله إنها لقبيلة مصروعة

---

(١) — ج ٢ ص ٢٥١

مأ كولة من بنى وائل بعد عز وامتناع

وذكروا أن تيم اللات ، هـذا مر يوماً بجمل أجرب ، وعليه ثلاث غرابيب فقال لبنيه : ستقفون على مقتول! فكان كما قال وقتل عن قريب ، وكذلك قول علقمة فى مسيره مع أصحابه ، وقد مروا فى الليل بشبـح فقال : لقيتم شيخاً كبيراً فانياً يغالب الدهر والدهر يغالبه يخبركم أنـكم ستلقون قوماً فيهم ضعف ووهن ، ثم لقى سبعاً فقال : دلاج لايغلب ؛ ثم رأى غراباً ينفض بجؤجؤه فقال : أبشروا ألا ترون أنه يخـبركم أنْ قد اطمأنت بكم الدار ؟ فـكان الأمر كذلك . وذكر المدائنى قال : خرج رجل من لِهب ، ولهم عيافة ، فى حاجة ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم فى الثالثة نعب الغراب وتمرغ فى التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليه فإذا تحت الشجرة كنز! فلما رجع إلى أبيه قال له : ماصنعت ؟ قال : سرت صـدر يومى ، ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال . أثِرْهُ وإلا فلست بابنى ، قال . أثرته ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال أثره وإلا فلست بابنى ! قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب ، قال : اضرب السقاء وإلا فلست بابنى قال : فعلت فإذا أسود ضخم ، قال : ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غرابا واقعاً على سدرة قال : أطره وإلا فلست بابنى ، قال : أطرته ثم وقع على سلمة ، قال : أطره وإلا فلست بابنى ، قال أطرته فوقع على صخرة ، قال : أخبرنى بما وجدت فأخبره . . وذكر أيضا أن أعرابياً أضل له ذوداً وخادماً فخرج فى طلبهما حتى إذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مرَّ برجل يحلب ناقة قال : أظنه من بنى أسد فسأله عن ضالته ، قال: اُدْنُ فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك قال . فشرب ، ثم قال . ماسمعت حين خرجت ؟ قال . بكاء الصبيان ،

ونباح الكلاب ، وصراخ الديكة ، وثغاء الشاء ، قال : ينهاك عن الغُدُوّ ، ثم مه ؟ قال ثم ارتفع النهار فعرض له ذئب ، قال . كسوب ذو ظفر ، ثم مه ؟ قال . ثم عرضت لى نعامة ، قال ذات ريش واسمها حسن ، هل تركت فى أهلك مريضاً يعاد ؟ قال . نعم ! قال . ارجعْ إلى أهلك فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم . . وذكر أبو خالد التيمى قال . كنت آخذ الإبل بضمان فأرعاها فى ظهر البصرة فطردت فخرجت أقفوا أثرها حتى انتهيت إلى القادسية . فاختلطت علىّ الآثار ، فقلت . لو دخلت الكوفة فتحسست منها ، فأتيت الكناسة فإذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ، ثم قلت له . حاجتى ! فقال .

بعيدة أشطان الهوى جمعُ مثلِها على العاجز الباغى الغنى ذو تكاثف

ولترجعن ! قال . فوجدتها فى الشام مع ابن عم لى فصالحت أصحابها عنها . .

وقال المدائنى . كان بالسواد زاجر يقال له مهر فأخبر به بعض العمال فجعل يكذب زجره ، ثم أرسل إليه ، فلما أتاه قال . إنّى قد بعثت بغنم إلى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت أم لم تصل ؟ وقد عرف العامل قبل ذلك أن بينهما وبين الكلأ مرحلةً ، فقال لغلامه : اخرج فانظر أى شىء تسمع ؟ قال . وكان العامل قد أمر غلامه أن يكمن فى ناحية ويصيح صياح ابن آوى ، فخرج غلام الزاجر ليسمع فصاح غلام العامل فرجع إلى الزاجر غلامه وأخبره بما سمع ، فقال للعامل . قد ذهبت غنمك وقطع عليها الطريق فاستيقت . قال . فضحك العامل ! وقال . قد جاءنى خبرها أنها وصلت والصائح الذى صاح غلامى ! قال . إنْ كان الصائح الذى صاح ابن آوى فقد ذهبت الغنم ، وإن كان كلامك فقد ذهب الراعى أيضا ! قال : فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعى .. وذكر العكلى أنه خرج فى تسعة نفر هو عاشرهم ليصيبوا الطريق فرأى غرابا واقعاً فوق بانة . فقال . ياقوم إنكم تصابون فى سفركم هذا فازدجروا وأطيعونى وارجعوا ! فأبوا عليه فأخذ قوسه وانصرف ، وقتلت التسعة ، وأنشأ يقول :

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانة ينشنش أعلى ريشهِ ويطايره
فقلت. غُراب فاعتراب من النَّوَى وبانٌ فبين من حبيبٍ يجاوره
فما أعيفَ العكلىّ لادَرّ دَرُّه ! وأزْجَرَهُ للطير لاعزّ ناصره

وذكر عن كُثيِّر عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزَّة بها ، فلقيه أعرابى من نهد فقال . أين تريد ؟ قال . أريد عزة بمصر ، قال مارأيتَ فى وجهك ؛ قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف ريشه ، فقال . ماتت عزة ! فانتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها ، فأنشأ يقول .

فأما غرابٌ فاغــتراب وغربة وبانٌ فبين من حبيبٍ تعاشرُهْ

وذكر عنه أيضاً أنه هوى امرأة من قومه بعد عزة يقال لها (أم الحويرث) وكانت فائقة الجمال ، كثيرة المال ، فقالت له . اخرج فأصب مالاً فأتزوجــك ! فخرج إلى اليمن وكان عليها رجل من بنى مخزوم ، فلما كان ببعض الطريق عرض له قَوْطٌ (وهو الجماعة من الظباء) فمضى ، ثم عرض له غراب ينعب ويفحص التراب على رأسه ، فأتى كـثير حيا من الأزد ، ثم من بنى لِهبٍ ، وهو من أزجر العرب ، وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه ، فقص عليه ماعرض له فقال . إن كـنت صادقا لقد ماتت هذه المرأة أو تزوجت رجلا من بنى كعب ! فاغتم كثير لذلك وسقى بطنه ! فكان ذلك سبب موته ، وقال فى ذلك :

تَيمَّمْتُ لِهباً أبتغى العـلمَ عندهم وقد ردَّ علم العائفينَ إلى لِهْبِ[1]
فيممتُ شيخاً منهمُ ذو أمانة بصيراً بزجر الطير منحنىَ الصلب
فقلت له : ماذا ترَى فى سوانح وصوت غراب يفحص الأرض بالترب ؟
فقال : جرَى الطيرُ السنيحُ ببَيْنِها ونادى غرابٌ بالفراق وبالسلب !
فان لاتــكنْ ماتت فقد حال دونها سواكَ حليلٌ باطن من بنى كَعْب !

وقال رجل من بنى أسد . تزوجت ابنة عم لى فخرجت أريدها ، فلقينى شىء

---

(١) تيممت : قصدت . ولهب : قبيلة من الأزد فى اليمن وهم أعيف العرب

كالكلب مندلع لسانه فى شق ، فقلت : أخفت وربِّ الكعبة ! فأتيت القوم فلم أصل إليها ، وناقرنى أهلها ، فخرجت عنهم ، فمكثت ثلاثة أيام ، ثم بدا لى فخرجت نحوهم ، فلقيت كلبة تنطف أطباؤها لبنا ، فقلت : أدركت وربِّ الكعبة ، فدخلت بأهلى وحملت منى بغلام ، ثم بآخر حتى ولدت أولاداً كثيرين وما رواه الثقات من الحكايات فى هذا الباب لايقوم بها مثل هذا الكتاب من المختصرات .

كيفية الزجر عند العرب

قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة عند الكلام على أصحاب الطير السانح والبارح والقعيد والناطح . وأصل هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها ، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً ، وماتياسر منها سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وماجاءهم من خلفهم فهو القعيد فمن العرب من يتشاءم بالبارح لأنه لايمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه ، ويتبرك بالسانح ؛ ومنهم من يرى خلاف ذلك . قال المدائنى . سألت رؤبة ابن العجاج ، ما السانح ؟ قال ، ماولاك ميامنه ، قال : قلت : فما البارح ؟ قال : ماولاك مياسره قال : والذى يجىء من قدامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد ، ونقل عن المفضل الضبى أن البارح مايأتيك من اليمين يريد يسارك ، والسانح مايأتيك عن اليسار فيمر على اليمين ، وإنما اختلفوا فى مراتبها ومذاهبها ، لأنها خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها ، فمن تبرك بشىء مدحه ، ومن تشاءم به ذمه[1] .. وقد ذكرنا سابقاً عند الكلام على تشاؤم العرب بالطيور أن أهل نجد تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح ، وأهل العالية على عكس هذا ، وفى النهاية لابن الأثير : الزجر للطير هو التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح ، وهو نوع من الكهانة والعيافة . وأقول .

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢٤٢

إنه قسيم للكهانة لا نوع منها ، وظاهر كلامه يوهم أنها والعيافة مترادفان ، وهو أيضاً لا يسلم له وليس شيء من الطير إلا وهو يزجر إلا الرخم . قال الكميت يهجو رجلا :

أنشأت تنطق فى الأمو ر كواغد الرخم الدوائر
إذ قيل : يا رَخَم انطقى فى الطير إنك شر طائر
فأتت بما هى أهله والعى من شلل المجاور

وفى المثل « إنطقى يا رَخَم إنك من طير الله » يقال : إن أصله أن الطير صاحت فصاحت الرخم ، فقيل لها يهزأ بها : إنك من طير الله فانطقى ، يضرب للرجل لا يلتفت إليه ولا يسمع منه . والرخمة طائر أبقع يشبه النسر فى الخلقة يقال له الأنوق والجمع رخم وهو للجنس .

من اشتهر من العرب بالزجر والعيافة

قد كان فى العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف اليمامة ، والأبلق الأسدى والأحلج ، وعروة بن يزيد ، وغيرهم ممن لا يحصى عدداً ، فكانوا يحكمون بذلك و يعملون به و يتقدمون و يتأخرون فى جميع ما ينقلبون فيه ، و يتصرفون فى حال الأمن والخوف والسعة والضيق والحرب والسلم ، فإن نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداموا عليه ، وأن عطبوا فيه تركوه وذموه ، ومن اشتهر بإحسان الزجر عندهم ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم ، وما أملوه من أعمالهم سموه عائفاً وعرافاً كما سموه زاجراً ، وإنى ذاكر بحول الله تعالى فى هذا المقام شيئاً من أخبار بعض من وقفت على ترجمته منهم على طريق الاختصار . منهم :

حسل بن عامر [1] بن عميرة الهمدانى

ومن حديثه أن عامراً بعث ابنيه الحسل وعاجنة إلى تجارة ، فلقى الحسل قوم من بنى أسد فأخذوا ماله وأسروه ، وسار عاجنة أياماً ثم وقع على مال فى

(١) فرآئد اللآل : « حاتم بن عميرة ... » .

طريقه من قبل أن يبلغ موضع متجره فأخذه ورجع ، وقال ذلك :

كفانى الله بعد السير ، إنى رأيت الخير فى السفر القريب
رأيت البعد فيه شقى ونأىٌ ووحشة كل منفرد غريب
فأسرعت الإياب بخير حالٍ إلى حوراء خرعبة لَعُوب
وإنى ليس يثنينى إذا ما رحلتُ سنوحُ سحّاجٍ نَعُوب

(قال فى الصحاح : الحور شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بينة الحور ، وجارية خرعبة وخرعوبة أى دقيقة العظام ناعمة ، وبعير سحاج : يسحج الأرض بخفه أى يقشر) .

فلما رجع تباشر به أهله ، وانتظروا الحسل ، فلما جاء إبانه الذى كان يجىء فيه ولم يرجع رابهم أمره ، وبعث أبوه أخاً له لم يكن من أمه يقال له شاكر فى طلبه والبحث عنه ، فلما دنا شاكر من الأرض التى بها الحسل وكان الحسل عائفاً يزجر الطير فقال :

تخبرنى بالنجاة القطاة وقول الغراب بها شاهد
يقول : ألا قد دنا نازحٌ فداء له الطَّرْفُ والتالدُ [1]
أخ لم تكن أمنا أمه ولكنْ أبونا أبٌ واحِدُ
تداركنى رأفة حاتم فَنِعْمَ المربىُ والوالدُ

ثم إن شاكراً سأل عنه فأخبر بمكانه فاشتراه ممن أسره بأربعين بعيراً فلما رجع به قال له أبوه « إسْعَ بِجَدِّكَ لا بكدك » فذهبت مثلا . ومنهم .

أبو ذؤيب الهذلى الشاعر

ومن خبره ما حكى عنه أنه قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليل فاستشعرت حزناً ، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا يطلع

(١) الطرف : المال المستحدث والتالد : القديم

نورها ، فبت أقاسى طولها ، حتى إذا كان وقت السحر أغفيت فهتف بى هاتف وهو يقول :

خطبٌ أجلّ أناخ بالإسلام   بين النخيل ومقعد الآطام

قبض النبيّ (محمد) فعيوننا   تذرى الدموع عليه بالأسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من منامى فزعاً ، فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح فأولته ذبحاً يقع فى العرب ، وعلمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبض أو هو ميت من علته ، فركبت ناقتى وسرت ، فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به فعرض لى شيهم « وهو ذكر القنافذ » قد قبض على صلّ (يعنى حية) فهى تلتوى عليه ، والشيهم يقضمها حتى أكلها فزجرت ذلك وقلت شيهم شىء هم ، والتواء الصل تلوى الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أوّلتُ أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الأمر ، فحثثت ناقتى حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرنى بوفاته صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونعب غراب سانح فنطق بمثل ذلك ، فتعوذت بالله من شر ما عنّ لى فى طريقى ، فقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام فقلت : ما الخبر ؟ قالوا : قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجئت إلى المسجد فوجدته خالياً فأتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوجدت بابه مرتجاً أى مغلقاً ، وقيل : هو مسجى وقد خلا به أهله ، فقلت أين الناس ؟ فقيل : فى سقفية بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار ، فجئت إلى السقفية فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وجماعة من قريش ، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة وفيهم شعراؤهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، فآويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار فأطالوا الخطاب ، وأطالوا الجواب ، وتكلم أبو بكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب ، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه ، ثم

تكلم عمر رضى الله تعالى عنه بدون كلامه ، ثم قال لأبى بكر : مد يدك أبايعك ، فمد يده فبايعه و بايعه الناس ، ورجع أبو بكر رضى الله تعالى عنه ورجعت معه . قال أبو ذؤيب : فشهدت الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهدت دفنه . ومنهم :

جابر بن عمرو المازنى

ومن حديثه أنه كان يسير يوماً فى طريق إذ رأى أثر رجلين ، وكان عائفاً قائفاً ، فقال أرى أثر رجلين شديداً كلبهما ، غزيراً سَلَبَهما ، و (الفرار بقراب كيس) ثم مضى أى الذى يفر ومعه قراب سيفه إذا فاته السيف أكيس ممن أُيفيت القراب أيضا [1]. قال الشاعر :

أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وأنجو إذا لم ينج إلا المكيس

ومنهم :

جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم

قال المفضل الضبى : إن جندباً هذا كان رجلا دميا [2] فاحشاً ، وكان شجاعاً ، وأنه جلس هو وسعد بن زيد مناة يشربان ، فلما أخذ الشراب فيهما قال جندب لسعد وهو يمازحه : يا سعد لشرب لبن اللقاح [3]، وطول النكاح ، وحسن المزاح [4] أحب إليك من الكفاح [5] ، ودعس الرماح [6] ، وركض الوقاح [7] ، فقال سعد : كذبت والله إنى لأعمل العامل ، وأنحر البازل [8]، وأسكت القائل ، قال جندب : إنك لَتَعْلَمُ أنك لو فزعت دعوتنى عجلا ، وما ابتغيت لى بدلا ، ولرأيتنى

(١) وقيل فى معناه : ان فرارنا ونحن قراب من السلامة اكيس من ان نتورط فى المكروه بثباتنا (٢) أى قبيح المنظر صغير الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة أو النملة الصغيرة (٣) جمع لقحة وهى الناقة ذات اللبن (٤) المداعبة (٥) المقاتلة والمضاربة (٦) طعن الرماح (٧) الفرس الصلب القوى (٨) البعير الذى فطرنا به بدخوله فى السنة التاسعة ويستوى فيه الذكر والأنثى

بطلاً : أركب العظيمة ، وأمنع الكريمة ، وأحمى الحريمة ، فغضب سعد وأنشأ يقول :

هل يسود الفتى اذا قبح الوجه وأمسى قراه غير عتيد (١)

وإذا الناس فى الندىّ رأوه ناطقاً قال قول غير سديد (٢)

فأجابه جندب

ليس زين الفتى الجمال ولكنْ زَيْنُه الضربُ بالحسام التليد (٣)

إن ينلك الفتى فزينٌ وإلاّ ربما ضنّ باليسير العتيد

قال سعد : وكان عائفاً أيضاً : أما والذى أحلف به لتأسرنّك طعنة ، بين العَرِينة والدهينة ، ولقد أخبرنى طيرى ، أنه لا يغيثك غيرى ! فقال جندب : كلا إنك لجبان ، تكره الطعان ، وتحبُّ القيان (٤) ، فتفرقا على ذلك ، فغبرا حيناً ؛ ثم إن جندباً خرج على فرس له يطلب القنص فأتى على أمَة لبنى تميم يقال إن أصلها من جرهم فقال : لتمكننى مسرورة ، أو لتقهرن مجبورة ! قالت : مهلاً ! فإن المرء من نوكه (٥) ، يشرب من سقاء لم يوكه (٦) ، فنزل إليها عن فرسه مدلا ، فلما دنامنها قبضت على يديه بيد واحدة فما زالت تعصرهما حتى تركته لايستطيع أن يحركهما ، ثم كتفته بعنان فرسه ، وراحت به مع غنمها وهى تحدو به وتقول :

لا تأمننّ بعدها الولائدا فسوف تلقى باسلاً مواردا (٧)

وحية تضحى لحى راصدا

قال : فمر بسعد فى إبله فقال : يا سعد أغثنى ! قال سعد « إن الجبان لايغيث » فقال جندب :

---

(١) أى غير مهيأ (٢) الندى : المجلس . وغير سديد : غير مصيب بقوله
(٣) الحسام : السيف القاطع . والتليد : كل مال قديم يورث عن الآباء .
(٤) جمع قينة وهى الأمة البيضاء هكذا قيده ابن السكيت مغنية كانت، أو غير مغنية وقيل تختص بالمغنية . (٥) حمقه (٦) لم يشد رأسه (٧) الولائد: الاماء . والباسل : الشجاع

يا أيها المرء الكريمُ المشكومْ انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوم

فأقبل اليه سعد فأطلقه . ثم قال : لولا أن يقال قتل امرأة لقتلتك ! قالت : كلا لم يكن ليكذب طيرك ، ويصدق غيرك ، قال : صدقت . . قوله : انصر أخاك الخ هو من الأمثال يعنى انصره ظالماً إن كنت خصمه ، ومظلوماً من جهة خصمه . أى لاتسلمه فى أى حال كنت . ومنهم :

مرة الأسدى

ومن خبره أنه كانت له امرأة من أجمل النساء فى زمانها ، وأنه غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها حامياً كان يرعى لها ماشيتها ، فلما همت به أقبلت على نفسها فقالت : يانفس ! لا خير فى الشِرة [1] ، فإنها تفضح الحرة ، وتحدث العرّة ثم أعرضت عنه حيناً ، ثم همت به فقالت : يانفس موتة مريحة ، خير من الفضيحة وركوب القبيحة ، و إياكِ والعار ، ولبوسَ الشّعار [2] ، وسوء الشعار ، ولؤم الدثار [3] ثم همت به وقالت : إن كانت مرة واحدةً ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم العائدة ؛ ثم جسرت على أمرها ، وقالت للعبد : احضر مبيتى الليلةَ ! فأتاها فواقعها ، وكان زوجها عائفاً مارداً ، وكان قد غاب دهراً ، ثم أقبل آيباً ، فبينا هو يطعم إذْ نعب غراب فأخبره أن امرأته لم تفجر قط ولا تفجر إلا تلك الليلة ! فركب مرة فرسه وسار مسرعاً رجاء إن هو أحسها أمنها أبداً ، فانتهى إليها ، وقد قام العبد عنها ، وقد ندمَتْ وهى تقول « خيرٌ قليلٌ وفضحت نفسى » فسمعها مرة فدخل عليها ، وهو يرعد لما به من الغيظ ، فقالت له : ما يرعدك ؟ قال مرة : ليعلم أنه قد علم خير قليل المثل ! فشهقت شهقة وماتت ! فقال مرة :

لحى الله ربُّ الناس (فاقِرَ) ميتةً وأهونْ بها مفقودة حين تُفْقَدُ

---

(١) شرة الشباب بالكسر نشاطه وانما تفضح الحرة لأنها تهيج عليهـا شهوتها فلا تلبث أن تصبر حتى يكون منها مايكون فتحدث العرة وهى الخلة القبيحة (٢) العار (٣) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو يلى شعر الجسد . والدثار : مافوق الشعار من الثياب .

لَعَمْرُكِ ما تعتادُنى منكِ لوعة ولا أنا من وجد عليكِ مُسَهَّد

ثم قام إلى العبد فقتله . . والفاقرة : الداهية[1] ، ولحاه الله . قبحه ولعنه . والمارد العاتى .

من أنكر الزجر والطيرة من العرب

ومن العرب من أنكر الزجر ونحوه بعقله ، وأبطل تأثيره بنظره ، وذم من اغتر به ، واعتمد فى أمره عليه وتوهم تأثيره « منهم ضابىء بن الحرث » وقد قال فى ذلك .

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً ولا عن رَيْثِهِنَّ يخيب

وربَّ أمور لا تضيرُكَ ضيرة وللقلب من مخشاتِهنَّ وجيب[2]

ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسَهُ على نائبات الدهرِ حين تنوب

قوله : وما عاجلات الطير الخ قال المبرد فى الكامل يقول . إذا لم تعجل له طير سانحة فليس ذلك بمبعد خيراً عنه ، ولا إذا أبطأت خاب فعاجلها لا يأتيها بخير وآجلها لا يدفع عنه إنما له ماقدرله ، والعرب تزجر على السانح ، وتتبرك به ، وتكره البارح ، وتتشاءم به ، والسانح ما أتاك مياسرة فأمكن الصائد ، والبارح ما أتاك ميامنة فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له . قال الشاعر :

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبِّحه إلا كواذب مما يخبر الفالُ

والفال والزجر والكهان كلّهم مضلّلون ودونَ الغيب أقفال

وقال ابن خلف . إذا خرج الإنسان من منزله فأراد أن يزجر الطير فما مر به فى أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد راثت أى أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثانى مذموم يقول : ليس النجح بأن يعجل

---

(١) أقول : « فاقرة » هنا اسم امرأة مرة ، ورخمها فى البيت .

(٢) ضاره الأمر : ضره وخشية خشيا وخشيه وخشاة ومخشاة : خافتة . والوجيب : الخفقان

الطائر الطير الطيران كما يقول الذين يزجرون الطير، ولا الخيبة فى إبطائها ، وهذا رد على مذهب الأعراب .

« ومنهم المرقش » وهو شاعر قديم ، ومن شعره :

ولقد غَدَوْتُ وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم (١)
فإذا الأشـائمُ كالأيا مِنِ والأيامن كالأشائمِ
وكذاك لا خيرٌ ولا شرٌّ على أحـدٍ بدائمٍ
لا يمنعنَّـك من بغا الخير تعقادُ التمـائم (٢)
قد خط ذلك فى السطو ر الأوَّليات القـدائم

« ومنهم : جهم الهذلى » وفى ذلك يقول من أبيات يرد بها على العائفين فى زجر الطير :

يظنّان ظَنًّا مرّةً يُخطآنه وأخرى على بعض الذى يصفان
قضى الله أن لا يعلم الغيب غيرهُ ففى أىّ أمرِ الله يمتريان (٣)

« ومنهم : ضابىء من حارث البرجمى » حيث يقول فى شعره :

وما أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غرابٌ أم تعرّضَ ثعلب
ولا السانحات البارحات عشيةً أمرَّ سليم القرن أم مرَّ أعضب

وقال آخر وهو لبيد

لعَمْرُكَ ما تدرى الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانع

« ومنهم : الرقاص الكلبى » وكان على إنكار الزجر واعتقاد بطلانه ، وهو الذى يقول ، وقيل لخيثم بن عدى :

وجدت أباك الخير (بحراً) بنجدة بناها له مجداً أشمُّ قُماقِمُ (٤)

---

(١) الواقى : طائر ضخم الراس يصطاد العصافير . والحاتم : الغراب الأسود وغراب البين وهو احمر المنقار والرجلين وسمى حاتما لأنه يحتم بالفراق (٢) التمائم : جمع تميمة وهى خرزة رقطاء تنظم فى السير ثم يعقد فى عنق الصبى » تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه . (٣) امترى فيه : شك (٤) بحر : اسم رجل والمخاطب ابنه مسعود . والأشم : السيد ذو الأنفة . القماقم السيد

وليس بهيَّابٍ إذا شدَّ رحله يقولُ عدانى اليوم واقٍ وحاتم
ولـكنه يمضى على ذاك مُقْدِما إذا صدّ عن تلك الهناة الخثارم

والخثارم كعلابط : الرجل المتطير « ومنهم النابغة » فقد روى أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى النابغة ، ولما رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً (زيادٌ) لتخبِرَهُ وما فيها خبير
أقام كأنّ لقمانَ بن عاد أشار له بحكمته مشـير
تعلّم أنه لا طيرَ إلا على متطيِّرٍ وهو الثبـور
بلى شىء يوافق بعضَ شىء أحايينا وباطـلُهُ كثير

وقد شفت الشريعة المحمدية الأمة فى الطيرة ، وقال النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شىء يجده أحدكم فلا يصدنه » . وذكر شراح الحديث أن ليس فى سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه ، وإنما هو تـكلف بتعاطى ما لا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله ؛ وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينـكر التطير ويتمدح بتركه كما سبق ، وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ، ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك ، وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين . وبقى كلام فى الطيرة ، والفأل والفرق بينهما ، وسبب تحريم أحدهما دون الآخر ، مذكور فى شروح كتب الحديث . ومن عجيب أمر بعض قبائل العرب فى الجاهلية أنهم لا يزوجون بناتهم إلا من اتصف بصفاتٍ : منها معرفتـه للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم من الصفات العلية ، ففى كتاب مجمع الأمثال للميدانى » عن المفضل الضبى : أن ابن أروى الـكلاعى خرج تاجراً من اليمن إلى الشام فسار أياماً ، ثم حاد عن أصحابه فبقى مفرداً فى تيهٍ من الأرض حتى

سقط إلى قوم لا يدرى من هم ، فسأل عنهم فأخبر أنهم همدان ، فنزل بهم ، وكان طريراً (١) ظريفاً ، وأن امرأة منهم يقال لها (عمرة بنت سبيع) هو يته وهو يها ، فخطبها ابن أروى ، وكان اسمه (الضبّ) إلى أهل بيتها ، وكانوا لا يزوجون إلا شاعراً أو عائفاً أو عالماً بعيون المـاء ، فسألوه عن ذلك ، فلم يعرف منها شيئاً ، فأبوا تزويجه ، فلم يزل بهم حتى أجابوه فتزوجها ؛ ثم إن حياً من أحياء العرب أرادوا الغارة عليهم فتطيروا بالضب فأخرجوه وامرأته ، وهى طامث (٢) ، فانطلقا ومع الضب سقاء من ماء ، فسارا يوماً وليلته وأمامها عين يظنان أنهما يصبحانها ، فقالت له : ادفع إلىّ هذا السقاء حتى أغتسل فقد قار بنا العين . فدفع إليها السقاء فاغتسلت بما فيـه ولم يكفها ، ثم صبحا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش ! فقال الضب (لا ماءك أبقَيْتِ ولا حرَكِ (٣) أنقَيْتِ) ثم استظلا بشجرة حيال العين ، فأنشأ الضب يقول :

تا للهِ ما طلّة أصاب بهـا ... بعلاً سوى قوارع العَطَب (٤)

وأى مهر يكون أثقل ممـا ... طلبـوه إذن من الضب

ان يعرف الماء تحت صم الصفا ... ويخبر الناس منطق الخطب (٥)

أخرجنى قومها بأن الرحى ... دارت بشؤم لهم على القطب

فلما سمعت امرأته ذلك فرحت وقالت : ارجع إلى القوم فإنك شاعر ! فانطلقا راجعين ، فلما وصلا خرج القوم إليهما ، وقصـدوا ضربهما وردهما ، فقال لهم الضب : اسمعوا شعرى ثم اقتلونى ! فأنشدهم شعره فنجا ، وصار فيهم آثر من بعضهم . قال الفرزدق :

وكنت كذاتِ الحيض لم تُبْق ماءها ... ولا هِيَ من ماء العذابةِ طاهرُ (٦)

---

(١) اى ذا منظر ورواء (٢) حائض (٣) الحر : بالكسر فرج المراة (٤) الطلة : الزوجة . والبعل : الزوج . (٥) الصفا : جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم الذى لاينبت . والصم : الصلب (٦) العذابة : بالدال والذال الرحم . وهذا البيت أورده الجوهرى * ولا هى مما بالعذابة طاهر * قال ابن مكرم : وكذلك وجدته فى عدة نسخ . ويقال : امراة طاهرة من الأدناس وطاهر من الحيض بغير هاء

الطرق بالحصى والخط ونحو ذلك

كانت عند العرب أمور كثيرة يتوصلون بها إلى معرفة المغيبات بزعمهم كالطرق بالحصى والخط والحبوب وغير ذلك ، وهذه كلها من الكهانة على ماحققه أهل العلم ، والطرق له صورة مخصوصة فإن الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج حصيات قد أعدّها عنده فيطرق بعضها ببعض فيلوح له حينئذ مايعلم به جواب السؤال ، وصورة الخط مانقله ابن الأعرابى قال : يقعد الحازى[1] ويأمر غلاماً له بين يديه فيخط خطوطاً على رمل أو تراب ، ويكون ذلك منه فى خفة وعجلة كى لايدركها العدّ والإحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين وهو يقول : « ابنى عيان . أسرعا البيان ! » فإن كان آخر مايبقى منها خطين فهو آية النّجاح . وإن كان قد بقى خط واحد فهو علامة الخيبة والحرمان ، ورأيت فى بعض كتب الأدب راجزاً قال يصف جندبا[2] وهو ضرب من الجراد :

يحجل فيها مقلز الحجول بغياً على شقيه كالمشكول[3]
يخطّ لام ألف موصول والزاى والرا أيما تهليل
خط يد المستطرق المسئول

أى يخط لام ألف كخط يد الكاهن المسؤول منه التكهن ، والمستطرق : الذى يتكهن فإذا سئل عن الشىء خط فى التراب ونظر ، وقيل : المستطرق الكاهن الذى يطرق الحصى بعضه ببعض ، وفى سنن أبى داود عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يارسول الله ومنا رجال يخطون ! قال كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك ، وهذا يحتمل أن يكون معناه الزجر

---

(١) الكاهن . وانظر ص ١٥٩ من هذا الجزء . (٢) وقيل يصف غرابا (٣) حجل الغراب : نزا فى مشيه كما يحجل البعير العقير على ثلاث وقوله « فيها » أى فى الدار . ويقال : انه لقلز كمنبر أى وثاب عن ابن الأعرابى وأنشد :

وقلز الغراب والعصفور وتب وكل مالا يمشى مشيا فقد قلز
وبغى فى مشيته اختال وأسرع . والمشكول : الذى شدت قوائمه بخيط

عنه إذا كان من بعده لايوافق خطه ، ولاينال حظه من الصواب ، لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي ومعجزة له ، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعاً فى نيله ، وقد ذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى (أو أثارة من علم) أن المراد به هذا العلم وهو المشهور اليوم بعلم الرمل ، وكل ذلك من قبيل الكهانة . قال (ابن خلدون فى مقدمته) : إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة . قال : ونحن نتكلم على هذه الإدراكات كلها ، ونبتدئ منها بالكهانة . ثم نأتى عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة فى النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها ؛ وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهى توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن ، وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وماتنتزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً

بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى [1] والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ؛ ولذلك نجد الصبى فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها مادامت مع البدن نوعان من الادراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية ، وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسمانى ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شىء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ؛ ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو فى قوالبه فتخبر به . هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبى . قال : ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه فأما الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم لأن الكاهن لايحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه

---

(١) تقدم تفسيرها فى ج ٢ ص ٢٣١

هو فى سطح المرآة ، وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم ، فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه ؛ وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال ، وإنما ينشألهم بها من هـذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك مايعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك ، قال وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ، ثم بالعزائم للاستعداد ، ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحـكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين ، والعالم أبو الغرائب ، ثم ذكر الزجر وسبب تـكلم المجانين بأخبار الغيب ، ثم قال: وأما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس لهم ذلك الاتصال ، فيسلطون الفـكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناءعلى مايتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة ، هذا تحصيـل هذه الأمور . قال : وقد تـكلم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فينقل ماسمع من أهله ومن غير أهـله ! ثم ذكر ما للعرب فى ذلك من الاعتناء والاعتبار ، والمشاهير منهم فى معرفة هذه الأمور ، وحقيقة مايصدر من المتصوفة مما يطول ذكره . ومن علومهم :

علم الطب

كان للعرب حظ وافر من معرفة الطب المبنى فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحىّ وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج بعقاقير[1] وأدوية من نباتات وأغذية يحصل لغالبهم البرء العاجل باستعمالها ؛ وفى عرب البوادى اليوم كثير من ذلك ، وقد سمعنا عنهم فى هذا الباب عجائب نقلها من شاهدها منهم من الثقات ، وكذلك فى معالجة الجروح والعاهات ، وقسم منهم يعالجون أدواءهم بالكى فيحصل لهم البرء مما يشكون بأقل زمان وأيسر وقت ؛ وكذلك لهم العلم التام فى معالجة الدواب من الخيل والبغال والحمير والإبل ونحو ذلك ، ومعرفة تربيتها على أحسن وجه مما لا يبلغهم به غيرهم ، كل ذلك مشهور عنهم مسلم لهم ، وقد دون المتقدمون كل ما بلغهم عنهم من هذه الفنون بكتب كثيرة . وقد كان فى الجاهلية من العرب أطباء موسومون بالحذاقة ، موصوفون بالرئاسة فى الفن ، غير من كان منهم فى اليمن وعند التبابعة ، فإن هؤلاء لا يمكن حصرهم ، وشأن لقمان وما بلغه من الحذاقة أمر مشهور ؛ وكلامنا فيمن كان قبيل الإسلام بين مضر ومن جاورهم ؛ ونحن نذكر إنْ شاء الله نبذة منهم ، ومن أخبارهم ، وجملا من كلامهم فى هذا الفن ، مما يكون أنموذجاً ودليلا واضحا ، على من تردد فى ذلك واستبعده ، وفضل الله تعالى ليس مقصوراً على أحد .

---

(١) قال الجوهرى : العقاقير أصول الأدوية . وقال صاحب اللسان : مايتداوى به من النبات والشجر . وقال الأزهرى: الأدوية التى يستمشى بها . قال أبو الهيثم : العقار والعقاقير كل نبت ينبت مما فيه شفاء .

مشاهير أطباء العرب

منهم :

الحرث بن كلدة الثقفى

قال ابن أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء : كان الحرث هذا من الطائف ، وسافر إلى البلاد ، وتعلم الطب وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ومعاوية ، وقال له معاوية : ما الطب يا حارث ؟ فقال الأزْم . يعنى الجوع ذكر ذلك ابن جلجل . وقال الجوهرىّ فى الصحاح : الأزم المسك يقال أزم الرجل عن الشىء أمسك عنه ، وقال أبو زيد : الأزم الذى ضم شفتيه فى الحديث ، وقد سأل عمر رضى الله تعالى عنه الحرث بن كلدة عن الداء ، فقال : الأزم يعنى الحمية . قال : وكان طبيب العرب ، ويروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ادعوا له الحرث بن كلدة فإنه رجل يتطبب ، فلما عاده الحرث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس اتّخذوا له فريقة [١] بشىء من تمر عجوة [٢] وحلبة يطبخان ، فتحسَّاها [٣] فبرىء ؛ وكانت للحرث معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة ؛ وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره .

من ذلك أنه لما وفد على كسرى أنو شروان أذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصباً قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفى .

---

(١) تمر يطبخ بحلبة النفساء أو حلبة تطبخ من الحبوب لها . (٢) العجوة بالحجاز التمر المخشى وهى أم التمر الذى اليه المرجع كالشهريز بالبصرة والتبى بالبحرين والجدامى باليمامة وأيضا تمر بالمدينة يقال هو مما غرسه النبى (ص) بيده قال ابن الأثير : هى أكبر من الصيحانى يضرب الى السواد
(٣) أى شربها شيئا بعد شىء

قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب . قال : أعرابى أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبُحبوحة[١] دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها ، وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها[٢] ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ! قال كسرى : فكيف تعرف ما توردہ عليها ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل ؟ قال : الطفل يناغى[٣] فيداوى ، والحية ترقى فتحاوى[٤] ، ثم قال : أيها الملك العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل من قسمته أصاب ، وخص بها قوم وزاد ، فمنهم مثرٍ ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه ثم قال : فما الذى تَحْمَدُ من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق[٥] من أفواههم الكلام ، مروق السهم من نبعة الرّام ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين[٦] مُطْعمو الطعام فى الجَذْب[٧] ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزّهم ، ولا يُضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للأنام ، إلا للملك الُهمام ، الذى لا يقاس به أحد . ولا يوازيه سوقة[٨] ولا ملك !

قال فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه لما سمع من محكم كلامه ، وقال لجلسائه : إنى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يورده من لفظه صادقاً ، وكذا العاقل من أحكمته التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال :

---

(١) وسط (٢) الامشاج : الاخلاط . قال تعالى : انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه . قال ابن السكت : يريد النطفة لأنها ممتزجة من أنواع ولذلك يولد الانسان ذا طبائع مختلفة (٣) أى يكلم بما يجذله . (٤) التحوية : القبض (٥) يخرج (٦) السلسبيل : اللين الذى لاخشونة فيه . والمعين : الماء الجارى (٧) القحط (٨) السوقة عند العرب خلاف الملك وليس المراد من قولهم (رحل سوقة) أنه من اهل الأسواق كما يتوهم عامة الكتاب والأدباء

كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك ! قال : فما أصل الطب ؟ قال : الأزم ، قال : فما الأزم ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال : أصبت ، فما الداء الدوىّ ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال فما الجمرة التى تصطلم منها الأدواء ؟ قال : هى التخمة إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تحللت أسقمت ، قال : صدقت ، فما تقول فى الحجامة ؟ قال فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لاغيم فيه ، والنفس طيبة ، والعروق ساكنة ، لسرور يفاجؤك وهمّ يباعدك ، قال : فما تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لاتدخله شبعاناً ، ولا تغش أهلك سكراناً ، ولا تقم بالليل عرياناً ، ولا تقعد على الطعام غضباناً ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك ، قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وإن تركتها خربت ، قال فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقه أمراه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويثير عليك من الأدواء أنواعاً ، قال : فأى اللُّحْمان أفضل ؟ قال : الضأن الفتى ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر ، قال : فماتقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، وأفضل الفواكه الرمان والأُتْرُجّ ، وأفضل الرياحين الورود والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء والخس ، قال : فما تقول فى شرب الماء ؟ قال هو حياة البدن ، وبه قوامه ينفع ماشرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر أفضله أمراه ، وأرقه أصفاه ، ومن عظام أنهار[1] البارد الزلال لم يختلط بماء الآجام والآكام[2] ينزل من صرادح[3] المسطان ويتسلسل عن الرضراض[4] ، وعظام الحصى فى الأيفاع[5] قال : فما طعمه ؟ قال : لايوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة ،

---

(١) كذا (٢) الآجام : الحصون . والآكام : التلول (٣) الصرادح : جمع صرداح وهو المكان المستوى (٤) الحصى (٥) جمع يفع وهو المحل المرتفع

قال : فما لونه قال ، اشتبه عن الأبصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه ، قال : أخبرنى عن أصل الإنسان ما هو : قال: أصله من حيث شرب الماء يعنى رأسه، قال : فما هذا النور الذى فى العينين : قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح : قال فعلى كم جبل وطبع هذا البدن ؟ قال : على أربع طبائع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة والدم وهو حار رطب ، والبلغم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من طبع واحد لم يأ كل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما ؟ قال : لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان ! قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال والقيام ، قال : فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال : كل حلو حار وكل حامض بارد وكل حريف حار وكل مرّ معتدل وفى المرّ حار وبارد ، قال : فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال : كل حار لين ، قال : فالبلغم : قال : كل حار يابس ، قال : فالدم ؟ قال : إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال : فالرياح ؟ قال بالحقن اللينة ، والأدهان الحارة اللينة : قال : أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم ! قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وإن الجهل كل الجهل من أ كل ما قد عرف مضرته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه ، قال : فما الحِمْيَةُ ؟ قال : الاقتصاد فى كل شيء ، فإن الأ كل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ، ويسدّ مسامّها ، قال : فما تقول فى النِّساء وإتيانهن ؟ قال : كثرة غشيانهن ردىء ، وإياك وإتيان المرأة المسنة ، فإنها كالشنّ[1] البالى تجذب قوتك ، وتسقم بدنك ، ماؤها سم قاتل ، ونفسها موت عاجل ، تأخذ منك الكلّ ، ولا تعطيك البعض ، والشابة ماؤها عذب

---

(١) القربة الخلق الصغيرة

زلال ، وعناقها غُنْج ودلال ، فوها بارد ، وريقها عذب ، وريحها طيب ، وَهَنُهَا[١] ضيق ، تزيدك قوة إلى قوتك ، ونشاطاً إلى نشاطك ، قال : فأيهن القلب إليها أميل ، والعين برؤيتها أسر ، قال إذا أصبتها المديدة القامة ، العظيمة الهامة[٢] واسعة الجبين ، قنواء العِرْنين[٣] ، كحلاء[٤] لعساء[٥] صافية الخد ، عريضة الصدر ، مليحة النحر[٦] فى خدها رقة ، وفى شفتيها لعس ، مقرونة الحاجبين ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر[٧] والقدمين ، بيضاء ، فرعاء[٨] جعدة[٩] غضة بضة[١٠] تخالها فى الظلمة بدراً زاهراً ، تبسم عن أقحوان[١١] وعن مبسم كالأرجوان[١٢] كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ، تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها قال : فاستضحك كسرى حتى اختلجت[١٣] كتفاه ! قال : ففى أى الأوقات إتيانهن أفضل ؟ قال : عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أهدأ ، والقلب أشهى ، والرحم أدفى ، فإن أردت الاستمتاع بها نهاراً تسرّح عينك فى جمال وجهها ، ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ، ويعى سمعك من حلاوة لفظها ، وتسكن الجوارح كلها إليها ! قال كسرى : لله درك من أعرابى ! لقد أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهما ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

وقال (الواثق بالله) فى كتابه المسمى (بالبستان) إن الحرث بن كلدة مر بقوم وهم فى الشمس ، فقال : عليكم بالظل فإن الشمس تنهج الثوب[١٤] وتنقل الريح وتشحب[١٥] اللون ، وتهيج الداء الدفين ، ومن كلام الحرث : البطنة بيت الداء

---

(١) فرجها (٢) الرأس (٣) قنواء : بينة القنا وهو ارتفاع أعلى الانف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . والعرنين : الانف كله أو ماصلب من عظمه . (٤) شديدة سواد العين أو التى كأنها مكحولة وان لم تكحل (٥) فى شفتها ولثتها سواد (٦) أعلى الصدر أو موضع القلادة (٧) بفتح فسكون وسط الانسان (٨) تامة الشعر ومن سجعات الاساس : لابد للقرعاء ، من حسد للفرعاء . (٩) أى غير سبطة الشعر (١٠) ناعمة رخصة الجسد رقيقة الجلد ممتلئة (١١) نبت من نبات الربيع مقرض الورق رقيق العيدان له نور أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) صبغ أحمر (١٣) اضطربت وتحركت (١٤) أى تخلقه . (١٥) تغير

والحمية رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد . وقيل : هو من كلام عبد الملك ابن أبجر ، وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوله (المعدة بيت الداء) وهو أبلغ من لفظ البطنة . وروى عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال : من أراد البقاء ، ولا بقاء ، فليجوّد الغذاء ، وليتمش بعد العشاء ، ولا يبت حتى يعرض نفسه على الخلاء ، ودخول الحمام على البطنة من شر الداء ، ودخلة إلى الحمام فى الصيف خير من عشر فى الشتاء ، وأكل القديد اليابس فى الليل معين على الفناء ، ومجامعة العجوز تهدم أعمار الأحياء . وروى بعض هذه الكلمات عن الحرث بن كلدة وفيها : من سره النساء ولا نساء ، فليكر العشاء ، وليباكر الغذاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النساء . ومعنى (فليكر) فليؤخر . والمراد بالرداء الدين ، وسمى الدين رداء لقولهم هو فى عنقى وفى ذمتى فلما كانت العنق موضع الرداء سمى الدين رداء . وقد روى من طريق آخر وفيه (تعجيل العشاء) وهو أصح . وروى أبو عوانة : وليعجل العشاء وليخفف الرداء وليقل الجماع . وروى حرب بن محمد قال : حدثنا أبى قال قال الحرث بن كلدة : أربعة أشياء تهدم البدن : الغشيان على البطنة ، ودخول الحمام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز . وروى داود بن رشيد عن عمرو بن عوف قال : لما احتضر الحرث بن كلدة اجتمع إليه الناس فقالوا : مرنا بأمر ننتهى إليه من بعدك ، قال : لا تتزوجوا من النساء إلا شابة ولا تأكلوا الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا يتعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء ؛ وعليكم بالنورة فى كل شهر فإنها مذيبة للبلغم مهلكة للمرة منبتة للحم ؛ وإذا تغدى أحدكم فلينم على أثر غدائه ، وإذا تعشى فليتخط أربعين خُطوة . ومن كلام الحرث أيضاً قال : دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً ، ولا تشرب إلا من ضرورة ، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله . وقال سليمان بن جلجل : أخبرنا الحسن بن الحسين ، قال : أخبرنا سعيد بن الأموى قال : أخبرنا عمى محمد بن سعيد بن عبد الملك بن عمير ،

قال : كان أخوان من ثقيف من بنى كُنَّة يتحابان لم ير قط أحسن ألفةً منهما ، فخرج الأكبر إلى سفر فأوصى الأصغر بامرأته ، فوقعت عينه عليها يوماً غير متعمد لذلك ، فهواها وضَنِيَ[1] ، وقدم أخوه فجاءه بالأطباء ، فلم يعرفوا ما به إلى أن جاءه بالحرث بن كلدة ، فقال : أرى عينين محتجبتين وما أدرى ما هـذا الوجع ، وسأجرب ، فاسقوه نبيذاً ، فلما عمل النبيذ فيه قال :

ألا رفقاً ألا رفقاً قليـلًا ما أكـوننّه
ألِمَّا بى على الأبيـا تِ بالخيف أُزُرْهنّه[2]
غَزالًا ما رأيت الـ ـيوم فى دور بنى كُنَّه
أسيل الخد مربوب وفى منطقه غُنَّه[3]

فقالوا له : أنت أطب العرب ! ثم قال : ردوا النبيذ عليه فلما عمل فيه قال :

أيها الجيرة أسلموا وقفوا كَىْ تـكلّموا
وتقضـوا لُبَـانةً وتحيـوا وتنعمـوا[4]
خرجتْ مُزْنة من الـ ـبحر ريَّا تجمجم[5]
هى ما كنّتى وتز عُمُ أنِّى لها حَمُو[6]

فطلقها أخوه . ثم قال : تزوج بها يا أخى ! فقال : والله ما تزوجتها ! فمات وما تزوجها . وللحرث بن كلدة الثقفى من الـكتب (كتاب المحاورة) فى الطب بينه و بين كسرى أنو شروان . ومنهم :

---

(١) أى مرض مرضا مخامرا كلما ظن برؤه نكس .
(٢) الالمام : الزيارة غبا وقد الم به والم عليه . والخيف : الناحية وما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . وهو اسم لمواضع كثيرة . (٣) الاسيل من الخدود الطويل اللين الخلق المسترسل . ورب الصبى : احسن القيـام عليه ووليه حتى فارق الطفولية . وهو مربوب وربيب . والغنة : صوت يخرج من الخيشوم والاغن الذى يتكلم من قبل خياشيمه (٤) اللبانة بالضم الحاجة (٥) قال المجد : الجمجمة إن لايبين كلامه كالتجمجم . (٦) الكنة : بالفتح امرأة الأخ أو الابن والمراد هناالأول . وحموا المرأة : أبو زوجها ومن كان من قبله كالاخ وغيره ، وحمو الرجل أبو امرأته أو اخوها أو عمها . أو الاحماء من قبلها خاصة وحمو من الاسماء التى لاتكون الا مضافة وقد جاء فى هذا الشعر مفردا

النضر بن الحرث بن كلدة الثقفي

كان النضر ابن خالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأحبار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره ، وكان النضر يواتي[1] أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكونه كان ثقفياً كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قريش والأنصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان » وكان النضر كثيرا لأذى والحسد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة كيما يحط من قدره عند أهل مكة ، ويبطل ما أتى به بزعمه ، ولم يعلم بشقاوته أن النبوة أعظم ، والسعادة أقدر ، والعناية الآلهية أجل ، والأمور المقدرة أثبت ، وإنما النضر اعتقد أنه بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة ، وأين الثرى من الثريا ؟ والحضيض من الأوج ؟ والشقي من السعيد ؟

ولما كان يوم بدر والتقى فيه المسلمون ومشركو قريش كان المقدم على المشركين أبي سفيان ، وعدتهم ما بين التسعمائة والألف ، والمسلمون يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأيد الله تعالى الإسلام ، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام ، ووقعت الكسرة على المشركين ، وقتلت في جملتهم صناديد قريش ، وأسر جماعة من المشركين ، فبعضهم استفكوا أنفسهم ، وبعضهم أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم . وكان من جملة المأسورين عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحرث ابن كلدة ، فقتلهما عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر . قيل : قتل عقبة ابن أبي معيط صبراً ، أمر عاصم ابن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري فضرب عنقه ، ثم أقبل من بدر حتى إذا كان بالصفراء قتل النضر بن الحارث بن كلدة

---

(١) يوافق

الثقفى أحد بنى عبد الدار ، أمر على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن يضرب عنقه ، فقالت أخته قتيلة بنت الحرث .

أيا راكباً إنّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبح خامسة وأنت مُوَفَّقُ(١)

بَلِّغْ به مَيْتاً فإنّ تحيةً ... ما إنْ تَزَالُ بها الركائبُ تَخْفُقُ

منى إليه ، وعبرةً مسفوحةً ... جادت لمائحها وأخرى تخفقُ(٢)

فَلْيَسْمَعَنَّ النضرُ إن ناديتُهُ ... إنْ كان يَسمع ميّتٌ أو ينطِقُ(٣)

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُهُ ... لله أرحامٌ هناك تُمَزَّقُ(٤)

صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ(٥)

أمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَسْلُ نجيبةٍ ... فى قَوْمِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ(٦)

ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المحْنَقُ(٧)

والنَّضْرُ أقرب من أخذت بزلةٍ ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يعتقُ

لو كنتَ قابلَ فديةٍ لفديته ... بأعزِّ ما يفدى به من ينفقُ

قال أبو الفرج الأصبهانى . فبلغنا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لو سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته » فيقال إن شعرها أكرم شعر وأعفه ، وأكفه وأحلمه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام إنما أخر قتل النضر بن الحرث إلى أن وصل الصفراء ليتروّى فيه ، ثم إنه رأى الصواب قتله فقتله . ومنهم .

---

(١) الأثيل : موضع فيه قبر النضر . والمظنة : موضع الظن . تريد ان الاثيل مظنة أن تصل اليه فى صبح الليلة الخامسة ان وفقت الى الطريق ولم تحد عنه . (٢) ان بعد « ما » زائدة ، وتخفق : تتحرك . ومسفوحة : مصبوبة . والمائح : النازل فى البئر ليملأ الدلو . ومعنى البيتين : اذا وصلت هذا المكان فبلغ ساكنه تحية لاتزال الركائب تتحرك بها منى اليه ، وبلغه عبرة مصبوبة استنزفها من العين فقده وأخرى آخذة بالحلق . (٣) تقول : ان كان الميت يسمع أو ينطق وهو محال فعلى النضر أن يسمع نداءك (٤) تنوشه : تتناوله . واللام فى (لله) التعجب . والمعنى لم يقتله احد غير بنى أبيه فعجبا من أرحام تنقطع هناك (٥) المنية : الموت . ورسف المقيد : مشى المقيد اذا جاء يتحامل برجله مع القيد . (٦) النجيبة : الكريمة . والمعرق : من له عرق فى الكرم . ويروى « ضنء » موضع « نسل » وهو الولد .

(٧) الحنق : الغيظ أو أشده — ومعنى هذه الأبيات ظاهر .

ابن حذيم (١)

كان ابن حذيم له قدم راسخة فى علم الطب . وله فيه أطول باع . قال الزمخشرى فى المستقصى : ابن حذيم رجل كان من أطباء العرب . وقال أبو الندى : ابن حذيم رجل من تيم الرباب ، كان أطب العرب . وكان أطب من الحرث بن كلدة . وقال ابن الأثير فى المرصع : ابن حذيم شاعر فى قديم الدهر يقال إنه كان طبيباً حاذقاً يضرب به المثل فى الطب . فيقال : أطب فى الكىّ من ابن حذيم . وقال الميدانى عند قولهم : أطب من حذيم : هذا رجل كان معروفا بالحذق فى الطب . ونقل ماذكره أبو الندى من تفضيله على ابن كلدة وتقدمه . وأهل اللغة على ذلك ؛ وقد ذكره الشعراء فى شعرهم ونوهوا بشأنه . ومنهم . الأوس بن حجر فإنه ذكره فى أبيات قالها لبنى الحرث بن سَدُوس بن شيبان . وهم أهل (القرية) باليمامة حيث اقتسموا مِعْزَاه وقيل اقتسمها بنو حنيفة و بنو سحيم . وكان أوس بن حجر أغرى عليهم عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، ثم جاور فيهم فاقتسموا معزاه . ومن الأبيات قوله :

فهل لكمُ فيها إلىّ فإننى طبيبٌ بما أعيا النطاسىّ حِذَيْمَا (٢)

---

(١) سماه جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية (ج ١ ص ١٧٧) : حزيم بالزاى وهو خطأ فاضح ولولا أنه كرره لكنا نحمله على انه خطأ مطبعى !

(٢) أورده المحقق الرضى فى شرح الكافية على ان فيه حذف مضاف أى ابن حذيم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه لأنه علم أنه العالم بالطب والمشهور لاحذيم فانه ورد فى الأمثال « أطب من ابن حذيم » ... قال العلامة البغدادى فى الخزانة : واورد صاحب الكشاف هذا البيت عند قوله تعالى « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن » على أن التسمية واقعة على المضاف والمضاف اليه جميعا وأما مابرد من نحو قوله عليه الصلاة والسلام « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » فهو من باب الحذف لا من الالباس كما حذف الشاعر « ابن » من ابن حذيم . قال : وقد خالف كلامه هنا فى (المفصل) فانه قال اذا أمنوا الالباس حذفوا المضاف وقد جاء اللبس فى الشعر . قال ذو الرمة :

عشية فر الحارثيون بعد ما قضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

وقال « بما اعيا النطاسى حذيما » اى ابن هوبر وابن حذيم . وهو فى قوله هذا تابع لأبى على فى ايضاح الشعر — الى أن قال — وقد قال يعقوب ابن

فأخرجكم من ثوب شمطاء عاركٍ مشهّرة بلّت أسافِلَهُ دَمَا

ولو كانَ جارٌ منكم فى عَشيرتى إذاً لَرَأَوْا للجارِ حَقًّا ومحرما

ولو كانَ حَوْلِى من تميم عصابة لمــا كان مالى فيكم متقسما

ألا تتقونَ الله إذ تعلفونها رصيخَ النَّوَى والعُضُّ حولاً مجرما

وأعجبكم فيهـا أغرّ مشهّر تلاد إذا نام الربيض تغمغما

قوله : فهل لــكم فيها إلخ قال المفضل بن سلمة فى الفاخر وابن الأنبارىّ فى الزاهر : الطب الفطنة والحذق ومنه سمى الطبيب لعلمه وحذقه وأنشد هذا البيت ، وأعياه الشىء إذا لم يهتد لوجهه ، والطناسى بكسر النون قال ابن السكيت : العـالم الشديد النظر فى الأمور . قال أبو عبيـد : ويروى النَّطاسى بفتح النون . قال الجوهرى : التنطس المبالغة فى التطهر . وكل من أدق النظر فى الأمور ، واستقصى علمها فهو متنطس ، ومنه قيل للمتطبب نطيس كفسيق ونطاسى بكسر النون وفتحها . أى اننى طبيب حاذق بالداء الذى أعجز الأطباء فى مداواته وعلاجـه ، وضمير فيها للمعزى ، وفيه حذف مضاف أى فهل لــكم ميل فى رد المعزى إلىّ . وقوله : فهل لـــكم فى ثوب شمطاء[1] الخ . الشمطاء المرأة التى فى رأسها شمط بالتحريك ، وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواد والرجل أشمط . والعارك . الحائض ، والشهرة : وضوح الأمر . يقول : هل لــكم فى رد معزاى فأخرجكم من سبة شنعاء تلطخ أعراضكم وتدنسها كما تدنس الحائض ثوبها بالدم فأغسله عنــكم ، وهذا مثل ضربه . وقوله : ألا تتقون الله الخ . يقول : لولا أنك سرقتها لأى

السكيت فى شرح هذا البيت من ديوان أوس بن حجر : حذيم رجل من تيم الرباب وكان متطببا عالما . هذا كلامه فعنده ان الطبيب هو حذيم لا ابن حذيم . وتبعه على هذا صاحب القاموس فلا حذف فيه ولا شاهد على ماذكر .. وقوله « طبيب » روى ابن السكيت بدله « بصير » والبصير العالم ، والنطاسى مفعول اعيا وحذيم بدل من النطاسى وفاعل اعيا ضمير ما الموصولة الواقعة على الداء . اى اننى طبيب حاذق بالداء الذى اعجــز الأطباء فى مداواته وعلاجه . (١) قوله « شمطاء « ورد فى كتاب تهذيب الألفاظ ص ٥٤١ طبعة اليسوعيين ـــ « شحطاء » وهو تحريف فاحذره !

شيء تعلفها يقول فردها ولا تعلفها . والرضيخ : بالضاد والخاء المعجمتين المدقوق ، يقال رضخت الحصى والنوى كسرته . والعُضّ بضم العين المهملة وتشديد الضاد المعجمة . قال ابن السكيت : هو القت . وقال الجوهرى : علف أهل الأمصار مثل الكسب والنوى المرضوخ ، والجُرَم بالجيم على وزن اسم المفعول التام والكامل . وقوله : وأعجبكم فيها أغر الخ . قال ابن السكيت : الأغر الأبيض ، والتلاد : القديم من المال . والربيض : ههنا الغنم . وقوله : تغمغا يعنى هذا الأغر ، والغمغمة : هبابه أى لا ينام وإنما يعرض بهم ويفترى عليهم ، وقد ذكر ابن أصيبعة كثيراً من أطباء العرب فى كتابه الطبقات .

نبذة من أسماء العلل التى وصفتها العرب

من تصفح كتب اللغة وجد فيها كثيراً من العلل التى وصفها قدماء العرب ووضعوا لها الأسماء الكثيرة ، ونحن نذكر هنا نبذة يسيرة من ذلك استدلالاً بها على ما كان للقوم من المعرفة بهذا الفن « الحمى » وتكنى بأم مِلْدَم ، وهى الحرارة التى توجد من تعفن الأخلاط ، تقول حم حُمَّى واحدة ، فلا تنون حمى ، وهو محموم وحم حميين وثلاثاً . والحمى أنواع كثيرة يقال : فلان يُحَمّ الغِبُّ إذا أخذته يوماً وتركته يوماً ، والربع أن تأخذه يوماً وتدعه يومين يقال رُبِعَ فهو مربوع وقد يقال أرْبِعَ حوِّل إلى الربع ، ومنهم من قال : حمى الربع هى التى تقع النَّوْبة الثانية بعد النوبة الأولى بيومين فتكون فى اليوم الرابع ، ومن عدّ النَّوْبة ويوم الراحة دوراً مستقلاً سماها المثلثة ؛ ويحم الصالب للتى معها الصُّداع ؛ والنافض والراجف التى معها رِعدة وقد نَفَضته الحمى . ويحم حمَّى مغبطة ومردمة أى دائمة عليه لا تقلع ؛ وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ؛ ومن أنواعها حمى الروح وحمى الدق « السبات » أن يغمى عليه فى الحمى وهو مغمى عليه ومغشى عليه ؛ فإن كان مع الحمى بِرْسام فهو مُوم ؛ والوَعْك : الحمى . وقد وُعك

فهو موعوك ، وورد فهو مورود ، والوِرْد يومها . والقِلد يوم يأتيه الرِبْعُ وقد غبت الحمى ، وفلان شاكٍ وبه شكاة ، وموصَّم يجد تكسيراً فى عظامه ، ووصب : وجع ؛ ومنهوك : براه المرض ، ومُثْبَت : لا يبرحُ الفراش ، ونصب أسهره المرض ، والمُستَهاض : الذى يُنكس بعد ما يبرأ ، وأول ما يحس بالحمى فهو مسّها ورسّها ، فإن كانت هناك قِرّة فهى العُرَوَاء ، والعرق فيها الرُّحضاء ، ووجد رمضة ومليلة للحرقة والتكسير .

ومن العلل : اليرقان وهو داء يصفر الإنسان « والصداع » وجع الرأس و « الشقيقة » وجع فى شقه « والسُّعال » وجع فى الصدر « والزكام » وهو اندفاع فضلات تحلبا من الزائدتين فهو أخص من النزلة لكونها تقال على ما اندفع مطلقاً « الزّحير » وهو من أمراض المِعَى وهو حركة من المستقيم تدعو إلى دفع البراز اضطراراً « الحصر » احتباس البطن « الأُسْر » احتباس البول « الحصى » يقال به حصاة وهى كالحجر فى مجرى البول « الحكة » تغير سطح الجلد فى اللمس مع لذع مستلذ إذا حك . ومنهم من لم يفرق بينها وبين الجرب « الحصَف » بثور شوكية مختلفة الأوضاع « الحصْبَة » داء كالجدَرى يحمر منه الجلد « الحمرة » ورم حار شفاف براق يسهل غمزه ويبيض به ثم يعود الجدَرى وهو من الأمراض العامة الوبائية وصورته نتوء يستدير غالباً ثم يطفو ومنه ما يتصل وما ينفصل (الشرى) بَثْر بين الجلد واللحم يقال شرى شرىً (الُحاق) شىء كالجدرى يصيب الرجل وحمق أصابته الحميْقاء (القُوَباء) بثرة يتقوب عنها الجلد أى ينقطع من أصله (والثؤْلول) ما يخرج فوق الجلد ولا يبرأ بسرعة وجمعه ثآليل (والجرَب) وهو من الأمراض العامة الظاهرة فى سطح الجلد (والعَر)[1] الجرب الأبيض « والجذام » داء معلوم وهو من الجذم وهو القطع سمى بذلك لأنه يقطع الأعضاء أو النسل أو العمر ، ويسمى أيضاً داء الأسد لجعله سخنة

(١) انظر الفرق بين العر بالفتح ، والعر بالضم ، فى (ص ٣٠٥) من الجزء الثانى .

الإنسان كسخنة الأسد ، أو لأنه تعتريه ، أو يفترس البدن كافتراسه « وداء الثعلب » وهو نقص الشعر ، أو ذهابه وفساد منابته ، ويسمى أيضاً داء الحية ، وسمى بذلك لأنه يعترى هذين الحيوانين ، أو لأن الثعلب يفسد الزرع بتمرغه كما يفسد هذا الداء الشعر الذى هو زرع البدن . « داء الفيل » هو داء يعترى الرجلين فترمان من الركبة إلى النهاية ، وسمى بذلك لأنه يعترى الفيل ، أو لشبه الرجل فيه برجله « الدُّوَّار » وهو أن يتخيل الشخص أنه دائر بجملة أجزائه ، أوْ أن المكان دائر عليه « الوباء » وهو تغير يعرض للهواء يخرج به عن اعتدال الصحة إلى إيجاب المرض « الهَيْضَة » وتسمى الفَضْجة وهى من أدواء البطن وهو ما يستوجب القىء والإسهال . قال الجوهرى : يقال هاضنى الشىء إذا ردك فى مرضك ، ويقال بالرجل هَيْضَة أى به قُيَاء وقيام جميعاً « النملة » وهى بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، ويسميها الأطباء الذباب ؛ وتقول المجوس : إن ولد الرجل إذا كان من أخته ثم خط على النملة شفى صاحبها . وقال :

ولا عَيْبَ فينا غيرُ عرقٍ لِمَعْشَرٍ ... كرامٍ وأنا لانخطّ على النمل (١)

والنملة أيضاً عيب من عيوب الخيل وهو شق فى الحافر من الأشعر إلى المقطّ ، وفرس نمل القوائم إذا كان لا يستقر « الجنون » داء يستوجب زوال العقل ، أو استتاره بحيث ينقص ، أو يعدم التمييز أو الشعور ، وهو إما مطبق

(١) قال ابن السيد : هذا البيت لا أعلم قائله ، وفيه روايتان ، نخط بالخاء معجمة ، ونحط بالحاء غير معجمة ؟ فمن رواه بالخاء معجمة أراد بالنمل القروح التى تخرج فى الجنب . يعرض برجل كان أخواله مجوسا . كذا قال ابن قتيبة فى كتاب المعانى وأنشد :

* ولا عيب الا نزع عرق لمعشر * . ومن روى نحط بالحاء غير معجمة فله معنيان : أحدهما ان يكون الحط الدلك من قولهم حططت الجلد اذا دلكته فيكون معناه كالمعنى فى رواية من رواه بالخاء معجمة . والثانى أن يريد بالنمل الحيوان المعروف ولا يريد القروح فيكون تأويله انا لانحفر بيوت النمل نستخرج مافيها مهانة وخساسة . فيكون على هذا قد عرض بقوم كانوا يفعلون ذلك . والتفسير الصحيح هو الأول ، وهذا التفسير الثانى ليس بشىء ، وقد أنكره ابن قتيبة انتهى وقال أبو احمد العسكرى ان الحاء المهملة تصحيف من ابن الأعرابى ذكره فى كتاب التصحيف من كتابه . وبقى فى البيت كلام يطلب من الاقتضاب ص ٢٩٠

أو منقطع أما بأدوار معلومة أولا « البيضة » من أنواع الصُّدَاع وهى ماعم فى قول أو خصَّ وسط الرأس « الخدر والفالج والإفلاج » وهى متقاربة معلومة « البثور » واحدها بثرة وهى عبارة عن تأكل الجلد أو نتوؤه على أوضاع مخصوصة « الحزَاز » من أمراض الرأس الظاهرة وهى خشونة منفصلة تنسلخ قشوراً كالنخالة . وقد يطلق هذا الإسم على القوابى « الحدبة » خروج بعض فقرات الظهر عن السمت الطبيعى بخلط ونحوه فتبرز « الطرش » وهو نقص السمع أو زواله وكذلك الصمم « الطلق » هو تغير المزاج عند إرادة الوضع « الْجُشَاء » وهو من أمراض المعدة عند فساد حالة من حالاتها « الباسور » زيادات غير طبيعية جذبتها القوى الضعيفة على غير وجه طبيعى نحو الأغوار الباطنة كبطن الأنف والرحم والمقعدة وكثيراً ما يطلق فيراد به باسور المقعدة ويقيد غيره « والناسور » عرق يتفتق منه قرح دائم « البهق » وهو داء كالبرص ويسمى الأسود منه عند كثير القوابى والحزازة والتعطيش ويسمى الأبيض منه الوضح . وفى المبادىء : وبه بهق بياض كالنكتة غير ناصع « والبرص » إذا تقشرت جلدته ونَصَعَ بياضه فإذا كان هناك وضح كالبرص قيل به برش ، وفسر البرص بأنه تغير اللون إلى بياض أو سواد غير طبيعيين « الكلف » كدرة تعلو الوجه « والمغس والمَغَص » وجع فى الأمعاء وتقطيع « والذُّبَحَة » الخناق وهى من تبيّغ الدم أى هيجانه وغلبته « الاستسقاء » وهو من أمراض الكَبِد أو الطحال ، وهو اسم لما خبث من الخلط « الإغماء » وهو من أمراض الباطن ويكون عاماً وخاصاً ، وحقيقته عجز البدن أو العضو عن فعل ما من شأنه فعله كـكلالة بواسطة ما انصبَّ إليه « الاختلاج » وهو حركة العضو والبدن غير إرادية تكون عن فاعل هو البخار ، ومادىّ هو الغذاء المبخر ، وصورى هو الاجتماع ، وغاذى هو الاندفاع « البَخَر » هو تغير رائحة الفم أو البدن بسبب تعفن الخلط « والفُوَاق » هو الذى يأخذ الإنسان عند النزع ،

وكذلك الريح التى تشخص من صدره « والثُّؤَباء » نفس تفتح له فاك مع تمطٍ وفترة « والجشاءة » نفس من الصدر على شبع أو رِىّ « والقَلَس » دسعة تخرج من الحلق عند الامتلاء . إلى غير ذلك مما يطول استقصاؤه ، وكانوا يعالجون هذه الأدواء ونحوها بعقاقير جربوها أو بكىّ أو رقية ، وفى كتاب (زاد المعاد) و (الداء والدواء) تفصيل ذلك . والمقصود مما نقلناه أن القوم لم يكونوا غافلين عن هذا العلم الجليل غير أنهم لم يكونوا متقنين له كل الإتقان ، وذلك شأن كل من لم يتوغل فى الحضارة وما تقتضيه ؛ وفى مقدمة ابن خلدون كلام مفيد على هذا الموضوع ، والله الموفق لما يرضيه . ومن علومهم :

علم الريافة

وهو معرفة استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده فيعرف بعده وقربه بشم التراب ، أو برائحة بعض النباتات فيه ، أو بحركة حيوان مخصوص ، وهو من فروع الفراسة ، وهى موجودة فى بعض أعراب نجد ؛ وقد أخبرنى بعض الثقات أنه شاهد بعض هؤلاء قال : يضع أذنه على الأرض فيخبر بما يتبين له من وجود الماء وعدمه وقربه وبعده ، فإذا حفروا وجدوا الأمر كما وصف ؛ ويسمى من له هذه المعرفة بين العرب اليوم (بالنصّات) ولا ينبغى لمن لا استعداد له لهذه القوة أن ينكرها فإن كلّ أمة من الأمم ، وكلّ قبيلة من القبائل ، وكل فرد من الأفراد ، مختصٌّ بأشياء وهبت له ، ومُنَّ بها عليه من العلوم والصنائع والمعرفة والأخلاق والسير والمحاسن والقبائح . ونحن نرى ألوفاً من الناس يتعاطون صنعة واحدة ؛ ويتدارسون علماً واحداً ، فلا يبرع منهم إلا الواحد بعد الواحد ، وكل يفاض عليه على حسب استعداده . ومن علومهم :

علم الاهتداء في البراري

وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة دلالة ظاهرة أو خفية بقوة الشامة فقط لا يعرفها إلا من تدرب فيها كالاستدلال برائحة التراب ، ومسامتة الكواكب الثابتة ، ومنازل القمر ، إذ لكل بقعة رائحة مخصوصة ، ولكل كوكب سمت يهتدى به كما قال الله تعالى (وهو الذى جَعَلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها فى ظُلمات البرّ والبحر) ونفع هذا العلم عظيم بيِّن و إلا لهلكت القوافل . وضلت الجيوش ، فضاعت فى البرارى والقفار . والعرب لوقوفهم على معرفة الكواكب والأنواء ومهب الرياح وصفاتها ، ولوجانهم فى البرارى والقفار ، كانوا أعرف الناس بهذا العلم ؛ ولا بد من إيراد مثال لذلك ليعلم من وقف على هذا المقام كيفية اهتدائهم واستدلالهم . فمن أراد منهم أن يسافر إلى (مكة) نظر إلى أثبت النجوم دلالة وأقواها وهو القطب الشمالى لأنه لا يزول عن مكانه ، و يمكن لكل أحد معرفته لكن تختلف دلالته باختلاف الأقاليم ، فبالعراق وما وراء النهر يجعله من قصد مكة من المسافرين خلف أذنه اليمنى ، وبمصر خلف أذنه اليسرى ، و باليمن قبالته مما يلى جانبه الأيسر ؛ و بالشام وراءه ، وقيل ينحرف بدمشق وما قاربها إلى الشرق قليلًا ، ثم بعد ذلك الجدى والفرقدان ، والقطب نجم شمالى خفى حوله أنجم دائرة كفراشة رحى أو كسمكة فى أحد طرفيها الفرقدان ، وفى الطرف الآخر الجدى ، والقطب فى وسط الفراشة لا يبرح من مكانه دائمًا ، ولا يراه إلا حديد البصر فى الليلة الظلماء ، و يستدل عليه بالجدى والفرقدين فإنه بينهما ، والجدى هو الذى على طرف بنات نعش الصغرى ؛ فكواكب بنات نعش الصغرى سبعة : أربعة منها على شكل منحرف يسمى نعشًا ؛ والنيران منهما يسميان الفرقدين ؛ وثلاثة على خط معوج تسمى بناتًا ؛ وطرف الثلاثة النيّر يسمى الجدى ؛ فالقطب فيما بين الجدى والفرقدين كما ذكرنا .

ومما يستدل به من قصد (الـكعبة) من العرب المجرة فإنها تـكون فى الشتاء أول الليل فى ناحية السماء ممتدة شرقاً وغربا على الـكتف الأيسر من الإنسان إذا كان متوجهاً إلى المشرق ثم تصير فى آخره ممتدة شرقاً وغربا أيضاً على كتفه الأيمن ، وأما فى الصيف فإنها تتوسط السماء لـكن دلالتها أضعف من دلالة ما تقدم ، والمجرة كواكب صغار متقاربة متشابكة كثيرة جداً لا تتمايز حساً بل هى لشدة تـكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ، وقيل غير ذلك ، ومما يستدل به على (الـكعبة) أيضاً الشمس والقمر ومنازلها الثمانية والعشرون وكذلك يستدل به بما تقترن بهذه المنازل أو يقاربها فإنها كلها تطلع من مشرق وتغيب بمغرب . فالهلال يكون فى أول الشهر إلى ثلاثة عن يمين قاصد الـكعبة عند غروب الشمس ، وفى ثالث ليلة يكون عند غروب الشمس أمامه ، وفى عاشر ليلة يكون على سمت الـكعبة وقت العشاء بعد مغيب الشفق الأحمر ، وفى الليلة الثانية والعشرين يكون على سمتها وقت طلوع الفجر ، وهذا كله على سبيل التقريب . ومما يستدل به الرياح ، ويعسر الاستدلال بها فى الصحراء ، وأما بين الجبال والبنيان فتدور وتختلف فتبطل دلالتها ، ومما يستدل به على الـكعبة الجبال الـكبار فـكلها ممتدة عن ميمنة قاصدها إلى ميسرته ، ودلالتها قوية تدرك بالحس لـكنها تضعف من حيث اشتباهها على ذلك القاصدهل يجعل ممتدها خلفه أو قدامه فتحصل الدلالة على جهتين والاشتباه على جهتين ، هذا إذا لم يعرف وجه الجبل فان عرفه استدبره لأن وجوهها للـكعبة ووجه الجبل ما فيه مصعده ، إلى غير ذلك من الدلائل على كل جهة يقصدونها ؛ وكان من لم يعرف الطرق من العرب معيباً بينهم مذموماً عندهم : كل ذلك تحرزاً عن غلبة خصومهم وتطاول الاعداء عليهم ، والله الهادى الى سواء السبيل .

علم العرب بأدواء الخيل ودوائها وعيوبها ومحاسنها

قد سبق منا كلام موجز فى ذلك أواخر الجزء الثانى من هذا الكتاب وحيث إنا بصدد تعداد معارفهم ، وذكر علومهم الفطرية ، اقتضى إعادة الكلام بأبسط مما ذكرناه أولاً . اعلم أن العرب كانوا فى معرفة شؤون الخيل وأحوالها بمنزلة لم يصل إليها غيرهم وربما بقيت هذه المعرفة فى أفراد منهم إلى اليوم جائلين فى الفيافى والفلوات فيعرفون أدواءها ودواءها معرفةَ حاذق متقن ، ولهم فى ذلك قدم راسخة ، وباع طويل ، وروت عنهم ثقات الرواة أخباراً طريفة تستلذها الاسماع ؛ وقد جمع ما ورد عنهم فى هذا العلم ، وما شخصوه من أدواء الخيل ، وسائر ذوات الاربع مع وصف دوائها على أتم وجه وأبينه .

وقد وجدت منه نسخة سقيمة الخط ، غير مأمونة من الغلط ، فى خزانة كتب (المدرسة الاحمدية) إحدى مدارس بغداد المحمية ، فأمعنت النظر فيها ، والتقطت منها بعض الفرائد وغرر الفوائد ؛ وفى هذا العلم كثير من التصانيف القديمة والحديثة ؛ ومن أحسنها وضعاً ، وأتمها جمعا ، (كتاب الخيل) لابى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافىّ رحمه الله تعالى فانه لم يهمل فى كتابه هذا شيئاً مما يتعلق بالخيل وغيرها من الدواب ، وقد ذكر طرفاً من عيوبها ، وما يستحب منها فى بابين من ذلك الكتاب ، ولعظم ما يترتب على هذين البابين من النفع للقارئين لخصتهما فى هذا المقام رجاء المثوبة والفوز بالمغفرة .

عيوب الخيل

العيوب فى الخيل لا تحصى بعدّ ، ولا تعرف بحد ، فان كل عضو من أعضائها من الممكن أن يعرض له ما يعيبه أو يحسنه ، غير أن الذى ثبت عن العرب تسميته مائة عيب : فى جريها أربعة وعشرون ، وفى خلقتها ستة وخمسون وعشرون حادثة ، فأما التى فى جريها « فالطموح » وهو السامى ببصره صُعُداً فلا

يبالى أين وقعت قوائمه « والمنكس » وهو الذى إذا جرى طأطأ رأسه من ضعف خلقته « والجموح » الصلب الرأس الذى يعتز فارسه على رأسه حتى يغلبه « والمُعتزم » وهو الذى يجمح أحياناً وَيَدَعُ الجماح أحياناً « والغرب » وهو المدّاد المترامى الذى لايُوَرِّعه الكف حتى يبعد بفارسه « والشموس » هو الذى يمنع السرج والمس « والحرون » هو الذى إذا درّ جريه قام لاعن كلال « والبالح » إذا انقطع جريه ضعفاً « والضغن » وهو الذى يَتَلَكَّأ[1] ويتوقف فى الُحضْر ويقصر عن الحران « والخفّاش » وهو المتنسب حضراً ثم يرجع القهقرى « والرّوّاغ » وهو الذى يجدّ فى حُضْره غير مستتب يميناً وشمالاً « والفَيُوش » وهو الذى يظن به جرىٌ وليس عنده شىء « والحبوص » وهو الذى يعدل يميناً وشمالاً فى استقامة حضر « والمشتق » وهو الذى يدع طريقه ويعدل ثم يمضى على عدوله لايروغ ولا يحيص « والشبوب » وهو الذى يقوم على رجليه ويرفع يديه « والعاجِر والمُعاجر » وهو الذى يعجر برجليه كقِمُاص الحمار وهو أن يرفع رجليه ثم يضعهما معاً « والعَذُوم والعضوض » وهو الذى يعض ماسايره « والشادخ » وهو الذى يعدل عن طريقه ولا يبالى ماركب « والجرور » وهو البطىء إعياء وقطافا فَيُجَرّ بالحبل « والمُنعَثِل » وهو الذى يفرّق بين قوائمه فإذا رفعها كأنما يَنزعها من وَحل يخفق برأسه ولا تتبعه رجلاه « والجربذ » وهو الذى يقارب الخطو يقرب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعاً شديداً . قال الشاعر :

جربذتْ دونها يداك وأزرى بك لؤم الآباء والأجداد[2]

« والمشاغر » وهو أن تطمح قوائمه جميعاً متفرقة ويكون بعيد القدْر ولا ضَبْرَ له[3] « والمتراد » هو أن ينقص حضره من ابتداء مايجرى « والفاتر » هو الذى عجز عن نفسه وفتر فى حضره ولم تساعده قوائمه على مايطالب به

(١) تلكأ عليه اعتل . وعنه أبطأ (٢) يقول : ضعف جريك لما سابقت وتقارب خطوك فعل الفرس المجربذ الذى لايقوى على رفع قوائمه من الأرض شديدا ولحقك ضعف بآبائك وأجدادك ولؤمهم . (٣) الضبر : الوثب

نفســه « والموكل » وهو الذى لايسير إلا بسير غـيره وفيه وكال « والخروط » وهو الذى يخرط رسنه عن رأسه « والرّموح » وهو الذى يرمح بإحدى رجليه « والضروح » وهو الذى يرمح بكلتيهما . وهذه الأربعة ليست من الباب ، وإنما بعضها من سوء العادة وفساد الرياضة .

العيوب التى تكون خلقة فى الخيل

وهى ستة وخمسون عيبا « الأخذَى » وهو المسترخى أصول الأذنين على الخدين « والأمعَر » وهو الذى ذهب شعر ناصيتـه حتى لم يبق منه شىء « والأسفى » وهو الخفيف الناصيـة وهو محمود فى البغـال « والأغم » وهو الذى تغطى الناصية عينيه « والأسعف » وهو الذى فى ناصيته بياض « والأحول » وهو الذى ابيض مؤخر عينيه وغار السواد من قبل مآقيـه « والأزرق » الذى فى إحدى عينيه بياض أو فيهمـا « والأقنى » وهو الذى فى أنفه احديداب « والمغرب » وهو الذى تبيض أشفـار عينيه مع زرقها « والأدنّ » وهو الذى اطمأن عنقه من أصله « والأهنع » وهو الذى اطمأن عنقه من وسطها « والأقصر » وهو الذى فى عنقه قصر وَيَبْسٌ معطف « والأكتف » وهو الذى فى أعـالى كتفيه انفراج وانـكشاف « والأزور » وهو أن تدخل إحدى فَهْدَتَىْ[1] صدره وتخرج الأخرى « والأقعس » وهو المطمـئن الصُّلب من الصهوة[2] المرتفع القطاة والحارك « والأبزخ » وهو المطمئن الصلب والقَطاة « والمخطف » وهو الذى لحق ماخلف مَحْزِمه من بطنه « والأهضم » وهو المستقيم الضلوع الذى دخل أعاليه « والصَّقِل » وهو الطويل الصُّقْلَة « والأنجل » وهو الذى خرجت خاصرته ورقّ صِفاته وهو جلد البطن « والأفرق » وهو الذى أشرفت إحدى وركيه على الأخرى « والأرسح » وهو القليل لحم الصّلا وهو ما أسهل من جانب

(١) فهدتا الفرس : لحمتان ناتئتان فى زوره . (٢) مقعد الفارس

الورك « والأعصل » وهو الملتوى عسيب الذنب حتى يبرز بعض باطنه الذى لا شعر عليه « والأكشف » وهو الذى التوى عسيب ذنبه حتى يصير على إحدى كاذتيه وهما لحم أعالى الوركين « والأصبغ » وهو المبيض الذنب « والأشعل » وهو الذى فى عرض ذنبه بياض « والأشرج » وهو ذو بيضة واحدة « والأفحج » وهو الذى تباعد كعباه « والأبد » وهو الذى تباعدت يداه « والأصك » وهو الذى يصطك كعباه إذا مشى « والأحلّ » المنمسح النّسا الرخو الكعب « والأقفد » وهو المنتصب الرُّسْغ المقبل على الحافر وهو فى الرجل خاصة «والأصدف » وهو الذى تدانى ذراعاه وتباعد حافراه فى التواء الرسغين و « الْمُوَجَّه » وهو الذى به قليل صدَف قدر ما يشك فيه « والأقدر » وهو الملتوى الرسغ من عرضه الوحشىّ [(١)] « والأقسط » وهو الذى رجلاه منتصبتان غير منحنيتين « والأمدش » وهو المصطكّ بواطن الرُسْغَيْن من شدة القدع « والأحنف » وهو الملتوى الحافرين يقبل كل واحد منهما على صاحبه فى التواء الرسغين « والمتلقف» وهو الذى يخبط بيده فى استقامة لا يقبلها نحو بطنة « والأرجز » وهو المضطرب الرجل والكفل فإذا اضطر بت فخذه « والشَّخْت » القليل اللحم الحمش العظام [(٢)] « والرطل » وهو الضعيف الخفيف « والمكبون » وهو القصير الدوارج أى القوائم القريب من الأرض الرحيب الجوف « والعش » وهو الضاحى العظام أى ظاهرها لقلة لحمه « والسَّغِل » وهو الصغير الجسم . قال سلامة يصف فرساً :

ليس بأسفى ولا أقنى ولا سَغِلٍ يعطى دواء قفىّ السَّكْنِ مربوبِ [(٣)]

« والجأب » وهو القصير الغليظ . قال أبو دُؤاد :

أسيل سلجم المُقْ بل لا شَخْتٍ ولا جأبِ [(٤)]

---

(١) الايسر (٢) اى الدقيق العظام (٣) يقول : ليس هذا الفرس بخفيف الناصية ولا صغير الجرم ولا من الخيل التى فى انوفها احديداب ، وهو يؤثر بما يعد لمن يكرم من أهل البيت ويربى بمختار الطعام . (٤) يقول : رقيق الخد مستطيله مصدر غليظ المقدم لارقيق العظام ولا غليظها .

« والملواح » وهو الصغير السريع العطش « والصلود » وهو البطىء العرق « والضاوى » وهو الذى أضواه [١] أبواه « والمقرف » وهو الذى أمه عتيقة وأبوه غير عتيق « والهجين » وهو الذى أبوه عتيق وأمه ليست كذلك « والمحمق وهو الذى لا ينتج منه إلا أحمق » والكوسِىّ وهو الذى إذا جرى نكس فى إقراف كالحمار « والجاسىّ » وهو الذى ترى معاقده وفَقَار ظهره [٢] وعنقه فى تمعكه [٣] وتمرغه جاسية غير لينة .

العيوب الحادثة فى الخيل

وهى على ما سبق عشرون « الانتشار » وهو انتفاخ العصب اللاتعاب حتى تنفتق وشائجه « والشَّظَى » وهو تحرك العظم اللاصق بالركبة « والفتوق » وتسميه العامة البيض وهو انفتاق من العصب على الأوظفة ويشدها كالمسامير عليها « والدخس » وهو ورم فى أطْرة الحافر « والزوائد » أطراف عصب تفرق عند العجاية « والعرن » جُسُوءٌ وييبس فى رسغ الرجل خاصة لشقاق أو مشقة فيرم « والشقاق » تبزل يصيبه فى أرساغه وربما ارتفع إلى أوظفته ويسمى (الحلاوة) . « والجَرَذ » ما حدث فى عرض عرقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصل طولاً كالموزة « والملح » انفتاق من العصب أسفل العرقوب لمادة تنصب إليه كالبلوطة « والقمع » عظم قمعة العرقوب « والمشش » وهو كل ما شخص فى الوظيف وله حجم وليست له صلابة العظم « والارتهاش » وهو أن يصك بعرض حافره عرض عجايته من اليد الأخرى وربما أدماها وذلك لضعف يصيب يده « والرهصة » وهو ماء يصير فى الحافر « والوجى » وهو ما يصيب الحافر من الخشونة والحجارة تأكله « والرَّقق » وهو ضعف ورقة فى الحافر « والنملة » وهو شق فى الحافر من الأشعر إلى طرف السُّنْبك « والسَّرطان »

(١) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو الهزال (٢) الفقار : ما انتضد من عظام الصلب ، من لدن الكاهل الى العجب (٣) التمعك : التمرغ وهو التقلب والتلوى من وجع يجده .

وهو داء يأخذ فى الرسغ فييبس عروقه حتى يقلب حافره (والعزل) وهو أن يعزل ذنبه فى شق عادة (والخباق) صوت من ظبية الأنثى (والبَجَر) وهو أن تكون الرَّهَابة غير ملتئمة فيعظم ما والاها من جلد السرَّة (والرَّهَابة) عظم مشرف على البطن .

محاسن الخيل وما يستحب فيها من الخلق

مما يستحب فيها الأذن المؤلّلة[1] والناصية المعتدلة ، التى ليست بسفواء ولا غماء[2] ، والجبهة الواسعة ، والعين الطامحة السامية ، والخد الأسيل ، ورحب المنْخُرَيْن ، وهَرت الشِدْقَيْن[3] وقَوَد العنق[4] ولينها حتى لا تكون جاسية ، ورقّة الجحْفَلتين[5] ، وارتفاع الكتفين ، والحارك والكاهل ؛ ويستحب أن يشتد مركب عنقه فى كاهله لأنه يتساند إليه إذا أحضر ، وعِرَض الصدر ، وضيق الزَوْر[6] ، وارتفاع اللَّبان[7] وأن يشتد حَقْوُه[8] لأنه معلق وركبه ورجليه فى صلبه ، وعظم جوفه وجنبيه ، وانطواء كشحه ، وإشراف القَطَاة وقصر العسيب ، وطول الذَنب ، وشنج النَّسا (وهو التقبض فى الجلد وغيره واستواء الكفل حتى لايكون أفرق) وملاسة الكفل ، وقصر الساقين ، وطول الفخذين ، وتوتير الرجلين حتى لا يكون أقسط[9] وتأنيف العُرقوب[10] حتى لا يكون أقع ، وغلظ الرُّسغ ، وقصر الرُّسغ ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خضراً . والشواهد على ذلك من كلام العرب مفصلة فى محلها .

---

(١) المحددة (٢) السفواء : الخفيفة ، والغماء : الكثيرة الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا منه . (٣) الهرت : السعة . والشدق : جانب الفم (٤) القود : طول العنق (٥) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير . (٦) ملتقى اطراف عظام الصدر حيث اجتمعت (٧) الصدر (٨) كشحه (٩) هو الذى فى رجليه انتصاب (١٠) العرقوب : من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها . وتأنيفه : تحديد طرفه .

ما كان للعرب من العلم بخلق الإنسان

قد مرت على العرب شؤون وأطوار مختلفة ، وأدوار متباينة ، فى الترق والانحطاط ، فلا يمكن أن يستدل على أحوالهم بدور من أدوارهم بل أن لغتهم وشعرهم وأمثالهم تخبر عما كانوا عليه . فمن نظر إلى الكتب المؤلفة فى بيان خلق الإنسان ، وما ورد عنهم فيما اشتمل عليه بدن كل حيوان ، علم أن العرب فى سابق قرونهم كانوا ممن له إلمام ومعرفة بكيفية تركيب أجزاء البدن وترتيبها ، وما فيه من العروق والأعصاب والغضاريف والعظام واللحم ، وغير ذلك من أحوال كل عضو ، وما تركب منه ، وما أعد له من الوظائف والمنافع ، وهو العلم المسمى لدى المتأخرين (بعلم التشريح) فلا ينبغى أن نسلب عنهم هذا العلم بما حدث له من الاسم ! والكتب المؤلفة فى خلق الإنسان كثيرة ومن أحسن ما رأيت منها (كتاب خلق الإنسان) للإمام اللغوى أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى ، فإن كتابه جمع فأوعى حيث اشتمل على ترتيب سن الإنسان من حين ولادته إلى آخر عمره ، وأسماء جملة خلق الإنسان ، والرأس وما تركب منه وما له من الصفات ، والشعر وأقسامه وألوانه ، والأذن وما تركبت منه وأقسامها ، والوجه وما تركب منه ، والحاجب وأنواعه وما يحمد منه وما يذم ، والعين وأصنافها وطبقاتها ومجارى دمعها وغير ذلك مما اشتملت عليه ، والأنف وما تركب منه وبيان أقسامه ، والفم وما تركب منه ، والأسنان وعددها وأسماء أصنافها وأجزائها ومنابتها ، واللسان وما اشتمل عليه من الأجزاء والعظام التى فى أسفله ، والحلق وبيان ما فيه من اللغاديد ، واللغانين[١] والحنجرة[٢] والغلصمة[٣] والبلعوم ، والحلقوم واللحيان وبيان محلهما وأسماء ما تركبا منه ، واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر

---

(١) جمع لغدود ولغنون وهما لحمة فى الحلق (٢) الحلقوم (٣) اللحم بين الراس والعنق ، او العجرة على ملتقى اللهاة والمرىء او اصل اللسان .

أوصافها ، والعنق وماتركبت منه ، والمنكب والكتف وما اشتملا عليه ، واليد وما تركبت منه من العظام والأعصاب والعضلات والعروق وماوضع لذلك من الأسماء والأصابع وأسمائها وأجزائها ، والظفر وأقسامه وأسمائه ، والصدر وما تركب منه ، والثديان وما فيهما ، والجنبان وعدد أضلاعهما وأسمائها ومايلحق ذلك ، والبطن وما حوى ، والجوف وما اشتمل عليه من القلب والكبد والطحال والرئة والكليتان والمصارين والأمعاء والأعفاج[1] والحشى والحوايا[2] والكرش والمبعر وما فى هذه الجوارح من الأجزاء وأسمائها وأدواء البطن ومالها من الأسماء ، والظهر وماتركب منه من العظام والعصب والعروق وغير ذلك ، والركب وماتكونت منه ، والذكر وماتركب منه ومغرزه وما وضع لذلك من الأسماء ، والأنثيين وأسماء مافيهما من الأجزاء ، و بيان ما يعرض لذلك من الأدواء والعلل ، والفرج وما تركب منه وأسمائه ، وما انفردت به المرأة دون الرجل ، والرحم وموضعه وماتركب منه ، والوركين ومافيهما ، والدبر ومافيه ، والفخذين وما فيهما من الأجزاء وأسمائها ، والساق ومافيه ، والقدم وما اشتملت عليه ، والحمل والولادة وما يتعلق بذلك ، وقد أطنب المؤلف فى بيان كل واحد مما ذكر ، و بين موضعه ، وما اشتمل عليه ، وما وضع له من لغة العرب ، واستشهد على ما ادعاه بالشعر الجاهلىّ ، وذلك مما لايشك الواقف عليه أن للقوم الباع الطويل فى هذا العلم إذ لولاه لم يمكنهم الوقوف على مثل هذه الدقائق ، ووضع الأسماء لها ، لاسيما القلب ومافيه من العجائب ، ولغات الأمم شهود عدول على أحوال أربابها ومن علومهم :

(١) جمع عفج بفتح فسكون وهو مايصير الطعام اليه بعد المعدة (٢) الأمعاء

علم الرمى بالسهام

وهو علم يتعرف منه رمى النبال بالمزاولة ليكون عملها على وجه الإصابة ؛ وكان للعرب مزيد اعتناء بتعلم هذا العلم بالتلقى والعمل ، فإن القسىّ والرمى بالسهام كانت من أنكى أسلحتهم ، ولم تزل كذلك إلى أن ظهر ماظهر من الأسلحة ؛ وقد ألف أهل الفضل قديماً وحديثاً فى علم الرمى بالقوس رسائلَ كثيرةً نظماً ونثراً ، و بينوا فيها كيف يقف الرامى ، وكيف يمسكها ، وحال الرمى قرباً و بعداً ارتفاعا وانخفاضاً ، و بيان أحوال السهام ، و برى النبال ، وغير ذلك مما هو مفصل فى هاتيك الرسائل ؛ وهذا العلم فى الشريعة معتنى بشأنه ، وقد وردت نصوص فى الحث على تعلمه ؛ والمقصود من ذلك تعلم كل مايعين فى الحرب ، و يكون من عدده وفنونه ، وكان العرب يتسابقون فى أشياء كثيرة ، ولهم لعب شهيرة مشحون منها كتب اللغة وقد أبطل الشرع السَّبَق (بفتح الباء) وهو المال الذى يؤخذ على المسابقة فى جميعها إلا ما استثناه الحديث وهو قوله عليه السلام (لاسَبَق إلا فى خف أو حافر أونصل) أراد بالخف المسابقة على الإبل ، وأراد بالحافر المسابقة على الخيل ، وأراد بالنصل المراماة بالسهم ، كل ذلك أباح فيه الخطر الذى كان عليه العرب أيام جاهليتهم لما فى ذلك من المصالح والفوائد التى تعين فى الحرب ، وتستوجب الفروسية ، و يجترئ بها الإنسان على المناضلة والنزال ، والسبق فى غير الأخير قد مرّ بيانه أثناء الكلام على الخيل ، وأما السبق بالنصل وهو المراماة بالسهم فهذا ملخص الكلام عليه من كتاب (عيون الفنون) و بالله نستعين :

المراماة بالسهم والسبق بالنصل

إعلم أن الإصابات على سبعة أوصاف . ذكر الإمام الشافعى رحمه الله تعالى منها أربعاً ، وذكر أصحابه ثلاثاً ؛ أما ماذكره الشافعى فالخاصل والخازق والخاسق

والحابى : فالخاصل الذى يقرع الشنّ[1] ولا يخدشه ، والخازق الذى يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذى يثقبه ويثبت فيه ، والحابى أن يدنى الرامى يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الغَرَض[2] ؛ وأما ما ذكره الأصحاب فالمارق والخارم والمزدلف : فالمارق الذى يمرق الشن أى يثقبه و ينفذ فيه ، والخارم الذى يخرم طرف الشن أى يقطعه ، والمزدلف الذى يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الغرض .

النضال وأنواعه

النضال يتنوع ثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة ، فالمبادرة أن يشترطا إصابة عشرة من عشرين فيبتدر أحدهما إلى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة أن يقولا نرمى عشرين رشقاً على أن من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فاذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر إن استويا فى الإصابة لم يحصل النضل ، و إن تفاوتا فى الإصابة حط الأقل عن الأكثر ، فإن بقى لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، و إن بقى له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل ؛ والمناضلة أن يشترطا عشرة من عشرين على أن يستوفيا جميعاً فيرميان معاً جميع ذلك ، فإن أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، و إنْ أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها فقد نضل صاحبه .

القوس وما وضع لها ولأجزائها من الأسماء

كانت العرب تتخذ القسىّ من شجر الضَّال والنبع والشَّوْحط والسدر والشِّرْيان والسراء والتين والأشكل والحماط والتَّالب والنَّشَم . وحيث كانت القوس لدى العرب بما ذكرناه من المنزلة وضعوا لها ولأجزائها أسماء كثيرةً ،

---

(١) القربة الخلق الصغيرة (٢) الهدف يرمى فيه

ذلك شأن كل ما كان لهم به اعتناء ، ولحظوه بعين العناية ، فقالوا : القوس وكبدها ما بين طَرَفَى العِلاقَة ، والكُلية تلى ذلك ، ثم الأبهر يلى الكلية ، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل ، والسِّيَة ما عُطِف من طَرَ فيها ويدها أعلاها ورجلها أسفلها والعَجْس والمِعْجَس مقبضها ، وإنسيها ما أقبل على الرامى ، ووحشيّها ما إلى الصيد ، والفرض والفرضة الحزة التى يقع فيها طرف الوتر المعقود ، ومافوق الفرضة الظفر ، والكُظْرة والنعل العقبة التى تلبس ظهر السية ، والجلائز العقب على طائفيها وأصول سِئَتَيْهَا ، والخِلَلُ الجلود التى على ظهر السئتين ، والمذروان ما عن يمين المقبض وشماله ، والرصائع السيور المضفورة تشد إليها العلاقة وهى التى علقت به ، والغِفارَةُ رقعة على الفرضة والسِّية ليلف فوقها إطْنابة الوتر ، وهى سير يوصل بطرف الوتر ، قال الشاعر :

لها إطْنابَةٌ ولها فضولٌ ثلاثُ على الغِفارَةِ من مُعالِ [1]

أى من فوق . والشِّرْعة الوتر ، والدُّرْكة حلقة الوتر التى تقع فى الفرضة ، والعَتل القسىّ الفارسيّة ، وقوس فِلْق وشريجة إذا كانت من شقة لاغصن صحيح والقضيب التى من غصن صحيح ، وقوس فَجّاء وفَجْوَاء ومُنْفَجّة ، وفارج وفُرُج بانَ وتَرُها عن كَبِدها ، ويفعل ذلك بالتى للقتال لا الصيد يحتبس صاحبها بالتفريق ، والكَتُوم التى ليس فيها شق ، والعاتكة التى احمرت قدماً ، والجَشْء الخفيفة ، والمِجْدلة التى فيها ميل ، وزاغت انقلبت عن عطفها الذى عطفت عليه ، وقوس عاطل ومعطلة بلاوتر وقد وترتها وحططت وترها ، وحط قوسك وانبضت عنها قرعتها للوتر ، ويقال أطَرْت القوس أى عطفتها وحنوتها وهى حنية . ويقال للقواس الماسخىّ وأصله لرجل من أزد السَّراة ، ثم اتسع فيه كما قيل لكل حداد هالكى ، قال الجعدىّ :

---

(١) يقول : لهذه القوس موصول مطرف الوتر ولها جلود تلف على الرقعة الجامعة لفرضتها وسلتها .

بعيسٍ تَعَطَّفُ أعناقُها كما عَطَّفَ الماسخيُّ القياسا (١)

وتقول نزعت فى القوس ورميت عنها وعليها وبها ، وعروتا الوتر عقداه .

السهم وما وضع له من الأسماء وما يتعلق بذلك

السهم والنُّشَّاب والمنزع والنبل سواء ، إلا أن النبل جمع لا واحد له من لفظه ، ويجمع على نبال . والمِرْماة سهم الهدف ، والمِرِّيخ سهم طويل له أربع آذان يُغالى به . قال الجعدى :

يَمُرُّ كمِرِّيخِ المغالى انتحتْ به شمالُ عباديٍّ علا الريح أعسرا

(يقول : يمر هذا الفرس مر هذا السهم إذا أعمله فى رميه يد رجل من هذه القبيلة أعسر ترمى شماله فتعين الريح على رفعه) والمِعْبلة والمِشْقَص سهم عريض النصل ، وخشبه قبل أن يعمل نَضِىٌّ وجمعه أنضاء فإذا خرق موضع نصله فهو قِدْح . والمَخْشوب الذى لم يتم عمله ، وفوق السهم برد طرفه وجعل له فُوق وهو موضع الوتر ، وإنفاق السهم انكسر فُوقه ، وشرخا الفوق جانباه ، والأُطْرَة العَقَب الذى على الفُوق ، والحَقْو موضع الريش ومستدقّه ، والزافرة مستغلظه والمتن وسطه ، والرُّعْظُ الخرق الذى يدخل فيه سِنْخُ النَّصْل ، والعَقَب الذى فوقه الرِّصاف والواحدة رَصَفَةٌ ، ويقال برى القوس والسهم بريا ، والطريدة قصبة يوضع فيها السكين فتبرى بها القداح والمغازل ، والقذذ ريش السهم ، والأقذ السهم الذى لا ريش له . والمريش ذو الريش ، وراش سهمه بظهار لؤام إذا صير بطن قذة وهو الشق الأطول إلى ظهر أخرى وهو الأقصر فيلتئم ، فإن التقى بطنان أو ظهران فهو ريش لغب ولُغاب ، قال بشر :

وإنَّ الوائليَّ أصاب قلبى بسَهْم لم يَكُن يكسى لُغابا (٢)

---

(١) يقول بابل بيض تنحنى فى السير أعناقها كانحناء هذه القسى التى يحنوها هذا القواس (٢) ويروى :

فان الوائلى أصاب قومى بسهم ريش لم يكس اللغابا

والمعراض سهم لا ريش عليه يذهب عرضاً ، والنكس الذى انكسر فوقه فجعل أسفله أعلاه فلا يزال ضعيفاً ، ويشبه به الرذل من الناس ، والمحشور والحشر اللطيف القذذ ، ونبل قران وصيغة مستوية ، والمربظ الذى تمرط ريشه وجمعه مراط وسهم طائش لا يقصد ، ومعظعظ مضطرب ، وزالج يمر على وجه الأرض ، وصادر نافذ ، وحابض يقع بين يَدَى الرامى لخروج الفُوق من الوتر ، والدابر سهم يدبر الهدف دبراً أى يقع وراءه ، وصائف عادل عن الهدف ، وطالع يتجاوزه وقاصره لا يبلغه ، قال الشاعر :

فما بُقْيَا علىَّ تركتمانى ولكنْ خفتما صَرَد النبال [1]

والخاسق والخازق المقرطس جميعاً ، ويسمى الغَرَض قرطاساً يقال : رمى فقرطس إذا أصابه ، والأهزع سهم يبقى فى الكنانة ، ونصل السهم حديدته وله العير كالجُدَيِّر وسطه . وفى الصحاح : عير النصل الناتىْ منه فى وسطه ، وظُبَتُهُ وقُرْنته وحدُّه وشَفَرْتاه وغِراره حداه ، والكليتان ما عن يمينه وشماله ، والقطبة نصل الهدف ، وكذلك القترة والسِّرْوة ، ونصل مُدَمْلكٌ ليس له عَرْض ، والقِطْع : القصير العريض الحديدة ، وما يحفظ فيها السهام تسمى الجعبة والوفضة والكنانة . والقرن والجفير جعبة مشقوقة فى جنبها ، وإنما يفعل ذلك لكى تدخل الريح على السهام فلا يأتكل ريشها . والله ولى التوفيق . ومن علومهم :

علم نزول الغيث

هو علم باحث عن كيفية الاستدلال بأحوال الرياح والسَّحَاب والبرق على نزول المطر ، والعرب لهم مزيد اختصاص بهذا العلم لأنهم أحوج الناس إلى الغيث إذ به حصول معايشهم من السقى والرعى ، وقد حصل لهم هذا العلم بكثرة التجارب ، ودليله الدروان بين أحوال السحب والأمطار ؛ وقد ذكرنا عند الكلام على مخايل العرب فى الأنواء من كلامهم ما يوضح المقصود ويثبته ،

(١) يقول : لم تتركانى وتتركا قتالى طلبا للابقاء على ولكن خفتما سهامى التى تنفذ فيكما .

ومالم يذكر من منظوم كلامهم ومنثوره فى هذا الباب شىء كثير ! وفى الأغانى[1] لأبى الفرج الأصبهانى بسنده قال : خرج أعرابى مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له ، لرعى غنم لهما فقال الشيخ : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى فقالت : أراها كأنها ربرب[2] معزى هزلى ، قال : ارعى واحذرى ، ثم قال لها بعد ساعة : إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى ، قالت : أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها ، قال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة ثم قال : إنى لأجد ريح النسيم قد دنا فانظرى ، قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر ، فقال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة فقال : إنى لأجد ريح النسيم فما ترين ؟ قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مسِفٌّ فويقَ الأرض هَيْدَبُهُ يكاد يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالرَّاح[3]
كأنما بين أعلاه وأسفله رَيْطٌ منشَّرة أو ضَوْء مصباح[4]
فمن بمحفله كمن بنجوته والمستكنّ كمن يمشى بِقِرْواح

فقال : أنجى لا أبا لك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما . ثم أخذ أبو الفرج يشرح تلك الألفاظ ؛ وملخص ذلك : أن الأصحر : الأبيض وفيه حمرة ، ومعنى فمن بمحفله كمن بنجوته : فمن هو بمحفله أى مجرى معظم السيل كمن بنجوته أى ناحيـة عنه سواء لـكثرة المطر ، والقرواح الفضاء ، ومن تتبع كتاب الأغانى يجد كثيراً من ذلك ، وحيث إن الرياح وأوصافها ، والسحب وأنواعها ، والرعد والبرق ، من جملة ما يستدلون به على هذا العلم ، ويتوصلون به إلى معرفة نزول الغيث ، لابد من التعرض لذكر نبذة مما ورد عنهم فى هذه الأمور مما رواه ثقات الرواة :

---

(١) ج١٠ ص ٦ ـ طبعة مطبعة التقدم بمصر (٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش (٣) المسف : الدانى من الأرض . والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة . (٤) الريط : جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق .

الرياح وأوصافها

وأمهات الرياح أربع : الشمال ، والجنوب ، والصَّبَا ، والدبور ؛ وبذلك نطقت أشعارهم « فالشمال » مهبها من كرسى بنات نعش إلى مغرب الشمس صيفاً ، وكانت العرب تكرهها لبردها وذهابها بالغيم والحيا والخِصْب بزعمهم ، وهى عندهم الشامية ، ولم تزل العرب تتمادح بالإنفاق والكرم إذا هبت هذه الريح « والجنوب» مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس شتاء « والصَّبَا » مهبها من مطلع الشمس إلى مطلع العيوق وهو كوكب نيِّر أحمر شمال مطلع الثريّا قدر ثلاث قامات رمح أو أرجح نظراً للرائى ويسمى رقيب الثريّا ، وكانت العرب تحب الصبا من بين الرياح لرقتها ولأنها تجىء بالسحاب والمطر ، وفيها الرىَ والخِصْب وهى عندهم اليمانيـة . قيل : إنما سميت صبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها والصبوة الميل . يقال . صبا إلى كذا إذا مال إليـه ، وفى الأثر ما بعث نبىّ إلا والصَّبَا معه « وأما الدبور » فمهبها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل . وما بين كل واحدة من هذه الرياح الأربع نكباء وسميت بذلك لتنكبها طريق الرياح المعروفة . ولـكل من هذه الرياح صفات وخواص يعرفها ذوو الخبرة منهم ، وتفصيل ذلك فى كتب الأنواء . وقال الشيخ أبو عبـد الله الإسكافىّ فى كتاب المبادىء عند الـكلام على الرياح . الشمال عن يمين المصلى ، وبإزائها الجنوب ، والصبا من وراء المصلى ، والدبور تجاهه ؛ ولعل ذلك باعتبار بعض الأقطار ، وإلا فالأصل ما ذكرناه . ثم قال . وكل ريح عدلت عن مهابّ هذه الأربع فهى نكباء ، ونسمت الريح تنسم نسماً ونَسَماناً ضعفت فى استقامة من غير أن تحرك شجراً أو تعفو أثراً . ويقال للشمال الجِرْبياء ومَحْوة ونِسع ومِسع ، وفى الصحاح . الجربياء على فعلياء بالـكسر والمد النكباء التى تجرى بين الشمال والدَّبُور وهى ريح تقشع السحاب . قال ابن أحمر :

بِهَجْل من قساً ذفر الُخزَامى   تهادى الجِرْبياء به الحنينا(1)

وَللجنوب النّعامى والخزرج والأزيب والهيف ، وللصبا القبول وإيرٌ وهيِرٌ ، وأيرٌ وهَيْرٌ ، وقيل للدبور مَحْوَة ، ومن أوصافها الغالبة عليها : الديدانةُ اللينة كالنسيم ، والذاريات والمعصرات تجىء بالمطر ، وقيل . الساطعة بالسماء مستديرة ، واللواقح والبوارح والرُّخاء والجفول المسرعة . والجافلة والمُجْفَلُ والنائجة والُهوج والسوافى والَحزُوق والنُّؤُوج والمتذابة التى تجىء من هنا وثَمّةَ ، والمُسَفْسِفة تجرى على وجه الأرض ، والدَّروج هى التى يرى لها مثل ذيل الرَّسَن فى الرمل ، والَحجُوج والسَّيْهوج والسَّهوج والسَّهوك والَهفْهافة والَهبْوة والمذَعْذِعة وهدوج والهجوم والعاتية والعاصفة والمعصفة والقاصفة : التى تكسر كل شىء ، والزعازع والإعصار والَحنون والزفزافة والروامس والنافجة : أول كل ريح بشدة (الرياح الباردة) الحرجف والصرصر والعَرِيّة وخازم ، والبَليل فيها برد وندى ، والشّفان والهلاّب والنضيضة وهى التى تنضُّ بالماء فيسيل (الرياح الحارة) السُّهام والهيف والبارح والسموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار والمعمعان .

السحب وأنواعها

قد ذكر الثعالبى نبذة من أنواعه وأسمائها فى القسم الأول من كتاب لباب الآداب ، وكذا الشيخ أبو اسحق الطرابلسى فى الكفاية ، والاسكافىّ فى المبادىء وغيرهم من أئمة اللغة . فمن السحاب « العَماء » وهو الغيم الرقيق وكذلك الطخاء والطهاء « والصبر » السحابُ الأبيض « والَحبىُّ » السحاب الذى يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء . قال امرؤ القيس :

---

(1) الهجل : المطمئن من الارض ، وقسا : موضع بعينه . والخزامى : نبت طيب الريح . والذفر : الطيب الريح . وتهادى الجربياء : كثر حنينها ويروى « تداعى الجربياء » والبيت من أبيات لخلف فى وصف ظليم . راجع تهذيب المنطق للتبريزى ج١ ص٧٣ من الطبعة المصرية .

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مكلّل

والحبا كعصا مثله . ويقال سمى به لدنوه من الأرض « والنِّشَاص » السحاب المرتفع بعضه فوق بعض « والمكفهَرّ » السحاب الغليظ المتراكب والكَنَهْوَر نحوه « والجهام » وهو السحاب الذى قد أراق ماءه « والهف » الذى لا ماء فيه والزبرج نحوه « والصُّرّاد » سحاب بارد ندى وليس فيه ماء « والغمام والمزن » السحاب الأبيض « والرَّباب » السحاب الأبيض والأسود . وفى الكفاية : الرَّباب السحاب المتعلق دون السحاب « والسَّيّقُ » وهو السحاب الذى طردته الريح « والخَلَقُ » السحاب الذى يرجى منه المطر « والنجاء » السحاب الذى يسرع « والهَيْدَب » ما يتدلى من السحاب كأنه هدب القطيفة « والجِلْبُ[1] » السحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء . قال تأبط شراً :

ولستَ بجُلْبٍ جلب ريح وقرّةٍ ولا بصفا صلد عن الخير معزل[2]

وبعضهم يقول : هو السحاب الذى يعترض كأنه جبل وليس فيه ماء « والدجن » السحاب المطل على الأرض . قال أبو زيد : والدُّجُنَّة من الغيم المطبق تطبيقاً الرَّيان المظلم الذى ليس فيه مطر ، يقال يوم دجن ويوم دجنة ، وكذلك الليلة على الوجهين بالوصف والإضافة . قال : والداجنة الماطرة المطبقة نحو الديمة ، قال : والدجن المطر الكثير وسحابة داجنة ومدجنة وأدجنت السماء دام مطرها قال لبيد :

من كلِّ سارية وغادٍ مُدْجنٍ وعَشيةٍ متجاوبٍ إرْزامُها[3]

« والمرزم » السحاب المصوت بالرعد والإرزام صوت الرعد ، وكذلك الهزيم والمرتجس والأجش . وبعضهم يقول : هزيم الرعد صوته ، يقال تهزم الرعد تهزماً وغيث هزم متبعق لا يستمسك ، قال يزيد بن مفرغ :

---

(١) بالضم ويكسر (٢) يقول : لست برجل لانفع فيه ومع ذلك فيه اذى كذلك السحاب الذى فيه ريح وقر (أى برد) ولا مطر فيه . (٣) السارية : السحابة الماطرة ليلا . والمدجن الملبس افاق السماء بظلامه لفرط كثافته . والارزام : التصويت .

سقى هَزِمُ الإرعاد منبجسُ العُرى   منازلَها من مَسْرُقانَ فَسُرَّقا(١)

« والقاصب » السحاب الشديد صوت الرعد « والبارق » **السحاب الذى** فيه برق ، والقَلَعَة القطعة العظيمة من السحاب والجمع قلع ، قال ابن أحمر :

تفقأ فوقَهُ القَلَعُ السوارى   وجُنّ الخازِبازُ به جُنونا(٢)

والقَزَعُ قطع من السحاب رقيقة الواحدة قزعة . قال ذو الرُّمّة يصف ماء فى فلاة :

ترى عُصَبَ القَطَا هملاً عليها   كأنّ رعالَهُ قزع الجَهام(٣)

وفى الحديث : « كأنهم قَزَعُ الخريف » والضبابة سحابة تغشى الأرض كالدخان والجمع الضباب .

الرعد والبرق

من جملة ما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فإن الرعـد إذا أرزم أى صوّت صوتاً غير شديد استدلوا به على بعـد المطر ، واذا تهزَّم أى صوّت أشدّ صوت استدلوا به على قرب المطر ، والقعقعة تتابع صوته فى شدة وله دلالة أخرى على حال الغيث ، والرَّجسان وهو صوته الثقيل فإذا رَجَسَ علموا أن المطر يكون بشدة ، واذا أصعق أى رمى بالصاعقة وهى نار تسقط فى رعد شديد ، وإذا أزّ ورزّ أى صوّت الرعد من بعيد ، قال الراجز :

جارتنا من وائلٍ ألا اسلمى   ألا اسلمى أسْقِيتِ صوب الدِّيَمِ
صوبَ ربيعٍ باكرٍ لم ينم   يرزُّ رَزًّا من وراء الأكم

(١) مسرقان : نهر نحورستان عليه عدة قرى وبلدان يسقى ذلك كله ومبدؤه من تستر ، وسرق : كورة بالاهواز ومدينتها (دورق) . وموضع بظاهر مدينة سنجار . (٢) تفقأت السحابة عن مائها : تشققت وتبعجت . والسوارى : جمع سارية وهى السحابة الماطرة لبلا والخازباز : صوت الذباب سمى الذباب نفسه به . والهاء فى (فوقه) و (به) عائدة الى (هجل) فى البيت قبله وقد مر فى ص ٣٦١ . (٣) العصب : جمع عصبة وهى الجماعة من الناس والخيل والطير . وقوله « هملا عليها » أى سدى ترعى بغيرراع . والرعال : الجماعات . والجهام : السحاب الذى لاماء فيه أو الذى قـد هراق ماءه .

رَزَ الرَّوَايا بالمزَاد المُعصَم (١)

« وأما البرق » فمنه المستطير وهو المتفرق ، ومنه السلسلة وهى برقة دقيقة بالنهار ، ومنه الوميض وهو الضعيف من البرق ؛ ومنه الخافق وهو المضطرب ، والخفو لأخفى ما يرى منه ، ومنه المتكالح ، وهو المستديم المتتابع ، ومنه الرامح والماصع وهو السريع الخفيف ، ومنه الخُلَّب وهو الذى ليس فيه مطر كأنه يخلب من تشيمه (٢) أى يخدعه ، ومنه البرق المنعقق ، والانعقاق تشقق البرق ومثله التبوج ، وقد سبق فى الحديث وكثير من منثور العرب فى مخايل العرب فى الأنواء كيف استدلوا بذلك على الغيث ونزوله ، وما ذكرناه نبذة يسيرة ملخصة من كلام الأئمة فى بيان مقصدنا ، ومن أراد استيعاب ذلك فعليه بمفصلات كتب اللغة والأدب .

ما كان للعرب من المعرفة بعلم الملاحة

إعلم أن من العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القُلْزُم ، ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القُلْزُم ، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين ، وهنالك بلاد كثيرة من اليمن والحجاز وعمان والبحرين ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، وكان سكنة هذه الأقطار والبلاد كلهم من العرب ، ولهم متاجر فى الهند والحبشة والروم وغيرهم ، فكانوا ممن تمس حوائجهم إلى ركوب البحر ، ومعاناة سيره ، والقيام بمايعين على ذلك وهو (علم الملاحة) الذى أطنب المؤلفون الكلام عليه ؛ وفى عدة آيات من الكتاب الكريم دلالة على ركوبهم البحر ، وجرى الفلك بهم ، واهتدائهم

---

(١) يقول : يا أيتها المرأة المجاورة لنا من هذه القبيلة كونى فى سلامة وسقاك الله تعالى حيث حللت الحيا حتى تجنى ابلك ويسمن مالك مطرا لاينقطع ولا يغفل عن سقى محلك بصوت من وراء الجبال الصغار لشدة وطئه كصوت الروايا المملوءة ماء اذا اضطرب الماء فيها فسمعت له طبطبة كطبطبة السيل (٢) شام البرق : نظر اليه أين يقصد وأين يمطر .

فى سيرها إذا اشتد الظلام بنجوم السماء وكواكبه المعلومة لديهم ؛ وكذلك فى الأحاديث ما يفيد ذلك ، وفى شعرهم أيضاً مايستدل به على ما ذكرنا . قال عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته :

ملأْنا البَرّ حتى ضاق عنا　　وماء البحرِ نملؤه سَفينا

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبىٌّ　　تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا!

يقول عممنا الدنيا براً وبحراً فضاق البر عن بيوتنا والبحر عن سفيننا ، وإذا بلغ صبينا وقت الفطام سجدت له الجبابر من غيرنا ؛ وقال طرَفَةُ بن العبد البكرى :

كأنَّ حُدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً　　خلايا سفَينٍ بالنواصف منْ دَدِ[1]

عَدَوْليةٌ أومن سَفينِ ابن يامنٍ　　يجورُ بها الملاحُ طَوْراً ويهتدى

يَشُقُّ حُبابَ الماء حَيزومها بها　　كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ باليدِ[2]

العدولية : سفينة منسوبة إلى قرية فى البحرين يقال لها عَدَوْلَى ، وبعضهم يقول عدولى قبيلة من قبائل العرب والعدولى الملاح ، وابن يامن : رجل من أهل تلك القرية ، وروى أبو عبيدة (ابن نبتل) وهو رجل آخر منهم ، والشعر فى هذا الباب كثير ، وفى لغتهم أيضاً مايستدل به على ما ذكرناه : فالمركب اسم لما يركب فى البر والبحر ، والسفينة وهى الجارية من سفنه يسفنه قشره ، وسميت بذلك لقشرها وجه الماء جمعها سفائن وسفن وسفين ، وصانعها سفان . وحرفته السفانة . والدسار واحد الدسر وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة . ويقال هى

---

(١) الحدوج : جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة الى بنى مالك قبيلة من كلب . والخلايا : جمع خلية وهى السفينة العظيمة . والسفين : جمع سفينة والنواصف : جمع ناصفة وهى أماكن تتسع من نواحى الأودية مثال السك وغيرها . ودد : قيل اسم واد فى هذا البيت . وقيل : دد مثل يد اللهو واللعب . (٢) حباب الماء : أمواجه الواحدة حبابة : والحيزوم : الصدر . والفيال : ضرب من اللعب وهو ان يجمع التراب فيدفن فيه شىء ثم يقسم نصفين ويسأل عن الدفين فى أيهما هو ؟ فمن أصاب قمر ومن أخطأ قمر . شبه الشاعر شق السفن الماء بشق المفايل التراب المجموع بيده .

المسامير. وفى التنزيل (وحملناه على ذات ألواح ودُسُر) ودُسُر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر . . قال بشر :

مُعَبَّدَة السقائف ذات دُسْرٍ   مُضبَّرة جوانبها رداح[1]

والمجداف ما تجدف به السفينة ، قال ابن دريد : مجداف السفينة بالدال والذال جميعاً لغتان فصيحتان ، وهومأخوذ من جدف الطائر يجدف جدوفاً إذا كان مقصوصاً فرأيته إذا طار كأنه يردّ جناحيه إلى خلفه والقِلْع بالكسر الشِّراع والجمع قلاع ، قال قائلهم :

يكبّ الخلية ذات القلاع   وقد كاد جُؤجُؤها ينحطم[2]

وسفن مُقْلَعَات إذا كان لها قلاع ، وأقلعت السفينة رفعت شراعها ، والشراعة كالملاءة الواسعة فوق خشبة تصفقه الريح فتمضى بالسفينة ، جمعه أشرعة وشرع ، والدّقل سهم السفينة وأصله الأول . والفلس حبلها ويسمى الجمل وهو حبل ضخم من ليف أو خوص من قلوس السفن والجؤجؤ صدرها ، والكَوْثَلُ ذنبها . والمردي والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة ورأسها فى الأرض ، قال شاعرهم :

وجارية قعدتُ على صلاَها   أدارىء صَدْرَها بالقيقلان[3]

والمرساة آلة ترسى بها السفينة وتسميها الفرس (لنكر) وهى حديدة تلقى فى الماء متصلة بالسفينة فتقف ، والمَرْساة بفتح الميم البقعة التى رست فيها السفينة . والرُّبّان بالضم رئيس الملاحين كالربانى ، والنُّوتى الملاح والجمع النَّواتى ، والعركىّ الملاّح أيضا ، والملاح الذى يلى الشراع ، والملاح ككتاب ريح تجرى بها السفينة والنوْلُ جُعْلُ السفينة . إلى غير ذلك مما هو معلوم للمتتبع ؛ ومن أسماء السفينة : الفلك ، والقُرْقُور . والجارية . والخلية . أسماء للسفينة الكبيرة . ومن أسماء الصغيرة

(١) المعبدة : السفينة المقيرة . والرداح : الواسعة (٢) الخلية : السفينة العظيمة . والجؤجؤ : الصدر . وينحطم : ينكسر (٣) يقول : ورب سفينة قعدت على مدفرها أقوم مقدمها بالمجداف .

الزورق والبوص وقال الجوهرى : والبُوصىُّ ضرب من سفن البحر وهو معرب ، قال الأعشى :

مثل الفراتىّ إذا ما طمى يقذف بالبُوصىّ والماهر[١]

والقارب سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم . وعلم الملاحة علم واسع موقوف على معارف كثيرة : منها معرفة سموت الأبحر ، ومعرفة مهاب الرياح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها وسائر الأنواء ، ومعرفة مافى البحر من الجبال والجزر ، ومعرفة صناعة النجارة . فقد قال ابن خلدون : قد يحتاج إلى صناعة النجارة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر ، وهى أجرام هندسية صنعت على قلب الحوت ، واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ؛ وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل إلى آخر ما قال . وأنت تعلم أن السفن فى قديم الزمان ، لم تكن صناعتها متقنة كل الإتقان ، فماء ولا كصدّاء[٢]، ومرعى ولا كالسعدان[٣] .

كتابة العرب في الجاهلية

كتابة العرب فى الجاهلية مما دل عليه شعرهم ولغتهم ، قال لبيد بن ربيعة :

وجلا السّيولُ عن الطلُول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أقلامُهَا

يقول : وكشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها ؛ شبه كشف السيول عن الأطلال

(١) الفراتى : الماء المنسوب الى الفرات . وطمى : ارتفع . والبوصى : يطلق على الزورق وعلى الملاح . والماهر : السابح المجيد . (٢) مثل يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضل عليه غيره . أى هذا مما لابأس به ولكن ليس كماء صداء وهى بئر أوركية لم يكن عند العرب ماء أعذب من مائها . (٣) يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله . والسعدان : نبت أخثر العشب لبنا واذا خثرلبن الراعية كان افضل مايكون واطيب وادسم . ومنابت السعدان السهول وهو من أنجع المراعى فى المال ولا تحسن على نبت حسنها عليه .

التي غطاها التراب بتجديد الـكتاب الدارس ، وظهور الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها ؛ وقال رجل كندى من دومة الجندل يمن على قريش :

(و) تَجْحَدُوا نعماء بشير عليكم ⠀⠀ فقد كان مَيْمُونَ النقيبةِ أزْهَرَا[1]
أتاكم بخطِّ الجَزْم حتى حَفِظْتُمُ ⠀⠀ من المال ما قد كان شتى مُبَعْثَرَا
وأنفيتم ما كان بالمـال مهملاً ⠀⠀ وطامنتم ما كان منه مبقرا
فأجريتم الأقلامَ عوداً وبدأةً ⠀⠀ وضاهَيْتُمُ كتّاب كسْرَى وقَيْصَرَا
وأغنيتمُ عن مسند الحىّ حِمْيراً ⠀⠀ وما زبرتْ فى الصحف أقلام حميرا

فان أول من كتب بخطنا هذا (وهو الجزم) مرامرُ بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة كما فى القاموس ، وهم من طىء تعلموه من كاتب الوحى لهود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الـكتابة فى العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبـد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق فتعلم حرب منه الـكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان) فتعلم منه جماعة من أهل مكة ، فلهذا كثر الـكتاب فى قريش يومئذ فامتن الـكندى على قريش بذلك . وسمى خط العرب بخط الجزم لأن الخط الـكوفى كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الـكوفة لأنه جزم أى اقتطع وولد من المسند الحميرى ، ومرامر هو الذى اقتطعه . . وقد تـكلم الصُّولى فى (أدب الـكتاب) على هذه المسألة ، وأتى بباب مفيد لخص فيه ما ثبت لديه من الأقوال ، وكذا السيوطى فى المزهر ، وجماعة من أهل الأدب ؛ وكتب ابن خلدون فى مقدمته فصلاً مفيداً يتعلق بغرضنا ، وبين أن الـكتابة فى العرب كانت أعز من بيض الأنوق وأن أكثرهم كانوا أميين ولا سيما أهل البدو ؛ ومن قرأ منهم أو كتب كان خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ؛ لأن هذه الصناعة من الصنائع

---

(١) ميمون النقيبة . مبارك النفس مظفر بما يحاول

التابعة للعمران ، ولهذا قد كان الخط العربى بالغاً مبالغه من الإحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو الخط المسمى بالحميرى وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بالعراق ، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . قال : ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش . ويقال : إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية أو حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ؛ وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم وهو أمية بن أبى الصلت الثقفى :

قومى إياد لو أنهم أمم أولو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية ، وإنما معنى قول الشاعر : انهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها ، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال ؛ وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها متصلة ، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا باذنهم ، ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ، ولا مائلة إلى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة ، واستغناء البدو عنها فى الأكثر ؛ وكانت كتابة العرب بدوية وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو ، وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر ، فكان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والاتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة ، وبعدهم عن الصنائع ،

ثم قال : واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، والكمال فى الصنائع إضافى ، وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال ، وإنما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على مافى النفوس ؛ وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالا فى حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها ، وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية ، فان الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا .

فوائد لغوية تتعلق بالكتابة وآلاتها

من أدلة وجود الكتابة فى العرب مافى لغتهم من الألفاظ الموضوعة لآلات الكتابة والكتاب ، ولو لم يعرفوها لم يضعوا تلك الألفاظ لمعانيها ؛ فمن ذلك الدَّوَاةُ وجمعها دوًى وَدَوَيات وُدُوِىّ ، وقولهم لموضع المَليق مِمْلَقَةٌ خطأ والصواب ملاقَةٌ لأن المليق ميمه زائدة وهو من لِقْتُ الدواة ألقيها وألقتها ، والمليق اسم القطن أو الصوف الذى يلصق به المداد ، وهو من قولك لاقَ به الشىء يليق إذا لصق به فلا تدخل ميم زائدة على ميم أخرى مزيدةٍ : وسمى المداد مداداً لأنه يمد الكاتب ، ومددت الدواة صببت فيها ماء ومدها ، وتقول مُدَّنى أى أعطنى مَدّةً من الدواة . وقد خَثُرَت الدواة خُثُورة وَخثارة إذا ثَخُنَ نِقْسُها وهو المداد يقال نِقْس وأنقاس لقطع منه ، والقلم قبل أن تبريه أنبوبة فاذا بريته فهو قلم ، وما يسقط منه عند البَرْىِ البراية ، وبطْنت القلم رقَّقْت بطنه وأنْفته حدَّدت طَرَفَه ، وشباته حدّه ، ولَيَّطته إذا وضعت فى شقه ليطة توسع بها ضيقه ، والليطة قشر القصب . وقططته قطًّا ، والمِقَطُّ ما يُقَطُّ عليه ؛ والقَطُّ القطع عَرْضاً ، والقد أن يُقطع الشىء طولا ، ويقولون قلم رشاش ؛ وذلك إذا حاف الشق على أحد جانبيه

فدقّ وتعثَّر بِشَظايا الـكتاب ، ورشّش المداد ، وتقول كتبت كتاباً وهو مصدر ، ثم يسمّى المـكتوب على السّمَة كتاباً ، والـكتابة صِناعة الكاتب ، والطِّرْس الـكتاب الممحوُّ الذى يستطاع أن تعاد فيه الـكتابة ، والتطريس فعلك به ، وطَرّس الباب سوّده ، والطِّلْس باللام كتاب لم ينعم محوه فيصير طِرْساً ، والمَجْمَجَةُ تخليط الـكتْب وإفساده بالقلم كالجَمْجَمة باللسان ، وهو أن لا يُبيّن الكلام من غير عىّ ، والصُّحُف ما كان من جلود ، والقِطُّ الـكتاب ، والجِـلة صحيفة كانوا يكتبون فيها الحـكمة . قال النابغة :

مَجَلَّتُهمْ ذاتُ الإلهِ ودينهم   قويمٌ به يرجون خـير العواقب(١)

والعُهْدة كتاب الشراء ، وكتب له منشوراً وهو ما لا يُشَدُّ ، ورُجْعة الـكتاب ورُجْعانه جوابه ، ويقال أجابه فى هامشة كتابه إذا كتب بين السطرين وهو من قولك تهامش القوم إذا دخل بعضهم فى بعض ، وهَمَشَ الجراد إذا تحرك ليثور ؛ وتقول نَقَطْتُ الـكتاب وأعجمته وشكّلته وقيّدته فالنقط لما كان مدوّراً والنُّقطة الاسم ، وهذا كتاب غُفْل كقولك دابة غُفْل إذا لم يكن موسوماً ، والسجلُّ كتاب العهد ، وتقول : أمليت الـكتاب وأمللته واستَمْلى إذا سأل أن يملى ، وكذلك استملّ والزّبور والرّقيم الـكتاب ، وزَبَرْت ورَقَمْت كتبت وقَرْمَطْت قاربت بين الحروف ، وطويت الـكتاب وأدرجته وسحيته أسحاه سَحْياً إذا قلعت منه سِحاةً وهى القِشْرة تأخـذها عن القرطاس ، وخزمته ثقبته وحزمته شـددته ، ويقـال تَرَّبْت الـكتاب وأتْرَبته وتَرّبته وطِنْتُهُ أطينـه طَيْناً ، وختمته والاسم الختام ، وعنونته أعنونه وأرّخت الـكتاب تاريخاً ، وهذه إضْبارة من كتب وإضْامة ، والـكُرّاسة ما تـكَرَّسَتْ أوراقه وتلبّدت ، والمصحف سمى مصحفاً لأنه أُصْحِفَ أى جُعل جامعاً للصحف المـكتوبة بين الدفتين ، وهما اللوحان اللذان يكتنفانه ، وله الوعاء والغلاف وفيه العروتان ، والمِعْلاق مايعلّق

(١) يقول : صحيفتهم التى فيها وصاياهم مثبتة على طاعة الله ، ودينهم مستقيم يرجون به ثواب الله تعالى

به ، وفيه الفكوك والواحد فَكّ وهو مايستر الأوراق من جانبيه ، والعِلاوة من أعلاه والحلق واحدتها حلقة . وفى الحلق الذوائب وهى السيور التى فى أطرافها ، والأشراج والواحد شَرَج وهو السير المرسَّع أسفل الحلق والتَّرسيع ضفر السير على نحو معروف وفى المصحف الخارز وهى المواضع التى تُخرَز منه ، وله الآذان ، وفى الدفتين المسامير والكراكِبُ ؛ فأما المِحبرَةُ والحِبْريّة فالتى فيها الحبر وهو الزّاج ، ولها المِغلاق وهو خيط أو سير يشد إلى عراها ، والرّشْقُ صوت القلم . والفشفة كقطنة فى جوف القصبة ، وحَضْرَمَ القلم براه ، والمِرْقَم القلم ؛ ومثل ذلك كثير فى كتب اللغة والأدب لاسيما كتاب (أدب الكتاب الصُّولى) فقد ذكر فيه كل مايتعلق بهذه الصناعة .

مكاتبات العرب ومراسلاتهم وما لهم في ذلك من العوائد

خير الكلام لدى العرب ما أدى المقصود بكماله بلفظ وجيز ، وعبارة مختصرة ومدار البلاغة عندهم على ذلك ؛ والكتب والمراسلات من ضروريات الأمم التى لا يمكن الاستغناء عنها ؛ وحيث أن الكتابة لم تكن فى جميع العرب لقربهم يومئذ من البداوة قل الترسل فيما بينهم تحريراً قبل شيوع الكتابة فيهم ، وكانوا يستغنون عن ذلك بإرسال الرسل يبلغون عنهم مقاصدهم إلى من يرومون وربما ألغزوا عنها اخفاء لها إذا كانت مما يجب إخفاؤها و إسرارها .

وربما كتبوا أبياتاً من الشعر تؤدى مقاصدهم إذ الشعر كان يومئذ ديوان العرب ، وقد صادفت من ذلك مالا يستقل ، ففى كتاب (مروج الذهب) عند ذكر سابور ذى الأكتاف وغلبة العرب على سواد العراق قال : وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار ، وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحرث بن الأغر الأيادى ، فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج إليهم والإيقاع بهم ؛ وكانت إياد تصيف

بالجزيرة وتشتو بالعراق ، وكان فى حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط فكتب إلى إياد شعراً ينذرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيط ... على من فى الجزيرة من إياد

بأنَّ الليثَ يأتيكم دلاقاً ... فلا يحسبكم شوكَ القتَادِ[1]

أتاكم منهم سبعون ألفاً ... يجرّون الكَتائبَ كالجراد[2]

على خيل ستأتيكم ، فهذا ... أوان هلاككم كهلاك عاد

فلم يعبأوا بكتابه ، وسراياه تكرّ نحو العراق وتغير على السواد ، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد إليهم كتاباً يخبرهم أن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم ، وأنهم سائرون إليهم ، وكتب إليهم شعراً أوله :

يا دارَ عبلة من تذكارها الجزعا ... هيّجتِ لى الهمَّ والأحزان والوجعا

أبلغ إياداً وحلل فى سَراتهم ... إنى أرى الرأى إن لم أعص قد نصعا[3]

أن لا تخافون قوماً (لا أبالكم) ... مشوا إليكم كأمثال الدّبى سرعا[4]

لو أن جَمعَهُمُ راموا بهدتهم ... شمّ الشماريخ من ثَهْلان لانصدعا[5]

فقلّدوا أمركُم لله دَرُّكمُ ... رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضْطلعاً[6]

فأوقع بهم فعمهم القتل ، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف ، وصحيفة المتلمس مشهورة ، وفى كتب الأدب مذكورة ، وكانت على ذلك الأسلوب أيضاً ، ولا بد من ذكر خبرها وقصتها المستطرفة .

---

(١) قوله « يأتيكم دلاقا » أى مسرعا مندفعا . والقتاد : شجر صلب له شوكة كالابر . ويضرب به المثل فى الخشونة والشدة كما قال أبو تمام :

نبأ خبر كأن القلب أمسى ※ يجر به على شوك القتاد

(٢) الكتائب جمع كتيبة وهى الطائفة من الجيش مجتمعة . (٣) السراة : جمع سرى وهو الرئيس ونصع الأمر : اذا وضح (٤) الدنى : أصغر الجراد والنمل (٥) الشماريخ : رؤوس الجبال . ونهلان : جبل (٦) أنظر ص ١١٤ من هذا الجزء

صحيفة المتلمس

إن المتلمس (وهو شاعر مشهور اسمه جرير بن عبد المسيح) وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو المذكور ، فنزلا منه فى خاصته ، وكانا يركبا معه للصيد فيركضان طول النهار فيتعبان ، وكان يشرب فيقفان على بابه النهار كله ولم يصلا إليه فضجر طرفة ، فقال فيه :

فَلَيْتَ لنا مكانَ المَلْكِ عمرو   رَغُوثًا حَوْلَ قبتنا تخور[1]

لعمرُكَ إن قابوسَ بنَ هندٍ   لَيَخلِطُ ملكه نُوكٌ كثير[2]

وقال أيضاً :

ولا خَيْرَ فيه غَيْرَ أن له غنى   وأنّ له كَشْحًا إذا قام أهْضَمَا[3]

تظلُّ نساء الحى يعكفنَ حوله   يَقُلْنَ عسيبٌ من سَرَارةِ مَلْهَمَا[4]

فى أبيات مشهورة ؛ فبلغ ذلك عمرو بن هند فهمّ بقتل طرفة ، وخاف من هجاء المتلمس له لأنهما كانا خاليلين ، فقال لهما : لعلكما اشتقتما لأهليكما ! فقالا : نعم ! فكتب لهما بصحيفتين وختمهما ، وقال لهما : اذهبا إلى عاملى بالبحرين ، فقد أمرته أن يصلكما بجوائز ! فذهبا فمرّا فى طريقهما بشيخ يحدث ويأكل تمراً ويقصع قملاً ، فقال المتلمس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيتَ من حمقى أُخرجُ خبيثاً وأدخل طيباً وأقتل عدواً ! وإنّ أحمقَ منى من يحمل حتفه بيده وهو لايدرى ! فاستراب المتلمس بقوله وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة فقال له المتلمس : أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ! ففض الصحيفة وقرأها فإذا فيها : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً !

---

(١) الرغوث : كل مرضعة . وتخور : تصيح (٢) النوك : الحمق .
(٣) الكشح : الخصر . والاهضم . الدقيق (٤) العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها والسرارة : خيار الشيء وصفوته . وملهم : موضع كثير النخل . شبه كشحه الاهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان

فقال لطرفة : ادفع إليك صحيفتك فإن فيها مثلَ هذا ! فقال : كلا ! لم يكن ليجترئ عليّ ! فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة وقال :

قذفت بها فى اليم من جَنْبِ كافرٍ كذلك أَقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلِّلِ [١]

رضيت لهـا بالماء لمـا رأيتها يَجُولُ بها التَّيَّارُ فى كل جَدْوَلِ [٢]

ثم مضى المتلمس إلى هشام ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين فأعطاه صحيفته ، ففصده من أكحليه فنزف [٣] حتى مات ، وقيل فى قتله غير ذلك [٤] . ومن قوله فى السجن يخاطب عمرو بن هند :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ولم أُعْطِكُم بالطوع مالى ولا عرضى

أبا منذرٍ أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهونُ من بعض [٥]

تغير أسلوبهم

ثم تغيرت عوائدهم فى ذلك فكانوا يبتدئون فى كتبهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ثم يذكرون مقاصدهم ، وفى (أدب الكتاب للصُّولى) بسنده : أن قريشاً كانت تكتب فى جاهليتها باسمك اللهم ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة هود وفيها « بسم الله مجريها ومرساها » فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب فى صدر كتبه : بسم الله ، ثم نزل فى سورة بنى إسرائيل « قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى » فكتب : بسم الله الرحمن ، ثم نزل فى سورة النمل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فجعل ذلك فى صدر الكتب إلى الساعة ؛ وغير الصُّولى ذكر مثل ذلك أيضاً ؛ ونقل المسعودى فى المروج عن جماعة منهم ابن السائب الكلبى

---

(١) أقنو : اتخذ ، والقط : الصك تكتب فيه الجائزة (٢) التيار : الموج ، والجدول : النهر الصغير . (٣) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد . ونزف دمه : سال حتى أفرط (٤) لهذه الحكاية مثال فى تاريخ قدماء اليونان تعزى الى بليروفون Bellérophon (٥) راجع ص ١١١ من هذا الجزء .

أن أول من كتب من قريش (باسمك اللهم) أمية بن أبى الصّلت الثقفى ، وذكر فى سبب ذلك قصة طويلة لا غرض لنا فى نقلها ؛ ومنهم من كان يكتب بعد البسملة : من فلان إلى فلان ، ثم التحية ، ثم يأتى (بأما بعد) ثم يذكر مقصده بأوجز عبارة ؛ وقد اختلف فى أول من ابتدأ ذلك على أقوال ذكرها الصُّولى ، وعقد لذلك فى كتابه باباً أطال الكلام فيه ؛ وعن أبى حاتم السجستانى فى كتاب المعمَّرين عند ذكر قُسّ بن ساعدة : أنه أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وأول من قال : أما بعد ، وهو أول من كتب : إلى فلان ابن فلان ؛ ورجح الصولى أن أول من قال « أما بعد » كعب بن لؤى وكان أول من سمى « الجمعة » وكانت تسمى « العروبة » قال : وهى فصل الخطاب ، ومعناه على هذا أنه إنما يكون بعد حمد الله ، أو بعد الدعاء ، أو بعد قولهم من فلان ابن فلان إلى فلان ، فيفصل بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذى يجىء بعد ، ولا تقع إلا بعد ما ذكرناه ، ألا ترى قول سابق البربرى لعمر بن عبد العزيز :

باسم الذى أنزلت من عنده السور ... الحمد لله أما بعد يا عُمَرُ !
فإن رضيت بما تأتى وما تذر ... فكن على حذرٍ ، قد ينفع الحذر !

قال : والمعنى فى أنها لا تقع مبتدأة أن المراد بها أما بعد هذا الكلام (يعنى الذى تقدم) فإن الخبر كذا وكذا . ثم أطال الكلام فى وجوب ذكر الفاء بعد أما بعد ، وبيان معناها ؛ وكان من عوائد العرب فى كتبهم أيام جاهليتهم إذا كتبوها نثراً لم يلتزموا فيها السجع بل أرسلوه إرسالا ؛ والسجع لم يلتزمه منهم إلا الكهان ، واستعمالهم فى الخطب والوصايا قليل ، وذلك لأنهم جبلوا على الميل إلى السهل من كل شىء والنفرة من كل متكلف فى أفعالهم وأقوالهم وغير ذلك ، والسجع لكونه متكلف الألفاظ مما تنفر عنه الطباع ، وتمجُّه الأسماع ، والمستحب منه هو مقدار يجرى من الكلام مجرى الطراز من الثوب ، والعلم

من المطرف[1] ، والخال[2] من الوجه ، والعين من الإنسان ، والسّواد من الحدقة ، والإشارة من الحركة ؛ وقد علمت أنه متى كثرت الخيلان من الوجه وغمرته كان ترادف أجزاء السواد ذاهباً ببهجة تمام الحسن .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال : كتب سليمان عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذى شرح وقومها : ألّا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) وقد حكى ذلك الكتاب الكريم ، فلما وصل الكتاب إلى بلقيس ، واطلعت عليه ، وصفته بالكرم لكونه مختوماً . وفى الحديث « كرم الكتاب ختمه » وعن ابن المقفع « من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به » . وهكذا كان أسلوب العرب فى تراسلهم ، ومكاتبات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم أيضاً على هذا الأسلوب ، وهكذا كان أسلوب أهل الصدر الأول والثانى ، وهكذا إلى أن تغير ذلك الوضع بما هو مذكور فى كتب الإنشاء من الألفاظ المتكلفة ، والأساليب التى ينفر عنها الطبع ، وما أحسن ما كان عليه العرب ، وما أسهله ، وما أعذبه وألطفه ! وعرب نجد إلى اليوم على طريقة أسلافهم فى ذلك الأسلوب . وقد ذكر الصّولى فى (أدب الكتاب) عوائد المتأخرين فى سائر فنون مكاتباتهم ومراسلاتهم ، وكيف يخاطب الناس ملوكهم ، والملوك أمراءهم ورعاياهم ، وكيف يخاطب الناس بعضهم بعضا ، وكيف المنشورات والتقاليد وغير ذلك من كتب العهد والتولية والقضاء ؛ وأفرد باباً فى بيان ما يتكاتب به الناس فى عصره ، وبقيت للعرب سنن وعوائد التزموها فى كتبهم ، منها : الابتداء بالبسملة من حاشية القرطاس ، ثم التحية من تحتها ، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلا بقليل ، ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلا ؛ وكان من الكتاب الإسلاميين من يرى أن يجعله وسطا فى أسفل الكتاب بعد انقضاء الدعاء الثانى ، والتاريخ إذا

---

(١) ثوب من خز له أعلام (٢) الشامة ، والجمع خيلان

احتاج إلى تبيين نسخة كتاب متقدم أو حساب ليفرق بين منزلته من صدر الكتاب و بين عجزه ؛ وقد ذهب إليه قوم ، ولا يفسح ما بين البسملة وبين السطر الذى يتلوها من الدعاء ، ولكن يفسح ما بين الدعاء إذا استتم و بين سائر المخاطبة ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر ، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلّاء الكتاب الإسلاميين ؛ ومنها تتريب الكتاب وتطيينه ، و إعادة النظر عليه بعد الكتابة ، والخاتم وآدابه ، والعنوان ، وغير ذلك مما كانوا عليه ؛ وقد بسط الصُّولىّ الكلامَ على هذه الأمور فى (أدب الكتاب) .

ما كان يكتب فيه العرب

لم يكن للعرب قبل الإسلام القرطاس المعهود اليوم ، و إنما ظهر هذا عند العرب سنة العشرين بعد المائة من الهجرة النبوية ، وهم الذين اخترعوه على قول بل كان القرطاس عندهم يومئذ كل ما يمكن أن يكتب عليه كالرق (بفتح الراء وهو جلد رقيق تحسن الكتابة عليه) وهو أغلب قراطيسهم ، وكذلك فى صدر الإسلام ، ومنه قوله سبحانه (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وربما كانوا يكتبون على العسب والجريد وما شاكل ذلك ؛ وكما كانوا يسمون ما يكتب عليه بالقرطاس يسمونه (مُهْرَقاً) و (صحيفة) و (سفراً) وقد ورد ذكر القرطاس فى التنزيل وكذلك الصحف والأسفار : وهو مما يدل على معرفتهم به وشيوعه بينهم ؛ وكانت العرب تشبه المنزل إذا خلا ودرجت عليه الريح وصار أرضاً بالمُهْرَق ، قال الأعشى :

سلا دارَ ليلى هل تبين فتنطق ... وأنّى تردّ القولَ بيضاء سَمْلَقُ ! [1]
وأنّى تردّ القولَ دارٌ كأنها ... لطول بلاها والتقادم مُهْرَقُ !

وشبه أبو نواس الناقةَ البيضاء بالقرطاس فقال من أبيات :

« يَقِق كقرطاس الوليد هجان [2] »

(١) السملق : القاع الصفصف (٢) أبيض يقق : شديد البياض

خصّ قرطاس الوليد لأنه معه كالرسم لم يكتب فيه بعد ، والهجان : الكرام من الإبل وغيرها ، وقد استوفى جعفر بن حمدان الكاتب وصف القرطاس بقوله :

في يديه من القراطيس كالمز نة جادت بواكفٍ مدرارِ[1]
كالملاء الرّحيض كالبيض بيض الهند، كالبيض، كالمياه الجوارى[2]
كالسراب الرقراق في عنفوان الصيـ ف نصف النهار في أيار[3]
ما تبالى أجلت عينك فيه حين يطوى أم في خصور العذارى؟
يسبح الخط فيه عفواً فما يكـ بو بوعْثٍ فيه ولا بحبار[4]

والكلام في هذا الباب يطول ، وما ذكرناه فيه الكفاية ، وبالله التوفيق .

حساب العرب أيام جاهليتهم

كان للعرب حساب غير ما هو المعهود اليوم ، فإنه مما يحتاج إلى آلة فاجتنبوه، ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الإنسان فيه بآلة من جسمه ، كان أسهل وأفيد وأنسب لغرضهم ، وهو حساب عقود الأصابع ، وقد وضعوا كلا منها بأزاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الأصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة ، وقد ألف فيما ورد عنهم من ذلك عدة رسائل ، منها : رسالة شرف الدين اليزدى وهي من أحسن ما ألف في هذا العلم ، ونظم فيه أراجيز كثيرة ، منها : أرجوزة لطيفة لابن حرب أورد فيها ما يحتاج إليه من هذا العلم ، ومنها أرجوزة أبي الحسن على الشهير بابن المغربي

---

(١) الواكف : المطر ، والمدرار : الكثير الدر ، أى السيلان (٢) الملاء جمع ملاءة وهي الريطة ذات لفقين ، والرحيض : المغسول (٣) السراب : ماتراه نصف النهار كأنه ماء ، والرقراق : المتحرك ، وعنفوان الشيء بالضم أوله أو أول بهجته . (٤) كبا يكبو : انكب على وجهه ، والوعث : الطريق العسر ، والحبار : الاثر .

وقد شرحها عبد القادر بن على بن شعبان العوفى ، وأورد فى شرحه فوائد كثيرة تتعلق بهذا العلم [1] ، وما روى عن العرب من الشعر المشتمل على هذا الحساب ، ولشمس الدين محمد بن أحمد الموصلى الحنبلى رحمه الله منظومة موجزة فى بيان قواعد هذا الحساب مشتملة على لب لبابه ، وهى هذه بعد البسملة :

بِحَمْدِكَ ياربّاه أبدأ أولاً   فمازلت أهلا للمحامد مفضلا

وأتبع حمدى بالصلاة على الرضا   أبى القاسم المهدىّ خير من أرسلا

ومن بعد هذا أيها السائل استمع   حساب اليد إذْ عنه سلْتَ مفصلا

ففى عـدد الآحاد ياصاح أفردن   ليمنى يديك اعلم وإياك تجهلا

فللواحدا قبض خنْصِراً ثم بِنْصِراً   للاثنين والوسطى كذاك التـكملا

بعدٍ ثلاث ثم للخِنْصِر أرفعنْ   بأربعة والبنصر الخمسة أكملا

وفى الستة اقبض بنصِراً دون كلها   على طرف للراحة اسمعه وانقلا

وفى السبعة اقبض تحت الابهام خنصراً   وفى طرف للراحة القبض فاجعلا

وللبنصر ارفع ثم فى الثامن اضممنْ   إلى خنصر فى القبض للبنصر اعقلا

وفى التسعة الوسطى اضممن معهما وفى   جميع الآحاد افعلن ذا وإن علا

وفى عشرة مع عقد الإبهام فاستمع   تحلق رأساً للمسبحة افعلا

وللظفر من ابهامك اجعله بين إصـ   بعيك هى العشرون فاعلمه واعملا

وما بين رأس المسبحة اجمعنْ   ورأس للابهام الثلاثون حصلا

وإن تركب الابهام ياصاح فاحتفظ   لسبابة للأربعـين مكملا

وابهامك اجعل تحت سبابةٍ إذا   تعمدت للخمسين فاحفظْه تـكملا

وتركب الابهام المسبحة استمع   كقابض سهم وهى ستون احملا

وعدّك للسبعين فى بطن ثالث   لسبابة ابهامك اعقده تجملا

(١) نشرتها (أنا) مع شرحها « لوح الحفظ » فى الجزء الثانى من المجلد الخامس من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

والإبهام من تحت المسبحة اجعلنْ بفانا على ظفر ثمانين أكملا
وفى عدّ تسعين المسبحة اقبضنْ لما بين إبهام وما بينها اجتلى
وابهامك اجعل فوقها مثل حتية تروم وثوباً والمئين الا اجعلا
بيسراك كالآحاد ياذا العلوم منْ يمينك فاحفظهُ وإياك تعولا
كذا العشرات من يمينك انها بيسراك يا هذا الوف على الولا
وعشرة آلاف لابهامك اجمعن وذلك مع سبابة يا أخا العلا
بيسراك وامهده كحلقة استمع اذا طُويَتْ والرأس فاجعله أسفلا
وقد نجزت والحمد لله وحده ميسرة تبغى أخا مفضّلا
يسامحها فيما يرى من عيوبها فما أحد عن ذاك ياصاحِ قد خلا
فخذها عروساً قد سمت شمس ضحوة وبدر دياجٍ قد بدا متهللا
فإن تمتنع كالبكر عند امتناعها على بَعلها عند الزّفاف تدللا
فصفْ لها ذهناً غزيراً محوّداً وغُصْ فى بحار الفكر ثم تأملا
ترى لمانيها بُزُوغاً ككوكب ويأتيك منها العلم والفضل مُقبلا

— وبعض أهل الفضل ذكر فى بيان مراتب الأعداد فى العقد مانصه : عند العشرة تجعل السبابة حلقة ، والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الإبهام ، والأربعين تجعل رأس الإبهام خلف السبابة ، والخمسين تجعل الإبهام جالساً ، والستين تجعل ظهر رأس الإبهام على الفصل الأعلى من باطن السبابة ، والسبعين تجعل رأس الإبهام على الفصل الأسفل من باطن السبابة ، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظفر الإبهام ، والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوفة ؛ المائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة ؛ المائتين تجعل الإبهام اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرين ، وعلى هذا القياس إلى الألف فى كل مائة كما فى العشرات لكن اليد اليسرى ؛ ثم تأخذ الألف كما تأخذ الآحاد إلى العشرة من اليد اليسرى ، ثم تأخذ العشرة

الآلاف ، وهو أن تجعل جنب رأس الابهـام على جنب رأس السبابة انتهى .
وبقى كلام كثير يطلب من محله ؛ وقـد ورد حساب اليد فى عـدة أحاديث ،
وفى كلام كثير من رجال الصـدر الأول وأجلة السلف ، وبه ينحل كثير من
أبيـات المعانى التى حيرت الأفهام . (ومن العرب) من كان يحسب بالحصى
ويضبط عـدده به كما دل عليه شعرهم . قال الأعشى ميمون من أبيـات فضل
فيها عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة :

إنْ ترجع الحقّ إلى أهله فلستَ بالمسدى ولا النائر[1]
ولستّ فى السِّلم بذى نائلٍ ولست فى الهيجاء بالجاسر[2]
ولستَ بالأكثرمنهم حصًى وإنما العزَّةُ للـكاثر
ولست فى الأثرين من مالك ولا أبى بكر أولى الناصر[3]
هُمْ هامةُ الحى إذا مادعوا ومالك فى السؤدد القاهر

الحصى . العـدد والمراد به هنا عـدد الاعوان والأنصار . قال بعض شارحى
هـذه الأبيات : وانمـا أطلق الحصى على العـدد لأن العرب أميون لا يعرفون
الحساب بالقلم ، وانما كانوا يعدون بالحصى وبه يحسبون المعدود ، واشتقوا منه فعلاً
فقالوا : أحصيت ، ومن العرب من كان لا يحسن الحساب أصلاً حتى نقل الصولى
فى كتاب (أدب الـكتاب) أن بعض العرب باع جوهراً نفيساً بألف درهم فقيل
له : كان يساوى أكثر من هـذا فقال : ما ظننت أن عـدداً أكثر من ألف !

---

(١) المسدى : من السدى وهو مامد من النوب . والنائر : اسم فاعل من نرت الثوب نيرا بالفتح جعلت له نيرا بالكسر وهو علم الثوب وهدبه ولحمته . وهذا مثل يضرب فى التبرى من الشىء كقولهم « لافى العير ولا فى النفير » وهذا خطاب مع علقمة (٢) النائل : بمعنى النوال وهو العطاء . والهيجاء : الحرب . والجاسر : من الجسارة وهى الجراءة والشجاعة .

(٣) الاثرين : جمع أثرى جمع تصحيح بمعنى ذى ثروة . ومالك : هو جد عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأبو بكر : عم جده واسمه عبيد (بالتصغير) ابن كلاب بن ربيعة المذكور بأبو بكر أخو جعفر بن كلاب ...

فلذلك كانوا يمدحون من يحسن الحساب والعدد ، ويصفونه بالحذق ، وينسبونه الى حكمة وعدل ، قال النابغة للنعمان فى اعتذاره :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نَظَرَتْ   إلى حمام سِراعٍ وارد الثَّمَدِ[1]
قالت : ألا ليتما هذا الحمامُ لنا   إلى حمامتنا أو نصفه فَقَدِ[2]
فحسّبوه فألْفَوْهُ كما زَعَمَتْ   تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يَزِدِ[3]
فكملت مائة فيها حمامتها   وأسْرعَتْ حِسْبَةً فى ذلك العدد[4]

يريد كُنْ حكيماً فى إنصافى كما حكمت جارية كانت لها حمامة فرأت قطاً فحزرته ستاً وستين فقالت . ليت الحمام ليه ، الى حمامتيه ، أو نصفه قديه ، ثم الحمام مايه ! قالوا : وكانت لها قطاة ، وجعلت القطاة حماماً . وهذا قول الأصمعى ، وبعضهم قال : أراد النابغة أحكم علىّ بعدل كما حكمت هذه الفتاة فى العدد فأصابت ! والأول أجود . أفلا ترى إلى النابغة كيف حكى هذا ، ونسب تلك الفتاة إلى حكمة وعدل حين أحسنت العدد ؟ قال أبو عبيدة : وكان يقال للجارية (الزرقاء) واسمها (عنز) وكانت من جديس . وقال غيره : القائلة لهذا هند بنت الخس ، وقد مر الخلاف عند الكلام على حكميات العرب من الجزء الأول[5] . . وكان حساب اليد مرجحاً على غيره بين الكتاب فى الدولة العباسية على ما ذكره الصُّولىّ فإنه قال : أجمع الحساب من كل جنس وملة بكل خط ولغة على أن تراكيب الحساب لا تعدو أربعة : عدد يضرب فى عدد ، أو قسمة عدد على عدد ، أو إلقاء عدد من عدد ، أو زيادة عدد على عدد . وتكلموا فى أوائل العدد ونهاياتها بكلام كثير أحسنه

---

(١) الثمد : الماء القليل . (٢) يستشهد النحويون بهذا على أن (ما) اذا اتصلت بليت فالاكثر اهمالها لعدم اختصاصها حينئذ بالاسماء ويجوز اعمالها كما وردت الرواية فى (الحمام) وقوله فقد أى فحسب . (٣) قوله : « فحسبوه » بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات . وبعضهم يخففها ويقول بجوازها فى (البسيط) وألفوه : وجدوه . (٤) انظر تعليقنا على هذه القصة فى ص ٣٤١ من الجزء الاول . (٥) ص ٣٤٠ و٣٤١ و٣٤٢

ما قال الهند إن الأعداد تبتدئ من واحدة وتنتهى إلى تسعة ثم تكون العشرة راجعة إلى حال الواحد على الرتبة ، وعلى هذا وضعوا حروفهم التسعة ، وقالوا : الحساب الهندى أخرج لكثير العدد إلا أن الكتاب اجتنبوه لأن له آلةً ، ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الإنسان فيه بآلة من جسمه كان أذهب فى السر ، وأليق بشأن الرئاسة ، وهو ما اقتصروا عليه من العقد بالبنان و إخراج رؤوس (الجمل) فى أواخر التطور ، وحط التفضيلات عنها واحداً دون آخر وفرعاً دون أصل . قال : وَعُنِيَ بعض الكتاب بذلك حتى خف عقده ، وصار يلحق ببنانه مثل ما يلحق ببصره ولا يستبين الناظر مواقع أنامله ، قال : وقد شبه عبد الله بن أيوب أبو محمد التيمى وميض البرق بخفة يد الحاسب فقال :

أعنى على بارق ماطر ... خفى كواحيك بالحاجبِ
كأنَّ تألقَهُ فى السَّما ... يدا كاتبٍ أو يدا حاسب

وقال بعض الكتاب :

وناطق تخــبر ألفاظه ... عن نَغَمات العود بالزمر
بينا تراه عاقداً خمسةً ... وستة صار إلى عشر
وصار من بعد إلى واحد ... كحاسب أخطأ فى كسر

ومن أحسن ما قيل فى تشبيه يد الحاسب بوميض البرق بعد قول التيمى قول عنترة من أبيات :

وفرضتَ للناس الكتابة فاحتذَوْا ... فيها مثالك والعلوم فرائضُ
و إذا خططْتَ فأنت غيثٌ معشب ... و إذا حسبت فأنت برقٌ وامِضُ
و إذا نهضتَ فأنت نجم ثاقب ... و إذا جلست فأنت ليث رابِضُ
فيك التمثل حين ينعت فاضلٌ ... و إليك يُرْجَعُ حين يشكل غامِضُ

معايش العرب وأسبابها أيام جاهليتهم

كل أمة من الأمم لابد لها ما يقوم بضرورياتها ، وسد فم حوائجها ، بأسباب متفاوتة ، وأعمال مختلفة ، يهديهم اليها خالقهم ، ويجعلها سبب أرزاقهم ؛ والعرب من الأمم القديمة التى مضى عليها أعصر متطاولة ربما كانت السبب فى خفاء كثير من أحوالهم على من بعدهم غير أنّ اللغةَ والشِّعْرَ يقيّدان كل شارد ، وينطقان بشؤون كل ما أسدل عليه حجاب الخفاء ؛ ومن المعلوم أن أسباب المعايش والكسب وأصولها منحصرة فى أمور ، منها :

التجارة

وهى من أشرف الأسباب وأعلاها قدراً ، ولهذا ورد فى الحديث (التاجر الصدوق مع الكرام البررة) ويدخل فيها كل بيع وشراء ، وكانت من أهم أسباب معايشهم لاسيما سكنة الحجاز ونجد وما شابههما من الأقطار المقحطة والبلاد القليلة الخِصْب ؛ وكانت العرب على ماذكر فى فتح البارى شرح صحيح البخارى تتمادح بكسب المال ولاسيما قريش ، وكان النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم محظوظاً فى التجارة ، وكان لقريش فى السنة رحل أربع على ماذكره بعض المفسرين فى تفسير سورة قريش ، فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهما هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام . الثانى : عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة . والثالث : المطلب وكان يرحل إلى اليمن . والرابع : نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الأخوة فلايتعرض لهم أحد . وفى هؤلاء الأخوة يقول الشاعر[1] :

---

(١) ج ٢ ص ٢٨٤

يا أيها الرجلُ المحوِّلُ رحله   هَلاَّ نزلتَ بآل عبد منافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقها   والراحلونَ لرحلة الإيلافِ
والرائشون وليس يوجد رائشٌ   والقائلونَ هَلُمّ للأضيافِ
والخالطونَ غنيَّهُم بفقيرهم   حتى يصيرَ غنيهم كالكافى

« وقال مساور بن هند يهجو بنى أسد »

زعمتم أنّ أخوتكم قريشٌ   لهم إلف وليس لكم إلافُ
أُلئك أومنوا جوعاً وخوفاً   وقد جاعَتْ بنو أسدٍ وخافوا

ومن المفسرين من قال : كان لقريش رحلتان رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى بصرى من أرض الشام ، كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ؛ وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى ، وولاة بيته العزيز ، فلا يتعرض لهم ، والناس بين مختطف ومنهوب ؛ وعلى ذلك نزلت السورة الكريمة . وذكر عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن السبب فى هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا[١] إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له تِرْبٌ[٢] من بنى

(١) هذا من اوابدهم فى الجاهلية ويسمى (الاعتقاد) : قال الزمخشرى فى الاساس : « اعتقد الرجل اذا أغلق الباب على نفسه ليموت جوعا ولا يسأل. ولقى رجل جارية تبكى فقال : مالك ؟ قالت : نريد أن نعتقد . وأنشد ابن الاعرابى :

وقائلة ذا زمان اعتقاد   ومن ذاك يبقى على الاعتقاد »

وفى التاج وغيره عن محمد بن أنس « انهم كانوا اذا اشتد بهم الجوع اغلقوا عليهم بابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعا ، وقال النظار بن هاشم الاسدى :

صاح بهم على اعتقاد زمان   معتقد قطاع بين الاقران

قال شمر : وجدته فى كتاب ابن بزرج : اعتقد الرجل بالقاف وذلك أن يغلق عليه بابا اذا احتاج حتى يموت » .

وقد كانوا يفعلون ذلك ترفعا عن ذلة السؤال وخساسة الاجتداء . وقوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وما ورد من مثله فى الصحيح مبطل لهذه الفعلة الشنيعة ، والعادة الجاهلية الفظيعة . (٢) اى لدة ، وهما مترادفان الذكر والانثى فى ذلك سواء ، يقال : هذه ترب هذه اى لدتها ، وقيل : الترب من **ولد معك .**

مخزوم يحبه و يلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة ، فدخل أسد على أمه يبكى ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع ، فقام هاشم خطيباً فى قريش فقال : إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا : نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف ، فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنىّ قسمه بينه و بين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

هذا ما كان من أمر قريش ، وسائر أهل الحجاز . وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ، ومعايشهم وافرة ، لما فى بلادهم من من الخِصْب والرخاء ، والذخائر المتنوعة ، والمعادن الجيدة ، وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى . وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم فى الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب فى رفاهية العيش ، ورواج التجارة ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق (كل سوق له موسم من السنة على ما أسلفناه فى الجزء الأول) فيجتمعون فيها للتجارات وغيرها . ولهم أسواق أخر غير ما ذكرناه لأجل ذلك . و يسمون السوق أيضاً القسيمة ، و يقولون : نفقت السوق أى راجت ، وانحمقت : كسدت ، والسوم : عرض السلعة على البيع ، و بعته ناجِزاً بناجزٍ[1] و يداً بيد ، والناجش الذى يزيد فى ثمن السلعة ، وليست من حاجته لينفقها على صاحبها . وقد ورد فى الحديث النهى عن ذلك . و يقولون للذى يبيع البز : البزاز ، وللذى يبيع الثياب : السمسار وللذى يبيع الأكسية : الكساء ، وللذى يبيع الفرا : الفراء وللذى يبيع الرق : الرقاق ، وللذى يبيع الخل : الخلال ، وللذى يبيع البقول :

(١) اى تعجيلا بتعجيل ، وهو منصوب بأبيعك ونحوه . ويروى بالرفع .

البقال . وللذى يبيع الدهن : الدهان ، وللذى يبيع الرؤوس الرآس ، ولا يقال له رواس ؛ وللذى يبيع الطير الجدال ، والزجال الذى يرسلها من مكان إلى مكان ، وللذى يبيع العطر العطار ، وللذى يبيع الأدوية الصيدلانى والصيدنان ، وللذى يبيع اللؤلؤ اللآل ، وللذى يبيع الآلية اللاء . ومنها :

الصنائع

وهى أيضاً من أسباب المعايش المحمودة ، وورد فيها « الحرفة أمان من الفقر » وكان فى العرب صنائع تقوم بما تَمَسُّ إليه حوائجهم ، وتقتضيه ضرورياتهم ، ولابد لهم منها ، لا سيما البلاد التى قدم عليها عهد الحضارة . وقد تكلم ابن خلدون فى مقدمته على هذا الموضوع ، وذكر أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وعلّل ذلك بأنهم أعرق فى البدو . وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها ، وقد أطنب فى بيان ذلك إلى أن قال : وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحِمْير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة ، واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة ، فبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشى والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . وذكر رحمه الله فصولا مهمة فى هذا الباب لها من الحقيقة أوفر نصيب ؛ بَيْدَ أنّى أذكر ما كان للعرب من أمهات الصنائع التى زاولوها للقيام بحاجاتهم ، وإن قلت فيهم ، ولم تصل إلى نهاية الاتقان ، ولم تبلغ نصاب الكمال فإنى بصدد بيان أسباب معايشهم على أن الكثير منهم كان بمعزل عن ذلك لما جبلوا عليه من الميل إلى المعالى ، والتفاخر بالشجاعة والفروسية ، والتفاضل بالإقدام والجراءة ، والوفاء بالعهود ،

والقيام بواجب الأضياف ، وحفظ الذمار والذمام والكرم ، وغير ذلك من الشيم وعلو الهمم ؛ والقائم بأمر الصناعة لديهم دون غيره فى المكانة والشرف فدونك ما كان لديهم من الصنائع التى مست إليها حوائجهم ، وهدتنا إليها لغتهم — فمنها :

صناعة البناء

هذه الصناعة كانت منحصرة لأهل الحضر من العرب لأنهم الذين تمس إليها حوائجهم . وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان فى المدن . وعلل ذلك ابن خلدون فى مقدمته : بأن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها ، ثم ذكر كلاماً مفيداً يتعلق بهذه الصناعة ليس من غرضنا ، والقائمون بهذه الصناعة من العرب متفاوتون فيها فمنهم البصير الماهر ، ومنهم القاصر ؛ وكانت فى اليمن أبنية عظيمة ، وقصور مشيدة ، وكذلك فى غيرها كما ذكره الأصبهانى فى كتاب (جزيرة العرب) وأبنيتهم كانت متفاوتة . فمنها البناء بالحجارة ، ومنها البناء باللبن ، ومنها البناء بالآجرّ ، ومنها البناء بالطين والتراب ؛ وهى على أوضاع مختلفة ، وأشكال متفاوتة ، وتفصيل ذلك لا يليق بهذا المختصر . فمن أبنيتهم الدار . ويقال لها : الدارة والمنزل والمنزلة والمباءة والمعان والوطن والمغنى والمثوى والمربع ، ويقال لصحن الدار : حُرّة الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها ؛ وفى الدار البيت وجمعه أبيات والكثير البيوت ، والمخدع البيت فى البيت ، والنّفق والسَّرب البيت تحت البيت ، والغرفة فوقه وهى العلية وجمعها علالىّ ، والخِزانة وهى التى يحفظ فيها الشىء ، قال امرؤ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه   فليس على شىء سواه بخزان [1]

---

(١) راجع ص ١٠١

والمرقد المضجع والحائط والجدار ما أطاف من البناء بالشى ، والأُسّ أصل الحائط والرِّهص البناء من الطين الموطوء يُنَضَّدُ بعضه فوق بعضٍ طريقةً طريقةً ويقال لكل عرق من الحائط دِمص ما خلا العرق الأسفل فإنه رهص ، والخط الواحد منه ساف والجمع أسؤف وسؤف . ويقال للصف الواحد من اللبن أيضاً سأف فإذا أقيم الآجرّ بعضه فوق بعض فهو السميط ، ويقولون : ارتفع الحائط إذا بلغ أن يوضع عليه عقد الأزَج أو أن يغمى أو أن يقبب أو أن يسنم ، و بيت مغمى إذا سقف بالخشب ، والغماء ما يغمى به ، و بيت مقبّب ومسنّم على هيئة السنام فى تضايق أعلاه واتساع أسفله ، والبرزخ الفُرْجَةُ بين الأزجين فى صَهْوَةِ البيت ، والهدَف تُرْس الأزج .

وفى الدار الصُّفة وجمعها صِفاف ، ومنها الشرقية التى تقابل المشرق ، والغربية التى تقابل المغرب ، والفراتية التى لا تقع الشمس فيها رأساً ، والمقنوءة مكان ظله دوم كالأماكن التى يجمد فيها الماء ، وبحذائها المشرقة ، والزاوية ملتقى الحائطين فى البيت ، والكوّة الثقب فى أعالى البيت ينفذ ، ويقال لها : الشاروق ، والمشكاة التى فى الحائط يقال لها الأوقة ويقال بيت مأوّق . قال امرؤ القيس :

و بيت يفوح المسك فى حجراته بعيد من الآفات غير مُأوّق

ويقال للسطح : الإجار والصّهوة ، وسقف البيت أعلاه الداخل ، وسمكه ما بين قراره إلى سقفه . والطّاية السطح ومربد التمر . والدرج ما يُرتقى فيه إلى السطح فإن كان من خشب فهو السُّلَّم ، والعَتَب الدّرج وكل مِرْقاة منها عتبة والجمع عتب وعتبات ، والفَرْع الخلاء بين المِرْقاتين ، والتفاريج والطُّنُف آجرّ أو نحوه يجنح به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه ، وهو السكنة والإفريز وأفرز حائطه وطنّفه ، وفى نحوه ، قال الهذلى :

وماضَرَبٌ بيضاء يأوى مليكها إلى طُنُف أعيا براقٍ ونازلِ [1]

(١) الضرب : العسل الابيض .

والعِلاوة أعلى الحائط الذى لا يُغَمَّى ، وقد يكون الطنف قراميد ، ويقال واحدها قرمد وهو الآجر الطويل . قال :

أَوْ دُمْيَة فى مَرْمَرٍ مرفوعة بُنِيَتْ بآجرّ يُشادُ بِقَرْمَدِ[1]

ويقال : الهَرَادة من الخشب لأعالى الحيطان ، والنَّجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره ، والعَرْس حائط أو اسطوانة يقام فى البيت يوضع عليها طرف الجائز وهو العارضة ، والروافد خشب فوق العارضة ، واللَّبن واحدته لَبِنة ، واللَّبَّان الذى يضرب به ، والملبن الذى يُضرب به ؛ والسابَلُ الذى ينقل عليه ، والسَّميقان والأسمقة خشبات يدخلان فى السابل ، والطُّوب الآجرّ والطَّوَّاب الذى يطبخ أتُّونه ، والأطيمة أتّون الجرار والقِصاع ونحوهما ، والبَلاط الحجارة تُفْرَشُ بها الأرض ، يقال : دهليز مُبَلَّط ودار مفروشة بالآجرّ والبلاطِ ، ويقال للبنّاء : الهاجرى . قال لبيد :

كَعَقْرِ الهاجرى إذّا بناه بأشباهٍ حُذين على مثالِ[2]

والهاجرى : نسبة إلى قبيلة ، وأول من بنى كان من هذه القبيلة ، وقال الجوهرى : وهاجرى نسبة إلى هجر ، ومنه قيل للبناء هاجرى ، والطَّيَّان الذى يطين الحائط والسطح ونحوها ، والملاط ما رقّ من الطين ونحوه السَّياع ، ويقال للماج الذى يمسح به وجه الحائط المِسْيَعَةُ والمِسَحَّةُ والمِطْمَرُ الخيط الذى يقدر به البناء ، والشِّيد والقِصُّ الجصُّ ، والجصَّاصة موضع الجص ، والملاحة مَجْمَدُ الملح . والثَّلاجة مكبِس الثلج ، والجَيَّار والكِلْس الصَّاروج . قال الجوهرى : الصاروج النورة وأخلاطها فارسىّ معرب ، وكذلك كل كلمة فيها صاد وجيم لأنهما لا يجتمعان فى كلمة واحدة من كلام العرب .

وفى الدار الكنيف وأصله الحظيرة ، ويقال له الحُشُّ والمُسْتَراحُ والمخرجَ ، فأما الكِرْياس فالكنيف على السطح بقناة إلى الأرض وربما كان ناتئاً مكشوفا

---

(١) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام . ويشاد : يبنى (٢) العقر : القصر

والمِرْحاض المغتسَل ، والمِرْزاب والميزاب جميعاً المِثْعَب ، ويكون من خشب وغيره ؛ والبالوعة ثقب فى وسط الدار ، وكذلك البلوعة والجمع البلاليع ، ويقال للأسطوانة الآسية والسارية . قال جرير :

وجدنا بيتَ ضَبَّةَ فى مَعَدٍّ كبيت الضَّبِّ ليس له سوار(١)

وَطَوار الدارِ فِناؤها ، ومثله الجَناب والعَذِرة ، وجعلت اسما لما يقوم عنه الإنسان إذا كان يُلقى بها ، والنُّؤىُ حاجز حوْل الخيمة يُحْفَرُ للمطر ، والدِّمَنَ آثار الدار والكِرْس ما تلبد من الأبوال والأبعار ، والطلل ما شَخَص من الآثار ، والرَّوْسَم الرَّشْم وهو كل أثر لا شخص له .

وفى الدار المطبخُ وهو موضع الطبخ ، والمخبز موضع التنور ، والمِسْعَرُ والوطيس والتنور والهيلَمُ واحد ، والكرامة طبق التنور ، والمناقة حُجْرهُ ، والساعور تنور فى الأرض صغير .

ومما يتصل بالدار الإصْطَبْلُ ويجمع على اصطبلات وأساطب ، وفيه المَرْبط وهو الموضع الذى تربط فيه الدواب ، والمِرْبَطُ بكسر الميم الحبل الذى تربط به الدابة ، وفيه المعلف وهو موضع العلف ، والآرِىّ والآخية محبس الدابة ، يقال تأرى أى تحبّس .

وفى الدار القصر ويقال له المِجْدَل والفَدَن والعَقْر والصرح وهو كل بناء مرتفع . والأُطُمُ والأجم الحصن وجمعهما آطام وآجام . قال قيس بن الخطيم :

فلولا ذُرَى الآطام قد تعلمونه وترك الفَلاشُور كنتم فى الكواعب(٢)

والسُّور حائط الحصن ، والرَّبَض حائط حول السور ، والشَّرَفُ ما أشرف فوق الحائط واستشرف الناس من ورائه أى رفعوا رؤوسهم ، والبلد ، ثم المدينة

---

(١) يقول : وجدنا شرف هذه القبيلة شرفا غريبا ضعيفا واهيا فيما بين العرب كبيت الضب الذى هو جحر فى الأرض لا دعامة له فاذا ضرب بأصغر معول نهدم عليه فكذلك بيت شرف هذه القبيلة . (٢) يقول : لولا أعالى الحصون التى عرفتم التجاءكم اليها وهربكم من الصحراء — لسبينا نساءكم وشركناكم فى النواهد منهن .

وهى أصغر من البلد ، ثم القرية وهى أصغر من المدينة ؛ ومن أبنيتهم البُرْأة والقُتْرة والناموس والدُّجية والقُرْموص وهى مواضع يستترفيها من الصيد ، والمَرْقَب : موضع الطليعة وهو الدَّيْدَبان[1] ، والحِواء مكان الحىّ الحِلال ، والموسم مكان السُّوق . والمَحْفِل مجمع الرجال ، والمأتم مجمع النساء ، والنَّدِىّ مجمعهم للسَّمَر والحديث والمصطبة مجتمعهم لعظام الأمور ، والخان مكان مبيت المسافرين ، والحانوت مكان الشراء والبيع ، والسُّدَّة مابنى أمام الحانوت ، والعِضادة حانوت صغير قدام الحانوت الكبير ، والحانة مكان التسوّق فى الخمر ، والماخور مكان الشرب فى منازل الخمارين ، والديماس الحمام ، والآتون موقد ناره ، هذا كله مما يدلك على أن القوم ممن كان له فى هذه الصناعة اليد الطولى ، والقدم الراسخة كيف لا وفى أرضهم المبانى القديمة ، والقصور المشيدة ! وقد بقيت إلى اليوم أطلالها ، ولم يمح من وجه البسيطة رسمها ولا مثالها !

بيوت أهل البادية من العرب

بيوت العرب على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبجاد من وَبَر ، وفُسْطاط من شعر ، وسُرَادِق من قطن ، وقال الجوهرى السرادق واحد السرادقات التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف القطن فهو سرادق ، قال رُؤْبة :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود

ويقال بيت مسردق ، قال الشاعر يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه صدور الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ

ومن بيوتهم القَشْع وكانوا يتخذونه من الجلود ، والقَشْع : الجلد اليابس ، قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالكا :

---

(١) العراقيون اليوم يبدلون الياء زايا فيقولون : « الدزدبان » .

ولا بَرَماً تهدى النســاء لعرسه   إذ القَشْع من برد الشتاء تقعقعا[1]

والطِّراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم ، قال قائلهم :

رأيت بنى الغبراء لا ينــكروننى   ولا أهل هذاك الطِّراف الممدّد

وبنو الغبراء : هم الفقراء ، يريد أن الممدوح يعرفه الفقراء والأغنياء . والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شَذَب وهو جمع شذبة بالتحريك وهو ما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر ولم يكن فى لبه ، قال الجوهرى : والحظار الحظيرة تعمل للابل من شجر لتقيها الريح والبرد ، والمحتظر الذى يعمل الحظيرة ، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر ، والجمع خيمات وخيم مثل بدرة وبدر ، والخيم مثل الخيمة والجمع خيام مثل فرخ وفراخ ، وتخيم بمكان كذا ضرب خيمته به والأُقْنة بيت يبنى من حجر والجمع أُقَن مثل ركبة وركب قال الطِّرِمّاح :

فى شَنَاظِى أُقَنٍ بينها   عُرّة الطير كصوم النعام[2]

والـكُبّة بيت يبنى من لبن . وهذه البيوت العشرة لم يتفق عليها أهل اللغة بل اختلفوا فى بعضها ، وهذه البيوت لأهل البوادى أحب لديهم من القصور المشيدة والبيوت المزخرفة ، وفى ذلك يقول قائلهم :

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيــه   أحبُّ إلىّ من قصرٍ مُنيفِ[3]

(وقال آخر)

الحسن يظهر فى شيئين رَوْنَقُهُ   بيت من الشِّعْر أو بيت من الشَّعَر

وسبحان من تصرف فى قلوب عباده كما شاء واختار ، ومنها :

---

(١) ج ١ ص ٧١ (٢) شناظ كثمان جمع شنظوة وهى اعلى الجبل و«بينها» بروى فى موضعه «دونها» وعرة الطير: ذرقه. وعر الطير يعر: سلح. والصوم : سلح النعام (٣) البيت لميســون امرأة معــاوية رضى الله عنه . وسيأتى عند الكلام على (ســكنة البوادى من العرب وما امتــازوا به عن الحضريين) .

صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات كل أمة من الأمم لاسيما أهل العمران ، وقد بينا أن العرب منهم أهل حضر وحاجتهم إلى هذه الصناعة من الضرورى ، فانه لا بد لهم من السقف لبيوتهم ، والأغلاق لأبوابهم والكراسى لجلوسهم ؛ ومنهم سكنة البوادى وهم الأعراب ، ولابد لهم من العمد والأوتاد لخيامهم ، والحدوج لظعائنهم ، والرماح والقسىّ والسهام لسلاحهم إلى غير ذلك وكل واحدة من هذه الأمور فالخشب مادة لها ، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة ، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها . قال ابن خلدون : فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو ألواح ، ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصورة المطلوبة ، وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص ؛ والقائم على هذه الصناعة هو النجار ، وهو ضرورى فى العمران ، ثم إذا عظمت الحضارة ، وجاء الترف ، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف : من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون ، حدث التأنق فى صناعة ذلك ، واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضرورى فى شىء مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى ، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط بحكم بريها وتشكيلها ، ثم تؤلف على نسب مقدرة ، وتلحم بالدساتر فتبدو لرأى العين ملتحمة ، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء آنق ما يكون ، وكذلك فى جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان ، ثم بين الأمور التى تحتاج إلى هذه الصناعة ، وما تتوقف هى عليه من المعارف ، ومن تعاطى هذه الصناعة من الأوائل والأقدمين ، والمقصود من نقل كلامه بيان حقيقة هذه الصناعة

وتعريفها ، فإنه لم يعرج على بيانها غيره ، وأن العرب كان منهم من زاول هذه الصناعة ومارسها وتقدم فيها على حسب استعداده وقابليته ؛ وقد رأيت فى كلام الأئمة من أهل اللغة فى ذكر أسماء أوصال الصور والأشكال المخصوصة ما يفيد كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وكذلك ما ورد عنهم من أسماء آلات النجارة ما لو لم يمارسوها لما عرجوا عليها ، ولنورد مما ذكروه شيئاً من القسمين لازدياد البصيرة : —

أوصال الباب ، وأسماء أجزائها

الباب من ضروريات الدار ، ومن الأمور التى لا بد منها ؛ وهى إنما تتكون بصناعة النجارة ، والعرب قد وضعوا لكل جزء مما تركب منه اسماً كما وضعوا لجملتها أسماء ، فمن أسمائها : الباب والرتاج ، قال امرؤ القيس :

له كَفَلٌ كالدِّعْص لَبَّدَهُ النَّدَى ... إلى ثَبَجٍ مثل الرتاج المضبَّب [1]

ويقال له إذا كان واحداً فرد ، فإن كان زوجاً فهما مصراعان ، وهى أبواب أفراد وأبواب مصاريع ، ومن أسماء الأوصال : ففى الباب ألواحه والواحد لوح ففيه المنكبان وهما جانباه ، والمِزْدَمَ والمِزْدَى ما يضم أسفل المنكبين ، والمِقْعَمُ ما يضم أعلاهما وهو اللوح المعروض بينهما ويقال له المِلْحَام ، والصفائح الألواح العراض بينهما والواحدة صفيحة ، والزافر الذى يقال له أنف الباب ، ويد الباب أعلاه الذى يدور فى الُحْقّ الأعلى ، ورِجْلِهِ الذى يدور فى الُحْقّ الأسفل ، فإن كان من حديد فهو قطب ! ويقال للحق الأسفل الجَيْرور والنَّجْران . قال الشاعر :

صببْتُ الماء فى النَّجْران صبًّا ... تركت الباب ليس له صَرِيرُ

وصريره صريفه وهو صوته ، والفائز الخشبة المثقوبة التى تدور فيها يد الباب ، ويروى فى الألغاز :

---

(١) أى لهذا الفرس كفل كالرمل المتراكب . لبده الندى : اى ركب المطر بعضه على بعض . الى ثبج : اى مع ثبج وهو مغرز الكاهل . والمضبب : الذى عليه ضبات الحديد .

وما عَزِيزٌ سرٌّ يوماً فَعَطِب وفائزٌ والنّارُ فيه تَلْتَهِبَ[1] ؟

وللباب العِضادتان وهما خشبتان تكتنفانه ، والأُسْكُفَّة الخشبة التى تضم العِضادتين من أسفل ، والعَتَبة التى تضمها من فوق ؛ وهذه الأربع إذا أدخل بعضها فى بعض فصارت مربعة فهى إطارُ الباب كما يقال إطار المنخل . والسَّقيفة ما فوق العتبة من الخشبة التى توصل بها ، وإياد الباب وسَنَده ومَلاذَته خشبة تركب على ظهره تنفَذُ إليها أذناب المسامير ، وتوثّق بها ألواح الباب ؛ والمسامير ما كان من حديد والواحد مسمار ، والوَدّ الوَتِدُ من خشب وجمعه أوتاد ، والبوان خالفة الباب ، وفى المجمل : البوان عمود البيت ، وقال الجوهرى : البِوان بكسر الباء وضمها عمود من أعمدة الخباء والجمع بُون بالضم ؛ وللباب حَلَقته ومِقْرَعته وهى التى يقرع بها الباب ، قال الشاعر :

من قَرَعَ البـابَ وَلَمْ يعجز عن القرع دَخَلْ[2]

فإذا كان مكانها سَيْرٌ فهو وَذَم ، والرزة الحلقة التى يقع فيها الزِّرْفين إذا أغلق ، وكتائف البـاب وَضَبّاته ما يركب عليه من الحديد والواحدة ضَبَّة ، والكَتيفة الورد ، واللَّوْلَب حديدتان متركبتان ذكر وأنثى ، والمِغْلَق موضع المِغْلاَق والمِغْلاَق ما يفتح بالمفتاح ، والمِعْلاق بالعين غير معجمة ما لا يحتاج إلى مفتاح ، والقَفْوجحر الغلق ؛ وفى الغلق البلاطيط والواحد بلطاط ، وهى الخشبات التى تقع فى الثُّقَب التى ينغلق الباب بها ، ويقال : قَلْقِل الغَلَق حتى تقع البلاطيط فى أقماعها ، والمِقْلاد المفتاح وجمعه مقاليد ، وأسنان المفتاح هى التى ترفع البلاطيط عن الأقماع للفتح ، والخَرق فى الباب يسمى الصير وهو الشق ، وفى الحديث « من نظر فى صير

---

(١) يقول : ما ولد كريم على والديه قطعت سرته فكان سبب هلاكه ؟ وهذا ما الغزت به الشعراء لانه يتوهم أن « سرٌّ » من السرور ، وانما يراد به قطع السرة ، والسرور لا يكون سببا للعطب كما يكون قطع السرة سببا له . وقوله « فائز » يقول : وما فائز تحرقه النار ؟ والفائز الذى ينال الفوز فكيف يفوز من التهبت فيه النار ؟ وانما المراد بالفائز الخشبة التى فى الباب .

(٢) يريد ان من دام على طلب امر ولم يفتر عنه وصل الى مراده منه .

باب ففقت عينه فهو هَدَر » فإن كانت فى الباب خروق فهو مخرّق ، فإذا لم تكن ألواحه متضامّةً ، وكانت بينها فرج ، قيل : باب مُضَلّع ومُخَلّل ، ويقال لما كان كذلك من خشب غير ألواح مشبّك ، وباب مصفّح إذا كان من صفائح عراض حَسْبُ ، وتقول : أصفقت الباب وَسَفَقْتَه إذا ألصقته بالعَتَبة ، وأجفته إذا تركت فيه فرجة ؛ وقد رددت الباب فهو مردود غير مصفّق ، وبلقت الباب فتحته وانبلق انفتح ، والبلق الباب المفتوح ، وأغلقته فهو مغلق ، والمحصن القفل وقد أقفلته فهو مقفل ، وللقفل عموده وهو حديدته الطويلة ، والفراشة التى تغيب فى مغلق القفل منشب ، ونُعام الفراشة الحدائد المستطيلة المركبة عليها ، وأعيار الفراشة ما نتأ منها والواحد عير . ويقال للقفل : الجِلازة ، وقشّ القفل إذا عالجه بشىء يحشوه به فيفتحه من غير مفتاح .

أدوات النجارين وآلاتهم

لا يخفى أن لهذه الصناعة أدوات كثيرة لا يمكننا استيعابها فى مثل هذا المقام ، وإنما نذكر بعضاً منها استدلالا على مقصدنا . فمن آلاتهم (الفأس) وهى مؤنثة وجمعها أفؤس وفُؤُوس (والخصِينُ) بالخاء معجمة والصاد غير معجمة : فأس ذات خلف واحد (والحَدأة) ذات رأسين والجمع حَدَأً ، قال الشماخ :

يبَاكِرْنَ العِضَاهَ بِمُقْنِعَاتٍ   نواجِذُهُنّ كَالحَدَإِ الوقيعِ[1]

أى المحدود المضروب بالمطارق (والصافور) الفأس العظيمة التى لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة وهو المِعْوَلُ أيضاً ، وقد صقرت الحجارة صقراً إذا كسرتها بالصاقور (والكرزن) والكِرزين بالكسر فأس عظيمة يقطع بها الشجر ومثله الكَرْزَم والكرزيم والكرزوم ، قال جرير :

وأورثك القين العَلاةَ ومرجلًا   وأصلاح أخرات الفُؤُوس الكرازما[2]

---

(١) يقول : تغدو هذه الابل الى العضاه — وهو شجر له شوك — فتنفض أغصانها كأنما اسنانها التى تعمل فيها فؤوس قد حددت وضربت بالمطارق .
(٢) القين : الحداد . والعلاة : السندان . والمرجل : القدر .

(والقَدُوم) الفأس الصغيرة ، وهى مخففة ، قال الشاعر :

تُنيفُ برأسٍ فى الزمام كأنه قَدُومُ فُؤوسٍ ماجَ فيها نِصابُها[١]

وقال الجوهرى : والقدوم التى ينحت بها مخففة ؛ والجمع قدم ، قال الأعشى :

أقام به شاهبور الجنـو د حولين تضرب فيه القدم

وجمع القدم قدائم مثل قاص وقلائص ؛ والُخْرت ثقب الفأس ، ونصابها خشبتها ، ويسمى الفِعال . وأنشد ابن الأعرابىّ :

أتته وهْى جانحـة يداها جنوح الهِبْرقىّ على الفعـال[٢]

وغرابها حدُّها ، والوَشِيظة والنِّخاسة عويد يجعل فى خُرتها أو فى فتق نصابها ليضيقِ ، وذلك إذا ضمر النصاب ولم يتماسك ، يقال وشطته ونخسته ، وقلقت الفأس، وماجت إذا اتسع خُرتها واضطربت فى نصابها ، فإن خرجت منه قيل نَصَلت تنصل نصولاً . قال الراعى :

فى مَهْمَهٍ قلقت به هاماتها قَلَقَ الفُؤُوس إذا أرَدْنَ نصولا[٣]

ومنها (المِنْشار) وهو ما ينشر به الخشب أى يقطع ويقال نشرته وأشرته ووشرته ، ولذلك يقال أيضاً مِئْشار ، والنشارة ما سقط منه ، ومنها (المِحْفَرَة) وهى آلة يحفر بها الخشب ، ومثلها المنقار ونقرت الشىء إذا ثقبته بالمنشار ، ومنها (المِسْحَلُ) وهو مِبْرَدٌ أخشن من مبرد الحديد ، وهو الذى يسحل به الخشب أى ينحت ، والصغير من ذلك مِسْرَد ، ومنها (المِثْقَب) وهى آلة يثقب بها الخشب ، ومنها (الكلبتان) وهى آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب ، ويأخذ بها الحداد الحديد المحمى ؛ ومنها (العتلة) وهى آلة من حديد كأنها رأس فأس (وبيرم النجار) وتطلق أيضاً على العصا الضخمة من الحديد لها رأس

(١) يقول : ترفع مع الزمام راسا يشبه فى رقته وايصاله بعنق كانها حديدة فاس مع نصالها وهى تضطرب فيه . (٢) يقول : جاءته وهى معتمدة يديها كاعتماد الهبرقى (اى الحداد) على النصاب اذا اراد ان يعمل بحديده فيه .

(٣) يقول : اضطربته رؤوس هذه الابل فى هذه الصحراء كما تضطرب الفؤوس اذا ارادت الخروج .

مفلطح يهدم بها الحائط . إلى غيرذلك من الآلات والأدوات المفصلة فى كتب اللغة ، ولولا معرفتهم بهذه الصناعة لم يستعملوا تلك الأسماء لهذه الأدوات ، ومنها :

الحدادة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات الأمم ، ولا يمكنهم الاستغناء عنها بوجه ومنافع الحديد للناس فى معايشهم ومصالحهم ليست بخفية على أحد ، إذ ما من صنعة من الصنائع ولا عمل من الأعمال إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها ، وفى التنزيل : «وأنزلنا الحديدَ فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوىٌّ عزيز» وهذه الصناعة من الصنائع القديمة فى العالم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان . وروى أنه نزل ومعه المر والمسحاة . وفى خبر نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والإبرة والمطرقة والميقعة وفسرت بالمسن وتجىء بمعنى المطرقة أو العظيمة منها أو ماتحد به الرحى . وفى حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهى آلات الصناع أو سكة الحرث وليس بعربى محض . وكانت العرب تسمى صاحب هذه الصنعة القين : قال الجوهرى : القين الحداد والجمع القيون . وعن ابن السكيت يقال للحداد ما كان قين ولقد قان يقين قينا . يقال قن اناءك هذا عند القين . وقنت الشىء أقينه قينا لممته وأصلحته ، وأنشد :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدوع الهوى لو كان قينٌ يقينها

وفى المثل (إذا سمعت بسرى القين فإنه مصبح) وهو سعد القين . صار مثلًا فى الكذب والباطل يقال دهدرين . سعد القين . ويقال لبنى القين من بنى أسد بلقين كما قالوا بلحرث وبلهجيم وهو من شواذ التخفيف . وكان القيون مختلفين فى الأعمال فمنهم من كان يعمل اللجم والازمة لدوابهم وهى مشتملة على أجزاء كثيرة وأوصال مختلفة ، قال أبو عبد الله الإسكافى فى كتاب المبادىء :

فى اللجام الشكيمة وهى الحديدة المعترضة فى الفم ، والفأس الحديدة المنتصبة من الشكيمة ، والقَرَاشتان جانبا الشكيمة ، وإليهما يربط العِذَاران والخُطَّافان والشاكلتان حديدتان مُعَقَّفتان للعنان والـكَلُّوبان خُرْتان يدخل فيهما طرفا العنان ، والحَكَمة الحديدة التى تستدير حول الأنف والحنك الأسفل وهما حكمتان ، والمِسْحَلان حديدتان تكتنفان الشِّدقين ، والحديدة الواقعة على الصُّدْغ صُدْغ ، والطَّرف ما فى أطراف السيور وقد يكون من فضة والنِّكْلُ لُجُم البغال . وقد أطنب فى الكلام عن اللجام وما اشتمل عليه . والمقصود بيان أن هذه الصناعة كانت راسخه فيهم حتى تمكنوا من صنعة دقائقها ، ومنهم من كان يعمل لهم السيوف . وقد اشتهر بهذا العمل رجل اسمه سريح كان ماهراً فى صنعتها متقناً لها . والسيوف . السريحيات نسبة إليه ، وكانوا يسمون الذى يطبعها أى يعملها الطباع والصيقل هو الذى يصقلها . وفى ذكر أسماء ما اشتمل عليه السيف يعلم دقة صنعته وما يحتاج إليه من زيادة المعرفة فى هذه الصناعة . فحديدته هى النَّصل والسيلان سِنْخه فى القائم ، ومتن السيف ظهر النصل يقال سخّن متنه أى أحماه ، وصدر السيف مقدمه ، وعرضاه وصفحاه وصفحتاه وألألاه بطنه وظهره ؛ فأما حداه فهما الذلقان والذبابان والغراران والشفرتان ، ومَضْربه ما تُضْرَب به الضريبة وظُبَتُهُ طرف المضربة ، وشباته طرف الظبة ، وصَبِيَّا السيف ناحيتا الشباة ، وعَيْراه حرفان مرتفعان وسط متنه يقال سيف مُعَيّر . والعُرْصان ما بين العَير إلى الحدَّين ، ورونقه ماؤه وفِرِنْدُهُ ، وأُثْرُهُ كدبيب النمل فى متنه وهو مأثور ، وسيف مشطَّب ومشطوب فى متنه شطبة وهى طريقة فيه مرتفعة عنه ، وتسمى سِفْسِقة السيف ، أو السَّفِقَة ما بين الشُطْبتين على صفحة السيف طولاً ، وللسيف القائم وهو مقبضه ، وفى القائم القبيعة وهى الفضة أو الحديدة فى طرفه كالـكُرَة ، ويسمى أعلى القبيعة القُلّة ، يقال : سيف مقلَّل . قال الهذلى :

ولقد شهدتُ الحيّ بعد رقادهم تُفْلى جماجمهم بكلّ مُقَلَّل

والمسمار الذى فى طرفى القبيعة وفى القائم الكلب والحِرْباء ، والشعيرتان طرفا الحرباء وفى إحداهما حَلَقة فيها السير الذى يسمى القلس والنَّعفة والذؤابة والعلاقة ، والمسمار الذى فى وسط القائم أيضاً حرباء وكلب وفى كل قائم كلبان ، والسَّفَن الجلد الأحرش المحبّب الخشن يلبس القائم . والربأس من فضة أو حديد يجمع بين طرفى السَّفَن ، وقد يسمى القائم رئاساً . قال مُعَقّر بن حمار البارقىّ :

هما بَطَلان يعثران كلاهما يُريد رئاس السيف والسيف نادِرُ [(١)]

وغاشية القائم فضة أو حديد تُوارى رأس الجفن إذا أغمد ، وشارباه طرفا الغاشية وما تحت الغاشية من الجفن الزافر ، والأسائن جمع أسينَةٍ وهى سيور أدخل بعضها فى بعض وضُفِرَتْ على القائم ، والجَفْن الغِمْدُ والقِراب ، وإزاره الجلد الذى يلبس ظاهراً ، وخِلَّتُهُ جلد يبطن به ، والنعل حديدة أسفل الجفن . والمِحْمَل والحمالة والنِجّاد وهو السير الذى يركب العاتق ويحمل به . قال الشاعر :

إلى مَلِكٍ لا تَنْصُفُ النعلُ ساقَهُ أجَلْ لا وإن كانت طوالاً محامله [(٢)]

أى لا تبلغ نعل سيفه نصف ساقه لطول قامته ، قال الشاعر :

كأنّ عليها خِلَّةً فارسيَّةً يُقطِّعُها بين الجفون الصياقلُ [(٣)]

لأنّ الخِلَّةَ كانت جلوداً منقوشة . والرصائع جمع رضيعة وهى سيوز تُضْفَرُ بين الجفن والنجاد قال الشنْفرى :

هَتوف من المُلْسِ المتون يزينها رصائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَلُ [(٤)]

والبكرات الحلق التى فى النجاد كَفُلُوخ النساء وهى مُدَوَّرات فى أطراف

---

(١) يقول : هما شجاعان يسقط كل واحد منهما صاحبه ويريد أن يعتمد على الرئاس والنصل قد خرج قائمه . (٢) أى الى ملك تام القامة فاذا تقلد السيف لم تبلغ نعل سيفه نصف ساقه وان كانت حمائله طويلة .

(٣) يقول : لم يبق من آثار هذه الدار الا آثار كأنها جلود منقوشة يقطعها الصياقل ليغشوا جفون السيوف . (٤) يقول : قوس ترن اذا جذب وترها من القسى اللينة الليط ويزينها ما رصع به جعبتها ومحمل سيف مقرون بها . والرصائع : سيور تضفر بين الجفون والنجاد .

الحمائل تُمسِك القيود ، والقيود حلق فى أحد جانبى الجَفْن ، والزوائد أطراف القيود ، وقد يشد فيها السيور ، فإذا سهل خروجه من غمده قيل سَلِسَ ودَلَقَ ، وإن تعسر قيل نَصِبَ وحَجِجَ ، فإن ارتدّ عن الضريبة قيل نَبَا ، فإن انكسر قيل انقصف ، وقيل صابيته أملت طرفه نحو الأرض كَمُصاباة الرماح ، وهززته فاهتزّ أى اضطرب . . ومنهم من كان يصنع لهم النبال والمسامير والسكاكين والأوانى وسائر الأدوات والآلات ، والكلام فى بسط ذلك يطول ، وقد أطنب فى بيان ذلك أبو عبد الله الإسكافى فى كتاب المبادىء ، وكذا غيره من أئمة اللغة .

أدوات الحدادين وآلاتهم

من جملة آلاتهم وأدواتهم ، القرْزُم والعَلاة ، وهى السندانة ، وعن ابن دريد أنّ القرزم بالقاف مضمومة لوحُ الإسكاف المدور ، (والمِطْرَقة) وهى آلة يضرب بها الحديد ، و (الفطيس) أكبر منها وهى الميقعة أيضاً ، يقال : وقعت الحديدة أقعُها وقعاً (والمِبْرَد) الذى يبرد به الحديد . والبرادة ما سقط منه ، وفسالة الحديد ما تناثر منه عند الضرب إذا طبع (والمِشْحَذُ) مبرد للحديد أعظمها وأخشنها . وقال الجوهرى : المشحذ المسنّ ، والمِقْراص ، للحديد كالمقراض للثوب . وقال الجوهرى : والمقرص والمقراص الذى يقطع به الفضة ، قال الأعشى :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراص الخَفَاجىّ ملحبا

(والخفاجى) نسبة إلى خفاجة بالفتح حى من بنى عامر مشهورين بهذه الصنعة (والمنفاخة) ما ينفخ به الكير . والكير الذى ينفخ فيه . وفى الصحاح : كير الحداد زقّ أوجلد غليظ ذو حافات ، وأما المبنىّ من الطين فهوالكور (والمُشَرْجَعُ) مِطْرَق لا حروف لنواحيه ، ومطرقة مشرجعة أى مطولة لا حروف لنواحيها ، وإذا كان الشىء مربّعاً فأمرت بنحت حروفه قلت شَرْجِعْه (والعَسْقَلان) آلة

للصائغ وهو أصغر مطرقاته ، والغُدَاف الحديدة التى يدخل فى أحد طرفيها الخـاتم ويركُزُها على الجبأة وهى الخشبة التى بين يديه ؛ قال الشاعر :

* كَوَقْعِ العَسقَلاَن على الغدَاف * والِحمْلاج : منفاخه وهو حديده مجوّفة ينفخ فيها الصائغ إذا أراد النفخ فى كيره وله الـكلبتان والمثقب . ومنها :

الحياكة والنسج

هذه الصناعة من الصناعات التى كانت من مكاسب العرب ، وهى أيضاً من ضروريات الأمم ، فإن كل أمة ولاسيما أهل الحاضرة محتاجون لهذه الصناعة لأجل لبوسهم وفرشهم وحمل أثقـالهم ونحو ذلك ؛ وقد امتن الله تعـالى عليهم بقوله : (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) الآية . وبهذه الصناعة يعرف كيفية نسج الغزل من الصوف والـكتان والقطن سداً فى الطول وإلحـاماً فى العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة ، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثيـاب من القطن والـكتان للباس . وبلاد العرب من العمران المعتدل فالدفء ضرورى لهم ولابد لهم من سرابيل تقيهم الحر والبرد ، وربما استغنى عن هذه الصناعة أهل البـلاد المنحرفة إلى الحر كما ينقل عن كثير من السودان أنهم عراة فى الغـالب . وسيجىء إن شاء الله ذكر ما كان ينسجه العرب ، وكان من المستجاد لديهم نسج اليمن .

أدوات الحياكة والنسج

كل حرفة من الحرف ، وصناعة من الصناعات ، لابدّ لها من آلات تخصها ، وأدوات تتوقف عليها ، فمن آلات هذه الصناعة عند العرب : « الحفُّ » وهو الذى تلْمَظُ به اللحـمة أى تلقم ويصْفَقُ ليلتقمها السـدى ، والجمع الِحفَفَة . وقال الجوهرى نقلا عن الأصمعى : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التى يلف عليها الحائك الثوب . قال والذى يقال له الحفّ هو المِنْسَج ، ونقل عن أبى سعيد : الحفة

المنوال ، ولا يقال له حف وإنما الحف المنسج ؛ ومن أدواتها (الوشيعة) وهى المِنْسَج وهى قصبة فى طرفها قرن يُدْخل الغزل فى جوفها وتسمى السهم ، وقال الجوهرى : الوشيعة لفيفة من غزل وتسمى القصبة التى تجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج وشيعة ، قال ذو الرُّمّة :

به ملعبٌ من معصفات نَسَجْنَهُ كنسج اليمانى برده بالوشائع

(والمِشْيَعَةُ) ما يلف عليه الغزل (والثناية) التى يثنى عليها الثوب (والعَدْل) خشبة لها أسنان كأسنان المِنْشار يقسم بها السدى ليعتدل (والصيّصة) عود من طرفاء كلما رمى بالسهم فألحمه أقبل بالصيصة وأدبر بها . وفى الصحاح : الصيصة شَوْكة الحائك التى يسوّى بها السداة واللحمة . قال دُرَيْدُ بن الصِّمّة :

فجئت اليه والرماحُ تَنُوشُه[1] كَوَقْعِ الصَّياصى فى النسيج الممدّد

ومنه صيصة الديك التى فى رجليه (والنير) الخشبة المعترضة التى فيها الغزل وثوب منيّر ذو نيرين مضاعف النسج ، ومن اللغويين من يقول : النير لحمة الثوب فاذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى (والمداد) عصاً فى طرفيهـــا صِنَّارتان يمـــدد بها الثوب (والصنَّارة) رأس المغزل (والكُفّة) الخشبة المعترضة فى أسفل السدى (والحماران) يوضعان تحتها ليرفع السدى من الأرض ، والمُهْرَةُ والرَّفيد بالفارسية تلّهْ (والمِثْلَث) قصبات ثلاث تسمى بالفارسية سِكَانَهْ (والمبرم والبريم) الحبل الذى جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً ، والمبرم من الثياب المفتول الغزل طاقين ومنه سمى المبرم وهو جنس من الثياب . وسدّى الثوب تسديةً إذا مد الغزل ليسقيه الخزيرة وهى كالحساء من دقيق (والشَّفْشقَة) والشفاشق قصب يُشَقّ ويوضع فى السدى عَرْضاً ليتمكن به من السقى (والدعائم) خشبات تنصب ويمد عليها السدى ، والسدى والستى واحد وسَدّى مبرم وسدى سِحيل

---

(١) اى تناوشه وتأخذه .

واللَّحمة بالفتح ما يُلْحَم به ، وأداة الحائك المنصوبة تسمى (المنوال) وهو النول أيضاً قال قائلهم :

حوكت على نَوْلين إذ تحاك وتخبط الشوك ولا تشاك[1]

ومنها :

الخياطة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات العمران ؛ وكانت من مكاسب العرب وأحد أسباب معايشهم ، وعرفها (ابن خلدون) بأنها تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة . قال : وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضرى لما أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً ، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . ثم بين سر تحريم المخيط فى الحج ، وقدم هذه الصنعة ، والتى قبلها ومن ابتدأ بها ، ومن وقف على كسوة العرب وما كانت تلبسه وتفترشه وما ورد عنهم فيها من الأسماء تبين له كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وهذه نبذة منها : —

كسوة العرب

الكسوة هى الثياب التى تلبس ، وقد ذكرنا أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب أن أهل البادية من العرب (وهم الرحل الذين لا يقيمون بمحل ، كان شعارهم لبس المخيط فى الغالب ، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم ، وربما ألقوا رداءاً على ظهورهم واتزروا بإزار ، وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا

(١) يصف رداءة نسجت على نيرين فهى فى غاية من القوة والمتانة حتى انها تضرب الشوك ضربا شديدا ولا يخرقها ولا يؤثر فيها لصفاقتها .

يتفننون فى لبوسهم ، ويختلفون فى كسوتهم ، فكان الكاهن لايلبس المصبغ والعرّاف لايدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لايفارق الوبر ؛ والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقى رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زىّ ، ولكل مملوك زى ولذوات الرايات زى[1] وكانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا من الحرم يتقلدوا القلائد ، ويعلقوا عليهم العلائق ، وإذا أذوم[2] أحدهم الحج تز يا بزى الحاج ، وإذا ساق بدنة أشعرها[3] حتى إنهم خالفوا بين سمات الإبل والغنم ، وأعلموا البحيرة بغير علم السائبة وأعلموا الحامى بغير علم الفحول ، وكذلك الفرَع والرجبية[4] والوصيلة والعتيرة من الغنم ، وكذلك سائر الأغنام السائمة ، وإذا كانت الإبل من حباء ملك غرزوا فى أسنمتها الريش والخرق ، ولذلك قال الشاعر :

يَهَبُ الهِجانَ بريشها ورِعاثها ... كالّليْلِ قبل صباحه المتبلّجِ

وإذا بلغت الإبل ألفاً فقأوا عين الفحل ، فإن زادت ففقأوا العين الأخرى فذلك هو المفقأ والمعمى ، وقال شاعرهم :

فقأتُ لها عينَ الفحيل تَعَيُّفاً ... وفيهنّ رَعلاء المسامع والحام[5]

وقال الآخر :

وهَبْ لنا وأنت ذو امتنان ... تفقأ فيها أعينُ البُعْران

وقال الآخر :

فكانَ شكر القوم عند المنن ... كَىّ الصحيحات وفَقْء الأعين

والمقصود أنهم مختلفون فى اللباس والزى والسيماء ، حتى انهم اعتبروا

---

(١) مر ذكرهن فى الجزء الثانى ص ٤ و٥ (٢) أو ذم الحج : أو جبه على نفسه (٣) البدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، واشعرها : اعلمها اى جعل لها علامة وهو أن يشق جلدها أو يطعنها فى سنامها حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدى . (٤) الرجبية : شاة كانوا يذبحونها فى رجب لآلهتهم . وشرح الكلمات الباقية : فى أوائل هذا الجزء . (٥) التعييف : التكهن وزجر الطير . والرعلاء : الطويلة الاذن ، والناقة تشق جلدة من اذنها فتعلق فى مؤخرها .

ذلك فى غيرهم مما يخصهم ولو بسطنا الكلام على ملابسهم، وماقالوا فيها من الشعر ، وما ورد عنهم من الأسماء ، لأدى ذلك إلى سفر كبير ؛ وكذلك الكلام على فرشهم ، وأرائكهم ، وما يتصل بذلك ، فإنه يطول جداً ، ونخص الكلام على ماورد عنهم فى العمائم والنعال ، وكان ذلك من زيهم العام : —

العمائم وماورد عنهم فيها من الشعر

كانت العمائم تيجانهم وبها عزهم ، وفى الحديث « كانت عمائم العرب محنكة » أى طرف منها تحت الحنك ، ومن أسماء العمامة : العِصابة ، والمِقْطَعَة ، والمِعْجَر ، والمِشْوَذ ، والكوارة ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سَرِيَّة فأمرهم أن يمسحوا على المشاوذ والتساخين . وهى العمائم والخفاف ، وفلان حسن الشيذة : أى حسن العمة ؛ وفى ﴿ كتاب لباب الآداب ﴾ : وكانت السادة من العرب تلبس العمائم المهراة وهى الصفرة ، قال الشاعر :

رأيتك هربت العمائم بعدما عمرت زماناً حاسراً لم تعمم

فزعم الأزهرى أن تلك العمائم المهراة كانت تحمل إلى بلاد العرب من هراة فاشتقوا لها وصفاً من اسمها ، وأحسبه اخترع هذا الاشتقاق تعصباً لبلده هراة كما زعم حمزة الأصبهانى وهو أن السام الفضة وهو معرب عن سيم ؛ وإنما نقول هذا التعريب وأمثاله تكثيراً لسواد المعربات من لغات الفرس وتعصباً لهم . وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصفرة ، وذكره الشاعر[1] فقال :

وأشهدُ من عوف حُلولاً كثيرةً يحجُّونَ سِبَّ الزِّبرِقان المُعَصْفَرَا[2]

وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاصى[3] إذا اعتم بمكة لم يعتم معه أحدٌ هكذا

---

(١) هو المخبل السعدى (٢) السب : الخمار والعمامة ، ويروى (المزعفرا) بدل « المعصفرا » (٣) كذا والصواب «العاص» وقد رأيت كثيرا من المؤلفين والطابعين يغلطون فيقولون « العاصى » بالياء فى هذا الرجل (انظر البيان والتبيين : ج ٣ ص ٥١ وفى عمرو بن العاص وغيرهما من ابناء هذا البيت . والحقيقة أنه من « العوص » لا من « العصيان » ولذلك يقال لهم الاعياص .

فى الشعر . ولعل ذلك أن يكون مقصوراً فى بنى عبد شمس . وقال أبو قيس ابن الأسلت :

وكان أبو أُحَيْحَةَ ، قد علمتم   بمكةَ غيرَ مهتضمٍ ذميمِ
إذا شدَّ العصابة ذات يوم   وقام إلى المجالس والخصوم
فقد حَرُمَتْ على من كان يمشى   بمكةَ غير مُدَّخلٍ سقيمِ (١)
وكان البَخْتَرِىُّ غداةَ جمعٍ   يدافعُهمْ بلُقْمانَ الحكيمِ (٢)
بأزهرَ من سَرَاة بنى لؤَىّ   كبدر الليل راقَ على النجوم (٣)
هو البيت الذى بُنِيَتْ عليه   قريشُ السرِّ فى الزمن القديم
وَسَطْتَ ذوائبَ الفَرعيْنِ منهم   فأنت لُباب سِرِّهم الصَّميم ! (٤)

وقال غيلان بن خرشة للأحنف : يا أبا بحر ! مابقاء مافيه العرب ؟ قال : إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ، واستجادوا النعال ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد ! قال : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يعدوا التواهب ذلا ! قال الجاحظ (٥) : وإذا قالوا سيد معمم فإنما يريدون أن كل جناية يجتنيها الجانى فى تلك العشيرة فهى معصوبة برأسه. قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

أبلغ نُعَيْماً وأوفى إنْ لقيتَهُمَا   إن لم يكن كان فى سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ
فلا يزالُ شهاباً يستضاء به   يَهدِى المقَانِبَ مالم تهلك الصِّمَمُ (٦)
عارى الأشاجعِ معصوبٌ بلِمَّتِهِ   أمرُ الزَّعامة فى عرْنِينه شَمَمُ (٧)

وقال الكنانى :

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الآخر :

ابو احيحة من يعم عمته   يضرب وان كان ذا مال وذا عدد

ويزعم الزبيريون أن هذا البيت باطل موضوع (الكامل للمبرد ج ١ ص١٦٥ طبع مطبعة التقدم بمصر . (٢) البخترى : الحسن المشى والجسم . (٣) سراة : جمع سرى وهو الشريف . (٤) أى توسطت فكنت أنت الواسطة بين الفرعين . (٥) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٢ (٦) المقانب : جمع مقنب وهو الجيش ، والصمم : جمع صمة وهو الشجاع . (٧) الاشاجع : جمع الاشجع وهى عروق ظاهر الكف . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن . والعرنين : الأنف ، والشمم : الارتفاع .

تَنَخَّبْتُها للنسل وَهْيَ غريبة ‏ ‏ فجاءت به كالبدر خِرْقاً معمَّما[1]

فلو شاتم الفتيانَ فى الحى ظالماً ‏ ‏ لما وجدوا غيرَ التكذّب مَشْتما

ولذلك قيل لسعيد بن العاصى « ذو العصابة » وقد قال القائل[2] :

كَعاب أبوها ذُو العِصابة وابنُهُ ‏ ‏ وعثمانُ ما أكفاؤها بكثير

وقيل لأعرابى : إنك لتكثر لبس العمامة ! قال : إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أنْ يوقى من القر . وذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى . فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ومكنة من الحر ، ومدفأة من القر ، ووقار فى النَّدِى[3] ، وواقية من الأحداث ، وزيادة فى القامة . وهى تعد عادة من عادات العرب . قال عمرو ابن امرئ القيس :

يا مالِ والسيد المعمَّمُ قد ‏ ‏ يبطره بعدَ رأيه الشَّرَفُ[4]

نحن بما عندنا وأنت بما ‏ ‏ عندك راضٍ والرأى مُختلِفُ

وكان من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع ، وفى أسواق العرب كأيام عُكاظ وذى المجاز ، وما أشبه ذلك التقنُّعُ إلا ما كان من أبى سليط طريف ابن تميم أحد بنى عمرو بن جندب فإنه كان لا يتقنع ، ولا يبالى أن يثبت عينه جميع فرسان العرب[5] ؛ وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم ، فكان هذا من شأنهم ، وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم نفسه بسيماء : كان حمزة يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء ، وكان الزبير معلماً بعمامة صفراء ، ولذلك قال درهم بن زيد :

---

(١) الخرق: الفتى الحسن الكريم الخليقة (٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية. والبيت من بيتين قالهما فى زوجته آمنة بنت سعيد بن العاص بن أمية حينما طلقها وتزوجها الوليد بن عبد الملك . والبيت الثانى :

فان تفتلتها والخلافة تنقلب ‏ ‏ بأكرم علقى منبر وسرير

— ومعنى تفتلتها : تأخذها فجاءة . (٣) المجلس (٤) يامال : ترخيم « يامالك » (٥) انظر الشرح فى ص ١٨٥ من الجزء الثانى .

إنك لاقٍ غداً غُوَاة بنى الْمَلْــــكاء فانظُرْ ما أنت مُزْدَهِف[١]
يمشون فى البَيْض والدروع كما تمشى جِمال مصاعبٌ قُطُفُ[٢]
فأبْدِ سيماك يَعْرِفوك كما يبدون سيماهُمُ فَتَعْتَرِف

وقال آخر :

إذا المرء أثرى ثم قال لقومه : أنا السيد الْمُفْضَى إليه المعمَّمُ
ولم يُعْطِهم شيئاً أبَوْا أنْ يَسُودَهُمْ وهانَ عليهم زَعْمُهُ وهو الْوَمُ[٣]

وقال آخر :

إذا كَشَفَ اليومُ العَمَاسُ من اسْتِهِ فلا يرتدى مثلى ولا يتعمَّم ![٤]

قالوا : وكان مصعب بن الزبير يتعمم العقداء وهو أن يعقد العمامة فى القفاء ، وكان منهم من يعتم الميلاء ، قال الفرزدق فى محمد بن سعد بن أبى وقاص :

ولو شَهِدَ الخيلَ ابنُ سَعْدٍ لقنّعوا عمامته الْمَيْلاءَ عَضْبًا مُهَنَّدا[٥]

وقال شمعلة بن أخضر الضَّبِّى :

جَلَبْنَا الخيلَ من أطرافِ فَلْجٍ ترى فيها من الغَزْوِ اقْوِرارا[٦]
بكلِّ طِمِرَّةٍ وبكلّ طِرْفٍ يَزِينُ سوادُ مُقْلَتِهِ العِذارا[٧]
حوالَىْ عاصبٍ بالتاج منَّا جبينَ أغرَّ يستلبُ الدُّوَارا[٨]
رئيسٌ ما ينازِعُــهُ رئيسٌ سِوى ضربِ القِداحِ إذا استشارا

وأنشد :

إذا لَبِسوا عمائمهم طَوَوْها على كَرَمٍ ، وإنْ سَفَروا أناروا

---

(١) الازدهاف : الدنو والتقمم فى الشر والعداوة والاهلاك (٢) البيض : جمع بيضة وهى هنا بيضة الحديد . ومصاعب : جمع مصعب وهو الفحل الذى تركته فلم تركبه ولم يمسسه حبل حتى صار صعبا . والقطف : جمع قطوف وهى الدابة التى تسىء السير . (٣) أى وهو حقيق بأن يلام .
(٤) يوم عماس : أى شديد . وكشف من أسته : كناية عن الشدة والمكروه
(٥) قنعوا : ضربوا والعضب المهند : السيف المعمول فى الهند .
(٦) فلج : اسم بلد . والاقورار : الضمور والنغير (٧) الطمرة : الفرس الجواد المستعد للوثوب والعدو. والطرف: الكريم الطرفين من الآباء والامهات. والمقلة : الحدقة . والعذار من اللجام ما سال على خد الفرس ـ(٨) الدوار : شبه الدوران يأخذ فى الرأس فيخيل لصاحبه أن المنظورات تدور عليه .

يَبيعُ ويشترِى لهمُ سواهُمْ ولـكنْ بالطِّعان هُمُ تجارُ
إذا ما كنتَ جار بنى لؤىٍّ فأنت لأكرم الثقلين جارُ

وربما جعلوا العمامة لواءً ، ألا ترى أن الأحنف بن قيس يوم مسعود بن عمرو حين عقد لعبس بن طلق اللواء انما نزع عمامته من رأسه فعقدها له ، وعلى ذلك قول زيد بن كثوة العنبرىّ :

منعتَ من العُهّار أطهارَ أمِّهِ وبعضُ الرجال المدَّعين زَناء[1]
فجاءتْ به عَبْلَ القَوام كأنما عمامته فوقَ الرجال لواء[2]

وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة ، وإذا طالت العقبة ، ولذلك قال شاعرَهم :

فسيروا فقد جَنَّ الظّلامُ عليكم فباسْتِ الذى يرجو القرى عنا عاصم
دفعنا إليه وهو كالذَّيخ حاظياً نشدّ على أكبادنا بالعمائم[3]

وقال الفرزدق :

بنى عاصم إن تَلْحبوها فإنـكم ملاحى للسوءات دُسْمُ العمائم[4]

وقال آخر :

خليلىّ شُدّا لى بفضل عمـامتى على كَبِدٍ لم يبق إلّا صميمُها

وقد ورد فى العمامة شعر كثير . وفى العمامة الـكور والجمع أكوار وهى الطرائق التى يعصب بها الرأس ؛ ولاثها : أدارها حول رأسه . والصوقعة مدخل الرأس فى العمامة . والذؤابة ما أرسل منها على الظهر ، والقفدة أعلى العمامة ، واعتم القفداء كفها على رأسه ولم يسدلها، واعتم عمة عجراء أى ضخمة ، وتلحاها أدار دوراً منها تحت الذقن وهو المأمور به ، واقتطعها لأنها على رأسه ولم يدرها تحت

---

(١) العهار : الفجار . والزناء : الضيق . (٢) عبل : ضخم . (٣) الذيخ : الذئب الجرىء وذكر الضباع وخطا يخطو : مشى الخطيا وهو مشى رويد
(٤) لحب الطريق : سلكه ، والمراة جامعها . ودسم العمائم : سود العمائم .

الحنك وهو المنهى عنه ، فإذا أدارها على بعض فمه فذلك اللثام ، وإذا أدارها على فمه فهو اللفام ، فإن بلغ بها أصل فمه فذلك النقاب ، فإذا لم يظهر منه إلا العينان فهو الاحتجار والتوصيص .

ما ورد عنهم من الشعر فى النعال

العرب لم تزل تلهج بذكر النعال ، والفرس تلهج بذكر الخفاف، وفى الحديث المأثور : إن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر، ويقولون : هو من زينة نساء آل فرعون . وأما قول شاعرهم :

إذا اخضرَّتْ نعال بنى غُرابٍ   بَغَوْا ووجدتَهمْ أسرى لئاما

فلم يرد صفة النعل ، وإنما أراد بأنهم إذا اخضرّت الأرض وأخصبوا ، طغوا وبغوا ، كما قال الآخر :

وأطول فى دار الحفـاظ إقامةً   وأوزن أحلاماً إذا النعل أخضلاَ

ومثله قوله :

يا ابنَ هشام أهلكَ الناسَ اللّبَنَ   فـكلهم يسعى بسيفٍ وقَرَنْ[1]

وأما قول الآخر :

وكيف أرَجّى أنْ أسود عشيرتى   وأمِّىَ من سلمى أبوها وخالهـا
رأيتـكُم سُوداً جِعَاداً ومالكٌ   مخصَّرَةٌ بيضٌ سِباطٌ نِعالُهـا

فلم يذهب إلى مديح النعال فى أنفسها ، وإنما ذهب إلى سباطة أرجلهم وأقدامهم ، ونفى الجعودة والقصر عنهم .وقال النابغة :

رقاق النّعال طَيّبٌ حُجُزاتهمْ   يحيّونَ بالرَّيْحان يوم السّباسِبِ[2]

---

(١) القرن : حد السيف والنصل (٢) قوله « طيب حجزاتهم » اى اعفاء والحجزة : معقد الازار . والسباسب : ايام السعانين او الشعانين من اعياد النصارى . انظر ص ٣٤٨ من الجزء الأول .

يَصُونون أجساداً قديم نَعيمُها بخالصة الأردان خُضْر المناكب

وبنو الحرث بن سدوس لم ترتبط حماراً قط ، ولم تلبس نعلا قط إذا نقبت وقد قال قائلهم :

ونُلقى النعــال إذا نقبت ولا نَستعينُ بأخلاقِهـا
ونحنُ الذُّؤابة من وائلٍ إلينــا تمدُّ بأعماقِها(١)

وهم رهط خالد بن معَمّر الذى يقول فيه شاعرهم :

مُعاوِىَ أمّرْ خالد بن مُعمَّر فإنك لولا خالدٌ لم تؤمّرِ

وقائلهم يقول :

أغاضبةٌ عمرو بن شيبان إن رأت عديدين من جرثومةٍ ودَخِيس(٢)
فلو شاء ربى كان أيرُ أبيكمُ طويلا كأير الحرث بن سَدُوس(٣)

وأما قول الآخر :

يا ليت لى نَعلَيْنِ من جلد الضّبُعْ وشَرَكا من استِها لا تنقطعْ
كلّ الحِذاء يَحْتذِى الحافى الوَقِع(٤)

فهذا كلام محتاج ، والمحتاج يتجوز ، وقال النَجاشىّ لهنـد بن عاصم :

إذا الله حيَّا صالحاً من عباده كريماً فحيَّا الله هندَ بنَ عاصم
وكلُّ سلولىٍّ إذا ما لقيتــه سريعٌ إلى دار النَدَى والمكارم
ولا يأكل الكلب السّروقُ نعالهم ولا تنتقى المخّ الذى فى الجماجم(٥)

---

(١) الذؤابة : من العز والشرف وكل شيء أعلاه (٢) الجرثومة : الاصل. والدخيس : العدد الكثير (٣) أير الحرث : يضرب به المثل فى كثرة الاولاد وكان له أحد وعشرون ذكرا. والعرب تقول «فلان طويل الاير» اذا كان كثير الاولاد. ومما ينسب الى على رضى الله عنه « من يطل أير أبيــه ينتطق به » أى من كثرت اخوته استظهر بهم وضرب المنطقة اذ كانت تشد الظهر مثلا لذلك .

(٤) هذا الرجز ينسب الى أبى المقدام جساس بن قطيب .. والشرك : جمع شرك وهو سير النعل . والاست : الدبر . وقوله : كل الحذاء الخ مثل يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه . ووقع الرجل يوقع وقعا اذا حفى من مره على الحجارة (٥) انتقى العظم : استخرج مخه .

قال يونس «كانوا لا يأكلون الأدمغة ولا ينتعلون إلا بالسِّبْتِ[١]»

وقال كثير :

اذا نُبِذَتْ لم تُطِبِ الكلابَ ريحُها ... وإن وُضِعَتْ فى مجلس القوم شُمَّتِ

وقال قتيبة بن الحرث :

الى مَعْشَرٍ لا يَخْصِفُونَ نِعالَهُمْ ... ولا يَلْبَسونَ السِّبْتَ مالم يُخَصَّرِ

وقال الأحنف «استجيدوا النعال ، فانها خلال الرجال» واذا مدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ يمدح لابسها قبل أن يمدحها ومعنى قول قائلهم :

(و) قام بناتى بالنعال حواسراً ... وألصقْنَ وقعَ السِّبْتِ تحتَ القلائدِ

أن النساء ذوات المصائب إذا قمن فى المناحات كنّ يضربن صدورهن بالنعال ، وقال خلف الأحمر :

سقى حجّاجنا نَوْءُ الثُّريّا ... على ما كان من مَطْلٍ وبُخلِ

هُمُ جمعوا النعال فأحرزوها ... وسدّوا دونها باباً بقُفْلِ

اذا أهديْتُ فاكهةً وشاةً ... وعَشْرَ دجائجٍ بعثوا بنَعْلِ

ومِسْواكَيْنِ طولهما ذِراعٌ ... وعشر من ردى المُقْل خَشْلِ[٢]

فان أهديت ذاك لتحملونى ... على نعلٍ فدَقَّ اللهُ رِجلى

وقال كثير :

كأنَّ ابنَ ليلى حين يبدو فتنجلى ... سُجوفُ الخباء عن مَهيب مشمّت[٣]

مقاربُ خَطوٍ لا يغيِّرُ نعلَه ... رهيف الشِّراك سهلة المتسمّت[٤]

اذا طُرِحت لم تطب الكلابَ ريحُها ... وان وُضِعتْ فى مجلس القوم شُمَّتِ

---

(١) جلود البقر وكل جلد مدبوغ (٢) المقل : ثمر شجر الدوم . والدوم: شجرة تشبه النخلة فى حالاتها . ويقال المقل خشل اذا كان يابسا

(٣) السجوف : جمع سجف وهو الستر . ومليك مشمت . أى محيى من معنى حياه اذا دعا له بالتحية (٤) رهيف الشراك : رقيق سير النعل ومسمت النعل : أسفل من مخصرها الى طرفها .

وقال بشار :

اذا وُضعتْ فى مجلس القوم نعلُها   تضوّعَ مِسْكاً ما أصابتْ وعنبرا

ولما قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لصعصعة بن صوحان فى المنذر الجارود ما قال ، قال صعصعة « يا أمير المؤمنين ! لئن قلت ذاك انه لنظّار فى عطفيه ، تفال فى شراكيه ، تعجبه حمرة بُرْدَيْه » وذمّ رجل ابن التوأم فقال : رأيته مشحم النعل ، دَرِنَ الجورب[1] ، مغضّن[2] الخف ، دقيق الجربان[3] » وقال الهيثم « يمين لا يحلف بها إلا الأعرابى أبداً أن يقول : لا أوردالله لك صادراً ، ولا أصدر لك وارداً ، حططت رحلك ، ولا خلعت نعلك » .

وقال آخر :

عَلِقَ الفُؤاد بِرَيِّقِ الجهلِ[4]   وأبَرّ واستعصى على الأهْلِ

وصبا وقد شابَتْ مفارِقهُ   سَفَهاً وكيف إصابة الكَهْلِ[5]

أدركت مُعْتَصَرِى وأدركنى   حلمى ويَسَّرَ قائدى نَعْلى[6]

وقال آخر :

كم أرى من مُسْتعجب من نعال   ورضائى منها بلبس البَوالى

كلُّ جَرْداءَ قد تحيّفها الخصْـفُ بأقطارها بِسرْوِ النّعال[7]

لا تُدَانى وليس تشبه فى الخِلْـقة إنْ أبْرِزَتْ نعال المَوالى

لا ولا عن تقادُم العهد منها   بليَتْ لا ولا لِكَرِّ الليالى

ولقد قلت حينَ أوثرُ ذا الودِّ   عليها بِنَزْوَتى وبمالى

منْ يُغالى من الرجال بنعلٍ ؟   فسوائى إذَنْ بهنّ يغالى

أوْ بغاهُنّ لِلْجَمال فإنى   فى سِواهُنّ زينتى وجَمالى

---

(١) وسخ (٢) مجعد (٣) جربان القميص : طوقه الذى فيه الازرار مخيطة فاذا أريد ضمه ادخلت الازرار فى العرا فضم الصدر الى النحر

(٤) ريق كل شىء : أوله وأصله (٥) المفارق : جمع مفرق وهو وسط الراس الذى يفرق فيه الشعر . والكهل : من وخطه الشيب (٦) المعتصر : الهرم والعمر (٧) الجرداء : المجردة من الشعر . وتحيفها : تنقصها من اطرافها .

فى إخائى وفى وفائى ورأيى وعَفَافى ومَنْطِق وفَعَالى

ما وقانى الحفا وبلّغنى الحــا جَةَ منهــا فاننى لا أبالى

وشعر العرب المشعر بلبسهم للنعال ، وإيثارهم لها على غيرها مما يلبس بالأرجل لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام ، وماذكرناه وافٍ بالمقصود . ومنها :

الفلاحة

وهى من أسباب معايش العرب العامة ، لا سيا سكنة اليمن والبحرين وعمان وهجر وغالب بلاد نجـد ، فسكنة هـذه البلاد كلها غالب معايشهم من الحرث والغرس ، ولهم فى غرس النخيل اهتمام وأى اهتمام ! وما ورد عنهم فى شأنه كلام طويل ، ومعرفتهم بشؤونه كمعرفتهم بالخيل ؛ وحيث أن أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات أكثر نبات العالم ، وشجر الدنيا ، اتسع نطاق معارفهم فى هذه الصناعة ومن تتبع الـكتب المؤلفة فى النبات والشجر لاسيا كتاب (أبى حنيفة الدينورى) اعترف بما ذكرناه مع ما فى لغتهم من الشهود العدول عليه ؛ وغالب من تعاطى هذه الصناعة سكنة البوادى منهم ؛ وبين السبب فى ذلك ابن خلدون فقال : اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله ، والابتداء بما هو ضرورى منـه ، ونشيط قبـل الحاجى والـكمالى ، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسـة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيـام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها ، واستخراج فضـلاتها ، وهؤلاء القـائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو ، لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك ، فـكان اختصاص هؤلاء بالبـدو أمراً ضروريا لهم ، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والـكنّ والدفء انما هو بالمقدار الذى يحفَظُ الحياة ، ويحصـل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه ،

للعجز عما وراء ذلك ؛ ثم أخذ يذكر أسباب الحضارة وموجباتها ، والحاصل أن ما ذكرناه غالب مدار معايش العرب ، وما يقوم بدفع ضرورياتهم ، وما تمس اليه حوائجهم ؛ ولهم أسباب أخر كالغوص على اللؤلؤ ؛ والى اليوم سكنة البحرين وهجر وغير ذلك من سكنة السواحل يعيشون عليه ، والبحث على اللؤلؤ والأصداف ، وكيفية صيده ، وما ورد عن العرب فى ذلك مما لا يسعه المقام ، ومنهم من كان يعيش على صيد البر والبحر ، ولهم فيه مذاهب وعوائد مفصلة فى كتب الحديث ، ومنهم من كان يعتاش بالمواشى والأنعام ، كالغنم والبقر والإبل ، ولهم فى القيام عليها وتربيتها قدم راسخة ، وعلم واسع .

ما أوجب تقدم العرب

من وقف على أحوال العرب ، وتصفح كتب أخبارهم ، وعرف شؤونهم على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم ، تبين له أن العرب أمة قديمة مضى عليها أمد طويل ، وأتى عليها حين من الدهر لا يعلم له مبدأ معين ؛ وهم فى كل ذلك ما بين ارتفاع وانحطاط ، وترقٍّ وهبوط ، وائتلاف واختلاف ، وسعادة وشقاء ، وعزّ وذل ، وعسر ويسر ، ومن استقراء أحوالهم تبين أن مدار تقدمهم وارتقائهم على مِنَصَّة السؤدد ، وذروة العز ، أمور (منها : بالعلم) فانّ العلم على اختلاف فنونه ، وتشعب غصونه ، من أعظم أسباب سعادة الانسان ، وهو نور محض به يهتدى أولو البصائر والعرفان ، ولا نعنى به إلا العلم النافع الدافع لحاجات النوع الإنسانى وضرورياته ، فدخل فيه جميع العلوم العقلية والنقلية ، الفرعية منها والأصلية . وأما الجهل فهو أساس كل بلاء ، وأصل كل جهد وعناء ، فلذا ترى كل أمة استنارت عقولها بالعلم ، وتحلت بحلى الفضل ، لم تزل تتدرج فى مدارج الارتقاء ، وتتلألأ منها أنوار الهداية لسلوك سواء السبيل ، وكل أمة امتد عليها رواق ظلام

الجهل ، واستحكم فيها داء الغباوة ، انسدَّتْ عيون بصائرها ، وفسدت نتائج أفكارها ، فضلَّت عن سلوك الجادة ، وحرمت اجتناء ثمار السعادة ، واتصفت بالصفات الذميمة ، وتخلقت بالاخلاق الغير المستقيمة ، وتاهت في بيداء الحرمان وجاءها موج البلاء من كل مكان ، فبالعلم النافع تسكون الثروة ، وبالعلم تتهذب الأخلاق ، وبالعلم يسود الذليل ، وبالعلم ينتصر على العدو ، وبالعلم يقهر الخصم الألد ، وبالعلم تفك أغلال الأعناق من أسر التقليد ، وبالعلم تدرك الأماني ، وينال كل مقصد بعيد ، ومن باد من العرب وهلك إنما كان من الجهل بعد العلم والغيّ بعد الهدى » «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد[1] وثمود الذين جابوا الصخر بالواد[2] وفرعون ذي الأوتاد[3]

---

(١) عاد : جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون انه من ولد عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال الشيخ محمد عبده : وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفا باسم عاد ويلقب أيضا بارم وبقي مشهورا عند العرب بذلك ، قال : وذات العماد وصف لارم التي هي قبيلة عاد نفسها ، ومعنى ذات العماد سكان الخيام حلا وارتحالا أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة . عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة. وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضر موت ، وقد بلغت عاد من الشدةوالقوة مبلغا لم يصل اليه سواها في عهدها ولذلك قال: التي لم يخلق مثلها في البلاد. والاستفهام في « الم تر كيف فعل ربك بعاد » للتذكير والتقرير انتهى . وهذا هو التحقيق الذي يقطع به العقل السليم . واضعفه المفسرين الذين أصيب الاسلام منهم بداهية دهياء وفاقرة عظمى ورزية كبرى ، حكايات خرافيـــة واقاصيص منحولة وأساطير مفتعلة في تصوير ارم ذات العماد يســـود من ذكرها وجه القرطاس وتتلكأ البراعة في الجري بها واللسان في تلاوتها . وكان يجب ان ينزه عنها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكن اني لتلكم العقول السخيفة والادمغة المعصبة الجافة أن تتحرر من اغلال التقليد الاعمى فتتمتع في نعمة العقل تحت ظلال الحق .. ؟

فاذا وقع اليك أيها الاخ اللبيب شيء من كتب أولئك « المخلوقين » فانبذه وراءك ظهريا واياك وان تغرك الكنى والالقاب ! (٢) ثمود : قبيلة من العرب البائدة . وجابوا الصخر : قطعوه ونحتوه كما قال تعالى « وتنحتـــون من الجبال بيوتا فارهين » فقد انعم الله عليهم بالقوة والعقل حتى صنعوا لانفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادي الذي كانوا يقيمون فيه . وقد يصح ما قال بعضهم ان معنى جابوا الصخر بالواد انهم قطعوا الصخر واتخذوا منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم . ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم .

(٣) فرعون : حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام . والاوتاد : المباني العظيمة . وللشيخ منزع غريب في اختيار تفسير الاوتاد بالمباني العظيمة لم اره لغيره .

الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب[1] إن ربك لبالمرصاد[2] » . وهكذا من بقى منهم إما تفرق جمعهم ، وتشتت شملهم وأدركهم الذل والهوان ، والفقر والخسران ، بعد أن ضاقت عنهم الحزون والسهول ، ودوخوا البلاد والأقطار ، بسيوف لم يصبها فلول ، لما خيم عليهم غمام الجهل ، وعصفت عليهم عواصف الغواية ، واتباع الأهواء كما هو مفصل فى كتب التفسير والحديث . هؤلاء أولاد اسماعيل عليه السلام ، ولا سيما قريش منهم إنما كانوا من العز بمكان مكين ، ومن السؤدد بحصن حصين ، بسبب ما كان لهم من العلم أوفر نصيب ، فائزين منه بالقدح المعلى والرقيب فذلت لهم يومئذ القبائل ، ودانت لهم البلاد ، فلم يكن دونها حائل ، و بذلك سموا قريشاً كما قال الشاعر :

وقريشٌ هى التى تسكُنُ البحـ ـرَ بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشا
تأكلُ الغثَّ والسَّمين ولا تتـ ـرك فيه لذى جَنَاحَيْن ريشا
هكذا فى البـلادِ حىُّ قريشٍ يأكلونَ البلادَ أكلاً كميشا[3]

ولم يزالوا على عزمهم ومجدهم ، واقبالهم وشرفهم ؛ إلى أن تناقص منهم العلم وتقلص عنهم ظل المعارف والفضائل ، وذلك قبيل الإسلام بنحو ثلثمائة سنة ، وهو المعنى بزمن الجاهلية على قول منصور ، فحينئذ شاع فيهم الجهل ، واختلت منهم الأحوال ، وفسد منهم أكثر الخلق المحمود ، وارتفعت منهم البركات ، وفشى فيهم المنكر ، وتقاعدت منهم الهمم ، وفترت منهم العزائم ، وتفرق منهم الشمل ، وكثرت فيهم البدع والأهواء ؛ إلى أن أشرقت عليهم أنوار بدر

---

(١) السوط : لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يضرب به وان كان فى الاصل اسما للخلط والمزج . وصب السوط انزاله بشدة مع توالى ضرباته بلا انقطاع (٢) هو المكان الذى يقوم به الرصد وهو القوم الذين يرصدون أى يرقبون بالخير او الشر . والكلام على التمثيل أى ان ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده لا يفوته من شئونهم شىء ، ثم هو مجاز كل عامل بعمله فلا يفلته احد فلا يظنن اهل الطغيان الذين يكثرون فى الارض الفساد ان يتفلتوا من الله وعقابه . (٣) سريعا .

الإسلام ، وبعث الله تعالى من أنفسهم رسولاً مؤيَّدًا بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، مكرمًا بطهارة الأعراق ، مشرفا بما جبل عليه من مكارم الأخلاق ، التى نقض بها عوائد الفطر ، وباين لها جميع البشر : من فروسيته وشجاعته وبأسه ونجدته ، وعزمه وهمته ، وعلمه وحلمه ، وزهده وعبادته ، ورضاه وصبره ، وحمده وشكره ، وذكره وفكره ، واعتباره وتبصره ، وخوفه وخشوعه ، وتواضعه وخضوعه ، وكرم آبائه وجدوده ، وسخائه وجوده ، وفصاحته وصدق لهجته ، ورعايته للعهد ، ووفائه بالوعد ، وأمانته وشفقته ، وحسن خَلْقه وخُلُقه ، وحيائه ولينه ، وثقته ويقينه ، وعفوه ورحمته ، وصفحه ورأفته ، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة ، والشمائل السديدة ؛ فوجدهم إذ ذاك ما بين عابد أوثان ، ومستمرّ على إيقاد النيران ، وجاهد فى تخريب البلاد ، وتعذيب العباد ؛ وجاثم على السجود للشجر ، والخضوع للحجر ، إلى غير ذلك من الضلال والمنكر ، هذا مع ما كانوا عليه من الاستعداد والقابلية لقبول الخير ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ؛ فجد حينئذ بدعائهم إلى مافيه سعادتهم ، وكابد ما كابد فى تغيير عوائدهم ، لاسيما قومه وعشيرته ، فقد نال منهم ما تشيب منه النواصى ، وتنهد له الصياصى ، فإن العرب ولا سيما قريشًا — كما وصفهم الكتاب الكريم — كانوا من الدهاء واللدد عند الخصومة وخلابة الألسنة ، وبلاغة المنطق ، والتمسك بما ألفوه من العوائد ، على جانب عظيم — إلى أن جمعهم على كلمة الإيمان ، وعلمهم من المعارف والكمالات ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ومرّنهم على محاسن الأخلاق ، وحثهم على السعى والتكسب ، وأصلح لهم ما أفسدوه ، وجدد لهم مابدلوه وغيروه ، حتى نبعت من قلوبهم ينابيع الحكم الجمة ، والمعارف النورانية ، وفاضت على الصدور والألسنة ، وامتلأ منها الكتب والدفاتر ؛ وأصبحوا أعلم من فى الأرض ، فما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا وكان لهم به علم ومعرفة ! وبذلك تقدموا

يومئذ ذلك التقدم الذى بهر العقول ؛ واستولوا على غالب أقطار المعمورة ، وجلوا عن القلوب ظلماتها ، وأشادوا الدين الحق على أمتن أساس ، وأنقذوا العالم من لجج الفساد .

ومن أسباب تقدمهم اتفاق كلمتهم

من المعلوم الذى لا يستراب فيه أن القوم متى اتفقت آراؤهم ، واجتمعت كلمتهم، صاروا يداً واحدة على من سواهم ، وانتصروا على عدوهم ، وتشيد بنيان مجدهم ، وهابهم من سواهم ؛ وكان العرب أيام جاهليتهم لا تجمعهم كلمة ، ولا ينظمهم سلك نظام ، وعادى بعضهم بعضاً ، وانتشرت بينهم الحروب والمنازعات ، كما أخبرت بذلك كتب أيامهم[1] فلذلك فشى فيهم يومئذ الذل والصغار ، وعمّهم الهوان ، إلى أن أخذت العناية الإلهية بأيديهم من ذلك العناء ، وجمع شملهم بكلمة الحق وأوجب عليهم الدين المبين الاعتصام بحبل الله ، وأن لا يتفرقوا ، وأمرهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا شكا عضو منه شكا جميعه ؛ وكان بين الاوس والخزرج حروب أيام الجاهلية تطاولت نحو مائة وعشرين سنة حتى قارب أن يفنى الحيان ؛ فلما جاءهم الإسلام ، وتشرفوا به ، ارتفعت الشحناء من بينهم ، وأصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، وذلك قوله عز اسمه (يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبيِّنُ الله آياته للناس لعلهم يتقون) فلما ألف الله كلمة العرب على الإسلام ، وتوجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك ، لم يكن دونه حمى ولا وَزَر ، فكان لهم من الملك الواسع ما هو معلوم لمتتبعى كتب الأخبار ؛ فلذلك كان خطباؤهم وحكماؤهم ينادون عليهم بالألفة ،

(١) أى حروبهم .

ويحذرونهم من التفرق واختلاف الكلمة ، وينذرونهم بما يستتبع ذلك من العواقب الوخيمة والنتائج الفاسدة ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم من هذا الكتاب مادل على ذلك من شعرهم وخطبهم ووصاياهم ما فيه الكفاية ومنها :

العدل

العدل إذا كان شاملاً فهو أحد قواعد الدنيا التى لا انتظام لها إلا به ، ولا صلاح فيها إلا معه ، وهو الداعى إلى الألفة ، والباعث على الطاعة ، وبه تتعمر البلاد ، وبه تنمى الأموال ، ومعه يكثر النسل ، وبه يأمن السلطان ، وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه ليس يقف على حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل ؛ والعرب لما استناروا بنور الدين المبين ، وجمعت متبدد شملهم كلمة الحق ، ودان لهم من دان من الأمم ، شملوا الناس بالعدل فى أحكامهم إذ كان من أهم مقاصد الشريعة الغراء ، وأعظم مطالبها وأجلّ قضاياها ؛ وبذلك نطقت آيات التنزيل . منها : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إن الله كان سميعاً بصيراً) وفى الحديث « بئس الزاد إلى المعاد ، العدوان على العباد » إلى غير ذلك من النصوص التى يضيق عنها المجال ، ومن وقف على سير الخلفاء الراشدين وغيرهم من أمراء العدل من العرب ، تبين له أن ما كان من استقامة ملكهم واتساعه إنما هو بالعدل الشامل ، ووضع الأمور فى مواضعها ؛ والعدل باب واسع يجرى فى أمور كثيرة ومرجعه إلى عدل الإنسان فى نفسه ، ثم عدله فى غيره ، فأما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح ، وكفها عن القبائح ؛ ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أجور ؛ وأما عدله فى غيره فهو على أقسام :

منها عدل الإنسان فيمن دونه : كالسلطان فى رعيته ، والرئيس مع صحابته ، ويدخل فيه الرجل مع أهل بيته ، والأستاذ مع تلامذته ، والسيد مع خدامه وأرقائه ، ففى الحديث « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » والعدل ههنا يكون باتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى الميسور ، فإن اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أعطف على المحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة ؛ وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر ، وفى الحديث « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه » وعن بعضهم « ليس للجائر جار ، ولا تعمر له دار » وعن آخر « أقرب الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم » ومنها : « عدل الإنسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها ، وعائلة الرجل معه » وغير ذلك ، فقد يكون بإخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصدق الولاء ، فان إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور إن لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه ، واضطر إلى اتقاء من يتقى به ، قال البحترى :

متى أحْوَجْتَ ذا كرمٍ تخطّى   إليكَ ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع ، وفساد صلاح شامل ، قال بعض الأكابر « أطع من فوقك يطعك من دونك » ومنها : عدل الإنسان مع أكفائه ، وذلك بترك الاستطالة ، ومجانبة الإدلال ، وكف الأذى ، لأن ترك الاستطالة آلف ومجانبة الإدلال أعطف ، وكف الأذى أنصف ؛ وهذه أمور إن لم تخلص فى الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا ؛ وهذا كلام إجمالى على العدل وأقسامه ، والمتكفل بتفصيله ، واستيعاب جزئياته كتب الشريعة ؛ والمقصود هنا بيان أن من جملة ما أوجب تقدم العرب بعد انحطاطهم

لزومهم جادة العدالة ، والانحياد عن مسالك الظلم ، والبغى والعدوان ، وقد تنبه بعض أكابرهم أيام الجاهلية لما يترتب على العدل من المصالح فتعاهدوا بينهم على مجانبة الظلم ، والمباعدة عن الجور ، وترك البغى على الناس ، فعقدوا حلف الفضول وغيره فى مكة على ما سبق بيانه أوائل الكتاب ، وقد أعرضت عن ذكر أمور أخر أوجبت تقدمهم فإنها تترتب على ما ذكر من الأصول الثلاثة التى هى منشأ كلّ خير ، وبالله التوفيق .

سكنة البوادى من العرب وما امتازوا به عن الحضريين

البادية هى الأرض التى ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك ، وهى البدو أيضاً والنسبة إليه بدوى ، وفى الحديث « من بدا جفا » أى من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب . والبداوة الإقامة بالبادية وهو خلاف الحضارة ، والمبدى خلاف المحضر ؛ ولما كان سكنى البادية تقتضى صيانة العز والشرف رجحها غالب العرب على الحضر ، وكثر حنينهم إليها ، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ونبتها وشجرها وأغوارها وأنجادها ورياحها ومياهها ، ولا زالوا يفخرون فى شعرهم بسكناها قال القَطَامىّ[1] :

ومَنْ تكُنِ الحَضَارة أعْجَبَتْهُ   فأىُّ رجال باديةٍ ترَانا[2]

(١) بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجرى فى أماليه ، والمجد فى قاموسه ، وعبد الرحيم العباسى فى معاهده ، وقول ابراهيم اليازجى فى مجلة الضياء : ان الصواب الضم ، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه ، وقلة تتبعه ودرسه ! والقطامى لقب غلب عليه واسمه عمير بن شييم ، وهو شاعر اسلامى مقل ، رقيق الحواشى ، كثير الامثال ، حسن التشبيب .. وهو صاحب هذا البيت :

انا محيوك فاسلم أيها الطلل   وان بليت وان طال بك الطيل

الذى انتحل صدره جميل الزهاوى المتفلسف فقال فى مدح أمير عربى :

انا محيوك فاسلم أيها الملك   ومصطفوك لعرش شاءه الفلك !!

(٢) يقول : ان كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر بيننا منهم وان كنا أهل بادية .

وَمَنْ رَبَطَ الجحاش فانّ فينا قَنًا سُلُبًا وأفراساً حِسانا[1]

وكُنّ إذا أغَرْنَ على جَنابٍ وأعْوَزَهُنّ نَهبٌ حيثُ كانا[2]

أغَرْنَ من الضّباب على حلول وضَبَّةَ إنهُ مَنْ حانَ حانا[3]

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجدْ إلاّ أخانا[4]

وقال آخر من قصيدة يمدح بها قوماً من سكـنة البادية :

الموقدونَ بنجدٍ نارَ باديةٍ لا يحضرون وفقد العز فى الحضر

وقال آخر :

هذا أبو الصقرِ فرداً فى محاسنهِ من نَسْل شيبانَ بين الضّال والسّلم[5]

— وروى أن ميسون بنت بَحْدَلٍ لما اتصلت بمعاوية ، ونقلها من البدو إلى الشام ، وكانت تـكثر الحنين إلى أناسها ، والتذكر لمسقط رأسها ، فاستمع عليها ذات يوم وهى تنشد هذه الأبيات : —

لَبَيْتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحبُّ إلىّ من قصر مُنيفِ[6]

ولبس عباءةٍ وتَقَر عينى أحبُّ إلىّ من لبس الشفوف[7]

(١) يقول : واذا رضى اهل الحضر باقتناء الحمير وربطها فانا لا نرضى الا بما عندنا من الرماح التى تسلب النفوس والخيل الحسان التى تعـين على دفع الأعداء . (٢) وكن : أى الخيل انزلهامنزلة اربابهاوهم المغيرون. وجواب اذا أول البيت بعده والجملة خبركن (٣) معنى البيتين ذاك وهذا : أن أرباب الخيـل منا كانوا اذا أغاروا على ناحية ، وتعسر عليهم السلب والنهب من الاباعد عطفوا على الاقارب : الضباب وبكر وغيرهم . والحلول . الذين يكونون فى مكان واحد وقوله « انه من حان حانا » هذا التفات كأنه التفت الى انسان وقال له : انه من هلك بغزونا فقد هلك (٤) «على بكر» متعلق بفعل مضمر دل عليه ماقبله كأنه قال :واحيانا اغر على بكر . (٥) شيبان : بن ذهل وشيبان بن ثعلبة قبيلتان . والضال والسلم : شجرتان من شجر البادية . وفردا : منصوب على المدح أو الحال . والمعنى : هذا المشار اليه صاحب الاسم المشهور اذا ذكر رجلا فردا فى محاسنه وفضائله من نسل شيبان واولاد هذه القبيلة المقيمين بالبادية والاقامة بها مما تتمدح به العرب لأن فقد العز فى الحضر! والبيت من شواهد المعانى . وقائله ابن الرومى الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، (٦) قوله «لبيت» اللام لام الابتداء وتخفق: تضطرب والأرواح والأرياح :جمع ريح . والمنيف العالى . (٧) تقر: منصوب بأن مضموة بعد الواو ، و « أن تقر » فى تأويل مصدر معطوف على مصدر وهو «ولبس عباءة» والشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق سمى بذلك لانه يرق فيحكى ماتحته.

وأكل كُسَيْرَة فى كِسْر بيتى ... أحبُّ إلىّ من أكل الرغيف(١)

وأصوات الرياح بكلّ فجٍّ ... أحبُّ إلىّ من نقر الدُّفوفِ

وكلب ينبح الطُّرّاقَ دونى ... أحبُّ إلىّ من قطٍ ألوف(٢)

وبَكر يتبع الأظعان صعب ... أحبُّ إلىّ من بغل زفوف(٣)

وخرْق من بنى عمى نحيف ... أحبُّ إلىّ من عِلج عليفِ(٤)

فلما سمع معاوية الأبيات قال لها : ما رضيت ابنة بَحْدَل حتى جعلتنى علجاً عنيفاً ؟ وهذا من حنين أهل البادية إليها ، والتبرية من الحضر ، وذكر الراغب أن امرأة ضبية تسمى حسانة قعدت على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار فى ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية إلى الحضر — فقيل لها : كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية ؟ فأطرقت ساعة ، ثم تنفست وقالت : —

أقولُ لأدنى صاحبىّ أسِرُّهُ ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحل ساكبُهْ :

لَعَمْرِى لَنَهْرٌ باللّوى نازح القذَى ... بعيد النواحى غير طَرْقٍ مشاربه(٥)

أحَبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للعب ولم تملُحْ لدى ملاَعبه(٦)

فياحَبَّذا نجدٌ وطيبُ ترابه ... إذا هضبته بالعشى هواضبه(٧)

(١) الكسيرة (بالتصغير) القطعة من الخبز . والكسر : طرف الخباء من الارض (٢) الطراق : جمع طارق وهو الذى يأتى ليلا . (٣) البكر : (بفتح الموحدة) الفتى من الابل . والاظعان : جمع ظعينة وهى المراة ما دامت فى الهودج وقيل غير ذلك (انظر ج ٢ ص ١٣٤) وصعب : صفة لبكر . وروى سقب وهو الذكر من ولد الناقة . والزفوف : المسرع (٤) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة والعلج : الرجل الضخم ، ويحتمل أن تريد أن الامرد أحب اليها من ذى اللحية . قال أبو زيد : يقال لكل ذى لحية علج ولا يقال الغلام اذا كان أمرد علج . والاول أنسب لقولها (عليف) اى مسمن بالعلف . قال الأعلم : تعنى به معاوية لقوته وشدته ، مع سمنه ونعمته (٥) اللوى : ما التوى من الرمال . والنازح : القذى الصافى الذى لا يشوبه كدر والطرق : الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه (٦) الصهاريج جمع صهريج وهو حوض يجتمع فيه الماء وبركة مصهرجة معمولة بالصاروج وهو شىء يخلط بالنورة ويطلى به الحياض ونحوها وهو معرب (٧) هضبت السماء : فاضت ، والهاضبة : السحابة .

وريح صَبَا نجدٍ إذا ما تَنَسَّمت ضحى أو سرت جنحَ الظلام جنَائبه[1]

وأقسمُ لا أنساه مادمت حيةً وما دام ليل من نهار يعاقبه

ولا زال هذا القَطْرُ يُسفِرُ لوعة بذاكراه حتى يترك الماء شاربه

وقال آخر[2] وقد تذكر بعض أودية البوادى فصبا إليه :—

وحَبَّذا حين تُمسى الريحُ باردةً وادى أشَيّ وفِتْيانٌ به هُضُمُ[3]

ياليتَ شعرى عن جَنْبَىْ مُكَشّحَةٍ وحيثُ تُبْنَى من الحنّاءة الأُطُمُ[4]

عن الإشاءة هل زالَتْ مخارمُها وهل تغيّر من آرامها إرَمُ[5]

وجنة مايذم الدهر حاضرها جبارها بالندى والحمل محتزم[6]

وقال أعرابى انتقل من البداوة إلى الحضارة فرأى المكاء (وهو طائر برى) فى الحضر ، وكان قد عهده يفرخ على شجر الألاء والأرطى[7] ، فقال لهذا الطائر : فارق هذا المكان فإنه ليس لك فيه الشجر الذى تعشش عليه ، وأشفق من أن تمرض كما مرضت ؛ وذلك معنى قوله :

ألا أيها المكاء مالك ههنا ألاء ولا أرطى ، فأين تبيض ؟

---

(١) الجنائب : ريح تهب من مطلع سهيل فى الجنوب الى مطلع الثريا .

(٢) هو زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث ، ويقال له زياد بن منقذ احد بنى عدى من بنى تميم ، وكان قد نزل (صنعاء) فاستوبأها ، وكان منزله بنجد فى (وادى اشى) فنظم قصيدة مطربة مشجية يتشوق فيها الى بلاده ، ومنها هذه الابيات . وقد أوردها أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة . . (٣) برد الريح يدل على القحط لوقوعه شتاء . ووادى أشى : موضع بالوشم . والوشم : واد باليمامة فيه نخل . وهضم . جمع هضوم وهو الذى يصرف ماله ويبذله كيفما شاء فى الضيافة (٤) مكشحة : موضع باليمامة يشتمل على خمس قرى عليها سور واحد من لبن وفيه نخيل وزروع . وقال الحفصى : هو نخل فى جزع الوادى قريبا من اشى ، والحناءة : رمل من رمال عالج ، والاطم : الحصن . (٥) عن الاشاءة : بدل من « جنبى مكشحة » وهو موضع أيضا والمخارم : الطرق فى الجبال . والارم : الطريق — ومعنى البيتين : ياليت علمى بأحوال هذه المواضع هل هى باقية على ما عهدتها أم تغيرت (٦) الجبار : النخلة الطويلة ، والندى : الرطوبة . والحمل : الطلع . والاحتزام : الالتفاف والمراد فيها الخصب . يقول : واستخبر أيضا عن أحوال جنة تحمل أبدا وتدوم مخضرة معمورة بالنخل التى يجتنى منها الثمر .

(٧) الألاء : كسحاب شجر مر دائم الخضرة . والأرطى : شجر كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تأكلها الابل غضة وعروقه حمر .

فاصعد إلى أرض المكاكىّ واجتنبْ قرى المصر، لا تُصبِح وأنت مريض

وقال عبد لبنى قريط يقال له (مطير) اشتاق إلى أرضه :

ألا لَيْتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً و(صدّاء) منى و(البَيَاض) بعيد[1]
بوادٍ من اللعباء أعلاه عوسجٌ وأسفله رِمْثٌ عليه جهيد[2]
وهل أسمعنَّ الدهر أصواتَ فتيةٍ بذى الهوزوى من ناشىء ووليد

وقال آخر :

أيا جبلَىْ غورىْ تهامةَ كلما تطاللت نجداً أشرقت لى ذراكما
عدمتكما لا يونس الناظر الذى به الشوق شيئاً دونه قلتا كما
أصابكما من حبِّ نجد حرارة وغلّ فلا يروى بماء صداكما

وقال قائد بن حكيم متشوقاً إلى أرضه :

متى العيسُ من مصر بنا رافعاتنا إلى نجد أو باد لعينى قلالها[3]
ومزج إليها الطرْف حتى يرده قموس القرى فى البعد يخفق آلها[4]
على متن عادى كأن أمـاره رجال تنادى أفلتنها جمـالها

وقال :

خليـلى إنْ حانَتْ بمصر منيتى وأزمعتما أن تحفرا لى بهـا قَبْرا
فلا تنسيا أن تقرآلى على الغَضَى ونجد سلاماً لا قليلاً ولا نَزْرا
وإن سرت ياسبحان ربى بالغَضَى أو المرت من نجد مُخَيَّسة صعرا

وقال آخر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بصحراء مابين الجثوم إلى شعر ؟

---

(١) صداء : ماء معروف (بالبياض) وهو بلد بين سعد بن زيد مناة وكعب ابن كلاب ــ عن نصر (٢) الرمث : مرعى للابل من الحمض وشـجر يشبه الغضى . ومرعى جهيد : جهده المال . وهذا كلأ يجهده المال اذا كان يلح على رعيته (٣) العيس : الابل البيض يخالط بياضها شقرة (٤) يقال : قمست الآكام فى السراب (وهو الآل) اذا ارتفعت فرأيتها كانها تطفو (٥) المرت : المفازة بلا نبات أو الارض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . والمخيسة : الابل التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر او القسم .

وهل أرِدَنّ العينَ والشملُ جامعٌ مقيم النّوَى قدحان ذاك على قدرى ؟
وهـــل أرينّ الرمل يا أمّ خالدٍ رميث اللوى من قصد مطلع الفجر ؟
فـكيفَ ولم أصبح أحـدث فتية كرام المساعى من ربيعة أو وبر ؟
حمى سِرْبهم فى كل يوم كريهةٍ مصاعيب أمثال المعبّـــدة الزّهر (١)

وقال آخر :

ألا يا ديارَ الحىّ والحى جـيرة بحيث تهنت فى العروقِ جَبوبهـا
سـقتك نِجـــاء من ربيع تتابعت عليك وهبت غـير نحس جنوبها (٢)
ألاليت شعرى هل يَعُودنّ مامضى لنا فيك ، أم هل تغفرنّ ذنوبها ؟

وقال آخر :

لقد كان بالدهنا حياة لذيذةٌ ومحتطب لا يشـترى بالدراهم

وقال صدقة بن نافع العقيلى متشوقاً إلى دياره وكان بالجزيرة :

أرقت بحران الجزيرة مَوْهِناً لبرق بدالى ناضب متعـال (٣)
بدا مثلَ تلماع الفتاة بكفّها ومن دونه نأىٌ وغـــبر قلال
فَبِتُّ كأن العين تـكحل فلفلا وبى عس حمى بين وملال
فهل يَرْجِعنْ عيش مضى لسبيله وأظلال سـدر يانع وسَـيّال ؟
وهل ترجعنْ أيامنا بِمُتَـالِعٍ وشرب بأوشـال لهن ظلال ؟
وبيض كأمثال المَها يستبيننا بقيل ، وما مع قيلهن فعــال ؟

إلى غـير ذلك من الشعر المشـتمل على الحنين إلى البادية وما فيها ، والشعراء الإسلاميون سبقوا الجاهليين إذا سلـكوامسلـكهم ومنهاجهم ، والأموىّ فى نجدياته وعراقياته أتى بما لم يسبق إليه . من ذلك قوله :

وأسرى بعيس كالأهلة فوقها وجوهٌ من الأقمـار أبهى وأنورُ

---

(١) السرب : القطع من الظباء والنساء وغيرها (٢) النجاء ككتاب جمـع النجو للسحاب (٣) الموهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه .

ويعجبنى نفحُ العَرار ورُبما شمختُ بِعرنينى وقد فاح عَنبر[١]
ويخدش غمدى بالحمى صفحة الثرى إذا جَرَّ من أذياله المتحضّرُ
فما العيش إلى الضّبّ يحرشه الفتى وورد بمستنّ اليرابيع أكدر[٢]
بحيث يلفّ المرء أطنـاب بيته على العز والـكومُ المراسيل تنحر[٣]
ويغشى ثراه حين يستعتم القرى ويسمو إليه الطـارق المتنوّر[٤]

وقوله :

خليلى هذا ربْعُ ليلى بذى الغَضَى سقى الله ليلى والغَضى وسقاكما !
وقد كنتما لى مسعِدَين على البكا فما لـكما لا تسعِدان أخاكما ؟
أظلّ وحيداً لا أرى من أحبُّه فهل بالحمى لى من خليل سواكما
ولو غاب عنى واحدٌ منكما وَهَت قوَى الصبر لا أوهى الزمان قواكما
فـكيف أذود الهم عنى تجلُّداً وقد غبتما عن أرض نجدٍ كلاكما

وقوله :

بمنشط الشِيح من نجد لنـا وطنٌ لم تجرِ ذكراه إلا حنّ مُغترب[٥]
إذا رأى الأفق بالظلماء مختمراً أمسى وناظره بالدمع منتقب
ونشقة من عَرَار هزّ لمتـه رويحة فى سراها مسها لَغَب
تشفى غليلا بصدرى لا يزَحْزِحه دمعٌ تهيب به الأشواق منسكب[٦]

وقوله :

ونفحة من ربىً ذى الأثل قابلنى بهـا نسيم يزيد القلب أحزانا
ولم يطب تربها من روضةٍ أنف فهاجَ رياه أطراباً وأشجانا[٧]
لـكنّ ذا الأثل طاب الواديانِ به حيث الرّباب تجر الذيلَ أحيانا

---

(١) العرار : بها رالبر والعرنين : الانف (٢) حرش الضب يحرشه : صاده
(٣) الكوم : القطعـة من الابل . وناقة كوماء : عظيمة السنام طويلتـه .
والمراسيل : الخفاف التى تعطيك ما عندها عفوا (٤) الطارق : الزائر ليلا .
(٥) منشط مفعل من نشط اذا خرج . والشيح : نبت (٦) أهاب به ،
زجره (٧) روضة انف : لم ترع .

ولم يكن لى أكناف الحمى وطناً ولا الفوارس من نبهان جيرانا

إلى غير ذلك ممـا يطول ذكره ، وقد أطنب المسعودى فى اختيار العرب سكنى البوادى وسببه (وهذا ملخص ما ذكره) قال : ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقـاعها على الأيام أشبه بالعز ، وأليق بذى الأنفة ، وقالوا نـكون محكمين فى الأرض نسكن حيث نشاء أصلح من غيره . قال : وذكر آخرون أن القدماء من العرب لمـا ركبهم الله من سمو الأخطار ، وتيل الهمم والأقدار ، وشـدة الأنفة والحمية من المعرة والهرب من العار ، بدأت التفـكر فى المنـازل ، والتقدير للمواطن فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرة ونقصاً ، ومنهم من قال : إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسـام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالهـا من الصلاح إذ الهواء ربما قوى فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطانه ، ومنهم من قال إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف فى الأرض ، ومقطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس لمـا فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة ، وقالوا إن الأبنيـة والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه على المرور ، وقذاه عن السلوك ، فسكـنوا البر الأفيح الذى لا يخافون فيه من حصر ، ولا من منازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، وتهذيب الأحلام فى هذه المواطن ، ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن ، وصحة الأمزجة وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء ، تتولد من حيث تولد الهواء . وطبع الهواء الفضاء ، وفى هذا أمن من العاهات والأسقام والعلل والالام ؛ فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيـداء ، فهم أقوى الناس هما ، وأشدهم أحلاما ، وأصحهم أجساماً ، وأعزهم جاراً ، وأحماهم ذماراً ، وأفضلهم جواراً ، وأجودهم فطناً ، لما أكسبهم إياه صفاء الجو ، ونقاء الفضاء ، لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار ، وعنـاء

الأقذار ، بما يرتفع إليه ، ويتلاطم فى عرصاته ، واقفة من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ، ففى أكنافه جميع ما يتصعد إليه ، وكذلك تراكيب الأقذاء والأدواء والعاهات فى أهل المدن ، وتركبت فى أجسامهم ، وتضاعفت فى أشعارهم وأنثارهم ، ففضلت العرب على سائر ما عداها من بوادى الأمم المعترضة ، لما ذكر من تخيرها الأماكن ، وارتياد المواطن ، قال المسعودى : وكذلك جانبوا فضاضة الأكراد ، وسكان الجبال ، من الأجيال الجافية ، وغيرهم الذين سكنوا خروت الأرض ودهاسها ، وذلك لأن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها فى انخفاضها وارتفاعها لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها ، فلذلك كانت أخلاق قطانها على ماهى عليه من الغلظ :

وقد وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها واختيارها البدو ؟ فقال : أيها الملك ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا من التحصين بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات الباترة ، والرماح السامرة ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له يردون منها خيارها ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرفين على الأرض بحسب ذلك ! قال : فما رياحها ؟ قال : أكثرها النكباء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس ، قال فكم الرياح ؟ قال أربع فإذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء ، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بإزائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهى دَبور ، وما جاء من قبل ذلك فهى صبا ، قال : فما أكثر غذائهم ؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال فما خلائقهم ؟ قال : العز والشرف والمكارم وقرى الضيف واذمار الجار وإجارة الخائف وأداء الحمالات[1] وبذل المهج فى المكرمات ،

---

(١) الحمالة : الدية والغرامة .

وهم سراة الليل ، وليوث القيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وسبقوا الضراعة ، لهم الأخذ بالثار ، والأنفة من العار ، والحماية للذمار ! قال كسرى : لقد وصفت هذا الجيل كرماً ونبلا ، وما أولانا بانجاح ذلك فيهم ! فتخيرت العرب البرارى والمهامه والمصاف ، فمنهم المنجد والمتهم ممن سكن أغوار الأرض كغوربيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجذام ؛ ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وقطع من الأرض يعرجون عليها كالرها والسماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقيعان والوهاد ، ولست ترى قبيلا من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم ، والمياه المشهورة بهم ، كماء ضارج وماء العقيق والسباط وما أشبه ذلك من المياه وقد استوفاها الزمخشرى وأبو لغدة الأصفهانى وغيرهما من الأئمة فى كتبهم المشهورة .

ما امتاز به عرب البوادى عن أهل الحضر

الفرق بين سكنة البوادى وبين سكان البلاد والقرى مما يظهر لكل أحد وذلك فى الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخلاق والقوة والضعف ولهجة اللسان وسماحة اليد والجرأة والشجاعة وغير ذلك مما يطول ذكره حتى إن من وازن بين نبات البادية ونبات البلد وجد بينهما فرقا من وجوه مختلفة ، وكذلك وحشه ودوارجه وطيره وسائر ما يكون فى البر فإنه ممتاز عما يتكون فى البلد فى الخواص والأوصاف ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفريقين .

« منها » أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها لأن البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه ، ولأن الضرورى

أصل والكمالى فرع ناشىء ، فالبدو أصل المدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضرورى ، ولا ينتهى إلا الكمال والترف إلا إذا كان الضرورى حاصلاً فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأطال الكلام فى بيان ذلك .

« ومنها » أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، وذلك لأن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول مايرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، وبقدر ماسبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ، ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير ، وحصلت له ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه ، وكذا صاحب الشر لذا سبقت إليه أيضاً عوائده :

« ومنها » أن أهل البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضر ، وذلك لأن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيعة ، ولاينفر لهم صيد ، فهم غارّون آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم ، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة ، وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لايكلونها إلى سواهم ، ولايثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق ، و يتجافون عن الهجوع إلا غِراراً فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون فى القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ،

والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ ، وأهل الحضر متى خالطوهم فى البادية أو صاحبوهم فى السفر فهم عيال عليهم لا يملكون عليهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان حتى فى معرفة النواحى والجهات وموارد المياه ومشارع السبل .

« ومنها » أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ، ذاهبة بالمنعة منهم ، وأن الحضر لا يمكنه سكنى البدو بل لا يمكن أن يسكنه الا القبائل ، وأن الصريح من النسب إنما يوجد لأهل البادية من العرب لا أهل الحضر منهم ، وأن أهل البادية أقدر على التغلب ممن سواهم ، وأن الأمة إذا كانت بدوية وحشية كان ملكها أوسع ، وأن أهل البادية من العرب لا يتغلبون الا على البسائط ، وأن البدويين إذا تغلبوا على الأوطان أسرع اليها الخراب بخلاف أهل الحضر ، وأن أهل البادية من العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وأن أهل البادية من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، وأن أهل البادية قاصرون عن سكنى المصر الكثير العمران . وقد أطنب فى الكلام على بيان أسباب هذه الفروق مما لا حاجة إلى نقله ، ومن أمعن النظر ، ودقق فى أحوال الفريقين ، ظهرت له فروق أخر ، وسبحان من ميز كل قوم بخصائص لا توجد فى غيرهم ، وصفات لا تتعداهم الى من سواهم (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآياتٍ للعالمين) .

خاتمة الكتاب

هذا آخر ما يسّره ولى التوفيق والانعام ، من بيان ما كان عليه العرب قبل الاسلام ؛ وقد جاء بحمد الله تعالى بهجةً للناظرين ، ونزهةً للقارئين ، بَيْدَ أنَّ ما أوردته فى كل باب ، درّةٌ عقدِ نحر وقطرة من بحر عُباب ، فإنَّ أحوال طبقة واحدة من طبقات أولئك الأخيار ، لا يقوم باستيعابها عدة أسفار ، ولو

سلك القلم سبيل الاختصار ، وعسى الله تعالى أن يقيض لإنجاز هذا المرام ، بعض ذوى الهمم العلية من أئمة الأدب الأعلام ، فقد سهل الطريق ، على من ساعده التوفيق ، فالعرب ممن ينبغى الاعتناء بذكرهم ، ويفحص عن طيب خبرهم فهم أهل المآثر ، وأصل الفضائل والمفاخر ، بمزاياهم تزينت صفحات الطُّرُوس ، وبحميد سجاياهم تبسم وجه الدهر العبوس ؛ وسنفرد إن شاء الله تعالى أحسن كتاب ، يستوعب أحوال من بقى اليوم من أولئك القوم الأنجاب ، وقد انتشروا فى البلاد ، وملأوا الأغوار والأنجاد ، وفيهم مما كان عليه أسلافهم بقايا ، وفيهم من هاتيك المكارم والسجايا ولست أعنى بهم كل من تكلم بلغتهم أو سكن فى خطتهم ، واتسم بسمتهم :

فما كلّ مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يمانى

وأسأل الله تعالى الأجر الجزيل ، والذكر الجميل ، إذا فنى الجسم ، ونسى منى الاسم ، والحمد لله ذى الأنعام ، فى البدء والختام ، وهو الأول بلا عدد ، والآخر بلا أمد ، الحكيم بغير توقيف من أحد ، الذى أحسن لما أدب ، وأجزل لما وهب ، حمداً متصل المدد ، جارياً على الأبد ، وصلى الله على النبىّ الأمىّ ، ذى الأصل الزكىّ ، والقلب الذكىّ ، والكف الندىّ ، والزند الورىّ ، ذى الرسالة الصادعة ، والمقالة الناصعة ، والعترة الصالحة ، والأسرة الناصحة ، صلاة جامعة بينه وبين أهله الطاهرين الأبرار ، الطيبين الأخيار .

وكان الفراغ من تسويده غرة جماد الآخرة من السنة الرابعة بعد الثلثمائة والألف من الهجرة ١٣٠٤ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ؟

أنظر الفهارس

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول ـــ فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى ـــ فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث ـــ فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

الفهرس الأول

فى موضوعات الكتاب

أنظر الفهرس الثانى

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ا)

(ح)

(خ)

(غ)

(ف)

انظر الفهرس الثالث

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

ملحق

يشتمل على الشروح والفوائد — بقلم الشارح

الجزء الأول

صفحة سطر

١١ — ١٣ (الأندلس) فى ضبط هـذه الـكلمة اختلاف ، ولعل ضبطنا الذى اعتمدنا به على التاج أصح من غيره .

٣٩ — ١٢ (دردى وزير المعارف الخ) كذا فى الأصل ، والصواب : دوروىْ Victor Durwy كما جاء فى محاضرة (الجامعة السورية) لصديقنا الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقى .

١٣٧—٥ (إذ سامه الخ) سامه الأمر : كلفه إياه وأكثر ما يستعمل فى الشر والعـذاب . والخطة بالضم : الأمر والطريقة . والخسف : الذل والقهر وتحميل الانسان ما يـكره . وجار صوابه : حار ، أى يا حارث فهو منادى مرخم بحذف آخره .

١٧٤—١٤ (لفضلنا النساء . . .) المشهور : لفضلت النساء . . .

» —١٦ (سيما) كذا بسقوط أداة النفى (لا) . وقـد نصوا على وجوبها واستشهدوا بقول امرىء القيس « ولا سيما يوم بدارة جلجل » وقال أئمة اللغة : إن من أهملها فقد أخطأ . انظر مادة (س و ى) فى تاج العروس . وخاتمة الأشمونى فى باب الاستثناء .

٢١٨ — ٩ (الجد) هو الـكاتب البليغ ، والأديب الضليع ، واللغوى المفسر الشهير السـيد محمود شهاب الدين بن السيد عبـد الله الألوسى : صاحب تفسير (روح المعانى) وغيره من المؤلفات الجليلة .

صفحة سطر

وترجمته مفصلة فى كتابينا (ذكرى الامام الألوسى) و (مشاهير العراق فى القرن الثالث عشر والرابع عشر) .

٢٤٣ — ١٤ (أباجارتا . . .) انظر الجزء الثانى ص ٤٩

٢٤٤ — ٩ (اليوم يبدو . . .) انظر الجزء الثانى ص ٢٩١

٢٤٦ — ٦ (الناسة) وردت فى معجم البلدان (٨ : ١٤٠ — مصر) : « النسناسة » خطأ . فلينتبه !

٢٤٨ — ٥ (أشرق ثبير) توجيه معناه فى (ثبير) من معجم البلدان .

٢٦٨ — ٣ (حولى أسيد . . .) هكذا هى الرواية المشهورة . ورواية ابن برى :

حولى فوارس من أسيّد شجعة   وإذا نزلت فحول بيتى خَضَّمُ

وقد فسرنا (خضماً) بالجمع الكثير من الناس كما هو المشهور . وقيل : بل خضم هنا لقب للعنبر بن عمرو بن تميم وغلب على القبيلة وانما سموا بذلك لكثرة أكلهم ومضغهم بالأضراس ، وأسيّد : قبيلة من قبائل عمرو بن تميم .

٢٧٦ — ١٤ (تيم بن مرة . . .) البيتين . هكذا هما فى الأصل . ووردا فى كتاب الأحكام السلطانية (ص ٦٦) لأبى الحسن الماوردى كذلك وعلق المصحح عليهما هذه العبارة : « هكذا فى الأصل ولم نقف على تصحيح ذلك فليحرر » .

٢٨١ — ٢ (لعمرى . . . الابيات) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . والندَى : الجود . والجدا : العطية .

٣٨١ — ٦ (روى بن الكلبى) انظر صبح الاعشى (١ : ٣٧٨) .

٢٨٣ — ٨ (واناليوث . البيت) قوله (والكلا) هكذا ورد فى (نهاية

صفحة سطر

الأرب للقلقشندى ، وغيرها ، والصواب « انطلى » وهى الأعناق أو أصولها .

٣٣٩ — ٥ (جمعة) وردت هذه الكلمة فى الطبعة الأولى (خمعة) بالخاء المعجمة ولما رجعنا إلى الأصول المعتمدة : كالقاموس ، وتاج العروس ، واللسان ، والبيان والتبيين ، والأغانى ، و (تذييل فى نساء العرب) للمستشرق پرون Perron وغيرها — وجدناها كلها تقول جمعة بالجيم فأذعنا لها وحملنا ما فى الكتاب على الخطأ المطبعى ثم بعد طبع الكتاب اطلعنا فى مجلة لغة العرب البغدادية على تحقيق هذه الكلمة للاستاذ رحمه الله فإذا به يثبت أنها (خمعة) كما أوردها فى بلوغ الأرب . وهذا نص عبارته (اليوم وجدت فرصة لنقل ماذكرت لكم فذهبت إلى خزانة كتب مدرسة السليمانية وراجعت شرح حديث أم زرع للقاضى عياض ، وذكر فى هذا الشرح على سبيل الاستطراد نبذة يسيرة من كلام من اشتهرن بالفصاحة من نساء الجاهلية فقال : ومنهن خُمعة بضم الخاء وفتح الميم والعين المهملة كما ضبطه صاحب العباب والمحكم وابن الشجرى فى كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه . يقال خمع فى مشيته أى ظلع وبه خماع أى ظلع والخامعة الضبع — إلى أن قال : واختلف فى نسبها والمشهور أنها ابنة الخس ، أخت هند ، وقيل غير ذلك) انتهى

٣٥٥ — ١ (أزدشير) هكذا بالزاى وهو خطأ مشهور ، والصواب (أردشير) و٩٣٦٣ر١١ر١٤ بالراء .

٣٥٩ — ٦ (كنيسة القيامة) كنيسة للنصارى بالبيت المقدس . قال ياقوت وغيره واللفظ له : وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة وهى وسط البلد والسور يحيط بها ولهم فيها مقبرة يسمونها

صفحة سطر

القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها . والصحيح أن اسمها (قمامة) لأنها كانت مزبلة أهل البلد . وكان فى ظاهر المدينـــة يقطع بها أيدى المفسدين ويصلب بها اللصوص فلما صلب المسيح فى هذا الموضع عظموه كما ترى . . . الخ .

٣٥٩ — ١٩ (الأحد الجديد) : وورد فى صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤١٨) : (حد الحدود) . ولعل الأول أصح ، وذلك لأنهم — كما قالوا — يجددون فيه الآلات وأثاث البيوت واللباس . . .

٣٦١ — ١٩ (عيد المظال) ويقال عيد المظلة . وقد ذكر الأستاذ المصنف أنه ثمانية أيام . وفى صبح الأعشى (٢ : ٤٢٦) هو سبعة أيام .

٣٦٣ — ٦ (عيد الفور) ورد فى الصبح (٢ : ٤٢٧) : عيد الفوز بالزاى !

٣٨٧ — ١٣ (وقد نقدت الخنساء . . . الخ) تقدم لنا فى ص ٢٥ نقد هذه الرواية فأغنى عن إعادته .

الجزء الثانى

صفحة سطر

١٣ — ١٥ (ولن تصادف . . البيت) ضبطنا كلمة (المنتجع) فيه بالفتح وهى المنزل فى طلب الـكلأ . ولعل الأولى (منتجع) بكسر الجيم اسم فاعل . يقال : انتجع فلان أى طلب الـكلأ فى موضعه ،

٥٣ — ١٤ (الأعياص) هم أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر بن عبد مناف وهم : العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وهم أخوة حرب وأبى حرب وسفيان وأبى سفيان ويقال لهؤلاء (العنابس) قال أبو النجم العجلى :

صفحة سطر

لكن أخلائى بنو الأعياص هم النواصى و بنو النواصى
منهم سعيد وأبوه العاصى ؟

وقال الليث : أعياص قريش كرامهم ينتمون إلى عيص وعيص فى آبائهم .

١٢٢ — ١١ (ولأنت أشجع من أسامة الخ) نسبة هذا البيت إلى الأعشى لا تصح وإنما هو للمسيب بن علس وبعضهم يرويه هكذا :
ولأنت أشجع من أسامة إذ دُعِيتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذعر
ويعزوه لزهير ابن أبى سلمى وهو وهم قديم لصاحب الصحاح وغيره والصواب الذى عليه المحققون أنه مركب من بيتين أحدهما لزهير والثانى للمسيب بن علس . قال الشيخ عبد القادر البغدادى : (هو مركب من بيتين فإن البيت الذى فيه دعيت نزال وهو لزهير صدره كذا) :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا دعيت نزال ولج فى الذعر

وقوله « ولأنت أشجع من أسامة إذ » إنما هو صدر بيت للمسيب ابن علس ، وعجزه « يقع الصراخ ولج فى الذعر » وهذا ليس فيه دعيت نزال . والبيت الشاهد كما ذكرناه هو رواية سيبويه وسائر النحويين . و بين المسيب بن علس على ما رتبناه هو رواية الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وقد رأيت البيتين فى ديوانيهما كذلك انتهى . وفى تصحيح لسان العرب للعلامة أحمد تيمور باشا زيادة تفصيل لذلك . . .

١٤٦ — ١٠ « لا تقبرونى . . البيت » قبره ، دفنه وواراه فى التراب . وأقبره . جعل له قبراً . قال الفراء : وقوله تعالى « ثم أماته فأقبره » أى

صفحة سطر

جعله مقبوراً ممن يقبر ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع كأن القبر مما أكرم به بنو آدم ، ولم يقل فقبره لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله لأنه صيره ذا قبر وليس فعله كفعل الآدمى .
ويقال : أقبر القوم أى أعطاهم قتيلهم ليقبروه .

١٥٧ — ١٤ (من مبلغ الحيين الخ) أنظر الجزء الأول ص ٣٢ .

٢١٢ - ٢ (القليس) انظر الشرح فى ص ٢٥١ من الجزء الأول .

٢٣٦ — ٩ (يا أقرع بن حابس . البيت) مر فى الجزء الأول ص ٣٠١ وغيرها ولم نتعرض له بشىء ، وقد كتبنا فى هذا المقام ما فيه الكفاية .

٣٠١ — ٥ (سنة أزمة . الأبيات) هذه الأبيات — الا الأخير منها — مدمجة مداخلة ، وقد أساء المنضد ترتيبها على الوجه الصحيح . فلينتبه !

٣١٩ — ٢١ (بخسته لا ينفع التبخيس) لعل الأولى : نجسته لو ينفع التنجيس .